

نفس القرآن العظيم

للإمام الجليل الحافظ عماد الدين
أبي الفداء إسماعيل بن كثير الفرشي لدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

الجزء الأول

[قوبلت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية بدار الكتب المصرية]
وصححها نخبة من العلماء

طبع بدار إحياء الكتب العربية
مكتبة البابي الحلبي وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(قال الشيخ الإمام الأوحى ، البارع الحافظ المتق ، عماد الدين أبو الفداء : إسماعيل بن الخطيب أبى حفص عمر بن كثير ، الشافعى ، رحمه الله تعالى ورضى عنه)

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد فقال ﴿ الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين ﴾ وقال تعالى : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قبحاً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ما كثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذنا الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً) وافتتح خلقه بالحمد فقال تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) واختتمه بالحمد فقال بعد ما ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) ولهذا قال تعالى (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) كما قال تعالى (الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير) فله الحمد فى الأولى والآخرة أى فى جميع ما خلق وما هو خالق ، هو المحمود فى ذلك كله كما يقول المصلى « اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شئ بعد » ولهذا يلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس أى يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم ، لما يرون من عظيم نعمه عليهم ، وكما قدرته وعظيم سلطانه وتعالى عنه ودوام إحسانه اليهم كما قال تعالى (إن الدين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم * دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)

والحمد لله الذى أرسل رسله (مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وختتمهم بالنبي الأمى العربى المكى المصطفى لأوضح السبل ، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة كما قال تعالى (قل يأيتها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) وقال تعالى (لأنذركم به ومن بلغ) فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم وأسود وأحمر وإنس وجان فهو نذير له ، ولهذا قال تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده بنص الله تعالى كما قال تعالى (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بعثت إلى الأحمر والأسود » قال مجاهد يعنى الإنس والجن . فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن مبلغهم عن الله تعالى ما أوحاه إليهم من هذا الكتاب العزيز الذى (لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نذيرهم إلى فهمه فقال تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وقال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) وقال تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

(فالواجب) على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مطلابه وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى (وإذا أخذ الله ميثاق الدين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون) وقال تعالى (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم) فندم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعها واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله فعلمنا أيها المسلمون أن ننهي عما ذمهم الله تعالى به ، وأن نأثم بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه ، وتفهمه وتفهميه ، قال الله تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون) اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد ينسأ لكم الآيات لعلكم تعقلون) ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يبين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي ، والله المؤمل المشغول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم .

فإن قال قائل فما أحسن طرق التفسير ؟ (فالجواب) أن أصح الطريق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن لما أجل في مكان فانه قد بسط في موضع آخر فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فانها شارحة للقرآن وموضحة له ، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن . قال الله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولانكنا للاحثين خصما) وقال تعالى (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إنني أوتيت القرآن ومشله معه » يعني السنة . والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن إلا أنها لا تنزل كما تنزل القرآن وقد استدلل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك . والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمصادحين بعثه إلى اليمن « فبم تحكم ؟ قال بكتاب الله . قال فإن لم تجد ؟ قال بسنة رسول الله ، قال فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي . فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله » وهذا الحديث في المسند والسنة بإسناد جيد كما هو مقرر في موضعه . وحينئذ إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختلفوا بها ، ولما لهم من الفهم النام والعلم الصحيح والعمل الصالح لاسيما علماءهم وكبراءهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم . قال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا جابر بن نوح حدثنا الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال قال عبد الله يعني ابن مسعود : والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت . وأين نزلت . ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تسأله المطايا لأتيته وقال الأعمش أيضا عن أبي وائل عن ابن مسعود قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن وقال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يغفوها حتى يعملوا بها فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعا .

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجمان القرآن بركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له حيث قال « اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل » وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار وحدثنا وكيع حدثنا سفيان عن الأعمش عن مسلم — كذا قال — قال عبد الله يعني ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس . ثم رواه عن يحيى بن داود عن إسحق الأزرق عن سفيان عن الأعمش عن مسلم بن صبيح عن أبي الضحى عن مسروق عن

ابن مسعود أنه قال : نعم الترجمان للقرآن ابن عباس . ثم رواه عن بNDAR عن جعفر بن عون عن الأعمش به كذلك . فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة . وقد مات ابن مسعود رضي الله عنه في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح وعمر بعده عبد الله بن عباس ستا وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود وقال الأعمش عن أبي وائل استخلف عليّ عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة وفي رواية سورة النور ففسرها تفسيرا لومعته الروم والترك والديلم لأسلموا .

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو ولهذا كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قد أصاب يوم اليرموك زامليتين من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك .

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد فانها على ثلاثة أقسام (أحدها) ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح (والثاني) ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه (والثالث) ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا تؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني . ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرا . ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف . ولون كلهم ، وعددهم . وعصا موسى من أى الشجر كانت . وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولادينا هم . ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل * فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا) فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا ، فانه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث ، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردّها ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته فقال في مثل هذا (قل ربي أعلم بعدتهم) فانه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس ممن أطلع الله عليه فلهذا قال (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ولا تسألهم عن ذلك فانهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب . فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف : أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فتشتغل به عن الأهم فالأهم . فأما من حكى خلافا فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه ، أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً ، فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمّد الكذب ، أو جاهلا فقد أخطأ ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالا متعددة لفظا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى فقد ضيع الزمان وتكثر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوب زور ، والله الموفق للصواب

(فصل) إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ولا وجدتة عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فانه كان آية فى التفسير كما قال محمد بن إسحق ثنائيا بن صالح عن مجاهد قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها . وقال ابن جرير : أنبأنا أبو كريب أنبأنا طلق بن غنم عن عثمان المكي عن ابن أبي مليكة : قال رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواح قال : فيقول له ابن عباس اكتب حتى سأله عن التفسير كله ولهذا كان سفيان الثوري يقول : إذا

جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، وكسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري ومسروق بن الأجدع وسعيد بن المسيب وأبي العالية والريبع بن أنس وقنادة والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عبارتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً ، وليس كذلك فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه ، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن فليفتن اللبيب لذلك والله الهادي . وقال شعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير ؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم وهذا صحيح . أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بعض ولا على من بعدهم ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك . فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام لما رواه محمد بن جرير رحمه الله تعالى حيث قال : ثنا محمد بن بشار ثنا يحيى بن سعيد ثنا سفيان حدثني عبد الأعلى هو ابن عامر الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار » وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي من طرق عن سفيان الثوري به ورواه أبو داود عن مسدد عن أبي عوانة عن عبد الأعلى به مرفوعاً وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وهكذا رواه ابن جرير أيضاً عن يحيى بن طلحة اليربوعي عن شريك عن عبد الأعلى به مرفوعاً ولكن زواه عن محمد بن حميد عن الحكم بن بشير عن عمرو بن قيس اللاتني عن عبد الأعلى عن سعيد عن ابن عباس فوقفه ، وعن محمد بن حميد عن جرير عن ليث عن بكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس من قوله فأنه أعلم ، وقال ابن جرير : أنبأنا العباس بن عبد العظيم العبدي ثنا حيان بن هلال ثنا سهل أخو حزم ثنا أبو عمران الجوني عن جندب أن رسول الله ﷺ قال « من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ » وقدرى هذا الحديث أبو داود والترمذي والنسائي من حديث سهل بن أبي حزم القطيعي وقال الترمذي : غريب وقد تكلم بعض أهل العلم في سهل . وفي لفظ لهم « من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ » أي لأنه قد تكلف مالا علم له به وسلك غير ما أمر به فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ لأنه لم يأت الأمر من بابه كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ والله أعلم وهكذا سمي الله القذفة كاذبين فقال (فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) فالقاذف كاذب ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ولو كان أخبر بما يعلم أنه تكلف مالا علم له به والله أعلم ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير مالا علم لهم به كما روى شعبة عن سليمان عن عبد الله بن مرة عن أبي معمر قال قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : أي أرض تظلني ، وأي سماء تظلني ، إذا قلت في كتاب الله مالا أعلم وقال أبو عبيد القاسم بن سلام ثنا محمد بن يزيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى (وفاكهة وأبا) فقال أي سماء تظلني وأي أرض تظلني إذا أنا قلت في كتاب الله مالا أعلم . منقطع . وقال أبو عبيد أيضاً ثنا يزيد عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأبا) فقال هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال إن هذا هو التكلف يا عمر وقال محمد بن سعد ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ (وفاكهة وأبا) فقال فما الأب ثم قال هو التكلف فما عليك أن لاتدريه ؟ وهذا كله محمول على أنهما رضى الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب وإلا فكونه نباتاً من الأرض ظاهر لا يحل كقولته تعالى (فأنبثنا فيها حبا وعنثا) الآية وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن أيوب عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضهم لقال فيها فأني أن يقول فيها ، إسناده صحيح : وقال أبو عبيد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة قال : سألت رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة ؟ فقال له ابن عباس : فما (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ؟ فقال له الرجل إنما سألتك لتحدثني فقال

ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما ، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم . وقال ابن جرير أيضا :
حدثني يعقوب يعني ابن إبراهيم حدثنا ابن علي عن مهدي بن ميمون عن الوليد بن مسلم قال : جاء طلق بن حبيب إلى
جندب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن ؟ فقال : أخرج عليك إن كنت مسلما لما قت عني - أوقال : أن تجالسني
وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : إنا لا نقول في القرآن شيئا .
وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلا في العلوم من القرآن وقال شعبة عن عمرو بن مرة
قال سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال : لا تسألني عن القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه
شيء يعني عكرمة . وقال ابن شاذب حدثني يزيد بن أبي يزيد قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال
وكان أعلم الناس فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع . وقال ابن جرير : حدثني أحمد بن عبد الله الضبي
حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيد الله بن عمر قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير منهم سالم بن
عبد الله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع . وقال أبو عبيد حدثنا عبد الله بن صالح عن ليث عن هشام بن عروة قال
ما سمعت أبا يقول آية من كتاب الله قط . وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين سألت عبيدة
يعني السلماني عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن . فأتق الله وعليك بالسداد وقال
أبو عبيد : حدثنا معاذ عن ابن عون عن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال : إذا حدثت عن الله حديثا فقف حتى
تظفر ماقبله وما بعده . حدثنا هشيم عن مغيرة عن إبراهيم قال : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه . وقال شعبة عن
عبد الله بن أبي السفر قال قال الشعبي والله ما من آية إلا وقد سألت عنها ولكنها الرواية عن الله عز وجل . وقال
أبو عبيد حدثنا هشيم حدثنا عمرو بن أبي زائدة عن الشعبي عن مسروق قال اتقوا التفسير فانما هو الرواية عن الله
فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه . فأما
من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه ، ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة
لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد ، فانه كما يجب السكوت عما لا علم له به
فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) ولما جاء في الحديث الذي روى
من طرق « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير حدثنا
عباس بن عبد العظيم حدثنا محمد بن خالد بن عثمة حدثنا أبو جعفر بن محمد الزبيري حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن
عائشة قالت : ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفسر شيئا من القرآن إلا آيا بعدد علمه من إياه جبريل عليه السلام ، ثم
رواه عن أبي بكر محمد بن يزيد الطرسوسي عن معن بن عيسى عن جعفر بن خالد عن هشام به - فإنه حديث منكر
غريب وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيري قال البخاري : لا يتابع في حديثه وقال
الحافظ أبو الفتح الأزدي : منكر الحديث ، وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا
بالتوقيف عن الله تعالى مما وقفه عليها جبرائيل ، وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث فإن من القرآن ما استأثر الله
تعالى بعلمه ، ومنه ما يعلمه العلماء ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ، ومنه ما لا يعلم أحد في جهاته كما صرح بذلك ابن
عباس فيما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا مؤمل حدثنا سفيان عن أبي الزناد قال : قال ابن عباس التفسير على
أربعة أوجه . وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالة ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلم أحد
إلا الله . قال ابن جرير : وقد روى نحوه في حديث في إسناده نظر ، حدثني يونس بن عبد الأعلى الصدفي أنبأنا ابن
وهب سمعت عمرو بن الحرث يحدث عن الكلبي عن أبي صالح مولى أم هانئ عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال « أنزل القرآن على أربعة أحرف حلال وحرام - لا يعذر أحد بالجهالة به ، وتفسير تفسره العرب وتفسير تفسره
العلماء ، ومتشابه لا يعلم إلا الله عز وجل ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب » والنظر الذي أشار إليه في إسناده هو من جهة
محمد بن السائب الكلبي فإنه متروك الحديث لكن قديكون إنما وهم في رفعه ، ولعله من كلام ابن عباس كما تقدم والله أعلم

(مقدمة مفيدة تذكر في أول التفسير قبل الفاتحة)

قال أبو بكر بن الانباري حدثنا إسماعيل بن إسحق القاضي حدثنا حجاج بن منهال حدثنا همام عن قتادة قال نزل في المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والمنتحنة والصف والجمعة والنافقون والتغابن والطلاق (يأياها النبي لم تحرم) إلى رأس العشر وإذا زلزلتو (إذا جاء نصر الله) هؤلاء السور نزلت بالمدينة وسائر السور بمكة

فأما عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال : فمنهم من لم يزد على ذلك ومنهم من قال ومائتي آية وأربع آيات ، وقيل وأربع عشرة آية . وقيل ومائتان وتسع عشرة آية وقيل ومائتان وخمس وعشرون آية ، أو ست وعشرون آية ، وقيل ومائتان وست وثلاثون ، حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه البيان . وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان عن عطاء بن يسار سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة . وأما حروفه فقال عبد الله بن كثير عن مجاهد هذا ما أحصيناه من القرآن وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا ، وقال الفضل بن عطاء بن يسار ثلثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا . وقال سلام أبو محمد الحمانى . إن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال : أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو ؟ قال : فحسبنا فأجمعوا أنه ثلثمائة ألف وأربعون ألفا وسبعائة وأربعون حرفا قال : فأخبروني عن نصفه فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف (وليلطف) وثلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء ، والثالث إلى آخره ، وسبعة الأول إلى الدال من قوله تعالى (فمنهم من آمن ومنهم من صد) والسبع الثاني إلى التاء من قوله تعالى في سورة الأعراف (أولئك حبطت) والثالث إلى الألف الثانية من قوله تعالى في الرعد (أكلها) والرابع إلى الألف في الحج من قوله (جعلنا منسكا) والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) والسادس إلى الواو من قوله تعالى في الفتح (الظانين بالله ظن السوء) والسابع إلى آخر القرآن . قال سلام أبو محمد علمنا ذلك في أربعة أشهر ، قالوا وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربع القرآن ، فالأول إلى آخر الأنعام والثاني إلى (وليلطف) من سورة الكهف ، والثالث إلى آخر الزمر ، والرابع إلى آخر القرآن وقد حكى الشيخ أبو عمرو الداني في كتابه (البيان) خلافا في هذا كله فآله أعلم

وأما (التحزيب والتجزئة) فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات بالمدارس وغيرها وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن والحديث في مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه وغيرهم عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا ثلث وخمس وسبع وتسع وأحد عشرة وثلاث عشرة (١) وحزب المفصل حتى تنضم

(فصل) واختلف في معنى السورة مما هي مشتقة ف قيل من الإبانة والارتفاع قال النابغة

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتدبذب

فكان القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة . وقيل لشرفها وارتفاعها كسور البلدان وقيل سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءا منه مأخوذ من أسار الإناء وهو البقية . وعلى هذا فيكون أصلها مهمورا . وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واوا لانضمام ما قبلها وقبل لتمامها وكما لها لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة (قلت) ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما يسمى سور البلد لإحاطته بمارله ودوره . وجمع السورة سور بفتح الواو وقد يجمع على سورات وسورات . وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصالها أي هي بائنة عن أختها ومنفردة قال الله تعالى (إن آية ملكه) وقال النابغة

توهمت آيات لها فعرفتها لسه أعوام ودالعام سابع

وقيل لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه كما يقال خرج الفرم بآياتهم أي محاماتهم قال الشاعر :

(١) كذا والقاعدة في المذكر أحد عشر وثلاثة عشر وفي المؤنث إحدى عشرة وثلاث عشر .

خرجنا من النقيين لآحي مثلنا بآيتنا نزجي اللقاح المطافلا
وقيل سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها قال سيويوه وأصلها آية مثل أكمة وشجرة تحركت الياء وانفتح
ما قبلها فقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعدها مدة وقال الكسائي أصلها آية على وزن آمنة فقلبت ألفا ثم حذفت لالتباسها وقال
القراء أصلها آية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهية التشديد فصارت آية وجمعها آى وآيات وآيى. وأما الكلمة فهي
اللفظة الواحدة وقد تكون على حرفين مثل ما ولا ونحو ذلك. وقد تكون أكثر، وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل
(ليستخلفنهم) و(أنزكموها) (فأسقيناكموه). وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل والفجر والضحى والعصر وكذلك
الم وطه ويس وحم في قول الكوفيين وحم عسق عندهم كلمتان وغيرهم لا يسمى هذه آيات بل يقول هذه فواتح السور
وقال أبو عمرو الداني لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله تعالى (مدهامتان) بسورة الرحمن
(فصل) قال القرطبي أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أن فيه أعلاما من
الأعجمية كإبراهيم ونوح ولوط واختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالا
ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافق في اللغات

سورة الفاتحة

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

يقال لها الفاتحة أى فاتحة الكتاب خطا وبها تفتح القراءة في الصلوات ، ويقال لها أيضا أم الكتاب عند الجمهور ذكره
أنس ، والحسن وابن سيرين كرها تسميتها بذلك قال الحسن وابن سيرين إنما ذلك اللوح المحفوظ وقال الحسن الآيات
المحكيات هن أم الكتاب ولذا كرها أيضا أن يقال لها أم القرآن وقد ثبت في الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم »
ويقال لها (الحمد) ويقال لها (الصلاة) لقوله صلى الله عليه وسلم عن ربه « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين
فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي » الحديث . فسميت الفاتحة صلاة لأنها شرط فيها ويقال لها
(الشفاء) لما رواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعا « فاتحة الكتاب شفاء من كل سم » ويقال لها (الرقية) لحديث أبي سعيد
في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما يدريك أنها رقية ؟ » وروى الشعبي
عن ابن عباس أنه سماها (أساس القرآن) قال وأساسها بسم الله الرحمن الرحيم وسماها سفيان بن عيينة (بالواقية) وسماها
يحيى بن أبي كثير (الكافية) لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها كما جاء في بعض الأحاديث المرسلة « أم القرآن
عوض من غيرها وليس من غيرها عوض منها » ويقال لها سورة الصلاة والكنز ذكرها الزمخشري في كشافه
وهي مكية قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية ، وقيل مدنية قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري ويقال
نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة . والأول أشبه لقوله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) والله تعالى أعلم
وحكى أبو الليث السمرقندي أن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة وهو غريب جدا نقله القرطبي عنه وهي
سبع آيات بلا خلاف وقال عمرو بن عبيد ثمان وقال حسين الجعفي ستة وهذان القولان شاذان وإنما اختلفوا في
البسمة هل هي آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول جماعة من الصحابة والتابعين وخلق من
الخلف أو بعض آية أو لاتعد من أولها بالكلية كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء على ثلاثة أقوال كما
سيأتي تقريرها في موضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

قالوا وكلماتها خمس وعشرون كلمة وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفا قال البخاري في أول كتاب التفسير وسميت
أم الكتب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف ويبدأ بقراءتها في الصلاة وقيل إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله

إلى ما تضمنته . قال ابن جرير . والعرب تسمى كل جامع أمراً أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع - أما ، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ أم الرأس ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أما واستشهد بقول ذي الرمة على رأسه أم لنا تقتدى بها * جماع أمور ليس نعصى لها أمراً

- يعني الرمح - قال وسميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها وقيل لأن الأرض دحيت منها . ويقال لها أيضاً الفاتحة لأنها تفتح بها القراءة وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الامام وصح تسميتها بالسبع المثاني قالوا لأنها تنفي في الصلاة فتقرأ في كل ركعة وإن كان للمثنى معنى آخر غير هذا كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

قال الامام أحمد : حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا ابن أبي ذئب وهاشم بن هاشم عن ابن أبي ذئب عن القبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في أم القرآن « هي أم القرآن وهي السبع المثاني وهي القرآن العظيم » ثم رواه عن إسماعيل بن عمر عن ابن أبي ذئب به وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : حدثني يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد القبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « هي أم القرآن وهي فاتحة الكتاب وهي السبع المثاني » وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه في تفسيره حدثنا أحمد بن محمد بن زياد ، حدثنا محمد بن غالب بن حارث ، حدثنا إسحاق بن عبد الواحد الموصلي ، حدثنا المعافى ابن عمران عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن أبي بلال عن القبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الحمد لله رب العالمين سبع آيات : بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم ، وهي أم الكتاب ، وفاتحة الكتاب » وقد رواه الدارقطني أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه أو مثله وقال كلهم ثقات وروى البيهقي عن علي وابن عباس وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى (سبعا من المثاني) بالفاتحة وأن البسمللة هي الآية السابعة منها وسيأتي تمام هذا عند البسمللة . وقد روى الأعمش عن إبراهيم قال : قيل لابن مسعود : لم لم تكتب الفاتحة في مصحفك ؟ فقال : لو كتبتها لكتبها في أول كل سورة ، قال أبو بكر بن أبي داود يعني حيث يقرأ في الصلاة ، قال : واكتفيت بحفظ المسلمين لها عن كتابتها وقد قيل : إن الفاتحة أول شيء أنزل من القرآن كما ورد في حديث رواه البيهقي في دلائل النبوة ونقله الباقلاني أحد أقوال ثلاثة وقيل (يا أيها المدثر) كما في حديث جابر في الصحيح وقيل (اقرأ باسم ربك الذي خلق) وهذا هو الصحيح كما سيأتي تقريره في موضعه والله المستعان

﴿ ذكر ماورد في فضل الفاتحة ﴾

قال الامام أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة حدثني خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن الملقى رضي الله عنه قال : كنت أصلي فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه حتى صليت قال : فأثبته فقال « ما منعك أن تأتيني ؟ » قال قلت : يا رسول الله إني كنت أصلي قال : ألم يقل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحكيكم) ثم قال « لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد » قال : فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قال « نعم » (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » وهكذا رواه البخاري عن مسدد وعلي بن المديني كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان به ، ورواه في موضع آخر من التفسير ، وأبو داود والنسائي وابن ماجه من طرق عن شعبة به ، ورواه الواقدي عن محمد بن معاذ الأنصاري عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن الملقى عن أبي بن كعب فذكر نحوه . وقد وقع في الموطأ للامام مالك بن أنس رحمه الله ما ينبغي التنبيه عليه فانه رواه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحرق أن أبا سعيد مولى ابن عامر بن كريز أخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أبي بن كعب وهو يصلي في المسجد فلما فرغ من صلاته لحقه قال فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على يدي وهو يريد أن يخرج من باب المسجد ثم قال صلى الله عليه وسلم

« إني لأرجو أن لا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها » قال أبي رضي الله عنه فجعلت أبطي في المشي رجاء ذلك ثم قلت يا رسول الله ما السورة التي وعدتني ؟ قال « كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة ؟ قال فقرأت عليه (الحمد لله رب العالمين) حتى أتيت على آخرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هي هذه السورة وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت » فأبوسعيد هذا ليس بأبي سعيد بن الملقى كما اعتقده ابن الأثير في جامع الأصول ومن تبعه فإن ابن الملقى صحابي أنصاري وهذا تابعي من موالى خزاعة وذلك الحديث متصل صحيح وهذا ظاهره أنه منقطع إن لم يكن سمعه أبوسعيد هذا من أبي بن كعب فإن كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم والله أعلم . على أنه قد روى عن أبي بن كعب من غير وجه كما قال الامام أحمد . حدثنا عفان حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم حدثنا العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي بن كعب وهو يصلي فقال يا أبي فالتفت ثم لم يجبه ثم قال أبي فخفف أبي ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليك أي رسول الله فقال وعليك السلام مامعك أي أبي إذ دعوتك أن تجيبني فقال أي رسول الله إني كنت في الصلاة قال أولست تجد فيما أوحى الله تعالى إليّ (استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحكيكم) قال بلى يا رسول الله لا أعود قال أتعب أن أعلمك سورة لم تنزل لافي التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ؟ قلت نعم أي رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأرجو أن لا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها قال فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدي يحدثني وأنا اتبطلاً مخافة أن يبلغ قبل أن يقضى الحديث فلما دنونا من الباب قلت أي رسول الله ما السورة التي وعدتني ؟ قال ما قرأت في الصلاة ؟ قال فقرأت عليه أم القرآن قال والهي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها إنها السبع المثاني ورواه الترمذي عن قتيبة عن الداروردي عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه فذكره وعنده إنها من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته ثم قال هذا حديث حسن صحيح وفي الباب عن أنس بن مالك ورواه عبد الله ابن الامام أحمد عن اسماعيل ابن أبي معمر عن أبي أسامة عن عبد الحميد بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب فذكره مطولاً بنحوه وأقر بيانه وقد رواه الترمذي والنسائي جميعاً عن أبي عمار حسين بن حريث عن الفضل بن موسى عن عبد الحميد ابن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهي مقسومة بيني وبين عبدني نصفين هذا لفظ النسائي وقال الترمذي حديث حسن غريب وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا هاشم يعني ابن البريد حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أهرق الماء فقلت السلام عليك يا رسول الله فلم يرد علي قال : فقلت السلام عليك يا رسول الله فلم يرد علي قال فأنطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وأنا خلفه حتى دخل رحله ودخلت أنا المسجد فجلست كثيراً حزينا فخرج علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطهر فقال عليك السلام ورحمة الله وبركاته وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وعليك السلام ورحمة الله ثم قال « ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بأخير سورة في القرآن ؟ قلت بلى يا رسول الله قال اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختتمها » هذا إسناد جيد وابن عقيل هذا يحتج به الأئمة الكبار وعبد الله بن جابر هذا الصحابي ذكر ابن الجوزي أنه هو العبدى والله أعلم ويقال إنه عبد الله بن جابر الأنصاري البياضي فيما ذكره الحافظ ابن عساكر واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض كما هو المحكى عن كثير من العلماء منهم إسحق بن راهويه وأبو بكر بن العربي وابن الحفار من المالكية وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك لأن الجميع كلام الله ولثلاث يومه التفضيل نقص المفضل عليه وإن كان الجميع فاضلاً نقله القرطبي عن الأشعري وأبي بكر الباقلاني وأبي حاتم ابن حبان البستي وأبي حيان ويحيى بن يحيى ورواية عن الامام مالك أيضاً حديث آخر قال البخاري في فضائل القرآن حدثنا محمد بن المثنى حدثنا وهب حدثنا هشام عن محمد بن معبد عن أبي سعيد الخدري قال كنا في مسير لنا فنزلنا

فجاءت جارية فقالت إن سيد الحى سليم وإن نفرنا غيب فهل منكم راق ؟ فقام معها رجل ما كنا نأمنه برقية فرفاه فبرأ فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبنا فلما رجع قلنا له أكنت تحسن رقية أو كنت ترقى ؟ قال لا مارقت إلا بأمر الكتاب قلنا لا نتحدثوا شيئا حتى نأتى ونسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « وما كان يدريه انهارقية أقسموا واضربوا لى بسهم » وقال أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا هشام حدثنا محمد بن سيرين حدثنى معبد بن سيرين عن أبي سعيد الخدرى بهذا وهكذا رواه مسلم وأبو داود من رواية هشام وهو ابن حسان عن ابن سيرين به وفى بعض روايات مسلم لهذا الحديث أن أبا سعيد الخدرى هو الذى رقى ذلك السليم يعنى اللديغ يسمونه بذلك تفأؤلا حديث آخر : روى مسلم فى صحيحه والنسائى فى سننه من حديث أبي الأحوص سلام بن سليم عن عمار بن زريق عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبرائيل إذ سمع تقيضا فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال فنزل منه ملك فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ حرفا منها إلا أوتيته ، وهذا لفظ النسائى

ولمسلم نحوه : حديث آخر قال مسلم حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلى هو ابن راهويه حدثنا سفيان بن عيينة عن العلاء يعنى ابن عبد الرحمن بن يعقوب الخرقى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأمر القرآن فهي خداج ثلاثا غير تمام » فقيل لأبي هريرة إنا نكون خلف الامام فقال اقرأ بها فى نفسك فأتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فاذا قال (الحمد لله رب العالمين) قال الله حمدنى عبدى ، وإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله أثنى على عبدى ، فاذا قال (مالك يوم الدين) قال الله مجدنى عبدى ، وقال مرة فوض إلى عبدى ، فاذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فاذا قال (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال الله هذا لعبدى ولعبدى ما سأل » وهكذا رواه النسائى عن إسحاق بن راهويه وقد رواه أيضا عن مالك عن العلاء عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة عن أبي هريرة وفى هذا السياق « فنصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل » وهكذا رواه ابن اسحاق عن العلاء وقد رواه مسلم من حديث ابن جريج عن العلاء عن أبي السائب هكذا ورواه أيضا من حديث ابن أبي أويس عن العلاء عن أبيه وأبي السائب كلاهما عن أبي هريرة وقال الترمذى هذا حديث حسن وسألت أبا زرعة عنه فقال كلا الحديثين صحيح من قال عن العلاء عن أبيه وعن العلاء عن أبي السائب وقد روى هذا الحديث عبد الله ابن الامام أحمد من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب مطولا وقال ابن جرير حدثنا صالح بن مسمار المروزى حدثنا زيد بن الحباب حدثنا عنبة بن سعيد عن مطرف بن طريف عن سعيد بن إسحاق عن كعب بن عجرة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين وله ما سأل فاذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال حمدنى عبدى وإذا قال (الرحمن الرحيم) قال أثنى على عبدى . ثم قال هذا لى وله ما بقى » وهذا غريب من هذا الوجه

﴿ الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من وجوه ﴾

(أحدها) أنه قد اطلق فيه لفظ الصلاة ، والمراد القراءة كقوله تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) أى بقراءة تلك كما جاء مصرح به فى الصحيح عن ابن عباس ، وهكذا قال فى هذا الحديث « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل » ثم بين تفصيل هذه القسمة فى قراءة الفاتحة فدل على عظمة القراءة فى الصلاة وأنها من أكبر أركانها إذا أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة كما اطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة فى قوله (وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا) والمراد صلاة الفجر كما جاء مصرح به فى الصحيحين « انه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار » فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة فى الصلاة وهو اتفاق من العلماء ،

ولكن اختلفوا في مسألة نذكرها في الوجه الثاني ، وذلك أنه هل يتعين للقراءة في الصلاة غير فاتحة الكتاب أم تجزئ هي أو غيرها ؟ على قولين مشهورين فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم ؛ أنها لاتتعين بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه في الصلاة واحتجوا بعموم قوله تعالى (فاقراءوا ما تيسر من القرآن) وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة في قصة المسىء في صلاته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » قالوا فأمره بقراءة ما تيسر ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها فدل على ما قلنا

(والقول الثاني) أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ولا تجزئ الصلاة بدونها ؛ وهو قول بقية الأئمة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء ، واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور حيث قال صلوات الله وسلامه عليه « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج » والخداج هو الناقص كما فسره في الحديث « غير تمام » واحتجوا أيضا بما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » . وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن » والأحاديث في هذا الباب كثيرة ووجه المناظرة ههنا يطول ذكره وقد أشرنا إلى مأخذهم في ذلك رحمهم الله

ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم أنه تجب قراءتها في كل ركعة . وقال آخرون : إنما تجب قراءتها في معظم الركعات وقال الحسن وأكثر البصريين : إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات أخذنا بمطلق الحديث « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي : لاتتعين قراءتها بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله تعالى (فاقراءوا ما تيسر من القرآن) والله أعلم . وقد روى ابن ماجه من حديث أبي سفيان السعدي عن أبي نضرة عن أبي سعيد مرفوعا « لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها » وفي صحة هذا نظر وموضع تحزير هذا كله في كتاب الأحكام الكبير والله أعلم

(والوجه الثالث) هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء (أحدها) أنه تجب عليه قراءتها كما تجب على إمامه لعموم الأحاديث المتقدمة (والثاني) لا تجب على المأموم قراءة بالكلية للفاتحة ولا غيرها لافي صلاة الجهرية ولا في صلاة السرية لما رواه الامام أحمد بن حنبل في مسنده عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من كان له إمام فقرأه الإمام له قراءة » ولكن في إسناده ضعف . ورواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر من كلامه ؛ وقد روى هذا الحديث من طرق ولا يصح شيء منها عن النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم (والقول الثالث) أنه تجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم ، ولا يجب ذلك في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا ؛ وإذا قرأ فأنتصوا » وذكر بقية الحديث ، وهكذا رواه بقية أهل السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « وإذا قرأ فأنتصوا » وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضا ، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي رحمه الله ؛ والله أعلم . ورواية عن الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى - والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا غسان بن عبيد عن أبي عمران الجوني عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شيء إلا الموت »

﴿ تفسير الاستعاذة وأحكامها ﴾

قال الله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) وقال تعالى (ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون *) وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين

وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغناك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والاحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعانة به من العدو الشيطاني لاحتالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانا ولا يتبغى غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال تعالى (يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) وقال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقال (أنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقد أقسم للوالد آدم عليه السلام انه له لمن الناصحين وكذب فكيف معاملته لنا وقد قال (فبعتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين) وقال تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)

قالت طائفة من القراء وغيرهم يتعوذ بعد القراءة واعتمدوا على ظاهر سياق الآية ولدفع الاعجاب بعد فراغ العبادة ، ومن ذهب إلى ذلك حمزة فيما نقله عنه ابن فلوفا وأبو حاتم السجستاني حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جنادة الهذلي المغربي في كتاب العبادة الكامل : وروى عن أبي هريرة أيضا وهو غريب ، ونقله محمد بن عمر الرازي في تفسيره عن ابن سيرين في رواية عنه قال . وهو قول ابراهيم النخعي وداود بن علي الأصماني الظاهري . وحكى القرطبي عن أبي بكر بن العربي عن المجموعة عن مالك رحمه الله أن القارئ يتعوذ بعد الفاتحة ، واستغربه ابن العربي . وحكى قولاً ثالثاً وهو الاستعانة أولاً وآخرأ جمعاً بين الدليلين ، نقله الرازي . والشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعانة إنما تكون قبل التلاوة لدفع الموسوس عنها - ومعنى الآية عندهم (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) أي إذا أردت القراءة كقوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم) الآية أي إذا أردتم القيام ، والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا محمد بن الحسن بن أنس حدثنا جعفر بن سليمان عن علي بن علي الرفاعي الشكري عن أبي التوكل التاجي عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك وتعالى جدك ، ولا اله غيرك - ثم يقول - لا اله الا الله - ثلاثاً ثم يقول - أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » وقدرناه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان عن علي ابن علي وهو الرفاعي ، وقال الترمذي . هو أشهر شيء في هذا الباب ، وقد فسر الهمز بالموتة وهي الحق ، والنفخ بالكبر والنفث بالشعر . كما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن عاصم الغزي عن نافع بن جبير المطعم عن أبيه قال . رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل في الصلاة قال « الله أكبر كبيراً ثلاثاً ، الحمد لله كثيراً ثلاثاً ، سبحان الله بكرة وأصيل ثلاثاً ، - اللهم اني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه » قال عمر : وهمزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر وقال ابن ماجه . حدثنا علي بن المنذر ، حدثنا ابن فضيل ، حدثنا عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اللهم اني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه قال : همزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر وقال الامام أحمد : حدثنا اسحاق بن يوسف ، حدثنا شريك عن يعلى بن عطاء عن رجل حدثه أنه سمع أبا أمامة الباهلي يقول نكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة كبر ثلاثاً ثم قال « لا اله الا الله ثلاث مرات ، وسبحان الله . وبحمده ثلاث مرات » ثم قال « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » وقال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده ، حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان الكوفي ، حدثنا علي بن هشام بن البريد بن زيد بن زياد عن عبد الملك ابن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : تلاحي رحلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فتزع

أنف أحدها غضباً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنى لأعلم شيئاً لو قاله لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن يوسف بن عيسى الروزى عن الفضل بن موسى عن يزيد بن زياد بن أبي الجعدي ، وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل عن أبي سعيد عن زائدة وأبو داود عن يوسف بن موسى عن جرير ابن عبد الحميد والترمذي والنسائي في اليوم والليلة عن بندار عن ابن مهدي عن الثوري والنسائي أيضاً من حديث زائدة ابن قدامة ثلاثهم عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال . استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى يخيّل إلى أن أحدهما يتمزق أنفه من شدة غضبه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب » فقال . ماهى يا رسول الله ، قال يقول « اللهم أنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم » قال . فجعل معاذ يأمره فأبى وجعل يزداد غضباً وهذا لفظ أبي داود ، وقال الترمذي : مرسل يعنى أن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلق معاذ بن جبل فإنه مات قبل سنة عشرين (قلت) وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أبي بن كعب كما تقدم وبلغه عن معاذ بن جبل فإن هذه القصة شهد بها غير واحد من الصحابة رضى الله عنهم . قال البخارى . حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن الأعمش عن عدي بن ثابت قال : قال سليمان بن صرد رضى الله عنه . استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ونحن عنده جلوس فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقالوا للرجل : ألا تسمع ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أنى لست بمجنون ، وقد رواه أيضاً مع مسلم وأبي داود والنسائي من طرق متعددة عن الأعمش به

وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها ههنا وموطنها كتاب الأذكار وفصائل الأعمال والله أعلم وقد روى أن جبريل عليه السلام أول ما نزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بالاستعاذة كما قال الامام أبو جعفر بن جرير ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا عثمان بن سعيد ، حدثنا بشر بن عمارة حدثنا أبو روق عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال . أول ما نزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم قال « يا محمد استعذ » قال « أستعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » ثم قال « قل بسم الله الرحمن الرحيم » ثم قال (اقرأ باسم ربك الذى خلق) قال عبد الله : وهى أول سورة أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم بلسان جبريل . وهذا الأثر غريب وإنما ذكرناه ليعرف فإن في اسناده ضعفاً وانقطاعاً والله أعلم .

(مسألة) وجهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمنجزة يأثم تاركها وحكى الرازى عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال ، وقال ابن سيرين . إذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كفى في إسقاط الوجوب واحتج الرازى لعطاء بظاهر الآية (فاستعذ) وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبي صلى الله عليه وسلم عليها ولأنها تدرك شر الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب وقال بعضهم . كانت واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم ودون أمته وحكى عن مالك أنه لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ ليقام رمضان في أول ليلة منه .

(مسألة) وقال الشافعى في الاملاء يجهر بالتعوذ وإن أسر فلا يضر وقال في الأم بالتخير لانه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة واختلف قول الشافعى فيما عدا الركعة الأولى هل يستحب التعوذ فيها على قولين ورجح عدم الاستحباب والله أعلم فاذا قال المستعذ . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعى وأبى حنيفة وزاد بعضهم . أعوذ بالله السميع العليم وقال آخرون بل يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم قاله الثوري والأوزاعي وحكى عن بعضهم انه يقول أستعذ بالله من الشيطان الرجيم لمطابقة امر الآية ولحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور والاحاديث الصحيحة كما تقدم أولى بالاتباع من هذا والله أعلم

(مسألة) ثم الاستعاذة في الصلاة إما هى للثلاوة وهو قول أبى حنيفة وشهد ، وقال أبو يوسف بل للصلاة فعلى

هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ ويتعوذ في العيد بعد الاحرام وقبل تكبيرات العيد والجمهور بعدها قبل القراءة ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطيب له وهو لتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدره وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو الباطن الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه ولا يقبل مصانعة ولا يدارى بالاحسان بخلاف العدو من نوع الانسان كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني وقال تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان. وكفى بربك وكيلًا) وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري فمن قتله العدو الظاهر البشري كان شهيدا، ومن قتله العدو الباطن كان طريدا. ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجورا، ومن قهره العدو الباطن كان مفتونا أو موزورا، ولما كان الشيطان يرى الانسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان.

﴿فصل﴾ والاستعاذة هي الانجاء إلى الله تعالى والاتصاف بجناحه من شر كل ذي شر والعبادة تكون لدفع الشر واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي :

يا من ألوذ به فيما أومله * ومن أعوذ به بمن أحاذره

لا يجبر الناس عطا أنت كاسره * ولا يهضون عضا أنت جابره

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أى استجير بجناح الله من الشيطان الرجيم أن يضرنى في ديني أو دنياي أو يصدننى عن فعل ما أمرت به، أو يحنى على فعل مانهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الانسان إلا الله ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الانس ومداراته بأسداء الجميل اليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لمن رابعة قوله في الأعراف (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر ثم قال (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) وقال تعالى في سورة قدا فليح المؤمنون (ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون) * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى في سورة حم السجدة (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم)

الشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بنفسه عن كل خير وقيل مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار ومنهم من يقول كلاهما صحيح في المعنى ولكن الأول أصح وعليه يدل كلام العرب قال أمية بن أبى الصلت في ذكر ما أوتي سليمان عليه السلام

أيمًا شاطن عصاه عكاه * ثم يلقي في السجن والاغلال

فقال أيمًا شاطن ولم يقل أيمًا شاطئ وقال النابغة الذبياني وهو زياد بن عمرو بن معاوية بن جابر بن ضباب بن ربوع بن مرة بن سعد بن ذبيان

نأت بسعاد عنك نوى شطون * فباتت والفؤاد بها رهين

يقول بعدت بها طريق عبدة وقال سيويه : العرب تقول تشيطان فلان إذا فعل فعل الشياطين ولو كان من شاط لقالوا تشيط فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح ولهذا يسمون كل من تمرد من جنى وإسى وحيوان شيطانًا قال الله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وفي مسند الامام أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر «تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن» فقلت أولانس شياطين؟ قال «نعم» وفي صحيح مسلم عن أبى ذر أيضا قال : قال رسول الله ﷺ «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود» فقلت يا رسول الله ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال الكلب الأسود

شيطان وقال ابن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ركب برذونا فجعل يتبختر به فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترا فزل عنه وقال ما حملتوني إلا على شيطان ما زلت عنه حتى أنكرت نفسى إسناده صحيح . والرجيم فعيل بمعنى مفعول أى أنه مرجوم مطرود عن الخير كله كما قال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقال تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملا الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحورا ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الحطفة فأتبعه شهاب ثاقب) وقال تعالى (ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) إلى غير ذلك من الآيات وقيل رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس والرباث والأول أشهر وأصح

(بسم الله الرحمن الرحيم) افتتح بها الصحابة كتاب الله واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة أو من أول كل سورة كتبت في أولها أو أنها بعض آية من كل سورة أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها أو أنها إنما كتبت للفصل لأنها آية على أقوال للعلماء سلفا وخلفا وذلك مبسوط في غير هذا الموضع وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه (بسم الله الرحمن الرحيم) وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابورى في مستدركه أيضا وروى مرسل عن سعيد بن جبير وفي صحيح ابن خزيمة عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدها آية لكنه من رواية عمر بن هارون البلخى وفيه ضعف عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عنها وروى له الدارقطنى متابعا عن أبي هريرة مرفوعا وروى مثله عن طى وابن عباس وغيرها وعن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو هريرة وعطى ومن التابعين عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهرى وبه يقول عبد الله بن المبارك والشافعى وأحمد بن حنبل في رواية عنه وإسحاق بن راهويه وأبو عبيد القاسم ابن سلام رحمهم الله وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور وقال الشافعى في قول في بعض طرق مذهبه هي آية من الفاتحة وليست من غيرها وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة وهما غريبان وقال داود هي آية مستقلة في أول كل سورة لأنها وهذا رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وحكاه أبو بكر الرازى عن أبي الحسن الكرخى وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله . هذا ما يتعلق بكونها آية من الفاتحة أم لا

فأما الجهر بها ففرع على هذا فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها وكذا من قال إنها آية في أولها وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا فذهب الشافعى رحمه الله إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفا وخلفا فجهر بها من الصحابة أبو هريرة وابن عمر وابن عباس ومعاوية وحكاه ابن عبد البر والبيهقى عن عمر وعطى ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعطى وهو غريب ومن التابعين عن سعيد بن جبير وعكرمة وأبي قلابة والزهرى وعطى بن الحسن وابنه محمد وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس ومجاهد وسلم ومحمد بن كعب القرظى وعبيد وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وأبى وائل وابن سيرين ومحمد بن المنكدر وعطى بن عبد الله بن عباس وابنه محمد ونافع مولى ابن عمر وزيد بن أسلم وعمر بن عبد العزيز والأزرق بن قيس وحبيب بن أبى ثابت وأبى الشعثاء ومكحول وعبد الله بن مغفل بن مقرن زاد البيهقى وعبد الله بن صفوان ومحمد ابن الحنفية زاد ابن عبد البر وعمر بن دينار والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة فيجهر فيها كسائر أبعاضها وأيضا فقد روى النسائى في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة وقال بعد أن فرغ إنى لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم وصححه الدارقطنى والخطيب والبيهقى وغيرهم وروى أبو داود والترمذى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفتتح الصلاة بيسم الله الرحمن الرحيم ثم قال الترمذى ولبس إسناده بذلك وقد رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر

بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال صحيح وفي صحيح البخارى عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ فقال كانت قراءته مدائم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم بمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم . وفي مسند الامام أحمد وسنن أبي داود وصحيح ابن خزيمة ومستدرک الحاكم عن أم سلمة رضى الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته : بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم مالك يوم الدين * وقال الدارقطني إسناده صحيح وروى الامام أبو عبد الله الشافعى والحاكم في مستدرکه عن أنس بن معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك فلما صلى المرة الثانية بسمل . وفي هذه الأحاديث والآثار التى أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها . فأما المعارضات والروايات الغريبة وتطريقها وتعليلها وتضعيفها وتقريرها فله موضع آخر وذهب آخرون بأنه لا يجر بالبسملة في الصلاة وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل وطوائف من سلف التابعين والخلف وهو مذهب أبى حنيفة والثورى وأحمد بن حنبل . وعند الامام مالك أنه لا يقرأ البسملة بالكسبة لا جهرا ولا سرا واحتجوا بما في صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين وبما في الصحيحين عن أنس بن مالك قال صليت خلف النبي ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين ولمسلم لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها ونحوه في السنن عن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه فهذه مأخذ الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة وهى قريية لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر والله الحمد والمنة

فصل في فضلها

قال الامام العالم الحبر العابد أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم رحمه الله في تفسيره حدثنا أبى حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا زيد بن المبارك الصنعاني حدثنا سلام بن وهب الجندي حدثنا أبى عن طاوس عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم ؟ فقال « هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب » وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه عن سليمان بن احمد عن علي بن المبارك عن زيد بن المبارك به وقد روى الحافظ بن مردويه عن طريقين عن اسماعيل بن عياش عن اسماعيل بن يحيى عن مسعر عن عطية عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « إن عيسى بن مريم عليه السلام أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه فقال له المعلم : اكتب فقال : ما أكتب ؟ قال بسم الله قال له عيسى : وما باسم الله ؟ قال المعلم : ما أدري قال له عيسى . الباء بهاء الله والسين سناؤه ، والميم مملكته ، ، والله إله الآلهة ، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة » وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن العلاء الملقب بابن زريق عن اسماعيل بن عياش عن اسماعيل بن يحيى عن ابن أبى مليكة عن عمن حدثه عن ابن مسعود ومسعر عن عطية عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ فذكره وهذا غريب جدا ، وقد يكون صحيحا إلى من دون رسول الله ﷺ ، وقد يكون من الاسرائيليات لا من المرفوعات والله اعلم . وقد روى جوير عن الضحاك نحوه من قبله ، وقد روى ابن مردويه من حديث يزيد بن خالد عن سليمان بن بريدة وفي رواية عن عبد الكريم ابى امية عن أبى بريدة عن ابيه ان رسول الله ﷺ قال « أنزلت على آية لم تنزل على نبي غير سليمان بن داود وغيرى وهى بسم الله الرحمن الرحيم ، وروى بإسناده عن عبد الكريم الكبير بن المغافى بن عمران عن ابيه عن عمر بن ذر عن عطية بن ابى رباح عن جابر بن عبد الله قال . لما نزل (بسم الله الرحمن الرحيم) هرب الغيم إلى المشرق وسكنت الرياح ، وهاج البحر ، وأصفت البهائم بأذانها ، ورجعت الشياطين من السماء ، وحلف الله تعالى بعزته وجلاله ان لا يسمى اسمه على شيء إلا بآبارك فيه . وقال وكيع عن الأعمش عن أبى وائل عن ابن مسعود قال من اراد أن ينحى الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) فيجعل الله له من كل حرف منها جنة من كل واحد ، ذكره ابن عطية والقرطبي ووجه ابن عطية ونصره بحديث

لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها لقول الرجل ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفاً وغير ذلك وقال الامام أحمد بن حنبل في مسنده حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عاصم قال : سمعت أبا تيمية يحدث عن رديف النبي ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ . فقلت تعس الشيطان فقال النبي ﷺ « لا تقل تعس الشيطان ؛ فانك إذا قلت تعس الشيطان تعظم وقال بقوى صرخته ، وإذا قلت باسم الله تصغر حتى يصير مثل الدباب » هكذا وقع في رواية الامام أحمد ، وقد روى النسائي في اليوم والليلة وابن مردويه في تفسيره من حديث خاله الخذاء عن أبي تيمية وهو الهجيمي عن أبي الليث بن أسامة بن عمير عن أبيه قال . كنت رديف النبي ﷺ فذكره وقال « لا تقل هكذا فانه يتعظم حتى يكون كالليت ، ولكن قل باسم الله فانه يصغر حتى يكون كالنابية » فهذا من تأثير بركة باسم الله ، ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول . فتستحب في أول الخطبة لما جاء « كل أمر لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أجزم » وتستحب البسمة عند دخول الخلاء لما ورد من الحديث في ذلك وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الامام أحمد والسني من رواية أبي هريرة وسعيد بن زيد وأبي سعيد مرفوعاً « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » وهو حديث حسن . ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً وكذا تستحب عند الديحة في مذهب الشافعي وجماعة وأوجبها آخرون عند الذكر ومطلقاً في قول بعضهم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله وقد ذكر الرازي في تفسيره في فضل البسمة أحاديث منها عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا أتيت أهلك فسم الله فانه إن وجد لك وله كتب لك بعدد أنفاسه وأنفاس ذريته حسنات » وهذا لا أصل له ولا رأيته في شيء من الكتب المعتمدة عليها ولا غيرها . وهكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربييه عمر بن أبي سلمة « قل باسم الله وكل يمينك وكل مما يليك » ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه وكذلك تستحب عند الجماع لما في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا فانه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً »

ومن ههنا ينكشف لك ان القولين عند النجاة في تقدير التعلق بالباء في قوله باسم الله هل هو اسم أو فعل متقاربان ، وكل قد ورد به القرآن ، أما من قدره باسم تقديره باسم الله ابتدائي فلقوله تعالى (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربي لغفور رحيم) ومن قدره بالفعل امرأ أو خبراً نحو أبدأ باسم الله أو ابتدأت باسم الله فلقوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق) وكلاهما صحيح فان الفعل لا بدله من مصدر فلك ان تقدر الفعل ومصدره وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً أو قراءة أو وضوءاً أو صلاة فالمشروع ذكر اسم الله في المشروع في ذلك كله تبركاً وتيمناً واستعانة على الاتمام والتقبل والله اعلم . ولهذا روى ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث بشر بن عمار عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس قال إن أول ما نزل به جبريل على محمد ﷺ قال « يا محمد قل أستعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال : قل (بسم الله الرحمن الرحيم) قال : قال له جبريل باسم الله يا محمد يقول اقرأ بذكر الله ربك وقم واقعد بذكر الله تعالى » لفظ ابن جرير

وأما مسألة الاسم هل هو المسمى أو غيره ففيها للناس ثلاثة أقوال ، أحدها أن الاسم هو المسمى ، وهو قول أبي عبيدة وسيبويه ، واختاره الباقلاني وابن فورك وقال الرازي وهو محمد بن عمر المعروف بابن خطيب الري في مقدمات تفسيره . قالت الحشوية والكرامية والأشعرية الاسم نفس المسمى وغير نفس التسمية ، وقالت المعتزلة الاسم غير المسمى ونفس التسمية ، والختار عندنا ان الاسم غير المسمى وغير التسمية ، ثم نقول إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات متقطعة وحروف مؤلفة ، فالعلم الضروري حاصل أنه غير المسمى وإن كان المراد بالاسم ذات المسمى ، فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات وهو عبث ، فثبت ان الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يجرى مجرى العبث . ثم شرع يستدل على مغايرة الاسم للمسمى ، بأنه قد يكون الاسم موجوداً والمسمى مفقوداً كلفظة

المعوم وبأنه قد يكون للشيء أسماء متعددة كالترادفة وقد يكون الاسم واحدا والمسميات متعددة كالمشترك وذلك دال على تغير الاسم والمسمى وأيضا فالاسم لفظ وهو عرض والمسمى قد يكون ذاتا ممكنة أو واجبة بذاتها وأيضا فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد اللفظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك ولا يقوله عاقل وأيضا فقد قال الله تعالى (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن لله تسعة وتسعين اسما » فهذه أسماء كثيرة والمسمى واحد وهو الله تعالى وأيضا فقبوله (والله الأسماء) أضافها إليه كما قال (فسبح باسم ربك العظيم) ونحو ذلك فالإضافة تقتضي المغايرة وقوله تعالى (فادعوه بها) أي فادعوا الله بأسمائه وذلك دليل على أنها غيره واحتج من قال الاسم هو المسمى بقوله تعالى (تبارك اسم ربك ذو الجلال والاكرام) والتبارك هو الله تعالى والجواب أن الاسم معظم لتعظيم الذات المقدسة وأيضا فاذا قال الرجل زينب طالق يعني امرأته طلقت ولو كان الاسم غير المسمى لما وقع الطلاق والجواب أن المراد أن الذات المسماة بهذا الاسم طالق . قال الرازي : وأما التسمية فانها جعل الاسم معينا لهذه الذات فهي غير الاسم أيضا والله أعلم

(الله) علم على الرب تبارك وتعالى يقال إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له كما قال تعالى (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وقال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أي ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة » وجاء تعدادها في رواية الترمذي وابن ماجه وبين الروايتين اختلاف زيادة ونقصان وقد ذكر الرازي في تفسيره عن بعضهم أن لله خمسة آلاف اسم ألف في الكتاب والسنة الصحيحة وألف في التوراة وألف في الإنجيل وألف في الزبور وألف في اللوح المحفوظ وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل يفعل فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له وقد نقله القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم وروى عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة قال الخطابي ألا ترى أنك تقول يا الله ولا تقول يا الرحمن فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام وقيل إنه مشتق واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج

الله در الغسانيات المسد * سبحن واسترجعن من تألهي

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر وهو التأله من أله يأله إلهة وتألهما كما روى عن ابن عباس أنه قرأ (ويذكر وإلهتك) قال عبادتك أي أنه كان يعبد ولا يعبد وكذا قال مجاهد وغيره وقد استدلل بعضهم على كونه مشتقا بقوله تعالى (وهو الله في السموات وفي الأرض) كما قال تعالى (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) ونقل سيبويه عن الخليل أن أصله إله مثل فعال فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة قال سيبويه مثل الناس أصله إناس وقيل أصل الكلمة لاه فدخلت الألف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه . قال الشاعر :

لاه ابن عمك لأفضلت في حسب * عني ولا أنت ديانى فتخزوني

قال القرطبي بالخاء المعجمة أي فتنسوسني وقال الكسائي والفراء أصله إله حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى في الثانية كما قال (لكنا هو الله ربى) أي لكن أنا وقد قرأها كذلك الحسن ، قال القرطبي ثم قيل هو مشتق من وله إذا تحير والوله ذهاب العقل يقال رجل وله وامرأة وله ومولوه إذا أرسل في الصحراء فإله تعالى يحير أولئك في الفكر في حقائق صفاته فعلى هذا يكون ولاه فأبدلت الواو همزة كما قالوا في وشاخ اشاخ ووسادة اسادة وقال الرازي وقيل أنه مشتق من ألهت إلى فلان أي سكنت إليه فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره ، والأرواح لا تنفرح إلا بمعرفته لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره قال الله تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا) قال وقيل من لاه يلوه إذا احتجب

وقيل اشتقاقه من أله الفصيل أولع بأمه والمعنى أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال قال وقيل مشتق من أله الرجل ياله إذا فرغ من أمر نزل به فألمه أى أجاره فالحير لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه لقوله تعالى (وهو يجير ولا يجار عليه) وهو النعم لقوله تعالى (وما بكم من نعمة فمن الله) وهو المظم لقوله تعالى (وهو يطعم ولا يطعم) وهو الموجد لقوله تعالى (قل كل من عند الله) وقد اختار الرازي أنه اسم غير مشتق البتة قال وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء ثم أخذ يستدل على ذلك بوجوه منها أنه لو كان مشتقا لاشتراك في معناه كثيرون ومنها أن بقية الأسماء تذكر صفات له فتقول الله الرحمن الرحيم الملك القدوس فدل أنه ليس بمشتق قال فأما قوله تعالى (العزيز الحميد الله) على قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان ومنها قوله تعالى (هل تعلم له سميا) وفي الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامدا غير مشتق نظر والله أعلم .

وحكى الرازي عن بعضهم أن اسم الله تعالى عبراني لأعربي ثم ضعفه وهو حقيق بالتضعيف كما قال وقد حكى الرازي هذا القول ثم قال واعلم أن الخلائق قسبان وأصلون إلى ساحل بحر المعرفة ومحرومون قد بقوا في ظلمات الخيرة وتيه الجهالة فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم وأما الواجدون فقد وصلوا إلى عرصة النور وفسحة الكبرياء والجلال فناهوا في ميادين الصمدية وبادوا في عرصة الفردانية فثبت أن الخلائق كلهم والمؤمنون في معرفته ، وروى عن الخليل بن أحمد أنه قال لأن الخلق يألمون إليه بفتح اللام وكسرهما لعتان ، وقيل إنه مشتق من الارتفاع فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع لها وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس لاهت وقيل إنه مشتق من أله الرجل إذا تعبد وتأله إن تنسك وقرأ ابن عباس (وينذر وإلهك) وأصل ذلك الإله فحذفت الهجمة التي هي فاء الكلمة فالتقت اللام التي هي عينها مع اللام الزائدة في أولها للتعريف فأدغمت إحداها في الأخرى فصارتا في اللفظ لاما واحدة مشددة وفخمت تعظيما فقل الله (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ورحمن أشد مبالغة من رحيم وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك كما تقدم في الأثر عن عيسى عليه السلام أنه قال والرحمن رحمن الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة وزعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لانتصل بذكر المرحوم وقد قال (وكان بالمؤمنين رحما) وحكى ابن الأنباري في الزاهر عن البرد أن الرحمن اسم عبراني ليس بعربي وقال أبو اسحاق الزجاج في معاني القرآن : وقال أحمد بن يحيى الرحيم عربي والرحمن عبراني فلماذا جمع بينهما قال أبو اسحق وهذا القول مرغوب عنه وقال القرطبي والدليل على أنه مشتق ما أخرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « قال الله تعالى أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » قال وهذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق ، قال وانكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له قال القرطبي ثم قيل هما بمعنى واحد كندمان ونديم قال أبو عبيد وقيل ليس بناء فعلا كفعيل فان فعلا لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك رجل غضبان للرجل المتلى غضبا وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والفعول قال أبو على الفارسي الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين قال الله تعالى (وكان بالمؤمنين رحما) وقال ابن عباس هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أى أكثر رحمة ثم حكى عن الخطابي وغيره أنهم استشكلوا هذه الصفة وقالوا لعله أرفق كما في الحديث « إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله وأنه يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف » وقال ابن المبارك الرحمن إذا سئل أعطى والرحيم إذا لم يسأل يغضب وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أنى صالح الفارسي الحوزي عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من لم يسأل الله يغضب عليه » وقال بعض الشعراء الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

وقال ابن جرير حدثنا السري بن يحيى التيمي حدثنا عثمان بن زفر سمعت العزري يقول الرحمن الرحيم قال الرحمن لجميع الخلق الرحيم قال بالمؤمنين قالوا ولهذا قال (ثم استوى على العرش الرحمن) وقال (الرحمن على العرش

استوى) فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته وقال (وكان بالمؤمنين رحماً) فخصهم باسمه الرحيم قالوا فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه والرحيم خاصة بالمؤمنين لكن جاء في الدعاء المأثور رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسم به غيره كما قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الأسماء الحسنى) وقال تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أن يجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) ولما تجهرهم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلابيب الكذب وشهر به فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر وأهل الدير من أهل البادية والأعراب

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن لأنه أكد به والمؤكد لا يكون إلا أقوى من المؤكد والجواب أن هذا ليس من باب التأكيد وإنما هو من باب النعت ولا يلزم فيه ما ذكره وعلى هذا فيكون تقدير اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره كما قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الأسماء الحسنى) وإنما تجهرهم مسيلمة اليمامة في التسمية به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة. وأما الرحيم فانه تعالى وصف به غيره حيث قال (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) كما وصف غيره بذلك من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره ومنها ما لا يسمى به غيره كاسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك فلهمذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن لأنه أخص وأعرف من الرحيم لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء فلهمذا ابتدأ بالأخص فالأخص. فان قيل فإذا كان الرحمن أشد مبالغة فهلا اكتفى به عن الرحيم فقد روى عن عطاء الخراساني ما معناه أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن جرى بلفظ الرحيم ليقطع الوهم بذلك فانه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى، كذا رواه ابن جرير عن عطاء. ووجهه بذلك والله أعلم وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى رد الله عليهم ذلك بقوله (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الأسماء الحسنى) ولهمذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلّي اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فقالوا لا نعرف الرحمن ولا الرحيم رواه البخاري وفي بعض الروايات لا نعرف الرحمن إلا الرحمن اليمامة وقال تعالى (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنّت في كفرهم فانه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن قال ابن جرير وقد أشد بعض الجاهلية الجهال:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها * ألا قضب الرحمن ربّي عينها

وقال سلامة بن جندب الطهموي: عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم * وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن عمار حدثنا أبو روق عن الضحاك عن عبد الله ابن عباس قال الرحمن الفعلان من الرحمة هو من كلام العرب وقال (الرحمن الرحيم) الرفيق الرقيق لمن أحب أن يرحمه والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها. وقال ابن جرير أيضاً حدثنا محمد بن بشار حدثنا حماد بن مسعدة عن عوف عن الحسن قال الرحمن اسم ممنوع. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان حدثنا زيد بن الحباب حدثني أبو الأشهب عن الحسن قال الرحمن اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه تسمى به تبارك وتعالى. وقد جاء في حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقطع قراءته حرفاً حرفاً (بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين) فقرأ بعضهم كذلك وهم طائفة ومنهم من وصلها بقوله (الحمد لله رب العالمين) وكسرت الميم لالتقاء الساكنين وهم الجمهور وحكى الكسائي عن الكوفيين عن بعض العرب أنها تقرأ بفتح الميم وصلة الهمزة فيقولون بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين فقلوا حركة الهمزة إلى الميم بعد تسكينها كما قرئ قوله تعالى (الم الله لا إله إلا هو) قال ابن عطية ولم ترد هذه قراءة عن أحد فيما علمت

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

القراء السبعة على ضم الدال في قوله الحمد لله هو مبتدأ وخبر وروى عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج أنهما قالا (الحمد لله) بالنصب وهو على إضمار فعل وقرأ ابن أبي عتبة الحمد لله بضم الدال واللام إتباعاً للثاني الأول وله شواهد لكنه شاذ وعن الحسن وزيد بن علي (الحمد لله) بكسر الدال إتباعاً للأول الثاني .

قال أبو جعفر بن جرير معنى (الحمد لله) الشكر لله خلاصاً دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصوها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، في تصحيح الآلات لطاعته وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه مع ما بسط لهم في دينهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع ما نبههم عليه ودعاهم اليه ، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخراً . وقال ابن جرير رحمه الله : الحمد لله ثناء أثني به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه فكأنه قال قولوا الحمد لله . قال وقد قيل إن قول القائل الحمد لله ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وقوله الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر وقد نقل السليمان هذا المذهب أنهما سواء عن جعفر الصادق وابن عطاء من الصوفية وقال ابن عباس الحمد لله كلمة كل شاكر وقد استدلل القرطبي لابن جرير بصحة قول القائل الحمد لله شكراً وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والتعديدية والشكر لا يكون إلا على التعديدية ويكون بالجنان واللسان والأركان كما قال الشاعر أفادتكم النعماء منى ثلاثة * يدي ولساني والضمير المحجبا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعم الحمد أو الشكر على قولين والتحقيق ان بينهما عمومًا وخصوصًا فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه لأنه يكون على الصفات اللازمة والتعديدية ، تقول حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه لأنه يكون بالقول والفعل والنية كما تقدم وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات التعديدية لا يقال شكرته لفروسيته وتقول شكرته على كرمه وإحسانه إلى . هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين والله أعلم

وقال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري : الحمد تقيض النعم تقول حمدت الرجل أحمدته حمداً ومحمدة فهو حميد ومحمود والتحميد أبلغ من الحمد ، والحمد أعم من الشكر ، وقال في الشكر هو الثناء على المحسن بما أولاه من العرف يقال شكرته وشكرت له وباللام أفصح . وأما المدح فهو أعم من الحمد لأنه يكون للحجى وللمعيت وللجاء أيضاً كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك ويكون قبل الإحسان وبعده وعلى الصفات التعديدية واللازمة أيضاً فهو أعم

ذكر أقوال السلف في الحمد

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو معمر القطيعي حدثنا حفص عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال عمر رضي الله عنه قد علمنا سبحانه الله ولا إله إلا الله فما الحمد لله ؟ فقال علي : كلمة رضاها الله لنفسه ، ورواه غير أبي معمر عن حفص فقال قال عمر لعلي - وأصحابه عنده - لا إله إلا الله وسبحان الله والله أكبر قد عرفناها فما الحمد لله ؟ قال علي كلمة أحبها الله تعالى لنفسه ورضاها لنفسه وأحب ان يقال ، وقال علي بن زيد بن جدعان عن يوسف ابن مهران قال ابن عباس الحمد لله كلمة الشكر وإذا قال العبد الحمد لله قال شكرني عبدي . رواه ابن أبي حاتم ، وروى أيضاً هو وابن جرير من حديث بشر بن عمار عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال الحمد لله هو الشكر لله هو الاستخذاء له والاقرار له بنعمته وهدايته وابتدائه وغير ذلك وقال كعب الأحبار الحمد لله ثناء الله وقال الضحاك الحمد لله رداء الرحمن وقد ورد الحديث بنحو ذلك .

قال ابن جرير حدثنا سعيد بن عمرو السكوني حدثنا بقية بن الوليد حدثني عيسى بن إبراهيم عن موسى بن أبي حبيب عن الحكم بن عمير وكانت له صحبة قال: قال رسول الله ﷺ إذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فزادك وقد روى الامام أحمد بن حنبل حدثنا روح حدثنا عوف عن الحسن عن الأسود بن سريع قال قلت يا رسول الله ألا أنشدك محمد حمدتها ربى تبارك وتعالى فقال «أما إن ربك يحب الحمد» ورواه النسائي عن علي بن حجر عن ابن عليه عن يونس بن عبيد عن الحسن عن الأسود بن سريع به. وروى أبو عيسى الحافظ الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير عن طلحة بن خراش عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله» وقال الترمذي حسن غريب وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ» وقال القرطبي في تفسيره وفي نوادر الأصول عن أنس عن النبي ﷺ قال «لو أن الدنيا بخذا فيرها في يد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله لكان الحمد لله أفضل من ذلك» قال القرطبي وغيره أى لكان إلهامه الحمد لله أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى قال الله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم أن عبداً من عباد الله قال يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى الله فقالا ياربنا إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها قال الله وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدي؟ قالوا يارب إنه قال لك الحمد يارب كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما «اكتبها كما قال عبدي حتى يلتقي فأجزيه بها» وحكى القرطبي عن طائفة أنهم قالوا قول العبد الحمد لله رب العالمين أفضل من قوله لا إله إلا الله لاشتمال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد وقال آخرون لا إله إلا الله أفضل لأنها تفصل بين الإيمان والكفر وعليها يقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله كما ثبت في الحديث المتفق عليه وفي الحديث الآخر «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وقد تقدم عن جابر مرفوعاً «أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله» وحسنه الترمذي. والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى كما جاء في الحديث «اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله ويبدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله» الحديث

والرب هو المالك المتصرف ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للأصلاح وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى ولا يستعمل الرب لغير الله بل بالإضافة تقول رب الدار رب كذا وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل إنه الاسم الأعظم. والعالمين جمع عالم وهو كل موجود سوى الله عز وجل والعالم جمع لا واحد له من لفظه والعوالم أصناف المخلوقات في السموات وفي البر والبحر وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً قال بشر بن عمار عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس (الحمد لله رب العالمين) الحمد لله الذى له الخلق كله السموات والأرض وما فيهن وما بينهن مما نعلم وما لا نعلم. وفي رواية سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس: رب الجن والانس وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج وروى عن علي نحوه قال ابن أبي حاتم بإسناده لا يعتمد عليه واستدل القرطبي لهذا القول بقوله تعالى (ليكون للعالمين نذيراً) وهم الجن والانس قال الفراء وأبو عبيد العالم عبارة عما يعقل وهم الانس والجن والملائكة والشیاطين ولا يقال للبهائم عالم. وعن زيد بن أسلم وأبي محيصة العالم كل ماله روح ترفرف. وقال قتادة رب العالمين كل صنف عالم وقال الحافظ ابن عساكر في ترجمة مروان بن الحكم وهو أحد خلفاء بني أمية وهو يعرف بالجعد ويلقب بالجمار أنه قال خلق الله سبعة عشر ألف عالم أهل السموات وأهل الأرض عالم واحد وسائرهم لا يعلمهم إلا الله عز وجل وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى (رب العالمين) قال الانس عالم والجن عالم وماسوى ذلك ثمانية عشر ألف أو أربعة عشر ألف عالم - هو يشك - الملائكة على الأرض وللأرض أربع زوايا في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمائة عالم خلقهم الله لعبادته ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وهذا كلام غريب

يحتاج مثله إلى دليل صحيح . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا القرات يعني ابن الوليد عن معتب بن سمي عن سبيع يعني الحميري في قوله تعالى (رب العالمين) قال العالمين ألف أمة فستائة في البحر وأربعائة في البر وحكى مثله عن سعيد بن المسيب وقد روى نحوه هذا مرفوعاً كما قال الحافظ أبو يعلى أحمد ابن علي بن المثنى في مسنده : حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبيد بن واقد القيسي أبو عباد حدثني محمد بن عيسى بن كيسان حدثنا محمد بن النكدر عن جابر بن عبد الله قال : قلّ الجراد في سنة من سني عمر التي ولي فيها فسأل عنه فلم يخبر بشيء فاعثم لذلك فأرسل راجلاً يضرب إلى اليمن وآخر إلى الشام وآخر إلى العراق يسأل هل رأى من الجراد شيء أم لا قال فأثابه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه فلما رآها كبر ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « خلق الله ألف أمة ستائة في البحر وأربعائة في البر فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلك تابعت مثل النظام إذا قطع سلكه » محمد بن عيسى هذا وهو الهلالي ضعيف وحكى البغوي عن سعيد بن المسيب أنه قال لله ألف أمة ستائة في البحر وأربعائة في البر وقال وهب بن منبه لله ثمانية عشر ألف عالم الدنيا عالم منها وقال مقاتل العوالم ثمانون ألفاً وقال كعب الأحبار لا يعلم عدد العوالم إلا الله عز وجل نقله كله البغوي . وحكى القرطبي عن أبي سعيد الخدري أنه قال إن لله أربعين ألف عالم الدنيا من شرقها إلى مغربها عالم واحد منها . وقال الزجاج العالم كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة قال القرطبي وهذا هو الصحيح انه شامل لكل العالمين كقوله (قال فرعون وما رب العالمين ؟ * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) والعالم مشتق من العلامة (قلت) لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته كما قال ابن المعتز :

فيا عجباً كيف يعصى الاله أم كيف يمجده الجاحد وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد وقوله تعالى (الرحمن الرحيم) تقدم الكلام عليه في البسمة بما أغنى عن الاعداء قال القرطبي إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله رب العالمين ليكون من باب قرن الترغيب بعد التهيب كما قال تعالى (نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم) وقوله تعالى (إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) قال فالرب فيه تهيب والرحمن الرحيم ترغيب وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد »

﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

قرأ بعض القراء (ملك يوم الدين) وقرأ آخرون (مالك) وكلاهما صحيح متواتر في السبع ويقال ملك بكسر اللام وباسكانها ويقال ملك أيضاً وأشيع نافع كسرة الكاف فقرأ (ملكي يوم الدين) وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى وكلاهما صحيحة حسنة ورجح الزمخشري ملك لأنها قراءة أهل الحرمين ولقوله (لمن الملك اليوم * قوله الحق وله الملك) وحكى عن أبي حنيفة أنه قرأ (ملك يوم الدين) على أنه فعل وفاعل ومفعول وهذا شاذ غريب جداً وقد روى أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيئاً غريباً حيث قال حدثنا أبو عبد الرحمن الأزدي حدثنا عبد الوهاب بن عدى بن الفضل عن أبي المطرف عن ابن شهاب أنه بلغه أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرءون (مالك يوم الدين) قال ابن شهاب وأول من أحدث « ملك » مروان (قلت) مروان عنده علم بصحة ما قرءوه لم يطلع عليه ابن شهاب والله اعلم . وقد روى من طرق متعددة أوردها ابن مردويه ان رسول الله ﷺ كان يقرؤها (مالك يوم الدين) ومالك مأخوذ من الملك كما قال تعالى (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون) وقال (قل اعوذ برب الناس ملك الناس) وملك مأخوذ من الملك كما قال تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) وقال (قوله الحق وله الملك) وقال (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين اسيراً) وتخصيص الملك بيوم الدين لا يفييه عما عداه لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين وذلك عام

في الدنيا والآخرة وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعى أحد هناك شيئاً ولا يتكلم أحد إلا بأذنه كما قال تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) وقال تعالى (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) وقال تعالى (يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بأذنه فمنهم شقي وسعيد) وقال الضحاك عن ابن عباس (مالك يوم الدين) يقول لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكماً كملكهم في الدنيا قال ويوم الدين يوم الحساب للخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر إلا من عفا عنه وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى أن تفسير مالك يوم الدين أنه القادر على إقامة ثم شرع يضعفه والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم وأن كلاماً من القائلين هذا القول وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر ولا ينكره ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا كما قال تعالى (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يومنا على الكافرين عسيراً) والقول الثاني يشبه قوله تعالى (ويوم يقول كن فيكون) والله أعلم . والملك في الحقيقة هو الله عز وجل قال الله تعالى (هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام) وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً « أخرج اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولا مالك إلا الله » وفيها عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقبض الله الأرض ويطوى السماء يمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » وفي القرآن العظيم (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) فاما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً) (وكان وراءهم ملك) (إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً) وفي الصحيحين « مثل الملوك على الأسرة » .

والدين الجزاء والحساب كما قال تعالى (يومئذ يوفيه الله دينهم الحق) وقال (أئنا لمدينون) أي مجزيون محاسبون وفي الحديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » أي حاسب نفسه كما قال عمر رضي الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تموتوا وزنوا أنفسكم قبل أن تموتوا وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من إياك وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر وهي قراءة شاذة مردودة لأن إياضوء الشمس وقرأ بعضهم إياك بفتح الهمزة وتشديد الياء وقرأ بعضهم هياك بالهاء بدل الهمزة كما قال الشاعر :

فهايك والأمر الذي إن تراحت موارد ضاقت عليك مصادره

ونستعين بفتح النون أول الكلمة في قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والأعمش فانهما كسراها وهي لغة بني أسد وريعة وبني تميم ، والعبادة في اللغة من الدالة يقال طريق معبد وبغير معبد أي مذل وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف . وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحرص أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة . والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين ، وهذا كما قال بعض السلف الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة (إياك نعبد وإياك نستعين) فالأول تبرؤ من الشرك والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى (فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون) (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً) وكذلك هذه الآية الكريمة (إياك نعبد وإياك نستعين) وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسبة لأنه لما أثبت على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فلهاذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بحمिल صفاته الحسنى وإرشاد لعباده بان يثبوا عليه بذلك ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »

وفي صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقه عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى قسعت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل إذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال الله حمدنى عبدي ، وإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله أثنى على عبدي ، فإذا قال (مالك يوم الدين) قال الله مجدنى عبدي ، وإذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدى ما سأل ، فإذا قال (اهدنا الصراط المستقيم) صراط الدين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل » وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما (إياك نعبد) يعنى إياك نوحى ونخاف ونرجوك ياربنا لا غيرك (وإياك نستعين) على طاعتك وعلى أمورنا كلها وقال قتادة (إياك نعبد وإياك نستعين) يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم وإنما قدم (إياك نعبد) على (وإياك نستعين) لأن العبادة له هى المقصودة والاستعانة وسيلة إليها والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم والله أعلم . فان قيل : فما معنى النون فى قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) فان كانت للجمع فالله اعلم واحد وإن كانت للعظيم فلا يناسب هذا المقام ؟ وقد أجيب بأن المراد من ذلك الاخبار عن جنس العباد والصلى فرد منهم ولا سيما إن كان فى جماعة أو إمامهم فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التى خلقوا لأجلها وتوسط لهم بخير ومنهم من قال يجوز أن تكون للعظيم كأن العبد قيل له إذا كنت داخل العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل (إياك نعبد وإياك نستعين) وإن كنت خارج العبادة فلا تقل نحن ولا فعلنا ولو كنت فى مائة ألف أو ألف ألف لاحتياج الجميع إلى الله عز وجل وقرهم إليه . ومنهم من قال إياك نعبد ألفت فى التواضع من إياك عبدنا لما فى الثانى من تعظيم نفسه من جعله نفسه وحده أهلا لعبادة الله تعالى الذى لا يستطيع أحد أن يعبد حق عبادته ولا يثنى عليه كما يليق به والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لا تنسأبه إلى جناب الله تعالى كما قال بعضهم :

لاندعى إلا بعبادها فانه أشرف أسمائى

وقد سمي الله رسوله ﷺ بعبده فى أشرف مقاماته فقال (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) (سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا) فسماه عبداً عند إنزاله عليه وعند قيامه فى الدعوة وإسرائه به وأرشد به إلى القيام بالعبادة فى أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقد حكى الرازى فى تفسيره عن بعضهم أن مقام العبودية أشرف من مقام الرسالة لكون العبادة تصدر من الخلق إلى الحق والرسالة من الحق إلى الخلق ؛ قال ولأن الله يتولى مصالح عبده والرسول يتولى مصالح أمته ، وهذا القول خطأ والتوجيه أيضا ضعيف لاحاصل له ولم يتعرض له الرازى بتضعيف ولارد . وقال بعض الصوفية العبادة إما لتحصيل ثواب أودره عقاب قالوا وهذا ليس بطائل إذ مقصوده تحصيل مقصوده ، وإما للتشريف بتكاليف الله تعالى وهذا أيضا عندهم ضعيف بل العالى أن يعبد الله لذاته المقدسة الموصوفة بالكمال قالوا ولهذا يقول المصلى : أصلى لله ولو كان لتحصيل الثواب ودرء العقاب لبطلت الصلاة وقد رد ذلك عليهم آخرون وقالوا : كون العبادة لله عز وجل لا ينافى أن يطلب معها ثوابا ولا أن يدفع عذابا كما قال ذلك الأعرابى : أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ إنما أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار فقال النبي ﷺ « حولها ندندن »

« اهدنا الصراط المستقيم »

قراءة الجمهور بالصاد وقرئ السراط وقرئ بالزاي قال الفراء وهى لغة بنى عذرة وبنى كلب لما تقدم التناء على المسئول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال « فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل » وهذا أ كمل أحوال السائل أن يمدح مسئوله ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله (اهدنا الصراط المستقيم) لأنه أتبع للحاجة وأتبع للإجابة ولهذا أرشد الله إليه لأنه الأكمل وقد يكون السؤال بالاخبار عن حال السائل واحتياجه كما

قال موسى عليه السلام (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) وقد يتقدمه مع ذلك وصف مسئول كقول ذي النون (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) وقد يكون بمجرد الشاء على المسئول كقول الشاعر :

أذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء إذا أثني عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الشاء

والهداية هنا الإرشاد والتوفيق وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا (اهدنا الصراط المستقيم) فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا (وهديناه النجدين) أي بينا له الخير والشر وقد تعدى بإلى كقوله تعالى (اجتبه وهداه إلى صراط مستقيم) (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة وكذلك قوله (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) وقد تعدى باللام كقول أهل الجنة (الحمد لله الذي هدانا لهذا) أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا .

وأما الصراط المستقيم فقال الإمام أبو جعفر بن جرير أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا أعوجاج فيه وذلك في لغة جميع العرب فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفي :

أمير المؤمنين على صراط إذا أعوج الموارد مستقيم

قال والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر قال ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل ووصف باستقامة أو أعوجاج فتصف المستقيم باستقامته والمعوج بأعوجاجه .

ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط ، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد وهو المتابعة لله وللرسول فروى أنه كتاب الله قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثني يحيى بن يمان عن حمزة الزيات عن سعيد وهو ابن المختار الطائي عن ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الصراط المستقيم كتاب الله » وكذلك رواه ابن جرير من حديث حمزة ابن حبيب الزيات وقد تقدم في فضائل القرآن فيما رواه أحمد والترمذي من رواية الحارث الأعور عن علي مرفوعاً « وهو جبل الله التين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم » وقد روى موقوفاً علي رضي الله عنه وهو أشبه والله أعلم وقال الثوري عن منصور عن أبي وائل عن عبد الله قال الصراط المستقيم كتاب الله : وقيل هو الاسلام قال الضحاك عن ابن عباس قال : قال جبريل لمحمد عليهما السلام « قل يا محمد اهدنا الصراط المستقيم » يقول ألهمنا الطريق الهادي وهو دين الله الذي لا أعوجاج فيه وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس في قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) قال ذاك الاسلام وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ اهدنا الصراط المستقيم قالوا هو الاسلام وقال عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر اهدنا الصراط المستقيم قال هو الاسلام أوسع مما بين السماء والأرض وقال ابن الحنفية في قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم قال هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم اهدنا الصراط المستقيم قال هو الاسلام وفي هذا الحديث الذي رواه الامام أحمد في مسنده حيث قال حدثنا الحسن بن سوار أبو العلاء حدثنا ليث يعني ابن سعد عن معاوية بن صالح أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير حدثه عن أبيه عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتح - فانك إن تفتحته تلجه - فالصراط الاسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم » وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث الليث بن سعد بن عدي بن سمعان الترمذي والنسائي جميعاً عن علي بن حجر عن بقة عن مجير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن النواس بن سمعان به . وهو إسناد حسن صحيح والله أعلم . وقال مجاهد اهدنا الصراط المستقيم قال الحق وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث أبي الضر هاشم بن القاسم أنا حمزة بن المغيرة عن عاصم

الأحول عن أبي العالية (إهدنا الصراط المستقيم) قال هو النبي ﷺ وصاحبه من بعده قال طاصم فذكرنا ذلك للحسن فقال صدق أبو العالية ونصح . وكل هذه الأقوال صحيحة وهي متلازمة فإن من اتبع النبي ﷺ واقتدى بالذين من بعده أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق ومن اتبع الحق فقد اتبع الاسلام ومن اتبع الاسلام فقد اتبع القرآن وهو كتاب الله وحله المتين وصراطه المستقيم فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضا والله الحمد وقال الطبراني حدثنا محمد بن الفضل السقطي حدثنا ابراهيم بن مهدي المصيصي حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسول الله ﷺ . ولهذا قال الامام أبو جعفر بن جرير رحمه الله والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي أعنى - إهدنا الصراط المستقيم - أن يكون معناه به وقفنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل وذلك هو الصراط المستقيم لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للاسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب والعمل بما أمره الله به والانزجار عما زجره عنه واتباع منهاج النبي ﷺ ومنهاج الخلفاء الأربعة وكل عبد صالح وكل ذلك من الصراط المستقيم .

(فان قيل) فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك ؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا ؟

فالجواب أن لا ، ولولا احتياجه ليلا ونهارا إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك فان العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها فان العبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمهده بالمعونة والثبات والتوفيق فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله فانه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل) الآية فقد أمر الذين آمنوا بالايمان وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك والله أعلم . وقال تعالى آمرا لعباده المؤمنين أن يقولوا (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) وقد كان الصديق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً فعنى قوله تعالى (إهدنا الصراط المستقيم) استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد إهدنا الصراط المستقيم إلى آخرها أن الله يقول « هذا لعبدي ولعبدى ماسأل » وقوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) مفسر للصراط المستقيم وهو بدل منه عند النجاة ويجوز أن يكون عطف بيان والله أعلم . والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا * ذلك الفضل من الله وكفى بالله علما) وقال الضحاك عن ابن عباس صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين وذلك نظير ما قال ربنا تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) الآية . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس (صراط الذين أنعمت عليهم) قال هم النبيون وقال ابن جريج عن ابن عباس هم المؤمنون ، وكذا قال مجاهد وقال وكيع هم المسلمون وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هم النبي ﷺ ومن معه والتفسير المتقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أعم وأشمل والله أعلم .

وقوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قرأ الجمهور غير بالجر على النعت قال الزمخشري وقرئ بالنصب على الحال وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب ورويت عن ابن كثير وذو الحال الضمير في

عليهم والعامل أنعمت والمعنى اهدنا الصراط المستقيم صراط الدين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعمتهم وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجه غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين فسدت إرادتهم فعملوا الحق وعدلوا عنه ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق . وأكد الكلام بلا يدل على أن ثم مسلكين فاسدين وهما طريقة اليهود والنصارى وقد زعم بعض النحاة أن غير ههنا استثنائية فيكون على هذا منقطعاً لاستثنائهم من النعم عليهم وليسوا منهم وما أوردناه أولى لقول الشاعر :

كأنك من جمال بنى أقيش * يقعق عند رجله بشن

أى كأنك جل من جمال بنى أقيش فحذف الموصوف واكتفى بالصفة وهكذا غير المغضوب عليهم أى غير صراط المغضوب عليهم اكتفى بالمضاف اليه عن ذكر المضاف وقد دل عليه سياق الكلام وهو قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم صراط الدين أنعمت عليهم) ثم قال تعالى (غير المغضوب عليهم) ومنهم من زعم أن لا فى قوله تعالى ولا الضالين زائدة وأن تقدير الكلام عنده غير المغضوب عليهم والضالين واستشهد بيت العجاج

فى بئر لا حور * سعى وما شعر

أى فى بئر حور والصحيح ما قدمناه ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن عن أبى معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقرأ غير المغضوب عليهم وغير الضالين وهذا إسناد صحيح وكذلك حكى عن أبى بن كعب أنه قرأ كذلك وهو محمول على أنه صدر منهما على وجه التفسير . فيدل على ما قلناه من أنه إنما جاء بلائاً كيداً للنبي لثلاثتهم أنه معطوف على الذين أنعمت عليهم وللفرق بين الطريقتين ليجنب كل واحد منهما فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى لأن من علم وترك استحق الغضب بخلاف من لم يعلم والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابيه وهو اتباع الحق ضلوا وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه لكن أخص اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم (من لعنه الله وغضب عليه) وأخص النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم (قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) وبهذا جاءت الأحاديث والآثار وذلك واضح بين فيما قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال سمعت سيار بن حرب يقول سمعت عباد بن جبش يحدث عن عدى بن حاتم قال جاءت خيل رسول الله ﷺ فأخذوا عمى وناساً فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صفوا له فقال يا رسول الله : نأى الوافد واقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بى من خدمة فمن على من الله عليك قال « من وافدك ؟ » قالت عدى بن حاتم قال « الذى فرمى الله ورسوله » قالت فمن على فلما رجع ورجل إلى جنبه ترى أنه على قال سليه حملانا فسلته فأمر لها قال فأنتنى فقالت لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها فانه قد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه فأنتيته فاذا عنده امرأة وصبيان وذكر قربهم من النبي ﷺ قال فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر فقال يا عدى ما أفرك ؟ أن يقال لا إله إلا الله ؟ فهل من إله إلا الله ما أفرك ؟ أن يقال الله أكبر فهل شئ أكبر من الله عز وجل قال فأسلمت فرأيت وجهه استبشر وقال إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى وذكر الحديث ورواه الترمذى من حديث سيار بن حرب وقال حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه (قلت) وقد رواه حماد بن سلمة عن سيار عن مري بن قطري عن عدى بن حاتم قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى (غير المغضوب عليهم) قال هم اليهود (ولا الضالين) قال النصارى هم الضالون وهكذا رواه سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبي عن عدى بن حاتم به وقد روى حديث عدى هذا من طرق وله الفاظ كثيرة يطول ذكرها وقال عبد الرزاق أنا معمر عن بديل العقيلي أخبرنى عبد الله بن شقيق أنه أخبره من سمع رسول الله ﷺ وهو بوادى القرى على فرسه وسأله رجل من بنى القين فقال يا رسول الله من هؤلاء قال المغضوب عليهم وأشار إلى اليهود والضالون هم النصارى وقد رواه الجريرى

وعروة وخالد الخذاء عن عبد الله بن شقيق فأرسلوه ولم يذكروا من سمع النبي ﷺ ووقع في رواية عروة تسمية عبد الله بن عمرو قاله أعلم وقد روى ابن مردويه من حديث إبراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم قال اليهود قلت الضالين قال النصارى وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الحمداي عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ غير المغضوب عليهم هم اليهود ولا الضالين هم النصارى وقال الضحاك وابن جريج عن ابن عباس غير المغضوب عليهم اليهود ولا الضالين النصارى وكذلك قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد وقال ابن أبي حاتم ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون الحديث المتقدم وقوله تعالى في خطابه مع بني إسرائيل في سورة البقرة (بئس ما اشترؤا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين) وقال في المائدة (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل) وقال تعالى (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف قالت له اليهود إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله فقال أنا من غضب الله أفر وقالت له النصارى إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله فقال لا أستطيعه فاستمر على فطرته وجانب عبادة الأوثان ودين الشركين ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك وكان منهم ورقة بن نوفل حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي رضى الله عنه ﴿مسألة﴾ والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والطاء لقرب مخرجيهما وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ومخرج الطاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ولأن كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك والله أعلم وأما حديث أنا أفصح من نطق بالضاد فلا أصل له والله أعلم ﴿فصل﴾ اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا وعلى ذكر العباد وهو يوم الدين وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرئ من حولهم وقوتهم وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الدين القويم وتشبيهم عليه حتى يقضى لهم بذلك إلى جواز الصراط الحسية يوم القيامة المفضى بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة والتحذير من مسالك الباطل لئلا يخشروا مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون وما أحسن ما جاء إسناد الانعام إليه في قوله تعالى (صراط الدين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم) وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى (غير المغضوب عليهم) وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم) الآية وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به وإن كان هو الذي اضلهم بقدره كما قال تعالى (من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا) وقال (من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المفرد بالهداية والاضلال لا كما تقول الفرقة القدريّة ومن هذا خذوهم من أن العبادهم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ويحتجون على بدعتهم بمشابهة من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحا في الرد عليهم : وهذا حال أهل الضلال والغي وقد ورد في الحديث الصحيح « إذا رأيتم الدين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم » يعني في قوله تعالى (فأما الذين في قلوبهم زيغ

فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) فليس ، بحمد الله ، لمبتدع في القرآن حجة صحيحة لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقا بين الهدى والضلال وليس فيه تناقض ولا اختلاف لأنه من عند الله تنزيل من حكيم حميد

﴿فصل﴾ يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين مثل يس ويقال آمين بالقصر أيضا ومعناه اللهم استجب والدليل على استحباب التأمين ما رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر قال سمعت النبي ﷺ قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقال آمين مد بها صوته ، ولأبي داود رفع بها صوته ، وقال الترمذي هذا حديث حسن وروى عن علي وابن مسعود وغيرهم . وعن أبي هريرة قال كان رسول الله ﷺ إذا تلا (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال « آمين » حتى يسمع من يليه من الصف الأول رواه أبو داود وابن ماجه وزاد فيه فیرتج بها المسجد . والدارقطني وقال . هذا إسناد حسن . وعن بلال أنه قال : يا رسول الله لا تسبقني بآمين رواه أبو داود ونقل أبو نصر القشيري عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شجدا الميم من آمين مثل (آمين البيت الحرام) قال أصحابنا وغيرهم ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة ، ويتأكد في حق الصلي ، وسواء كان منفردا أو إماما أو مأموما وفي جميع الأحوال لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال « إذا قال أحدكم في الصلاة آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه » قيل بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان وقيل في الاجابة وقيل في صفة الاخلاص وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعا « إذا قال - يعني الامام - ولا الضالين فقولوا آمين يحكم الله » وقال جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال قلت يا رسول الله ما معنى آمين ؟ قال « رب افعل » وقال الجوهرى معنى آمين كذلك فليكن . وقال الترمذي معناه لا تخيب رجاءنا . وقال الأكثر من معناه اللهم استجب لنا . وحكى القرطبي عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن يساف أن آمين اسم من أسماء الله تعالى وروى عن ابن عباس مرفوعا ولا يصح قاله أبو بكر ابن العربي المالكي . وقال أصحاب مالك لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم لما رواه مالك عن سمى عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « وإذا قال - يعني الامام - ولا الضالين فقولوا آمين » الحديث واستأنسوا أيضا بحديث أبي موسى عند مسلم « وإذا قرأ ولا الضالين فقولوا آمين » وقد قدمنا في المتفق عليه « إذا أمن الإمام فأمنوا » وأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤمن إذا قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية وحاصل الخلاف أن الامام إن نسي التأمين جهر المأموم به قول واحد وإن أمن الإمام جهره فالجديد أنه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة ورواية عن مالك لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة . والقديم أنه يجهر به وهو مذهب الامام أحمد بن حنبل والرواية الأخرى عن مالك لا تقدم « حتى يرتج المسجد » ولنا قول آخر ثالث أنه إن كان المسجد صغيرا لم يجهر المأموم لأنهم يسمعون قراءة الامام وإن كان كبيرا جهر ليبلغ التأمين من أرجاء المسجد والله أعلم . وقد روى الامام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود فقال « إنهم لن يحسدونا على شيء كما يحسدونا على الجمعة التي هداها الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التي هداها الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الامام آمين » ورواه ابن ماجه ولفظه « ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على قول آمين فأكثروا من قول آمين » وفي إسناده طلحة بن عمرو وهو ضعيف وروى ابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين » وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطيت آمين في الصلاة وعند الدعاء لم يعط أحد قبلي إلا أن يكون موسى كان موسى يدعو وهرون يؤمن فاختموا الدعاء بآمين فان الله يستجيبه لكم » (قلت) ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه الآية السكينة وهي قوله تعالى (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليصورنا على سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا

العذاب الأليم * قال قد أجيت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون (فذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام ما يدل على أن هرون آمن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى (قد أجيت دعوتكما) فدل ذلك على أن من آمن على دعاء فكأنما قاله فلهذا قال من قال إن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها ولهذا جاء في الحديث « من كان له إمام فقراءة الامام له قراءة » رواه أحمد في مسنده وكان بلال يقول لا تسبقني بآمين يارسول الله . فدل هذا المزج على أن المأموم لا قراءة عليه في الجهرية والله أعلم ولهذا قال ابن مردويه حدثنا أحمد بن الحسن حدثنا عبد الله بن محمد بن سلام حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا جرير عن ليث عن ابن أبي سليم عن كعب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا قال الامام غير المنضوب عليهم ولا الضالين ، فقال آمين ، فوافق آمين أهل الأرض آمين أهل السماء غفر الله للعبد ما تقدم من ذنبه ومثل من لا يقول آمين كشل رجل غزاع قوم فاقرعوا فخرجت سهامهم ولم يخرج سهمه فقال لم يخرج سهمي ؟ قيل إنك لم تقل آمين »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ * رب يسر وأعن يا كريم *

تفسير سورة البقرة

(ذكر ما ورد في فضلها) قال الامام أحمد حدثنا عارم حدثنا معتمر عن أبيه عن رجل عن أبيه عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال « البقرة سنام القرآن وذروته نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا واستخرجت (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) من تحت العرش فوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة ، ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة الا غفر له واقرءوها على موتاكم » انفرد به أحمد وقد رواه أحمد أيضا عن عارم عن عبد الله بن المبارك عن سليمان التيمي عن أبي عثمان - وليس بالتهدي - عن أبيه عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ « اقرءوها على موتاكم » يعني يس . فقد تبينا بهذا الاسناد معرفة المبهمة في الرواية الأولى . وقد أخرج هذا الحديث على هذه الصفة في الرواية الثانية أبو داود والنسائي وابن ماجه ، وقد روى الترمذي من حديث حكيم بن جبير وفيه ضعف عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي » وفي مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا تجعلوا بيوتكم قبورا فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان » وقال الترمذي حسن صحيح وقال أبو عبيد القاسم بن سلام حدثني ابن أبي مريم عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن الشيطان يخرج من البيت اذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه » سنان بن سعد ويقال بالعكس وثقه ابن معين واستنكر حديثه أحمد بن حنبل وغيره . وقال أبو عبيد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سلمة بن كهيل عن أبي الأحوص عن عبد الله - يعني ابن مسعود - رضى الله عنه قال ان الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة ورواه النسائي في اليوم والليلة وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث شعبة ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل حدثنا أبو إسحاق الترمذي حدثنا أيوب بن سليمان بن بلال حدثني أبو بكر بن أبي أوس عن سليمان بن بلال عن محمد بن عجلان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لا ألفين أحداكم يضع إحدى رجله على الأخرى يتغنى ويدع سورة البقرة يقرؤها فان الشيطان ينفر من البيت تقرأ فيه سورة البقرة وإن أصغر البيوت الجوف الصفر من كتاب الله » وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن محمد بن نصر عن أيوب بن سليمان به وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود قال ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة الا خرج منه الشيطان وله ضراط وقال إن لكل شيء سناما وإن سنام القرآن سورة البقرة وإن لكل شيء لبابا وإن لباب القرآن للفصل . وروى أيضا من طريق الشعبي قال : قال عبد الله بن مسعود من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان

تلك الليلة ، أربع من أولها وآية الكرسي ، وآيتان بعدها ، وثلاث آيات من آخرها ، وفي رواية لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان . ولا شيء يكرهه ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق . وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « إن لكل شيء سناما وإن سنام القرآن البقرة وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام » رواه أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم وابن حبان في صحيحة وابن مردويه من حديث الأزرق بن علي حدثنا حسان بن إبراهيم حدثنا خالد بن سعيد المدني عن أبي حازم عن سهل به . وعند ابن حبان خالد بن سعيد الديني وقد روى الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر عن سعيد القبري عن عطاء مولى أبي أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال « بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم مامعه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال مامعك يا فلان فقال معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال أمعك سورة البقرة ؟ قال نعم قال : اذهب فأنت أميرهم » فقال رجل من أشrafهم والله مامعني أن أتعلم سورة البقرة إلا أني خشيت أن لا أقوم بها . فقال رسول الله ﷺ « تعلموا القرآن واقروه فان مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه في كل مكان ومثل من تعلمه فتركه وهو في جوفه كمثل جراب أو كي على مسك » هذا لفظ رواية الترمذي ثم قال هذا حديث حسن ثم رواه من حديث الليث عن سعيد عن عطاء مولى أبي أحمد مرسلًا قال البخاري وقال الليث حدثني يزيد بن المهدي عن محمد بن إبراهيم عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال بينا هو يقرأ من الليل سورة البقرة - وفرسه مربوطة عنده - إذ جالت الفرس ، فسكت فسكت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت فسكت ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها . فأشفق أن تصيبه فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال « اقرأ يا ابن حضير » قال قد اشفقت يا رسول الله على يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي وانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها امثال المصاييح فخرجت حتى لا أراها قال « وتندري ماذا ؟ » قال لا قال « تلك الملائكة دنت لصوتك ولوقرات لاصبحت ينظر الناس اليها لا تتواى منهم » وهكذا رواه الامام العالم ابو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن عن عبدالله بن صالح ويحيى بن بكير عن الليث به . وقد روى من وجه آخر عن أسيد بن حضير كما تقدم والله أعلم . وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه وذلك فيما رواه ابو عبيد حدثنا عباد بن عباد عن جرير بن حازم عن عمه جرير بن يزيد أن اشياخ اهل المدينة حدثوه « أن رسول الله ﷺ قيل له ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصاييح قال « فلعله قرأ سورة البقرة » قال فسألت ثابتاً فقال قرأت سورة البقرة » وهذا إسناد جيد إلا أن فيه إيهاماً ثم هو مرسل والله أعلم

﴿ ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران ﴾

قال الامام أحمد حدثنا أبو نعيم حدثنا بشر بن مهاجر حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كنت جالسا عند النبي ﷺ فسمعتة يقول « تعلموا سورة البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطالة » قال ثم سكت ساعة ثم قال « تعلموا سورة البقرة وآل عمران فانهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف وإن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له هل تعرفني ؟ فيقول : ما أعرفك فيقول أنا صاحبك القرآن الذي أظمتك في الهواجر وأشهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى الملك يمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتان لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان بما كسبنا هذا فيقال بأخذولك كما القرآن ثم يقال اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها فهو في صعود مادام يقرأ هذا كان أو ترتيلا » وروى ابن ماجه من حديث بشر بن المهاجر بعضه وهذا إسناد حسن على شرط مسلم فان بشرا هذا خرج له مسلم ووثقه ابن معين وقال النسائي مابه بأس إلا أن الامام أحمد قال فيه هو منكر الحديث قد اعتبرت أحاديثه فإذا هي تأتي بالعجب وقال البخاري يخالف في بعض حديثه وقال أبو حاتم

الرازي يكتب حديثه ولا يحتج به وقال ابن عدى روى مالا يتابع عليه وقال الدار قطنى ليس بالقوى (قلت) ولكن لبعضه شواهد فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي قال الامام أحمد حدثنا عبد الملك بن عمر حدثنا هشام عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلام عن أبي أمامة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « اقرءوا القرآن فانه شافع لأهله يوم القيامة اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران فانهما يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلها يوم القيامة ثم قال اقرءوا البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة وقد رواه مسلم في الصلاة من حديث معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبي سلام ممتور الحبشي عن أبي أمامة صدق بن عجلان الباهلي به . الزهراوان : النيرتان ، والغياية : ما أظلك من فوقك ، والفرق : القطعة من الشيء ، والصواف المصطفة للتضامة : والبطلة السحرة ، ومعنى لا تستطيعها أى لا يمكنهم حفظها وقيل لا يستطيع النفوذ في قارئها والله أعلم . ومن ذلك حديث النواس بن سمعان قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي عن جبير بن نغير قال سمعت النواس بن سمعان الكلبي يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران » وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال مانسيتين بعد قال « كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما » ورواه مسلم عن إسحاق بن منصور عن يزيد بن عبد ربه به ، والترمذي من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجرشي به وقال حسن غريب ، وقال أبو عبيد حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير قال : قال حماد أحسبه عن أبي منيب عن عمه أن رجلا قرأ البقرة وآل عمران فلما قضى صلاته قال له كعب أقرأت البقرة وآل عمران ؟ قال نعم قال فوالذي نفسي بيده إن فيهما اسم الله الذي إذا دعى به استجاب . قال فأخبرني به قال لا والله لا أخبرك به ولو أخبرتك به لأوشكت أن تدعوه بدعوة أهلكت فيها أنا وأنت ، وحدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن سليم بن عامر انه سمع ابا امامة يقول إن أبا لكم أرى في المنام ان الناس يسلكون في صدع جبل وعر طويل وطي راس الجبل شجرتان خضراوان يهتفان هل فيكم قارئ يقرأ سورة البقرة ؟ وهل فيكم قارئ يقرأ سورة آل عمران ؟ قال فاذا قال الرجل نعم دنا منه بأعناقهما حتى يتعلق بهما فيخطران به الجبل : وحدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن ابي عمران انه سمع ام الدرداء تقول إن رجلا من قرأ القرآن اغار على جاره فقتله وإنه اقيده فقتل فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة ثم إن آل عمران انسلت منه وأقامت البقرة جمعة فقبل لها (ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) قال فخرجت كأنها السحابة العظيمة قال أبو عبيد أراه يعني أنهما كانتا معه في قبره يدفعان عنه ويؤنسانه فكاتتا من آخر ما بقى معه من القرآن . وقال أيضاً حدثنا أبو مسهر الغساني عن سعيد بن سعيد بن عبد العزيز التنوخي أن يزيد بن الأسود الجرشي كان يحدث أنه من قرأ البقرة وآل عمران في يوم برى من النفاق حتى يمسي ومن قرأهما في ليلة برى من النفاق حتى يصبح قال فكان يقرؤهما كل يوم ليلة سوى جزئه . وحدثنا يزيد بن ورقاء ابن إياس عن سعيد بن جبير قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من قرأ البقرة وآل عمران في ليلة كان أو كتب من القاتنين . فيه انقطاع ولكن ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعة واحدة

﴿ ذكر ماورد في فضل السبع الطول ﴾

قال أبو عبيد حدثنا هشام بن اسماعيل الدمشقي عن محمد بن شعيب عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي المليح عن وائلة بن الأسقع عن النبي ﷺ قال « أعطيت السبع الطول مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الانجيل وأعطي المئتان مكان الزبور وفضلت بالمفصل » هذا حديث غريب وسعيد بن أبي بشير فيه لين وقد رواه أبو عبيد عن عبد الله بن صالح عن الليث عن سعيد بن أبي هلال قال بلغنا أن رسول الله ﷺ قال فذكره والله

أعلم ثم قال حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب عن حبيب بن هند الأسامي عن عروة عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال « من أخذ السبع فهو حبر » وهذا أيضا غريب وحبيب بن هند بن أسماء بن هند بن حارثة الأسامي وروى عنه عمرو بن عمرو (١) وعبد الله بن أبي بكرة وذكره أبو حاتم الرازي ولم يذكر فيه جرحا فإله أعلم. وقدرناه الإمام أحمد عن سليمان بن داود وحسين كلاهما عن إسماعيل بن جعفر به ورواه أيضا عن أبي سعيد عن سليمان بن بلال عن حبيب بن هند عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر » قال أحمد وحدثنا حسين حدثنا ابن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مثله قال عبد الله بن أحمد وهذا أرى فيه عن أبيه عن الأعرج ولكن كذا كان في الكتاب فلا أدري أغفله أم لا (٢) كذا هو مرسل وروى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث بعثا وهم ذوو عدد وقدم عليهم أحدهم سنا لحفظه سورة البقرة وقال له « اذهب فأنت أميرهم » وصححه الترمذي ثم قال أبو عبيد حدثنا هشيم أنا أبو بشر عن سعيد بن جبير في قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) قال هي السبع الطول البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس قال : وقال مجاهد هي السبع الطول وهكذا قال مكحول وعطية بن قيس وأبو محمد الفارسي وشداد بن أوس ويحيى بن الحارث الذماری في تفسير الآية بذلك وفي تعدادها وأن يونس هي السابعة .

﴿ فصل ﴾ والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف وهي من أوائل ما نزل بها لكن قوله تعالى فيه (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) الآية يقال إنها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل وكان خاله بن معدان يسمى البقرة فسقاط القرآن قال بعض العلماء وهي مشتملة على ألف خبر وألف أمر وألف نهى وقال العادون آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان وإحدى وعشرون كلمة وحروفها خمسة وعشرون ألفا وخمسمائة حرف فإله أعلم . قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وقال خصيف عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير قال نزلت بالمدينة سورة البقرة وقال الواقدي حدثني الضحاك بن عثمان عن أبي الزناد عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال نزلت البقرة بالمدينة وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه . وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن معمر حدثنا الحسن بن علي بن الوليد الفارسي حدثنا خلف بن هشام وحدثنا عيسى بن ميمون عن موسى بن أنس بن مالك عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها البقرة والتي يذكر فيها آل عمران وكذا القرآن كله » هذا حديث غريب لا يصح رفعه وعيسى بن ميمون هذا هو أبو سلمة الخواص وهو ضعيف الرواية لا يحتج به وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادي فجعل البيت عن يساره ومضى عن يمينه ثم قال هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة أخرجه ، وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن مرثد قال رأى النبي ﷺ في أصحابه تأخرا فقال « يا أصحاب سورة البقرة » وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم « يا أصحاب الشجرة » يعني أهل بيعة الرضوان وفي رواية « يا أصحاب سورة البقرة » لينشطهم بذلك فجعلوا يقبلون من كل وجه وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلة جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون يا أصحاب سورة البقرة حتى فتح الله عليهم رضي الله عن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور فمنهم من قال هي مما استأثر الله بعلمه فردوا عليها

(١) كذا والذي تقدم عمرو بن أبي عمرو (٢) هكذا في جميع النسخ والصواب أم

إلى الله ولم يفسروها حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين ؛ وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري والربيع بن خيثم واختاره أبو حاتم بن حبان . ومنهم من فسرها واختلف هؤلاء في معناها فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنها هي أسماء السور . قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر : لا يخشى في تفسيره وعليه إطباق الأكثر ونقله عن سيوبه أنه نص عليه ويعتضد لهذا بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة الم السجدة وهل أتى على الإنسان وقال سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال : الم ، وح ، والمص ، وص ، فواتح افتتح الله بها القرآن ، وكذا قال غيره عن مجاهد وقال مجاهد في رواية أبي حذيفة موسى بن مسعود عن شبل عن ابن أبي نجيح عنه أنه قال الم اسم من أسماء القرآن وهكذا قال قتادة وزيد بن أسلم ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه اسم من أسماء السور فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن فإنه يبعد أن يكون المص اسما للقرآن كله لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول قرأت المص إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف للجموع القرآن والله أعلم .

وقيل هي اسم من أسماء الله تعالى فقال الشعبي فواتح السور من أسماء الله تعالى وكذلك قال سالم بن عبد الله وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير وقال شعبة عن السدي بلغني أن ابن عباس قال الم اسم من أسماء الله الأعظم (؟) هكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث شعبة ورواه ابن جرير عن بNDAR عن ابن مهدي عن شعبة قال سألت السدي عن حم وطس والم فقال : قال ابن عباس هي اسم الله الأعظم وقال ابن جرير وحدثنا محمد بن الثني حدثنا أبو النعمان حدثنا شعبة عن إسماعيل السدي عن مرة الهمداني قال : قال عبد الله فذكر محوه ، وحكى مثله عن علي وابن عباس وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس هو قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله تعالى وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث ابن علي عن خالد الحذاء عن عكرمة أنه قال الم قسم . وروى أيضا من حديث شريك بن عبد الله عن عطاء ابن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس : الم قال أنا الله أعلم . وكذا قال سعيد بن جبير وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ الم قال أمالم فهي حروف استتجت من حروف هجاء أسماء الله تعالى . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى الم قال هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفا دارت فيها الألس كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه ، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه ، وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وآجالهم قال عيسى بن مريم عليه السلام وعجب : فقال أعجب أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون في رزقه فكيف يكفرون به ، فالألف مفتاح اسم الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد فالألف آلاء الله واللام لطف الله والميم مجدا لله ، والألف سنة واللام ثلاثون سنة والميم أربعون سنة

هذا لفظ ابن أبي حاتم ونحوه رواه ابن جرير ثم شرع بوجه كل واحد من هذه الأقوال ويوفق بينها وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر وأن الجمع ممكن فهي أسماء للسور ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السور فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته كما افتتح سورا كثيرة بتحميده وتسييحه وتعظيمه ، قال ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله وعلى صفة من صفاته وعلى مدة وغير ذلك كما ذكره الربيع بن أنس عن أبي العالية لأن الكلمة الواحدة تطلق على معان كثيرة كلفظة الأمة فانها تطلق ويراد به الدين كقوله تعالى (إنا وجدنا آباءنا على أمة) وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله كقوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) وتطلق ويراد بها الجماعة كقوله تعالى (وجد عليه أمة من الناس يسقون) وقوله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا) وتطلق ويراد بها الحين من الدهر كقوله تعالى (وقال الذي نجا منها وادكر بعد أمة) أي بعد حين على أصح القولين قال فكذلك هذا

هذا حاصل كلامه موجها ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية فإن أبا العالية زعم أن الحرف دل على هذا وعلى

هذا وعلى هذا ما ولقطة الأمة وما أشبهها من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام فأما حملها على مجموع محاملها إذا أمكن فمسئلة مختلف فيها بين علماء الأصول ليس هذا موضع البحث فيها والله أعلم . ثم إن لفظة الأمة تدل على كل من معانيها في سياق الكلام بدلالة الوضع فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الاضمار بوضع ولا بغيره فهذا مما لا يفهم الابتوقيف ، والمسئلة مختلف فيها وليس فيها إجماع حتى يحكم به وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فإن في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا كما قال الشاعر :

قلنا قني لنا فقالت قاف * لا تحسبنا نسينا الإيجاف

تعني وقفت . وقال الآخر : ما للظلم عال كيف لا يا * يتقد عنه جلده إذا يا
فقال ابن جرير كأنه أراد أن يقول إذا يفعل كذا وكذا فاكثفى بالياء من يفعل وقال الآخر :

بالخير خيرات وإن شرأفا * ولا أريد الشر إلا أن تا

يقول وإن شرأ فشر ولا أريد الشر إلا أن تشاء فاكثفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام والله أعلم .

قال القرطبي وفي الحديث « من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة » الحديث قال سفيان هو أن يقول في قتل « اق » وقال خصيف عن مجاهد إنه قال فواتح السور كلها (ق وص وحم وطسم والر) وغير ذلك هجاء موضوع وقال بعض أهل العربية هي حروف من حروف المعجم استثنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تسعة الثمانية والعشرين حرفا كما يقول القائل ابني يكتب في - اب ت ث - أي في حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير .

قلت مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بخذف المكرر منها أربعة عشر حرفا وهي - الم ص ركه ع ط س ح ق ن - يجمعها قولك : نص حكيم قاطع له سر . وهي نصف الحروف عددا والمذكور منها أشرف من التروك (١) وبيان ذلك من صناعة التصريف . قال الزمخشري وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف يعنى من المهموسة والمجهورة ، ومن الرخوة والشديدة ، ومن الطبقة والفتوحة ومن المستعيلة والمنخفضة ومن حروف التقليلة . وقد سردتها مفصلة ثم قال . فسبحان الذى دقت في كل شيء حكمته . وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها وقد علمت أن معظم الشيء وجهه ينزل منزلة كله ومن ههنا لحص بعضهم في هذا المقام كلاما فقال : لاشك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثا ولا سدى ؛ ومن قال من الجهلة إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكيفية فقد أخطأ خطأ كبيرا ، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر فإن صحت لنا فيها عن العصوم شيء قلنا به وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا (آمنا به كل من عند ربنا) ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإلا فالوقف حتى يتبين . هذا مقام .

المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور ما هي مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها ، فقال بعضهم إنما ذكرت ليعرف بها أوائل السور حكاه ابن جرير وهذا ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة وقال آخرون بل ابتدئ بها لتفتح لاستماع السامع المشركين إذ تواصلوا بالاعراض عن القرآن حتى إذا استمعوا له تلا عليهم المؤلف منه حكاه ابن جرير أيضاً وهو ضعيف أيضاً لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها بل غالبا ليس كذلك ولو كان كذلك أيضاً لانبغى الابتداء بها في أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك ثم إن هذه السورة والتي تليها أعنى البقرة

(١) (قوله أشرف الخ) فيه نظر لأن الجميع كلام الله إلا أن يقال أشرف بمعنى أعظم

وآل عمران مدينتان ليستا خطابا للمشركين فانتقض ما ذكره بهذه الوجوه . وقال آخرون بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانا لأعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن البرد وجمع من المحققين ، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا : وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر ، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزني وحكاه لي عن ابن تيمية .

قال الزمخشري ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيث كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدي بالصريح في أماكن قال وجاء منها على حرف واحد كقوله - ص ن ق - وحرفين مثل (حم) وثلاثة مثل (الم) وأربعة مثل (المر والمص) وخمسة مثل (كهيعص وحمسق) لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ماهو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك (قلت) ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة ولهذا يقول تعالى (الم ؛ ذلك الكتاب لا ريب فيه) (الم ؛ الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه) (المص ؛ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه) (الر ؛ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم) (الم ، تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) (حم ؛ تنزيل من الرحمن الرحيم) (حمسق ؛ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر والله أعلم .

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له ؛ وطار في غير مطاره ، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته وهو ما رواه محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر ابن عبد الله بن رباب قال مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة (الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه) فأتى أخاه حي بن أخطب في رجال من اليهود فقال تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله تعالى عليه (الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه) فقال أنت سمعته قال نعم قال فشيء حي بن أخطب في أولئك نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك (الم . ذلك الكتاب) ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بلى » فقالوا جاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ فقال « نعم » قالوا لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين نبي منهم مائة ملكة وما أجل أمته غيرك . فقام حي بن أخطب وأقبل على من كان معه فقال لهم الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة أفقدخولون في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة ؟ ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد هل مع هذا غيره فقال نعم ، قال ماذا ؟ قال « المص » قال هذا أثقل وأطول ، الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة . هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال : نعم ، قال ماذا ؟ قال الر . قال هذا أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة . فهل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال « نعم » قال ماذا قال « المر » قال هذا أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون ومائتان ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً . ثم قال قوموا عنه ، ثم قال أبو ياسر لأخيه حي بن أخطب ولين معه من الأبحار ما يدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون واحدة وثلاثون ومائة واحدة وثلاثون ومائتان واحد وسبعون ومائتان فذلك سبع مائة وأربع سنين : فقالوا لقد تشابه علينا أمره فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي وهو بمن لا يحتاج بما انفرد به ثم

كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحاً أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها وذلك يبلغ منه جملة كثيرة وإن حسبت مع التكرار فأظم وأعظم والله أعلم

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

قال ابن جريج قال ابن عباس ذلك الكتاب أى هذا الكتب وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدى ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم وابن جريج أن ذلك بمعنى هذا والعرب تعارض بين اسمى الإشارة فيستعملون كلاهما مكان الآخر وهذا معروف في كلامهم وقد حكاه البخارى عن معمر بن الثنى عن أنى عبيدة وقال الزخشرى ذلك إشارة إلى (الم) كما قال تعالى (لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) وقال تعالى (ذلكم حكم الله يحكم بينكم) وقال (ذلكم الله) وأمثال ذلك مما أشير به إلى ما تقدم ذكره والله أعلم. وقد ذهب بعض المفسرين فيما حكاه القرطبي وغيره أن ذلك إشارة إلى القرآن الذى وعد الرسول ﷺ بانزاله عليه أو التوراة أو الانجيل أو نحو ذلك فى أقوال عشرة وقد ضعف هذا المذهب كثيرون والله أعلم.

والكتاب القرآن ومن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والانجيل كما حكاه ابن جرير وغيره فقد أبعد النجعة وأغرق فى النزاع وتكلف ما لا علم له به. والريب الشك قال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ (لا ريب فيه) لاشك فيه وقال أبو الدرداء وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدى وقتادة وإسماعيل بن أبى خالده. وقال ابن أبى حاتم لا أعلم فى هذا خلافاً. وقد يستعمل الريب فى التهمة قال جميل:

بشينة قالت يا جميل أربتنى * فقلت كلانا يابثنى مريب

واستعمل أيضاً فى الحاجة كما قال بعضهم:

قضينا من تهامة كل ريب * وخير ثم أجمعنا السيوفاً

ومعنى الكلام هنا أن هذا الكتاب هو القرآن لاشك فيه أنه نزل من عند الله كما قال تعالى فى السجدة (ألم تنزل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) وقال بعضهم هذا خبر ومعناه النبى أى لا ترتابوا فيه. ومن القراء من يقف على قوله تعالى (لا ريب) ويستدعى بقوله تعالى (فيه هدى للمتقين) والوقف على قوله تعالى (لا ريب فيه) أولى للآية التى ذكرناها ولأنه يصير قوله تعالى (هى) صفة للقرآن وذلك أبلغ من كون فيه هدى. وهى تحتل من حيث العربية أن يكون مرفوعاً على النعت ومنصوباً على الحال وخست الهداية للمتقين كما قال (قل هو الذى آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن لأنه هو فى نفسه هدى ولكن لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) وقد قال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ (هى للمتقين) يعنى نوراً للمتقين. وقال أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس قال هدى للمتقين قال هم المؤمنون الذين يتقون الشرك بى ويعملون بطاعتي وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (للمتقين) قال الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك ما يعرفون من الهدى ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به وقال سفيان الثورى عن رجل عن الحسن البصرى قوله تعالى للمتقين قال: اتقوا ما حرم الله عليهم وأدوا ما فرض عليهم وقال أبو بكر بن عياش سألنى الأعمش عن المتقين قال فأجبتة فقال لى سل عنها الكلبى فسأله فقال الذين يحبون كباثر الاثم قال فرجعت الى الأعمش فقال يرى أنه كذلك ولم ينكره. وقال قتادة للمتقين هم الذين نعتهم الله بقوله (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة)

الآية والتي بعدها واختيار ابن جرير أن الآية تم ذلك كله وهو كما قال . وقد روى الترمذى وابن ماجه من رواية أبي عقيل عبد الله بن عقيل عن عبد الله بن يزيد عن ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس عن عطية السعدى قال : قال رسول الله ﷺ « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس » ثم قال الترمذى حسن غريب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن عمران عن إسحق بن سليمان يعنى الرازى عن المغيرة بن مسلم عن ميمون أبي حمزة قال : كنت جالسا عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل قال بلى سمعته يقول يحبس الناس يوم القيامة في بقيق واحد فينادى مناد أين المتقون ؟ فيقومون في كنف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر . قلت من المتقون قال قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله العبادة فيمرون إلى الجنة . ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله عز وجل قال الله تعالى (إنك لاتهدى من أحببت) وقال (ليس عليك هدايم) وقال (من يضل الله فلا هادى له) وقال (من يهد الله فهو المهتد * ومن يضل فلن تجده ولىا مرشدا) إلى غير ذلك من الآيات ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والارشاد إليه قال الله تعالى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) وقال (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) وقال تعالى (وأما بعد فهديناكم فاستجبوا العى على الهدى) وقال (وهديناه النجدين) على تفسير من قال المراد بهما الخير والشر وهو الأرجح والله أعلم وأصل التقوى التوقى بما يكره لأن أصلها وقوى من الوقاية قال النابغة :

سقط النصف ولم ترد إسقاطه * فتناولته واتقتنا باليد

وقال الآخر : فألفت قناعاته الشمس واتقت * بأحسن موصولين كف ومعصم

وقد قيل إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل أبى بن كعب عن التقوى فقال له أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال بلى قال فما عملت قال شعرت واجتهدت قال فذلك التقوى . وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال

خل الذنوب صغيرها * وكبرها ذاك التقى * واصنع كما شئت فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة * إن الجبال من الحصى

وأشدد أبو البرداء يوماً يريد المرم أن يؤتى منه * ويأبى الله إلا ما أراد

يقول المرم فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضل ما استفاد

وفى سنن ابن ماجه عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما استفاد المرم بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله »

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

قال أبو جعفر الرازى عن العلاء بن المسيب بن رافع عن أبى اسحق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : الإيمان التصديق ، وقال على بن أبى طلحة وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما يؤمنون يصدقون وقال معمر عن الزهرى : الإيمان العمل ، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس يؤمنون يخشون

قال ابن جرير : والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً وقد تدخل الحشية لله في معنى الإيمان الذى هو تصديق القول بالعمل ، والإيمان كلمة جامعة للإيمان بالله وكتبه ورسله وتصديق الاقرار بالفعل (قلت) أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) وكما قال إخوة يوسف لأبيهم (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال كقوله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعى المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً . هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة

وغير واحد إجماعاً : أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أفردنا الكلام فيها في أول شرح البخارى والله الحمد والمنة . ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) وقوله (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) والخشية خلاصة الإيمان والعلم كما قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقال بعضهم يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن) وقال (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) فعلى هذا يكون قوله بالغيب حالاً أى في حال كونهم غيباً عن الناس وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد ، قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى (يؤمنون بالغيب) قال يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث ، فهذا غيب كله . وكذا قال قتادة بن دعامة وقال السدى عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ أما الغيب فإما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن ، وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس بالغيب قال بما جاء منه - يعنى من الله تعالى - وقال سفيان الثوري عن عاصم عن زر قال الغيب القرآن وقال عطاء بن أبي رباح من آمن بالله فقد آمن بالغيب وقال إسماعيل بن أبي خالده يؤمنون بالغيب قال يغيب الاسلام وقال زيد بن أسلم الذين يؤمنون بالغيب قال بالقدر فكل هذه متقاربة في معنى واحد لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذى يجب الإيمان به .

وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال كنا عند عبد الله ابن مسعود جلوساً فذكرنا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وما سبقونا به فقال عبد الله إن أمر محمد ﷺ كان بينا لمن رآه والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان غيب ثم قرأ (ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب - إلى قوله - المتفلحون) وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه من طرق عن الأعمش به وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وفى معنى هذا الحديث الذى رواه أحمد حدثنا أبو المغيرة أنا الأوزاعي حدثني أسد بن عبد الرحمن عن خالد بن دريك عن ابن محيرز قال قلت لأبي جمعة حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال نعم أحدثك حديثاً جيداً : تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال يا رسول الله هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك . قال « نعم قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى » طريق أخرى قال أبو بكر بن مردويه فى تفسيره حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا إسماعيل عن عبد الله بن مسعود حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا معاوية بن صالح عن جبير بن جبير قال قدم علينا أبو جمعة الأنصارى صاحب رسول الله ﷺ بيت المقدس يصلى فيه ومعنا يومئذ رجاء بن حيوة رضى الله عنه فلما انصرف خرجنا نشيعه فلما أراد الانصراف قال إن لكم جائزة وحقا أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ قلنا هات رحمك الله قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا معاذ بن جبل عشر عشرة فقلنا يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجراً ؟ آمننا بالله واتبعناك ، قال « ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتكم بالوحي من السماء بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب من بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجراً » مرتين ثم رواه من حديث ضمرة بن ربيعة عن مرزوق بن نافع عن صالح بن جبير عن أبي جمعة بنخوة وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوفاة التى اختلف فيها أهل الحديث كما قررته فى أول شرح البخارى لأنه مدحهم على ذلك وذكر أنهم اعظم أجراً من هذه الحيثية لا مطلقاً وكذا الحديث الآخر الذى رواه الحسن بن عرفة العبدى حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصى عن المغيرة بن قيس التميمى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله ﷺ « أى الخلق أعجب اليكم إيماناً ؟ » قالوا الملائكة قال « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » قالوا فاليون قال « وما لهم لا يؤمنون

والوحى ينزل عليهم ؟ قالوا فنحن قال « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم » قال فقال رسول الله ﷺ « ألا إن أعجب الخلق إلى إيماننا لقوم يكونون من بعدكم يحدون صحفها كتاب يؤمنون بما فيها » قال أبو حاتم الرازي : المغيرة بن قيس البصري منكر الحديث (قلت) ولكن قد روى أبو يعلى في مسنده وابن مردويه في تفسيره والحاكم في مستدركه من حديث محمد بن حميد - وفيه ضعف - عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثله أو نحوه وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعا والله أعلم ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن محمد السندی حدثنا إسحاق بن إدريس أخبرني إبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصاري أخبرني جعفر بن محمود عن جدته بديلة بنت أسلم قالت صليت الظهر أو العصر في مسجد بنى حارثة فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام قال إبراهيم فحدثني رجال من بنى حارثة أن رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك قال « أولئك قوم آمنوا بالغيب » هذا حديث غريب من هذا الوجه

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

قال ابن عباس ويقومون الصلاة أى يقيمون الصلاة بفروضها وقال الضحاك عن ابن عباس إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والاقبال عليها فيها ، وقال قتادة إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها وقال مقاتل بن حيان إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والشهد والصلاة على النبي ﷺ فهذا إقامتها .

وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس (ومما رزقناهم ينفقون) قال زكاة أموالهم ، وقال السدى عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ (ومما رزقناهم ينفقون) قال نفقة الرجل على أهله وهذا قبل أن تنزل الزكاة وقال جوير عن الضحاك كانت النفقات قربانا يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات في سورة براءة مما يذكر فيهن الصدقات هن الناسخات المثبتات وقال قتادة (ومما رزقناهم ينفقون) فأنفقوا مما أعطاكم الله ، هذه الأموال عوار وودائع عندك يا ابن آدم يوشك أن تفارقها

واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات فانه قال وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللزوم لهم في أموالهم مؤدين - زكاة كانت ذلك أو نفقة من لزمته نفقته من أهل أو عيال وغيرهم ممن يحب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك وكل من الاتفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه (قلت) كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والاتفاق من الأموال فان الصلاة حق الله وعبادته وهى مشتملة على توحيد الشئاء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه ، والاتفاق هو من الاحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم ، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والماليك ، ثم الأجانب فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون) ولهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت » والأحاديث في هذا كثيرة وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء . قال الأعشى

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها * وإن ذبحت صلى عليها وزمزا

وقال أيضاً وقابلها الريح في دنها * وصلى على دنها وارتم

أنشدها ابن جرير مستشهداً على ذلك . وقال الآخر وهو الأعشى أيضاً :

يقول بنى وقد قربت مرتحلا * يارب جنب أبى الأوصاب والوجاب
عليك مثل الذى صليت فاعتمضى * نوما فان لجنب الرء مضطجعا

يقول عليك من الدعاء مثل الذى دعيتلى . وهذا ظاهر ثم استعملت الصلاة فى الشرع فى ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة فى الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة . قال ابن جرير وأرى أن الصلاة سميت صلاة لأن المصلى يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربه من حاجاته وقيل هى مشتقة من الصلويين إذا تحركا فى الصلاة عند الركوع والسجود وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتفان عجب الذنب ومنه سمي المصلى وهو التالى للسابق فى حلبة الخيل ، وفيه نظر . وقيل هى مشتقة من الصلى وهو الملازمة للشيء من قوله تعالى (لا يصلها) أى لا يلزمها ويدوم فيها (إلا الأشتى) وقيل مشتقة من تصلية الحشبة فى النار لتقوم كما أن المصلى يقوم عوجه بالصلاة (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر والله أعلم .

وأما الزكاة فسيأتى الكلام عليها فى موضعه إن شاء الله تعالى

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

قال ابن عباس والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك أى يصدقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من الرسلين لا يفرقون بينهم ولا يحدون ما جاءهم به من ربهم وبالآخرة هم يوقنون أى بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا وقد اختلف المفسرون فى الموصوفين هنا ، هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) ومن هم : على ثلاثة أقوال حكاه ابن جرير أحدها أن الموصوفين أولا هم الموصوفون ثانيا وهم كل مؤمن مؤمنة العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم قاله مجاهد وأبو العالية والريبع بن أنس وقتادة ، والثانى هما واحداهم مؤمنو أهل الكتاب وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات كما قال تعالى (سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى) وكما قال الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى الزدحم

فعطفت الصفات بعضها على بعض والموصوف واحد والثالث أن الموصوفين أولا مؤمنو العرب والموصوفون ثانيا بقوله (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) لمؤمنى أهل الكتاب ثقله السدى فى تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة واختاره ابن جرير رحمه الله ويستشهد لما قال بقوله تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) الآية وبقوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون) وبما ثبت فى الصحيحين من حديث الشعبي عن أبى بردة عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه ورجل أدب جاريته فأحسن تأديتها ثم أعنتها وتزوجها » وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة وهى ان الله وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين فكما انه صنف الكافرين إلى صنفين كافر ومنافق فكذلك المؤمنون صنفهم إلى صنفين عربى وكتانى (قلت) والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثورى عن رجل عن مجاهد ورواه غير واحد عن ابن أبى نجیح عن مجاهد انه قال : أربع آيات من أول سورة البقرة فى نعت المؤمنين وآيات فى نعت الكافرين وثلاثة عشر فى المفاقيين فهذه الآيات الأربع عامات فى كل مؤمن اتصف بها من عربى وعجمى وكتانى من إنسى وجى وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى

بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها فلا يصح الايمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الايمان بما جاء به الرسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من قبله من الرسل والايقان بالآخرة كما أن هذا لا يصح إلا بهذا وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل) الآية وقال تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهمنا وإلهمكم واحد) الآية وقال تعالى (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم) وقال تعالى (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله) وقال تعالى (والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالايمان بالله ورسوله وكتبه لكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية وذلك أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلا فاذا دخلوا في الاسلام وآمنوا به مفصلا كان لهم على ذلك الأجر مرتين وأما غيرهم فانما يحصل له الايمان بما تقدم مجملا كما جاء في الصحيح « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم ولكن قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم » ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالاسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم في الاسلام فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحثية فغيرهم يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلاهم والله أعلم .

﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

يقول الله تعالى (أولئك) أى المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والافتقار من الذى رزقهم الله والايمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل والايقان بالدار الآخرة وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات (على هدى) أى على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى (وأولئك هم المفلحون) أى فى الدنيا والآخرة وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أوسعيد بن جبير عن ابن عباس (أولئك على هدى من ربهم) أى على نور من ربهم واستقامة على ما جاءهم به (وأولئك هم المفلحون) أى الذين أدرکوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا وقال ابن جرير وأما معنى قوله تعالى (أولئك على هدى من ربهم) فان معنى ذلك فانهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديده إياهم وتوفيقه لهم وتأويل قوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) أى المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسوله من الفوز بالثواب ، والخلود فى الجنات والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب . وقد حكى ابن جرير قولاً عن بعضهم أنه أعاد اسم الإشارة فى قوله تعالى (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) إلى مؤمنى أهل الكتاب الوصوفين بقوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك) الآية على ما تقدم من الخلاف : وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك) منقطعاً مما قبله وأن يكون مرفوعاً على الابتداء وخبره (أولئك هم المفلحون) واختار انه عائد الى جميع من تقدم ذكره من مؤمنى العرب وأهل الكتاب لما رواه السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن اناس من أصحاب رسول الله ﷺ . أما الذين يؤمنون بالغيب فهم المؤمنون من العرب والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك هم المؤمنون من أهل الكتاب ثم جمع الفريقين فقال (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وقد تقدم من الترجيح ان ذلك صفة للمؤمنين عامة والإشارة عائدة عليهم والله أعلم . وقد نقل عن مجاهد وأبى العالية والريبع بن أنس وقتادة رحمهم الله وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى يحيى بن عثمان ابن صالح المصرى حدثنا أبى حدثنا ابن لهيعة حدثنى عبيد الله بن الغيرة عن أبى الهيثم واسمه سليمان بن عبد الله عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم وقيل له يا رسول الله انا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ من القرآن فكأدأن نياس

أو كما قال: قال « أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار قالوا بلى يا رسول الله قال (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين - إلى قوله تعالى - المفلحون) هؤلاء أهل الجنة قالوا إنا نرجو أن نكون هؤلاء ثم قال (إن الذين كفروا سواء عليهم - إلى قوله - عظيم) هؤلاء أهل النار قالوا لسنأهم يا رسول الله . قال : أجل »

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءَ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى (إن الذين كفروا) أى غطوا الحق وستروه وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك سواء عليهم إنذارك وعدمه فانهم لا يؤمنون بما جئتهم به . كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقال تعالى فى حق المعاندين من أهل الكتاب (ولئن أنذرتهم لكانن كفارا ما تنبتون) فأنما عليك البلاغ وعلينا الحساب * إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل (وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) قال كان رسول الله ﷺ يحرم أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فآخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الأول ، وقال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (إن الذين كفروا) أى بما أنزل إليك وإن قالوا إنا قد آمننا بما جاءنا قبلك (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) أى إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق وقد كفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك فكيف يسمعون منك إنذارا وتحذيرا وقد كفروا بما عندهم من علمك ، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال نزلت هاتان الآيتان فى قادة الأحزاب وهم الذين قال الله فيهم (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا واحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها) والمعنى الذى ذكرناه أولا وهو الروى عن ابن عباس فى رواية على بن أبى طلحة أظهر ويفسر ببقية الآيات التى فى معناها والله أعلم وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثا فقال حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح الصرى حدثنا أبى حدثنا ابن لهيعة حدثني عبد الله بن المغيرة عن أبى الهيثم عن عبد الله بن عمرو قال قيل يا رسول الله إنا نقرأ من القرآن فبرجو ونقرأ فسكاد إن نأيس فقال « الا أخبركم » ثم قال (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) « هؤلاء أهل النار » قالوا لسنأ منهم يا رسول الله قال « أجل » وقوله تعالى (لا يؤمنون) محله من الاعراب انه جملة مؤكدة للتي قبلها (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) أى هم كفار فى كلا الحالين فلهذا أكد ذلك بقوله تعالى (لا يؤمنون) ويحتمل ان يكون لا يؤمنون خبرا لأن تقديره إن الذين كفروا لا يؤمنون ويكون قوله تعالى (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) جملة معترضة والله أعلم

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

قال السدى ختم الله أى طبع الله وقال قتادة فى هذه الآية استحوز عليهم الشيطان إذ أطاعوه فغتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون وقال ابن جريج قال مجاهد ختم الله على قلوبهم قال الطبع ثبتت الذنوب على القلب فحفت به من كل نواحيه حتى تلتقى عليه فالنقاؤها عليه الطبع والطبع الختم . قال ابن جريج الختم على القلب والسمع قال ابن جريج وحدثني عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهدا يقول : الران أيسر من الطبع والطبع أيسر من الاقصال ، والاقصال أشد من ذلك كله وقال الأعمش أرانا مجاهد بيده فقال كانوا يرون أن القلب فى مثل هذه يعنى الكف فاذا أذنب العبد ذنباً ضم منه وقال باصبعه الختم هكذا فاذا أذنب

ضم وقال باصبع أخرى فاذا أذنب ضم وقال باصبع أخرى هكذا حتى ضم أصابعه كلها ثم قال يطبع عليه بطابع، وقال مجاهد كانوا يرون أن ذلك الرين، ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن وكيع عن الأعمش عن مجاهد بنحوه، قال ابن جرير وقال بعضهم إنما معنى قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) إخبار من الله عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق كما يقال إن فلانا أصم عن هذا الكلام إذا امتنع من سماعه ورفع نفسه عن تفهمه تكبرا قال وهذا لا يصح لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم (قلت) وقد أظن الرخشري في تقرير مارد ابن جرير ههنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدا وما جراه على ذلك إلا اعتزله لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده تعالى الله عنه في اعتقاده ولو فهم قوله تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقوله (وقلب أثقتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم في الباطل وتركهم الحق وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح فلو أحاط علما بهذا لما قال ما قال والله أعلم

قال القرطبي وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال (بل طبع الله عليها بكفرهم) وذكر حديث تقيب القلوب «ويامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب أثربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب انكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض، والآخر أسود مر باد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا» الحديث قال ابن جرير والحق عندي في ذلك ما صرح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ وهو ما حدثنا به محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا ابن عجلان عن القعقاع عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «إن المؤمن إذا اذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه فان تاب ونزع واستعجب صقل قلبه وان زاد زادت حتى تعلق قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كان يكسبون) هذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة والليث بن سعد وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم بن اساعيل والوليد بن مسلم ثلاثهم عن محمد بن عجلان به وقال الترمذي حسن صحيح ثم قال ابن جرير فأخبر رسول الله ﷺ ان الذنوب إذا تابعت على القلوب أغلقتها وإذا أغلقتها اتاهها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) نظير الختم والطبع على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمته وحله رباطه عنها

واعلم ان الوقف التام على قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) وقوله (وعلى أبصارهم غشاوة) جملة تامة فان الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة وهي الغطاء يكون على البصر كما قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم يقول فلا يعقلون ولا يسمعون يقول وجعل على أبصارهم غشاوة يقول على أعينهم فلا يبصرون وقال ابن جرير حدثني محمد بن سعد حدثنا أبي حدثني عمي الحسين بن الحسن عن أبيه عن جده عن ابن عباس ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم والغشاوة على أبصارهم قال وحدثنا القاسم حدثنا الحسين يعني ابن داود وهو سني حدثني حجاج وهو ابن محمد الأعور حدثني ابن جريج قال: الختم على القلب والسمع والغشاوة على البصر قال الله تعالى (فان يشأ الله يختم على قلبك) وقال (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) قال ابن جرير ومن نصب غشاوة من قوله تعالى وعلى أبصارهم غشاوة يحتمل أنه نصبها بأبصار فعل تقديره وجعل على أبصارهم غشاوة ويحتمل

أن يكون نصبها على الاتباع على محل وعلى سمعهم كقوله تعالى (وحوور عين) وقول الشاعر :

علفتها تبنا وماء بارداً * حتى شئت هالة عيناها

وقال الآخر : ورأيت زوجك في الوغى * متقلداً سيفاً ورعاً

تقديره وسقيتها ماء بارداً ومعتقلاً رعاً * لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ولما كان أمرهم يشبه على كثير من الناس أظن في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق كما أنزل سورة براءة فيهم وسورة المنافقين فيهم وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور تعريفاً لأحوالهم لتجنب ويجنب من تلبس بها أيضاً فقال تعالى

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ آمَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿

النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر وهو أنواع : اعتقادي ، وهو الذي يخلد صاحبه في النار وعملی وهو من أكبر الذنوب كما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى وهذا كما قال ابن جريج المنافق يخالف قوله فعله وسره علانيته ، ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه ، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكرهاً وهو في الباطن مؤمن فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم وكانوا ثلاث قبائل بنو قينقاع حلفاء الخزرج وبنو النضير وبنو قريظة حلفاء الأوس فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبليتي الأوس والخزرج وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رضى الله عنه ولم يكن إنداك نفاق أيضاً لأنه لم يكن للساميين بعد شوكة تخاف بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالى المدينة فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله قال عبد الله بن أبي بن سلول وكان رأساً في المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين في الجاهلية وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه فبقى في نفسه من الإسلام وأهله فلما كانت وقعة بدر قال هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحدهماجر لأنهم لم يكن أحديهماجر مكرهاً بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة قال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) يعنى المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم وكذا فسرها بالمنافقين من الأوس والخزرج أبو العالية والحسن وقتادة والسدى ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يعتز بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر وهذا من المخدورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير فقال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) أى يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شئ آخر كما قال تعالى (إذا جاءك المنافقون قالوا انشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله) أى إنما يقولون ذلك إذا جاءوك فقط لافى نفس الأمر ولهذا يؤكّدون في الشهادة بأن ولام التأكيّد في خبرها . أكذوا أمرهم قالوا آمنا بالله وباليوم الآخر وليس الأمر كذلك كما كذبهم الله في شهادتهم وفي خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم بقوله تعالى (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وبقوله (وما هم بمؤمنين) وقوله تعالى (يخادعون الله والدين آمنوا) أى باظهارهم ما ظهره من الإيمان مع إسرارهم الكفر يعتقدون بمجهلهم

أنهم يخدعون الله بذلك وأن ذلك نافعهم عنده وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين كما قال تعالى (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون) ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله (وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون) يقول وما يغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم كما قال تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) ومن القراء من قرأ (وما يخدعون إلا أنفسهم) وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد . قال ابن جرير فإن قال قائل : كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين خادعاً وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية ؟ قيل : لا تمتنع العرب أن تسمى من أعطى بلسانه غير الذي في ضميره تقية لينجو مما هو له خائف مخادعاً فكذلك المنافق سمي مخادعاً لله وللمؤمنين باظهاره ما اظهره بلسانه تقية بما يخلص به من القتل والسبي والعذاب العاجل وهو لغير ما اظهره مستبطن وذلك من فعله وإن كان خداعاً للمؤمنين في عاجل الدنيا فهو لنفسه بذلك من فعله خادع ، لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيته ، ويسقيها كأس سرورها ، وهو موردها حياض عطيا ، ومجرعها به كأس عذابها ، ومزيرها من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به ، فذلك خديغته نفسه ظناً منه مع إساءة إليها في أمر معادها أنه إليها محسن كما قال تعالى (وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) إعلاما منه عباده المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسقاطهم عليها زهيم بكفرهم وشكهم وتكذيبهم غير شاعرين ولا دارين ، ولكنهم على عمى من أمرهم مقيمين . وقال ابن أبي حاتم أنبأنا علي بن المبارك فيما كتب إلى حدثنا زيد بن المبارك حدثنا محمد بن ثور عن ابن جريج في قوله تعالى يخادعون الله قال يظهرون لإله إلا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفي أنفسهم غير ذلك . وقال سعيد عن قتادة (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون) نعت المنافق عند كثير : خنع الأخلاق يصدق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله يصبح على حال ويمسى على غيره ويمسى على حال ويصبح على غيره ويتكفأ تكفأ السفينة كلما هبت ريح هبت معها

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ في هذه الآية (في قلوبهم مرض) قال شك فزادهم الله مرضا قال شك . وقال ابن إسحق عن محمد ابن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس في قلوبهم مرض قال شك . وكذلك قال مجاهد وعكرمة والحسن البصري وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة . وعن عكرمة وطاوس في قلوبهم مرض يعني الرياء . وقال الضحاك عن ابن عباس في قلوبهم مرض قال نفاق فزادهم الله مرضا قال نفاقاً وهذا كالأول . وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم في قلوبهم مرض قال هذا مرض في الدين وليس مرضا في الأجساد وهم المنافقون والمرض الشك الذي دخلهم في الاسلام فزادهم الله مرضا قال زادهم رجسا ، وقرأ (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم) . قال شرا إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم ، وهذا الذي قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن وهو الجزء من جنس العمل وكذلك قاله الأولون وهو نظير قوله تعالى أيضا (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقوله (بما كانوا يكذبون) وقرئ يكذبون وقد كانوا متصفين بهذا وهذا فانهم كانوا كذبة ويكذبون بالغيب يجمعون بين هذا وهذا . وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رضي الله عنه «أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه» ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول في الاسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر فانهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون إن محمداً يقتل أصحابه قال القرطبي وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطى المؤلف مع علمه

بسوء اعتقادهم . قال ابن عطية وهى طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضى إسماعيل والأبهرى وعن ابن الماجشون . ومنها : ما قال مالك إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبن لأتمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه قال القرطبي : وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضى لا يقتل بعلمه وإن اختلفوا فى سائر الأحكام قال : ومنها ما قال الشافعى إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يظهرونه يجب ما قبله . ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث المجمع على صحته فى الصحيحين وغيرهما « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » ومعنى هذا أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهراً فإن كان يعتقدونها وجد ثواب ذلك فى الدار الآخرة وإن لم يعتقدوها لم ينفعه جريان الحكم عليه فى الدنيا وكونه كان خليطاً أهل الإيمان (ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغررتكم الأمانى حتى جاء أمر الله) الآية فهم يخالطونهم فى بعض المحشر فإذا حقت المحقوقة تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطق بذلك الأحاديث ومنها ما قاله بعضهم أنه إنما لم يقتلهم لأنه كان لا يخاف من شرهم مع وجوده ﷺ بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبینات فأما بعده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون قال مالك : المنافق فى عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم (قلت) وقد اختلف العلماء فى قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا أو يتكرر منه ارتداده أم لا أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظهر عليه ؟ على أقوال متعددة موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب الأحكام

(تنبيه) قول من قال كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان فى تسمية أولئك الأربعة عشر منافقا فى غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله ﷺ فى ظلماء الليل عند عقبة هناك عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله إليه أمرهم فاطلع على ذلك حذيفة ولعل الكف عن قتلهم كان مدرك من هذه المدارك أو غيرها والله أعلم فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى (ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) الآية وقال تعالى : (لأن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لغريتك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً) فيها دليل على أنه لم يعرفهم ولم يدرك على أعيانهم وإنما كان تذكر له صفاتهم فيتوسمها فى بعضهم كما قال تعالى (ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم * ولتعرفنهم فى لحن القول) وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبدالله بن أبى بن سلول وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذى سبق فى صفات المنافقين ومع هذا لما مات ﷺ وشهد دفنه كما يفعل بيقية المسلمين وقد غاب عنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيه فقال « إني أكره أن تتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه » رواية فى الصحيح « إني خيرت فاخترت » وفى رواية « لو أعلم أنى لوزدت على السبعين يغفر له لزدت »

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ)

قال السدى فى تفسيره عن ابى مالك وعن ابى صالح عن ابن عباس وعن مرة الطيب الحمداى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) قال هم المنافقون أما لا تفسدوا فى الأرض قال الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية وقال ابو جعفر عن الربيع بن أنس عن ابى العالىة فى قوله تعالى (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض) قال يعنى لا تصصوا فى الأرض وكان فسادهم ذلك مغصية الله لأنه من عصى الله فى الأرض أو امر بمعصيته فقد افسد فى الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة وهكذا قال الربيع بن أنس وقادة وقال ابن جريج عن مجاهد (وإذا قيل لهم لا تفسدوا

في الأرض) قال إذا ركبوا معصية الله فقليل لهم لاتفعولوا كذا وكذا قالوا إنما نحن على الهدى مصلحون وقال وكيع وعيسى بن يونس وعثام بن طلى عن الأعمش عن النبال بن عمرو عن عباد بن عبد الله الأسدي عن سلمان الفارسي وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون قال سلمان لم يجيء أهل هذه الآية بعد وقال ابن جرير حدثني أحمد بن عثمان بن حكيم حدثنا عبد الرحمن بن شريك حدثني أبي عن الأعمش عن زيد بن وهب وغيره عن سلمان الفارسي في هذه الآية قال ماجاء هؤلاء قال ابن جرير يحمل أن سلمان رضى الله عنه أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فسادا من الذين كانوا في زمن النبي ﷺ لا أنه عنى أنه لم يعض ممن تلك صفة أحد قال ابن جرير فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها وركوبهم فيها مانهاهم عن ركوبه وتضييعهم فرائضه وشكهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا ، فذلك إفساد المنافقين في الأرض ، وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها . وهذا الذي قاله حسن فان من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء كما قال تعالى (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض لاتفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) ثم قال (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين فكأن الفساد من جهة النفاق حاصل لأنه هو الذي غر المؤمنين بقوله الذي لاحقيقة له ووالى الكافرين على المؤمنين ولو أنه استمر على حاله الأول لكان شره أخف ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح ولهذا قال تعالى (وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) أى نريد أن ندارى الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء كما قال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون أى إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب يقول الله (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) يقول ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادا

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس أى كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه ، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ رضى الله عنهم قاله أبو العالية والسدي في تفسيره بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة وبه يقول الربيع بن أنس وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وغيرهم يقولون أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء ؟ والسفهاء جمع سفيه لأن الحكماء جمع حكيم والجلماء جمع حليم ، والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأى القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار ولهذا سمي الله النساء والصبيان سفهاء في قوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) قال عامة علماء التفسير هم النساء والصبيان وقد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها فقال (ألا إنهم هم السفهاء) فأكد وحصر السفاهة فيهم (ولكن لا يعلمون) يعنى ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ * اللَّهُ

يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافات غرورا منهم للمؤمنين ونفاقا ومصانعة وتقية وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغرم (وإذا خلوا إلى شياطينهم) يعني إذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم فضمن خلوا معنى انصرفوا لتعديته يالي ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به ومنهم من قال « إلى » هنا بمعنى « مع » والأول أحسن وعليه يدور كلام ابن جرير . وقال السدي عن أبي مالك خلوا يعني مضوا وشياطينهم سادتهم وكبرائهم ورؤسائهم من أحبار اليهود ورؤس المشركين والمناققين . قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الحميداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ (وإذا خلوا إلى شياطينهم) يعني هم رؤسائهم في الكفر . وقال الضحاك عن ابن عباس وإذا خلوا إلى أصحابهم وهم شياطينهم : وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس (وإذا خلوا إلى شياطينهم) من يهود الدين يأمرونهم بالكذب وخلاف ما جاء به الرسول ﷺ وقال مجاهد : (وإذا خلوا إلى شياطينهم) إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين . وقال قتادة (وإذا خلوا إلى شياطينهم) قال إلى رؤسهم وقادتهم في الشرك والشر وبخود ذلك فسرهم أبو مالك وأبو العالية والسدي والربيع بن أنس . قال ابن جرير وشياطين كل شيء مردته ويكون الشيطان من الانس والجن كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وفي المسند عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن » فقلت يا رسول الله أو للانس شياطين ؟ قال « نعم » وقوله تعالى (قالوا إنا معكم) قال محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أي إنا على مثل ما أنتم عليه (إنما نحن مستهزئون) أي إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم . وقال الضحاك عن ابن عباس قالوا إنما نحن مستهزئون ساخرون بأصحاب محمد ﷺ ، وكذلك قال الربيع بن أنس و قتادة . وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) وقال ابن جرير أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله تعالى (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) الآية وقوله تعالى (ولا يحسن الذين كفروا إنما على لهم خير لأنفسهم إنما على لهم ليزدادوا إثما) الآية قال فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره وسخريته ومكره وخديعته للمناققين وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ومتأول هذا التأويل - قال : وقال آخرون بل استهزأه بهم توبيخه إياهم ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه والكفر به . قال : وقال آخرون هذا وأمثاله على سبيل الجواب كقول الرجل لمن يخدعه إذا ظفر به أنا الذي خدعتك . ولم يكن منه خديعة ولكن قال ذلك إذا صار الأمر إليه قالوا وكذلك قوله تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) و (الله يستهزئ بهم) على الجواب والله لا يكون منه المكر ولا الهزء . والمعنى أن المكر والهزء حاق بهم - وقال آخرون قوله تعالى (إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم) وقوله (يخادعون الله وهو خادعهم) وقوله (فيسخرهم منهم سخر الله منهم) و (نسوا الله فأنسىهم) وما أشبه ذلك إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان كما قال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) فالأول ظلم والثاني عدل فهما وإن اتفق لفظهما فقد اختلف معناهما قال وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك . قال : وقال آخرون إن معنى ذلك أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا إنا معكم على دينكم في تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وإنما نحن بما نظهر لهم من

قولنا لهم مستهزون ، فأخبر تعالى أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا يعني من عصمة دماهم وأمواهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة يعني من العذاب والنكال . ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله عز وجل بالاجماع وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك . قال وينحو ما قلنا فيه روى الخبر عن ابن عباس حدثنا أبو كريب حدثنا أبو عثمان حدثنا بشر عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى (الله يستهزئ بهم) قال يسخر بهم للنقمة منهم وقوله تعالى (ويمدهم في طغيانهم يعمهون) قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ : يمدهم على لهم وقال مجاهد ، يزيدهم وقال تعالى (يحسبون أنما نمدهم به من مال وبنيين نسارع لهم في الخيرات ؟ بل لا يشعرون) وقال (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) قال بعضهم كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة وهى في الحقيقة نقمة وقال تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) قال ابن جرير والصواب نزيدهم على وجه الاملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم كما قال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) والطغيان هو المجاوزة في الشيء كما قال تعالى (انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية) وقال الضحاك عن ابن عباس في طغيانهم يعمهون في كفرهم يترددون وكذا فسر السدي يستند عن الصحابة وبه يقول أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس ومجاهد وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد في كفرهم وضلالهم . قال ابن جرير والعمه الضلال يقال عمه فلان يعمه عمها وعموها اذا ضل قال وقوله في طغيانهم يعمهون في ضلالهم . وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضللا لا يجدون الى الخرج منه سبيلا لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأعشاها فلا يبصرون رشدا ولا يهتدون سبيلا . وقال بعضهم العمى في العين والعمه في القلب وقد يستعمل العمى في القلب أيضا قال الله تعالى (فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وتقول عمه الرجل يعمه عموها فهو عمه وعامه وجمعه عمه وذهبت إليه العماء اذا لم يدر أين ذهبت .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) قال أخذوا الضلالة وتركوا الهدى وقال ابن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى الكفر بالايان وقال مجاهد آمنوا ثم كفروا وقال قتادة : استحبوا الضلالة على الهدى . وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود (فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وحاصل قول المفسرين فيما تقدم أن المناققين عدلوا عن الهدى الى الضلال واعتاضوا عن الهدى بالضلالة وهو معنى قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى بذلوا الهدى ثمنا للضلالة وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الايمان ثم رجع عنه الى الكفر كما قال تعالى فيهم (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم) أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى كما يكون حال فريق آخر منهم فانهم أنواع وأقسام ولهذا قال تعالى (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) أى ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة وما كانوا مهتدين أى راشدين في صنيعهم ذلك وقال ابن جرير حدثنا بشير حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) قد والله رأيتهم يخرجوا من الهدى الى الضلالة ومن الجماعة الى الفرقة ومن الأمن الى الخوف ومن السنة الى البدعة وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة بمثله سواء .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴾

صم بكم عمى فهم لا يرجعون

يقال مثل ومثل ومثل أيضا والجمع أمثال قال الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)
وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشتراطهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن
استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ونأنس بها فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره وصار
في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدى وهو مع هذا فهو أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع
إلى ما كان عليه قبل ذلك فكذلك هؤلاء النفاقون في استبداء لهم الضلالة عوضا عن الهدى واستجابهم الغي على
الرشد وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع والله أعلم
وقد حكى هذا الذي قلناه الرازي في تفسيره عن السدى ثم قال والتشبيه هنا في غاية الصحة لأنهم بإيمانهم
اكتسبوا أولا نورا ثم بنفاقهم ثانيا أبطأوا ذلك فوقعوا في حيرة عظيمة فانه لا حيرة أعظم من حيرة الدين
وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات واحتج بقوله تعالى (ومن الناس
من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) والصواب أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم
وهذا لا ينبغي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك ثم سلبوه وطبع على قلوبهم ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية
ههنا وهي قوله تعالى (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) فلهذا وجه هذا المثل بأنهم
استضاءوا بما أظهروه من كلمة الإيمان أى في الدنيا ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة قال وصح ضرب مثل الجماعة
بالواحد كما قال (رأيتم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) أى كدوران الذى يغشى
عليه من الموت وقال تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقال تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم
يحملوها كمثل الحمير يحمل أسفارا) وقال بعضهم تقدير الكلام مثل قصتهم كقصه الذين استوقدوا نارا ، وقال
بعضهم المستوقد واحد لجماعة معه وقال آخرون الذى ههنا بمعنى الذين كما قال الشاعر
وإن الذى حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كل القوم يا أم خالد

قلت وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع في قوله تعالى (فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم
وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون) وهذا أفصح في الكلام وأبلغ في النظام وقوله تعالى
(ذهب الله بنورهم) أى ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور وأبقى لهم ما يضرهم وهو الاحراق والدخان (وتركهم في
ظلمات) وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق (لا يبصرون) لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها وهم مع ذلك (صم)
لا يسمعون خيرا (بكم) لا يتكلمون بما ينفعهم (عمى) في ضلالة وعماية البصيرة كما قال تعالى (فانها لاتعمى الأبصار ولكن
تعمى القلوب التى فى الصدور) فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلالة

ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه

قال السدى في تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من
الصحابة في قوله تعالى (فلما أضاءت ماحوله) زعم أن ناسا دخلوا في الاسلام مقدم نبي الله ﷺ المدينة ثم إنهم
نافقوا وكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة فأوقد نارا فلما أضاءت ماحوله من قذى أو أذى فأبصره حتى عرف
ما يتقى منه فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فأقبل لا يدري ما يتقى من أذى فذلك المنافق كان في ظلمة الشرك
فأسلم فعرف الحلال والحرام والخير والشر فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من
الشر . وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية قال: أما النور فهو إيمانهم الذى كانوا يتكلمون به وأما الظلمة فهي
ضلالتهم وكفرهم الذى كانوا يتكلمون به وهم قوم كانوا على هدى ثم نزع منهم فعتوا بعد ذلك . وقال مجاهد : (فلما
أضاءت ماحوله) أما إضاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى (مثلهم كمثل

الذي استوقد ناراً) قال هذا مثل المنافق يبصر أحياناً ويعرف أحياناً ثم يدركه عمى القلب . وقال ابن أبي حاتم . وروى عن عكرمة والحسن والسدى والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراساني وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً) قال هذا مثل المنافق يبصر أحياناً ويعرف أحياناً ثم يدركه عمى القلب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً) إلى آخر الآية . قال هذه صفة للمنافقين كانوا قد آمنوا حتى أضاء الايمان في قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا ناراً ثم كفروا فذهب الله بنورهم فاتترعه كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في ظلمات لا يبصرون ، وأما قول ابن جرير فيشبهه مارواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً) قال هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يعتزون بالاسلام فينا كحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم التي فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً) فانما ضوء النار ما أوقدتها فاذا خمدت ذهب نورها وكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الاخلاص بلا إله إلا الله أضاء له فاذا شك وقع في الظلمة وقال الضحاك (ذهب الله بنورهم) أما نورهم فهو إيمانهم الذي تكلموا به وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله) فهي لا إله إلا الله أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وآمنوا في الدنيا وأنكحوا النساء وحققوا دماءهم حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية إن المعنى أن المنافق تكلم بلا إله إلا الله فأضاءت له في الدنيا فناكح بها المسلمين وغازاهم بها ووارثهم بها وحقق بها دمه وماله فلما كان عند الموت سلبها المنافق لأنه لم يكن لها أصل في قلبه ولا حقيقة في عمله (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) يقول في عذاب إذا ماتوا ، وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وتركهم في ظلمات) أي يبصرون الحق ويقولون به حتى إذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفأوه بكفرهم ونفاقهم فيه فتركهم في ظلمات الكفر فهم لا يبصرون هدى ، ولا يستقيمون على حق ، وقال السدى في تفسيره بسنده (وتركهم في ظلمات) فكانت الظلمة نفاقهم وقال الحسن البصري وتركهم في ظلمات لا يبصرون فذلك حين يموت المنافق فيظلم عليه عمله عمل السوء فلا يجد له عملاً من خير عمل به يصدق به قول لا إله إلا الله (صم بكم عمى) قال السدى بسنده صم بكم عمى فهم خرس عمى ، وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس (صم بكم عمى) يقول لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ؛ ولا يقولونه وكذا قال أبو العالية وقتادة بن دعامة (فهم لا يرجعون) قال ابن عباس أي لا يرجعون إلى هدى ، وكذا قال الربيع بن أنس : وقال السدى بسنده (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) إلى الاسلام . وقال قتادة فهم لا يرجعون أي لا يتوبون ولا هم يذكرون

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعْدٌ وَ يَرَقُّ يُجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي إِذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى قلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم (كصيب) والصيب المطر قاله ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء الحسن البصري وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخراساني والسدى والربيع بن أنس وقال الضحاك هو السحاب والأشهر هو المطر نزل من السماء في حال ظلمات وهي الشكوك والكفر والنفاق ورعد وهو ما يزعج القلوب من الخوف فان من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع كما قال تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم) وقال (ويخلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه

وهم يمحون (١ والبرق) هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الايمان ولهذا قال (يحملون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين) أى ولا يهدى عنهم حذرهم شيئاً لأن الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته كما قال (هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الدين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط) بهم ثم قال (يكاد البرق يخطف أبصارهم) أى لشدة وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للايمان وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (يكاد البرق يخطف أبصارهم) يقول يكاد يحكم القرآن يدل على عورات المنافقين وقال ابن إسحق حدثني محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (يكاد البرق يخطف أبصارهم) أى لشدة ضوء الحق كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا أى كلما ظهر لهم من الايمان شيء استأنسوا به واتبعوه وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كلما أضاء لهم مشوا فيه يقول كلما أصاب المنافقين من عز الاسلام اطمأنوا اليه وإذا أصاب الاسلام نكبة قاموا ليرجعوا الى الكفر كقوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به) وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) أى يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه الى الكفر قاموا أى متحيزين وهكذا قال أبو العالية والحسن البصرى وقتادة والربيع بن أنس والسدى بسنده عن الصحابة وهو أصح وأظهر والله أعلم ، وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى ، ومنهم من يمشى على الصراط تارة ويوقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخالص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) وقال في حق المؤمنين (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار) الآية وقال تعالى (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير)

﴿ ذكر الحديث الوارد في ذلك ﴾

قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة في قوله تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات) الآية ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة الى عدن أبين بصنعاء ودون ذلك حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه رواه ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم من حديث عمران بن داود القطان عن قتادة بنحوه وهذا كما قال المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود قال يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم وأدناهم نوراً على إبهامه يطفأ مرة ويتقدم مرة وهكذا رواه ابن جرير عن ابن مثنى عن ابن إدريس عن أبيه عن المنهال وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن علي بن محمد الطنافسى حدثنا ابن إدريس سمعت أبى يذكر عن المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود (نورهم يسعى بين أيديهم) قال على قدر أعمالهم يعمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقدم مرة ويطفأ أخرى ، وقال ابن أبى حاتم أيضاً حدثنا محمد بن اسماعيل الأحمسي حدثنا أبو يحيى الحماني حدثنا عقبة بن اليقظان عن عكرمة عن ابن عباس قال ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نوراً يوم القيامة فأنما المنافق يطفأ نوره فالؤمن مشفق بما يرى من إطفاء نور المنافقين فهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ، وقال الضحاك ابن مزاحم يعطى كل من كان يظهر الايمان في الدنيا يوم القيامة نوراً فإذا انتهى الى الصراط طفيء نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا فقالوا ربنا أتمم لنا نورنا

فإذا تقرر هذا صار الناس أقساماً ، مؤمنون خالص وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة وكفار خالص

وهم الموصوفون بالآيتين بعدها ومنافقون وهم قسبان خلص وهم المضروب لهم المثل النارى ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم مع الايمان وتارة يخبو وهم أصحاب المثل المائى وهم أخف حالا من الذين قبلهم وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور بالمصباح في الزجاجة التى كأنها كوكب درى وهى قلب المؤمن المقطور على الايمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخطيط كما سيأتى تقريره في موضعه إن شاء الله ثم ضرب مثل العباد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شىء وليسوا على شىء وهم أصحاب الجهل المركب في قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) الآية ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط وهم الذين قال تعالى فيهم (أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) فقسم الكفار ههنا إلى قسمين داعية ومقلد كما ذكرها في أول سورة الحج (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد) وقال (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير) وقد قسم الله المؤمنين في أول الواقعة وفي آخرها ، وفي سورة الانسان إلى قسمين سابقون وهم المقربون وأصحاب يمين وهم الأبرار

فلخص من مجموع هذه الآيات الكريمات أن المؤمنين صنفان مقربون وأبرار وأن الكافرين صنفان دعاة ومقلدون وأن المنافقين أيضا صنفان منافق خالص ومنافق فيه شعبة من نفاق كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ « ثلاث من كن فيه كان منافقا خالسا ومن كانت فيه واحدة منهم كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » استدلوأ به على أن الانسان قد تكون فيه شعبة من ايمان وشعبة من نفاق إما عملى لهذا الحديث أو اعتقادي كادلت عليه الآية كما ذهب اليه طائفة من السلف وبعض العلماء كما تقدم وكما سيأتى ان شاء الله قال الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا أبو معاوية يعنى شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبي البخترى عن أنس سعيده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراج فيه نوره وأما القلب الأغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الايمان فيه كمثل البقلة يمددها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمددها القيح والدم فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » وهذا إسناد جيد حسن وقوله تعالى (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير) قال محمد بن إسحق حدثني محمد ابن أنس عن محمد بن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) قال لما تركوا من الحق بعد معرفته (إن الله على كل شىء قدير) قال ابن عباس أى إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير . وقال ابن جرير : إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شىء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير ، ومعنى قدير قادر كما معنى عليم عالم وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين إلى أن هذين الثلثين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون أو في قوله تعالى (أو كصيب من السماء) بمعنى الواو كقوله تعالى (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) أو تكون للتخيير أى أضرب لهم مثلا بهذا وان شئت بهذا قال القرطبي : أو للتساوى مثل جالس الحسن أو ابن سيرين على ما وجهه الزمخشري ان كلا منهما مساو للآخر في اباحة الجلوس اليه ويكون معناه على قوله سواء ضربت لهم مثلا بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم (قلت) وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فانهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة - ومنهم - ومنهم - ومنهم - يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال فجعل هذين الثلثين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم والله أعلم كما ضرب المثلين في سورة النور لصنفى الكفار الدعاة والمقلدين في قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) الى أن قال (أو كظلمات في

بحرجى) الآية فالأول للدعاة الذين هم في جهل مركب والثاني لتدوى الجهل البسيط من الأتباع المقلدين والله أعلم بالصواب

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ * فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو النعم على عبيده باخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغهم عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشا أى مهدا كالفرش مفررة موطأة مشبته بالرواسى الشاخات والسماء بناء وهو السقف كما قال في الآية الأخرى (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) وأنزل لهم من السماء ماء والراد به السحاب ههنا في وقته عند احتياجهم إليه فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ماهو مشاهد رزقا لهم ولأنعامهم كما قرر ههنا في غير موضع من القرآن ، ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى (الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيات ذلكم الله ربكم فتنبارك الله رب العالمين) ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنها ورازقهم فهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ولهذا قال (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يارسول الله أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » الحديث وكذا حديث معاذ أن درى ماحق الله على عباده ؟ « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » الحديث ، وفى الحديث الآخر « لا يقولن أحدكم ماشاء الله وشاء فلان ولكن ليقل ماشاء الله ثم شاء فلان » وقال حماد بن سلمة حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربيع بن حراش عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة أم المؤمنين لأمها قال رأيت فيما يرى النائم كأنى أتيت على نفر من اليهود فقلت من أتم قالوا نحن اليهود قلت إنكم لأتم القوم لولا أنكم تقولون عزيز ابن الله قالوا وإنكم لأتم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد ، قال ثم مررت بنفر من النصارى فقلت من أتم قالوا نحن النصارى قلت إنكم لأتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله ، قالوا وإنكم لأتم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال « هل أخبرت بها أحدا ؟ » قلت نعم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعد فإن طفيل رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتم كذا كان يعنى كذا وكذا أن أنها كم عنها فلا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ماشاء الله وحده » هكذا رواه ابن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة به وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبد الملك بن عمير به بنحوه ، وقال سفيان بن سعيد الثورى عن الأجلح بن عبد الله الكندى عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس قال قال رجل للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت فقال « أجعلتنى لله ندا ؟ قل ماشاء الله وحده » رواه ابن مردويه وأخرجه النسائى وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح به وهذا كله صيانة بحماية لجناب التوحيد والله أعلم . وقال محمد بن إسحاق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) للفرقتين جميعا من الكفار والمنافقين ، أى وحدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم وبه عن ابن عباس (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لاتنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه لارب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذى لاشك فيه وهكذا قال قتادة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم حدثنا أبى عمرو حدثنا أبى الضحاك بن مخلد أبو عاصم حدثنا شبيب بن بشر حدثنا عكرمة عن ابن عباس فى قول الله عز وجل (فلا تجعلوا لله أندادا) قال الأنداد هو الشرك أخفى من ديب الليل على صفاء سوداء فى ظلمة الليل وهو أن يقول والله وحياتك يا فلان وحياتى ويقول لولا كلبه هذا لأنانا

الصوص البارحة ولولا البط في الدار لأتى اللصوص وقول الرجل لصاحبه ماشاء الله وشئت ، وقول الرجل لولا الله وفلان لا تجعل فيها فلان هذا كله به شرك وفي الحديث أن رجلا قال لرسول الله ﷺ ماشاء الله وشئت ، قال « أ جعلتني لله ندا » وفي الحديث الآخر « نعم القوم أتم لولا أنكم تتددون تقولون ماشاء الله وشاء فلان » قال أبو العالية فلا تجعلوا لله أندادا أى عدلاء شركاء وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبو مالك وإسماعيل بن أبي خالد وقال مجاهد (فلا تجعلوا لله أندادا وأتم تعلمون) قال تعلمون أنه إله واحد في التوراة والانجيل ﴿ ذكر حديث في معنى هذه الآية الكريمة ﴾

قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو خلف موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده مطور عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال « إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن وأنه كاذ أن يبطن بها فقال له عيسى عليه السلام إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فاما أن تبطن بهن وإما أن أبطن بهن فقال يا أخى إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي قال فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقع على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا فان مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده فأيسر له أن يكون عبده كذلك وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده مالم يلتفت فاذا صليتم فلا تلتفتوا ، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصاة كلهم يجد ريح المسك وإن خلوهم فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدها يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه وقال لهم هل لكم أن أفتدى نفسي منكم فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه ، وأمركم بذكر الله كثيرا وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه وإن العبد أحسن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله » قال : وقال رسول الله ﷺ « وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن : الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله فانه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الاسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جنى جبهن » قالوا يا رسول الله وإن صام وصلى فقال « وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله » هذا حديث حسن والشاهد منه في هذه الآية قوله « وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا » وهذه الآية دالة على توحيد تعالى بالعبادة وحده لا شريك له وقد استدلل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع تعالى وهى دالة على ذلك بطريق الأولى فان من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطبائعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه كما قال بعض الأعراب وقد سئل ما الدليل على وجود الرب تعالى ؟ فقال ياسبحان الله إن البحر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير ، فسما ذات ابراج ، وأرض ذات فجاج . وبحار ذات أمواج ؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

وحكى الرازي عن الامام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنفحات وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم دعوني فاني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهى مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد فقالوا هذا شيء لا يقوله عاقل فقال ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع فبنت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه ، وعن الشافعى أنه سئل عن وجود الصانع فقال هذا

ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم وتأكله النحل فيخرج منه العسل وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرا وروثا وتأكله الطباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد وعن الامام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الإبريز فبينما هو كذلك إذ انصدع جدره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح يعني بذلك البيضة اذا خرج منها الدجاجة وسئل أبو نواس عن ذلك فأشدد :

تأمل في نبات الأرض وانظر * الى آثار ما صنع المليك * عيون من لجين شاخصات
بأحداق هي الذهب السبيك * على قضب الزبرجد شاهدات * بأن الله ليس له شريك
وقال ابن المعتز فياعجبا كيف يعصى الاله أم كيف يحجده الجاحد
وفي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد

وقال آخرون من تأمل هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارة ومن الثوابت وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير يخصها ، ونظر الى البحار المكتشفة للأرض من كل جانب والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع وما ذرا في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأرياح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء استدلل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه عليه توكلت واليه أئيب ، والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو فقال مخاطباً للكافرين (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) يعني محمداً صلى الله عليه وسلم فأتوا بسورة من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله فانكم لا تستطيعون ذلك ، قال ابن عباس شهداءكم أعوانكم ، وقال السدي عن أبي مالك شركاءكم أي قوما آخرين يساعدونكم على ذلك أي استعينوا بالهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم ، وقال مجاهد وادعوا شهداءكم قال ناس يشهدون به يعني حكام الفصحاء وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) وقال في سورة سبحان (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) وقال في سورة هود (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وقال في سورة يونس (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين * أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وكل هذه الآيات مكية ثم تحداهم بذلك أيضاً في المدينة فقال في هذه الآية (وإن كنتم في ريب - أي شك - مما نزلنا على عبدنا - يعني محمداً صلى الله عليه وسلم - فأتوا بسورة من مثله) يعني من مثل القرآن قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصري وأكثر المحققين ورجح ذلك بوجوه من أحسنها أنه تحداهم كلهم متفرقين

وجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتائبهم وذلك أكل في التحدى وأكمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعانى شيئا من العلوم وبدليل قوله تعالى (فأتوا بعشر سور مثله) وقوله (لا يأتون بمثله) وقال بعضهم من مثل محمد صلى الله عليه وسلم يعنى من رجل أمى مثله والصحيح الأول لأن التحدى عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ومع هذا عجزوا عن ذلك ولهذا قال تعالى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) ولن لنفى التأييد فى المستقبل أى ولن تفعلوا ذلك أبداً وهذه أيضاً معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً مقدماً غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه الى زماننا هذا ولا يمكن وأنى يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام الله خالق كل شئ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال الله تعالى (الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) أى صدقا فى الأخبار وعدلا فى الأحكام فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها كما قيل فى الشعر إن أعذبه أ كذبه وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبا فى وصف النساء أو الخيل أو الحر أو فى مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شئ من المشاهدات المتعينة التى لا تفيد شيئا إلا قدرة التكلم اللين على الشئ الخفى أو الدقيق أو إبرازه الى الشئ الواضح ثم تجده فى بيتا أو بيتين أو أكثرهى بيوت القصيد وسائرها هنر لا طائل تحته ، وأما القرآن فجميعه فصيح فى غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلا وإجمالا فمن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير ، فانه إن تأملت أخباره وجدتها فى غاية الحلاوة سواء كانت مبسطة أو وجيزة وسواء تكررت أم لا وكما تكرر حلا وعلا ، لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء ، وإن أخذ فى الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهات وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ، ويشوق الى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال فى الترغيب (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وقال (وفيها ما تشبه الأنفس وتلد الأعين وأتم فيها خالدون) وقال فى التهريب (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر) (أفأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) وقال فى الزجر : (فكلأ أخذنا بذنبة) وقال فى الوعظ (أفأرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة وإن جاءت الآيات فى الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب ، والنهى عن كل قبيح رذيل ذئىء ؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف إذا سمعت الله تعالى يقول فى القرآن يأياها الدين آمنوا فأرعا سمعك فانها خير يأمر به أو شر ينهى عنه ولهذا قال تعالى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) الآية وإن جاءت الآيات فى وصف المعاد وما فيه من الأحوال وفى وصف الجنة والنار وما أعد الله فيها لأولياؤه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم ، بشرت به وحذرت وأندرت ؛ ودعت الى فعل الخيرات واجتناب المنكرات ، وزهدت فى الدنيا ورغبت فى الآخرة ، وثبتت على الطريقة المثلى ، وهدت الى صراط الله المستقيم ، وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان ، الرجيم . ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن نبي من الأنبياء الا قد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة - لفظ مسلم - وقوله صلى الله عليه وسلم وإنما كان الذى أوتيه وحيا أى الذى اخصص به

من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم ، وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقته فيما جاء به مالا يدخل تحت حصر والله الحمد والمنة وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصرفة فقال إن كان هذا القرآن معجزا في نفسه لا يستطيع البشر الاتيان بمثله ولا في قواهم معارضته فقد حصل المدعى وهو المطلوب ، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلا على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك ، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا إلا أنها تصلح على سبيل التزل والمجادلة والمنافعة عن الحق وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر وإنا أعطيناك الكوثر

وقوله تعالى (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) أما الوقود بفتح الواو فهو ما يلقي في النار لاضرامها كالخشب ونحوه كما قال تعالى (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً) وقال تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون) والمراد بالحجارة ههنا هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة وهي أشد الأحجار حرا إذا حimit أجارنا الله منها : وقال عبد الملك بن ميسرة الزراد عن عبد الرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى (وقودها الناس والحجارة) قال هي حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا يعدها للكافرين . رواه ابن جرير وهذا لفظه وابن أبي حاتم والحاكم في مستدركة وقال على شرط الشيخين . وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة اتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار وقال مجاهد حجارة من كبريت أتت من الجيفة ، وقال أبو جعفر محمد بن علي حجارة من كبريت وقال ابن جزيح حجارة من كبريت أسود في النار وقال إلى عمرو بن دينار أصلب من هذه الحجارة وأعظم . وقيل المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) الآية حكاه القرطبي والرازي ورجحه على الأول : قال لأن أخذ النار في حجارة الكبريت ليس بمستنكر فجعلها هذه الحجارة أولى . وهذا الذي قاله ليس بقوى وذلك أن النار إذا أضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد حرها وأقوى لسعيرها ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك ، ثم إن أخذ النار بهذه الحجارة أيضا مشاهد وهذا الجص يكون أحجارا فيعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك . وكذلك سائر الأحجار تفخرها النار وتحرقها وإنما سيق هذا في حر هذه النار التي وعدوا بها وشدة ضرارها وقوة لها كما قال تعالى (كلما نبت زرعناهم سعيرا) وهكذا رجح القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسعر بها النار لتحمم ويشند لها قال ليكون ذلك أشد عذابا لأهلها قال وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال « كل مؤذني النار » وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف ثم قال القرطبي وقد فسر بمعنيين أحدهما أن كل من آذى الناس دخل النار والآخر أن كل ما يؤذى في النار يتأذى به أهلها من السباع والبهائم وغير ذلك

وقوله تعالى (أعدت للكافرين) الأظهر أن الضمير في أعدت عائدا إلى النار التي وقودها الناس والحجارة ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود ولا منافاة بين القولين في المعنى لأنهما متلازمان وأعدت أي أرصدت وخصلت للكافرين بالله ورسوله كما قال ابن اسحق عن محمد بن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (أعدت للكافرين) أي لمن كان على مثل ما أتم عليه من الكفر وقد استدلل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى (أعدت) أي أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها « تحاجت الجنة والنار » ومنها « استأذنت النار ربها فقالت رب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف » وحديث ابن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ما هذه فقال رسول الله ﷺ « هذا حجر أتى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل

إلى قمرها » وهو عند مسلم وحديث صلاة الكسوف وليلة الاسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا وواقفهم القاضي منذر بن سعيد البلوطى قاضى الأندلس

﴿ تنبيه ينبغى الوقوف عليه ﴾

قول تعالى (فأتوا بسورة من مثله) وقوله في سورة يونس (بسورة مثله) يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه فالاعجاز حاصل في طوال السور وقصارها وهذا مالا أعلم فيه نزاعا بين الناس سلفا وخلفا وقد قال الرازى في تفسيره فان قيل قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله) يتناول سورة الكوثر وسورة العصر وقل يا أيها الكافرون ونحن نعلم بالضرورة أن الاتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن ، فان قلتم إن الاتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدار البشر كان مكابرة والاقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين (قلنا) فلماذا السبب اخترنا الطريق الثانى وقلنا إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الاعجاز فقد حصل المقصود وإن لم يكن كذلك كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزا فعلى التقديرين يحصل المعجز هذا لفظه بحروفه والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة ، قال الشافعى رحمه الله لو تدبر الناس هذه السورة لكفتمهم (والعصر إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وقد روينا عن عمرو بن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلة الكذاب قبل أن يسلم فقال له مسيلة ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين فقال له عمرو لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال وما هي فقال (والعصر إن الإنسان لفي خسر) ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال ولقد أنزل على مثلها فقال وما هو فقال ياوبر ياوبر إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر فقرر ثم قال كيف ترى يا عمرو فقال له عمرو والله إنك لتعلم أنى لأعلم أنك تكذب

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

لما ذكر تعالى ما أعد له لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والكال عطف يذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة وهذا معنى تسمية القرآن مثنائى على أصح أقوال العلماء كما سنستطه في موضعه وهو أن يذكر الايمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه أو حال السعداء ثم الأشقياء أو عكسه ، وحاصله ذكر الشيء ومقابله . وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه كما سنوضحه إن شاء الله فلهذا قال تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) فوصفها بأنه تجري من تحتها الأنهار أى من تحت اشجارها وغرفها وقد جاء في الحديث ان أنهارها تجري في غير أخذود وجاء في الكوثر ان حافتيه قباب اللؤلؤ الخوف ولا منافاة بينهما فطينها المسك الأذفر ، وحسبائها اللؤلؤ والجوهر ، نسأل الله من فضله إنه هو البر الرحيم وقال ابن أبى حاتم قرأ على الربيع بن سليمان حدثنا أسد بن موسى حدثنا أبو ثوبان عن عطاء ابن قره عن عبد الله بن ضمرة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو من تحت جبال المسك » وقال أيضا حدثنا أبو سعيد حدثنا وكيع عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق ، قال : قال عبد الله أنهار الجنة تفجر من جبل مسك

وقوله تعالى (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) قال السدى في تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا هذا الذى رزقنا من قبل ، قال إنهم أتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا هذا الذى رزقنا من قبل في الدنيا وهكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد

ابن أسلم ونصره ابن جرير وقال عكرمة (قالوا هذا الذي رزقنا من قبل) قال معناه مثل الذي كان بالأمس وكذا قال الربيع ابن أنس . وقال مجاهد يقولون ما أشبه به قال ابن جرير وقال آخرون بل تأويل ذلك هذا الذي رزقنا من قبل ثمار الجنة من قبل هذه الشدة مشابهة بعضه بعضا لقوله تعالى (وأتوا به متشابها) قال سنيد بن داود حدثنا شيخ من أهل المصيصة عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال يوتى أحدهم بالصحفة من الشيء فيأكل منها ثم يوتى بأخرى فيقول هذا الذي أتينا به من قبل فتقول الملائكة كل فاللون واحد والطعم مختلف . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عامر بن يساف عن يحيى بن أبي كثير قال عشب الجنة الزعفران وكبائها المسك ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها ثم يوتون بثملها فيقول لهم أهل الجنة هذا الذي أتيتمونا آتفابه فتقول لهم الولدان كلوا فاللون واحد والطعم مختلف وهو قول الله تعالى (وأتوا به متشابها) وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية (وأتوا به متشابها) قال يشبه بعضه بعضا ويختلف في الطعم ، قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك وقال ابن جرير بإسناده عن السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة في قوله تعالى (وأتوا به متشابها) يعني في اللون والمراى وليس يشته في الطعم وهذا اختيار ابن جرير وقال عكرمة (وأتوا به متشابها) قال يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أطيب وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء وفي رواية ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ورواه ابن جرير من رواية الثوري وابن أبي حاتم من حديث أبي معاوية كلاهما عن الأعمش به وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى (وأتوا به متشابها) قال يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا التفاح والتفاح والرمان بالرمان قالوا في الجنة هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا وأتوا به متشابها يعرفونه وليس هو مثله في الطعم

وقوله تعالى (ولهم فيها أزواج مطهرة) قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس مطهرة من القدر والأذى . وقال مجاهد من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والنوى والولد وقال قتادة مطهرة من الأذى والمأثم وفي رواية عنه لا حيض ولا كلف وروى عن عطاء والحسن والضحاك وأبي صالح وعطية والسدي نحو ذلك . وقال ابن جرير حدثني يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال المطهرة التي لا حيض ، قال وكذلك خلقت حواء عليها السلام فلما عصت قال الله تعالى إني خلقتك مطهرة وسأدميك كما أدमित هذه الشجرة - وهذا غريب وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا إبراهيم بن محمد حدثني جعفر بن محمد بن حرب وأحمد بن محمد الخوارى (١) قال حدثنا محمد بن عبيد الكندي حدثنا عبد الرزاق بن عمر البرزعي حدثنا عبد الله بن المبارك عن شعبة عن قتادة عن أبي نصر عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى (ولهم فيها أزواج مطهرة) قال من الحيض والغائط والنخاعة والبزاق . هذا حديث غريب - وقد رواه الحاكم في مستدركه عن محمد بن يعقوب عن الحسن بن علي بن عفان عن محمد بن عبيد به وقال صحيح على شرط الشيخين وهذا الذي ادعاه فيه نظر فان عبد الرزاق بن عمر البرزعي هذا قال فيه أبو حاتم ابن حبان البستي لا يجوز الاحتجاج به (قلت) والأظهر أن هذا من كلام قتادة كما تقدم والله أعلم

وقوله تعالى (وهم فيها خالدون) هذا هو تمام السعادة فانهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانشطاع فلا آخر له ولا انقضاء بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام والله المستول أن يحشرنا في زمرة من إنهم جواد كريم برحيم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَخْلَقَ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا بَضِيلٌ بِهِ كَثِيرٌ وَبِضِيلٍ بِهِ كَثِيرٌ وَأَمَّا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ تَعْدٍ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ -

(١) في لسان الميزان خورى وفي الميزان جورى بالحيم .

أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١﴾

قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة لما ضرب الله هذين الثلثين للنافقين يعني قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) وقوله (أو كصيب من السماء) الآيات الثلاث قال النافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى (هم الخسرون) وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب قال المشركون مبال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) وقال سعيد عن قتادة أي إن الله لا يستحي من الحق أن يذكر شيئاً مما قل أو أكثر ، وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة ما أراد الله من ذكر هذا ؟ فأنزل الله (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) (قلت) : العبارة الأولى عن قتادة فيها إشعار أن هذه الآية مكية وليس كذلك وعبرة رواية سعيد عن قتادة أقرب والله أعلم . وروى ابن جريج عن مجاهد نحو هذا الثاني عن قتادة وقال ابن أبي حاتم روى عن الحسن وإسماعيل بن أبي خالد نحو قول السدي وقاتدة . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في هذه الآية قال هذا مثل ضربه الله للدنيا أن البعوضة تحيا ما جاعت فاذا سمئت ماتت وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن إذا امتلأوا من الدنيا رياء أخذهم الله عند ذلك ثم تلا (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) هكذا رواه ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية بنحوه فأنزل الله أعلم فهذا اختلافهم في سبب النزول . وقد اختار ابن جرير ما حكاه السدي لأنه أمس بالسورة وهو مناسب ومعنى الآية أنه تعالى أخبر أنه لا يستحي أي لا يستنكف وقيل لا يخشى أن يضرب مثلاً ما أي شيء كان بأي شيء كان صغيراً كان أو كبيراً وماهناً للتقليل وتكون بعوضة منصوبة على البديل كما تقول لأضربن ضرباً ما ، فيصدق بأدنى شيء أو تكون مانكرة موصوفة ببعوضة واختار ابن جرير أن ما موصولة وبعوضة معربة بأعرابها قال وذلك سائغ في كلام العرب أنهم يعربون صلة ما ومن بأعرابها لأنهما يكونان معرفة تارة ونكرة أخرى كما قال حسان بن ثابت

يكفي بنا فضلا على من غيرنا * حب النبي محمد إيانا

قال ويجوز أن تكون بعوضة منصوبة بحذف الجار وتقدير الكلام إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها وهذا الذي اختاره الكسائي والفراء وقرأ الضحاك وإبراهيم بن عتبة بعوضة بالرفع قال ابن جني وتكون صلة ما وحذف العائد كما في قوله (تماماً على الذي أحسن) أي على الذي هو أحسن وحكى سيويه : ما أنا بالذي قائل لك شيئاً . أي بالذي هو قائل لك شيئاً . وقوله تعالى (فما فوقها) فيه قولان أحدهما فمادونها في الصغر والحقارة كما إذا وصف رجل باللؤم والشح فيقول السامع نعم وهو فوق ذلك - يعني فيما وصفت - وهذا قول الكسائي وأبي عبيد قاله الرازي وأكثر المحققين . وفي الحديث «لأن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء» والثاني فما فوقها لما هو أكبر منها لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة وهذا قول قتادة ابن دحامة واختار ابن جرير فإنه يؤيده ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «ما من مسلم يشاك شوكة لما فوقها إلا كتب له بها درجة ومحبت عنه بها خطيئة» فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله (يا أيها الناس ضرب مثلاً فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) وقال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) وقال تعالى (ألم تركب ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها

من قرار * يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وقال تعالى (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء) الآية ثم قال (وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بغيره هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل) الآية كما قال (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم) الآية . وقال (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون) الآية . وقال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) وفي القرآن أمثال كثيرة : قال بعض السلف اذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله قال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) وقال مجاهد في قوله تعالى (ان الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها . وقال قتادة (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) أي يعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله ، وروى عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك وقال أبو العالية (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) يعني هذا المثل (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً) كما قال في سورة المدثر (وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً * ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً * كذلك يضلل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك الا هو) وكذلك قال ههنا (يضلل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلل به الا الفاسقين) قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة يضلل به كثيراً يعني به المنافقين ويهدي به كثيراً يعني به المؤمنين فيزيد هؤلاء ضلالة الى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقينا من المثل الذي ضربه الله بما ضرب لهم وأنه لما ضرب له موافق فذلك إضلال الله إياهم به ، ويهدي به يعني المثل كثيراً من أهل الايمان والتصديق فيزيدهم هدى إلى هدايتهم وإيماناً إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به وذلك هداية من الله لهم به (وما يضلل به الا الفاسقين) قال هم المنافقون وقال أبو العالية (وما يضلل به الا الفاسقين) قال هم أهل النفاق وكذا قال الربيع ابن أنس وقال ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس (وما يضلل به الا الفاسقين) قال يقول يعرفه الكافرون فيكفرون به . وقال قتادة (وما يضلل به الا الفاسقين) فسقوا فأضلهم الله على فسقهم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أنس عن إسحق بن سليمان عن أبي سنان عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد عن سعد (يضلل به كثيراً) يعني الخوارج . وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد قال سألت أبي فقلت قوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) إلى آخر الآية فقال هم الخوارج وهذا الاسناد وإن صح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فهو تفسير على المعنى لأن الآية أريد منها التنصيص على الخوارج الذين خرجوا على علي بالنهروان فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية وإنما هم داخلون بوصفهم فيها من دخل لأنهم سموا خوارج لخروجهم عن طاعة الإمام والقيام بشرائع الاسلام والفاسق في اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضاً ، وتقول العرب فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرتها ، ولهذا يقال للفأرة فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد وثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » فالفاسق يشمل الكافر والعاصي ولكن فسق الكافر أشد وأفحش والمراد به من الآية الفاسق الكافر والله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) وهذه الصفات صفات الكفار المبينة لصفات المؤمنين كما قال تعالى في سورة الرعد (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق من هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) والآيات الى أن قال (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون

في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه فقال بعضهم هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسله ، وقضهم ذلك هو تركهم العمل به .

وقال آخرون بل هي في كفار أهل الكتاب والنافقين منهم ، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم ، وقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وانكارهم ذلك وكتائبهم علم ذلك الناس بعد اعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبينه للناس ولا يكتُمونه فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا . وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وهو قول مقاتل بن حيان

وقال آخرون بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق وعهده إلى جميعهم في توحيد ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثله الشاهدة لهم على صدقهم قالوا وقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبين لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق . وروى عن مقاتل بن حيان أيضا نحو هذا وهو حسن وإليه مال الزمخشري فإنه قال (فإن قلت) فما المراد بعهد الله ؟ قلت ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم وهو معنى قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) إذ أخذ الميثاق عليهم من الكتب المنزلة عليهم كقوله (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) - وقال آخرون العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصف في قوله (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) الآيتين وقضهم ذلك تركهم الوفاء به وهكذا زوى عن مقاتل بن حيان أيضا حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره .

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه - إلى قوله - أولئك هم الخاسرون) قال هي ست خصال من المنافقين إذا كانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا أؤتمنوا خانوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا في الأرض وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا أؤتمنوا خانوا . وكذا قال الربيع بن أنس أيضا وقال السدي في تفسيره بإسناده قوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) قال هو ما عهد إليهم في القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه

وقوله (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) قيل المراد به صلة الأرحام والقربات كما فسره قتادة كقوله تعالى (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) ورجحه ابن جرير وقيل المراد أهم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله فقطعوه وتركوه . وقال مقاتل بن حيان في قوله تعالى (أولئك هم الخاسرون) قال في الآخرة وهذا كما قال تعالى (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) وقال الضحاك عن ابن عباس كل شيء نسبته الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر فأنما يعنى به الكفر وما نسبته إلى أهل الإسلام فأنما يعنى به الذنب . وقال ابن جرير في قوله تعالى (أولئك هم الخاسرون) الخاسرون جمع خاسر وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه وكذلك النافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته يقال منه خسر الرجل يخسر خسرًا وحسرًا وخسارًا كما قال جرير بن عطية

إن سليطا في الخسار انه * أولاد قوم خلقوا أئنه

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَنًا فَأَخْبِكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

يقول تعالى محتجا على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده (كيف تكفرون بالله) أي كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره (وكنتم أمواتا فأحياكم) أي وقد كنتم عدما فأخرجكم إلى الوجود كما قال تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) وقال تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) والآيات في هذا كثيرة : وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا) قال هي التي في البقرة (وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) وقال ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس : كنتم أمواتا فأحياكم : أمواتا في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئا حتى خلقكم ثم يميتكم موتة الحق ثم يحييكم حين يبعثكم ، قال وهي مثل قوله تعالى (أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) قال كنتم ترابا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى : فهذه ميتتان وحياتان فهو كقوله (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) وهكذا روى عن السدي بسنده عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة وعن أبي العالية والحسن ومجاهد وقتادة وأبي صالح والضحاك وعطاء الخراساني نحو ذلك وقال الثوري عن السدي عن أبي صالح (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) قال يحييكم في القبر ثم يميتكم وقال ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال خلقهم في ظهر آدم ثم أخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم ثم خلقهم في الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة . وذلك كقوله تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) وهذا غريب والذي قبله . والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس وأولئك الجماعة من التابعين وهو كقوله تعالى (قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) الآية كما قال تعالى في الأصنام (أموات غير أحياء وما يشعرون) الآية (وقال وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون)

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ذكر دليلا آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) أي قصد إلى السماء والاستواء ههنا مضمن معنى القصد والاقبال لأنه عدى بالي فسواهن أي فخلق السماء سبعا ، والسماء ههنا اسم جنس فلهذا قال (فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) أي وعلمه محيط بجميع ما خلق ، كما قال (ألا يعلم من خلق) وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله تعالى (قل أأنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين) * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين وواحي في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتداء بخلق الأرض أولا ثم خلق السموات سبعا وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك وقد صرح المفسرون بذلك كما سند كره بعد هذا إن شاء الله . فاما قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها) * رفع سمكها فسواها * واغطش ليلها واخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * اخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال ارساها * متاعا لكم ولأنعامكم) فقد قيل إن ثم ههنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر لا لعطف الفعل على الفعل كما قال الشاعر : قل لمن ساد ثم ساد أبوه * ثم قد ساد قبل ذلك جده . وقيل إن الدحي كان بعد خلق السموات والأرض رواء على بن أبي طلحة عن ابن عباس : وقد قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن

مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) قال إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسماء عليه فسماء ثم أيسس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتحها فجعلها سبع أرضين في يومين في الأحد والاثنين فخلق الأرض على حوت والحوت هو الذي ذكره الله في القرآن (ن والقلم) والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة والصفاء على ظهر ملك والماء على صخرة والصخرة في الريح وهي الصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماء ولا في الأرض ، فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسي عليها الجبال فقمرت فاجبال فتخبر على الأرض ، فذلك قوله تعالى (وجعلنا في الأرض رواسي أن يمتد بهم) وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين في الثلاثاء والأربعاء وذلك حين يقول (قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها) يقول أنبت شجرها (وقدر فيها أقواتها) لأهلها (في أربعة أيام سواء للسائلين) يقول من سأل فهكذا الأمر (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتحها فجعلها سبع سموات في يومين في الخميس والجمعة وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض (وأوحى في كل سماء أمرها) قال خلق الله في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلم ، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً تحفظ من الشياطين فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش فذلك حين يقول (خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) ويقول (كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي) وقال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا عبد الله بن صالح حدثني أبو معشر عن سعيد بن أبي سعيد عن عبد الله بن سلام أنه قال إن الله بدأ الخلق يوم الأحد فخلق الأرضين في الأحد والاثنين وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء وخلق السموات في الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل فذلك الساعة التي تقوم فيها الساعة .

وقال مجاهد في قوله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) قال خلق الله الأرض قبل السماء فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسواهن سبع سموات) قال بعضهم فوق بعض وسبع أرضين يعني بعضها تحت بعض وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كما قال في آية السجدة (قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم) فهذه وهذه الدالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها) رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها) قالوا فذكر خلق السماء قبل الأرض وفي صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً وقد حررنا ذلك في سورة النزاعات وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها) ففسر الدحي باخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما أكلت سورة الخلوقات الأرضية ثم السباوية دحى بعد ذلك الأرض فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه فنبئت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة والله سبحانه وتعالى أعلم . وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسير هذه الآية الحديث الذي رواه مسلم والنسائي في التفسير أيضاً من رواية ابن جرير

قال أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سامة عن أبي هريرة قال أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال « خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم وقد تكلم عليه على ابن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ وجعلوه من كلام كعب ، وأن أباهريرة إنما سمعه من كلام كعب الأخبار وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعا وقد حرر ذلك البيهقي .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملائكة قبل إيجادهم فقال تعالى (وإذ قال ربك للملائكة) أي واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك ، وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية وهو أبو عبيدة أنه زعم أن إذ ههنا زائدة وأن تقدير الكلام وقال ربك ورده ابن جرير ، قال القرطبي وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج هذا اجترأ من أبي عبيدة (إني جاعل في الأرض خليفة) أي قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل كما قال تعالى (هو الذي جعلكم خلائف الأرض) وقال (ويجعلكم خلفاء الأرض) وقال (ولونشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون) وقال (فخلف من بعدهم خلف) وقرئ في الشاذ (إني جاعل في الأرض خليفة) حكاه الزمخشري وغيره ونقل القرطبي عن زيد بن علي وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين وعزاه القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل وفي ذلك نظر بل الخلاف في ذلك كثير حكاه الرازي في تفسيره وغيره والظاهر أنه لم يرد آدم عينا إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فانهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فانه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والآثم قاله القرطبي أو أنهم قالوا هم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك ، وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقا قال قتادة وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) الآية وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون ياربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء فان كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك كما سيأتي . أي ولا يصدر مناشيء من ذلك وهلا وقع الاختصار علينا ؟ قال الله تعالى يحيا لهم عن هذا السؤال (إني أعلم ما لا تعلمون) أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على الفساد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أتم فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملين والخالسون والمحبون له تبارك وتعالى المشعرون رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد ثبت في الصحيح أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون . وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام « يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل » فقولهم أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله لهم (إني أعلم

مالا تعلمون) وقيل معنى قوله تعالى جوابا لهم (إني أعلم مالا تعلمون) إني لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء والحسالة ما ذكرتم لاتعلمونها ، وقيل إنه جواب (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فقال (إني أعلم مالا تعلمون) أي من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به . وقيل بل تضمن قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) طلبا منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم فقال الله تعالى لهم (إني أعلم مالا تعلمون) من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم . ذكرها الرازي مع غيرها من الأجوبة والله أعلم

﴿ ذكر أقوال المفسرين ببسط ما ذكرناه ﴾

قال ابن جرير حدثني القاسم بن الحسن حدثني الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك عن الحسن وأبي بكر عن الحسن وقتادة قالوا: قال الله للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قال لهم إني فاعل هذا ومعناه أنه أخبرهم بذلك ، وقال السدي استشار الملائكة في خلق آدم رواه ابن أبي حاتم وقال وروى عن قتادة نحوه وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الاخبار ففيها تساهل وعبارة الحسن وقتادة في رواية ابن جرير أحسن والله أعلم (في الأرض) قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن سابط أن رسول الله ﷺ قال « دحيت الأرض من مكة وأول من طاف بالبيت للملائكة فقال الله إني جاعل في الأرض خليفة يعني مكة » وهذا مرسل وفي سنده ضعف وفيه مدرج وهو أن المراد بالأرض مكة والله أعلم فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك (خليفة) قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن الله تعالى قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا ربنا وما يكون ذاك الخليفة قال يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا . قال ابن جرير فكان تأويل الآية على هذا إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه وأما الفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه : قال ابن جرير وإنما معنى الخلافة التي ذكرها الله إنما هي خلافة قرن منهم قرنا قال والخليفة الفعيلة من قومك خلف فلان فلانا في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده كما قال تعالى (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم خليفة لأنه خلف الذي كان قبله فقام بالأمر فكان منه خلفا . قال وكان محمد بن إسحق يقول في قوله تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة) يقول ساكننا وعامرا يعمرها ويسكنها خلقا ليس منكم : قال ابن جرير وحدثنا أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن عمار عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس قال إن أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضا قال فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ثم خلق آدم فأسكنه إياها فلذلك قال (إني جاعل في الأرض خليفة) وقال سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن ابن سابط (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟) قال يعنون به بني آدم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال الله للملائكة إني أريد أن أخلق في الأرض خلقا وأجعل فيها خليفة وليس لله عز وجل خلق إلا الملائكة والأرض وليس فيها خلق قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها . وقد تقدم ما رواه السدي عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة أن الله أعلم للملائكة بما تفعله ذرية آدم فقالت الملائكة ذلك وتقدم آقا ما رواه الضحاك عن ابن عباس أن الجن أفسدوا في الأرض قبل بني آدم فقالت الملائكة ذلك فقاموا هؤلاء بأولئك : وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن بكير بن الأحنس عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال كان الجن بنو الجن في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفي سنة فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء فبعث الله جندا من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوا بجزائر البحور فقال الله للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ قال إني أعلم مالا تعلمون . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس

عن أبي العالية في قوله تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة - إلى قوله - أعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) قال خلق الله الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة فكفر قوم من الجن فكانت الملائكة تهبط إليهم في الأرض فتقاتلهم بغيرهم وكان الفساد في الأرض فمن ثم قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفست الجن ويسفك الدماء كما سفكوا قال ابن أبي حاتم وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا سعيد بن سلمان حدثنا مبارك بن فضالة أخبرنا الحسن قال : قال الله للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قال لهم إني فاعل فآمنوا برهم فعملهم علماً وطوى عنهم علماً علمه ولم يعلموه فقالوا بالعلم الذي علمهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون . قال الحسن إن الجن كانوا في الأرض يفسدون ويسفكون الدماء ولكن جعل الله في قلوبهم أن ذلك سيكون فقالوا بالقول الذي علمهم . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله (أتجعل فيها من يفسد فيها) كان الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء فذلك حين قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام الرازي حدثنا ابن المبارك عن معروف يعني ابن خربوذ الكشي عمن سمع أبا جعفر محمد بن علي يقول السجل ملك وكان هاروت وماروت من أعوانه وكان له في كل يوم ثلاث لحات في أم الكتاب فنظر نظرة لم تكن له فأبصر فيها خلق آدم وما كان فيه من الأمور فأفسد ذلك إلى هاروت وماروت وكانا من أعوانه فلما قال تعالى ، إني جاعل في الأرض خليفة - قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . قالا ذلك استطالة على الملائكة . وهذا أثر غريب وبتقدير صحته إلى أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين الباقر فهو نقله عن أهل الكتاب وفيه نكارة توجب رده والله أعلم : ومقتضاه أن الذين قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط وهو خلاف السياق وأغرب منه ما رواه ابن أبي حاتم أيضاً حيث قال : حدثنا أبي حدثنا هشام بن أبي عبيد الله حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير قال سمعت أبي يقول إن الملائكة الذين قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك وتقدس لك) كانوا عشرة آلاف فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم وهذا أيضاً إسرائيلي منكر كالأدي قبله والله أعلم . قال ابن جرير إنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء : قال ابن جرير وقال بعضهم إنما قالت الملائكة ما قالت أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك بعد ما أخبرهم أن ذلك كائن من بني آدم فسألته الملائكة فقالت على التعجب منها وكيف يعصونك يا رب وأنت خالقهم فأجابهم ربهم (إني أعلم ما لا تعلمون) يعني أن ذلك كائن منهم وإن لم تعلموه أتم ومن بعض ما ترويه لي طائعا قال وقال بعضهم ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك فكأنهم قبلوا يا رب خبرنا - مسألة استخبار منهم لا على وجه الإنكار - واختاره ابن جرير ، وقال سعيد عن قتادة قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) قال استشار الملائكة في خلق آدم فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء - وقد علمت الملائكة أنه لا شيء أكرم عند الله من سفك الدماء والفساد في الأرض - ونحن نسبح بحمدك وتقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون فكان في علم الله أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة قال وذكر لنا عن ابن عباس أنه كان يقول : إن الله لما أخذ في خلق آدم عليه السلام قالت الملائكة ما الله خالق خلقاً أكرم عليه منا ولا أعلم منا فابتلوا بخلق آدم وكل خلق مبتلى كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة فقال الله تعالى (اثبتوا طوعاً أو كرهاً قلنا أتينا طائعين) وقوله تعالى (ونحن نسبح بحمدك وتقدس لك) قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال التيسيح التيسيح والتعديس الصلاة : وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ونحن نسبح بحمدك وتقدس لك قال يقولون نصل لك وقال مجاهد ونحن نسبح بحمدك وتقدس لك قال نعظمك ونكبرك . وقال الضحاك التعديس التطهير وقال محمد بن إسحاق ونحن نسبح بحمدك وتقدس لك قال لا نعصى ولا نأتي شيئاً تكرهه . وقال ابن جرير التعديس هو التعظيم والتطهير . ومنه قولهم سبوح قدوس يعني بقولهم سبوح تنزيه له ، وبقولهم قدوس طهارة وتعظيم له : وكذلك قيل للأرض أرض مقدسة يعني بذلك المطهرة

فمضى قوله للملائكة إذا (ونحن نسبح بحمدك) نزهك ونبرئك مما يضيفه إليك اهل الشرك بك (وقدس لك) ننسبك إلى ماهو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما اضاف إليك اهل الكفر بك . وفي صحيح مسلم عن ابي ذر رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ سئل اى الكلام افضل ؟ قال « ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده » وروى البهقي عن عبد الرحمن بن قرط ان رسول الله ﷺ لىة اسرى به سمع تسبيحاً في السموات العلاء « سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى » (قال ابنى اعلم مالا تعلمون) قال قتادة فكان في علم الله انه سيكون في تلك الخليقة انبياء ورسول وقوم صالحون وساكنو الجنة وسيأتى عن ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من الصحابة والتابعين اقوال في حكمة قوله تعالى (قال ابنى اعلم مالا تعلمون)

وقد استدلل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم ويتنصر لظلمهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطى الفواحش إلى غير ذلك من الامور المهمة التى لا تمكن إقامتها إلا بالإمام وملايئمه الواجب إلا به فهو واجب . والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من اهل السنة في ابي بكر أو بالاياء إليه كما يقول آخرون منهم او باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب او بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر او باجتماع اهل الحل والعقد على مبايعته او بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور وحكى على ذلك إمام الحرمين الاجماع والله اعلم . او بقهر واحد الناس على طاعته فتجب لثلا يؤدى ذلك إلى الشقاق والاختلاف وقد نص عليه الشافعى وهل يجب الاشهاد على عقد الإمامة ؟ فيه خلاف فنه من قال لا يشترط وقيل بلى ويكفى شاهدان وقال الجبائى يجب أربعة وعاقده معقود له كما ترك عمر رضى الله عنه الأمر شورى بين ستة فوقع الأمر على عاقده وهو عبد الرحمن بن عوف ومعقود له وهو عثمان ، واستنبط وجوب الاربعة الشهود من الاربعة الباقيين وفي هذا نظر والله اعلم

ويجب أن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خبيراً بالحروب والآراء قرشياً على الصحيح ولا يشترط الهاشمى ولا المعصوم من الخطأ خلافاً للغلاة الروافض ، ولوفسق الامام هل ينزل أم لا ؟ فيه خلاف والصحيح أنه لا ينزل لقوله عليه الصلاة والسلام « إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله فيه برهان » وهل له أن يعزل نفسه فيه خلاف ، وقد عزل الحسن بن على رضى الله عنه نفسه وسلم الأمر إلى معاوية لكن هذا العذر قد مدح على ذلك : فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام « من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقبلوه كائنا من كان » وهذا قول الجمهور ، وقد حكى الاجماع على ذلك غير واحد منهم إمام الحرمين وقالت الكرامية يجوز اثنان فاكثر كما كان على ومعاوية إمامين واجبي الطاعة قالوا وإذا جاز بعث نبيين في وقت واحد وأكثر جاز ذلك في الإمامة لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ ابي إسحاق أنه يجوز نصب إمامين فاكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما وتردد إمام الحرمين في ذلك قلت وهذا يشبه حال الخلفاء بنى العباس بالعراق والفاطمين بمصر والأمويين بالمغرب ولتقرر هذا كله في موضع آخر من كتاب الاحكام إن شاء الله تعالى

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَنْتَظِرُونَ أَنْبِئَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم وهذا كان بعد سجودهم له وإنما قدم هذا الفصل على ذلك المناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك

فأخبرهم تعالى بأنه يعلم مالا يعلمون ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) قال السدي عن ابن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها) قال علمه أسماء ولده إنسانا إنسانا والدواب فقيل هذا الحمار ، هذا الجمل ، هذا الفرس ، وقال الضحاك عن ابن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها) قال هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان ودواب وسما وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشياء ذلك من الأمم وغيرها ، وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عاصم بن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها) قال علمه اسم الصحيفة والقدر قال نعم حتى الفسوة والفسية ، وقال مجاهد (وعلم آدم الأسماء كلها) قال علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شيء ، وكذلك روى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف أنه علمه أسماء كل شيء وقال الربيع في رواية عنه أسماء الملائكة . وقال حميد الشامي أسماء النجوم . وقال عبد الرحمن بن زيد علمه أسماء ذريته كلهم . واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء النورية لأنه قال (ثم عرضهم) وهذا عبارة عما يعقل وهذا الذي رجح به ليس بلازم فانه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب كما قال تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يشق على بطنه ومنهم من يشق على رجلين ومنهم من يشق على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) وقد قرأ عبد الله بن مسعود ثم عرضهم . وقرأ أبي بن كعب ثم عرضها أي المسميات . والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسية يعني أسماء الدواب والأفعال المكبر والمصغر ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من صحيحه . حدثنا مسلم ابن إبراهيم حدثنا هشام عن قتادة عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : وقال لي خليفة حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال . « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقتك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول لست هناكم ويذكر ذنبه فيستحي ، اتوا نوحا فانه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . فيأتونه فيقول لست هناكم ، ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحي . فيقول اتوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول لست هناكم فيقول اتوا موسى عبدا كلمه الله وأعطاها التوراة فيأتونه فيقول لست هناكم ويذكر قتل النفس بغير نفس فيستحي من ربه . فيقول اتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه فيأتونه فيقول لست هناكم اتوا محمدا عبدا غفرله ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتوني فأنتوني فأنتوني حتى أستأذن على ربي فيأذن لي فاذا رأيت ربي وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله ثم يقال ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمني ثم أشفع فيحدي حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود اليه فاذا رأيت ربي مثله ثم أشفع فيحدي حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فأقول ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود » هكذا ساق البخاري هذا الحديث ههنا ، وقد رواه مسلم والنسائي من حديث هشام وهو ابن أبي عبد الله الدستوائي عن قتادة به وأخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه من حديث سعيد وهو ابن أبي عروبة عن قتادة ، ووجه إيراده ههنا والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقتك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء . فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات ولهذا قال (ثم عرضهم على الملائكة) يعني المسميات كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة (فقال أنبثوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (وعلم آدم الأسماء كلها) ثم عرض الخلق على الملائكة . وقال ابن جريج عن مجاهد ثم عرض أصحاب الأسماء على الملائكة وقال ابن جرير : حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة عن الحسن وأبي بكر عن الحسن وقتادة قالا : علمه اسم كل شيء وجعل يسمى كل شيء باسمه وعرضت عليه أمة أمة ، وهذا الاسناد عن الحسن وقتادة في قوله تعالى (إن كنتم صادقين) إني لم أخلق خلقا إلا كنتم أعلم منه فأخبروني بأسماء

هؤلاء إن كنتم صادقين . وقال الضحاك عن ابن عباس (إن كنتم تعلمون أني لم أجعل في الأرض خليفة وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء وقال ابن جرير وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله ومعنى ذلك فقال أنبثوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ من غيرنا أم منا فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك . إن كنتم صادقين في قيلكم إنى إن جعلت خليفة في الأرض من غيركم عصاني وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء وإن جعلتكم فيها أطعموني واتبعت أمري بالتعظيم لي والتقديس فاذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأتمتم تشاهدونهم فأتمم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أخرى أن تكونوا غير عالمين) قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) هذا تقديس وتزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء وإن يعلموا شيئا إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا (سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء ، لك الحكمة في ذلك والعدل التام . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس : سبحانه الله ، قال تنزيه الله نفسه عن السوء ثم قال عمر لعل وأصحابه عنده لا إله إلا الله قد عرفناها فما سبحانه الله فقال له على كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن يقال . قال وحدثنا أبي حدثنا فضيل بن النضر بن عدى قال سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحانه الله قال اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء

قوله تعالى (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) قال زيد بن أسلم قال أنت جبرائيل أنت ميكائيل أنت إسرافيل حتى عدد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب . وقال مجاهد في قول الله (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) قال اسم الحمامة والغراب واسم كل شيء وروى عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك فلما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء ، قال الله تعالى للملائكة (ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) أي ألم أقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي كما قال تعالى (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) وكما قال إخبارا عن المهدد أنه قال لسليمان (ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) وقيل في قوله تعالى (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) غير ما ذكرناه فروى الضحاك عن ابن عباس (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) قال أعلم السر كما أعلم العلانية يعني ما كنتم إبليس في نفسه من الكبر والاعتقار . وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قال قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء الآية فهذا الذي أبدوا (وما كنتم تكتمون) يعني ما أسر إبليس في نفسه من الكبر وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد والسدي والضحاك والثوري . واختار ذلك ابن جرير وقال أبو العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة هو قولهم لم يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه : وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) فكان الذي أبدوا هو قولهم . أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وكان الذي كنتموا بينهم هو قولهم لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم . فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم وقال ابن جرير حدثنا يونس حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قصة الملائكة وآدم : فقال الله للملائكة كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها ، هذا عندي قد علمته فكذلك أخفيت عنكم أني أجعل فيها من يعصيني ومن يطيعني ، قال وقد سبق من الله (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) قال ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروا قال فلما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقرؤا له بالفضل .

وقال ابن جرير وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس وهو أن معنى قوله تعالى : وأعلم ماتبدون — وأعلم مع علمى غيب السموات والأرض ماتظهرونه بألسنتكم وما كنتم تحفون في أنفسكم فلا يخفى على شيء سواء عندى سرائركم وعلايتكم والذى أظهوره بألسنتهم قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ، والذى كانوا يكتمون ما كان عليه منظوبا إبليس من الخلاف على الله في أوامره والتكبر عن طاعته : قال وصح ذلك كما تقول العرب قتل الجيش وهزموا ، وإنما قتل الواحد أو البعض وهزم الواحد أو البعض فيخرج الخبر عن المهزوم منه وللقول مخرج الخبر عن جميعهم كما قال تعالى (إن الدين ينادونك من وراء الحجرات) ذكر أن الذى نادى إنما كان واحدا من بنى تميم ، قال وكذلك قوله (وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وقد دل على ذلك أحاديث أيضا كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم وحديث موسى عليه السلام « رب أرني آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة فلما اجتمع به قال أنت آدم الذى خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته » قال وذكر الحديث كما سيأتى إن شاء الله . وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن عمار عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس قال كان إبليس من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة وكان اسمه الحارث وكان خازنا من خزان الجنة قال وخلق الملائكة كلهم من نور غير هذا الحى قال وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وهو لسان النار الذى يكون في طرفها إذا ألهمت قال وخلق الانسان من طين فاول من سكن الأرض الجن فافسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضا ، قال فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة وهم هذا الحى الذين يقال لهم الجن قتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال فلما فعل إبليس ذلك اغتر في نفسه فقال قد صنعت شيئا لم يصنعه أحد قال فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه فقال الله تعالى للملائكة الذين كانوا معه : إني جاعل في الأرض خليفة . فقالت الملائكة مجيبين له : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء كما افسدت الجن وسفكت الدماء وإنما بعثنا عليهم لذلك ؟ فقال الله تعالى إني أعلم ما لا تعلمون ، يقول إني قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره قال ثم امر بترية آدم فرفعت فخلق الله آدم من طين لازب واللازب اللازج الطيب من حمى مسنون منين وإنما كان حمى مسنونا بعد التراب فخلق منه آدم بيده قال فكث أربعين ليلة جسداً ملقى وكان إبليس ياتيه فيضربه برجله فيصلصل فيصوت فهو قول الله تعالى (من صلصال كالفخار) يقول كالشيء المنفرج الذى ليس بمصمت قال ثم يدخل في فيه ويخرج من دبره ويدخل من دبره ويخرج من فيه ثم يقول لست شيئا للصلاة وللشئ ما خلقت ولئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت على لأعصينك . قال فلما نفخ الله فيه من روحه أتت النفخة من قبل راسه فجعل لايجرى شيء منها في جسده إلا صار لحماً ودماً فلما انتهت النفخة إلى سترته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده فذهب لينهض فلم يقدر فهو قول الله تعالى (وخلق الانسان عجولا) قال ضجراً لا صبر له على سراء ولاضراء قال فلما تمت النفخة في جسده عطس فقال « الحمد لله رب العالمين » بالهام الله فقال الله له « يرحمك الله يا آدم » قال ثم قال تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين في السموات اسجدوا لآدم فسجدوا كلهم اجمعون إلا إبليس أبى واستكبر لما كان حدث نفسه من الكبر والاغترار فقال لا اسجد له وأنا خير منه واكبر سناً واكوى خلقاً خلقتني من نار وخلقته من طين يقول إن النار اكوى من الطين قال فلما أبى إبليس أن يسجد ابلسه الله أى آيسه من الخير كله وجعله شيطانا رجيا عقوبة لمعصيته ثم علم آدم الأسماء كلها وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس إنسان ودابة وارض وسهل وبحر وجبل وحرار واشباه ذلك من الأمم وغيرها ثم عرض هذه الأسماء على اولئك

الملائكة. يعنى الملائكة الذين كانوا مع إبليس الذين خلقوا من نار السموم وقال لهم (أنبئوني بأسماء هؤلاء) أى يقول أخبروني بأسماء هؤلاء (إن كنتم صادقين) إن كنتم تعلمون لم أجعل فى الأرض خليفة ، قال فلما علمت الملائكة موجدة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب الذى لا يعلمه غيره الذى ليس لهم به علم (قالوا سبحانك) تنزيها لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره تبنا إليك (لاعلم لنا إلا ما علمتنا) تبريا منهم من علم الغيب إلا ما علمتنا كما علمت آدم فقال (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) يقول أخبرهم بأسمائهم (فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم) أيها الملائكة خاصة (إني أعلم غيب السموات والأرض) ولا يعلم غيرى (وأعلم ما تبدون) يقول ما تظهرون (وما كنتم تكتمون) يقول أعلم السركما أعلم العلانية يعنى ما كنتم إبليس فى نفسه من الكبر والاعتزاز هذا سياق غريب وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها وهذا الاسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور وقال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك السماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة وكان إبليس مع ملكه خازنا فوقع فى صدره وقال ما أعطانى الله هذا إلا لمزية لى على الملائكة فلما وقع ذلك الكبر فى نفسه اطلع الله على ذلك منه فقال الله للملائكة (إني جاعل فى الأرض خليفة) فقالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا قالوا ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون) يعنى من شأن إبليس . فبعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض إني أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تشيننى فرجع ولم يأخذ وقال يارب إنها عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أفخذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به قبل التراب حتى عاد طينا لازبا واللازب هو الذى يلتزق بعضه ببعض ثم قال للملائكة (إني خالق بشرا من طين * فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) فخلق الله بيده ثلاثا يتكبر إبليس عنه ليقول له تتكبر عما عملت ييدى ولم أتكبر أنا عنه بخلق بشر ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فثرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه فكان أشدهم فزعا منه إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول (من صلصال كالفخار) ويقول لأمر ما خلقت ، ودخل من فيه فخرج من دبره ، وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ركب صمداً وهذا أجوف لأن سلطت عليه لأهلكه ، فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله فقال الحمد لله ، فقال له الله « يرحمك ربك » فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل الروح إلى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجله عجلان إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول الله تعالى (خلق الانسان من عجل) فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ، أبى واستكبر وكان من الكافرين ، قال الله له مامنعك أن تسجد إذ أمرتك لما خلقت ييدى ؟ قال أنا خير منه لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين ، قال الله له (اخرج منها فما يكون لك) يعنى ما ينبغي لك (أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين) والصغار هو الذل قال (وعلم آدم الأسماء كلها) ثم عرض الخلق على الملائكة (فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) أن بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ، فقالوا (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال) الله (يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) قال : قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها) فهذا الذى ابدوا (وأعلم ما تكتمون) يعنى ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر ، فهذا الاسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور فى تفسير السدى ويقع فيه إسرائيليات كثيرة فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة

أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله أعلم . والحاكم يروى في مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء ويقول على شرط البخارى .

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم ، فلهذا دخل في الخطاب لهم وذبم في مخالفة الأمر ، وسبسط المسألة إن شاء الله تعالى عند قوله (إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) ولهذا قال محمد بن إسحاق عن خلاد ابن عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال : كان إبليس قبل أن يركب العصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهدا ، وأكثرهم علما ، فذلك دعاه إلى الكبر ، وكان من حى يسمون جنا وفى رواية عن خلاد عن عطاء عن طاوس أو مجاهد عن ابن عباس أو غيره بنحوه . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعنى ابن العوام عن سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان إبليس اسمه عزازيل ، وكان من أشراف الملائكة من ذوى الأجنحة الأربعة ، ثم أبلس بعد وقال سنيد : عن حجاج عن ابن جريج قال : قال ابن عباس : كان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازنا على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا ، وكان له سلطان الأرض ، وهكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس سواء . وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس : إن من الملائكة قبيلة يقال لهم الجن : وكان إبليس منهم ، وكان يسوس ما بين السماء والأرض فعصى فمسخه الله شيطانا رجيا ، رواه ابن جرير . وقال قتادة عن سعيد بن المسيب : كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار حدثنا عدى بن أبى عدى عن عوف عن الحسن قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس ، وهذا إسناد صحيح عن الحسن ، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء . وقال شهر بن حوشب : كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء ، رواه ابن جرير : وقال سنيد بن داود : حدثنا هشيم أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى عن موسى بن عمار وعثمان بن سعيد بن كامل عن سعد بن مسعود قال : كانت الملائكة تقاتل الجن فسي إبليس وكان صغيراً فكان مع الملائكة يتعبد معها فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا فأبى إبليس فلذلك قال تعالى (إلا إبليس كان من الجن) وقال ابن جرير حدثنا محمد بن سنان البراز حدثنا أبو عاصم عن شريك عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس قال : إن الله خلق خلقا فقال اسجدوا لآدم فقالوا لا نفعل فبعث الله عليهم نارا فأحرقهم ، ثم خلق خلقا آخر فقال (إني خالق بشرأ من طين) اسجدوا لآدم قال فأبوا فبعث الله عليهم نارا فأحرقهم ، ثم خلق هؤلاء فقال اسجدوا لآدم قالوا نعم وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم - وهذا غريب ولا يكاد يصح إسناده فإن فيه رجلا مبهما ومثله لا يحتج به والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة حدثنا صالح بن حيان حدثنا عبد الله بن بريدة : قوله تعالى (وكان من الكافرين) من الذين أبوا فأحرقهم النار وقال أبو جعفر رضى الله عنه عن الربيع عن أبى العالية (وكان من الكافرين) يعنى من العاصين وقال السدى (وكان من الكافرين) الذين لم يخلقهم الله يومئذ يكونون بعد ، وقال محمد بن كعب القرظى ابتداء الله خلق إبليس على الكفر والضلالة وعمل بعمل الملائكة فصيره الله إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر ، قال الله تعالى (وكان من الكافرين) وقال قتادة فى قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته ، وقال بعض الناس كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام كما قال تعالى (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلنا ربي حقا) وقد كان هذا مشروعا فى الأمم الماضية ولكنه نسخ فى ملتنا قال معاذ : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم فأتت يارسول الله أحق أن يسجد لك فقال « لا لو كنت أمرا بشرا أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » ورجحه الرازى وقال بعضهم بل كانت السجدة لله وآدم قبله فيها كما قال تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) وفى هذا التنظير نظرا والأظهر أن القول الأول أولى

والسجدة لآدم إكراما وإعظاما واحتراما وسلاما وهي طاعة لله عز وجل لأنها امتثال لأمره تعالى وقد قواه الرازي في تفسيره وضعف ما عدها من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبله إذ لا يظهر فيه شرف والآخر أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال ، وقال قتادة في قوله تعالى (فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة وقال أنا نارى وهذا طنبى وكان بدء الذنوب الكبر استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام قلت وقد ثبت في الصحيح « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » وقد كان في قلب إبليس من الكبر - والكفر - والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس قال بعض العربيين وكان من الكافرين أى وصار من الكافرين بسبب امتناعه كما قال (فكان من المارقين) وقال (فتكونا من الظالمين) وقال الشاعر

بتيهاء قفر والمطى كأنها * قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

أى قد صارت وقال ابن فورك تقديره وقد كان في علم الله من الكافرين ورجحه القرطبي وذكرهنا مسألة فقال قال علماؤنا من أظهر الله على يديه ممن لبس بنى كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته خلافا لبعض الصوفية والرافضة هذا لفظه ثم استدلى على ما قال بأننا لا نقطع بهذا الذى جرى الخارق على يديه انه يوافق الله بالإيمان وهو لا يقطع لنفسه بذلك يعنى والولى الذى يقطع له بذلك في نفس الأمر قلت وقد استدلى بعضهم على ان الخارق قد يكون على يدى غير الولي بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضا بما ثبت عن ابن صياد أنه قال هو الدخ حين خبا له رسول الله ﷺ (فارتقب يوم تأت السماء بدخان مبين) وبما كان يصدر عنه أنه كان يملا الطريق إذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمر ، وبما ثبت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة من انه يأمر السماء أن تمطر فتعطر والأرض أن تنبت فتنبت وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحمله إلى غير ذلك من الأمور الموهولة . وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي قلت للشافعي كان الليث بن سعد يقول : إذا رأيت الرجل يمشى على الماء ويطير في الهواء فلا تعتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة فقال الشافعي : قصر الليث رحمه الله بل إذا رأيت الرجل يمشى على الماء ويطير في الهواء فلا تعتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة (١) وقد حكى الرازي وغيره قولين للعلماء هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض أو عام في ملائكة السموات والأرض وقد رجح كلامن القولين طائفة وظاهر الآية الكريمة العموم (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم والله أعلم .

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَرَاهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَحْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾

يقول الله تعالى إخبارا عما أكرم به آدم : بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس انه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ويأكل منها ماشاء رغدا أى هنيئا واسعاطيا : وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث محمد ابن عيسى الدامغانى حدثنا سلمة بن الفضل عن ميكايل عن ليث عن ابراهيم التيمي عن ابيه عن ابى ذر قال قلت لرسول الله ارئت آدم أنبيا كان قال « نعم نبيا رسولا يكلمه الله قبيلا » - يعنى عيانا - فقال (اسكن أنت وزوجك الجنة) وقد اختلف في الجنة التى أسكنها آدم هى فى السماء أم فى الأرض فالأكثر على الاول وحكى القرطبي عن المعتزلة والتقديرية القول بأنها فى الأرض وسيأتى تقرير ذلك فى سورة الأعراف إن شاء الله تعالى وسياق الآية

(١) هذا بالأصل ، وهو كما ترى لا فرق بين عبارتي الليث والشافعي ولعل عبارة الشافعي لا تعرضوا

يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة وقد صرح بذلك محمد بن إسحق حيث قال لما فرغ الله من معاتبة إبليس أقبل على آدم وقد علمه الأسماء كلها فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم إلى قوله (إنا أنزلنا الكتاب على آدم في السنته على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم عن ابن عباس وغيره ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحماً و آدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها امرأة ليسكن إليها فلما كشف عنه السنة وهب من نومه رآها إلى جنبه فقال فيما يزعمون والله أعلم «لحمي ودمي وزوجتي» فسكن إليها فلما زوجه الله وجعل له سكناً من نفسه قال له قبيلا (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) ويقال إن خلق حواء كان بعد دخول الجنة كما قال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشي فيها وحيشاً ليس له زوج يسكن إليه فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها ما أنت؟ قالت امرأة قال ولم خلقت؟ قالت لتسكن إلي. قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه ما اسمها يا آدم قال حواء قالوا ولم حواء؟ قال إنها خلقت من شيء حي. قال الله (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما).

وأما قوله (ولا تقربا هذه الشجرة) فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم وقد اختلف في هذه الشجرة ماهي فقال السدي عن حدثه عن ابن عباس الشجرة التي نهى عنها آدم عليه السلام هي الكرم وكذا قال سعيد بن جبير والسدي والشعبي وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس وقال السدي أيضاً في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (ولا تقربا هذه الشجرة) هي الكرم. وتزعم يهود أنها الخنطة. وقال ابن جرير وابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن اسماعيل بن سمره الأحمسي حدثنا أبو يحيى الحماني حدثنا أبو النضر أبو عمر الخزاز عن عكرمة عن ابن عباس قال: الشجرة التي نهى عنها آدم عليه السلام هي السنبلة وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة وابن المبارك عن الحسن بن عمار عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: هي السنبلة؟ وقال محمد بن إسحق عن رجل من أهل العلم عن حجاج عن مجاهد عن ابن عباس قال: هي البر وقال ابن جرير وحدثني الثوري عن إبراهيم حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا القاسم حدثني رجل من بني تميم أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن الشجرة التي أكل منها آدم والشجرة التي تاب عندها آدم فكتب إليه أبو الجلد سألتني عن الشجرة التي نهى عنها آدم وهي السنبلة وسألتني عن الشجرة التي تاب عندها آدم وهي الزيتون، وكذلك فسره الحسن البصري ووهب بن منبه وعطية العوفي وأبو مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبي لبدي وقال محمد بن إسحق عن بعض أهل اليمن عن وهب بن منبه أنه كان يقول هي البر ولكن الحبة منها في الجنة ككلى البقر وألين من الزبد وأحلى من العسل وقال سفيان الثوري عن حصين عن أبي مالك (ولا تقربا هذه الشجرة) قال النخلة، وقال ابن جرير عن مجاهد (ولا تقربا هذه الشجرة) قال التينة، وبه قال قتادة وابن جريج وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية كانت الشجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغي أن يكون في الجنة حدث، وقال عبد الرزاق: حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مهران قال: سمعت وهب بن منبه يقول: لما أسكن الله آدم وزوجه الجنة ونهاه عن أكل الشجرة وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها من بعض وكان لها ثمر تأكله الملائكة لحادهم وهي الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجه.

فهذه أقوال ستة في تفسير هذه الشجرة. قال الامام العلامة أبو جعفر بن جرير رحمه الله: والصواب في ذلك أن يقال إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجه عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكل منها ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة وقد قيل: كانت شجرة البر وقيل كانت شجرة الغنم وقيل كانت شجرة التين وجائز أن تكون واحدة منها وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم، وكذلك رجح الإبهام الرازي في تفسيره وغيره.

وهو الصواب وقوله تعالى (فأزلهما الشيطان عنها) يصح أن يكون الضمير في قوله عنها عائداً الى الجنة فيكون معنى الكلام كما قرأ عاصم فازا لهما أى فتحاها ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين وهو الشجرة فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة فازلهما أى من قبل الزلل فعلى هذا يكون تقدير الكلام (فأزلهما الشيطان عنها) أى بسببها كما قال تعالى (يؤفك عنه من أفك) أى يصرف بسببه من هو مأفوك ولهذا قال تعالى (فأخرجهما مما كانا فيه) أى من اللباس والمنزل والرحب والرزق الهنيء والراحة (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع الى حين) أى قرار وأرزاق وآجال - الى حين - أى الى وقت مؤقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة ، وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدى بإسناده وأبى العالية ووهب بن منبه وغيرهم ههنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس وكيف جرى من دخول إبليس الى الجنة وسوسسته وسنبسط ذلك إن شاء الله في سورة الأعراف فهناك القصة أبسط منها ههنا والله الموفق وقد قال ابن أبى حاتم ههنا : حدثنا على بن الحسن بن إشكاب ، حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله خلق آدم رجلاً طويلاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول ما بدا منه عورته فلما نظر الى عورته جعل يشتد في الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناده الرحمن يا آدم منى تفر » فلما سمع كلام الرحمن قال يارب لا ، ولكن استحياء . قال : وحدثني جعفر بن أحمد بن الحكم القرشي سنة أربع وخمسين ومائتين ، حدثنا سليمان بن منصور بن عمار حدثنا على بن عاصم عن سعيد عن قتادة عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « لما ذاق آدم من الشجرة فر هارباً فتعلقت شجرة بشعره فنودى : يا آدم أفراراً منى ؟ قال : بل حياء منك قال : يا آدم اخرج من جوارى فبعزتي لا يساكنني فيها من عصاني ولو خلقت مثلك ملء الأرض خلقاً ثم عصوني لأسكنهم دار العاصين » هذا حديث غريب وفيه انقطاع بل إعضال بين قتادة وأبى بن كعب رضى الله عنهما . وقال الحاكم حدثنا أبو بكر بن باكويه عن محمد بن أحمد بن النضر عن معاوية بن عمرو عن زائدة عن عمار بن أبى معاوية البجلي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر الى غروب الشمس ، ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال عبد بن حميد في تفسيره حدثنا روح عن هشام عن الحسن قال : لبث آدم في الجنة ساعة من نهار تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا . وقال أبو جعفر الرازي : عن الربيع بن أنس : قال خرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة فأخرج آدم معه غصناً من شجر الجنة على رأسه تاج من شجر الجنة وهو الإكليل من ورق الجنة . وقال السدى : قال الله تعالى (اهبطوا منها جميعاً) فهبطوا ونزل آدم بالهند ونزل معه الحجر الأسود وقبضة من ورق الجنة فبته بالهند فنبتت شجرة الطيب فأثما أصل ما يجاء به من الطيب من الهند من قبضة الوراق الى هبط بها آدم ، وإنما قبضها آدم أسفاً على الجنة حين أخرج منها . وقال عمران بن عيينة . عن عطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : أهبط آدم بدحنا أرض الهند . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن عطاء عن سعيد عن ابن عباس قال : أهبط آدم عليه السلام الى أرض يقال لها دحنا بين مكة والطائف . وعن الحسن البصري قال : أهبط آدم بالهند ، وحواء بجدة ، وإبليس بدستيميسان من البصرة على أميال وأهبطت الحية باصبهان رواء ابن أبى حاتم ، وقال محمد بن أبى حاتم . حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا محمد ابن سعيد بن سابق حدثنا عمر بن أبى قيس عن الزبير بن عدى عن ابن عمر قال أهبط آدم بالصفاء وحواء بالمروة . وقال رجاء بن سلمة أهبط آدم عليه السلام يده على ركبتيه مطأطأ رأسه ، وأهبط إبليس مشبكاً بين أصابعه رافعاً رأسه الى السماء . وقال عبد الرزاق قال معمر أخبرني عوف عن قسامة بن زهير عن أبى موسى قال إن الله حين أهبط آدم من الجنة الى الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة فثاركم هذه من ثمار الجنة غير ان هذه تتغير وتلك لا تتغير وقال الزهري عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها » رواه مسلم والنسائي . وقال

الرازي : اعلم ان في هذه الآية تهديدا عظيما عن كل المعاصي من وجوه (الأول) أن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي قال الشاعر :

ياناظرا يرنو بعيني راقد * ومشاهدا للامر غير مشاهد *
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي
درج الجنان ونيل فوز العابد * أنسيت ربك حين أخرج آدم * منها إلى الدنيا بذنب واحد

قال ابن القيم ولكننا سبي العدو فهل ترى * نعود إلى أوطاننا ونسلم

قال الرازي عن فتح الموصلي أنه قال كنا قوما من أهل الجنة فسانا إبليس إلى الدنيا فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها . فان قيل فاذا كانت جنة آدم التي أخرج منها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء فكيف تمكن إبليس من دخول الجنة وقد طرد من هنالك طردا قديرا والقدر لا يخالف ولا يمانع ؟ فالجواب ان هذا بعينه استدلل به من يقول إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء كما قد بسطنا هذا في أول كتابنا البداية والنهاية وأجاب الجمهور بأجوبة أحدها أنه منع من دخول الجنة مكرما فأما على وجه السرقة والاهانة فلا يمتنع ولهذا قال بعضهم كما جاء في التوراة أنه دخل في فم الحية إلى الجنة . وقد قال بعضهم : يحتمل أنه وسوس لها وهو خارج باب الجنة . وقال بعضهم : يحتمل أنه وسوس لها وهو في الأرض وهما في السماء ذكرها الزمخشري وغيره . وقد أورد القرطبي ههنا أحاديث في الحيات وقتلهن وبيان حكم ذلك فأجاد وأفاد

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

قيل إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى . (قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وروى هذا عن مجاهد . وسعيد بن جبيرة وإبي العالية والربيع بن انس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظي وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال أبو اسحق السبيعي عن رجل من بني تميم قال أتيت ابن عباس فسألت ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه ؟ قال علم شأن الحج وقال سفيان الثوري عن عبد العزيز بن رفيع أخبرني من سمع عبيد بن عمير وفي رواية قال أخبرني مجاهد عن عبيد بن عمير أنه قال : قال آدم يارب خطيئتي التي أخطأت شيء كتبت على قبل أن تخلقني أو شيء ابتدعته من قبل نفسي ؟ قال « بل شيء كتبتك عليك قبل أن أخلقك » قال فكما كتبتك على فأغفر لي ، قال فذلك قوله تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وقال السدي عن حدثه عن ابن عباس فتلقى آدم من ربه كلمات قال : قال آدم عليه السلام يارب ألم تخلقني بيديك ؟ قيل له بلى ونفخت في من روحك ؟ قيل له بلى ، وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له بلى وكتبت علي أن أعمل هذا ؟ قيل له بلى قال أرأيت إن تبت هل أنت راجع إلى الجنة ؟ قال نعم . وهكذا رواه العوفي وسعيد بن جبيرة وسعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه ورواه الحاكم في مستدركه من حديث ابن جبيرة عن ابن عباس وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهكذا فسره السدي وعطية العوفي وقد روى ابن أبي حاتم ههنا حديثا شبيها بهذا فقال حدثنا علي بن الحسين بن اشكاب حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال آدم عليه السلام أرأيت يارب إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة ؟ قال نعم فذلك قوله (فتلقى آدم من ربه كلمات) وهذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع : وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن انس عن أبي العالية في قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . قال إن آدم لما أصاب الخطيئة قال أرأيت يارب إن تبت وأصلحت ؟ قال الله « إذا أدخلك الجنة » فهي الكلمات ، ومن الكلمات أيضا (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد انه كان يقول في قول الله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه قال الكلمات اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فأغفر لي انك خير الغافرين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فإرحمني إنك خير الراحمين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فتاب علي انك أنت التواب الرحيم . وقوله تعالى (إنه هو التواب الرحيم) أي انه يتوب على من تاب

إليه وأتاب كتوبه (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) وقوله (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه) الآية وقوله (ومن تاب وعمل صالحا) وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ، ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبده ، لا إله إلا هو التواب الرحيم

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما أُنذره آدم وزوجه وإبليس حين أهبطهم من الجنة والمراد اللرية إنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل كما قال أبو العالية الهدى الأنبياء والرسل والبينات والبيان ، وقال مقاتل بن حيان الهدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الحسن الهدى القرآن ، وهذان القولان صحيحان وقول أبي العالية أعم (فمن اتبع هداي) أي من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل (فلا خوف عليهم) أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة (ولا هم يحزنون) على ما فاتهم من أمور الدنيا كما قال في سورة طه (قال اهبطوا منها جميعا بعضهم لبعض عدوا فما يأتيهم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) قال ابن عباس فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) كما قال ههنا (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أي مخلدون فيها لا يحيد لهم عنها ولا يحصى. وقد أورد ابن جرير ههنا حديثا ساقه من طريقين عن أبي سلمة سعيد بن يزيد عن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة عن أبي سعيد واسمه سعد بن مالك بن سنان الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحما أذن في الشفاعة » وقد رواه مسلم من حديث شعبة عن أبي سلمة به . وذكر هذا الإهباط الثانى لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير كما يقال قم قم ، وقال آخرون بل الإهباط الأول من الجنة الى السماء الدنيا والثانى من سماء الدنيا الى الارض والصحيح الأول والله أعلم

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هٰذَا الْوَسْوَاسَ الْخَفِيَّ ۚ هُوَ يَقُولُ أَتَذْكُرُوا نِعْمَتَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِلَىٰ ذٰلِكَ فَارْهَبُونَ * وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ۚ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِلَىٰ ذٰلِكَ فَاتَّقُونَ ﴾

يقول تعالى آمرا بنى اسرائيل بالدخول فى الاسلام ، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ، ومهيجا لهم بذكر آيهم اسرائيل وهو بنى الله يعقوب عليه السلام ، وتقديره يا بنى العبد الصالح الطيع لله كونوا مثل أئكم فى متابعة الحق كما تقول يا ابن الكريم افعل كذا ؛ يا ابن الشجاع بارز الابطال ؛ يا ابن العالم اطلب العلم ، ونحو ذلك . ومن ذلك أيضا قوله تعالى (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا) فإسرائيل هو يعقوب بدليل ما رواه أبو داود الطيالسى حدثنا عبد الحميد بن هرام عن شهر بن حوشب قال حدثني عبد الله بن عباس قال حضرت عصابة من اليهود بنى الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم « هل تعلمون أن اسرائيل يعقوب ؟ » قالوا اللهم نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم اشهد » وقال الأعمش عن اسماعيل بن رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس أن اسرائيل كقولك عبد الله وقوله تعالى (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) قال مجاهد نعمة الله التى أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك أن فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى ونجاهم من عبودية آل فرعون وقال أبو العالية نعمته أن جعل منهم الانبياء والرسل وأنزل عليهم الكتب قلت وهذا كقول موسى عليه السلام لهم (يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) يعنى فى زمانهم وقال محمد ابن اسحق حدثني محمد بن أبى محمد عن عكرمة أوسعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (اذكروا نعمتى التى

أنعمت عليكم) أى بلائى عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم من فرعون وقومه (وأوفوا بعهدي أوف بعهديكم) قال بهدى الذى أخذت فى أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الأصار والأغلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من أحوالكم . وقال الحسن البصرى هو قوله تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نبيا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزتموه وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار) الآية وقال آخرون هو الذى أخذ الله عليهم فى التوراة أنه سيعت من بنى إسماعيل نبيا عظيما يطعمه جميع الشعوب والمراد به محمد ﷺ فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين . وقد أورد الرازى بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمحمد ﷺ ، وقال ابو العالية (وأوفوا بعهدي) قال عهده الى عباده دين الاسلام وان يتبعوه ، وقال الضحاك عن ابن عباس أوف بعهديكم قال أرض عنكم وأدخلكم الجنة وكذا قال السدى والضحاك وابو العالية والريبع بن انس ، وقوله تعالى (وإياي فارهبون) أى فاخشون قاله ابو العالية والسدى والريبع بن انس وقتادة وقال ابن عباس فى قوله تعالى (وإياي فارهبون) أى أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النعمات التى قد عرقتكم من اللبس وغيره وهذا انتقال من الترهيب الى الترهيب فدعاهم اليه بالرغبة والرغبة لعلهم يرجعون الى الحق واتباع الرسول ﷺ والاتعاظ بالقرآن وزواجه وامثال أوامره وتصديق أخباره والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، ولهذا قال (وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم) يعنى به القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ النبى الأمى العربى بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتقاً على الحق من الله تعالى مصداقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل قال ابو العالية رحمه الله فى قوله تعالى (وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم) يقول يامعشر اهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم يقول لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل ، وروى عن مجاهد والريبع بن انس وقتادة نحو ذلك وقوله (ولا تكونوا أول كافرين) قال بعض المعربين اول فريق كافره أو نحو ذلك قال ابن عباس ولا تكونوا اول كافره وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم ، قال ابو العالية يقول ولا تكونوا اول من كفر بمحمد ﷺ يعنى من جنسكم اهل الكتاب بعد مماعكم ببعثه وكذا قال الحسن والسدى والريبع بن انس واختار ابن جرير أن الضمير فى قوله به عائد على القرآن الذى تقدم ذكره فى قوله (بما أنزلت) وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن وأما قوله (أول كافرين) فيعنى به أول من كفر به من بنى إسرائيل لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير وإنما المراد أول من كفر به من بنى إسرائيل مباشرة فان يهود المدينة أول بنى إسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفرهم به يستأنم أنهم أول من كفر به من جنسهم ، وقوله تعالى (ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) يقول لا تعاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى بالدنيا وشهواتها فانها قليلة فانية كما قال عبد الله بن المبارك أنبأنا عبد الرحمن بن زيد بن جابر عن هرون بن يزيد قال سئل الحسن يعنى البصرى عن قوله تعالى (ثمناً قليلاً) قال الثمن القليل الدنيا بخلافها وقال ابن لهيعة حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى (ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) إن آياته كتابه الذى أنزله اليهم وإن الثمن القليل الدنيا وشهواتها ، وقال السدى ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً يقول لا تأخذوا طمعاً قليلاً ولا تكتنوا اسم الله فذلك الطمع هو الثمن ، وقال أبو جعفر عن الريبع بن انس عن أبى العالية فى قوله تعالى (ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) يقول لا تأخذوا عليه أجراً قال وهو مكتوب عندهم فى الكتاب الأول يا ابن آدم علم مجاناً علمت مجاناً ، وقيل معناه لا تعاضوا عن البيان والايضاح ونشر العلم النافع فى الناس بالكتمان واللبس لتستمرروا على رياستكم فى الدنيا القليلة الحقة الزائلة عن قريب ، وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من تعلم علماً مما يتبعى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به

عرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة » فأما تعليم العلم بأجرة فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب فهو كما لم يتعين عليه وإذا لم يتعين عليه فانه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد في قصة اللديغ « إن أحق ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله » وقوله في قصة الخطوبة « زوجتكها بما معك من القرآن » فأما حديث عبادة بن الصامت أنه علم رجلا من أهل الصفة شيئا من القرآن فأهدى له قوسا فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال « إن أحببت أن تطوق بقوس من نار فأقبله » فتركه رواه أبو داود وروى مثله عن أبي ابن كعب مرفوعا فإن صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم أبو عمر بن عبد البر على أنه لما علمه الله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فانه يصح كما في حديث اللديغ وحديث سهل في الخطوبة والله أعلم وقوله (وإياي فاتقون) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عمر الدوري حدثنا أبو إسماعيل المؤدب عن عاصم الأحول عن أبي العالية عن طلق بن حبيب قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله وإن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله ومعنى قوله (وإياي فاتقون) انه تعالى يتوعدكم فيما يتعمدون من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدون من تلبيس الحق بالباطل . وتمويهه به وكتانهم الحق وإظهارهم الباطل (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأتم تعلمون) فنهام عن الشيثين معا وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به ولهذا قال الضحاك عن ابن عباس - ولا تلبسوا الحق بالباطل - لا تخطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب ، وقال أبو العالية - ولا تلبسوا الحق بالباطل - يقول ولا تخطوا الحق بالباطل وأدوا النصيحة لعباد الله من أمة محمد ﷺ وروى عن سعيد بن جبير والريبع بن أنس نحوه وقال قتادة (ولا تلبسوا الحق بالباطل) ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالاسلام وأتم تعلمون أن دين الله الاسلام وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله . وروى عن الحسن البصري نحوه ذلك وقال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وتكتموا الحق وأتم تعلمون) أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به وأتم تجدونه مكتوبا عندكم فيها تعلمون من الكتب التي بأيديكم وروى عن أبي العالية نحوه ذلك وقال مجاهد والسدي وقاتدة والريبع بن أنس (وتكتموا الحق) يعني محمدا ﷺ (قلت) وتكتموا يحتمل أن يكون مجزوما ويحتمل أن يكون منصوبا أي لا تجمعوا بين هذا وهذا كما يقال لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، قال الزمخشري وفي مصحف ابن مسعود وتكتمون الحق أي في حال كتمانكم الحق وأتم تعلمون حال أيضا ، ومعناه وأتم تعلمون الحق ويجوز أن يكون المعنى وأتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار إن سلكوا ما تبعدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروجه عليهم والبيان الايضاح وعكسه الكتمان وخط الحق بالباطل (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) قال مقاتل قوله تعالى لأهل الكتاب (وأقيموا الصلاة) أمرهم أن يصلوا مع النبي ﷺ (وآتوا الزكاة) أمرهم أن يؤتوا الزكاة أي يدفعونها إلى النبي ﷺ (واركعوا مع الراكعين) أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ يقول كونوا معهم ومنهم وقال علي بن طلحة عن ابن عباس يعني بالزكاة طاعة الله والاخلاص ، وقال وكيع عن أبي جناب عن عكرمة عن ابن عباس في قوله وآتوا الزكاة قال ما يوجب الزكاة قال مائتان فصاعدا ، وقال مبارك بن فضالة عن الحسن في قوله

تعالى (وآتوا الزكاة) قال فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن أبي حيان التميمي عن الحارث العكلي في قوله تعالى (وآتوا الزكاة) قال صدقة الفطر وقوله تعالى (واركعوا مع الراكعين) أى وكونوا مع المؤمنين فى أحسن أعمالهم ومن أحسن ذلك وأكمله الصلاة . وقد استدلل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة ، وأبسط ذلك فى كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله تعالى ، وقد تكلم القرطبي على مسائل الجماعة والامامة فأجاد .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير ان تنسوا أنفسكم فلا تأمرون بما تأمرون الناس به وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر فى أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم . فتنهتوا من رقتكم . وتنبصروا من عمايتكم . وهذا كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) قال كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ويخالفون فعيرهم الله عز وجل وكذلك قال السدى وقال ابن جرير (أتأمرون الناس بالبر) أهل الكتاب والناقضون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة ويدعون العمل بما يأمرون به الناس فعيرهم الله بذلك فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة وقال محمد بن إسحق عن محمد بن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وتنسون أنفسكم) أى تتركون أنفسكم (وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) أى تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة وتتركون أنفسكم أى وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي اليكم فى تصديق رسولى وتنقضون ميثاقى وتجددون ما تعلمون من كتابى ، وقال الضحاك عن ابن عباس فى هذه الآية يقول تأمرون الناس بالدخول فى دين محمد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة وتنسون أنفسكم ، وقال أبو جعفر بن جرير حدثنى على بن الحسن حدثنا أسلم الحرمى حدثنا محمد بن الحسين عن أيوب السخيتانى عن أبي قلابة فى قول الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) قال أبو الدرداء رضى الله عنه لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يفقه الناس فى ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى هذه الآية هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل سألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة أمروه بالحق فقال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونههم على خطئهم فى حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له بل على تركهم له فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولى العلماء من السلف والخلف وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصى لا ينهى غيره عنها وهذا ضعيف وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية فإنه لا حاجة لهم فيها ، والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله وينهى عن المنكر وإن ارتكبه ، قال مالك عن ربيعة سمعت سعيد بن جبير يقول لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر . قال مالك وصدق من ذا الذى ليس فيه شيء ؟ (قلت) ولكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومحالته على بصيرة فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ولهذا جاءت الأحاديث فى الوعيد على ذلك كما قال الإمام أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير حدثنا أحمد بن المولى الدمشقى والحسن بن على العمري قالوا حدثنا هشام بن عمار حدثنا على بن سليمان الكلبى حدثنا الأعمش عن أبي تيمعة الهجيمي عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه » هذا حديث غريب من هذا الوجه *

حديث آخر * قال الامام أحمد بن حنبل في مسنده حدثنا وكيع حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد هو ابن جعدان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مرت ليلة أسرى بي على قوم تفرض شفاهم بمقاريض من نار - قال قلت من هؤلاء ؟ قالوا خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » ورواه عبد بن حميد في مسنده وتفسيره عن الحسن بن موسى عن حماد بن سلمة به ورواه ابن مردويه في تفسيره من حديث يونس بن محمد المؤدب والحجاج بن منهال كلاهما عن حماد بن سلمة به وكذا رواه يزيد بن هرون عن حماد بن سلمة به ، ثم قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا موسى ابن هرون حدثنا إسحق بن ابراهيم التستري يبلغ حدثنا مكى بن ابراهيم حدثنا عمر بن قيس عن علي بن زيد عن ثمامة عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مرت ليلة أسرى بي على أناس تفرض شفاهم وألسنتهم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم » وأخرجه ابن حبان في صحيحه وابن أبي حاتم وابن مردويه أيضا من حديث هشام الدستوائي عن المغيرة بن يعنى ابن حبيب ختن مالك بن دينار عن مالك بن دينار عن ثمامة عن أنس بن مالك قال لما عرج برسول الله ﷺ مرة يقوم تفرض شفاهم فقال يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم أفلا يعقلون * حديث آخر * قال الامام أحمد حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا الأعمش عن أبي وائل قال قيل لأسامة وأنا رديفه الاتكلم عثان فقال إنكم ترون أنى لا أكلمه الا أسمعكم إنى لا أكلمه فيما بينى وبينه دون ان افتتح أمرا أحب أن أكون أول من افتتحه والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان على أميرأ بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول يقول قالوا وما سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول « يحاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أفتابه فيدور بهافي النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان ما أصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية » ورواه البخارى ومسلم من حديث سليمان بن مهران الأعمش به نحوه وقال أحمد حدثنا سيار بن حاتم حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يعافى الأميين يوم القيامة مالا يعافى العلماء » وقد ورد في بعض الآثار أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ليس من يعلم كمن لا يعلم ، وقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) وروى ابن عساکر في ترجمة الوليد بن عقبة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن أناسا من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون بهم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم فيقولون إنا كنا نقول ولا نفعل » ورواه ابن جرير الطبري عن أحمد بن يحيى الخباز الرملى عن زهير بن عباد الرواسى عن أبي بكر الزاهرى عبد الله بن حكيم عن إسماعيل بن أبي خالده عن الشعبي عن الوليد بن عقبة ذكره وقال الضحاك عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال يا ابن عباس إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، قال أبلغت ذلك ؟ قال أرجو ، قال إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ، قال وما هن ؟ قال قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) أحكمت هذه ؟ قال لا ، قال فالحرف الثانى قال قوله تعالى (لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) أحكمت هذه ؟ قال لا قال فالحرف الثالث قال قول العبد الصالح شعيب عليه السلام (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح) أحكمت هذه الآية ؟ قال لا قال فابدأ بنفسك رواه ابن مردويه في تفسيره وقال الطبرانى حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا زيد بن الحارث حدثنا عبد الله بن خراش عن العوام بن حوشب عن المسيب بن رافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال أو دعا إليه » اسناده فيه ضعف وقال ابراهيم النخعى انى لأكره القصص لثلاث آيات قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وقوله (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وقوله اخبارا عن شعيب (وما أريد أن

أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب (**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ** * الَّذِينَ يَنْتُظُونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

يقول تعالى أمراً عبده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة فأما الصبر فقليل إنه الصيام نص عليه مجاهد قال القرطبي وغيره ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث وقال سفيان الثوري عن أبي إسحق عن جري ابن كليب عن رجل من بني سليم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الصوم نصف الصبر » وقيل المراد بالصبر الكف عن المعاصي ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعمالها فعل الصلاة . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن حمزة بن إسماعيل حدثنا إسحاق بن سليمان عن أبي سنان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال الصبر صبران صبر عند المصيبة حسن وأحسن منه الصبر عن محارم الله . قال وروى عن الحسن البصري نحو قول عمر وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار عن سعيد بن جبير قال الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر . وقال أبو العالية في قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) قال على مرضاة الله واعلموا أنها من طاعة الله وأما قوله والصلاة إن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر كما قال تعالى (اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) الآية وقال الإمام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن عكرمة بن عمار عن محمد بن عبد الله الدؤلي قال قال عبد العزيز أخو حذيفة قال حذيفة يعني ابن اليمان رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى وراوه أبوداود عن محمد بن عيسى عن يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار كاسياً وقد رواه ابن جرير من حديث ابن جريج عن عكرمة بن عمار عن محمد بن أبي عبيد بن أبي قدامة عن عبد العزيز بن اليمان عن حذيفة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ورواه بعضهم عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة ويقال أخى حذيفة مرسلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة حدثنا سهل بن عثمان العسكري حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة قال : قال عكرمة بن عمار قال محمد بن عبد الله الدؤلي قال عبد العزيز قال حذيفة رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي وكان إذا حزبه أمر صلى . حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن أبي إسحق سمع حارثة بن مضرب سمع علياً رضي الله عنه يقول لقد رأيت ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ويدعو حتى أصبح . قال ابن جرير وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه مر بأبي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له « أشكم درد » ومعناه أي جمعك بطنك ؟ قال نعم - قال « قم فصل فان الصلاة شفاء » قال ابن جرير وقد حدثنا محمد بن الفضل ويعقوب بن إبراهيم قال حدثنا ابن علية حدثنا عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه أن ابن عباس نعى إليه أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيها الجلوس ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج (واستعينوا بالصبر والصلاة) قال انهما معوتان على رحمة الله . والضمير في قوله وإنها لكبيرة عائد إلى الصلاة نص عليه مجاهد واختاره ابن جرير ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك كقوله تعالى في قصة قارون (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون) وقال تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) أي وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا وما يلقاها

أى يؤتاها ويلهمها إلا ذو حظ عظيم . وعلى كل تقدير فقوله تعالى وإنها لكبيرة أى مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس يعنى المصدقين بما أنزل الله ، وقال مجاهد المؤمنين حقا وقال أبو العالية إلا على الخاشعين وقال مقاتل بن حيان إلا على الخاشعين يعنى به التواضعين وقال الضحاك وإنها لكبيرة قال أنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته الخائفين سطوته المصدقين بوعدده ووعدده . وهذا يشبه ما جاء فى الحديث « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه » وقال ابن جرير معنى الآية واستعينوا أيها الأخبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة النافعة من الفحشاء والمنكر القريبة من رضا الله العظيمة إقامتها إلا على الخاشعين أى المتواضعين المستكينين لطاعته المذللين من مخالفتهم . هكذا قال والظاهر أن الآية وإن كانت خطابا فى سياق إنذار بنى إسرائيل فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص وإنما هى عامة لهم ولغيرهم والله أعلم .

وقوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملأوا ربهم وأنهم إليه راجعون) هذا من تمام الكلام الذى قبله أى أن الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملأوا ربهم أى يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة معروضون عليه وأنهم إليه راجعون أى أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعده فلهمنا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات فأما قوله (يظنون أنهم ملأوا ربهم) قال ابن جرير رحمه الله العرب قد تسمى اليقين ظنا والشك ظنا نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة والمغيث صارخا والمستغيث صارخا وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشيء وضده كما قال دريد بن الصمة

فقلت لهم ظنوا بالنى مدحج * سراتهم فى الفارسى المسرد

يعنى بذلك تيقنوا بالنى مدحج يأتىكم ، وقال عمر بن طارق

فإن يعبروا قومي وأقعد فيكم * وأجعل منى الظن غيبا مرجحا

يعنى وأجعل منى اليقين غيبا مرجحا ، قال والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن فى معنى اليقين أكثر من أن تحصر وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية ومنه قول الله تعالى (ورأى الجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) ثم قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو عاصم حدثنا سفيان عن جابر عن مجاهد كل ظن فى القرآن يقين أى ظننت وظنوا ، وحدثني الثنى حدثنا إسحق حدثنا أبو داود الجبرى عن سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال كل ظن فى القرآن فهو علم وهذا سند صحيح وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملأوا ربهم) قال الظن ههنا يقين ، قال بن أبى حاتم وروى عن مجاهد والسدى والربيع بن أنس وقتادة نحو قول أبى العالية ، وقال سنيذ عن حجاج عن ابن جريج (الذين يظنون أنهم ملأوا ربهم) علموا أنهم ملأوا ربهم كقوله (إنى ظننت أنى ملاق حسايه) يقول علمت وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (قلت) وفى الصحيح ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة « ألم أزوجك ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والإبل وأدرك ترأس وتربع ؟ » فيقول بلى فيقول الله تعالى « أظننت أنك ملاق ؟ » فيقول لا فيقول الله « اليوم أنساك كما نسيتنى » وسياأتى مبسوطا عند قوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) إن شاء الله تعالى .

(يٰبَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم كما قال تعالى (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) وقال تعالى (وإد قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (وأنى فضلتكم على العالمين) قال بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان فى ذلك الزمان فإن لكل زمان عالما ، وروى عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة وإسماعيل

ابن أبي خالده نحو ذلك ويجب الحمل على هذا لأن هذه الأمة أفضل منهم لقوله تعالى . خطاباً لهذه الأمة (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم) وفي السانيد والسنن عن معاوية بن حيدة القشيري قال : قال رسول الله ﷺ « أتم توفون سبعين أمة أتم خيرها وأكرمها على الله » ، والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وقيل المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً حكاه الرازي وفيه نظر ؛ وقيل إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتغال أمتهم على الأنبياء منهم حكاه القرطبي في تفسيره وفيه نظر لأن العالمين عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾
لما ذكرهم تعالى بنعمه أولاً عطف على ذلك التحذير من طول نعمتهم يوم القيامة فقال (واتقوا يوماً) يعني يوم القيامة (لا تجزي نفس عن نفس شيئاً) أى لا يغنى أحد عن أحد كما قال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقال (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) وقال (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) فهذا أبلغ القامات أن كلا من الوالد وولده لا يغنى أحدهما عن الآخر شيئاً ، وقوله تعالى (ولا يقبل منها شفاعة) يعني من الكافرين كما قال (فماتنفعهم شفاعة الشافعين) وكما قال عن أهل النار (فإنا لنا من شافعين ولا صديق حميم) وقوله تعالى (ولا يؤخذ منها عدل) أى لا يقبل منها فداء كما قال تعالى (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملةء الأرض ذهباً ولو افترى به) وقال (ان الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) وقال تعالى (وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) وقال (فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم) الآية فأخبر تعالى أنهم ان لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعث به ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذى جاه ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهباً كما قال تعالى (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وقال (لا بيع فيه ولا خلة) قال سنيّد حدثني حجاج حدثني ابن جريج قال قال مجاهد قال ابن عباس (ولا يؤخذ منها عدل) قال بدل والبدل الفدية ، وقال السدي أما عدل فيعدلها من العدل يقول لوجاءت بملء الأرض ذهباً فتفدى به ما تقبل منها ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله (ولا يقبل منها عدل) يعني فداء قال ابن أبي حاتم وروى عن أبي مالك والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك ، وقال عبد الرزاق أنبأنا الثوري عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن علي بن رضى الله عنه في حديث طويل قال والصرف والعدل التطوع والفريضة وكذا قال الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبي العاتكة عن عمير بن هاني . وهذا القول غريب ههنا والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية وقد ورد حديث يقويه وهو ما قال ابن جرير حدثني نجيح بن إبراهيم حدثنا علي بن حكيم حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن أبيه عن عمرو بن قيس الملائي عن رجل من بني أمية من أهل الشام أحسن عليه الثناء قال قيل يا رسول الله ما العدل ؟ قال « العدل الفدية » وقوله تعالى (ولا هم ينصرون) أى ولا أحد يفضيهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله كما تقدم من انه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا زوجاء ولا يؤخذ منهم فداء هذا كله من جانب التلطف ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم كما قال (فما له من قوة ولا ناصر) أى انه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ ولا يخلص منه أحد ولا ينجيه منه أحد كما قال تعالى (وهو ينجي ولا ينجار عليه) وقال (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) وقال (مالكم لاتنصرون بل هم اليوم مستسلمون) وقال (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم) الآية ، وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى (مالكم لاتنصرون)

مالك اليوم لا تمنعون منا هيات ليس ذلك لكم اليوم قال ابن جرير وتأويل قوله (ولاهم بنصرون) يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع ولا يقبل منهم عدل ولا فدية بطلت هنالك الحباة واضمحلت الرشا والشفاعات وارتفع من القوم التناصر والتعاون وصار الحكم إلى الجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء فيجزى بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها وذلك نظير قوله تعالى (وقفوا لهم منهم مستولون * مالك لاتنصرون ؟ بل هم اليوم مستسلمون)

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿

يقول تعالى اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب أي خلصتكم منهم وأتقذتكم من أيديهم صعبة موسى عليه السلام وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤياه الله رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بني إسرائيل مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل ويقال بعد تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة وهكذا جاء في حديث الفتون كما سيأتي في موضعه في سورة طه إن شاء الله تعالى فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل وأن تترك البنات وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها وهنأهم فسر العذاب بذبح الأبناء وفي سورة إبراهيم عطف عليه كما قال (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص إن شاء الله تعالى وبه الثقة والمعونة والتأييد . ومعنى يسومونكم يولونكم قاله أبو عبيدة كما يقال سامه خطة خسف إذا أولاه إياها قال عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفا * لمبينا أن تقرأ الخسف فينا

وقيل معناه يدعون عذابكم كما يقال سائمة الغنم من إدامتها الرعى نقله القرطبي وإنما قال ههنا (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم في قوله (يسومونكم سوء العذاب) ثم فسر به هذا لقوله ههنا (اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) وأما في سورة إبراهيم فلما قال (وذكرهم بأيام الله) أي بأيادي ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيدى على بني إسرائيل . وفرعون علم على كل من ملك مصر كافراً من العماليق وغيرهم كما ان قيصراً علم على كل من ملك الروم مع الشام كافراً وكسرى لمن ملك الفرس ، وتبع لمن ملك اليمن كافراً ، والنجاشي لمن ملك الحبشة ، وبطليموس لمن ملك الهند ويقال كان اسم فرعون الذي كان في زمن موسى عليه السلام الوليد بن مصعب بن الريان وقيل مصعب بن الريان فكان من سلالة عمليق بن الأود بن إرم بن سام بن نوح وكنيته أبو مرة وأصله فارسي من اصطخر وأيا ما كان فعليه لعنة الله ، وقوله تعالى (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) قال ابن جرير وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك ، وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى (بلاء من ربكم عظيم) قال نعمة ، وقال مجاهد (بلاء من ربكم عظيم) قال نعمة من ربكم عظيمة ، وكذا قال أبو العالية وأبو مالك والسدي وغيرهم وأصل البلاء الاختبار وقد يكون بالخير والشر كما قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقال (وبلونا هم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) قال ابن جرير وأكثر ما يقال في الشر بلوته أبواه بلاء وفي الخير أبليه إبلاء وبلاء ، قال زهير بن أبي سلمى :

جزى الله بالاحسان ما فعلا بكم * وأبلاهما حير البلاء الذي يبلو

قال فجمع بين اللغتين لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده وقيل المراد بقوله (وفي ذلكم بلاء)

إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهيمن من ذبح الأبناء واستحياء النساء قال القرطبي وهذا قول الجمهور ولفظه بعد ما حكى القول الأول ، ثم قال : وقال الجمهور الإشارة إلى الذبح ونحوه والبلاء ههنا في الشر والمعنى وفي الذبح مكروه وامتحان وقوله تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأتم تنظرون) معناه وبعد أن أبقيناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً كما سيأتي في موضعه ومن أبسطها ما في سورة الشعراء إن شاء الله (فأنجيناكم) أي خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأتم تنظرون ليكون ذلك أشقى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم . قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أبي إسحاق الحمداني عن عمرو بن ميمون الأودي في قوله تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر) — إلى قوله — وأتم تنظرون) قال لما خرج موسى ببني إسرائيل بلغ ذلك فرعون فقال لا تتبعوهم حتى تصيح الديكة قال فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا فدعا بشاة فذبحت ثم قال لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إلى ستائة ألف من القبط فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه ستائة ألف من القبط فلما أتى موسى البحر قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع ابن نون أين أمر ربك ؟ قال أمامك يشير إلى البحر فأقبحهم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغمر فذهب به الغمر ثم رجع فقال أين أمر ربك يا موسى ؟ فوالله ما كذبت ولا كذبت ، فعل ذلك ثلاث مرات ثم أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فصر به فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم — يقول مثل الجبل — ثم سار موسى ومن معه واتبعهم فرعون في طريقهم حتى إذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم فبذلك قال (وأغرقنا آل فرعون وأتم تنظرون) وكذلك قال غير واحد من السلف كما سيأتي بيانه في موضعه وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء كما قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الوارث حدثنا أيوب عن عبد الله بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال « ما هذا اليوم الذي تصومون ؟ » قالوا هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى عليه السلام فقال رسول الله ﷺ « أنا أحق بموسى منكم » فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه وروى هذا الحديث البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه من طرق عن أيوب السخيتاني به نحوه ما تقدم وقال أبو يعلى الموصلي حدثنا أبو الربيع حدثنا سلام يعني ابن سليم عن زيد العمي عن يزيد الرقاشي عن أنس عن النبي ﷺ قال « فلق الله البحر لبني إسرائيل يوم عاشوراء » وهذا ضعيف من هذا الوجه فإن زيدا العمي فيه ضعف وشيخه يزيد الرقاشي أضعف منه

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىَ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى واذكروا نعمتي عليكم في عفو عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة وكانت أربعين يوماً وهي المذكورة في الأعراف في قوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) قيل إنها ذو القعدة بكاله وعشر من ذي الحجة وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر وقوله تعالى (وإذا آتينا موسى الكتاب) يعني التوراة (والفرقان) وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة (لعلكم تهتدون) وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف ولقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون) وقيل الواو زائدة والمعنى ولقد آتينا موسى الكتاب الفرقان وهذا غريب وقيل عطف عليه وإن كان المعنى واحداً كما في قول الشاعر :

وقدمت الأديم لرافشه * فآلني قولها كذبا ومينا

وقال الآخر : ألا حبذا هند وأرض بها هند * وهند آتى من دونها النأى والبعد
فالكذب هو اللين ، . والنأى هو البعد . وقال عنتره

حيث من طلل تقادم عهده * أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

فعطف الإقنار على الإقواء وهو هو

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا
أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل ، قال الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى (وإذ قال
موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) فقال ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع
حق قال الله تعالى (ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) الآية . قال . فذلك
حين يقول موسى (يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) وقال أبو العالية وسعيد بن جبير والريبع بن أنس (فتوبوا
إلى بارئكم) أى إلى خالقكم قلت وفي قوله ههنا (إلى بارئكم) تنبيه على عظم جرمهم أى فتوبوا إلى الذى خلقكم وقد
عبدتم معه غيره . وقد روى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث يزيد بن هارون عن الأصمغ بن زيد الوراق
عن القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : فقال الله تعالى إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من
لقى من والد وولده فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل في ذلك الموطن فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون
ما اطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول وهذا قطعة من حديث الفتون وسيأتي
في سورة طه بكأله إن شاء الله . وقال ابن جرير : حدثني عبد الكريم بن الهيثم حدثنا إبراهيم بن بشار حدثنا سفيان
بن عيينة : قال : قال أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال موسى لقومه توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم
خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم * قال أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلوا
أنفسهم قال : وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابهم
ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضا فأنجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل كل من قتل منهم كانت له
توبة وكل من بقي كانت له توبة . وقال ابن جرير : أخبرني القاسم بن أبي برة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهداً يقولان
في قوله تعالى (فاقتلوا أنفسكم) قالوا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضا لا يخنون رجل على قريب
ولا بعيد حتى ألقى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عن سبعين ألف قتيل وإن الله أوحى إلى موسى أن حسي
فقد اكتفيت فذلك حين ألقى موسى بثوبه وروى عن علي رضي الله عنه نحو ذلك وقال قتادة : أمر القوم بشديد
من الأمر فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضا حتى بلغ الله فيهم نعمته فسقطت الشفار من أيديهم فأمسك
عنهم القتل فجعل لحيم توبة وللمقتول شهادة . وقال الحسن البصري : أصابهم ظلمة خدس فقتل بعضهم بعضا ثم انكشف
عنهم فجعل توبتهم في ذلك وقال السدي : في قوله (فاقتلوا أنفسكم) قال فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف
فكان من قتل من الفريقين شهيداً حتى كثر القتل حتى كادوا أن يهلكوا حتى قتل منهم سبعون ألفاً وحتى دما موسى
 وهارون ربنا أهلكت بني إسرائيل ربنا البقية البقية فأمرهم أن يلقوا السلاح وتاب عليهم فكان من قتل منهم من
الفريقين شهيداً ومن بقي مكفراً عنه فذلك قوله (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) وقال الزهري : لما أمرت
بنو إسرائيل يقتل أنفسها برزوا ومعهم موسى فاضطربوا بالسيوف وتطاعنوا بالخناجر وموسى رافع يديه حتى إذا
فتر بعضهم قالوا يا بني الله ادع الله لنا وأخذوا بعضديه يسندون يديه فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم
قبض أيديهم بعضهم عن بعض فألقوا السلاح وحزن موسى وبنو إسرائيل للذى كان من القتل فيهم فأوحى الله جل

ثناؤه إلى موسى ما يحزنك أمان من قتل منهم فحى عندي رزقون وأمان بقى فقد قبلت توبته فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل رواء ابن جرير باسناد جيد عنه وقال ابن إسحاق لما رجع موسى إلى قومه وأحرق العجل وذراه في اليم خرج إلى ربه بمن اختار من قومه فأخذتهم الساعة ثم بعثوا فسأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل فقال لا إلا أن يقتلوا أنفسهم قال فبلغني أنهم قالوا لموسى نصبر لأمر الله فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده فجلسوا بالأفنية وأصلت عليهم القوم السيوف فجعلوا يقتلونهم فهش موسى فبكى إليه النساء والصبيان يطلبون الغو عنهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما رجع موسى إلى قومه وكانوا سبعين رجلا قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه فقال لهم موسى انطلقوا إلى موعد ربكم فقالوا يا موسى مامن توبة قال بلى : اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم - الآية فاخترطوا السيوف والجزرة والخناجر والسكاكين . قال وبعث عليهم ضيابة قال فجعلوا يتلأمسون بالأيدي ويقتل بعضهم بعضا قال ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله وهو لا يدري . قال ويتنادون فيها رحم الله عبدا صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه ، قال فقتلهم شهداء وتيب على أحيائهم ثم قرأ (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم)

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّيْقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق إذ سألتهم رؤيتي جهرة عيانا مما لا يستطيع لكم ولا لأمثالكم كما قال ابن جرير قال ابن عباس في هذه الآية (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) قال علانية وكذا قال إبراهيم بن طهمان عن عباد بن إسحاق عن أبي الحوirth عن ابن عباس أنه قال في قول الله تعالى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) أى علانية أى حتى نرى الله وقال قتادة والربيع بن أنس (حتى نرى الله جهرة) أى عيانا وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه قال فسمعوا كلاما فقالوا (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) قال فسمعوا صوتا فصعقوا يقول ماتوا . وقال مروان بن الحكم فيما خطب به على منبر مكة الساعة صيحة من السماء وقال السدي في قوله (فأخذتكم الساعة) الساعة : نار ، وقال عروة بن ربيع في قوله (وأنتم تنظرون) قال صعق بعضهم وبعض ينظرون ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء وقال السدي (فأخذتكم الساعة) فأتوا ققام موسى يبكي ويدعو الله ويقول رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكك خيارهم (لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) فأوحى الله إلى موسى ان هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل ثم إن الله أحيام ققاموا وعاشوا رجل رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ؟ قال فذلك قوله تعالى (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) وقال الربيع بن أنس كان موتهم عقوبة لهم فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم وكذا قال قتادة وقال ابن جرير حدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق ، قال لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل وقال لأخيه وللسامري ما قال وحرق العجل وذراه في اليم اختار موسى منهم سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمروا به وخرجوا للقاء الله قالوا يا موسى اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا فقال أفضل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغطى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلمهم موسى يأمره وينهاه ففعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره انكشف

عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا لموسى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فماتوا جميعا وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) قد سفهوا أنتهك من ورأى من بنى إسرائيل بما يفعل السفهاء منا ؟ أى إن هذا لهم هلاك واخترت منهم سبعين رجلا الخير فالخير أرجع إليهم وليس معى منهم رجل واحد فما الذى يصدقونى به ويأمنونى عليه بعد هذا ؟ (إناهدنا اليك) فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل ويطلب إليه حتى رد إليهم أرواحهم وطلب إليه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل فقال لا إلا أن يقتلوا أنفسهم - هذا سياق محمد بن إسحق - وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم لبعض كما أمرهم الله به أمر الله موسى أن يأتيه فى كل أناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موسى فاختر موسى سبعين رجلا على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا وساق البقية وهذا السياق يقتضى أن الخطاب توجه إلى بنى إسرائيل فى قوله (وإذ قلت يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) والمراد السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواء ، وقد أغرب الرازى فى تفسيره حين حكى فى قصة هؤلاء السبعين أنهم بعد إحيائهم قالوا يا موسى إنك لا تطلب من الله شيئا إلا أعطاك فادعهم أن يجعلنا أنبياء فدعا بذلك فأجاب الله دعوته ، وهذا غريب جدا إذ لا يعرف فى زمان موسى نبى سوى هرون ثم يوشع بن نون وقد غلط أهل الكتاب أيضا فى دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل فإن موسى البكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون .

القول الثانى فى الآية قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير هذه الآية قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدتم يعبدون العجل ، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا فتاب الله عليهم فقال إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذى أمركم به ونهيكم الذى نهاكم عنه . فقالوا ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله علينا فيقول هذا كتابى فخذوه فماله لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى وقرأ قول الله (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) قال فجاءت غصبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون ، قال ثم أحياهم الله من بعد موتهم وقرأ قول الله (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) فقال لهم موسى خذوا كتاب الله فقالوا لا ، فقال أى شيء أصابكم ؟ فقالوا أصابنا أنا متنا ثم أحيينا ، قال خذوا كتاب الله قالوا لا ، فبعث الله ملائكة فتفت الجبل فوقعهم . وهذا السياق يدل على أنهم كفوا بعد ما أحيوا . وقد حكى الماوردى فى ذلك قولين أحدهما أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق والثانى أنهم مكلفون لثلا يغلو عاقل من تكليف قال القرطبي وهذا هو الصحيح لأن معاينتهم للأموال الفطرية لا تمنع تكليفهم لأن بنى إسرائيل قد شاهدوا أمورا عظاما من خوارق العادات وهم فى ذلك مكلفون وهذا واضح والله أعلم

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى مادفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضا بما أسغ عليهم من النعم فقال (وظللنا عليكم الغمام) وهو جمع غمامة سمي بذلك لأنه يغم السماء أى يوارىها ويسترها وهو السحاب الأبيض ظللوا به فى التيه ليقبهم حر الشمس كما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس فى حديث الفتون قال ثم ظلل عليهم فى التيه بالغمام قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عمر والربيع بن أنس وأبى مجاز والضحاك والسدى نحو قول ابن عباس وقال الحسن وقتادة (وظللنا عليكم الغمام) كان هذا فى البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس وقال ابن جرير قال آخرون وهو غمام أبرد من هذا وأطيب . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبى نعيم عن مجاهد (وظللنا عليكم الغمام) قال ليس

وسلم « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم » وهذا الحديث قد رواه النسائي عن محمد بن بشار به وعنه عن غندر عن شعبة عن أبي بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة به وعن محمد بن بشار عن عبد الأعلى عن خالد الحذاء عن شهر بن حوشب بقصة الكمأة فقط . وروى النسائي أيضا وابن ماجه من حديث محمد بن بشار عن أبي عبد الصمد بن عبد العزيز بن عبد الصمد عن مطر الوراق عن شهر بقصة العجوة عند النسائي وبالقصة عند ابن ماجه وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبي هريرة فإنه لم يسمع منه بدليل ما رواه النسائي في الوليمة من سننه عن علي بن الحسين الدرهمي عن عبد الأعلى عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي هريرة . قال خرج رسول الله ﷺ وهم يذكر الكمأة وبعضهم يقول جذري الأرض فقال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » وروى عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر كما قال الإمام أحمد حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن جابر بن عبد الله وأبي سعيد الحدرى قالا : قال رسول الله ﷺ « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم » وقال النسائي في الوليمة أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » ثم رواه أيضا وابن ماجه من طرق عن الأعمش عن أبي بشر عن شهر عنهما به وقد روى - أعني النسائي من حديث جرير وابن ماجه من حديث سعيد بن أبي سلمة - كلاهما عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن أبي نضرة عن أبي سعيد رواه النسائي وحديث جابر عن النبي ﷺ قال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » ورواه ابن مردويه عن أحمد بن عثمان عن عباس الدوري عن لاحق بن صواب عن عمار بن رزيق عن الأعمش كابن ماجه وقال ابن مردويه أيضا حدثنا أحمد بن عثمان حدثنا عباس الدوري حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأخوص عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي سعيد الحدرى قال خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كمات فقال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » وأخرجه النسائي عن عمرو بن منصور عن الحسن بن الربيع به ثم ابن مردويه رواه أيضا عن عبد الله بن إسحاق عن الحسن بن سلام عن عبيد الله بن موسى عن شيان عن الأعمش به ، وكذا رواه النسائي عن أحمد بن عثمان بن حكيم عن عبيد الله بن موسى وقد روى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه كما قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا حمدون بن أحمد حدثنا جويرية بن أشرس حدثنا حماد عن شعيب بن الحجاب عن أنس أن أصحاب رسول الله ﷺ تداروا في الشجرة التي اجثت من فوق الأرض ماله من قرار ، فقال بعضهم نخسبه الكمأة فقال رسول الله ﷺ « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وفيها شفاء من السم » وهذا الحديث محفوظ أصله من رواية حماد بن سلمة . وقد روى الترمذي والنسائي من طريقه شيئا من هذا والله أعلم . وروى عن شهر عن ابن عباس كما رواه النسائي أيضا في الوليمة عن أبي بكر أحمد بن علي بن سعيد عن عبد الله بن عون الخراز عن أبي عبيدة الحداد عن عبد الجليل بن عطية عن عبد الله بن عباس عن النبي ﷺ قال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » فقد اختلف كما ترى فيه على شهر بن حوشب ويحتمل عندي أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم فإن الأسانيد إليه جيدة وهو لا يعتمد الكذب وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله ﷺ كما تقدم من رواية سعيد بن زيد رضي الله عنه .

وأما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس السلوى طائر يشبه بالسبائي . كانوا يأكلون منه . وقال السدي في خبره ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة السلوى طائر يشبه السبائي ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا قرة ابن خالد عن جهم عن ابن عباس ، قال السلوى هو السبائي وكذا قال مجاهد والشعمي والضحاك والحسن وعكرمة

والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى وعن عكرمة أما السلاوى فطير كبير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك وقال قتادة : السلاوى كان من طير الى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك فاذا تعدى فسد ولم يبق عنده حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعه أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه ، وقال وهب بن منبه : السلاوى طير سمين مثل الحمامة كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت وفي رواية عن وهب قال سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام لما قال الله لأطعمهم من أقل لحم يعلم في الأرض فأرسل عليهم ريحا فأذرت عند مساكنهم السلاوى وهو السمانى مثل ميل في ميل قيدرمح في السماء نجباوا للغد فتنن اللحم وخزن الحبز ، وقال السدى لما دخل بنو إسرائيل اليه قالوا لموسى عليه السلام كيف لنا بما ههنا أين الطعام فأرسل الله عليهم النمل فكان ينزل على شجر الزنجبيل ، والسلاوى وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه فكان يأتي أحدهم فينظر الى الطير فان كان سمينا ذبحه وإلا أرسله فاذا سمى أتاها فقالوا هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فشرب كل سبط من عين ، فقالوا هذا الشراب فأين الظل فظلل عليهم الغمام ، فقالوا هذا الظل فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتخرق لهم ثوب فذلك قوله تعالى (وظللنا عليهم الغمام وأرسلنا عليهم السلاوى) وقوله (وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) وروى عن وهب بن منبه وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدى وقال سفيان عن حجاج عن ابن جريج قال قال ابن عباس خلق لهم في التيه ثياب لا تتخرق ولا تدرن ، قال ابن جريج : فكان الرجل إذا أخذ من النمل والسلاوى فوق طعام يوم فسد الا أنهم كانوا يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسدا قال ابن عطية السلاوى طير باجماع المفسرين وقد غلط الهذلي في قوله انه العسل وأنشد في ذلك مستشهدا :

وقاسمها بالله جهدا لأتم * ألد من السلاوى اذا ما أشورها

قال فظن أن للسلاوى عسلا ، قال القرطبي : دعوى الاجماع لاتصح لأن المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير قال انه العسل واستدل بيت الهذلي هذا وذكر أنه كذلك في لغة كنانة لأنه يسلى به ومنه عين سلوان ، وقال الجوهري : السلاوى العسل واستشهد بيت الهذلي أيضا والسلوانة بالضم خرزة كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشرها العاشق سلا قال الشاعر :

شربت على سلوانة ماء مزنة * فلا وجديد العيش يامى ما أسلو

واسم ذلك الماء السلوان ، وقال بعضهم السلوان دواء يشفي الحزين فيسلو والأطباء يسمونه (مفرج) ، قالوا والسلاوى جمع بلفظ الواحد أيضا كما يقال سمانى للمفرد والجمع وويل (١) كذلك ، وقال الخليل واحده سلوانة وأنشد :

وإني لتعروني له كراك هزة * كما انتفض السلوانة من بلل القطر

وقال الكسائي : السلاوى واحدة وجمعه سلاوى : نقله كاه القرطبي . وقوله تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أمر بإباحة وإرشاد وامتنان ، وقوله تعالى (وما ظلمونا ولكن أنفسم يظلمون) أى أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا كما قال (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات ، ومن ههنا تنبئ فضيلة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته منها عام تبوك في ذلك القبط والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك كان سهلا على النبي صلى الله عليه وسلم ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة فدعا الله فيه وأمرهم فلاؤا كل وعاء معهم وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فخاتمهم سحابة فأمطرهم فشربوا وسفوا الإبل وملاؤا أسقيتهم ثم نظروا فاذا هم لم يتجاوزوا العسكر . فهذا هو الأكل في اتعاع الشيء مع قدر الله مع متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) هكذا في السخ وفي شرح القاموس مائة : وفي الصحاح قال الأحمس لم أسمعه بواحد قال وهو يشبه أن واحده سلاوى مثل جماعته كما قالوا دلفى للواحد والجماعة اه فليحرر

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

يقول تعالى لا ثمة لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صعبة موسى عليه السلام فأمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل وقتال من فيها من العماليق الكفرة فكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا فرماهم الله في التيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى في سورة المائدة ، ولهذا كان أصح القوانين أن هذه البلدة هي بيت المقدس كائن على ذلك السدى والربيع بن أنس وقنادة وأبو مسلم الاصفهاني وغير واحد وقد قال الله تعالى حاكيا عن موسى (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا) الآيات . وقال آخرون هي أريحاء ، ويحكي عن ابن عباس وعبدالرحمن بن زيد وهذا بعيد لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لأريحاء ، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر ، حكاه الرازي في تفسيره والصحيح الاول أنها بيت المقدس ، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام وفتحها الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح ، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب باب البلد (سجدا) أى شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وانقاذهم من التيه والضلال ، قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله تعالى (وادخلوا الباب سجدا) أى ركعا ، وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا سفيان عن الأعمش عن النزال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله (وادخلوا الباب سجدا) قال ركعا من باب صغير رواه الحاكم من حديث سفيان به ، ورواه ابن أبي حاتم من حديث سفيان وهو الثوري به وزاد فدخلوا من قبل أستاذهم ؛ وقال الحسن البصري أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم واستبعده الرازي وحكى عن بعضهم أن المراد ههنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته ، وقال خفيف : قال عكرمة قال ابن عباس كان الباب قبل القبلة ، وقال ابن عباس ومجاهد والسدى وقنادة والضحاك هو باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس ، وحكى الرازي عن بعضهم أنه عني بالباب جهة من جهات القبلة ، وقال خفيف قال عكرمة قال ابن عباس فدخلوا على شق ، وقال السدى عن أبي سعيد الأزدي عن أبي الكنود عن عبدالله بن مسعود قيل لهم ادخلوا الباب سجدا فدخلوا مقنعى رؤوسهم أى رافعى رؤوسهم خلاف ما أمروا ، وقوله تعالى (وقولوا حطة) قال الثوري عن الأعمش عن النزال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وقولوا حطة) قال مغفرة استغفروا ، وروى عن عطاء والحسن وقنادة والربيع بن أنس نحوه ، وقال الضحاك عن ابن عباس (وقولوا حطة) قال قولوا هذا الأمر حق كما قيل لكم وقال عكرمة قولوا (لا إله الا الله) وقال الأوزاعي . كتب ابن عباس إلى رجل قد سباه فسأله عن قوله تعالى (وقولوا حطة) فكتب إليه أن أقروا بالذنب وقال الحسن وقنادة أى احطط عنا خطايانا (نغفر لكم خطاياكم وسيزيد المحسنين) وقال هذا جواب الأمر أى إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى كما قال تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) فسر بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر ، وفسره ابن عباس بأنه نعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجله فيها وأقره على ذلك عمر رضى الله عنه ، ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك ونعى إليه روحه الكريمة أيضا ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جدا عند النصر كما روى انه كان يوم الفتح فتح مكة داخلا إليها من الثنية العليا وانه لخاضع لربه حتى

ان عشوته ليس مورك رحله شكرآ لله على ذلك ، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثمانى ركعات وذلك ضحى فقال بعضهم هذه صلاة الضحى وقال آخرون بل هى صلاة الفتح فاستجبوا للامام وللأمر إذا فتح بلدآ أن يصلى فيه ثمانى ركعات عند أول دخوله كما فعل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثمانى ركعات والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم ؛ وقيل يصلها كلها بتسليم واحد والله أعلم .

وقوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) قال البخارى حدثنى محمد حدثنا عبدالرحمن بن مهدي عن ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة - فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا حبة في شعرة » ورواه النسائي عن محمد ابن اسماعيل بن ابراهيم عن عبدالرحمن به موقوفا وعن محمد بن عبيد بن محمد عن ابن المبارك ببعضه مسندآ في قوله تعالى (حطة) قال فبدلوا وقالوا حبة وقال عبدالرزاق أنبأنا معمر عن همام بن منبه أنه سمع أباهريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله لبنى إسرائيل (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم) فبدلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا حبة في شعرة » وهذا حديث صحيح رواه البخارى عن إسحق بن نصر ومسلم عن محمد بن رافع والترمذى عن عبدالرحمن بن حميد كلهم عن عبدالرزاق به ، وقال الترمذى حسن صحيح ، وقال محمد بن إسحق كان تبديلهم كما حدثنى صالح بن كيسان عن صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة وعمن لا أنهم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « دخلوا الباب - الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجداً - يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعيرة » وقال أبو داود حدثنا أحمد بن صالح وحدثنا سليمان بن داود حدثنا عبدالله بن وهب حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ : « قال الله لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم » ثم قال أبو داود حدثنا أحمد بن مسافر حدثنا ابن أبى فديك عن هشام بمثله هكذا رواه منفردآ به في كتاب الحروف مختصراً وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا إبراهيم بن مهدي حدثنا أحمد بن محمد بن المنذر القزاز حدثنا محمد بن اسماعيل بن أبى فديك عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال سرنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان من آخر الليل أجزنا في ثنية يقال لها ذات الحنظل فقال رسول الله ﷺ « ما مثل هذه الثنية الليلة إلا كمثل الباب الذى قال الله لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم » وقال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن البراء (سيقول السفهاء من الناس) قال اليهود قيل لهم ادخلوا الباب سجداً قال ركعوا وقولوا حطة أى مغفرة فدخلوا على أستاههم وجعلوا يقولون حنطة حمراء فيها شعيرة فذلك قول الله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) وقال الثورى عن السدى عن أبى سعد الأزدي عن أبى الكنود عن ابن مسعود وقولوا حطة فقالوا حطة حبة حمراء فيها شعيرة فأنزل الله (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) وقال أسباط عن السدى عن مرة عن ابن مسعود أنه قال إنهم قالوا هطاسمعنا أذبة مزبأ فهى بالعربية حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء فذلك قوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) وقال الثورى عن الأعمش عن المنهال عن سعيد عن ابن عباس في قوله تعالى (ادخلوا الباب سجداً) قال ركعاً من باب صغير فدخلوا من قبل أستاههم وقالوا حنطة فذلك قوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) وهكذا روى عن عطاء ومجاهد وعكرمة والضحاك والحسن وقنادة والربيع بن أنس ويحيى بن رافع . وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فأمروا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعى رؤوسهم وأمروا أن يقولوا حطة أى احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهنؤوا فقالوا حنطة في شعيرة وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاودة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقتهم وهو خروجهم عن طاعته . ولهذا قال (فأنزّلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) وقال الضحاك عن ابن عباس كل شيء في كتاب الله من الرجز يعنى به العذاب وهكذا روى عن مجاهد وأبى مالك والسدى والحسن وقنادة أنه العذاب وقال أبو العالية الرجز الغضب ، وقال الشعبي الرجز إما الطاعون

وإما البرد وقال سعيد بن جبير هو الطاعون وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن إبراهيم بن سعد يعني ابن أبي وقاص عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت رضى الله عنهم قالوا : قال رسول الله ﷺ « الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم » وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري به وأصل الحديث في الصحيحين من حديث حبيب بن أبي ثابت « إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها » الحديث قال ابن جرير أخبرني يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن يونس عن الزهري قال أخبرني عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ قال « إن هذا الوجع والسقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم » وهذا الحديث أصله مخرج في الصحيحين من حديث الزهري ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم بن أبي النضر عن عامر بن سعد بنحوه .

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُفُلًا وَاشْرَبُوا مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقاني لكم وتيسيري لكم الماء وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم وتفجيري الماء لكم منه من اثنتي عشرة عينا لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها فكلوا من اللبن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذي أنبعثه لكم بلاسعي منكم ولا كد واعبدوا الذي سخر لكم ذلك (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها . وقد بسطه المفسرون في كلامهم كما قال ابن عباس رضى الله عنه وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع وأمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا في كل ناحية منه ثلاث عيون وأعلم كل سبط عيנם يشربون منها لا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول وهذا قطعة من الحديث الذي رواه النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وهو حديث الفتون الطويل . وقال عطية العوفي وجعل لهم حجراً مثل رأس الثور يحمل على ثور فاذا نزلوا منزلاً وضعوه فضربه موسى عليه السلام بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فاذا ساروا حملوه على ثور فاستمسك الماء وقال عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه كان لبني إسرائيل حجر فكان يضعه هرون ويضربه موسى بالعصا وقال قتادة كان حجراً طورياً من الطور يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضرب به موسى بعصاه ، وقال الزمخشري وقيل كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع وقيل مثل رأس الإنسان وقيل كان من الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى وله شعبتان تتقدان في الظلمة وكان يحمل على حمار قال وقيل أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شغب فدفقه إليه مع العصا وقيل هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل فقال له جبريل ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة ولك فيه معجزة فحمله في مخلاته ، قال الزمخشري ويحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد أى اضرب الشيء الذي يقال له الحجر وعن الحسن لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه ، قال وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فيببس فقالوا إن فقد موسى هذا الحجر عطشنا ، فأوحى الله إليه أن يكلم الحجارة فتنفجر ولا يمسه بالعصا لعلهم يفترون والله أعلم ، وقال يحيى بن النضر : قلت لجويبر كيف علم كل أناس مشربهم ؟ قال : كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا فينضع من كل عين على رجل فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين ، وقال الضحاك : قال ابن عباس لما كان بنو إسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهاراً ، وقال الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس : قال ذلك في التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها ، وقال مجاهد نحو قول ابن عباس وهذه القصة شبيهة بالقصة التي في سورة الأعراف ولكن تلك مكية ، فذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب لأن الله تعالى يقص

على رسوله ﷺ ما فعل بهم . وأما في هذه السورة وهي البقرة فهي مدنية فليندا كان الخطاب فيها متوجها إليهم وأخبر هناك بقوله (فانجست منه اثنتا عشرة عينا) وهو أول الانفجار وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخرأ وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار ههنا وذلك هناك والله أعلم . وبين السياقين تباين من عشرة أوجه لفظية ومعنوية قد سأل عنها الزمخشري في تفسيره وأجاب عنها بما عنده والأمر في ذلك قريب والله أعلم .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾

يقول تعالى واذكروا نعمتي عليكم في إنزالى عليكم المن والسلوى طعاما طيبا نافعا هيئا سهلا واذكروا دبركم وضجركم بما رزقناكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة (١) من البقول ونحوها بما سألتم قال الحسن البصرى فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه وكانوا قوما أهل أعداى وبصل وبقل وفوم فقالوا (يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) وإنما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المن والسلوى لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو مأكل واحد . فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة ، وأما الفوم فقد اختلف السلف في معناه فوقع في قراءة ابن مسعود وثومها بالشاء ، وكذا فسره مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم عنه بالثوم . وكذا الربيع بن أنس وسعيد بن جبير ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو بن رافع حدثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحق البصرى عن يونس عن الحسن في قوله (وفومها) قال ابن عباس الثوم ، قال وفي اللغة القديمة فوموا لنا بمعنى اختبأوا ، قال ابن جرير : فان كان ذلك صحيحا فانه من الحروف المبجلة كقولهم : وقعوا في عانور شر وعافور شر وأثافي وأثاني ومغافير ومغائير واشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والشاء فاء لتقارب مخرجيهما والله أعلم . وقال آخرون الفوم الحنطة وهو البر الذى يعمل منه الخبز قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أنبأنا ابن وهب قراءة حدثني نافع بن أبي نعيم أن ابن عباس سئل عن قول الله (وفومها) ما فومها ؟ قال الحنطة . قال ابن عباس : ما سمعت قول أحية بن الجلاح وهو يقول :

قد كنت اغنى الناس شخصا واحدا * ورد المدينة عن زراعة فوم

وقال ابن جرير حدثنا علي بن الحسن حدثنا مسلم الجهني حدثنا عيسى بن يونس عن رشيد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس في قول الله تعالى (وفومها) قال الفوم الحنطة بلسان بني هاشم ، وكذا قال علي بن أبي طلحة والضحاك عن ابن عباس وعكرمة عن ابن عباس أن الفوم الحنطة ، وقال سفيان الثوري : عن ابن جريج عن مجاهد وعطاء (وفومها) قالوا وخبرها وقال هشيم عن يونس عن الحسين وحسين عن أبي مالك (وفومها) قال الحنطة وهو قول عكرمة والسدى والحسن البصرى وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم وغيرهم فأن الله أعلم . وقال الجوهري : الفوم الحنطة وقال ابن دريد : الفوم السنبلة . وحكى القرطبي عن عطاء وقتادة أن الفوم كل حب يختبز . قال وقال بعضهم هو الحصى لغة شامية ومنه يقال لبائعه فامى مغير عن قومي ، قال البخارى . وقال بعضهم الحبوب التى تؤكل كلها فوم . وقوله تعالى (قال اتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) فيه تفريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام المنعم الطيب النافع . وقوله تعالى (اهبطوا مصرا) هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف . قال ابن جرير . ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لاجماع المصاحف على ذلك . وقال ابن عباس (اهبطوا مصرا) قال مصرا من الأمصار رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي سعيد البقال سعيد بن الرزبان عن عكرمة عنه قال . وروى عن السدى وقتادة والربيع بن أنس نحوه ذلك وقال ابن جرير وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود (اهبطوا مصر) من غير إجراء يعنى من غير صرف . ثم روى عن أبي العالية والربيع

(١) في هذا التركيب مخالفة لما هو المهود من دخول الباء على المبدل منه كما في الآية وأمثالها ولعله من غلط الطبع اه

ابن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية والريبع وعن الأعمش أيضا. قال ابن جرير ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الأجراء أيضا. ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف كما في قوله تعالى (قواريرا قواريرا) ثم توقف في المراد ما هو أم مصر فرعون أم مصر من الأمصار وهذا الذي قاله فيه نظر والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روى عن ابن عباس وغيره والمعنى على ذلك لأن موسى عليه السلام يقول لهم هذا الذي سألتكم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه فليس يساوي مع دنائه وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه. ولهذا قال (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم) أي ما طلبتم ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم.

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) أي وضعت عليهم وألزموا بها شرعا وقدراً أي لا يزالون مستذلين من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون. قال الضحاك عن ابن عباس (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) قال هم أصحاب القبالات، يعني الجزية. وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن وقتادة في قوله تعالى (وضربت عليهم الذلة) قال يعطون الجزية عن يدوم صاغرون وقال الضحاك وضربت عليهم الذلة قال الذل. وقال الحسن أذلهم الله فلا منعة لهم وجعلهم تحت أقدام المسلمين ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن الجوس لتجبيهم الجزية، وقال أبو العالية والريبع بن أنس والسدي المسكنة الفاقة. وقال عطية العوفي الحراج وقال الضحاك الجزية. وقوله تعالى (وباءوا بغضب من الله) قال الضحاك استحقوا الغضب من الله، وقال الريبع بن أنس فحدث عليهم غضب من الله وقال سعيد بن جبير (وباءوا بغضب من الله) يقول استوجبوا سخطا، وقال ابن جرير: يعني بقوله (وباءوا بغضب من الله) انصرفوا ورجعوا ولا يقال باء إلا موصولا إما بغير وإما بشر يقال منه باء فلان بذنبه ييؤبه بواء وبواء ومنه قوله تعالى (إني أريد أن تبوء بأثمي وإثمك) يعني تتصرف متحملهما وترجع بهما قد صار عليك دوني. فمعنى الكلام إذا رجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب ووجب عليهم من الله سخط * وقوله تعالى (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق) يقول تعالى هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم من الذلة بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم فلا كفر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق، ولهذا جاء في الحديث التفتق على صحته أن رسول الله ﷺ قال «الكبر بطر الحق وغمط الناس» وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا إسماعيل عن ابن عون عن عمرو بن سعيد عن حميد بن عبد الرحمن قال قال ابن مسعود كنت لا أحجب عن النجوى ولا عن كذا ولا عن كذا فأتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوي فأدركته من آخر حديثه وهو يقول يا رسول الله قد قسم لي من الجمل ما ترى فما أحب أن أحداً من الناس فضائي بشراكين فما فوقهما أليس ذلك هو البغي؟ فقال «لا ليس ذلك من البغي ولكن البغي من بطر أو قال سفه الحق وغمط الناس» يعني رد الحق وانتقاص الناس والازدراء بهم والتعاطف عليهم ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبه من الكفر بآيات الله وقتلهم أنبياءه أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد وكسأهم ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة جزاء وفاقا، قال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود قال كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبان حدثنا عاصم عن أبي وائل عن عبد الله يعني ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

عليه وسلم قال « أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبياً وإمام ضلالة ومثل من الممثلين » وقوله تعالى (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون فالعصيان فعل الناهي والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به والله أعلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيَّةِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

لما بين تعالى حال من خالف أوامرهم وارتكب زواجرهم وتعدي في فعل مالا إذن فيه و انتهك المحارم وما أحل بهم من النكال نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فان له جزاء الحسنى وكذلك الأمر إلى قيام الساعة كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه كما قال تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمر بن أبي عمر العدوي حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال قال سلمان رضي الله عنه سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم فذكرت من صلاتهم وعبادتهم فنزلت (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً) الآية نزلت في أصحاب سلمان الفارسي بينا هو يحدث النبي ﷺ إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم فقال كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك ستبعث نبياً فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبي الله ﷺ « يا سلمان هم من أهل النار » فاشتد ذلك على سلمان فأنزل الله هذه الآية فكان إيمان اليهود (١) أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى عليه السلام حتى جاء عيسى فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكا وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه حتى جاء محمد ﷺ فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكا . قال ابن أبي حاتم وروى عن سعيد بن جبيرة نحو هذا (قلت) وهذا لا ينافي ما روى على ابن أبي طلحة عن ابن عباس (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر) الآية (٢) — قال — فأُنزل الله بعد ذلك (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) فان هذا الذي قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشرعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به فأمّا قبل ذلك فشكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة فاليهود أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم * واليهود من الهوادة وهي اللوذة أو اليهود وهي التوبة كقول موسى عليه السلام (إنا هدنا إليك) أى تبنا فكأنهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض وقيل لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب ، وقال أبو عمرو بن العلاء لأنهم يهودون أى يتحركون عند قراءة التوراة فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بنى إسرائيل اتباعه والانقياد له فأصحابه وأهل دينه هم النصارى وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم وقد يقال لهم أنصار أيضاً كما قال عيسى عليه السلام (من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله) وقيل إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة ، قاله قتادة وابن جريج وروى عن ابن عباس أيضاً والله أعلم . والنصارى جمع نصران كمنشاوى جمع نشوان وسكارى جمع سكران ويقال للمرأة نصرانة قال الشاعر : — نصرانة لم تحنف —

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم خاتماً للنبيين ورسولاً إلى بنى آدم على الإطلاق وجب عليهم تصديقه فيما

أخبر وطاعته فيما أمر والانكفاف عما عنه زجر وهؤلاء هم المؤمنون حقاً وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيمانهم ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية ، وأما الصابئون فقد اختلف فيهم فقال سفيان الثوري عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد ، قال الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين وكذا رواه ابن أبي نجیح عنه وروى عن عطاء وسعيد بن جبیر نحو ذلك وقال أبو العالية والريبع بن أنس والسدي وأبو الشعثاء جابر بن زيد والضحاك وإسحق بن راهويه الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور ولهذا قال أبو حنيفة وإسحق لابأس بذيابهم ومنا كحتهم وقال هشيم عن مطرف كنا عند الحكم بن عتبة فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول في الصابئين إنهم كالمجوس فقال الحكم ألم أخبركم بذلك ، وقال عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن عبد الكريم سمعت الحسن ذكر الصابئين فقال هم قوم يعبدون الملائكة وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن الحسن قال أخبر زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة ويصلون الحنس قال فأراد أن يضع عنهم الجزية قال فخبّر بعد أنهم يعبدون الملائكة ، وقال أبو جعفر الرازي بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة وقرءون الزبور ويصلون للقبلة وكذا قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن أبي الزناد عن أبيه قال الصابئون قوم مما يلي العراق وهم بكوفي وهم يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثين يوماً ويصلون إلى اليمين كل يوم خمس صلوات ، وسئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال الذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً ، وقال عبد الله بن وهب قال عبد الرحمن بن زيد الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الوصل يقولون لا إله إلا الله وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول لا إله إلا الله قال ولم يؤمنوا برسول فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم يعني في قول لا إله إلا الله وقال الخليل هم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتم نحو مهب الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام وحكي القرطبي عن مجاهد والحسن وابن أبي نجیح أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم ، قال القرطبي والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة ولهذا أفق أبو سعيد الاصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم واختار الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها قال وهذا القول هو المنسوب إلى الكشرايين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام رادا عليهم ومبطلا لقولهم وأظهر الأقوال والله أعلم . قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقفون به . ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابي أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذذاك . وقال بعض العلماء الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي والله أعلم .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى مذكرا بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رؤسهم ليقروا بما عاهدوا عليه ويأخذوه بقوة وجزم وامثال كما قال تعالى (وإذ نقشنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) فالطور هو الجبل كما فسره به في الأعراف ونص على ذلك ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والريبع ابن أنس وغير واحد وهذا ظاهر وفي رواية عن ابن عباس الطور ما أنبت من الجبال وما لم ينبت فليس بطور وفي حديث

الفتون عن ابن عباس أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل لسمعوا : وقال السدى فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم فنظروا إليه وقد غشيهم فسقطوا سجدا فسجدوا على شق ونظروا بالشق الآخر فرحمهم الله فكشفه عنهم فقالوا والله ماسجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم فهم يسجدون كذلك . وذلك قول الله تعالى (ورفعنا فوقكم الطور) وقال الحسن في قوله (خذوا ما آتيناكم بقوة) يعني التوراة ، وقال أبو العالية والريبع بن أنس بقوة أي بطاعة وقال مجاهد : بقوة بعمل بما فيه ، وقال قتادة (خذوا ما آتيناكم بقوة) القوة : الجد والقدرة عليكم قال فأقروا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة ومعنى قوله وإلا قدفته عليكم أي أسقطته عليكم ، يعني الجبل وقال أبو العالية والريبع (واذكروا ما فيه) يقول اقرءوا ما في التوراة واعملوا به * وقوله تعالى (ثم توليت من بعد ذلك فلولا فضل الله) يقول تعالى ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليت عنه واشتيتم ونقضتموه (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) أي بتوبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم (لكنتم من الخاسرين) بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى (ولقد علمتم) يامعشر اليهود ما أحل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذهم عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعا لهم فتحيلوا على اصطيد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبال والبرك قبل يوم السبت فلما جاءت يوم السبت على عاداتها في الكثرة نشبت بتلك الحبال والحيل فلم تخلص منها يومها ذلك فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة وهي أشبه شيء بالإناس في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم ، وهذه القصة مبسطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالى (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سببتهم شرعا ويوم لا يسببون لآتيتهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) القصة بكاملها . وقال السدى : أهل هذه القرية هم أهل أيلة ، وكذا قال قتادة وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسطة إن شاء الله وبه الثقة ، وقوله تعالى (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال مسخت قلوبهم ولم يسخوا قردة . وإنما هو مثل ضربه الله (كمثل الحمار يحمل أسفارا) ورواه ابن جرير عن الثوري عن أبي حذيفة وعن محمد بن عمر الباهلي وعن أبي عاصم عن عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد وهذا سند جيد عن مجاهد وقول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره قال الله تعالى (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) الآية وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فجعل الله منهم القردة والخنازير ، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة وأن الشيخة صاروا خنازير : وقال شيان النخعي عن قتادة (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فصار القوم قردة تعاوى لها أذنان بعدما كانوا رجالا ونساء وقال عطاء الخراساني نودوا بأهل القرية (كونوا قردة خاسئين) فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون يا فلان ألم تنهكم فيقولون براء وسهم أي بلى ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسن حدثنا عبد الله بن محمد ابن ربيعة بالمصيصة حدثنا محمد بن مسلم يعني الطائي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فواقا ثم هلكوا ما كان للمسح نسل . وقال الضحاك عن ابن عباس فسخهم الله قردة بمصيتهم يقول إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام قال ولم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل ، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه فسخ هؤلاء القوم في صورة القردة

وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء . ويحوله كما يشاء وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله (كونوا قردة خاسئين) قال يعني أذلة صاغرين ، وروى عن مجاهد وقتادة والربيع وأبي مالك نحوه وقال محمد بن اسحق عن داود بن أبي الحصين عن عكرمة قال : قال ابن عباس إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم . يوم الجمعة فغالفوا إلى السبت فعظموه وتركوا ما أمروا به فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاه الله فيه لحرم عليهم ما أحل لهم في غيره وكانوا في قرية بين أيلة والطور يقال لها مدين ؛ لحرم الله عليهم في السبت الحيتان صيدها وأكلها وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعا إلى ساحل بحرهم حتى إذا ذهب السبت ذهبوا فلم يروا حوتا صغيرا ولا كبيرا حتى إذا كان يوم السبت أتين سرا حتى إذا ذهب السبت ذهبوا فكانوا كذلك حتى طال عليهم الأمد وقرموا إلى الحيتان عمد رجل منهم فأخذ حوتا سرا يوم السبت فخرمه بخيط ثم أرسله في الماء وأتدله وتدا في الساحل فأوثقه ثم تركه حتى إذا كان الغد جاء فأخذه أي إني لم أخذه في يوم السبت فانطلق به فأكله حتى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لثل ذلك ووجد الناس ربح الحيتان فقال أهل القرية والله لقد وجدنا ربح الحيتان ، ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل ، قال ففعلوا كما فعل وصنعوا سرا زمانا طويلا لم يجعل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق . فقالت طائفة منهم من أهل البقية ويحكم اتقوا الله ونهوا عما كانوا يصنعون ، فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عما صنعوا : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ؟ قالوا معذرة إلى ربكم بسخطنا أعمالهم ولعلمهم يتقون ، قال ابن عباس : فبيناهم على ذلك أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم فقدوا الناس فلم يروه قال : فقال بعضهم لبعض إن للناس شأنا فانظروا ما هو فذهبوا ينظرون في دورهم فوجدوها مغلقة عليهم قد دخلوها ليلا فغلقوها على أنفسهم كما يغلقي الناس على أنفسهم فأصبحوا فيها قردة وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد والمرأة بعينها وإنها لقردة والصبي بعينه وإنه لقرد ، قال : قال ابن عباس فولوا ما ذكر الله أنه نجى الذين نهوا عن سوء لقد أهلك الله الجميع منهم ، قال وهي القرية التي قال جل ثناؤه لمحمد ﷺ (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) الآية . وروى الضحاك عن ابن عباس نحوه من هذا وقال السدي في قوله تعالى (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال هم أهل أيلة ؛ وهي القرية التي كانت حاضرة البحر فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت . وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئا . لم يبق في البحر حوت إلا خرج حتى يخرج خراطيمهم من الماء فإذا كان يوم الأحد لزم من سفلى البحر فلم ير منهم شيء حتى يكون يوم السبت فذلك قوله تعالى (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبثون لآثامهم) فاشتبه بعضهم السمك فجعل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهرا إلى البحر ، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقها في الحفيرة فيريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر فيمكث فيها فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه فجعل الرجل يشوي السمك فيجد جاره روائح فيسأله فيخبره فيصنع مثل ما صنع جاره حتى فشا فيهم أكل السمك ، فقال لهم علماءهم . ويحكم إنما تصطادون يوم السبت وهو لا يحل لكم ، فقالوا إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه ، فقال الفقهاء لا ولكنكم صدتموه يوم فتحت له الماء فدخل ، قال وغلبوا أن ينتهوا . فقال بعض الذين نهواهم لبعض (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) يقول لم تعظوهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم ، فقال بعضهم (معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون) فلما أبوا قال المسلمون والله لأنساكنكم في قرية واحدة قسموا القرية بحدار ففتح المسلمون بابا والمعتدون في السبت بابا ولعنهم داود عليه السلام ، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم ، والكفار من بابهم فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم فلما أبطأوا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض ففتحوا عنهم فذهبوا في الأرض فذلك قول الله تعالى (فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وذلك حين يقول (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم) الآية فهم القردة (قلت) والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم إنما كان معنويا لا صوريا بل الصحيح

أنه معنوى صورى والله تعالى أعلم . وقوله تعالى (فجعلناها نكالا) قال بعضهم الضمير فى فجعلناها عائد على القردة وقيل على الحيتان وقيل على العقوبة وقيل على القرية حكاه ابن جرير والصحيح أن الضمير عائد على القرية ، أى فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم فى سبهم (نكالا) أى عاقبتهم عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون (فأخذ الله نكال الآخرة والأولى) وقوله تعالى (لما بين يديها وما خلفها) أى من القرى ، قال ابن عباس . يعنى جعلناها بما أحللتنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى كما قال تعالى (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) ومنه قوله تعالى (أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) الآية على أحد الأقوال فالمراد لما بين يديها وما خلفها فى المكان كما قال محمد بن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس . لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى ، وكذا قال سعيد بن جبير لما بين يديها وما خلفها ، قال من بحضرتها من الناس يومئذ . وروى عن إسماعيل بن أبى خالده وقتادة وعطية العوفى (فجعلناها نكالا لما بين يديها) قال ما قبلها من الماضين فى شأن السبب ، وقال أبو العالية والريبع وعطية : وما خلفها لما بقى بعدهم من الناس من بنى إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم ، وكان هؤلاء يقولون المراد لما بين يديها وما خلفها فى الزمان . وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتى بعدهم من الناس أن تكون أهل تلك القرية عبرة لهم ، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن يكون عبرة لمن سبقهم ؟ وهذا لعل أحدا من الناس لا يقوله بعد تصوره — فنعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها فى المكان وهو ما حولها من القرى كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والله أعلم . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية (فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها) أى عقوبة لما خلا من ذنوبهم ، وقال ابن أبى حاتم : وروى عن عكرمة ومجاهد والسدى والقراء وابن عطية . لما بين يديها من ذنوب القوم وما خلفها لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب ، وحكى الرازى ثلاثة أقوال أحدها أن المراد بما بين يديها وما خلفها من تقدمها من القرى بما عندهم من العلم بخبرها بالكتب المتقدمة ومن بعدها . والثانى المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم . والثالث أنه تعالى جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبه من قبل هذا الفعل وما بعده وهو قول الحسن (قلت) وأرجح الأقوال المراد بما بين يديها وما خلفها من بحضرتها من القرى يبلغهم خبرها وما حل بها كما قال تعالى (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) الآية وقال تعالى (ولا يزال الدين كفوفا تصيبهم بما صنعوا قارعة) الآية وقال تعالى (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) فجعلهم عبرة ونكالا لمن فى زمانهم وموعظة لمن يأتى بعدهم بالخبر المتواتر عنهم ولهذا قال (وموعظة للمتقين) : وقوله تعالى (وموعظة للمتقين) قال محمد بن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس (وموعظة للمتقين) الذين من بعدهم إلى يوم القيامة وقال الحسن وقتادة (وموعظة للمتقين) بعدهم فيتقون نعمة الله ويحذرونها وقال السدى وعطية العوفى (وموعظة للمتقين) قال أمة محمد ﷺ (قلت) المراد بالموعظة ههنا الزاجر أى جعلنا ما أحللتنا بهؤلاء من البأس والنكال فى مقابلة ما ارتكبه من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم كما قال الإمام أبو عبد الله بن بطة حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم حدثنا الحسن ابن محمد بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمر عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا ترتكبوها ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأذى الحيل » وهذا إسناد جيد وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح والله أعلم

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ تَكْذِبُ نَا هُزُوا قَالَ أَأَعُودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ

مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

يقول تعالى واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة وبيان القاتل من هو بسببها وإحياء الله المقتول ونصه على من قتله منهم

﴿ ذكر بسط القصة ﴾

قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة السلماني ، قال . كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه وقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلموا وركب بعضهم على بعض . فقال ذوو الرأي منهم والنهي : علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) قال فلوم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهباً فأخذوها بجلء جلدها ذهباً فذبحوها فضر به بعضهما فقام فقالوا من قتلك ؟ فقال : هذا — لا بن أخيه ، ثم مال ميتاً فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد ورواه ابن جرير من حديث أيوب عن محمد بن سيرين عن عبيدة بنحو من ذلك والله أعلم . ورواه عبد بن حميد في تفسيره أنبأنا يزيد بن هارون به ورواه آدم بن أبي إياس في تفسيره عن أبي جعفر هو الرازي عن هشام بن حسان به ، وقال آدم ابن أبي إياس في تفسيره : أنبأنا أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالقة في قول الله تعالى (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قال كان رجل من بني إسرائيل وكان غنياً ولم يكن له ولد وكان له قريب وكان وارثه وقتله ليرثه ثم ألقاه على جمع الطريق وأتى موسى عليه السلام فقال له إن قريبي قتل وأتى إلى أمر عظيم وإني لا أجد أحداً يبين لي من قتله غيرك يا بني الله قال فنادى موسى في الناس فقال : أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا يبينه لنا ، فلم يكن عندهم علم فأقبل القاتل على موسى عليه السلام ، فقال له أنت نبي الله فسل لنا ربك أن يبين لنا ، فسأل ربه فأوحى الله (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) فعجبوا من ذلك فقالوا (أتتخذنا هزواً ؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض) يعني لا هرمة (ولا بكر) يعني ولا صغيرة (عوان بين ذلك) أي نصف بين البكر والهرمة (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها) أي صاف لونها (تسر الناظرين) أي تعجب الناظرين (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول) أي لم يذللها العمل (تثير الأرض ولا تسقى الحرث) يعني وليست بذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث يعني ولا تعمل في الحرث (مسلمة) يعني مسلمة من العيوب (لاشية فيها) يقول لا يبايض فيها (قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون) قال ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ولولا أن القوم استثنوا فقالوا وإنا إن شاء الله لمتهدون لما هدوا إليها أبداً فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التي نعتت لهم إلا عند عجوز وعندنا يتأبى وهي القيمة عليهم فلما علمت أنه لا يزكوا لهم غيرها أضعفت عليهم الثمن فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة وأنها سألت أضعاف ثمنها ، فقال موسى إن الله قد خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فأعطوها رضاها وحكمها ففعلوا وأشتروها فذبحوها فأمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظمها منها فيضربوا به القاتل ففعلوا فرجع إليه روحه فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتاً كما كان فأخذ قاتله وهو الذي كان أتى موسى عليه السلام فشكا إليه قتله الله على أسوأ عمله ، وقال محمد بن جرير حدثني محمد بن سعيد حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس في قوله في شأن البقرة وذلك أن شيخاً من بني إسرائيل على عهد موسى عليه السلام كان مكرراً من المال وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم وكان الشيخ لا ولد له وكان بنو أخيه ورثته فقالوا ليت عمنا قد مات فورثنا ماله وإنه لما تطاول عليهم ألاموت عمهم أتاها الشيطان فقال لهم هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله وتغرموا أهل المدينة التي لستم بهاديتها وذلك أنهما كاتباً مدينتين كانوا في إحداها

وكان القتل إذا قتل وطرح بين المدينتين قيس ما بين القليل والقرتين فأيتها كانت أقرب إليه غرمت الدية وأنهم لما سول لهم الشيطان ذلك وتناول عليهم أن لا يموت عمهم عمدوا إليه فقتلوه ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخى الشيخ فقالوا عمنا قتل على باب مدينتكم فوالله لتغرمن لنا دية عمنا قال أهل المدينة تقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلا ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا ، وإنهم عمدوا إلى موسى عليه السلام فلما أتوه قال بنو أخى الشيخ عمنا وجدناه مقتولا على باب مدينتهم وقال أهل المدينة تقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا وإن جبرائيل جاء بأمر السميع العليم إلى موسى عليه السلام فقال قل لهم (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) فتضربوه ببعضها وقال السدى (واذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قال كان رجل من بنى إسرائيل مكثرا من المال فكانت له ابنة وكان له ابن أخ محتاج فخطب إليه ابن أخيه ابنته فأبى أن يزوجه فغضب الفتى وقال والله لأقتلن عمى ولا أخذن ماله ، ولأنكحن ابنته ولا كلن ديتة فأثاء الفتى وقد قدم تجار في بعض أسباط بنى إسرائيل فقال ياعم انطلق معى فخذلى من تجارة هؤلاء القوم لعل أن أصيب منها فانهم اذا رأوك معى أعطونى فخرج العم مع الفتى ليلا فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثم رجع إلى أهله فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه كأنه لا يدرى أين هو فلم يجده فانطلق نحوه فاذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه فأخذهم وقال قتلتم عمى فأدوا إلى ديتة فجعل يبكى ويخشو التراب على رأسه وينادى واعماهم فرفعهم إلى موسى قضى عليهم بالدية فقالوا له يا رسول الله ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ صاحب القضية فوالله إن ديتة علينا لهينة ولكن نستحي أن نعير به فذلك حين يقول تعالى (واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون) فقال لهم موسى (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قالوا نسألك عن القتل وعن قتله وتقول اذبحوا بقرة أنهزأ بنا (قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) قال ابن عباس فلو اعترضوا بقرة فذبجوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا وتمتوا على موسى فشدد الله عليهم فقالوا (ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال انه يقول انها بقرة لافارض ولا بكر عوان بين ذلك) والفاضر الهرة التي لاتولد والبكر التي لم تلد الا ولدا واحدا والعوان النصف التي بين ذلك التي قد ولدت وولد ولدها (فافعلوا ما تؤمرون) فقالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها) قال تقى لونها (تسر الناظرين) قال تعجب الناظرين (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإن شاء الله لمهندون * قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تشير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها) من بياض ولا سواد ولا حمرة (قالوا الآن جئت بالحق) فطلبوها فلم يقدروا عليها وكان رجل فى بنى إسرائيل من أبر الناس بأبيه وإن رجلا مربيه معه لؤلؤ يبيعه وكان أبوه نائما تحت رأسه المفتاح فقال له الرجل تشتري منى هذا اللؤلؤ بسبعين ألفا ؟ فقال له الفتى كما أنت حتى يستيقظ أبى فأخذه منك بثمانين ألفا ، قال الآخر أيقظ أباك وهولك بستين ألفا فجعل التاجر يحيط له حتى بلغ ثلاثين ألفا وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف فلما أكثر عليه قال والله لا أشتريه منك بشىء أبدا وأبى أن يوقظ أباه فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة وأبصروا البقرة عنده فسألوه أن يبيعه إياها بقرة بقره فأبى فأعطوه ثنتين فأبى فزادوه حتى بلغوا عشرة فقالوا والله لا تركك حتى نأخذها منك فانطلقوا به إلى موسى عليه السلام فقالوا يابى الله إنا وجدناها عند هذا وأبى أن يعطيناها وقد أعطيناهمنا فقال له موسى أعطهم بقرتك فقال يا رسول الله أنا أحق بمالى فقال صدقت وقال للقوم أرضوا صاحبكم فأعطوه وزنها ذهباً فأبى فأضفوه له حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهباً فباعهم إياها وأخذ ثمنها فذبجوها ، قال اضربوه ببعضها فضر به بعضه فقتلوه ، وقال سئد حدثنا حجاج هو ابن محمد عن ابن جريج عن مجاهد وحجاج عن أبى معشر عن محمد بن كعب القرظى وعمر بن قيس - دخل حديث بعضهم فى حديث بعض - ، قالوا إن سبطا من بنى إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحدا منهم خارجا الا أدخلوه وإذا أصبحوا

قام رئيسهم فنظر وأشرف فإذا لم ير شيئا فتح المدينة فكانوا مع الناس حتى يمضوا قال وكان رجل من بني إسرائيل له مال كثير ولم يكن له وارث غير أخيه فطال عليه حياته فقتله ليرثه ثم حمله فوضعه على باب المدينة ثم كمن في مكان هو وأصحابه قال فأشرف رئيس المدينة على باب المدينة فنظر فلم ير شيئا ففتح الباب فلما رأى القتل رد الباب فناداه أخو القتل وأصحابه هبوا قتلتموه ثم تردون الباب ، وكان موسى لما رأى القتل كثيرا في بني إسرائيل كلن إذا رأى القتل بين ظهراني القوم أخذهم فكاد يكون بين أخى القتل وبين أهل المدينة قتال حتى لبس الفريقان السلاح ثم كف بعضهم عن بعض فأتوا موسى فدكروا له شأنهم ، قالوا يا موسى إن هؤلاء قتلوا قتيلنا ثم ردوا الباب قال أهل المدينة يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور وبنينا مدينة كما رأيت نعتزل شرور الناس والله ما قتلنا ولا علمنا قاتلا فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقرة فقال لهم موسى (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) وهذه السباقات عن عبادة وأبي العالية والسدي وغيرهم فيها اختلاف ما والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل وهي مما يجوز نقلها ولكن لا تصدق ولا تكذب فهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا والله أعلم .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا آلَتَنَ جِثْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لو قت الموضع عنهم كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا (ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) أى ماهذه البقرة وأى شيء صفتها قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا هشام بن علي عن الأعمش عن النبال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لو أخذوا أدنى بقرة لا كتفوها بها ولكنهم شددوا فشدد عليهم - اسناد صحيح - وقد رواه غير واحد عن ابن عباس وكذا قال عبيدة والسدي ومجاهد وعكرمة وأبو العالية وغير واحد . وقال ابن جريج قال لي عطاء لو أخذوا أدنى بقرة لكفتهم قال ابن جريج قال رسول الله ﷺ « إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم وإيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد » قال (إنه يقول إنها بقرة لافارض ولا بكر) أى لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل كما قاله أبو العالية والسدي ومجاهد وعكرمة وعطية العوفي وعطاء الخراساني ووهب بن منبه والضحاك والحسن وقتادة وقاله ابن عباس أيضا وقال الضحاك عن ابن عباس عوان بين ذلك يقول نصف بين الكبيرة والصغيرة وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقرة واحسن ما تكون وروى عن عكرمة ومجاهد وأبي العالية والريبع بن انس وعطاء الخراساني والضحاك نحو ذلك ، وقال السدي العوان النصف التي بين ذلك التي قد ولدت وولده ولدها : وقال هشيم عن جوير عن كثير ابن زياد عن الحسن في البقرة كانت بقرة وحشية : وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس من لبس نعلا صفراء لم يزل في سرور مادام لا يسها وذلك قوله تعالى (تسر الناظرين) وكذا قال مجاهد ووهب بن منبه كانت صفراء وعن ابن عمر كانت صفراء الظلف وعن سعيد بن جبير كانت صفراء القرن والظلف وقال ابن أبي حاتم حدثنا أي حدثنا نصر بن علي حدثنا نوح بن قيس أنبأنا أبو رجاء عن الحسن في قوله تعالى (بقرة صفراء فاقع لونها) قال سوداء شديدة السواد وهذا غريب والصحيح الأول ولهذا أكد صفرتها بأنه (فاقع لونها) وقال عطية العوفي (فاقع لونها) تكاد تسود من صفرتها وقال سعيد بن جبير (فاقع لونها) قال صافية اللون . وروى عن أبي العالية والريبع بن انس والسدي والحسن وقتادة نحوه :

وقال شريك عن معمر عن ابن عمر (فاقع لونها) قال صاف ، وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس (فاقع لونها) شديدة الصفرة تسكاد من صفرتها تبيض وقال السدي (تسر الناظرين) أى تعجب الناظرين وكذا قال أبو العالية وقتادة والريبع ابن أنس . وقال وهب بن منبه إذا نظرت إلى جلدها تخيلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدها . وفي التوراة أنها كانت حمراء فلعل هذا خطأ في التعريب ، أو كما قال الأول إنها كانت شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسواد والله أعلم . وقوله تعالى (إن البقر تشابه علينا) أى لكثرتها فبين لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا (وإنا إن شاء الله) إذا بينتها لنا (لمهتدون) إليها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن يحيى الأودى الصوفي حدثنا أبو سعيد أحمد بن داود الحداد حدثنا سرور بن المغيرة الواسطي ابن أخى منصور بن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن بنى إسرائيل قالوا (وإنا إن شاء الله لمهتدون) لما أعطوا ولكن استثنوا » ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من وجه آخر عن سرور بن المغيرة عن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن حديث أبي رافع عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن بنى إسرائيل قالوا (وإنا إن شاء الله لمهتدون) ما أعطوا أبدا ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبجوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم » وهذا حديث غريب من هذا الوجه وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة كما تقدم مثله عن السدي والله أعلم (قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث) أى إنها ليست مذلة بالحرثة ولا معدة للسقى فى السانية بل هى مكرمة حسنة صبيحة مسلمة صحيحة لا عيب فيها (لاشية فيها) أى ليس فيها لون غير لونها وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة مسلمة يقول لا عيب فيها وكذا قال أبو العالية والريبع وقال مجاهد مسلمة من الشية ، وقال عطاء الخراسانى مسلمة القوائم والخلق لاشية فيها ، قال مجاهد لا يبيض ولا سواد وقال أبو العالية والريبع والحسن وقتادة ليس فيها يبيض وقال عطاء الخراسانى لاشية فيها قال لونها واحد بهم ، وروى عن عطية العوفي ووهب بن منبه وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك ، وقال السدي لاشية فيها من يبيض ولا سواد ولا حمرة وكل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى ، وقد زعم بعضهم أن المعنى فى ذلك قوله تعالى (إنها بقرة لاذلول) ليست بمذلة بالعمل ثم استأنف فقال (تثير الأرض) أى يعمل عليها بالحرثة لكنها لا تسقى الحرث وهذا ضعيف لأنه فسر اللؤلؤ التى لم تذلل بالعمل بأنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، كذا قرره القرطبي وغيره (قالوا الآن جثت بالحق) قال قتادة الآن بينت لنا وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وقيل ذلك والله جاءهم الحق (فذبجوها وما كادوا يفعلون) قال الضحاك عن ابن عباس كادوا أن لا يفعلوا ولم يكن ذلك الذى أرادوا أنهم أرادوا أن لا يذبجوها ، يعنى أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ماذبجوها إلا بعد الجهد ، وفى هذا ذم لهم وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعتى فلهذا ما كادوا يذبجونها * وقال محمد بن كعب ومحمد بن قيس فذبجوها وما كادوا يفعلون لكثرة ثمنها وفى هذا نظر لأن كثرة الثمن لم تثبت إلا من ثقل بنى إسرائيل كما تقدم من حكاية أبي العالية والسدي ، ورواه العوفي عن ابن عباس ، وقال عبيدة ومجاهد ووهب بن منبه وأبو العالية وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم اشتروها بمال كثير وفيه اختلاف ثم قد قيل فى ثمنها غير ذلك وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة أخبرنى محمد بن سوقة عن عكرمة قال : ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير وهذا إسناد جيد عن عكرمة والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضا وقال ابن جرير وقال آخرون لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة إن اطلع الله على قاتل القاتل الذى اختصموا فيه ولم يسنده عن أحد ثم اختار أن الصواب فى ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لثقل ثمنها وللفضيحة وفى هذا نظر بل الصواب والله أعلم ما تقدم من رواية الضحاك عن ابن عباس على ما وجهناه وبالله التوفيق (مسألة) استدلل بهذه الآية فى حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق على صحة السلم فى الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعى والليث والشافعى وأحمد وجمهور العلماء سلفا وخلفا بدليل ما ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا تتعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها » وكما وصف النبي صلى الله عليه وسلم إبل الدية فى قتل الخطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون لا يصح السلم فى

الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله وحكى مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم
 ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِنَفْسِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي
 اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿

قال البخارى (فادارأتم فيها) اختلفتم وهكذا قال مجاهد فيما رواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن أبى حذيفة عن
 شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) اختلفتم ، وقال عطاء الخراسانى
 والضحاك اختلفتم فيها ، وقال ابن جرير (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) قال قال بعضهم أنتم قتلتموه ، وقال
 آخرون بل أنتم قتلتموه وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (والله مخرج ما كنتم تكتمون) قال مجاهد مات غيبون ،
 وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمرة بن أسلم البصرى حدثنا محمد بن الطفيل العبدى حدثنا صدقة بن رستم سمعت المسيب
 ابن رافع يقول ما عمل رجل حسنة في سبعة آيات إلا أظهرها الله وما عمل رجل سيئة في سبعة آيات إلا أظهرها
 الله وتصديق ذلك في كلام الله (والله مخرج ما كنتم تكتمون * قلنا اضربوه ببعضها) هذا البعض أى شئ كان
 من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن وقد كان معينا في نفس الأمر فلو كان في تعيينه لنا
 فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لينه الله تعالى لنا ولكنه أبهمه ولم يحىء من طريق صحيح عن معصوم بيانه
 فنحن نهمه كما أبهمه الله ولهذا قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد
 حدثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إن أصحاب بقرة بنى إسرائيل طلبوها
 أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل في بقر له وكانت بقرة تعجبه قال فجعلوا يعطونه بها فيأبى حتى أعطوه ملاء
 مسكها دانير فذبحوها فضر به - يعنى القتل - بعضو منها فقام تشحب أوداجه دما فقالوا له من قتل قال قتلنى
 فلان ، وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه ضرب ببعضها ، وفي رواية عن ابن عباس أنه ضرب بالعظم
 الذى يلى النضروف . وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر قال : قال أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة ضربوا القتل ببعض
 لحما قال معمر قال قتادة ضربوه بلحم فخذها فعاش فقال قتلنى فلان وقال وكيع بن الجراح في تفسيره حدثنا النضر
 ابن عربى عن عكرمة (قلنا اضربوه ببعضها) فضر بفضدها فقام فقال قتلنى فلان ، قال ابن أبى حاتم وروى عن
 مجاهد وقاتدة وعكرمة نحو ذلك . وقال السدى فضر به بالبضعة التى بين الكتفين فعاش فسأله فقال قتلنى ابن أخى
 وقال أبو العالية أمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظما من عظامها فيضربوا به القتل ففعلوا فرجع اليه روحه
 فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتا كما كان ؛ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : فضر به ببعض أربابها وقيل بلسانها وقيل
 بعجب ذنبها ، وقوله تعالى (كذلك يحيى الله الموتى) أى فضر به فحيى ونبه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه
 من أمر القتل جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد ، وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والعداء ،
 والله تعالى قد ذكر في هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع (ثم بعثناكم من بعد موتكم) وهذه
 القصة وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها
 وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة ، ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيورتها
 ربما كما قال أبو داود الطيالسى : حدثنا شعبة أخبرنى يعلى بن عطاء قال سمعت وكيع بن عدس يحدث عن أبى رزين
 العقيلي رضى الله عنه ، قال قلت لرسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ قال « أما مررت بواد مجحل ثم مررت به
 خضرأ ؟ قال بلى . قال « كذلك النشور » أو قال « كذلك يحيى الله الموتى » وشاهد هذا قوله تعالى (وآية لهم الأرض
 الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا
 من ثمره وما علمتهم أيدىهم أفعلا يشكرون) (مسئلة) استدلل المذهب الإمام مالك في كون قول الجريح فلان قتلنى

لوثا بهذه القصة لأن القتيل لما حي سئل عمن قتله فقال فلان قتلتني فكان ذلك مقبولا منه لأنه لا يخبر حينئذ إلا بالحق ولا يتهم والحالة هذه ورجحوا ذلك لحديث أنس أن يهودياً قتل جارية على أوضاع لها فرضخ رأسها بين حجرين فقيل من فعل بك هذا أفلان؟ أفلان؟ حتى ذكروا اليهودي فأومأت برأسها فأخذ اليهودي فلم يزل به حتى اعترف فأمر رسول الله ﷺ أن يرض رأسه بين حجرين ، وعند مالك إذا كانت لوثا حلف أولياء القتيل قسامة وخالف الجمهور في ذلك ولم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثا .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِن مِّنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِن مِّنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِن مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقرباً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك) كلفه في الحجارة التي لا تلين أبداً ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس لما ضرب المقتول بعض البقرة بعض أحياما كان قط فقيل له من قتلك قال بنو أخي قتلوني ثم قبض فقال بنو أخيه حين قبضه الله والله ما قتلناه فكذبوا بالحق بعد أن رأوه فقال الله ثم قست قلوبكم من بعد ذلك يعني أبناء أخي الشيخ فهي كالحجارة أو أشد قسوة فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج لئنها أو أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جارياً ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه كما قال (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً) وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد أنه كان يقول كل حجر يتفجر منه الماء أو يتشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل من خشية الله نزل بذلك القرآن وقال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله) أي وإن من الحجارة لألبن من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق (وما الله بغافل عما تعملون) وقال أبو علي الجبائي في تفسيره (وإن منها لما يهبط من خشية الله) هو سقوط البرد من السحاب قال القاضي الباقلاني وهذا تأويل بعيد وتبعه في استبعاده الرازي وهو كما قال فإن هذا خروج عن اللفظ بلا دليل والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا الحكم بن هشام الثقفي حدثني يحيى ابن أبي طالب يعني ويحيى بن يعقوب في قوله تعالى (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) قال كثرة البكاء (وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء) قال قليل البكاء (وإن منها لما يهبط من خشية الله) قال بكاء القلب من غير دموع العين وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله (يريد أن يتقسط) قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة ولا حاجة إلى هذا فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) وقال (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) الآية وقال (والنجم والشجر يسجدان * أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفأ ضلاله) الآية (قلنا أئمتنا طائعين * لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) الآية (وقالوا الجلود لم تشهدتم علينا قالوا أنطقنا الله) الآية وفي الصحيح « هذا جبل يحبنا ونحبه » وكثير من الجذع التواتر خبره وفي صحيح مسلم « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن » وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلم بحق يوم القيامة وغير ذلك مما في معناه وحكي القرطبي قولاً أنها للتخيير أي مثلاً لهذا وهذا وهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين . . وكذا حكاة

الرازي في تفسيره وزاد قولاً آخر إنها للإيهام بالنسبة إلى المخاطب كقول القائل أكلت خبزاً أو تمراً ، وهو يعلم أيهما أكل وقال آخر إنها بمعنى قول القائل كل حلواً أو حامضاً ، أي لا يخرج عن واحد منهما أي وقلوبكم صارت كاللحجارة أو أشد قسوة منها لا تخرج عن واحد من هذين الشبثين والله أعلم .

(تنبيه) اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى (فهي كاللحجارة أو أشد قسوة) بعد الإجماع على استحالة كونها للشك فقال بعضهم أو ههنا بمعنى الواو تقديره : فهي كاللحجارة وأشد قسوة : كقوله تعالى (ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً) (عذراً أو نذراً) وكما قال النابغة الذبياني .

قالت ألا لينا هذا الحمام لنا * إلى حمامنا أو نصفه فقد

تريد ونصفه قاله ابن جرير : وقال جرير بن عطية

نال الخلافة أو كاتله قدراً * كما أتى ربه موسى على قدر

قال ابن جرير يعني نال الخلافة وكانت له قدراً وقال آخرون أو ههنا بمعنى بل فتقديره : فهي كاللحجارة بل أشد قسوة وكقوله (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) (فكان قاب قوسين أو أدنى) وقال آخرون معنى ذلك (فهي كاللحجارة أو أشد قسوة) عندهم حكاه ابن جرير : وقال آخرون المراد بذلك الإيهام على المخاطب كما قال أبو الأسود

أحب محمدأجبا شديداً * وعباساً وحمة والوصيا * فان يك جهم رشداً أصبه * وليس بمخطيء إن كان غيا
وقال ابن جرير قالوا ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكاً في أن حب من سمى رشد ولكنه أبهم على من خاطبه قال وقد ذكر عن أبي الأسود أنه لما قال هذه الآيات قيل له شككت فقال كلا والله ثم اترع بقول الله تعالى (وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) فقال أو كان شاكاً من أخبر بهذا من الهادي منهم ومن الضال ؟ وقال بعضهم معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحدهذين الثلثين إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة وإما أن تكون أشد منها في القسوة . قال ابن جرير ومعنى ذلك على هذا التأويل فبعضها كاللحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره (قلت) وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً) مع قوله (أو كصيب من السماء) وكقوله (والذين كفروا أعماهم كسراب ببيعة) مع قوله (أو كظلمات في بحر لجي) الآية أي إن منهم من هو هكذا ومنهم من هو هكذا والله أعلم : وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن أيوب حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي الثلج حدثنا علي بن حفص حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن حاطب عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فان كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي » رواه الترمذي في كتاب الزهد من جامعه عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج صاحب الإمام أحمد به ومن وجه آخر عن إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب به ، وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم . وروى البزار عن أنس مرفوعاً « أربع من الشقاء جهود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا »

﴿ أَتَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

يقول تعالى (أتتطمعون) أيها المؤمنون (أن يؤمنوا لكم) أي يتقادلحكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البيات ماشاهدوه ثم قست قلوبهم من بعد ذلك (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم

يخرفونه) أى يتأولونه على غير تأويله (من بعد ما عقلوه) أى فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة (وهم يعلمون) أنهم عظمون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله وهذا المقام شبيه بقوله تعالى (فما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه) قال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أنه قال ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ ولن معه من المؤمنين يؤسهم منهم (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله) وليس قوله يسمعون (١) التوراة كلهم قد سمعها ولكن هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فآخذتهم الصاعقة فيها . وقال محمد بن إسحق فيما حدثني بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى يا موسى قد حيل بيننا وبين رؤية ربنا تعالى فأسمعنا كلامه حين يكلمك فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى فقال نعم مرهم فليطهروا وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا ثم خرج بهم حتى أتوا الطور فلما غشيه الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا فوقوا سجودا وكلمه ربه فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا منه ما سمعوا ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل فلما جاءهم حرف فريق منهم ما أمرهم به وقالوا حين قال موسى لبني إسرائيل إن الله قد أمركم بكذا وكذا قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله إنما قال كذا وكذا خلافا لما قاله الله عز وجل لهم فهم الذين عني الله لرسوله ﷺ ، وقال السدي (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يخرفونه) قال هي التوراة حرفوها وهذا الذى ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسحاق وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه كما سمعه الكلم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام وقد قال الله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) أى مبلغا إليه ولهذا قال قتادة في قوله (ثم يخرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) قال هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يخرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه وقال مجاهد الذين يخرفونه والذين يكتُمونه هم العلماء منهم وقال أبو العالية عمدا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعمت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه وقال السدي (وهم يعلمون) أى أنهم أذنبوا وقال ابن وهب قال ابن زيد في قوله (يسمعون كلام الله ثم يخرفونه) قال التوراة التى أنزلها الله عليهم يخرفونها يجعلون الحلال فيها حراما والحرام فيها حلالا والحق فيها باطلا والباطل فيها حقا ، وإذا جاءهم الحق برشوة أخرجوا له كتاب الله وإذا جاءهم البطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق ، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق فقال الله لهم (أنا مروون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) وقوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض) الآية قال محمد بن إسحق حدثنا محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) أى إن صاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم فأنزل الله (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم) أى تقرون بأنه نبي . وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه وهو يخبرهم أنه النبي الذى كنا ننتظر ووجد في كتابنا ، اجحدوه ولا تقروا به . يقول الله تعالى (أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) وقال الضحاک عن ابن عباس : يعنى المناققين من اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا آمنا ، وقال السدي . هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم ناققوا . وكذا قال الربيع بن أنس وقتادة وغير واحد من السلف والخلف حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيما رواه ابن وهب عنه كان رسول الله ﷺ قد قال « لا يدخلن علينا قسبة المدينة إلا مؤمن » فقال رؤسائهم من أهل الكفر والنفاق اذهبوا فقولوا آمنا واكفروا إذا رجعتم إلينا فكانوا يأتون المدينة بالبكر ويرجعون إليهم بعد العصر . وقرأ قول الله تعالى (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة نحن مسلمون ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره . فاذا رجعوا رجعوا إلى الكفر فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون . وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون اليس قد قال الله لكم كذا وكذا . فيقولون بلى . فاذا رجعوا إلى

(١) في ابن جرير الطبري عن ابن إسحاق قال ليس قوله يسمعون كلام الله يسمعون التوراة كلهم قد سمعوا الخ .

قوهم يعني الرؤساء فقالوا (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) الآية . وقال أبو العالية (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) يعني بما أنزل عليكم في كتابكم من نعت محمد ﷺ وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم) قال كانوا يقولون سيكون نبي فخلا بعضهم ببعض فقالوا (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) . قول آخر في المراد بالفتح قال ابن جريج : حدثني القاسم بن أبي برزة عن مجاهد في قوله تعالى (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) قال قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم ، فقال يا إخوان القردة والخنازير ويا عبدة الطاغوت فقالوا من أخبر بهذا الأمر محمداً؟ ما خرج هذا القول إلا منكم (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) بما حكم الله للفتح ليكون لهم حجة عليكم قال ابن جريج عن مجاهد هذا حين أرسل إليهم علياً فأذوا محمداً ﷺ ، وقال السدي (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) من العذاب (ليحاجوكم به عند ربكم) هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به . فقال بعضهم لبعض (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) من العذاب ليقولوا نحن أحب إلى الله منكم وأكرم على الله منكم وقال عطاء الخراساني (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) يعني بما قضى لكم وعليكم . وقال الحسن البصري : هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم . وقوله تعالى (أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) قال أبو العالية : يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوباً عندهم وكذا قال قتادة ، وقال الحسن (إن الله يعلم ما يسرون) قال كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض تنهاوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم (وما يعلنون) يعني حين قالوا لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم آمنا . وكذا قال أبو العالية والربيع وقاتدة .

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ قَوْلُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلُ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلُ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ

يقول تعالى (ومنهم أميون) أي ومن أهل الكتاب قاله مجاهد ، والأميون جمع أمي وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة قاله أبو العالية والربيع وقاتدة وإبراهيم النخعي وغير واحد وهو ظاهر في قوله تعالى (لا يعلمون الكتاب) أي لا يدرون ما فيه . ولهذا في صفات النبي ﷺ : أنه الأمي لأنه لم يكن يحسن الكتابة كما قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون) وقال عليه الصلاة والسلام «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا» الحديث أي لا نفتقر في عبادتنا ومواقيتنا إلى كتاب ولا حساب ، وقال تبارك وتعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) وقال ابن جريج : نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتاب دون أبيه . قال وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قول خلاف هذا وهو ما حدثنا به أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد عن بشر بن عمار عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى (ومنهم أميون) قال الأميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتابا أنزله الله فكتبوا كتابا بأيديهم ثم قالوا لقوم سفلة جهال هذا من عند الله ، وقال قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله ، ثم قال ابن جريج : وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم ، وذلك أن الأمي عند العرب الذي لا يكتب . قلت ثم في صحة هذا عن ابن عباس بهذا الإسناد نظر والله أعلم . وقوله تعالى (إلا أمانى) قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس إلا أمانى الأحاديث وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى (إلا أمانى) يقول إلا قولاً يقولون بأفواههم كذبا . وقال مجاهد إلا كذبا : وقال سديد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد (ومنهم أميون

لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) قال أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئا وكانوا يتكلمون بالظن بغير مافى كتاب الله ويقولون هو من الكتاب ، أمانى يتمنونها وعن الحسن البصرى نحوه ، وقال أبو العالية والربيع وقادة إلا أمانى يتمنون على الله ماليس لهم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إلا أمانى قال تمنوا فقالوا نحن من أهل الكتاب وليسوا منهم ، قال ابن جرير والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس وقال مجاهد إن الأمانى الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذى أنزله الله تعالى على موسى شيئا ولكنهم يتخرون الكذب ويتخرون الأباطيل كذبا وزورا ، والتمنى فى هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخروصه ، ومنه الخبر المروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه مالتغيت ولا تمنيت يعنى ما تخروصت الباطل ولا اختلقت الكذب : وقيل المراد بقوله إلا أمانى بالتشديد والتخفيف أيضا أى الا تلاوة فعلى هذا يكون استثناء منقطعا واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى (إلا إذا تمنى - أى تلا - ألقى الشيطان فى أمنيته) الآية ، وقال كعب بن مالك الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليله * وآخره لاقى حمام المقادر

تمنى كتاب الله آخر ليله * تمنى داود الكتاب على رسل

وقال آخر

وقال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإنهم لا يظنون) أى ولا يدرون مافيه وهم يحذون نبوتك بالظن وقال مجاهد (وإنهم لا يظنون) يكتبون وقال قتادة وأبو العالية والربيع : يظنون بالله الظنون بغير الحق . وقوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) الآية هؤلاء صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله وأكل أموال الناس بالباطل . والويل الهلاك والدمار وهى كلمة مشهورة فى اللغة : وقال سفيان الثورى عن زياد بن فياض سمعت أبا عياض يقول ويل صديد فى أصل جهنم وقال عطاء بن يسار . الويل واد فى جهنم لوسيرت فيه الجبال لماعت . وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره » ورواه الترمذى عن عبد الرحمن بن حميد عن الحسن بن موسى عن ابن لهيعة عن دراج به وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة (قلت) لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى ولكن الآفة ممن بعده وهذا الحديث بهذا الاسناد مرفوعا منكر والله أعلم . وقال ابن جرير حدثنا المشنى حدثنا إبراهيم بن عبد السلام حدثنا صالح القشيري حدثنا على بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة العدوى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ (فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون) قال « الويل جبل فى النار » وهو الذى أنزل فى اليهود لأنهم حرفوا التوراة زادوا فيها ما أحبوا ومحووا منها ما يكرهون ومحووا اسم محمد ﷺ من التوراة ولذلك غضب الله عليهم فرفع بعض التوراة فقال تعالى (فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون) وهذا غريب أيضا جدا ، وعن ابن عباس الويل المشقة من العذاب وقال الخليل بن أحمد الويل شدة الشر وقال سيويه ويل لمن وقع فى الهلكة وويل لمن أشرف عليها وقال الأصمعى الويل تفجع والويل ترحم وقال غيره الويل الحزن ، وقال الخليل وفى معنى ويل ويح وويش وويه وويك وويب ومنهم من فرق بينها ، وقال بعض النحاة إنما جاز الابتداء بها وهى تكرة لأن فيها معنى الدعاء ومنهم من جوز نصبها بمعنى أزمهم ويلا (قلت) لكن لم يقرأ بذلك أحد ، وعن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) قال هم أحبار اليهود وكذا قال سعيد عن قتادة هم اليهود وقال سفيان الثورى عن عبد الرحمن بن علقمة سألت ابن عباس رضى الله عنه عن قوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) قال نزلت فى المشركين وأهل الكتاب وقال السدى كان ناس من اليهود كتبوا كتابا من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله فآخذوا به ثمنا قليلا وقال الزهرى أخبرنى عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه قال : يامعشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتاب الله الذى أنزله على نبيه أحدث أخبار

الله تقرأونه غضا لم يشب وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به تمنا قليلا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ولا والله ما رأينا منهم أحدا قط سألهم عن الذي أنزل عليكم رواه البخاري من طرق عن الزهري ، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري : الثمن القليل الدنيا بخدا فبرها . وقوله تعالى (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) أي فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء وويل لهم مما أكلوا به من السحت كما قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما (فويل لهم) يقول فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب وويل لهم مما يكسبون يقول مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم .

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً . قُلْ أَنْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن اليهود فيما ثقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودة ثم ينجون منها فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى (قل أنتم عند الله عهدا) أي بذلك فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده ولكن هذا ماجرى ولا كان ولهذا أتى بأم التي بمعنى بل أي بل تقولون على الله ما لا تعملون من الكذب والافتراء عليه قال محمد ابن إسحق عن سيف بن سليمان عن مجاهد عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما في النار وإنما هي سبعة أيام معدودة فأُنزل الله تعالى (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) إلى قوله (خالدون) ثم رواه عن محمد بن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس بنحوه ، وقال العوفي عن ابن عباس (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) اليهود قالوا لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة زاد غيره وهي مدة عبادتهم العجل وحكام القرطبي عن ابن عباس وقتادة ، وقال الضحاك قال ابن عباس زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوبا أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم التي هي ثابتة في أصل الجحيم ، وقال أعداء الله إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك . فذلك قوله تعالى (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) وقال عبد الرزاق عن معمر بن قتادة (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) يعني الأيام التي عبدنا فيها العجل وقال عكرمة خاضعت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا لن ندخل النار إلا أربعين ليلة وسيخلفنا فيها قوم آخرون يعنون محمدا ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم فقال رسول الله ﷺ يديه على رؤوسهم « بل أنتم خالدون غلدون لا يخلفكم فيها أحد » فأُزل الله عز وجل (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) الآية : وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله حدثنا عبد الرحمن بن جعفر حدثنا محمد بن محمد بن صخر حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ حدثنا ليث بن سعد حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم فقال رسول الله ﷺ « اجمعوا لي من كان من اليهود ههنا » فقال لهم رسول الله ﷺ « من أبوكم ؟ » قالوا فلان قال « كذبتم بل أبوكم فلان » فقالوا صدقت وبررت ثم قال لهم « هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا نعم يا أبا القاسم وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفت في أئينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أهل النار ؟ » فقالوا نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها فقال لهم رسول الله ﷺ « اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبدا » ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا نعم يا أبا القاسم قال « هل جعلتم في هذه الشاة سمًا ؟ » فقالوا نعم قال « فما حملكم على ذلك » فقالوا أردنا أن كنت كاذبا أن نستريح منك وإن كنت نبيا لم يضرنا ورواه الإمام أحمد والبخاري والنسائي من حديث الليث بن سعد بنحوه .

﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٩﴾

يقول تعالى ليس الأمر كما تمنيت ولا كما تشتهون بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من العمل الموافق للسرعة فهم من أهل الجنة وهذا المقام شبيه بقوله تعالى (ليس بآمانكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها) قال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس (بلى من كسب سيئة) أي عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره فإله من حسنة ، وفي رواية عن ابن عباس قال الشرك ، قال ابن أبي حاتم وروى عن أبي وائل وأبي العالية ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحوه وقال الحسن أيضا والسدي السيئة الكبيرة من الكبائر وقال ابن جريج عن مجاهد (وأحاطت به خطيئته) قال بقله وقال أبو هريرة وأبو وائل وعطاء والحسن (وأحاطت به خطيئته) قالوا أحاط به شركه وقال الأعمش عن أبي رزين عن الربيع بن خيثم (وأحاطت به خطيئته) قال الذي يموت على خطايا من قبل أن يتوب وعن السدي وأبي رزين نحوه وقال أبو العالية ومجاهد والحسن في رواية عنهما وقتادة والربيع بن أنس (وأحاطت به خطيئته) الموجهة الكبيرة وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى والله أعلم. ويذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا سليمان بن داود حدثنا عمرو بن قتادة عن عبد ربه عن أبي عياض عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلاً كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة فحضر صنع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود والرجل يجىء بالعود حتى جمعوا سوادا وأججوا نارا فأفضجوا ما قدفوا فيها. وقال محمد بن إسحق حدثني محمد بن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أي من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدون فيها يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

يذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذهم ميثاقهم على ذلك وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصدا وعمدا وهم يعرفونه ويذكرونه فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وبهذا أمر جميع خلقه ولذلك خلقهم كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى (أن اشكروا لي ولوالديك إلى الصير) وقال تبارك وتعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) إلى أن قال (وأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) وفي الصحيحين عن ابن مسعود قلت يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت ثم أي؟ « قال بر الوالدين » قلت ثم أي قال « الجهاد في سبيل الله » ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلا قال يا رسول الله من أبر؟ قال « أمك » قال ثم من؟ قال « أمك » قال ثم من؟ قال « أبك » ثم أدناك ثم أدناك؟ وقوله تعالى (لا تعبدون إلا الله) قال الزمخشري خبر بمعنى الطلب وهو آكد وقيل كان أصله (أن لا تعبدوا إلا الله) كما قرأها من قرأها من السلف فحذفت أن فارتفع وحكى عن أبي وابن مسعود أنهما قرأها (لا تعبدوا إلا الله) ونقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيويه . قال واختاره الكسائي

والفراء قال (واليتامى) وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهلهم وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء التي أمرنا الله تعالى بها صريحا في قوله (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا) الآية وقوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) أى كلوهم طيبا ولينوا لهم جانبا ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف كما قال الحسن البصري في قوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) فالحسن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وعلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسنا كما قال الله وهو كل خلق حسن رضى الله

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا أبو عامر الخراز عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « لا تحقرن من العروف شيئا وإن لم تجد قاتل أخاك بوجه منطلق » وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذى وصححه من حديث أبي عامر الخراز واسمه صالح بن رستم به وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنا بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل فجمع بين طرفي الإحسان الفعلى والقولى ، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة فقال (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله أى تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم وقد أمر الله هذه الأمة بنظر ذلك في سورة النساء بقوله (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم) ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا (فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها والله الحمد والمنة . ومن النقول الغريبة ههنا ما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا أبي حدثنا محمد بن خلف العسقلاني حدثنا عبد الله بن يوسف يعنى التنيسى حدثنا خالد بن صبيح عن حميد بن عقبة عن أسد بن وداعة أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهوديا ولا نصرانيا إلا سلم عليه فقيل له : ماشأئك تسلم على اليهودى والنصرانى ؟ فقال : إن الله تعالى يقول (وقولوا للناس حسنا) وهو السلام . قال وروى عن عطاء الخراسانى نحوه (قلت) وقد ثبت فى السنة أنهم لا يبدعون بالسلام والله أعلم

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَى تَفْدُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى منكرا على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله ﷺ بالمدينة وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا فى الجاهلية عباد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودى أعداءه ، وقد يقتل اليهودى الآخر من الفريق الآخر ، وذلك حرام عليهم فى دينهم ونص كتابهم ، ويخرجونهم من بيوتهم ويتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملا بحكم التوراة ، ولهذا قال تعالى (أفؤثمونون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟) ولهذا قال تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم

ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يخرج من منزله ولا يظهر عليه كما قال تعالى (فتوبوا إلى ربكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند ربكم) وذلك أن أهل اللذة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال عليه الصلاة والسلام « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى والسهر » وقوله تعالى (ثم أقررتم وأنتم تشهدون) أى ثم أقررتم بعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به (ثم أتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم) الآية ، قال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس (ثم أتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم) الآية قال . أنبأهم الله بذلك من فعلهم وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم وافترض عليهم فيها فداء أسراهم فكانوا فريقين طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج والنضير ، وقريظة وهم حلفاء الأوس فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس ، يظهر كل واحد من الفريقين حلفاء على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا ناراً ولا بعثاً ولا قيامة ولا كتاباً ولا حلالاً ولا حراماً فإذا وضعت الحرب أوزارها اقتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة وأخذابه بعضهم من بعض يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس ويفتدى النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم ويطلبون ما أصابوا من دمائهم وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مفاخرة لأهل الشرك عليهم يقول الله تعالى ذكره حيث أنأهم بذلك (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) أى تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم وفي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا ؟ ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغني زلت هذه القصة . وقال أسباط عن السدي . كانت قريظة حلفاء الأوس وكانت النضير حلفاء الخزرج فكانوا يقتتلون في حرب بينهم فقتل بنو قريظة مع حلفائهم النضير وحلفاءهم وكانت النضير تقتل قريظة وحلفاءها وغلبونهم فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها فإذا أسر رجل من الفريقين كلاهما جمعوا له حتى يفدوه فتعيرهم العرب بذلك ويقولون : كيف تقتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا : إنا أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم قالوا : فلم تقتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحي أن تستذل حلفاؤنا فذلك حين عيرهم الله تبارك وتعالى فقال تعالى (ثم أتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم) الآية : وقال أسباط عن السدي عن الشعبي نزلت هذه الآية في قيس بن الحطيم (ثم أتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم) الآية : وقال أسباط عن السدي عن عبد خير قال : غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلي بلنجر فخاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا واشترى عبدالله بن سلام يهودية بسبعمائة فلما مر برأس الجالوت نزل به فقال له عبد الله : يارأس الجالوت هل لك في عجز ههنا من أهل دينك تشتريها مني قال نعم ، قال : أخذتها بسبعائة درهم قال : فإنى أرخصك بسبعائة أخرى قال : فإنى قد حلفت أن لا أنقصها من أربعة آلاف قال لا حاجة لى فيها قال والله لتشتريها منى أو لتكفرن بدينك الذى أنت عليه قال : ادن منى فدنا منه فقرأ فى أذنه ما فى التوراة : إنك لاتجد مملوكاً من بنى إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته (وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم) قال : أنت عبد الله بن سلام ؟ قال : نعم : قال فجاء بأربعة آلاف فأخذ عبد الله ألفين ورد عليه ألفين . وقال آدم بن أبى إياس فى تفسيره حدثنا أبو جعفر يعنى الرازى حدثنا الربيع بن أنس أخبرنا أبو العالية : أن عبدالله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة وهو يفادى من النساء من لم يقع عليه العرب ولا يفادى من وقع عليه العرب ، فقال عبدالله : أما انه مكتوب عندك فى كتابك أن تفاديهم كلهم والذى أرشدت اليه الآية الكريمة وهذا السياق ذم اليهود فى قيامهم بأمر التوراة التى يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها مع معرقتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة فلماذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على نقلها ولا يصدقون فيما كتبه من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجرة وغير ذلك من شؤونه التى أخبر بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام ، واليهود عليهم لعائن الله يتكاثرون بينهم ولهذا قال تعالى (فما جزاء من يفعل ذلك منكم

إلا خزي في الحياة الدنيا) أى بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره (ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب) جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذى بأيديهم (وما الله بغافل عما تعملون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) أى استجوبوها على الآخرة واختاروها (فلا يخفف عنهم العذاب) أى لا يفر عنهم ساعة واحدة (ولا هم ينصرون) أى وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدى ولا ينجيهم منه

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ ﴾

ينعت تبارك وتعالى بنى اسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء وأنهم انما يتبعون أهواءهم فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة فرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها ، وأرسل الرسل والأنبياء من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى (انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) الآية ولهذا قال تعالى (وقفينا من بعده بالرسل) قال السدى عن أبى مالك : أتبعنا . وقال غيره . أردفنا . والكل قريب كما قال تعالى (ثم أرسلنا رسلنا تترى) حتى ختم أنبياء بنى اسرائيل بعيسى بن مريم فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ولهذا أعطاه الله من البينات وهى العجرات . قال ابن عباس من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً يأذن الله ، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام - مايدلهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بنى اسرائيل له وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة فى البعض كما قال تعالى إخباراً عن عيسى (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئكم بآية من ربكم) الآية فكانت بنوا اسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ العاملة ففريقاً يكذبونه . وفريقاً يقتلونه ، وماذا كان إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبالإلزام بأحكام التوراة التى قد تصرفوا فى مخالفتها ، فلماذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم وربما قتلوا بعضهم ولهذا قال تعالى (أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون)

والدليل على أن روح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير هذه الآية وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب وإسماعيل بن خالد والسدى والريبع بن أنس وعطية العوفى وقتادة مع قوله تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) ما قال البخارى . وقال ابن أبى الزناد عن أبيه عن أبى هريرة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لسان بن ثابت منبراً فى المسجد فكان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافع عن نبيك » فهذا من البخارى تعليقا وقد رواه أبو داود فى سننه عن ابن سيرين والترمذى عن طى بن حجر وإسماعيل بن موسى الفزارى ثلاثتهم عن أبى عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه وهشام بن عروة كلاهما عن عروة عن عائشة به قال الترمذى حسن صحيح وهو حديث أبى الزناد وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن عمر ابن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد فلحظ اليه فقال قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ثم التفت إلى أبى هريرة فقال أنشدك الله أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أجب عني اللهم أيد بروح القدس » فقال اللهم نعم وفى بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجم - أو هاجهم - وجبريل معك » وفى شعر حسان قوله :

وجبريل رسول الله فينا * وروح القدس ليس به خفاء

وقال محمد بن اسحق حدثني عبد الرحمن بن أبى حسين المكي عن شهر بن حوشب الأشعرى أن نقرأ من اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا أخبرنا عن الروح فقال « أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل هل تعلمون

أنه جبرائيل وهو الذي يأتي؟ قالوا نعم : وفي صحيح ابن حبان عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » * أقوال أخر - قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا بشر عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس (وأيدناه بروح القدس) قال : هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى يحيى به الموتى . وقال ابن جرير حدثت عن المنجاب فذكره وقال ابن أبي حاتم وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك ونقله القرطبي عن عبيد بن عمير أيضاً قال : وهو الاسم الأعظم . وقال ابن أبي نجيح : الروح هو حفظة على الملائكة وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس . القدس هو الرب تبارك وتعالى . وهو قول كعب وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالا . القدس هو الله تعالى وروحه جبريل . فعلى هذا يكون القول الأول وقال السدي : القدس البركة . وقال العوفي عن ابن عباس القدس الطهر وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الأعلى أن ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) قال : أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً كلاهما روح الله كما قال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) ثم قال ابن جرير وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال الروح في هذا الوضع جبرائيل فإن الله تعالى أخبر أنه أيد عيسى به كما أخبر في قوله تعالى (إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهدي وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) الآية فذكر أنه أيد به فلو كان الروح الذي أيد به هو الإنجيل لكان قوله (وإذ أيدتك بروح القدس) * وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) تكرير قول لا معنى له والله سبحانه وتعالى أعز وأجل أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به (قلت) ومن الدليل على أنه جبرائيل ما تقدم من أول السياق والله الحمد - وقال الزمخشري (بروح القدس) بالروح القدسة كما تقول حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال (وروح منه) فوصفه بالاختصاص والتقريب تكملة وقيل لأنه لم تضعه الأصلاب والأرحام الطوامث وقيل بجبريل وقيل بالإنجيل كما قال في القرآن (روحاً من أمرنا) وقيل باسم الله الأعظم الذي كان يحيى الموتى بذكره فتضمن كلامه قولاً آخر وهو أن المراد روح عيسى نفسه القدسة المطهرة وقال الزمخشري في قوله تعالى (ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون) إنما لم يقل وفريقاً قتلتم لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسحر والسحر وقد قال عليه السلام في مرض موته « مازالت أكلة خير تعادني فهذا أو انقطع أبهرى » (قلت) وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

قال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) أى فى أكمة : وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) أى لاتفقه وقال العوفي عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) هى القلوب المطبوع عليها وقال مجاهد (وقالوا قلوبنا غلف) عليها غشاوة وقال عكرمة : عليها طابع ، وقال أبو العالية : أى لاتفقه ، وقال السدي يقولون عليها غلاف وهو الغطاء : وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : فلاتعى ولا تفقه قال مجاهد وقاتدة : وقرأ ابن عباس غلف بضم اللام وهو جمع غلاف أى قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج إلى علمك قاله ابن عباس وعطاء (بل لعنهم الله بكفرهم) أى طردهم الله وأبعدهم من كل خير (قليلما يؤمنون) قال قتادة معناه لا يؤمن منهم إلا القليل (وقالوا قلوبنا غلف) هو كقوله (وقالوا قلوبنا فى أكمة مما تدعونا إليه) وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم في قوله غلف قال تقول قلبى فى غلاف فلا يخلص إليه مما تقول شيء وقرأ (وقالوا قلوبنا فى أكمة مما تدعونا إليه) وهذا الذى رجحه ابن جرير واستشهد بما روى من حديث عمرو بن مرة الجملى عن أبي البخترى عن حذيفة قال « القلوب أربعة » فذكر منها « وقلب أغلف مغضوب عليه وذلك قلب الكافر » وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد ابن عبد الرحمن العزمي أنبأنا أبي عن جدى عن قتادة عن الحسن في قوله (قلوبنا غلف) قال لم تخن وهذا القول يرجع

معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم وأنها بعيدة من الخير * قول آخر — قال الضحاك عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) قال يقولون قلوبنا غلف مملوءة لا تحتاج إلى علم محمد ولا غيره . وقال عطية العوفي عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) أى أوعية للعلم وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيها حكاة ابن جرير وقالوا قلوبنا غلف بضم اللام نقلها الزمخشري أى جمع غلاف أى أوعية بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر كما كانوا يفتنون بعلم التوراة ولهذا قال تعالى (بل لعنهم الله بكفرهم قليلاً ما يؤمنون) أى ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها كما قال في سورة النساء (وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً) وقد اختلفوا فى معنى قوله (قليلًا ما يؤمنون) وقوله (فلا يؤمنون إلا قليلاً) فقال بعضهم قليل من يؤمن منهم وقيل قليل إيمانهم بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ولكنه إيمان لا ينفعهم لأنه مغمور بما كفروا به من الذى جاءهم به محمد ﷺ ، وقال بعضهم إنما كانوا غير مؤمنين بشيء وإنما قال قليلاً ما يؤمنون وهم بالجميع كفرون كما تقول العرب قلما رأيت مثل هذا قط . تريد ما رأيت مثل هذا قط وقال الكسائي تقول العرب من زنى بأرض قلما تنبت أى لا تنبت شيئاً حكاة ابن جرير رحمه الله والله أعلم

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى (ولما جاءهم يعنى اليهود كتاب من عند الله وهو القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ) (مصدق لما معهم) يعنى من التوراة وقوله (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) أى وقد كانوا من قبل يحجىء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم يقولون إنه سيبيح نبى فى آخر الزمان تقتلكم معه قتل عاد وإرم كما قال محمد بن إسحق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم قال فينا والله وفيهم يعنى فى الأنصار وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعنى (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) قالوا كنا قد علوناهم قهراً دهرآ فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون إن نبياً سيبيح الآن تتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعاه كفروا به ، يقول الله تعالى (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال يستنصرون يقولون نحن نعين محمدآ عليهم وليسوا كذلك بل يكذبون ، وقال محمد بن إسحق أخبرنى محمد بن أبى محمد أخبرنى عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه فلما بعث الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور ودود بن سلمة يامعشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتجبروتنا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكر لكم . فأنزل الله فى ذلك من قولهم (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم) الآية وقال العوفي عن ابن عباس (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) يقول يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركى العرب ، يعنى بذلك أهل الكتاب فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه . وقال أبو العالية : كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركى العرب يقولون اللهم ابعث هذا النبى الذى نبحده مكتوباً عندنا حتى نغلب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمدآ صلى الله عليه وسلم ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ ؛ فقال الله تعالى (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) وقال قتادة (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين

كفروا) قال وكانوا يقولون إنه سيأتي نبي . (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) وقال مجاهد (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعة الله على الكافرين) قال هم اليهود

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَنِيَّ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

قال مجاهد (بئسما اشتروا به أنفسهم) يهود شروا الحق بالباطل وكتان ماجاء به محمد ﷺ بأن يبينوه وقال السدي (بئسما اشتروا به أنفسهم) يقول باعوا به أنفسهم يقول بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ عن تصديقه وموازرته ونصرتة وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية ل(أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) ولا حسد أعظم من هذا ، قال ابن إسحق عن محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بنياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) أى أن الله جعله من غيرهم (فباءوا بغضب على غضب) قال ابن عباس في الغضب على الغضب فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهى معهم وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم (قلت) ومعنى (بآوا) استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب ، وقال أبو العالية : غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن ، وعن عكرمة وقتادة مثله قال السدي : أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم في العجل وأما الغضب الثاني فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ وعن ابن عباس مثله * وقوله تعالى (وللکافرين عذاب مهين) لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ومنشأ ذلك التكبر قبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة كما قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) أى صاغرين حقيرين ذليلين راغمين وقد قال الإمام أحمد حدثنا يحيى حدثنا ابن عجلان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال « يحشر التكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس يعلمون كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له بولس تعلمون نار الأنبار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾

يقول تعالى (وإذا قيل لهم) أى لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب (آمنوا بما أنزل الله) على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) أى يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك (ويكفرون بما وراءه) يعنى بما بعده (وهو الحق مصدقاً لما معهم) أى وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ (الحق مصدقاً لما معهم) منصوباً على الحال أى في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل ، فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ثم قال تعالى (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) أى إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم فلم قتلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها وأتم تعلمون صدقهم ؟ قتلتموهم بنياً وعناداً واستكباراً على رسل الله فلمستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهى كما قال تعالى (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون) وقال السدي في هذه الآية يعبرهم الله تبارك وتعالى (قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) وقال أبو جعفر بن جرير قل يا محمد لليهود بنى إسرائيل إذا قلت لهم

آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا لم تقتلون - إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله - أنبياء الله يامعشر اليهود وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم بل أمركم باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم وذلك من الله تكذيب لهم في قولهم نؤمن بما أنزل علينا وتعبير لهم (ولقد جاءكم موسى بالبينات) أى بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله وأنه لا إله إلا الله والآيات البينات هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر وتظليلهم بالعام والبن والسلوى والحجر وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها ثم اتخذتم العجل أى معبودا من دون الله في زمان موسى وأيامه ، وقوله من بعده أى من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل كما قال تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار) (وأنتم ظالمون) أى وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى (ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا إن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين)

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قُلُوبًا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه (ولهذا قالوا سمعنا وعصينا) وقد تقدم تفسير ذلك (وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ) قال عبد الرزاق عن قتادة (وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ) قال أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقال الإمام أحمد حدثنا عصام بن خالد حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن خالد بن محمد الثقفي عن بلال بن أبي الدرداء عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ : قال « حبك الشيء يعمى ويصم » ورواه أبو داود عن حيوة بن شريح عن بقية عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به ، وقال السدي أخذ موسى عليه السلام العجل فذبحه بالمبرد ثم ذراه في البحر ثم لم يبق بحر يجري يومئذ إلا وقع فيه شيء ثم قال لهم موسى اشربوا منه فشربوا فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب فذلك حين يقول الله تعالى (وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمارة بن عمير وأبي عبد الرحمن السلمي عن علي رضي الله عنه قال عمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبرد فبرده بها وهو على شاطئ نهر فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب ، وقال سعيد بن جبير (وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ) قال لما أحرق العجل برد ثم نسف فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعفران ، وحكى القرطبي عن كتاب القشيري أنه ما شرب أحد « منه » ممن عبد العجل إلا جن ثم قال القرطبي وهذا شيء غير ما ههنا لأن المقصود من هذا السياق أنه ظهر على شفاههم وجوههم والمذكور ههنا أنهم أشربوا في قلوبهم العجل يعنى في حال عبادتهم له ثم أنشد قول النابغة في زوجته عثمة تغلغل حب عثمة في فؤادي * فباديه مع الخافي يسير * تغلغل حيث لم يبلغ شراب

ولا حزن ولم يبلغ سرور * أكاد إذا ذكرت العهد منها * أطير لو أن إنسانا يطير وقوله (قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين) أى بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم إذ كفرتم بغاتم الرسل وسيد الأنبياء والرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة من تفضكم الموثيق وكفركم بآيات الله وعبادتكم العجل من دون الله

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ

يَتَمَنَوُهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ أَنْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

قال محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه يقول الله تعالى لنبى محمد ﷺ (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) أى ادعوا بالموت على أى الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ (ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) أى يعلمهم بما عندهم من العلم بل والكفر بذلك ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك مابق على الأرض يهودى إلا مات . وقال الضحاك عن ابن عباس فتمنوا الموت - فسلوا الموت وقال عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم الجزرى عن عكرمة قوله : فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . قال قال ابن عباس لو تمنى يهود الموت لماتوا . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا عثمان سمعت الأعمش قال لا أظنه إلا عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه ، وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس ، وقال ابن جرير فى تفسيره وبلغنا أن النبى ﷺ قال « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ (لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالا) » ، حدثنا بذلك أبو كريب حدثنا زكريا بن عدى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن يزيد الرقى حدثنا فرات عن عبد الكريم به ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار حدثنا سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن قال قول الله ما كانوا ليتمنوه بما قدمت أيديهم . قلت أرأيتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم تمنوا الموت أترام كانوا ميتين قال : لا والله ما كانوا ليموتوا ولو تمنوا الموت وما كانوا ليتمنوه وقد قال الله ما سمعت (ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) وهذا غريب عن الحسن ، ثم هذا الذى فسر به ابن عباس الآية هو التعين وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة ، وتقله ابن جرير عن قتادة وأبى العالية والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى ، ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فهم عليهم لعائن الله تعالى لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك ، فلما تأخروا علم كذبهم وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة وعثوهم وعنادهم إلى المباهلة ، فقال تعالى (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض والله لئن باهلتهم هذا النبى لا يبقى منكم عين تطرف ، فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يدهم صاغرون فضرها عليهم وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أميناً ، ومثل هذا المعنى أو قريب منه قول الله تعالى لنبى أن يقول للمشركين (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً) أى من كان فى الضلالة منا ومنكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه كما سيأتى تقريره فى موضعه إن شاء الله تعالى

وأما من فسر الآية على معنى (إن كنتم صادقين) أى فى دعواكم فتمنوا الآن الموت ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم ، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول ؟ فإنه قال القول فى تأويل قوله

تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس) الآية فهذه الآية مما احتج الله سبحانه
لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهرائي مهاجرة وفضح بها أبحارهم وعلماءهم وذلك أن الله تعالى أمر
نبيه صلى الله عليه وسلم إلى قضية (١) عادلة فيما كان بينه وبينهم من الخلاف كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من
النصارى إذ خالفوه في عيسى بن مريم عليه السلام وجادلوه فيه إلى فاصلة بينه وبينهم من الباهلة ، فقال لفريق
اليهود إن كنتم محقين فتمنوا الموت فإن ذلك غير ضاركم إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزل
من الله لكم لكي يعطيكم (٢) أمينيتكم من الموت إذا تمنيت فأنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبا وكدر عيشها
والفوز بجوار الله في جناته إن كان الأمر كما ترعمون من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا وإن لم تعطوها علم
الناس أنكم البطولون ونحن المحقون في دعوانا وانكشف أمرنا وأمركم لهم فامتعت اليهود من الإجابة إلى ذلك
لعلمها ، أنها إن تمت الموت هلكت فذهبت دنياها وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها كما امتنع فريق النصارى (الذين
جادلوا النبي ﷺ في عيسى إذ دعوا للباهلة من الباهلة) .

فهذا الكلام منه أوله حسن وآخره فيه نظر ، وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل إذ يقال إنه لا يلزم
من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أنهم يتمنون الموت فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح ونفى الموت
وكم من صالح لا يتمنى الموت بل يود أن يعمر ليزداد خيراً وترفع درجته في الجنة كما جاء في الحديث « خيركم من
طال عمره وحسن عمله » ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا فما أنتم تعتقدون أيها المسلمون أنكم أصحاب الجنة وأنتم
لا تتمنون في حال الصحة الموت ، فكيف تلموننا بما لا يلزمكم ؟ وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى ،
فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شيء من ذلك بل قيل لهم كلام نصف إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله
من دون الناس وأنكم أبناء الله وأحباؤه وأنكم من أهل الجنة وعن عداكم من أهل النار فباهلوا على ذلك وادعوا
على الكاذبين منكم أو من غيركم ، واعلموا أن الباهلة تستأصل الكاذب لاحالة ، فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا
عن الباهلة لما يعلمون من كذبهم واقترائهم وكتائبهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته وهم يعرفونه كما يعرفون
أبناءهم ويتحققونه ، فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم عليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة
وسميت هذه الباهلة تمياً لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل الناظر له ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه
وظهوره وكانت الباهلة بالموت لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء ما لهم بعد الموت ، ولهذا قال تعالى (ولن
يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) * ولتجدنهم أحرص الناس على حياة (أى على طول العمر لما
يعلمون من ما لهم السوء وعاقبتهم عند الله الخسارة لأن الدنيا سجن المؤمنين وجنة الكافر فهم يودون لو تأخروا عن مقام
الآخرة بكل ما أمكنهم وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم وهذا من
باب عطف الخاص على العام قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهادي عن سفيان عن الأعمش
عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ومن الذين أشركوا) قال الأعاجم ، وكذا رواه الحارث في مستدركه
من حديث الثوري وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه . قال وقد اتفقنا على سند تفسير الصحابي ، وقال الحسن البصري
ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . قال النافق أحرص الناس وأحرص من المشرك على حياة يود أحدهم أى يود أحد
اليهود كما يدل عليه نظم السياق ، وقال أبو العالية يود أحدهم أى أحد المجوس وهو يرجع إلى الأول لو يعمر ألف سنة
قال الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) قال هو كقول الفارسي
« ده هزار سال » يقول عشرة آلاف سنة . وكذا روى عن سعيد بن جبير نفسه أيضاً ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن
علي بن الحسن بن شقيق سمعت أبي يقول حدثنا أبو حمزة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس في قوله (يود أحدهم
لو يعمر ألف سنة) قال هو قول الأعاجم هزار سال نوروز ومهرجان (٣) وقال مجاهد (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة)
قال : حبت إليهم الخطيئة طول العمر وقال مجاهد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس

(١) هكذا بالأصل وفي تفسير الطبري أن يدعوهم وما بين القوسين آخر العبارة لم يوجد بالأصل وصحح من الطبري اه

(٢) عبارة ابن جرير في تفسيره بل إن أعطيتهم اه (٣) نص تفسير ابن جرير سال زه نوروز مهرجان حر اه

(وما هو بمنزلة من العذاب أن يعمر) أى وما هو بمنجيه من العذاب ، وذلك أن الشريك لا يرجو بعثاً بعد الموت فهو يحب طول الحياة وأن اليهودى قد عرف ماله فى الآخرة من الحزى بما ضيع ما عنده من العلم وقال العوفى عن ابن عباس (وما هو بمنزلة من العذاب أن يعمر) قال هم الذين عادوا جبرائيل ، قال أبو العالية وابن عمر ثما ذاك بمنجيه من العذاب ولا منجيه منه . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى هذه الآية يهود أحرص على الحياة من هؤلاء وقد ود هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة وليس ذلك بمنزلة من العذاب لو عمر كما عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً ، (والله بصير بما يعملون) أى خير بصير بما يعمل عباده من خير وشر وسيجازى كل عامل بعمله

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبرى رحمه الله أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولى لهم ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك فقال بعضهم إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر نبوته ﴿ ذكر من قال ذلك ﴾ حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه قال حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن ليعلمهن إلا نبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا عما شئتم ولكن اجعلوا لى ذمة وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم عن شئ ففرتموه لتتابعنى على الإسلام » فقالوا ذلك لك فقال رسول الله ﷺ « سلوا عما شئتم » قالوا أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن ، أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبى الأسمى فى التوراة ومن ولىه من الملائكة ؟ فقال النبى ﷺ « عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنى ؟ » فأعطوه ما شاء الله من عهد وميثاق فقال « نشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه فنذر الله نذراً لئن عافاه الله من مرضه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها » فقالوا اللهم نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اشهد عليهم (١) ، وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض وأن ماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله عز وجل وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرأ بإذن الله وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله عز وجل » قالوا اللهم نعم « قال اللهم اشهد ، وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبى الأسمى تنام عيناه ولا ينام قلبه » قالوا اللهم نعم قال « اللهم اشهد » قالوا أنت الآن فحدثنا من ولىك من الملائكة فعندها نجمعك أو نفارقك قال « فإن ولى جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو ولىه » قالوا فعندها نفارقك ولو كان ولىك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك قال « فما يمنعكم أن تصدقوه » ؟ قالوا إنه عدونا فأنازل الله عز وجل (قل من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه - الى قوله - لو كانوا يعلمون) فعندها باؤا بغضب على غضب وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى النضر هاشم بن القاسم وعبد الرحمن بن حميد فى تفسيره عن أحمد بن يونس كلاهما عن عبد الحميد بن بهرام به ، ورواه أحمد أيضاً عن الحسين بن محمد الروزى عن عبد الحميد بنحوه وقد رواه محمد بن إسحق بن يسار ، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين عن شهر بن حوشب فذكره مرسلًا وزاد فيه قالوا فأخبرنا عن الروح قال « فأناشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل وهو الذى يأتينى » قالوا اللهم نعم ولكنه عدو لنا وهو ملك إنما يأتى بالشدة وسفك الدماء فلولا

(١) عبارة تفسير ابن جرير « أشهد الله عليكم » إلخ

ذلك اتباعك فأمر الله تعالى فيهم (قل من كان عدواً لجبريل - إلى قوله - لا يعلمون) وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا عبد الله بن الوليد العجلي عن بكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أقبلت يهود على رسول الله ﷺ فقالوا يا أبا القاسم أخبرنا عن خمسة أشياء فإن أنبأنا بهم عرفنا أنك نبي واتبعتك فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال والله على ما نقول وكيل قال «هاتوا» قالوا فأخبرنا عن علامة النبي؟ قال «تنام عيناه ولا ينام قلبه» قالوا أخبرنا كيف تؤث المرأة وكيف تذكر قال «يلتقي الماءان فإذا ماء الرجل ماء المرأة أذ كرت وإذا علاماء المرأة ماء الرجل أنثت» قالوا أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه قال «كان يشتكى عرق النساء فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا» قال أحمد قال بعضهم يعني الإبل فحرم لحومها قالوا صدقت قالوا أخبرنا ما هذا الرعد قال «ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب يسديه أو في يديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى» قالوا فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال «صوته» قالوا صدقت قالوا إنما بقيت واحدة وهي التي تابعك إن أخبرتنا بها أنه ليس من نبي الأول ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك؟ قال «جبريل عليه السلام» قالوا جبريل ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان فأمر الله تعالى (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) إلى آخر الآية، ورواه الترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن الوليد، وقال الترمذي حسن غريب. وقال سنيدي تفسيره عن حجاج بن محمد عن ابن جريج أخبرني القاسم بن أبي بزة أن يهود سألوا النبي ﷺ عن صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي قال «جبرائيل» قالوا فإنه عدو لنا ولا يأتي إلا بالحرب والشدة والقتال فنزلت (قل من كان عدواً لجبريل) الآية قال ابن جرير قال مجاهد قال يهود يا محمد ما نزل جبريل إلا بشدة وحرب وقتال فإنه لنا عدو فنزل (قل من كان عدواً لجبريل) الآية قال البخاري قوله تعالى (من كان عدواً لجبريل) قال عكرمة جبر وميك وإسراف: عبد إيل: الله: حدثنا عبد الله بن منير سمع عبد الله بن بكر حدثنا حميد عن أنس بن مالك، قال سمع عبد الله بن سلام يقول مقدم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترق فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه، قال «أخبرني بهذه جبرائيل أنفا» قال جبريل؟ قال «نعم» قال ذلك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية (من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك) «وأما أول أشراط الساعة فنار تحترق الناس من الشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت؟ وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة نزع» قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. يارسول الله إن اليهود قوم بهت وإنهم إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله ﷺ «أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا قال «أرايتم إن أسلم» قالوا أعاذة الله من ذلك نفرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فقالوا هو شرنا وابن شرنا واتقصوه فقال هذا الذي كنت أخاف يارسول الله - انفرد به البخاري من هذا الوجه وقد أخرجه من وجه آخر عن أنس بنحوه وفي صحيح مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قريب من هذا السياق كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى وحكاية البخاري كما تقدم عن عكرمة هو المشهور أن إيل هو الله وقد رواه سفيان الثوري عن خفيف عن عكرمة ورواه عبد بن حميد عن إبراهيم ابن الحكم عن أبيه عن عكرمة، ورواه ابن جرير عن الحسين بن يزيد الطحان عن اسحق بن منصور عن قيس ابن عاصم عن عكرمة أنه قال إن جبريل اسمه عبد الله وميكائيل اسمه عبد الله. إيل الله ورواه يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس مثله سواء وكذا قال غير واحد من السلف كما سيأتي قريباً ومن الناس من يقول إيل عبارة عن عبد والكلمة الأخرى هي اسم الله لأن كلمة إيل لا تتغير في الجميع فوزانه عبد الله عبد الرحمن عبد الملك عبد القدوس عبد السلام عبد الكافي عبد الجليل فبعد موجودة في هذا كله واختلفت الأسماء المضاف إليها وكذلك جبرائيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ونحو ذلك وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف والله أعلم

ثم قال ابن جرير وقال آخرون بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عمر بن الخطاب في أمر النبي ﷺ (ذكر من قال ذلك) حدثني محمد بن المثنى حدثني ربيع بن علي عن داود بن أبي هند عن الشعبي ، قال نزل عمر الروحاء فرأى رجلا يتدرون أحجاراً يصلون إليها فقال ما بال هؤلاء ؟ قالوا يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا ، قال فكفر ذلك ، وقال أيما رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركته الصلاة بواد صلاها ثم ارتحل فتركه ثم أنشأ يحدثهم فقال كنت أشهد اليهود يوم مدراسهم فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ومن القرآن كيف يصدق التوراة فيينا أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك (قلت) ولم ذلك قالوا لأنك تغشانا وتأتينا فقلت إني أتيتكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق القرآن ، قالوا ومر رسول الله ﷺ فقالوا يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به قال فقلت لهم عند ذلك نشدتكم بالله الذي لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقه وما استودعكم من كتابه هل تعلمون أنه رسول الله ؟ قال فسكتوا فقال لهم عالمهم وكبيرهم أنه قد غلظ عليكم فأجيئوه قالوا فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت قال أما إذا نشدتنا بما نشدتنا فانا نعلم أنه رسول الله فقلت ويحكم إذا هلكتم ، قالوا إنا لم نهلك ، قلت كيف ذلك وأنت تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه ، قالوا إن لنا عدوا من الملائكة وسلمنا من الملائكة وإنه قرن بنبوتة عدونا من الملائكة قلت ومن عدوكم ومن سلمكم ؟ قالوا عدونا جبريل وسلمنا ميكائيل قالوا إن جبرائيل ملك الفضاظة والغلظة والإعصار والتشديد والعذاب ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا ، قال قلت وما منزلتهما من ربهما عز وجل ؟ قالوا أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، قال فقلت فوالذي لا إله إلا هو إنهما والذي بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما وما ينبغي للجبرائيل أن يسلم عدو ميكائيل وما ينبغي لميكائيل أن يسلم عدو جبرائيل قال ثم قلت فأتبع النبي صلى الله عليه وسلم فلحقته وهو خارج من خوخة لبي فلان فقال « يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن قبل » فقرأ علي (من كان عدو الجبرائيل فانه نزله على قلبك بإذن الله حتى قرأ الآيات : قال قلت بأبي وأمي أنت يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد جئت أنا أريد أن أخبرك وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج : حدثنا أبو أسامة عن مجالد أنبأنا عامر قال انطلق عمر بن الخطاب إلى اليهود فقال أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجدون محمداً في كتبكم قالوا نعم ، قال فما يمنعكم أن تتبعوه قالوا إن الله لم يبعث رسولا إلا جعل له من الملائكة كفلا وإن جبرائيل كفيل محمداً وهو الذي يأتيه وهو عدونا من الملائكة وميكائيل سلمنا لو كان ميكائيل الذي يأتيه أسلمنا ، قال فإني أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما منزلتهما عند الله تعالى قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله . قال عمر وإني أشهد ما ينزلان إلا بإذن الله وما كان ميكائيل ليسلم عدو جبرائيل ليسلم عدو ميكائيل فيينا هو عندهم إذ مر النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هذا صاحبك يا ابن الخطاب فقام إليه عمر فأتاه وقد أنزل الله عز وجل (من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإني أنزل الله عدو للكافرين) وهذان الإسنادان يدلان على أن الشعبي حدث به عن عمر ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر فإنه لم يدرك زمانه والله أعلم : وقال ابن جرير حدثنا بشير حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة قال ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود فلما انصرف رجوا به فقال لهم عمر أما والله ما جئتكم لحبكم ولا لرغبة فيكم ولكن جئت لأسمع منكم فسألهم وسألوه ، فقالوا من صاحب صاحبكم ؟ فقال لهم جبرائيل فقالوا ذاك عدونا من أهل السماء يطعم محمداً على سرنا وإذا جاء بالحرب والسنة ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل وكان إذا جاء جاء بالخصب والسلم ، فقال لهم عمر هل تعرفون جبرائيل وتكفرون محمداً ﷺ ففارقهم عمر عند ذلك وتوجه نحو النبي ﷺ ليحدثه حديثهم فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية (قل من كان عدو لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) الآيات .

ثم قال حدثني المثنى حدثنا آدم حدثنا أبو جعفر حدثنا قتادة . قال بلغنا أن عمر أقبل إلى اليهود يوماً فذكر نحوه

وهذا في تفسير آدم وهو أيضاً منقطع وكذلك رواه أسباط عن السدي عن عمر مثل هذا أو نحوه وهو منقطع أيضاً وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا عبد الرحمن يعني الدستلي حدثنا أبو جعفر عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن يهوديا لقي عمر بن الخطاب فقال إن جبرائيل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا فقال عمر (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) قال فنزلت على لسان عمر رضى الله عنه ، ورواه عبد بن حميد عن أبي النضر هاشم بن القاسم عن أبي جعفر هو الرازي : وقال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثني هشيم أخبرنا حصين بن عبد الرحمن عن ابن أبي ليلى في قوله تعالى (من كان عدوا لجبريل) قال قالت اليهود للمسلمين لو أن ميكائيل كان هو الذي ينزل عليكم اتبعناكم فإنه ينزل بالرحمة والغيث ، وإن جبرائيل ينزل بالعذاب والنقمة فإنه عدو لنا ، قال فنزلت هذه الآية حدثنا يعقوب أخبرنا هشيم أخبرنا عبد الملك عن عطاء بنحوه ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في قوله (قل من كان عدوا لجبريل) قال قالت اليهود إن جبرائيل عدو لنا لأنه ينزل بالشدة والسنة وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب فجبرائيل عدو لنا . فقال الله تعالى (من كان عدوا لجبريل) الآية.

وأما تفسير الآية فقوله تعالى (قل من كان عدوا لجبريل) فإنه نزل على قلبك بإذن الله ، أى من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالله كرا الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك فهو رسول من رسل الله ملكي ، ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل كما قال تعالى (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) الآيتين فحكم عليهم بالكفر المحقق إذا آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم ، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو لله لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه وإنما ينزل بأمر ربه كما قال (وما تنزل إلا بأمر ربك) الآية وقال تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين) وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب» ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه ، فقال تعالى (من كان عدوا لجبريل فإنه نزل على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه) أى من الكتب المتقدمة (وهدى وبشرى للمؤمنين) أى هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة وليس ذلك إلا للمؤمنين كما قال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) الآية وقال تعالى (وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) الآية ثم قال تعالى (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) يقول تعالى من عاداى وملائكته ورسلى . ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر كما قال تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) . (وجبريل وميكال) وهذا من باب عطف الخاص على العام فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل ثم خصصا بالله كرا لأن السياق في الانتصار لجبرائيل وهو السفير بين الله وأنبيائه وقرن معه ميكائيل في اللفظ لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم وميكائيل ولهم فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً ولأنه أيضاً ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان كما قرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر ولكن جبرائيل أكثر وهى وظيفته وميكائيل موكل بالنبات والقطر هكذا بالهدى وهذا بالرزق كما أن إسرئيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرئيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» وقد تقدم ما حكاه البخاري ورواه ابن جرير عن عكرمة وغيره أنه قال جبر ، وميك ، وإسراف : عبيد ، وإيل : الله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الأعمش عن إسماعيل بن أبي رجا عن عمير مولى ابن عباس عن ابن عباس قال : إنما كان قوله جبرائيل كقوله عبد الله وعبد الرحمن ، وقيل جبر : عبد ، وإيل : الله . وقال محمد بن إسحاق عن الزهري عن علي بن الحسين قال : أتدرون ما اسم جبرائيل من أسمائكم قلنا لا ، قال : اسمه عبد الله وكل اسم مرجعه إلى إيل فهو إلى الله عز

وجل . قال ابن أبي حاتم وروى عن عكرمة ومجاهد والضحاك ويحيى بن يعمر نحو ذلك . ثم قال حدثني أبي حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثني عبد العزيز بن عمير قال : اسم جبرائيل في الملائكة خادم الله قال : فحدثت به أبا سليمان الداراني فانتفض ، وقال : لهذا الحديث أحب إلى من كل شيء في دفتر كان بين يديه . وفي جبرائيل وميكايل لغات وقرأت تذكر في كتب اللغة والقراآت ولم نطول كتابنا بهذا بسرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنى عليه ، أو يرجع الحكم في ذلك إليه وبالله الثقة وهو المستعان ، وقوله تعالى (فإن الله عدو للكافرين) فيه إيقاع المظهر مكان المضمحل حيث لم يقل فإنه عدو بل قال : (فإن الله عدو للكافرين) كما قال الشاعر :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء * سبق الموت ذا الفنى والفقير

وقال الآخر : ليت الغراب غداة ينعب دائما * كان الغراب مقطوع الأوداج

وإنما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره وإعلامهم أن من عادى وليا لله فقد عادى الله ومن عادى الله فإن الله عدو له ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة كما تقدم الحديث « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحاربة » وفي الحديث الآخر « إني لأثار لأوليائي كما يثار الليث الحرب » وفي الحديث الصحيح « من كنت خصمه خصمته »

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ * أَوْ كَلَّمَ اللَّهُ نَبِيَّهُ فَرِيقَ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَآتَقَوْا لِمَوْبِئِهِ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) الآية أى أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دلالات على نبوتك وتلك الآيات هى ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل والنبا عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلمائهم وما حرفة أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التى كانت فى التوراة فأطلع الله فى كتابه الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ ، فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغى إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التى وصف من غير تعلم تعلمه من بشر ولا أخذ شيئا منه عن آدمي ، كما قال الضحاك عن ابن عباس (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) يقول فأنت تتلو عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتابا وأنت تخبرهم بما فى أيديهم على وجهه ، يقول الله تعالى لهم فى ذلك عبرة وبيان وعليهم حجة لو كانوا يعلمون . وقال محمد بن إسحق : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة وأوسعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : قال ابن صوريا القطويفي لرسول الله ﷺ يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك فأنزل الله فى ذلك من قوله (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ وذكرهم ما أخذ عليهم من الشاق وما

عهد إليهم في محمد ﷺ : والله ما عهد إلينا في محمد وما أخذ علينا ميثاقاً . فأنزل الله تعالى (أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم) وقال الحسن البصري : في قوله (بل أكثرهم لا يؤمنون) قال نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه يعاهدون اليوم وينقضون غداً . وقال السدي : لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ وقال قتادة . نبذه فريق منهم ، أي نقضه فريق منهم . وقال ابن جرير أصل النبذ الطرح والإلقاء ومنه ممي اللقيط منبذاً ومنه ممي النبذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء . قال أبو الأسود الدؤلي :

نظرت إلى عنوانه فنبذته * كنبذك نعلأ خلقت من نعالكا

قلت فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهد التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة الذي في كتبهم نعتهم وصفته وأخباره وقد أمروا فيها باتباعه وموازرته ونصرته كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) الآية وقال ههنا (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) الآية أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم ، أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه ولهذا أرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسحروه في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر تحت راعوفة بيثر أروان وكان الذي تولى ذلك منهم رجل يقال له لييد بن الأعصم لعنه الله وقبحه فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ وشفاه منه وأثقه كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كما سيأتي بيانه . قال السدي (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) قال : لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن فذلك قوله (كأنهم لا يعلمون) وقال قتادة في قوله (كأنهم لا يعلمون) قال : إن القوم كانوا يعلمون ولكنهم نبذوا علمهم وكنموه وجحدوا به وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى (واتبعوا ما تنلو الشياطين) الآية وكان حين ذهب ملك سليمان ارتد فقام من الجن والإنس واتبعوا الشهوات ، فلما أرجع الله إلى سليمان ملكه وقام الناس على الدين كما كان وان سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه وتوفي سليمان عليه السلام حدثان ذلك فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان وقالوا هذا كتاب من الله نزل على سليمان فأخفاه عنا فأخذوا به فجعلوه ديناً فأنزل الله تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) الآية واتبعوا الشهوات التي كانت تنلو الشياطين وهي المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر الله . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الأعظم وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً وقالوا هذا الذي كان سليمان يعمل بها قال : فأكفره جهال الناس وسبوه ووقف علماء الناس فلم يزل جهال الناس يسبون حتى أنزل الله على محمد ﷺ (واتبعوا ما تنلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) وقال ابن جرير : حدثني أبو السائب سلمة بن جنادة السوائي حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان سليمان عليه السلام إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتي شيئاً من نسائه أعطى الجرادة وهي امرأة خاتمه ، فلما أراد الله أن يبتلي سليمان عليه السلام بالذي ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال هاتي خاتمي فأخذه ولبسه فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس . قال فجاءها سليمان فقال لها هاتي خاتمي فقالت كذبت لست سليمان ، قال فعرف سليمان أنه بلاء ابتلى به . قال فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفر فدفنوها تحت كرسى سليمان ثم أخرجوها وقرأوها على الناس وقالوا إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب ، قال فبرىء الناس من سليمان وكفروه حتى بعث الله محمداً ﷺ فأنزل عليه (وما كفر

سليمان ولكن الشياطين كفروا) ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن حصين بن عبد الرحمن عن عمران وهو الحارث قال: بينا نحن عند ابن عباس رضى الله عنهما إذ جاء رجل فقال له من أين جئت، قال من العراق قال من أيه؟ قال من الكوفة قال فما الخبر؟ قال تركتهم يتحدثون أن عليا خارج اليهم ففزع ثم قال ما تقول لأبالك؟ لو شعرنا ما كحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه، أما إني سأحدثكم عن ذلك، إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء فيجىء أحدهم بكلمة حق قد سمعها فإذا جرت منه وصدق كذب معها سبعين كذبة قال فتشربها قلوب الناس، قال فأطاع الله عليها سليمان عليه السلام فدفنها تحت كرسيه، فلما توفي سليمان عليه السلام قام شيطان الطريق فقال هل أدلكم على كنز له المنع الذي لا كنز له مثله؟ تحت الكرسى. فأخرجوه فقال هذا سحر فتناسخها الأمم حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق فأنزله الله عز وجل (واتبعوا ما تاتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) الآية وروى الحاكم في مستدركه عن أبي زكريا العنبري عن محمد بن عبد السلام عن إسحق ابن إبراهيم عن جرير^(١) به وقال السدي في قوله تعالى (واتبعوا ما تاتلو الشياطين على ملك سليمان) أي على عهد سليمان قال كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيستمعون من كلام الملائكة ما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة فاكتب الناس ذلك الحديث في الكتب وفشى ذلك في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسى إلا احترق، وقال لا أسمع أحدا يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه، فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان وخلف من بعد ذلك خلف تمثل الشيطان في صورة إنسان ثم أتى تقرأ من بني إسرائيل فقال لهم هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً^(٢) قالوا نعم قال فاحفروا تحت الكرسى فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته فقالوا له فاذن فقال لا ولكني ههنا في أيديكم فإن لم تجدوه فاقنوني فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلما أخرجوها قال الشيطان إن سليمان إنما كان يضبط الانس والشياطين والطير بهذا السحر ثم طار وذهب وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) وقال الربيع بن أنس إن اليهود سألو محمداً ﷺ زماناً عن أمور من التوراة لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله سبحانه وتعالى ماسألوه عنه فيخصمهم فلما رأوا ذلك قالوا هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا وأنهم سألوه عن السحر وخاصموه به فأنزله الله عز وجل (واتبعوا ما تاتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك فدفنوه تحت كرسى مجلس سليمان وكان عليه السلام لا يعلم الغيب فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخذعوا الناس وقالوا هذا علم كان سليمان يكتبه ويحسد الناس عليه فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد خرجوا^(٣) وقد أدحض الله حجتهم، وقال مجاهد في قوله تعالى (واتبعوا ما تاتلو الشياطين على ملك سليمان) قال كانت الشياطين تستمع الوحي فاسمعوا من كلمة زادوا فيها مائتين مثلها فأرسل سليمان عليه السلام إلى ما كتبوا من ذلك فلما توفي سليمان وجدته الشياطين وعلمته الناس وهو السحر وقال سعيد بن جبير كان سليمان يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر فيأخذونه منهم فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزائنه فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه فدنت إلى الإنس فقالوا لهم أتدرون ما العلم الذي كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا نعم قالوا فإنه في بيت خزائنه وتحت كرسيه فاستتار به الإنس واستخرجوه وعملوا بها فقال أهل الحجاز كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر فأنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى (واتبعوا ما تاتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) وقال محمد بن إسحق بن يسار عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود

(١) كذا في الأصل ولم يذكر المروي فإن كان عين الأول فالواجب أن يقال ورواه الحاكم أو يقال في آخره: مثله. (٢) أي لا ينفد بالأكل منه (٣) في تفسير ابن جرير وقد حزنوا.

عليه السلام فكتبوا أصناف السحر من كان يجب أن يبلغ كذا وكذا ليفعل كذا وكذا حتى إذا صنفوا (١) أصناف السحر جعلوه في كتاب ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان وكتبوا في عنوانه : هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم . ثم دفنوه تحت كرسية واستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا فلما عثروا عليه قالوا والله ما كان ملك سليمان إلا بهذا فأفشوا السحر في الناس فتعلموه وعلموه فليس هو في أحد أكثر منه في اليهود لعنهم الله فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما نزل عليه من الله سليمان ابن داود وعده فيمن عد من المرسلين قال من كان بالمدينة من اليهود ألا تعجبون من محمد يزعم أن ابن داود كان نبياً والله ما كان إلا ساحراً وأنزل الله في ذلك من قولهم (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) الآية * وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا حسين بن الحجاج عن أبي بكر عن شهر بن حوشب قال لما سلب سليمان ملكه كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سليمان فكتبت من أراد أن يأتي كذا وكذا فليستقبل الشمس وليقل كذا كذا ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا ، فكتبت وجعلت عنوانه . هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود عليهما السلام من ذخائر كنوز العلم . ثم دفنه تحت كرسية فلما مات سليمان عليه السلام قام إبليس لعنه الله خطيباً فقال يا أيها الناس إن سليمان لم يكن نبياً إنما كان ساحراً فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته ، ثم دهمهم على المكان الذي دفن فيه فقالوا والله لقد كان سليمان ساحراً أهذا سحره بهذا تعبدنا وبهذا قهرنا فقال المؤمنون بل كان نبياً مؤمناً فلما بعث الله النبي محمداً صلى الله عليه وسلم وذكر داود وسليمان فقالت اليهود انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل يذكر سليمان مع الأنبياء إنما كان ساحراً يركب الريح فأنزل الله تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان) الآية * وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني : حدثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت عمران بن جرير عن أبي مجلز قال أخذ سليمان عليه السلام من كل دابة عهداً فإذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد خلى عنه فزاد الناس السجع والسحر فقالوا هذا يعمل به سليمان بن داود عليهما السلام فقال الله تعالى (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) * وقال ابن أبي حاتم حدثنا عصام بن رواد حدثنا آدم حدثنا المسعودي عن زياد بن مولى ابن مصعب عن الحسن (واتبعوا ما تتلو الشياطين) قال ثلث الشعر وثلث السحر وثلث الكهانة ، وقال حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار الواسطي حدثني سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان) واتبعته اليهود على ملكه وكان السحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم والله المهادي . وقوله تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان) أي واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفهم لرسول الله محمد ﷺ ماتلوه الشياطين أي ما ترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين على ملك سليمان وعداه بعلى لأنه تضمن تلوه تكذب ، وقال ابن جرير « على » ههنا بمعنى في أي تتلو في ملك سليمان ونقله عن ابن جريج وابن اسحق (قلت) والتضمن أحسن وأولى والله أعلم . وقول الحسن البصري رحمه الله : وكان السحر قبل زمان سليمان بن داود - صحيح لا شك فيه لأن السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام وسليمان بن داود بعده كما قال تعالى (ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى) الآية ثم ذكر القصة بعدها وفيها (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة) وقال قوم صالح وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام لنبيهم صالح إنما (أنت من السحرة) أي المسحورين على المشهور : وقوله تعالى (وما أنزل على الملوكين بابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولان إنما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين الرء وزوجه) اختلف الناس في هذا المقام فذهب بعضهم إلى أن « ما » نافية أعنى التي في قوله (وما أنزل على الملوكين) قال القرطبي ما نافية ومعطوف على قوله (وما كفر سليمان) ثم قال (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملوكين) وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله

وجعل قوله (هاروت وماروت) بدلا من الشياطين قال وضح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الاثنين كما في قوله تعالى (فإن كان له إخوة) أو لكونهما لهما أتباع أو ذكرنا من بينهم لتمردهما تقدير الكلام^(١) عنده يعلمون الناس السحر يابل هاروت وماروت . ثم قال وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه ، وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (وما أنزل على الملكين يابل) الآية يقول لم ينزل الله السحر وبإسناده عن الربيع بن أنس في قوله (وما أنزل على الملكين) قال ما أنزل الله عليهما السحر قال ابن جرير فتأويل الآية على هذا (واتبعوا ماتلو الشياطين على ملك سليمان) من السحر وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر يابل هاروت وماروت فيكون قوله يابل هاروت وماروت من المؤخر الذي معناه التقديم^(٢) قال فإن قال لنا قائل كيف وجه تقديم ذلك قيل وجه تقديمه أن يقال (واتبعوا ماتلو الشياطين على ملك سليمان) من السحر وما كفر سليمان وما أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر يابل هاروت وماروت فيكون معناه بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام لأن سحرة اليهود فيما ذكرت كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فأكذبهم الله بذلك وأخبر بيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر وبرأسليان عليه السلام مما نخلوه من السحر وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين وأنها تعلم الناس ذلك يابل وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم . هذا لفظه بحروفه وقد قال ابن أبي حاتم حدثت عن عبيد الله بن موسى أخبرنا فضيل بن مرزوق عن عطية (وما أنزل على الملكين) قال . ما أنزل الله على جبريل وميكائيل السحر قال ابن أبي حاتم وأخبرنا الفضل بن شاذان أخبرنا محمد بن عيسى أخبرنا يعلى بن عيسى أخبرنا بكر يعني ابن مصعب أخبرنا الحسن بن أبي جعفر أن عبد الرحمن بن أبيزى كان يقرؤها (وما أنزل على الملكين داود وسليمان) وقال أبو العالية لم ينزل عليهما السحر يقول علما الإيمان والكفر فالسحر من الكفر فهما ينهيان عنه أشد النبي رواه ابن أبي حاتم ، ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول وإن ما معنى الذي وأطال القول في ذلك وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض وأذن لهما في تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على السنة الرسل وادعى أن هاروت وماروت مطيعان في تعليم ذلك لأنهما امثالاً ما أمر به وهذا الذي سلكه غريب جداً وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن كما زعمه ابن حزم وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن الضحاك بن مزاحم أنه كان يقرؤها (وما أنزل على الملكين) ويقول هما علجان من أهل بابل ووجه أصحاب هذا القول الإنزال بمعنى الخلق لا بمعنى الإيجاد كما في قوله تعالى (وما أنزل على الملكين) كما قال تعالى (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) (وينزل لكم من السماء رزقاً) وفي الحديث «ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء» وكما يقال «أنزل الله الخير والشر» وحكي القرطبي عن ابن عباس وابن أبيزى والحسن البصري أنهم قرءوا (وما أنزل على الملكين) بكسر اللام ، قال ابن أبيزى وهذا داود وسليمان قال القرطبي فعلى هذا تكون مانافية أيضاً وذهب آخرون إلى الوقف على قوله (يعلمون الناس السحر) وما نافية : قال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا الليث عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد وسأله رجل عن قول الله (يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين يابل هاروت وماروت) فقال الرجلان يعلمان الناس ما أنزل عليهما ويعلمان الناس ما لم ينزل عليهما فقال القاسم ما أبالي أيتهما كانت ثم روى عن يونس عن أنس بن عياض عن بعض أصحابه أن القاسم قال في هذه القصة لأبالي أي ذلك كان إني آمنت به . وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان ، وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده رحمه الله كما سنورده إن شاء الله وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا فيكون تخصيصاً لهما فلا تعارض حينئذ كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق وفي قول إنه كان من الملائكة . لقوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا

(١) قوله تقدير الكلام الخ كذا بالنسخ التي بأيدينا ولا يخفى أنه لا يتم التقدير الأبد كالمبدل منه على إعرابه وهو قوله ولكن الشياطين ولعله سقط من الناسخ اهـ (٢) في تفسير ابن جرير التقديم

إبليس أي) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك مع أن شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخف مما وقع من إبليس لعنه الله تعالى . وقد حكاه القرطبي عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأبحار والسدي والسكبي ﴿ ذكر الحديث الوارد في ذلك إن صح سنده ورفعته وبيان الكلام عليه ﴾

قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده أخبرنا يحيى بن بكير حدثنا زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة أي رب (أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) قالوا ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم قال الله تعالى للملائكة هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان قالوا ربنا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك فقالا والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً ، فذهبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تقتلا هذا الصبي فقالا لا والله لا تقتله أبداً ، فذهبت ثم رجعت بقدرح خمر تحمله فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تشربا هذا الخمر ، فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبي فلما أفاقا قالت المرأة والله ما تركتما شيئاً أبيتاه على إلا قد فعلتاه حين سكرتما فخيروا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاخترتا عذاب الدنيا . وهكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه عن الحسن بن سفيان عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن بكير - به وهذا حديث غريب من هذا الوجه ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين إلا موسى بن جبير هذا وهو الأنصاري السامي مولاهم المديني الحذاء وروى عن ابن عباس وأبي أمامة بن سهل بن حنيف ونافع وعبد الله بن كعب بن مالك وروى عنه ابنه عبد السلام وبكر بن مضر وزهير بن محمد وسعيد بن سلمة وعبد الله بن لميعة وعمرو بن الحارث ويحيى بن أيوب : وروى له أبو داود وابن ماجه وذكره ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل ولم يحك فيه شيئاً من هذا ولا هذا فهو مستور الحال^(١) وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، وروى له متابع من وجه آخر عن نافع كما قال ابن مردويه حدثنا دعلج ابن أحمد حدثنا هشام بن علي بن هشام حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا سعيد بن سلمة حدثنا موسى بن سرجس عن نافع عن ابن عمر سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول فذكره بطوله ، وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله حدثنا القاسم أخبرنا الحسين وهو سنيدي بن داود صاحب التفسير أخبرنا الفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن نافع قال سافرت مع ابن عمر فلما كان من آخر الليل قال يا نافع انظر طلعت الحمراء ؟ قلت لا مرتين أو ثلاثاً ثم قلت قد طلعت قال لا مرحباً بها ولا أهلاً قلت سبحان الله نجم مسخر سامع مطيع : قال ما قلت لك إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قال : قال لي رسول الله ﷺ « إن الملائكة قالت يارب كيف صبرك على بنى آدم في الخطايا والذنوب قال إني ابتليتهم وعافيتكم قالوا لو كنا مكانهم ماعصيناك ، قال فاخترنا ملكين منكم قال فلم يألوا جهداً أن يختاروا فاخترنا هاروت وماروت » وهذا أيضاً غريبان جداً . وأقرب ما يكون في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأبحار عن النبي صلى الله عليه وسلم كما قال عبد الرزاق في تفسيره عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأبحار قال ذكرت الملائكة أعمال بنى آدم وما يأتون من الذنوب ف قيل لهم اختاروا منكم اثنين فاخترنا هاروت وماروت فقال لهما إني أرسل إلى بنى آدم رسلاً وليس بيني وبينكم رسول انزلا لا تشركا بي شيئاً ولا تزنيا ولا تشربا الخمر ، قال كعب فوالله ما أفسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه ، رواه ابن جرير من طريقين عن عبد الرزاق به ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن عصام عن مؤمل عن سفيان الثوري به ورواه ابن جرير أيضاً حدثني الثقي أخبرنا المعلى وهو ابن أسد أخبرنا عبد العزيز بن الحنار عن موسى بن عقبة حدثني سالم أنه سمع عبد الله يحدث عن كعب الأبحار فذكره فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الاسنادين المتقدمين وسالم أثبت في أبيه من مولاه نافع فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأبحار عن كتب بنى إسرائيل والله أعلم

(١) قال ابن حبان : كان يخطئ ويخالف وقال ابن القطان لا يعرف حاله اهـ من تهذيب التهذيب .

﴿ ذكر الآثار الواردة في ذلك عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين ﴾

قال ابن جرير : حدثني الثني حدثنا الحجاج أخبرنا حماد عن خالد الحذاء عن عمير بن سعيد قال : سمعت علياً رضى الله عنه يقول كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس وإنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت فراوداها عن نفسها فأبت عليهما إلا أن يعلمها الكلام الذي إذا تكلم به أحد يعرج به إلى السماء فعلمها فتكلمت به فعرجت إلى السماء ففسخت كوكباً — وهذا الإسناد رجاله ثقات وهو غريب جداً — وقال ابن أبي حاتم أخبرنا الفضل بن شاذان أخبرنا محمد بن عيسى أخبرنا إبراهيم بن موسى أخبرنا معاوية عن أبي خالد عن عمير بن سعيد عن علي رضى الله عنه . قال هما ملكان من ملائكة السماء ، يعنى (وما أنزل على الملكين) ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره بسنده عن مغيث عن مولاة جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي مرفوعاً وهذا لا يثبت من هذا الوجه . ثم رواه من طريقين آخرين عن جابر عن أبي الطفيل عن علي رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لمن الله الزهرة فإنها هي التي فتنت الملكين هاروت وماروت » وهذا أيضاً لا يصح وهو منكر جداً والله أعلم . وقال ابن جرير : حدثني الثني بن إبراهيم أخبرنا الحجاج بن منهال حدثنا حماد عن علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالاً جميعاً لما كثر بنو آدم وعصوا دعت الملائكة عليهم والأرض والجبال ربنا لا تمهلهم فأوحى الله إلى الملائكة إني أزلت الشهوة والسيطان من قلوبكم وأنزلت الشهوة والسيطان في قلوبهم ولونزلتم لعلتم أيضاً . قال فحدثوا أنفسهم أن لو ابتلوا اعتصموا فأوحى الله إليهم أن اختاروا ملكين من أفضلكم فاخاروا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض وأنزلت الزهرة إليهما في صورة امرأة من أهل فارس يسمونها بيذخت ، قال فوقعا بالخطيئة فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فلما وقعا بالخطيئة استغفروا لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، فخيرنا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاخارنا عذاب الدنيا . وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقي أخبرنا عبد الله يعنى ابن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن المنهال ابن عمرو ويونس بن خباب عن مجاهد . قال كنت نازلاً على عبد الله بن عمر في سفر ، فلما كان ذات ليلة قال لفلانة انظر هل طلعت الحمراء لامرئياً بها ولا أهلاً ولا حياًها الله هي صاحبة الملكين ، قالت الملائكة يارب كيف تدع عصاة بني آدم وهم يسفكون الدم الحرام وينتهكون محارمك ويفسدون في الأرض قال إني ابتليتكم ففعل إن ابليتكم بمثل الذي ابتليتكم به فاعلمت كالأذى يفعلون ، قالوا لا ، قال : فاخاروا من خياركم اثنين فاخاروا هاروت وماروت ، فقال لهما إني مهبطكما إلى الأرض وعاهد إليكما أن لا تشركا ولا تنزنا ولا تخونا فأهبطا إلى الأرض وألقي عليهما الشهوة وأهبطت لهما الزهرة في أحسن صورة امرأة فعرضت لهما فراوداها عن نفسها ، فقالت إني على دين لا يصح لأحد أن يأتيه إلا من كان على مثله ، قالوا وما دينك ، قالت المجوسية ، قالوا الشريك هذا شيء لا تقر به فمكثت عنهما ماشاء الله تعالى . ثم تعرضت لهما فراوداها عن نفسها . فقالت ماشئنا غير أن لي زوجاً وأنا أكره أن يطلع علي هذا مني فأفتضح فإن أقرتني لى بدني وشرطتني لى أن تصعدا بي إلى السماء فعلت فأقرا لهما بدنيها وأتياها فيما يريان ثم صعدا بها إلى السماء فلما اتياها إلى السماء اختطفتهما منها وقطعت أجنحتهما فوقعا خائفين ناديين ييكبان وفي الأرض نبي يدعو بين الجمعتين فإذا كان يوم الجمعة أجيب . فقالوا : لو أتينا فلاناً فسألناه فطلب لنا التوبة فأتياه فقال رحمك الله كيف يطلب التوبة أهل الأرض لأهل السماء قالوا إنا قد ابتلينا ، قال اثنيان يوم الجمعة فأتياه ، فقال ما أجبت فيكما بشيء اثنيان في الجمعة الثانية فأتياه ، فقال اختارنا فقد خيرتما إن اخترتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة وإن أحببنا فمذاب الدنيا وأتتا يوم القيامة على حكم الله ، فقال أحدهما إن الدنيا لم يمض منها إلا القليل . وقال الآخر ويحك إني قد أطعنتك في الأمر الأول فأطعني الآن إن عذاباً يقضى ليس كعذاب يبق . فقال إنا يوم القيامة على حكم الله فأخاف أن يعذبنا ، قال لا . إني أرجو إن علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة أن لا يجمعهما علينا ، قال فاخارنا عذاب الدنيا فجعلنا في بكرات من حديد في قلب مملوءة من نار عالهما سافلهما — وهذا إسناد جيد إلى عبد الله بن عمر —

وقد تقدم في رواية ابن جرير من حديث معاوية بن صالح عن نافع عنه رفعه وهذا أثبت وأصح إسناداً ثم هو والله أعلم من رواية بن عمر عن كعب كما تقدم بيانه من رواية سالم عن أبيه . وقوله إن الزهرة نزلت في صورة امرأة حسناء وكذا في المروى عن علي فيه غرابة جداً

وأقرب ماورد في ذلك ما قال ابن أبي حاتم أخبرنا عصام بن رواد أخبرنا آدم أخبرنا أبو جعفر حدثنا الربيع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما وقع الناس من بعد آدم عليه السلام فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله قالت الملائكة في السماء يارب هذا العالم الذي إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك قد وقعوا فيما وقعوا فيه وركبوا الكفر وقتل النفس وأكل المال الحرام والزنا والسرقه وشرب الخمر فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم فقبل إنهم في غيب فلم يعذروهم ، فقبل لهم اختاروا من أفضلهم ملكين أمرهما وأنهاهما فاختراروا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض وجعل لهما شهوات بني آدم وأمرها الله أن يعبداه ولا يشركا به شيئاً ونهايا عن قتل النفس الحرام وأكل المال الحرام وعن الزنا والسرقه وشرب الخمر فلبثا في الأرض زماناً يحكيان بين الناس بالحق وذلك في زمن إدريس عليه السلام ، وفي ذلك الزمان امرأة حسناء كحسن الزهرة في سائر الكواكب وإنهما أتيا عليها فخصما لها في القول وأراداها على نفسها فأبت إلا أن يكونا على أمرها وعلى دينها فسألاها عن دينها فأخرجت لهما صنماً فقالت هذا أعبده فقالا لا حاجة لنا في عبادة هذا فذهبا فعبرا ماشاء الله ، ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها ففعلت مثل ذلك فذهبا ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها فلما رأت أنهما قد أتيا أن يعبد الصنم قالت لهما اختاروا أحداً للخلال الثلاث إما أن تعبدوا هذا الصنم وإما أن تقتل هذه النفس وإما أن تشربا هذه الخمر ، فقالا كل هذا لا ينبغي وأهونا هذا شرب الخمر فشربا الخمر فأخذت فيهما فواقعا المرأة فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه فلما ذهب عنهما السكر وعسا ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا وحيل بينهما وبين ذلك وكشف الغطاء فما بينهما وبين أهل السماء فنظرت الملائكة إلى ما وقعاه فعجبوا كل العجب وعرفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض فزل في ذلك (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض) فقبل لهما اختاروا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، فقالا أمة عذاب الدنيا فإنه ينقطع ويذهب وأمة عذاب الآخرة فلا انقطاع له ، فاختراروا عذاب الدنيا ، فجعلوا يبابل فيهما يعذبان وقد رواء الحاكم في مستدركه مطولاً عن أبي زكريا العنبري عن محمد بن عبد السلام عن إسحق ابن راهويه عن حكام بن سلم الرازي وكان ثقة (١) عن أبي جعفر الرازي به : ثم قال صحيح الإسناد لم يخرجاه فهذا أقرب ما روى في شأن الزهرة والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا مسلم أخبرنا القاسم بن الفضل الخدائي أخبرنا يزيد يعني الفارسي عن ابن عباس أن أهل السماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض فرأواهم يعملون بالمعاصي فقالوا : يارب أهل لأرض كانوا يعملون بالمعاصي ، فقال الله أتم معي وهم في غيب عني فقبل لهم اختاروا منكم ثلاثة فاختراروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا إلى الأرض على أن يحكموا بين أهل الأرض وجعل فيهم شهوة آدميين فأمرؤا أن لا يشربوا خمرأ ولا يقتلوا نفساً ولا يزنوا ولا يسجدوا لوثن ، فاستقال منهم واحد فأقبل فأهبطا اثنان إلى الأرض فأتتهما امرأة من أحسن الناس يقال لها مناهية فهوياها جميعاً ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها فأراداها فقالت لهما لا حتى تشربا خمرى وتقتلا ابن جارى وتسجدوا لوثنى فقالا لا نسجد ثم شربا من الخمر ثم قتلا ثم سجدا فأشرف أهل السماء عليهما وقالت لهما أخبراني بالكلمة التي إذا قلتماها طرمتا فأخبراها فطارتم فسخت حمرة وهى هذه الزهرة وأماها فأرسل إليهما سليمان بن داود فخيرها بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختراروا عذاب الدنيا فهما مناطان بين السماء والأرض وهذا السياق فيه زيادة كثيرة وإغراب ونكارة والله أعلم بالصواب .

وقال عبد الرزاق : قال معمر قال قتادة والزهرى عن عبيد الله بن عبد الله (وما أنزل على الملكين يبابل هاروت وماروت) كانا ملكين من الملائكة فأهبطا ليحكما بين الناس ، وذلك أن الملائكة سخروا من حكام بني آدم

(١) ولكنه كان يروى الفرائد كما في التفرير وفي تهذيب التهذيب عن أحمد . كان يحدث عن عنبسة أحاديث غرائب أ ه .

فحاكت اليهما امرأة فحافا لها ثم ذهبا يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك ثم خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا . وقال معمر : قال قتادة فكانا يعلمان الناس السحر فأخذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر .

وقال أسباط عن السدي أنه قال كان من أمر هاروت وماروت أنهما طعنا على أهل الأرض في أحكامهم فقيل لها إني أعطيت بني آدم عشراً من الشهوات فيها يعصوني ، قال هاروت وماروت : ربنا لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكمنا بالعدل ، فقال لها انزلا فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر فاحكما بين الناس فنزلا بيابل ديناوند فكانا يحكما حتى إذا أمسيا عرجا فاذا أصبحا هبطا فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها فأعجبهما حسنهما واسمها بالعربية الزهرة وبالنبطية بيدخت وبالفارسية أناهيد : فقال أحدهما لصاحبه إنها لتعجبنى ، قال الآخر قد أردت أن أذكر لك فاستحييت منك . فقال الآخر ، هل لك أن أذكرها لنفسها ؟ قال نعم ، ولكن كيف لنا بعذاب الله ؟ قال الآخر إنا لنترجو رحمة الله فلما جاءت تخاصم زوجها ذكر إليها نفسها فقالت لا حتى تقضيا لى على زوجي فقضيا لها على زوجها ثم واعدتهما خربة من الحرب يأتياها فيها فأتياها لذلك فلما أراد الذى يواقعها قالت ما أنا بالذى أفعل حتى تخبرانى بأى كلام تصعدان إلى السماء وبأى كلام تنزلان منها فأخبرها فتكلمت فصعدت فأنساها الله تعالى ما تنزل به فثبتت مكانها وجعلها الله كوكبا ، فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها وقال هذه التى فتنت هاروت وماروت ، فلما كان الليل أرادا أن يصعدا فلم يطيقا ففرقا الهلكة فخيروا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فعلقا بيابل وجعلا يكلمان الناس كلامها وهو السحر .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد أما شأن هاروت وماروت فإن الملائكة عجبت من ظلم بنى آدم وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات فقال لهم ربهم تعالى : اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكما فى الأرض فاختاروا فلم يألوا هاروت وماروت ، فقال لهما حين أنزلهما أعجبنا من بنى آدم من ظلمهم ومعصيتهم وإنما تأتيتهم الرسل والكتب من وراء وراء وإنكما ليس ببنى وبينكما رسول فافعلوا كذا وكذا ودعوا كذا كذا ، فأمرهما بأمر ونهاهما ، ثم نزلا على ذلك ليس أحد أطوع لله منهما فحكما فعذلا فكانا يحكما فى النهار بين بنى آدم فاذا أمسيا عرجا فكانا مع الملائكة وينزلان حين يصبحان فيحكما فيعذلان حتى أنزلت عليها الزهرة فى أحسن صورة امرأة تخاصم فقضيا عليها فلما قامت وجد كل واحد منهما فى نفسه ، فقال أحدهما لصاحبه وجدت : مثل الذى وجدت ؟ قال نعم ، فبعثا إليها أن اثبتا نقض لك ، فلما رجعت قالوا وقضيا لها فأتتهما فكشفا لها عن عورتيهما وإنما كانت سواتهما فى أنفسهما ولم يكونا كبنى آدم فى شهوة النساء ولذاتها ، فلما بلغا ذلك واستحلا افتتنا فطارت الزهرة فرجعت حيث كانت ، فلما أمسيا عرجا فزجرا فلم يؤذن لهما ولم تحملهما أجنحتهما فاستغاثا برجل من بنى آدم فأتياه فقللا ادع لنا ربك فقال كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء قال سمعنا ربك يذكرك بخير فى السماء فوعدهما يوماً وعدا يدعو لهما فدعا لهما فاستجيب له فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فنظر أحدهما إلى صاحبه فقال ألا تعلم أن أفواج عذاب الله فى الآخرة كذا وكذا فى الحلد وفى الدنيا تسع مرات مثله ؟ فأمر أن ينزلا بيابل فتم عذابهما ، وزعم أنهما معلقان فى الحديد مطويان يصفقان بأجنحتهما وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والريبع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطباب فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال .

وقد ورد فى ذلك أثر غريب وسياق عجيب فى ذلك أحبينا أن ننبه عليه قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى : أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا ابن وهب أخبرنا ابن أبي الزناد حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة

زوج النبي ﷺ أنها قالت : قدمت على امرأة من أهل دومة الجندل جاءت تبتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته حادثة ذلك تسأله عن أشياء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة : يا ابن أختي فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيشفها فكانت تبكي حتى إنى لأرحمها وتقول : إنى أخاف أن أكون قد هلكت : كان لى زوج فغاب عني فدخلت على عجوز فشكوت ذلك إليها فقالت إن فعلت ما أمرك به فأجعله يأتيك ، فلما كان الليل جاءتني بكليين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر فلم يكن شيء حتى وقفنا ببابل وإذا برجلين معلقين بأرجلهم فقالا : ماجاء بك ؟ قلت تتعلم السحر فقالا إنما نحن فتنة فلا تكفري فارجمي فأبيت وقلت . لا قالا . فاذهبي إلى ذلك الثور فبولي فيه فذهبت ففزعت ولم أفعل فرجعت إليهما فقالا : أفعلت ، فقلت . نعم فقالا . هل رأيت شيئاً ؟ فقلت لم أر شيئاً فقالا . لم تفعل ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فأربيت وأبيت فقالا . اذهبي إلى ذلك الثور فبولي فيه فذهبت فاقشعرت وخفت ثم رجعت إليهما وقلت . قد فعلت فقالا . فما رأيت ؟ قلت لم أر شيئاً فقالا . كذبت لم تفعل ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فإنك على رأس أمرك فأربيت وأبيت فقالا . اذهبي إلى الثور فبولي فيه فذهبت إليه فبليت فيه فرأيت فارساً مقنماً بحديد خرج مني فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه فحفظتهما فقلت قد فعلت فقالا فما رأيت قلت رأيت فارساً مقنماً خرج مني فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه فقالا صدقت ذلك إيمانك خرج منك اذهبي فقلت للمرأة والله ما أعلم شيئاً وما قالا لى شيئاً فقالت بلى لم تريد شيئاً إلا كان خذى هذا القمح فابذري فبذرت وقلت . اطلعي فأطلعت وقلت احقلى فأحقلت ثم قلت افركي فأفركت ثم قلت أيبسى فأيبست ثم قلت اطحنى فأطحنت ثم قلت اخبزى فأخبزت . فلما رأيت أنى لا أريد شيئاً إلا كان سقط في يدي وندمت والله . يأثم المؤمنین ما فعلت شيئاً ولا أفعله أبداً ، ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن سليمان به مطولاً كما تقدم وزاد بعد قولها ولا أفعله أبداً فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حادثة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يومئذ متوافرون فما دروا ما يقولون لها وكلهم هاب وخاف أن يفتها بما لا يعلمه إلا أنه قد قال لها ابن عباس أو بعض من كان عنده لو كان أبواك حين أو أحدهما . قال هشام فلو جاءتنا أئمتنا بالضم . قال ابن أبي الزناد . وكان هشام يقول . إنهم كانوا من أهل الورع والخشية من الله ثم يقول هشام . لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوکی أهل حق وتكلف بغير علم فهذا إسناد جيد إلى عائشة رضي الله عنها وقد استدلل بهذا الأثر من ذهب إلى أن الساحر له تمکن في قلب الأعيان لأن هذه المرأة بذرت واستغلت في الحال . وقال آخرون : بل ليس له قدرة إلا على التخيل كما قال تعالى (سحرُوا أعین الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظیم) وقال تعالى (یخیل إلیه من سحرهم أنها تسعى) استدلل به على أن بابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق لا بابل ديناوند كما قاله السدي وغيره ، ثم الدليل على أنها بابل العراق ما قال ابن أبي حاتم أخبرنا علي بن الحسين أخبرنا أحمد بن صالح حدثني ابن وهب حدثني ابن لهيعة ويحيى بن أزهر عن عمار بن سعد المرادي عن أبي صالح الغفاري أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مر ببابل وهو يسير فجاء المؤذن يؤذنه بصلاة العصر فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة فلما فرغ قال . إن حبيبي صلى الله عليه وسلم نهاني أن أصلى بأرض المقبرة ونهاني أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة ، وقال أبو داود أخبرنا سليمان بن داود أخبرنا بن وهب ويحيى بن أزهر عن عمار بن سعد المرادي عن أبي صالح الغفاري أن علياً مر ببابل وهو يسير فجاء المؤذن يؤذنه بصلاة العصر فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة فلما فرغ قال إن حبيبي صلى الله عليه وسلم نهاني أن أصلى في المقبرة ونهاني أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة . حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني يحيى بن أزهر وابن لهيعة عن حجاج بن شداد عن أبي صالح الغفاري عن علي بن جعفر عن سليمان بن داود قال : فلما خرج منها برز ، وهذا الحديث حسن عند الإمام أبي داود لأنه رواه وسكت عليه ففيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل كما تكره بديار عمود الذي نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدخول إلى منازلهم إلا أن يكونوا باكين . قال أصحاب الهيئة : وبعد ما بين بابل

وهي من إقليم العراق عن البحر المحيط الغربي ويقال له أوقيانوس سبعون درجة ويسمون هذا طولا ، وأما عرضهما وهو بعد ما بينهما وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب وهو السامت لخط الاستواء اثنان وثلاثون درجة والله أعلم وقوله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر) قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس قال : فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي وقال له : إنما نحن فتننة فلا تكفر وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان ، فعرفا أن السحر من الكفر قال فإذا أتى عليهما أمرهما أن يأتي مكان كذا وكذا فإذا أتاه عين الشيطان فعلمه فإذا تعلمه خرج منه النور فنظر إليه ساطعاً في السماء فيقول : يا حسرتاه يا ويله ماذا صنع . وعن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية : نعم أنزل الملك السحر ليعلم الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس فأخذ عليهم الميثاق أن لا يعلموا أحداً حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر رواه ابن أبي حاتم وقال قتادة : كان أخذ عليهما أن لا يعلموا أحداً حتى يقولوا إنما نحن فتننة أي بلاء ابتلينا به فلا تكفر . وقال السدي إذا أتاهما إنسان يريد السحر وعظاه وقال له : لا تكفر إنما نحن فتننة فإذا أتى قال له . ائت هذا الرماد فبل عليه فإذا بان عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء وذلك الإيمان وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكل شيء وذلك غضب الله فإذا أخبرهما بذلك علماء السحر فذلك قول الله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر) الآية . وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج في هذه الآية لا يجترئ على السحر إلا كافر ، وأما الفتنة فهي الحنة والاختبار ومنه قول الشاعر

وقد فتن الناس في دينهم * وخلي ابن عفان شرا طويلا

وكذلك قوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام حيث قال (إن هي إلا فتنتك) أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك (تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) وقد استدلل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر واستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن همام عن عبد الله قال : « من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » وهذا إسناد صحيح وله شواهد أخر ، وقوله تعالى (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) أي فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ما إنهم يفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف ، وهذا من صنيع الشياطين كما رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن أبي سفيان عن طلحة بن نافع عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، ويحيى أحدهم فيقول . مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئاً ! ويحيى أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال : فيقر به ويدنيه ويلتزمه ويقول : نعم أنت » وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة أو نحو ذلك من الأسباب المقضية للفرقة والمرء عبارة عن الرجل وتأنثه امرأة ويثنى كل منهما ولا يجمعان والله أعلم

وقوله تعالى (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) قال سفيان الثوري إلا بقضاء الله وقال محمد بن إسحاق إلا بتخليه الله بينه وبين ما أراد ، وقال الحسن البصري (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) قال نعم من شاء الله سلطهم عليه ومن لم يشأ الله لم يسلط ولا يستطيعون من أحد إلا بإذن الله كما قال الله تعالى وفي رواية عن الحسن أنه قال لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه ، وقوله تعالى (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) أي يضرهم في دينهم وليس له نفع يوازي ضرره (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) أي ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لمن فعل فعلهم ذلك أنه ماله في الآخرة من خلاق ، قال ابن عباس ومجاهد والسدي من نصيب ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ماله في الآخرة من جهة عند الله ، وقال عبد الرزاق وقال الحسن ليس له دين ، وقال

سعد عن قتادة (ماله في الآخرة من خلاق) قال ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة وقوله تعالى (ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) يقول تعالى (ولبئس) البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول لو كان لهم علم بما وعظوا به (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير) أى ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به كما قال تعالى (وقال الدين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون)

وقد استدل بقوله (ولو أنهم آمنوا واتقوا) من ذهب إلى تكفير الساحر كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف وقيل بل لا يكفر ولكن حده ضرب عنقه لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل قالاً أخبرنا سفيان هو ابن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع بحالة بن عبدة يقول كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال قتلنا ثلاث سواحر وقد أخرجه البخارى في صحيحه أيضاً وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرته جارية لها فأمرت بها فقتلت قال الإمام أحمد بن حنبل صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ في قتل الساحر وروى الترمذى من حديث إسماعيل بن مسلم عن الحسن بن جندب الأزدي أنه قال قال رسول الله ﷺ « حد الساحر ضربه بالسيف » ثم قال لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه ، وإسماعيل بن مسلم يضعف في الحديث والصحيح عن الحسن بن جندب موقوفاً قلت قد رواه الطبراني من وجه آخر عن الحسن بن جندب مرفوعاً والله أعلم . وقد روى من طرق متعددة أن الوليد ابن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه فقال الناس سبحان الله يحيى الموتى ورآه رجل من صالحى المهاجرين فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك فاختلط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر وقال إن كان صادقاً فليحي نفسه وتلا قوله تعالى (أتأتون الساحر وأتم تبصرون) فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك فسجنه ثم أطلقه والله أعلم ، وقال الإمام أبو بكر الحلال : أخبرنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل حدثني أبى أخبرنا يحيى بن سعيد حدثني أبو إسحق عن حارثة قال كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملاً على سيفه فقتله قال أراه كان ساحراً وحمل الشافعي رحمه الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركاً والله أعلم

(فصل) حكى أبو عبد الله الرازى في تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر ، قال : وربما كفروا من اعتقد وجوده ، قال وأما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر أن يطير في الهواء ويقلب الإنسان سحاراً والحمار إنساناً إلا أنهم قالوا إن الله يخلق الأشياء عند ما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المعينة فأما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم ، فلا ، خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصائبة ، ثم استدل على وقوع السحر وأنه يخلق الله تعالى بقوله تعالى (وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله) ومن الأخبار بأن رسول الله ﷺ سحر وأن السحر عمل فيه وبقصة تلك المرأة مع عائشة رضى الله عنها وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها بابل وتعلمها السحر قال وبما يذكر في هذا الباب من الحكايات الكثيرة ، ثم قال بعد هذا

(المسئلة الخامسة) في أن العلم بالسحر ليس ببيح ولا محظور - اتفق المحققون على ذلك لأن العلم لذاته شريف وأيضاً لعموم قوله تعالى (قل هل يستوى الدين يعلمون والذين لا يعلمون) ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة والعلم بكون المعجز معجزاً واجب وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقيحاً ؟ هذا لفظه بحروفه في هذه المسئلة وهذا الكلام فيه نظر من وجوه أحدها قوله العلم بالسحر ليس ببيح إن عني به ليس ببيح عقلاً فخالقه من المعتزلة يمنعون هذا وإن عني أنه ليس ببيح شرعاً ، ففي هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر وفي الصحيح « من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد » وفي السنن « من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر » ، وقوله ولا محظور اتفق المحققون

على ذلك . كيف لا يكون محظورا مع ما ذكرناه من الآيات والحديث واتفاق المحققين يقتضى أن يكون قد نص على هذه المسئلة أئمة العلماء أو أكثرهم وأين نصوصهم على ذلك ؟ ثم إدخاله علم السحر فى عموم قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فيه نظر لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين العلم الشرعى ولم قلت إن هذا منه ثم ترقية إلى وجوب تعلمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به ضعيف بل فاسد لأن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هى القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلا ، ثم من العلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم كانوا يعلمون المعجز ويفرقون بينه وبين غيره ، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه والله أعلم .

ثم قد ذكر أبو عبد الله الرازى أن أنواع السحر ثمانية (الأول) سحر الكذابين والكشدين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة للتحيرة وهى السيرة وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم وأنها تأتي بالخير والشر وهم الذين بعث الله اليهم ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم مبطلا لمقاتلهم ورادا لمذهبهم ، وقد استقصى فى (كتاب السراكتوم) فى مخاطبة الشمس والنجوم) المنسوب اليه كما ذكرها القاضى ابن خلكان وغيره ويقال إنه تاب منه ، وقيل بل صنفه على وجه اظهار الفضيلة لا على سبيل الاعتقاد ، وهذا هو الظنون به إلا أنه ذكر فيه طريقهم فى مخاطبة كل من هذه الكواكب السبعة وكيفية ما يفعلون وما يلبسونه وما يتنسكون به

قال (والنوع الثانى) سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، ثم استدلى على أن الوهم له تأثير بأن الانسان يمكنه ان يمشى على الجسر الموضوع على وجه الأرض ولا يمكنه المشى عليه إذا كان ممدودا على نهر أو نحوه ، قال وكما أجمعت الأطباء على نهى المرعوف عن النظر الى الأشياء الحمر والمصروع الى الأشياء القوية للمعان أو الدوران وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام . قال : وقد اتفق العقلاء على ان الاصابة بالعين حق - وله أن يستدل على ذلك بما ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين » - قال فاذا عرفت هذا فنقول النفس التى تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جدا فتستغنى فى هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات والأدوات وقد تكون ضعيفة فتحتاج الى الاستعانة بهذه الآلات ، وتحقيقه ان النفس إذا كانت متعلقة على البدن شديدة الانجذاب الى عالم السماوات صارت كإنها روح من الأرواح السماوية فكانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم ، وإذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات البدنية فحينئذ لا يكون لها تأثير البتة إلا فى هذا البدن ، ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء ، والانشطاع عن الناس والرياء (قلت) وهذا الذى يشير إليه هو التصرف بالحال : وهو على قسمين تارة تكون حالا صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ ، ويترك ما نهى الله تعالى عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الأمة ولا يسمى هذا سحرا فى الشرع . وتارة تكون الحال فاسدة لا يمثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ ولا يتصرف بها فى ذلك ، فهذه حال الأشقياء الخالفين للشرعية ولا يدل إعطاء الله إياهم هذه الأحوال على محبته لهم كما أن الدجال له من الخوارق للعادات ما دلت عليه الأحاديث الكثيرة مع أنه مذموم شرعا لعنه الله ، وكذلك من شابه من مخالفى الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وبسط هذا يطول جدا وليس هذا موضعه :

قال (والنوع الثالث) من السحر الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن خلافا للفلاسفة والمعتزلة وهم على قسمين . مؤمنون ، وكفار وهم الشياطين . قال وانصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية لما بينهما من المناسبة والقرب ، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا ان الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد ، وهذا النوع هو السعى بالعزائم وعمل التسخير .

(النوع الرابع) من السحر التحليل والأخذ بالعيون والشعبة ومبناه على ان البصر قد يخطئ ويشتغل بالشئ

المعين دون غيره ، ألا ترى ذا الشعبذة الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم اليه حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتعديق ونحوه عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جداً ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمل ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجهم لفتن الناظرون لكل ما يفعله (قال) وكلما كانت الأحوال تفيد حسن البصر نوعاً من أنواع الحلل أشد كان العمل أحسن مثل أن يجلس الشعبذة في موضع مضيء جداً أو مظلم فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها والحالة هذه .

(قلت) وقد قال بعض المفسرين : إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبذة ولهذا قال تعالى (فلما القوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) وقال تعالى (يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) قالوا : ولم تكن تسعى في نفس الأمر والله أعلم .

(النوع الخامس من السحر) الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات مركبة على النسب الهندسية كفارس على فرس في يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد . - ومنها الصور التي تصورها الروم والمهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان حتى يصورونها ضاحكة وبكية إلى أن قال : فهذه الوجوه من لطيف أمور التخيل قال : وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل (قلت) يعني ما قاله بعض المفسرين : إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصى فحشوها زئبقاً فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق فيخيل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها قال الرازي : ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات ، ويندرج في هذا الباب علم جر الأثقال بالآلات الخفيفة قال : وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر لأن لها أسباباً معلومة يقينية من اطلاع عليها قدر عليها (قلت) ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم بما يرونهم إياه من الأنوار كقضية قمامة الكنيسة التي لهم ببلد القدس وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة واشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على الطغام منهم . وأما الخواص فهم معترفون بذلك ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم فيرون ذلك سائغاً لهم . وفيهم شبهة على الجهلة الأغبياء من متعبدى الكرامية الذين يرون جواز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب فيدخلون في عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وقوله « حدثوا عني ولا تكذبوا علي » فإنه من يكذب عليّ يلج النار » ثم ذكرهنا حكاية عن بعض الرهبان وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة فإذا سمعته الطيور ترق له فتذهب فتلقى في وكره من ثمر الزيتون ليتبلغ به فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله وتوصل إلى أن جعله أجوف فإذا دخلته الريح يسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر وانقطع في صومعة ابتناها وزعم أنها على قبر بعض صالحهم وعلق ذلك الطائر في مكان منها فإذا كان زمان الزيتون فتح باباً من ناحيته فيدخل الريح إلى داخل هذه الصورة فيسمع صوتها كل طائر في شكله أيضاً فتأتي الطيور فتحمل من الزيتون شيئاً كثيراً فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون في هذه الصومعة ولا يدرون ماسببه ، ففتنهم بذلك وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر عليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة .

(قال الرازي : النوع السادس من السحر) الاستعانة بخواص الأدوية يعني في الأطعمة والدهانات قال : واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص فإن تأثير المغناطيس مشاهد (قلت) يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعى الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص مدعياً أنها أحوال له من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحاللات .

قال (النوع السابع من السحر) التعليق للقلب وهو أن يدعى الساحر أنه عرف الاسم الأعظم وإن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوع من الرعب والخافة فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء (قلت) هذا النمط يقال له التنبلة وإنما يروج على الضعفاء العقول من بني آدم . وفي علم الفراسة ما يرشد إلى

معرفة كامل العقل من ناقصه ، فإذا كان النبيل حاذقا في علم الفراسة عرف من يتفادله من الناس من غيره قال (النوع الثامن من السحر) السعي بالخمعة والتقريب (١) من وجوه خفيفة لطيفة وذلك شائع في الناس (قلت) الخمعة على قسمين تارة تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين فهذا حرام متفق عليه ، فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس واثلاف كلمة المسلمين كما جاء في الحديث « ليس بالكذاب من ينم خيرا » أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة فهذا أمر مطلوب كما جاء في الحديث « الحرب خدعة » وكما فعل نعيم بن مسعود في تفرقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة : جاء الى هؤلاء فسمى اليهم عن هؤلاء كلاما ، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئا آخر ، ثم لأم بين ذلك فتناكرت النفوس وافترقت ، وإنما يحذو على مثل هذا الدكاء ذو البصيرة النافذة والله المستعان . ثم قال الرازي فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه (قلت) وإنما أدخل كثيرا من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر للطافة مداركها لأن السحر في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه ولهذا جاء في الحديث « إن من البيان لسحرا » وسمى السحور لكونه يقع خفيا آخر الليل ، والسحر الرثة وهي محل الغذاء وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها الى أجزاء البدن وغضونه كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة . انتفخ سحره أى انتفخت رثته من الخوف . وقالت عائشة رضي الله عنها : توفي رسول الله ﷺ بين سحري وسحري ، وقال تعالى (سحرُوا أعين الناس) أى أخفوا عنهم عملهم والله أعلم .

وقال أبو عبد الله القرطبي : وعندنا أن السحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء خلافا للمعتزلة وأبى إسحق الاسمراني من الشافعية حيث قالوا . انه تمويه وتخيل قال ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة والشعوذى البريد لحفة سيره قال ابن فارس : وليست هذه الكلمة من كلام أهل البادية قال القرطبي : ومنه ما يكون كلاما يحفظ ورق من أسماء الله تعالى وقد يكون من عهود الشياطين ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك قال : وقوله عليه السلام « إن من البيان لسحرا » يحتمل أن يكون مدحا كما تقول طائفة ، ويحتمل أن يكون ذما للبلغة قال : وهذا أصبح قال لأنها تصوب الباطل حتى توهم السامع أنه حق كما قال عليه الصلاة والسلام « فلعن بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له » الحديث .

﴿ فصل ﴾ وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هيرة رحمه الله في كتابه (الاشراف على مذاهب الاشراف) بابا في السحر فقال أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة فانه قال . لاحقيقة له عنده واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد يكفر بذلك ومن أصحاب أبي حنيفة من قال إن تعلمه لينقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ومن تعلمه معتقدا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر . وقال الشافعي رحمه الله إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحره فان وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب الى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتبس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر فان اعتقد اباحته فهو كافر ، قال ابن هيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد نعم ، وقال الشافعي وأبو حنيفة لا ؛ فأما إن قتل بسحره إنسانا فانه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد . وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك في حق شخص معين ، وإذا قتل فانه يقتل حدا عندهم إلا الشافعي فانه قال يقتل والحالة هذه قصاصا قال وهل اذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم : لا تقبل ، وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى تقبل وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم وقال مالك وأحمد والشافعي : لا يقتل يعنى لقصة لبيد بن الأعصم واختلفوا في المسئلة الساحرة فعند أبي حنيفة انها لا تقتل ولكن تجس ، وقال الثلاثة حكمها حكم الرجل والله أعلم . وقال أبو بكر الخلال . أخبرنا أبو بكر الروزي قال قرأ على أبي عبد الله - يعنى أحمد بن حنبل - عمر بن هرون أخبرنا يونس عن الزهري : قال يقتل ساحر

المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها . وقد نقل القرطبي عن مالك رحمه الله أنه قال في الذي يقتل إن قتل ساحره وحكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين في الذي إذا سحر : أحدهما أنه يستتاب فإن أسلم والآخر أنه يقتل وإن أسلم ، وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفرا كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر) لكن قال مالك إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تأييدا قبلناه ، فإن قتل ساحره قتل قال الشافعي : فإن قال لم أتعمد القتل فهو خطيئته تجب عليه الهدية .

﴿ مسألة ﴾ وهل يسئل الساحر حلا لسحره فأجاز سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري ، وقال عامر الشعبي : لأبأس بالشريرة وكره ذلك الحسن البصري ، وفي الصحيح عن عائشة أنها قالت يا رسول الله هلا تنشرت ، فقال « أما الله فقد شفاني وخشيت أن أفتح على الناس شرا » وحكى القرطبي عن وهب : أنه قال يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بياقيه فإنه يذهب ما به ، وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته (قلت) أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله في إذهاب ذلك وهما المعوذتان ، وفي الحديث « لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما » وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام مافيه تورية لما يقصدونه من التقيص عليهم لعائن الله فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا يقولوا راعنا ويورون بالعونة كما قال تعالى (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون السام عليكم ، والسام هو الموت ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بوعليكم ، وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا ، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً ، فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله واتقوا قولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم) وقال الإمام أحمد : أخبرنا أبو النضر أخبرنا عبد الرحمن أخبرنا ثابت أخبرنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الدلة والصغار على من خالف أمري . ومن تشبه بقوم فهو منهم » . وروى أبو داود عن عثمان بن أبي شيبة عن أبي النضر هاشم أخبرنا ابن القاسم به « من تشبه بقوم فهو منهم » ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا تقرأ عليها . وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا نعيم بن حماد أخبرنا عبد الله ابن المبارك أخبرنا مسعر عن ابن معن وعون أو أحدهما أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال اعهد إلي ، فقال إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأرעהما سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه . وقال الأعمش عن خيشمة قال ما تقرأون في القرآن (يا أيها الذين آمنوا) فإنه في التوراة يا أيها المساكين . وقال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة عن ابن عباس (راعنا) أي أرعنا سمعك . وقال الضحاك : عن ابن عباس (يا أيها

الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) قال كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم أرعنا سمعك وإنما راعنا كقولك عاطنا . وقال ابن أبي حاتم وروى عن أبي العالية وأبي مالك والريش بن أنس وعطية العوفي وقتادة نحو ذلك ، وقال مجاهد (لا تقولوا راعنا) لا تقولوا خلافا ، وفي رواية لا تقولوا اسمع منا ونسمع منك . وقال عطاء لا تقولوا (راعنا) كانت لغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها . وقال الحسن : (لا تقولوا راعنا) قال الراعي من القول السخري منه نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد صلى الله عليه وسلم ، وما يدعوهم إليه من الإسلام . وكذا روى عن ابن جريج أنه قال مثله وقال أبو صخر (لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا) قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فيقول أرعنا سمعك فأعظم الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقال ذلك له . وقال السدي : كان رجل من اليهود من بنى قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتي النبي ﷺ فإذا لقاه فكلمه قال : أرعني سمعك واسمع غير مسمع ، وكان السامعون يحسبون أن الأنبياء كانت تفضخ بهذا فكان ناس منهم يقولون : اسمع غير مسمع غير صاغر ، وهى كالتي في سورة النساء فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا راعنا وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحو من هذا . قال ابن جرير والصواب من القول في ذلك عندنا أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا . لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبة ولا تقولوا عبدي ولكن قولوا فتى » وما أشبه ذلك . وقوله تعالى (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعالى من مشابهمهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبينهم ، ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى (والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (ما ننسخ من آية) ما نبطل من آية . وقال ابن جريج عن مجاهد (ما ننسخ من آية) أى ما نمنحو من آية ، وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد (ما ننسخ من آية) قال ثبت خطها ونبدل حكمها حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم . وقال ابن أبي حاتم . وروى عن أبي العالية ومحمد بن كعب القرظي نحو ذلك . وقال الضحاك (ما ننسخ من آية) ما ننسك وقال عطاء أما (ما ننسخ) فما ترك من القرآن . وقال ابن أبي حاتم يعنى ترك فلم ينزل على محمد ﷺ . وقال السدي (ما ننسخ من آية) نسخها قبضها . وقال ابن أبي حاتم : يعنى قبضها رفعها مثل قوله « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » وقوله « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بئى لهما ثالثا » وقال ابن جرير (ما ننسخ من آية) ما ننقل من حكم آية إلى غيره فبطله ونغيره وذلك أن تحول الحلال حراما والحرام حلالا والباح محظورا والمحظور مباحا ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهى والحظر والاطلاق والنوع والاباحة . فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة أخرى إلى غيرها فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله ونقل عبارة إلى غيرها وسواء نسخ حكمها أو خطها إذ هى في كلتا حالتها منسوخة . وأما علماء الأصول فاختلقت عباراتهم في حد النسخ والأمر في ذلك قريب ، لأن معنى النسخ الشرعى معلوم عند العلماء ولحظ بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعى متأخر . فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل وعكسه والنسخ لا إلى بدله^(١) وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوطة في أصول الفقه . وقال الطبراني . أخبرنا أبو سنبل عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد أخبرنا أبي أخبرنا العباس بن الفضل عن سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه قال : قرأ رجلان سورة أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان

(١) الأظهر أن يقال : لا إلى بدل .

يقرآن بها قساما ذات ليلة يصلان فلم يقدر منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ ، فذكرا ذلك له فقال رسول الله ﷺ ، إنها مما نسخ وأنسى فالحوا عنها فكان الزهري يقرؤها (ما ننسخ من آية أو ننسها) بضم النون الخفيفة سلمان بن الأرقم ضعيف . وقد روى أبو بكر بن الأنباري عن أبيه عن نصر بن داود عن أبي عبيد الله عن عبد الله بن صالح عن الليث عن يونس وعقيل عن ابن شهاب عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف مثله مرفوعا ذكره القرطبي وقوله تعالى (أو ننسها) فقرأ على وجهين ننسأها وننسها ، فأما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه نؤخرها . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (ما ننسخ من آية أو ننسأها) يقول ما نبدل من آية أو تركها لا نبديلها . وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود أو ننسأها ثبت خطها ونبدل حكمها . وقال عبد بن عمير ومجاهد وعطاء أو ننسأها نؤخرها ونرجئها . وقال عطية العوفي : أو ننسأها : نؤخرها فلا ننسخها . وقال السدي مثله أيضا وكذا الربيع بن أنس ، وقال الضحاك (ما ننسخ من آية أو ننسأها) يعني الناسخ من المنسوخ . وقال أبو العالية (ما ننسخ من آية أو ننسأها) نؤخرها عندنا ، وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا عبيد الله بن إسماعيل البغدادي أخبرنا خلف أخبرنا الحفاف عن إسماعيل يعني ابن أسلم عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خطبنا عمر رضي الله عنه فقال يقول الله عز وجل (ما ننسخ من آية أو ننسأها) أي نؤخرها ، وأما على قراءة (أو ننسها) فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله (ما ننسخ من آية أو ننسها) قال كان الله عز وجل ينسئ نبيه صلى الله عليه وسلم ما يشاء وينسخ ما يشاء وقال ابن جرير . أخبرنا سواد بن عبد الله أخبرنا خالد بن الحارث أخبرنا عوف عن الحسن أنه قال في قوله (أو ننسها) قال : إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قرأ قرآنا ثم نسيه ، وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا ابن ثقلب أخبرنا محمد بن الزبير الحراني عن الحجاج يعني الجزري عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مما ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بالليل وينساه بالنهار فأزل الله عز وجل (ما ننسخ من آية أو ننسأها) بغير منها (أو مثلها) قال ابن أبي حاتم : قال لي أبو جعفر بن ثقلب ليس هو الحجاج بن أرطاة هو شيخ لنا جزري وقال عبيد بن عمير (أو ننسها) نرفها من عندكم وقال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم أخبرنا هشيم عن يعلى بن عطاء عن القاسم بن ربيعة قال سمعت سعد بن أبي وقاص يقرأ (ما ننسخ من آية أو ننسها) قال : قلت له فإن سعيد بن المسيب يقرأ (أو ننسأها)^(١) قال : فقال سعد إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب قال : قال الله جل ثناؤه (سنقرئك فلا تنسى) (واذكر ربك إذا نسيت) وكذا رواه عبد الرزاق عن هشيم وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث أبي حاتم الرازي عن آدم عن شعبة عن يعلى بن عطاء به وقال على شرط الشيخين ولم يخرجاه . قال ابن أبي حاتم وروى عن محمد بن كعب وقتاده وعكرمة نحو قول سعيد . وقال الإمام أحمد أخبرنا يحيى أخبرنا سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال عمر على أفضانا وأبي أقرؤنا وإنا لننسخ من قول أبي وذلك أن أبا يقول : ما أدع شيئا سمعته من رسول الله ﷺ والله يقول (ما ننسخ من آية أو ننسأها) بغير منها أو مثلها (قال البخاري أخبرنا يحيى أخبرنا سفيان عن حبيب بن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال عمر : أقرؤنا أبي وأفضانا على وإنا لننسخ من قول أبي وذلك أن أبا يقول : لا أدع شيئا سمعته من رسول الله ﷺ وقد قال الله (ما ننسخ من آية أو ننسها) وقوله (نأت بغير منها أو مثلها) أي في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (نأت بغير منها) يقول خير لكم في المنفعة وأرفق بكم . وقال أبو العالية (ما ننسخ من آية) فلا نعمل بها (أو ننسأها) أي نرجئها عندنا نأت بها أو نظيرها . وقال السدي (نأت بغير منها أو مثلها) يقول نأت بغير من الذي نسأها أو مثل الذي تركناه . وقال قتادة (نأت بغير منها أو مثلها) يقول آية فيها تخفيف فيها رخصة فيها أمر فيها نهى وقوله (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء فله الخلق والأمر وهو المتصرف فكما خلقهم كما يشاء ويسعد من يشاء ويشقى من يشاء ويصح من يشاء ويمرض من يشاء ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء كذلك

(١) هكذا في جميع النسخ التي بأيدينا وفي ابن جرير قال سمعت سعد بن أبي وقاص يقول ما ننسخ من آية أو ننسأها قلت له : فإن سعيد بن المسيب يقرأها أو ننسأها الخ

يحكم في عبادته بما يشاء فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويبسح ما يشاء ويحظر ما يشاء وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، ويختبر عبادته وطاعتهم لرسله بالنسخ فيما رسله لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى ثم ينهي عنه لما يعلمه تعالى ، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا ، وامتثال ما أمروا ، وترك ما عنه زجروا وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم لعنهم الله في دعوى استحالة النسخ إما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفرا وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكا قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : فتأويل الآية ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السموات والأرض وسلطانها دون غيري أحكم فيهما وفيما فيها بما أشاء وأمر فيهما وفيما فيها بما أشاء وأنهى عما أشاء وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي بما أشاء إذ أشاء وأقر فيهما ما أشاء ثم قال وهذا الخبر وإن كان خطابا من الله تعالى لنبينا ﷺ على وجه الخبر عن عظمته فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام لمحيتهما بما جاء به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانها وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيته وأن له أمرهم بما يشاء ونهيهم عما يشاء ونسخ ما يشاء وإقرار ما يشاء وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيته (قلت) الذي يجعل اليهود على البحث في مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى لأنه يحكم ما يشاء كما أنه يفعل ما يريد مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيته ثم حرم ذلك وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها ، وكان نكاح الأخنتين مباحا لاسرائيل وبنيه وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها وأمر ابراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخته قبل الفعل وأمر جمهور بني اسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل ، وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه ، وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية فلا يصرف الدلالة في المعنى إذ هو المقصود وكما في كتبهم مشهورا من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه ، فإنه يفيد وجوب متابعتهم عليه الصلاة والسلام وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته ، وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مغيية الى بعثته عليه السلام فلا يسمى ذلك نسخا لقوله (ثم أمموا الصيام إلى الليل) وقيل إنها مطلقة وإن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم نسختها ، فعلى كل تقدير فوجوب متابعتهم متعين لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى ، ففي هذا المقام بين تعالى جواز النسخ رداً على اليهود عليهم لعنة الله حيث قال تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ؟ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) الآية فكأن له الملك بلا منازع فكذلك له الحكم بما يشاء (ألا له الخلق والأمر) وقرئ (١)

في سورة آل عمران التي نزل في صدرها خطابا مع أهل الكتاب وقوع النسخ في قوله تعالى (كل الطعام كان حلالا لبني اسرائيل إلا ما حرم اسرائيل على نفسه) الآية كما سيأتي تفسيره والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى لما له في ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه . وقال أبو مسلم الأصبهاني المفسر : لم يقع شيء من ذلك في القرآن وقوله ضعيف مردود مردول . وقد تعسف في الأجوبة عما وقع من النسخ ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول لم يجب عن ذلك بكلام مقبول ، وقضية تحويل القبلة الى الكعبة عن بيت المقدس لم يجب بشيء ، ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة الاثنين ، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك والله أعلم .

﴿ أَمْ تَرَى يُدْعَوْنَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ

سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أى وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه فعله أن يحرم من أجل تلك المسألة : ولهذا جاء في الصحيح « إن أعظم المسامين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسئلته » ولما سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجحد مع امرأته رجلاً فان تكلم تكلم بأمر عظيم وإن سكت سكت على مثل ذلك فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها ، ثم أنزل الله حكم الملاعنة . ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة ابن شعبه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان ينهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال . وفي صحيح مسلم « ذروني ما تركتكم فأما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج فقال رجل أكل كل عام يارسول الله ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثاً . ثم قال عليه السلام « لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم » ثم قال « ذروني ما تركتكم » الحديث ولهذا قال أنس بن مالك : نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع . وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده أخبرنا أبو كريب أخبرنا إسحق بن سليمان عن أبي سنان عن أبي إسحق عن البراء ابن عازب قال : إن كان ليأتى على السنة أريد أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيء فأنهيب منه وإن كنا لنستغنى الأعراب . وقال البزار : أخبرنا محمد بن المثنى . أخبرنا ابن فضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مارأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ ما سألوهم الا عن اثنتي عشرة مسألة كلها في القرآن (يسألونك عن الحمر والميسر - و - يسألونك عن الشهر الحرام - ويسألونك عن اليتامى) يعنى هذا وأشباهه

وقوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) أى بل تريدون أو هى على بابها في الاستفهام وهو إنكارى وهو يعنى المؤمنين والكافرين فانه عليه السلام رسول الله الى الجميع كما قال تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) قال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال : قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه وفجر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك . فأنزل الله من قولهم (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل)

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) قال : قال رجل يارسول الله لو كانت كفارتنا ككفارة بنى إسرائيل فقال النبي ﷺ « اللهم لا نبغيها - ثلاثاً - ما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدوها مكتوبة على بابهم وكفارتها فان كفرها كانت له خزياً في الدنيا وان لم يكفرها كانت له خزياً في الآخرة ، فما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل » قال (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) وقال « الصلوات الخمس من الجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهن » وقال « من هم بسيرة فلم يعملها لم تكتب عليه وان عملها كتبت سيئة واحدة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وان عملها كتبت له عشر أمثالها ولا يهلك على الله إلا هالك » فأنزل الله (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) وقال مجاهد (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) ان يريهم الله جهرة قال : سألت قريش محمداً ﷺ ان يجعل لهم الصفا ذهباً قال « نعم وهو لكم كالمائدة لبنى إسرائيل » فأبوا ورجعوا . وعن السدى وقتادة نحو هذا والله أعلم والمراد ان الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعتن والاقتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكدياً وعناداً . قال الله تعالى (ومن يتبدل الكفر بالإيمان) أى ومن يشتر الكفر بالإيمان (فقد ضل سواء السبيل)

أى فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال. وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والاتباع لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار) وقال أبو العالية يتبدل الشدة بالرخاء .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْغُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو أو الاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه كما قال محمد بن إسحق ، حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال : كان حي بن أخطب وأبو ياسر ابن أخطب من أشد يهود العرب حسدا إذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا فأنزل الله فيهما (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم) الآية . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري في قوله تعالى (ود كثير من أهل الكتاب) قال هو كعب بن الأشرف ، وقال ابن أبي حاتم . أخبرنا أبي أخبرنا أبو الهيثم أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرا وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم وفيه أنزل الله (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم) إلى قوله (فاعفوا واصفحوا) وقال الضحاك عن ابن عباس أن رسولا أميا يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم ولكنهم جحدوا ذلك كفرا وحسدا وبغيا وكذلك قال الله تعالى (كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) يقول من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئا ولكن الحسد حملهم على الجحود فغيرهم وبخهم ولاهم أشد الملامة وشرع لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والاقرار بما أنزل الله عليهم وما أنزل من قبلهم بكرامته وثوابه الجزيل ومعوته لهم . وقال الربيع بن أنس (من عند أنفسهم) من قبل أنفسهم وقال أبو العالية (من بعد ما تبين لهم الحق) من بعد ما تبين أن محمدا رسول الله يجذونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل فكفروا به حسدا وبغيا إذ كان من غيرهم وكذا قال قتادة والربيع بن أنس وقوله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) مثل قوله تعالى (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) الآية . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) والسدى (١) وقوله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) نسخ ذلك قوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وقوله (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) إلى قوله (وهم صاغرون) ففسخ هذا عفوه عن المشركين وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقاتدة والسدى لأنها منسوخة بآية السيف ويرشد إلى ذلك أيضا قوله تعالى (حتى يأتي الله بأمره) وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا أبو الهيثم أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني عروة ابن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى . قال الله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) إن الله على كل شيء قدير) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول من العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيه بالقتل فقتل الله به من قتل من صناديد قرش وهذا إسناده صحيح ولم أره في شيء من الكتب الستة ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد .

(١) قوله والسدى وقوله الخ لعله زيادة من الناسخ فإنه ذكر بعد أن السدى قال بنسخ آية الغو يآيات السيف .

وقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) يفتحهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) ولهذا قال تعالى (إن الله بما تعملون بصير) يعني أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ولا يضيع لديه سواء كان خيراً أو شراً فإنه سيجازي كل عامل بعمله . وقال أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى (إن الله بما تعملون بصير) هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين أنهم مهما فعلوا من خير أو شر سرا وعلانية فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء فيجزئهم بالإحسان خيراً وبالإساءة مثلاً وهذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر فإن فيه وعداً ووعداً وأمرًا وزجراً وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليحذروا في طاعته إذ كان ذلك مذخوراً لهم عنده حتى يشبههم عليه كما قال تعالى (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) وليحذروا معصيته قال وأما قوله (بصير) فإنه مبصر صرف إلى بصير كما صرف مبدع إلى بديع ومؤلم إلى أليم والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا أبو زرعة أخبرنا ابن بكير حدثني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية سمع بصير يقول بكل شيء بصير .

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا (نحن أبناء الله وأحباؤه) فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة ورد عليهم تعالى في ذلك وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوا بها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال (تلك أمانيتهم) وقال أبو العالية أمانى تمنوها على الله بغير حق وكذا قال قتادة والربيع بن أنس ثم قال تعالى (قل) أي يا محمد (هاتوا برهانكم) قال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس حجتكم وقال قتادة بينكم على ذلك (إن كنتم صادقين) أي فيما تدعون ، ثم قال تعالى (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن) أي من أخلص العمل لله وحده لا شريك له كما قال تعالى (فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن) الآية وقال أبو العالية والربيع (بلى من أسلم وجهه لله) يقول من أخلص لله وقال سعيد بن جبير (بلى من أسلم) أخلص (وجهه) قال دينه (وهو محسن) أي اتبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فان للعمل المتقبل شرطين أحدهما أن يكون خالصاً لله وحده والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشرعة فحق كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » رواه مسلم من حديث عائشة عنه عليه الصلاة والسلام فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث إليهم وإلى الناس كافة وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) وقال تعالى (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية) وروى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه تأولها

في الرهبان كما سيأتي ، وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضاً مردود على فاعله وهذا حال المرائين والنافقين كما قال تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً) وقال تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) ولهذا قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وقال في هذه الآية الكريمة (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن) وقوله (فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وآمنهم مما يخافونه من المحذور (لا خوف عليهم) فيما يستقبلونه ، (ولا هم يحزنون) على ماضى مما يتركونه ، كما قال سعيد بن جبير (لا خوف عليهم) يعنى في الآخرة (ولا هم يحزنون) يعنى لا يحزنون للموت .

وقوله تعالى (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب) بين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاندهم ، كما قال محمد بن إسحق : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ ، أتتهم أخبار يهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ ، فقال رافع بن حرملة : ما أتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة . فأنزل الله في ذلك من قولهما (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب) قال إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به أن يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى وما جاء من التوراة من عند الله وكل يكفر بما في يد صاحبه ، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء . وقال قتادة (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء) قال بلى قد كانت أوائل النصارى على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا (وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) قال بلى قد كانت أوائل اليهود على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا ، وعنه رواية أخرى كقول أبي العالية والريبع بن أنس في تفسير هذه الآية (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وهذا القول يقتضى أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى ولكن ظاهر سياق الآية يقتضى ذمهم فيما قالوه مع علمهم بخلاف ذلك ولهذا قال تعالى (وهم يتلون الكتاب) أى وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل كل منهما قد كانت مشروعة في وقت ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلة للفساد بالفاسد كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد وقاتدة في الرواية الأولى عنه في تفسيرها والله أعلم وقوله (كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) بين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول وهذا من باب الإيماء والإشارة . وقد اختلف فيمن عني بقوله تعالى (الذين لا يعلمون) فقال الربيع بن أنس وقاتدة (كذلك قال الذين لا يعلمون) قالوا : وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم . وقال ابن جريج : قلت لعطاء من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل وقال السدى كذلك (قال الذين لا يعلمون) فهم العرب قالوا ليس محمد على شيء ، واختار أبو جعفر بن جرير انهامة تصلح للجميع وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال والحمل على الجميع أولى والله أعلم . وقوله تعالى (فالحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجرور فيه ولا يظلم مثقال ذرة ، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد) وكما قال تعالى (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا ﴾

إِلَّا خَائِفِينَ * لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها على قولين : أحدهما ما رواه العوفي في تفسيره عن ابن عباس في قوله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) قال هم النصارى . وقال مجاهد هم النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في قوله (وسعى في خرابها) قال هو يختصر وأصحابه خرب بيت المقدس وأعانه على ذلك النصارى . وقال سعيد عن قتادة : قال أولئك أعداء الله النصارى حملهم بغض اليهود على أن أعانوا يختصر البابى المجوسى على تخريب بيت المقدس . وقال السدى : كانوا ظاهروا يختصر على خراب بيت المقدس حتى خربه وأمر أن تطرح فيه الجيف وإنما أعانه الروم على خرابه من أجل أن بنى إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا . وروى نحوه عن الحسن البصرى (القول الثانى) ما رواه ابن جرير : حدثنى يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها) قال هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذي طوى وهادنهم وقال لهم « ما كان أحد يصد عن هذا البيت ، وقد كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فلا يصدده » فقالوا لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باقى . وفي قوله (وسعى في خرابها) قال إذ قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحج والعمرة . وقال ابن أبى حاتم ذكر عن سلمة قال . قال محمد بن إسحق . حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد ابن جبير عن ابن عباس أن قريشاً منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام فأنزله الله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) ثم اختار ابن جرير القول الأول واحتج بأن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس (قلت) والذى يظهر . والله أعلم . القول الثانى كما قاله ابن زيد . وروى عن ابن عباس لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس كان دينهم أقوم من دين اليهود وكانوا أقرب منهم ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . وأيضاً فإنه تعالى لما وجه النعم في حق اليهود والنصارى شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة ومنعوه من الصلاة في المسجد الحرام وأما اعتداده على أن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة ، فأى خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه واستحذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم كما قال تعالى (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال تعالى (ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون) * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وقال تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً) فقال تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها فأى خراب لها أعظم من ذلك ؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها ورفعها عن الدنس والشرك . وقوله تعالى (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) هذا خبر معناه الطلب أى لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى « ألا لا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ومن كان له أجل فأجله الى مدته » وهذا إذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) وقال بعضهم ما كان ينبغى لهم

أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين على حال التهييب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها . والمعنى ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وغيرهم وقيل إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم . وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقى بحزيرة العرب دينان وأن يحلّي اليهود والنصارى منها والله الحمد والمنة . وما ذاك إلا تشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله وسلامه عليه وهذا هو الحزى لهم في الدنيا لأن الجزاء من جنس العمل فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صدوا عنه وكما أجلوهم من مكة أجلوها عنها (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتنهوه من نصب الأصنام حوله ودعاء غير الله عنده والطواف به عربياً وغير ذلك من أفعالهم التي يكرهها الله ورسوله وأما من فسر بيت المقدس فقال كعب الأحرار إن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خربوه فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) الآية فليس في الأرض نصراني يدخل بيت المقدس إلا خائفاً . وقال السدي فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها . وقال قتادة لا يدخلون المساجد إلا مسارقة (قلت) وهذا لا ينبغي أن يكون داخلاً في معنى عموم الآية فإن النصارى لما ظلموا بيت المقدس بامتهان الصخرة التي كانت تصلي إليها اليهود عوقبوا شرعاً وقدرا بالدلة فيه إلا في أحيان من الدهر أشحن بهم بيت المقدس . وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه أيضاً أعظم من عصيان النصارى كانت عقوبتهم أعظم والله أعلم . وفسر هؤلاء الحزى في الدنيا بخروج المهدي عند السدي وعكرمة ووائل بن داود ، وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون . والصحيح أن الحزى في الدنيا أعم من ذلك كله ، وقد ورد الحديث بالاستعاذه من خزي الدنيا وعذاب الآخرة كما قال الإمام أحمد أخبرنا الهيثم بن خارجة أخبرنا محمد بن أيوب بن ميسرة بن حلس سمعت أبي يحدث عن بشر بن أرطاة . قال كان رسول الله ﷺ يدعو « اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » وهذا حديث حسن وليس في شيء من الكتب الستة وليس لصحابيه وهو بشر بن أرطاة ويقال ابن أبي أرطاة حديث سواء وسوى حديث لا تقطع الأيدي في الغزو

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَالِيمٌ ﴾

وهذا والله أعلم فيه تسلياً للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه . فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد ولهذا يقول تعالى (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب النسخ والمنسوخ : أخبرنا حجاج بن محمد أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس قال : أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة . قال الله تعالى (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرفه إلى بيته العتيق ونسخها . فقال (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة . وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أهلها اليهود أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم وكان يدعو

وينظر إلى السماء فأزل الله (قد نرى تقلب وجهك في السماء) إلى قوله (فولوا وجوهكم شطره) فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فأنزل الله (قل لله المشرق والمغرب) وقال (فأينما تولوا فثم وجه الله) وقال عكرمة عن ابن عباس (فأينما تولوا فثم وجه الله) قال قبة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً . وقال مجاهد (فأينما تولوا فثم وجه الله) حينما كنتم فلكم قبة تستقبلونها الكعبة . وقال ابن أبي حاتم بعد رواية الأثر المتقدم عن ابن عباس في نسخ القبة عن عطاء عنه وروى عن أبي العالية والحسن وعطاء الخراساني وعكرمة وقتادة والسدي وزيد بن أسلم نحو ذلك . وقال ابن جرير وقال آخرون بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة وإنما أنزلها ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية إلا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية لأن له تعالى المشرق والمغرب وأنه لا يخلو منه مكان كما قال تعالى (ولأدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) قالوا ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام هكذا قال . وفي قوله وأنه تعالى لا يخلو منه مكان إن أراد علمه تعالى فصحيح ، فإن علمه تعالى محيط بجميع المعلومات ، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة في شيء من خلقه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا من الله أن يصلي التطوع حيث توجه من شرق أو غرب في مسيره في سفره وفي حال المسافة وشدة الخوف . حدثنا أبو كريب أخبرنا ابن إدريس حدثنا عبد الملك هو ابن أبي سليمان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته . ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتسأل هذه الآية (فأينما تولوا فثم وجه الله) ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن طرق عن عبد الملك بن أبي سليمان به وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة من غير ذكر الآية . وفي صحيح البخاري من حديث نافع عن ابن عمر أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها : ثم قال فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجلاً قايماً على أقدامهم وركبانا مستقبلي القبة وغير مستقبليها . قال نافع ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ

مسألة : ولم يفرق الشافعي في المشهور عنه بين سفر المسافة وسفر العدوى فالجميع عنه يجوز التطوع فيه على الراحلة وهو قول أبي حنيفة خلافاً لمالك وجماعته واختار أبو يوسف وأبو سعيد الاصطخري التطوع على الدابة في المصر وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك رضي الله عنه واختاره أبو جعفر الطبري حتى للعاشي أيضاً . قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية في قوم سميت عليهم القبة فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أنحاء مختلفة فقال الله تعالى : لي المشرق والمغرب فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهي وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية . حدثنا محمد بن إسحق الأهوازي أخبرنا أبو أحمد الزبيري أخبرنا أبو الربيع السمان عن عاصم بن عبيد الله عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً يصلي فيه ، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبة فقلنا يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبة فأنزل الله تعالى (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) الآية ثم رواه عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن أبي الربيع السمان بنحوه . ورواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن وكيع وابن ماجه عن يحيى بن حكيم عن أبي داود عن أبي الربيع السمان ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح عن سعيد بن سليمان عن أبي الربيع السمان واسمه أشعث بن سعيد البصري وهو ضعيف الحديث وقال الترمذي هذا حديث حسن وليس إسناده بذلك ولا يعرفه إلا من حديث الأشعث السمان ، وأشعث يضعف في الحديث . قلت وشيخه عاصم أيضاً ضعيف . قال البخاري منكر الحديث . وقال ابن معين : ضعيف لا يحتج به وقال ابن حبان . متروك والله أعلم

وقد روى من طريق آخر عن جابر فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية أخبرنا إسماعيل بن علي ابن إسماعيل أخبرنا الحسن بن علي بن شبيب حدثني أحمد بن عبد الله بن الحسن قال : وجدت في كتاب أبي أخبرنا

عبد الملك العزري عن عطاء بن جابر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة فقالت طائفة منا قد عرفنا القبلة هي ههنا قبل الشمال فصولوا وخطوا خطوطا فلما أصبحوا وطعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي صلى الله عليه وسلم فسكت وأنزل الله تعالى (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) ثم رواه من حديث محمد بن عبيد الله العزري عن عطاء بن جابر به ، وقال الدارقطني قرئ على عبد الله بن عبد العزيز وأنا أسمع حدثكم داود بن عمرو أخبرنا محمد بن يزيد الواسطي عن محمد بن سالم عن عطاء بن جابر قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأصابنا غيم فتجبرنا فاختلفنا في القبلة فصلى كل رجل منا على حدة وجعل أحدها يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا فذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يأمرنا بالإعادة وقال قد أجازت صلاتكم ثم قال الدارقطني كذا قال عن محمد بن سالم ، وقال غيره عن محمد بن عبد الله العزري عن عطاء وهما ضعيفان ، ورواه ابن مردويه أيضا من حديث الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث سرية فأخذتهم ضبابة فلم يهتدوا إلى القبلة فصولوا لغير القبلة ثم استبان لهم بعد ما طلعت الشمس أنهم صالوا لغير القبلة ، فلما جاءوا إلى رسول الله ﷺ حدثوه فأنزل الله تعالى هذه الآية (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) وهذه الأسانيد فيها ضعف ولعله يشد بعضها بعضا وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء وهذه دلائل على عدم القضاء والله أعلم .

قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي كما حدثنا محمد بن بشار أخبرنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن أحاكم قد مات فصولوا عليه قالوا نصلى على رجل ليس بمسلم ؟ قال فنزلت (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) قال قتادة فقالوا إنه كان لا يصلى إلى القبلة فأنزل الله (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) وهذا غريب والله أعلم وقد قيل إنه كان يصلى إلى بيت المقدس قبل أن يبلغه الناسخ إلى الكعبة كما حكاه القرطبي عن قتادة وذكر القرطبي أنه لما مات صلى عليه رسول الله ﷺ فأخذ بذلك من ذهب إلى الصلاة على الغائب قال وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه - أحدها - أنه عليه السلام شاهده حين سوي عليه طويت له الأرض . الثاني أنه لما لم يكن عنده من يصلى عليه صلى عليه واختاره ابن العربي ، قال القرطبي ويبعد أن يكون ملك مسلم ليس عنده أحد من قومه على دينه وقد أجاب ابن العربي عن هذا لعلمهم لم يكن عندهم شرعية الصلاة على الميت . وهذا جواب جيد : الثالث أنه عليه الصلاة والسلام إنما صلى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقية الملوك والله أعلم .

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث أبي معشر عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سالم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بين المشرق والمغرب قبلة لأهل المدينة وأهل الشام وأهل العراق » وله مناسبة ههنا وقد أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي معشر واسمه نجيح بن عبد الرحمن السدي المدني به « ما بين المشرق والمغرب قبلة » وقال الترمذي وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة وتكلم بعض أهل العلم في أبي معشر من قبل حفظه ، ثم قال الترمذي حدثني الحسن بن بكر المروزي أخبرنا المعلى بن منصور أخبرنا عبد الله بن جعفر الخزومي عن عثمان بن محمد بن المغيرة الأخنس (١) عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما بين المشرق والمغرب قبلة » ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ، وحكى عن البخاري أنه قال هذا أقوى من حديث أبي معشر وأصح ، قال الترمذي وقد روى عن غير واحد من الصحابة « ما بين المشرق والمغرب قبلة » منهم عمر بن الخطاب وعطى وابن عباس رضى الله عنهم أجمعين . وقال ابن عمر إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك لما بينهما قبلة إذا استقبلت القبلة ثم قال ابن مردويه حدثنا علي بن أحمد بن عبد الرحمن أخبرنا يعقوب بن يوسف مولى بني هاشم أخبرنا شعيب بن أيوب أخبرنا ابن نمير عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما بين المشرق والمغرب قبلة » وقد رواه الدارقطني والبيهقي : وقال المشهور عن ابن عمر عن عمر رضى

(١) في خلاصة تذهيب الكمال وفي صحيح الترمذي أيضا عبد الله بن جعفر الخزومي عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأحمس اهـ

الله عنهما قوله (١) قال ابن جرير ويحتمل فأينا تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهناك وجهي أستجيب لكم دعاءكم كما حدثنا القاسم أخبرنا الحسين حدثني حجاج قال . قال ابن جرير : قال مجاهد لما نزلت (ادعوني أستجب لكم) قالوا إلى أين فنزلت (فأينا تولوا فثم وجه الله) قال ابن جرير ومعنى قوله (إن الله واسع عليم) يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال : وأما قوله (عليم) فإنه يعنى عليم بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم .
﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قُنُوتٌ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها على الرد على النصارى عليهم لعائن الله وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم إن الله ولدا فقال تعالى (سبحانه) أى تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا (بل له ما في السموات والأرض) أى ليس الأمر كما افترضوا وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء والجميع عبيده وملك له فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متولدا من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد ؟ كما قال تعالى (بدیع السموات والأرض أى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتية يوم القيامة فردا) وقال تعالى (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد) فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبه له وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد ؟ ولهذا قال البخارى في تفسير هذه الآية من البقرة : أخبرنا أبو اليان أخبرنا شعيب عن عبد الله بن أبي الحسين حدثنا نافع بن جبير هو ابن مطعم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياي فقوله إن لي ولدا فسبحاني أن اتخذ صاحبة أو ولدا » انفرد به البخارى من هذا الوجه . وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل أخبرنا محمد بن محمد بن إسماعيل الترمذى أخبرنا محمد بن إسحق بن محمد القروى أخبرنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى كذبني ابن آدم وما ينبغي له أن يكذبني وشتمني وما ينبغي له أن يشتمني ، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولدا . وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يزعمهم ويعافهم » وقوله (كل له قاتنون) قال ابن أبي حاتم أخبرنا أبو سعيد الأشج أخبرنا أسباط عن مطرف عن عطية عن ابن عباس قال (قاتنين) مصلين وقال عكرمة وأبو مالك (كل له قاتنون) مقرون له بالعبودية وقال سعيد بن جبير كل له قاتنون يقول الاخلاص وقال الربيع بن أنس يقول (كل له قاتنون) أى قائم يوم القيامة ، وقال السدى (كل له قاتنون) أى مطيعون يوم القيامة ، وقال خفيف عن مجاهد (كل له قاتنون) قال مطيعون كن إنسانا فكان ، وقال كن حمارا فكان ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد كل له قاتنون مطيعون قال طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره وهذا القول عن مجاهد وهو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها وهو أن القنوت والطاعة والاستكانة إلى الله وهو شرعى وقدرى كما قال تعالى (والله يسجد من في السموات ومن في الأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) . وقد ورد حديث فيه بيان القنوت في القرآن ما هو المراد به كما قال ابن أبي حاتم أخبرنا يوسف بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمع حدثه عن أبي الهيثم عن

(١) كذا في الأصل ولعله « من قوله » أى أنه غير مرفوع .

أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » وكذا رواه الإمام أحمد عن حسن بن موسى عن ابن أبي ليثة عن دراج بإسناده مثله ولكن في هذا الإسناد ضعف لا يعتمد عليه ، ورفع هذا الحديث منكر وقد يكون من كلام الصحابي أو من دونه والله أعلم . وكثير ما يأتي بهذا الإسناد تفاسير فيها نكارة فلا يغتر بها فإن السند ضعيف والله أعلم :

وفوته تعالى (بديع السموات والأرض) أي خالقها على غير مثال سبق : قال مجاهد والسدى وهو مقتضى اللغة ومنه يقال للشيء المحدث بدعة كما جاء في صحيح مسلم فإن كل محدثة بدعة وبدعة على قسمين تارة تكون بدعة شرعية كقوله « فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » وتارة تكون بدعة لغوية كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إليهم على صلاة التراويح واستمرارهم : نعمت البدعة هذه وقال ابن جرير (بديع السموات والأرض) مبدعها وإمامها مفعل فصرف إلى فعل كما صرف المؤلم إلى الألم والسمع إلى السميع ومعنى المبدع المحدث والمحدث مالا يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد قال ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعا لإحداثه فيه مالم يسبق إليه غيره وكذلك كل محدث قول أو فعلا لم يتقدم فيه متقدم فإن العرب تسميه مبتدعا ومن ذلك قول أعشى بن ثعلبة في مدح هوزة بن علي الحنفي

يدعى إلى قول سادات الرجال إذا * أبدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا

أي يحدث ما شاء قال ابن جرير فمعنى الكلام سبحانه الله أن يكون له ولد وهو مالك ما في السموات والأرض تشهد له جميعها بدلاتها عليه بالوحدانية وتقر له بالطاعة وهو بارئها وخالقها وموجد لها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه وهذا إعلام من الله لعباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بنوته وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد وعبارة صحيحة . وقوله تعالى وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه إذا قدر أمرا وأراد كونه فإنما يقول له كن أي مرة واحدة فيكون أي فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وقال تعالى (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وقال تعالى (وما أمرنا إلا واحدة فكلح بالبصر) وقال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمرا فإنما يقول له كن قوله فيكون

ونبه بذلك أيضاً على أن خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره الله ، قال الله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

قال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس ، قال قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ يا محمد إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله في ذلك من قوله (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) وقال مجاهد (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) قال النصارى تقوله ، وهو اختيار ابن جرير قال لأن السياق فيه . وفي ذلك نظر وحكى القرطبي (لولا يكلمنا الله) أي يخاطبنا بنبوتك يا محمد (قلت) وهو ظاهر السياق والله أعلم ، وقال أبو العالية والريعي بن أنس وقتادة والسدى في تفسير هذه الآية هذا قول كفار العرب (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) قال هم اليهود والنصارى ويؤيد هذا القول وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب قوله تعالى (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتى رسل الله) الآية وقوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) إلى قوله (قل سبحانه ربى هل كنت إلا بشرا رسولا) وقوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا

الملائكة أوتى ربنا الآية وقوله تعالى (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منسورة) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم مالا حاجة لهم به إنما هو الكفر والعناد كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم كما قال تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أأنزلنا الله جهرة) وقال تعالى (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وقوله تعالى (تشابهت قلوبهم) أى أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو كما قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به ؟) الآية وقوله تعالى (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) أى قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن أيقن وصدق واتبع الرسل وفهم ما جاءوا به عن الله تبارك وتعالى وأما من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فأولئك قال الله فيهم (إن الذين حقن عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾

قال ابن أبي حاتم حدثنا أني أخبرنا عبد الرحمن بن صالح أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الفزاري عن شيان النحوي أخبرني قتادة عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « أنزلت على (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً) قال بشيراً بالجنة ونذيراً من النار » وقوله (ولا تسئل عن أصحاب الجحيم) قراءة أكثرهم ولا تسئل بضم التاء على الخبر وفي قراءة أبي بن كعب وما تسئل وفي قراءة ابن مسعود ولن تسئل عن أصحاب الجحيم قلبها ابن جرير أى لا نسألك عن كفر من كفر بك كقوله (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وكقوله تعالى (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) الآية وكقوله تعالى (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) وأشبه ذلك من الآيات ، وقرأ آخرون « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » بفتح التاء على النهي أى لا تسأل عن حالهم كما قال عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظي قال ، قال رسول الله ﷺ « ليت شعري ما فعل أبواي ليت شعري ما فعل أبواي ليت شعري ما فعل أبواي ؟ » فنزلت (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) فما ذكرها حتى توفاه الله عز وجل ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن وكيع عن موسى بن عبيدة وقد تكلموا فيه عن محمد بن كعب بمثله وقد حكاه القرطبي عن ابن عباس ومحمد بن كعب قال القرطبي : وهذا كما يقال لا تسأل عن فلان أى قد بلغ فوق ما تحسب وقد ذكرنا في التذكرة أن الله أحياه أبويه حتى آمنّا به وأجبنا عن قوله « إن أبي وأباك في النار » (قلت) والحديث المروى في حياة أبويه عليه السلام ليس في شيء من الكتب الستة ولا غيرها وإسناده ضعيف والله أعلم . ثم قال ابن جرير وحدثني القاسم أخبرنا الحسين حدثني حجاج عن ابن جريج أخبرني داود بن أبي عاصم به أن النبي ﷺ قال ذات يوم « أين أبواي ؟ » فنزلت (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) وهذا مرسل كالذي قبله وقد رد ابن جرير هذا القول المروى عن محمد بن كعب وغيره في ذلك لاستحالة الشك من الرسول ﷺ في أمر أبويه واختار القراءة الأولى وهذا الذي سلكه ههنا فيه نظر لاحتمال أن هذا كان في حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما فلما علم ذلك تبرأ منهما وأخبر عنهما أنهما من أهل النار كما ثبت هذا في الصحيح ، ولهذا أشباه كثيرة ونظائر ولا يلزم ما ذكر ابن جرير والله أعلم

وقال الإمام أحمد أخبرنا موسى بن داود حدثنا فليح بن سليمان عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله ابن عمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن . يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمينين : وأنت عدي ورسولي سميتك التوكل ، لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً . انفراد بإخراجه

البخارى فرواه في السيوع عن محمد بن سنان عن فليح به وقال تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال . وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام ، ورواه في التفسير عن عبد الله عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن عمرو بن عمرو بن العاص به فذكر نحوه ، فعبد الله هذا هو ابن صالح كما صرح به في كتاب الأدب ، وزعم ابن مسعود الدمشقي أنه عبد الله بن رجاء ، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية من البقرة عن أحمد بن الحسن ابن أيوب عن محمد بن أحمد بن البراء عن العافى بن سليمان عن فليح به وزاد : قال عطاء ثم لقيت كعب الأخبار فسألته فما اختلفا في حرف إلا أن كعباً قال : بلغته أعينا عمومي وأذانا صمومي وقلوباً غلوفاً

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ أُتِيتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

قال ابن جرير يعني بقوله جل ثناؤه (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً فدفع طلب ما يرضيهم ويوافقهم وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق ، وقوله تعالى (قل إن هدى الله هو الهدى) أى قل يا محمد إن هدى الله الذى بعثنى به هو الهدى يعنى هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل ، قال قتادة في قوله (قل إن هدى الله هو الهدى) قال خصومة علمها الله محمداً ﷺ وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة ، قال قتادة : وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » (قلت) هذا الحديث مخرج في الصحيح عن عبد الله بن عمرو (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير) فيه تهديد ووعد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة عياداً بالله من ذلك فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمرته : وقد استدلل كثير من الفقهاء بقوله (حتى تتبع ملتهم) حيث أفرد المسألة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى (لكم دينكم ولى دين) فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا لأنهم كلهم ملة واحدة وهذا مذهب الشافعى وأبى حنيفة وأحمد في رواية عنه ، وقال في الرواية الأخرى كقول مالك ، إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى كما جاء في الحديث والله أعلم - وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : هم اليهود والنصارى وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وقال سعيد عن قتادة : هم أصحاب رسول الله ﷺ وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبى أخبرنا إبراهيم بن موسى وعبد الله بن عمران الاصبهاني قال أخبرنا يحيى بن يمان حدثنا أسامة بن زيد عن أبيه عن عمر ابن الخطاب (يتلونه حق تلاوة) قال : إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة ، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار ، وقال أبو العالية قال ابن مسعود والذى نفسى بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأ كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ومنصور ابن العتمة عن ابن مسعود قال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال : يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه . قال ابن أبي حاتم : وروى عن ابن مسعود نحوه ذلك ، وقال الحسن البصرى : يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكونون مأشكلاً عليهم إلى عالمه . وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبو زرعة أخبرنا إبراهيم بن موسى أخبرنا ابن أبى زائدة أخبرنا داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (يتلونه حق تلاوته) قال . يتبعونه حق اتباعه ثم قرأ (والقمر إذا تلاها) يقول اتبعها قال . وروى عن عكرمة وعطاء ومجاهد وأبى رزين وإبراهيم النخعي نحوه ذلك . وقال سفيان الثوري أخبرنا زيد عن مرة عن عبد الله بن مسعود في قوله (يتلونه حق تلاوته) قال

يتبعونه حق اتباعه ، قال القرطبي وروى نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله (يتلون حق تلاوته) قال « يتبعونه حق اتباعه » ثم قال في إسناده غير واحد من المجبولين فيما ذكره الخطيب إلا أن معناه صحيح . وقال أبو موسى الأشعري : من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة وعن عمر بن الخطاب : هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله ، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها قال : وقد روى هذا المعنى عن النبي ﷺ أنه كان إذا مر بآية رحمة سأل ، وإذا مر بآية عذاب تعوذ وقوله (أولئك يؤمنون به) خبر عن (الذين آتيناهم الكتاب يتلون حق تلاوته) أى من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته آمن بما أرسلتكم به يا محمد كما قال تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) الآية وقال (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) أى إذا أقمتموها حق الإقامة وآمنتم بها حق الإيمان وصدقتم ما فيها من الأخبار ببعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومواظبته قادم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) الآية وقال تعالى (قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً) أى إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعاً وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون) وقال تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فأن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فأنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) ولهذا قال تعالى (ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) كما قال تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) . وفي الصحيح « والذي نفسى بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » .

﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمرته فحذرهم من كتمان هذا ، وكتمان ما أنعم به عليهم وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدنيوية ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم ، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين

﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَهِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

يقول تعالى منبها على شرف إبراهيم خليله عليه السلام وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي ولهذا قال (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) أى واذكريا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها وإنما الذى هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أى اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي (فأتمهن) أى قام بهن كلهن كما قال تعالى (وإبراهيم الذى وفى) أى وفى جميع ما شرع له فعمل به صلوات الله عليه وقال تعالى : (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله خفيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتنباً وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن

الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين (وقال تعالى (قل إني هدى ربي الى صراط مستقيم * ديناً قبيحاً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وقال تعالى (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً لكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) وقوله تعالى (بكلمات) أى بشرائع وأوامر ونواه ، فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدسية كقوله تعالى عن مريم عليها السلام (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وتطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) أى كلماته الشرعية ، وهى إما خبر صدق وإما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً ومن ذلك هذه الآية الكريمة (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) أى قام بهن قال (إني جاعلك للناس إماماً) أى جزاء على ما فعل كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به ويحتذى حذوه وقد اختلف في تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام ، فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال ابن عباس : ابتلاه الله بالمناسك ، وكذا رواه أبو إسحق السبيعي عن التميمي عن ابن عباس . وقال عبد الرزاق أيضاً أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) قال ابتلاه بالطهارة خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وفى الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان وتنف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء ، قال ابن أبي حاتم : وروى عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبي والنخعي وأبي صالح وأبي الجلد (١) نحو ذلك (قلت) وقريب من هذا ما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « عشر من الفطرة قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم وتنف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء . ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة » . قال وكيع : انتقاص الماء يعنى الاستنجاء وفى الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « الفطرة خمس : الختان والاستحذاء وقص الشارب وتقليم الأظفار وتنف الإبط » ولفظه لمسلم . وقال ابن أبي حاتم : أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن حنن بن عبد الله الصنعاني عن ابن عباس أنه كان يقول فى تفسير هذه الآية (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال عشر ست فى الإنسان وأربع فى الشاعر . فأما التى فى الإنسان حلق العانة وتنف الإبط والختان (٢) وكان ابن هبيرة يقول : هؤلاء الثلاثة واحدة ، وتقليم الأظفار وقص الشارب والسواك وغسل يوم الجمعة والأربعة التى فى الشاعر الطواف والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار والإفاضة . وقال داود ابن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم قال الله تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قلت له وما الكلمات التى ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن ؟ قال : الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات فى براءة (التائبون العابدون) الى آخر الآية ، وعشر آيات فى أول سورة (قد أفلح المؤمنون) و (سأل سائل بعذاب واقع) وعشر آيات فى الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات) الى آخر الآية فأتمهن كلهن فكتبت له براءة قال الله (وإبراهيم الذى وفى) هكذا رواه الحاكم وأبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبي حاتم بأسانيدهم الى داود بن أبي هند به وهذا لفظ ابن أبي حاتم وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال : الكلمات التى ابتلى الله بها إبراهيم فأتمهن ، فراق قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم . ومحاجته نمرود فى الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذى فيه خلافة ، وصبره على قذفه إياه فى النار ليحرقوه فى الله على هول ذلك من أمرهم ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده فى الله حين أمره بالخروج عنهم وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله ، وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمره . بذبحه ، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له (أسلم قال أسلمت لرب العالمين) على ما كان من خلاف الناس وفراقهم . وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبو سعيد الأشج أخبرنا إسحاق بن علية عن أبي رجاء

(١) فى ابن جرير أبى الجلد فليحرر . (٢) كذا فى النسخ المطبوعة ونسخة خزافة الأزهر المخطوطة وفى الدر المنثور وأو الختان وبهذا التشكيك يصح العدد ، وليس فيه : هؤلاء الثلاثة واحدة .

عن الحسن يعني البصري (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال ابتلاه بالكوكب فرضى عنه ، وابتلاه بالقمر فرضى عنه ، وابتلاه بالشمس فرضى عنه ، وابتلاه بالحجارة فرضى عنه ، وابتلاه بالحنان فرضى عنه ، وابتلاه بابنه فرضى عنه . وقال ابن جرير أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع أخبرنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول إني والله لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه - ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر فأحسن في ذلك وعرف أن ربه دائم لا يزول فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما كان من المشركين ، ثم ابتلاه بالحجارة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله ، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك وابتلاه بذبح ابنه والحنان فصبر على ذلك وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن معمر الحسن يقول في قوله (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) قال ابتلاه الله بذبح ولده وبالنار وبالكوكب والشمس والقمر وقال أبو جعفر بن جرير أخبرنا ابن بشار أخبرنا سلم بن قتيبة أخبرنا أبو هلال عن الحسن (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) قال ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر فوجده صابراً وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) فمنهن (قال إني جاعلك للناس إماماً) ومنهن (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) ومنهن الآيات في شأن المنسك والمقام الذي جعل لإبراهيم والرزق الذي رزق ساكنو البيت ومحمد بعث في دينهما : وقال ابن أبي حاتم أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا شاذان عن ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال الله لإبراهيم إني مبتليك بأمر فما هو ؟ قال : تجعلني للناس إماماً ؟ قال نعم : قال : ومن ذريتي ؟ (قال لا ينال عهدى الظالمين) قال : تجعل البيت مثابة للناس . قال نعم : قال : وأمنأ . قال نعم : قال وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . قال نعم . قال : وترزق أهلهم من الثمرات من آمن منهم بالله . قال نعم قال ابن أبي نجيح سمعته من عكرمة فرضته على مجاهد فلم ينكره ، وهكذا رواه ابن جرير من غير وجه عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وقال سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال ابتلى بالآيات التي بعدها (إني جاعلك للناس إماماً . قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدى الظالمين) وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) قال الكلمات (إني جاعلك للناس إماماً) وقوله (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنأ) وقوله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقوله (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل) الآية وقوله (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) الآية قال فذلك كله من الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم ، وقال السدي الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم ربه (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) . وقال القرطبي وفي الموطأ وغيره عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إبراهيم عليه السلام أول من اختن وأول من ضاف الضيف وأول من قلم أظفاره وأول من قص الشارب وأول من شاب فلما رأى الشيب قال ما هذا ؟ قال وقار قال . يارب زدني وقاراً وذكر ابن أبي شيبة عن سعد بن إبراهيم عن أبيه قال أول من خطب على المنابر إبراهيم عليه السلام ، قال غيره وأول من برد البريد وأول من ضرب بالسيف وأول من استنحى بالماء وأول من لبس السراويل ، وروى عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ « إن اتخذ المنبر فقد اتخذ أبي إبراهيم ، وإن اتخذ العصا فقد اتخذها أبي إبراهيم » (قلت) هذا حديث لا يثبت والله أعلم . ثم شرع القرطبي يتكلم على ما يتعلق بهذه الأشياء من الأحكام الشرعية .

قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع قال ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له . قال غير أنه قد روى عن النبي ﷺ في نظير معنى ذلك خبران أحدهما ما حدثنا به أبو كريب أخبرنا راشد بن سعد حدثني زبائن بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس قال كان النبي ﷺ يقول « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله . الذي وفي . لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى . (سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون) إلى آخر الآية » قال والآخر منهما

ما حدثنا به أبو كريب أخبرنا الحسن عن عطية أخبرنا إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ (وإبراهيم الذي وفى) قال « أتدرون ما وفى ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « وفى عمله يومه أربع ركعات فى النهار » ورواه آدم فى تفسيره عن حماد بن سلمة وعبد بن حميد عن يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن جعفر بن الزبير به ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين وهو كما قال فإنه لا يجوز روايتهما إلا ببيان ضعفهما وضعفهما من وجوه عديدة فإن كلا من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء مع ما فى متن الحديث مما يدل على ضعفه والله أعلم . ثم قال ابن جرير ولو قال قائل إن الذى قاله مجاهد وأبو صالح والريبع بن أنس أولى بالصواب من القول الذى قاله غيره كان مذهبا لأن قوله (إني جاعلك للناس إماما) وقوله (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين) الآية وسائر الآيات التى هى نظير ذلك كالبیان عن الكلمات التى ذكر الله أنه ابتلى بهن إبراهيم (قلت) والذى قاله أولا من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر أقوى من هذا الذى جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله لأن السياق يعطى غير ما قالوه والله أعلم

وقوله قال (ومن ذريتي) قال (لا ينال عهدى الظالمين) لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون وأنه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى فى سورة العنكبوت (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) فكل نبى أرسله الله وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم فى ذريته صلوات الله وسلامه عليه وأما قوله تعالى (قال لا ينال عهدى الظالمين) فقد اختلفوا فى ذلك فقال خفيف عن مجاهد فى قوله (قال لا ينال عهدى الظالمين) قال إنه سيكون فى ذريته ظالمون ، وقال ابن أبى نجیح عن مجاهد (قال لا ينال عهدى الظالمين) قال لا يكون لى إمام ظالم ، وفى رواية لأجل جعل إماماً ظالماً يقتدى به . وقال سفیان عن منصور عن مجاهد فى قوله تعالى (قال لا ينال عهدى الظالمين) قال لا يكون إمام ظالم يقتدى به . وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا مالك بن إسماعيل أخبرنا شريك عن منصور عن مجاهد فى قوله (ومن ذريتي) قال أما من كان منهم صالحاً فأجعله إماماً يقتدى به وأما من كان ظالماً فلا ولا نعمة عين . وقال سعيد بن جبير (لا ينال عهدى الظالمين) المراد به المشرك لا يكون إمام ظالم يقول لا يكون إمام مشرك ، وقال ابن جرير عن عطاء قال (إني جاعلك للناس إماماً) قال ومن ذريتي فأبى أن يجعل من ذريته إماماً ظالماً قلت لعطاء ما عهده قال أمره : وقال ابن أبى حاتم أخبرنا عمرو ابن ثور القيسارى فيما كتب إلى أخبرنا الفريابي حدثنا إسماعيل حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس ، قال قال الله لإبراهيم إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي فأبى أن يفعل ثم قال (لا ينال عهدى الظالمين) وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس (قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدى الظالمين) يخبره أنه كان فى ذريته ظالم لا ينال عهده ولا ينبغي أن يولى شيئاً من أمره وإن كان من ذرية خليله ، ومحسن يستفد فيه دعوته وتبلغ له فيه ما أراد من مسئلته . وقال العوفى عن ابن عباس (لا ينال عهدى الظالمين) قال يعنى لا عهد لظالم عليك فى ظلمه أن تطيعه فيه ، وقال ابن جرير حدثنا إسحق أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله عن إسرائيل عن مسلم الأعور عن مجاهد عن ابن عباس قال (لا ينال عهدى الظالمين) قال ليس للظالمين عهد وإن عاهدته أقضه : وروى عن مجاهد وعطاء ومقاتل بن حيان نحو ذلك : وقال الثورى عن هارون بن عنترة عن أبيه قال ليس لظالم عهد وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله (لا ينال عهدى الظالمين) قال لا ينال عهد الله فى الآخرة الظالمين فأما فى الدنيا فقد ناله الظالم فأمن به وأكل وعاش ، وكذا قال إبراهيم النخعى وعطاء والحسن وعكرمة ، وقال الريبع بن أنس عهد الله الذى عهد إلى عباده دينه يقول لا ينال دينه الظالمين ألا ترى أنه قال (وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) يقول ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق وكذا روى عن أبى العالية وعطاء ومقاتل بن حيان وقال جوير عن الضحاك لا ينال طاعنى عدو لى يعصى ولا أنعمها إلا وليا لى يطيعنى . وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد أخبرنا أحمد بن عبد الله بن سعيد الدامغانى أخبرنا وكيع عن الأعمش عن سعيد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على بن أبى طالب عن النبى

عليه السلام قال (لا ينال عهدى الظالمين) قال لاطاعة إلا في المعروف ، وقال السدى (لا ينال عهدى الظالمين) يقول عهدى نبوتى — فهذه أقوال مفسرى السلف في هذه الآية على ما نقله ابن جرير وابن أبي حاتم رحمهما الله تعالى واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماتها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد وغيره والله أعلم . وقال ابن خويز منداد المالكي . الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راوياً

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾

قال العوفي عن ابن عباس قوله تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) يقول لا يقضون فيه وطراً ، يأتونه ثم يرجعون إلى أهلهم ثم يعودون إليه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مثابة للناس يقول يثوبون . رواهما ابن جرير . وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا عبد الله بن رجاء أخبرنا إسرائيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) قال يثوبون إليه ثم يرجعون قال وروى عن أبي العالية وسعيد بن جبير في رواية وعطاء ومجاهد والحسن وعطية والريبع بن أنس والضحاك نحو ذلك . وقال ابن جرير . حدثني عبدالكريم بن أبي عمير حدثني الوليد بن مسلم قال: قال أبو عمرو يعني الأوزاعي . حدثني عبدة بن أبي لبابة في قوله تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) قال لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قد قضى منه وطراً . وحدثني يونس عن ابن وهب قال: قال ابن زيد (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) قال يثوبون إليه من البلدان كلها ويأتونه . وما أحسن ما قال الشاعر في هذا المعنى أورده القرطبي جعل البيت مثابة لهم * ليس منه الدهر يقضون الوطر

وقال سعيد بن جبير في الرواية الأخرى وعكرمة وقتادة وعطاء الخراساني (مثابة للناس) أي مجمعا (وأمنا) قال الضحاك عن ابن عباس . أي أمناً للناس . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا) يقول وأمنا من العدو وأن يحمل فيه السلاح وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يسبون . وروى عن مجاهد وعطاء والسدى وقتادة والربيع بن أنس قالوا من دخله كان آمناً .

ومضمون ما فسره هؤلاء الأئمة هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدره من كونه مثابة للناس أي جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولا تنقض منه وطراً ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم إلى أن قال (ربنا وتقبل دعائى) ويصفه تعالى بأنه جعله آمناً من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له كما وصف في سورة المائدة بقوله تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس) أي يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء كما قال ابن عباس : لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً وهو خليل الرحمن كما قال تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً) وقال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً) وفي هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده . فقال (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو فقال ابن أبي حاتم : أخبرنا عمرو بن شبة النخعي حدثنا أبو حلف يعني عبد الله بن عيسى أخبرنا داود بن أبي هند عن مجاهد عن ابن عباس (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) قال مقام إبراهيم الحرم كله . وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك . وقال أيضاً أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج قال : سألت عطاء عن (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) فقال سمعت ابن عباس قال : أما مقام إبراهيم الذي ذكرهنا فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد ثم قال ومقام إبراهيم يعد كثير مقام إبراهيم الحج كله . ثم فسره لي عطاء فقال : التعريف وصلاتان بعرفة والمشعر ومنى ورمى الجمار والطواف بين الصفا والمروة ، فقلت أفسره ابن عباس ؟ قال لا . ولكن قال مقام إبراهيم الحج

كله . قلت أسمع ذلك لهذا أجمع ؟ قال نعم سمعته منه . وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن مسلم عن سعيد بن جبير (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) قال الحجر مقام إبراهيم نبي الله قد جعله الله رحمة فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه . وقال السدي : المقام الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه . حكاه القرطبي وضعفه ورجحه غيره ، وحكاه الرازي في تفسيره عن الحسن البصري وقتادة والريبع بن أنس . وقال ابن أبي حاتم . أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء عن ابن جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه سمع جابرا يحدث عن حجة النبي ﷺ قال : لما طاف النبي صلى الله عليه وسلم قال له عمر هذا مقام أبينا ؟ قال نعم ، قال أفلا تتخذونه مصلى ؟ فأنزل الله عز وجل (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقال عثمان بن أبي شيبة أخبرنا أبو أسامة عن زكريا عن أبي إسحق عن أبي ميسرة قال : قال عمر قلت يارسول الله هذا مقام خليل ربنا ؟ قال نعم ، قال أفلا تتخذونه مصلى ؟ فنزلت (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقال ابن مردويه أخبرنا دعلج بن أحمد أخبرنا غيلان بن عبد الصمد أخبرنا مسروق بن الرزبان أخبرنا زكريا بن أبي زائدة عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه مر بمقام إبراهيم فقال : يارسول الله أليس تقوم بمقام خليل ربنا ؟ قال بلى ، قال أفلا تتخذونه مصلى ؟ فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزلت (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقال ابن مردويه أخبرنا علي بن أحمد بن محمد القزويني أخبرنا علي بن الحسين حدثنا الجنيد أخبرنا هشام بن خالد أخبرنا الوليد عن مالك ابن أنس عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال : لما وقف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة عند مقام إبراهيم قال له عمر يارسول الله هذا مقام إبراهيم الذي قال الله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) قال نعم : قال الوليد : قلت لمالك هكذا حدثك واتخذوا قال نعم هكذا وقع في هذه الرواية وهو غريب وقد روى النسائي من حديث الوليد بن مسلم نحوه . وقال البخاري : باب قوله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) مثابة يشوبون يرجعون حدثنا مسدد أخبرنا يحيى عن حميد عن أنس بن مالك . قال : قال عمر بن الخطاب : وافقت ربي في ثلاث أو وافقت ربي في ثلاث : قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقلت يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب . قال وبلغني معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بعض نساءه فدخلت عليهن فقلت إن اتيهن أوليدين الله رسوله خيراً منكن حتى أتيت إحدى نساءه قالت : يا عمر أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت فأنزل الله (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات) الآية وقال ابن أبي مريم أخبرنا يحيى بن أيوب حدثني حميد قال سمعت أنسا عن عمر رضي الله عنهما هكذا ساقه البخاري وهنا وعلق الطريق الثانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبي مريم الصبري وقد تفرد عنه بالرواية البخاري من بين أصحاب الكتب الستة . وروى عنه الباقر بواسطة وخرجه من تعليق هذا الطريق ليبين فيه اتصال إسناد الحديث وإنما لم يسنده لأن يحيى بن أبي أيوب الغافقي فيه شيء كما قال الإمام أحمد فيه هو سيء الحفظ والله أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم أخبرنا حميد عن أنس قال : قال عمر رضي الله عنه وافقت ربي عز وجل في ثلاث قلت : يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقلت يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة فقلت لهن عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت كذلك ، ثم رواه أحمد عن يحيى وابن أبي عدي كلاهما عن حميد عن أنس عن عمر أنه قال وافقت ربي في ثلاث أو وافقت ربي في ثلاث فذكره . وقد رواه البخاري عن عمر وابن عون والترمذي عن أحمد بن منيع والنسائي عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي وابن ماجه عن محمد بن الصباح كلهم عن هشيم بن بشير به . ورواه الترمذي أيضاً عن عبد بن حميد عن حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة والنسائي عن هناد عن يحيى بن أبي زائدة كلاهما عن حميد وهو ابن تيرويه الطويل به . وقال الترمذي حسن صحيح . ورواه الإمام علي بن المديني عن يزيد بن زريع عن

حميد به وقال هذا من صحيح الحديث وهو بصرى ورواه الإمام مسلم بن حجاج في صحيحه بسند آخر ولفظ آخر فقال أخبرنا عقبة بن مكرم أخبرنا سعيد بن عامر عن جويرية بن أسماء عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال : وافقت ربي في ثلاث في الحجاب وفي أسارى بدر وفي مقام إبراهيم . وقال أبو حاتم الرازي : أخبرنا محمد بن عبد الله الأنصاري أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب وافقت ربي في ثلاث ، أو وافقت ربي في ثلاث ، قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقلت يا رسول الله لو حجبت النساء فنزلت آية الحجاب ، والثالثة لما مات عبد الله بن أبي جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه قلت ، يا رسول الله تصلي على هذا الكافر المنافق . فقال : أيها عنك يا ابن الخطاب فنزلت (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) وهذا إسناد صحيح أيضا ولا تعارض بين هذا ولا هذا بل الكل صحيح ومفهوم العدد اذا عارضه منطوق قدم عليه والله أعلم : وقال ابن جريج أخبرني جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر أن رسول الله ﷺ فرمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً حتى اذا فرغ عمد الى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين ، ثم قرأ (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقال ابن جرير حدثنا يوسف بن سلمان أخبرنا حاتم بن إسماعيل أخبرنا جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال : استلم رسول الله ﷺ الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً ثم نفذ الى مقام إبراهيم فقرأ (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث حاتم بن إسماعيل وروى البخاري بسنده عن عمرو بن دينار : قال سمعت ابن عمر يقول قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين ، فهذا كله مما يدل على ان المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار أثناء إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويتناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار وكلما كمل ناحية انتقل الى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله الى الناحية التي تليها وهكذا حتى تم جدران الكعبة كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخاري وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية .

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة * على قدميه حافياً غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً كما قال عبد الله بن وهب أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثهم ، قال رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخص قدميه غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم ، وقال ابن جرير أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع أخبرنا سعيد عن قتادة (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه . وقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلوق وانحى (قلت) وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ومكانه معروف اليوم الى جانب الباب مما يلي الحجر بمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه الى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ولهذا والله أعلم أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرونا باتباعهم وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر » وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، قال عبد الرزاق عن ابن جريج حدثني عطاء وغيره من أصحابنا : قال أول من نقله عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال عبد الرزاق أيضاً عن معمر بن حميد الأعرج عن مجاهد قال أول من أخر المقام الى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن حنبل بن الحسين البيهقي أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد

ابن كامل حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل السلمي حدثنا أبو ثابت حدثنا الدراوردي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن المقام كان زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان أبي بكر رضي الله عنه ملتصقا بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا ابن أبي عمر العدني قال : قال سفيان يعني ابن عيينة وهو إمام المكيين في زمانه كان المقام من سقع البيت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فحوله عمر إلى مكانه بعد النبي ﷺ وبعد قوله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) قال ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا فرده عمر إليه : وقال سفيان لا أدري كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله وقال سفيان لا أدري أكان لا صقها أم لا ؟ فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرناه والله أعلم : وقد قال الحافظ أبو بكر ابن مردويه أخبرنا ابن عمر وهو أحمد بن محمد بن حكيم أخبرنا محمد بن عبد الوهاب بن أبي تمام أخبرنا آدم هو ابن أبي إياس في تفسيره أخبرنا شريك عن إبراهيم بن المهاجر عن مجاهد قال : قال عمر بن الخطاب يا رسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) فكان المقام عند البيت فحوله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضعه هذا. قال مجاهد وكان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن هذا مرسل عن مجاهد وهو مخالف لما تقدم من رواية عبد الرزاق عن معمر عن حميد الأعرج عن مجاهد أن أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وهذا أصح من طريق ابن مردويه مع اعتضاد هذا بما تقدم والله أعلم

﴿ وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

قال الحسن البصري قوله (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل) قال أمرهما الله أن يطهرا من الأذى والنجس ولا يصيبه من ذلك شيء ، وقال ابن جريج قلت لعطاء ما عهده ؟ قال أمره . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (وعهدنا إلى إبراهيم) أي أمرناه كذا قال والظاهر أن هذا الحرف إنما عدى بإلى لأنه في معنى تقدمنا وأوحينا ، وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس قوله (أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين) قال من الأوثان وقال مجاهد وسعيد بن جبير (طهرا بيتي للطائفين) إن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس . قال ابن أبي حاتم وروى عن عبيد ابن عمير وأبي العالية وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وقتادة (أن طهرا بيتي) أي بلا إله إلا الله من الشرك وأما قوله تعالى (للطائفين) فالطواف بالبيت معروف . وعن سعيد بن جبير أنه قال في قوله تعالى (للطائفين) يعني من أتاه من غربة (والعاكفين) المقيمين فيه ، وهكذا روى عن قتادة والربيع بن أنس أنهما فسرهما العاكفين بأهل المقيمين فيه كما قال سعيد بن جبير وقال يحيى القطان عن عبد الملك هو ابن أبي سليمان عن عطاء في قوله (والعاكفين) قال من اتناه من الأمصار فأقام عنده وقال لنا ونحن مجاورون أتم من العاكفين وقال وكيع عن أبي بكر الهذلي عن عطاء عن ابن عباس قال إذا كان جالسا فهو من العاكفين وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا موسى بن إسماعيل أخبرنا حماد بن سلمة أخبرنا ثابت ، قال قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير ما أراني إلا مكلم الأمير أن امنع الذين ينامون في المسجد الحرام فإنهم يحنون ويحدثون . قال لا تفعل فإن ابن عمر سئل عنهم فقال هم العاكفون . ورواه عبد بن حميد عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة به (قلت) وقد ثبت في الصحيح أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول

ﷺ وهو عزب وأما قوله تعالى (والركع السجود) فقال وكيع عن أبي بكر الهذلي عن عطاء عن ابن عباس والركع السجود قال إذا كان مصليا فهو من الركع السجود وكذا قال عطاء وقتادة في يومه أربع في النهار ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين فإن كلاما من السندين مشتغل على غير واحد من الضعفاء وهو كما قال فإنه لا يجوز روايتهما (١)

قال ابن جرير رحمه الله فعنى الآية وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين والتطهير الذي أمرها به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك ثم أورد سؤالا فقال فان قيل فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه وأجاب بوجيبين : (أحدهما) أنه أمرها بتطهيره بما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان ليكون ذلك سنة لمن بعدها إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماما يقتدى به كما قال عبد الرحمن بن زيد (أن طهرا بيتي) قال من الأصنام التي يعبدون التي كان للمشركون يعظمونها (قلت) وهذا الجواب مفرع على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام ويحتاج لإثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم (الجواب الثاني) أنه أمرها أن تخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له فيبنيه مطهرا من الشرك والريب كما قال جل ثناؤه (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار) قال فكذلك قوله (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي) أي ابنيه على طهر من الشرك في والريب كما قال السدي (أن طهرا بيتي) ابني بيتي للطائفين ، وخص هذا الجواب أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبنا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له للطائفين به والعاكفين عنده والمصلين إليه من الركع السجود كما قال تعالى (وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) الآيات. وقد اختلف الفقهاء أيما أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به ؟ فقال مالك رحمه الله . الطواف به لأهل الأمصار أفضل . وقال الجمهور : الصلاة أفضل مطلقا ، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام ، والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه كما قال تعالى : (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له إما بطواف أو صلاة فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة قيامها وركوعها وسجودها ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم (سواء العاكف فيه والباد) وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام وفي ذلك أيضاً رد على من لا يحججه من أهل الكتابين اليهود والنصارى لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وإسماعيل ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك وللاعتكاف والصلاة عنده وهم لا يفعلون شيئا من ذلك فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له ؟ وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى (إن هو إلا وحي يوحى)

وتقدير الكلام إذا (وعهدنا إلى إبراهيم) أي تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل (أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) أي طهرا من الشرك والريب وابنيه خالصا لله معقلا للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ومن قوله تعالى (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال) ومن السنة من أحاديث كثيرة من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك من صياتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك . ولهذا قال عليه السلام « إنما بنيت المساجد لما بنيت له » وقد جمعت في ذلك جزءا على حدة والله الحمد والمنة وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة فقيل لللائكة قبل آدم روى هذا عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي

(١) قوله : في يومه أربع في النهار لا معنى له والكلام قد تم قبله . وقوله بعده ثم شرع ابن جرير الخ لا محل له هنا وليس قبله حديثان ضعيفان : وهو وما قبله ليس في نسخة خزائن الأزهر اه .

ابن الحسين ذكره القرطبي وحكى لفظه وفيه غرابة وقيل آدم عليه السلام رواه عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وسعيد بن السيب وغيرهم أن آدم بناه من خمسة أجبل من حراء وطور سيناء وطور زيتا وجبل لبنان والجودي ، وهذا غريب أيضا . وروى عن ابن عباس وكعب الأحبار وقتادة وعن وهب بن منبه أن أول من بناء شيث عليه السلام وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجرد ما وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين

وقوله تعالى (وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) قال الإمام أبو جعفر بن جرير أخبرنا ابن بشار أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي أخبرنا سفيان عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاها » وهكذا رواه النسائي عن محمد بن بشار عن بدار به وأخرجه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وعمر بن الناقدة كلاهما عن أبي أحمد الزبيري عن سفيان الثوري وقال ابن جرير أيضا أخبرنا أبو كريب وأبو السائب قال حدثنا ابن إدريس وأخبرنا أبو كريب أخبرنا عبد الرحيم الرازي قال جميعا سمعنا أشعث عن نافع عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « إن إبراهيم كان عبد الله وخليه وإنى عبد الله ورسوله وإن إبراهيم حرم مكة وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها عضاها وصيدها لا يحمل فيها سلاح لقتال ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير » وهذه الطريق غريبة ليست في شيء من الكتب الستة وأصل الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أخذ رسول الله ﷺ قال « اللهم بارك لنا في ثمرنا وبارك لنا في مدينتنا وبارك لنا في صاعنا وبارك لنا في مدنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليك ونيبك وإنى عبدك ونيبك وإنه دعاك لمكة ، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه » ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر وفي لفظ « بركة مع بركة » (١) ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان - لفظ مسلم ثم قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا قتيبة بن سعيد أخبرنا بكر بن مضر عن ابن الهاد عن أبي بكر بن محمد عن عبد الله بن عمرو بن عثمان عن رافع بن خديج قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم حرم مكة وإنى أحرم ما بين لابتيها » انفرد بإخراجه مسلم فرواه عن قتيبة عن بكر بن مضر به ولفظه كللفه سواء وفي الصحيحين عن أنس ابن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنى طلحة « التمس لي غلاما من غلمانكم يخدمني فخرج بي أبو طلحة يردني وراءه فكنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما نزل وقال في الحديث ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد قال « هذ جبل يحبنا ونحبه » فلما أشرف على المدينة قال « اللهم إنى أحرم ما بين جبلها مثل ما حرم به إبراهيم مكة اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم » وفي لفظ لها « اللهم بارك لهم في مكياهم وبارك لهم في صاعهم وبارك لهم في مدهم » زاد البخارى يعنى أهل المدينة ولها أيضا عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلته بكمكة من البركة » وعن عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة » رواه البخارى وهذا لفظه ولمسلم ولفظه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان ابراهيم حرم مكة ودعا لأهلها . وإن حرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة وإنى دعوت في صاعها ومدها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة » وعن أبي سعيد رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراما وإنى حرمت المدينة حراما ما بين ما زمينها أن لا يهراق فيها دم ولا يحمل فيها سلاح لقتال ولا يخطط فيها شجرة الا لعلف : اللهم بارك لنا في مدينتنا اللهم بارك لنا في صاعنا اللهم بارك لنا في مدنا اللهم اجعل مع البركة بركتين » الحديث رواه مسلم ، والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام لمكة لما في ذلك من مطابقة الآية الكريمة . وتمسك بها من ذهب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل وقيل إنها محرمة منذ خلقت مع الأرض وهذا أظهر وأقوى والله أعلم

(١) ورد هذا اللفظ في رواية أخرى هذا نصها « اللهم بارك لنا في مدينتنا وفى ثمارنا وفى مدنا وفى صاعنا بركة مع بركة »

وقد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلي خلاها » فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم وليوتهم فقال « إلا الإذخر » وهذا لفظ مسلم ولهما عن أبي هريرة نحو من ذلك ثم قال البخاري بعد ذلك : وقال أبان بن صالح عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم مثله وهذا الذي علقه البخاري رواه الإمام أبو عبد الله بن ماجه عن محمد بن عبد الله بن عمير عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحق عن أبان بن صالح عن الحسن بن مسلم بن يناق عن صفية بنت شيبة : قالت سمعت رسول الله ﷺ يخطب عام الفتح فقال « يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى يوم القيامة لا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها ولا يأخذ لقطتها إلا منشد » فقال العباس . إلا الإذخر فإنه للبيوت والقبور ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلا الإذخر » وعن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر بن سفيان وهو يبعث البعوث إلى مكة ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح سمعته أذناني ووعاه قلبي وأبصرته عيناى حين تكلم به - إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بهادماً ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم . وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ^(١) الشاهد الغائب » فقيل لأبي شريح ما قال لك عمرو ؟ قال أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيد عاصيا ولا فارأبدم ولا فارأ بخرية رواه البخاري ومسلم وهذا لفظه فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إيها وأنها لم تزل بلدأحرما عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها ، كما أنه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوبا عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) الآية وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره . ولهذا جاء في الحديث أنهم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن بدء أمرك . فقال « دعوة أبي إبراهيم عليه السلام وبشرى عيسى بن مريم ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام » أي أخبرنا عن بدء ظهور أمرك كما سيأتي قريباً إن شاء الله

وأما مسألة تفضيل مكة على المدينة كما هو قول الجمهور أو المدينة على مكة كما هو مذهب مالك وأتباعه فتذكر في موضع آخر بأدلتها إن شاء الله وبه الثقة . وقوله تعالى إخبارا عن الخليل أنه قال (رب اجعل هذا بلدا آمنا) أى من الخوف أى لا يرعب أهله وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدرأ . كقوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) وقوله (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) إلى غير ذلك من الآيات وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيه . وفي صحيح مسلم عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح » وقال في هذه السورة (رب اجعل هذا بلدا آمنا) أى اجعل هذه البقعة بلداً آمناً وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة . وقال تعالى في سورة إبراهيم (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) وناسب هذا هناك لأنه والله أعلم كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به وبعد مولد إسحق الذي هو أصغر سنا من إسماعيل ثلاث عشرة سنة ، ولهذا قال في آخر الدعاء (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء) وقوله تعالى (وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب (قال ومن كفر

(١) الذى فى البخارى ومسلم : وليبلغ اه .

فأتمته قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير (قال هو قول الله تعالى وهذا قول مجاهد وعكرمة وهو الذي صوبه ابن جرير رحمه الله . قال وقرأ آخرون (قال ومن كفر فأتمته قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم كما رواه أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية قال كان ابن عباس يقول ذلك قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر فأتمته قليلا ، وقال أبو جعفر عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد (ومن كفر فأتمته قليلا) يقول ومن كفر فأرزقه رزقا قليلا أيضا (ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) قال محمد بن إسحاق لما عن إبراهيم الدعوة على من أبي الله أن يجعل له الولاية انقطاعا إلى الله ومحبة ، وفراقا لمن خالف أمره وإن كانوا من ذريته ، حين عرف أنه كائن منهم ظالم لا يناله عهده بخبر الله له بذلك قال الله تعالى ومن كفر فإني أرزق البر والفاجر وأتمته قليلا وقال حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط عن عمار النهدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى (رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) قال ابن عباس كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله ومن كفر أيضا أرزقهم كما أرزق المؤمنين ، أخلق خلقا لأرزقهم ؟ أمتعهم قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير ثم قرأ ابن عباس (كلا نعم هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) رواه ابن مردويه وروى عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضا وهذا كقوله تعالى (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إني مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) وقوله تعالى (ومن كفر فلا يحزنك كفرهم إني مرجعهم فنذيقهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور * نمتهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقوله (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن ليبوتهم سقسا من فضة ومعارج عليها يظهرهم * وليبوتهم أبوابا وسررا عليهم يتكئون * وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) وقوله (ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) أي ثم ألجته بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلمنا إلى عذاب النار وبئس المصير ، ومعناه أن الله تعالى ينظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كقوله تعالى (وكأين من قرية أهلكنا لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) وفي الصحيحين « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافهم » وفي الصحيح أيضا « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ قوله تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) وقرأ بعضهم (قال ومن كفر فأتمته قليلا) الآية جعله من تمام دعاء إبراهيم وهي قراءة شاذة مخالفه للقراء السبعة وتركيب السياق يأبى معناها والله أعلم فان الضمير في قال راجع إلى الله تعالى في قراءة الجمهور والسياق يقتضيه وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير في قال عائدا على إبراهيم وهذا خلاف نظم الكلام والله سبحانه هو العلام *

وأما قوله تعالى (واذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا منا سكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) فالقواعد جمع قاعدة وهي السارية والأساس يقول تعالى واذا ذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ورفعهما القواعد منه وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) وحكى القرطبي وغيره عن أبي وابن مسعود أنهما كانا يقرآن (واذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) (قلت) ويدل على هذا قولهما بعده (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) الآية فهما في عمل صالح وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما كما روى ابن أبي حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس السكي عن وهيب بن الورد أنه قرأ (واذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا) ثم يبكي ويقول يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك . وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخالص في قوله (والذين يؤتون ما آتوا) أي يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات (وقلوبهم وجة) أي خائفة أن لا يتقبل منهم كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة عن رسول الله ﷺ كما سيأتي في موضعه . وقال بعض المفسرين الذي كان يرفع القواعد هو إبراهيم والداعى إسماعيل والصحيح

أتهما كانا يرفعان ويقولان كما سيأتي بيانه . وقد روى البخاري ههنا حديثا سنورده ثم تتبعه بآثار متعلقة بذلك . قال البخاري رحمه الله . حدثنا عبد الله بن محمد أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة - يزيد أحدهما على الآخر - عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال . أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطلقا لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ؟ ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت الله أمرك بهذا ؟ قال نعم ، قالت : إذا لا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) حتى بلغ (يشكرون) وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا قدما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت الروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس : قال النبي ﷺ « فلذلك سعى الناس بينهما » فلما أشرفت على الروة سمعت صوتا فقالت « صه » - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غوث فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تعرف من الماء في سقاها وهو يفور بعدما تعرف ، قال ابن عباس قال النبي ﷺ « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال لو لم تعرف من الماء - لكانت زمزم عينا معينا » قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافي الضبعة فإن ههنا بيتا لله بينه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالراية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رقعة من جرم أو أهل بيت من جرم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عاثفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن نزل عندك قالت نعم : ولكن لاحق لكم في الماء عندنا قالوا : نعم قال ابن عباس : قال النبي ﷺ « فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس » فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل آيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجته امرأة منهم وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغي لنا ثم سألتها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر نحن في ضيق وشدة فشكت إليه قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا فقال هل جاءكم من أحد ؟ قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا في جهد وشدة قال فهل أو صاك بشيء ؟ قالت نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك قال ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك فالحق بأهلك ، وطلقها وتزوج منهم بأخرى فلبث عنهم إبراهيم ماشاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجدهم فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت . خرج يبتغي لنا قال كيف أتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بخير وسعة وأئنت على الله عز وجل قال ما طعامكم قالت اللحم قال فما شرباكم ؟ قالت الماء . قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال النبي ﷺ « ولم يكن لهم يؤمئذ حب ولو كان لهم لدعاهم فيه » قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة الا لم يوافقاه قال فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأئنت عليه

فسألتني عنك فأخبرته فسألتني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير قال . فأوصاك بشيء ؟ قالت . نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال ذلك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ماشاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربك قال : وتعيني قال : وأعينك قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتا وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها قال : فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ورواه عبد بن حميد عن عبد الرزاق به مطولا، ورواه ابن أبي حاتم عن أبي عبد الله محمد بن حماد الطبراني وابن جرير عن أحمد بن ثابت الرازي كلاهما عن عبد الرزاق به مختصرا .

وقال أبو بكر بن مردويه أخبرنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل أخبرنا بشر بن موسى أخبرنا أحمد بن محمد الأزرق أخبرنا مسلم بن خالد الزنجي عن عبد الملك بن جريج عن كثير بن كثير قال : كنت أنا وعثمان بن أبي سليمان وعبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي حسين في ناس مع سعيد بن جبير في أعلى المسجد ليلا فقال سعيد بن جبير . سلوني قبل أن لا تروني فسألوه عن المقام فأنشأ يحدثهم عن ابن عباس فذكر الحديث بطوله .

ثم قال البخاري حدثنا عبد الله بن محمد أخبرنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو أخبرنا إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال . لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدرب لبها على صبيها حتى قدم مكة فوضعهما تحت دوحة ثم رجع إبراهيم الى أهله فاتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء نادته من ورائه يا إبراهيم الى من تركنا ؟ قال الى الله . قالت رضيت بالله قال . فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدرب لبها على صبيها حتى لما فنى الماء قالت . لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت هل تحس أحدا فلم تحس أحدا فلما بلغت الوادي سعت حتى أتت المروة وفعلت ذلك أشواطاً حتى آتت سبعة ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت فلم تقرها نفسها فقالت . لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدا حتى آتت سبعة ثم قالت . لو ذهبت فنظرت ما فعل فإذا هي بصوت فقالت . أغث إن كان عندك خير فاذا جبريل عليه السلام قال : فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الأرض قال فأنبثق الماء فدهشت أم إسماعيل فجعلت تحفر قال : فقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم « لو تركته لكان الماء ظاهراً » قال فجعلت تشرب من الماء ويدرب لبها على صبيها قال فرئى ناس من جرهم يطن الوادي فاذا هم بطير كأنهم أنكروا ذلك وقالوا ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فاذا هو بالماء فأتاهم فأخبرهم فأتوا اليها فقالوا . يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك ونسكن معك ؟ فبلغ ابنها ونكح منهم امرأة قال ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام فقال لأهله . إني مطلع تركتي قال فجاء فسلم فقال أين إسماعيل ؟ قالت امرأته ذهب يصيد قال . قولى له اذا جاء غير عتبة بابك فلما أخبرته قال أنت ذاك فاذهبي الى أهلك ، قال ثم انه بدا لإبراهيم فقال إني مطلع تركتي قال فجاء فقال أين إسماعيل ؟ فقالت امرأته ذهب يصيد فقالت ألا تنزل فتطعم وتشرب فقال ما طعامكم وما شرابكم قالت طعامنا اللحم وشرابنا الماء قال اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم قال : فقال أبو القاسم عليه السلام « بركة بدعوة إبراهيم » قال ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام فقال لأهله إني مطلع تركتي فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلا له فقال يا إسماعيل ان ربك عز وجل أمرني ان أبني له بيتا فقال أطع ربك عز وجل قال انه قد أمرني ان تعيني عليه فقال إذن أفعل - أو كما قال - قال فقام فجعل إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) قال حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) هكذا

رواه من هذين الوجهين في كتاب الأنبياء

والعجب أن الحافظ أباعبدالله الحاكم رواه في كتابه المستدرک عن أبي العباس الأصم عن محمد بن سنان القزاز عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي عن ابراهيم بن نافع به وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا قال ، وقد رواه البخاري كما ترى من حديث ابراهيم بن نافع وكان فيه اختصارا فانه لم يذكر فيه شأن الذبح ، وقد جاء في الصحيح أن قرني الكعبش كانا معلقين بالكعبة وقد جاء أن ابراهيم عليه السلام كان يزور أهله بمكة على البراق سريعا ثم يعود إلى أهله بالبلاد المقدسة والله أعلم والحديث - والله أعلم - أن مافيه مرفوع أما كن صرح بها ابن عباس عن النبي ﷺ

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في هذا السياق ما يخالف بعض هذا كما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثني قالا : أخبرنا مؤمل أخبرنا سفيان عن أبي اسحق عن حارثة بن مضرب عن علي بن أبي طالب قال : لما أمر ابراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر قال : فلما قدم مكة رأى علي رأسه في موضع البيت مثل الثمامة فيه مثل الرأس فكلمه قال يا ابراهيم : ابن علي ظلي أو قال علي قدرى ولا تزد ولا تنقص فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر فقالت هاجر يا ابراهيم : إلى من تكلنا ؟ قال إلى الله قالت . انطلق فانه لا يضيعنا قال : فعطش إسماعيل عطشا شديدا قال . فصعدت هاجر إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئا حتى أتت المروة فلم تر شيئا ، ثم رجعت إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئا ففعلت ذلك سبع مرات فقالت : يا إسماعيل مت حيث لأراك فأنته وهو يفحص برجله من العطش فتنادها جبريل فقال لها . من أنت ؟ قالت . أنا هاجر أم ولد ابراهيم قال : فإلى من وكلكما ؟ قالت . وكلنا إلى الله ، قال . وكلكما إلى كاف قال . ففحص الأرض بأصبعه فنبعت زمزم فجعلت تحبس الماء فقال : دعيه فانه روى^(١) في هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقهما وقد يحتمل أنه كان محفوظا أن يكون أولا وضع له حوطا وتحجيرا لأنه بناء إلى أعلاه حتى كبر إسماعيل فبنياهم معا كما قال الله تعالى .

ثم قال ابن جرير أخبر هناد بن السرى حدثنا أبو الأحوص عن سماك عن خالد بن عريرة أن رجلا قام إلى علي رضي الله عنه فقال ألا تخبرني عن البيت أهو أول بيت وضع في الأرض ؟ فقال لا ، ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا وان شئت أنبأتك كيف بنى ، إن الله أوحى إلى ابراهيم أن ابن لي بيتا في الأرض فضاقت ابراهيم بذلك ذرعا فأرسل الله السكينة وهي ريح خجوج ولها رأسان فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة فتطوت على موضع البيت كطى^(٢) الحنفة وأمر ابراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة فبنى ابراهيم وبنى الحجر فذهب الغلام يبغي شيئا فقال ابراهيم لابنني حجرا كما أمرك قال فانطلق الغلام يلتمس له حجرا فأثابه به فوجده قد ركب الحجر الأسود في مكانه فقال يا أبت من أتاك بهذا الحجر فقال أتاني به من لم يتكل على بئائك جاء به جبريل عليه السلام من السماء فأثامه .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ أخبرنا سفيان عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيب عن كعب الأحبار قال . كان البيت غثاء على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاما ومنه دحيت الأرض . قال سعيد . وحدثنا علي بن أبي طالب أن ابراهيم أقبل من أرض أرمينية ومعه السكينة تدله على تبوء البيت كما تتبوء العنكبوت بيتا ، قال . فكشفت عن أحجار لا يطيق الحجر إلا ثلاثون رجلا فقلت يا أبا محمد فإن الله يقول (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) قال كان ذلك بعد وقال السدي . إن الله عز وجل أمر ابراهيم أن يبني البيت هو وإسماعيل ابني ابني للطائفتين والعاكفين والركع السجود . فانطلق ابراهيم حتى أتى مكة فقام هو وإسماعيل وأخذوا المعاول لا يدريان أين البيب فبعث الله ريحا يقال لها الريح الخجوج لها جناحان ورأس في صورة حية فكشفت لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول واتباعها بالمعاول يخفزان حتى وضعا الأساس فذلك حين يقول تعالى (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت) (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) فلما بنوا القواعد فلبغا مكان الركن . قال ابراهيم لإسماعيل يا بني اطلب لي حجرا حسنا أضعه ههنا . قال يا أبت أنى كسلان لعب . قال على ذلك فانطلق يطلب له حجرا وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثمامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا

(١) كذا في النسخة الأميرية ومضبوط بشديد الواو ولعله لياء وفي نسخة خزنة الأزهر : دعيه فإنها رواه . (٢) وفي ابن جرير كطوى .

الناس فجاء إسماعيل بحجر فوجده عند الركن ، فقال يا أبت من جاءك بهذا ؟ قال جاء به من هو أنشط منك ، فبينا وهما يدعوان الكلمات التي ابتلى إبراهيم ربه ، فقال (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) وفي هذا السياق ما يدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم وإنما هدى إبراهيم إليها وبوأ لها ، وقد ذهب إلى هذا ذاهبون كما قال الإمام عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) قال القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك ، وقال عبد الرزاق أيضاً أخبرنا هشام بن حسان عن سوار ختن عطاء عن عطاء بن أبي رباح قال : لما أهبط الله آدم من الجنة كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم يأنس إليهم فهابت الملائكة حتى شكت إلى الله في دعائها وفي صلاتها فخفضه الله تعالى إلى الأرض ، فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش حتى شكا ذلك إلى الله في دعائه وفي صلاته فوجه إلى مكة فكان موضع قدميه قرية وخطوه مفازة حتى انتهى إلى مكة وأنزل الله ياقوته من ياقوت الجنة فكانت على موضع البيت الآن فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان فرفعت تلك الياقوتة حتى بعث الله إبراهيم عليه السلام فيها . وذلك قول الله تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء قال : قال آدم إني لأسمع أصوات الملائكة ، قال بخطيئتك ولكن أهبط إلى الأرض فابن لي بيتاً ثم اخف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتى الذي في السماء فيزعم الناس أنه بناء من خمسة (١) أجبل من حراء وطور زيتا وطور سيناء والجودي ، وكان ربه من حراء فكان هذا بناء آدم حتى بناء إبراهيم عليه السلام بعد ، وهذا صحيح إلى عطاء ولكن في بعضه نكارة والله أعلم .

وقال عبد الرزاق أيضاً أخبرنا معمر عن قتادة قال : وضع الله البيت مع آدم أهبط الله آدم إلى الأرض ، وكان مهبطه بأرض الهند وكان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض فكانت الملائكة تهابه فنقص إلى ستين ذراعاً فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسييحهم ، فشكا ذلك إلى الله عز وجل فقال الله يا آدم إني قد أهبطت لك بيتاً تطوف به كما يطاف حول عرشي وتصلى عنده كما يصلى عند عرشي ، فانطلق إليه آدم فخرج ومده في خطوه ، فكان بين كل خطوتين مفازة فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك ، فأتى آدم البيت فطاف به ومن بعده من الأنبياء .

وقال ابن جرير : أخبرنا ابن حميد أخبرنا يعقوب العمى عن حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس قال : وضع الله البيت على أركان الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفي عام ، ثم دحيت الأرض من تحت البيت . وقال محمد ابن اسحق حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد وغيره من أهل العلم ، إن الله لما بوأ إبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام وخرج معه إسماعيل وأمه هاجر وإسماعيل طفل صغير يرضع وحملوا فيها حدثني على البراق ومعه جبريل يده على موضع البيت ومعالم الحرم ، وخرج معه جبريل فكان لا يمر بقرية إلا قال : أبهذه أمرت يا جبريل ؟ فيقول جبريل امضه ، حتى قدم به مكة وهي إذ ذاك عشاء وسلم وسمر (٢) وبها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها ، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة فقال إبراهيم لجبريل : أههنا أمهنا أمهنا ؟ قال نعم فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه وأمرهما هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً فقال (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) إلى قوله (لعلهم يشكرون) وقال عبد الرزاق أخبرنا هشام بن حسان أخبرني حميد عن مجاهد قال : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً بألفي سنة وأركانه في الأرض السابعة ، وكذا قال ليث بن أبي سليم عن مجاهد القواعد في الأرض السابعة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي أخبرنا عمرو بن رافع أخبرنا عبد الوهاب بن معاوية عن عبد المؤمن بن خالد عن علياء بن أحمد أن ذا القرنين قدم مكة فوجد إبراهيم وإسماعيل بينان قواعد البيت من خمسة أجبل . فقال مالكاً ولأرضنا ؟ فقال نحن عبدان مأموران أمرنا ببناء هذه الكعبة . قال فهاتوا بالينة على ما تدعيان . فقامت خمسة أكبش فقلن نحن نشهد أن إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران أمرنا ببناء هذه الكعبة . فقال قدرضيت وسلمت ، ثم مضى وذكر الأزرقي في تاريخ مكة أن ذا القرنين طاف مع إبراهيم عليه السلام بالبيت وهذا يدل على تقدم زمانه والله أعلم . وقال البخاري رحمه الله قوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) الآية . القواعد أساسه واحدها

(١) قوله خمسة المدود أربعة وحرر (٢) في نسخة الأثر وأبن جرير : سلم وسمر بدون عطف اه .

قاعدة والقواعد من النساء واحدها قاعدة . حدثنا إسماعيل حدثني مالك عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله أن عبد الله ابن محمد بن أبي بكر أخبر عبد الله بن عمر عن عائشة زوج النبي ﷺ . أن رسول الله ﷺ قال « ألم ترى أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ » فقلت يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ قال « لولا حدثان قومك بالكفر » فقال عبد الله بن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنتين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم عليه السلام . وقد رواه في الحج عن القعني وفي أحاديث الأنبياء عن عبد الله بن يوسف ومسلم عن يحيى بن يحيى ومن حديث بن وهب والنسائي من حديث عبد الرحمن بن القاسم كلهم عن مالك . ورواه مسلم أيضاً من حديث نافع قال سمعت عبد الله بن أبي بكر (١) بن أبي قحافة يحدث عبد الله بن عمر عن عائشة عن النبي ﷺ قال « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال بكفر - لأتقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها الحجر » وقال البخاري أخبرنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحق عن الأسود قال : قال لي ابن الزبير كانت عائشة تسر إليك حديثاً كثيراً فما حدثتك في الكعبة قال قلت قالت لي قال النبي ﷺ « يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم - فقال ابن الزبير - بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين باباً يدخل منه الناس وباباً يخرجون منه » ففعله ابن الزبير انفراد بإخراجه البخاري فرواه هكذا في كتاب العلم من صحيحه ، وقال مسلم في صحيحه حدثنا يحيى بن يحيى أخبرنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال لي رسول الله ﷺ « لولا حدثات عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم فان قريشا حين بنت البيت استقصرت ، ولجعلت لها خلفاً » قال . وحدثناه أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا أخبرنا ابن نمير عن هشام بهذا الاسناد انفراد به مسلم : قال وحدثني محمد بن حاتم حدثني محمد بن مهيدي أخبرنا سليم بن حيان عن سعيد يعني ابن ميناء قال سمعت عبد الله بن الزبير يقول حدثتني خالتي يعني عائشة رضي الله عنها قالت قال النبي ﷺ « يا عائشة لولا قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألرقها بالأرض ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فان قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة » انفراد به أيضاً :

﴿ ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بمد طويلة وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمسين سنين ﴾ وقد نقل معهم في الحجاره وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائماً الى يوم الدين . قال محمد بن إسحق بن يسار في السيرة . ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنان الكعبة وكانوا يهيمون بذلك ليسقفوها ويهايون هدمها وإنما كانت رضا فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وذلك أن نفرأ سرقوا كنز الكعبة وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة وكان الذي وجد عنده الكنز دويك مولى بنى مليح بن عمرو من خزاعة قطعت قريش يده ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها وكان بمكة رجل قبضي نجار فهاهم في أنفسهم بعض ما يصلحها وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة وكانت مما يهايون ، وذلك انه كان لا يدنو منها أحد إلا احزأت (٢) وكشت وفتحت فاهاف كانوا يهايونها فيناهي يوماً تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله إليها طائرأفاختطفها فذهب بها فقالت قريش إنا نلجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا ، عندنا عامل رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله الحية فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها قام ابن وهب (٣) بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم فقتلوا من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه فقال يامعشر قريش لاتدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغى ، ولا يبيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس ، قال ابن إسحق والناس ينتحلون هذا الكلام لا وليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم

(١) هو عبد الله بن محمد بن أبي بكر كافي رواية أخرى لمسلم أيضاً فان عبد الله بن أبي بكر توفي في خلافة أبيه كافي الإصابة اهـ . (٢) احزأت : ارتفعت واستوفزت للوثوب (٣) في سعة الأزهر أبو وهب وجاء في حاشيتها أبو وهب خال والد النبي صلى الله عليه وسلم وكان شريفاً ممدوحاً .

قال ثم إن قريشا تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبنى أسد بن عبد العزى بن قصي ولبنى عدى بن كعب بن لؤى وهو الحطيم ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدؤكم في هدمها فأخذ اللعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لم ترع اللهم إنا لانريد إلا الخير ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة وقالوا ننظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ، ورددناها كما كانت وإن لم يصبه شيء فقد رضى الله ما صنعنا ، فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله فهدم وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس أساس إبراهيم عليه السلام أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضا : قال فحدثني بعض من يروى الحديث أن رجلا من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أيضا أحدها فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فاتموا عن ذلك الأساس .

قال ابن إسحق . ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن يعنى الحجر الأسود فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتخالقوا وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا « لعقة الدم » فكشفت قريش على ذلك أربع ليال وأخمسائهم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكان عامئذ أسن قريش كلهم قال : يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا هذا محمد . فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ : هلم إلى ثوبا . فأتى به فأخذ الركن يعنى الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ ثم بنى عليه وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي (الأمين) فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا . قال الزبير ابن عبد المطلب فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب ببنان الكعبة لها .

عجبت لما تصوبت العقاب * إلى الثعبان وهي لها اضطراب * وقد كانت يكون لها كشيخ وأحيانا يكون لها وثاب * إذا قمنا إلى التأسيس شدت * تهيبنا البناء وقد تهاب فلما أن خشينا الرجز جاءت * عقاب تتلب لها انصباب * فضمتها إليها ثم خلت لنا البنيان ليس له حجاب * فقمنا حاشدين إلى بناء * لنا منه القواعد والتراب غداة نرفع التأسيس منه * وليس على مساوينا ثياب * أعز به المليك بنى لؤى فليس لأصله منهم ذهاب * وقد حشدت هناك بنو عدى * ومرة قد تقدمها كلاب فبوأنا المليك بذاك عزا * وعند الله يلتمس الثواب

قال ابن إسحق وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانى عشر ذراعا وكانت تكسى القباطى ثم كسيت بعد البرود وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف (قلت) ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت في أول إمارة عبد الله ابن الزبير بعد سنة ستين وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصروا ابن الزبير فحينئذ قضى ابن الزبير إلى الأرض وبنها على قواعد إبراهيم عليه السلام وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابا شرقيا وبابا غربيا ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك كما قال مسلم بن الحجاج في صحيحه أخبرنا هناد بن السرى أخبرنا ابن أبي زائدة أخبرنا ابن أبي سليمان عن عطاء قال لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام فكان

من أمره ما كان تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يحزبهم أو يحيروهم على أهل الشام فلما صدر الناس قال . يا أيها الناس أشيروا عليّ في الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وهى منها ؟ قال ابن عباس إنه قد خرق لي رأى فيها أرى أن تصلح ما وهى منها وتدع بيتنا أسلم الناس عليه ، وأحجار أسلم الناس عليها وبعث عليها النبي ﷺ فقال ابن الزبير لو كان أحدهم احترق بيته مارضى حتى يجهده فكيف بيت ربكم عز وجل ، إني مستخير ربي ثلاثا ثم عازم على أمرى فلما مضت ثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها فتحامها الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء حتى يصعد رجل فألقى منه حجارة فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤ ، وقال ابن الزبير إني سمعت عائشة رضی الله عنها تقول إن النبي صلى الله عليه وسلم : قال « لولا أن الناس حديث عهدم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقويني على بناءه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع ولجعت له بابا يدخل الناس منه ، وبابا يخرجون منه » قال فأنا أجدهما أتفق ولست أخاف الناس ، قال : فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى له أسافنظر الناس إليه فبنى عليه البناء وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعا فلما زاد فيه استقصه فزاد في طوله عشرة أذرع وجعل له بابين أحدهما يدخل منه ، والآخر يخرج منه . فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك يستجيزه بذلك ويخبره ان ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة فكتب إليه عبد الملك إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء أما مازاده في طوله فأقره ، وأما مازاد فيه من الحجر فرده إلى بناءه وسد الباب الذي فتحه فنقضه وأعادته إلى بناءه ، وقدر رواه النسائي في سننه عن هناد عن يحيى بن أبي زائدة عن عبد الملك بن أبي سليمان عن غطاء عن ابن الزبير عن عائشة بالرفوع منه ولم يذكر القصة وقد كانت السنة إقرارا ما فعله عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لأنه هو الذي وده رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن خشى أن تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالاسلام وقرب عهدهم من الكفر ، ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ قال : وددنا أنا تركناه وما تولى ، كما قال مسلم : حدثني محمد بن حاتم حدثنا محمد بن بكر أخبرنا ابن جريج سمعت عبد الله بن عبيد بن عمير والوليد بن عطاء يحدثان عن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة قال عبد الله بن عبيد : وفد الحارث بن عبيد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته فقال عبد الملك . ما أظن أبا حبيب يعني ابن الزبير سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها ، قال الحارث بلى أنا سمعته منها . قال : سمعتها تقول ماذا ؟ قال : قالت قال رسول الله ﷺ « إن قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه فان بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهل لي لأريك ما تركوا منه » فأراها قريبا من سبعة أذرع هذا حديث عبد الله بن عبيد بن عمير وزاد عليه الوليد بن عطاء قال النبي ﷺ « ولجعت لها بابين موضوعين في الأرض شرقا وغربا وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها » ؟ قالت : قلت لا . قال « تعززا أن لا يدخلها إلا من أرادوا فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يدعونه حتى يرتقى حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط » قال عبد الملك فقلت للحارث أنت سمعتها تقول هذا ؟ قال نعم قال فنكت ساعة بعصاه ثم قال . وددت أني تركت وما تحمّل . قال مسلم وحدثناه محمد بن عمرو بن جبلة حدثنا أبو عاصم ح وحدثنا عبد بن حميد أخبرنا عبد الرزاق كلاهما عن ابن جريج بهذا الاسناد مثل حديث أبي بكر قال : وحدثنا محمد بن حاتم حدثنا عبد الله بن بكر السهمي حدثنا حاتم ابن أبي صغيرة عن أبي قزعة أن عبد الملك بن مروان بينا هو يطوف بالبيت إذ قال . قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين ، يقول سمعتها تقول : قال رسول الله ﷺ « يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر فإن قومك قصروا في البناء » فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة لا تغفل هذا يا أمير المؤمنين فاني سمعت أم المؤمنين تحدث هذا . قال لو كنت سمعته قبل أن أهمله لتركته على ما بنى ابن الزبير ، فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة لأنه قد روى عنها من طرق صحيحة متعددة عن الأسود بن يزيد والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن محمد بن أبي بكر وعروة بن الزبير فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير فلو ترك لكان جيدا .

ولكن بعد ما رجع الأمر إلى هذا الحال فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله كما ذكر عن أمير المؤمنين هرون الرشيد أو أبيه المهدي أنه سأل الإمام مالكا عن هدم الكعبة وردها إلى ما فعله ابن الزبير . فقال له مالكا يا أمير المؤمنين لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها . فترك ذلك الرشيد ، نقله عياض والنووي ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان إلى أن يخرنها ذو السويقتين من الحبشة كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » أخرجه وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كأتى به أسود أفحج يقلعها حجرا حجرا » رواه البخاري وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده أخبرنا أحمد بن عبد الملك الحراشي أخبرنا محمد بن سلمة عن ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يخرّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حليتها ويجردها من كسوتها ، ولكأني أنظر إليه أصيلع أفيذع يضرب عليها بمسحاته ومعو له » - الفدع زينغ بين القدم وعظم الساق - وهذا والله أعلم إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج لما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج »

وقوله تعالى حكاية للدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) قال ابن جرير يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك ، لا نشرك معك في الطاعة أحدا سواك ، ولا في العبادة غيرك ، وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا أبي أخبرنا إسماعيل عن رجاء بن حبان الحصري القرشي أخبرنا معقل بن عبيد الله عن عبد الكريم (واجعلنا مسلمين لك) قال مخلصين لك (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) قال مخلصه وقال أيضاً أخبرنا علي بن الحسين أخبرنا المقدمي أخبرنا سعيد ابن عامر عن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية (واجعلنا مسلمين) قال كانا مسلمين ولكنهما سألاه الثبات . وقال عكرمة (ربنا واجعلنا مسلمين لك) قال الله . قد فعلت (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) قال الله قد فعلت . وقال السدي (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) يعنيان العرب . قال ابن جرير : والصواب أنه يعم العرب وغيرهم لأن من ذرية إبراهيم بنى إسرائيل وقد قال الله تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) (قلت) وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي فإن تخصيصهم بذلك لا ينفى من عدائهم والسياق إلما هو في العرب ولهذا قال بعده (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) الآية . والمراد بذلك محمد ﷺ ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) ومع هذا لا ينفى رسالته إلى الأحمر والأسود لقوله تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا) وغير ذلك من الأدلة القاطعة وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين في قوله . (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) وهذا القدر مرغوب فيه شرعا فان من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له . ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام (إني جاعلك للناس إماما) قال (ومن ذريتي) قال لا ينال عهدى الظالمين) وهو قوله (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، أنه قال « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » (وأرنا مناسكنا) قال ابن جرير عن عطاء (وأرنا مناسكنا) أخرجه لنا علمناها وقال مجاهد (أرنا مناسكنا) مذابحنا . وروى عن عطاء أيضا وقتادة نحو ذلك . وقال سعيد بن منصور : أخبرنا عتاب بن بشير عن خفيف عن مجاهد قال : قال إبراهيم (أرنا مناسكنا) فأتاه جبرائيل فأتى به البيت ، فقال ارفع القواعد فرفع القواعد وأتم البنيان ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا قال هذا من شعائر الله ثم انطلق به إلى الروة فقال وهذا من شعائر الله . ثم انطلق به نحو منى فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة فقال كبر وارمه فكبر ورماه ثم انطلق إبليس فقام عند الجرة

الوسطى فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له : كبر وارمه ، فكبر ورماه . فذهب الخبيث إبليس وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحج شيئاً فلم يستطع فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام فقال هذا المشعر الحرام فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات قال قد عرفت مأريتك ؟ قالها ثلاث مرات ، قال نعم . وروى عن أبي مجلز وقتادة نحوه ذلك ، وقال أبو داود الطيالسي أخبرنا حماد بن سلمة عن أبي العاصم الغنوي عن أبي الطفيل عن ابن عباس قال إن إبراهيم لما أرى أوامر الناسك عرض له الشيطان عند المسعى فسأله إبراهيم ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى فقال : هذا مناخ للناس فلما انتهى إلى جرة العقبة تعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أتى به إلى الجرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب فأتى به جمعا فقال هذا المشعر ثم أتى به عرفة فقال هذه عرفة فقال له جبريل أعرفت ؟

﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم أى من ذرية إبراهيم وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن كما قال الإمام أحمد أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرياض بن سارية : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني عند الله لحاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأنبئكم بأول ذلك ، دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بنى ، ورؤياى أمى التى رأت وكذلك أمهات النبيين يرين » وكذلك رواه ابن وهب والليث وكتبه عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح وتابعه أبو بكر بن أبى مريم عن سعيد بن سويد بنه ، وقال الإمام أحمد أيضاً أخبرنا أبو النضر أخبرنا الفرج أخبرنا لقمان بن عامر قال سمعت أبا أمامة قال قلت يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك ؟ قال « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى بنى . ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام ولم يزل ذكره في الناس مذكورا مشهورا سائرا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بنى إسرائيل نسباً وهو عيسى بن مريم عليه السلام حيث قام في بنى إسرائيل خطيباً وقال (إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد) ولهذا قال في هذا الحديث دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم * وقوله ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام قيل كان مناما رآته حين حملت به وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم وكان ذلك توطئة وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلا للإسلام وأهله وبها ينزل عيسى بن مريم إذا نزل بدمشق بالنارة الشرقية البيضاء منها ، ولهذا جاء في الصحيحين « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » وفي صحيح البخارى « وهم بالشام » قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية في قوله (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم) يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقيل له قد استجيب لك وهو كائن في آخر الزمان وكذا قال السدى وقتادة * وقوله تعالى (ويعلمهم الكتاب) يعنى القرآن (والحكمة) يعنى السنة قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك وغيرهم وقيل الفهم في الدين ولا منافاة (ويزكيهم) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى طاعة الله والإخلاص وقال محمد بن إسحق (ويعلمهم الكتاب والحكمة) قال يعلمهم الخير فيفعلوه والشر فيتقوه ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته ويحتنبوا ما يسخطه من معصيته ، وقوله (إنك أنت العزيز الحكيم) أى العزيز الذى لا يعجزه شيء وهو قادر على كل شيء الحكيم فى أفعاله وأقواله فيضع الأشياء فى محالها لعلهم وحكمته وعدله .

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهٍ نَفْسَهُ وَلَقَدْ صُطِّفَتْهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾
إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمِ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿

يقول تبارك وتعالى ردا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفة عين وتبرأ من كل معبود سواه وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه فقال (يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) وقال تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين) وقال تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) وقال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرا لأنعمه اجتباة وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين) ولهذا وأمثاله قال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ؟) أى ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اصطفي في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذ الله خليلا وهو في الآخرة من الصالحين السعداء فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طرق الضلالة والغي فأى سفه أعظم من هذا ؟ أم أى ظلم أكبر من هذا كما قال تعالى إن الشرك لظلم عظيم قال أبو العالية وقناة نزلت هذه الآية في اليهود أحدثوا طريقا ليست من عند الله وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين *)

وقوله تعالى (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) أى أمره الله بالاخلاص له والاستسلام والالتقياد فأجاب إلى ذلك شرعا وقدرًا وقوله (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب) أى وصى بهذه الملة وهى الاسلام لله أو يعبد الضمير على الكلمة وهى قوله (أسلمت لرب العالمين) لحصرهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم كقوله تعالى (وجعلها كلمة باقية في عقبه) وقد قرأ بعض السلف ويعقوب بالنصب عطفًا على بنيه كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحق وكان حاضرا ذلك وقد ادعى القشيري فيما حكاه القرطبي عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح والظاهر والله أعلم أن إسحق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة لأن البشارة وقعت بهما في قوله (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) وقد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض فلزم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحق كبير فائدة وأيضا فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت (ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب) الآية وقال في الآية الأخرى (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) وهذا يقتضى أنه وجد في حياته وأيضا فإنه باني بيت المقدس كالتقطت بذلك الكتب المتقدمة وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال « المسجد الحرام » قلت ثم أى : قال « بيت المقدس » قلت كم بينهما : قال « أربعون سنة » الحديث فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذى اعتقد أنه باني بيت المقدس — وإنما كان جدده بعد خرابه وزخرفه — وبين إبراهيم أربعين سنة وهذا مما أنكر على ابن حبان فإن المدة بينهما تزيد على ألوف سنين والله أعلم وأيضا فإن وصية يعقوب لابنه سائى ذكرها قريبا وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين * وقوله (يا بني إن الله اصطفى لك الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى أحسنوا في حال الحياة والزموها هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فإن المرء يموت غالبا على ما كان عليه ويبعث على ما مات عليه وقد أجرى الله

الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه ومن نوى صالحا ثبت عليه . وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح « إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وبعمل أهل النار فيما يبدو للناس وقد قال الله تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ أَلْمُوتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى محتجا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم عليهم السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له فقال لهم (ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق) وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه : قال النحاس والعرب تسمى العم أبا تفسله القرطبي وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من جعل الجدأبا وحجب به الإخوة كما هو قول الصديق حكاة البخارى عنه من طريق ابن عباس ، وابن الزبير ثم قال البخارى ولم يختلف عليه وإليه ذهب عائشة أم المؤمنين وبه يقول الحسن البصرى وطاوس وعطاء وهو مذهب أبى حنيفة وغير واحد من السلف والخلف وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه انه يقاسم الإخوة ، وحكى ذلك عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف واختاره صاحب أبى حنيفة القاضى أبو يوسف ومحمد بن الحسن ولتقريرها موضع آخر وقوله (إله واحد) أى نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئا غيره (ونحن له مسلمون) أى مطيعون خاضعون كما قال تعالى (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) والآيات فى هذا كثيرة والأحاديث فمنها قوله ﷺ « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » وقوله تعالى (تلك أمة قد خلت) أى مضت (لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) أى إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرا يعود نفعه عليكم فإن لهم أعمالهم التى عملوها ولكم أعمالكم (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) وقال أبو العالية والريبع وقتادة (تلك أمة قد خلت) يعنى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط . ولهذا جاء فى الأثر « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » (١)

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

قال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد حدثنى سعيد بن جبیر أو عكرمة عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن سوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبنا يا محمد تهتد وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله عز وجل (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) وقوله (قل بل ملة إبراهيم حنيفا) أى لا نريد ما دعوتونا إليه من اليهودية والنصرانية بل نتبع (ملة إبراهيم حنيفا) أى مستقيا . قاله محمد بن كعب القرظى وعيسى ابن جارية : وقال خفيف عن مجاهد مخلصا . وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس حجا . وكذا روى عن الحسن والضحاك وعطية والسدى . وقال أبو العالية . الحنيف الذى يستقبل البيت بصلاته ويرى أن حجه عليه إن استطاع

(١) قد يطلق الأثر على ما يشمل الحديث المرفوع لانه رواه مسلم مرفوعا من حديث طويل عن أبى هريرة

إليه سبيلا . وقال مجاهد والريبع بن أنس . حنيفا أى متبعا . وقال أبو قلابة : الحنيف الذى يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم وقال قتادة : الحنيفة شهادة أن لا إله إلا الله يدخل فيها تحرير الأمهات والبنات والحالات والعلمات وما حرم الله عز وجل والختان

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مفصلا وما أنزل على الأنبياء للتقدمين مجملا ، ونص على أعيان من الرسل وأجل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم ولا يكونوا كمن قال الله فيهم (ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا) الآية وقال البخارى حدثنا محمد بن بشار أخبرنا عثمان بن عمره أخبرنا علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله » . وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي من حديث عثمان بن حكيم عن سعيد بن يسار عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ما يصلى الركعتين اللتين قبل الفجر بـ (آمنا بالله وما أنزل إلينا) الآية والأخرى بـ (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) وقال أبو العالية والريبع وقاتة : الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلا ولد لكل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط . وقال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى بنى إسماعيل : وقال الزمخشري فى الكشف : الأسباط حفدة يعقوب ذرارى أبنائه الاثنى عشر وقد نقله الرازى عنه وقرره ولم يعارضه . وقال البخارى : الأسباط قبائل بنى إسرائيل ، وهذا يقتضى أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بنى إسرائيل وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم كما قال موسى لهم (اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فىكم أنبياء وجعلكم ملوكا) الآية وقال تعالى (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا) قال القرطبي : : وسموا الأسباط من السبط وهو التابع فهم جماعة ، وقيل أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر أى فى الكثرة بمنزلة الشجر الواحدة سبطة . قال الزجاج : وبين لك هذا ما حدثنا محمد ابن جعفر الأنبارى حدثنا أبو نجيح الدقاق حدثنا الأسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن سالك عن عكرمة عن ابن عباس قال كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسحق ويعقوب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام . قال القرطبي . والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد . وقال قتادة . أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها ورسوله . وقال سليمان بن حبيب إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل ولا نعمل بما فيها . وقال ابن أبى حاتم . أخبرنا محمد بن محمد بن مصعب الصورى أخبرنا مؤمل أخبرنا عبيد الله بن أبى حميد عن أبى المليس عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن »

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾

يقول تعالى فان آمنوا ، يعنى الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به يأبها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم (فقد اهتدوا) أى فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه . (وإن تولوا) أى عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم (فإنما هم فى شقاق فسيكفيكم الله) أى فسينصرلكم عليهم وينظركم بهم (وهو السميع العليم)

قال ابن أبي حاتم قرأ علي بن يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنا زياد بن يونس حدثنا نافع بن أبي نعيم قال أرسل إلى بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه قال زياد فقلت له إن الناس يقولون إن مصحفه كان في حجره حين قتل فوقع الدم على (فسيكفيكم الله وهو السميع العليم) فقال نافع بصرت عيني بالدم على هذه الآية وقد قدم * وقوله (صبغة الله) قال الضحاك عن ابن عباس دين الله وكذا روى عن مجاهد وأبي العالية وعكرمة وإبراهيم والحسن وقتادة والضحاك وعبد الله بن كثير وعطية العوفي والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك وانتصاب صبغة الله إما على الإغراء كقوله (فطرة الله) أى الزموا ذلك عليكموه وقال بعضهم بدلا من قوله (ملة إبراهيم) وقال سيبويه هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله (آمنا بالله) كقوله (وعد الله) وقد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من رواية أشعث بن إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال « إن بنى إسرائيل قالوا يا رسول الله هل يصنع ربك ؟ فقال اتقوا الله . فناداه ربه يا موسى سألوكم هل يصنع ربك ؟ فقل نعم : أنا أصنع الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغى » وأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) كذا وقع في رواية ابن مردويه مرفوعا وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف وهو أشبه إن صح إسناده والله أعلم .

﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يهودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿

يقول الله تعالى مرشدا نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين (قل أتحاجونا في الله) أى تناظرونا في توحيد الله والإخلاص له والالتقياد واتباع أوامره وترك زواجه (وهو ربنا وربكم) المتصرف فينا وفيكم المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أى نحن برآء منكم ومما تعبدون وأنتم برآء منا كما قال في الآية الأخرى (فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم . أأنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) وقال تعالى (فإن حاجوك فقل أسألت وجهي لله ومن اتبعني) إلى آخر الآية وقال تعالى إخبارا عن إبراهيم (وحاجة قومه قال أتحاجوني في الله) إلى آخر الآية وقال تعالى (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) الآية وقال في هذه الآية الكريمة (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون) أى نحن برآء منكم كما أنتم برآء منا ونحن له مخلصون أى في العبادة والتوجه ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم إما اليهودية وإما النصرانية فقال (قل أأنتم أعلم أم الله) يعنى بل الله أعلم وقد أخبر أنهم لم يكونوا يهودا ولا نصارى كما قال تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) الآية والى بعدها ، وقوله (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) قال الحسن البصري كانوا يقرءون في كتاب الله الذى أتاهم إن الدين الإسلام وإن محمدا رسول الله وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله فكتبوا شهادة الله عندهم من ذلك ، وقوله (وما الله بغافل عما تعملون) تهديد ووعيد شديد أى أن علمه محيط بعلمكم وسيجزىكم عليه . ثم قال تعالى (تلك أمة قد خلت) أى قد مضت (لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) أى لهم أعمالهم ولكم أعمالكم (ولا تسألون عما كانوا يعملون) وليس يغنى عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم ولا تقتروا بمجرد النسب إليهم حتى تكونوا متقادين مثلهم لأوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا

مبشرين ومنذرين فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإسم والجن من المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنْ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرَّوْفٌ رَحِيمٌ ﴾

قيل المراد بالسفهاء ههنا مشركو العرب قاله الزجاج وقيل أجاز يهود قاله مجاهد وقيل المنافقون قاله السدي والآية عامة في هؤلاء كلهم والله أعلم . قال البخاري أخبرنا أبو نعيم سمع زهيرا عن أبي إسحق عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فرأى أهل المسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت وكان الذي قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجلا قتلوا لم ندر ما يقول فيهم فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم) انفرد به البخاري من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر وقال محمد بن إسحق حدثني إسماعيل بن أبي خالد عن أبي إسحق عن البراء قال كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله فأنزل الله (قد نرى قلبك وجهك في السماء فلو نيك قبله ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) فقال رجال من المسلمين وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) وقال السفهاء من الناس وهم أهل الكتاب ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فأنزل الله (سيقول السفهاء من الناس) إلى آخر الآية ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا الحسن بن عطية حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن البراء قال : كان رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان يحب أن يوجه نحو الكعبة فأنزل الله (قد نرى قلبك وجهك في السماء فلو نيك قبله ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) قال فوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) فأنزل الله (قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرا وكان رسول الله ﷺ يحب قبله إبراهيم فكان يدعو الله وينظر إلى السماء فأنزل الله عز وجل (فولوا وجوهكم شطره) أي نحو فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فأنزل الله (قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلي بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس قاله ابن عباس والجمهور ثم اختلف هؤلاء هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره على قولين وحكى القرطبي في تفسيره عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصري أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه السلام . والمقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهرا وكان يكثر الدعاء والابتهاال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبله إبراهيم عليه السلام فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق فخطب رسول الله ﷺ الناس

فأعلمهم بذلك وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر كما تقدم في الصحيحين من رواية البراء ووقع عند النسائي من رواية أبي سعيد بن العلى أنها الظهر وقال كنت أنا وصاحبي أول من صلى إلى الكعبة وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر وذلك في مسجد بنى سامة فسمى مسجد القبليتين وفي حديث نويلة بنت مسلم أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر قالت فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النخعي وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال بينا الناس بقاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به وإن تقدم نزوله وإبلاغه لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء والله أعلم ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارباب وزينغ عن الهدى وتخيط وشك وقالوا (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) أى قالوا ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا فأنزل الله جوابهم في قوله (قل لله المشرق والمغرب) أى الحكم والتصرف والأمر كله لله (فأينما ^(١) تولوا فثم وجه الله) (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله) أى الشأن كله في امثال أوامر الله فحيثما وجهنا وتوجهنا فالطاعة في امثال أمره ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن عبيده وفي تصرفه وخدامه حيثما وجهنا وتوجهنا وهو تعالى له بعبدته ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمنته عناية عظيمة إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت الله في الأرض إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال : (قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)

وقد روى الإمام أحمد عن علي بن عاصم عن حصين بن عبد الرحمن عن عمرو بن قيس عن محمد بن الأشعث عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعنى في أهل الكتاب « إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هداها الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التي هداها الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الإمام آمين »

وقوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) يقول تعالى إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واختارناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم لأن الجميع معترفون لكم بالفضل والوسط ههنا الخيار والأجود كما يقال قريش أوسط العرب نسبا وداراً أى خيرها وكان رسول الله ﷺ وسطا في قومه ، أى أشرفهم نسبا ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى (هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن الأعمش عن أنس بن مالك عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت ؟ فيقول نعم ، فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغت ؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد ، فيقال لنوح من يشهد لك . فيقول محمد وأمنته ، قال فذلك قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال والوسط العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم » رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن الأعمش وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « ينجى النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال هل بلغت ؟ فيقولون لا فيقال له هل بلغت قومك ؟ فيقول نعم : فيقال من يشهد لك ، فيقول محمد وأمنته فيدعى محمد وأمنته : فيقال لهم هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون نعم . فيقال وماعلمكم ؟ فيقولون جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فذلك قوله عز وجل (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال عدلا (لتكونوا شهداء على الناس ويكون

(١) كانت في السخين المطبوعة والمخطوطة : وحيث . وهو من الاتفاق الغريب في اللفظ .

الرسول عليكم شهيدا) « وقال أحمد أيضا حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال عدلا . وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم من حديث عبد الواحد بن زياد عن أبي مالك الأشجعي عن المغيرة بن عتيبة بن نبال^(١) حدثني مكاتب لنا عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال « أنا وأمتي يوم القيامة على كوف مشرفين على الخلائق مامن الناس أحد إلا ود أنه منا وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل » وروى الحاكم في مستدركه وابن مردويه أيضا ، واللفظ له من حديث مصعب بن ثابت عن محمد بن كعب القرظي عن جابر بن عبد الله قال : شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني مسleme وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم والله يارسول الله لنعم المرء كان ، لقد كان عفيفا مسلما وكان وأثنوا عليه خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنت بما تقول . فقال الرجل : الله أعلم بالسراير ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك فقال النبي ﷺ وجبت ، ثم شهد جنازة في بني حارثة وكنت إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم . يارسول الله بش المرء كان إن كان لفظا غليظا فأثنوا عليه شرا ، فقال رسول الله ﷺ لبعضهم أنت بالذي تقول . فقال الرجل الله أعلم بالسراير ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت . قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) ثم قال الحاكم : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس بن محمد حدثنا داود بن أبي الفرات عن عبد الله بن بريدة عن أبي الأسود أنه قال : أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض فهم يموتون موتا ذريعا ، فجلست إلى عمر بن الخطاب فثرت به جنازة فأثنى على صاحبها خير فقال : وجبت ثم مر بأخرى فأثنى عليها شر ، فقال عمر : وجبت . فقال أبو الأسود ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال قلت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة » قال فقلنا وثلاثة قال : فقال « وثلاثة » قال : فقلنا واثنان قال « واثنان » . ثم لم نسأله عن الواحد . وكذا رواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث داود ابن أبي الفرات به : وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى حدثنا أبو قلابة الرقاشي حدثني أبو الوليد حدثنا نافع ابن عمر حدثني أمية بن صفوان عن أبي بكر بن أبي بكرة عن أبي زهير الثقفي عن أبيه : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناوة يقول « يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم » قالوا بيم يارسول الله ؟ قال « بالثناء الحسن والثناء السيء » أتم شهداء الله في الأرض » ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هرون ورواه الإمام أحمد عن يزيد بن هرون وعبد الملك بن عمر وشريح عن نافع عن ابن عمر به .

وقوله تعالى (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الدين هدى الله) يقول تعالى إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولا إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويعتقل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه ، أي مرتدا عن دينه وإن كانت لكبيرة ، أي هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة ، أي وإن كان هذا الأمر عظيما في النفوس إلا على الدين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه ، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فله أن يكلف عباده بما يشاء وينسخ ما يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك بخلاف الدين في قلوبهم مرض فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شك كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق ، كما قال الله تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) وقال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عسى) وقال تعالى (وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتبعه في ذلك وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب

من سادات الصحابة : وقد ذهب بعضهم إلى ان السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين . وقال البخارى فى تفسير هذه الآية : حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : بينا الناس يصلون الصبح فى مسجد قباء إذ جاء رجل فقال : قد أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها . فتوجهوا إلى الكعبة . وقد رواه مسلم من وجه آخر عن ابن عمر ورواه الترمذى من حديث سفيان الثورى وعنده أنهم كانوا ركوعا فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع . وكذا رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مثله ، وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله واتباعهم لأوامر الله عز وجل رضى الله عنهم أجمعين : وقوله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله وفى الصحيح من حديث أبى إسحق السبيعى عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ؟ فقال الناس ما حالهم فى ذلك : فأنزل الله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) ورواه الترمذى عن ابن عباس وصححه . وقال ابن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى بالقبلة الأولى وتصدقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى ، أى ليعطيكم أجرها جميعا (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) وقال الحسن البصرى (وما كان ليضيع إيمانكم) أى ما كان الله ليضيع محمدًا ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) وفى الصحيح ان رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها فجعلت كلما وجدت صبيا من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهى تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألصقته ثديها . فقال رسول الله ﷺ « أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على أن لا تطرحه » ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : « فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها » .

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

قال طى بن أبى طلحة عن ابن عباس . كان أول ما نسخ من القرآن القبلة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) إلى قوله (فولوا ووجوهكم شطره) فارتابت من ذلك اليهود وقالوا : (ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب) وقال (فأينا تولوا فثم وجه الله) وقال الله تعالى (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) وروى ابن مردويه من حديث القاسم العمرى عن عمه عبيد الله بن عمرو عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس : قال كان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء . فأنزل الله (فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) إلى الكعبة إلى الميزاب يؤم به جبرائيل عليه السلام . وروى الحاكم فى مستدركة من حديث شعبة عن يعلى بن عطاء عن يحيى بن قطة قال : رأيت عبد الله بن عمرو جالسا فى المسجد الحرام يلزأ الميزاب فتلا هذه الآية (فلنولينك قبلة ترضاها) قال نحو ميزاب الكعبة . ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه . ورواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن عرفة عن هشام عن يعلى بن عطاء به . وهكذا قال غيره وهو أحد قولى الشافعى رضى الله عنه : إن الغرض إصابة عين الكعبة والقول الآخر وعليه الأكثر أن المراد المواجهة كما رواه الحاكم من حديث محمد بن إسحق عن عمير بن زياد الكندى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه (فول وجهك شطر المسجد الحرام) قال شطره قبله . ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وهذا قول أبى العالية ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم . وكما تقدم فى الحديث الآخر « ما بين المشرق والمغرب قبلة » وقال القرطبي : روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس

رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « البيت قبله لأهل المسجد والمسجد قبله لأهل الحرم والحرم قبله لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي » وقال أبو نعيم الفضل بن دكين : حدثنا زهير عن أبي إسحق عن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه قبلته قبل البيت ؟ وأنه صلى صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان يصلي معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت .

وقال عبد الرزاق أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحق عن البراء قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان رسول الله ﷺ يحب أن يحول نحو الكعبة فزلت (قد نرى تقلب وجهك في السماء) فصرف إلى الكعبة وروى النسائي عن أبي سعيد بن الملق قال : كنا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ فنصلي فيه فمرنا يوما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد على المنبر ، فقلت لقد حدث أمر فجلست فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها) حتى فرغ من الآية ، فقلت لصاحبي تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكون أول من صلى فتوارينا فصليناها . ثم نزل النبي ﷺ وصلى للناس الظهر يومئذ . وكذا روى ابن مردويه عن ابن عمر : أن أول صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة صلاة الظهر وأنها الصلاة الوسطى ، والمشهور أن أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة العصر . ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا الحسين بن إسحق التستري حدثنا رجاء بن محمد السقطي حدثنا إسحق بن إدريس حدثنا إبراهيم بن جعفر حدثني أبي عن جدته أم أيه نويلة بنت مسلم قالت : صلينا الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا ركعتين ، ثم جاء من يحدثنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فصلينا السجدين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام ، فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أولئك رجال يؤمنون بالغيب » وقال ابن مردويه أيضا : حدثنا محمد بن علي بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا مالك بن إسماعيل النهدي حدثنا قيس عن زياد بن علاقة عن عمارة بن أوس قال : بينا نحن في الصلاة نحو بيت المقدس ونحن ركوع إذ نادى مناد بالباب ان القبله قد حولت إلى الكعبة . قال فأشهد على إمامنا أنه انحرف فتحول هو والرجال والصبيان وهم ركوع نحو الكعبة وقوله (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر فإنه يصلها حيث توجه قلبه وقلبه نحو الكعبة وكذا في حال المسافرة في القتال يصلى على كل حال . وكذا من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده وإن كان مخطئا في نفس الأمر لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها .

﴿ مسألة ﴾ وقد استدلل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة ، قال المالكية : بقوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام) فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينا في كمال القيام . وقال بعضهم . ينظر المصلي في قيامه إلى صدره . وقال شريك القاضي : ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة لأنه أبلغ في الخضوع وأكد في الخشوع وقد ورد به الحديث وأما في حال ركوعه فإلى موضع قدميه ، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه وفي حال قعوده إلى حجره .

وقوله (وإن الدين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم) أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرفكم عن بيت المقدس يعلمون أن الله تعالى سيوجهكم إليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأتمته وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ولكن أهل الكتاب يتكاثرون

ذلك بينهم حسدا وكفرا وعنادا ولهذا تهددهم تعالى بقوله (وما الله بغافل عما يعملون)

﴿وَلَنْ أَتَّبِعَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ
بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَنْ أَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى (إن الدين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون* ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ولهذا قال ههنا (ولن أتبع الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلك) وقوله (وما أنت بتابع قبلكم) إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به وأنه كما هم مستمسكون بأرائهم وأهوائهم فهو أيضا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله ولا كونه متوجها إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود ، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى ، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره . ولهذا قال مخاطبا للرسول والمراد به الأمة (ولن أتبع أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين)

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير «ابنك هذا» ؟ قال نعم يا رسول الله أشهد به ، قال «أما إنه لا يخفى عليك ولا تخفى عليه» قال القرطبي : ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام أتعرف محمدا كما تعرف ولدك ؟ قال نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته وإني لا أدرى ما كان من أمه (قلت) وقد يكون المراد (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) من بين أبناء الناس كلهم . لا يشك أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي (ليكتُمون الحق) أي ليكتُمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي صلى الله عليه وسلم (وهم يعلمون) ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فقال (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين)

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *
قال العوفي عن ابن عباس ولكل وجهة هو موليها يعني بذلك أهل الأديان ، يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ووجهة الله حيث توجه المؤمنون . وقال أبو العالية لليهودى وجهة هو موليها ، وللنصراني وجهة هو موليها وهذا كم أتت الأمة إلى القبلة التي هي القبلة . وروى عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس والسدي نحو هذا وقال مجاهد في الرواية الأخرى والحسن أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة ، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر الباقر وابن عامر (ولكل وجهة هو مولاها) وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فبا آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا) وقال ههنا (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير) أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٩٥﴾

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات فقيل تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الاسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره ، وقيل بل هو منزل على أحوال فالأمر ، الأول لمن هو مشاهد الكعبة ، والثاني لمن هو في مكة غائبا عنها ، والثالث لمن هو في بقية البلدان هكذا وجهه فخر الدين الرازي . وقال القرطبي الأول لمن هو بمكة والثاني لمن هو في بقية الأمصار والثالث لمن خرج في الأسفار ورجح هذا الجواب القرطبي ، وقيل إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق : فقال أولا (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها) الى قوله (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون) فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبته وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها : وقال في الأمر الثاني (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون) فذكر أنه الحق من الله وارتقاء المقام الأول حيث كان موافقا لرضا الرسول ﷺ فيبين أنه الحق أيضا من الله يحبه ويرضيه وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة الخالف من اليهود الذين كانوا يتحجبون باستقبال الرسول إلى قبلتهم وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم انه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة وكذلك مشركو العرب انقطع حجبتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها ، وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار وقد بسطها الرازي وغيره والله أعلم : وقوله (لئلا يكون للناس عليكم حجة) أي أهل الكتاب فانهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس وهذا أظهر قال أبو العالية (لئلا يكون للناس عليكم حجة) يعني به أهل الكتاب حين قالوا صرف محمد إلى الكعبة . وقالوا اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه وكان حجبتهم على النبي ﷺ انصرفه إلى البيت الحرام أن قالوا سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع ابن أنس وقتادة والسدي نحو هذا . وقال هؤلاء في قوله (إلا الذين ظلموا منهم) يعني مشركي قريش . ووجه بعضهم حجة الظلمة وهي داحضة ان قالوا إن هذا الرجل يزعم انه على دين إبراهيم فان كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم يرجع عنه والجواب أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولا لما له تعالى في ذلك من الحكمة فأطاع ربه تعالى في ذلك ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة فامتثل أمر الله في ذلك أيضا فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيع لله في جميع أحواله لا يخرج عن أمر الله طرفه عين وأتمه تبع له ، وقوله (فلا تخشَوْهم وَاخْشَوْنِي) أي لا تخشوا شبه الظلمة المعتنين وأفردوا الخشية لي ، فانه تعالى هو أهل أن يخشى منه : وقوله (ولأتم نعمتي عليكم) غطف على (لئلا يكون للناس عليكم حجة) أي لأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوها (ولعلكم تهتدون) أي إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها .

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٩٦﴾

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بركة الرسول محمد ﷺ اليهم يتلو عليهم آيات الله مبینات

ويزكيهم أى يظهرهم من رذائل الأخلاق وذنس النفوس وأفعال الجاهلية ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهى السنة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، فكانوا فى الجاهلية الجهلاء يسفهون بالقول الفراء فانتقلوا بركة رسالته ، وعين سفارته ، إلى حال الأولياء ، وسجاياء العلماء . فصاروا أعمق الناس علما ، وأبرهم قلوبا وأقلهم تكلفا ، وأصدقهم لهجة . وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم) الآية وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار) قال ابن عباس يعنى بنعمة الله محمدا ﷺ ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره : وقال (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) قال مجاهد فى قوله (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم) يقول كما فعلت فاذكرونى ، قال عبد الله بن وهب عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم ان موسى عليه السلام قال يارب كيف أشكرك ؟ قال له ربه « تذكرنى ولا تنساني ، فإذا ذكرتنى فقد شكرتنى ، وإذا نسيتنى فقد كفرتنى » قال الحسن البصرى وأبو العالية والسدى والريبع بن أنس ان الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره وقال بعض السلف فى قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) قال هو أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا يزيد بن هرون أخبرنا غمارة الصيدلانى أخبرنا مكحول الأزدى قال قلت لابن عمر أرايت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزانى يذكر الله ، وقد قال الله تعالى (فاذكرونى أذكركم) قال إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلغته حتى يسكت وقال الحسن البصرى فى قوله (فاذكرونى أذكركم) قال إذا ذكرنى فيما افترضت عليكم أذكركم فما أوجب لكم على نفسى وعن سعيد بن جبيرة ذكرنى بطاعتي أذكركم بمغفرتى ، وفى رواية برحمتى . وعن ابن عباس فى قوله (اذكرونى أذكركم) قال ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه وفى الحديث الصحيح « يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه » قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « قال الله عز وجل يا ابن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى وإن ذكرتنى فى ملاء ذكرتك فى ملاء من الملائكة - أو قال فى ملاء خير منه - وإن دنوت منى شبرادنوت منك ذراعا ، وإن دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك هرولة » صحيح الاسناد أخرجه البخارى من حديث قتادة وعنده قال قتادة الله أقرب بالرحمة : وقوله (واشكروا لى ولا تكفرون) أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال (وإذا تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) وقام الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا شعبة عن الفضيل بن فضالة - رجل من قيس - حدثنا أبو رجاء العطاردى قال خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده فقال إن رسول الله ﷺ قال « من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه » وقال روح مرة : على عبده .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَامُوتَ بَلْ ءَحْيَاءَ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع فى بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصبر والصلاة فان العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر عليها أو فى نقمة فيصبر عليها كما جاء فى الحديث « عجبا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له : إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له » وبين تعالى ان أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم فى قوله (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وفى الحديث ان رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى والصبر صبران فصبر على ترك المحارم والآثم وصبر على فعل الطاعات والقربات ، والثانى أكثر ثوابا لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب فذلك أيضا واجب كالاستغفار من المعاصى كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الصبر فى بايىن الصبر لله بما أحب

وإن ثقل على الأنفس والأبدان والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله : وقال علي بن الحسين زين العابدين إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادى مناد أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ قال فيقوم عنق من الناس فتلقاهم الملائكة فيقولون إلى أين يا بني آدم ؟ فيقولون إلى الجنة فيقولون قبل الحساب ؟ قالوا نعم ، قالوا ومن أتم ، قالوا نحن الصابرون ، قالوا وما كان صبركم ؟ قالوا صبرنا على طاعة الله وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله ، قالوا أتم كما قلتم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين (قلت) ويشهد لهذا قوله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقال سعيد بن جبيرة الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه وقد يحزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر

وقوله تعالى (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتاً بل أحياء) يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون كما جاء في صحيح مسلم أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال ماذا تبغون ؟ فقالوا يا ربنا وأى شيء نبغى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى تقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جل جلاله : إني كنت أحببت أنهم إليها لا يرجعون .

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

أخبرنا تعالى أنه يبتلى عباده : أى يخبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع كما قال تعالى (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه . ولهذا قال لباس الجوع والخوف . وقال ههنا (بشيء من الخوف والجوع) أى بقليل من ذلك (ونقص من الأموال) أى ذهاب بعضها (والأنفس) كموت الأصحاب والأقارب والأحباب (والثمرات) أى لا تغل الحقائق والمزارع كعادتها . قال بعض السلف ، فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة . وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه ومن قنطأ حل به عقابه . ولهذا قال تعالى (وبشر الصابرين) وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا خوف الله ، والجوع صيام رمضان ، ونقص الأموال الزكاة ، والأنفس الأمراض ، والثمرات الأولاد ، وفى هذا نظر والله أعلم ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) أى تسألوا بقولهم هذا عما أصابهم وعلموا أنهم ملك لله يتصرف فى عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون فى الدار الآخرة . ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) أى شاء من الله عليهم . قال سعيد بن جبيرة : أى أمة من العذاب (وأولئك هم المهتدون) قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نعم العدلان ونعمت العلاوة (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) فهذان العدلان (وأولئك هم المهتدون) فهذه العلاوة وهى ما توضع بين العدلين وهى زيادة فى الحل

فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً

وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول (إنا لله وإنا إليه راجعون) عند المصائب أحاديث كثيرة . فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا يونس بن محمد حدثنا ليث يعني ابن سعد عن يزيد بن عبد الله حدثنا أسامة بن المهدي عن عمرو ابن أبي عمرو عن المطلب عن أم سلمة قالت أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به . قال « لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبتها ثم يقول . اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها ، إلا فعل ذلك به » ، قالت أم سلمة خففت ذلك منه فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها ، ثم رجعت إلى نفسي . فقلت من أين لي خير من أبي سلمة ؟ فلما انقضت عدتي استأذن عليّ رسول الله ﷺ وأنا أدبج إهاباً لي ففسلت يدي من القرظ وأذنت له فوضعت له وسادة آدم حشوها ليف فقعدها عليها فخطبني إلى نفسي ، فلما فرغ من مقالته قلت يا رسول الله ما لي أن لا يكون بك الرغبة ولكني امرأة في غيرة شديدة فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبنى الله به وأنا امرأة قد دخلت في السن وأنا ذات عيال ، فقال « أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك . وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي » . قالت . فقد سلمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجها رسول الله ﷺ فقالت أم سلمة بعد : أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه : رسول الله ﷺ . وفي صحيح مسلم عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول (إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها إلا أجره الله في مصيبتى وأخلف له خيراً منها » . قالت فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه : رسول الله ﷺ . وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد وعباد بن عباد قالا حدثنا هشام بن أبي هشام حدثنا عباد بن زياد عن أمه عن فاطمة ابنة الحسين عن أبيها الحسين بن علي عن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها - وقال عباد قدم عهدها - فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب » . ورواه ابن ماجه في سننه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن هشام بن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها . وقد رواه إسماعيل بن علي وزيد بن هرون عن هشام بن زياد عن أبيه (كذا) عن فاطمة عن أبيها . وقال الإمام أحمد أنا يحيى بن إسحق السيلحي (١) أنا حماد بن سلمة عن أبي سنان قال . دفنت ابناً لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة يعني الحولاني فأخرجني وقال لي : ألا أبشرك قلت بلى . قال حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ « قال الله : يا ملك الموت قبضت ولد عبدى ؟ قبضت قرعة عينه وقرعة فؤاده ؟ قال نعم . قال فما قال ؟ قال حمدك واسترجع . قال « ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد » ثم رواه عن علي بن إسحق عن عبد الله بن المبارك فذكره . وهكذا رواه الترمذي عن سويد بن نصر عن ابن المبارك به ، وقال حسن غريب واسم أبي سنان عيسى بن سنان

﴿ إِنِّ الصَّافَّاءُ وَالْمُرُوءَةُ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود الهاشمي أنا إبراهيم بن سعد عن الزهري عن عروة عن عائشة قال . قالت أرأيت قول الله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) قلت فوائه ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما ، فقالت عائشة بشما قلت يا ابن أخي إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهل لها يتخرج أن يطوف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ

(١) الباء بعد السين المهملة لأجل الإمالة وقد تستبدل ألفا لينة كما في التقريب .

فقالوا يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية . فأنزل الله عز وجل (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) قالت عائشة : ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما أخرجاه في الصحيحين . وفي رواية عن الزهري أنه قال فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام . فقال إن هذا العلم ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجلاً من أهل العلم يقولون إن الناس - إلا من ذكرت عائشة - كانوا يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية . وقال آخرون من الأنصار إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) قال أبو بكر بن عبد الرحمن فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء . ورواه البخاري من حديث مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بنحو ما تقدم . ثم قال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنسا عن الصفا والمروة قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل (إن الصفا والمروة من شعائر الله) وذكر القرطبي في تفسيره عن ابن عباس قال : كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله وكانت بينهما آلهة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما فنزلت هذه الآية . وقال الشعبي : كان إساف على الصفا وكانت نائلة على المروة ، وكانوا يستلمونهما فتخرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية (قلت) ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافاً ونائلة كانا بشرين فزنا داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس ، فلما طال عهدهما عبداً ثم حولا إلى الصفا والمروة ، فنصبا هنالك فكان من طاف بالصفاء والمروة يستلمهما ، ولهذا يقول أبوطالب في قصيدته المشهورة :

وحيث ينبخ الأشعرون ركا بهم * لمفضي السيول من إساف ونائل

وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل وفيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفا وهو يقول (إن الصفا والمروة من شعائر الله) ثم قال « أبدأ بما بدأ الله به » وفي رواية النسائي « ابدؤا بما بدأ الله به » وقال الإمام أحمد حدثنا شرح حدثنا عبد الله بن المؤمل عن عطاء بن أبي رباح عن صفية بنت شيبة عن حبيبة بنت أبي تيجرة قالت رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي » ثم رواه الإمام أحمد عن عبد الرزاق . أنا معمر عن واصل مولى أبي عيينة عن موسى ابن عبيدة عن صفية بنت شيبة أن امرأة أخبرتها أنها سمعت النبي ﷺ بين الصفا والمروة يقول « كتب عليكم السعي فاسعوا » وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج كما هو مذهب الشافعي ومن وافقه ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك . وقيل إنه واجب وليس بركن فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم وهو رواية عن أحمد وبه يقول طائفة ، وقيل بل مستحب واليه ذهب أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين وروى عن أنس وابن عمر وابن عباس وحكى عن مالك في العتبية قال القرطبي واحتجوا بقوله تعالى (فمن تطوع خيراً) والقول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما وقال « لتأخذوا عني مناسككم » فكل ما فعله في حجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج إلا ما خرج بدليل والله أعلم ، وقد تقدم قوله عليه السلام « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي » فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج وقد تقدم في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترداده بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نفذ ماؤها وزادها حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك وليس عندها أحد من الناس فلما خافت على ولدها الصيعة هنالك ونفذ ما عندها قامت تطلب العوث من الله عز وجل فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذلة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله عز وجل حتى كشف الله كرتها وآنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زمزم التي ماؤها « طعام طعم ، وشفاء سقم »^(١) فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر

(١) هذا نص نسخة الأثره وفي النسخة الأميرية : طعاما طعم طعم . والأصل « زمزم طعام طعم وشفاء سقم » رواه ابن أبي شيبة والبخاري عن أبي ذر

قفره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه : وإن يلتجئ إلى الله عز وجل لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يشبته عليه إلى مماته وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام .

وقوله (فمن تطوع خيراً) قيل زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثمانية وتسعة ونحو ذلك وقيل يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع وقيل المراد تطوع خيراً في سائر العبادات حكى ذلك الرازي وعزى الثالث إلى الحسن البصري والله أعلم وقوله (فإن الله شاكر عليم) أى يثيب على القليل بالكثير عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدا ثوابه (ولا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) .

﴿ إِنِّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنِّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْنَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله قال أبو العالية نزلت في أهل الكتاب كتموا صفة محمد ﷺ ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء والطير في الهواء فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، وقد ورد في الحديث السند من طرائق يشد بعضها بعضها عن أبي هريرة وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحدا شيئا (إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى) الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عمار بن محمد عن ليث ابن أبي سليم عن المنهال بن عمرو عن زاذان بن عمرو عن البراء بن عازب قال كنا مع النبي ﷺ في جنازة قتال « إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه يسمعها كل دابة غير الثقلين فتلعنه كل دابة سمعت صوته فذلك قول الله تعالى (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) يعني دواب الأرض » ورواه ابن ماجه عن محمد بن الصباح عن عامر بن محمد به ، وقال عطاء بن أبي رباح : كل دابة والجن والإنس وقال مجاهد إذا أجدبت الأرض قال البهائم هذا من أجل عصاة بني آدم لعن الله عصاة بني آدم وقال أبو العالية والريبع بن أنس و قتادة (ويلعنهم اللاعنون) يعني تلعنهم الملائكة والمؤمنون وقد جاء في الحديث أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضا وهم كل نصيح وأعجمي إما بلسان المقال أو الحال أن لو كان له عقل ويوم القيامة والله أعلم * ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال (إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) أى رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا يكتُمونه (فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه : وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه ، ثم أخبر تعالى عن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن (عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها) أى في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي لا يخفف عنهم العذاب فيها أى لا ينقص عماهم فيه (ولا هم ينظرون) أى لا يغير عنهم ساعة واحدة ولا يفتقر بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك : قال أبو العالية و قتادة إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم تلعه الملائكة ثم يلعه الناس أجمعون .

﴿ فصل ﴾ لاخلاف في جواز لعن الكفار وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره فأما الكافر اللعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يعلن لأننا لا ندرى بما يحتم الله له واستدل بعضهم بالآية (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) وقالت طائفة أخرى بل يجوز لعن الكافر اللعين ، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف واستدل غيره بقوله عليه السلام في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيجده فقال لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله ﷺ « لا تلعه فانه يحب الله ورسوله » فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن والله أعلم

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن تفرده بالالهية وأنه لا شريك له ولا عديل له بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو وأنه الرحمن الرحيم . وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة وفي الحديث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنه قال « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) و (ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم) » ثم ذكر الدليل على تفرده بالالهية بخلق السموات والأرض وما فيها وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال

﴿ إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى (إن في خلق السموات والأرض) تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكرامتها السيادة والثواب ودوران فلكها - وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووعورها وعمرانها وما فيها من المنافع واختلاف الليل والنهار هذا يحىء ثم يذهب ويخلقه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة كما قال تعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاضدان كما قال تعالى (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) أى يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا (والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس) أى في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والارتفاع بما عند أهل ذلك الاقليم ونقل هذا إلى هؤلاء وماعند أولئك إلى هؤلاء (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) كما قال تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون - إلى قوله - وبما لا يعلمون) (وبث فيها من كل دابة) أى على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يغني عليه شيء من ذلك كما قال تعالى (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) (وتصريف الرياح) أى فتارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب وتارة تأتي بمبشرة بين يدي السحاب وتارة تسوقه وتارة تجمععه وتارة تفرقه وتارة تصرفه ثم تارة تأتي من الجنوب وهى الشامية وتارة تأتي من ناحية اليمن وتارة صبا وهى الشرقية التى تصدم وجه الكعبة وتارة دبورا وهى غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة . وقد صنف الناس في الرياح والطر والأنواء كتباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها وبسط ذلك يطول ههنا والله أعلم (والسحاب المسخر بين السماء والأرض) أى سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضى والأما كن كما يصرفه تعالى (لآيات لقوم يعقلون) أى في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى كما قال تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار) الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت

هذا باطلا سبحانه (قفنا عذاب النار) وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه أخبرنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا أبو سعيد الدشتكي حدثني أبي عن أبيه عن أشعث بن إسحق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت قريش محمدًا ﷺ فقالوا يا محمد إنا نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً فنشتري به الخيل والسلاح فنؤمن بك وتقاتل معك قال « أو تقولون لي لئن دعوت ربي فجعل لكم الصفا ذهباً لتؤمنن بي » فأوثقوا له فدعا ربه فأثناه جبريل فقال إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهباً على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين قال محمد ﷺ « رب لا بد دعني وقومي فلا أدعهم يوماً يوم » فأُنزل الله هذه الآية (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) الآية ورواه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن جعفر بن أبي المغيرة به وزاد في آخره : وكيف يسألونك الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا ؟ وقال ابن أبي حاتم أيضاً حدثنا أبي حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن عطاء قال نزلت على النبي ﷺ بالمدينة (وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) فقال كفار قريش بمكة كيف يسع الناس إله واحد فأُنزل الله تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) إلى قوله (آيات لقوم يعقلون) فهذا يعلمون أنه إله واحد وأنه إله كل شيء وخالق كل شيء ، وقال وكيع بن الجراح حدثنا سفيان عن أبيه عن أبي الضحى قال لما نزلت (وإلهم إله واحد) إلى آخر الآية قال المشركون إن كان هكذا فليأتنا بآية فأُنزل الله عز وجل (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) إلى قوله (يعقلون) ورواه آدم بن أبي إياس عن أبي جعفر هو الرازي عن سعيد بن مسروق والدسفيان عن أبي الضحى به .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَتَرْجِفُنَّهُمْ فَمَا تَرَجَفُوا بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَهُمْ لَا يَمْنُونَ * ﴾

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة حيث (١) جعلوا له أنداداً أي أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه وهو الله لا إله إلا هو ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه . وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » وقوله (والذين آمنوا أشد حبا لله) ولحبهم لله وتعام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئا بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجأون في جميع أمورهم إليه . ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا) قال بعضهم تقدير الكلام لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعا أي أن الحكم له وحده لا شريك له وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلته وسلطانه (وأن الله شديد العذاب) كما قال (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) يقول لو يعلمون ما يعاينونه هنالك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتها عمامهم فيه من الضلال ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبري المتبوعين من التابعين فقال (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) تبرأ منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا فتقول الملائكة (تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) ويقولون (سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) والجن أيضا تبرأ منهم ويتصلون من عبادتهم لهم كما قال تعالى (ومن

(١) استعمل حيث هنا للتعليل كما شاع في كتابة متأخري المولدين ولو حملت على الظرفية المكانية كما هو معناها الأصلي لكان معنى الكلام أنهم جعلوا الأنداد له تعالى في الآخرة وليس بمراد قطعاً

أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) وقال الخليل لقومه (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) وقال تعالى (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أتمم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) وقال تعالى (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) وقوله (ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) أي عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلا ولا مصرفا . قال عطاء عن ابن عباس (وتقطعت بهم الأسباب) قال المودة : وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجيح : وقوله (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منها كاتبرؤا منا) أي لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى تسبأ من هؤلاء ومن عبادتهم فلانلثفت إليهم بل نوحده الله وحده بالعبادة : وهم كاذبون في هذا بل لوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك ولهذا قال (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) أي تذهب وتضمحل كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقال تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) الآية . وقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) الآية : ولهذا قال تعالى (وما هم بخارجين من النار) :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو وأنه المستقل بالخلق شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالا من الله طيبا أي مستطابا في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوسائل ونحوها مما كان زينه لهم في جاهليتهم كما في حديث عياض بن حماد الذي في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال « يقول الله تعالى إن كل مال منحتهم عبادي فهو لهم حلال - وفيه - وإن خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم » وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا محمد ابن عيسى بن شعبة المصري حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي حدثنا أبو عبد الله الجوزجاني رفيق إبراهيم ابن أدهم حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال تليت هذه الآية عند النبي ﷺ (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا) فقام سعد بن أبي وقاص فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال « يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما وأياما عبيد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » .

وقوله (إنه لكم عدو مبين) تفسير عنه وتحذير منه كما قال (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقال تعالى (أفستخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال

قتادة والسدى في قوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان وقال عكرمة هي نزغات الشيطان ، وقال مجاهد خطؤه أو قال خطاياه (١) وقال أبو مجاز هي النذور في المعاصي ، وقال الشعبي نذر رجل أن ينحر ابنه فأقتاه مسروق بذبح كبش ، وقال هذا من خطوات الشيطان وقال أبو الضحى عن مسروق أتى عبد الله بن مسعود بضرع وملح فجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم فقال ابن مسعود ناولوا صاحبكم ، فقال لأريده ، فقال أصائم أنت ؟ قال لا قال ، فما شأنك ؟ قال حرمت أن أكل ضرعا أبدا ، فقال ابن مسعود هذا من خطوات الشيطان فاطعم وكفر عن يمينك رواه ابن أبي حاتم ، وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا حسان بن عبد الله المصري عن سليمان التيمي عن أبي رافع قال غضبت يوما على امرأتى فقالت هي يوما يهودية ويوما نصرانية وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك . فأثبت عبد الله ابن عمر فقال إنما هذه من خطوات الشيطان ، وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أمه امرأة في المدينة وأثبت عاصبا وابن عمر فقالا مثل ذلك ، وقال عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم عن شريك عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس قال ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من خطوات الشيطان وكفارته كفارة يمين . وقوله (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) أى إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضا .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْفِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَمَنْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ يقول تعالى وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله واتركوا ما أتم عليه من الضلال والجهل قالوا في جواب ذلك بل نتبع ما ألفينا أى وجدنا عليه آباءنا أى من عبادة الأصنام والأنداد . قال الله تعالى منكرا عليهم (أولو كان آباؤهم) أى الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم (لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) أى ليس لهم فهم ولا هداية . وروى ابن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أنها نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الاسلام فقالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فأنزل الله هذه الآية ثم ضرب لهم تعالى مثلا . كما قال تعالى (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) فقال (ومثل الذين كفروا) أى فيأثم فيه من النقي والضلال والجهل كالذباب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها بل إذا نقي بها راعيها أى دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه بل إنما تسمع صوته فقط : هكذا روى عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقاتدة وعطاء الخراساني والربيع بن أنس نحو هذا . وقيل إنما هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئا اختاره ابن جرير والأول أولى لأن الأصنام لا تسمع شيئا ولا تعقله ولا تبصره ولا بطش لها ولا حياة فيها . وقوله (صم بكم عمى) أى صم عن سماع الحق بكم لا يتفوهون به عمى عن رؤية طريقه ومسلكه (فهم لا يعقلون) أى لا يعقلون شيئا ولا يفهمونه كما قال تعالى (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده

والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا الفضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم) وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك ؟ » ورواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث فضيل ابن مرزوق . ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة وهي التي تموت ختف أنفها من غير تذكية وسواء كانت منخقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة أو عدا عليها السبع وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى (أحل لكم صيد البحر وطعامه) على ما سأتى إن شاء الله وحديث العنبر في الصحيح وفي المسند والموطأ والسنن قوله عليه السلام في البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني حديث بن عمر مرفوعاً « أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال » وسأتى تقرير ذلك إن شاء الله في سورة المائدة .

مسألة ولبن الميتة ويضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره لأنه جزء منها . وقال مالك في رواية هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة وكذلك انفضحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم أنها نجسة وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن الجوس فقال القرطبي في التفسير ههنا يخالط اللبن منها يسير ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع . وقد روى ابن ماجه من حديث سيف بن هرون عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان رضي الله عنه : سئل رسول الله ﷺ عن السمّن والجبن والفراء فقال « الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه » وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكى أم مات ختف أنفه ويدخل شحمه في حكم لحمه إما تغليبا أو أن اللحم يشمل ذلك أو بطريق القياس على رأى . وكذلك حرم عليهم ما أهل به لغير الله وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له . وذكر القرطبي عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصري أنه سئل عن امرأة عملت عرساً للعبا فنحرت فيه جزوراً فقال لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم وأورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه واكلوا من أشجارهم . ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة فقال (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) أى في غير بغى ولا عدوان وهو مجاوزة الحد (فلا إثم عليه) أى في أكل ذلك (إن الله غفور رحيم) وقال مجاهد فمن اضطر غير باغ ولا عاد قاطعاً للسبيل أو مفارقاً للأئمة أو خارجاً في معصية الله فله الرخصة ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله فلا رخصة له وإن اضطر إليه وكذا روى عن سعيد ابن جبير . وقال سعيد في رواية عنه - ومقاتل بن حيان : غير باغ - يعنى غير مستحلّه ، وقال السدي غير باغ يبتغى فيه شهوته ، وقال آدم بن أبي إياس حدثنا ضمرة عن عثمان بن عطاء وهو الحراساني عن أبيه قال لا يشوي من الميتة ليشبهه ولا يطبخه ولا يأكل إلا العلقه ويحمل معه ما يبلغه الحلال فإذا بلغه ألقاه وهو قوله (ولا عاد) ويقول لا يعدو به الحلال وعن ابن عباس لا يشبع منها وفسره السدي بالعدوان وعن ابن عباس (غير باغ ولا عاد) قال (غير باغ) في الميتة ولا عاد في أكله وقال قتادة فمن اضطر غير باغ ولا عاد قال غير باغ في الميتة أى في أكله أن يتعدى حلالاً إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة . وحكى القرطبي عن مجاهد في قوله فمن اضطر أى أكره على ذلك بغير اختياره .

مسألة إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى فإنه لا يهل له أكل الميتة بل يأكل كل طعام الغير بغير خلاف - كذا قال - ثم قال وإذا أكله والحالة هذه هل يضمن أم لا ؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك ثم أورد من سنن ابن ماجه من حديث شعبة عن أبي إياس جعفر بن أبي وحشية سمعت عباد بن شرحبيل العنزي قال

أصابتنا عاما مخصصة فأثبت المدينة فأثبت حائطا فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلت منه في كسائي فجاء صاحب الحائط فضر بني وأخذ ثوبي فأثبت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال للرجل « ما أطعمته إذ كان جائعا ولا ساعيا ولا عامته إذ كان جاهلا » فأمره فرد إليه ثوبه وأمره له بوسق من طعام أو نصف وسق إسناد صحيح قوى جيد وله شواهد كثيرة من ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق فقال « من أصاب منه من ذى حاجة بفيه غير متخذ خبنة فلا شيء عليه » الحديث : وقال مقاتل بن حيان في قوله (فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) فيما أكل من اضطرار وبلغنا والله أعلم أنه لا يزداد على ثلاث لقم وقال سعيد بن جبير : غفورا أكل من الحرام ، رحيم إذ أحل له الحرام في الاضطرار ، وقال وكيع أخبرنا الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار وهذا يقتضى أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة قال أبو الحسن الطبري المعروف بالسيا الهراسي رفيق الغزالي في الاشتغال وهذا هو الصحيح عندنا كالإفطار للمريض ونحو ذلك :

﴿ إِن الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾

يقول تعالى (إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب) يعنى اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة فكتموا ذلك لثلاث تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم فخشوا لعنهم الله إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نذر يسير فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النذر اليسير فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه وصاروا عوناً له على قتالهم وباءوا بغضب على غضب وذمهم الله في كتابه في غير موضع فمن ذلك هذه الآية الكريمة (إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترُونَ به ثَمَنًا قَلِيلًا) وهو عرض الحياة الدنيا (أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار) أي إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق نارا تأجج في بطونهم يوم القيامة كما قال تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الذى يأكل أو يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجر جرحا فى بطنه نار جهنم » .

وقوله (ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم أى يثنى عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذابا أليما . وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه ههنا حديث الأعمش عن أبي حازم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر » ثم قال تعالى مخبرا عنهم (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى اعتاضوا عن الهدى وهو نشر ما فى كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته فى كتبهم (والعذاب بالمغفرة) أى اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة : وقوله تعالى (فما أصبرهم على النار) يخبر تعالى أنهم فى عذاب شديد عظيم هائل يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال عياذا بالله من ذلك وقيل معنى قوله (فما أصبرهم على النار) أى فما أدومهم لعمل المعاصى التى تفضى بهم إلى النار وقوله تعالى (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) أى إنما استحقوا

هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا فكتبهم يأمرهم باظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهم يكذبونه ويخالفونه ويحسدونه ويكتمون صفته فاستهزؤا بآيات الله المنزلة على رسوله فلهذا استحقوا العذاب والنكال ولهذا قال (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد)

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على جل عظيمة وقواعد عميمة وعقيدة مستقيمة كما قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبيد بن هشام الحلبي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عامر بن شفي عن عبد الكريم عن مجاهد عن أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ ما الإيمان ؟ فتلا عليه (ليس البر أن تولوا وجوهكم) إلى آخر الآية قال ثم سأله أيضاً فتلاها عليه ثم سأله فقال : « إذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك » وهذا منقطع فان مجاهدا لم يدرك أباذر فانه مات قديما وقال المسعودي : حدثنا القاسم بن عبد الرحمن قال جاء رجل إلى أبي ذر فقال ما الإيمان ؟ فقرأ عليه هذه الآية (ليس البر أن تولوا وجوهكم) حتى فرغ منها فقال الرجل ليس عن البر سألتك فقال أبو ذر جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عما سألتني عنه فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده « المؤمن إذا عمل حسنة سرته ورجا ثوابها وإذا عمل سيئة أحرزته وخاف عقابها » رواه ابن مردويه وهذا أيضاً منقطع والله أعلم

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فان الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل وامتنال أوامره والتوجه حيث وجه واتباع ماشرع فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل وليس في لزوم التوجه إلى جهة من الشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ولهذا قال (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل الشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) الآية كما قال في الأضاحي والهدايا (لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم) وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود فأمر الله بالفرائض والعمل بها وروى عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك وقال أبو العالية : كانت اليهود تقبل قبل المغرب وكانت النصراني تقبل قبل المشرق فقال الله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل الشرق والمغرب) يقول هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل وروى عن الحسن والربيع بن أنس مثله وقال مجاهد : ولكن البر ماأبى في القلوب من طاعة الله عز وجل وقال الضحاك : ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوها وقال الثوري : (ولكن البر من آمن بالله) الآية قال هذه أنواع البر كلها ، وصدق رحمه الله فان من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الاسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله وهو الإيمان بالله وانه لا إله إلا هو وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله (والكتاب) وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الانبياء حتى ختمت بأشرفها وهو

القرآن المهيم على ما قبله من الكتب الذي انتهى إليه كل خير واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ونسخ به كل ماسواه من الكتب قبله وآمن بانبياؤه كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين وقوله (وآتى المال على حبه) أى أخرجه وهو عجب له راغب فيه نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف كما ثبت في الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا « أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر » وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث شعبة والثوري عن منصور عن زيد عن مرة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ « (وآتى المال على حبه) أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر » ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (قلت) وقد رواه وكيع عن الأعمش وسفيان عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود موقوفا وهو أصح والله أعلم . وقال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيم وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) وقال تعالى (لن تسالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وقوله (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) نمط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له وقوله (ذوى القربى) وهم قرابات الرجل وهم أولى من أعطى من الصدقة كما ثبت في الحديث « الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذوى الرحم ثنتان صدقة وصلة فهم أولى الناس بك وبيرك وإعطائك » وقد أمر الله تعالى بالاحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز (واليتامى) هم الذين لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب وقد قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن جوير عن الضحاك عن النزال بن سبرة عن على عن رسول الله ﷺ قال : « لا يتم بعد حلم » (والمساكين) وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناتهم فيعطون ما تسد به حاجتهم وختلهم وفي الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بهذا الطواف الذى تروده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه » (وابن السبيل) وهو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده وكذا الذى يريد سفرا في طاعة فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه ويدخل في ذلك الضيف كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال . ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهرى والريبع بن أنس ومقاتل بن حيان (والسائلين) وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات كما قال الامام أحمد حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالوا حدثنا سفيان عن مصعب بن محمد عن يعلى بن أبى يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها - قال عبد الرحمن حسين بن على - قال قال رسول الله ﷺ « للسائل حق وإن جاء على فرس » رواه أبو داود (وفى الرقاب) وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم وسيأتى الكلام على كثير من هذه الأصناف فى آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى . وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا شريك عن أبى حمزة عن الشعبي حدثنى فاطمة بنت قيس أنها سألت رسول الله ﷺ أى المال حق سوى الزكاة ؟ قالت فتلا على (وآتى المال على حبه) ورواه ابن مردويه من حديث آدم بن أبى إياس ويحيى بن عبد الحميد كلاهما عن شريك عن أبى حمزة عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس قالت . قال رسول الله ﷺ « فى المال حق سوى الزكاة » ثم قرأ (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب - إلى قوله - وفى الرقاب) وأخرجه ابن ماجه والترمذى وضعف أبا حمزة ميمونا الأعور وقد رواه سيار وإسماعيل بن سالم عن الشعبي وقوله (وأقام الصلاة) أى وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى وقوله (وآتى الزكاة) يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله (قد أفلح من زكاهها * وقد خاب من دساها) وقول موسى لفرعون : (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتحشى) وقوله تعالى (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان

ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة ولهذا تقدم في الحديث عن فاطمة بنت قيس أن في المال حقا سوى الزكاة والله أعلم

وقوله (والوفون بعهدهم إذا عاهدوا) كقوله (الدين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) وعكس هذه الصفة النفاق كما صح في الحديث « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » وفي الحديث الآخر « وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » وقوله (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) أى في حال الفقر وهو البأساء ، وفي حال المرض والأسقام وهو الضراء (وحين البأس) أى في حال القتال والتقاء الأعداء قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومرة الممداني ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والريبع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وأبو مالك والضحاك وغيرهم وإنما نصب (الصابرين) على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدة وصعوبته والله أعلم وهو المستعان وعليه التكلان : وقوله (أولئك الذين صدقوا) أى هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال فهؤلاء هم الذين صدقوا (وأولئك هم المتقون) لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى قَمَنَ عُمَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّى إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

يقول تعالى كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون حرّم بحركم وعبدكم بعبدكم وأثامكم بأثامكم ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم ، وسبب ذلك قريظة والنضير كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهرهم فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به بل يفادى بمائة وسق من التمر وإذا قتل القرظي النضري قتل وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية القرظي فأمر الله بالعدل في القصاص ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفرا وبغيا فقال تعالى (كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) وذكر في سبب نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثني عبد الله بن لهيعة حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) يعنى إذا كان عمدا الحر بالحر وذلك أن حين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أساموا فكان أحد الحيين يتناول على الآخر في العدة والأموال خلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم والمرأة منا الرجل منهم فأنزل فيهم (الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) منها منسوخة نستخنها النفس بالنفس : وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (والأنثى بالأنثى) وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة فأنزل الله النفس بالنفس والعين بالعين فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونسائهم في النفس وفيما دون النفس وجعل العبيد مستويين فيما بينهم من العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم ونسائهم وكذلك روى عن أبي مالك أنها منسوخة بقوله النفس بالنفس

﴿ مسألة ﴾ ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة وإليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود وهو مروى عن عليّ وابن مسعود وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي وقتادة والحكم قال البخاري وعلي بن المديني وإبراهيم النخعي والثوري في رواية عنه ويقتل السيد بعبد لعموم حديث الحسن عن سمرة « من قتل عبده قتلناه ومن جدد عبده جددناه ومن خصاه خصيناه » وخالقهم الجمهور فقالوا لا يقتل الحر بالعبد لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب

فيه دية وإنما تجب فيه قيمته ولأنه لا يقاد بطرفه في النفس بطريق الأولى وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر لما ثبت في البخاري عن علي قال : قال رسول الله ﷺ « لا يقتل مسلم بكافر » ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة

﴿ مسألة ﴾ قال الحسن وعطاء لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية وخالفهم الجمهور لآية المائدة وقوله عليه السلام « المسلمون تتكافأ دماؤهم » وقال الليث إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة

﴿ مسألة ﴾ ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد : قال عمر في غلام قتله سبعة فقتلهم وقال لوتالاً عليه أهل صنعاء لقتلتهم ، ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة وذلك كالأجماع وحكي عن الإمام أحمد رواية أن الجماعة لا يقتلون بالواحد ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة وحكاها ابن المنذر عن معاذ وابن الزبير وعبد الملك ابن مروان والزهرى وابن سيرين وحبيب بن أبي ثابت ثم قال ابن المنذر وهذا أصح ولا حجة لمن أباح قتل الجماعة وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه وإذا اختلفت الصحابة فسيبيله النظر . وقوله (فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان) قال مجاهد عن ابن عباس (فمن عفى له من أخيه شيء) فالفو أن يقبل الدية في العمد وكذا روى عن أبي العالية وأبي الشعثاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وقال الضحاك عن ابن عباس (فمن عفى له من أخيه شيء) يعني فمن ترك له من أخيه شيء يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم وذلك العفو (فاتباع بالمعروف) يقول فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية (وأداء إليه بإحسان) يعني من القاتل من غير ضرر ولا معك يعني المدافعة وروى الحاكم من حديث سفيان عن عمرو عن مجاهد عن ابن عباس ويؤدى المطلوب بإحسان وكذا قال سعيد بن جبير وأبو الشعثاء جابر بن زيد والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والريعي بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان

﴿ مسألة ﴾ قال مالك رحمه الله في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي وأحمد في أحد قوله ليس لولى الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل وقال الباقر له أن يعفو عليها وإن لم يرض

﴿ مسألة ﴾ وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو ، منهم الحسن وقتادة والزهرى وابن شبرمة والليث والأوزاعي وخالفهم الباقر وقوله (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) يقول تعالى إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو كما قال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار أخبرني مجاهد عن ابن عباس قال كتب على بنى إسرائيل القصاص في القتلى ولم يكن فيهم العفو فقال الله لهذه الأمة (كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأثني بالأثني فمن عفى له من أخيه شيء) فالفو أن يقبل الدية في العمد ، ذلك تخفيف مما كتب على بنى إسرائيل من كان قبلكم فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان . وقد رواه غير واحد عن عمرو وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن عمرو بن دينار ورواه جماعة عن مجاهد عن ابن عباس بنحوه : وقال قتادة (ذلك تخفيف من ربكم) رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية ولم تحل لأحد قبلهم فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش وهكذا روى عن سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والريعي بن أنس نحو هذا وقوله (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) يقول تعالى فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها فله عذاب من الله أليم موجع شديد . وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والريعي بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان أنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية كما قال محمد بن إسحق عن الحارث بن فضيل عن سفيان بن أبي العوجاء عن أبي شريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال « من أصيب بقتل أو خبل فانه يختار إحدى ثلاث إما أن يقتص وإما أن يعفو وإما أن يأخذ الدية فان أراد الرابعة فخذوا على يديه ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها » رواه أحمد وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا أعافى

رجلا قتل بعد أخذ الدية « يعنى لا أقبل منه الدية بل أقتله .
 وقوله (ولكم في القصاص حياة) يقول تعالى وفي شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهي بقاء
 الهج وصونها لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه فكان في ذلك حياة للنفس ، وفي الكتب المتقدمة
 القتل أنى للقتل (١) فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز (ولكم في القصاص حياة) قال أبو العالية
 جعل الله القصاص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل . وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير
 وأبي مالك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان (يا أولى الألباب لعلمكم تتقون) يقول يا أولى العقول
 والأفهام والنهى لعلمكم تترجون وتتركون محارم الله ومآثمه ، والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات
 ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا
 عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ
 جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين وقد كان ذلك واجبا على أصح القولين
 قبل نزول آية الموارث فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه وصارت الموارث المقدرة فريضة من الله يأخذها
 أهلها حتما من غير وصية ولا تحمل منة الموصى ولهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة
 قال سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث » وقال الإمام
 أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن علي بن يونس بن عبيد عن محمد بن سيرين قال : جلس ابن عباس فقرأ سورة
 البقرة حتى أتى هذه الآية (إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين) فقال نسخت هذه الآية وكذا رواه سعيد بن
 منصور عن هشيم عن يونس به ورواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرطهما وقال علي بن أبي طلحة عن ابن
 عباس في قوله (الوصية للوالدين والأقربين) قال : كان لا يرث مع الوالدين غيرها إلا وصية للأقربين فأُزيل الله آية
 الميراث فبين ميراث الوالدين وأقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح
 حدثنا حجاج بن محمد أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس في قوله (الوصية للوالدين والأقربين)
 نسختها هذه الآية (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل
 منه أو أكثر نصيبا مفروضا) ثم قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عمر وأبي موسى وسعيد بن المسيب والحسن ومجاهد
 وعطاء وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين وعكرمة وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان
 وطاوس وإبراهيم النخعي وشرح والضحاك والزهري أن هذه الآية منسوخة نسختها آية الميراث . والعجب من أبي
 عبد الله محمد بن عمر الرازي رحمه الله كيف حكى في تفسيره الكبير عن أبي مسلم الأصفهاني أن هذه الآية غير منسوخة
 وإنما هي مفسرة بآية الموارث ومعناه كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين من قوله (يوصيكم
 الله في أولادكم) قال وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء قال ومنهم من قال إنها منسوخة فيمن يرث ثابتة فيمن
 لا يرث وهو مذهب ابن عباس والحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار والعلاء بن زياد (قلت)
 وبه قال أيضا سعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخا
 في اصطلاحنا المتأخر لأن آية الموارث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصية لأن الأقربين
 أعم ممن يرث ومن لا يرث فرفع حكم من يرث بما عين له وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى وهذا إنما يتأتى
 على قول بعضهم أن الوصية في ابتداء الاسلام إنما كانت ندبا حتى نسخت فأما من يقول إنها كانت واجبة وهو
 الظاهر من سياق الآية فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء فإن

وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع بل منهي عنه للحديث المتقدم « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث » فآية الميراث حكم مستقل وجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات رفع بها حكم هذه بالسكينة ، بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصى لهم من الثلث استثناسا بآية الوصية وشمولها ولما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » قال ابن عمر ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصيتي . والآيات والأحاديث بالأميرير الأقارب والاحسان المهم كثيرة جدا وقال عبد بن حميد في مسنده أخبرنا عبد الله عن مبارك بن حسان عن نافع قال : قال عبد الله قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى « يا ابن آدم ثنتان لم يكن لك واحدة منهما : جعلت لك نصيبا في مالك حين أخذت بكظمك لأطهرك به وأزكك وصلة عبادي عليك بعد انقضاء أجلك » وقوله (إن ترك خيرا) أي مالا قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبو العالية وعطية العوفي والضحاك والسدي والريعي بن أنس ومقاتل بن حيان وقنادة وغيرهم ثم منهم من قال الوصية مشروعة سواء قل المال أو أكثر كالورثة ومنهم من قال إنما يوصى إذا ترك مالا جليلا ثم اختلفوا في مقداره فقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ أخبرنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه قال : قيل لعلي رضي الله عنه إن رجلا من قریش قدمات وترك ثلثمائة دينار أو أربعمائة ولم يوص قال ليس بشيء إنما قال الله (إن ترك خيرا) وقال أيضا وحدثنا هرون بن إسحق الحمداي حدثنا عبدة يعني ابن سلمان عن هشام بن عروة عن أبيه أن عليا دخل على رجل من قومه يعود فقال له أوص فقال له علي إنما قال الله (إن ترك خيرا الوصية) إنما تركت شيئا يسيرا فاتركه لولدك وقال الحاكم : إن أبان حدثني عن عكرمة عن ابن عباس (إن ترك خيرا) قال ابن عباس : من لم يترك ستين دينارا لم يترك خيرا قال الحاكم قال طاوس لم يترك خيرا من لم يترك ثمانين دينارا وقال قنادة كان يقال ألفا فما فوقها . وقوله (بالمعروف) أي بالرفق والإحسان كما قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار حدثني سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن قوله (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت) فقال نعم الوصية حق على كل مسلم أن يوصى إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر والمراد بالمعروف أن يوصى لأقربيه وصية لا تحجب بوزنه من غير إسراف ولا تقتير كما ثبت في الصحيحين أن سعدا قال يا رسول الله إن لي مالا ولا يرثني إلا ابنة لي أفأوصي بثلاثي مالي ؟ قال « لا » قال فبالشطر ؟ قال « لا » قال فالثلث ؟ قال « الثلث والثلث كثير إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » وفي صحيح البخاري أن ابن عباس قال : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال « الثلث والثلث كثير » وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد مولى بني هاشم عن زياد بن عتبة بن حنظلة سمعت حنظلة بن جذيم بن حنيفة أن جده حنيفة أوصى لیتيم في حجره بمائة من الإبل فشق ذلك على بنيه فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ فقال حنيفة إني أوصيت لیتيم لي بمائة من الإبل كننا نسميها المطية فقال النبي ﷺ « لا لا ، الصدقة خمس وإلا فعشر وإلا فخمس عشرة وإلا فعشرون وإلا فخمس وعشرون وإلا فثلاثون وإلا فخمس وثلاثون فإن كثرت فأربعون » وذكر الحديث بطوله .

وقوله (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم) يقول تعالى فمن بدل الوصية وحرفها فغير حكمها وزاد فيها أو نقص ويدخل في ذلك السكتان لها بطريق الأولى (فإنما إثمه على الذين يبدلونه) قال ابن عباس وغير واحد وقد وقع أجر الميت على الله وتعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك (إن الله سميع عليم) أي قد اطلع على ما أوصى به الميت وهو علم بذلك وبما بدله الموصي إليهم وقوله تعالى (فمن خاف من موص جفا أو إثما) قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والضحاك والريعي بن أنس والسدي الجنف الخطأ وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زادوا وإراثا بواسطة أو وسيلة كما إذا أوصى ببيعة الشيء الفلاني محابة أو أوصى لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل إما مخطئا غير عامد بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصر أو متعمدا إنما في ذلك فلولوصي والحالة هذه أن يصلح القضية ويعدل

في الوصية على الوجه الشرعى ، ويعدل عن الذى أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء اليه وأشبه الأمور به جما بين مقصود الموصى والطريق الشرعى ، وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل فى شيء ولهذا عطف هذا فبينه على النهى عن ذلك ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل والله أعلم : وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد قراءة أخبرنى أبى عن الأوزاعى قال الزهرى حدثنى عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يرد من صدقة الجانف (١) فى حياته ما يرد من وصية الجانف عند موته » وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه من حديث العباس بن الوليد به قال ابن أبى حاتم وقد أخطأ فيه الوليد بن مزيد ، وهذا الكلام إنما هو عن عروة فقط وقد رواه الوليد بن مسلم عن الأوزاعى فلم يجاوز به عروة ، وقال ابن مردويه أيضا حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا هشام بن عمار حدثنا عمر بن المغيرة عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « الجنف فى الوصية من الكبائر » وهذا فى رفعه أيضا نظر وأحسن ما ورد فى هذا الباب ما قال عبد الرزاق حدثنا معمر عن أشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (تلك حدود الله فلا تعتدوها) الآية .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا للمؤمنين من هذه الأمة وأمرهم بالصيام وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاق الرديئة والأخلاق الرذيلة وذكر انه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلمهم فيه أسوة وليجتهد هؤلاء فى أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك كما قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات) الآية ولهذا قال ههنا (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان ولهذا ثبت فى الصحيحين « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » ثم بين مقدار الصوم وأنه ليس فى كل يوم ثلاثا يشق على النفوس فتضعف عن حملة وأدائه بل فى أيام معدودات . وقد كان هذا فى ابتداء الاسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سيأتى بيانه . وقد روى أن الصيام كان أولا كما كان عليه الأمم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام عن معاذ وابن مسعود وابن عباس وعطاء وقتادة والضحاك بن مزاحم وزاد لم يزل هذا مشروعا من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان . وقال عباد بن منصور عن الحسن البصرى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياما معدودات) فقال نعم والله لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت كما كتبه علينا شهرا كاملا وأياما معدودات عددا معلوما ، وروى عن السدى نحوه . وروى ابن أبى حاتم من حديث أبى عبد الرحمن المقرئ حدثنى سعيد بن أبى أيوب حدثنى عبد الله بن الوليد عن أبى الربيع رجل من أهل المدينة عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم » فى حديث طويل اختصر منه ذلك . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن عمه حدثه عن ابن عمر قال أنزلت (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة ونام حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها ،

قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عباس وأبي العالية وعبد الرحمن بن أبي ليلى ومجاهد وسعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والريبع بن أنس وعطاء الخراساني نحو ذلك : وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس (كما كتب على الذين من قبلكم) يعنى بذلك أهل الكتاب وروى عن الشعبي والسدى وعطاء الخراساني مثله . ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال (فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر) أى المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر لما في ذلك من الشقة عليهما بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر وأما الصحيح المقيم الذى يطيق الصيام فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير وإن صام فهو أفضل من الإطعام قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطاوس ومقاتل بن حيان وغيرهم من السلف ولهذا قال تعالى (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون) .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا السعدي حدثنا عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال أحلت الصلاة ثلاثة أحوال وأحيل الصيام ثلاثة أحوال فأما أحوال الصلاة فإن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهو يصلى سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس ثم إن الله عز وجل أنزل عليه (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها) الآية فوجهه الله إلى مكة هذا حول ، قال وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذن بها بعضهم بعضاً حتى تقسوا أو كادوا يتقسون ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد بن عبد ربه أتى رسول الله ﷺ : فقال يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم ولو قلت إني لم أكن نائماً لصدقت إني بينا أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصاً عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة فقال : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله - مثني - حتى فرغ من الأذان ثم أمهل ساعة ثم قال مثل الذى قال غير أنه يزيد في ذلك : قد قامت الصلاة - مرتين - قال رسول الله ﷺ « علمها بلالا فليؤذن بها » فكان بلال أول من أذن بها : قال وجاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال يا رسول الله قد طاف بي مثل الذى طاف به غير أنه سبقنى ، فهذان حالان ، قال وكانوا يأتون الصلاة وقد سبقهم النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها فكان الرجل يشير إلى الرجل إذن كم صلى فيقول واحدة أو اثنتين فيصلحهما ثم يدخل مع القوم في صلاتهم قال فجاء معاذ فقال لا أجده على حال أبداً إلا كنت عليها ثم قضيت ما سبقنى قال فجاء وقد سبقه النبي ﷺ ببعضها قال فثبت معه فلما قضى رسول الله ﷺ قام فقضى فقال رسول الله ﷺ « إنه قد سن لكم معاذ فهكذا فاصنعوا » فهذه ثلاثة أحوال ، وأما أحوال الصيام فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام عاشوراء ثم إن الله فرض عليه الصيام وأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) إلى قوله (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً فأجزأ ذلك عنه ، ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) إلى قوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الإطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام ، فهذان حالان ، قال وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا فإذا ناموا امتنعوا ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له صرمة كان يعمل صائماً حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائماً فراه رسول الله ﷺ وقد جهد جهداً شديداً فقال « مالى أراك قد جهدت جهداً شديداً ؟ » قال يا رسول الله إني عملت أمس فجئت حين جئت فألقيت نفسى فتمت فأصبحت حين أصبحت صائماً قال وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله عز وجل (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم - إلى قوله - ثم أتموا الصيام إلى الليل) وأخرجه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه من حديث السعدي به وقد أخرجه البخارى ومسلم من حديث الزهرى عن عروة عن عائشة أنها قالت كان عاشوراء يصام فلما نزل فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر وروى

البخارى عن ابن عمر وابن مسعود مثله

وقوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) كما قال معاذ رضى الله عنه كان في ابتداء الأمر من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينا ، وهكذا روى البخارى عن سلمة بن الأكوع أنه قال لما نزلت (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) كان من أراد أن يفطريقته حتى نزلت الآية التي بعدها فنسخها وروى أيضا من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال هي منسوخة : وقال السدى عن مرة عن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) قال يقول (وعلى الذين يطيقونه) أى يتجشمونه : قال عبد الله فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكينا (فمن تطوع) يقول أطعم مسكينا آخر (فهو خير له وأن تصوموا خير لكم) فكانوا كذلك حتى نسخها (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) وقال البخارى أيضا أخبرنا إسحق حدثنا روح حدثنا زكريا بن إسحق حدثنا عمرو بن دينار عن عطاء سمع ابن عباس يقرأ (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) قال ابن عباس ليست منسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينا وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه ، وقال أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) فى الشيخ الكبير الذى لا يطيق الصوم ثم ضعف فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكينا ، وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد حدثنا الحسين بن محمد بن بهرام الخزوى حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد بن عبد الله عن ابن أبى ليلي ، قال دخلت على عطاء فى رمضان وهو يأكل فقال : قال ابن عباس نزلت هذه الآية فنسخت الأولى إلا الكبير الفانى إن شاء أطعم عن كل يوم مسكينا وأفطر - فحاصل الأمر أن النسخ ثابت فى حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) وأما الشيخ الفانى الهرم الذى لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينا إذا كان ذا جدة ؟ فيه قولان للعلماء أحدهما لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لسنه فلم يجب عليه فدية كالصبي لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها وهو أحد قولى الشافعى والثانى وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء أنه يجب عليه فدية عن كل يوم كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ (وعلى الذين يطيقونه) أى يتجشمونه كما قاله ابن مسعود وغيره وهو اختيار البخارى فانه قال وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام فقد أطعم أنس بعد ما كبر عاما أو عامين عن كل يوم مسكينا خبراً ولما وأفطر وهذا الذى علقه البخارى قد أسنده الحافظ أبو يعلى الوصلى فى مسنده فقال حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبى حدثنا عمران عن أيوب بن أبى تيممة قال ضعف أنس عن الصوم فصنع جفنة من ثريد ففدا ثلاثين مسكينا فأطعمهم ، ورواه عبد بن حميد عن روح بن عباد عن عمران وهو ابن جرير عن أيوب به . ورواه عبد أيضا من حديث ستة من أصحاب أنس عن أنس بمعناه . ومما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ففديهما خلاف كثير بين العلماء فمنهم من قال يفطران ويفديان ويقضيان وقيل يفديان فقط ولا قضاء وقيل يجب القضاء بلا فدية وقيل يفطران ولا فدية ولا قضاء وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة فى كتاب الصيام الذى أفردناه لله الحمد والمنة

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٠١﴾)

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذى كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا أبو سعيد

مولى بنى هاشم حدثنا عمران أبو العوام عن قتادة عن أنى فليح عن واثلة يعني ابن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : « أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » وقد روى من حديث جابر بن عبد الله وفيه : أن الزبور أنزل لثنتي عشرة خلت من رمضان والإنجيل لثمان عشرة والباقى كما تقدم . رواه ابن مردويه وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل فنزل كل منها على النبي الذى أنزل عليه جملة واحدة وأما القرآن فأنزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه كما قال تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وقال (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) ثم نزل بعد مفرقا بحسب الوقائع على رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا روى من غير وجه عن ابن عباس كما قال إسرائيل عن السدى عن محمد بن أبى المحالد عن مقسم عن ابن عباس أنه سأل عطية بن الأسود فقال وقع في قلبى الشك : قول الله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) وقوله (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) وقوله (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وقد أنزل في شوال وفي ذى القعدة وفي ذى الحجة وفي المحرم وصفر وشهر ربيع فقال ابن عباس : إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيبا في الشهور والأيام رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه وهذا لفظه وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أنزل القرآن في النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا فجعل في بيت العزة ثم أنزل على رسول الله ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس وفي رواية عكرمة عن ابن عباس قال : نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة وكان الله يحدث لنبى ما يشاء ولا يحى المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه وذلك قوله (وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل إلا جشاك بالحق وأحسن تفسيرا) وقوله (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) هذا مدح للقرآن الذى أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقوه واتبعوه (وبينات) أى ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى النافى للضلال والرشد المخالف للغى ومفرقا بين الحق والباطل والحلال والحرام وقد روى عن بعض السلف أنه كره أن يقال إلا شهر رمضان ولا يقال رمضان ، قال ابن أبي حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن بكر بن الريان حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظى وسعيد هو القبرى عن أبى هريرة قال لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان — قال ابن أبي حاتم وقد روى عن مجاهد ومحمد بن كعب نحو ذلك ورخص فيه ابن عباس وزيد بن ثابت (قلت) أبو معشر هو نجيح بن عبد الرحمن المدنى إمام المغازى والسير ولكن فيه ضعف وقد رواه ابنه محمد عنه فجعله مرفوعا عن أبى هريرة وقد أنكره عليه الحافظ بن عدى وهو جدير بالانكار فإنه متروك وقد وهم في رفع هذا الحديث وقد انتصر البخارى رحمه الله في كتابه لهذا فقال : باب يقال رمضان وساق أحاديث في ذلك منها « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » ونحو ذلك وقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر أى كان مقبلا في البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحا مقبلا أن يفطر ويفدى بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه (١) ولما ختم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض والمسافر في الإفطار بشرط القضاء فقال (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) معناه ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه أو كان على سفر أى في حالة السفر فله أن يفطر فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من الأيام ولهذا قال (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) أى إنما رحص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتمة في حق المقيم الصحيح تيسيرا عليكم ورحمة بكم

وهنا مسائل تتعلق بهذه الآية (إحداها) أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقبلا في أول الشهر ثم سافر في أثناءه فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه لقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) وإنما يباح (١) هذا على القول بنسخه والأرجح ما رواه البخارى عن ابن عباس من عدم نسخه وأن الفدية على من يطيقه بعشقة وحرص كالزمن والمهرم

الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر وهذا القول غريب نقله أبو محمد بن حزم في كتابه المحلى عن جماعة من الصحابة والتابعين وفيما حكاه عنهم نظر والله أعلم فانه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالقطر أخرجه صاحبنا الصحيح (الثانية) ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار في السفر لقوله (فعدة من أيام أخر) والصحيح قول الجمهور أن الأمر في ذلك على التخيير وليس يحتم لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان قال : فمننا الصائم ومننا المفطر فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام بل الذى ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد حتى إن كان أحداً يضع يده على رأسه من شدة وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة (الثالثة) قالت طائفة منهم الشافعى : الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبي ﷺ كما تقدم وقالت طائفة بل الإفطار أفضل أخذاً بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم في السفر فقال : « من أفطر فحسن ومن صام فلاحج عليه » وقال في حديث آخر « عليكم برخصة الله التي رخص لكم » وقالت طائفة هما سواء لحديث عائشة ان حمزة بن عمرو الأسلمى قال يا رسول الله إني كثير الصيام أفصوم في السفر ؟ فقال « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر » وهو في الصحيحين وقيل إن شق الصيام بالإفطار أفضل لحديث جابر أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظل عليه فقال : « ما هذا ؟ » قالوا صائم فقال « ليس من البر الصيام في السفر » أخرجاه فأما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكره إليه فهذا يتعين عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام والحالة هذه لما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وجابر وغيرهما : من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة (الرابعة) القضاء هل يجب متتابعاً أو يجوز فيه التفريق فيه قولان : (أحدهما) أنه يجب المتتابع لأن القضاء يحكى الأداء (والثاني) لا يجب المتتابع بل إن شاء فارق وإن شاء تابع وهذا قول جمهور السلف والخلف وعليه ثبتت الدلائل لأن المتتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر ولهذا قال تعالى (فعدة من أيام أخر) ثم قال تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) قال الإمام أحمد حدثنا أبو سلمة الخزازي حدثنا أبو هلال عن حميد بن هلال العدوي عن أبي قتادة عن الأعرابي الذي سمع النبي ﷺ يقول « إن خير دينكم أيسره إن خير دينكم أيسره » وقال أحمد أيضاً حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا عاصم بن هلال حدثنا عامر بن عروة الفقيمي حدثني أبي عروة قال كنا ننتظر النبي ﷺ فخرج يقطر رأسه من وضوء أو غسل فصلى فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه علينا حرج في كذا ؟ فقال رسول الله ﷺ « إن دين الله في يسر » - ثلاثاً يقولها - ورواه الإمام أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث مسلم بن أبي عمير عن عاصم بن هلال به . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال حدثنا أبو التياح سمعت أنس بن مالك يقول إن رسول الله ﷺ قال « يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا » أخرجاه في الصحيحين وفي الصحيحين أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن « بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطابعا ولا تختلفا » وفي السنن والمسند أن رسول الله ﷺ قال : « بعث بالحنيفية السمحة » وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره حدثنا عبد الله بن إسحق بن إبراهيم حدثنا يحيى بن أبي طالب حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا أبو مسعود الخريزى عن عبد الله بن شقيق عن محجن بن الأدرع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يصلى فقرأه يصبره ساعة فقال « أترأى يصلى صادقاً ؟ » قال قلت يا رسول الله : هذا أكثر أهل المدينة صلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسمعه قهله » وقال « إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بهم العسر » ومعنى قوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكمالوا العدة) أى إنما أرحمكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر وإنما أمركم بالقضاء لتكمالوا عدة شهركم وقوله (ولتكمالوا الله على ما هذاكم) أى ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم كما قال (فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) وقال (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) وقال (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات وقال ابن عباس : ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلا بالتكبير ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم) حتى ذهب داود بن علي الأصماني الظاهري إلى وجوبه في عيد الفطر لظاهر الأمر في قوله (ولتكبروا الله على ما هداكم) وفي مقابله مذهب أبي حنيفة رحمه الله أنه لا يشرع التكبير في عيد الفطر والقون على استحبابه على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم وقوله (ولعلكم تشكرون) أي إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

قال ابن أبي حاتم حدثنا أي حدثنا يحيى بن الغيرة أخبرنا جرير عن عبدة بن أبي برزة^(١) السخستاني عن الصلت بن حكيم بن معاوية: ابن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أن أعرابيا قال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرئ ربنا فتناجيه أم بعيد فتناديه ؟ فسكت النبي ﷺ فأ نزل الله (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي) إذا أمرهم أن يدعوني فدعوني استجبت ، ورواه ابن جرير عن محمد بن حميد الرازي عن جريره ورواه ابن مردويه وأبو الشيخ الأصماني من حديث محمد بن أبي حميد عن جريره وقال عبد الرزاق أخبرنا جعفر بن سليمان عن عوف عن الحسن قال سأل أصحاب رسول الله ﷺ أين ربنا ؟ فأ نزل الله عز وجل (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني) الآية وقال ابن جرير عن عطاء أنه بلغه لما نزلت (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) قال الناس لو نعلم أي ساعة ندعو ؟ فزلت (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني) وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي حدثنا خالد الحذاء عن أبي عثمان النهدي عن أبي موسى الأشعري قال كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفا ولا نعلو شرفا ولا نهبط واديا إلا رفعا أصواتنا بالتكبير قال فدنا منا فقال « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا بصيرا إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لاحول ولا قوة إلا بالله » أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة من حديث أبي عثمان النهدي واسمه عبد الرحمن بن علي عنه بنحوه : وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن داود حدثنا شعبة حدثنا قتادة عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني » وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا علي بن إسحاق أن أبا ناعب الله أن أبا ناعب الرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا إسماعيل بن عبيد الله عن كريمة بنت ابن خشخاش المزنية قالت حدثنا أبو هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « قال الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه » (قلت) وهذا كقوله تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وقوله لموسى وهرون عليهما السلام (إنني معكما أسمع وأرى) والمراد من هذا أنه تعالى لا يخب دعاء داع ولا يشغله عنه شيء بل هو سميع الدعاء ففيه ترغيب في الدعاء وأنه لا يضيع لديه تعالى كما قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا رجل أنه سمع أبا عثمان هو النهدي يحدث عن سلمان يعني الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « إن الله تعالى ليستحي أن يبسط العبد يديه يسأله فيهما خيرا فيردهما خائبتين » - قال يزيد سموا لي هذا الرجل فقالوا : جعفر بن ميمون - وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جعفر بن ميمون صاحب الانباط به : وقال الترمذي حسن غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه قال الشيخ الحافظ أبو الحجاج المزني رحمه الله في أطرافه : وتابعه أبو همام محمد بن أبي الزبرقان عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي به : وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو عامر حدثنا علي بن أبي التوكل الناجي عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال « ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الأخرى ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » قالوا إذا نكث قال « الله أكثر » وقال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا إسحاق بن منصور الكوسج أن أبا محمد بن يوسف حدثنا ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير أن عبادة بن الصامت حدثهم أن النبي ﷺ قال « ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة إلا آتاه الله إياها أو كف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » ورواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي عن محمد بن يوسف القرطبي عن ابن ثوبان وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان به وقال حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقال الإمام مالك عن ابن شهاب عن أبي عبيد مولى ابن أضر عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يستجاب لأحدكم ما لم

(١) وفي النسخة الأميرية عن ابن أبي برزة وهو غلط

يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي » أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به وهذا لفظ البخاري رحمه الله وأثابه الجنة وقال مسلم في صحيحه حدثني أبو الطاهر حدثنا ابن وهب أخبرني معاوية بن صالح عن ربيعة عن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم أو قطعة رحم ما لم يستعجل » قيل يا رسول الله وما الاستعجال قال « يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبو هلال عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل » قالوا وكيف يستعجل قال « يقول قد دعوت ربي فلم يستجب لي » وقال الإمام أبو جعفر الطبري في تفسيره حدثني يونس ابن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب حدثني أبو صخر أن يزيد بن عبد الله بن قسيط حدثه عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ما من عبد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب حتى تعجل له في الدنيا أو تؤخر له في الآخرة إذا لم يعجل أو يقنط قال عروة قلت يا أمه كيف عجلته وقنوطه ؟ قالت يقول سألت فلم أعط ودعوت فلم أجب . قال ابن قسيط وسمعت سعيد بن المسيب يقول كقول عائشة سواء وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا بكر بن عمرو عن أبي عبد الرحمن الجلي عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال « القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فإذا سألت الله أيها الناس فأسأله وأتمم وقنطون بالإجابة فإنه لا يستجيب لعبد دعاء عن ظهر قلب غافل » وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن إسحق ابن أيوب حدثنا إسحق بن إبراهيم بن أبي نافع بن معد يكرب ي بغداد حدثني ابن أبي نافع بن معد يكرب قال كنت أنا وعائشة سألت رسول الله ﷺ عن آية (أجيب دعوة الداعي إذا دعاني) قال « يارب مسئلة عائشة » فهبط جبريل فقال « الله يقرؤك السلام هذا عبد الصالح بالنية الصادقة وقلبه نقي يقول يارب فأقول ليك فأقضى حاجته » وهذا حديث غريب من هذا الوجه . وروى ابن مردويه من حديث الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس حدثني جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قرأ (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني) الآية فقال رسول الله ﷺ « اللهم أمرت بالدعاء وتوكلت بالإجابة ليك اللهم ليك لا شريك لك ليك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، أشهد أنك فرد أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وأشهد أن وعدك حق ولقاءك حق والجنة حق والنار حق والساعة آتية لا ريب فيها وأنت تبعث من في القبور » وقال الحافظ أبو بكر البزار وحدثنا الحسن بن يحيى الأزدي ومحمد بن يحيى القطعي قالا حدثنا الحجاج بن منهال حدثنا صالح المزني عن الحسن عن أنس عن النبي ﷺ قال « يقول الله تعالى يا ابن آدم واحدة لك وواحدة لي وواحدة فيما بيني وبينك فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئا وأما التي لك فاعملت من شيء أو من عمل وفيته وأما الذي بيني وبينك فمك الدعاء وعلى الإجابة وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا أبو محمد المليكي عن عمرو هو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة فكان عبد الله بن عمرو إذا فطر دعاه أهله وولده ودعاه ، وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه حدثنا هشام بن عمار أخبرنا الوليد بن مسلم عن إسحق بن عبد الله المدني عن عبيد الله بن أبي مليكة عن عبد الله بن عمرو قال قال النبي ﷺ « إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد » قال عبيد الله بن أبي مليكة سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا فطر اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين »

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِنَاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٠١﴾

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فإنه كال إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك فمضى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة والرفث هنا هو الجماع قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وطاوس وسالم بن عبد الله وعمرو بن دينار والحسن وقتادة والزهرى والضحاك وإبراهيم النخعي والسدى وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان : وقوله (هن لباس لكم وأتم لباس لهن) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان يعنى هن سكن لكم وأتم سكن لهن ، وقال الربيع بن أنس هن لحاف لكم وأتم لحاف لهن وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه فناسب أن يرخس لهم في الجامعة في ليل رمضان ثلاثا يشق ذلك عليهم ويخرجوا قال الشاعر :

إذا ما الضجيج ثنى جيدها * تداعت فكانت عليه لباسا
وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ الطويل وقال أبو إسحق عن البراء بن عازب قال :

كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائما فنام قبل أن يفطر لم يأكل إلى مثلها وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائما (١) وكان يومه ذلك يعمل في أرضه فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال : هل عندك طعام ؟ قالت لا ولكن أنطلق فأطلب لك فغلبته عينه فنام وجاءت امرأته فلما رآته نائما قالت : خيبة لك أمت ؟ فلما انتصف النهار غشى عليه فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم - إلى قوله - وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخط الأبيض من الخط الأسود من الفجر) ففرحوا بها فرحا شديدا ولفظ البخارى ههنا من طريق أبي إسحق سمعت البراء قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلو العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة ثم إن أناسا من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فلاآن باشروهن) الآية وكذا روى العوفي عن ابن عباس وقال موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال : إن الناس كانوا قبل أن ينزل في الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون ويحل لهم شأن النساء فإذا نام أحدهم لم يطعم ولم يشرب ولا يأتي أهله حتى يفطر من القابلة فبلغنا أن عمر بن الخطاب بعدما نام ووجب عليه الصوم وقع على أهله ثم جاء إلى النبي ﷺ فقال أشكو إلى الله وإليك الذي صنعت قال « وما صنعت » ؟ قال إني سولت لى نفسى فوقعت على أهلى بعد ما نمت وأنا أريد الصوم فرعموا أن النبي ﷺ قال : « ما كنت خليقا أن تفعل » فنزل الكتاب (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وقال سعيد بن أبي عروبة عن قيس بن سعد عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة في قول الله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم - إلى قوله - ثم أتموا الصيام إلى الليل) قال كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلو العشاء الآخرة حرم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء وإن صرمة بن قيس الأنصاري غلبته عينه بعد صلاة المغرب فنام ولم يشبع من الطعام ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء فقام فأكل وشرب فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأنزل الله عند ذلك (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) يعنى بالرفث جماعه النساء (هن لباس لكم وأتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) يعنى تجمعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العشاء (فتاب عليكم وعفا عنكم فلاآن باشروهن) يعنى جامعوهن (وابتغوا ما كتب الله لكم) يعنى الوله (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخط الأبيض من الخط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) فكان ذلك عفا من الله ورحمة وقال هشام عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال قام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال يارسول الله إني أردت أهلى البارحة على ما يريد الرجل أهله فقالت إنها قد نامت فظننتها تعتل فواقعتها فنزل في عمر (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وهكذا رواه شعبه عن عمرو بن مرة عن ابن أبي ليلى به

(١) اختلف في اسمه لاختلاف الروايات فقليل صرمة بن قيس أو ابن أنس وقيل ضمرة بن أنس وذكر هذا في حاشية نسخة الازهر فراجع هذه الاسماء في الاصابة .

وقال أبو جعفر بن جرير حدثني الثني حدثنا سويد أخبرنا ابن المبارك عن أبي لمية حدثني موسى بن جبير مولى بني سلمة أنه سمع عبد الله بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه قال : كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وقد ممر عنده فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت إني قد نمت فقال ما نمت ثم وقع بها وصنع كعب بن مالك مثل ذلك فغدا عمر بن الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأنزل الله (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن) الآية وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة وغيرهم في سبب نزول هذه الآية في عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع وفي صرمة بن قيس فأباح الجماع والطعام والشراب في جميع الليل رحمة ورخصة ورققا وقوله (وابتغوا ما كتب الله لكم) قال أبو هريرة وابن عباس وأنس وشريح القاضي ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والريبع بن أنس والسدي وزيد بن أسلم والحكم بن عتبة ومقاتل بن حيان والحسن البصري والضحاك وقتادة وغيرهم يعني الولد وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (وابتغوا ما كتب الله لكم) يعني الجماع وقال عمرو بن مالك البكري عن أبي الجوزاء عن ابن عباس (وابتغوا ما كتب الله لكم) قال ليلة القدر رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر قال : قال قتادة ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم يقول ما أحل الله لكم : وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا ابن عينة عن عمرو ابن دينار عن عطاء بن أبي رباح قال قلت لابن عباس كيف تقرأ هذه الآية (وابتغوا ما كتب الله لكم) قال أيتهما شئت عليك بالقراءة الأولى واختار ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله .

قوله (وكلاوا واشربوا حتى يتبين لكم الخط الأبيض من الخط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل . وعبر عن ذلك بالخط الأبيض من الخط الأسود ورفع اللبس بقوله (من الفجر) كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخاري حدثني ابن أبي مريم حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف حدثنا أبو حازم عن سهل بن سعد قال أنزلت (وكلاوا واشربوا حتى يتبين لكم الخط الأبيض من الخط الأسود) ولم ينزل (من الفجر) وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخط الأبيض والخط الأسود فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأُنزل الله بعد (من الفجر) فعملوا أنما يعني الليل والنهار . وقال الإمام أحمد حدثنا هشام أخبرنا حصين عن الشعبي أخبرني عدي بن حاتم قال لما نزلت هذه الآية (وكلاوا واشربوا حتى يتبين لكم الخط الأبيض من الخط الأسود) عمدت إلى عقاليين أحدهما أسود والآخر أبيض قال فجعلتهما تحت سادتي ، قال فجعلت أنظر إليهما فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت فقال « إن وسادك إذا لعريض إنما ذلك يابض النهار من سواد الليل » أخرجه في الصحيحين من غير وجه عن عدي . ومعنى قوله إن وسادك إذا لعريض أي إن كان ليسع الحيطين الأبيض والأسود والأبيض المرادين من هذه الآية تحتها فانهما يابض النهار وسواد الليل فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والغرب وهكذا وقع في رواية البخاري مفسرا بهذا حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن حصين عن الشعبي عن عدي قال أخذ عدي عقالا أبيض وعقالا أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبين فلما أصبح قال يا رسول الله جعلت تحت وسادتي قال « إن وسادك إذا لعريض إن كان الحيط الأبيض والأسود تحت وسادتك » وجاء في بعض الألفاظ « إنك لعريض القفا » ففسره بعضهم بالبلادة وهو ضعيف بل يرجع إلى هذا لأنه إذا كان وساده عريضا فقفاه أبيض عريض والله أعلم : ويفسره رواية البخاري أيضا حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن مطرف عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال : قلت يا رسول الله ما الحيط الأبيض من الخط الأسود أهما الحيطان ؟ قال « إنك لعريض القفا إن أبصرت الحيطين ثم قال لا بل هو سواد الليل ويابض النهار » .

وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور في الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « تسحروا فإن في السحور بركة » وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور » وقال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى هو ابن الطباع حدثنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « السحور أكلة بركة فلا تدعوه ولو أن أحدكم تجمرع

جرعة ماء فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين» ، وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء تشبها بالآكلين ويستحب تأخيرها إلى وقت انفجار الفجر كما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك عن زيد بن ثابت ، قال تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة قال أنس قلت لزيد كم كان بين الأذان والسحور ؟ قال قدر خمسين آية . وقال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن سالم بن غيلان عن سليمان بن أبي عثمان عن عدي بن حاتم الحمصي عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الإفطار وأخروا السحور » وقد ورد أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ ساء الغداء المبارك وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه من رواية حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زيد ابن حبيش عن حذيفة قال تسحرنا مع رسول الله ﷺ وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع وهو حديث تفرد به عاصم بن أبي النجود قاله النسائي وحمله على أن المراد قرب النهار كما قال تعالى (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف) أي قارب انقضاء العدة فلما أمسك بمعروف أترك للفراق وهذا الذي قاله هو اللعين حمل الحديث عليه أنهم تسحروا ولم يتيقظوا طلوع الفجر حتى ان بعضهم ظن طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك وقد روى عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تساحوا في السحور عند مقاربة الفجر روي مثل هذا عن أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وحذيفة وأبي هريرة وابن عمرو وابن عباس وزيد بن ثابت وعن طائفة كثيرة من التابعين منهم محمد بن علي بن الحسين وأبو مجاز وإبراهيم النخعي وأبو الضحى وأبو وائل وغيره من أصحاب ابن مسعود وعطاء والحسن والحكم بن عيينة ومجاهد وعروة بن الزبير وأبو الشعثاء جابر بن زيد واليه ذهب الأعمش وجابر بن راشد وقد حررنا أسانيد ذلك في كتاب الصيام المفرد لله الحمد وحكي أبو جعفر بن جرير في تفسيره عن بعضهم أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها (قلت) وهذا القول ما أظن أحدا من أهل العلم يستقرله قدم عليه لخالفته نص القرآن في قوله (وكلاوا واشربوا حتى يتبين لكم الخط الأبيض من الخط الأسود من الفجر ثم أمموا الصيام إلى الليل) وقد ورد في الصحيحين من حديث القاسم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم فإنه ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر » لفظ البخاري وقال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الفجر المستطيل في الأفق ولكن المعترض الأحمر » ورواه الترمذي ولفظه « كلوا واشربوا ولا يهيدنكم الساطع المصعد فكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر » وقال ابن جرير حدثنا محمد بن المنذر حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا شعبة عن شيخ من بني قشير سمعت سمرة بن جندب يقول : قال رسول الله ﷺ « لا يغرنكم نداء بلال وهذا البياض حتى ينفجر الفجر أو يطلع الفجر » ثم رواه من حديث شعبة وغيره عن سواد بن حنظلة عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ . « لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكنه الفجر المستطير في الأفق » قال وحديث يعقوب بن إبراهيم بن علي بن عبد الله بن سودة القشيري عن أبيه عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ « لا يغرنكم أذان بلال ولا هذا البياض - لعمود الصبح - حتى يستطير » رواه مسلم في صحيحه عن زهير بن حرب عن إسماعيل ابن إبراهيم هو ابن علي بن مثله سواء وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا ابن المبارك عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لا يمنع أحدكم أذان بلال عن سحوره أو نداء بلال فإن بلالا يؤذن بليل أو قال ينادي لينبه نائمكم ويرجع قائمكم وليس الفجر أن يقول هكذا وهكذا حتى يقول هكذا » ورواه من وجه آخر عن التيمي به وحديث الحسن بن الزبير قال النخعي حدثني أبو أسامة عن محمد بن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن عن محمد بن عبد الرحمن ابن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ « الفجر فجران فالذي كأنه ذنب السرحان لا يحرم شيئا وإنما هو المستطير الذي يأخذ الأفق فإنه يحل الصلاة ويحرم الطعام » وهذا مرسل جيد وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء سمعت ابن عباس يقول : هما فجران فأما الذي يسطع في السماء فليس يحل ولا يحرم شيئا ولكن الفجر الذي يستير على رؤوس الجبال هو الذي يحرم الشراب وقال عطاء فأما إذا سطع سطوعا في السماء وسطوعه أن يذهب في السماء طولا فإنه لا يحرم به شراب للصائم ولا صلاة ولا يفوت به الحج ولكن إذا انتشر على رؤوس الجبال حرم الشراب للصيام وفات الحج وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء وهكذا روى عن غير واحد من السلف رحمهم الله (مسألة) ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام يستدل على أنه من أصبح جنبا فليغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه وهذا مذهب الأئمة

الأربعة وجهور العلماء سلفا وخلفا لما رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما أنهما قالتا كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم وفي حديث أم سلمة عندهما ثم لا يفطر ولا يقضى وفي صحيح مسلم عن عائشة أن رجلاً قال يا رسول الله تدركنى الصلاة وأنا جنب فأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ « وأنا تدركنى الصلاة وأنا جنب فأصوم » فقال لست مثلنا يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال « والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى » فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا نوى للصلاة صلاة الصبح وأحكم جنب فلا يصم يومئذ » فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشيخين كما ترى وهو فى الصحيحين عن أبي هريرة عن الفضل بن عباس عن النبي ﷺ وفي سنن النسائي عنه عن أسامة بن زيد والفضل بن عباس ولم يرفعه فى العلماء من علل هذا الحديث بهذا ومنهم من ذهب إليه ويحكي هذا عن أبي هريرة وسالم وعطاء وهشام بن عروة والحسن البصرى ومنهم من ذهب إلى التفرقة بين أن يصبح جنباً نائماً فلا عليه لحديث عائشة وأم سلمة أو مختاراً فلا صوم له لحديث أبي هريرة يحكى هذا عن عروة وطاوس والحسن ، ومنهم من فرق بين الفرض فيتم فيقضيه وأما النفل فلا يضره رواه الثورى عن منصور عن إبراهيم النخعى وهو رواية عن الحسن البصرى أيضاً ومنهم من ادعى نسخ حديث أبي هريرة بحديث عائشة وأم سلمة ولكن لا تاريخ معه وادعى ابن حزم أنه منسوخ بهذه الآية وهو بعيد أيضاً إذ لا تاريخ بل الظاهر من التاريخ خلافه ومنهم من حمل حديث أبي هريرة على نفي الكمال فلا صوم له لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز وهذا المسلك أقرب الأتوال وأجمعها والله أعلم (ثم أتوا الصيام إلى الليل) يقتضى الافطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً كما جاء فى الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا قبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم » وعن سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » أخرجاه وقال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعى حدثنا قرة بن عبد الرحمن عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « يقول الله عز وجل إن أحب عبادى إلى أعجلهم فطرا » ورواه الترمذى من غير وجه عن الأوزاعى به وقال هذا حديث حسن غريب وقال أحمد أيضاً حدثنا عفان حدثنا عبيد الله بن إباد سمعت إباد بن لقيط سمعت ليلي امرأة بشير بن الخصاصية قالت أردت أن أصوم يومين مواصلة فنعنى بشير وقال إن رسول الله ﷺ نهى عنه وقال « يفعل ذلك النصارى ولكن صوموا كما أمركم الله (ثم أتوا الصيام إلى الليل فإذا كان الليل فأفطروا) » ولهذا ورد فى الأحاديث الصحيحة النهى عن الوصال وهو أن يصل يوماً يوم آخر ولا يأكل بينهما شيئاً قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن أبي سامة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لا تواصلوا » قالوا يا رسول الله إنك تواصل قال « فإني لست مثلكم إني أبيت يطعمنى ربي ويسقيني » قال فلم ينتهوا عن الوصال فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال فقال « لو تأخر الهلال لردتكم » كالنكاح لهم وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهري به وكذلك أخرجا النهى عن الوصال من حديث أنس وابن عمر ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم فقالوا إنك تواصل قال « إني لست كهيتكم إني يطعمنى ربي ويسقيني » فقد ثبت النهى عنه من غير وجه وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ وأنه كان يقوى على ذلك ويعان والأظهر أن ذلك الطعام والشراب فى نفسه إنما كان معنوياً لا حسياً وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسى ولكن كما قال الشاعر :

وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك كما فى حديث أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تواصلوا فأياكم أراد أن يواصل فواصل إلى السحر » قالوا فانك تواصل يا رسول الله قال « إني لست كهيتكم إني أبيت لي مطعم يطعمنى وساق يسقيني » أخرجاه فى الصحيحين أيضاً وقال ابن جرير ، حدثنا أبو كريب حدثنا أبو نعيم حدثنا أبو إسرائيل العنسى عن أبي بكر بن حفص عن أم ولد حاطب بن أنى بلمعة أنها مرت برسول الله ﷺ وهو يتسحر فدعاها إلى الطعام فقالت إني صائمة قال وكيف تصومين فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال أين أنت من وصال آل محمد من السحر إلى السحر » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا إسرائيل عن عبد الأعلى عن محمد بن علي عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ

كان يواصل من السحر إلى السحر وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم لأنهم كانوا يفعلونه عبادة والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النبي أنه إرشاد من باب الشفقة كما جاء في حديث عائشة رحمتهم فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه لأنهم كانوا يحدون قوة عليه وقد ذكر عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصبر لثلا تتخرق الأمعاء بالطعام أولا. وقد روى عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ويصبح في اليوم السابع أقوامهم وأجلدهم ، وقال أبو العالية إنما فرض الله الصيام بالنهار فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل . وقوله تعالى (ولا تبashروهن وأتم عاكفون في المساجد) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلا أو نهارا حتى يقضى اعتكافه وقال الضحاك كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء فقال الله تعالى (ولا تبashروهن وأتم عاكفون في المساجد) أي لا تقر بهن ما دتم عاكفين في المسجد ولا في غيره . وكذا قال مجاهد وقناة وغير واحد أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية قال ابن أبي حاتم روى عن ابن مسعود ومحمد بن كعب ومجاهد وعطاء والحسن وقناة والضحاك والسدي والريبع بن أنس ومقاتل : قالوا لا يقربها وهو معتكف وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء مادام معتكفا في مسجده ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بدله منها فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشغل بشيء سوى اعتكافه ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مارق في طريقه وللاعتكاف أحكام مفصلة في بابها منها ما هو مجمع عليه بين العلماء ومنها ما هو مختلف فيه . وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام والله الحمد والمنة ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم فانه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم . وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام كما ثبتت في السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وفي الصحيحين أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد فتحدث عنده ساعة ثم قامت لترجع إلى منزلها وكان ذلك ليلا فقام النبي ﷺ ليشتي معها حتى تبلغ دارها وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا وفي رواية توأريا أي حياء من النبي ﷺ لكون أهله معه فقال لهما ﷺ « على رسلكما إنها صفية بنت حيي » أي لا تسرعا واعلما أنها صفية بنت حيي أي زوجتي فقالا سبحان الله يارسول الله فقال ﷺ « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلبكما شيئا أوقال شرا » قال الشافعي رحمه الله أراد عليه السلام أن يعلم أمته التبري من التهمة في محلها لثلا يقعا في محذور وهما كانا أتقى لله من أن يظنا بالنبي ﷺ شيئا والله أعلم ثم الراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعاينة ونحو ذلك فأما معاينة الشيء ونحوه فلا بأس به فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدني إلى رأسه فأرجله وأنا حائض وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان قالت عائشة ولقد كان المريض يكون في البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارة وقوله (تلك حدود الله) أي هذا الذي بيناه وفرضناه وحدناه من الصيام وأحكامه وما أبخنا فيه وما حرمانا وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه حدود الله أي شرعها الله وبينها بنفسه فلا تقربوها أي لا تجاوزوها وتتعدوها وكان الضحاك ومقاتل يقولان في قوله (تلك حدود الله) أي المباشرة في الاعتكاف ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني هذه الحدود الأربعة ويقرأ (أحل لكم ليلة الصيام الرفق إلى نسائكم - حتى بلغ - ثم أتوا الصيام إلى الليل) قال وكان أبي وغيره من مشيختنا يقولون هذا ويتلونه علينا (كذلك يبين الله آياته للناس) أي كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفصيله كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ (للناس لعلهم يتقون) أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون كما قال تعالى (هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم)

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قال علي ابن أبي طلحة وعن ابن عباس هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا إنما أنا بشر وإنما يأتيني الخصم فلفل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فليحملها أو ليندريها » فدللت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر فلا يحل في نفس الأمر حراما هو حرام ولا يحرم حلالا هو حلال (١) وإنما هو ملازم في الظاهر فإن طابق في نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره ولهذا قال تعالى (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) أي تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه في كلامكم قال قتادة : اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراما ولا يحق لك باطلا وإنما يقضى القاضي بنحو ما يرى وتشهد به الشهود والقاضي بشر يخطئ ويصيب واعلموا أن من قضى له بباطل أن خصومته لم تنقص حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة فيقضى على الباطل للمحق بأجود مما قضى به للباطل على الحق في الدنيا

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحُجَّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

قال العوفي عن ابن عباس سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس) يعلمون بها حل دينهم وعدة نساءهم ووقت حجهم وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية بلغنا أنهم قالوا يا رسول الله لم خلقت الأهلة ؟ فأنزل الله (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس) يقول جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نساءهم وحل دينهم وكذا روى عن عطاء والضحاك وقتادة والسدي والربيع بن أنس نحو ذلك وقال عبد الرزاق عن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « جعل الله الأهلة مواقيت للناس فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوما » ورواه الحاكم في مستدركه من حديث ابن أبي رواد به وقال كان ثقة عابدا مجتهدا شريفا النسب فهو صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « جعل الله الأهلة فإذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا فإن أغمى عليكم فأكلوا العدة ثلاثين » وكذا روى من حديث أبي هريرة ومن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه

وقوله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) قال البخاري : حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحق عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن أبي إسحق عن البراء قال : كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه فنزلت هذه الآية وقال الأعمش . عن أبي سفيان عن جابر كانت قريش تدعى الحرس وكانوا يدخلون من الأبواب في الاحرام وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الاحرام فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار فقالوا يا رسول الله . إن قطبة بن عامر رجل تاجر وإنه خرج معك من الباب فقال له . ما حملك على ما صنعت ؟ قال . رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت فقال . إني أحس قال له . فإن

(١) هذه عبارة لنسخة الأزهر ، وفي النسخة الأميرية فلا يحل في نفس الأمر حراما هو حلال ولا يحرم باطلا هو حلال اه وهو خطأ ظاهر .

دينى دينك فأنزل الله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) رواه ابن أبي حاتم ورواه العوفي عن ابن عباس بنحوه وكذا روى عن مجاهد والزهري وقنادة وإبراهيم النخعي والسدي والريعي بن أنس وقال الحسن البصري : كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً وخرج من بيته يريد سفره الذى خرج له ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره لم يدخل البيت من بابه ولكن يتسوره من قبل ظهره فقال الله تعالى : (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) الآية : وقال محمد بن كعب : كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت فأنزل الله هذه الآية وقال عطاء بن أبي رباح : كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها ويرون أن ذلك أدنى إلى البر فقال الله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) ولا يرون أن ذلك أدنى إلى البر وقوله (واتقوا الله لعلكم تفلحون) أى اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه (لعلكم تفلحون) غدا إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ أُنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) قال هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال هذه منسوخة بقوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وفي هذا نظر لأن قوله (الذين يقاتلونكم) إنما هو تهيج وإغراء بالأعداء الذين همتم قتال الإسلام وأهله أى كما يقاتلونكم فاقتلوهم أتم كما قال (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) ولهذا قال في هذه الآية (وقاتلوا حيث تقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أى لتكون همتمكم منبعثة على قتلهم كما همتمهم منبعثة على قتالكم وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصا

وقوله (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) أى قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب النهي كما قاله الحسن البصري من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع » رواه الإمام أحمد وعن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال اخرجوا باسم الله قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله لا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » رواه الإمام أحمد ولأبي داود عن أنس مرفوعا نحوه وفي الصحيحين عن ابن عمر قال وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان . وقال الإمام أحمد حدثنا مصعب بن سلام حدثنا الأجلح عن قيس بن أبي مسلم عن ربعي بن حراش قال سمعت حذيفة يقول ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثالا واحدا وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر فضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منها مثالا وترك سائرها قال « إن قوما كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تيجر وعداوة فأظهر الله أهل الضعف عليهم فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة » هذا حديث حسن الإسناد ومعناه أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء فاعتدوا عليهم فاستعملوهم فيما لا يليق بهم أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الإعتداء والأحاديث والآثار في هذا

كثيرة جدا . ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأظلم من القتل ولهذا قال (والفتنة أشد من القتل) قال أبو مالك أي ما أتم مقيمون عليه أكبر من القتل . وقال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والريبع بن أنس في قوله (والفتنة أشد من القتل) يقول الشرك أشد من القتل وقوله (ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام) كالجاء في الصحيحين « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمته إلى يوم القيامة ولم يحل إلا ساعة من نهار وإنه ساعى هذه حرام بحرمته الله إلى يوم القيامة لا يعصده شجره ولا يختلي خلاه فان أحدث شخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم » يعنى بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهله يوم فتح مكة فانه فتحها عنوة وقتل رجال منهم عند الخدمة وقيل صلحا لقوله « من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وقوله (حتى يقتلواكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) يقول تعالى ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدؤكم بالقتال فيه فلكن حينئذ قتلهم وقتلهم دفعاً للصائل كما يبيع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحباش عامئذ ثم كف الله القتال بينهم فقال (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) وقال (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فصبيكم منهم معرفة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء ، لوتزايوا لعذابي الذين كفروا منهم عذاباً أليماً) وقوله (فإن اتهاوا فإن الله غفور رحيم) أي فإن تركوا القتال في الحرم وأنبأوا إلى الاسلام والتوبة فان الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فانه تعالى لا يتعاطمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه اليه ثم أمر الله بقتال الكفار (حتى لا تكون فتنة) أي شرك قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والريبع ومقاتل بن حيان والسدي وزيد بن أسلم (ويكون الدين لله) أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وفي الصحيحين « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

وقوله (فإن اتهاوا فلا عدوان إلا على الظالمين) يقول تعالى فإن اتهاوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين وهذا معنى قول مجاهد أن لا يقاتل إلا من قاتل أو يكون تقديره فإن اتهاوا فقد تخلصوا من الظلم وهو الشرك فلا عدوان عليهم بعد ذلك والمراد بالعدوان ههنا المعاقبة والمقاتلة كقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) ولهذا قال عكرمة وقتادة الظالم الذي أي أن يقول لا إله إلا الله وقال البخاري قوله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) الآية حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال يمنعني أن الله حرم دم أخي قال : ألم يقل الله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) ؟ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأتم تريدون أن تقتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله ، وزاد عثمان بن صالح عن ابن وهب أخبرني فلان وحيوة بن شريح عن بكر بن عمر المغافري أن بكر بن عبد الله حدثه عن نافع أن رجلاً أتى ابن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تهج عاماً وتقيم عاماً وترتك الجهاد في سبيل الله عز وجل وقد علمت ما رغب الله فيه ؟ فقال يا ابن أخي بني الاسلام على خمس : الإيمان بالله ورسوله والصلاة الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت . قالوا يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفي إلى أمر الله) (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال فعلنا على عهد رسوله صلى الله عليه وسلم

وكان الاسلام قليلا فكان الرجل يفتن في دينه إما قتله أو عذبه حتى كثر الاسلام فلم تكن فتنة ، قال فما قولك في علي وعثمان ؟ قال أما عثمان فكان الله عفا عنه وأما أتم فكرهتم أن يعفو عنه ، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وخخته فأشار بيده فقال هذا بيته حيث ترون .

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

قال عكرمة عن ابن عباس والضحاك والسدي وقتادة ومقسم والربيع بن أنس وعطاء وغيرهم لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة وحجبه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان من المسلمين وأقصه الله منهم فنزلت في ذلك هذه الآية (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) وقال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى حدثنا ليث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى وتغزوا فإذا حضره أقام حتى ينسلخ . هذا إسناد صحيح . ولهذا لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وهو غيم بالحديبية أن عثمان قتل وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين بايع أصحابه وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة فكان ما كان . وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلهم بالطائف عدل إليها فحاصرها ودخل ذوالقعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً كما ثبت في الصحيحين عن أنس فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين . وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضاً عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه : وقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) أمر بالعدل حتى في المشركين كما قال (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) وقال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن قوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) نزلت بمكة حيث لاشوكة ولا جهاد ثم نسخ بآية القتال بالمدينة وقد رد هذا القول ابن جرير وقال بل الآية مدنية بعد عمرة القضية وعزا ذلك إلى مجاهد رحمه الله وقوله (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) أمرهم بطاعة الله وتقواه وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قال البخاري حدثنا إسحق أخبرنا النضر أخبرنا شعبة عن سليمان سمعت أبواثل عن حذيفة (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال نزلت في النفقة ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح عن أبي معاوية عن الأعمش به مثله قال وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان نحو ذلك وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أني عمران قال حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقة ومعا أبو أيوب الأنصاري فقال ناس ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب نحن نعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الاسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تحيياً فقلنا قد أكرمنا الله بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونصره حتى فشا الاسلام وكثر أهله وكنا قد آمنا على الأهلين والأموال والأولاد وقد وضعت الحرب أوزارها فرجع إلى أهلينا وأولادنا فقيم فيهما فنزل فينا (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وعبد بن حميد في تفسيره وابن أبي حاتم

وابن جرير وابن مردويه والحافظ أبو يعلى في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه كلهم من حديث يزيد ابن أبي حبيب به وقال الترمذي حسن صحيح عريب وقال الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ولفظ أبي داود عن أسلم أبي عمران كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى أهل الشام رجل يزيد بن فضالة بن عبيد فخرج من المدينة صف عظيم من الروم فصفقنا لهم فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه فقالوا سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب : يا أيها الناس إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل وإنما نزلت فينا معشر الأنصار إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا . لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها فأنزل الله هذه الآية وقال أبو بكر بن عياش عن أبي إسحق السبيعي قال : قال رجل للبراء بن عازب إن حملت على العدو وحدي فقتلوني أ كنت ألقى بيدي إلى التهلكة ؟ قال لا قال الله لرسوله (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك) وإنما هذه في النفقة رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث إسرائيل عن أبي إسحق وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الترمذي وقيس بن الربيع عن أبي إسحق عن البراء فذكره وقال بعد قوله (لا تكلف إلا نفسك) ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقى بيده إلى التهلكة ولا يتوب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثني الليث حدثنا عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي بكر ابن نمير بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن عبد الرحمن الأسود بن عبد يغوث أخبره أنهم حاصروا دمشق فانطلق رجل من أزدشنوءة فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل فعاب ذلك عليه المسلمون ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص فأرسل إليه عمرو فردده وقال عمرو قال الله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وقال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال ليس ذلك في القتال إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله ولا تلق بيدك إلى التهلكة قال حماد بن سلمة عن داود عن الشعبي عن الضحاك بن أبي جبير قال كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم فأصابهم سنة فأمسكوا عن النفقة في سبيل الله فزلت (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وقال الحسن البصري (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال هو البخل ، وقال سهاك بن حرب عن النعمان بن بشير في قوله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أن يذنب الرجل الذنب فيقول لا يغفر لي فأنزل الله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) رواه ابن مردويه : وقال ابن أبي حاتم وروى عن عبيدة السلماني والحسن وابن سيرين وأبي قلابة نحو ذلك يعني نحو قول النعمان بن بشير أنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له فيلقى بيده إلى التهلكة أي يستكثر من الذنوب فيهلك . ولهذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس التهلكة عذاب الله وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعا حدثنا يونس حدثنا ابن وهب أخبرني أبو صخر عن القرظي [محمد بن كعب] أنه كان يقول في هذه الآية (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال كان القوم في سبيل الله فيترود الرجل فكان أفضل زادا من الآخر أنفق البائس ^(١) من زاده حتى لا يبقى من زاده شيء أحب أن يواسي صاحبه فأنزل الله (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وبه قال ابن وهب أيضا أخبرني عبد الله بن عياش عن زيد ابن أسلم في قول الله (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وذلك أن رجلا كانوا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة فاما أن يقطع بهم وإما كانوا عيالا فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع والعطش أو من المشي . وقال لمن بيده فضل (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) ومضمون الآية الأمر بالاتفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم والاختار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة فقال (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) .

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ

(١) في الدر المنثور البائس ، وفي نسخة الأزهر . والنسخة الأميرية أنفقوا البائس فليحذر .

يَحِلُّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمِنْ تَتَمَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد شرع في بيان الناسك فأمر بإتمام الحج والعمرة وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما . ولهذا قال بعده فإن أحصرتم أى صددتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما ، ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملازم سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها كما هما قولان للعلماء وقد ذكرناها بدلائلهما في كتابنا الأحكام مستقصى والله الحمد والمنة : وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن علي أنه قال في هذه الآية (وأتموا الحج والعمرة لله) قال أن تحرم من ديرة أهلك وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس ، وعن سفيان الثوري أنه قال في هذه الآية إتمامهما أن تحرم من أهلك لا تريد إلا الحج والعمرة وتهل من الليقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت لوجهجت أو اعتمرت . وذلك يجرى ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره : وقال مكحول إتمامهما إنشاؤهما جميعاً من الليقات ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري قال بلغنا أن عمر قال في قول الله (وأتموا الحج والعمرة لله) من تمامهما أن تفرّد كل واحد منهما من الآخر وأن تعتمر في غير أشهر الحج إن الله تعالى يقول (الحج أشهر معلومات) وقال هشام عن ابن عون سمعت القاسم بن محمد يقول إن العمرة في أشهر الحج ليست بتامة فقليل له فالعمرة في الحرم قال كانوا يرونها تامة وكذا روى عن قتادة بن دعامه رحمهما الله وهذا القول فيه نظر لأنه قد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع عمر كلها في ذي القعدة عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع وعمرة الجعرانة في ذي القعدة سنة ثمان وعمرته التي مع حجته أحرم بهما معا في ذي القعدة سنة عشر وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته ولكن قال لأم هانئ * « عمرة في رمضان تعدل حجة معي » وماذا إلا لأنها قد عزمتم على الحج معه عليه السلام فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر كما هو مبسوط في الحديث عند البخاري ونص سعيد بن جبير على أنه من خصائصها والله أعلم .

وقال السدي في قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) أى أقيموا الحج والعمرة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) يقول من أحرم بحج أو بعمرة فليس له أن يحل حتى يتمهما تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمره العقبة وطاف بالبيت وبالصفا والروة فقد حل . وقال قتادة عن زرارة عن ابن عباس أنه قال الحج عرفة والعمرة الطواف وكذا روى الأعمش عن إبراهيم عن علقمة في قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) قال هي قراءة عبد الله وأتموا الحج والعمرة إلى البيت لا يجاوز (١) بالعمرة البيت . قال إبراهيم فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال كذلك قال ابن عباس : وقال سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة أنه قال : وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت . وكذا روى الثوري أيضاً عن إبراهيم عن منصور عن إبراهيم أنه قرأ وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت . وقرأ الشعبي (وأتموا الحج والعمرة لله) برفع العمرة وقال ليست بواجبة . وروى عنه خلاف ذلك وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة عن أنس وجماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ جمع في إحرامه بحج وعمرة وثبت عنه في الصحيح أنه قال لأصحابه « من كان معه هدى فليهل بحج وعمرة » وقال في الصحيح أيضاً « دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة » .

وقد روى الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية حديثاً غريباً فقال حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبو عبد الله الهروي حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عطاء عن صفوان بن أمية أنه قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم متضخخ بالزعفران عليه جبة فقال كيف تأمرني يا رسول الله في عمرتي ؟ قال فأنزل الله

(وأتموا الحج والعمرة لله) فقال رسول الله ﷺ « أين السائل عن العمرة » فقال ها أنا ذا فقال له « ألق عنك ثيابك ثم اغتسل واستنشق ما استطعت ثم ما كنت صانعا في حجتك فاصنعه في عمرتك » هذا حديث غريب وساق عجيب والذي ورد في الصحيحين عن يعلى بن أمية في قصة الرجل الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالجرانة فقال كيف ترى في رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وخلوق فسكت رسول الله ﷺ ثم جاءه الوحي ثم رفع رأسه فقال أين السائل فقال ها أنا ذا فقال « أما الجبة فانزعها وأما الطيب الذي بك فاغسله ثم ما كنت صانعا في حجتك فاصنعه في عمرتك » ولم يذكر فيه الغسل والاستنشق ولا ذكر نزول هذه الآية وهو عن يعلى بن أمية لاصفوان بن أمية فأن الله أعلم . وقوله (فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى) ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست أي عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكاملها وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدى وكان سبعين بدنة وأن يحلقوا رؤوسهم وأن يتحللوا من إحرامهم فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رؤوسهم وأن يتحللوا فلم يفعلوا انتظارا للنسخ حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه فلذلك قال ﷺ « رحم الله المحلقين » قالوا والقصرين يا رسول الله . فقال في الثالثة « والمقصرين » وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة في بدنة وكانوا ألفا وأربعمائة وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم وقيل بل كانوا على طرف الحرم فأن الله أعلم . ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو فلا يتحلل إلا من حصره عدو لمرض ولا غيره على قولين فقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس ، وابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس ، وابن أبي نجيح عن ابن عباس أنه قال لا حصر إلا حصر العدو فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء إنما قال الله تعالى (فإذا أمتتم) فليس الأمن حصرًا قال : وروى عن ابن عمر وطاوس والزهرى وزيد بن أسلم نحو ذلك . والقول الثاني أن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال وهو التوهان عن الطريق أو نحو ذلك ، قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا حجاج بن الصواف عن يحيى بن أبي كثير عن عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصاري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كسر أو وجع أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى » قال فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا صدق (١) وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة من حديث يحيى بن أبي كثير به وفي رواية لأبي داود وابن ماجه من عرج أو كسر أو مرض فذكر معناه . ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن عرفة عن إسماعيل بن علية عن الحجاج بن أبي عثمان الصواف به ثم قال وروى عن ابن مسعود وابن الزبير وعلقمة وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ومجاهد والنخعي وعطاء ومقاتل بن حيان أنهم قالوا الاحصار من عدو أو مرض أو كسر ، وقال الثوري الاحصار من كل شيء آذاه وثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فقالت يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية فقال « حجني واشترطي أن محلي حيث حبستني » ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث وقد علق الإمام محمد بن إدريس الشافعي القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث ، قال البيهقي وغيره من الحفاظ وقد صحح والله الحمد .

وقوله (فما استيسر من الهدى) قال الإمام مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن أبي طالب أنه كان يقول (فما استيسر من الهدى) شاة وقال ابن عباس الهدى من الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والمز والضأن : وقال الثوري عن حبيب بن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله (فما استيسر من الهدى) قال شاة وكذا قال عطاء ومجاهد وطاوس وأبو العالية ومحمد بن علي بن الحسين وعبد الرحمن بن القاسم والشعبي والنخعي والحسن وقتادة والضحاك ومقاتل ابن حيان وغيرهم مثل ذلك وهو مذهب الأئمة الأربعة : وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن يحيى بن سعيد عن القاسم عن عائشة وابن عمر أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدى إلا من الإبل والبقر

قال وروى عن سالم والقاسم وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير نحو ذلك (قلت) والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديدية فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذلك شاة وإنما ذبحوا الإبل والبقر ففي الصحيحين عن جابر قال أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقرة : وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس في قوله (فما استيسر من الهدى) قال بقدر يسارته ، وقال العوفي عن ابن عباس إن كان موسرا فمن الإبل وإلا فمن البقر وإلا فمن الغنم ، وقال هشام بن عروة عن أبيه (فما استيسر من الهدى) قال إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجزاء ذبح الشاة في الإحصار أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدى أى مهما تيسر مما يسمى هديا والهدى من بهيمة الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم كما قاله الخبر البحر ترجمان القرآن وابن عم رسول الله ﷺ وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت أهدى النبي ﷺ مرة غنما .

وقوله (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله) معطوف على قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) وليس معطوفا على قوله (فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى) كما زعمه ابن جرير رحمه الله لأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديدية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يحوز الحلق (حتى يبلغ الهدى محله) ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارنا أو من فعل أحدهما إن كان مفردا أو متمتعا كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت : يارسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك ؟ فقال . « إني لبدت رأسي وقلدت هدي فلا أحل حتى أنحر » وقوله (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال البخارى : حدثنا آدم حدثنا شعبة عن عبد الرحمن بن الأصبهاني سمعت عبد الله بن معقل قال قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد يعنى مسجد الكوفة فسألت عن فدية من صيام فقال : سحلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهي فقال . « ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا أما تجد شاة » ؟ قلت : لا قال : « صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك » فنزلت في خاصة وهى لكم عامة وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة قال : أتى على النبي ﷺ وأنا أوقد تحت قدر والقمل يتناثر على وجهي أوقال حاجبي فقال « يؤذيك هوام رأسك ؟ » قلت نعم قال « فاحلقه وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسيكة » قال أيوب لا أدرى بأيتهن بدأ وقال أحمد أيضا حدثنا هشام حدثنا أبو بشر عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة قال : كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية ونحن محرمون وقد حصره المشركون وكانت لى وفرة فجعلت الهوام تساقط على وجهي فمر على النبي ﷺ فقال : « يؤذيك هوام رأسك » فأمره أن يحلق قال : ونزلت هذه الآية (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) وكذا رواه عثمان عن شعبة عن أبي بشر وهو جعفر بن إياس به ، وعن شعبة عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى به . وعن شعبة عن داود عن الشعبي عن كعب بن عجرة نحوه ، ورواه الإمام مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة فذكر نحوه وقال سعد بن إسحق بن كعب بن عجرة عن أبان بن صالح عن الحسن البصرى أنه سمع كعب بن عجرة يقول فذبحت شاة ورواه ابن مردويه ، وروى أيضا من حديث عمر ابن قيس وهو ضعيف عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « النسك شاة والصيام ثلاثة أيام والطعام فرق بين ستة » وكذا روى عن علي ومحمد بن كعب وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعطاء والسدى والربيع بن أنس وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا عبد الله بن وهب أن مالك بن أنس حدثه عن عبد الكريم بن مالك الجزرى عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذاه القمل في رأسه فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق رأسه وقال « صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين مدين مدين لكل إنسان

أو انسك شاة أى ذلك فعلت أجزأ عنك » وهكذا روى ليث ابن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عباس في قوله (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال إذا كان أو ، فأية أخذت أجزأ عنك قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد وعكرمة وعطاء وطاوس والحسن وحيد الأعرج وإبراهيم النخعي والضحاك نحو ذلك (قلت) وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يجزئ في هذا المقام إن شاء صام وإن شاء تصدق بفرق وهو ثلاثة أصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدان وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء أى ذلك فعل أجزأه ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) ولما أمر النبي صلى الله عليه وسلم كعب بن عجرة بذلك أرشده إلى الأفضل فالأفضل فقال : انسك شاة أو أطعم ستة مساكين أو صم ثلاثة أيام فكل حسن في مقامه وقته الحمد والثنة . وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر بن عياش قال : ذكر الأعمش قال : سأل إبراهيم سعيد بن جبير عن هذه الآية (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) فأجابه بقول يحكم عليه طعام فإن كان عنده اشترى شاة وإن لم يكن قومت الشاة دراهم وجعل مكانها طعام فتصدق وإلا صام لكل نصف صاع يوما قال إبراهيم كذلك سمعت علقمة يذكر قال : لما قال لي سعيد بن جبير من هذا ما أطرفه ؟ قال : قلت هذا إبراهيم فقال ما أطرفه كان يجالسنا قال : فذكرت ذلك لإبراهيم قال : فلما قلت يجالسنا انتفض منها وقال ابن جرير أيضا حدثنا ابن أبي عمران حدثنا عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن أشعث عن الحسن في قوله (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال إذا كان بالمحرم أذى من رأسه حلق وافتدى بأى هذه الثلاثة شاء والصيام عشرة أيام والصدقة على عشرة مساكين كل مسكين مكوكين مكوكا من تمر ومكوكا من بر والنسك شاة وقال قتادة عن الحسن وعكرمة في قوله (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال : إطعام عشرة مساكين وهذان القولان من سعيد بن جبير وعلقمة والحسن وعكرمة قولان غريبان فهما نظرا لأنه قد ثبتت السنة في حديث كعب بن عجرة الصيام ثلاثة أيام لاستة أو إطعام ستة مساكين أو نسك شاة وأن ذلك على التأخير كما دل عليه سياق القرآن وأما هذا الترتيب فإنما هو معروف في قتل الصيد كما هو نص القرآن وعليه أجمع الفقهاء هناك بخلاف هذا والله أعلم . وقال هشام . أخبرنا ليث عن طاوس أنه كان يقول ما كان من دم أو طعام فبمكة وما كان من صيام فحيث شاء ، وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن ، وقال هشام أخبرنا حجاج وعبد الملك وغيرها عن عطاء أنه كان يقول : ما كان من دم فبمكة وما كان من طعام وصيام فحيث شاء ، وقال هشام أخبرنا يحيى بن سعيد عن يعقوب بن خالد أخبرنا أبو أسماء مولى ابن جعفر قال حج عثمان بن عفان ومعه على والحسين بن علي فارتحل عثمان قال أبو أسماء وكنت مع ابن جعفر فإذا نحن برجل نائم وناقته عند رأسه قال فقلت أيها النائم فأستيقظ فإذا الحسين بن علي قال فحملة ابن جعفر حتى أتينا به السقيا قال : فأرسل إلى علي ومعه أسماء بنت عميس قال : فمرضناه نحوًا من عشرين ليلة قال : قال علي للحسين ما الذى تجد ؟ قال فأومأ بيده إلى رأسه قال : فأمر به على فحلق رأسه ثم دعا بيدته فنحرها فان كانت هذه الناقة عن الحلق ففيه أنه نحرها دون مكة . وإن كانت عن التحلل فواضح

وقوله (فإذا أمتهم فممن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) أى فإذا تمكنتم من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعًا بالعمرة إلى الحج وهو يشمل من أحرم بهما أو أحرم بالعمرة أولاً فلما فرغ منها أحرم بالحج وهذا هو المتمتع الخاص وهو المعروف في كلام الفقهاء والتمتع العام يشمل القسمين كما دلت عليه الأحاديث الصحاح فان من الرواة من يقول تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخر يقول قرن ولا خلاف أنه ساق هديا وقال تعالى فمن (تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) أى فليذبح ما قدر عليه من الهدى وأقله شاة وله أن يذبح البقر لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح البقر عن نسائه البقر ، وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكن متمتعاً رواه أبو بكر بن مردويه وفي هذا دليل على مشروعية التمتع كما جاء في الصحيحين عن عمران بن حصين قال : نزلت آية التمتع في كتاب الله وفعلناها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها حتى مات قال رجل برأيه ما شاء . قال البخارى يقال إنه عمر

وهذا الذي قاله البخارى قد جاء مصرحا به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول إن تأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتأم يعني قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) وفي نفس الأمر لم يكن عمر رضى الله عنه ينهى عنها محرما لها إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين كما قد صرح به رضى الله عنه

وقوله (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة) يقول تعالى فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج أى في أيام المناسك قال العلماء : والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر قاله عطاء أو من حين يحرم قاله ابن عباس وغيره لقوله في الحج ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال قاله طاوس ومجاهد وغير واحد وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبلة يومين وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والسدى وعطاء وطاوس والحكم والحسن وحماد وإبراهيم وأبو جعفر الباقر والريبع ومقاتل بن حيان وقال العوفي عن ابن عباس إذا لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة فإذا كان يوم عرفة الثالث فقدم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله وكذا روى أبو إسحق عن وبرة عن ابن عمر قال . يصوم يوما قبل يوم التروية ويوم التروية ويوم عرفة وكذا روى جعفر بن محمد عن أبيه عن علي أيضا فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق ؟ فيه قولان للعلماء وهما للإمام الشافعى أيضا القديم منهما أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر في صحيح البخارى لم يرخس في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لا يجد الهدى هكذا رواه مالك عن الزهري عن عروة عن عائشة وعن سالم عن ابن عمر وقد روى من غير وجه عنهما ورواه سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي أنه كان يقول من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهن أيام التشريق وبهذا يقول عبيد بن عمير الليثي عن عكرمة والحسن البصرى وعروة بن الزبير وإنما قالوا ذلك لعموم قوله (فصيام ثلاثة أيام في الحج) والجديد من القولين أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق لما رواه مسلم عن قتبية الهذلى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل»

وقوله (وسبعة إذا رجعتم) فيه قولان : (أحدهما) إذا رجعتم إلى رحالكم ولهذا قال مجاهد هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق وكذا قال عطاء بن أبي رباح والقول (الثاني) إذا رجعتم إلى أوطانكم قال عبد الرزاق : أخبرنا الثوري عن يحيى بن سعيد عن سالم سمعت ابن عمر قال : (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم) قال إذا رجع إلى أهله وكذا روى عن سعيد بن جبير وأبي العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والزهري والريبع بن أنس وحكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع وقد قال البخارى حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله أن ابن عمر قال : تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدى من ذى الحليفة فأهل بعمره ثم أهل بالحج فتمتع الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة إلى الحج فكان من الناس من أهدى فساق الهدى ومنهم من لم يهد فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مكة قال للناس : «من كان منكم أهدى فإنه لا يحل شيء حرم منه حتى يقضى حجه ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل ثم ليل بالحج فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله» وذكر تمام الحديث قال الزهري وأخبرني عروة عن عائشة بمثل ما أخبرني سالم عن أبيه والحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري به وقوله (تلك عشرة كاملة) قيل تأكيد كما تقول العرب رأيت بعينى وسمعت بأذنى وكتبت يدي وقال الله تعالى (ولا طائر يطير بجناحيه) وقال (ولا تقطه يمينك) وقال (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) وقيل معنى كاملة الأمر بأكملها وإتمامها اختاره ابن جرير وقيل معنى كاملة أى مجزئة عن الهدى قال هشام عن عباد بن راشد عن الحسن البصرى في قوله (تلك عشرة كاملة) قال من الهدى

وقوله (ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) قال ابن جرير واختلف أهل التأويل فيمن عني بقوله (لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به وأنه لا متعة لهم فقال بعضهم عني

بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان هو الثوري قال : قال ابن عباس هم أهل الحرم وكذا روى ابن المبارك عن الثوري وزاد الجماعة عليه وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول يا أهل مكة لا تمتعوا لكم أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم إنما يقطع أحدكم واديا أو قال يحمل بينه وبين الحرم واديا ثم يهل بعمره وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال : التمتع للناس لا لأهل مكة من لم يكن أهله من الحرم . وكذا قول الله عز وجل (ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) قال وبلغني عن ابن عباس مثل قول طاوس وقال آخرون هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت كما قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن عطاء قال : من كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة لا يتمتع وقال عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن مكحول في قوله (ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) قال من كان دون الليقات وقال ابن جريج عن عطاء ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام قال عرفة ومزدلفة وعرة والرجيع وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر سمعت الزهري يقول من كان أهله على يوم أو نحوه تمتع وفي رواية عنه اليوم واليومين واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي أنهم أهل الحرم ومن كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة لأن من كان كذلك يعد حاضرا لا مسافرا والله أعلم وقوله (واتقوا الله) أي فيما أمركم ونهاكم (واعلموا أن الله شديد العقاب) أي لمن خالف أمره وارتكب ما عنده زجره ﴿ الْحُجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحُجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾

اختلف أهل العربية في قوله (الحج أشهر معلومات) فقال بعضهم تقديره الحج حج أشهر معلومات فعلى هذا التقدير يكون الاحرام بالحج فيها أكمل من الاحرام فيما عداها وإن كان ذلك صحيحا والقول بصحة الاحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وبه يقول إبراهيم النخعي والثوري والليث بن سعد واحتج لهم بقوله تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) وبأنه أحد النسكين فصح الاحرام به في جميع السنة كالعمرة . وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه لا يصح الاحرام بالحج إلا في أشهره فلو أحرم به قبلها لم ينقصد إحرامه به وهل ينقصد عمرة ، فيه قولان عنه . والقول بأنه لا يصح الاحرام بالحج إلا في أشهره مروى عن ابن عباس وجابر وبه يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله والدليل عليه قوله (الحج أشهر معلومات) وظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة وهو أن وقت الحج أشهر معلومات فخصه بها من بين سائر شهور السنة فدل على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة : وقال الشافعي رحمه الله أخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جريج أخبرني عمر بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في شهور الحج من أجل قول الله تعالى (الحج أشهر معلومات) وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن يحيى بن مالك السوسي^(١) عن حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج به ورواه ابن مردويه في تفسيره من طريقين عن حجاج بن أرطاة عن الحاكم بن عتبة عن مقسم عن ابن عباس أنه قال من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج وقال ابن خزيمة في صحيحه حدثنا أبو كريب حدثنا أبو خالد الأحمر عن شعبة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج وهذا سناد صحيح وقول الصباحي من السنة كذا في حكم المرفوع عند أكثرين ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن وهو ترجمانه . وقد ورد فيه حديث مرفوع ، قال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي حدثنا نافع حدثنا الحسن ابن المثنى حدثنا أبو حذيفة حدثنا سفيان عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج » وإسناده لا بأس به لكن رواه الشافعي والبيهقي من طرق عن ابن جريج عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل أهل بالحج قبل أشهر الحج ؟ فقال لا وهذا الموقوف أصح وأثبت من المرفوع ويبقى

حينئذ مذهب صحابي يتقوى بقول ابن عباس من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهره والله أعلم
وقوله (أشهر معلومات) قال البخارى قال ابن عمر هي شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة وهذا الذى علقه
البخارى بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولا : حدثنا أحمد بن حازم بن أى زغرة حدثنا أبو نعيم حدثنا ورقاء عن
عبد الله بن دينار عن ابن عمر (الحج أشهر معلومات) قال شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، إسناده صحيح
وقد رواه الحاكم أيضاً في مستدركه عن الأصم عن الحسن بن علي بن عفان عن عبد الله بن نير عن عبيد الله عن نافع
عن ابن عمر فذكره وقال هو على شرط الشيخين (قلت) وهو مروى عن عمر وعلى وابن مسعود وعبد الله بن الزبير
وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد وإبراهيم النخعي والشعبي والحسن وابن سيرين ومكحول وقتادة والضحاك بن
مزامح والريبع بن أنس ومقاتل بن حيان وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وأبى يوسف وأبى ثور رحمهم
الله واختار هذا القول ابن جرير قال وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب كما تقول العرب رأيتك العام
ورأيتك اليوم وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه) وإنما تعجل في يوم ونصف يوم ، وقال
الإمام مالك بن أنس والشافعي في القديم هي شوال وذو القعدة وذو الحجة بكأله وهو رواية عن ابن عمر أيضاً قال ابن
جرير حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا شريك عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عمر قال : شوال
وذو القعدة وذو الحجة وقال ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني ابن جريج قال
قلت لنافع أسمعت عبد الله بن عمر يسمى شهور الحج قال نعم كان عبد الله يسمى شوالا وذو القعدة وذو الحجة قال
ابن جريج وقال ذلك ابن شهاب وعطاء وجابر بن عبد الله صاحب النبي ﷺ وهذا إسناده صحيح إلى ابن جريج وقد
حكى هذا أيضاً عن طاوس ومجاهد وعروة بن الزبير والريبع بن أنس وقتادة وجاء في حديث مرفوع لكنه
موضوع ، رواه الحافظ بن مردويه من طريق حصين بن محارق وهو متهم بالوضع عن يونس بن عبيد عن شهر بن
حوشب عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « الحج أشهر معلومات شوال وذو القعدة وذو الحجة » وهذا كما
رأيت لا يصح رفعه والله أعلم . وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذى الحجة بمعنى أنه يختص بالحج فيكره الاعتمار في
بقية ذى الحجة لأنه يصح الحج بعد ليلة النحر قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن قيس
ابن مسلم عن طارق بن شهاب قال : قال عبد الله الحج أشهر معلومات ليس فيها عمرة وهذا إسناده صحيح . قال ابن جرير .
وإنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة وإنما
هي للحج وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى كما قال محمد بن سيرين ما أحد من أهل العلم يشك في أن عمرة في
غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج وقال ابن عون . سألت القاسم بن محمد عن العمرة في أشهر الحج
فقال كانوا لا يرونها تامة (قلت) وقد ثبت عن عمر وعثمان رضي الله عنهما أنهما كانا يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج
وينهان عند ذلك في أشهر الحج والله أعلم

وقوله (فمن فرض فيهن الحج) أى أوجب باحرامه حجاب فيه دلالة على لزوم الاحرام بالحج والمضى فيه قال ابن جرير .
أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والالزام وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (فمن فرض فيهن
الحج) يقول من أحرم بحج أو عمرة وقال عطاء . الفرض الاحرام . وكذا قال إبراهيم والضحاك وغيرهم
وقال ابن جريج . أخبرني عمر بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال (فمن فرض فيهن الحج) فلا ينبغي أن
يلبى بالحج ثم يقيم بأرض قال ابن أبي حاتم . وروى عن ابن مسعود وابن عباس وابن الزبير ومجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي
وعكرمة والضحاك وقتادة وسفيان الثوري والزهرى ومقاتل بن حيان نحو ذلك وقال طاوس والقاسم بن محمد
هو التلبية وقوله (فلا رث) أى من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرث وهو الجماع كما قال تعالى (أحل لكم
ليلة الصيام الرث إلى نسائكم) وكذلك يحرم تعاطى دواغيه من البشارة والتقصيل ونحو ذلك وكذلك التكلم به بحضرة
النساء قال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني يونس أن نافعاً أخبره أن عبد الله بن عمر كان يقول الرث
إتيان النساء والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم قال ابن وهب وأخبرني أبو صخر عن محمد بن كعب

مثله قال ابن جرير وحدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن قتادة عن رجل عن أبي العالية الرياحي عن ابن عباس أنه كان يحدو وهو محرم وهو يقول : **وهن يمشين بنا هميسا * إن تصدق الطير نك لميسا**

قال أبو العالية : قللت تكلم بالرفث وأنت محرم ؟ قال : إنما الرفث ما قيل عند النساء : ورواه الأعمش عن زياد ابن حصين عن أبي العالية عن ابن عباس فذكره وقال ابن جرير أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن عوف حدثني زياد بن حصين حدثني أبي حصين بن قيس قال : أصعدت مع ابن عباس في الحاج وكنت خليله فلما كان بعد إحرامنا قال ابن عباس : فأخذ بذنب بعيره فجعل يلويه ويرتجز ويقول :

وهن يمشين بنا هميسا * إن تصدق الطير نك لميسا

قال : قللت أترفت وأنت محرم ؟ فقال إنما الرفث ما قيل عند النساء . وقال عبد الله بن طاوس عن أبيه سألت ابن عباس عن قول الله عز وجل (فلارفت ولا فسوق) قال الرفث التعريض بذكر الجماع وهي العراة في كلام العرب وهو أدنى الرفث وقال عطاء بن أبي رباح الرفث الجماع وما دونه من قول الفحش وكذا قال عمرو بن دينار وقال عطاء كانوا يكرهون العراة وهو التعريض وهو محرم وقال طاوس : هو أن يقول للمرأة إذا حلت أصبتك وكذا قال أبو العالية وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الرفث غشيان النساء والقبلة والغمز وأن تعرض لها بالفحش من الكلام ونحو ذلك وقال ابن عباس أيضا وابن عمر الرفث غشيان النساء وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وإبراهيم وأبو العالية عن عطاء ومكحول وعطاء الخراساني وعطاء بن يسار وعطية وإبراهيم النخعي والربيع والزهرى والسدى ومالك بن أنس ومقاتل بن حيان وعبد الكريم بن مالك والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم

وقوله (ولا فسوق) قال مقسم وغير واحد عن ابن عباس هي المعاصي وكذا قال عطاء ومجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة وإبراهيم النخعي والزهرى والربيع بن أنس وعطاء بن يسار وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وقال محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال : الفسوق ما أصيب من معاصي الله صيدا أو غيره وكذا روى ابن وهب عن يونس عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول : الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم وقال آخرون الفسوق ههنا السباب قاله ابن عباس وابن عمر وابن الزبير ومجاهد والسدى وإبراهيم النخعي والحسن وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيح « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ولهذا رواه ههنا الخبر أبو محمد بن أبي حاتم من حديث سفیان الثوري عن زبيد عن أبي وائل عن عبد الله عن النبي ﷺ قال : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » وروى من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه ومن حديث أبي إسحاق عن محمد بن سعد عن أبيه وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم الفسوق ههنا الذبح للأصنام قال الله تعالى (أوفسقا أهل لغير الله به) وقال الضحاك : الفسوق التنازع بالألقاب . والذين قالوا الفسوق ههنا هو جميع المعاصي الصواب معهم كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم وإن كان في جميع السنة منيها عنه إلا أنه في الأشهر الحرم أكد ولهذا قال : (منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) وقال في الحرم : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) واختار ابن جرير أن الفسوق ههنا هو ارتكاب ما نهى عنه في الأحرام من قتل الصيد وحلق الشعر وقلم الأظفار ونحو ذلك كما تقدم عن ابن عمر وما ذكرناه أولى والله أعلم : وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه (١) » .

وقوله (ولا جدال في الحج) فيه قولان : (أحدهما) ولا مجادلة في وقت الحج في مناسكه وقد بينه الله أتم بيان ووضحه أكمل إيضاح كما قال وكيع عن العلاء بن عبد الكريم سمعت مجاهدا يقول (ولا جدال في الحج) قد بين الله أشهر الحج فليس فيه جدال بين الناس وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد (ولا جدال في الحج) قال لاشهر ينسأ ولا جدال في الحج قد تبين ثم ذكر كيفية ما كان المشركون يصنعون في النسأ الذي ذمهم الله به . وقال الثوري عن عبد العزيز ابن رفيع عن مجاهد في قوله (ولا جدال في الحج) قال قد استقام الحج فلا جدال فيه وكذا قال السدى وقال هشام :

(١) رواية الصحيحين « رجع كيوم ولدته أمه » وليس فيها ما خرج من ذنوبه ولفظ مسلم في أوله « من أتى هذا البيت » وفي رواية البخاري « من حج لله » .

أخبرنا حجاج عن عطاء عن ابن عباس (ولا جدال في الحج) قال المراء في الحج وقال عبدالله بن وهب قال مالك قال الله تعالى (ولا جدال في الحج) فالجدال في الحج والله أعلم أن قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة وكانوا يتجادلون يقول هؤلاء : نحن أصوب ، ويقول هؤلاء : نحن أصوب فهذا فيما نرى والله أعلم وقال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كانوا يقفون مواقف مختلفة يتجادلون كلهم يدعى أن موقفه موقف إبراهيم قطعته الله حين أعلم نبيه بالمناسك . وقال ابن وهب عن أبي صخر عن محمد بن كعب قال كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء حننا أتم من حجكم وقال هؤلاء حننا أتم من حجكم . وقال حماد بن سلمة عن جبير ابن حبيب عن القاسم بن محمد أنه قال : الجدال في الحج أن يقول بعضهم الحج غداً ويقول بعضهم الحج اليوم وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال وهو قطع التنازع في مناسك الحج والله أعلم .

(والقول الثاني) أن المراد بالجدال ههنا المحاصمة قال ابن جرير : حدثنا عبد الحميد بن حسان حدثنا إسحق عن شريك عن أبي إسحق عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود في قوله (ولا جدال في الحج) قال أن تمارى صاحبك حتى تغضبه وبهذا الاسناد إلى أبي إسحق عن التيمي : سألت ابن عباس عن الجدال قال : المراء تمارى صاحبك حتى تغضبه . وكذلك روى مقسم والضحاك عن ابن عباس وكذا قال أبو العالية وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وجابر ابن زيد وعطاء الخراساني ومكحول والسدي ومقاتل بن حيان وعمرو بن دينار والضحاك والريبع بن أنس وإبراهيم النخعي وعطاء بن يسار والحسن وقناة والزهرى ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ولا جدال في الحج المراء والملاحة حتى تغضب أخاك وصاحبك فهي الله عن ذلك ، وقال إبراهيم النخعي (ولا جدال في الحج) قال كانوا يكرهون الجدال ، وقال محمد بن إسحق عن نافع عن ابن عمر ، قال الجدال في الحج السباب والنزعة وكذا روى ابن وهب عن يونس عن نافع أن ابن عمر كان يقول الجدال في الحج السباب والمراء والخصومات ، وقال ابن أبي حاتم وروى عن ابن الزبير والحسن وإبراهيم وطاوس ومحمد بن كعب قالوا الجدال المراء : وقال عبدالله بن المبارك عن يحيى بن بشير عن عكرمة (ولا جدال في الحج) والجدال الغضب أن تغضب عليك مسلماً إلا أن تستعقب مملوكاً فتغضبه من غير أن تضربه فلا بأس عليك إن شاء الله (قلت) ولو ضربه لكان جائزاً سائماً . والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن إدريس حدثنا محمد بن إسحق عن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجاً حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ وجلست إلى جنب أبي وكانت زمالة أبي بكر وزمالة رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة مع غلام أبي بكر فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه فاطلع وليس معه بعيره فقال : أين بعيرك ؟ فقال أضلته البارحة ، فقال أبو بكر بعير واحد تضله ، فطلق يضربه ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول « انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع » وهكذا أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث ابن إسحق ومن هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال من تمام الحج ضرب الجمال ولكن يستفاد من قول النبي ﷺ عن أبي بكر رضي الله عنه « انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع » كهيئة الانكار اللطيف أن الأولى ترك ذلك والله أعلم .

وقد قال الإمام عبد بن حميد في مسنده حدثنا عبيد الله بن موسى عن موسى بن عبيدة عن أخيه عبد الله بن عبيد الله عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وقوله (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) لما نهاهم عن إثبات القبيح قولاً وفعلًا حثهم على فعل الجليل وأخبرهم أنه عالم به وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة : وقوله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) قال العوفي عن ابن عباس كان أناس يخرجون من أهلهم ليست معهم أزودة يقولون حج بيت الله ولا يطعمنا ؟ فقال الله تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس . وقال بن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبدالله بن يزيد المقرئ حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن

عكرمة أن ناسا كانوا يحجون بغير زاد فأُنزل الله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وكذا رواه ابن جرير عن عمرو وهو الفلاس عن ابن عينة قال ابن أبي حاتم: وقد روى هذا الحديث ورقاء عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس، قال وما يرويه عن ابن عينة أصح (قلت) قد رواه النسائي عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عن سفيان بن عينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس كان ناس يحجون بغير زاد فأُنزل الله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وأما حديث ورقاء فأخرجه البخاري عن يحيى بن بشر عن شعبة وأخرجه أبو داود عن أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي ومحمد بن عبدالله المخزومي عن شعبة عن ورقاء عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فأُنزل الله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن شعبة. ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث شعبة به، وروى ابن جرير وابن مردويه من حديث عمرو بن عبد الغفار عن نافع عن ابن عمر قال كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادا آخر فأُنزل الله تعالى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكمك. وكذا قال ابن الزبير وأبو العالية ومجاهد وعكرمة والشعب والنخعي وسالم بن عبدالله وعطاء الخراساني وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان: وقال سعيد بن جبير فتزودوا الدقيق والسويق والكمك. وقال وكيع بن الجراح في تفسيره حدثنا سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير (وتزودوا) قال الحشكناج والسويق وقال وكيع أيضا حدثنا إبراهيم المكي عن ابن أبي نجیح عن مجاهد عن ابن عمر قال إن من كرم الرجل طيب زاده في السفر وزاد فيه حماد بن سلمة عن أبي ربحانة أن ابن عمر كان يشترط على من صحبه الجودة^(١).

وقوله (فإن خير الزاد التقوى) لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها كما قال (وريشاً ولباس التقوى ذلك خير) لما ذكر اللباس الحسى نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي وهو الخشوع والطاعة والتقوى وذكر أنه خير من هذا وأشجع قال عطاء الخراساني في قوله (فإن خير الزاد التقوى) يعني زاد الآخرة. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا عبدان حدثنا هشام بن عمار حدثنا مروان بن معاوية عن إسماعيل عن قيس عن جرير بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من تزود في الدنيا ينفعه في الآخرة» وقال مقاتل بن حيان لما نزلت هذه الآية (وتزودوا) قام رجل من فقراء المسلمين فقال يا رسول الله ما نجد ما نتزوده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تزود ما تكف به وجهك عن الناس وخير ما تزودتم التقوى» رواه ابن أبي حاتم وقوله (واتقون يا أولى الألباب) يقول واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأمر بأمرى يا ذوى العقول والأفهام.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾

قال البخاري حدثنا محمد أخبرني ابن عينة عن عمرو عن ابن عباس قال كانت عكاظ ومجنة وذو الحجاز أسواقا في الجاهلية فتأتموا أن يتجروا في الموسم فنزلت (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) في مواسم الحج. وهكذا رواه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وغير واحد عن سفيان بن عينة به ولبعضهم فلما جاء الاسلام تأتموا أن يتجروا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأُنزل الله هذه الآية وكذا رواه ابن جريج عن عمرو ابن دينار عن ابن عباس قال كان متجروا الناس في الجاهلية عكاظ ومجنة وذو الحجاز فلما كان الاسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت هذه الآية وروى أبو داود وغيره من حديث يزيد بن أبي زياد. عن مجاهد عن ابن عباس قال. كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج يقولون أيام ذكر فأُنزل الله (ليس جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم)

وقال ابن جرير . حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشام أخبرنا حجاج عن عطاء عن ابن عباس انه قال (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) في مواسم الحج وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده وهكذا روى العوفي عن ابن عباس وقال وكيع . حدثنا طلحة بن عمرو الحضرمي عن عطاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) في مواسم الحج وقال عبد الرحمن عن ابن عيينة عن عبد الله بن أبي يزيد . سمعت ابن الزبير يقرأ (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) في مواسم الحج وهكذا فسرها مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومنصور بن العتمر وقتادة وإبراهيم النخعي والريبع بن أنس وغيرهم . وقال ابن جرير . حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا شبابة بن سوار حدثنا شعبة عن أبي أمية قال . سمعت ابن عمر سئل عن الرجل يحج ومعه تجارة فقرأ ابن عمر (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) وهذا موقوف وهو قوى جيد وقد روى مرفوعا قال أحمد حدثنا أسباط حدثنا الحسن بن عمرو القيسي عن أبي أمامة التيمي قال . قلت لابن عمر إنا نكرى فهل لنا من حج ؟ قال أليس تطوفون بالبيت وتأتون المعرف وترمون الجمار وتحلقون رءوسكم قال قلنا بلى فقال ابن عمر جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال « أتم حجاج » وقال عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن العلاء بن المسيب عن رجل من بني تميم قال . جاء رجل إلى عبد الله بن عمر فقال . يا أبا عبد الرحمن إنا قوم نكرى ويزعمون أنه ليس لنا حج قال ألسنم تحرمون كما يحرمون وتطوفون كما يطوفون وترمون كما يرمون قال . بلى قال فأنت حاج ثم قال ابن عمر . جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عما سألت عنه فنزلت هذه الآية (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) ورواه عبد ابن حميد في تفسيره عن عبد الرزاق به ، وهكذا روى هذا الحديث أبو حذيفة عن الثوري مرفوعا وهكذا روى من غير هذا الوجه مرفوعا فقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عباد بن العوام عن العلاء بن المسيب عن أبي أمامة التيمي قال قلت لابن عمر : إنا أناس نكرى في هذا الوجه إلى مكة وإن أناسا يزعمون أنه لا حج لنا فهل ترى لنا حجا ؟ قال ألسنم تحرمون وتطوفون بالبيت وتقضون للناسك قال : قلت بلى ، قال « فأتم حجاج » ثم قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألت فلم يدر ما يعود عليه أو قال . فلم يرد عليه شيئا حتى نزلت (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فدعا الرجل فتلاها عليه وقال « أتم حجاج » وكذا رواه مسعود بن سعد وعبد الواحد بن زياد وشريك القاضي عن العلاء بن المسيب به مرفوعا . وقال ابن جرير . حدثني طليق بن محمد الواسطي حدثنا أسباط هو ابن محمد أخبرنا الحسن بن عمر وهو القيسي عن أبي أمامة التيمي قال قلت لابن عمر إنا قوم نكرى فهل لنا من حج ؟ فقال : أليس تطوفون بالبيت وتأتون المعرف وترمون الجمار وتحلقون رءوسكم ؟ قلنا بلى ، قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه فلم يدر ما يقول له حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) إلى آخر الآية . وقال النبي ﷺ « أتم حجاج » وقال ابن جرير حدثني أحمد ابن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا غندر عن عبد الرحمن بن المهاجر عن أبي صالح مولى عمر قال . قلت يا أمير المؤمنين كنتم تتجرون في الحج ؟ قال . وهل كانت معاشهم إلا في الحج ؟

وقوله تعالى (فإذا أنقضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) إنما صرف عرفات وإن كان علما على مؤنث لأنه في الأصل جمع كسلمات ومؤمنات سمى به بقعة معينة فروعى فيه الأصل فصرف اختاره ابن جرير وعرفة موضع الوقوف في الحج وهي عمدة أفعال الحج ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السنن بإسناد صحيح عن الثوري عن بكير عن عطاء عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحج عرفات - ثلاثا - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك . وأيام منى ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه » ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر لأن النبي صلى الله عليه وسلم وقف

في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال : « لتأخذوا عني مناسككم » وقال في هذا الحديث « فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك » وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة واحتجوا بحديث الشعبي عن عروة بن مضر بن حارثة بن لام الطائي قال : أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت يا رسول الله إني جئت من جبل طيء أكلت راحلي وأعبت نفسي والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه فهل لي من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ « من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه » رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي ثم قيل إنما سميت عرفات لما رواه عبد الرزاق أخبرني ابن جريج قال : قال ابن المسيب قال علي بن أبي طالب بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم ﷺ فحج به حتى إذا أتى عرفة قال عرفت وكان قد أتتها مرة قبل ذلك فلذلك سميت عرفة وقال ابن المبارك عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء قال : إنما سميت عرفة أن جبريل كان يرى إبراهيم المناسك فيقول عرفت عرفت فسميت عرفات وروى نحوه عن ابن عباس وابن عمر وأبي مجلز فأنه أعلم وتسمى عرفات الشعر الحرام والشعر الأقصى وإلا على وزن هلال ويقال للجبل في وسطها جبل الرحمة قال أبو طالب في قصيدته المشهورة .

وبالشعر الأقصى إذا قصدوا له * إلا إلى تلك الشراج القوابل * وقال ابن أبي حاتم . حدثنا حماد بن الحسن بن عيينة حدثنا أبو عامر عن زمعة هو ابن صالح عن سامة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العمام على رؤوس الرجال دفعوا فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس ورواه ابن مردويه من حديث زمعة بن صالح وزاد ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغلس حتى إذا أسفر كل شيء وكان في الوقت الآخر دفع وهذا أحسن الإسناد وقال ابن جريج عن محمد ابن قيس عن الشور بن مخزومة قال . خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعد — وكان إذا خطب خطبة قال أما بعد — فان هذا اليوم الحج الأكبر ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمام الرجال في وجوهها وإنما ندفع بعد أن تغيب الشمس وكانوا يدفعون من الشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمام الرجال في وجوهها وإنما ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفاً هدينا هدى أهل الشرك » هكذا رواه ابن مردويه وهذا لفظه والحاكم في مستدركه كلاهما من حديث عبد الرحمن بن المبارك العيشي عن عبد الوارث بن سعيد عن ابن جريج وقال الحاكم . صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقد صح وثبت بما ذكرناه سماع السور من رسول الله ﷺ لا كما يتوهمه رعا أصحابنا أنه ممن له رؤية بلا سماع ، وقال وكيع عن شعبة عن إسماعيل بن رجاء الزبيدي عن العرور بن سويد قال . رأيت عمر رضي الله عنه حين دفع من عرفة كأنني أنظر إليه رجل أصلع على بعير له يوضع وهو يقول إنا وجدنا الإفاضة هي الإيضاح وفي حديث جابر بن عبد الله الطويل الذي في صحيح مسلم قال فيه — فلم يزل واقفا يعني بعرفة حتى غربت الشمس وبدت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه ودفع رسول الله ﷺ وقد شق للقواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى « أيها الناس السكينة السكينة » كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القواء حتى أتى الشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهله ووحده فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه سئل كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دفع ؟ قال . كان يسير العنق فإذا وجد فجوة نص . والعنق هو انبساط السير والنص فوقه وقال ابن أبي حاتم . أخبرنا أبو محمد بن بنت الشافعي فما كتب إلى عن أبيه أو عمه عن سفيان بن عيينة قوله (فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند الشعر الحرام) وهي الصلاتين^(١) جميعاً وقال أبو إسحق السبيعي عن عمرو بن ميمون سألت عبد الله بن عمرو عن الشعر الحرام فسكت حتى

(١) كذا في النسخين ولعل أصله جمع الصلاتين

إذا هبطت أيدي رواحلتنا بالمزدلفة قال . أين السائل عن الشعر الحرام ، هذا الشعر الحرام وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن سالم قال : قال ابن عمر . الشعر الحرام المزدلفة كلها وقال هشام عن حجاج عن نافع عن ابن عمر أنه سئل عن قوله (فاذكروا الله عند الشعر الحرام) قال : فقال هذا الجبل وما حوله وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن المغيرة عن إبراهيم قال رأيت بن عمر يزدهون على قرح فقال هل ما (١) يزدهم هؤلاء كل ما ههنا شعر وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي والريعي بن أنس والحسن وقتادة أنهم قالوا . هو ما بين الجبلين وقال ابن جريج . قلت لعطاء أين المزدلفة ؟ قال . إذا أفضت من مأذى عرفة فذلك إلى محسر قال وليس المأزمان مأزما عرفة من المزدلفة ولكن مفضاها قال . فقف بينهما إن شئت قال وأحب أن تقف دون قرح هلم إلينا من أجل طريق الناس (قلت) والمشاعر هي العالم الظاهرة وإنما سميت المزدلفة الشعر الحرام لأنها داخل الحرم وهل الوقوف بهاركن في الحج لا يصح إلا به كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعي منهم القفال وابن خزيمة لحديث عروة بن مضرس ! أو واجب كما هو أحد قولي الشافعي يجبر بدم ! أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر ؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء لبسطها موضع آخر غير هذا والله أعلم وقال عبد الله ابن المبارك عن سفيان الثوري عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عرفة كلها موقف وارفعوا عن عرفة وجمع كلها موقف إلا محسراً » هذا حديث مرسل وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا سعيد ابن عبد العزيز حدثني سليمان بن موسى عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ قال . « كل عرفات موقف وارفعوا عن عرفات وكل مزدلفة موقف وارفعوا عن محسر وكل فجاج مكة منحرك وكل أيام التشريق ذبح » وهذا أيضاً منقطع فان سليمان بن موسى هذا وهو الأشدق لم يدرك جبير بن مطعم ولكن رواه الوليد بن مسلم وسويد بن عبد العزيز عن سعيد بن عبد العزيز عن سليمان بن عبد العزيز عن جبير بن مطعم عن أبيه وقال سويد عن نافع بن جبير عن أبيه عن النبي ﷺ فذكره والله أعلم .

وقوله (واذكروه كما هداكم) تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) قيل من قبل هذا الهدى وقبل القرآن وقبل الرسول والكل متقارب ومتلازم وصحيح

﴿ ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

ثم ههنا لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة لينذر الله عند الشعر الحرام وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات كما كان جمهور الناس يصنعون يقفون بها إلا قريشاً فانهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل ويقولون نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته قال البخاري . حدثنا علي بن عبد الله حدثنا محمد بن حازم حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون المحس وسائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله (من حيث أفاض الناس) وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسدي وغيرهم واختاره ابن جرير وحكى عليه الاجماع . وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن عمرو عن مجاهد عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال أضللت بعيراً لي بعرفة فذهبت أطلبه فإذا النبي ﷺ واقف قلت إن هذا من المحس ما شأنه ههنا ! أخرجاه في الصحيحين ثم رواه البخاري من حديث موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار فله أعلم . وحكاه ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم فقط . قال والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام ، وفي رواية عند الإمام ، قال ابن جرير ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح وقوله (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ولهذا ثبت في صحيح

هكذا في النسخة الأميرية ولكن الفصيح حذف الف ما الاستفهامية إن جرت وأن تكتب هكذا (علام) اه

مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً وفي الصحيحين أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين . وقد روى ابن جرير ههنا حديث ابن عباس بن مرداس السلمي في استغفاره صلى الله عليه وسلم لأتمته عشية عرفة وقد أوردناه في جزء جمعناه في فضل يوم عرفة وأورد ابن مردويه ههنا الحديث الذي رواه البخاري عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ « سيد الاستغفار أن يقول العبد . اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة » وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن أبا بكر قال يا رسول الله علمني دعاء أدعوه به في صلاتي فقال « قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم » والأحاديث في الاستغفار كثيرة

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ * وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها وقوله (كذكركم آباءكم) اختلفوا في معناه فقال ابن جرير عن عطاء هو كقول الصبي أبيه أمه يعني كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه فكذلك أتم فالحجوا بذكر الله بعد قضاء النسك وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس ، وروى ابن جرير عن طريق العوفي عن ابن عباس نحوه . وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم كان أبي يطعم ويحمل الحملات ويحمل الديات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فأنزل الله على محمد ﷺ (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) قال ابن أبي حاتم : وروى السدي عن أنس بن مالك وأبي وائل وعطاء بن أبي رباح في أحد قوليه وسعيد بن جبير وعكرمة في أحد رواياته ومجاهد والسدي وعطاء الخراساني والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب ومقاتل ابن حيان نحو ذلك ، وهكذا حكاه ابن جرير عن جماعة والله أعلم . والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل ولهذا كان انتصاب قوله أو أشد ذكراً على التمييز تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً وأوهنا لتحقيق المائة في الخبر كقوله (فهي كاللحجارة أو أشد قسوة) وقوله (يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) (فأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) (فكان قاب قوسين أو أدنى) فليست ههنا للشك قطعاً وإنما هي لتحقيق الخبر عنه كذلك أو أزيد منه ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فانه مظنة الإجابة وذم من لا يسأله إلا في أمر دنياء وهو معرض عن أخراه فقال (فمن الناس من يقول ربنا آتينا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق) أي من نصيب ولا حظ وتضمن هذا الذم والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك قال سعيد بن جبير عن ابن عباس كان قوم من الأعراب يميثون إلى الموقف فيقولون اللهم اجعله عام غيث و عام خصب و عام ولاد حسن لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله فيهم (فمن الناس من يقول ربنا آتينا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق) وكان يحيى بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون (ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) فأنزل الله (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى فقال (ومنهم من يقول ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كل شر فان الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى من عافية ودار رجة وزوجة حسنة ورزق واسع وعلم نافع وعمل صالح ومركب هين وثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ولا منافاة بينها فانها كلها مندرجة

في الحسنة في الدنيا . وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام . وقال القاسم أبو عبد الرحمن : من أعطى قلباً شاكراً ولساناً ذا كرا وجسداً صابراً فقد أوتى في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقى عذاب النار . ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء . فقال البخارى : حدثنا معمر حدثنا عبد الوارث عن عبد العزيز عن أنس بن مالك قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وقال أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا عبد العزيز بن صهيب قال : سأل قتادة أنساً أي دعوة كان أكثر ما يدعوها النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول « اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه ورواه مسلم وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد السلام بن شداد يعنى أبا طالوت قال كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم ، فقال « اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وتحدثوا ساعة حتى إذا أرادوا القيام قال يا أبا حمزة : إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم فقال : أتريدون أن أشق لكم الأمور إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله وقال أحمد أيضاً حدثنا محمد بن أبي عدى عن حميد عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه ؟ قال نعم : كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لى في الدنيا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله لا تطيقه أولاً تستطيعه فهلا قلت (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) » قال فدعا الله فشفاه انفرده باخراجه مسلم فرواه من حديث ابن أبي عدى به . وقال الإمام الشافعى : أخبرنا سعيد بن سالم القداح عن ابن جريج عن يحيى بن عبيد مولى السائب عن أبيه عن عبد الله بن السائب أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين ركن بنى جمح والركن الأسود (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) ورواه الثورى عن ابن جريج كذلك وروى ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحو ذلك وفى سننه ضعف والله أعلم وقال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي أخبرنا أحمد بن القاسم بن مساور حدثنا سعيد بن سليمان عن عبد الله بن هرم عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مررت على الركن إلا رأيت عليه ملكاً يقول آمين فإذا مررت عليه فقولوا (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) » وقال الحاكم فى مستدركه حدثنا أبو زكريا العنبرى حدثنا محمد بن عبد السلام حدثنا إسحق بن إبراهيم أخبرنا جرير عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إني أجرت نفسى من قوم على أن يحملونى ووضعتم لهم من أجرى على أن يدعوني أحج معهم أفيجزى ذلك ؟ فقال أنت من الدين قال الله (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) ثم قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْمَلُوا لَكُمْ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ ﴾

قال ابن عباس : الأيام المعدادات أيام التشريق والأيام المعلومات أيام العشر وقال عكرمة (وادكروا الله في أيام معدودات) يعنى التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر الله أكبر . وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا موسى بن طلى عن أبيه قال . سمعت عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام وهى أيام أكل وشرب » وقال أحمد أيضاً . حدثنا هشام أخبرنا

خالد عن أبي الليخ عن نبشة الهذلي قال : قال رسول الله ﷺ « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله » ورواه مسلم أيضا وتقدم حديث جبير بن مطعم « عرفة كلها موقف وأيام التشريق كلها ذبح » وتقدم أيضا حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي « وأيام منى ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه » وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم وخلاص بن أسلم قالوا حدثنا هشام عن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « أيام التشريق أيام طعم وذكر الله » وحدثنا خالد بن أسلم حدثنا روح حدثنا صالح حدثني ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة يطوف في منى « لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل » وحدثنا يعقوب حدثنا هشام عن سفيان بن حسين عن الزهري قال بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة فتداى في أيام التشريق فقال « إن هذه أيام أكل وشرب وذكر الله إلا من كان عليه صوم من هدى » زيادة حسنة ولكن مرسله . وبه قال هشام عن عبد الملك ابن أبي سليمان عن عمرو بن دينار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بشر بن سحيم فتداى في أيام التشريق فقال « إن هذه أيام أكل وشرب وذكر الله » وقال هشيم عن ابن أبي ليلى عن عطاء عن عائشة قالت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم أيام التشريق قال « وهى أيام أكل وشرب وذكر الله » وقال محمد بن إسحق عن حكيم بن حكيم عن مسعود بن الحكم الزرقى عن أمه قالت : لكانى أنظر إلى على بن بقلعة رسول الله ﷺ البيضاء حتى وقف على شعب الأنصار وهو يقول : يا أيها الناس إنها ليست بأيام صيام إنما هى أيام أكل وشرب وذكر الله . وقال مقسم عن ابن عباس . الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام يوم النحر وثلاثة بعده ، وروى عن ابن عمر وابن الزبير وأبي موسى وعطاء ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي مالك وإبراهيم النخعي ويحيى ابن أبي كثير والحسن وقتادة والسدى والزهري والربيع بن أنس والضحاك ومقاتل بن حيان وعطاء الخراساني ومالك بن أنس وغيرهم مثل ذلك ، وقال على بن أبي طالب هى ثلاثة يوم النحر ويومان بعده اذبح في أيمن شئت وأفضلها أولها والقول الأول هو المشهور وعليه دل ظاهر الآية الكريمة حيث قال (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه) فدل على ثلاثة بعد النحر ويتعلق بقوله (واذكروا الله في أيام معدودات) ذكر الله على الأضاحى وقد تقدم أن الراجح في ذلك مذهب الشافعي رحمه الله وهو أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق ، ويتعلق به أيضا الذكر المؤقت خلف الصلوات والمطلق في سائر الأحوال وفي وقته أقوال للعلماء أشهرها الذى عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق وهو آخر النفر الآخر وقد جاء فيه حديث رواه الدارقطني ولكن لا يصح مرفوعا والله أعلم . وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يكبر في قبته فيكبر أهل السوق بتكبيره حتى ترجع منى تكبيرا ويتعلق بذلك أيضا التكبير وذكر الله عند رمى الجمرات كل يوم من أيام التشريق وقد جاء في الحديث الذى رواه أبو داود وغيره إنما جعل الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله عز وجل . ولما ذكر الله تعالى النفر الأول والثاني وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف قال (واتقوا الله واعلموا أنكم اليه تحشرون) كما قال (وهو الذى ذرأكم في الأرض واليه تحشرون) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ * وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلَهَآءُ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾

قال السدى : نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهر الإسلام وفي بطنه

خلاف ذلك وعن ابن عباس أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خيب وأصحابه (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله) وقيل بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد وهو الصحيح : وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن القرظي عن نوف وهو البكالي وكان ممن يقرأ الكتب قال إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل : قوم يختالون على الدنيا بالدين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، يلبسون للناس مسوك الضأن ، وقلوبهم قلوب الدئاب ، يقول الله تعالى : فلي تجترثون وبى يغترون حلفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران ، قال القرظي تدبرتها في القرآن فاذا هم المنافقون فوجدتها (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه) الآية وحدثني محمد بن أبي معشر أخبرني أبو معشر نجيح قال سمعت سعيدا المقبري يذكر محمد بن كعب القرظي فقال سعيد إن في بعض الكتب . إن عبادا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر لبسوا للناس مسوك الضأن من الذين ، يجترثون الدنيا بالدين قال الله تعالى : على تجترثون وبى تغترون ؟ وعزى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران فقال محمد بن كعب هذا في كتاب الله فقال سعيد وأين هو من كتاب الله قال قول الله (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) الآية فقال سعيد . قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية فقال محمد بن كعب إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح . وأما قوله (ويشهد الله على ما في قلبه) فقرأه ابن محيصن (ويشهد الله) بفتح الياء وضم الجلالة (على ما في قلبه) ومعناها أن هذا وإن أظهر لكم الحيل لكن الله يعلم من قلبه القبيح كقوله تعالى (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وقراءة الجمهور بضم الياء ونصب الجلالة (ويشهد الله على ما في قلبه) ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام وبيارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالى (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله) الآية هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وقيل معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم أن الذي في قلبه موافق للسانه وهذا المعنى صحيح ، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وعزه إلى ابن عباس وحكاه عن مجاهد والله أعلم .

وقوله (وهو ألد الخصم) ألد في اللغة الأعوج (وتنذر به قوما لذا) أى عوجا وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه بل يفترى ويفجر كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» وقال البخارى . حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن عائشة ترفعه . قال . «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» قال : وقال عبد الله بن يزيد حدثنا سفيان حدثنا ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» وهكذا رواه عبد الرزاق عن معمر في قوله (وهو ألد الخصم) عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن عائشة عن النبي ﷺ قال «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»

وقوله (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) أى هو أعوج القتال سوء الفعل فذلك قوله وهذا فعله ، كلامه كذب ، واعتقاده فاسد ، وأفعاله قبيحة ، والسعى هنا هو القصد كما قال إخبارا عن فرعون (ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذته الله نكال الآخرة والأولى ، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) أى اقصدا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة فإن السعى الحسى إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية «إذا أتيتهم الصلاة فلا تأتوها وأتتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة والوقار» فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض وإهلاك الحرث وهو محل نماء الزروع والثمار والنسل وهو تاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما . وقال مجاهد إذا

سعى في الأرض لإفساداً منع الله القطر فهلك الحرث والنسل (والله لا يحب الفساد) أى لا يحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك

وقوله (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) أى إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله وقيل له اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم أى بسبب ما اشتمل عليه من الآثام وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يستطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعددها الله الذين كفروا وبئس المصير) ولهذا قال في هذه الآية (فحسبه جهنم ولبئس المهاد) أى هي كافيته عقوبة في ذلك .

وقوله (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الدنيمة ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) قال ابن عباس وأنس وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي وعكرمة وجماعة نزلت في صهيب بن سنان الرومي وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل فتخلص منهم وأعطاهم ماله فأنزل الله فيه هذه الآية فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له ربح البيع فقال وأتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « ربح البيع صهيب » قال ابن مردويه حدثنا محمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الله بن رسته حدثنا سليمان بن داود حدثنا جعفر بن سليمان الضبي حدثنا عوف عن أبي عثمان النهدي عن صهيب قال لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك وتخرج أنت ومالك والله لا يكون ذلك أبداً فقلت لهم أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا نعم ، فدفعت إليهم مالي فخلوا عني فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال « ربح صهيب ربح صهيب » مرتين وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي ﷺ فاتبعه نفر من قريش فنزل عن راحلته وأثقل ما في كنفاته ثم قال يا معشر قريش قد علمتم أني من أركم رجلاً وأتم والله لا تصلون إلى حتى أرمى بكل سهم في كنفاتي ثم أضرب بسيفي ما بقى في يدي منه شيء ثم افعلوا ما شئتم وإن شئتم ذلكم علي مالي وقيق بمكة وخليم سبيلي قالوا نعم فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قال « ربح البيع » قال ونزلت (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد) وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله كما قال تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) ولما حمل هشام بن عامر بين الصنفين أنكروا عليه بعض الناس فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرها وتلوا هذه الآية (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

يقول الله تعالى آمروا عباده المؤمنين به الصديقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الاسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك . قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد وطاوس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد في قوله (ادخلوا في السلم) يعني الاسلام وقال الضحاك عن ابن عباس وأبو العالية والربيع بن أنس (ادخلوا في السلم) يعني الطاعة . وقال قتادة أيضاً الوادعة وقوله (كافة) قال ابن عباس ومجاهد

وأبو العالية وعكرمة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وقتادة والضحاك جميعا ، وقال مجاهد أى اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر .

وزعم عكرمة أنها نزلت في نفر ممن أسلم من اليهود وغيرهم كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة وطائفة استأذنوا رسول الله ﷺ في أن يسبتوا وأن يقوموا بالتوراة ليلا فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والاشتغال بها عما عداها وفي ذكر عبد الله بن سلام مع هؤلاء نظر إذ يبعد أن يستأذن في إقامة السبت وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسجه ورفع وبطلانه والتعويض عنه بأعياد الاسلام .

ومن المفسرين من يجعل قوله (كافة) حالا من الداخلين أى ادخلوا في الاسلام كلكم والصحيح الأول وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الاسلام وهى كثيرة جدا ما استطاعوا منها كما قال ابن أبى حاتم أخبرنا طى بن الحسين أخبرنا أحمد بن الصباح أخبرني الهيثم بن يمان حدثنا إسمايل بن زكريا حدثني محمد بن عون عن عكرمة عن ابن عباس (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) كذا قرأها بالنصب يعنى مؤمنى أهل الكتاب فانهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع التى أنزلت فيهم فقال الله (ادخلوا في السلم كافة) يقول ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعوا منها شيئا وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها . وقوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى اعملوا بالطاعات واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ف(إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) ، و(إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) ، ولهذا قال (إنه لكم عدو مبين) : قال مطرف : أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان ؟ وقوله (فإن زلتم من بعد ما جاءكم البينات) أى عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج فاعلموا أن الله عزيز أى في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب حكيم في أحكامه وتقضيه وإبرامه ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس . عزيز في نعمته حكيم في أمره وقال محمد بن إسحق : العزيز في نصره ممن كفر به إذا شاء الحكيم في عذره وحبته إلى عباده .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

يقول تعالى مهددا للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) يعنى يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين فيجزى كل عامل بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ولهذا قال تعالى (وقضى الأمر إلى الله ترجع الأمور) كما قال الله تعالى (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا * وجاء ربك والملك صفا صفا * وجاء يومئذ بيهم يومئذ يندكر الإنسان وأنى له الذكرى) وقال (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك) الآية . وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ههنا حديث الصور بطوله من أوله عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب السانيد وغيرهم وفيه - أن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحدا واحدا من آدم فمن بعده فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فاذا جاءوا إليه قال « أنا لها أنا لها » فيذهب فيسجد لله تحت العرش ويشفع عند الله في أن يأتى لفصل القضاء بين العباد فيشفعه الله ويأتى في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة ثم الثانية ثم الثالثة إلى السابعة وينزل حملة العرش والكروبيون قال وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة ولهم زجل من تسييحهم يقولون : سبحان ذى الملك والملكوت سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يمتد الخلاق ولا يموت ، سبحان قدوس رب الملائكة والروح ، سبحان قدوس سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذى السلطان والعظمة سبحانه سبحانه أبدا أبدا . وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه ههنا أحاديث فيها غرابة والله أعلم . فمنها ما رواه من حديث المنهال بن عمرو عن أبى عبيدة بن عبد الله بن ميسرة عن مسروق عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يجمع الله الأولين

والآخرين لميقات يوم معلوم قياما شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا أبو بكر بن عطاء بن مقدم حدثنا معتمر بن سليمان سمعت عبد الجليل القيسي يحدث عن عبد الله بن عمرو (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام) الآية . قال يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة والماء فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتا تنخلع له القلوب . قال : وحدثنا أبي حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي حدثنا الوليد قال . سألت زهير بن محمد عن قول الله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام) قال . ظلل من الغمام منظوم من الياقوت مكلل بالجوهر والزبرجد وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد في ظلل من الغمام قال . هو غير السحاب ولم يكن قط إلا لبني إسرائيل في تيههم حين تاهوا وقال : أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية . (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) يقول والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام والله تعالى يحيى فيها يشاء وهي في بعض القراءات (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام) وهي كقوله (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا)

﴿ سَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ * زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل كم شاهدوا مع موسى من آية بينة أي حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به كيدهم وعصاه وقلقه البحر وضربه الحجر وما كان من تضليل الغمام عليهم في شدة الحر ومن إنزال المن والسلوى وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه ومع هذا أعرض كثير منهم عنها وبدلوا نعمة الله كفرأ أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والاعراض عنها (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب) كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرأ وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار) ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها واطمأنوا إليها وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها بما يرضى الله عنهم وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها وأتقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم وبدلوه ابتغاء وجه الله فلهمنا فازوا بالمقام الأسعد والخط الأوفر يوم معادهم فكانوا فوق أولئك في عشرهم ومنشرهم ومسيرهم وأمواهم فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين ؟ ولهذا قال تعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب) أي يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة كما جاء في الحديث « ابن آدم أنفق أنفق عليك » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « أنفق بلا ولا تحش من ذي العرش إقلالا » وقال تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) وفي الصحيح « أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » وفي الصحيح « يقول ابن آدم . مالي مالي . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت وما لبست فأبليت وما تصدقت فأمضيت وما سوى ذلك فذهاب وتاركة للناس » وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال « الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له »

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ

«أَمِنُوا لِمَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»

قال ابن جرير . حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود أخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين قال . وكذلك هي في قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا) ورواه الحاكم في مستدرّكه من حديث بندار عن محمد بن بشار ثم قال . صحيح الإسناد ولم يخرجاه وكذا روى أبو جعفر الرازي عن أبي العالية عن أبي بن كعب أنه كان يقرأها (كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة في قوله (كان الناس أمة واحدة) قال . كانوا على الهدى جميعاً (فاختلفوا فبعث الله النبيين) فكان أول من بعث نوحاً . وهكذا قال مجاهد كما قال ابن عباس أولاً . وقال العوفي عن ابن عباس (كان الناس أمة واحدة) يقول . كانوا كفاراً (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ،

ولهذا قال تعالى (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم) أي من بعد ما قامت الحجج عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن سليمان الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة في قوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) الآية قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة نحن أول الناس دخولاً الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيتنا من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع فعداً لليهود وبعد غداً للنصارى » ثم رواه عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة . وقال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه في قوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) فاختلّفوا في يوم الجمعة فأتخذوا اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد فهدى الله أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ليوم الجمعة واختلفوا في القبلة فاستقبلت النصارى المشرق واليهود بيت المقدس فهدى الله أمة محمد للقبلة واختلفوا في الصلاة فمنهم من يركع ولا يسجد ومنهم من يسجد ولا يركع ومنهم من يصلي وهو يتكلم ومنهم من يصلي وهو يمشي فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك واختلفوا في الصيام فمنهم من يصوم بعض النهار ومنهم من يصوم عن بعض الطعام فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك . واختلفوا في إبراهيم عليه السلام فقالت اليهود كان يهودياً وقالت النصارى كان نصرانياً وجعله الله حنيفاً مسلماً فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك . واختلفوا في عيسى عليه السلام فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً وجعلته النصارى إلهاً ولداً وجعله الله روحه وكلمته فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للحق من ذلك وقال الربيع بن أنس في قوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) أي عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف فأقاموا على الإخلاص لله عز وجل وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف واعتزلوا الاختلاف وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم قد بلغوهم وأنهم قد كذبوا رسلهم وفي قراءة أبي بن كعب وليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وكان أبو العالية يقول في هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن

وقوله (بإذنه) أي بعلمه بهم وبما هداهم له قاله ابن جرير (والله يهدي من يشاء) أي من خلقه (إلى صراط مستقيم) أي وله الحكمة والحجة البالغة وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قام من الليل يصلي يقول . « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة

أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق يا ذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » وفي الدعاء المأثور « اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبساً علينا فنفضل واجعلنا للمتقين إماما »

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

يقول تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا كما فعل بالدين من قبلكم من الأمم ولهذا قال (ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البساء والضراء) وهى الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب . قال ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير ومرة المحدثان والحسن وقتادة والضحاك والربيع والسدى ومقاتل بن حيان (البساء) الفقر (والضراء) السقم (وزلزلوا) خوفوا من الأعداء زلزالا شديداً وامتحنوا امتحاناً عظيماً كما جاء فى الحديث الصحيح عن خباب بن الارت قال : قلنا يا رسول الله ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا فقال « إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع الميشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه » ثم قال « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون » وقال الله تعالى (ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضى الله تعالى عنهم فى يوم الأحزاب كما قال الله تعالى (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً * وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) الآيات . ولما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه قال : نعم . قال فكيف كانت الحرب بينكم ؟ قال سجلاً يبدل علينا ونдал عليه قال : كذلك الرسل تبلى ثم تكون لها العاقبة . وقوله (مثل الذين خلوا من قبلكم) أى ستهم كما قال تعالى (فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين) وقوله (وزلزلوا حتى يقول الرسل والذين آمنوا معه متى نصر الله) أى يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة ، قال الله تعالى (ألا إن نصر الله قريب) كما قال (فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً) وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها ولهذا قال (ألا إن نصر الله قريب) وفى حديث أبى رزین « عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيثة فينظر إليهم قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجهم قريب » الحديث

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآقَرِ بَيْنَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

قال مقاتل بن حيان : هذه الآية فى نفقة التطوع . وقال السدى : نسخها الزكاة وفيه نظر ومعنى الآية . يسألونك كيف ينفقون ؟ قاله ابن عباس ومجاهد فبين لهم تعالى ذلك فقال (قل ما أنفقتم من خير فلولو الدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) أى اصرفوها فى هذه الوجوه . كما جاء الحديث « أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك » وتلاميذ بن مهران هذه الآية ثم قال . هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبعاً ولا مزمراً ولا تصاور الحشب ولا كسوة الشيطان . ثم قال تعالى (وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) أى مهما صدر منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام وقال الزهري : الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعدا لقاعد عليه إذا استعين أن يعين وإذا استغيث أن يغيث وإذا استنفر أن ينصر وإن لم يحتج إليه قعد (قلت) ولهذا ثبت في الصحيح « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية » وقال عليه السلام يوم الفتح « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا » وقوله (وهو كره لكم) أى شديد عليكم ومشقة وهو كذلك فإنه إما أن يقتل أو يخرج مع مشقة السفر ومجالة الأعداء . ثم قال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) أى لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذرائعهم وأولادهم (وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) وهذا عام في الأمور كلها قد يحب المرء شيئا وليس له فيه خيرة ولا مصلحة ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم . ثم قال تعالى (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) أى هو أعلم بعواقب الأمور منكم وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا محمد بن أبي بكر القدي حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه حدثني الحضرمي عن أبي السوار عن جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث رهطا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح فلما ذهب ينطلق بكى صباة إلى رسول الله ﷺ فحبسه فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش وكتب له كتابا وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال « لا تكرهن أحدا على السير معك من أصحابك » فلما قرأ الكتاب استرجع وقال : مما وطاعة لله ولرسوله فخيرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب فرجع رجلان وبقي بقيتهم فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام فأنزل الله (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) الآية : وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) الآية . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم عبد الله بن جحش الأسدي وفيهم عمار بن ياسر وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان السلمي حليف لبني نوفل وسهيل بن أبيه وعامر بن فهيرة وواقد بن عبد الله البربوعي حليف لعمر بن الخطاب وكتب لابن جحش كتابا وأمره أن لا يقرأه حتى ينزل بطن نخلة فلما نزل بطن نخلة قال الكتاب فاذا فيه « أن سر حتى تنزل بطن نخلة » فقال لأصحابه من كان يريد الموت فليعض وليوص فأنى موسى وماض لأمر رسول الله ﷺ فسار فتخلف عنه سعد بن أبي وقاص وعتبة أصلا راحلة لهما فتخلفا يطلبانها وسار ابن جحش إلى بطن نخلة فاذا هو بالحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن

الغيرة وانفلت وقتل عمرو قتله واقد بن عمد الله فكانت أولى غنمة غنمها أصحاب رسول الله ﷺ فلما رجعوا إلى المدينة بأسيرين وما أصابوا من المال أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين عليه المشركون (١) وقالوا إن محمداً زعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب فقال المسلمون إنما قتلناه في جمادى وقتل في أول ليلة من رجب وآخر ليلة من جمادى وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب وأنزل الله يعير أهل مكة (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) لا يحل وما صنعتم أتم يامعشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عن محمد ﷺ وأصحابه وإخراج أهل المسجد الحرام منه حين أخرجوا محمداً ﷺ وأصحابه أكبر من القتل عند الله .

وقال العوفي عن ابن عباس (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) وذلك أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وردوه عن المسجد في شهر حرام قال ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل فعاب المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم القتال في شهر حرام فقال الله (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله) من القتال فيه وأن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث سرية فلقنوا عمرو بن الحضرمي وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى وأول ليلة من رجب وأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى وكانت أول رجب ولم يشعروا فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه وأن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك فقال الله تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه) إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذي أصاب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والشرك أشد منه وهكذا روى أبو سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس أنها نزلت في سرية عبد الله بن جحش وقتل عمرو ابن الحضرمي وقال محمد بن إسحق حدثني محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال نزل فيما كان من مصاب عمرو بن الحضرمي (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) إلى آخر الآية وقال عبد الملك بن هشام راوى السيرة عن زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحق بن يسار المدني رحمه الله في كتاب السيرة له أنه قال وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش بن رباب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي كما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين ثم من بني عبد شمس بن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ومن خلفائهم عبد الله بن جحش وهو أمير القوم وعكاشة بن محسن أحد بني أسد بن خزيمه حليف لهم ومن بني نوفل بن عبد مناف عتبة بن غزوان بن جابر حليف لهم ومن بني زهرة ابن كلاب سعد بن أبي وقاص ومن بني كعب عدى بن عامر بن ربيعة حليف لهم من غير ابن وائل وواقد بن عبد الله ابن عبد مناف بن عرس بن ثعلبة بن يربوع أحد بني تميم حليف لهم وخالد بن البكير أحد بني سعد بن ليث حليف لهم ومن بني الحارث بن فهر سهيل بن يضاء فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فإذا فيه . إذا نظرت في كتابي في هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم فلما نظر عبد الله بن جحش الكتاب قال . سمعنا وطاعة ثم قال لأصحابه . قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أمضي إلى نخلة أُرصد بها قريشا حتى آتية منهم بخبر وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد فسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له بجران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا عليه في طلبه ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة فمرت به غير لقريش تحمل زيتاً وأدما وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي واسم الحضرمي عبد الله بن عباد أحد الصدق وعثمان بن عبد الله بن الغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله الخزوميان والحكم بن كيسان مولى هشام بن الغيرة فلما رأهم القوم هابوهم وقعد نزلوا

(١) قوله أن يفادوا الأسيرين عليه المشركون كذا بالنسخ التي بأيدينا وفيه سقط بين الأسيرين وبين عليه الخ يعلم من سياق القصة فليحذر .

قريبا منهم فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه فلما رأوه آمنوا وقالوا : عمار لا بأس عليكم منهم وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من رجب فقال القوم والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام فتردد القوم وهابوا الاقدام عليهم ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة قال ابن إسحاق : وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من الغنائم فعزل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خمس العير وقسم سائرهما بين أصحابه قال ابن إسحاق : فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا وغنمهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال ، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان وقالت اليهود تفاءلوا بذلك على رسول الله ﷺ عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله . عمرو ، عمرت الحرب ، والحضرمي حضرت الحرب ، واقد بن عبد الله وقدت الحرب ، فجعل الله عليهم ذلك لآلهم فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسول الله ﷺ (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأثم أهله (أكبر عند الله) من قتل من قتلتم منهم (والفتنة أكبر من القتل) أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه فذلك أكبر عند الله من القتل (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) أي ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين قال ابن إسحاق : فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العير والأسيرين وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان فقال رسول الله ﷺ « لا تغديكموها حتى يقدم صاحبانا » يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان فانا نخشاكم عليهما فإن قتلوهما تقتل صاحبكم فقدم سعد وعتبة ففداهما رسول الله ﷺ منهم فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بدر معونة شهيدا وأما عثمان بن عبد الله فلقى بمكة فمات بها كافرا قال ابن إسحاق . فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله عز وجل (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) فوضع الله من ذلك على أعظم الرجاء قال ابن إسحاق . والحديث في هذا عن الزهري ويزيد بن رومان عن عروة وقد روى يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق وروى موسى بن عقبة عن الزهري نفسه نحو ذلك وروى شعيب بن أبي حمزة عن الزهري عن عروة بن الزبير نحو ما من هذا أيضا وفيه فكان ابن الحضرمي أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين فركب وفد من كفار قريش حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا . أيحل القتال في الشهر الحرام ؟ فأنزل الله (يسألونك عن الشهر الحرام) الآية وقد استقصى ذلك الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة ثم قال ابن هشام عن زياد عن ابن إسحاق وقد ذكر عن بعض آل عبد الله أن عبد الله قسم النخيل بين أهله فجعل أربعة أخماسه لمن أفاءه وخمسا إلى الله ورسوله فوقع على ما كان عبد الله ابن جحش صنع في تلك العير قال ابن هشام . وهي أول غنيمة غنمها المسلمون وعمرو بن الحضرمي أول من قتل المسلمون وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون قال ابن إسحاق : فقال أبو بكر الصديق

رضي الله عنه في غزوة عبد الله بن جحش ويقال بل عبد الله بن جحش قالها حين قالت قريش قد أحل محمد وأصحابه العهر الحرام فسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه المال وأسروا فيه الرجال قال ابن هشام : هي لعبد الله بن جحش .

تعدون قتلا في الحرام عظيمة * وأعظم منه لو يرى الرشد راشد * صدودكم عما يقول محمد وكفر به والله راء وشاهد * وإخراجكم من مسجد الله أهله * لئلا يرى الله في البيت ساجد فانا وإن غيرتمونا بقتله * وأرجف بالاسلام باغ وحاسد * سقينامن ابن الحضرمي رماحنا بنخلة لما أوقد الحرب واقد * دما وابن عبد الله عثمان بيننا * ينازعه غل من القيد عائد

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمْتَنِي قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن أبي ميسرة عن عمر أنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت هذه الآية التي في البقرة (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأتم سكارى) فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقرب الصلاة سكران فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في المائدة فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ (فهل أتم منتهون ؟) قال عمر اتبهينا اتبهينا . وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن إسرائيل عن أبي إسحق وكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق الثوري عن أبي إسحق عن أبي ميسرة وإمامه عمرو ابن شرجيل الحمداي الكوفي عن عمر وليس له عنه سواه لكن قد قال أبو زرعة لم يسمع منه والله أعلم . وقال علي ابن المديني هذا إسناد صالح صحيح وصححه الترمذي وزاد ابن أبي حاتم بعد قوله اتبهينا إنها تذهب المال وتذهب العقل ، وسيأتي هذا الحديث أيضا مع ما رواه أحمد من طريق أبي هريرة أيضا عند قوله في سورة المائدة (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) الآيات فقوله (يسألونك عن الخمر والميسر) أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كل ما خامر العقل كما سيأتي بيانه في سورة المائدة وكذا الميسر وهو القمار

وقوله (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) أما إثمهما ففي الدين وأما المنافع فدنوية من حيث إن فيها نفع البدن وتهضم الطعام وإخراج الفضلات وتشحيد بعض الأذهان ولذة الشدة المطربة التي فيها كما قال حسان بن ثابت في جاهليته ونشرها فتركنا ملوكا * وأسدا لا ينهنا اللقاء

وكذا بيعها والاتفاف بغيرها وما كان يغمسه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة لتعلقها بالعقل والدين ولهذا قال الله تعالى (وإثمها أكبر من نفعها) ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات ولم تكن مصرحة بل معرضة ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما قرئت عليه : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أتم منتهون) وسيأتي الكلام على ذلك في سورة المائدة

إن شاء الله تعالى وبه الثقة قال ابن عمر والشعبي ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم إن هذه أول آية نزلت في الحمر (يسألونك عن الحمر والميسر قل فيها إثم كبير) ثم نزلت الآية التي في سورة النساء ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الحمر.

وقوله (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) قرئ بالنصب وبالرفع وكلاهما حسن متجه قريب قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبان حدثنا يحيى أنه بلغه أن معاذ بن جبل وثعلبة أتيا رسول الله ﷺ فقالا يا رسول الله إن لنا أرقاء وأهلين من أموالنا فأنزل الله (ويسألونك ماذا ينفقون) وقال الحكم عن مقسم عن ابن عباس (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) قال ما يفضل عن أهللك وكذا روى عن ابن عمر ومجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والقاسم وسالم وعطاء الخراساني والربيع بن أنس وغير واحد أنهم قالوا في قوله (قل العفو) يعنى الفضل وعن طاوس اليسير من كل شيء وعن الربيع أيضا أفضل مالك وأطيبه والكل يرجع إلى الفضل. وقال عبد بن حميد في تفسيره. حدثنا هوزة بن خليفة عن عوف عن الحسن في الآية (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) قال ذلك ألا يجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس ويدل على ذلك ما رواه ابن جرير حدثنا علي بن مسلم حدثنا أبو عاصم عن ابن عجلان عن المقبري عن أبي هريرة قال: قال رجل يا رسول الله عندي دينار قال «أنفقه على نفسك» قال: عندي آخر قال «أنفقه على أهللك» قال عندي آخر قال «أنفقه على ولدك» قال: عندي آخر قال «فأنت أبصر» وقد رواه مسلم في صحيحه وأخرجه مسلم أيضا عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لرجل «ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلاهلك فإن فضل شيء عن أهللك فلذی قرابتك فإن فضل عن ذی قرابتك شيء فهكذا وهكذا» وعنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول» وفي الحديث أيضا «ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف» ثم قد قيل إنها منسوخة بآية الزكاة كما رواه علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس وقالة عطاء الخراساني والسدي وقيل مبنية بآية الزكاة قاله مجاهد وغيره وهو أوجه.

وقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) أي كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيده لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة. قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس يعنى في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقيائها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا علي ابن محمد الطنافسي حدثنا أبو أسامة عن الصعق التميمي قال شهدت الحسن وقرأ هذه الآية من البقرة (لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) قال هي والله لمن تفكر فيها ليعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء، وليعلم أن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء وهكذا قال قتادة وابن جريج وغيرهما. وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة. لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا. وفي رواية عن قتادة فأثروا الآخرة على الأولى.

وقوله (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعتكم) الآية. قال ابن جرير. حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) (وإن الدين يا كلون أموال اليتامى ظلما إنميا كلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) انطلق من كان عنده يقيم فعزل طعامه من طعامه وشرا به من شرا به فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم) فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرا بهم بشراهم. وهكذا رواه أبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه من طرق عن عطاء بن السائب به. وكذا رواه علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وكذا رواه السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود بمثله وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد وعطاء والشعبي وابن أبي ليلي وقتادة وغير واحد من

السلف والخلف قال وكيع بن الجراح : حدثنا هشام صاحب الدستوائى عن حماد عن إبراهيم قال : قالت عائشة رضى الله عنها إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندى على حدة حتى أخلط طعامه بطعامى وشرا به بشرابى فقلوه (قل إصلاح لهم خير) أى على حدة (وإن تخالطوهم فأخوانكم) أى وأن خلطتم طعامكم بطعامهم وشربكم بشرابهم فلا بأس عليكم لأنهم إخوانكم فى الدين ولهذا قال (والله يعلم الفساد من الإصلاح) أى يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح وقوله (ولو شاء الله لأعتنكم إن الله عزيز حكيم) أى ولو شاء الله لضيق عليكم وأخرجكم ولكنه وسع عليكم وخفف عنكم وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن قال تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) بل جوز الأكل منه للفقير المعروف إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر أو مجاناً كما سيأتى بيانه فى سورة النساء إن شاء الله وبه الثقة

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَا أَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا أُعْجَبُكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان ثم إن كان عمومها مراداً وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب وهكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومكحول والحسن والضحاك وزيد بن أسلم والريبع بن أنس وغيرهم وقيل : بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان ولم يرد أهل الكتاب بالكلية والمعنى قريب من الأول والله أعلم . فأما ما رواه ابن جرير حدثنى عبيد بن آدم بن أبى إياس العسقلانى حدثنا أبى حدثنى عبد الحميد بن بهرام الفزارى حدثنا شهر بن حوشب قال سمعت عبد الله بن عباس يقول نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات وحرّم كل ذات دين غير الإسلام . قال الله عز وجل (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله) وقد نكح طلحة بن عبد الله يهودية ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية فغضب عمر بن الخطاب غضباً شديداً حتى هم أن يسطو عليهما فقالا : نحن نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب فقال : لأن حل طلاقهن لقد حل نكاحهن ولكنى أتزعمن منكم صغرة قامة — فهو حديث غريب جداً وهذا الأثر غريب عن عمر أيضاً ، قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس فى المسلمات أو لغير ذلك من المعانى كما حدثنا أبو كريب حدثنا ابن إدريس حدثنا الصلت بن بهرام عن شقيق قال تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر . خل سبيلها ، فكتب إليه أنزعم أنها حرام فأخلى سبيلها ؟ فقال . لا أزعم أنها حرام ولكنى أخاف أن تعاطوا المؤمنات منهن (١) وهذا إسناد صحيح وروى الحلال عن محمد بن إسماعيل عن وكيع عن الصلت نحوه . وقال ابن جرير حدثنى موسى بن عبد الرحمن السروقي حدثنا محمد بن بشر حدثنا سفيان بن سعيد عن يزيد بن أبى زياد عن زيد بن وهب قال . قال عمر بن الخطاب : المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصرانى المسلمة قال : وهذا أصح إسناد من الأول ثم قال : وقد حدثنا تميم بن المنتصر أخبرنا إسحق الأزرقى عن شريك عن أشعث بن سوار عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « تزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجن نساءنا » ثم قال وهذا الخبر وإن كان فى إسناده ما فيه فالقول به لا جماع الجميع من الأمة عليه كذا قال ابن جرير رحمه الله وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا وكيع عن جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران عن

(١) كذا فى النسخ التى بأيدينا فحرر الرواية اهـ

ابن عمر أنه كره نكاح أهل الكتاب وتأول (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) وقال البخاري : وقال ابن عمر لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول : ربها عيسى وقال أبو بكر الحنبل حدثنا محمد بن هرون حدثنا إسحق ابن إبراهيم ح وأخبرني محمد بن علي حدثنا صالح بن أحمد أنهما سألا أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن قول الله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) قال مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام . وقوله (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) قال السدي : نزلت في عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها فاطمها ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرها فقال له « ما هي ؟ » قال تصوم وتصل وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله فقال « يا أبا عبد الله هذه مؤمنة » فقال والذي بعثك بالحق لأعتقها ولأنزوجنها ، ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا نكح أمته وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم فأنزل الله (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) وقال عبد بن حميد حدثنا جعفر بن عون حدثنا عبد الرحمن بن زياد الأفرقي عن عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال « لا تنكحوا النساء الحسنهن ففسى حسنهن أن يردهن ولا تنكحوهن على أموالهن ففسى أموالهن أن تطعنهن وانكحوهن على الدين فلأمة سوداء جرداء ذات دين أفضل » والإفرقي ضعيف وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « تنكح المرأة لأربع . لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » ولمسلم عن جابر مثله وله عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » وقوله (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) أي لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات كما قال تعالى (لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن) ثم قال تعالى (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) أي ولرجل مؤمن ولو كان عبدا حبشيا خير من مشرك ، وإن كان رئيسا سوريا (أولئك يدعون إلى النار) أي معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة وعاقبة ذلك وخيمة (والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه) أي بشرعه وما أمر به وما نهى عنه (ويبين الله آياته للناس لعلهم يتذكرون)

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعِزُّوا لِنِسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوْنَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها في البيوت (١) فسأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعزوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن) حتى فرغ من الآية فقال رسول الله ﷺ « اصنعوا كل شيء إلا النكاح » فبلغ ذلك اليهود فقالوا . ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا يا رسول الله إن اليهود قالت كذا وكذا أفلا نجتمعن ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاها فعرفا أن لم يجد عليهما رواه مسلم من حديث حماد بن زيد بن سلمة فقلوه (فاعزوا النساء في الحيض) يعني الفرج لقوله « اصنعوا كل شيء إلا النكاح » ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج . قال أبو داود أيضا . حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن أيوب عن عكرمة عن بعض أزواج النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئا ألقى على فرجها ثوبا وقال أبو داود أيضا حدثنا الشعبي حدثنا عبد الله بن عمر بن غانم عن عبد الرحمن يعني بن زياد عن عمارة بن

(١) المراد بالجماعة هنا الاجتماع بين لا الواقع وهو المعنى الحقيقي واستعماله بالمعنى الآخر كناية اه

غراب أن عمة له حدثته أنها سألت عائشة قالت : إحدانا تحيض وليس لها ولزوجها فراش إلا فراش واحد قالت أخبرك بما صنع رسول الله ﷺ دخل فوضي إلى مسجده قال أبو داود : تعني مسجد بيتها فما انصرف حتى غلبتني عيني فأوجعه البرد فقال : « ادنى مني » فقلت إني حائض فقال : « اكشفي عن فخذي » فكشفت فخذي فوضع خده وصدره على فخذي وحنيت عليه حتى دفيء ونام صلى الله عليه وسلم وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا أيوب عن كتاب أبي قلابة أن مسروقاً ركب إلى عائشة فقال : السلام على النبي وعلى أهله ، فقالت عائشة مرحباً مرحباً فأذنوا له فدخل : فقال إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا أستحي فقالت إنما أنا أمك وأنت ابني فقال : ما للرجل من امرأته وهي حائض فقالت له : كل شيء إلا فرجها . ورواه أيضاً عن حميد بن مسعدة عن يزيد بن زريع عن عينة بن عبيد الرحمن بن جوشن عن مروان الأصغر عن مسروق قال قلت لعائشة ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً ؟ قالت : كل شيء إلا الجماع . وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة وروى ابن جرير أيضاً عن أبي كريب عن ابن أبي زائدة عن حجاج عن ميمون بن مهران عن عائشة قالت له ما فوق الإزار (قلت) ويحل مضاجعتها ومواكبتها بلا خاف قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض وكان يتكلم في حجرى وأنا حائض فيقرأ القرآن وفي الصحيح عنها قالت : كنت أتعرق العرق^(١) وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ فيضع فيه في الموضع الذي وضعت في فيه وأشرب الشراب فأناوله فيضع فيه في الموضع الذي كنت أشرب منه وقال أبو داود حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن جابر بن صبح سمعت خلاسا الهجري قال سمعت عائشة تقول كنت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعار الواحد وأنا حائض طامث فإن أصابه مني شيء غسل مكانه لم يعده^(٢) وإن أصابه - يعني ثوبه - شيء غسل مكانه لم يعده وصلى فيه فأما ما رواه أبو داود حدثنا سعيد بن الجبار حدثنا عبد العزيز يعني ابن محمد عن أبي اليمان عن أم ذرة عن عائشة أنها قالت كنت إذا حضت نزلت عن المثال^(٣) على الحصر فلم تقرب رسول الله ﷺ ولم تمدن منه حتى تطهر فهو محمول على التزوه والاحتياط - وقال آخرون إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فأتزرت وهي حائض وهذا لفظ البخاري ولهما عن عائشة نحوه وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث العلاء عن حزام بن حكيم عن عمه عبد الله بن سعد الأنصاري أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحل لي من امرأتى وهي حائض ؟ قال « ما فوق الإزار » ولأبي داود أيضاً عن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يحل لي من امرأتى وهي حائض قال : « ما فوق الإزار والتعفف عن ذلك أفضل » وهو رواية عن عائشة كما تقدم وابن عباس وسعيد بن المسيب وشريح فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل ما فوق الإزار منها وهو أحد القولين في مذهب الشافعي رحمه الله الذي رجحه كثير من العراقيين وغيرهم ومأخذهم أنه حريم الفرج فهو حرام لثلاث يتوصل إلى تعطى ما حرم الله عز وجل الذي أجمع العلماء على تحريمه وهو المباشرة في الفرج ثم من فعل ذلك فقد أثم فيستغفر الله ويتوب إليه وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا ؟ فيه قولان (أحدهما) نعم لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الذي يأتي امرأته وهي حائض يتصدق بدينار أو نصف دينار وفي لفظ للترمذي « إذا كان دماً أحمر فدینار وإن كان دماً أصفر فنصف دينار » وللإمام أحمد أيضاً عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل في الحائض تصاب دينارا فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تقتل نصف دينار (والقول الثاني) وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي وقول الجمهور أنه لا شيء في ذلك بل يستغفر الله عز وجل لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث فإنه قد روى مرفوعاً كما تقدم وموقوفاً وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث فقوله تعالى (ولا تقربوهن حتى يظهرن) تفسير لقوله (فاعتزلوا النساء في الحيض) ونهى عن قربانهن بالجماع مادام الحيض موجوداً ومفهومه حله إذا انقطع قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل فيما أملاه في الطاعة وقوله (ويسألونك عن الحيض قل

(١) عرق اللحم وتعرقه واعترقه تناولوه بجمه من المظلم (٢) لم يتجاوز (٣) هو الفراش

هو أذى فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث (الآية الطهر يدل على أن يقربها فلما قالت ميمونه وعائشة كانت إحداها إذا حاضت اتزرت ودخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعاره دل ذلك على أنه إنما أراد الجماع

وقوله (فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) فيه نذب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله (فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) وليس له في ذلك مستند لأن هذا أمر بعد الحظر وفيه أقوال لعلماء الأصول منهم من يقول إنه على الوجوب كالمطلق وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم ومنهم من يقول إنه للإباحة ويجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له عن الوجوب وفيه نظر والذي ينهض عليه الدليل أنه يرد عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي فإن كان واجبا فواجب كقوله (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) أو مباحا فباح كقوله (وإذا حللتم فاصطادوا) (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض) وعلى هذا القول تجتمع الأدلة وقد حكاه الغزالي وغيره فاختره بعض أئمة المتأخرين وهو الصحيح وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه إلا أن أبا حنيفة رحمه الله يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده إنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تقتصر إلى غسل والله أعلم . وقال ابن عباس (حتى يطهرن) أى من الدم (فإذا تطهرن) أى بالماء وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن ومقاتل بن حيان والليث بن سعد وغيرهم

وقوله (من حيث أمركم الله) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد يعنى الفرج قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (فأتوهن من حيث أمركم الله) يقول فى الفرج ولا تعدوه إلى غيره فمن فعل شيئا من ذلك فقد اعتدى وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة (من حيث أمركم الله) أى أن تعتزلوهن وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء فى الدبر كما سيأتى تقريره قريبا إن شاء الله تعالى وقال أبو رزين وعكرمة والضحاك وغير واحد (فأتوهن من حيث أمركم الله) يعنى طاهرات غير حيض ولهذا قال (إن الله يحب التوابين) أى من الذنب وإن تكرر غشيانه (ويحب المتطهرين) أى المتزهيين عن الأفذار والأذى وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو فى غير المآتى

وقوله (نساؤكم حرث لكم) قال ابن عباس : الحرث موضع الولد (فأتوا حرثكم أنى شئتم) أى كيف شئتم مقبلة ومدبرة فى صام واحد كما ثبت بذلك الأحاديث قال البخارى : حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن ابن المنكر قال سمعت جابرا قال : كانت اليهود تقول : إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فزلت (نساؤكم حرث لكم) فأتوا حرثكم أنى شئتم) ورواه مسلم وأبو داود من حديث سفيان الثورى به وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى مالك بن أنس وابن جريج وسفيان بن سعيد الثورى أن محمد بن المنكر حدثهم أن جابر بن عبد الله أخبره أن اليهود قالوا للمسلمين من أتى امرأة وهى مدبرة جاء الولد أحول فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم) فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال ابن جريج فى الحديث فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك فى الفرج » وفى حديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال يا رسول الله : نساؤنا ما تأتى منها وما نذر قال . « حرثك أمت حرثك أنى شئت غير أن لا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت » الحديث رواه أحمد وأهل السنن ، حدث آخر قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن عامر ابن يحيى عن عبد الله بن حنشل عن عبد الله بن عباس قال . أتى ناس من حمير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن أشياء فقال له رجل إني أحب النساء فكيف ترى فى أنزل الله (نساؤكم حرث لكم) فأتوا حرثكم أنى شئتم) ورواه الإمام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشد بن حدثى الحسن بن ثوبان عن عامر بن يحيى المغافرى عن حنشل عن ابن عباس قال انزلت هذه الآية (نساؤكم حرث لكم) فى أناس من الأنصار أتوا النبي ﷺ فسألوه فقال النبي ﷺ « اتها على كل حال إذا كان فى الفرج » (حديث) آخر قال أبو جعفر الطحاوى فى كتابه مشكل الحديث

حدثنا أحمد بن داود بن موسى حدثنا يعقوب بن كاسب حدثنا عبد الله بن نافع عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً أصاب امرأة في دبرها فأنكر الناس عليه ذلك فأنزل الله (نساءكم حرث لكم) الآية ورواه ابن جرير عن يونس عن يعقوب ورواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن الحارث بن شريح عن عبد الله بن نافع به (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا عبيد الله بن عثمان بن خيثم عن عبد الله بن سابط قال : دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر فقلت إني لسألك عن أمر وأنا أستحي أن أسألك قالت : فلا تستحي يا ابن أخي قال عن إتيان النساء في أدبارهن قالت : حدثتني أم سلمة أن الأنصار كانوا يحبون النساء وكانت اليهود تقول : إنه من أحب امرأته كان ولده أحول فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار فأحبوهن فأبى امرأة أن تطيع زوجها وقالت : لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك فقالت : اجلسي حتى يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم استحث الأنصارية أن تسأل رسول الله ﷺ فخرجت فسألته أم سلمة فقال ادعي « الأنصارية » فدعتها فتلا عليها هذه الآية (نساءكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) « صاماً واحداً » ورواه الترمذي عن بندار عن ابن مهدي عن سفيان عن أبي خيثم به وقال حسن (قلت) وقد روى من طريق حماد بن أبي خيفة عن أبيه عن ابن خيثم عن يوسف ابن ماهك عن حفصة أم المؤمنين أن امرأة أتتها فقالت : إن زوجي يأبيني محبة ومستقبلة فكرهته ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . « لا بأس إذا كان في صام واحد » (حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا حسن حدثنا يعقوب يعني القمي عن جعفر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال . جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول هلكت قال ما الذي أهلكك ؟ قال حولت رحلي البارحة قال فلم يرد عليه شيئاً قال فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية (نساءكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) « أقبل وأدبر واثق الدبر والحيفة » ورواه الترمذي عن عدي بن حميد عن حسن بن موسى الأشيب به وقال حسن غريب وقال الحافظ أبو يعلى . حدثنا الحارث بن شريح حدثنا عبد الله بن نافع حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد قال . أئثر رجل امرأته على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا . أئثر فلان امرأته فأنزل الله عز وجل (نساءكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال أبو داود . حدثنا عبد العزيز بن يحيى أبو الأصبع قال حدثني محمد يعني ابن سلمة عن محمد بن إسحق عن أبان بن صالح عن مجاهد عن ابن عباس قال . إن ابن عمر قال - والله يغفر له - أوهم وإنما كان هذا الحى من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحى من يهود وهم أهل كتاب وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم فكانوا يقتدون كثيراً^(١) من فعلهم وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف وذلك أستر ما تكون المرأة فكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم وكان هذا الحى من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه وقالت إنما كنا نؤتى على حرف فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني فصرى أمرها فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (نساءكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) أى مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعنى بذلك موضع الولد تفرد به أبو داود ويشهد له بالصحة ما تقدم له من الأحاديث ولا سيما رواية أم سلمة فإنها مشابهة لهذا السياق وقد روى هذا الحديث الحافظ أبو القاسم الطبراني من طريق محمد بن إسحق عن أبان بن صالح عن مجاهد قال . عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آيت منه وأسأله عنها حتى انتهت إلى هذه الآية (نساءكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) فقال ابن عباس . إن هذا الحى من قريش كانوا يشرحون النساء بمكة ويتلذذون بهن فذكر القصة بتمام سياقها وقول ابن عباس إن ابن عمر - والله يغفر له - أوهم كأنه يشير إلى ما رواه البخاري حدثنا إسحاق حدثنا النضر بن شميل أخبرنا ابن عون عن نافع قال كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه فأخذت عنه^(٢) يوماً فقرأ سورة البقرة حتى انتهى إلى مكان قال . أتدري فيم أنزلت ؟ قلت لا قال : أنزلت في كذا وكذا ثم مضى

وعن عبد الصمد قال: حدثني أبي حدثنا أيوب عن نافع عن ابن عمر (فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال: أن يأتيها في (١)؟
هكذا رواه البخاري وقد تفرد به من هذا الوجه وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علي حدثنا ابن عون عن نافع
قال قرأت ذات يوم (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) فقال ابن عمر أتدري فيم نزلت؟ قلت لا قال
نزلت في إتيان النساء في أدبارهن. وحدثني أبو قلابة حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثني أبي عن أيوب عن نافع عن
ابن عمر (فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال: في الدبر. وروى من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر ولا يصح وروى النسائي عن
محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن أبي بكر بن أبي أويس عن سليمان بن بلال عن زيد بن أسلم عن ابن عمر أن رجلا أتى امرأته
في دبرها فوجد في نفسه من ذلك وجدا شديدا فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال أبو حاتم
الرازي. لو كان هذا عند زيد بن أسلم عن ابن عمر لما أولع الناس بنافع وهذا تعليل منه لهذا الحديث وقد رواه عبد الله
ابن نافع عن داود بن قيس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عمر فذكره وهذا الحديث محمول على ما تقدم
وهو أنه يأتيها في قبلها من دبرها لما رواه النسائي عن علي بن عثمان النخعي عن سعيد بن عيسى عن الفضل بن فضالة
عبد الله بن سليمان الطويل عن كعب بن علقمة عن أبي النضر أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر أنه قد أكره عليك
القول أنك تقول عن ابن عمر إنه أفق أن تؤتى النساء في أدبارهن قال. كذبوا عليّ ولكن سأحدثك كيف
كان الأمر. إن ابن عمر عرض المصحف يوما وأنا عنده حتى بلغ (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم)
فقال يا نافع هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت لا قال. إنا كنا معشر قريش نحبي النساء فلما دخلنا المدينة ونكحنا
نساء الأنصار أردنا منهن مثل ما كنا نريد فآذاهن فكرهن ذلك وأعظمه وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال
اليهود إنما يؤتى على جنبهن فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) وهذا إسناد صحيح وقد رواه
ابن مردويه عن الطبراني عن الحسين بن إسحق عن زكريا بن يحيى الكاتب العمري عن مفضل بن فضالة عن عبد الله بن عياش
عن كعب بن علقمة فذكره وقد روي عن ابن عمر خلاف ذلك صريحا وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتي وإن كان قد نسب هذا
القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن
الإمام مالك رحمه الله وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه فقال الحسن بن عرفة
حدثنا إسحاق بن عياش عن سهيل بن أبي صالح عن محمد بن النكدر عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم «استحيوا إن الله لا يستحي من الحق لا يحل أن تأتوا النساء في حشوشهن» وقال الإمام أحمد. حدثنا عبد الرحمن
حدثنا سفيان عن عبد بن شداد عن خزيمة بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يأتي الرجل امرأته في دبرها (طريق
أخرى) قال أحمد. حدثنا يعقوب سمعت أبي يحدث عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد أن عبيد الله بن الحصين الوالبي
حدثه أن عبد الله الوافقي حدثه أن خزيمة بن ثابت الخطمي حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال. «استحيوا
إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن» ورواه النسائي وابن ماجه من طرق عن خزيمة بن ثابت وفي إسناده
اختلاف كثير (حديث آخر) قال أبو عيسى الترمذي والنسائي حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن
الضحاك بن عثمان عن مغرمة بن سليمان عن كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا ينظر الله
إلى رجل أتى رجلا أو امرأة في الدبر» ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه
وصححه ابن حزم أيضا ولكن رواه النسائي أيضا عن هناد عن وكيع عن الضحاك به موقوفا. وقال عبد أخبرنا
عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه أن رجلا سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها قال. تسألني عن
الكفر إسناده صحيح وكذا رواه النسائي من طريق ابن المبارك عن معمر به نحوه وقال عبد أيضا في تفسيره
حدثنا إبراهيم بن الحارث عن أبيه عن عكرمة قال. جاء رجل إلى ابن عباس وقال. كنت أتى أهلي في دبرها وسمعت
قول الله نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم فظننت أن ذلك لي حلال فقال. يالكع إنما قوله (فأتوا حرثكم أنى شئتم)
قائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة في أقبالهن لا تعدوا ذلك إلى غيره (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد

(١) لم يذكر المجزور نزعها وهو جائز للعلم به وفي نسخة الأزهر قطعة في دائرة وهي تصلح إشارة إلى الكلمة الساقطة

حدثنا همام حدثنا قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى » وقال عبد الله بن أحمد : حدثني هبة حدثنا همام قال : مثل قتادة عن الذي يأتي امرأته في دبرها فقال قتادة أخبرنا عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هي اللوطية الصغرى » قال قتادة وحدثني عقبة بن وساج عن أبي الدرداء قال . وهل يفعل ذلك إلا كافر ؟ وقد روى هذا الحديث يحيى بن سعيد القطان عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله (١) وهذا أصح والله أعلم وكذلك رواه عبد بن حميد عن يزيد بن هرون عن حميد الأعرج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو موقوفاً من قوله (طريق أخرى) قال جعفر الفريابي حدثنا قتيبة حدثنا ابن لميعة عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ويقول ادخلوا النار مع الداخلين : الفاعل والمفعول به والناكح يده وناكح البهيمة وناكح المرأة في دبرها وجامع بين المرأة وابنتها والزاني بحليلة جاره ومؤذى جاره حتى يلغنه » ابن لميعة وشيخه ضعيفان (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن عاصم عن عيسى بن حطان عن مسلم بن سلام عن علي بن طلق قال نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهن فإن الله لا يستحي من الحق ، وأخرجه أحمد أيضاً عن أبي معاوية وأبي عيسى الترمذي من طريق أبي معاوية أيضاً عن عاصم الأحول به وفيه زيادة وقال : هو حديث حسن ومن الناس من يورد هذا الحديث في مسند علي بن أبي طالب كما وقع في مسند الإمام أحمد بن حنبل والصحيح أنه علي بن طلق (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن سهيل بن أبي صالح عن الحارث بن مخلد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إن الذي يأتي امرأته في دبرها لا ينظر الله إليه » وقال أحمد أيضاً : حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا سهيل عن الحارث بن مخلد عن أبي هريرة يرفعه قال « لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها » وكذا رواه ابن ماجه من طريق سهيل ، وقال أحمد أيضاً . حدثنا وكيع عن سهيل بن أبي صالح عن الحارث بن مخلد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ملعون من أتى امرأته في دبرها » وهكذا رواه أبو داود والنسائي من طريق وكيع به (طريق أخرى) قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني ، أخبرنا أحمد بن القاسم بن الريان ، حدثنا أبو عبد الرحمن النسائي حدثنا هناد ومحمد ابن إسماعيل واللفظ له قالوا : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ملعون من أتى امرأة في دبرها » ليس هذا الحديث هكذا في سنن النسائي وإنما الذي فيه عن سهيل عن الحارث بن مخلد كما تقدم : قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي . ورواية أحمد بن القاسم بن الريان هذا الحديث بهذا السند وهم منه وقد ضعفوه (طريق أخرى) رواها مسلم بن خالد الزنجي عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ملعون من أتى النساء في أدبارهن » ومسلم بن خالد فيه كلام والله أعلم (طريق أخرى) رواها الإمام أحمد وأهل السنن من حديث حماد بن سلمة عن حكيم الأثرم عن أبي تيممة الهجيمي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد » وقال الترمذي ضعف البخاري هذا الحديث والذي قاله البخاري في حكيم الترمذي عن أبي تيممة لا يتابع على حديثه (طريق أخرى) قال النسائي . حدثنا عثمان بن عبد الله حدثنا سليمان بن عبد الرحمن من كتابه عن عبد الملك بن محمد الصنعاني عن سعيد بن عبد العزيز عن الزهري عن أبي سلمة رضي الله عنه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « استحيوا من الله حق الحياء لا تأتوا النساء في أدبارهن » تفرد به النسائي من هذا الوجه . قال حمزة بن محمد الكنانى الحافظ هذا حديث منكروا بطل من حديث الزهري ومن حديث أبي سلمة ومن حديث سعيد فإن كان عبد الملك سمعه من سعيد فأنما سمعه بعد الاختلاط وقد رواه الترمذي عن أبي سلمة أنه كان ينهى عن ذلك فأما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا انتهى كلامه وقد أجاد وأحسن الانتقاد إلا أن عبد الملك بن محمد الصنعاني لا يعرف أنه اختلط ولم يذكر ذلك أحد غير حمزة عن الكنانى وهو ثقة

(١) لعلها من قوله كالرواية التي بعدها وقوله : وهذا أصح يعني أن الموقوف عليه أصح سنداً من المرفوع .

ولكن تكلم فيه دحيم وأبو حاتم وابن حبان وقال : لا يجوز الاحتجاج به والله أعلم . وقد تابعه زيد بن يحيى بن عبيد عن سعيد بن عبد العزيز . وروى من طريقين آخرين عن أبي سلمة ولا يصح منها شيء (طريق أخرى) قال النسائي : حدثنا إسحق بن منصور حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان الثوري عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن أبي هريرة قال : إتيان الرجال النساء في أدبارهن كفر ثم رواه عن بNDAR عن عبد الرحمن به قال : من أتى امرأة في دبرها وتلك كفر ، هكذا رواه النسائي من طريق الثوري عن ليث عن مجاهد عن أبي هريرة موقوفا وكذا رواه من طريق علي بن نديمة عن مجاهد عن أبي هريرة موقوفا ورواه بكر بن خنيس عن ليث عن مجاهد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « من أتى شيئا من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر » والموقوف أصح وبكر بن خنيس ضعفه غير واحد من الأئمة وتركه آخرون (حديث آخر) قال محمد بن أبان البلخي حدثنا وكيع حدثني زمعة بن صالح عن ابن طاوس عن أبيه وعن عمرو بن دينار عن عبد الله بن يزيد بن الهاد قال : قال عمر بن الخطاب . قال رسول الله ﷺ « إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أدبارهن » وقد رواه النسائي حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني عن عثمان بن الليث عن زمعة بن صالح عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن الهاد عن عمر قال : لا تأتوا النساء في أدبارهن . وحدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا يزيد بن أبي حكيم عن زمعة بن صالح عن عمرو بن دينار عن طاوس عن عبد الله بن الهاد الليثي قال : قال عمر رضي الله عنه . استحيوا من الله فإن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أدبارهن والموقوف أصح (حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا غندر ومعاذ بن معاذ قال . حدثنا شعبة عن عاصم الأحول عن عيسى بن حطان عن مسلم بن سلام عن طلق بن يزيد أو يزيد بن طلق عن النبي ﷺ قال « إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أستاهن » وكذا رواه غير واحد عن شعبة ورواه عبد الرزاق عن معمر عن عاصم الأحول عن عيسى ابن حطان عن مسلم بن سلام عن طلق بن علي والأشبه أنه علي بن طلق كما تقدم والله أعلم (حديث آخر) قال أبو بكر الأثرم في سننه . حدثنا أبو مسلم الجرمي حدثنا أخو أنيس بن إبراهيم أن أبا عبد الرحمن بن القعقاع أخبره عن أبيه أبي القعقاع عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال « محاش النساء حرام » وقد رواه إسماعيل بن علي وسفيان الثوري وشعبة وغيرهم عن أبي عبد الله الشقري واسمه سلمة بن تمام ثقة عن أبي القعقاع عن ابن مسعود موقوفا وهو أصح (طريق أخرى) قال ابن عدي حدثنا أبو عبد الله الحاملي حدثنا سعيد بن يحيى الثوري حدثنا محمد بن حمزة عن زيد بن ربيع عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « لا تأتوا النساء في أعجازهن » محمد بن حمزة هو الجزري وشيخه فيها مقال . وقد روى من حديث أبي بن كعب والبراء بن عازب وعقبة بن عامر وأبي ذر وغيرهم وفي كل منها مقال لا يصح معه الحديث والله أعلم وقال الثوري عن الصلت بن بهرام عن أبي المعتمر عن أبي جويرة قال : سألت رجل عليا عن إتيان المرأة في دبرها فقال . سفلت سفل الله بك ألم تسمع قول الله عز وجل (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحذمن العالمين) ، وقد تقدم قول ابن مسعود وأبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس وعبد الله ابن عمرو في تحريم ذلك وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه يحرمه . قال أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله الدارمي في مسنده حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث عن الحارث بن يعقوب عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال . قلت لابن عمر ما تقول في الجوارى أيحمض لهن ؟ قال وما التحميص ؟ فذكر الدبر فقال وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين ؟ وكذا رواه ابن وهب وقتيبة عن الليث به وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك فكل ماورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا الحكم ، قال ابن جرير . حدثني عبد الرحمن ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا أبو زيد أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي العمر حدثني عبد الرحمن ابن القاسم عن مالك ابن أنس أنه قيل له يا أبا عبد الله إن الناس يروون عن سالم بن عبد الله أنه قال : كذب العبد أو العليج على أبي عبد الله ، قال مالك . أشهد على يزيد بن رومان أنه أخبرني عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر مثل ما قال نافع . فقيل له فإن الحارث بن يعقوب يروى عن أبي الحباب سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر فقال له يا أبا

عبد الرحمن إنا نشترى الجوارى أفتحض لمن فقال وما التحميص ؟ فذكر له الدبر فقال ابن عمر : أفأف وهل يفعل ذلك مؤمن أو قال مسلم ؟ فقال مالك أشهد على ربيعة لأخبرني عن أي الحباب عن ابن عمر مثل ما قال نافع . وروى النسائي عن الربيع بن سليمان عن أصبغ بن الفرغ الفقيه حدثنا عبد الرحمن بن القاسم قال : قلت لمالك إن عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحارث بن يعقوب عن سعيد بن يسار قال قلت لابن عمر إنا نشترى الجوارى أفتحض لمن ؟ قال : وما التحميص ؟ قلت تأتتهن في أدبارهن فقال . أف أف أو يعمل هذا مسلم ؟ فقال لي مالك فأشهد على ربيعة لحدثني عن سعيد بن يسار أنه سأله ابن عمر فقال لا بأس به وروى النسائي أيضاً من طريق يزيد بن رومان عن عبيد الله ابن عبد الله أن ابن عمر كان لا يرى بأساً أن يأتي الرجل المرأة في دبرها . وروى معمر بن عيسى عن مالك أن ذلك حرام . وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري حدثني إسماعيل بن حسين حدثني إسرائيل بن روح سألت مالك بن أنس ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن قال . ما أتم إلا قوم عرب هل يكون الحرث إلا موضع الزرع ، لاتعدوا الفرغ ، قلت يا أبا عبد الله إنهم يقولون إنك تقول ذلك . قال يكذبون على يكذبون على فهذا هو الثابت عنه وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة وهو قول سعيد بن المسيب وأبي سلمة وعكرمة وطاوس وعطاء وسعيد بن جبيرة وعروة بن الزبير ومجاهد بن جبر والحسن وغيرهم من السلف أنهم أنكروا ذلك أشد الانكار ومنهم من يطلق على فعله الكفر وهو مذهب جمهور العلماء ، وقد حكى في هذا شيء عن بعض فقهاء المدينة حتى حكوه عن الإمام مالك وفي صحته نظر قال الطحاوي روى أصبغ بن الفرغ عن عبد الرحمن بن القاسم قال ما أدركت أحداً أقندى به في ديني يشك أنه حلال يعني وطء المرأة في دبرها ثم قرأ (نساؤكم حرث لكم) ثم قال فأى شيء أبين من هذا ؟ هذه حكاية الطحاوي وقد روى الحاكم والدارقطني والخطيب البغدادي عن الإمام مالك من طرق ما يقتضى إباحة ذلك ولكن في الاسانيد ضعف شديد وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي في جزء جمعه في ذلك والله أعلم وقال الطحاوي : حكى لنا محمد ابن عبد الله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعي يقول ما صح عن النبي ﷺ في تحليله ولا تحريمه شيء والقياس أنه حلال وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب عن أبي سعيد الصيرفي عن أبي العباس الأصم سمعت محمد بن عبد الله بن عبد الحكم سمعت الشافعي يقول فذكره قال أبو نصر الصباغ . كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد كذب - يعني ابن عبد الحكم - على الشافعي في ذلك لأن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه والله أعلم

وقوله (وقدموا لأنفسكم) أي من فعل الطاعات مع امثال ما أنها كم عنه من ترك المحرمات ولهذا قال (واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه) أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعاً (وبشر المؤمنين) أي المطيعين لله فيما أمرهم التاركين ما عنه زجرهم وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني محمد بن كثير عن عبد الله بن واقد عن عطاء قال . أراه عن ابن عباس (وقدموا لأنفسكم) قال . تقول باسم الله التسمية عند الجماع وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال باسم الله جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً »

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مافعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها كقوله تعالى (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليغنوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم) فلا استمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير كما قال البخاري . حدثنا إسحق بن إبراهيم أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال . هذا ما حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ قال « نحن

الآخرون السابقون يوم القيامة» وقال رسول الله ﷺ «والله لأن يلج أحدكم يمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطى كفارته التي اقترض الله عليه» وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به ورواه أحمد عنه به ثم قال البخاري . حدثنا إسحق بن منصور حدثنا يحيى بن صالح حدثنا معاوية هو ابن سلام عن يحيى وهو ابن أبي كثير عن عكرمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من استلج في أهله يمين فهو أعظم إثمًا ليس تنفى (١) الكفارة » وقال علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) قال لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير . ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير وكذا قال مسروق والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهرى والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والضحاك وعطاء الخراساني والسدي رحمهم الله ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذي هو خير وتحملتها » وثبت فيها أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن مبرة « يا عبد الرحمن ابن مبرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك » وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير » . وقال الإمام أحمد . حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا خليفة بن خياط حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فتركها كفارتها » ورواه أبو داود من طريق أبي عبيد الله بن الأخنس عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم ولا في معصية الله ولا في قطعة رحم ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليدعها وليأت الذي هو خير فإن تركها كفارتها » ثم قال أبو داود والأحاديث عن النبي ﷺ كلها « فليكفر عن يمينه » وهي الصحاح

وقال ابن جرير : حدثنا علي بن سعيد الكندي حدثنا علي بن مسهر عن حارثة بن محمد عن عمره عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « من حلف على يمين قطيعة رحم ومعصية فبره أن يحث فيها ويرجع عن يمينه » وهذا حديث ضعيف لأن حارثة هذا هو ابن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن متروك الحديث ضعيف عند الجميع ثم روى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ومسروق والشعبي أنهم قالوا لا يمين في معصية ولا كفارة عليها وقوله (لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم) أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللغوية وهي التي لا يقصدها الحالف بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من حلف فقال في حلفه باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله » فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية قد أسلموا وألستهم قد ألقت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد فأمروا أن تلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه ولهذا قال تعالى (ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم) الآية وفي الآية الأخرى (بما عقدتم الأيمان) قال أبو داود . (باب لغو اليمين) حدثنا حميد بن مسعدة الشامي حدثنا حيان يعني ابن إبراهيم حدثنا إبراهيم يعني الصائغ عن عطاء . اللغو في اليمين قال قالت عائشة إن رسول الله ﷺ قال : « اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته كلاً والله وبلى والله » ثم قال أبو داود رواه داود بن الفرات عن إبراهيم الصائغ عن عطاء عن عائشة موقوفا ورواه الزهرى وعبد الملك ومالك بن مغول كلهم عن عطاء عن عائشة موقوفا أيضاً (قلت) وكذا رواه ابن جريج وابن أبي ليلى عن عطاء عن عائشة موقوفا ورواه ابن جرير عن هناد عن وكيع وعبدية وأبي معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في قوله (لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم) لا والله وبلى والله ثم رواه عن محمد بن حميد عن سلمة

(١) وفي رواية ليبر موضع ليس وهو أمر من البر وبهذه يعني الكفارة وهو تفسير للبر المأمور به لحقائه .

عن ابن إسحق عن هشام عن أبيه عن ابن إسحق عن الزهري عن القاسم عنها وبه عن ابن إسحق عن ابن أبي
نجيح عن عطاء عنها وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة في قوله (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم)
قالت هم القوم يتدارءون في الأمر فيقول هذا لا والله وبلى والله وكلا والله يتدارءون في الأمر لا تعتد عليه قلوبهم وقد
قال ابن أبي حاتم حدثنا هرون بن إسحق الحمداي حدثنا عبدة يعني ابن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة
في قول الله (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) قالت : هو قول الرجل لا والله وبلى والله . وحدثنا أبي حدثنا
أبو صالح كاتب الليث حدثني ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة قال كانت عائشة تقول إنما اللغو في المزاخة
والهزل وهو قول الرجل لا والله وبلى والله فذلك لا كفارة فيه إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله
ثم قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عمر وابن عباس في أحد قولي والشعي وعكرمة في أحد قولي وعروة بن الزبير
وأبي صالح والضحاك في أحد قولي وأبي قلابة والزهري نحوه ذلك (الوجه الثاني) قرئ على يونس بن عبد الأعلى
أخبرنا ابن وهب أخبرني الثقة عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أنها كانت تتأول هذه الآية يعني قوله (لا يؤاخذكم
الله باللغو في أيمانكم) وتقول هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف
عليه ثم قال وروى عن أبي هريرة وابن عباس في أحد قولي وسليمان بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد في أحد قولي
وإبراهيم النخعي في أحد قولي والحسن وزرارة بن أوفى وأبي مالك وعطاء الخراساني وبكر بن عبد الله وأحد قولي
عكرمة وحبيب بن أبي ثابت والسدي ومكحول ومقاتل وطاوس وقتادة والريبع بن أنس ويحيى بن سعيد وربيعة نحوه
ذلك وقال ابن جرير حدثنا محمد بن موسى الجرشى حدثنا عبد الله بن ميمون المرادي حدثنا عوف الأعرابي عن الحسن
ابن أبي الحسن قال مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون يعني يرمون ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من
أصحابه فقام رجل من القوم فقال أصبت والله وأخطأت والله فقال الذي مع النبي ﷺ للنبي ﷺ حنث الرجل
يارسول الله قال « كلا أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة » هذا مرسل حسن عن الحسن وقال ابن
أبي حاتم وروى عن عائشة القولان جميعا حدثنا عصام بن رواد أنبأنا آدم حدثنا شيبان عن جابر عن عطاء
ابن أبي رباح عن عائشة قالت : هو قوله لا والله وبلى والله وهو يرى أنه صادق ولا يكون كذلك (أقوال أخر) قال
عبد الرزاق عن هشيم عن مغيرة عن إبراهيم هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه وقال زيد بن أسلم هو قول الرجل
أعصى الله بصرى إن لم أفعل كذا وكذا أخرجني الله من مالي إن لم آتك غدا فهو هذا قال ابن أبي حاتم وحدثنا علي بن
الحسين حدثنا مسدد بن خالد حدثنا خالد حدثنا عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان
وأخبرني أبي حدثنا أبو الجاهر حدثنا سعيد بن بشير حدثني أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لغو اليمين
أن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة وكذا روى عن سعيد بن جبير . وقال أبو داود (باب اليمين في النصب)
حدثنا محمد بن المنهال أنبأنا يزيد بن زريع حدثنا حبيب العلم عن عمرو بن شعيب عن سعيد بن المسيب أن أخوين من
الأنصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال : إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي فدرتاج الكعبة
فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك كفر عن يمينك وكلم أخاك سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يمين عليك ولا
نذر في معصية الرب عز وجل ولا في قطعة الرحم ولا فيما لا تملك » وقوله (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) قال
ابن عباس ومجاهد وغير واحد : هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب قال مجاهد وغيره . وهي كقوله تعالى
(ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) الآية (والله غفور حلیم) أي غفور لعباده حلیم عليهم .

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نَّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ • وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ
فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

الإيلاء الحلف فإذا حلف الرجل أن لا يجمع زوجته مدة فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها فإن كانت أقل فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجمع امرأته وعليها أن تصبر وليس لها مطالبة بالفیئة في هذه المدة وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ آلى من نسائه شهرا فنزل لتسع وعشرين وقال « الشهر تسع وعشرون » ولهما عن عمر بن الخطاب نحوه فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فالزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر إما أن ينفى أى يجمع وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا وهذا لثلا يضر بها ولهذا قال تعالى (للذين يؤولون من نسائهم) أى يحلفون على ترك الجماع من نسائهم فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور (تربص أربعة أشهر) أى ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف ثم يوقف ويطلب بالفیئة أو الطلاق ولهذا قال (فإن فاءوا) أى رجعوا إلى ما كانوا عليه وهو كناية عن الجماع قاله ابن عباس ومسروق والشعبي وسعيد بن جبير وغير واحد ومنهم ابن جرير رحمه الله (فإن الله غفور رحيم) لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليقين وقوله (فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم) فيه دلالة لأحد قولي العلماء وهو القديم عن الشافعي أن المولى إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه ويعتضد بما تقدم في الحديث عند الآية التي قبلها عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فتركها كفارتها » كما رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعي أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حال كما تقدم أيضا في الأحاديث الصحاح والله أعلم .

وقوله (وإن عزموا الطلاق) فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر كقول الجمهور من المتأخرين وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطليقة وهو مروي بأسانيد صحيحة عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه يقول ابن سيرين ومسروق والقاسم وسالم والحسن وأبوسامة وقتادة وشرح القاضي وقبيصة بن ذؤيب وعطاء وأبوسلمة بن عبد الرحمن وسليمان بن طرخان التيمي وإبراهيم النخعي والربيع بن أنس والسدي ثم قيل إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية قاله سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ومكحول وربيعة والزهرى ومروان بن الحكم وقيل إنها تطلق طلقة بائنة روى عن علي وابن مسعود وعثمان وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه يقول عطاء وجابر بن زيد ومسروق وعكرمة والحسن وابن سيرين ومحمد بن الحنفية وإبراهيم وقبيصة بن ذؤيب وأبو حنيفة والثوري والحسن بن صالح فكل من قال إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة إلا ما روى عن ابن عباس وأبي الشعثاء إنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها وهو قول الشافعي والذي عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف فيطالب إما بهذا وإما بهذا ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق وروى مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه قال . إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف فإذا انطلق وإما أن ينفى وأخرجه البخاري وقال الشافعي رحمه الله أخبرنا سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار قال أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يوقف المولى . قال الشافعي وأقل ذلك ثلاثة عشر ورواه الشافعي عن علي رضي الله عنه أنه يوقف المولى ثم قال وهكذا تقول وهو موافق لما رويناه عن عمرو بن عمرو وعائشة وعثمان وزيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . هكذا قال الشافعي رحمه الله قال ابن جرير حدثنا ابن أبي مريم حدثنا يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن عمر عن سهل بن أبي صالح عن أبيه قال سألت اثني عشر رجلا من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته فكلهم يقول ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة الأشهر فيوقف فإن فاء وإلا طلق ورواه الدارقطني من طريق سهل (قلت) وهو يروى عن عمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة أم المؤمنين وابن عمر وابن عباس وبه يقول سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وطاوس ومحمد بن كعب والقاسم وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم رحمهم الله وهو اختيار ابن جرير أيضا وهو قول الليث وإسحق بن راهويه وأبي عبيد وأبي ثور وداود وكل هؤلاء قالوا إن لم ينفى

ألزم بالطلاق فإن لم يطلق طلق عليه الحاكم والطلقة تكون رجعية له رجعتها في العدة وانفرد مالك بأن قال : لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها في العدة وهذا غريب جداً

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم في مناسبة تأجيل المولى بأربعة أشهر الأثر الذي رواه الإمام مالك بن أنس رحمه الله في الموطأ عن عبد الله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقني أن لاخيل ألاعبه
فوالله لولا الله أنى أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة رضى الله عنها كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها فقالت : ستة أشهر أو أربعة أشهر فقال عمر لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك وقال محمد بن إسحق عن السائب بن جبير مولى ابن عباس وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ قال : ما زلت أسمع حديث عمر أنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة وكان يفعل ذلك كثيراً إذ مر بامرأة من نساء العرب مغلقة بابها تقول .

تطاول هذا الليل وازور جانبه * وأرقني أن لا ضجيع ألاعبه * ألاعبه طورا وطورا كأنما
بدا قرأ في ظلمة الليل حاجبه * يسر به من كان يلهو بقربه * لطيف الحشا لا يحتويه أقاربه
فوالله لولا الله لا شيء غيره * لنقض من هذا السرير جوانبه * ولكنني أخشى رقبيا موكلا
بأنفاسنا لا يفتر الدهر كانه * مخافة ربي والحياء يصدني * وإكرام بعل أن تنال مراكبه (١)
ثم ذكر بقية ذلك كما تقدم أو نحوه وقد روى هذا من طرق وهو من المشهورات

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء أى بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ثم تتزوج إن شاءت وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طلقت فانها تعد عندهم بقرأين لأنها على النصف من الحرة والقرء لا يتبع بعض فكمل لها قرآن ولما رواه ابن جرير عن مظاهر بن أسلم الخزرجي المدني عن القاسم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حیضتان » رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ولكن مظاهر هذا ضعيف بالكلية وقال الحافظ الدارقطني وغيره الصحيح أنه من قول القاسم بن محمد نفسه ورواه ابن ماجه من طريق عطية العوفي عن ابن عمر مرفوعا قال الدارقطني والصحيح ما رواه سالم ونافع عن ابن عمر قوله (٢) وهكذا روى عن عمر بن الخطاب قالوا . ولم يعرف بين الصحابة خلاف وقال بعض السلف . بل عدتها كمدة الحرة لعموم الآية ولأن هذا أمر جبلي فكان الحرائر والإماء في هذا سواء حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو الیمان حدثنا إسماعيل يعني ابن عياض عن عمرو بن مہاجر عن أبيه أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت : طلقت على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن للطلقة عدة فأنزل الله عز وجل حين طلقت أسماء العدة للطلاق فكانت أول من نزلت فيها العدة للطلاق يعني (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) وهذا حديث غريب من هذا الوجه . وقد اختلف السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو على قولين . (أحدهما) أن المراد بها الأطهار وقال مالك في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أنها اتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة فذكرت ذلك لعمرة

بنت عبد الرحمن فقالت صدق عروة وقد جادلها في ذلك ناس فقالوا إن الله تعالى يقول في كتابه (ثلاثة قروء)
 فقالت عائشة صدقتم وتدرسون ما الأقراء ؟ إنما الأقراء الأطهار وقال مالك عن ابن شهاب سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن
 يقول ما أدركت أحداً من فقهاءنا إلا وهو يقول ذلك يريد قول عائشة وقال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر
 أنه كان يقول إذا طلق الرجل امرأته فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها وقال مالك وهو
 الأمر عندنا وروى مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت وسالم والقاسم وعروة وسليمان بن يسار وأبي بكر بن عبد الرحمن
 وأبان بن عثمان وعطاء بن أبي رباح وقتادة والزهرى وبقية الفقهاء السبعة وهو مذهب مالك والشافعى وغير واحد
 وداود وأبي ثور وهو رواية عن أحمد واستدلوا عليه بقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) أى فى الأطهار ولما كان
 الطهر الذى يطلق فيه محتسباً دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها ولهذا قال هؤلاء . إن المعتدة تنقض عدتها
 وتبين من زوجها بالطنن فى الحيضة الثالثة وأقل مدة تصدق فيها المرأة فى انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يوماً ولحظتان
 واستشهد أبو عبيد وغيره على ذلك بقول الشاعر وهو الأعشى

ففى كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزيماً عزائك
 مورثة مالا وفى الأصل رفعة لما ضاع فيها من قروء نساءك

يمدح أميراً من أمراء العرب آثر الغزو على المقام حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه لم يواظبهن فيها . (والقول الثانى)
 أن المراد بالأقراء الحيض فلا تنقض العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة زاد آخرون وتغتسل منها وأقل وقت
 تصدق فيه المرأة فى انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يوماً ولحظة قال الثورى عن منصور عن إبراهيم عن علقمة قال كنا
 عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فجاءته امرأة فقالت إن زوجى فارقتى بواحدة أو اثنتين فجاءنى وقد نزع ثيابى
 وأغلقت بابى فقال عمر لعبد الله بن مسعود : أراها امرأته مادون أن تحمل لها الصلاة قال وأنا أرى ذلك . وهكذا
 روى عن أبى بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى وأبى الدرداء وعادة بن الصامت وأنس بن مالك وابن مسعود ومعاذ
 وأبى بن كعب وأبى موسى الأشعرى وأبى عباس وسعيد بن المسيب وعلقمة والأسود وإبراهيم ومجاهد وعطاء وطاوس
 وسعيد بن جبيرة وعكرمة وعمر بن سيرين والحسن وقتادة والشعبى والريبع ومقاتل بن حيان والسدى ومكحول
 والضحاك وعطاء الخراسانى أنهم قالوا . الأقراء : الحيض وهذا مذهب أبى حنيفة وأصحابه وأصح الروايتين
 عن الإمام أحمد بن حنبل وحكى عنه الأثرم أنه قال الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون الأقراء
 الحيض وهو مذهب الثورى والأوزاعى وابن أبى ليلى وابن شبرمة والحسن بن صالح بن حى وأبى عبيد وإسحق
 ابن راهويه ويؤيد هذا ما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود والنسائى من طريق المنذر بن المغيرة عن عروة بن الزبير
 عن فاطمة بنت أبى حبيش أن رسول الله ﷺ قال لها « دعى الصلاة أيام أقرائك » فهذا لو صح لكان صريحاً
 فى أن القراء هو الحيض ولكن المنذر هذا قال فيه أبو حاتم مجهول ليس بمشهور وذكره ابن حبان فى الثقات
 وقال ابن جرير أصل القراء فى كلام العرب الوقت لحىء الشيء المعتاد مجيئه فى وقت معلوم ولإدبار الشيء المعتاد
 إدباره لوقت معلوم وهذه العبارة تقتضى أن يكون مشتركاً بين هذا وهذا وقد ذهب إليه بعض الأصوليين والله
 أعلم . وهذا قول الأصمعى أن القراء هو الوقت . وقال أبو عمرو بن العلاء . العرب تسمى الحيض قراءاً وتسمى الطهر
 قراءاً وتسمى الطهر والحيض جميعاً قراءاً . وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء
 أن القراء يراد به الحيض ويراد به الطهر وإنما اختلفوا فى المراد من الآية ما هو على قولين

وقوله (ولا يحل لمن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن) أى من جلد أو حيض . قاله ابن عباس وابن عمر ومجاهد
 والشعبى والحكم بن عيينة والريبع بن أنس والضحاك وغير واحد وقوله (إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) تهديد
 لمن على خلاف الحق ودل هذا على أن المرجع فى هذا إليهن لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن ويتعذر إقامة البينة غالباً على
 ذلك فرد الأمر إليهن وتوعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحق إما استعجالاً منها لانقضاء العدة أو رغبة منها فى تطويلها للمالها فى

ذلك من المقاصد فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان وقوله (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا) أى وزوجها الذى طلقها أحق بردها مادامت في عدتها إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير وهذا في الرجعات فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن وإنما كان ذلك لما حصروا في الطلاق (١) الثلاث فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة فلما قصروا في الآية التى بعدها على ثلاث تطليقات صار للناس مطلقة بائن وغير بائن وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين من استشهادهم على مسألة عود الضمير هل يكون مخصصا لما تقدمه من لفظ العموم أم لا بهذه الآية الكريمة فان التمثيل بها غير مطلق لما ذكره والله أعلم

وقوله (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) أى ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته في حجة الوداع « فاتقوا الله في النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فان فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف » وفي حديث بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال يارسول الله ما حق زوجة أحدنا قال « أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت » وقال وكيع عن بشير بن سليمان عن عكرمة عن ابن عباس قال : إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لى المرأة لأن الله يقول (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقوله (وللرجال عليهن درجة) أى في الفضيلة في الخلق والخلق والمنزلة وطاعة الأمر والانفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة كما قال تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)

وقوله (والله عزيز حكيم) أى عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره حكيم في أمره وشرعه وقدره ﴿ الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَاءٍ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة مادامت في العدة فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلاقات وأباح الرجعة في المرة والثنتين وأبانها بالكلية في الثالثة . فقال (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) قال أبو داود رحمه الله في سننه (باب نسخ المراجعة بعد الطلاقات الثلاث) حدثنا أحمد بن محمد الروزى حدثني علي بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) الآية وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثا فنسخ ذلك فقال (الطلاق مرتان) الآية ورواه النسائي عن زكريا بن يحيى عن إسحق بن إبراهيم عن علي بن الحسين به وقال ابن أبي حاتم حدثنا هرون بن إسحق حدثنا عبدة بن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه أن رجلا قال لامرأته : لا أطلقك أبدا ولا آويك أبدا قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلق حتى إذا دنأ جلتك راجعتك فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فأنزل الله عز وجل (الطلاق مرتان) وهكذا رواه ابن جرير في تفسيره من طريق جرير بن عبد الحميد وابن إدريس ورواه

عبد بن حميد في تفسيره عن جعفر بن عون كلهم عن هشام عن أبيه قال . كان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها ما شاء مادامت في العدة وإن رجلا من الأنصار غضب على امرأته فقال : والله لا آويك ولا أفارقك قالت وكيف ذلك قال أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك ثم أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل (الطلاق مرتان) قال فاستقبل الناس الطلاق من كان طلق ومن لم يكن طلق وقد رواه أبو بكر بن مردويه عن طريق محمد بن سليمان عن يعلى بن شبيب مولى الزبير عن هشام عن أبيه عن عائشة فذكره بنحو ما تقدم ورواه الترمذي عن قتيبة عن يعلى بن شبيب به ثم رواه عن أبي كريب عن ابن إدريس عن هشام عن أبيه مرسلًا وقال هذا أصح ورواه الحاكم في مستدركه عن طريق يعقوب بن حميد بن كاسب عن يعلى بن شبيب به وقال صحيح الإسناد ثم قال ابن مردويه . حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا إسماعيل بن عبد الله حدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت لم يكن للطلاق وقت يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس فقال والله لأترككن لا أيما ولا ذات زوج ، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضي راجعها ففعل ذلك مرارا فأنزل الله عز وجل فيه (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) فوقت الطلاق ثلاثا لرجعة فيه بعد الثالثة حتى تنكح زوجا غيره وهكذا روى عن قتادة مرسلًا ذكره السدي وابن زيد وابن جرير كذلك واختار أن هذا تفسير هذه الآية وقوله (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) أي إذا طلقها واحدة أو اثنتين فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية بين أن تردها إليك ناويا الإصلاح بها والإحسان إليها وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك وتطلق سراها محسنا إليها لا تظلمها من حقها شيئا ولا تضاربها . وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتنق الله في ذلك أي في الثالثة فإذا أن يمسكها بمعروف فيحسن صحبتها أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئا وقال ابن أبي حاتم أخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرني سفيان الثوري حدثني إسماعيل بن سميع قال سمعت أبا رزين يقول جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أرأيت قول الله عز وجل (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) أين الثالثة قال . «التسريح بإحسان» ورواه عبد بن حميد في تفسيره ولفظه أخبرنا يزيد بن أبي حكيم عن سفيان عن إسماعيل بن سميع أن أبا رزين الأسدي يقول قال رجل يا رسول الله أرأيت قول الله (الطلاق مرتان) فأين الثالثة؟ قال «التسريح بإحسان الثالثة» ورواه الإمام أحمد أيضا . وهكذا رواه سعيد بن منصور عن خالد بن عبد الله عن إسماعيل ابن زكريا وأبي معاوية عن إسماعيل بن سميع عن أبي رزين به وكذلك رواه ابن مردويه أيضا عن طريق قيس بن الربيع عن إسماعيل بن سميع عن أبي رزين به مرسلًا ورواه ابن مردويه أيضا عن طريق عبد الواحد بن زياد عن إسماعيل بن سميع عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره ثم قاله : حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحيم حدثنا أحمد ابن يحيى حدثنا عبيد الله بن جرير بن جبلة حدثنا ابن عائشة حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس بن مالك قال . جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ذكر الله الطلاق مرتين فأين الثالثة؟ قال «(إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)»

وقوله (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا) أي لا يحل لكم أن تضاربوهن وتضييقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو بيعه كما قال تعالى (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) فأما إن وهبته المرأة شيئا عن طيب نفس منها فقد قال تعالى (فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا) وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته فلها أن تفتدى منه بما أعطها ولا حرج عليها في بذله ولا حرج عليه في قبول ذلك منها ولهذا قال تعالى (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به) الآية فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الاقتداء منه فقد قال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب ح وحدثني يعقوب بن

إبراهيم حدثنا ابن علي قالا جميعا : حدثنا أيوب عن أبي قلابة عمن حدثه عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أيما امرأة سألت زوجها طلاقا في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة» وهكذا رواه الترمذي عن بندار عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي به وقال حسن قال ويروى عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان ورواه بعضهم عن أيوب بهذا الإسناد ولم يرفعه : وقال الإمام أحمد . حدثنا عبد الرحمن حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة قال وذكر أبا أسماء وذكر ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة» وهكذا رواه أبو داود وابن ماجه وابن جرير من حديث حماد بن زيد به (طريق أخرى) قال ابن جرير . حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا المتعمر بن سليمان عن ليث بن أبي إدريس عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس حرم الله عليها رائحة الجنة» وقال «الختلعات هن المناقات» ثم رواه ابن جرير والترمذي جميعا عن أبي كريب عن مزاحم بن داود بن علي عن أبيه عن ليث هو ابن أبي سليم عن أبي الخطاب عن أبي زرعة عن أبي إدريس عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ «الختلعات هن المناقات» : ثم قال الترمذي : غريب من هذا الوجه وليس إسناده بالقوى (حديث آخر) قال ابن جرير . حدثنا أيوب حدثنا حفص بن بشر حدثنا قيس بن الربيع عن أشعث ابن سوار عن الحسن عن ثابت بن يزيد عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الختلعات المنزعات هن المناقات» غريب من هذا الوجه ضعيف (حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا أيوب عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم «الختلعات والمنزعات هن المناقات» (حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا بكر بن خلف أبو بشر حدثنا أبو عاصم عن جعفر بن يحيى بن ثوبان عن عمه عمارة بن ثوبان عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا تسأل امرأة زوجها الطلاق في غير كنهه فتجد ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما» «ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية واحتجوا بقوله تعالى (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله) قالوا : فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة فلا يجوز في غيرها إلا بدليل والأصل عدمه ومن ذهب إلى هذا ابن عباس وطاوس وإبراهيم وعطاء والحسن والجمهور حتى قال مالك والأوزاعي . لو أخذ منها شيئا وهو مضار لها وجب رده إليها وكان الطلاق رجعا قال مالك وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق وعند الاتفاق بطريق الأولى والأخرى وهذا قول جميع أصحابه قاطبة وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستدكار له عن بكر بن عبد الله الزنى أنه ذهب إلى أن الخلع منسوخ بقوله (وآتيت إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا) ورواه ابن جرير عنه وهذا قول ضعيف ومأخذ مردود على قائله وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامراته حبيبة بنت عبد الله بن أبي نسلول ولنذكر طرق حديثها واختلاف ألفاظه : قال الإمام مالك في موطنه عن يحيى بن سعيد عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعيد بن زرارة أنها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الأنصاري أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الصبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من هذه ؟» قالت أنا حبيبة بنت سهل «فقال ما شأنك» فقالت . لا أنا ولا ثابت بن قيس لزوجها فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ «هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر» فقالت حبيبة . يا رسول الله كل ما أعطاني عندي فقال رسول الله ﷺ «خذ منها» فأخذ منها وجلست في أهلها . وهكذا رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهيدي عن مالك بإسناده مثله ورواه أبو داود عن القعني عن مالك والنسائي عن محمد بن مسلمة عن ابن القاسم عن مالك (حديث آخر) عن عائشة قال أبو داود وابن جرير حدثنا محمد بن معمر حدثنا أبو عامر

حدثنا أبو عمرو السدوسي عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة أن حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس فضر بها فانكسر (١) بعضها فأتت رسول الله ﷺ بعد الصبح فاشتكت به إليه فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ثابتاً فقال « خذ بعض مالها وفارقها » قال ويصلح ذلك يا رسول الله ؟ قال « نعم » قال . إني أصدقها حديقتين فهما بيدها فقال النبي ﷺ « خذهما وفارقها » ففعل وهذا لفظ ابن جرير وأبو عمرو السدوسي هو سعيد بن سلمة بن أبي الحسام (حديث آخر) فيه عن ابن عباس رضى الله عنه . قال البخارى : حدثنا أزهر بن جميل أخبرنا عبد الوهاب الثقفى حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله . ما أعيب عليه في خلق ولا دين ولكن أكره الكفر في الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتردين عليه حديقته » قالت : نعم قال رسول الله ﷺ « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » وكذا رواه النسائي عن أزهر بن جميل بإسناده مثله ورواه البخارى أيضاً به عن إسحق الواسطى عن خالد هو ابن عبد الله الطحاوى عن خالد هو ابن مهران الخذاء عن عكرمة عن ابن عباس به نحوه، وهكذا رواه البخارى أيضاً من طرق عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس وفي بعضها أنها قالت لا أطيقه يعنى بغضا . وهذا الحديث من أفراد البخارى من هذا الوجه . ثم قال حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة أن جميلة رضى الله عنها - كذا قال - والمشهور أن اسمها حبيبة كما تقدم لكن قال الإمام أبو عبد الله بن بطة حدثني أبو يوسف يعقوب بن يوسف الطباح حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى حدثني عبد الأعلى حدثنا سعيد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس أن جميلة بنت سلول أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : والله ما أعتب على ثابت بن قيس في دين ولا خلق ولكنى أكره الكفر في الإسلام لا أطيقه بغضا فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم « تردين عليه حديقته ؟ » قالت نعم . فأمره النبي ﷺ أن يأخذ ما ساق ولا يزداد وقد رواه ابن مردويه في تفسيره عن موسى بن هرون حدثنا أزهر بن مروان حدثنا عبد الأعلى مثله وهكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان بإسناده مثله سواء وهو إسناده جيد مستقيم وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا الحسين بن واقد عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن جميلة بنت عبد الله بن أبي سلول أنها كانت تحت ثابت بن قيس فنشزت عليه فأرسل إليها النبي ﷺ فقال « يا جميلة ما كرهت من ثابت ؟ » قالت . والله ما كرهت منه ديناً ولا خلقاً إلا أنى كرهت دمايته فقال لها : « أتردين عليه الحديقة » قالت نعم فردت الحديقة وفرق بينهما . وقال ابن جرير أيضاً حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان قال قرأت على فضيل عن أبي جرير أنه سأل عكرمة هل كان للخلع أصل قال . كان ابن عباس يقول إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبد الله بن أبي أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله لا يجمع رأسى ورأسه شيء أبداً إني رفعت جانب الحياء فرأيت أنه قد أقبل في عدة فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامته وأقبحهم وجهاً فقال زوجها يا رسول الله إني قد أعطيتها أفضل مالى حديقة لى فان ردت على حديقتى قال « ما تقولين ؟ » قالت نعم وإن شاء زدت . قال ففرق بينهما (حديث آخر) قال ابن ماجه : حدثنا أبو كريب حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال . كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس وكان رجلاً دميماً فقالت . يا رسول الله والله لولا مخافة الله إذا دخل على بصقت في وجهه فقال رسول الله ﷺ « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت نعم فردت عليه حديقته قال ففرق بينهما رسول الله ﷺ

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في أنه هل يجوز للرجل أن يفادها بأكثر مما أعطاه فذهب الجمهور إلى جواز ذلك لعموم قوله تعالى (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) وقال ابن جرير . حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية أخبرنا أيوب عن كثير مولى ابن سمره أن عمر أتى بامرأة ناشز فأمر بها إلى بيت كثير الزبل ثم دعا بها فقال كيف وجدت فقالت ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التي كنت حبستنى فقال لزوجها اخلعها ولو من قرطها ورواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن كثير مولى ابن سمره فذكر مثله وزاد فحبسها فيه ثلاثة أيام قال سعيد بن أبي عروبة

عن قتادة عن حميد بن عبد الرحمن أن امرأة أتت عمر بن الخطاب فشكت زوجها فأباتها في بيت الزبل فلما أصبحت قال لها كيف وجدت مكانك؟ قالت ما كنت عنده ليلة أقر لعيني من هذه الليلة . فقال خذ ولو عقاصها ، وقال البخاري وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عبد الله بن محمد بن عقيل أن الربيع بنت معوذ ابن عفراء حدثته قالت : كان لي زوج يقل على الخير إذا حضرنى ويحرمنى إذا غاب عني قالت فكانت منى زلة يوما فقلت له : أختلعت منك بكل شيء أملكه قال . نعم قالت ففعلت قالت فخاصم عمي معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان فأجاز الخلع وأمره أن يأخذ عقاص رأسى فما دونه أو قالت ما دون عقاص الرأس ومعنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما يبدها من قليل وكثير ولا يترك لها سوى عقاص شعرها وبه يقول ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي وقيصة بن ذؤيب والحسن بن صالح وعثمان البتي وهذا مذهب مالك والليث والشافعي وأبي ثور واختاره ابن جرير وقال أصحاب أبي حنيفة إن كان الاضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاها ولا يجوز الزيادة عليه فان ازداد جاز في القضاء وإن كان الاضرار من جهته لم يحز أن يأخذ منها شيئا فان أخذ جاز في القضاء وقال الإمام أحمد وأبو عبيد وإسحق بن راهويه لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء وعمرو بن شعيب والزهرى وطاوس والحسن والشعبي وحاد بن أبي سليمان والربيع بن أنس وقال معمر والحكم كان على يقول لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها وقال الأوزاعي القضاء لا يجوز أن يأخذ منها أكثر مما ساقى إليها (قلت) ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية قتادة عن عكرمة عن ابن عباس في قصة ثابت بن قيس فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد وبما روى عبد بن حميد حيث قال : أخبرنا قبيصة عن سفيان عن ابن جريج عن عطاء أن النبي صلى الله عليه وسلم كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها يعني المختلعة وحملوا معنى الآية على معنى (فلا جناح عليهما فيما اقتدت به) أى من الذى أعطاها لتقدم قوله (ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به) أى من ذلك وهكذا كان يقرؤها الربيع بن أنس (فلا جناح عليهما فيما اقتدت به منه) رواه ابن جرير ولهذا قال بعده (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) (فصل في ما قال الشافعي : اختلف أصحابنا في الخلع فأخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس في رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد . يتزوجها إن شاء لأن الله تعالى يقول (الطلاق مرتان - قرأ إلى - أن يترجعا) قال الشافعي : وأخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس أن إبراهيم بن سعد بن بطلان وروى غير الشافعي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس أن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص سأله فقال رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أيتزوجها؟ قال : نعم ليس الخلع بطلاق ذكر الله الطلاق في أول الآية وآخرها والخلع فيما بين ذلك فليس الخلع بشيء ثم قرأ (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) وقرأ (فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) وهذا الذى ذهب إليه ابن عباس رضى الله عنهما من أن الخلع ليس بطلاق وإنما هو فسخ هو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان وابن عمر وهو قول طاوس وعكرمة وبه يقول أحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وأبو ثور وداود بن علي الظاهري وهو مذهب الشافعي في القديم وهو ظاهر الآية الكريمة والقول الثاني في الخلع إنه طلاق بائن إلا أن ينوى أكثر من ذلك قال مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن جهمان مولى الأسلميين عن أم بكر الأسلمية أنها اختلعت من زوجها عبد الله بن خالد بن أسيد فأتيا عثمان بن عفان في ذلك فقال تطليقة إلا أن تكون سميت شيئا فهو ما سميت قال الشافعي ولا أعرف جهمان وكذا ضعف أحمد بن حنبل هذا الأثر والله أعلم . وقد روى نحوه عن عمر وعلى وابن مسعود وابن عمر وبه يقول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وشريح والشعبي وإبراهيم وجابر بن زيد واليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وأبو عثمان البتي والشافعي في الجديد غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى الخالعة بخلعة تطليقة أو اثنتين أو أطلق فهو واحدة بائنة وإن نوى ثلاثا وثلاثين وللشافعي قول آخر في الخلع وهو أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق وعرى عن البينة فليس هو بشيء بالكلية

مسألة (١) ذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وإسحق بن راهويه في رواية عنهما وهي المشهورة إلى أن المختلعة عدتها عدة الطائفة بثلاثة قروء إن كانت ممن تحيض وروى ذلك عن عمر وعلى وابن عمر وبه يقول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وعروة وسالم وأبو سامة وعمر بن عبد العزيز وابن شهاب والحسن والشعبي وإبراهيم النخعي وأبو عياض وخلاس بن عمر وقتادة وسفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وأبو العبيد قال الترمذي وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم ومأخذهم في هذا أن الخلع طلاق فتعدد كسائر المطلقات والقول الثاني أنها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها قال ابن أبي شيبة حدثنا يحيى بن سعيد عن نافع عن ابن عمر أن الربيع اختلعت من زوجها فأتى عمها عثمان رضي الله عنه فقال تعتد بحيضة قال وكان ابن عمر يقول تعتد ثلاث حيض حتى قال هذا عثمان فكان ابن عمر يفتي به ويقول عثمان خيرنا وأعلمنا . وحدثنا عبدة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : عدة المختلعة حيضة . وحدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : عدتها حيضة وبه يقول عكرمة وأبان بن عثمان وكل من تقدم ذكره ممن يقول إن الخلع فسخ يلزمه القول بهذا واحتجوا لذلك بما رواه أبو داود والترمذي حيث قال كل منهما حدثنا محمد بن عبد الرحيم البغدادي ، حدثنا علي بن يحيى أخبرنا هشام بن يوسف عن معمر عن عمرو ابن مسلم عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تعتد بحيضة ثم قال الترمذي حسن غريب وقدرناه عبد الرزاق عن معمر عن عمرو ابن مسلم عن عكرمة مرسل (حديث آخر) قال الترمذي حدثنا محمود بن غيلان حدثنا الفضل بن موسى عن سفيان حدثنا محمد بن عبد الرحمن وهو مولى آل طلحة عن سليمان بن يسار عن الربيع بنت معوذ بن عفراء أنها اختلعت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تعتد بحيضة قال الترمذي . الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة (طريق أخرى) قال ابن ماجه . حدثنا علي بن سامة النيسابوري حدثنا يعقوب بن إبراهيم ابن سعد حدثنا أبي عن ابن إسحق أخبرني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قال . قلت لها حدثيني حديثك قالت . اختلعت من زوجي ثم جث عثمان فسألت عثمان ماذا على من العدة ؟ قال لا عدة عليك إلا أن يكون حديث عهد بك فتمكثين عنده حتى تحيض حيضة قالت . وإنما أتبع في ذلك قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في مريم المغالية وكانت تحت ثابت بن قيس فاختلفت منه وقد روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن أبي سلمة ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن الربيع بنت معوذ قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر امرأة ثابت ابن قيس حين اختلعت منه أن تعتد بحيضة .

مسألة (٢) وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء وروى عن عبد الله بن أبي أوفى وماهان الحنفى وسعيد بن المسيب والزهرى أنهم قالوا . إن رد إليها الذي أعطاهما جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها وهو اختيار أبي ثور رحمه الله وقال سفيان الثوري . إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها . وإن كان يسمى طلاقا فهو أملك لرجعتها مادامت في العدة وبه يقول داود بن علي الظاهري واتفق الجميع على أن للمختلعة أن يتزوجها في العدة وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن فرقة أنه لا يجوز له ذلك كما لا يجوز لغيره وهو قول شاذ مردود .

مسألة (٣) وهل له أن يوقع عليها طلاقا آخر في العدة ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء . (أحدها) ليس له ذلك لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه وبه يقول ابن عباس وابن الزبير وعكرمة وجابر بن زيد والحسن البصري والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحق ابن راهويه وأبو ثور ، (والثاني) قال مالك . إن أتبع الخلع طلاقا من غير سكوت بينهما وقع وإن سكوت بينهما لم يقع قال ابن عبد البر : وهذا يشبه ما روى عن عثمان رضي الله عنه . والثالث أنه يقع عليها الطلاق بكل حال مادامت في العدة وهو قول أبي حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح وطاوس وإبراهيم والزهرى والحاكم والحكم وحامد بن أبي سليمان وروى ذلك عن ابن مسعود وأبي الدرداء قال ابن عبد البر : وليس ذلك بثابت عنهما

وقوله (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) أى هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها كما ثبت في الحديث الصحيح « إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها وفرض فرائض فلا تضيعوها وحرم محارم فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة لقوله (الطلاق مرتان) ثم قال (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) ويقولون ذلك بحديث محمود بن لبيد الذي رواه النسائي في سننه حيث قال : حدثنا سليمان بن داود أخبرنا ابن وهب عن خزيمة بن بكير عن أبيه عن محمود بن لبيد قال : أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان ثم قال : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » حتى قام رجل فقال يا رسول الله ألا أقتله ؟ - فيه انقطاع - وقوله تعالى (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) أى أنه إذا طلق الرجل امرأته طلاقاً ثالثاً بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره أى حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح فلو وطئها واطئ في غير نكاح ولو في ملك اليمين لم تحل للأول لأنه ليس بزواج وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول واشتهر بين كثير من الفقهاء أن^(١) سعيد بن المسيب رحمه الله أنه يقول : يحصل المقصود من تحليلها للأول بمجرد العقد على الثاني وفي صحته عنه نظر على أن الشيخ أباعمر بن عبد البر قدحكا عنه في الاستدكار والله أعلم . وقد قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله : حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن علقمة بن مرثد عن سالم بن رزين عن سالم بن عبد الله عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها أترجع إلى الأول ؟ قال « لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها » هكذا وقع في رواية ابن جرير وقد رواه الإمام أحمد فقال : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد قال : سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله يعني ابن عمر عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل تكون له المرأة فيطلقها ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل أن يدخل بها فترجع إلى زوجها الأول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حتى تذوق العسيلة » وهكذا رواه النسائي عن عمرو بن علي الفلاس وابن ماجه عن محمد بن بشار بن دار كلاًهما عن محمد بن جعفر غندر عن شعبة به كذلك فهذا من رواية سعيد بن المسيب عن ابن عمر مرفوعاً على خلاف ما يحكى عنه فبعيد أن يخالف ما رواه بغير مستند والله أعلم . وقد روى أحمد أيضاً والنسائي وابن جرير هذا الحديث من طريق سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد عن رزين بن سليمان الأحمرى عن ابن عمر قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يطلق امرأته ثلاثاً فيتزوجها آخر فيغلق الباب ويرخي الستة فيطلقها قبل أن يدخل بها هل تحل للأول ؟ قال : « لا حتى تذوق العسيلة » وهذا لفظ أحمد وفي رواية لأحمد سليمان بن رزين (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا محمد بن دينار حدثنا يحيى بن يزيد الهنائي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثاً فتزوجت بعده رجلاً فطلقها قبل أن يدخل بها أحل لزوجها الأول ؟ فقال رسول الله ﷺ « لا حتى يكون الآخر قد ذاق من عسيلتها وذاق من عسيلته » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن إبراهيم الأعطى عن هشام بن عبد الملك حدثنا محمد بن دينار فذكره (قلت) ومحمد بن دينار بن صندل أبو بكر الأزدي ثم الطائي البصري ويقال له ابن أبي الفرات اختلفوا فيه فمنهم من ضعفه ومنهم من قواه وقبله وحسن له وذكر أبو داود أنه تغير قبل موته فأنه أعلم . (حديث آخر) قال ابن جرير : حدثنا عبيد بن آدم بن أبي إياس العسقلاني حدثنا أبي حدثنا شيبان حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي الحارث الغفاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في المرأة يطلقها زوجها ثلاثاً فيتزوج غيره فيطلقها قبل أن يدخل بها فيريد الأول أن يراجعها قال : « لا حتى يذوق الآخر

عسيلتها » ثم رواه من وجه آخر عن شيان وهو ابن عبد الرحمن به - وأبو الحارث غير معروف - (حديث آخر)
قال ابن جرير : حدثنا يحيى عن عبيد الله حدثنا القاسم عن عائشة أن رجلا طلق امرأته ثلاثا فتزوجت زوجها فطلقها
قبل أن يمسه فسئل رسول الله ﷺ أتحل للأول ؟ فقال « لا حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول » أخرجه
البخارى ومسلم والنسائي من طرق عن عبيد الله بن عمر العمرى عن القاسم بن أبي بكر عن عمته عائشة به (طريق
أخرى) قال ابن جرير : حدثنا عبيد الله بن إسماعيل الهبارى وسفيان بن وكيع وأبو هشام الرفاعى قالوا : حدثنا أبو
معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت : سئل النبي ﷺ عن رجل طلق امرأته فتزوجت رجلا
غيره فدخل بها ثم طلقها قبل أن يواقعها أتحل لزوجها الأول ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا تحل لزوجها
الأول حتى يذوق الآخر عسيلتها وتذوق عسيلته » وكذا رواه أبو داود عن مسدد والنسائي عن أبي كريب كلاهما
عن أبي معاوية وهو محمد بن حازم الضرير به (طريق أخرى) قال مسلم في صحيحه : حدثنا محمد بن العلاء الهمدانى
حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة أن رسول الله ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها
فتزوج رجلا آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها أتحل لزوجها الأول قال : « لا حتى يذوق عسيلتها » قال مسلم : وحدثنا
أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو فضيل وحدثنا أبو كريب حدثنا أبو معاوية جميعا عن هشام بهذا الإسناد وقدرناه
البخارى من طريق أبي معاوية محمد بن حازم عن هشام به وتفرد به مسلم من الوجهين الآخرين وهكذا رواه ابن
جرير من طريق عبد الله بن المبارك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا بنحوه أو مثله - وهذا إسناد جيد -
وكذا رواه ابن جرير أيضا من طريق علي بن زيد بن جدعان عن امرأة أبيه أمينة أم محمد عن عائشة عن النبي صلى
الله عليه وسلم بمثله وهذا السياق مختصر من الحديث الذى رواه البخارى حدثنا عمرو بن علي حدثنا يحيى
عن هشام بن عروة حدثني أبي عن عائشة مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا
عبد بن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن رفاعة القرظى تزوج امرأة ثم طلقها فأنت النبي ﷺ فذكرت له أنه
لا يأتيها وأنه ليس معه إلا مثل هدية الثوب فقال . « لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك » تفرد به من هذا
الوجه (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الأعلى عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : دخلت امرأة
رفاعة القرظى وأنا وأبو بكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالت إن رفاعة طلقني البتة وإن عبد الرحمن بن
الزبير تزوجني وإنما عنده مثل الهدية وأخذت هدية من جلبابها وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له فقال . يا أبا بكر
ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ﷺ فما زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبسّم فقال
رسول الله ﷺ « كأنك تريد أن ترجعى إلى رفاعة ، لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك » وهكذا
رواه البخارى من حديث عبد الله بن المبارك ومسلم من حديث عبد الرزاق والنسائي من حديث يزيد بن زريع
ثلاثهم عن معمر به وفي حديث عبد الرزاق عند مسلم أن رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات وقدرناه الجماعة إلا أبو داود
من طريق سفيان بن عيينة والبخارى من طريق عقيل ومسلم من طريق يونس بن يزيد وعنده آخر ثلاث تطليقات
والنسائي من طريق أيوب بن موسى وزواه صالح بن أبي الأخضر كلهم عن الزهري عن عروة عن عائشة به . وقال
مالك عن المسور بن رفاعة القرظى عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير أن رفاعة بن سمؤال طلق امرأته تيممة بنت
وهب في عهد رسول الله ﷺ ثلاثا فنكحت عبد الرحمن بن الزبير فاعترض عنها فلم يستطع أن يمسه ففارقها
فأراد رفاعة بن سمؤال أن ينكحها وهو زوجها الأول الذى كان طلقها فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم
فنهاه عن تزويجها وقال « لا تحل لك حتى تذوق العسيلة » هكذا رواه أصحاب الموطأ عن مالك وفيه انقطاع وقد
رواه إبراهيم بن طهمان وعبد الله بن وهب عن مالك عن رفاعة عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير عن أبيه فوصله
﴿فصل﴾ والمقصود من الزوج الثانى أن يكون راغبا فى المرأة قاصدا لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزويج
واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثانى وطأ مباحا فلو وطئها وهى محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض

أو نفساء أو الزوج صائم أو محرم أو معتكف لم تحل للأول بهذا الوطء وكذا لو كان الزوج الثاني ذمياً لم تحل للمسلم بنكاحه لأن أنكحة الكفار باطلة عنده واشتراط الحسن البصري فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج الثاني وكأنه تمسك بما فهمه من قوله عليه الصلاة والسلام «حتى تدوق عسيلته ويدوق عسيلتك» ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضاً وليس المراد بالعسيلة المنى لما رواه الإمام أحمد والنسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «ألا إن العسيلة الجماع» فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بدمه ولعنه ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأمة

﴿ ذكر الأحاديث الواردة في ذلك ﴾

(الحديث الأول) عن ابن مسعود رضي الله عنه . قال الإمام أحمد : حدثنا الفضل بن دكين حدثنا سفيان عن أبي قيس عن الهزيل عن عبد الله قال : لعن رسول الله ﷺ : الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل والمحلل له وآكل الربا وموكله . ثم رواه أحمد والترمذي والنسائي من غير وجه عن سفيان وهو الثوري عن أبي قيس واسمه عبد الرحمن بن ثروان الأودي عن هذيل بن شرحبيل الأودي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ به ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح . قال . والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم عمر وعثمان وابن عمر وهو قول الفقهاء من التابعين ويروى ذلك عن علي وابن مسعود وابن عباس (طريق أخرى) عن ابن مسعود . قال الإمام أحمد حدثنا زكريا بن عدي حدثنا عبيد الله عن عبد الكريم عن أبي الواصل عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال « لعن الله المحلل والمحلل له » (طريق أخرى) روى الإمام أحمد والنسائي من حديث الأعمش عن عبد الله بن مرة عن الحارث الأعور عن عبد الله بن مسعود قال . آكل الربا وموكله وشاهدها وكتبه إذا علموا به والواصلة والمستوصلة ولاوى الصدقة والمتعدي فيها والمرتد على عقبيه أعرابيا بعد هجرته والمحلل والمحلل له ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة

(الحديث الثاني) عن علي رضي الله عنه قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن جابر عن الشعبي عن الحارث عن علي قال . لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهديه وكتبه والواشمة والمستوشمة للحسن ومانع الصدقة والمحلل والمحلل له وكان ينهى عن النوح وكذا رواه عن غندر عن شعبة عن جابر وهو ابن يزيد الجعفي عن الشعبي عن الحارث عن علي به وكذا رواه من حديث إسماعيل بن أبي خالد وحصين بن عبد الرحمن ومجاله بن سعيد وابن عون عن عامر الشعبي به وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث الشعبي به . ثم قال أحمد أخبرنا محمد بن عبد الله أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحق عن الحارث عن علي قال لعن رسول الله ﷺ صاحب الربا وآكله وكتبه وشاهده والمحلل والمحلل له

(الحديث الثالث) عن جابر رضي الله عنه قال الترمذي . أخبرنا أبو سعيد الأشج أخبرنا أشعث بن عبد الرحمن ابن يزيد الأيحي حدثنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله وعن الحارث عن علي أن رسول الله ﷺ لعن الله المحلل والمحلل له ثم قال . وليس إسناده بالقائم ومجاله ضعفه غير واحد من أهل العلم منهم أحمد بن حنبل قال . ورواه ابن نمير عن مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله عن علي قال : وهذا وهم من ابن نمير والحديث الأول أصح (الحديث الرابع) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه . قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه حدثنا يحيى بن عثمان ابن صالح المصري أخبرنا أبي سمعت الليث بن سعد يقول : قال أبو المصعب مسرج هو ابن عاهان (١) قال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بالتيس الستعار » قالوا . بلى يا رسول الله قال « هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له » تفرد به ابن ماجه وكذا رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني عن عثمان بن صالح عن الليث به ، ثم قال : كانوا ينكرون على عثمان في هذا الحديث إنكاراً شديداً (قلت) عثمان هذا أحد الثقات روى عنه البخاري في

(١) في نسخة الأزرهر أبو المصعب مسرج بن عاهان .

صحيحه ثم قد تابعه غيره فرواه جعفر الغرياني عن العباس المعروف بابن فريق عن أبي صالح عبد الله بن صالح عن الليث به فبرى من عهده والله أعلم

(الحديث الخامس) عن ابن عباس رضي الله عنهما . قال ابن ماجه : حدثنا محمد بن بشر حدثنا أبو عامر عن زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : لعن رسول الله ﷺ الحلل والحلل له (طريق أخرى) قال الإمام الحافظ خطيب دمشق أبو إسحق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني السعدي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حنيفة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال . سئل رسول الله ﷺ عن نكاح الحلل قال « لا ، إلا نكاح رغبة لا نكاح دلسة ولا استهزاء بكتاب الله ثم يذوق عسيلتها » ويتقوى هذان الإسنادان بما رواه أبو بكر بن أبي شيبة عن حميد بن عبد الرحمن عن موسى بن أبي الفرات عن عمرو بن دينار عن النبي ﷺ بنحو من هذا فيتقوى كل من هذا المرسل والذي قبله بالآخر والله أعلم

(الحديث السادس) عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر حدثنا عبد الله هو ابن جعفر عن عثمان بن محمد القبري عن أبي هريرة قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلل والحلل له . وهكذا رواه أبو بكر بن أبي شيبة والجوزجاني البيهقي من طريق عبد الله بن جعفر القرشي وقد وثقه أحمد بن حنبل وعلی بن المدینی ويحيى ابن معين وغيرهم وأخرج له مسلم في صحيحه عن عثمان بن محمد الأحنسي وثقه ابن معين عن سعيد القبري وهو متفق عليه (الحديث السابع) عن ابن عمر رضي الله عنهما . قال الحاكم في مستدركه : حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا محمد بن إسحاق الصنعاني حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا أبو يمان محمد بن مطرف المدني عن عمر بن نافع عن أبيه أنه قال : جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثا فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه هل تحل للأول فقال : لا إلا نكاح رغبة كنا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله ﷺ ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد رواه الثوري عن عبد الله بن نافع عن أبيه عن ابن عمر به وهذه الصيغة مشعرة بالرفع وهكذا روى أبو بكر بن أبي شيبة والجوزجاني وحرب الكرماني وأبو بكر الأثرم من حديث الأعمش عن المسيب بن رافع عن قبيصة بن جابر عن عمر أنه قال لا أوتي بحلل ولا محلل له إلا رجعتما وروى البيهقي من حديث ابن لهيعة عن بكير بن الأشج عن سليمان بن يسار أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها ففرق بينهما وكذا روى عن علي وابن عباس وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم

وقوله (فإن طلقها) أي الزوج الثاني بعد الدخول بها (فلا جناح عليهما أن يتراجعا) أي المرأة والزوج الأول (إن ظن أن يقيما حدود الله) أي يتعاشرا بالمعروف . قال مجاهد : إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسة (وتلك حدود الله) أي شرائعه وأحكامه (يبينها) أي يوضحها (لقوم يعلمون)

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين وتركها حتى انقضت عدتها ثم تزوجت بآخر فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها ثم تزوجها الأول هل تعود إليه بما بقي من الثلاث كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وهو قول طائفة من الصحابة رضي الله عنهم أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله وحجتهم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث فلا يهدم مادونها بطريق الأولى والأخرى والله أعلم

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ

عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾

هذا أمر من الله عز وجل للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها ، فإذا أن يسكنها أى يرجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف وهو أن يشهد على رجعتها وينوى عشرتها بالمعروف أو يسرحها أى يتركها حتى تنقضى عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن من غير شقاق ولا محاصرة ولا تقاض قال الله تعالى (ولا تمسكوهن ضراً لتعتدوا) قال ابن عباس ومجاهد ومسروق والحسن وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان وغير واحد : كان الرجل يطلق المرأة فلذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراً لئلا تذهب إلى غيره ثم يطلقها فتعتد فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) أى بمخالفته أمر الله تعالى

وقوله تعالى (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) قال ابن جرير : عند هذه الآية أخبرنا أبو كريب أخبرنا إسحق ابن منصور عن عبد السلام بن حرب عن يزيد بن عبد الرحمن عن أبي العلاء الأودى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعرين فأتاه أبو موسى فقال يا رسول الله أغضبت على الأشعرين ؟ فقال « يقول أحدكم قد طلقت قد راجعت ليس هذا طلاق المسلمين طلقوا المرأة في قبل عدتها » ثم رواه من وجه آخر عن أبي خالدة الدلال وهو يزيد بن عبد الرحمن وفيه كلام . وقال مسروق : هو الذى يطلق في غير كنهه ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة . وقال الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع ومقاتل بن حيان : هو الرجل يطلق ويقول : كنت لاعبا أو يعتق أو ينكح ويقول كنت لاعبا فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فأنزل الله بذلك : وقال ابن مردويه : حدثنا إبراهيم بن محمد حدثنا أبو أحمد الصيرفي حدثني جعفر بن محمد السمسار عن إسماعيل بن يحيى عن سفيان عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس قال : طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فأنزل الله ﷺ الطلاق . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عصام بن رواد حدثنا آدم حدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن هو البصري قال كان الرجل يطلق ويقول : كنت لاعبا ويعتق ويقول : كنت لاعبا وينكح ويقول : كنت لاعبا فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من طلق أو أعتق أو نكح أو أنكح جادا أو لاعبا فقد جاز عليه » وكذا رواه ابن جرير من طريق الزهري عن سليمان بن أرقم عن الحسن مثله وهذا مرسل وقد رواه ابن مردويه من طريق عمرو بن عبيد عن الحسن عن أبي البرداء موقوفا عليه . وقال أيضاً حدثنا أحمد بن الحسن بن أيوب حدثنا يعقوب بن أبي يعقوب حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن سلمة عن الحسن عن عباد بن الصامت في قول الله تعالى (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) قال : كان الرجل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يقول للرجل زوجتك ابنتي ثم يقول : كنت لاعبا ويقول : قد أعتقت ويقول : كنت لاعبا فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من قالهن لاعبا أو غير لاعب فهن جائزات عليه الطلاق والعناق والنكاح » والشهور في هذا الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من طريق عبد الرحمن ابن حبيب بن أدرك عن عطاء عن ابن مائه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة » وقال الترمذي . حسن غريب

وقوله (واذكروا نعمة الله عليكم) أى في إرساله الرسول بالهدى والبيات إليكم (وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة) أى السنة (يعظكم به) أى يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم (واتقوا الله) أى فيما تأتون وفيما تدرتون (واعلموا أن الله بكل شيء عليم) أى فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَبْزِغْنَ بَيْنَهُنَّ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَ سَوَاءَ بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ

يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾
قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طائقة أو طلقته فتتقاضى عدتها ثم يبدو له أن
يتزوجها وأن يراجعها وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فهي الله أن يمنعوها . وكذا روى العوفي
عنه عن ابن عباس أيضاً ، وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعي والزهرى والضحاك أنها أنزلت في ذلك وهذا
الذي قالوه ظاهر من الآية وفيه دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها وأنه لا بد في النكاح من ولي كما قاله الترمذى
وابن جرير عند هذه الآية كما جاء في الحديث « لا تزوج المرأة المرأة ولا تزوج المرأة نفسها فان الزانية هي لا تزوج
نفسها » وفي الأثر الآخر « لا نكاح إلا بولي مرشد وشاهد عدل » وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء محرز في موضعه
من كتب الفروع وقد قررنا ذلك في كتاب الأحكام والله الحمد والمنة

وقد روى أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار الزنى وأخته فقال البخارى رحمه الله في كتابه الصحيح عند تفسير
هذه الآية : حدثنا عبيد الله بن سعيد حدثنا أبو عامر العقدي حدثنا عباد بن راشد حدثنا الحسن قال حدثني معقل بن
يسار قال : كانت لي أخت تخطب الى قال البخارى وقال إبراهيم عن يونس عن الحسن حدثني معقل بن يسار
وحدثنا أبو معمر وحدثنا عبد الوارث حدثنا يونس عن الحسن أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها فتركها
حتى انقضت عدتها فخطبها فأبى معقل فنزلت (فلا تعصوهن أن ينكحن أزواجهن) وهكذا رواه أبو داود
والترمذى وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه من طرق متعددة عن الحسن عن معقل بن يسار به
وصححه الترمذى أيضاً ولفظه عن معقل بن يسار أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت
عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها فهوها وهويتها ثم خطبها مع الخطاب فقال له يالكع
ابن لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقها والله لا ترجع إليك أبداً آخر ما عليك قال فعلم الله حاجته إليها
وحاجتها إلى بلعها فأنزل الله (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) إلى قوله (وأنتم لا تعلمون) فلما سمعها معقل قال : سمع
لربي وطاعة ثم دعاه ، فقال أزوجك وأكرمتك زاد ابن مردويه ، وكفرت عن يميني . وروى ابن جرير عن ابن جريج
قال : هي جميل (١) بنت يسار كانت تحت أبي البداح ، وقال سفيان الثوري . عن أبي إسحق السبيعي قال هي فاطمة بنت يسار
وهكذا ذكر غير واحد من السلف أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار وأخته . وقال السدى نزلت في جابر بن
عبد الله وابنة عم له والصحيح الأول والله أعلم

وقوله (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) أى هذا الذى نهيناكم عنه من منع الولايا أن
يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف يأمر به ويتعظ به وينفعل له (من كان منكم) أيها الناس (يؤمن بالله
واليوم الآخر) أى يؤمن بشرع الله ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة وما فيها من الجزاء (ذلكم أزكى لكم
وأطهر) أى اتباعكم شرع الله في رد المولىات إلى أزواجهن وترك الحمية في ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم
(والله يعلم) أى من المصالح فيها يأمر به وينهى عنه (وأنتم لا تعلمون) أى الحيرة فيما تأتون ولا فيما تدررون

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِصَ الرِّضَاعَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ
أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة وهي سنتان فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك ولهذا قال (لمن أراد أن يتم الرضاعة) وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم . قال الترمذی . باب ماجاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين ﴿ حدثنا قتيبة حدثنا أبو عوانة عن هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام » هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئا وفاطمة بنت المنذر بن الزبير بن العوام وهي امرأة هشام بن عروة (قلت) تفرد الترمذی برواية هذا الحديث ورجاله على شرط الصحيحين ومعنى قوله « إلا ما كان في الثدي » أى في محال الرضاعة قبل الحولين كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن وكيع وغندر عن شعبة عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب قال : لما مات إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن ابني مات في الثدي إن له مرضعا في الجنة » وهكذا أخرجه البخاري من حديث شعبة وإنما قال عليه السلام ذلك لأن ابنه إبراهيم عليه السلام مات وله سنة وعشرة أشهر فقال إن له مرضعا يعني تكمل رضاعه ويؤيده ما رواه الدارقطني من طريق الهيثم بن جميل عن سفيان بن عيينة عن عمرو ابن دينار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين » ثم قال ولم يسنده عن ابن عيينة غير الهيثم بن جميل وهو ثقة حافظ (قلت) وقد رواه الإمام مالك في الموطأ عن ثور بن يزيد عن ابن عباس مرفوعا ورواه الدرر الأوردى عن ثور عن عكرمة عن ابن عباس وزاد « وما كان بعد الحولين فليس بشيء » وهذا أصح وقال أبو داود الطيالسي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لا رضاع بعد فصال ولا يتم بعد احتلام » وتعمم الدلالة من هذا الحديث في قوله تعالى (وفصاله في عامين أن اشكر لي) وقال (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين يروى عن عليّ وابن عباس وابن مسعود وجابر وأبي هريرة وابن عمر وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء والجمهور وهو مذهب الشافعي وأحمد وإسحق والثوري وأبي يوسف ومحمد ومالك في رواية وعنه أن مدته سنتان وهران وفي رواية وثلاثة أشهر وقال أبو حنيفة سنتان وستة أشهر وقال زفر بن الهذيل مادام يرضع فإلى ثلاث سنين وهذا رواية عن الأوزاعي قال مالك : ولو فطم الصبي دون الحولين فأرضعته امرأة بعد فصاله لم يحرم لأنه قد صار بمنزلة الطعام وهو رواية عن الأوزاعي وقد روى عن عمر وعلى أنهما قالا : لا رضاع بعد فصال فيحتمل أنهما أرادا الحولين كقول الجمهور سواء فطم أولم يفطم ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك والله أعلم . وقد روى في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم وهو قول عطاء بن أبي رباح والليث بن سعد وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نساها فترضعه وتحتج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيرا فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة وأبي ذلك سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ورأين ذلك من الخصائص وهو قول الجمهور وحجة الجمهور وهم الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة والأكابر من الصحابة وسائر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى عائشة ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انظرن من إخوانكن فأعنا الرضاعة من الحاجة » وسيأتي الكلام على مسائل الرضاع وفيما يتعلق برضاع الكبير عند قوله تعالى (وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم) وقوله (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) أى وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف أى بما جرت به عادة أمثلهن في بلدن من غير إسراف ولا إقتار بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتارده كما قال تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاه سيجعل الله بعد عسر يسرا) قال الضحاك : إذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف .

وقوله (لا تضار والدة بولدها) أى بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذى لا يعيش بدون تناوله غالبا ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرر لها ولهذا قال (ولا مولود له بولده) أى بأن يريد أن ينتزع الولد منها اضرازا بها قاله مجاهد وقتادة والضحاك والزهرى والسدى والثورى وابن زيد وغيرهم .

وقوله تعالى (وعلى الوارث مثل ذلك) قيل فى عدم الضرر لتربيته قاله مجاهد والشعبي والضحاك وقيل عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها وهو قول الجمهور وقد استقصى ذلك ابن جرير فى تفسيره وقد استدلل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف ويرشح ذلك بحديث الحسن عن سمرة مرفوعا « من ملك ذارحم محرم نعتق عليه » وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما فى بدنه أو فى عقله وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين فقال لا ترضعيه .

وقوله (فإن أرادا فصلا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما) أى فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ورأيا فى ذلك مصلحة له وتشاورا فى ذلك وأجمعا عليه فلا جناح عليهما فى ذلك فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر قاله الثورى وغيره وهذا فيه احتياط للطفل وإلزام للنظر فى أمره وهو من رحمة الله بعباده حيث حجب على الوالدين فى تربية طفلهما وأرشدتهما إلى ما يصلحهما ويصلحه كما قال فى سورة الطلاق (فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى) .

وقوله تعالى (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتهم بالمعروف) أى إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد إما لعذر منها أو لعذرله فلا جناح عليهما فى بذله ولا عليه فى قبوله منها إذا سلمها أجرتها للماضية بالتي هي أحسن واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف قاله غير واحد . وقوله (واتقوا الله) أى فى جميع أحوالكم (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) أى فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم .

﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتدن أربعة أشهر وعشر ليال وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع ومستندة فى غير المدخول بها عموم الآية الكريمة وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها فترددوا إليه مرارا فى ذلك فقال أقول فيها برأى فإن يك صوابا فمن الله وإن يك خطأ فمضى ومن الشيطان والله ورسوله بريان منه : لها الصداق كاملا وفى لفظ لها صداق مثلها لاوكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به فى بروع بنت واشق ففرح عبد الله بذلك فرحا شديدا وفى رواية فقام رجال من أشجع فقالوا : نشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به فى بروع بنت واشق . ولا يخرج من ذلك إلا التوفى عنها زوجها وهى حامل فإن عدتها بوضع الحمل . ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع أو أربعة أشهر وعشر للجمع بين الآيتين وهذا مأخذ جيد ومسلك قوى لولا ما ثبتت به السنة فى حديث سبيعة الأسلية المخرج فى الصحيحين من غير وجه أنها توفى عنها زوجها سعد بن خولة وهى حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته وفى رواية فوضعت حملها بعده ليلال فلما تملت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل

عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها : مالى أراك متجملة لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بنا كح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سبيعة ، فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابي حين أمسيت فأنتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك فأفئني بأنى قد حلت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزويج إن بدالى ، قال أبو عمر بن عبد البر : وقد روى أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة يعنى لما احتج عليه به قال ويصح ذلك عنه أن أصحابه أفئوا بحديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة . وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة فإن عدتها على النصف من عدة الحرة شهران وخمس ليل على قول الجمهور لأنها لما كانت على النصف من الحرة فى الحد فكذلك فلتكن على النصف منها فى العدة . ومن العلماء كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية من يسوى بين الزوجات الحرائر والإماء فى هذا المقام لعموم الآية ولأن العدة من باب الأمور الجبلية التى تستوى فيها الحليقة وقد ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما أن الحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً لاحتمال اشتغال الرحم على حمل فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً كما جاء فى حديث ابن مسعود الذى فى الصحيحين وغيرهما « إن خلق أحداكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح » فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه والله أعلم . قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة سألت سعيد بن المسيب ما بال العشر ؟ قال : فيه ينفخ الروح وقال الربيع بن أنس : قلت لأبى العالية لم صارت هذه العشر مع الأشهر الأربعة ؟ قال : لأنه ينفخ فيه الروح رواها ابن جرير ومن ههنا ذهب الإمام أحمد فى رواية عنه إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا لأنها صارت فراشا كالحرائر وللحديث الذى رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هرون عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن رجاء بن حيوة عن قبيصة ابن ذؤيب عن عمرو بن العاص أنه قال : لا تلبسوا علينا سنة نبينا : عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر ورواه أبو داود عن قتيبة عن غندر وعن ابن الثنى عن عبد الأعلى ، وابن ماجه عن على بن محمد عن الربيع ثلاثتهم عن سعيد بن أبى عروبة عن مطر الوراق عن رجاء بن حيوة عن قبيصة عن عمرو بن العاص فذكره وقد روى عن الإمام أحمد أنه أنكر هذا الحديث وقيل إن قبيصة لم يسمع عمرا وقد ذهب إلى القول بهذا الحديث طائفة من السلف منهم سعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين وأبو عياض والزهري وعمرو بن عبد العزيز وبه كان يأمر يزيد بن عبد الملك بن مروان وهو أمير المؤمنين وبه يقول الأوزاعى وإسحق بن راهويه وأحمد بن حنبل فى رواية عنه وقال طاوس وقتادة : عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها نصف عدة الحرة شهران وخمس ليل وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح بن حي تعمد ثلاث حيض وهو قول على وابن مسعود وعطاء وإبراهيم النخعى وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه عدتها حيضة وبه يقول ابن عمر والشعبي ومكحول والليث وأبو عبيد وأبو ثور والجمهور وقال الليث : ولو مات وهى حائض أجزأتها وقال مالك : فلو كانت ممن لا تحيض فثلاثة أشهر وقال الشافعى والجمهور : شهر وثلاثة أحب إلى والله أعلم

وقوله (فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خير) يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها لما ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمى المؤمنين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » وفى الصحيحين أيضاً عن أم سلمة أن امرأة قالت يا رسول الله إن ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عنها أفنكحلها ؟ فقال « لا » كل ذلك يقول - لا - مرتين أو ثلاثاً ثم قال « إنما هى أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة » قالت زينب بنت أم سلمة : كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حفشا ولبست شر ثيابها ولم تمس طيباً ولا شيئاً حتى تمر بها سنة ثم تخرج فتعطى بعة فترمى بها ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتقتض به فقلمت اقتض بشئ إلامات^(١) ومن ههنا ذهب كثيرون من

العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها وهي قوله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج) الآية كما قاله ابن عباس وغيره وفي هذا نظركما سيأتي تقريره . والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلى وغير ذلك وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً وهل يجب في عدة البائن فيه قولان . ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن سواء في ذلك الصغيرة والآيسة والحررة والأمة والمسلمة والكافرة لعموم الآية وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه لا إحداد على الكافرة وبه يقول أشهب وابن نافع من أصحاب مالك وحجة قائل هذه المقالة قوله صلى الله عليه وسلم « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » قالوا فجعله تعبداً وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثوري الصغيرة بها لعدم التكليف وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لتقصها ومحل تقرير ذلك كله في كتب الأحكام والفروع والله الموفق للصواب

وقوله (فإذا بلغن أجلهن) أى انقضت عدتهن قاله الضحاك والريبع بن أنس (فلا جناح عليكم) قال الزهري أى على أوليائهن (فيما فعلن) يعنى النساء اللاتي انقضت عدتهن قال الوثني عن ابن عباس إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تزني وتتصنع وتعرض للتزويج فذلك المعروف وروى عن مقاتل بن حيان نحوه وقال ابن جريج عن مجاهد (فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف) قال النكاح الحلال الطيب وروى عن الحسن والزهري والسدي ونحو ذلك

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى (ولا جناح عليكم) أن تعرضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح قال الثوري وشعبة وجريه وغيرهم عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس في قوله (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) قال التعريض أن يقول إني أريد التزويج وإني أحب امرأة من امرها ومن امرها - يعرض لها بالقول بالمعروف - وفي رواية ووددت أن الله رزقني امرأة ونحو هذا ولا ينتصب للخطبة وفي رواية إني لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله ولوددت أني وجدت امرأة صالحة ولا ينتصب لها مادامت في عدتها ورواه البخاري تعليقا فقال . وقال لي طلق بن غنام عن زائدة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) هو أن يقول إني أريد التزويج وإن النساء لمن حاجتي ولوددت أن ييسر لي امرأة صالحة . وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والشعبي والحسن وقتادة والزهري وي زيد بن قسيط ومقاتل بن حيان والقاسم بن محمد وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة وهكذا حكم المطلقة المتبوتة يجوز التعريض لها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم وقال لها فإذا حلت فكاذبني فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه فزوجها إياه فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها والله أعلم

وقوله (أو أكنتم في أنفسكم) أى أضمرتم في أنفسكم من خطبتن وهذا كقوله تعالى (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) وكقوله (وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) ولهذا قال (علم الله أنكم ستذكرونهن) أى

في أنفسكم فرفع الحرج عنكم في ذلك ثم قال (ولكن لا تواعدوهن سرّاً) قال أبو مجلز وأبو الشعثاء جابر بن زيد والحسن البصري وإبراهيم النخعي وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وسليمان التيمي ومقاتل بن حيان والسدي يعني الزنا وهو معنى رواية العوفي عن ابن عباس واختاره ابن جرير وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (ولكن لا تواعدوهن سرّاً) لا تنقل لها إني عاشق وعاهديني أن لا تزوجي غيري ونحو هذا وكذا روى عن سعيد بن جبيرة والشعبي وعكرمة وأبي الضحى والضحاك والزهرى ومجاهد والثوري هو أن يأخذ ميثاقها أن لا تزوج غيره وعن مجاهد هو قول الرجل للمرأة لا فتوتيني بنفسك فإني ناكحك وقال قتادة : هو أن يأخذ عهد المرأة وهي في عدتها أن لا تنكح غيره فهي الله عن ذلك وقدم فيه وأحل الخطبة والقول بالمعروف وقال ابن زيد (ولكن لا تواعدون سرّاً) هو أن يزوجه في العدة سرّاً فإذا أظهر ذلك وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك ولهذا قال (إلا أن تقولوا قولاً معروفاً) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبيرة والسدي والثوري وابن زيد : يعني به ما تقدم من إباحة التعريض كقوله : إني فيك لرأغب ونحو ذلك وقال محمد بن سيرين قلت لعبيدة : ما معنى قوله (إلا أن تقولوا قولاً معروفاً) قال : يقول لوليها : لا تسبقني بها ، يعني لا تزوجه حتى تعلمني ، رواه ابن أبي جاتم .

وقوله (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) يعني ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة . قال ابن عباس ومجاهد والشعبي وقتادة والربيع بن أنس وأبو مالك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان والزهرى وعطاء الخراساني والسدي والثوري والضحاك (حتى يبلغ الكتاب أجله) يعني ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة .. واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها فدخل بها فإنه يفرق بينهما وهل تحرم عليه أبداً ؟ على قولين : الجمهور على أنها لا تحرم عليه بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها . وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأييد واحتج في ذلك بما رواه عن ابن شهاب وسليمان بن يسار أن عمر رضي الله عنه قال : أيما امرأة نكحت في عدتها فإن كان زوجها الذي تزوج بها لم يدخل بها ففرق بينهما ثم اعتدت ببقية عدتها من زوجها الأول وكان خاطباً من الخطاب وإن كان دخل بها ففرق بينهما ثم اعتدت ببقية عدتها من زوجها الأول ثم اعتدت من الآخر ثم لم ينكحها أبداً ، قالوا . ومأخذ هذا أن الزوج لما استعجل ما أجل الله عوقب بقبض قصده فحرمت عليه على التأييد كالقاتل يحرم الميراث . وقد روى الشافعي هذا الأثر عن مالك . قال البيهقي . وذهب إليه في القديم ورجع عنه في الجديد لقول علي أنها تحل له (قلت) قال . ثم هو منقطع عن عمر . وقد روى الثوري عن أشعث عن الشعبي عن مسروق أن عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها وجعلها يحتجمان .

وقوله (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه) توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء وأرشدتهم إلى إضمار الخير دون الشر ثم لم يؤيسهم من زحمته ولم يقطعهم من عائده فقال (واعلموا أن الله غفور رحيم) .

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَ عَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها . قال ابن عباس وطاوس وإبراهيم والحسن البصري : المس النكاح بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها . والفرض لها إن كانت مفوضة وإن كان في هذا انكسار لقلبها ولهذا أمر تعالى بامتاعها وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاء من زوجها بحسب حاله على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . وقال سفيان الثوري عن إسماعيل بن أمية عن عكرمة عن ابن عباس قال . متعة الطلاق أعلاه الخادم ودون ذلك الورق ودون ذلك الكسوة . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . إن كان موسراً متعها بخادم أو ونحو ذلك وإن كان معسراً أمتعها بثلاثة أثواب . وقال الشعبي أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب قال . وكان شريح يتمتع

بخمسةائة . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب بن سيرين قال . كان يتمتع بالخدام أو بالنفقة أو بالكسوة . قال . ومتع الحسن بن علي بعشرة آلاف ويروى أن المرأة قالت * متاع قليل من حبيب مفارق * وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها . وقال الشافعي في الجديد . لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة وأحب ذلك إلى أن يكون أقله ما تجزئ فيه الصلاة وقال في القديم لا أعرف في المتعة قدراً إلا أني أستحسن ثلاثين درهما كما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما . وقد اختلف العلماء أيضاً هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها على أقوال : أحدها أنها تجب للمتعة لكل مطلقة لعدم قوله تعالى (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) ولقوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا جميعا) وقد كن مفروضا لهن ومسدخولا بهن وهذا قول سعيد بن جبير وأبي العالية والحسن البصري وهو أحد قولي الشافعي . ومنهم من جعله الجديد الصحيح والله أعلم .

(والقول الثاني) أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس وإن كانت مفروضا لها لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فتمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) قال شعبة وغيره عن قتادة عن سعيد بن المسيب قال نسخت هذه الآية التي في الأحزاب الآية التي في البقرة وقد روى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد وأبي أسيد أنهما قالوا تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمة بنت شرجيل فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين (والقول الثالث) أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول وجب لها عليه شطره فإن دخل بها استقر الجميع وكان ذلك عوضا لها عن المتعة وإنما الصابة التي لم يفرض لها ولم يدخل بها فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها وهذا قول ابن عمر ومجاهد ومن العلماء من استحبها لكل مطلقة بمن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول وهذا ليس بمنكور وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب ولهذا قال تعالى (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين * وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) ومن العلماء من يقول إنها مستحبة مطلقا . قال ابن أبي حاتم . حدثنا كثير بن شهاب القزويني حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا عمرو - يعني ابن أبي قيس - عن أبي إسحق عن الشعبي قال . ذكروا له المتعة أيحبس فيها فقرأ (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) قال الشعبي . والله ما رأيت أحدا حبس فيها والله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة .

(وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ . وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبيها لاسيما وقد قرنهما بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية والله أعلم وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء لاخلاف بينهم في ذلك فإنه متى كان قد ممي لها صداقا ثم فارقها قبل دخوله بها فإنه يجب لها نصف ماسمى من الصداق إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها وهو مذهب الشافعي في القديم وبه حكم الخلفاء الراشدون لكن قال الشافعي : أخبرنا مسلم بن خالد أخبرنا ابن جريج عن ليث بن أبي سليم عن طاوس عن ابن عباس أنه قال في الرجل يتزوج المرأة فيخلوها ولا بمسها ثم يطلقها . ليس لها إلا نصف الصداق لأن الله يقول (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ) قال الشافعي بهذا أقول وهو ظاهر الكتاب قال البيهقي وليث بن

أبي سليم وإن كان غير محتج به فقد رويناه من حديث ابن أبي طلحة عن ابن عباس فهو مقوله وقوله (إلا أن يعفون) أي النساء عما وجب لها على زوجها فلا يجب لها عليه شيء قال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله (إلا أن يعفون) قال : إلا أن تغفو الشيب فتدع حقها . قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله وروى عن شريح وسعيد بن المسيب وعكرمة ومجاهد والشعبي والحسن ونافع وقتادة وجابر بن زيد وعطاء الخراساني والضحاك والزهرى ومقاتل بن حيان وابن سيرين والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك . قال : وخالفهم محمد بن كعب القرظي فقال (إلا أن يعفون) يعني الرجال وهو قول شاذ لم يتابع عليه انتهى كلامه .

وقوله (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) قال ابن أبي حاتم . ذكر عن ابن لهيعة حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال « ولي عقدة النكاح الزوج » وهكذا أسنده ابن مردويه من حديث عبد الله بن لهيعة به وقد أسنده ابن جرير عن ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - فذكره ولم يقل عن أبيه عن جده فأنه أعلم ثم قال ابن أبي حاتم وحدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا جابر يعني ابن أبي حازم عن عيسى يعني ابن عاصم قال : سمعت شريحاً يقول سأني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح فقلت له هو ولي المرأة فقال علي : لا بل هو الزوج ثم قال وفي إحدى الروايات عن ابن عباس وجبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وشريح في أحد قولي وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعكرمة ونافع ومحمد بن سيرين والضحاك ومحمد بن كعب القرظي وجابر بن زيد وأبي مجاز والربيع بن أنس وإياس بن معاوية ومكحول ومقاتل بن حيان أنه الزوج (قلت) وهذا هو الجديد من قولي الشافعي ومذهب أبي حنيفة وأصحابه والثوري وابن شبرمة والأوزاعي واختاره ابن جرير ومأخذ هذا القول أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج فإن بيده عقدها وإبرامها ونقضها وانهدامها وكما أنه لا يجوز للولي أن يهب شيئاً من مال المولية للغير فكذلك في الصداق قال والوجه الثاني حدثنا أبي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عمرو بن دينار عن ابن عباس - في الذي ذكر الله بيده عقدة النكاح - قال ذلك أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا بأذنه وروى عن علقمة والحسن وعطاء وطاوس والزهرى وربيعة وزيد بن أسلم وإبراهيم النخعي وعكرمة في أحد قولي ومحمد بن سيرين في أحد قولي أنه الولي وهذا مذهب مالك وقول الشافعي في القديم ومأخذه أن الولي هو الذي أكسبها إياه فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها وقال ابن جرير : حدثنا سعيد بن الربيع الرازي حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة قال : أذن الله في العفو وأمر به فأمرأة عفت جازعوها فان شحت وضنت عفولها^(١) جازعفوه وهذا يقتضي صحة عفو الولي وإن كانت شديدة وهو مروى عن شريح لكن أنكر عليه الشعبي فرجع عن ذلك وصار إلى أنه الزوج وكان يباهل عليه .

وقوله (وأن تغفوا أقرب للتقوى) قال ابن جرير قال بعضهم : خوطب به الرجال والنساء حدثني يونس أنبأنا ابن وهب سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس (وأن تغفوا أقرب للتقوى) قال أقرهما للتقوى الذي يعفو وكذا روى عن الشعبي وغيره وقال مجاهد والنخعي والضحاك ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والثوري : الفضل ههنا أن تغفو المرأة عن زوجها أو إتمام الرجل الصداق لها ولهذا قال (ولا تنسوا الفضل بينكم) أي الإحسان قاله سعيد وقال الضحاك وقتادة والسدي وأبو وائل المعروف يعني لا تهملوه بل استعملوه بينكم وقد قال أبو بكر ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا موسى بن إسحق حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا يونس بن بكير حدثنا عبد الله بن الوليد الرصافي عن عبد الله بن عبيد عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال ليأتين على الناس زمان عضوض بعض المؤمن على مافي يديه وينسى الفضل وقد قال الله تعالى (ولا تنسوا الفضل بينكم) « شرار يبايعون كل مضطر » وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع المضطر وعن بيع الغرر فإن كان عندك خير فعد به على أخيك ولا تزده هلاكاً إلى هلاكه فإن المسلم أخو المسلم لا يحرز ولا يحرمه . وقال سفيان عن أبي هريرة قال رأيت عون بن عبد الله في مجلس القرظي فكان عون يحدثنا ولحيته ترش من البكاء ويقول صحبت الأغنياء فكنت من

(١) الظاهر أن أصله : وعفا وليها - وفي نسخة الأزهر : عفا وليها وجاز عفوه .

أكثرهم هما حين رأيتهما أحسن ثيابا وأطيب ريحا وأحسن مركبا وجالست الفقراء فاسترحت بهم وقال (ولا تنسوا الفضل بينكم) إذا أتاه السائل وليس عنده شيء فليدع له رواء ابن أبي حاتم (إن الله بما تعملون بصير) أى لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم وسيجزي كل عامل بعمله .

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة في وقتها » قلت ثم أى ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » قلت ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قال : حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني وقال الإمام أحمد حدثنا يونس حدثنا ليث عن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم عن القاسم بن غنام عن جدته أم أبيه الدنيا عن جدته أم فروة وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الأعمال فقال « إن أحب الأعمال إلى الله تعجيل الصلاة لأول وقتها » وهكذا رواه أبو داود والترمذي وقال لا نعرفه إلا من طريق العمري وليس بالقوى عند أهل الحديث وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى وقد اختلف السلف والخلف فيها أى صلاة هي قليل إنها الصبح حكاه مالك في الموطأ بلاغا عن علي وابن عباس وقال هشيم وابن عليه وغندر وابن أبي عدي وعبد الوهاب وشريك وغيرهم عن عوف الاعرابي عن أبي رجاء العطاردي قال : صليت خلف ابن عباس الفجر فقلت فيها ورفع يديه ثم قال : هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين رواه ابن جرير ورواه أيضا من حديث عوف عن خلاص بن عمرو عن ابن عباس مثله سواء وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا عوف عن أبي المنهال عن أبي العالية عن ابن عباس أنه صلى الغداة في مسجد البصرة فقلت قبل الركوع وقال هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه فقال (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) وقال أيضا حدثنا محمد بن عيسى الدامغانى أخبرنا ابن المبارك أخبرنا الربيع بن أنس عن أبي العالية قال : صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة صلاة الغداة فقلت لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جاني ما الصلاة الوسطى قال : هذه الصلاة . وروى من طريق أخرى عن الربيع عن أبي العالية أنه صلى مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الغداة فلما فرغوا قال قلت لهم أيتها الصلاة الوسطى ؟ قالوا التي قد صليتها قبل . وقال أيضا حدثنا ابن بشار حدثنا ابن عثمة عن سعيد بن بشير عن قتادة عن جابر بن عبد الله قال : الصلاة الوسطى صلاة الصبح وحكاه ابن أبي حاتم عن ابن عمر وأبي أمامة وأنس وأبي العالية وعبيد بن عمير وعطاء ومجاهد وجابر بن زيد وعكرمة والربيع بن أنس ورواه ابن جرير عن عبد الله بن شداد بن الهاد أيضا وهو الذي نص عليه الشافعي رحمه الله محتجا بقوله تعالى (وقوموا لله قانتين) والقنوت عنده في صلاة الصبح ومنهم من قال هي وسطى باعتبار أنها لا تقصر وهي بين صلاتين رباعيتين مقصورتين وترد المغرب وقليل لأنها بين صلاتي ليل جهريتين وصلاتي نهاريين وقليل إنها صلاة الظهر قال أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا ابن أبي ذئب عن الزبرقان يعني ابن عمرو عن زهرة يعني ابن معبد قال : كنا جلوسا عند زيد بن ثابت فأرسلوا إلى أسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى فقال هي الظهر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصليها بالهجير وقال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة حدثني عمرو بن أبي حكيم سمعت الزبرقان يحدث عن عروة بن الزبير عن زيد بن ثابت قال : كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالمهاجرة ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها فزلت (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) وقال إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين . ورواه أبو داود في سننه من حديث شعبة به وقال أحمد أيضا : حدثنا يزيد حدثنا ابن أبي وهب عن الزبرقان أن رهطاً من قريش مريهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون فأرسلوا إليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى فقال هي

العصر فقام إليه رجلان منهم فسألاه فقال . هي الظهر . ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد فسألاه فقال : هي الظهر إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي الظهر بالهجير فلا يكون وراءه إلا الصف والصفان والناس في قائلتهم وفي تجارتهم فأنزل الله (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليتبين رجال أو لأحرقن بيوتهم » والزريقان هو ابن عمرو بن أمية الضمري لم يدرك أحداً من الصحابة والصحيح ما تقدم من روايته عن زهرة بن معبد وعروة بن الزبير وقال شعبة وهما عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن زيد بن ثابت قال : الصلاة الوسطى صلاة الظهر . وقال أبو داود الطيالسي وغيره عن شعبة أخبرني عمر ابن سليمان من ولد عمر بن الخطاب قال سمعت عبد الرحمن بن أبان بن عثمان يحدث عن أبيه عن زيد بن ثابت قال : الصلاة الوسطى هي الظهر ورواه ابن جرير عن زكريا بن يحيى بن أبي زائدة عن عبد الصمد عن شعبة عن عمر بن سليمان عن زيد بن ثابت في حديث رفعه قال « الصلاة الوسطى صلاة الظهر » ومن روى عنه أنها الظهر ابن عمر وأبو سعيد وعائشة على اختلاف عنهم وهو قول عروة بن الزبير وعبد الله بن شداد بن الهاد ورواية عن أبي حنيفة رحمهم الله وقيل إنها صلاة العصر قال الترمذي والبعوي رحمهما الله وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم وقال القاضي الماوردي هو قول جمهور التابعين وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر هو قول أكثر أهل الأثر وقال أبو محمد بن عطية في تفسيره وهو قول جمهور الناس وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي في كتابه المسمى بكشف الغطاء في بيان الصلاة الوسطى وقد نص فيه أنها العصر وحكاها عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي أيوب وعبد الله بن عمرو وسمرة بن جندب وأبي هريرة وأبي سعيد وحفصة وأم حبيبة وأم سامة وعن ابن عمر وابن عباس وعائشة على الصحيح عنهم وبه قال عبيدة وإبراهيم النخعي ورزين وزر بن حبيش وسعيد بن جبير وابن سيرين والحسن وقتادة والضحاك والكلبي ومقاتل وعبيد بن مريم وغيرهم وهو مذهب أحمد بن حنبل قال القاضي الماوردي والشافعي قال ابن المنذر وهو الصحيح عن أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد واختاره ابن حبيب المالكي رحمهم الله

ذكر الدليل على ذلك — قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مسلم عن شتير بن شكل عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملائكة الله قلوبهم وبيوتهم ناراً » ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء ، وكذا رواه مسلم من حديث أبي معاوية محمد بن حازم الضرير والنسائي من طريق عيسى بن يونس كلاهما عن الأعمش عن مسلم بن صبيح عن أبي الضحى عن شتير بن شكل بن حميد عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله ، وقد رواه مسلم أيضاً من طريق شعبة عن الحكم بن عينة عن يحيى بن الجزار عن علي بن أبي طالب وأخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وغير واحد من أصحاب المساند والسنن والصحاح من طرق يطول ذكرها عن عبيدة السلماني عن علي بن به وزواه الترمذي والنسائي من طريق الحسن البصري عن علي بن به قال الترمذي : ولا يعرف سماعه منه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن عاصم عن زر قال قلت لعبيدة سل علياً عن الصلاة الوسطى فسأله فقال : كنا نراها الفجر أو الصبح حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الأحزاب « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملائكة الله قبورهم وأجوافهم أو بيوتهم ناراً » ورواه ابن جرير عن بNDAR عن ابن مهدي به . وحديث يوم الأحزاب وشغل المشركين رسول الله ﷺ وأصحابه عن أداء الصلاة العصر يومئذ مروي عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم وإنما المقصود رواية من نص منهم في روايته أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر . وقد رواه مسلم أيضاً من حديث ابن مسعود والبراء بن عازب رضي الله عنهما (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا هام عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال « صلاة الوسطى صلاة العصر » وحدثنا بهز وعفان قالا . حدثنا أبان حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) وسمّاها لنا أنها هي صلاة العصر وحدثنا محمد بن جعفر وروح قالا : حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال « هي

العصر « قال ابن جعفر : سئل عن صلاة الوسطى ورواه الترمذى من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة وقال : حسن صحيح : وقد سمع منه حديث آخر وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن منيع حدثنا عبد الوهاب بن عطاء عن التيمي عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الصلاة الوسطى صلاة العصر » (طريق أخرى بل حديث آخر) قال ابن جرير وحدثني الثني حدثنا سليمان بن أحمد الجرشي الواسطي حدثنا الوليد بن مسلم قال أخبرني صدقة بن خالد حدثني خالد بن دهقان عن خالد بن سيلان عن كهيل بن حرملة قال سئل أبو هريرة عن الصلاة الوسطى فقال : اختلفنا فيها كما اختلفتم فيها ونحن بفناء بيت رسول الله ﷺ وفيما الرجل الصالح أبوهاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فقال : أنا أعلم لكم ذلك فقام فاستأذن على رسول الله ﷺ فدخل عليه ثم خرج إلينا فقال أخبرنا أنها صلاة العصر . غريب من هذا الوجه جداً (حديث آخر) قال ابن جرير . حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا عبد السلام عن مسلم بن مولى أبي جبير حدثني إبراهيم بن يزيد الدمشقي قال : كنت جالساً عند عبد العزيز بن مروان فقال يا فلان فقل له : أى شيء سمعت من رسول الله ﷺ في الصلاة الوسطى ؟ فقال رجل جالس : أرسلني أبو بكر وعمر وأنا غلام صغير أسأله عن الصلاة الوسطى فأخذ اصبعي الصغيرة فقال « هذه صلاة الفجر » وقبض التي تليها فقال « هذه الظهر » ثم قبض الابهام فقال « هذه المغرب » ثم قبض التي تليها فقال « هذه العشاء » ثم قال « أى أصابعك بقيت » فقلت الوسطى فقال « أى الصلاة بقيت ؟ » فقلت العصر فقال « هي العصر » غريب أيضاً جداً (حديث آخر) قال ابن جرير : حدثني محمد بن عوف الطائي حدثنا محمد بن إسماعيل ابن عياش حدثني أبي حدثني أبو ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة الوسطى صلاة العصر » إسناده لا بأس به (حديث آخر) قال أبو حاتم بن حبان في صحيحه حدثنا أحمد بن يحيى بن زهير حدثنا الجراح بن مخلد حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا همام بن مورو العجلي عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « صلاة الوسطى صلاة العصر » وقد روى الترمذى من حديث محمد ابن طلحة بن مصرف عن زيد اليامي عن مرة الهمداني عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « صلاة الوسطى صلاة العصر » ثم قال حسن صحيح وأخرجه مسلم في صحيحه من طريق محمد بن طلحة به ولفظه « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر » الحديث فهذه نصوص في المسألة لا تحتل شيئاً ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها وقوله ﷺ في الحديث الصحيح من رواية الزهري عن سالم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » وفي الصحيح أيضاً من حديث الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي قلابة عن أبي كثير عن أبي الجاهر عن بريدة بن الحبيب عن النبي ﷺ قال « بكرؤا بالصلاة في يوم الغيم فإنه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله » وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحق أخبرنا ابن لهيعة عن عبد الله ابن هيرة عن أبي تميم عن أبي نضرة التماري قال : صلى بنا رسول الله ﷺ في واد من أوديتهم يقال له الحميص (١) صلاة العصر فقال « إن هذه الصلاة عرضت على الدين من قبلكم فضيعوها ألا ومن صلاها ضعف له أجره مرتين ألا ولا صلاة بعدها حتى تروا الشاهد » ثم قال رواء عن يحيى بن إسحق عن الليث عن جبير بن نعيم عن عبد الله ابن هيرة به وهكذا رواء مسلم والنسائي جميعاً عن قتيبة عن الليث ورواه مسلم أيضاً من حديث محمد بن إسحق حدثني يزيد بن أبي حبيب كلاهما عن جبير بن نعيم الحضرمي عن عبد الله بن هيرة السبائي به فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد أيضاً حدثنا إسحق أخبرني مالك عن زيد بن أسلم عن القعقاع بن حكيم عن أبي يونس مولى عائشة قال : أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً قالت . إذا بلغت هذه الآية (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فأذني فلما بلغت آذنتها فأملت على (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقياموا لله قانتين) قالت سمعتها من رسول الله ﷺ وهكذا رواء مسلم عن يحيى بن يحيى عن مالك به . وقال ابن جرير . حدثني ابن الثني حدثنا الحجاج حدثنا حماد عن هشام بن عروة عن أبيه قال . كان في مصحف عائشة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي

(١) في نسخة الأزهر يقال له : الحميص .

صلاة العصر) وهكذا رواه من طريق الحسن البصرى أن رسول الله ﷺ قرأها كذلك وقد روى الامام مالك أيضا عن زيد بن أسلم عن عمرو بن رافع قال كنت أكتب مصحفا لحنفة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فقالت إذا بلغت هذه الآية فأذنى (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى) فلما بلغت آذنها فأملت على (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) وهكذا رواه محمد بن إسحق بن يسار فقال حدثني أبو جعفر محمد بن علي ونافع مولى بن عمر أن عمر بن عمر بن نافع قال فذكر مثله وزاد كما حفظتها من النبي ﷺ (طريق أخرى عن حفصة) قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن عبد الله ابن يزيد الأزدي عن سالم بن عبد الله أن حفصة أمرت إنسانا أن يكتب لها مصحفا فقالت إذا بلغت هذه الآية (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى) فأذنى فلما بلغ آذنها فقالت اكتب (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وصلاة العصر) (طريق أخرى) قال ابن جرير حدثني ابن المنني حدثنا عبد الوهاب حدثنا عبيد الله عن نافع أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها مصحفا فقالت إذا بلغت هذه الآية (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى) فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرأها فلما بلغت أمرته فكتبها (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) قال نافع فقرأت ذلك المصحف فوجدت فيه الواو وكذا روى ابن جرير عن ابن عباس وعبيد بن عمير أنهم قرأوا كذلك وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبيدة حدثنا محمد بن عمرو حدثني أبو سلمة عن عمرو بن رافع مولى عمر قال كان في مصحف حفصة (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضي المغايرة فدل ذلك على أنها غيرها وأجيب عن ذلك بوجوه (أحدها) أن هذا إن روى على أنه خبر فحديث على أصح وأصرح منه وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة كما في قوله (وكذلك فصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين * وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) أو تكون لعطف الصفات لالعطف الدوات كقوله (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وكقوله (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى) وأشبه ذلك كثيرة وقال الشاعر :

وليت الكتبية في المزدحم

إلى الملك القرم وابن الهمام

وقال أبو داود الإيادي :

فلهم في صدى المقابر هام

سلط الموت والمنون عليهم

والموت هو المنون قال عدي بن زيد (١) العبادي :

فألفي قولها كذبا ومينا

والكذب هو الدين وقد نص سيدي شيخ النجاة على جواز قول القائل مرت بأخيك وصاحبك ويكون صاحب هو الأخ نفسه والله أعلم وأما إن روى على أنه قرآن فانه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن ولهذا لم يثبت أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في المصحف ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين ثبتت الحجة بقراءتهم لامن السبعة ولا من غيرهم . ثم قد روى ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة في هذا الحديث قال مسلم : حدثنا إسحق بن راهويه أخبرنا يحيى بن آدم عن فضيل بن مرزوق عن شقيق بن عقبة عن البراء بن عازب قال : نزلت (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر) فقرأناها على رسول الله ﷺ ماشاء الله ثم نسخها الله عز وجل فأنزل (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى) فقال له زاهر رجل كان مع شقيق : أفهى العصر ؟ قال قد حدثتك كيف نزلت وكيف نسخها الله عز وجل قال مسلم : ورواه الأشجعي عن الثوري عن الأسود عن شقيق قلت وشقيق هذا لم يرو له مسلم سوى هذا الحديث الواحد والله أعلم فعلى هذا تكون هذه التلاوة وهي تلاوة الجادة ناسخة للفظ رواية عائشة وحنفة ولمعناها إن كانت الواو دالة على المغايرة وإلا فلفظها فقط والله أعلم .

وقيل إن الصلاة الوسطى هي صلاة المغرب رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وفي إسناده نظر فانه رواه عن أبيه عن أبي الجماهر عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي الخليل عن عمه عن ابن عباس قال . صلاة الوسطى المغرب

وحكى هذا القول ابن جرير عن قبيصة بن ذؤيب وحكى أيضا عن قتادة على اختلاف عنه ووجه هذا القول بعضهم بأنها وسطى في العدد بين الرباعية والثنائية وبأنها وتر المفروضات وبما جاء فيها من الفضيلة والله أعلم .

وقيل إنها العشاء الأخيرة اختاره على بن أحمد الواحدى في تفسيره المشهور وقيل هى واحدة من الخمس لا بعينها وأبهمت فيهن كما أبهمت ليلة القدر في الحول أو الشهر أو العشر ويحكى هذا القول عن سعيد بن المسيب وشريح القاضى ونافع مولى ابن عمر والريبع بن خيثم ونقل أيضا عن زيد بن ثابت واختاره إمام الحرمين الجوينى في نهايته وقيل بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس رواه ابن أبى حاتم عن ابن عمر وفي صحته أيضا نظر والعجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمرو بن عبد البر البحرى إمام ماوراء البحر وإنها لاحدى الكبر إذ اختاره مع اطلاعه وحفظه ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر وقيل إنها صلاة العشاء وصلاة الفجر . وقيل بل هى صلاة الجماعة وقيل صلاة الجمعة وقيل صلاة الخوف وقيل بل صلاة عيد الفطر وقيل بل صلاة الأضحى وقيل بالوتر وقيل الضحى وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة ولم يظهر لهم وجه الترجيح ولم يقع الإجماع على قول واحد بل لم يزل النزاع فيها موجوداً من زمان الصحابة وإلى الآن قال ابن جرير . حدثني محمد بن بشر وابن مثنى قالا : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال : سمعت قتادة يحدث عن سعيد بن المسيب قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يختلفون في الصلاة الوسطى هكذا وشك بين أصابعه وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى النبي ﷺ قبلها وإنما المدار ومترك النزاع في الصبح والعصر وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها . وقد روى الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى رحمه الله في كتاب الشافعى رحمه الله حدثنا أبى سمعت حرمة ابن يحيى اللخمي يقول قال الشافعى كل ما قلت فكان عن النبي ﷺ بخلاف قولى مما يصح فحديث النبي ﷺ أولى ولا تغردونى وكذا روى الربيع والزعفرانى وأحمد بن حنبل عن الشافعى وقال موسى أبو الوليد بن أبى الجارود عن الشافعى إذا صح الحديث وقلت قولاً فأنا راجع عن قولى وقائل بذلك فهذا من سيادته وأمانته وهذا نفس إخوانه من الأئمة رحمهم الله ورضى عنهم أجمعين آمين ومن هنا قطع القاضى الماوردى بأن مذهب الشافعى رحمه الله أن صلاة الوسطى هى صلاة العصر وإن كان قد نص في الجديد وغيره أنها الصبح لصحة الأحاديث أنها العصر وقد وافقه على هذه الطريقة جماعة من محدثي المذهب والله الحمد والمنة : ومن الفقهاء في المذهب من ينكر أن تكون هى العصر مذهب (١) الشافعى وصمحو على أنها الصبح قولاً واحداً . قال الماوردى : ومنهم من حكى في المسألة قولين ولتقرير المعارضات والجوابات موضع آخر غير هذا وقد أفردناه على حدة والله الحمد والمنة .

وقوله تعالى (وقوموا لله قانتين) أى خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمسافاته إياها ولهذا لما امتنع النبي ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه وهو في الصلاة اعتذر إليه بذلك وقال « إن في الصلاة لشغلا » وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هى التسبيح والتكبير وذكر الله » وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل حدثني الحارث بن شيبيل عن أبى عمرو الشيبانى عن زيد بن أرقم قال : كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة حتى نزلت هذه الآية (وقوموا لله قانتين) فأمرنا بالسكوت رواه الجماعة سوى ابن ماجه من طرق عن إسماعيل به وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام في الصلاة كان بمكة قبل الهجرة إلى المدينة وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذى في الصحيح قال : كنا نسلم على النبي ﷺ قبل أن نهاجر إلى الحبشة وهو في الصلاة فيرد علينا قال فلما قدمنا سلمت عليه فلم يرد على فأخذنى مقرب ومابعد فلما سلم قال « إني لم أرد عليك إلا أنى كنت في الصلاة وإن الله يحدث من أمره ما يشاء وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة » وقد كان ابن مسعود ممن أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم فهاجر إلى المدينة وهذه الآية

(وقوموا لله قانتين) مدينة بلا خلاف فقال قائلون إنما أراد زيد بن أرقم بقوله كان الرجل يكلم أخاه في حاجته في الصلاة الاخبار عن جنس الكلام واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها والله أعلم . وقال آخرون إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها ويكون ذلك قد أصبح مرتين وحرم مرتين كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم والأول أظهر والله أعلم . وقال الحافظ أبو يعلى : أخبرنا بشر بن الوليد أخبرنا إسحق بن يحيى عن السيب عن ابن مسعود قال : كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة فمردت برسول الله ﷺ فسألت عليه فلم يرد على فوقع في نفسى أنه نزل في شيء فلما قضى النبي ﷺ صلاته قال « وعليك السلام أيها المسلم ورحمة الله إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء فإذا كنتم في الصلاة فاقتنوا ولا تكلموا » وقوله (فان خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما تكونوا تعملون) لما أمر تعالى عباده بالحفاظ على الصلوات والقيام بمحدودها وشدد الأمر بتأكيدها ذكر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أداؤها على الوجه الأكمل وهي حال القتال والتحام الحرب فقال (فان خفتم فرجالا أو ركبانا) أى فصلوا على أى حال كان رجالا أو ركبانا يعنى مستقبلى القبلة وغير مستقبلها كما قال مالك عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ثم قال فان كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا على أقدامهم أو ركبانا مستقبلى القبلة أو غير مستقبلها . قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ ورواه البخارى وهذا لفظ مسلم ورواه البخارى أيضاً من وجه آخر عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ نحوه أو قريباً منه ، ولمسلم أيضاً عن ابن عمر قال : فان كان خوف أشد من ذلك فصل راكبا أو قائما تومئ إيماء . وفي حديث عبد الله بن أنيس الجهنى لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلى ليقبله وكان نحو عرفة أو عرفات فلما واجهه حانت صلاة العصر قال فخشيت أن تفوتني ف جعلت أصلى وأنا أومئ إيماء - الحديث بطوله رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد وهذا من رخص الله التى رخص لعباده ووضع الآصار والأغلال عنهم ، وقد روى ابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال : في هذه الآية يصلى الركب على دابته والراجل على رجله . قال وروى عن الحسن ومجاهد ومكحول والسدى والحكم ومالك والأوزاعى والثورى والحسن بن صالح نحوه ذلك - وزاد ويومئ برأسه أينما توجه ثم قال : حدثنا أبى حدثنا غسان حدثنا داود يعنى ابن علية عن مطرف عن عطية عن جابر بن عبد الله قال : إذا كانت المسافة فليومئ برأسه إيماء حيث كان وجهه فذلك قوله (فرجالا أو ركبانا) وروى عن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعطية والحكم وحماد وقتادة نحوه ذلك وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان وعلى ذلك ينزل الحديث الذى رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن جرير من حديث أبى عوانة الوضاح بن عبد الله الشكرى - زاد مسلم والنسائى وأيوب بن عائذ - كلاهما عن بكير بن الأخنس الكوفى عن مجاهد عن ابن عباس قال : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعا وفى السفر ركعتين وفى الخوف ركعة وبه قال الحسن البصرى وقتادة والضحاك وغيرهم . وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا ابن مهدى عن شعبة قال : سألت الحكم وحمادا وقتادة عن صلاة المسافة فقالوا : ركعة وهكذا روى الثورى عنهم سواء وقال ابن جرير أيضاً حدثنى سعيد بن عمرو السكونى حدثنا بقة بن الوليد حدثنا السعوى حدثنا يزيد الفقيه عن جابر بن عبد الله قال : صلاة الخوف ركعة . واختار هذا القول ابن جرير وقال البخارى (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو) وقال الأوزاعى : إن كان تهيأ الفتح ولم يقدر على الصلاة صلوا إيماء كل امرئ لنفسه فان لم يقدر على الإيماء أخروا الصلاة حتى يكشف القتال ويأمنوا فيصلوا ركعتين فان لم يقدر على ركعة وسجدتين فان لم يقدر لا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا وبه قال مكحول وقال أنس بن مالك : حضرت مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال فلم يقدر على الصلاة فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبى موسى ففتح لنا قال أنس : وما يسرنى بتلك الصلاة الدنيا وما فيها . هذا لفظ البخارى ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره صلى الله

عليه وسلم صلاة العصر يوم الخندق لعذر المحاربة إلى غيوبة الشمس ، وبقوله ﷺ بعد ذلك لأصحابه لما جهزهم إلى بني قريظة « لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة » فمنهم من أدركته الصلاة في الطريق فصالوا وقالوا لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس في بني قريظة فلم يعنف واحداً من الفريقين وهذا يدل على اختيار البخاري لهذا القول والجمهور على خلافه ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التي ورد بها القرآن في سورة النساء ووردت بها الأحاديث لم تكن مشروعة في غزوة الخندق وإنما شرعت بعد ذلك وقد جاء مصرحاً بهذا في حديث أبي سعيد وغيره وأما مكحول والأوزاعي والبخاري فيجيئون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جواز ذلك لأن هذا حال نادر خاص فيجوز فيه مثل ما قلنا بدليل صنيع الصحابة زمن عمر في فتح تستر وقد اشتهروا لم ينكر والله أعلم

وقوله (فإذا أمتهم فاذكروا الله) أي أقيموا صلاتكم كما أمرتم فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها (كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) أي مثل ما أنعم عليكم وهذا لكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة فقابلوه بالشكر والذكر كقوله بعد ذكر صلاة الخوف (فإذا اطأنتهم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) وستأتي الأحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء عند قوله تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) الآية

﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْخُلُوفِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قال الأكثرون هذه الآية منسوخة بالتي قبلها وهي قوله (يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً) قال البخاري حدثنا أمية حدثنا يزيد بن زريع عن حبيب عن ابن أبي مليكة قال ابن الزبير : قلت لعثمان بن عفان (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً) قد نسخها الآية الأخرى فلم تكتبها وأتدعها قال . يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه . ومعنى هذا الاشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها ، وإبقاء رسمها بعد التي نسختها يوم بقاء حكمها ؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي وأنا وجدتُها مثبتة في المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتُها : قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس في قوله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهن مَتاعاً إلى الخول غير إخراج) فكان للتوفي عنها زوجها نفقتها وسكنها في الدار سنة فنسخها آية الموارث فجعل لمن الثمن أو الربع مما ترك الزوج ثم قال : وروى عن أبي موسى الأشعري وابن الزبير ومجاهد وإبراهيم وعطاء والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك وزيد بن أسلم والسدي ومقاتل بن حيان وعطاء الخراساني والربيع بن أنس أنها منسوخة وروى من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله ثم أنزل الله بعد (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً) فهذه عدة التوفي عنها زوجها إلا أن تكون حاملاً فعدتها أن تضع ما في بطنها وقال (ولهن الربع مما تركن إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركن) فبين ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة قال : وروى عن مجاهد والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان قالوا نسخها (أربعة أشهر وعشراً) قال : وروى عن سعيد ابن المسيب قال نسخها التي في الأحزاب (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات) الآية (قلت) وروى عن مقاتل وقتادة أنها منسوخة بآية الميراث وقال البخاري حدثنا إسحاق بن منصور حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن

مجاهد (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) قال كانت هذه للمعتدة تعتد عند أهل زوجها واجب فأُنزل الله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف) قال : جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت وهو قول الله (غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم) فالعدة كلها واجب عليها زعم ذلك عن مجاهد رحمه الله وقال عطاء قال ابن عباس نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها فتعتد حيث شاءت وهو قول الله تعالى (غير إخراج) قال عطاء : إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت لقول الله (فلا جناح عليكم فيما فعلن) قال عطاء . ثم جاء الميراث فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت ولا سكنى لها ثم أسند البخاري عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه بهذا القول الذي عول عليه مجاهد وعطاء من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور حتى يكون ذلك منسوخا بالأربعة الأشهر وعشر وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات أن يمكن من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا إن اخترن ذلك ولهذا قال (وصية لأزواجهم) أي يوصيكم الله بهن وصية كقوله (يوصيكم الله في أولادكم) الآية وقوله (وصية من الله) وقيل إنما انتصب على معنى فلتوصوا لهن وصية وقرأ آخرون بالرفع وصية على معنى كتب عليكم وصية واختارها ابن جرير ولا يمنع من ذلك لقوله (غير إخراج) فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر أو بوضع الحمل واخترن الخروج والاتقال من ذلك المنزل فانهن لا يمنعن من ذلك لقوله (فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف) وهذا القول له اتجاه وفي اللفظ مساعدة له وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية ورده آخرون منهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر وقول عطاء ومن تابعه على أن ذلك منسوخ بآية الميراث إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فسلم وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب في تركة الميت فهذا محل خلاف بين الأئمة وهما قولان للشافعي رحمه الله وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج بما رواه مالك في موطنه عن سعد بن إسحق ابن كعب بن عجرة عن عمته زينب بنت كعب بن عجرة أن الفريضة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خديرة فإن زوجها خرج في طلب أعبده أبقوا حتى إذا كان بطرف القدام لحقهم فقتلوه قالت : فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أرجع إلى أهلي في بني خديرة فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة ، قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » قالت فأنصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمربي فنوديت له فقال « كيف قلت ؟ » فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي فقال « امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله » قالت فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا قالت : فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلى فسألتني عن ذلك فأخبرته فاتبه وقضى به وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث مالك به . ورواه النسائي أيضا وابن ماجه من طرق عن سعد بن إسحق به وقال الترمذي حسن صحيح .

وقوله (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على التقين) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزل قوله تعالى (متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) قال رجل : إن شئت أحسنت ففعلت وإن شئت لم أفعل فأُنزل الله هذه الآية (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على التقين) وقد استدلت بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة أو مفروضا لها أو مطلقة قبل السيس أو مدخولا بها وهو قول عن الشافعي رحمه الله وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف واختاره ابن جرير ومن لم يوجبها مطلقا يخص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وأجاب الأولون بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم فلا تخصيص على المشهور المنصور والله أعلم .

وقوله (كذلك يبين الله لكم آياته) أى فى إجلاله وتحريره وفروضة وحدوده فيما أمركم به ونهاكم عنه بينه ووضحه وفسره ولم يتركه مجالا فى وقت احتياجكم اليه (لعلكم تعقلون) أى تفهمون وتتدبرون

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخَذَبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أُضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿

روى عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف وعنه كانوا ثمانية آلاف وقال أبو صالح . تسعة آلاف وعن ابن عباس أربعون ألفا . وقال وهب بن منبه وأبو مالك . كانوا بضعة وثلاثين ألفا . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كانوا أهل قرية يقال لها ذاوردان . وكذا قال السدى وأبو صالح وزاد من قبل واسط ، وقال سعيد بن عبدالعزيز كانوا من أهل أنذرات ، وقال ابن جريج عن عطاء قال : هذا مثل (١) وقال على بن عاصم . كانوا من أهل ذاوردان قرية على فرسخ من قبل واسط . وقال وكيع بن الجراح فى تفسيره ، حدثنا سفيان عن ميسرة بن حبيب النهدي عن المهال بن عمرو الأسدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) قال . كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون قالوا : نأتى أرضا ليس بها موت حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم (موتوا) فماتوا فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعاه به أن يحييهم فأحياهم فذلك قوله عز وجل (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) الآية . وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة فى زمان بنى إسرائيل استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد فخرجوا فرارا من الموت هارين إلى البرية فنزلوا واديا أفيح فماتوا ما بين عدوتيهِ فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادى والآخر من أعلاه فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم مائة رجل واحد فحيزوا إلى حظائر وبني عليهم جدران وفنوا وتمزقوا وتفرقوا فلما كان بعد دهر مر بهم نبي من أنبياء بنى إسرائيل يقال له حزقيل فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك وأمره أن يقول : أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعى ، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض ، ثم أمره فنادى أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتنسى لحمًا وعصبا وجلدا ، فكان ذلك وهو يشاهده ، ثم أمره فنادى أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمه فقاموا أحياء ينظرون . قد أحياهم الله بعد رقتهم الطويلة وهم يقولون سبحانك لا إله إلا أنت وكان فى إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة ولهذا قال (إن الله لودفضل على الناس) أى فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أى لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم فى دينهم ودنياهم . وفى هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغنى حذر من قدر وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه فان هؤلاء خرجوا فرارا من الوباء طلبا لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعا فى آن واحد . ومن هذا القليل الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى أخبرنا مالك وعبد الرزاق أخبرنا معمر كلاهما عن الزهري عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام فذكر الحديث فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متعبيا لبعض حاجته فقال : إن عندي من هذا علما ، سمعت رسول الله ﷺ يقول . « إذا كان بأرض وأتم بها فلا تخرجوا قرارا منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » فحمد الله عمر ثم انصرف ، وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهري به بطريق أخرى لبعضه قال أحمد حدثنا حجاج وبزيد العمى قالا أخبرنا ابن أبي ذئب عن الزهري عن سالم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهوفى

(١) يعنى أنها ضرب مثل لا قصة وقعت .

الشام عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم فاذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً » قال فرجع عمر من الشام ، وأخرجاه في الصحيحين من حديث مالك عن الزهري بنحوه . وقوله (وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم) أى كما أن الحذر لا يغنى من القدر كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلا ولا يبعده بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزداد فيه ولا ينقص منه كما قال تعالى (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ماقتلوا ، قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) وقال تعالى (وقالوا ربنا لم كتببت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتىلا * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) وروينا عن أمير الجيوش ومقدم العساكر وحامى حوزة الاسلام وسيف الله المسلول على أعدائه أبى سليمان خالد بن الوليد رضى الله عنه أنه قال وهو في سياق الموت : لقد شهدت كذا وكذا موقفا وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء - يعنى أنه يتألم لكونه مامتا قتيلا في الحرب ويتأسف على ذلك ويتألم أن يموت على فراشه . وقوله (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) يحث تعالى عباده على الاتفاق في سبيل الله وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع ، وفي حديث النزول أنه يقول تعالى « من يقرض غير عديم ولا ظالم » وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له) قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال . « نعم يا أبا الدحداح » قال أرني يدك يا رسول الله . قال فناوله يده قال : فاني قد أقرضت ربى عز وجل حائطي قال وحائط له فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها قال فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح قالت ليكيك قال أخرجني فقد أقرضته ربى عز وجل وقد رواه ابن مردويه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر رضى الله عنه مرفوعا بنحوه وقوله (قرضا حسنا) روى عن عمر وغيره من السلف هو النفقة في سبيل الله وقيل هو النفقة على العيال وقيل هو التسبيح والتفديس وقوله (فيضاعفه له أضعافا كثيرة) كما قال تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) الآية وسأتي الكلام عليها وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا مبارك بن فضالة عن علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي قال أثبت أباه ريرة رضى الله عنه فقلت له إنه بلغني أنك تقول إن الحسنه تضاعف ألف ألف حسنة قال وما أعجبك من ذلك لقد سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنه ألفي ألف حسنة » هذا حديث غريب وعلى بن زيد بن جده عنده منا كير لكن رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر فقال حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد المؤدب حدثنا يونس بن محمد المؤدب حدثنا محمد بن عقبة الرافعى (١) عن زياد الجصاص عن أبي عثمان النهدي قال لم يكن أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني فقدم قبلى حاجا قال وقدمت بعده فإذا أهل البصرة يأترون عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنه ألف ألف حسنة » فقلت ويحكم والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني فها سمعت هذا الحديث قال فتحملت أريد أن ألقاه فوجدته قد انطلق حاجا فانطلقت إلى الحج أن ألقاه في هذا الحديث فلقيته لهذا فقلت يا أباه ريرة ما حديث سمعت أهل البصرة يأترون عنك ؟ قال ما هو قلت زعموا أنك تقول إن الله يضاعف الحسنه ألف ألف حسنة قال يا أباعثمان وما تعجب من ذا والله يقول (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) ويقول (ومتاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) والذى نفسى بيده لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنه ألفي ألف حسنة » وفي معنى هذا الحديث ما رواه الترمذى وغيره من طريق عمرو بن دينار عن سالم عن عبد الله بن عمر ابن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال « من دخل سوقا من الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على شيء قدير - كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة » الحديث وقال

ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام حدثنا أبو إسماعيل المؤدب عن عيسى بن المسيب عن نافع عن ابن عمر قال لما نزلت (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل) إلى آخرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رب زد أمتي» فنزلت (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) قال «رب زد أمتي» فنزلت (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وروى ابن أبي حاتم أيضا عن كعب الأحمري أنه جاءه رجل فقال إني سمعت رجلا يقول من قرأ (قل هو الله أحد) مرة واحدة بنى الله له عشرة آلاف ألف غرفة من در وياقوت في الجنة أفأصدق بذلك؟ قال نعم أو عجت من ذلك؟ قال نعم وعشرين ألف ألف وثلاثين ألف ألف وما لا يحصى ذلك إلا الله ثم قرأ (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) فالكثير من الله لا يحصى وقوله (والله يقبض ويبسط) أي أنفقوا ولا تبالوا فالله هو الرزاق يضيق على من يشاء من عباده في الرزق ويوسع على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك (والله ترجعون) أي يوم القيامة

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْبِثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا؟ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: هذا النبي هو يوشع بن نون قال ابن جرير يعني ابن أفرام بن يوسف بن يعقوب وهذا القول بعيد لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل وكان ذلك في زمان داود عليه السلام كما هو مصرح به في القصة وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة والله أعلم. وقال السدي هو شمعون وقال مجاهد هو شمويل عليه السلام وكذا قال محمد بن إسحق عن وهب بن منبه وهو شمويل بن بالي بن علقمة بن ترخام بن اليبه (١) بن بهرض بن علقمة ابن ماجه بن عمر بن عذرياء بن صفية بن علقمة بن أبي ياشف بن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، وقال وهب بن منبه وغيره كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا خلقا كثيرا وأخذوا منهم بلادا كثيرة ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان وكان ذلك موروثة خلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل واقتطعت النبوة من أسباطهم ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاما يكون نبيا لهم ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاما فسمع الله لها ووهبها غلاما فسماه شمويل أي سمع الله دعائي ومنهم من يقول شمعون وهو بمعناه فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم وأبنته الله نباتا حسنا فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله اليه وأمره بالدعوة إليه وتوحيده فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكا يقاتلون معه أعداءهم وكان الملك أيضا قد باد فيهم فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكا ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه (قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد قال الله تعالى: (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) أي ماوفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمَلَكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلَكِ مِنْهُ﴾

وَلَمْ يُؤْتِ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾

أى لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكا منهم فعين لهم طالوت وكان رجلا من أجناده ولم يكن من بيت الملك فيهم لأن الملك كان في سبط يهوذا ولم يكن هذا من ذلك السبط فلماذا قالوا (أنى يكون له الملك علينا) أى كيف يكون ملكا علينا (ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) أى هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء وقيل دباغا وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعت وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف ثم قد أجابهم النبي قائلا (إن الله اصطفاه عليكم) أى اختاره لكم من بينكم والله أعلم به منكم يقول لست أنا الذى عينته من تلقاء نفسى بل الله أمرنى به لما طلبتم منى ذلك (وزاده بسطة في العلم والجسم) أى وهو مع هذا أعلم منكم وأنبل وأشكل منكم وأشد قوة وصبرا في الحرب ومعرفة بها أى أتم علما وقامة منكم ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه ثم قال (والله يؤتى ملكه من يشاء) أى هو الحاكم الذى ما شاء فعل ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه ولهذا قال (والله واسع عليم) أى هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء ، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝﴾

يقول لهم نبيهم إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذى كان أخذ منكم (فيه سكينة من ربكم) قيل معناه فيه وقار وجلالة قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (فيه سكينة) أى وقار وقال الربيع : رحمة وكذا روى عن العوفى عن ابن عباس وقال ابن جريج : سألت عطاء عن قوله (فيه سكينة من ربكم) قال ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه وكذا قال الحسن البصرى وقيل السكينة طست من ذهب كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء أعطاه الله موسى عليه السلام فوضع فيها الألواح ورواه السدى عن أبى مالك عن ابن عباس وقال سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن أبى الأحوص عن على قال : السكينة لها وجه كوجه الإنسان ثم هى روح هفافة وقال ابن جرير : حدثنى الثنى حدثنا أبو داود حدثنا شعبة وحماد بن سلمة وأبو الأحوص كلهم عن سماك عن خالد بن عرعة عن على قال : السكينة ريح خجوج ولها رأسان وقال مجاهد لها جناحان وذنب وقال محمد بن إسحق عن وهب بن منبه السكينة رأس هرة ميتة إذا صرخت في التابوت بصراخ هرة أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح وقال عبد الرزاق : أخبرنا بكار بن عبد الله أنه سمع وهب بن منبه يقول السكينة روح من الله تتكلم إذا اختلفوا في شىء تكلم فتخبرهم ببيان ما يريدون

وقوله (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) قال ابن جرير أخبرنا ابن مثنى حدثنا أبو الوليد حدثنا حماد عن داود ابن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى هذه الآية (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) قال عصاه ورضاض الألواح وكذا قال قتادة والسدى والربيع بن أنس وعكرمة وزاد التوراة وقال أبو صالح (وبقية مما ترك آل موسى) يعنى عصا موسى وعصا هرون ولوحين من التوراة والمن وقال عطية بن سعد : عصا موسى وعصا هرون وثياب موسى وثياب هرون ورضاض الألواح وقال عبد الرزاق : سألت الثورى عن قوله (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) فقال منهم من يقول قفيز من من ورضاض الألواح ومنهم من يقول العصا والنعلان

وقوله (تحمله الملائكة) قال ابن جريج : قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بن يدي طالوت والناس ينظرون ، وقال السدى : أصبح التابوت فى دار طالوت فأمنوا بنبوة شعون وأطاعوا

طالوت ، وقال عبد الرزاق عن الثوري عن بعض أشياخه جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة وقيل على بقرتين وذكر غيره أن التابوت كان بأريحا وكان المشركون لما أخذوه وضعوه في بيت آلهتهم تحت صنمهم الكبير فأصبح التابوت على رأس الصنم فأنزلوه فوضعوه تحته فأصبح كذلك فسمروه تحته فأصبح الصنم مكسور القوائم ملقى بعيداً فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به فأخرجوا التابوت من بلدهم فوضعوه في بعض القرى فأصاب أهلها داء في رقابهم فأمرتهم جارية من سبي بني إسرائيل أن يردوه إلى بني إسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء فحملوه على بقرتين فسارتا به لا يقر به أحد إلا مات حتى اقتربتا من بلد بني إسرائيل فكسرتا النيرين ورجعتا وجاء بنو إسرائيل فأخذوه فقيل إنه تسلمه داود عليه السلام وإنه لما قام إليهما خجل من فرحه بذلك وقيل شابان منهم فآله أعلم وقيل كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها أزدوده (١)

(وقوله إن في ذلك آية لكم) أى على صدق فيما جئكم به من النبوة وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت (إن كنتم مؤمنين) أى بالله واليوم الآخر

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلتَمُواْ اللَّهَ كَم مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّا ذُنَّيْ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملائكة بني إسرائيل وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفاً فآله أعلم أنه قال (إن الله مبتليكم) أى مختبركم بنهر قال ابن عباس وغيره : وهو نهر بين الأردن وفلسطين يعنى نهر الشريعة المشهور (فمن شرب منه فليس مني) أى فلا يصحني اليوم في هذا الوجه (ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده) أى فلا بأس عليه قال الله تعالى (فشربوا منه إلا قليلاً منهم) قال ابن جرير قال ابن عباس : من اغترف منه بيده روى. ومن شرب منه لم يرو. وكذا رواه السدي عن أبي مالك عن ابن عباس وكذا قال قتادة وابن شاذان وقال السدي : كان الجيش ثمانين ألفاً فشرب منه ستة وسبعون ألفاً وتبقى معه أربعة آلاف كذا قال وقد روى ابن جرير من طريق إسرائيل وسفيان الثوري ومسعر بن كدام عن أبي إسحق السبيعي عن البراء بن عازب قال : كنا نتحدث أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه والنهر وما جازاه معه إلا مؤمن ورواه البخاري عن عبد الله بن رجاء عن إسرائيل بن يونس عن أبي إسحق عن جده عن البراء بنحوه ولهذا قال تعالى (فلما جاوزوه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) أى استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم فشجعهم علماءهم العالمون بأن وعد الله حق فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عدد . ولهذا قالوا (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثير) يان الله والله مع الصابرين

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ يَّا ذُنَّيْ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَهَاتَهُ اللَّهُ الْمَلِكُ وَالْحَكْمَةُ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ

وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾

أى لما واجه حزب الإيمان وهم قليل من أصحاب طالوت لعدوهم أصحاب جالوت وهم عدد كثير (قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً) أى أنزل علينا صبراً من عندك (وثبت أقدامنا) أى فى لقاء الأعداء وجنبنا الفرار والعجز (وانصرنا على القوم الكافرين)

قال الله تعالى (فهزموهم بإذن الله) أى غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم (وقتل داود جالوت) ذكروا فى الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان فى يده رماه به فأصابه فقتله وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته ويشركه فى أمره فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ولهذا قال تعالى (وآتاه الله الملك) الذى كان بيد طالوت (والحكمة) أى النبوة بعد ثمود (وعلمه بما يشاء) أى بما يشاء الله من العلم الذى اختصه به ﷺ ثم قال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) أى لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بنى إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا كما قال تعالى (ولو دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً) الآية . وقال ابن جرير . حدثني أبو حميد الحمصي أحد بنى المغيرة حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبد الرحمن عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء » ثم قرأ ابن عمر (ولو دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وهذا إسناد ضعيف فان يحيى بن سعيد هذا هو ابن العطار الحمصي وهو ضعيف جداً ثم قال ابن جرير . حدثنا أبو حميد الحمصي حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون فى حفظ الله عز وجل مادام فيهم » وهذا أيضاً غريب ضعيف لما تقدم أيضاً وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد ابن إبراهيم حدثنا علي بن إسماعيل بن حماد أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد أخبرنا زيد بن الحباب حدثني حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي السمان عن ثوبان رفع الحديث قال : « لا يزال فيكم سبعة بهم تنصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون حتى يأتى أمر الله » ، وقال ابن مردويه أيضاً وحدثنا محمد بن أحمد حدثنا محمد بن جرير بن يزيد حدثنا أبو معاذ نهار بن معاذ بن عثمان الليثي أخبرنا زيد بن الحباب أخبرني عمر البزار عن عنبسة الخواص عن قتادة عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ « الأبدال فى أمتي ثلاثون . بهم ترزقون وبهم تمطرون وبهم تنصرون » قال قتادة . إني لأرجو أن يكون الحسن منهم

وقوله (ولكن الله ذو الفضل على العالمين) أى ذو من عليهم ورحمة بهم يدفع عنهم بعضهم بعضاً وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه فى جميع أفعاله وأقواله

ثم قال تعالى (تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين) أى هذه آيات الله التى قصصناها عليك من أمر الدين ذكرناهم بالحق أى بالواقع الذى كان عليه الأمر المطابق لما بأيدى أهل الكتاب من الحق الذى يعلمه علماء بنى إسرائيل (وإنك) يا محمد (لمن المرسلين) وهذا توكيد وتوطئة للقسم

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ وَإِيَّاهُ نَحْنُ الْبَرُّوْحُ الْقُدُسُ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلْنَا الَّذِينَ مِّنْ بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّا اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال تعالى (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيناه داود زبوراً) وقال ههنا (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله) . يعنى موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروى في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضى الله عنه (ورفع بعضهم درجات) كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل (فان قيل) في الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودى في قسم يقسمه . لا والذي اصطفى موسى على العالمين . فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودى فقال . أى خبيث ؟ وعلى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فجاء اليهودى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاشتكى على المسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تفضلوني على الأنبياء فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور ؟ فلا تفضلوني على الأنبياء » وفي رواية « لا تفضلوا بين الأنبياء » فالجواب من وجوه (أحدها) أن هذا كان قبل أن يعلم بالفضل وفي هذا نظر (الثانى) أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع (الثالث) أن هذا نهى عن التفضيل في مثل هذه الحال التى تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر (الرابع) لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصية (الخامس) ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل وعليكم الاتقياد والتسليم له والإيمان به

وقوله (وآتيناه عيسى ابن مريم البينات) أى الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء به بنى إسرائيل به من أنه عبد الله ورسوله إليهم (وأيدناه بروح القدس) يعنى أن الله أيدته بجبريل عليه السلام ثم قال تعالى (ولو شاء الله ما اقتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا) أى كل ذلك عن قضاء الله وقدره ولهذا قالوا (ولكن الله يفعل ما يريد)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ ۚ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

يأمر تعالى عباده بالانفاق مما رزقهم في سبيله سبيل الخير ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكم وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا (من قبل أن يأتى يوم) يعنى يوم القيامة (لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) أى لا يباع أحدهم نفسه ولا يفادى بمال لو بذله ولو جاء بماء الأرض ذهباً ولا تنفعه خلة أحد يعنى صداقته بل ولا نسابته كما قال (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ولا شفاعة . أى ولا تنفعهم شفاعة الشافعين

وقوله (والكاغرون هم الظالمون) مبتدأ محصور فى خبره أى ولا ظالم أظلم ممن وفى الله يومئذ كافراً وقد روى ابن أبى حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال . الحمد لله الذى قال (والكاغرون هم الظالمون) ولم يقل والظالمون هم الكاغرون ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ ﴾

هذه آية الكرسى ولها شأن عظيم وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها أفضل آية فى كتاب الله قال الإمام أحمد . حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان عن سعيد الجري عن أبى السليل عن عبد الله بن رباح عن أبى هو ابن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل « أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال الله ورسوله أعلم فرددها مراراً ثم قال : آية الكرسى قال : « لهنك العلم أب النذر والذى نفسى بيده إن لها لساناً وشفقتين تقدس الملك عند ساقى

العرش » وقد رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن الجريري به وليس عنده زيادة والذي نفسى بيده الخ

(حديث آخر) عن أبي أيضا في فضل آية الكرسي قال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا ميسرة عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن عبيدة بن أبي لبابة عن عبد الله بن أبي كعب أن أباه أخبره أنه كان له جرن فيه تمر قال فكان أبي يتعاهده فوجده ينقص قال فحرسه ذات ليلة فاذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم قال : فسلمت عليه فرد السلام قال : فقلت ما أنت ؟ جنى أم إنسى قال . جنى قال : قلت ناولى يدك قال فناولى يده فاذا يد كلب وشعر كلب فقلت هكذا خلق الجن ؟ قال لقد عابت الجن منافهم أشد منى ، قلت فما حملك على ما صنعت ؟ قال بلغنى أنك رجل تحب الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك قال : فقال له أبي فما الذى يجيرنا منك ؟ قال هذه الآية آية الكرسي ثم غدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال النبي ﷺ « صدق الحيث » وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبي داود الطيالسى عن حرب بن شداد عن يحيى بن أبي كثير عن الحضرمي بن لاحق عن عن محمد بن عمرو بن أبي بن كعب عن جده به وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عثمان بن عتاب قال سمعت أبا السليل قال : كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يحدث الناس حتى يكثروا عليه فيصعد على سطح بيت فيحدث الناس قال : قال رسول الله ﷺ « أى آية فى القرآن أعظم ؟ » فقال رجل (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) قال فوضع يده بين كتفى فوجدت بردها بين يدي أو قال فوضع يده بين يدي فوجدت بردها بين كتفى وقال ليهنك العلم يا أبا المنذر (حديث آخر) عن الأسقع البقرى قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا أبو يزيد القراطيسى حدثنا يعقوب بن أبي عباد المكي حدثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج أخبرني عمر بن عطاء أن مولى ابن الأسقع رجل صدق أخبره عن الأسقع البكرى أنه سمعه يقول إن النبي ﷺ جاءهم فى صفة المهاجرين فسأله إنسان : أى آية فى القرآن أعظم ؟ فقال النبي ﷺ (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) لا تأخذه سنة ولا نوم) حتى انقضت الآية

(حديث آخر) عن أنس - قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن الحارث حدثني سلمة بن وردان أن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله ﷺ سأل رجلا من صحابته فقال « أى فلان هل تزوجت ؟ » قال : لا وليس عندي ما أتزوج به قال « أو ليس معك . قل هو الله أحد » قال بلى قال « ربيع القرآن » قال « أليس معك قل يا أيها الكافرون ؟ » قال : بلى قال : « ربيع القرآن » قال : « أليس معك إذا زلزلت ؟ » قال : بلى قال : « ربيع القرآن » قال : « أليس معك إذا جاء نصر الله » قال : بلى قال « ربيع القرآن » قال « أليس معك آية الكرسي الله لا إله إلا هو » ! قال بلى قال « ربيع القرآن »

(حديث آخر) عن أبي ذر جندب بن جنادة قال الإمام أحمد . حدثنا وكيع بن الجراح حدثنا المسعودى أنبأني أبو عمر الدمشقي عن عبيد بن الحشاش عن أبي ذر رضى الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو فى المسجد فجلست فقال « يا أبا ذر هل صليت ؟ » قلت لا قال « قم فصل » قال فقممت فصليت ثم جلست فقال : « يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الانس والجن » قال : قلت يارسول الله أو للانس شياطين ! قال نعم قال : قلت يارسول الله الصلاة قال : « خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر » قال قلت يارسول الله فالصوم ؟ قال « فرض مجزى وعند الله مزيد » قلت يارسول الله فالصدقة ، قال « أضعاف مضاعفة » قلت يارسول الله فأيتها أفضل ، قال « جهد من مقل أو سر إلى فقير » قلت يارسول الله أى الأنبياء كان أول ، قال « آدم » قلت يارسول الله ونبي كان ، قال « نعم نبي مكلم » قلت يارسول الله كم المرسلون ، قال « ثلثمائة وبضعة عشر جافيرا » وقال مرة « وخمسة عشر » قلت يارسول الله أى ما أنزل عليك أعظم ، قال « آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) » ورواه النسائي

(حديث آخر) عن أبي أيوب خالد بن زيد الأنصارى رضى الله عنه وأرضاه قال الإمام أحمد . حدثنا سفيان عن ابن أبي ليلى عن أخيه عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي أيوب أنه كان فى سهوة له وكانت النول تجيء فتأخذ فشكاها إلى

النبي ﷺ فقال « فاذا رأيته فقل باسم الله أجيبي رسول الله » قال فجاءت فقال لها فأخذها فقالت إني لا أعود فأرسلها فجاء فقال له النبي ﷺ « ما فعل أسيرك ؟ » قال أخذتها فقالت إني لا أعود فأرسلتها فقال إنها عائدة فأخذتها مرتين أو ثلاثا كل ذلك تقول لا أعود وأجىء إلى النبي ﷺ « فيقول ما فعل أسيرك » فأقول أخذتها فتقول لا أعود فيقول « إنها عائدة » فأخذتها فقالت أرسلني وأعلمك شيئا تقوله فلا يقربك شيء : آية الكرسي . فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال « صدقت وهي كذوب » ورواه الترمذي في فضائل القرآن عن بشار عن أبي أحمد الزبيري به وقال حسن غريب والعلول في لغة العرب : الجان إذا تبدى في الليل

وقد ذكر البخاري هذه القصة عن أبي هريرة فقال في كتاب فضائل القرآن وفي كتاب الوكالة وفي صفة إبليس من صحيحه ، قال عثمان بن الهيثم أبو عمرو حدثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال وكنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال دعني فأني محتاج وعلى عيال ولي حاجة شديدة قال فخليت عنه فأصبحت فقال النبي ﷺ « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة » قال : قلت يا رسول الله شكاً حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله قال « أما إنه قد كذبتك وسيعود » فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه سيعود » فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعني فأني محتاج وعلى عيال لا أعود . فرحمته وخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة » قلت يا رسول الله شكاً حاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال « أما إنه قد كذبتك وسيعود » فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال . دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت وما هي . قال إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) حتى تختم الآية فانك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما فعل أسيرك البارحة : » قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال : « ما هي » . قال لي إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وقال لي لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح وكانوا أحرص شيء على الخير فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أما إنه صدقتك وهو كذوب تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة » قلت لا قال : « ذاك شيطان » كذا رواه البخاري معلقا بصيغة الجزم وقد رواه النسائي في اليوم والليلة عن إبراهيم بن يعقوب عن عثمان بن الهيثم فذكره - وقد روى من وجه آخر عن أبي هريرة بسياق آخر قريب من هذا فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره حدثنا محمد بن عبد الله بن عمرو بن الصغار حدثنا أحمد بن زهير بن حرب أنبأنا مسلم بن إبراهيم أنبأنا إسماعيل بن مسلم العبدى أنبأنا أبو التوكل الناجي أن أبا هريرة كان معه مفتاح بيت الصدقة وكان فيه تمر فذهب يوما ففتح الباب فوجد التمر قد أخذ منه ملء كف ودخل يوما آخر فإذا قد أخذ منه ملء كف ثم دخل يوما آخر ثالثا فإذا قد أخذ منه مثل ذلك فشكا ذلك أبو هريرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم تحب أن تأخذ صاحبك هذا » قال نعم قال « فإذا فتحت الباب فقل سبحان من سخرك محمد » فذهب ففتح الباب فقال سبحان من سخرك محمد . فإذا هو قائم بين يديه قال يا عبد الله أنت صاحب هذا . قال نعم دعني فأني لا أعود ما كنت آخذ إلا لأهل بيت من الجن فقراء فخلني عنه ثم عاد الثانية ثم عاد الثالثة فقلت أليس قد عاهدتني ألا تعود . لا أدعك اليوم حتى أذهب بك إلى النبي صلى الله عليه وسلم . قال لا تفعل فانك إن تدعني علمتك كلمات إذا أنت قلتها لم يقربك أحد من الجن صغير ولا كبير ولا أنثى ، قال له لتفعلن ، قال نعم ، قال ما هن قال (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) قرأ آية الكرسي حتى ختمها فتركه فذهب فلم يعد فذكر ذلك أبو هريرة للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما علمت أن ذلك كذلك » وقد رواه النسائي عن أحمد بن محمد بن عبيد الله عن شعيب بن حرب عن

إسماعيل بن مسلم عن أبي التوكل عن أبي هريرة به وقد تقدم لأبي بن كعب كائنة مثل هذه أيضاً فهذه ثلاث وقائع
﴿ قصة أخرى ﴾ قال أبو عبيد في كتاب الغريب : حدثنا أبو معاوية عن أبي عاصم الثقفي عن الشعبي عن عبد الله بن
مسعود قال : خرج رجل من الإنس فلقه رجل من الجن فقال : هل لك أن تصارعني ؟ فإن صرعتني علمت لك آية إذا قرأتها
حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان فصارعه فصارعه فقال : إني أراك ضيلاً شخياً كأن ذراعيك ذراعاً كلب أفهكذا أنتم
أيها الجن كلكم أم أنت من بينهم ؟ فقال إني بينهم لضلعي فإودني فصارعه فصارعه الانسى فقال اقرأ آية الكرسي فإنه
لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان وله خيش وخيش الحمار فقبل لابن مسعود أهو عمر ؟ فقال من عسى
أن يكون إلا عمر قال أبو عبيد : الضئيل النحيف الجسم والخيخ بالخاء المعجمة ويقال بالخاء المهملة الضراط
(حديث آخر) عن أبي هريرة قال الحاكم أبو عبد الله في مستدركه حدثنا علي بن حشاد حدثنا بشر بن موسى حدثنا
الحميدى حدثنا سفيان حدثني حكيم بن جبير الأسدي عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى عليه وسلم قال :
« سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه : آية الكرسي » وكذا رواه من طريق
آخر عن زائدة عن حكيم بن جبير ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه كذا قال وقد رواه الترمذي من حديث زائدة
ولفظه « لكل شيء سنن وسنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن : آية الكرسي » ثم قال غريب لا نعرفه
إلا من حديث حكيم بن جبير وقد تكلم فيه شعبة وضعفه (قلت) وكذا ضعفه أحمد ويحيى بن معين وغير واحد من
الأئمة وتركه ابن مهدي وكذبه السعدي

(حديث آخر) قال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي بن نافع أخبرنا عيسى بن محمد الروزي أخبرنا عمر بن محمد البخاري أخبرنا
عيسى بن موسى غنجار عن عبد الله بن كيسان حدثنا يحيى أخبرنا يحيى بن عقيل عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر
ابن الخطاب أنه خرج ذات يوم إلى الناس وهم سماعات فقال : أيكم يخبرني بأعظم آية في القرآن . فقال ابن مسعود
على الخير سقطت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أعظم آية في القرآن (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) »
(حديث آخر) في اشتغاله على اسم الله الأعظم . قال الإمام أحمد . حدثنا محمد بن بكر أنبأنا عبد الله بن أبي زياد
حدثنا شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين
(الله لا إله إلا هو الحي القيوم) و (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم) « إن فيهما اسم الله الأعظم » وكذا رواه أبو داود
عن مسدد والترمذي عن علي بن خشرم وابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ثلاثهم عن عيسى بن يونس عن عبد الله
بن أبي زياد به وقال الترمذي . حسن صحيح

(حديث آخر) في معنى هذا عن أبي أمامة رضى الله عنه قال ابن مردويه . أخبرنا عبد الله بن نمير أخبرنا إسحق
ابن إبراهيم بن إسماعيل أخبرنا هشام بن عمار أنبأنا الوليد بن مسلم أخبرنا عبد الله بن العلاء بن زيد أنه سمع القاسم
ابن عبد الرحمن يحدث عن أبي أمامة يرفعه قال « اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب في ثلاث : سورة البقرة
وآل عمران وطه » وقال هشام وهو ابن عمار خطيب دمشق : أما البقرة (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وفي آل عمران
(ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وفي طه (وعنت الوجوه للحي القيوم)

(حديث آخر) عن أبي أمامة في فضل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة قال أبو بكر بن مردويه . حدثنا محمد بن محرز
ابن يناور الأدي أخبرنا جعفر بن محمد بن الحسن أخبرنا الحسن بن بشر بطرسوس أخبرنا محمد بن حمير أخبرنا محمد
ابن زياد عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي لم يمنعه
من دخول الجنة إلا أن يموت » وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن الحسن بن بشر به وأخرجه ابن حبان في صحيحه
من حديث محمد بن حمير وهو الحمصي من رجال البخاري أيضاً فهو إسناد على شرط البخاري وقد زعم أبو الفرج
ابن الجوزي أنه حديث موضوع والله أعلم . وقد روى ابن مردويه من حديث علي والنيرة بن شعبة وجابر بن عبد الله
نحو هذا الحديث ولكن في إسناد كل منهما ضعف . وقال ابن مردويه أيضاً حدثنا محمد بن الحسن بن زياد القرني

أخبرنا يحيى بن درستويه المروزي أخبرنا زياد بن إبراهيم أخبرنا أبو حمزة السكري عن المثني عن قتادة عن الحسن عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال : « أوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام أن اقرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة فانه من يقرأها في دبر كل صلاة مكتوبة أجعل له قلب الشاكرين ولسان الداكرين وثواب النبيين وأعمال الصديقين ولا يواظب على ذلك إلا نبي أو صديق أو عبد امتحن قلبه للإيمان أو أريد قتله في سبيل الله » وهذا حديث منكر جداً

(حديث آخر) في أنها تحفظ من قرأها في أول النهار وأول الليل . قال أبو عيسى الترمذي . حدثنا يحيى بن الغيرة أبو سلمة الخزومي المديني أخبرنا ابن أبي فديك عن عبد الرحمن المليكي عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ . حم المؤمن إلى (إليه المصير) وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح » ثم قال هذا حديث غريب وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي مليكة المليكي من قبل حفظه

وقد ورد في فضلها أحاديث آخر تركناها اختصاراً لعدم صحتها وضعف أسانيدها كحديث علي في قراءتها عند الحجامة إنها تقوم مقام حجابتين وحديث أبي هريرة في كتابتها في اليد اليسرى بالزعفران سبع مرات وتلحس للحفظ وعدم النسيان أوردهما ابن مردويه وغير ذلك .

﴿ وهذه الآية مشتملة على عشر حمل مستقلة ﴾

فقوله (الله لا إله إلا هو) إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق (الحى القيوم) أى الحى فى نفسه الذى لا يموت أبداً القيم لغيره ، وكان عمر يقرأ القيام فجميع الموجودات مفقورة إليه وهو غنى عنها ولا قوام لها بدون أمره كقوله (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) وقوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) أى لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه خافية ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم فقوله (لا تأخذه) أى لا تغلبه سنة وهى الوسن والنعاس ولهذا قال ولا نوم لأنه أقوى من السنة وفى الصحيح عن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار حجاب النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرني الحكم بن أبان عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) أن موسى عليه السلام سأل الملائكة هل ينام الله عز وجل ؟ فأوحى الله تعالى إلى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثاً فلا يتركوه ينام ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرها قال فجعل يعس وهما فى يده فى كل يد واحدة قال فجعل يعس وبنه ويعس وبنه حتى نعس نعسة فضرب إحداها بالأخرى فكسرها . قال معمر إنما هو مثل ضربه الله عز وجل يقول فكذلك السموات والأرض فى يده . وهكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن يحيى عن عبد الرزاق فذكره وهو من أخبار بنى إسرائيل وهو مما يعلم أن موسى عليه السلام لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله عز وجل وأنه منزّه عنه وأغرب من هذا كله الحديث الذى رواه ابن جرير : حدثنا إسحق بن أبي إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى عن موسى عليه السلام على المنبر قال « وقع فى نفس موسى هل ينام الله ؟ فأرسل إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً ثم أعطاه قارورتين فى كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما . قال فجعل ينام وكادت يداه يلتقيان فيستقظ فيجس إحداها على الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان - قال - ضرب الله عز وجل مثلاً أن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » وهذا حديث غريب جداً والأظهر أنه إسرائيلى لا مرفوع والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن القاسم ابن عطية حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدستقي حدثني أبي عن أبيه حدثنا أشعث بن إسحق عن جعفر بن أبي الغيرة عن

سعيد بن جبير عن ابن عباس أن بنى إسرائيل قالوا : يا موسى هل ينام ربك ؟ قال اتقوا الله فتداه ربه عز وجل يا موسى سألوكم هل ينام ربك فخذ زجاجتين في يديك فقم الليلة ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقه لركبته ثم اتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا فقال يا موسى لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكت كما هلكت الزجاجتان في يديك . فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ آية الكرسي وقوله (له ما في السموات وما في الأرض) إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه كقوله (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتية يوم القيامة فردا) وقوله (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) كقوله (وكل من ملك في السموات لا تغنى شفايعهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وكقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة كما في حديث الشفاعة « آتى تحت العرش فأخسر ساجداً فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى . ثم يقال ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع - قال - فيحلى حدافاً دخلهم الجنة » وقوله (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها كقوله إخباراً عن الملائكة (وما تنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا) وقوله (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) أى لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعهم عليه . ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه كقوله (ولا يحيطون به علما)

وقوله (وسع كرسية السموات والأرض) قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن إدريس عن مطرف ابن طريف عن جعفر بن أبي الغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله (وسع كرسية السموات والأرض) قال علمه وكذا رواه ابن جرير من حديث عبدالله بن إدريس وهشيم كلاهما عن مطرف بن طريف به قال ابن أبي حاتم : وروى عن سعيد بن جبير مثله : ثم قال ابن جرير : وقال آخرون الكرسي موضع القدمين ثم رواه عن أبي موسى والسدى والضحاك ومسلم البطين . وقال شجاع بن مخلد في تفسيره : أخبرنا أبو عاصم عن سفيان عن عمار الذهبي عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل (وسع كرسية السموات والأرض) قال : « كرسية موضع قدميه والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل » كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن مردويه من طريق شجاع بن مخلد الفلاس فذكره وهو غلط ، وقد رواه وكيع في تفسيره حدثنا سفيان عن عمار الذهبي عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر أحد قدره . وقد رواه الحاكم في مستدركه عن أبي العباس محمد بن أحمد المحبوبي عن محمد بن معاذ عن أبي عاصم عن سفيان وهو الثوري بإسناده عن ابن عباس موقوفاً مثله وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقد رواه ابن مردويه من طريق الحاكم بن ظهير الفزارى الكوفي وهو متروك عن السدى عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً ولا يصح أيضاً . وقال السدى عن أبي مالك : الكرسي تحت العرش . وقال السدى : السموات والأرض في جوف الكرسي والكرسي بين يدي العرش . وقال الضحاك عن ابن عباس : لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة . ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقال ابن جرير : حدثني يونس أخبرني ابن وهب قال : قال ابن زيد : حدثني أبي قال : قال رسول الله ﷺ . « ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس » قال وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض »

وقال أبو بكر بن مردويه أخبرنا سلمان بن أحمد أخبرنا عبدالله بن وهيب المقرئ أخبرنا محمد بن أبي اليسرى العسقلاني أخبرنا محمد بن عبد الله التميمي عن القاسم بن محمد الثقفي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري أنه سأل النبي

صلى الله عليه وسلم عن الكرسي فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسى بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى في مسنده حدثنا زهير حدثنا ابن أبي بكر حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن عبد الله بن خليفة عن عمر رضى الله عنه قال : أتت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ادع الله أن يدخلى الجنة قال فعظم الرب تبارك وتعالى وقال « إن كرسيه وسع السموات والأرض وإن له أطيطا كأطيط الرجل الحديد من ثقله » وقد رواه الحافظ البزار في مسنده المشهور وعبد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما والطبرانى وابن أبي عاصم في كتابي السنة لهما والحافظ الضياء في كتابه المختار من حديث أبي إسحق السبيعي عن عبد الله بن خليفة وليس بذلك المشهور وفي سماعه من عمر نظر . ثم منهم من يرويه عنه عن عمر موقوفا ومنهم من يرويه عنه مراسلا ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة ومنهم من يحدفها . وأغرب من هذا حديث جبير بن مطعم في صفة العرش كما رواه أبو داود في كتابه السنة من سننه والله أعلم . وقد روى ابن مردويه وغيره أحاديث عن بريدة وجابر وغيرهما في وضع الكرسي يوم القيامة لفصل القضاء والظاهر أن ذلك غير المذكور في هذه الآية وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من المسلمين أن الكرسي عندهم هو الفلك الثامن وهو فلك الثوابت الذى فوقه الفلك التاسع وهو الفلك الأثير ويقال له الأطلس وقد رد ذلك عليهم آخرون وروى ابن جرير من طريق جوير عن الحسن البصرى أنه كان يقول : الكرسي هو العرش والصحيح أن الكرسي غير العرش والعرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة عن عمر في ذلك وعندى في صحته نظر والله أعلم

وقوله (ولا يؤوده حفظهما) أى لا يثقله ولا يكثره حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما بل ذلك سهل عليه يسير لديه وهو القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة ، وهو الغنى الحميد ، الفعال لما يريد الذى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، وهو القاهر لكل شيء الحسيب على كل شيء . الرقيب العلى العظيم لا إله غيره ولا رب سواه ، فقوله (وهو العلى العظيم) كقوله (وهو الكبير المتعال) وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح أمروها^(١) كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنِ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى (لا إكراه في الدين) أى لا تتركهوا أحداً على الدخول في دين الاسلام فانه بين واضح جلى دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله للاسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فانه لا يفيد الدخول في الدين مكرها مقسورا وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار وإن كان حكمها عاما وقال ابن جرير : حدثنا ابن يسار حدثنا ابن أبي عدى عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا . لا ندع أبناءنا فأنزل الله عز وجل (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) وقد رواه أبو داود والنسائي جميعا عن بNDAR به ومن وجوه أخر عن شعبة به نحوه وقد رواه ابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه من حديث شعبة به وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصرى وغيرهم أنها نزلت في ذلك وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد الجرشي عن زيد بن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد عن ابن عباس قوله (لا إكراه في الدين) قال : نزلت في رجل من الأنصار من

(١) في نسخة الأزهر امرأها الخ والمعنى عدم تأويلها بآراء الناس بل تؤمن بها مع تنزيه الله تعالى عن الشبه بشيء من خلقه .

بنى سالم بن عوف يقال له الحصيني كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلا مسلما فقال للنبي ﷺ ألا أستكرههما فانهما قد آبيا إلا النصرانية فأنزل الله فيه ذلك رواه ابن جرير وروى السدي نحو ذلك وزاد وكانا قد تنصرا على أيدي تجار قدموا من الشام يحملون زيبيا فلما عزموا على الذهاب معهم أراد أبوها أن يستكرههما وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث في آثارهما فزلت هذه الآية وقال ابن أبي حاتم . حدثنا أبي حدثنا عمرو بن عوف أخبرنا شريك عن أبي هلال عن أنس قال . كنت في دينهم مملوكا نصرانيا لعمر بن الخطاب فكان يعرض على الاسلام فأبى فيقول (لا إكراه في الدين) ويقول يا أسبق لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بدلوا الجزية وقال آخرون . بل هي منسوخة بآية القتال وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الاسلام فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ولم ينقله أو يبذل الجزية قوتل حتى يقتل وهذا معنى الإكراه قال الله تعالى (استدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وقال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) وفي الصحيح « عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل » . يعني الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الاسلام في الوثاق والأغلال والقيود والأكبال ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرايرهم فيكونون من أهل الجنة . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا يحيى عن حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل « أسلم » قال إني أجدني كارها قال « وإن كنت كارها » فإنه ثلاثي صحيح ولكن ليس من هذا القبيل فإنه لم يكرهه النبي صلى الله عليه وسلم على الاسلام بل دعاه اليه فأخبره أن نفسه ليست قابلة له بل هي كارهة فقال له أسلم وإن كنت كارها فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص

وقوله (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله مبيح عليم) أي من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ووجد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أي فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم قال أبو القاسم البغوي . حدثنا أبو روح البلدي حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم عن أبي إسحق عن حسان هو ابن قائد العبسي قال : قال عمر رضي الله عنه إن الجيت السحر والطاغوت الشيطان وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال يقاتل الشجاع عمن لا يعرف ويفر الجبان من أمه وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه وإن كان فارسيا أو نبطيا . وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث الثوري عن أبي إسحق عن حسان بن قائد العبسي عن عمر فذكره ومعنى قوله في الطاغوت إنه الشيطان قوى جدا فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم بها والاستنصار بها

وقوله (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم هي في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوى شديد ولهذا قال (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) الآية ، قال مجاهد : العروة الوثقى يعني الإيمان وقال السدي : هو الاسلام وقال سعيد بن جبير والضحاك يعني لا إله إلا الله وعن أنس بن مالك العروة الوثقى القرآن وعن سالم بن أبي الجعد قال هو الحب في الله والبغض في الله وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافي بينها وقال معاذ بن جبل في قوله (لا انفصام لها) دون دخول الجنة وقال مجاهد وسعيد بن جبير (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) ثم قرأ (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقال الإمام أحمد . أنبأنا إسحق بن يوسف حدثنا ابن عوف عن محمد بن قيس بن عبادة قال . كنت في المسجد فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع ففصلى ركعتين أوجز فيهما فقال القوم هذا رجل من أهل الجنة فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله فدخلت معه فحدثته فلما استأنس قلت له إن القوم لما دخلت المسجد قالوا كذا وكذا

قال سبحانه الله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم وسأحدثك لم : إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصتها عليه رأيت كأنني في روضة خضراء - قال ابن عون فذكر من خضرتها وسعتها - وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء في أعلاه عروة فقيل لي اصعد عليه فقلت لا أستطيع فجاءني منصف - قال ابن عون هو الوصف - فرفع ثيابي من خلفي فقال اصعد فصعدت حتى أخذت بالعروة فقال استمسك بالعروة فاستيقظت وإنها لفي يدي فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصتها عليه فقال « أما الروضة فروضة الاسلام وأما العمود فعمود الاسلام وأما العروة فهي العروة الوثقى أنت على الاسلام حتى تموت » قال وهو عبد الله ابن سلام . أخرجه في الصحيحين من حديث عبد الله بن عون فقامت اليه (١) وأخرجه البخاري من وجه آخر عن محمد بن سيرين به

(طريق أخرى وسياق آخر) قال الإمام أحمد : أنبأنا حسن بن موسى وعثمان قالا أنبأنا حماد بن سلمة عن عاصم ابن بهدلة عن المسيب بن رافع عن خرشة بن الحر قال : قدمت المدينة فجلست إلى مشيخة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فجاء شيخ يتوكأ على عصاه فقال القوم : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فينظر إلى هذا . فقام خلف سارية فصلى ركعتين فقلت له : قال بعض القوم كذا وكذا فقال الجنة لله يدخلها من يشاء وإني رأيت على عهد رسول الله ﷺ رؤيا كأن رجلا أتاني فقال انطلق فذهبت معه فسلكت بي منها عظماء فعرضت لي طريق عن يساري فأردت أن أسلكها فقال : إنك لست من أهلها ثم عرضت لي طريق عن يميني فسلكتها حتى انتهيت إلى جبل زلقي فأخذ بيدي فدحاني فإذا أنا على ذروته فلم ألتصق ولم أتمسك فإذا عمود حديد في ذروته حلقة من ذهب فأخذ بيدي فدحاني حتى أخذت بالعروة فقال : استمسك فقلت نعم فضرب العمود برجله فاستمسك بالعروة فقصصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « رأيت خيرا أما المنهج العظيم الفخشر وأما الطريق التي عرضت عن يسارك فطريق أهل النار ولست من أهلها وأما الطريق التي عرضت عن يمينك فطريق أهل الجنة وأما الجبل الزلقي فنزل الشهداء ، وأما العروة التي استمسكت بها فعروة الاسلام فاستمسك بها حتى تموت » قال فأنما أرجو أن أكون من أهل الجنة . قال وإذا هو عبد الله بن سلام وهكذا رواه النسائي عن أحمد بن سليمان عن عفان وابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن الحسن بن موسى الأشيب كلاهما عن حماد بن سلمة به نحوه وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن سليمان بن مسهر عن خرشة بن الحر الفزاري به

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي للمبين السهل المنير وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين (٢) لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجونهم ويخيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ولهذا وحده تعالى لفظ النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال (وأن هذا صراطي مستقيم فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) وقال تعالى (وجعل الظلمات والنور) وقال تعالى (عن اليمين وعن الشمال) إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرده وتشعبه وقال ابن أبي حاتم . حدثنا أبي حدثنا علي بن ميسرة حدثنا عبد العزيز بن أبي عثمان عن موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد قال يبعث أهل الأهواء أو قال تبعث أهل الفتن فمن كان هواه الإيمان كانت فتنته بيضاء مضيئة ومن كان هواه الكفر كانت فتنته سوداء مظلمة ، ثم قرأ هذه الآية (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

(١) هذه الجملة المعترضة ليست في نسخة الأزهر والله أعلم بأصلها (٢) في نسخة الأزهر : الشياطين تزين الخ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

هذا الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ويقال نمروذ بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح والأول قول مجاهد وغيره . قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة مؤمنان وكافران ، فالؤمنان سليمان بن داود وذو القرنين والكافران نمروذ وبختنصر والله أعلم ومعنى قوله (أَلَمْ تَرَ) أى بقلبك يا محمد (إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) أى وجود ربه وذلك أنه انكر أن يكون ثم إليه غيره كما قال بعده فرعون لملئه (ما علمت لكم من إله غيري) وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره وطول مدته في الملك وذلك أنه يقال أنه مكث أربعائة سنة في ملكه ولهذا قال (أن آتاه الله الملك) وكان طلب من إبراهيم دليلا على وجود الرب الذي يدعو إليه فقال إبراهيم (ربى الذي يحيى ويميت) أى إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له . فعند ذلك قال الحاج وهو النمروذ (أنا أحيى وأميت) قال قتادة ومحمد بن إسحق والسدى وغير واحد ، وذلك أنى أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل وأمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل فذلك معنى الإحياء والإماتة والظاهر والله أعلم أنه ما أراد هذا لأنه ليس جوابا لما قال إبراهيم ولا في معناه لأنه غير مانع لوجود الصانع وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عنادا ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذي يحيى ويميت كما اقتدى به فرعون في قوله (ما علمت لكم من إله غيري) ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) أى إذا كنت كما تدعى من أنك تحيى وتميت فالذى يحيى ويميت هو الذى يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فان كنت إلها كما ادعيت تحيى وتميت فأت بها من المغرب ؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أى أخرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة قال الله تعالى (والله لا يهدي القوم الظالمين) أى لا يلهيهم خجة ولا برهاناً بل حججهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثانى انتقال من دليل إلى أوضح منه ومنهم من قد يطلق عبارة تردية^(١) وليس كما قالوه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثانى وبين بطلان ما ادعاه نمروذ في الأول والثانى والله الحمد والمنة وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمروذ بعد خروج إبراهيم من النار ولم يكن اجتماع بالملك إلا في ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة وروى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم أن النمروذ كان عنده طعام وكان الناس يغدون إليه لليرة فوفد إبراهيم في جملة من وفد لليرة فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شيء من الطعام فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فلأ منه عدليه وقال أشغل أهلى عنى إذا قدمت عليهم فلما قدم وضع رجليه وجاء فأنكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملائنين طعاما طيبا فعملت طعاما فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه فقال : أتى لكم هذا ؟ قالت : من الذى جئت به فلم أنه رزق رزقهم الله عز وجل قال زيد بن أسلم وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه ثم دعاه الثانية فأبى ثم الثالثة فأبى وقال : أجمع جموعك وأجمع جموعى فجمع النمروذ جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس وأرسل الله عليهم بابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركهم عظاما بادية ودخلت واحدة منها في منخري الملك فمكثت

(١) وفي نسخة الأزهر ردية .

في منخرى الملك أربعائة سنة عذبه الله بها فكان يضرب برأسه (١) المرازب في هذه المدة حتى أهلكه الله بها

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَيْفَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

تقدم قوله تعالى (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) وهو في قوة قوله هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه ولهذا عطف عليه بقوله (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها) اختلفوا في هذا المار من هوفروي بن أبي حاتم عن غصام بن داود عن آدم بن أبي إياس عن إسرائيل عن أبي إسحق عن ناجية بن كعب عن علي بن أبي طالب أنه قال : هو جرير ، ورواه ابن جرير عن ناجية نفسه وحكاه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وسليمان بن بريدة وهذا القول هو المشهور وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد هو أرميا بن حلقيا قال محمد بن إسحق عمن لا يتهم عن وهب بن منبه أنه قال : هو اسم الحضرة عليه السلام وقال ابن أبي حاتم . حدثنا أبي قال سمعت سليمان ابن محمد النيسابري الجارى من أهل الجارى ابن عم مطرف قال سمعت سلمان يقول إن رجلا من أهل الشام يقول إن الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه اسمه حزقيل بن بوار وقال مجاهد بن جبر هو رجل من بني إسرائيل وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها (وهي خاوية) أى ليس فيها أحد من قولهم خوت الدار تخوى خويا

وقوله (على عروشها) أى ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العبارة العظيمة وقال (أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟) وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها . وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه . قال الله تعالى (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) قال وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجع بنو إسرائيل إليها فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شيء أحيأ الله فيه عينه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه فلما استقل سويًا (قال) الله له أى بواسطة الملك (كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم) قال وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله في آخر النهار فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال (أو بعض يوم) قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجده كما تقدم لم يتغير منه شيء ، لا العصير استحال ، ولا التين حمض ولا أتن ولا العنب نقص (وانظر إلى حمارك) أى كيف يحيى الله عز وجل وأنت تنظر (ولنجعلك آية للناس) أى دليلاً على المعاد (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) أى ترفعها فتركب بعضها على بعض وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث نافع بن أبي نعيم عن إسماعيل بن حكيم عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ (كيف ننشزها) بالزاي ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقرئ (ننشزها) أى نحياها قاله مجاهد (ثم نكسوها لحماً) وقال السدي وغيره تفرقت عظام حمارة حوله يمينا ويساراً فنظر إليها وهي تلوح من يياضها فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك الحلة ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها ثم كساها الله لحماً وعصاً وعروفاً وجلداً وبعث الله ملكاً فنفع في منخرى الحمار فنهق كله ياذن الله عز وجل وذلك كله برأى من العزيز فمئذ ذلك لما تبين له هذا كله (قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) أى أنا عالم بهذا وقد رأيته عياناً فأنا أعلم أهل زمانى بذلك وقرأ آخرون « قال اعلم » على أنه أمر له بالعلم

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمَ تُوْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسبابا منها أنه لما قال لفرود (ربي الذي يحيي ويميت) أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال (رب أرني كيف تحيي الموتى). قال أولم تؤمن. قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي» وكذا رواه مسلم عن حرملة بن يحيى عن وهب به. فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة أحدها (١)

وقوله (قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك) اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي وإن كان لا طائل تحت تعيينها إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن فروى عن ابن عباس أنه قال هي الغرناق والطاوس والديك والحمامة وعنه أيضاً أنه أخذ وزاً ورألاً وهو فرخ النعام وديكا وطاوساً وقال مجاهد وعكرمة كانت حمامة وديكا وطلوساً وغراباً وقوله (فصرهن إليك) أي وقطعن قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الأسود السؤلى وهب ابن منبه والحسن والسدى وغيرهم وقال العوفي عن ابن عباس (فصرهن إليك) أوتقهن، فلما أوتقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن وتنف ريشهن ومزقهن وخلط رءوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهم فدعاهن كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على قدميه ويمشى سعيّاً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها وجعل كل طائر يحىء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدمه غير رأسه يأباه فإذا قدم اليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته ولهذا قال (واعلم أن الله عزيز حكيم) أي عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء وما شاء كان بلا مناع لأنه القاهر لكل شيء حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن أيوب في قوله (ولكن ليطمئن قلبي) قال: قال ابن عباس. ما في القرآن آية أرجى

(١) هنا بياض بالنسخ التي بأيدينا، ونذكر مآله البغوى إتماماً للفائدة. قال. يحيى محمد بن إسحق بن خزيمة عن أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني أنه قال على هذا الحديث لم يشك النبي ﷺ ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيي الموتى وإنما شك في أنه هل يجيئهما إلى مأسألاً. وقال أبو سليمان الخطابي ليس في قوله نحن أحق بالشك من إبراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفى الشك عنهما يقول إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فأبراهيم أولى بأن لا يشك وقال ذلك على سبيل التواضع والخصم من النفس وكذلك قوله ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي». وفيه الاعلام أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة مالا يفيد الاستدلال، وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول تواضعا منه وتقديما لإبراهيم على نفسه اهـ

عندي منها وقال ابن جرير : حدثني محمد بن الثني حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت زيد بن علي يحدث عن رجل عن سعيد بن المسيب قال : اتفق عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعا قال : ونحن شعبة . فقال أحدهما لصاحبه أي آية في كتاب الله أرجى عندك لهذه الأمة فقال عبد الله بن عمرو قول الله تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) الآية فقال ابن عباس أما إن كنت تقول هذا فأنا أقول أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم (رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا أبي حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثني محمد بن أبي سلمة عن عمرو حدثني بن النكدر أنه قال : التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص أي آية في القرآن أرجى عندك ، فقال عبد الله بن عمرو : قول الله عز وجل (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا) الآية فقال ابن عباس : لكن أنا أقول قول الله عز وجل (وإذا قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى) فرضى من إبراهيم قوله (بلى) قال فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان وهكذا رواه الحاكم في المستدرک عن أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن الأحزم عن إبراهيم بن عبد الله السعدي عن بشر بن عمر الزهراني عن عبد العزيز بن أبي سلمة بإسناده مثله ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنه تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فقال (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) قال سعيد بن جبیر یعنی فی طاعة الله وقال مكحول یعنی به الاتفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس الجهاد والحج يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف ولهذا قال تعالى (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينمىها الله عز وجل لأصحابها كما ينمى الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة وقد وردت السنة بتضعيف الحسنه إلى سبعمائة ضعف قال الإمام أحمد : حدثنا زياد بن الربيع أبو خدش حدثنا واصل مولى ابن عيينة عن بشار بن أبي سيف الجرمي عن عياض ابن غطيف قال : دخلنا على أبي عبيدة نعوذه من شكوى أصابه بجنبه وامرأته تحيفة قاعدة عند رأسه قلنا كيف بات أبو عبيدة . قالت : والله لقد بات بأجر قال أبو عبيدة مات بأجر وكان مقبلا بوجهه على الحائط فأقبل على القوم بوجهه وقال ألا تسألوني عما قلت . قالوا ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فسبعمائة ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضا أو ماز أذى فالحسنه بعشر أمثالها والصوم حنة مالم يخرقها ومن ابتلاه الله عز وجل بلاء في جسده فهو له حطة » وقد روى النسائي في الصوم بعضه من حديث واصل به ومن وجه آخر موقوفا

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سليمان سمعت أبا عمرو والشيباني عن ابن مسعود أن رجلا تصدق بناقه مخطومة في سبيل الله فقال رسول الله ﷺ « لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقه مخطومة » ورواه مسلم والنسائي من حديث سليمان بن مهران عن الأعمش به ولفظ مسلم جاء رجل بناق مخطومة فقال يارسول الله هذه في سبيل الله فقال « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقه »

(حديث آخر) قال أحمد حدثنا عمرو بن مجمع أبو النذر الكندي أخبرنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله جعل حسنة ابن آدم إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة »

ضعف إلا الصوم والصوم لي وأنا أجزي به وللصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة يوم القيامة ولخلاف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»

(حديث آخر) قال أحمد أخبرنا وكيع أخبرنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله يقول الله إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع طعامه وشرابه من أجل ، وللصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلاف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، الصوم جنة ، الصوم جنة» وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وأبي سعيد الأشج كلاهما عن وكيع به

(حديث آخر) قال أحمد حدثنا حسين بن علي عن زائدة عن الدكين عن بشر بن عَميلة عن حريم بن وائل قال: قال رسول الله ﷺ «من أنفق نفقة في سبيل الله تضاعف بسبعمائة (١) ضعف»

(حديث آخر) قال أبو داود أنبأنا محمد بن عمرو بن السرح حدثنا ابن وهب عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أبي أيوب عن زبانه بن فائدة عن سهل بن معاذ عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «إن الصلاة والصيام والذكر يضاعف على النفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف (٢)»

(حديث آخر) قال ابن أبي حاتم: أنبأنا أبي حدثنا هارون بن عبد الله بن مروان حدثنا ابن أبي فديك عن الحليل ابن عبد الله عن الحسن بن عمران بن حصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من أرسل بنفقة في سبيل وأقام في بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم يوم القيامة ومن غزا في سبيل الله وأنفق في جهة ذلك فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم» ثم تلا هذه الآية (والله يضاعف لمن يشاء) وهذا حديث غريب وقد تقدم حديث أبي عثمان النهدي عن أبي هريرة في تضعيف الحسنة إلى ألفي ألف حسنة عند قوله (من الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) الآية (حديث آخر) قال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن عبيد الله بن العسكري البزار أخبرنا الحسن بن علي بن شبيب أخبرنا محمود بن خالد الدمشقي أخبرنا أبي عن عيسى بن المسيب عن نافع عن ابن عمر لما نزلت هذه الآية (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) قال النبي ﷺ «رب زد أمتي» قال فأنزل الله (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) قال «رب زد أمتي» قال فأنزل الله (إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب) وقد رواه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه عن حاجب بن اركين عن أبي عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز المقرئ عن أبي إسحاق المؤدب عن عيسى بن المسيب عن نافع عن ابن عمر فذكره وقوله ههنا (والله يضاعف لمن يشاء) أي بحسب إخلاصه في عمله (والله واسع عليم) أي فضله واسع كثير أكثر من خلقه عليم بمن يستحق ومن لا يستحق سبحانه وبمحمد

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَمَّزَّاهُ فَنَزَلَ بِهِ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منا على من أعطوه فلا يمتنون به على أحد ولا يمتنون به لا بقول ولا فعل

وقوله (ولا أذى) أى لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروها يحبطون به ما سلف من الإحسان ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك فقال (لهم أجرهم عند ربهم) أى ثوابهم على الله لا على أحد سواه (ولا خوف عليهم) أى فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة (ولا هم يحزنون) أى على ما خلفوه من الأولاد ولا مافاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لا يأسفون عليها لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك

ثم قال تعالى (قول معروف) أى من كلمة طيبة ودعاء لمسلم (ومغفرة) أى عفو وغفر عن ظلم قولى أو فعلى (خير من صدقة يتبعها أذى) قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا ابن فضيل قال : قرأت على معقل بن عبد الله عن عمرو ابن دينار قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال مامن صدقة أحب إلى الله من قول معروف لم تسخع قوله (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى) عن خلقه (حليم) أى يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم وقد وردت الأحاديث بالنهى عن المن فى الصدقة فى صحيح مسلم من حديث شعبة عن الأعمش عن سليمان بن « مسهر عن خرشة ابن الحر عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : الثمان بما أعطى والمسبل إزاره والنفق سلعته بالحلف الكاذب » وقال ابن مردويه : حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى أخبرنا عثمان بن محمد الدورى أخبرنا هشيم بن خارجة أخبرنا سليمان بن عقبة عن يونس بن ميسرة عن أبى إدريس عن أبى الدرداء عن النبي ﷺ قال « لا يدخل الجنة عاق ولا منان ولا مدمن خمر ولا مكذب بقدر » وروى أحمد وابن ماجه من حديث يونس بن ميسرة نحوه ثم روى ابن مردويه وابن حبان والحاكم فى مستدركه والنسائى من حديث عبد الله بن يسار الأعرج عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ومدمن الخمر والمنان بما أعطى » وقد روى النسائى عن مالك بن سعد عن عمه روح بن عباد عن عتاب بن بشير عن خفيف الجرارى عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا عاق لوالديه ولا منان » وقد رواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن المنهال عن محمد بن عبد الله بن عصار الموصلى عن عتاب عن خفيف عن مجاهد عن ابن عباس ورواه النسائى من حديث عبد الكريم بن مالك الحورى عن مجاهد قوله وقد روى عن مجاهد عن أبى سعيد وعن مجاهد عن أبى هريرة نحوه ولهذا قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى ثم قال تعالى (كالذى ينفق ماله رياء الناس) أى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من رآى بها الناس فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإعسا قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس أو يقال إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ولهذا قال (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائى بانفاقه قال الضحاك : والذى يتبع نفقته منا أو أذى فقال (فثله كمثل صفوان) وهو جمع صفوانة فمنهم من يقول الصفوان يستعمل مفزداً أيضاً وهو الصفا وهو الصخر الأملس (عليه تراب فأصابه وابل) وهو الطر الشديد (فتركه صلداً) أى فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً أى أملس يابساً أى لا شىء عليه من ذلك التراب بل قد ذهب كله أى وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ولهذا قال (لا يقدرון على شىء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين)

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وهذا مثل المؤمنين المتنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم فى ذلك (وتثبيتاً من أنفسهم) أى وهم متحققون ومتثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ونظير هذا فى معنى قوله عليه السلام فى الحديث الصحيح المتفق على صحته « من صام رمضان إيماناً واحتساباً » أى يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه قال الشعبي : (وثبتاً

من أنفسهم) أى تصديقاً وقيناً وكذا قال قتادة وأبو صالح وابن زيد واختاره ابن جرير وقال مجاهد والحسن أى يثبتون أين يضعون صدقاتهم

وقوله (كمثل جنة بربوة) أى كمثل بستان بربوة وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض وزاد ابن عباس والضحاك وتجري فيه الأنهار . قال ابن جرير رحمه الله . وفى الربوة ثلاث لغات هن ثلاث قراءات بضم الراء وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق وفتحها وهى قراءة بعض أهل الشام والكوفة ويقال إنها لغة عجم وكسر الراء ويذكر أنها قراءة ابن عباس

وقوله (أصابها وابل) وهو المطر الشديد كما تقدم فأتت (أكلها) أى ثمرتها (ضعفين) أى بالنسبة إلى غيرها من الجنان (فإن لم يصبها وابل فطل) قال الضحاك هو الرذاذ وهو اللين من المطر أى هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً لأنها إن لم يصبها وابل فطل وأيا ما كان فهو كفايتها وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً بل يتقبله الله ويكثره وينميه كل عامل بحسبه ولهذا قال (والله بما تعملون بصير) أى لا يخفى عليه من أعمال عباده شئ

﴿ أَيُودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام هو ابن يوسف عن ابن جريج سمعت عبد الله بن أبى مليكة يحدث عن ابن عباس وسمعت أخاه أبا بكر بن أبى مليكة يحدث عن عبيد بن عمير قال : قال عمر ابن الخطاب يوماً لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيمن ترون هذه الآية نزلت ؟ (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان) قالوا : الله أعلم فغضب عمر فقال : قولوا نعم أولاً نعم ، فقال ابن عباس : فى نفسى منها شئ يا أمير المؤمنين فقال عمر : يا ابن أخى قل ولا تحقر نفسك فقال ابن عباس رضى الله عنهما ضربت مثلاً بعمل قال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس لرجل غنى يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله . ثم رواه البخارى عن الحسن بن محمد الزعفرانى عن حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج فذكره وهو من أفراد البخارى رحمه الله وفى هذا الحديث كفاية فى تفسير هذه الآية وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياداً بالله من ذلك فأبطل بعمله الثانى ما أسلفه فيما تقدم من الصالح واحتاج إلى شئ من الأول فى أضيق الأحوال فلم يحصل منه شئ وخانه أحوج ما كان اليه ولهذا قال تعالى (وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار) وهو الريح الشديد (فيه نار فاحترقت) أى أحرق ثمارها وأباد أشجارها فأى حال يكون حاله ؟ وقد روى ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس قال . ضرب الله مثلاً حسناً وكل أمثاله حسن قال (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات) يقول صنعه فى شببته (وأصابه الكبر) وولده وذريته ضعفاء عند آخر عمره فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه فلم يكن عنده قوة أن يفرس مثله ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه وكذلك الكافر يكون يوم القيامة إذا رد إلى الله عز وجل ليس له خير فيستعجب كما ليس لهذا قوة فيفرس مثل بستانه ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه كما لم يرغب عن هذا ولده وحرماً أجره عند أقصر ما كان اليه كما حرم هذا جنته عند ما كان أقصر ما كان اليها عند كبره وضعف ذريته . وهكذا روى الحاكم فى مستدركه أن رسول الله ﷺ كان يقول فى دعائه « اللهم اجعل أوسع رزقك على عند كبرسنى وانقضاء عمري » ولهذا قال تعالى (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) أى تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني وتزولونها على المراد منها كما قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿ يُوْتِ الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالانفاق والمراد به الصدقة ههنا قاله ابن عباس من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها قال مجاهد : يعني التجارة بتيسيره إياها لهم وقال علي والسدي (من طيبات ما كسبتم) يعني الذهب والفضة ومن الثمار والزروع التي أنبتناهم من الأرض قال ابن عباس أمرهم بالانفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ونهامهم عن التصدق برذالة المال ودينه وهو خبيثه فان الله طيب لا يقبل إلا طيباً ولهذا قال (ولا تيمموا الخبيث) أي تقصدوا الخبيث (منه تنفقون ولستم بآخذيهِ) أي لو أعطيتهم ما أخذتموه إلا أن تتفاوضوا فيه فإله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا الله ما تكرهون وقيل معناه (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) أي لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه . ويذكر ههنا الحديث الذي رواه الامام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا إسحق عن الصباح بن محمد عن مرة الحمصاني عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إِنْ اللَّهُ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ يَعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يَحِبُّ وَمَنْ لَا يَحِبُّ وَلَا يَعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْلَمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقِهِ - قَالُوا : وَمَا بَوَائِقُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؟ قَالَ : « غَشَاهُ وَظَلَمَهُ وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيَنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارِكَ لَهُ فِيهِ وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيَقْبَلَ مِنْهُ وَلَا يَتْرَكَ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ ، إِنْ اللَّهُ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ إِنْ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ » وَالصَّحِيحُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ عُمَرَ الْعَبْقَرِيُّ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَسْبَاطٍ عَنِ السَّيِّدِ عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِ اللَّهِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) الْآيَةَ قَالَ : نَزَلَتْ فِي الْأَنْصَارِ كَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا كَانَتْ أَيَّامُ جَذَاذِ النَّخْلِ أَخْرَجَتْ مِنَ حِطَانِهَا الْبَسْرَ فَعَلَقُوهُ عَلَى حَبْلِ بَيْنِ الْأَسْطَوَاتَيْنِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْكُلُ قُرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُ فَيَعْمِدُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِلَى الْحَشَفِ فَيَدْخُلُهُ مَعَ أَقْنَاءِ الْبَسْرِ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فَيَمْنُ فَعَلَّ ذَلِكَ (وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) ثُمَّ رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ طَرِيقِ السَّيِّدِ عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ وَابْنُ مَرْجَانٍ وَمُسْلِمٌ وَلَمْ يَخْرُجَاهُ . وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجَعِيُّ حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ عَنْ إِسْرَائِيلَ عَنِ السَّيِّدِ عَنْ أَبِي مَالِكٍ عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) قَالَ : نَزَلَتْ فِينَا كُنَّا أَصْحَابَ نَخْلٍ فَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي مِنْ نَخْلِهِ بِقَدْرٍ كَثْرَتِهِ وَقَلَّتِهِ فَيَأْتِي الرَّجُلَ بِالْقَنُو فَيَعْلَقُهُ فِي الْمَسْجِدِ وَكَانَ أَهْلُ الصَّفَةِ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ فَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا جَاعَ جَاءَ فَضْرَبَهُ بِعَصَاهُ فَسَقَطَ مِنْهُ الْبَسْرُ وَاتَّقَرُ فَيَأْكُلُ وَكَانَ أَنَاسٌ مِنْ لَائِرِغْبُونَ فِي الْخَيْرِ يَأْتِي بِالْقَنُو وَالشَّيْصِ فَيَأْتِي بِالْقَنُو قَدْ انْكَسَرَ فَيَعْلَقُهُ فَنَزَلَتْ (وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) قَالَ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَهْدَى لَهُ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ مَا أَخَذَهُ إِلَّا عَلَى الْغِمَاضِ وَحَيَاءٍ فَكُنَّا بَعْدَ ذَلِكَ يَحْيَى الرَّجُلُ مِنَّا بِصَالِحٍ مَا عُنْدَهُ وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيِّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مُوسَى الْعَبْسِيُّ عَنْ إِسْرَائِيلَ عَنِ السَّيِّدِ وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْفَارِسِيِّ وَاسْمُهُ غَزْوَانٌ عَنِ الْبَرَاءِ فَقَدْ ذَكَرْنَاهُ ثُمَّ قَالَ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا مَيْمَانَ بْنُ كَثِيرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حَنِيفٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم نهى عن لوتين من الثمر الجعور والحقيق^(١) وكان الناس يتيممون شرار ثمارهم ثم يخرجونها في الصدقة فنزلت (ولا تيمموا الحبيث منه تنفقون) ورواه أبو داود من حديث سفيان بن حسين عن الزهري ثم قال أسنده أبو الوليد عن سليمان بن كثير عن الزهري ولفظه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجعور ولون الحقيق أن يؤخذ في الصدقة وقد روى النسائي هذا الحديث من طريق عبد الجليل بن حميد اليحصبي عن الزهري عن أبي أمامة ولم يقل عن أبيه فذكر نحوه وكذا رواه ابن وهب عن عبد الجليل وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا يحيى بن المغيرة حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن مغفل في هذه الآية (ولا تيمموا الحبيث منه تنفقون) قال كسب المسلم لا يكون خبيثا ولكن لا يصدق بالحشف والدرهم الزيف ومالا خفيفه وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا حماد بن سلمة عن حماد بن عمار عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت أتى رسول الله ﷺ بصب فلم يأكله ولم ينه عنه قلت : يا رسول الله نطعمه المساكين قال « لا تطعموهم بما لا تأكلون » ثم رواه عن عفان عن حماد بن سلمة به فقلت يا رسول الله ألا أطعمه المساكين ؟ قال « لا تطعموهم بما لا تأكلون » وقال الثوري : عن السدي عن أبي مالك عن البراء (ولستم يأخذيه إلا أن تغمضوا فيه) يقول لو كان لرجل على رجل^(٢) فأعطاه ذلك لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه ؟ رواه ابن جرير وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (ولستم يأخذيه إلا أن تغمضوا فيه) يقول لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه قال فذلك قوله (إلا أن تغمضوا فيه) فكيف ترضون لى مالا ترضون لأنفسكم وحق عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه ؟ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد وهو قوله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ثم روى من طريق العوفي وغيره عن ابن عباس نحو ذلك وكذا ذكره غير واحد

وقوله (واعلموا أن الله غنى حميد) أى وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غنى عنها وما ذاك إلا أن يساوى الغنى الفقير كقوله (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) وهو غنى عن جميع خلقه وجميع خلقه فقراء إليه وهو واسع الفضل لا ينفد ماله فيه فمن تصدق بصدقة من كسب طيب فليعلم أن الله غنى واسع العطاء كريم جواد وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافا كثيرة من يقرض غير عديم ولا ظلوم وهو الحميد أى المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه

وقوله (الشیطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا هناد بن السرى حدثنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن للشیطان لمة بآدم وللملاك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان » ثم قرأ (الشیطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) الآية وهكذا رواه الترمذى والنسائي فى كتابى التفسير من سننهما جميعاً عن هناد بن السرى وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن أبي يعلى الموصلى عن هناد به وقال الترمذى حسن غريب وهو حديث أبي الأحوص يعنى سلام بن سليم لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديثه ، كذا قال وقد رواه أبو بكر بن مردويه فى تفسيره عن محمد بن أحمد عن محمد بن عبد الله بن مسعود مرفوعاً نحوه ولكن رواه مسعر عن عطاء بن السائب عن أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة عن ابن مسعود فجعله من قوله والله أعلم ، ومعنى قوله تعالى (الشیطان يعدكم الفقر) أى يخوفكم الفقر لتمسكوا بما بأيديكم فلا تنفقوه فى مرضاة الله (ويأمركم بالفحشاء) أى مع نهيه إياكم عن الاتفاق خشية الاملاق ، يأمركم بالمعاصى والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق قال تعالى (والله يعدكم مغفرة منه) أى فى مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء (وفضلا) أى فى مقابلة ما يخوفكم الشيطان من الفقر (والله واسع عليم)

(١) الجعور بضم الجيم . والحقيق بضم الهاء : نوعان من الدقل وهو بالتعريك : الثمر الرديء اليابس (٢) كذا والمراد حق .

وقوله (يؤتى الحكمة من يشاء) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله وروى جوير عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا « الحكمة القرآن » يعني تفسيره قال ابن عباس فانه قد قرأه البر والفاجر رواه ابن مردويه وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد يعني بالحكمة الاصابة في القول وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد (يؤتى الحكمة من يشاء) ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن وقال أبو العالية . الحكمة خشية الله فان خشية الله رأس كل حكمة وقد روى ابن مردويه من طريق بقة عن عثمان بن زفر الجهني عن أبي عمار الأسدي عن ابن مسعود مرفوعا « رأس الحكمة مخافة الله » وقال أبو العالية في رواية عنه الحكمة الكتاب والفهم وقال إبراهيم النخعي : الحكمة الفهم وقال أبو مالك : الحكمة السنة وقال ابن وهب عن مالك قال زيد بن أسلم : الحكمة العقل قال مالك : وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلا في أمر الدنيا إذا نظر فيها وتجد آخر ضعيفا في أمر دينه عالما يأمر دينه بصيرا به يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا فالحكمة الفقه في دين الله وقال السدي الحكمة النبوة . والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها وأعلاها النبوة والرسالة أخص ولكن لا تباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبعية كما جاء في بعض الأحاديث « من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه » رواه وكيع بن الجراح في تفسيره عن إسماعيل بن رافع عن رجل لم يسمه عن عبد الله بن عمرو قوله وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ويزيد قالا : حدثنا إسماعيل يعني بن أبي خاله عن قيس وهو ابن أبي حازم عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « لاحسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ورجل آتاه الله حكمة (١) فهو يقضى بها ويعلمها » وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه من طرق متعددة عن إسماعيل بن أبي خاله به

وقوله (وما يذكر إلا أولو الألباب) أي وما ينتفع بالموعظة والتذكير إلا من له لب وعقل يعني به الخطاب ومعنى الكلام ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ * إِن تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمندورات وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده ، وتوعد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره فقال (وما للظالمين من أنصار) أي يوم القيامة ينفذونهم من عذاب الله ونقمته

وقوله (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) أي إن أظهرتموها فنعما هي وقوله (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهل خير لكم) فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمرسر بالصدقة » والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية . ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه : ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت

فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يارب هل في خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار . قال : نعم الماء قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من الماء . قال : نعم الريح قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح . قال : نعم ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها من شماله » وقد ذكرنا في فضل آية الكرسي عن أبي ذر قال . قلت يا رسول الله أى الصدقة أفضل . قال « سر إلى فقير أو جهد من مقل » رواه أحمد ورواه ابن أبي حاتم من طريق طي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة عن أبي ذر فذكره وزاد ثم شرع في هذه الآية (إن تبدوا الصدقات فنعماي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) الآية وفي الحديث المروي « صدقة السر تطفى غضب الرب عز وجل » وقال ابن أبي حاتم . حدثنا أبي حدثنا الحسين بن زياد المحاربي مؤدب محارب أنا موسى بن عمير عن عامر الشعبي في قوله (إن تبدوا الصدقات فنعماي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) قال أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ « ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر » قال خلفت لهم نصف مالى وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ « ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر » فقال عدة الله وعدة رسوله . فبكى عمر رضي الله عنه وقال بأبي أنت وأمي يا أبا بكر والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقا . وهذا الحديث روى من وجه آخر عن عمر رضي الله عنه وإنما أوردناه ههنا لقول الشعبي إن الآية نزلت في ذلك ثم إن الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة أو مندوبة لكن روى ابن جرير من طريق طي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال . جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها يقال (١) بسبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفا

وقوله (ويكفر عنكم من سيئاتكم) أى بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سرا يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات وقد قرئ ويكفر بالجزم عطفا على محل جواب الشرط وهو قوله (فنعماي) كقوله فأصدق وأكون وأكن وقوله (والله بما تعملون خير) أى لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزيكم عليه

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْغَافِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْفًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

قال أبو عبد الرحمن النسائي أنبأنا محمد بن عبد السلام بن عبد الرحيم أنبأنا القريابي حدثنا سفيان عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا فرخص لهم فنزلت هذه الآية (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) وكذا رواه أبو حذيفة وابن المبارك وأبو أحمد الزيري وأبو داود الحضرى عن سفيان وهو الثوري به وقال ابن أبي حاتم : أنبأنا أحمد بن القاسم بن عطية حدثني أحمد ابن عبد الرحمن يعني الدشتكي حدثني أبي عن أبيه حدثنا أشعث بن إسحق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الاسلام حتى نزلت هذه الآية (ليس عليك هداهم) إلى

(١) ليس في تفسير ابن جرير كلمة يقال هنا بل فيما بعده سقط .

آخرها فأمر بالصدقة بعدها على كل من سأل من كل دين وسأى عند قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الدين لم يقاتلواكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم) الآية حديث أسماء بنت الصديق في ذلك

وقوله (وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم) كقوله (من عمل صالحا فلنفسه) ونظائرها في القرآن كثيرة

وقوله (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) قال الحسن البصري : نفقة المؤمن لنفسه ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله وقال عطاء الخراساني : يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله وهذا معنى حسن وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب ألب أو فاجر أو مستحق أو غيره وهو مثاب على قصده ومستند هذا تمام الآية (وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأتم لا تظلمون) والحديث الخرج في الصحيحين من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقة فوضعها في يد زانية فأصبح الناس يتحدثون تصدق الليلة على غنى قال : اللهم لك الحمد الحمد على زانية ، لأتصدقن الليلة بصدقة فوضعها في يد غنى فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على غنى قال : اللهم لك الحمد على غنى ، لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقة فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق فقال : اللهم لك الحمد على زانية وعلى غنى وعلى سارق فأثى قليله أما صدقتك فقد قبلت وأما الزانية فلعلها أن تستغف بها عن زنا ولعل الغنى يعتبر فينفق مما أعطاه الله ولعل السارق أن يستغف بها عن سرقة »

وقوله (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله) يعني المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و (لا يستطيعون ضربا في الأرض) يعني سفراً للتسبب في طلب المعاش والضرب في الأرض هو السفر قال الله تعالى (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) وقال تعالى (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله) الآية

وقوله (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) أي الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقاتلهم وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا » وقدرناه أحمد من حديث ابن مسعود أيضاً

وقوله (تعرفهم بسيماهم) أي بما يظهر لدوى الأبواب من صفاتهم كما قال تعالى (سيماهم في وجوههم) وقال (ولتعرفهم في لحن القول) وفي الحديث الذي في السنن « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ (إن في ذلك لآيات للمتوسمين)

وقوله (لا يسألون الناس إلحافاً) أي لا يلحون في المسئلة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه فإن من سأل وله ما يغنيه عن المسئلة فقد ألحف في المسئلة قال البخاري : حدثنا ابن أبي مريم حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شريك بن أبي نمر أن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري قالا : سمعنا أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذي يتعفف أقرءوا إن شئتم يعني قوله (لا يسألون الناس إلحافاً) وقد رواه مسلم من حديث إسماعيل بن جعفر المدني عن شريك بن عبد الله ابن أبي نمر عن عطاء بن يسار وحده عن أبي هريرة به ، وقال أبو عبد الرحمن النسائي : أخبرنا علي بن حجر حدثنا إسماعيل أخبرنا شريك وهو ابن أبي نمر عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان إنما المسكين المتعفف أقرءوا إن شئتم (لا يسألون الناس إلحافاً) وروى البخاري من حديث شعبة عن محمد بن أبي زياد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه وقال ابن أبي حاتم . أخبرنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن أبي ذئب عن أبي الوليد عن أبي هريرة أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس المسكين بالطواف عليكم فتطعمونه لقمة لقمة إنما المسكين المتعفف الذي لا يسأل الناس إلخافا » وقال ابن جرير : حدثني معتمر عن الحسن بن مالك عن صالح بن سويد عن أبي هريرة قال : ليس المسكين بالطواف الذي ترده الأكلة والأكلتان ولكن المسكين المتعفف في بيته لا يسأل الناس شيئا تصيبه الحاجة اقرءوا إن شئتم (لا يسألون الناس إلخافا) وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو بكر الحنفي حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه عن رجل من مزينة أنه قالت له أمه ألا تنطلق فتسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يسأله الناس فانطلقت أسأله فوجدته قائما يخطب وهو يقول « ومن استغف أعفاه الله ومن استغنى أغناه الله ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلخافا » قلت بيني وبين نفسي (١) لناقلة خير من خمس أواق ولغلامه ناقة أخرى فهي خير من خمس أواق فرجعت ولم أسأل وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة حدثنا عبد الرحمن بن أبي الرجال عن عمارة ابن عرفة عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال ، سرحني أمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فأتيته فقعدت قال : فاستقبلني فقال « من استغنى أغناه الله ومن استغف أعفاه الله ومن استكف كفاه الله ومن سأل وله قبة أوقية فقد ألحف » قال قلت ناقتي الياقوتة خير من أوقية فرجعت فلم أسأله وهكذا رواه أبو داود والنسائي كلاهما عن قتيبة زاد أبو داود وهشام بن عمار كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي الرجال بإسناده نحوه وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو الجاهر حدثنا عبد الرحمن بن أبي الرجال عن عمارة بن عرفة عن عبد الرحمن بن أبي سعيد قال : قال أبو سعيد الحدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سأل وله قيمة أوقية فهو ملحف » والأوقية أربعون درهما وقال أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن رجل من بني أسد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلخافا » وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حكيم بن جبير عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سأل وله ما ينييه جاءت مسئلته يوم القيامة خدوشا أو كدوحا في وجهه » قالوا يا رسول الله وما غناه ؟ قال : « خمسون درهما أو حسابها من الذهب » وقد رواه أهل السنن الأربعة من حديث حكيم بن جبير الأسدي الكوفي وقد تركه شعبة بن الحجاج وضعفه غير واحد من الأئمة من جراء هذا الحديث ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا أبو حسين عبد الله بن أحمد بن يونس حدثني أبي حدثنا أبو بكر بن عياش عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين قال : بلغ الحارث رجلا كان بالشام من قريش أن أباذر كان به عوز فبعث إليه ثلاثمائة دينار فقال ما وجد عبد الله رجلا أهون عليه مني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من سأل وله أربعون فقد ألحف » ولآل أبي ذر أربعون درهما وأربعون شاة وماهنان قال أبو بكر بن عياش : يعني خادمين وقال ابن مردويه . حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم أخبرنا إبراهيم بن محمد أنبأنا عبد الجبار أخبرنا سفيان عن داود بن سابور عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله أربعون درهما فهو ملحف وهو مثل سف الملة » يعني الرمل ، ورواه النسائي عن أحمد بن سليمان عن أحمد بن آدم عن سفيان وهو ابن عيينة بإسناده نحوه قوله (وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) أي لا ينحني عليه شيء منه وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه

وقوله (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف ولا هم يحزنون) هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل أو نهار والأحوال من سروجها حتى ان النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضا كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص حين عادته مريضا عام الفتح ، وفي رواية عام حجة الوداع « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تبجل في في امرأتك » ، وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر وهب قال : حدثنا شعبة عن عدي ابن ثابت قال : سمعت عبد الله بن يزيد الأنصاري يحدث عن أبي مسعود رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) هكذا في النسخ ولعله لنا ناقة الخ أو نحو ذلك وقوله ولغلامه ناقة كذا في النسخ وحرر الرواية

أنه قال « إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة محتسبها كانت له صدقة » أخرجاه من حديث شعبة به وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا سليمان بن عبد الرحمن حدثنا محمد بن شعيب قال سمعت سعيد بن يسار عن يزيد بن عبد الله بن عريب المليكي عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نزلت هذه الآية « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم » في أصحاب الخيل. وقال حبش الصنعاني : عن ابن شهاب عن ابن عباس في هذه الآية قال هم الذي ينفقون الخيل في سبيل الله ، رواه ابن أبي حاتم ثم قال وكذا روى عن أبي أمامة وسعيد بن المسيب ومكحول ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج أخبرنا يحيى بن يمان عن عبد الوهاب بن مجاهد عن ابن جبير عن أبيه قال : كان لعلى أربعة دراهم فأنفق درهما ليلا ودرهما نهاراً ودرهما سرّاً ودرهما علانية فنزلت (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية) وكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الوهاب بن مجاهد وهو ضعيف لكن رواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب ، وقوله (فلهم أجرهم عند ربهم) أي يوم القيامة على ما فعلوا من الإيفاء في الطاعات (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) تقدم تفسيره :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات المخرجين الزكوات للتفضلين بالبر والصدقات لدوى الحاجات والقرابات في جميع الأحوال والأوقات شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشهات فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم فقال (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخطط الشيطان له وذلك أنه يقوم قياما منكراً ، وقال ابن عباس . آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يحنق ، رواه ابن أبي حاتم قال وروى عن عوف ابن مالك وسعيد بن جبير والسدي والريبع بن أنس وقاتدة ومقاتل بن حيان نحو ذلك وحكى عن عبد الله بن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقاتدة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا . في قوله (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) يعني لا يقومون يوم القيامة ، وكذا قال ابن أبي نجيع عن مجاهد والضحاك وابن زيد ، وروى ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حنيف عن أبي عبد الله بن مسعود عن أبيه أنه كان يقرأ - الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة - وقال ابن جرير حدثني الثوري حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا ربيعة بن كلثوم حدثنا أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال يقال يوم القيامة لا كل الربا خذ سلاحك للحرب وقرأ (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) وذلك حين يقوم من قبره وفي حديث أبي سعيد في الإسراء كما هو مذكور في سورة سبحان أنه عليه السلام مر ليلتد يقوم لهم أجواف مثل البيوت فسأل عنهم فقيل : هؤلاء أكلة الربا . رواه البيهقي مطولا ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا الحسن بن موسى عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي الصلت عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أتيت ليلة أسرى بي على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحياة تجري من خارج بطونهم فقلت . من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء أكلة الربا » ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان كلاهما عن حماد ابن سلمة به ، وفي إسناده ضعف وقد روى البخاري عن حمزة بن جندب في حديث النام الطويل فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم وإذا في النهر رجل ساج يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك الساج يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه فيلقمه حجراً وذكر في تفسيره أنه آكل الربا

وقوله (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا. وأحل الله البيع وحرم الربا) أى إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله فى القرآن ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع وإنما قالوا (إنما البيع مثل الربا) أى هو نظيره فلم يحرم هذا وأبيع هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع أى هذا مثل هذا وقد أحل هذا وحرم هذا وقوله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا). يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردا عليهم أى على ما قالوه من الاعتراض مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً وهو العليم الحكيم الذى لا معقب لحكمه ولا يستل عما يفعل وهم يسئلون وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وما ينفع عباده فيبيحه لهم وما يضرهم فينهاهم عنه وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل ولهذا قال (فمن جاءه موعظة من ربه فاتمى فله ما سلف وأمره إلى الله) أى من بلغه نهى الله عن الربا فاتمى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من العاملة لقوله (عفا الله عما سلف) وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة «كل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين وأول ربا أضع ربا العباس» ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى حال الجاهلية بل عفا عما سلف كما قال تعالى (فله ما سلف وأمره إلى الله) قال سعيد بن جبير والسدى: فله ما سلف ما كان أكل من الربا قبل التحريم. وقال ابن أبى حاتم قرأ على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أخبرنا ابن وهب أخبرني جرير بن حازم عن أبي إسحق الحميداني عن أم يونس يعنى امرأته العالية بنت أبقع أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت لها أم بحنة أم ولد زيد بن أرقم يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم قالت: نعم قالت: فاني بعته عبداً إلى العطاء بثمانمائة فاحتاج إلى ثمنه فاشتريته قبل محل الأجل بستائة فقالت بثس ما اشتريت وبثس ما اشتريت أبلغى زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بطل إن لم يتب قالت: فقلت أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستائة قالت: نعم (فمن جاءه موعظة من ربه فاتمى فله ما سلف) وهذا الأثر مشهور وهو دليل لمن حرم مسئلة العينة مع ما جاء فيها من الأحاديث المذكورة المقررة فى كتاب الأحكام والله الحمد والمنة، ثم قال تعالى (ومن عاد) أى إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهى الله عنه فقد استوجب العقوبة وقامت عليه الحجة ولهذا قال (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقد قال أبو داود: حدثنا يحيى أبو داود حدثنا يحيى بن معين أخبرنا عبد الله بن رجاء السكى عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر قال: لما نزلت (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من لم يذر الخبارة فليؤذن بحرب من الله ورسوله» ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبي خثيم، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وإنما حرمت الخبارة وهى المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض والمزانة وهى اشتراء الرطب فى رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض والمحاولة وهى اشتراء الحب فى سنبلة فى الحقل بالحب على وجه الأرض وإنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسماً لمادة الربا لأنه لا يعلم التساوى بين الشئين قبل الجفاف ولهذا قال الفقهاء: الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة، ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضيق المسالك المنفضية إلى الربا والوسائل الموصلة إليه وتفاوت نظرم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم وقد قال تعالى (وفوق كل ذى علم عليم) وباب الربا من أشكال الأبواب على كثير من أهل العلم وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد البنا فيهن عهداً تنتهى إليه: الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا - يعنى بذلك بعض المسائل التى فيها شائبة الربا والشرعية شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله لأن ما أفضى إلى الحرام حرام كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد ثبت فى الصحيحين عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبها فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه» وفى السنن عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» وفى الحديث الآخر «الانهم ما حالك فى القلب وترددت فيه النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس» وفى رواية «استفت قلبك وإن أفنك الناس وأفتوك»

وقال الثوري عن عاصم عن الشعبي عن ابن عباس قال : آخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الربا رواه البخاري عن قبيصة عنه وقال أحمد عن يحيى عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب أن عمر قال من آخر ما نزل آية الربا وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا فدعوا الربا والريسة وقال رواه ابن ماجه وابن مردويه من طريق هياج بن بسطام عن داود بن أبي هند عن أنى نضرة عن أبي سعيد الخدري قال : خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال إني لعلي أنهما كن عن أشياء تصلح لكم وأمركم بأشياء لا تصلح لكم وإن من آخر القرآن نزولا آية الربا وإنه قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا فدعوا ما يريكم إلى ما لا يريكم وقد قال ابن أبي عدي بالاسناد موقوفاً فذكره ورده الحاكم في مستدركة وقد قال ابن ماجه حدثنا عمرو بن علي الصيرفي حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن زيد عن إبراهيم عن مسروق عن عبد الله هو ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الربا ثلاثة وسبعون باباً » ورواه الحاكم في مستدركة من حديث عمرو بن علي الفلاس باسناد مثله وزاد أيسرها أن ينكح الرجل أمه وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال ابن ماجه حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا عبد الله بن إدريس عن أبي معشر عن سعيد القبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الربا سبعون جزءاً أيسرها أن ينكح الرجل أمه » وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم عن عباد بن راشد عن سعيد ابن أبي خيرة حدثنا الحسن منذ نحو من أربعين أو خمسين سنة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا » قال قيل له الناس كلهم ؟ قال « من لم يأكله منهم ناله من غباره » وكذا رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من غير وجه عن سعيد بن أبي خيرة عن الحسن به ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن عائشة قالت : لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأهن فحرم التجارة في الخمر وقد أخرج الجماعة سوى الترمذي من طرق عن الأعمش به وهكذا لفظ رواية البخاري عند تفسير هذه الآية فحرم التجارة وفي لفظ له عن عائشة قالت : لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس ثم حرم التجارة في الخمر قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة : لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضي إليه من تجارة ونحو ذلك كما قال عليه السلام في الحديث المتفق عليه « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجمعوا فباعوها وأكلوا أثمانها » وقد تقدم في حديث علي وابن مسعود وغيرهما عند لعن المحلل في تفسير قوله (حتى تنكح زوجاً غيره) قوله ﷺ « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكتابه » قالوا وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعى ويكون داخله فاسداً فالاعتبار بمعناه لا بصورته لأن الأعمال بالنيات وفي الصحيح « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية كتاباً في إبطال التحليل تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل وقد كفى في ذلك وشفي فرحمه الله ورضي عنه

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يمحى الربا أى يذهب إيماناً يذهب بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا يتنفع به بل يعدمه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة كما قال تعالى (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) وقال تعالى (ويعمل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم) وقال (وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله) الآية وقال ابن جرير : في قوله (يمحى الله الربا) وهذا نظير الخبر الذي روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال

الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد في مسنده فقال : حدثنا حجاج حدثنا شريك عن الركين بن الربيع عن أبيه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل » وقد رواه ابن ماجه عن العباس بن جعفر عن عمرو بن عون عن يحيى بن أبي زائدة عن إسرائيل عن الركين بن الربيع بن عميلة الفزاري عن أبيه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قل » وهذا من باب المعاملة بنقيض المقصود كما قال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا الهيثم بن نافع الظاهري حدثني أبو يحيى رجل من أهل مكة عن فروخ مولى عثمان أن عمرو وهو يومئذ أمير المؤمنين خرج من المسجد فرأى طعاما منشوراً فقال : ما هذا الطعام ؟ فقالوا : طعام جلب إلينا قال بارك الله فيه وفيمن جلبه قيل يا أمير المؤمنين إنه قد احتكر قال من احتكره ؟ قالوا فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر فأرسل إليهما فقال : ما حملكما على احتكار طعام المسلمين ؟ قال : يا أمير المؤمنين نشترى بأموالنا ونبيع فقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالافلاس أو بجذام » فقال فروخ عند ذلك أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود في طعام أبداً وأما مولى عمر فقال إنما نشترى بأموالنا ونبيع قال أبو يحيى فلقد رأيت مولى عمر يجذوما ورواه ابن ماجه من حديث الهيثم بن رافع به ولفظه « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالافلاس والجذام » وقوله (ويربى الصدقات) قرئ بضم الياء والتخفيف من ربا الشيء يربو وأرباه يريه أى كثره ونماه ينميه وقرئ يربى بالضم والتشديد من التربية قال البخاري حدثنا عبد الله بن كثير أخبرنا كثير سمع أبا النضر حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها يمينه ثم يربها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجلب » كذا رواه في كتاب الزكاة وقال في كتاب التوحيد وقال خالد بن خالد بن مخلد بن سليمان بن بلال عن عبد الله بن دينار فذكر بإسناده نحوه وقد رواه مسلم في الزكاة عن أحمد بن عثمان بن حكيم عن خالد بن مخلد فذكره قال البخاري ورواه مسلم بن أبي مريم وزيد بن أسلم وسهيل عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قلت أما رواية مسلم ابن أبي مريم فقد تفرد البخاري بذكرها وأما طريق زيد بن أسلم فرواه مسلم في صحيحه عن أبي الطاهر بن السرح عن أبي وهب عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم به وأما حديث سهيل فرواه مسلم عن قتيبة عن يعقوب بن عبد الرحمن عن سهيل به والله أعلم قال البخاري وقال ورقاء عن ابن دينار عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد أسند هذا الحديث من هذا الوجه الحافظ أبو بكر البيهقي عن الحاكم وغيره عن الأصم عن العباس المروزي عن أبي الزناد هاشم بن القاسم عن ورقاء وهو ابن عمر اليشكري عن عبد الله بن دينار عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب فإن الله يقبلها يمينه فيربها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى يكون مثل أحد » وهكذا روى هذا الحديث مسلم والترمذي والنسائي جميعاً عن قتيبة عن الليث بن سعد عن سعيد المقبري وأخرجه النسائي من رواية مالك عن يحيى بن سعيد الأنصاري ومن طريق يحيى القطان عن محمد بن عجلان ثلاثهم عن سعيد بن يسار أبي الحباب الدني عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكره وقد روى عن أبي هريرة من وجه آخر فقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي حدثنا وكيع عن عباد بن منصور حدثنا القاسم بن محمد قال سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يقبل الصدقة ويأخذها يمينه فيربها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره أو فلوه حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد » وتصديق ذلك في كتاب الله (يحق الله الربا ويربى الصدقات) وكذا رواه أحمد عن وكيع وهو في تفسير وكيع ورواه الترمذي عن أبي كريب عن وكيع به وقال حسن صحيح وكذا رواه الترمذي عن عباد بن منصور به ورواه أحمد أيضاً عن خلف بن الوليد عن ابن المبارك عن عبد الواحد بن ضمرة وعباد بن منصور كلاهما عن أبي نضرة عن القاسم به وقد رواه ابن جرير عن محمد بن عبد الملك بن إسحق عن عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن القاسم

ابن محمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا تصدق من طيب يقبلها الله منه فيأخذها بيمينه ويربها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله أو قال في كف الله حتى تكون مثل أحد فتصدقوا » وهكذا رواه أحمد عن عبد الرزاق وهذا طريق غريب صحيح الإسناد ولكن لفظه عجب والحفوظ ما تقدم وروى عن عائشة أم المؤمنين فقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد عن ثابت عن القاسم بن محمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله يربي لأحدكم التمرة واللقمة كما يربي أحدكم فله أو فصيله حتى يكون مثل أحد » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال البرار حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور حدثنا إسماعيل حدثني أبي عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الضحاك بن عثمان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الرجل ليتصدق بالصدقة من الكسب الطيب ولا يقبل الله إلا الطيب فيتلقاها الرحمن بيده فيربها كما يربي أحدكم فله أو وصيفه » أو قال فصيله ثم قال لا نعلم أحدا رواه عن يحيى بن سعيد عن عمرة إلا أبا أويس

وقوله (والله لا يحب كل كفار أثيم) أى لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة وهى أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال ولا يكتفى بما شرع له من الكسب المباح فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع الكسب الخبيثة فهو جحود لما عليه من النعمة ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل - ثم قال تعالى مادحا للمؤمنين برهبهم المطيعين أمره المؤدين شكره المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مخبراً عما أعد لهم من الكرامة وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال (إن الدين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى أمرآ عباده المؤمنين بتقواه ناهيا لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى خافوه وراقبوه فيما تفعلون (وذرُوا ما بقي من الربا) أى اتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال بعد هذا الانذار (إن كنتم مؤمنين) أى بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك . وقد ذكر زيد بن أسلم وابن جريج ومقاتل بن حيان والسدى أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عُمير من ثقيف وبني المغيرة من بني مخزوم كان بينهم ربا في الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذه منهم فتشاوروا وقالت بنو المغيرة لا تؤدى الربا في الإسلام بكسب الإسلام فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذرُوا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) فقالوا تتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا فتركوه كلهم وهذا تهديد شديد ووعد أكيد لمن استمر على تعطى الربا بعد الانذار قال ابن جريج قال ابن عباس فأذنوا بحرب أى استيقنوا بحرب من الله ورسوله وتقدم من رواية ربيعة بن كلثوم عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : يقال يوم القيامة لا كل الربا خذ سلاحك للحرب ثم قرأ (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) فمن كان مقبلا على الربا لا ينزع عنه كان حقا على إمام المسلمين أن يستتبهه فان نزع وإلا ضرب عنقه وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد

ابن بشار حدثنا عبد الأعلى حدثنا هشام بن حسان عن الحسن وابن سيرين أنهما قالا : والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح وقال قتادة أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون وجعلهم بهرجا أين ما أتوا فأياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه فلا يلجئكم إلى معصيته فاقة . رواه ابن أبي حاتم ، وقال الربيع بن أنس : أوعدهم الله آكل الربا بالقتل رواه ابن جرير وقال السهيلي : ولهذا قالت عائشة لأُم محبة مولاة زيد بن أرقم في مسئلة العينة أخبريه أن جهاده مع النبي ﷺ قد أبطل إلا أن يتوب فنخست الجهاد لأنه ضد قوله (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) قال وهذا المعنى ذكره كثير قال ولكن هذا إسناده إلى عائشة ضعيف

ثم قال تعالى (وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون) أى بأخذ الزيادة (ولا تظلمون) أى بوضع رؤوس الأموال أيضا بل لكم ما بذلتكم من غير زيادة عليه ولا نقص منه وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن الحسين بن اشكاب حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيان عن شبيب بن غرقدة المبارقي عن سلمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال : خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال « ألا إن كل ربا كان في الجاهلية موضوع عنكم كله لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وأول رباً موضوع ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله » كذا وجده سليمان بن الأحوص وقد قال ابن مردويه حدثنا الشافعي حدثنا معاذ بن المثنى أخبرنا مسدد أخبرنا أبو الأحوص حدثنا شبيب بن غرقدة عن سلمان بن عمرو عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون » وكذا رواه من حديث حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي حمزة الرقاشي عن عمرو هو ابن خارجة فذكره

وقوله (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) يأمر تعالى بالصبر على العسر الذي لا يجحد وفاء فقال (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين إما أن تقضى وإما أن تربي ، ثم يندب إلى الوضع عنه ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال (وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) أى وأن تركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن الدين ، وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك (فالحديث الأول) عن أبي أمامة أسعد بن زرارة قال الطبراني حدثنا عبد الله بن محمد بن شعيب المرقاني حدثنا يحيى بن حكيم القوم حدثنا محمد بن بكر البرساني حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثني عاصم بن عبيد الله عن أبي أمامة أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسر على معسر أو ليضع عنه » (حديث آخر) عن بريدة قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الوارث حدثنا محمد بن جحادة عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال سمعت النبي ﷺ يقول « من أنظر معسرا فله بكل يوم مثله صدقة » قال ثم سمعته يقول « من أنظر معسرا فله بكل يوم مثله صدقة » قلت سمعتك يا رسول الله تقول « من أنظر معسرا فله بكل يوم مثله صدقة » قال « له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثله صدقة » (حديث آخر) عن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري قال أحمد حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا أبو جعفر الخطمي عن محمد بن كعب القرظي أن أبا قتادة كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيخنيء منه فجاء ذات يوم فخرج صبي فساله عنه فقال نعم هو في البيت يأكل خزيرة فناداه فقال يا فلان اخرج فقد أخبرت أنك هاهنا فخرج اليه فقال ما يفيك عني ؟ فقال إني معسر وليس عندي شيء ، قال آله إنك معسر ؟ قال نعم فيكي أبو قتادة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من نفس عن غريمه أو محاه عنه كان في ظل العرش يوم القيامة » ورواه مسلم في صحيحه (حديث آخر) عن حذيفة بن اليمان قال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا الأحنس أحمد بن عمران حدثنا محمد بن فضيل حدثنا أبو مالك الأشجعي عن ربعي بن حراش عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آتى الله عبدا من عبده يوم القيامة قال ماذا عملت لي في الدنيا ؟

فقال ما عملت لك يارب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها - قالها ثلاث مرات - قال العبد عند آخرها يارب إنك كنت أعطيتني فضل مال وكنت رجلاً أبايع الناس وكان من خلقي الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر ، قال فيقول الله عز وجل أنا أحق من ييسر ادخل الجنة » وقد أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه من طرق عن ربي ابن حراش عن حذيفة زاد مسلم وعقبة بن عامر وأبي مسعود البدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه ولفظ البخاري (١) حدثنا هشام بن عمار حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا الزهرى عن عبد الله بن عبد الله أنه سمع أباه ريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسراً قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه » (حديث آخر) عن سهل بن حنيف قال الحاكم في مستدركه حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك حدثنا عمرو بن ثابت حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل عن عبد الله بن سهل ابن حنيف أن سهلاً حدثه أن رسول الله ﷺ قال « من أعان مجاهداً في سبيل الله أو غزاه أو غارماً في عسرتة أو مكاتباً في رقبته أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه

(حديث آخر) عن عبد الله بن عمر قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد عن يوسف بن صهيب عن زيد العمى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر » انفراد به أحمد (حديث آخر) عن أبي مسعود عقبة بن عمرو قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا أبو مالك عن ربي ابن حراش عن حذيفة أن رجلاً أتى به الله عز وجل فقال ماذا عملت في الدنيا ؟ فقال له الرجل ما عملت مثقال ذرة من خير فقال له ثلاثاً وقال في الثالثة إني كنت أعطيتني فضلاً من المال في الدنيا فكنت أبايع الناس فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر فقال تبارك وتعالى نحن أولى بذلك منك تجاوزوا عن عبدى ، فغفر له قال أبو مسعود هكذا سمعت من النبي ﷺ وهكذا رواه مسلم من حديث أبي مالك سعد بن طارق به

(حديث آخر) عن عمران بن حصين قال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر أخبرنا أبو بكر عن الأعمش عن أبي داود عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ « من كان له على رجل حق فأخذه كان له بكل يوم صدقة » غريب من هذا الوجه وقد تقدم عن بريدة نحوه

(حديث آخر) عن أبي اليسر كعب بن عمرو قال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن عبد الملك بن عمير عن ربي قال حدثنا أبو اليسر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله » وقد أخرجه مسلم في صحيحه من وجه آخر من حديث عباد بن الوليد ابن عباد بن الصامت قال خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحى من الأنصار قبل أن يهلكوا فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غلام له معه ضامة من صحف وعلى أبي اليسر بردة ومعارفى وعلى غلامه بردة ومعارفى فقال له أبى ياعم إني أرى في وجهك سقعة من غضب قال أجل كان لى على فلان بن فلان الراعى مال فأنتيت أهله فسلمت فقلت أتم هو قالوا لا فخرج على ابن له جفر فقلت أين أبوك فقال سمع صوتك فدخل أريكة أمتى فقلت اخرج إلى فقد علمت أين أنت فخرج فقلت ماحملك على أن اختبأت منى ؟ قال أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك خشيت والله أن أحدثك فأكذبك أو أعذك فأخلفك وكنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنت والله معسراً قال قلت آله قال قلت الله ؟ الله ثم قال فأتى بصحيفته فمحاها بيده ثم قال فإن وجدت قضاء فاقضنى وإلا فأنت في حل ، فأشهد أبصر عيناى هاتان - ووضع اصبعيه على عينيه - وسمع أذناى هاتان ووعداه قلبي - وأشار إلى نياط قلبي - رسول الله ﷺ وهو يقول « من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله » وذكر تمام الحديث (حديث آخر) عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال عبد الله بن الإمام أحمد حدثني أبو يحيى البرزاري محمد ابن عبد الرحمن حدثنا الحسن بن أسيد بن سالم الكوفي حدثنا العباس بن الفضل الأنصارى عن هشام بن زياد القرشى عن أبيه عن محجن مولى عثمان عن عثمان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أظلل الله عيناى في ظله يوم لا ظل

(١) هتاياض في النسخين الأميرية والخطوط ووقعت هذه الزيادة من قوله حدثنا إلى آخر الحديث في نسخة أخرى ولعلها نقلت من صحيح البخاري والله أعلم.

إلا ظله من أنظر معسراً أو ترك لغارم»

(حديث آخر) عن ابن عباس قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا نوح بن جعونة السلمي الخراساني عن مقاتل ابن حيان عن عطاء عن ابن عباس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد وهو يقول بيده هكدا وأوما أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض «من أنظر معسراً أو وضع عنه وقاه الله من فيح جهنم ألا إن عمل الجنة حزن وبرودة ثلاثاً ألا إن عمل النار سهل وبسوة ، والسعيد من وقى الفتنة وما من جرعة أوجب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً» تفرد به أحمد ،

(طريق آخر) قال الطبراني حدثنا أحمد بن محمد البوراني قاضي الحديبية (١) من ديار ربيعة حدثنا الحسن بن علي الصدائى حدثنا الحكم بن الجارود حدثنا ابن أبي المنذر خال ابن عيينة عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ «من أنظر معسراً إلى ميسرته أنظره الله بذنبه إلى توبته»

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ويحذرهم عقوبته فقال (واثقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وقد روى أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم فقال ابن لهيعة حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال آخر ما نزل من القرآن كله (واثقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول رواه ابن أبي حاتم وقد رواه ابن مردويه من حديث المسعودي عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال آخر آية نزلت (واثقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) وقد رواه النسائي من حديث يزيد النحوي عن عكرمة عن عبد الله بن عباس قال آخر شيء نزل من القرآن (واثقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وكذا رواه الضحاك والعمري عن ابن عباس وروى الثوري عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال آخر آية نزلت (واثقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) فكان بين نزولها وموت النبي ﷺ واحد وثلاثون يوماً وقال ابن جرير قال ابن عباس آخر آية نزلت (واثقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) الآية قال ابن جرير يقولون إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبديء يوم السبت ومات يوم الاثنين رواه ابن جرير ورواه ابن عطية عن أبي سعيد قال آخر آية نزلت (واثقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا أُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّحُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ۝﴾

(١) وفي نسخة الأزهر (الحديث) ولعلها الصواب والرجل ليس من رواية الجماعة .

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب قال حدثني سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال لما نزلت آية الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول من جحد آدم عليه السلام أن الله لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذار إلى يوم القيامة فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجالاً زهواً فقال أي رب من هذا؟ قال هو ابنك داود قال أي رب كم عمره؟ قال ستون عاماً، قال رب زد في عمره قال لا إلا أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف سنة فزاده أربعين عاماً فكتب عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة فلما احتضر آدم وأتته الملائكة قال إنه قد بقي من عمري أربعون عاماً فقل له إنك قد وهبتها لابنك داود قال، ما فعلت، فأبرز الله عليه الكتاب وأشهد عليه الملائكة « وحدثنا أسود بن عامر عن حماد بن سلمة فذكره وزاد فيه « فأتمها الله لداود مائة وأتمها لآدم ألف سنة » وكذا رواه ابن أبي حاتم عن يوسف بن أبي حبيب عن أبي داود الطيالسي عن حماد بن سلمة هذا حديث غريب جداً وعلى بن زيد ابن جدعان في أحاديثه نكارة وقد رواه الحاكم في مستدركه بنحوه من حديث الحارث بن عبد الرحمن بن أبي وثاب عن سعيد القبري عن أبي هريرة ومن رواية أبي داود بن أبي هند عن الشعبي عن أبي هريرة ومن طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة ومن حديث تمام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكره بنحوه

فقوله (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات موجهة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا) وقال سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في قوله (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) قال أنزلت في السلم إلى أجل معلوم وقال قتادة عن أبي حسان الأعرج عن ابن عباس قال أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه ثم قرأ (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى) رواه البخاري وثبت في الصحيحين من رواية سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن عبد الله بن كثير عن أبي المنهال عن ابن عباس قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والستين والثلاث فقال رسول الله ﷺ « من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » وقوله (فاكتبوه) أمر منه تعالى بالكتابة للتوثيق والحفظ فإن قيل فقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة فالجواب أن الدين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلاً لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس والسنن أيضاً محفوظة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي أمر الله بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب كما ذهب إليه بعضهم قال ابن جريج من أذن فليكتب ومن ابتاع فليشهد وقال قتادة ذكر لنا أن أبا سلمان المرعشي كان رجلاً صاحب كعباً فقال ذات يوم لأصحابه هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له؟ فقالوا وكيف يكون ذلك؟ قال رجل باع يعباً إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب فلما حل ماله جحده صاحبه فدعا ربه فلم يستجب له لأنه قد عصى ربه. وقال أبو سعيد والشعبي والريعي بن أنس والحسن وابن جريج وابن زيد وغيرهم كان ذلك واجباً ثم نسخ بقوله (فان آمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أماتته) والدليل على ذلك أيضاً الحديث الذي حكى عن شرع من قبلنا مقررآ في شرعنا ولم ينكر عدم الكتابة والإشهاد قال الإمام أحمد حدثنا يونس بن محمد حدثنا ليث عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه ذكر أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال ائتمني بشهداء أشهدهم قال كفي بالله شهيداً قال ائتمني بكفيل قال كفي بالله كفيلاً قال صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل

الذى آجله فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر ثم قال اللهم إني قد علمت أنى استسلفت فلاناً ألف دينار فسألنى كفيلاً فقلت كفى بالله كفيلاً فرضى بذلك وسألنى شهيداً فقلت كفى بالله شهيداً فرضى بذلك وإنى قد جهدت أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذى أعطانى فلم أجد مركباً وإنى استودعتكمها فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يطلب مركباً إلى بلده فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً تبيته بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله خطباً فلما كسرهما وجد المال والصحيفة ثم قدم الرجل الذى كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال والله ما زلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه . قال هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ قال ألم أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل هذا الذى جئت فيه ؟ قال فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت به فى الخشبة فانصرف بألفك راشداً . وهذا إسناد صحيح وقد رواه البخارى فى سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقاً بصيغة الجزم فقال وقال الليث بن سعيد فذكره ويقال إنه رواه فى بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه

وقوله تعالى (فليكتب بينكم كاتب بالعدل) أى بالقسط والحق ولا يجر فى كتابته على أحد ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان وقوله (ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب) أى ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ولا ضرورة عليه فى ذلك فكما علمه الله ما لم يكن يعلم فليصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب كما جاء فى الحديث « إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرى » وفى الحديث الآخر « من كتب علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وقال مجاهد وعطاء واجب على الكاتب أن يكتب وقوله (وليلل الذى عليه الحق وليتق الله ربه) أى وليلل المدين على الكاتب ما فى ذمته من الدين وليتق الله فى ذلك (ولا يخس منه شيئاً) أى لا يكتم منه شيئاً (فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً) محجوراً عليه بتبذير ونحوه (أضعيفاً) أى صغيراً أو مجنوناً (أو لا يستطيع أن يعمل هو) إما لى أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه (فليعلمه وليه بالعدل)

وقوله (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) أمر بالأشهاد مع الكتابة لزيادة التوثيق (فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان) وهذا إنما يكون فى الأموال وما يقصد به المال وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لتقصان عقل المرأة كما قال مسلم فى صحيحه حدثنا قتيبة حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبى عمرو عن القبرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يامعشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فأنى رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة منهن جزلة وما لنا يارسول الله أكثر أهل النار ؟ قال « تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لئىلب منكن » قالت يارسول الله ما نقصان العقل والدين : قال « أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالى لاتصلى وتفطر فى رمضان فهذا نقصان الدين »

وقوله (من ترضون من الشهداء) فيه دلالة على اشتراط العدالة فى الشهود وهذا مقيد حكم به الشافعى على كل مطلق فى القرآن من الأمر بالأشهاد من غير اشتراط وقد استدلل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً . وقوله (أن تضل إحداهما) يعنى المرأتين إذا نسيت الشهادة (فتذكر إحداهما الأخرى) أى يحصل لها ذكر بما وقع به من الأشهاد وبهذا قرأ آخرون فتذكر بالتشديد من التذكرومن قال إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد والصحيح الأول والله أعلم

وقوله (ولا ياب الشهداء إذا مادعوا) قيل معناه إذا دعوا لتحمل فعلهم الاجابة وهو قول قتادة والريبع بن أنس وهذا كقوله (ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب) ومن ههنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية قيل وهو مذهب الجمهور والمراد بقوله (ولا ياب الشهداء إذا مادعوا) للاداء لحقيقة قوله الشهداء والشاهد حقيقة فيمن تحمل فإذا دعى لأدائها فعليه الاجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية والله أعلم . وقال مجاهد وأبو جاز وغير واحد إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار وإذا شهدت فدعيت فأجب وقد ثبت فى صحيح مسلم والسنن من طريق مالك عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عبد الله بن عمرو بن عثمان

عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن زيد بن خالد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسئلها » فأما الحديث الآخر في الصحيحين « ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يستشهدوا » وكذا قوله « ثم يأتي قوم تسبق أيمانهم شهادتهم وتسبق شهادتهم أيمانهم » وفي رواية « ثم يأتي قوم يشهدون ولا يستشهدون » وهؤلاء (١) شهود الزور وقد روى عن ابن عباس والحسن البصري أنها تعم الحالين التحمل والأداء وقوله (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله) هذا من تمام الإرشاد وهو الأمر بكتابة الحق صغيرا كان أو كبيرا فقال ولا تسأموا أي لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة إلى أجله وقوله (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا) أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلا هو أقسط عند الله أي أعدل وأقوم للشهادة أي أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه كما هو الواقع غالبا (وأدنى أن لا ترتابوا) وأقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلارية

وقوله (إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) أي إذا كان البيع بالحاضر يدايد فلا بأس بعدم الكتابة لاتقاء المحذور في تركها

فأما الاشهاد على البيع فقد قال تعالى (وأشهدوا إذا تباعتم) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثني يحيى بن عبد الله ابن بكر حدثني ابن لهيعة حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قوله تعالى (وأشهدوا إذا تباعتم) يعني أشهدوا على حكمكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن فيه أجل فأشهدوا على حكمكم على كل حال قال وروى عن جابر بن زيد ومجاهد وعطاء والضحاك نحو ذلك وقال الشعبي والحسن هذا الأمر منسوخ بقوله (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي ائتمن أمانته) وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الارشاد والندب لاعلى الوجوب والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري وقدرواه الإمام أحمد حدثنا أبو ليثان حدثنا شعيب عن الزهري حدثني عمار بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابي فاستبته النبي صلى الله عليه وسلم ليقتضيه ثمن فرسه فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي فطلق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبي صلى الله عليه وسلم ابتاعه حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ فنأدى الأعرابي النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي قال أوليس قد ابتعته منك قال الأعرابي لا والله ما بعته فقال النبي ﷺ « بل قد ابتعته منك » فطلق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي وما يتراجعان فطلق الأعرابي يقول هلم شهيدا يشهد أني بايعتك فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي ويلك إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقا حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول هلم شهيدا يشهد أني بايعتك قال خزيمة أنا أشهد أنك قد بايعته فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال « بم تشهد » فقال بتصديقك يا رسول الله فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين وهكذا رواه أبو داود من حديث شعيب والنسائي من رواية محمد بن الوليد الزبيدي كلاهما عن الزهري به نحوه ولكن الاحتياط هو الارشاد لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مردويه والحاكم في مستدركه من رواية معاذ بن معاذ العنبري عن شعبة عن فراس عن الشعبي عن أي بردة عن أي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم : رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ ورجل أقرض رجلا مالا فلم يشهد » ثم قال الحاكم صحيح الاسناد على شرط الشيخين قال ولم يخرجاه لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبي موسى وإنما أجمعوا على سند حديث شعبة بهذا الاسناد « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين » وقوله تعالى (ولا يضار كاتب ولا شهيد) قيل معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد فيكتب هذا خلاف ما يلى ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتبها بالكلية وهو قول الحسن وقتادة وغيرها وقيل معناه لا يضار بهما قال ابن أبي حاتم حدثنا

(١) لعل الأصل فهولاء - لأنه جواب فأما .

أسيد بن عاصم حدثنا الحسين يعني ابن حفص حدثنا سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس في هذه الآية (ولا يضار كاتب ولا شهيد) قال يأتي الرجل فيدعوها إلى الكتاب والشهادة فيقول إنكما قد أمرتما أن تجييا ، فليس له أن يضارهما ، ثم قال وروى عن عكرمة ومجاهد وطاوس وسعيد بن جبير والضحاك وعطية ومقاتل ابن حيان والريبع بن أنس والسدي نحو ذلك وقوله (وإن تفعلوا فانه فسوق بكم) أى إن خالفتم ما أمرتم به أو فعلتم ما نهيتهم عنه فانه فسق كائن بكم أى لازم لكم لا تحذون عنه ولا تفككون عنه وقوله (واتقوا الله) أى خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره (ويعلمكم الله) كقوله (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) وكقوله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به) وقوله (والله بكل شيء عليم) أى هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شيء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِمْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَتَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى (وإن كنتم على سفر) أى مسافرين وتدايتهم إلى أجل مسمى (ولم تجدوا كاتبا) يكتب لكم قال ابن عباس أو وجدوه ولم يجدوا قرطاسا أو دواة أو قلما فرهن مقبوضة أى فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة أى في يد صاحب الحق وقد استدلل بقوله (فرهن مقبوضة) على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض كما هو مذهب الشافعي والجمهور واستدل بها آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضا في يد المرتهن وهو رواية عن الإمام أحمد وذهب إليه طائفة واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعا إلا في السفر قاله مجاهد وغيره وقد ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقا من شعير رهنها قوتا لأهله وفي رواية من يهود المدينة . وفي رواية الشافعي عند أبي الشعم اليهودي وتقرير هذه المسائل في كتاب الأحكام الكبير والله الحمد والمنة وبه المستعان

وقوله (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي ائتمن أمانته) روى ابن أبي حاتم بإسناد جيد عن أبي سعيد الخدري أنه قال هذه نسخت ما قبلها . وقال الشعبي : إذا ائتمن بعضكم بعضا فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا وقوله (وليتق الله ربه) يعنى المؤمن كما جاء في الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن من رواية قتادة عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال « على اليد ما أخذت حتى تؤديه »

وقوله (ولا تكتُموا الشهادة) أى لا تخفوها وتعلوها ولا تظهروها قال ابن عباس وغيره : شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتبتها كذلك ولهذا قال (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) قال السدي يعنى فاجر قلبه وهذه كقوله تعالى (ولا تكتُم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء الله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خيرا) وهكذا قال ههنا (ولا تكتُموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم)

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يجزى تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن وأنه المطلع على ما فيهن لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والظاهر وإن دقت وخفيت ، وأخبر أنه سيجاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال تعالى (قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شيء قدير) وقال (يعلم السر

وأخفى) والآيات في ذلك كثيرة جداً وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضى الله عنهم وخافوا منها ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم حدثني أبو عبد الرحمن يعني العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله مافى السموات ومافى الأرض وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جثوا على الركب وقالوا يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله .

(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) إلى آخره ورواه مسلم متفرداً به من حديث يزيد بن زريع عن روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة فذكر مثله ولفظه . فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال نعم (ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) قال نعم (ربنا ولا تجعلنا مالا ياتقنا) قال نعم (واعف عنا وافرغ لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) قال نعم (حديث ابن عباس في ذلك) قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن آدم بن مكيان سمعت سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) قال دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا» فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) إلى قوله (فانصرنا على القوم الكافرين) وهكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وأبي كريب وإسحق بن إبراهيم ثلاثتهم عن وكيع به وزاد (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال قد فعلت (ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) قال قد فعلت (ربنا ولا تجعلنا مالا ياتقنا) قال قد فعلت (واعف عنا وافرغ لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) قال قد فعلت (طريق أخرى) عن ابن عباس قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن حميد الأعرج عن مجاهد قال دخلت على ابن عباس فقلت يا أبا عباس كنت عند ابن عمر فقرأ هذه الآية فبكى قال: أية آية؟ قلت (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه) قال ابن عباس إن هذه الآية حين أنزلت غمت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غماً شديداً وغازتهم غيظ شديد يعنى وقالوا يا رسول الله هلكننا إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل فأما قلوبنا فليست بأيدينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «قولوا سمعنا وأطعنا» فقالوا سمعنا وأطعنا ، قال فنسخها هذه الآية (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله) إلى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فتجاوز لهم عن حديث النفس وأخذوا بالأعمال (طريق أخرى) عنه قال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب عن سعيد بن مرجانة سمعه يحدث أنه بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية (لله مافى السموات ومافى الأرض وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء) الآية فقال والله لئن واخلدنا الله بهذا لنهلكن ، ثم بكى ابن عمر حتى سمع نسيجه قال ابن مرجانة فقامت حتى أتيت ابن عباس فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها فقال ابن عباس يغفر الله لأبي عبد الرحمن لعمرى لقد وجد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد

عبد الله بن عمر فأنزل الله بعدها (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) إلى آخر السورة قال ابن عباس فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها ومار الأمر إلى أن قضى الله عز وجل أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل (طريق أخرى) قال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا إسحق حدثنا يزيد بن هرون عن سفيان بن حسين عن الزهري عن سالم أن أباه قرأ (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فدمعت عيناه فبلغ صنيعة ابن عباس فقال يرحم الله أبا عبد الرحمن لقد صنع كما صنع أصحاب رسول الله ﷺ حين أنزلت فنسختها الآية التي بعدها (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس ، وقد ثبت عن ابن عمر كائنت عن ابن عباس قال البخاري حدثنا إسحق حدثنا روح حدثنا شعبة عن خالد الحذاء عن مروان الأصغر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أحسبه ابن عمر (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه) قال نسختها الآية التي بعدها وهكذا روى عن طي وابن مسعود وكعب الأجار والشعبي والنخعي ومحمد بن كعب القرظي وعكرمة وسعيد بن جبير وقادة أنها منسوخة بالتي بعدها ، وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة من طريق قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل »

وفي الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « قال الله إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكذبوها سيئة وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكذبوها حسنة فإن عملها فاكذبوها عشرأ » . لفظ مسلم وهو في إفراذه من طريق إسحاق بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « قال الله : إذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبت لها حسنة فإن عملها كتبت لها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بسيئة فلم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبت لها سيئة واحدة » وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله ﷺ قال : « قال الله إذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها فإن عملها فأنا أكتبها له بمثلها » وقال رسول الله ﷺ « قالت الملائكة رب وذاك أن عبدك (١) يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال أرقبوه فإن عملها فاكذبوها له بمثلها وإن تركها فاكذبوها له حسنة وإنما تركها من جرائ » وقال رسول الله ﷺ « إذا أحسن أحد إسلامه فإن له بكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقي الله عز وجل » تفرد به مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق بهذا السياق واللفظ وبعضه في صحيح البخاري وقال مسلم أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا خاله الأحمر عن هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له وإن عملها كتبت » تفرد به مسلم دون غيره من أصحاب الكتب وقال مسلم أيضا حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا عبد الوارث عن الجعد أبي عثمان حدثنا أبو رجاء العطاردي عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تعالى قال « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة » ثم رواه مسلم عن يحيى بن يحيى عن جعفر بن سليمان عن الجعد أبي عثمان في هذا الاسناد بمعنى حديث عبد الرزاق زاد « وعماها الله ولا يهلك على الله إلا هالك » وفي حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة قال جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه فقالوا إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال « وقد وجدتموه ؟ » قالوا نعم قال « ذاك صريح الإيمان » لفظ مسلم وهو عند مسلم أيضا من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ به وروى مسلم أيضا من حديث مغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة قال « تلك صريح الإيمان »

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فإنها لم تنسخ ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول إني أخبرتكم بما أخفيتم في أنفسكم بما لم يطلع عليه ملائكتي فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم وهو قوله (يحاسبكم به الله) يقول يخبركم وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب وهو قوله (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) وهو قوله (ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم) أي من الشك والنفاق وقد روى العوفي والضحاك عنه قريباً من هذا

وروى ابن جرير عن مجاهد والضحاك نحوه وعن الحسن البصري أنه قال هي محكمة لم تنسخ واختار ابن جرير ذلك واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر وقد يحاسب ويعاقب بالحديث الذي رواه عند هذه الآية قائلنا حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن سعيد بن هشام (ح) وحدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علي حدثنا ابن هشام قال جميعا في حديثهما عن قتادة عن صفوان بن محرز قال بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله ابن عمر وهو يطوف إذ عرض له رجل فقال يا ابن عمر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في التجوى ؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول له هل تعرف كذا فيقول رب أعرف مرتين حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أعفها لك اليوم قال فيعطى صحيفة حسنته أو كتابه يمينه وأما الكفار والمنافقون فينادي بهم على رؤوس الأشهاد (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين) وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما من طرق متعددة عن قتادة به وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبيه قال سألت عائشة عن هذه الآية (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فقالت ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقالت هذه مباينة الله العبد وما يصيبه من الحمى والنكبة والبضاعة يضعها في يده فيفقدتها فيفزع لها ثم يجدها في ضبنته (١) حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحر وكذا رواه الترمذي وابن جرير من طريق حماد بن سلمة به وقال الترمذي غريب لا نعرفه إلا من حديثه (قلت) وشيخه علي بن زيد بن جدعان ضعيف يغرب في رواياته وهو يروي هذا الحديث عن امرأة أبيه أم محمد أمية بنت عبد الله عن عائشة وليس لها عنها في الكتب سواء

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَكُتِبَ لَهُمْ مِنْهُ ذِكْرٌ لِّأَنَّهُمْ قَدْ ءَامَنُوا وَلَا تَقْرَأُ الْكِتَابَ إِلَّا وَقُفٍّ عَلَيْكَ وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ رَبِّنَا الْقُرْآنَ لِتُذَكِّرَ أَكْثَرَكُمْ عَلَىٰ تِلْكَ الْأَيَاتِ ﴾

﴿ ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين فقنا الله بهما ﴾

﴿ الحديث الأول ﴾ قال البخاري حدثنا محمد بن كثير أخبرنا شعبة عن سليمان عن إبراهيم عن عبد الرحمن عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال « من قرأ الآيتين - وحدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ بالآيتين - من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » وقد أخرجه بقية الجماعة من طريق سليمان بن مهران الأعمش بإسناده مثله وهو في الصحيحين من طريق الثوري عن منصور عن إبراهيم عن عبد الرحمن عنه به وهو في الصحيحين أيضاً عن عبد الرحمن عن علقمة عن ابن مسعود قال عبد الرحمن ثم لقيت أبا مسعود فحدثني به وهكذا رواه أحمد بن حنبل حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك

(١) قوله ثم يجدها في ضبنته ، هذا ليست في رواية الترمذي وقوله التبر الأحر في النسخة الأميرية (البسر) والظاهر أنه تحريف،

عن عاصم عن المسيب بن رافع عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه »

﴿ الحديث الثاني ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا حسين حدثنا شيبان عن منصور عن ربعي عن خرشة بن الحر عن المعرور ابن سويد عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي » وقد رواه ابن مردويه من حديث الأشجعي عن الثوري عن منصور عن ربعي عن زيد بن ظبيان عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش »

﴿ الحديث الثالث ﴾ قال مسلم حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو أسامة حدثنا مالك بن مغول (ح) وحدثنا ابن نمير وزهير بن حرب جميعاً عن عبد الله بن نمير وألفاظهم متقاربة قال ابن نمير حدثنا أبي حدثنا مالك بن مغول عن الزبير بن عدي عن طلحة عن مرة عن عبد الله قال لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى وهو في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال (إذ يغشى السدره ما يغشى) قال فراش من ذهب قال وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً أعطى الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقححات

﴿ الحديث الرابع ﴾ قال أحمد حدثنا إسحاق بن إبراهيم الرازي حدثنا سلمة بن الفضل حدثني محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله الزبي عن عقبة بن عامر الجهني قال : قال رسول الله ﷺ « أقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فأني أعطيتهما من كنز تحت العرش » هذا إسناد حسن ولم يخرجوه في كتبهم

﴿ الحديث الخامس ﴾ قال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل حدثنا إبراهيم بن إسحاق الحارثي أخبرنا مروان أنبأنا ابن عوانة عن أبي مالك عن ربعي عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ « فضلنا على الناس ثلاث أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من بيت كنز تحت العرش لم يعطها أحد قبلي ولا يعطاها أحد بعدي » ثم رواه من حديث نعيم بن أبي هند عن ربعي عن حذيفة بنحوه

﴿ الحديث السادس ﴾ قال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي بن نافع أنبأنا إسماعيل بن الفضل أخبرنا محمد بن حاتم بن بزيع أخبرنا جعفر بن عون عن مالك بن مغول عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي قال : لا أرى أحداً عقل الإسلام ينال حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة فإنها من كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش ورواه وكيع في تفسيره عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمير بن عمرو الخارقي عن علي قال ما أرى أحداً يعقل بلغه الإسلام ينال حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة فإنها من كنز تحت العرش

﴿ الحديث السابع ﴾ قال أبو عيسى الترمذي حدثنا بندار حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا حماد بن سلمة عن أشعث ابن عبد الرحمن الحرمي عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال « إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرأ بهن في دار ثلاث ليال فيقر بها شيطان » ثم قال هذا حديث غريب وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث حماد بن سلمة به وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه

﴿ الحديث الثامن ﴾ قال ابن مردويه حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن مدين أخبرنا الحسن بن الجهم أخبرنا إسماعيل بن عمرو أخبرنا ابن مريم حدثني يوسف بن أبي الحجاج عن سعيد عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسي ضحك وقال « إنهما من كنز الرحمن تحت العرش » وإذا قرأ (من يعمل سوءاً يجز به) (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) استرجع واستكان

﴿ الحديث التاسع ﴾ قال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن محمد بن كوفي حدثنا أحمد بن يحيى بن حمزة حدثنا محمد بن بكر حدثنا مكي بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن أبي حميد عن أبي مليس عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ

« أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش والمفصل نافلة »

الحديث العاشر قد تقدم في فضائل الفاتحة من رواية عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال فنزل منه ملك فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته رواه مسلم والنسائي وهذا لفظه

فقوله تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) إخبار عن النبي ﷺ بذلك قال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت عليه هذه الآية « ويحق له أن يؤمن » وقد روى الحاكم في مستدركه حدثنا أبو النضر الفقيه حدثنا معاذ بن نجرة القرشي حدثنا خلاد بن يحيى حدثنا أبو عقيل عن يحيى بن أبي كثير عن أنس بن مالك قال لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) قال النبي ﷺ « حق له أن يؤمن » ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه

وقوله (والمؤمنون) عطف على الرسول ثم أخبر عن الجميع فقال (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله) فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد ، فرد صمد ، لا إله غيره ولا رب سواه . ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير ، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض يأذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تقوم الساعة على شريعته ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين وقوله (وقالوا سمعنا وأطعنا) أى سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه وقننا به وامتلنا العمل بمقتضاه (غفرانك ربنا) سؤال للمغفرة والرحمة واللفظ ، قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن حرب الموصلي حدثنا ابن فضال عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون - إلى قوله - غفرانك ربنا) قال قد غفرت لكم (وإليك المصير) أى المرجع والمآب يوم الحساب . قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن سنان عن حكيم عن جابر قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) قال جبريل إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه فسأل (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) إلى آخر الآية وقوله (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) أى لا يكلف أحدا فوق طاقته وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) أى هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه فأما مالا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها فهذا لا يكلف به الإنسان ، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان ، وقوله (لها ما كسبت) أى من خير (وعليها ما اكتسبت) أى من شر وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف . ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله وقد تكفل لهم بالإجابة كما أرشدكم وعلمهم أن يقولوا (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) أى إن تركنا فرضا على جهة النسيان أو فعلنا حراما كذلك أو أخطأنا أى الصواب في العمل جهلانا بوجهه الشرعى . وقد تقدم في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال : « قال الله نعم » ولحديث ابن عباس قال الله « قد فعلت » وروى ابن ماجه في سننه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي عمرو الأوزاعي عن عطاء قال ابن ماجه في روايته عن ابن عباس وقال الطبراني وابن حبان عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا

عليه « وقد روى من طريق آخر وأعله أحمد وأبو حاتم والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا أبو بكر الهذلي عن شهر عن أم الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث عن الخطأ والنسيان والاستكراه » قال أبو بكر فذكرت ذلك للحسن فقال أجل أما تقرأ بذلك قرآنا (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)

وقوله (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الدين من قبلنا) أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها كما شرعته للامم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم التي بعثت نبيك محمداً صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة بوضعه (١) في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « قال الله نعم » وعن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « قال الله قد فعلت » وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة »

وقوله (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) أي من التكليف والمصائب والبلاء لا تبتلنا بما لا قبل لنا به وقد قال مكحول في قوله (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) قال العزبة والغلمة رواه ابن أبي حاتم قال الله نعم وفي الحديث الآخر قال الله قد فعلت وقوله (واعف عنا) أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا (واغفر لنا) أي فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة (وارحمنا) أي فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر ولهذا قالوا إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه وأن يستره عن عبادته فلا يفضح به بينهم وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره . وقد تقدم في الحديث أن الله قال نعم وفي الحديث الآخر قال الله قد فعلت

وقوله (أنت مولانا) أي أنت ولينا وناصرنا وعليك توكلنا وأنت المستعان وعليك التكلان ولا حول لنا ولا قوة إلا بك (فانصرنا على القوم الكافرين) أي الدين جددوا دينك وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك وعبدوا غيرك وأشركوا معك من عبادك : فانصرنا عليهم ، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة قال الله نعم وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس قال الله قد فعلت . وقال ابن جرير حدثني مثني بن إبراهيم حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن أبي إسحق أن معاذ رضى الله عنه كان إذا فرغ من هذه السورة (وانصرنا على القوم الكافرين) قال آمين ورواه وكيع عن سفيان عن أبي إسحق عن رجل عن معاذ بن جبل أنه كان إذا ختم البقرة قال آمين

﴿ تفسير سورة آل عمران وهي مدنية ﴾

لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزل في وفد نجران وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة كما سيأتي بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها إن شاء الله تعالى وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة أول البقرة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَمْ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِبَآئِتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ .

قد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) و (الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم) عند تفسير آية الكرسي وقد تقدم الكلام على قوله (الم) في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته وتقدم الكلام على قوله (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) في تفسير آية الكرسي وقوله تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق) يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق أي لاشك فيه ولا ريب بل هو منزل

من عند الله أنزله بعلومه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيذاً وقوله (مصدقاً لما بين يديه) أى من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله والأنبياء فهي تصدقه بما أخبر به وبشرت في قديم الزمان وهو يصدقها لأنه طابق ما أخبر به وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه. وقوله (وأنزل التوراة) أى على موسى بن عمران (والإنجيل) أى على عيسى بن مريم عليهما السلام (من قبل) أى من قبل هذا القرآن (هدى للناس) أى في زمانهما (وأنزل الفرقان) وهو الفارق بين الهدى والضلال والحق والباطل والحق والرشاد بما يذكره الله تعالى من الحجج والبيّنات والدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات ، وبيّنه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشد إليه وبنه عليه من ذلك وقال قتادة والربيع بن أنس الفرقان ههنا القرآن واختار ابن جرير أنه مصدر ههنا لتقدم ذكر القرآن في قوله (نزل عليك الكتاب بالحق) وهو القرآن . وأما ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي صالح أن المراد بالفرقان ههنا التوراة فضعيف أيضاً لتقدم ذكر التوراة والله أعلم .

وقوله تعالى (إن الدين كفرؤا بآيات الله) أى جحدوا بها وأنكروها وروها بالباطل (لهم عذاب شديد) أى يوم القيامة (والله عزيز) أى منيع الجانب عظيم السلطان (وذات انتقام) أى ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام وأنبياءه العظام

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماء والأرض لا يخفى عليه شيء من ذلك (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) أى يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكرو أنثى وحسن وقبيح وشقي وسعيد (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) أى هو الذي خلق وهو المستحق للالهية وحده لا شريك له وله العزة التي لا ترام ، والحكمة والأحكام ، وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى بن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر لأن الله صوره في الرحم وخلقته كما يشاء فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى عليهم لعائن الله وقد قلب في الأحشاء وتنقل من حال إلى حال كما قال تعالى (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكُمُ مِنَ الْأُمِّ الْكِتَابِ وَآخَرُ مُتَشَابِهَاتٍ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمْنًا بِكُلِّ شَيْءٍ عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْعِيعَادَ ﴾

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب أى بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم بحكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ومن عكس انعكس ولهذا قال تعالى (هن أم الكتاب) أى أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه (وأخر متشابهات) أى تحتل دالاتها موافقة المحكم وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه فروى عن السلف عبارات كثيرة فقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما المحكمات ناسخة وحلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وما يؤمر به ويعمل به وعن ابن عباس أيضاً أنه قال المحكمات قوله تعالى (قل تعالوا أتبعوا ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) والآيات بعدها وقوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) إلى ثلاث آيات بعدها ورواه ابن

أبي حاتم وحكاة عن سعيد بن جبير به قال حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن إسحق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبافاختة تراجعا في هذه الآية (هن أم الكتاب وأخر متشابهات) فقال أبوفاختة : فواتح السور وقال يحيى بن يعمر : الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام . وقال ابن لميعة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير : (هن أم الكتاب) لأنهن مكتوبات في جميع الكتب ، وقال مقاتل بن حيان : لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن وقيل في المتشابهات : المنسوخة والمقدم والمؤخر والأمثال فيه والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وقيل هي الحروف المقطعة في أوائل السور قاله مقاتل بن حيان ، وعن مجاهد المتشابهات يصدق بعضها بعضا وهذا إنما هو في تفسير قوله (كتابا متشابهات) هناك ذكرنا أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد والثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار وذكر حال الأبرار وحال الفجار ونحو ذلك . وأما هاهنا فالمتشابه هو الذي يقابل الحكم وأحسن ما قيل فيه هو الذي قدمنا وهو الذي نص عليه محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله حيث قال (منه آيات محكمات) فهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم الباطل ليس لمن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه . قال : والمتشابهات في الصدق ليس لمن تصريف وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق

ولهذا قال الله تعالى (فأما الذين في قلوبهم زيغ) أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل (فيتبعون ما تشابه منه) أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه فأما الحكم فلا نصيب لهم فيه لأنه دافع^(١) لهم وحجة عليهم ولهذا قال الله تعالى (ابتغاء الفتنة) أي الاضلال لأتباعهم إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكنيته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) بقوله (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وغير ذلك من الآيات المحكمة المصروفة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله

وقوله تعالى (وابتغاء تأويله) أي تحريفه على ما يريدون وقال مقاتل بن حيان والسدى يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن وقد قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا يعقوب عن عبد الله بن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) إلى قوله (أولو الأبواب) فقال « إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عني الله فاحذروهم » هكذا وقع هذا الحديث في مسند الإمام أحمد من رواية ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها ليس بينهما أحد وهكذا رواه ابن ماجه من طريق إسماعيل بن علية وعبد الوهاب الثقفي كلاهما عن أيوب به ورواه محمد بن يحيى العبدى في مسنده عن عبد الوهاب الثقفي به وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب وكذا رواه غير واحد عن أيوب وقد رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أيوب به ورواه أبو بكر بن النذر في تفسيره من طريقين عن أبي النعمان محمد بن الفضل السدوسي ولقبه عارم حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة به وتابع أيوب أبو عامر الخزاز وغيره عن ابن أبي مليكة فرواه الترمذي عن بندار عن أبي داود الطيالسي عن أبي عامر الخزاز فذكره ورواه سعيد بن منصور في سننه عن حماد بن يحيى عن عبد الله بن أبي مليكة عن عائشة ورواه ابن جرير من حديث روح بن القاسم ونافع بن عمر الجمحي كلاهما عن ابن أبي مليكة عن عائشة وقال نافع في روايته عن ابن أبي مليكة حديث عائشة فذكره وقد روى هذا الحديث البخاري عند تفسير هذه الآية ومسلم في كتاب القدر من صحيحه وأبو داود في السنة من سننه ثلاثهم عن العقبى عن يزيد بن إبراهيم التستري عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) إلى قوله (وما يذكر إلا أولو الأبواب) قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فإذا رأيتم الذين يتبعون

(١) وفي نسخة الأزهر (دافع) وهي أظهر .

ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم» لفظ البخارى ، وكذا رواه الترمذى أيضا عن بندار عن أبى داود الطيالسى عن يزيد بن إبراهيم به وقال حسن صحيح وذكر أن يزيد بن إبراهيم التستري تفرد بذكر القاسم في هذا الاسناد وقد رواه غير واحد عن ابن أبى مليكة عن عائشة ولم يذكر القاسم كذا قال وقد رواه ابن أبى حاتم فقال حدثنا أبى حدثنا أبو الوليد الطيالسى حدثنا يزيد بن إبراهيم التستري وحماد بن سلمة عن ابن أبى مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » وقال ابن جرير حدثنا على بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم عن حماد بن سلمة عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد حذركم الله فإذا رأيتموهم فاحذروهم » ورواه ابن مردويه من طريق أخرى عن القاسم عن عائشة به وقال الإمام أحمد حدثنا أبو كامل حدثنا حماد عن أبى غالب قال سمعت أبا أمامة يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) قال « هم الخوارج » وفي قوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) قال « هم الخوارج » وقد رواه ابن مردويه من غير وجه عن أبى غالب عن أبى أمامة فذكره وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفا من كلام الصحابي ومعناه صحيح فإن أول بدعة وقعت في الاسلام فتنة الخوارج وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم حنين فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ففاجأوه بهذه المقالة فقال قائلهم وهو ذوالخويصرة بقر الله خاصرته اعدل فانك لم تعدل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل أيا منى (١) على أهل الأرض ولا تأمنوني » فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب وفي رواية خالد بن الوليد في قتله فقال « دعه فانه يخرج من ضغىء هذا أى من جنسه قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم يرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فان في قتلهم أجرا لمن قتلهم » ثم كان ظهورهم أيام على بن أبى طالب رضى الله عنه وقتلهم بالنهروان ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة ثم انبعثت القدرية ثم المعتزلة ثم الجهمية وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق عليه السلام في قوله « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » قالوا وما هم (٢) يارسول الله ؟ قال « من كان على ما أنا عليه وأصحابي » أخرجه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا المعتز عن أبيه عن قتادة عن الحسن بن جندب ابن عبد الله أنه بلغه عن حذيفة أو سمعه منه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر « ان في أمى قوما يقرءون القرآن يثرونه ثم لا يقل يتأولونه على غير تأويله » لم يخرجوه

وقوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) اختلف القراء في الوقف هنا فقل على الجلالة كما تقدم عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : التفسير على أربعة أنحاء ، فتفسير لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله : ويروى هذا القول عن عائشة وعروة وأبى الشعثاء وأبى نهيك وغيرهم وقال الحافظ أبو القاسم في المعجم الكبير : حدثنا هاشم بن مرثد حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش حدثني أبى حدثني ضمضم ابن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . « لا أخاف على أمى إلا ثلاث خلال أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتلوا وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذوه المؤمن يبتغى تأويله (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به) الآية وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يسألون عنه » غريب جدا وقال ابن مردويه . حدثنا محمد بن إبراهيم حدثنا أحمد بن عمرو حدثنا هشام بن عمار حدثنا ابن أبى حاتم عن أبيه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن ابن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه (١) في النسخة الأميرة . أما يأمنى وما هنا فيه تلفيق وحق كما يعلم من روايات الصحيحين وغيرها (٢) وفي نسخة الأزهر ومن هم .

بعضاً فما عرقتهم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به » وقال عبد الرزاق أننا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال : كان ابن عباس يقرأ وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون آمنا به . وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله . وحكى ابن جرير أن في قراءة عد الله بن مسعود . إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به وكذا عن أبي بن كعب واختار ابن جرير هذا القول

ومنه من يقف على قوله والراسخون في العلم وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول وقالوا الخطاب بما لا يفهم بعيد وقد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به . وكذا قال الربيع بن أنس وقال محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير : وما يعلم تأويله الذي أراد ما أراد إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد فأتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضاً فنفذت الحجة وظهر به العذر وزاح به الباطل ودفع به الكفر ، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس فقال « اللهم فقهِه في الدين وعلمه التأويل » ومن العلماء من فصل في هذا المقام وقال : التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه ومنه قوله تعالى (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل) وقوله (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله) أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة لأن حقائق الأمور وكنها لا يعلمها على الجلية إلا الله عز وجل ويكون قوله (والراسخون في العلم) مبتدأ و (يقولون آمنا به) خبره ، وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله (نبئنا بتأويله) أي بتفسيره فإن أريد به هذا المعنى فالوقف على (والراسخون في العلم) لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه وعلى هذا فيكون قوله (يقولون آمنا به) حالاً منهم وساغ هذا وأن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه كقوله (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم - إلى قوله - يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا) الآية ، وقوله تعالى (وجاء ربك والملك صفاصفا) أي وجاء الملائكة صفوفا صفوفا

وقوله إخباراً عنهم أنهم يقولون آمنا به أي التشابه كل من عند ربنا أي الجميع من الحكم والتشابه حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله يختلف ولا متضاد كقوله (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ولهذا قال تعالى (وما يذكر إلا أولوا الألباب) أي إيمانهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة ، وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عوف الحمصي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا فياض الرقي حدثنا عبيد الله بن يزيد وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ أنسا وأبا أمامة وأبا الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الراسخين في العلم فقال « من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ومن عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم » . وقال الإمام أحمد حدثنا معمر عن الزهري عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال سمع رسول الله ﷺ قوما يتدارءون فقال « إنا هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا به . وما جهلتم فكلوه إلى عالمه » وتقدم رواية ابن مردويه لهذا الحديث من طريق هشام بن عمار عن أبي حازم عن عمرو بن شعيب به ، وقد قال أبو يعلى الموصلي في مسنده حدثنا زهير بن حرب حدثنا أنس بن عياض عن أبي حازم عن أبي سلمة قال : لأعلمه إلا عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « نزل القرآن على سبعة أحرف والمراء في القرآن كفر - قالها ثلاثاً - ما عرقتهم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه جل جلاله » وهذا إسناد صحيح ولكن فيه علة بسبب قول الراوي لأعلمه إلا عن أبي هريرة . وقال ابن المنذر في تفسيره : حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا ابن وهب أخبرني نافع بن يزيد قال : يقال الراسخون في العلم المتواضعون لله المتدللون لله في مرضاته لا يتعاضمون

على من فوقهم ولا يحقرن من دونهم . ثم قال تعالى عنهم مخبرا أنهم دعوا ربهم قائلين (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا)
 أى لاتعلمها عن الهدى بعد إذ أقمنا عليه ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ الذين يتبعون ماتشابه من القرآن ولكن
 ثبتنا على صراطك المستقيم ، ودينك القويم (وهب لنا من لدنك رحمة) ثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها فعلنا ، وتزيدنا
 بها إيماننا وإيقاننا (إنك أنت الوهاب) قال ابن أبي حاتم . حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى وقال ابن جرير حدثنا أبو
 كريب قال جميعا حدثنا وكيع عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقول « يا مقلب
 القلوب ثبت قلبي على دينك » ثم قرأ (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)
 ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن بكار عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أم سلمة عن أسماء بنت يزيد
 ابن السكن سمعتها تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر من دعائه « اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على
 دينك » قالت : قلت يا رسول الله وإن القلب ليتقلب ؟ قال « نعم ما خلق الله من نبي آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين
 من أصابع الله عز وجل فإن شاء أقامه وإن شاء أزاعه » ففسأل الله ربنا أن لا يزيع قلوبنا بعد إذ هدانا ونسأله
 أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب - وهكذا رواه ابن جرير من حديث أسد بن موسى عن عبد الحميد بن بهرام
 به مثله ورواه أيضا عن الثئي عن الحجاج بن منهال عن عبد الحميد بن بهرام به مثله وزاد قلت يا رسول الله ألا تعلمنى
 دعوة أدعو بها لنفسى قال « بلى قولى اللهم رب محمد النبي اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلبي وأجرنى من مضلات الفتن »
 ثم قال ابن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا محمد بن هرون بن بكار الدمشقي حدثنا العباس بن الوليد الحلال أنا
 يزيد بن يحيى بن عبيد الله أنا سعيد بن بشير عن قتادة عن حسان الأعرج عن عائشة رضى الله عنها قالت . كان رسول
 الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يدعو « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قلت يا رسول الله ما أكثر ما تدعوه بهذا
 الدعاء فقال « ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيعه أزاعه
 أما تسمعى قوله (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) » غريب من هذا الوجه
 ولكن أصله ثابت فى الصحيحين وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة ، وقد رواه أبو داود
 والنسائى وابن مردويه من حديث أبى عبد الرحمن القبرى زاد النسائى وابن حبان وعبد الله بن وهب كلاهما عن سعيد
 ابن أبى أيوب حدثنى عبد الله بن الوليد التجيبى عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم كان إذا استيقظ من الليل قال « لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لى ذنبى وأسألك رحمتك اللهم زدنى علما
 ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » لفظ ابن مردويه . وقال عبد الرزاق عن
 مالك عن أبى عبيد مولى سليمان بن عبد الملك عن عبادة بن نسي أنه أخبره أنه سمع قيس بن الحارث يقول أخبرنى أبو
 عبد الله الصنابحي أنه صلى وراء أبى بكر الصديق رضى الله عنه المغرب فقرا أبو بكر فى الركعتين الأوليين بأمر القرآن
 وسورتين من قصار المفصل وقرأ فى الركعة الثالثة قال فدنوت منه حتى إن ثيابى لشكاد تمس ثيابه فسمعتة يقرأ بأمر القرآن
 وهذه الآية (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) الآية . قال أبو عبيد : وأخبرنى عبادة بن نسي أنه كان عند عمر بن
 عبد العزيز فى خلافته فقال عمر لقيس : كيف أخبرتنى عن أبى عبد الله قال عمر فما تركناها منذ سمعناها منه وإن
 كنت قبل ذلك لعلى غير ذلك ، فقال له رجل على أى شىء كان أمير المؤمنين قبل ذلك قال كنت أقرأ (قل هو الله
 أحد) وقد روى هذا الأثر الوليد بن مسلم عن مالك والأوزاعى كلاهما عن أبى عبيد به وروى هذا الأثر الوليد أيضا
 عن ابن جابر عن يحيى بن يحيى النساني عن محمود بن لبيد عن الصنابحي أنه صلى خلف أبى بكر المغرب فقرا فى الأوليين بفاتحة
 الكتاب وسورة قصيرة يجهر بالقراءة فلما قام إلى الثالثة ابتدأ القراءة فدنوت منه حتى إن ثيابى لتمس ثيابه فقرأ هذه الآية
 (ربنا لاتزغ قلوبنا) الآية

وقوله (ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه) أى يقولون فى دعائهم إنك ياربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم
 وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه وتجزى كلا بعمله وما كان عليه فى الدنيا من خير وشر

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ كَذَّابُونَ * كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

يُخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) وليس ما أتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ولا بمنجهم من عذابه وأليم عقابه كما قال تعالى (ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) وقال تعالى (لا يفرنك قلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) وقال ههنا (إن الذين كفروا) أى بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار) أى حطبها الذي تسجر به وتوقد به كقوله (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) الآية. قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا ابن لهيعة أخبرني ابن الهاد عن هند بنت الحارث عن أم الفضل أم عبد الله بن عباس قالت بينا نحن بمكة قام رسول الله ﷺ من الليل فنادى «هل بلغت اللهم هل بلغت» ثلاثاً فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال نعم ثم أصبح فقال رسول الله ﷺ «ليظهرن الإسلام حتى يرد الكفر إلى موطنه، وليخوضن رجال البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يعلمون القرآن ويقرؤونه ثم يقولون قرأنا وعلمنا فمن هذا الذي هو خير منا، فهل في أولئك من خير؟» قالوا يا رسول الله فمن أولئك؟ قال «أولئك منكم وهم وقود النار» وقد رواه ابن مردويه من حديث يزيد بن عبد الله ابن الهاد عن هند بنت الحارث امرأة عبد الله بن شداد عن أم الفضل أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال «هل بلغت» يقولها ثلاثاً فقام عمر بن الخطاب وكان أواها فقال اللهم نعم وحرصت وجهدت ونصحت فاصبر؛ فقال النبي ﷺ «ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى موطنه وليخوضن رجال البحار بالإسلام وليأتين على الناس زمان يقرؤون القرآن فيقرؤونه ويعلمونه فيقولون قد قرأنا وقد علمنا فمن هذا الذي هو خير منا؟ فما في أولئك من خير؟» قالوا يا رسول الله فمن أولئك قال «أولئك منكم أولئك هم وقود النار» ثم رواه من طريق موسى بن عبيدة عن محمد بن إبراهيم عن بنت الهاد عن العباس بن عبد المطلب بنحوه

وقوله تعالى (كذب آل فرعون) قال الضحاك عن ابن عباس: كصنيع آل فرعون وكذا روى عن عكرمة ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون وكفعل آل فرعون وكشبه آل فرعون والألفاظ متقاربة والدأب بالتسكين والتحريك أيضاً كنهز ونهر هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة كما يقال لا يزال هذا دأبى ودأبك، وقال امرؤ القيس:

وقوفها بصحى على مطهم * يقولون لا تأسف (١) أسى وتجمل * كدأبك من أم الحوirth قبلها * وجارتها أم الرباب بمأسل
واللعنى كمادتك في أم الحوirth حين أهلكت نفسك في حبها وبكيت دارها ورسمها، والمعنى في الآية أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاءوا به من آيات الله وحججه (والله شديد العقاب) أى شديد الأخذ أليم العذاب لا يمتنع منه أحد ولا يفوته شيء بل هو الفعال لما يريد الذي قد غلب كل شيء لا إله غيره ولا رب سواه

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقُرْآنِ فَتَنَّا قُتَيْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لِلأُولَى الْأَبْصَرِ﴾

يقول تعالى قل يا محمد للكافرين ستغلبون أى في الدنيا وتحشرون أى يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد . وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار عن عاصم بن عمرو بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال « يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا » فقالوا يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمار لا يعرفون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله في ذلك من قولهم (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد - إلى قوله - لعبرة لأولي الأبصار) وقد رواه محمد بن محمد بن إسحاق أيضا عن محمد بن أبي محمد عن سعيد وعكرمة عن ابن عباس فذكروه ، ولهذا قال تعالى (قد كان لكم آية) أى قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية أى دلالة على أن الله مع دينه ، وناصر رسوله ، ومظهر كلمته ، ومعل أمره (في فئتين) أى طائفتين (التقتا) أى للقتال (فئته تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة) وهم مشركو قريش يوم بدر ، وقوله (يرونهم مثلهم رأى العين) قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم في العدد رأى أعينهم أى جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم ، وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة وهى أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحذر لهم المسلمين فأخبرهم بأنهم ثلثمائة يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، وهكذا كان الأمر . كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص اللاتكة وساداتهم (والقول الثانى) أن المعنى في قوله تعالى (يرونهم مثلهم رأى العين) أى يرى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثلهم أى ضعيفهم في العدد ومع هذا نصرهم الله عليهم ، وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفي عن ابن عباس : أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين وكان هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس ، وخلاف المعروف عند الجمهور أن المشركين كانوا مابين تسعمائة إلى ألف كما رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سأل ذلك العبد الأسود لى الحجاج عن عتبة قريش قال : كثير قال « كم ينحرون كل يوم » قال يومئذ ما تسعاً ويوماً عشراً ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « القوم مابين تسعمائة إلى ألف » . وروى أبو إسحاق السبيعي عن جارية عن علي رضى الله عنه قال : كانوا ألفاً ، وكذا قال ابن مسعود والمشهور أنهم كانوا مابين التسعمائة إلى الألف وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين ، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم ، لكن وجه ابن جرير هذا وجعله صحيحاً كما تقول عندى ألف وأنا محتاج إلى مثلها وتكون محتاجا إلى ثلاثة آلاف كذا قال ، وعلى هذا فلا إشكال لكن بقى سؤال آخر وهو وارد على القولين ، وهو أن يقال ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر (وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً) فالجواب أن هذا كان في جالة والآخر كان في حالة أخرى كما قال السدى عن الطيب عن ابن مسعود في قوله تعالى (قد كان لكم آية في فئتين التقتا) الآية قال . هذا يوم بدر . قال عبد الله بن مسعود . وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا إليهم فرأيناهم يزيدون علينا رجلا واحداً وذلك قوله تعالى (وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم) الآية : وقال أبو إسحاق عن أبي عبدة عن عبد الله بن مسعود قال لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جاني تراهم سبعين قال : أراهم مائة قال : فأسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم ؟ قال . ألفاً ، فعند ما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثلهم أى أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم عز وجل ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ثم لما حصل التصادف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء وهؤلاء في أعين هؤلاء ليقدّم كل منهما على الآخر (ليقضى الله أمراً كان مفعولاً) أى ليفرق بين الحق والباطل فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان ، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين ، كما قال تعالى (ولقد نصركم الله ببدر وأتم أذلة) وقال ههنا (والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) أى إن في ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدى به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجارى بنصر عباده

المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفْضَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ قُلْ أُوذِبْتُكُمْ بَخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ

يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد كما ثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال « ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء » فأما إذا كان القصد بهن الاعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه وأن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء وقوله صلى الله عليه وسلم « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله » وقوله في الحديث الآخر « حبيب إلى النساء والطيب وجملة قرة عيني في الصلاة » . وقالت عائشة رضى الله عنها : لم يكن شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء إلا الخيل ، وفي رواية : من الخيل إلا النساء : وحب البنين تارة يكون للفتاخر والزينة فهو داخل في هذا ، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ممن يعبد الله وحده لا شريك له ، فهذا محمود (١) ممدوح كما ثبت في الحديث « تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثركم بكم الأمم يوم القيامة » وحب المال كذلك تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقربات ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعاً . وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال وحاصلها أنه المال الجزيل كما قاله الضحاك وغيره ، وقيل : ألف دينار ، وقيل ألف ومائتا دينار ، وقيل اثنا عشر ألفاً ، وقيل أربعون ألفاً ، وقيل ستون ألفاً ، وقيل سبعون ألفاً ، وقيل ثمانون ألفاً وقيل غير ذلك : وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « القنطار اثنا عشر ألف أوقية كل أوقية خير مما بين السماء والأرض » وقد رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الصمد بن عبد الوارث عن حماد بن سلمة به ، وقد رواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدي عن حماد بن سلمة (٢) عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة موقوفاً كرواية وكيع في تفسيره حيث قال : حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن ذكوان أبي صالح عن أبي هريرة قال « القنطار اثنا عشر ألف أوقية الأوقية خير مما بين السماء والأرض » وهذا أصح ، وهكذا رواه ابن جرير عن معاذ بن جبل وابن عمر ، وحكاه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة وأبي الدرداء أنهم قالوا : القنطار ألف ومائتا أوقية ثم قال ابن جرير رحمه الله : حدثنا زكريا ابن يحيى الضريير حدثنا شبابة حدثنا مخلد بن عبد الواحد عن علي بن زيد عن عطاء بن أبي ميمونة عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية » وهذا حديث منكر أيضاً والأقرب أن يكون موقوفاً على أبي بن كعب كغيره من الصحابة . وقد روى ابن مردويه عن طريق موسى بن عبيدة الربدي عن محمد بن إبراهيم عن موسى عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ مائة آية لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائة آية إلى ألف أصبح له قطار من الأجر عند الله القنطار منه مثل الجبل العظيم » ورواه وكيع عن موسى بن عبيدة بمعناه . وقال الحاكم في مستدركه . حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أحمد بن عيسى ابن زيد اللخمي حدثنا محمد بن عمرو بن أبي سلمة حدثنا زهير بن محمد حدثنا حميد الطويل ورجل آخر عن أنس بن مالك قال

(١) في نسخة الأزهر محسود عليه (٢) وفيها ابن زيد كما في تفسير ابن جرير .

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى (القناطير المكنطرة) ؟ قال . « القنطار ألفا أوقية » صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وهكذا رواه الحاكم ، وقد رواه ابن أبي حاتم بلفظ آخر فقال ، أنبأنا أحمد بن عبد الرحمن الرقي أنبأنا عمرو بن أبي سلمة أنبأنا زهير يعني ابن محمد أنبأنا حميد الطويل ورجل آخر قد سماه يعني يزيد الرقاشي عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله « قنطار يعني ألف دينار » وهكذا رواه الطبراني (١) عن عبد الله بن محمد ابن أبي مريم عن عمرو بن أبي سلمة فذكر بإسناد مثله سواء . وروى ابن جرير عن الحسن البصري عنه مرسل أو موقوفاً عليه القنطار ألف ومائتا دينار ، وهو رواية العوفي عن ابن عباس . وقال الضحاك . من العرب من يقول القنطار ألف ومائتا دينار ، ومنهم من يقول . اثنا عشر ألفاً . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عارم عن حماد عن سعيد الحرسى عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال القنطار مائة مسك الشور ذهاباً ، قال أبو محمد . ورواه محمد بن موسى الحرسى عن حماد ابن زيد مرفوعاً ، والموقوف أصح .

﴿ وحب الخيل على ثلاثة أقسام ﴾ تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها فهؤلاء يثابون وتارة تربط فخراً ونواء لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر وتارة للتعفف واقتناء نسلها . ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) الآية : وأما المسومة فعن ابن عباس رضى الله عنهما المسومة الراعية والمطهمة الحسان وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن عبد الله بن أبي رزى والسدى والربيع بن أنس وأبي سنان وغيرهم : وقال مكحول . المسومة الغرة والتججيل وقيل غير ذلك وقد قال الإمام أحمد . حدثنا يحيى بن سعيد عن عبد الحميد بن جعفر عن يزيد بن أبي حبيب عن سويد بن قيس عن معاوية بن خديج عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس من فرس عربى إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول : اللهم إنك خولتني من خولتني من بنى آدم فاجعلني من أحب ماله وأهله إليه وأحب أهله وماله إليه » وقوله تعالى (والأنعام) يعني الإبل والبقر والغنم (والحراث) يعني الأرض المتخذة للغراس والزراعة : وقال الإمام أحمد . حدثنا روح بن عبادة حدثنا أبو نعام العدوى عن مسلم ابن بديل عن إياس بن زهير عن سويد بن هيرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة » المأبورة الكثيرة النسل ، والسكة النخل المصطف والمأبورة الملقحة

ثم قال تعالى (ذلك متاع الحياة الدنيا) أى إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة (والله عنده حسن المكاب) أى حسن المرجع والثواب

وقد قال ابن جرير . حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن عطاء عن أبي بكر بن حفص بن عمر بن سعد قال : قال عمر بن الخطاب لما نزلت (زين للناس حب الشهوات) قلت . الآن يارب حين زيتنا لنا فنزلت (قل أو نبشكم بغير من ذلكم للذين اتقوا) الآية ، ولهذا قال تعالى (قل أو نبشكم بغير من ذلكم) أى قل يا محمد للناس أو أخبركم بغير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذى هو زائل لا محالة ثم أخبر عن ذلك فقال (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار) أى تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والحمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (خالدين فيها) أى ما كثرين فيها أبداً لا ييغون عنها حولا ، (وأزواج مطهرة) أى من الدنس والخبث والأذى والحيز والنفاس وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا (ورضوان من الله) أى يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التى في براءة (ورضوان من الله أكبر) أى أعظم مما أعطاهم من النعم المقيم ، ثم قال تعالى (والله بصير بالعباد) أى يعطى كلا بحسب ما يستحقه من العطاء

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ الصَّيرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِتِّينَ

وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ

(١) وفي نسخة الأزهر ابن مردويه عن الطبراني

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال تعالى (الذين يقولون ربنا إنا آتينا) أى بك وبكتابك وبرسولك (فاغفر لنا ذنوبنا) أى بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا^(١) بفضلك ورحمتك (وقنا عذاب النار) ثم قال تعالى (الصابرين) أى فى قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات (والصادقين) فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة (والقانتين) والقنوت الطاعة والخضوع (والمتقين) أى من أموالهم فى جميع ما أمروا به من الطاعات ، وصلة الأرحام والقرابات ، وسد الخلات ، ومواساة ذوى الحاجات (والمستغفرين بالأسحار) دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار ، وقد قيل : إن يعقوب عليه السلام لما قال لبيه (سوف أستغفر لكم ربى) إنه أخرهم إلى وقت السحر . وثبت فى الصحيحين وغيرهما من المساند والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ينزل الله تبارك وتعالى فى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ » الحديث وقد أفرد الحافظ أبو الحسن الدارقطنى فى ذلك جزءا على حدة فرواه من طرق متعددة . وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : من كل الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوله وأوسطه وآخره فاتمى وتره إلى السحر . وكان عبد الله بن عمر يصلى من الليل ثم يقول : يا نافع هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح . رواه ابن أبى حاتم . وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا أبى عن حريث بن أبى مطر عن إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال : سمعت رجلا فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول : يارب أمرتنى فأطعتك وهذا السحر فاغفرلى . فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضى الله عنه . وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر فى آخر السحر سبعين مرة

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِبَيِّنَاتٍ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

شهد تعالى وكفى به شهيدا وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين (أنه لا إله إلا هو) أى المنفرد بالالهية لجميع الخلائق وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء اليه وهو الغنى عما سواه كما قال تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل إليك) الآية ثم قرن شهادة ملائكته وأولى العلم بشهادته فقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم) وهذه خصوصية عظيمة للعالماء فى هذا المقام (قائما بالقسط) منصوب على الحال وهو فى جميع الأحوال كذلك (لا إله إلا هو) تأكيد لما سبق (العزیز الحكيم) العزيز الذى لا يرام جنبه عظمة وكبرياء ، الحكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن عبدربه حدثنا بقة بن الوليد حدثني جبير بن عمرو القرشى حدثنا أبو سعيد الأنصارى عن أبى يحيى مولى آل الزبير بن العوام عن الزبير بن العوام قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم وهو بعرفة يقرأ هذه الآية (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) وأنا على ذلك من الشاهدين يارب وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر فقال حدثنا على بن حسين حدثنا محمد بن التوكل العسقلانى حدثنا عمر بن حفص بن ثابت أبو سعيد الأنصارى حدثنا عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده عن الزبير قال سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه الآية (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة) قال قال « وأنا أشهد أى رب » وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى المعجم الكبير حدثنا عبدان بن أحمد وعطى بن سعيد^(١) كذا وإنما يقال قصر فى الأمر وقصر عن فلان أو عن الغاية والنزلة .

الرازي قالا حدثنا عمار بن عمر المختار حدثني أبي حدثني غالب القطان قال : أتيت الكوفة في تحارة فنزلت قريبا من الأعمش فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل فمر بهذه الآية (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام) ثم قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لى عند الله ودبعة (إن الدين عند الله الإسلام) قالها مرارا ، قلت : لقد سمع فيها شيئا فعدوت اليه فودعته ثم قلت يا أبا محمد إني سمعتك تردده هذه الآية ، قال : أو ما بلغك ما فيها قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثني قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة فأقمت سنة فكنت على بابه فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد مضت السنة قال : حدثني أبو وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل عبدى عهد إلى » وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة » وقوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الاسلام وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذى سد جميع الطرق اليه إلا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم فمن لقي الله بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) الآية . وقال في هذه الآية مخبرا بانحصار الدين المتقبل منه عنده في الاسلام (إن الدين عند الله الإسلام) . وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم أن الدين عند الله الإسلام) بكسر إله وفتح أن الدين عند الله الاسلام أى شهد هو والملائكة وأولو العلم بأن الدين عند الله الاسلام ، والجمهور قروها بالكسر على الخبر وكلا المعنيين صحيح ، ولكن هذا على قول الجمهور وأظهر والله أعلم ثم أخبر تعالى بأن الدين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل اليهم وإنزال الكتب عليهم فقال (وما اختلف الدين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) أى بغى بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق تحاسدهم وتباغضهم وتدابروهم فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقا ، ثم قال تعالى (ومن يكفر بآيات الله) أى من جحد ما أنزل الله في كتابه (فإن الله سريع الحساب) أى فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه ويعاقبه على مخالفته كتابه .

ثم قال تعالى (فإن حاجوك) أى جادلوك في التوحيد (فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن) أى فقل أخلصت عبادتي لله وحده لأشريك له ولا ندله ولا ولد له ولا صاحبة له (ومن اتبعن) أى على ديني يقول كما قال تعالى (قل هذه سبيل أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعن) الآية ثم قال تعالى آمرا لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يدعوا إلى طريقته ودينه والدخول في شرعه وما بعث الله به . الكتابيين من المؤمنين والأميين من المشركين فقال تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإني معكم عليكم البلاغ) أى والله عليه حسابهم واليه مرجعهم ومآبهم وهو الذى يهدي من يشاء ويضل من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ولهذا قال تعالى (والله بصير بالعباد) أى هو عليم بمن يستحق الهداية بمن يستحق الضلالة وهو الذى لا يستل عما يفعل وهم يستلون) وما ذلك إلا لحكمته ورحمته ، وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) وقال تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) . وفى الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم كتابهم وأمهم أمثالا لأمر الله له بذلك . وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار » رواء مسلم . وقال ﷺ « بعثت إلى الأحمر والأسود » وقال « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »

وقال الإمام أحمد : حدثنا مؤمل حدثنا حماد حدثنا ثابت عن أنس رضى الله عنه : أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه فمضى فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبي ﷺ « يا فلان قل لا إله إلا الله » فنظر إلى أبيه فسكت أبوه فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه فقال أبوه : أطع أبا القاسم . فقال الغلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله فخرج النبي ﷺ وهو يقول « الحمد لله الذى أخرجه من النار » رواه البخارى فى الصحيح ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث

﴿ إِنَّا الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبه من المآثم والحارم فى تكذيبهم بآيات الله فديماً وحديثاً التى بلغتهم إياها الرسل استكباراً عليهم وعناداً لهم وتعاضماً على الحق واستنكافاً عن اتباعه ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم اليهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق (ويقتلون الذين يأمرُونَ بالقسط من الناس) وهذا هو غاية الكبر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « الكبر بطل الحق وغمط الناس » . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو الزبير الحسن بن على بن مسلم النيسابورى نزيل مكة حدثنى أبو حفص عمر بن حفص يعنى ابن ثابت بن زرارة الأنصارى حدثنا محمد بن حمزة حدثنا أبو الحسن مولى لبنى أسد عن مكحول عن أبى قبيصة بن ذئب الخزاعى عن أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال « رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ثم قرأ رسول الله ﷺ (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرُونَ بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) الآية ثم قال رسول الله ﷺ « يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة وسبعون رجلاً من بنى إسرائيل فأمرُوا من قتلهم بالمعروف ونهوا عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكركم الله عز وجل » وهكذا رواه ابن جرير عن أبى عبيد الوصابى محمد بن حفص عن ابن حمير عن أبى الحسن مولى بنى أسد عن مكحول به ، وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبى من أول النهار وأقاموا سوق بقلهم من آخره ، رواه ابن أبى حاتم . ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق قابلهم الله على ذلك بالدلة والصغار فى الدنيا والعذاب المهيئ فى الآخرة فقال تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) أى موجه مهين (أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى منكرأ على اليهود والنصارى التمسكين فيما يزعمون بكتابهم اللذين بأيديهم وهم التوراة والانجيل وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم تولوا وهم معرضون عنهما ، وهذا فى غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالخالفه والعناد ثم قال تعالى (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات) أى إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون فى النار سبعة أيام عن كل ألف سنة فى الدنيا يوماً ، وقد تقدم تفسير ذلك فى سورة البقرة . ثم قال تعالى (وغرهم فى

دينهم ما كانوا يفترون) أى ثبتهم على دينهم الباطل ماخدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم واختلقوه ولم ينزل الله به سلطانا ، قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) أى كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والله تعالى سائلهم عن ذلك كله وحاكم عليهم ومجازيهم به ، ولهذا قال تعالى (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) أى لاشك فى وقوعه وكونه (ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

يقول تبارك وتعالى (قل) يا محمد معظما لربك وشاكرآ له ومفوضآ اليه ومتوكلا عليه (اللهم مالك الملك) أى لك الملك كله (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء) أى أنت العطي وأنت المانع وأنت الذى ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن . وفى هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة لأن الله تعالى حول النبوة من بنى إسرائيل إلى النبي العربى القرشى الأحمى المكي خاتم الأنبياء على الاطلاق ، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن ، الذى جمع الله فيه محاسن من كان قبله وخصه بخصائص لم يعطها نبيا من الأنبياء ولا رسولا من الرسل فى العلم بالله وشرعيته وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية وكشفه له عن حقائق الآخرة ونشر أمته فى الآفاق فى مشارق الأرض ومغاربها وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع فصاوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار ، ولهذا قال تعالى (قل اللهم مالك الملك) الآية أى أنت المتصرف فى خلقك الفعال لما تريد كما رد تعالى على من يحكم^(١) عليه فى أمره حيث قال (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) قال الله ردآ عليهم (أهم يقسمون رحمة ربك) الآية أى نحن نتصرف فيما خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع ولنا الحكمة البالغة والحجة التامة فى ذلك وهكذا يعطى النبوة لمن يريد كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال تعالى (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) الآية^(٢) وقد روى الحافظ بن عساكر فى ترجمة إسحق ابن أحمد من تاريخه عن المأمون الخليفة أنه رأى فى قصر بيلاد الروم مكتوبا بالحميرية فعرّب له فإذا هو باسم الله ما اختلف الليل والنهار ولادارت نجوم السماء فى الفلك إلا بنقل النعيم عن ملك قد زال سلطانه إلى ملك . وملك ذى العرش دائم أبداً ليس بفان ولا بمشترك ، وقوله تعالى (تولى الليل فى النهار وتولى النهار فى الليل) أى تأخذ من طول هذا فتزيده فى قصر هذا فيعتدلان ثم تأخذ من هذا فى هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان ، وهكذا فى فصول السنة ربعا وصيفا وخريفاً وشتاء ، وقوله تعالى (وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى) أى تخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع والنخلة من النواة والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء (وترزق من تشاء بغير حساب) أى تعطى من شئت من المال ما لا يعده ولا يقدر على إحصائه وتقدر على آخرين لما لك فى ذلك من الحكمة والارادة والمشيئة قال الطبرانى : حدثنا محمد بن زكريا العلأى حدثنا جعفر بن حسن بن فرقد حدثنا أبى عن عمر بن مالك عن أبى الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى هذه الآية من آل عمران (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) »

(١) وفى نسخة الأزهر يتحكم (٢) قوله وقد روى الحافظ ابن عساكر الى بمشترك - سقط من النسخة الأميرية فنقلت من نسخة الأزهر .

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ثم توعد على ذلك فقال تعالى (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) أى ومن يرتكب نهى الله في هذا فقد برىء من الله كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة - إلى أن قال - ومن يفعلهم فليس منكم فقل الله عليكم سلطاناً مبيناً) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منهم فإنه منهم) الآية . وقال تعالى بعد ذكر موالاة المؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) وقوله تعالى (إلا أن تتقوا منهم تقاة) أى إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، كما قال البخارى عن أبى الدرداء إنه قال : «إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم» . وقال الثورى : قال ابن عباس : ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان ، وكذا رواه العوفى عن ابن عباس إنما التقية باللسان ، وكذا قال أبو العالية وأبو الشعثاء والضحاك والربيع بن أنس . ويؤيد ما قالوه قول الله تعالى (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) الآية . وقال البخارى : قال الحسن التقية إلى يوم القيامة ، ثم قال تعالى (ويحذركم الله نفسه) أى يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه . ثم قال تعالى (وإلى الله المصير) أى إليه المرجع والمنقلب ليجازى كل عامل بعمله . قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا سويد بن سعيد حدثنا مسلم بن خالد عن ابن أبى حسين عن عبد الرحمن بن سابط عن ميمون بن مهران قال : قام فينا معاذ فقال : يا بنى أود إنى رسول رسول الله إليكم تعلمون أن المعاد إلى الله (١) إلى الجنة أو إلى النار

﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر وأنه لا يخفى عليه شيء من شيء مما في صدوركم ولا مما في السموات والأرض والأيمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات وجميع ما في الأرض والسموات لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال (والله على كل شيء قدير) أى وقدرته نافذة في جميع ذلك ، وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم فانه عالم بجميع أمورهم ، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة وإن أنظر من أنظر منهم فانه يعلم ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ولهذا قال بعد هذا (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) الآية يعنى يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر كما قال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) فما رأى من أعماله حسناً سره ذلك وأفرحه ، وما رأى من قبيح ساءه وغصه وود لو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد ، كما يقول لشیطانہ الذي كان مقرننا (٢) به في الدنيا وهو الذي جرأه على فعل السوء (ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً (ويحذركم الله نفسه) أى يخوفكم عقابه ثم قال جل جلاله مرجياً لعباده لئلا ييأسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه (والله رءوف بالعباد) قال الحسن البصرى من رآفته

(١) وفي نسخة الأزهر أن المعاد إلى الجنة أو إلى النار (١) وفي نسخة الأزهر مقترنا .

بهم حذرهم نفسه وقال غيره . أى رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم وأن يتبعوا
رسوله الكريم

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة الحمديدية فانه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع الحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ولهذا قال (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله) أى يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول كما قال بعض العلماء الحكماء . ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحب . وقال الحسن البصري وغيره من السلف : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله) وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا عبد الله ابن موسى بن عبد الأعلى بن أعين عن يحيى بن أبي كثير عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله ؟ قال الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني) » وقال أبو زرعة عبد الأعلى : هذا منكر الحديث

ثم قال تعالى (ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم) أى باتباعكم الرسول صلى الله عليه وسلم يحصل لكم هذا من بركة سفارته ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاص وعام (قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا) أى تخالفوا عن أمره (فإن الله لا يحب الكافرين) فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر والله لا يحب من اتصف بذلك وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأسمى خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه والدخول في طاعته واتباع شريعته كما سيأتى تقريره عند قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين) الآية إن شاء الله تعالى

﴿ إِنْ اللَّهُ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض ، فاصطفى آدم عليه السلام خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة واصطفى نوحاً عليه السلام وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وانتقم له لما طال مدته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، سرّاً وجهاراً ، فلم يزداهم ذلك إلا فراراً ، فدعا عليهم فأغرقهم الله عن آخرهم ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به واصطفى آل إبراهيم ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد صلى الله عليه وسلم ، وآل عمران والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى بن مريم عليه السلام . قال محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله هو عمران بن ياشم^(١) بن ميثا بن حرقيا بن إبراهيم ابن غرايا بن ناوش بن أجر بن بهوا بن نازم بن مقاسط بن إيشا بن إياذ بن رخييم بن سليمان بن داود عليهما السلام ، فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم كما سيأتى بيانه في سورة الانعام إن شاء الله تعالى وبه الثقة

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾

امراة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام وهي حنة بنت فافوذ . قال محمد بن إسحق : وكانت امرأة لا تحمل فرأت يوما طائرا يزق فرخه فاشتبهت الولد فدعت الله تعالى أن يهبها ولدا فاستجاب الله دعاءها فواقعها زوجها فحملت منه فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محررا أي خالصا مفرغا للعبادة لخدمة بيت المقدس فقالت : يا رب (إني نذرت لك ما بطنى محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم) أي السميع للعائى العليم بنيتي ، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكر أم أنثى (فلما وضعها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت) قرى برفع التاء على أنها تاء التكلم وأن ذلك من تمام قولها ، وقرى بتسكين التاء على أنه من قول الله عز وجل (وليس الله كالأثني) أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى (وإني سميتها مريم) فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قبلنا وقد حكى مقررا وبذلك ثبتت السنة عن رسول صلى الله عليه وسلم حيث قال « ولد لي الليلة ولد سميت به باسم أبي إبراهيم » وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحكه وسماه عبد الله : وفي صحيح البخارى : أن رجلا قال : يا رسول الله ولد لي الليلة ولد فما أسميه ؟ قال « سم ابنك عبد الرحمن » وثبت في الصحيح أيضا . أنه لما جاءه أبو أسيد بانه ليحكه فذهل عنه فأمر به أبوه فرد إلى منزلهم فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس سماه المنذر . فأما حديث قتادة عن الحسن البصرى عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كل غلام مرتين ^(١) بعقيقته يذبح عنه يوم السابع ويسمى ويخلق رأسه » فقد رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى وروى ويذى وهو أثبت وأحفظ والله أعلم . وكذا مارواه الزبير بن بكار في كتاب النسب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علق عن ولده إبراهيم وسماه إبراهيم ، فإسناده لا يثبت وهو مخالف لما في الصحيح ولو صح لجل على أنه اشتهر ^(٢) اسمه بذلك يومئذ والله أعلم ، وقوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت (وإني أعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) أي عوذتها بالله عز وجل من شر الشيطان وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام فاستجاب الله لها ذلك كما قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مسه إياه إلا مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم (وإني أعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) أخرجه من حديث عبد الرزاق ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرغ عن بقية عن الزبيدى عن الزهرى عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه وروى من حديث قيس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى بن مريم ومريم » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وإني أعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) ومن حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة ، ورواه مسلم عن أبي الطاهر عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبي يونس عن أبي هريرة ، ورواه ابن وهب أيضا عن ابن أبي ذئب عن عجلان مولى المشعل عن أبي هريرة ورواه محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بأصل الحديث ، وهكذا رواه الليث بن سعد عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج قال : قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل بنى آدم يطعن الشيطان في جنبه حين تلده أمه إلا عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن بالحجاب »

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا كَرِيَّا الْمَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أُنَى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة وأنه أنبتها نباتا حسنا أي جعلها شكلا مليحا ومنظرا بهيجا ويسر لها أسباب القبول وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين فلماذا قال (وكفلها زكريا) بتشديد الفاء ونصب زكريا

(١) في النسخة الأميرية « رهين » وفي نسخة الأزهر « رهينة » وهذه رواية ونظ الترمذى مرتين (٢) وفي نسخة الأزهر أشهر

على المفعولية أى جملة كافلا لها . قال ابن إسحق : وما ذلك إلا أنها كانت يتيمة وذكر غيره أن بنى إسرائيل أصابهم سنة جذب فكفل زكريا مريم لذلك ولا منافاة بين القولين والله أعلم . وإنما قدر الله كون زكريا كفلا لسعادتها لتقتبس منه علما جما نافعا وعملا صالحا ، ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحق وابن جرير وغيرهما ؛ وقيل زوج أختها كما ورد في الصحيح «فاذا يحيى وعيسى وهما ابنا الحالة» وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحق ذلك أيضا توسعا فعلى هذا كانت في حضنة خالتها : وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في عمارة (١) بنت حمزة أن تكون في حضنة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب وقال . «الحالة بمنزلة الأم» ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلادتها في محل عبادتها فقال (كما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشعثاء وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفى والسدى يعنى وجد عندها فأكهة الصيف في الشتاء وفاكة الشتاء في الصيف وعن مجاهد (وجد عندها رزقا) أى علما ، أوقال . صحفاني علم ، رواه ابن أبى حاتم والأول أصح وفيه دلالة على كرامات الأولياء . وفي السنة لهذا نظر كثيرة ، فاذا رأى زكريا هذا عندها (قال يا مريم أنى لك هذا) أى يقول من أين لك هذا ؟ (قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا سهل بن زنبلة حدثنا عبد الله ابن صالح حدثنا عبد الله بن لهيعة عن محمد بن السكدر عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئا فأتى فاطمة فقال «يا بنية هل عندك شيء آكله فاني جائع ؟» قالت . لا والله - بأبي أنت وأمى - فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعت في جفنة لها وقالت . والله لأؤثرن بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي ومن عندي ، وكانوا جميعا محتاجين إلى شبة طعام فبعثت حسنا أو حسينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إليها فقالت : بأبي أنت وأمى قد أتى الله بشيء فخبأته لك قال «هلمى يا بنية» قالت فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فاذا هي مملوءة خبزا ولحما فلما نظرت إليها بهت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله وصليت على نبيه وقدمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه حمد الله وقال «من أين لك هذا يا بنية ؟» قالت . يا أبت (هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فحمد الله وقال «الحمد لله الذى جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل فانها كانت إذا رزقها الله شيئا وسلت عنه قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» فبعث رسول الله ﷺ إلى على ثم أكل رسول الله ﷺ وأكل على وفاطمة وحسن وحسين وجميع أزواج النبي ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا جميعا قالت : وبقيت الجفنة كما هي قالت . فأوسعت يقيتها على جميع الجيران وجعل الله فيها بركة وخيرا كثيرا .

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدَقًا بِكَلِمَةٍ مِّنْ أَلَدِّ سَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأُمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَآذْكَرُ رَبِّكَ كَثِيرًا وَتَسْبِيحًا بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فأكهة الشتاء في الصيف وفاكة الصيف في الشتاء طمع حينئذ في الولد وإن كان شيخا كبيرا قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيئا وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا ، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيا وقال (رب هب لى من لدنك) أى من عندك (ذرية طيبة) أى ولدا صالحا (إنك سميع الدعاء) . قال الله تعالى (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى في المحراب) أى خاطبته الملائكة شفاهها

(١) في النسخة الأميرية عمرة وهي غلط فاعتمدنا نسخة الأزهر وهي إحدى الروايتين في اسمها والرواية الأخرى أمامة .

خطاباً أسعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته . ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة (أن الله يبشرك بيحيي) أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيي . قال قتادة وغيره : إنما سمي يحيي لأن الله أحياه بالإيمان . وقوله (مصداقاً بكلمة من الله) ^(١) روى العوفي وغيره عن ابن عباس وقال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسدي والريبع بن أنس والضحاك وغيره في هذه الآية (مصداقاً بكلمة من الله) أي بعيسى بن مريم . وقال الريبع بن أنس : هو أول من صدق بعيسى بن مريم . وقال قتادة : وطى سنته ومنهجه . وقال ابن جريج : قال ابن عباس في قوله مصداقاً بكلمة من الله قال : كان يحيى وعيسى ابني خالة وكانت أم يحيى تقول لمريم : إنى أجد الذى فى بطنى يسجد للذى فى بطنك فذلك تصديقه له فى بطن أمه وهو أول من صدق عيسى وكلمة الله عيسى ، وهو أكبر من عيسى عليه السلام وهكذا قال السدي أيضاً

وقوله (وسيداً) قال أبو العالية والريبع بن أنس وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم : الحليم ، وقال قتادة : سيداً فى العلم والعبادة . وقال ابن عباس والثورى والضحاك السيد الحليم التقي : قال سعيد بن المسيب : هو الفقيه العالم ، وقال عطية : السيد فى خلقه ودينه ، وقال عكرمة : هو الذى لا يغلبه الغضب وقال ابن زيد : هو الشريف ، وقال مجاهد وغيره هو الكريم على الله عز وجل .

وقوله (وحصوراً) روى عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء وعطية العوفي أنهم قالوا : الذى لا يأتى النساء . وعن أبي العالية والريبع بن أنس : هو الذى لا يولد له ولا ماء له . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن المغيرة أنبأنا جرير عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس فى الحصور : الذى لا ينزل الماء ، وقد روى ابن أبى حاتم فى هذا حديثاً غريباً جداً فقال : حدثنا أبو جعفر محمد بن غالب البغدادي حدثني سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعنى ابن العوام عن يحيى بن سعيد عن المسيب عن ابن العاص - لا يدري عبد الله أو عمرو - عن النبي ﷺ فى قوله (وسيداً وحصوراً) قال : ثم تناول شيئاً من الأرض فقال « كان ذكره مثل هذا » . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن يحيى بن سعيد الأنصارى أنه سمع سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنوب غير يحيى بن زكريا ثم قرأ سعيد (وسيداً وحصوراً) ثم أخذ شيئاً من الأرض فقال : الحصور من كان ذكره مثل ذا ، وأشار يحيى بن سعيد القطان بطرف أصبعه السبابة فهذا موقوف أصح إسناداً من المرفوع ورواه ابن المنذر فى تفسيره : حدثنا أحمد بن داود السعمانى حدثنا سويد بن سعيد حدثنا على بن مسهر عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يلقى الله إلا ذنب إلا يحيى بن زكريا فإن الله يقول (وسيداً وحصوراً) - قال - : وإنما ذكره مثل هدية الثوب » وأشار بأمله ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عيسى ابن حماد ومحمد بن سلمة المرادى قالا : حدثنا حجاج بن سليمان القرى عن الليث بن سعد عن محمد بن عجلان عن القعقاع عن أبى صالح عن أبى هريرة أن النبي ﷺ قال « كل ابن آدم يلقى الله بذنوب يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيى بن زكريا فإنه كان سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين » ثم أهوى النبي ﷺ إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال : « وكان ذكره مثل هذه القذاة »

وقد قال القاضى عياض فى كتابه الشفاء : اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان (حصوراً) ليس كما قاله بعضهم إنه كان هيوأ أولاً ذكر له ، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ، وشاد العلماء وقالوا : هذه تقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أى لا يأتها كأنه حصور عنها ، وقيل : مانع نفسه من الشهوات ، وقيل ليست له شهوة فى النساء وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام ثم هى فى حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه : درجة عليا وهى درجة نبينا ﷺ الذى لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربه ، بل زاده

(١) قوله روى العوفي إلى قوله (مصداقاً بكلمة من الله) ساقط من النسخة الأميرية .

ذلك عبادة بتحصينهم وقيامه عليهم وإكسابه لهم وهدايته إياهم بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دينا غيره فقال : « حب إلى من دنياكم » هذا لفظه . والقصود أنه مدح ليحيى بأنه حضور ليس أنه لا يأتي النساء ، بل معناه كما قاله هو وغيره : أنه معصوم من الفواحش والقاذورات ، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن ، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : (هب لي من لدنك ذرية طيبة) كأنه قال ولد له ذرية ونسل وعقب ، والله سبحانه وتعالى أعلم

قوله (ونبياً من الصالحين) هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر (قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال) أى الملك (كذلك الله يفعل ما يشاء) أى هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه أمر (قال رب اجعل آية) أى علامة أستدل بها على وجود الولد منى (قال آيتك ألا تكلم ثلاثة أيام إلا رمزا) أى إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوى صحيح كما فى قوله (ثلاث ليال سوا) ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح فى هذه الحال فقال تعالى (واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والابكار) . وسيأتى طرف آخر فى بسط هذا المقام فى أول سورة مريم إن شاء الله تعالى

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُومُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ : يَمْرُؤُومُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمْنَاهُمْ مِنْهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد اصطفاها أى اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين . قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب فى قوله تعالى (إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) قال كان أبو هريرة يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير نساء ركن الإبل نساء قريش أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على زوج فى ذات يده ، ولم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط » ولم يخرج من هذا الوجه سوى مسلم فانه رواه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد^(١) كلاهما عن عبد الرزاق به وقال هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن علي بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « خير نساها مريم بنت عمران وخير نساها خديجة بنت خويلد » أخرجاه فى الصحيحين من حديث هشام به مثله . وقال الترمذى : حدثنا أبو بكر بن زنجويه حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون » تفرد به الترمذى وصححه . وقال عبد الله بن أبى جعفر الرازى عن أبيه قال : كان ثابت البناني يحدث عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خير نساء العالمين أربع ، مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت رسول الله » رواه ابن مردويه أيضاً ، ومن طريق شعبة عن معاوية بن قره عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « كل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث ، مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » . وقال ابن جرير : حدثني الثنى حدثنا آدم العسقلاني حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة سمعت مرة الحمداى يحدث عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « كل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون » وقد أخرج الجماعة إلا أبا داود من طرق عن شعبة به ، ولفظ البخارى « ويكمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية

امراً فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة عن النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » وقد استقصيت طرق هذا الحديث وألفاظه في قصة عيسى بن مريم عليه السلام في كتابنا البداية والنهاية والله الحمد والمنة ، ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله وقضاه مما فيه محنة لها ورفعته في الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة حيث خلق منها ولداً من غير أب فقال تعالى (يا مريم اقنتي لربك واسجدي وركعي مع الراكعين) أما القنوت فهو الطاعة في خشوع كما قال تعالى (وله من في السموات والأرض كل له قانتون) وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمع حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال « كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » ورواه ابن جرير من طريق ابن لهيعة عن دراج به وفيه نكارة . وقال مجاهد كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها ، والقنوت هو طول الركوع في الصلاة يعني امتثالاً لقول الله تعالى (يا مريم اقنتي لربك) قال الحسن . يعني اعبدى لربك (واسجدي واركعي مع الراكعين) أي كوني منهم وقال الأوزاعي . ركبت في محرابها راحة وساجدة وقائمة حتى نزل ماء الأصفر في قدميها رضي الله عنها وأرضاها . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر (١) في ترجمتها من طريق محمد بن يونس الكندي وفيه مقال : ثنا علي بن بحر بن بري ثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير في قوله (يا مريم اقنتي لربك واسجدي) قال سجدت حتى نزل الماء الأصفر في عينيها . وذكر ابن أبي الدنيا ثنا الحسن ابن عبد العزيز ثنا ضمرة عن أبي شاذب قال كانت مريم عليها السلام تعتسل في كل ليلة . ثم قال لرسوله بعد ما أطلعه على جلية الأمر (ذلك من أبناء الغيب نوحيه إليك) أي قصه عليك (وما كنت لديهم) أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عن معانيه عما جرى بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكلفها وذلك لرغبتهم في الأجر . قال ابن جرير : حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني حجاج عن ابن جريج عن القاسم بن أبي بزة أنه أخبره عن عكرمة ، وأبي بكر عن عكرمة قال ثم خرجت بها يعني (٢) مريم في خرقها إلى بني الكاهن بن هرون أخى موسى عليهما السلام قال : وهم يومئذ يولون من بيت المقدس ما يلي الحجة من الكعبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فاني حررتها وهي أنثى ولا يدخل الكنيسة حائض وأنا لا أردنها إلى بيتي فقالوا : هذه ابنة إمامنا وكان عمران يؤمهم في الصلاة ، وصاحب قرباننا فقال زكريا . ادفعوها لي فان خالها تحق فقالوا : لا تطيب أنفسنا هي ابنة إمامنا فذلك حين اقترعوا عليها بأقلامهم التي يكتبون بها التوراة فقرعهم زكريا فكفلها وقد ذكر عكرمة أيضاً والسدي وقتادة والريعي بن أنس وغير واحد دخل حديث بعضهم في بعض . أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأبهم ثبت في جرية الماء فهو كالفها فألقوا أقلامهم فاحتلها الماء إلا قلم زكريا فانه ثبت ، ويقال : إنه ذهب صاعدا يشق جرية الماء ، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَبُكِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير قال الله تعالى (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه) أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله أي يقول له كن فيكون ، وهذا تفسير قوله (مصدقا بكلمة من الله) كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه (اسمه المسيح عيسى ابن مريم) أي يكون هذا مشهوراً في الدنيا يعرفه المؤمنون بذلك وسمى المسيح قال بعض السلف : لكثرة سياحته . وقيل لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لها

(١) قوله وقد ذكر الحافظ النج سقط من الأميرية فنقلناه من نسخة الأزهر (٢) وفي نسخة الأزهر أم مريم بمرم تحملاً .

وقيل لأنه كان إذا مسح أحدا من ذوى العاهات برىء بإذن الله تعالى وقوله تعالى : (عيسى ابن مريم) نسبة إلى أمه حيث لا أب له (وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين) أى له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحى الله إليه من الشريعة وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به ، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولى العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وقوله (ويكلم الناس في المهد وكهلا) أى يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره ، معجزة وآية ، وفي حال كهولته حين يوحى الله إليه (ومن الصالحين) أى في قوله وعمله له علم صحيح وعمل صالح . قال محمد بن إسحق : عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن محمد بن شرجيل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماتكم أحد^(١) في صغره إلا عيسى وصاحب جريج » وقال ابن أبي حاتم . حدثنا أبو الصقر يحيى بن محمد بن قزعة حدثنا الحسين بن الروزى حدثنا جرير يعني ابن أبي حازم عن محمد بن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لم يتكلم في المهد إلا ثلاث ، عيسى وصبي كان في زمن جريج وصبي آخر » فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عز وجل قالت في مناجاتها : (رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر ؟) تقول كيف يوجد هذا الولد منى وأنا لست بذات زوج ولا من عزمى أن أتزوج ولست بغيا حاشا لله فقال لها الملك عن الله عز وجل في جواب ذلك السؤال (كذلك الله يخلق من يشاء) أى هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ، وصرح هنا بقوله (يخلق ما يشاء) ولم يقل يفعل كما في قصة زكريا ، بل نص هنا على أنه يخلق لثايبى لمبطل شبهة ، وأكد ذلك بقوله (إذا قضى أمرا فأنما يقول له كن فيكون) أى فلا يتأخر شيئا بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة كقوله (وما أمرنا إلا واحدة فكلح بالبصر) أى إنما تأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشيء سريعا كلح البصر

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُم مِّنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام . إن الله يعلم الكتاب والحكمة ، الظاهر أن المراد بالكتاب هنا الكتابة ، والحكمة تقدم تفسيرها في سورة البقرة ، والتوراة والإنجيل فالتوراة هو الكتاب الذى أنزل على موسى بن عمران ، والإنجيل الذى أنزل على عيسى بن مريم عليهما السلام . وقد كان عيسى عليه السلام يحفظ هذا وهذا وقوله (ورسولا إلى بنى إسرائيل) فائلا لهم (أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهية الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله) وكذلك كان يفعل يصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عيانا بإذن الله عز وجل الذى جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله (وأبرئ الأكمه) قيل إنه الذى يبصر نهارا ولا يبصر ليلا ، وقيل بالعكس ، وقيل الأعشى ، وقيل الأعمش ، وقيل هو الذى يولد أعمى وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدى (والأبرص) معروف (وأحي الموتى بإذن الله) قال كثير من العلماء بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب^(٢) أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار ، فلما استقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للاسلام وصاروا من عباد الله الأبرار . وأما عيسى

(١) في نسخة الأزهر مولود . (٢) وفيها بمعجزة تناسب .

عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجسد ، أو على مداواة الأكمة والأبرص ، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد . وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل فلو اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وماذا لك إلا أن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبداً ، وقوله (وأنبيكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) أى أخبركم بما أكل أحدكم الآن وما هو مدخر له في بيته لعد (إن في ذلك) أى في ذلك كله (لآية لكم) أى على صدق فيما جئتكم به (إن كنتم مؤمنين) ومصدقا لما بين يدي من التوراة (أى مقررأ لها ومثبتا) ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم (فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة . وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال لم ينسخ منها شيئا ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ وانكشف لهم عن الغطاء (١) في ذلك كما قال في الآية الأخرى (ولأين لكم بعض الذي تختلفون فيه) والله أعلم . ثم قال (وجئتكم بآية من ربكم) أى بحجة ودلالة على صدق فيما أقوله لكم (فاتقوا الله وأطيعون ، إن الله ربكم فاعبدوه) أى أنا وأتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه (هذا صراط مستقيم)

﴿ فَلَمَّا أَحْسَنَ عِيسَىٰ مِنْهُمْ الْكَفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكْرُأَ وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾

يقول تعالى (فلما أحسن عيسى) أى استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال (من أنصارى إلى الله ؟) قال مجاهد : أى من يتبعنى إلى الله ، وقال سفيان الثوري وغيره : أى من أنصارى مع الله ، وقول مجاهد أقرب . والظاهر أنه أراد من أنصارى في الدعوة إلى الله كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر « من رجل يؤوينى حتى أبلغ كلام ربى فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » حتى وجد الأنصار فأووه ونصروه وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر رضى الله عنهم وأرضاهم . وهكذا عيسى بن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بنى إسرائيل فآمنوا به ووازروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، ولهذا قال الله تعالى مخبر عنهم (قال الخواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) الخواريون قيل : كانوا قصارين ، وقيل سوا بذلك لياض ثيابهم ، وقيل صيادين . والصحيح أن الخواري الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير رضى الله عنه فقال النبي ﷺ « لكل نبي حوارى وحوارى الزبير » وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله (فاكتبنا مع الشاهدين) قال . مع أمة محمد ﷺ ، وهذا إسناد جيد . ثم قال تعالى مخبرا عن ملائكة بنى إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام وإرادته بالسوء والصلب حين تمالأوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان وكان كافرا أن هنا رجلا يضل الناس ويصدم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب وأنه ولد زنية حتى استثاروا غضب الملك فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينسل به فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به نجاه الله تعالى من بينهم ورفعهم من روضة ذلك البيت إلى السماء وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك ، وكان هذا من مكر الله بهم فانه نجى نبيه ورفع من بين أظهرهم

(١) في نسخة الأظهر فأخطأوا فكشف لهم عن المنطى .

وتركهم في ضلالتهم يعمهون يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبهم وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعنادا للحق ملازمهم وأورثهم ذلة لاتفارقهم إلى يوم التناد ولهذا قال تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ مَوْطِنٍكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَخَذْتُكُمْ بِبَيْنِكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَاعَذِّبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿

اختلف المفسرون في قوله تعالى (إني متوفيك ورافعك إلى) فقال قتادة وغيره . هذا من التقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إلى ومتوفيك يعني بعد ذلك . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . إني متوفيك أي يميتك . وقال محمد ابن إسحق عمن لايتهم عن وهب بن منبه قال . توفاه الله ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه اليه . قال ابن إسحق والنصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه قال إسحق بن بشر عن إدريس عن وهب : أماته الله ثلاثة أيام ثم بعثه ثم رفعه ، قال مطر الوراق . إني متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت ، وكذا قال ابن جرير توفيه هو رفعه : وقال الأكثرون . المراد بالوفاة ههنا النوم كما قال تعالى (وهو الذي يتوفاكم بالليل) الآية . وقال تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) الآية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا قام من النوم . « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا » الحديث وقال تعالى : (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتنا عظيم ، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم - إلى قوله - وماقتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيم * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) والضمير في قوله قبل موته عائد على عيسى عليه السلام أي وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة على ما سيأتي بيانه فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه حدثنا الربيع بن أنس عن الحسن أنه قال في قوله تعالى (إني متوفيك) يعني وفاة المنام رفعه الله في منامه قال الحسن : قال رسول الله ﷺ لليهود « إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة » وقوله تعالى (ومطهركم من الدين كفرة) أي برفعي إياك إلى السماء (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) وهكذا وقع فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعة بعده فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته . ومنهم من غلب فيه فجعله ابن الله ، وآخرون قالوا هو الله وآخرون قالوا هو ثالث ثلاثة . وقد حكى الله مقالتهم في القرآن ورد على كل فريق فاستمروا على ذلك قريبا من ثلثمائة سنة ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له قسطنطين فدخل في دين النصرانية قيل حيلة ليفسده فانه كان فيلسوفا ، وقيل جهلامنه إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه وزاد فيه ونقص منه ووضعت له القوانين والأمانة الكبرى التي هي الحياة الحقة ، وأحل في زمانه لحم الخنزير ، وصلوا به إلى المشرق ، وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع ، وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه نبى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارت ما يزيد على اثني عشر ألف معبد وبني المدينة المنسوبة إليه واتبعه طائفة الملكية منهم وهم في هذا كله قاهرون لليهود أيده الله عليهم لأنه أقرب إلى الحق منهم ، وإن كان الجحيع كفارا عليهم لعائن الله ، فلما بعث الله محمدا ﷺ فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله على الوجه الحق ، فكانوا هم أتباع كل نبى على وجه الأرض ، إذ قد صدقوا الرسول النبى الأمي

العربي خاتم الرسل وسيد ولد آدم على الاطلاق الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته مما قد حرفوا وبدلوا ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها واحتازوا جميع الممالك ودانت لهم جميع الدول وكسروا كسرى وقصروا قيصر وسلبوها كنوزهما وأنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل في قوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوني لا يشركون بي شيئاً) الآية فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً سلبوا النصارى بلاد الشام وألجؤهم إلى الروم فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية ولا يزال الاسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة وقد أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيئون ما فيها من الأموال ، يقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً لم ير الناس مثلاً ولا يرون بعدها نظيرها ، وقد جمعت في هذا جزءاً مفرداً ، ولهذا قال تعالى (وجعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فاعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) وكذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق (وما لهم من الله من واق) (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم) أي في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بالنصر والظفر ، وفي الآخرة بالجنات العالية (والله لا يحب الظالمين)

ثم قال تعالى (ذلك تتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره هو مما قاله تعالى وأوحاه إليك ونزله عليك من اللوح المحفوظ فلا مزية فيه ولا شك كما قال تعالى في سورة مريم (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) وههنا قال تعالى

﴿ إِنْ مَثَلْ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * أَلَمْ نَخْلُقْ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَاذِبِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول جل وعلا (إن مثل عيسى عند الله في قدرة الله حيث خلقه (١) من غير أب (كثل آدم) حيث خلقه من غير أب ولا أم بل (خلقته من تراب ثم قال له كن فيكون) فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأخرى ، وإن جاز ادعاء البنية في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى ، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً ، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقته حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا قال تعالى في سورة مريم (ولنجعله آية للناس) وقال ههنا (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا يحيد عنه ولا صحيح سواء ، وماذا بعد الحق إلا الضلال . ثم قال تعالى أمراً رسوله صلى الله عليه وسلم أن يباهل من غاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان (فمن حاجك فيه

من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءكم وأبناءكم ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم (أي نخضرم في حال المباهلة ثم نبهل) أي نلتعن (فنجعل لعنة الله على الكاذبين) أي منا ومنكم .

وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران : أن النصارى لما قدموا فجعوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والالهية فأُنزل الله صدر هذه السورة ردّاً عليهم كما ذكره الإمام محمد بن إسحق بن يسار وغيره : قال ابن إسحق في سيرته المشهورة وغيره وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ستون راكاً ، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرفهم يؤول أمرهم اليهم وهم : العاقب واسمه عبد المسيح والسيد وهو الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل ، وأويس بن الحارث ، وزيد ، وقيس ، وزيد وابناه وخويلد ، وعمرو ، وخالد ، وعبد الله ، ومحسن ، وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم وهم العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه ، والسيد وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارسهم ، وكان رجلاً من العرب من بني بكر بن وائل ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها وشرفوه وبنوا له الكنائس وأخدموه لما يعلمونه من صلابته في دينهم ، وقد كان يعرف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفته وشأنه مما علمه من الكتب المتقدمة ، ولكن حمله ذلك (١) على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها . قال ابن إسحق . وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال . قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الجبرات جبب وأردية في جمال رجال بني الحارث ابن كعب قال : يقول من رأيهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « دعوهم » فصلوا إلى المشرق قال : فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو حارثة بن علقمة ، والعاقب عبد المسيح ، والسيد الأيهم وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم يقولون هو الله ويقولون هو ولد الله ، ويقولون هو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . وكذلك النصرانية فهم يحتجون في قولهم هو الله بأنه كان يحيى الموتى ويسرى الأكمه والأبرص والأسقام ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً ، وذلك كله بأمر الله . وليجعل الله آية للناس ، ويحتجون في قولهم بأنه ابن الله يقولون : لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله ، ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقته ولكنه هو وعيسى ومريم - تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً - وفي كل ذلك من قولهم : قد نزل القرآن ، فلما كله الخبران قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم « أسلمنا » قالوا قد أسلمنا قال « إنكما لم تسلمنا فأسلمنا » قالوا : بلى قد أسلمنا قبلك قال : « كذبتما بمنعكما من الإسلام ادعوا كما لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير » قالوا . فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما فأُنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وعشرين آية منها ثم تكلم ابن إسحق على تفسيرها إلى أن قال : فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاحظتهم إن ردوا ذلك عليه دعاهم إلى ذلك فقالوا يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ثم انصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب ، وكان ذا رأيهم فقالوا . يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال . والله يا معشر النصارى لقد عرقتم ان محمداً لنبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم . ولقد علمتم أنه مالا عن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وانه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فان كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والاقامة على ما أتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا النبي ﷺ فقالوا يا أبا القاسم قدرأنا ان لا نلاعنك وترتكك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا فانكم عندنا رضاء ، قال محمد بن جعفر : فقال رسول الله ﷺ « اثبتوني العشية

أبعث معهم القوي الأمين» فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما أحببت الامارة قط حتى إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها فرحت إلى الظهر مهجرا فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلم ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أنطا أوله ليرأى فلم يزل يلتمس بيصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال « اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه » قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة رضى الله عنه . وقد روى ابن مردويه عن طريق محمد بن إسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج : أن وفد أهل نجران قدموا على رسول الله ﷺ فذكر نحوه إلا أنه قال في الأشراف كانوا اثني عشر ، وذكر بقیته بأطول من هذا السياق وزيادات أخر :

وقال البخارى : حدثنا عباس بن الحسين حدثنا يحيى بن آدم عن إسرائيل عن أبي إسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة رضى الله عنه قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لانفاج نحن ولا عقبا من بعدنا قالا : إنا نعطيك ماسألنا وابعث معنا رجلا أمينا ولا تبعث معنا إلا أمينا فقال « لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين » فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « قم يا أبا عبيدة بن الجراح » فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا أمين هذه الأمة » رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث إسرائيل عن أبي إسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة بنحوه وقد رواه أحمد والنسائى وابن ماجه من حديث إسرائيل عن أبي إسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة بنحوه . وقال البخارى : حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن خالد عن أبي قلابة عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . وقال الإمام أحمد . حدثنا إسماعيل بن يزيد الرقى أبو يزيد حدثنا قرة عن عبد الكريم بن مالك الجزرى عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو جهل فبجه الله إن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأنتنه حتى أطأ على رقبته (١) قال : فقال « لوفعل لأخذته الملائكة عيانا ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الدين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا » وقد رواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم به ، وقال الترمذى : حسن صحيح

وقد روى البيهقى فى دلائل النبوة قصة وفد نجران مطولة جدا ، ولذكره فان فيه فوائد كثيرة وفيه غرابة وفيه مناسبة لهذا المقام قال البيهقى : حدثنا أبو عبد الله الحافظ أبو سعيد ومحمد بن موسى بن الفضل قالا حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير عن سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جده قال يونس - وكان نصرانيا فأسلم - إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سلمان « باسم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب . من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران أسلم (٢) فاني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب . أما بعد فاني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيت فالجزية ، فإن أبيت فقد آذنتكم بحرب والسلام » . فلما أتى الأسقف الكتاب وقرأه فظع به وذعره ذعرا شديدا وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة ، وكان من همدان ، ولم يكن أحد يدعى إذا نزلت معضلة قبله لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب فدفع الأسقف كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شرحبيل فقرأه فقال الأسقف : يا أبا مريم ما رأيك فقال شرحبيل : قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة فما يؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل ليس لي في أمر النبوة رأى ولو كان في أمر من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأى واجتهدت لك فقال الأسقف : تتح فاجلس فتتحنى شرحبيل فجلس ناحية فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له عبد الله بن شرحبيل وهو من ذى أصبح من حمير فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأى فيه فقال له مثل قول شرحبيل فقال له الأسقف . تتح فاجلس فتتحنى عبد الله فجلس ناحية فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له جبار بن فيض من بني الحارث بن كعب أحد بني الحسان فأقرأه

(١) فى نسخة الأزهر عنقه وهو لفظ البخارى (٢) فيها زيادة (أتم) وليس فيها بيان كالألمرية .

الكتاب وسأله عن الرأى فيه ؟ فقال له مثل قول شرحبيل وعبدالله فأمره الأسقف فتنحى فجلس ناحية فلما اجتمع الرأى منهم على تلك المقالة جميعا أمر الأسقف بالنافوس فضرب به ورفعت النيران والسوح في الصوامع ، وكذلك كانوا يفعلون إذا فرعوا بالنهار ، وإذا كان فرعهم ليلا ضربوا بالنافوس ورفعت النيران في الصوامع فاجتمعوا حين ضرب بالنافوس ورفعت المسوح أهل الوادى أعلاه وأسفله . وطول الوادى مسيرة يوم للراكب السريع ، وفيه ثلاث وسبعون قرية وعشرون ومائة ألف مقاتل فقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألهم عن الرأى فيه فاجتمع رأى أهل الرأى منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الحمداني وعبد الله بن شرحبيل الأصبحى وجبار بن فيض الحارثى فيأتونهم بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضوا ثياب السفر عنهم ولبسوا حللهم يحرقونها من حبرة وخواتيم الذهب ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ فسلموا عليه فلم يرد عليهم وتصدوا لكلامه نهارا طويلا فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب فانطلقوا يتبعون عثمان ابن عفان وعبد الرحمن بن عوف وكانا معرفة لهم فوجدوها في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس فقالوا يا عثمان ويا عبد الرحمن إن نبيكم كتب إلينا كتابا فأقبلنا محيين له فأثنياء فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا وتصدينا لكلامه نهارا طويلا فأعيانا أن يكلمنا فما الرأى منكما أترون أن نرجع ؟ فقالا لعل بن أبى طالب وهو في القوم : ماترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم ؟ فقال على لعثمان وعبد الرحمن : أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودون اليه ففعلوا فسلموا عليه فرد سلامهم ثم قال « والذى بعثى بالحق لقد أتونى المرة الأولى وإن إبليس لمعهم » ثم سألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسئلة حتى قالوا له : ماتقول في عيسى فإننا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يسرنا إن كنت نبيا أن نسمع ماتقول فيه ؟ فقال رسول الله ﷺ « ما عندى فيه شيء يومى هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقول لى ربى في عيسى » فأصبح الغد وقد أنزل الله هذه الآية (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم - إلى قوله - الكاذبين) فأبوا أن يقرؤا بذلك فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملا على الحسن والحسين في خميلة وفاطمة تمشى عند ظهره للملاعة وله يومئذ عدة نسوة فقال شرحبيل لصاحبيه : لقد علمنا أن الوادى إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأى وإنى والله أرى أمرائكم لا والله لئن كان هذا الرجل مبعوثا فكنا أول العرب طعنا في عينه وردا عليه أمره لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبنا بجائحة وإنا لأدنى العرب منهم جوارا ، ولئن كان هذا الرجل نبيا مرسلا فلاعناه لا يبق منا على وجه الأرض شعر ولا ظفر لإهلاكه ، فقال له صاحبه . فما الرأى يا أبا مريم ؟ فقال : أرى أن أحكمه فإنى أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا فقال له : أنت وذلك قال : فتلقى شرحبيل رسول الله ﷺ فقال له : إنى قد رايت خيرا من ملاعتك فقال « وما هو ؟ » فقال : حكمتك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح فهما حكمت فينا فهو جائز فقال رسول الله ﷺ « لعل وراءك أحدا يثرب عليك » ؟ فقال شرحبيل . سل صاحبي فسألهما فقالا : ما يرد الوادى ولا يصدر إلا عن رأى شرحبيل . فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم حتى إذا كان من الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب النبي محمد (١) رسول الله لنجران - إن كان عليهم حكمه - في كل ثمرة وكل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق فاضل عليهم وترك ذلك كله لهم على ألفى حلة ، في كل رجب ألف حلة وفي كل صفر ألف حلة » وذكر تمام الشروط وبقية السياق

والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع لأن الزهرى قال : كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح وهى قوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) الآية وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن داود السكى حدثنا بشر بن مهران حدثنا محمد بن دينار عن داود بن أبى هند عن الشعبي عن جابر قال : قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعة فواعداه على أن يلاعناه الغداة قال : فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدى وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى بعثى بالحق لو قالوا :

لا لأمر عليهم الوادى ناراً» قال جابر : وفيهم نزلت (ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) قال جابر (أنفسنا وأنفسكم) رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبي طالب (وأبناءنا) الحسن والحسين (ونساءنا) فاطمة وهكذا رواه الحاكم في مستدركه عن علي بن عيسى عن أحمد بن محمد الأزهرى عن علي بن حجر عن علي بن مسهر عن داود بن أبي هند به بمعناه ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه هكذا . قال : وقد رواه أبو داود الطيالسى عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مرسل ، وهذا أصح وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك ثم قال الله تعالى (إن هذا لهو القصص الحق) أى هذا الذى قصصناه عليك يا محمد فى شأن عيسى هو الحق الذى لا معدل عنه ولا محيد (وما من إله إلا الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم * فان تولوا) أى عن هذا إلى غيره (فإن الله عليم بالمفسدين) أى من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به وسيجزيه على ذلك شر الجزاء وهو القادر الذى لا يفوته شئ سبحانه وبحمده ونعوذ به من حلول نقمته

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة) والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا ثم وصفها بقوله (سواء بيننا وبينكم) أى عدل ونصف نستوى نحن وأتم فيها ثم فسرها بقوله (أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً) لا وثناً ولا صليبا ولا صنما ولا طاغوتا ولا ناراً ولا شيئاً بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له وهذه دعوة جميع الرسل قال الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا إن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ثم قال تعالى (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) وقال ابن جريج : يعنى يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله وقال عكرمة يسجد بعضنا لبعض (فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) أى فان تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة فاشهدوا أتم على استمراركم على الإسلام الذى شرعه الله لكم . وقد ذكرنا فى شرح البخارى عند روايته من طريق الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس عن أنس سفيان فى قصته حين دخل على قصر فسأله عن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن صفته ونعته وما يدعو إليه فأخبره بجميع ذلك على الجلية ، مع أن أنس سفيان إذ ذاك كان مشركا لم يسلم إلا بعد ، وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح كما هو مصرح به فى الحديث ، ولأنه لما سأله هل يغدر ؟ قال : قللت لا ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها قال ولم يمكنى كلمة أزيد فيها شيئا سوى هذه والغرض أنه قال ثم جئ بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فإنما عليك إثم الأريسيين و (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) » وقد ذكر محمد بن إسحق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت فى وفد نجران وقال الزهرى : هم أول من بذل الجزية ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح لما اجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل فى جملة الكتاب وبين ما ذكره محمد بن إسحق والزهرى ؟ والجواب من وجوه (أحدها) يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين مرة قبل الحديبية ومرة بعد الفتح (الثانى) يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل فى وفد نجران إلى هذه الآية وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك ويكون قول ابن إسحق إلى بضع وثمانين آية ليس بمحفوظ لدلالة حديث أنس سفيان (الثالث) يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية وأن الذى بذلوه مصالحة عنى اللباهة لا على وجه الجزية بل يكون من باب اللهانة والمصالحة ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك كما جاء فرض

الحس والأربعة أخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك (الرابع) يحتمل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمر بكتب هذا في كتابه إلى هرقل لم يكن أنزل بعدهم أنزل القرآن موافقة له صلى الله عليه وسلم كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب في الحجاب وفي الأسارى ، وفي عدم الصلاة على المنافقين ، وفي قوله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وفي قوله (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن) الآية

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حُجِّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنْ أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم كما قال محمد بن إسحق بن يسار حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت حدثني سعيد بن جبيرة أو عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال : اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا عنده فقالت الأخبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانيا فأنزل الله تعالى (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم) الآية أى كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهوديا وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى ، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانيا وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ، ولهذا قال تعالى (أفلا تعقلون) ثم قال تعالى (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) الآية . هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به فان اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم لكان أولى بهم وإنما تكلموا فيما لا يعلمون ، فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها ، ولهذا قال تعالى (والله يعلم وأتم لا تعلمون) ثم قال تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما) أى متحنفا عن الشرك قاصدا إلى الإيمان (وما كان من المشركين) وهذه الآية كالتى تقدمت في سورة البقرة (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) الآية . ثم قال تعالى (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) يقول تعالى . أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه وهذا النبي يعنى محمداً ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم . قال سعيد بن منصور حدثنا أبو الأحوص عن سعيد بن مسروق عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لكل نبى ولاية من النبيين ، وإن ولي منهم أبى وخليل ربى عز وجل » ثم قرأ (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه) الآية ، وقد رواه الترمذى والبخارى من حديث أبى أحمد الزبيرى عن سفيان الثورى عن أبيه به ، ثم قال البخارى : ورواه غير أبى أحمد عن سفيان عن أبيه عن أبى الضحى عن عبد الله ولم يذكر مسروقا وكذا رواه الترمذى من طريق وكيع عن سفيان ثم قال : وهذا أصح ، لكن رواه وكيع في تفسيره فقال : حدثنا سفيان عن أبيه عن أبى إسحاق عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لكل نبى ولاية من النبيين وإن ولي منهم أبى وخليل ربى عز وجل إبراهيم عليه السلام » ثم قرأ (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه) وهذا النبي والذين آمنوا) الآية ، وقوله (والله ولي المؤمنين) أى على جميع المؤمنين برسله

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَدْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا أَعْيُنَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّا الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيتهم إياهم الاضلال وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم محكور بهم ، ثم قال تعالى منكرا عليهم (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون) أى تعلمون صدقها وتحققون حقها (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) أى تكتمون ما فى كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتحققونه (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره) الآية هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب فى دين المسلمين ولهذا قالوا (لعلمهم يرجعون) وقال ابن أبى نجيح . عن مجاهد فى قوله تعالى إخباراً عن اليهود بهذه الآية يعنى يهودا صلت مع النبي ﷺ صلاة الصبح وكفروا آخر النهار مكرا منهم ليروا الناس أن قد بدت لهم الضلالة منه بعد أن كانوا اتبعوه . وقال العوفى عن ابن عباس : قالت طائفة من أهل الكتاب إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فأمنوا وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلمهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا ، وهكذا روى عن قتادة والسدى والريبع وأبى مالك وقوله تعالى (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) أى لا تطمئنوا أو تظهروا سركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم . قال الله تعالى (قل إن الهدى هدى الله) أى هو الذى يهدى قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات وإن كنتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمى فى كتبكم التى تلمتموها عن الأنبياء الأقدمين وقوله (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عندكم) يقولون لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم ويساوونكم فيه ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به أو يحاجوكم به عند ربكم أى يتخذوه حجة عليكم بما فى أيديكم فتقوم به عليكم الدلالة وترتكب الحجة فى الدنيا والآخرة قال الله تعالى (قل إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء) أى الأمور كلها تحت تصرفه وهو المعطى المانع بمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التام ، ويضل من يشاء فيعمى بصره وبصيرته ويختم على قلبه وسمعه ويجعل على بصره عشاوة وله الحجة التامة والحكمة البالغة (والله واسع عليم * يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أى اخصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يحصى ولا يوصف بما شرف به نبيكم محمد ﷺ على سائر الأنبياء وهذاكم به إلى أكل الشرائع

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنُ إِن تَأْمَنهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنُ إِن تَأْمَنهُ بِيَدٍ فَإِذَا لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ * بَلَىٰ مَنْ

أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١﴾

يحبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة ويحذر المؤمنين من الاغتراب بهم فان منهم (من إن تأمنه بقنطار) أى من المال (يؤده إليك) أى وما دونه بطريق الأولى أن يؤده^(١) إليك) ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً) أى بالمطالبة والملازمة والالحاح فى استخلاص حقاك وإذا كان هذا صنيعه فى الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤديه إليك . وقد تقدم الكلام على القنطار فى أول السورة ، وأما الدينار فمعروف . وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا سعيد بن عمرو السكوتى حدثنا بقة عن زياد بن الهيثم حدثنى مالك بن دينار قال : إنما سعى الدينار لأنه دين ونار . وقيل معناه من أخذه بحقه فهو دينه ومن أخذه بغير حقه فله النار . ومناسب أن يذكر ههنا الحديث الذى علقه البخارى فى غير موضع من صحيحه ، ومن أحسنها سياقه فى كتاب الكفالة حيث قال : وقال الليث حدثنى جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم فقال كفى بالله شهيدا قال : ائتنى بالكفيل قال : كفى بالله كفيلا قال : صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يركبها ليقدم عليه فى الأجل الذى أجله فلم يجد مركبا فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها ثم أتى بها إلى البحر فقال اللهم إنك تعلم أنى استسلفت فلانا ألف دينار فسألنى شهيدا فقلت كفى بالله شهيدا وسألنى كفيلا فقلت كفى بالله كفيلا فرضى بك وإنى جهدت أن أجسد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أقدر وإنى استودعتكها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو فى ذلك يلتبس مركبا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه لينظر لعل مركبا يجيئه بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهلها خطأ فلما كسرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الرجل الذى كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال : والله ما زلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى أتيت فيه قال : هل كنت بعثت إلى بشيء ؟ قال : ألم أخبرك أنى لم أجِد مركبا قبل هذا قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة فانصرف بألف دينار راشداً ، هكذا رواه البخارى فى موضع معلقاً بصيغة الجزم ، وأسنده فى بعض المواضع من الصحيح عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه . ورواه الإمام أحمد فى مسنده هكذا مطولاً عن يونس بن محمد اللؤب عن الليث به ، ورواه البزار فى مسنده عن الحسن بن مدرك عن يحيى بن حماد عن أبى عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه ، ثم قال : لا يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد ، كذا قال وهو خطأ لما تقدم . وقوله (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل) أى إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا فى ديننا حرج فى أكل أموال الأميين وهم العرب فإن الله قد أحلها لنا قال الله تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) أى وقد اختلقوا هذه المقالة ، واثقفوها بهذه الضلالة ، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بهت . قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أبى إسحق الحمداى عن أبى صعبة بن يزيد أن رجلا سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : تقول ليس علينا بذلك بأس قال هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا فى الأميين سبيل ، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم ، وكذا رواه الثورى عن أبى إسحق بنحوه وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن يحيى حدثنا أبو الربيع الزهرانى حدثنا يعقوب حدثنا جعفر عن سعيد بن جبير قال لما قال أهل الكتاب ليس علينا فى الأميين سبيل قال نبى الله صلى الله عليه وسلم « كذب أعداء الله ما من شيء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى هاتين إلا الأمانة فانها مؤداة إلى البر والفاجر » ثم قال تعالى (بلى من أوفى بعهد و اتقى) أى لكن من أوفى بعهد و اتقى منك يا أهل الكتاب الذى عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم إذا بعث كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأتمهم بذلك و اتقى محارم الله و اتبع طاعته وشريعته التى بعث بها خاتم رسله وسيدهم (فإن الله يحب المتقين)

(١) كذا فى النسختين والوجه أن يؤديه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى ان الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ وذكر صفته للناس وبيان أمره وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالآثمان القليلة الزهيدة وهي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة (أولئك لا خلاق لهم في الآخرة) أى لا نصيب لهم فيها ولا حظ لهم منها (ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة) أى برحمة منه لهم يعنى لا يكلمهم الله كلام لطف بهم ولا ينظر إليهم بعين الرحمة (ولا يزكّيهم) أى من الذنوب والأدناس بل يأمر بهم إلى النار (ولهم عذاب أليم) . وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر .

(الحديث الأول) قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا شعبة قال على بن مدرك أخبرني قال : سمعت أبا زرعة عن خرشة بن الحر عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم » قلت يا رسول الله . من هم ؟ خسروا وخابوا قال . وأعاد رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال « للسبل ، والمنفق سلعة بالحلف الكاذب ، والنان » ورواه مسلم وأهل السنن من حديث شعبة به (طريق أخرى) قال أحمد : حدثنا إسماعيل عن الجريري عن أبي العلاء بن الشخير عن أبي الأحسن قال : لقيت أباذر فقلت له بلغني عنك أنك تحدث حديثا عن رسول الله ﷺ قال أما إنه لا يخالني أن أكذب على رسول الله ﷺ بعدما سمعته منه فما الذى بلغك عنى ؟ قلت بلغني أنك تقول : ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يشنؤهم الله ، قال : قلته وسمعتك قلت فمن هؤلاء الذين يحبهم الله ؟ قال « الرجل يلتقى العدو في فتنة فينصب لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه ، والقوم يسافرون فيطول سرائهم حتى يحبوا أن يمسا الأرض فينزلون فيتنحى أحدهم فيصلى حتى يوقفهم لرحيلهم ، والرجل يكون له الجار يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن » قلت : ومن هؤلاء الذين يشنؤهم الله ؟ قال « التاجر الخلاف - أو قال البائع الخلاف - والفقر المحتال والبخل النان » غريب من هذا الوجه

(الحديث الثانى) قال الإمام أحمد . حدثنا يحيى بن سعيد عن جرير بن حازم حدثنا عدى بن عدى أخبرني رجاء ابن حيوة والعرس بن عميرة عن أبيه عدى هو ابن عميرة الكندى قال خاصم رجل من كندة يقال له امرؤ القيس ابن عامر رجلا من حضرموت إلى رسول الله ﷺ فى أرض قفضى على الحضرمى بالبينة فلم يكن له بينة فقاضى على امرئ القيس بالبين فقال الحضرمى : أمكنته من البين يا رسول الله ؟ ذهبت ورب الكعبة أرضى ، فقال النبي ﷺ « من حلف على بين كاذبة ليقطع بها مال أحد لى الله عز وجل وهو عليه غضبان » قال رجاء وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) فقال امرؤ القيس : ماذا لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال « الجنة » قال : فاشهد أنى قد تركتها له كلها ، ورواه النسائي من حديث عدى بن عدى به

(الحديث الثالث) قال أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « من حلف على بين هو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لى الله عز وجل وهو عليه غضبان » فقال الأشعث : فى والله كان ذلك ، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فوجدنى أرضى فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لى رسول الله ﷺ « ألك بينة » ؟ قلت : لا فقال اليهودى احلف . فقلت يا رسول الله إذا يحلف فيذهب مالى فأنزل الله عز وجل (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) الآية ، أخرجاه من حديث الأعمش (طريق أخرى) قال أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبى النجود عن شقيق بن سلمة حدثنا عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لى الله وهو عليه غضبان » قال فجاء الأشعث ابن قيس فقال : ما يحدثكم أبو عبد الرحمن ؟ فحدثناه فقال : كان فى هذا الحديث خاصمت ابن عملى إلى رسول الله ﷺ فى بئر كانت لى فى يده فوجدنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينتك أنها بئر ولا يمينه » قال :

قلت يا رسول الله مالي بينة ، وإن تجعلها يمينه تذهب برى إن خصمى امرؤ فاجر فقال رسول الله ﷺ « من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان » قال : وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا)

(الحديث الرابع) قال أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان قال حدثنا رشيد بن زياد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال « إن الله تعالى عابدا لا يكلمهم يوم القيامة ولا يزيكهم ولا ينظر إليهم » قيل ومن أولئك يا رسول الله ؟ قال « متبرئ من والديه راغب عنهما ومتبرئ من ولده ، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم »

(الحديث الخامس) قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا هشيم أنبأنا العوام يعني ابن حوشب عن إبراهيم ابن عبد الرحمن يعني السكسكى عن عبد الله بن أبي أوفى أن رجلا أقام سلعة له في السوق فحلف بالله لقد أعطى بها مالم يعطه ليقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت هذه الآية (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) الآية ورواه البخارى من غير وجه عن العوام

(الحديث السادس) قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم ، رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده ، ورجل حلف على سلعة بعد العصر يعني كاذبا ، ورجل بايع إماما فإن أعطاه وفى له وإن لم يعطه لم يفله » ورواه أبو داود والترمذى من حديث وكيع وقال الترمذى : حديث حسن صحيح

﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

يغير تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله أن منهم فريقا يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به ليوهوا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله ، ولهذا قال الله تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) وقال مجاهد والشعبي والحسن وقتادة والريبع بن أنس : (يلوون ألسنتهم بالكتاب) يحرفونه ، وهكذا روى البخارى عن ابن عباس أنهم يحرفون ويزيلون وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله لكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله وقال وهب بن منبه : إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله تعالى لم يغير منهما حرف ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول رواه ابن أبي حاتم ، فإن عني وهب ما بأيديهم من ذلك فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص . وأما تعريب ذلك للشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير وزيادات كثيرة ونقصان ووهم فاحش ، وهو من باب تفسير العرب للعبر (١) وقهم كثير منهم بل أكثرهم بل جميعهم فاسد وأما إن عني كتب الله التي هي كتبه من عنده فذلك كما قال محفظة لم يدخلها شيء

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

قال محمد بن إسحق حدثنا محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأخبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس : أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعوننا ؟ أو كما قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله ^(١) ما بذلك بعثي ولا بذلك أمرني » أو كما قال صلى الله عليه وسلم فأنزل الله في ذلك من قولها (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة - إلى قوله - بعد إذ أتم مسلمون) فقوله (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله) أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة أن يقول للناس اعبدوني من دون الله أي مع الله ، فإذا كان هذا لا يصلح لني ولا لمرسل ، فلا أن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى ، ولهذا قال الحسن البصري : لا ينبغي هذا للمؤمن أن يأمر الناس بعبادته قال وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً يعني أهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم كما قال الله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) الآية . وفي المسند والترمذي كما سيأتي أن عدى بن حاتم قال : يا رسول الله ما عبدوهم قال « بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » فالجبهة من الأخبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الدم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين فانهم إنما يأمرهم بما يأمر الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام . وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام . فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حمّله من الرسالة وإبلاغ الأمانة فقاموا بذلك أتم القيام ونصحوا الخلق ، وبلغوهم الحق ، وقوله (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أي ولكن يقول الرسول للناس كونوا ربانيين قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد أي حكماء علماء حلماء ، وقال الحسن وغير واحد قهّاء ، وكذا روى عن ابن عباس وسعيد بن جبيرة وقتادة وعطاء الخراساني وعطية العوفي والريعي بن أنس . وعن الحسن أيضاً يعني أهل عبادة وأهل تقوى . وقال الضحاك في قوله (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) حق على من تعلم القرآن أن يكون قفياً تعلمون أي تفهمون معناه وقرئ تعلمون بالتشديد من التعليم (وبما كنتم تدرسون) تحفظون ألفاظه ثم قال الله تعالى (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) أي ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله لا نبي مرسل ولا ملك مقرب (أي يأمركم بالكفر بعد إذ أتم مسلمون) أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله ، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر ، والأنبياء إنما يأمرهم بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطواغوت) الآية ، وقال (وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الله آلهة يعبدون) وقال إخباراً عن الملائكة (ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين)

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضُكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بضمه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ ثم جاء رسول من بعده ليؤمن به ولينصره ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته ولهذا قال تعالى وتهدس (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة) أي لمهما

(١) في نسخة الأزهر غيره

أعطيتكم من كتاب وحكمة (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري) وقال ابن عباس ومجاهد والريبع بن أنس وقتادة والسدي: يعني عهدي. وقال محمد بن إسحق (إصري) أي ثقل ما حملتم من عهدي أي ميثاق الشديد المؤكد (قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك) أي عن هذا العهد والميثاق (فأولئك هم الفاسقون). قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولنصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولنصرنه. وقال طاوس والحسن البصري وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه. ولهذا روى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه مثل قول علي وابن عباس. وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا سفيان عن جابر عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت قال جاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني أمرت بأخ لي يهودي (١) من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عبد الله ابن ثابت قلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسلاً قال: فسرني عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتهم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»

(حديث آخر) قال الحافظ أبو يعلى (٢) حدثنا إسحاق حدثنا حماد عن مجاهد عن الشعبي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني» وفي بعض الأحاديث «لو كان موسى وعيسى حين لما وسعهما إلا اتباعي» فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين هو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا بيت المقدس وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب جل جلاله لفصل القضاء بين عباده وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والرسل حتى تنتهي النبوة إليه فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ * قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذي له أسلم من في السموات والأرض أي استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً كما قال تعالى (ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً) الآية وقال تعالى (أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون) * ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) فالؤمن مستسلم قلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فانه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع. وقد ورد حديث في تفسير هذه الآية على معنى آخر فيه غرابة فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن النضر العسكري حدثنا سعيد بن حفص النفيلي حدثنا محمد بن محسن العكاشي حدثنا الأوزاعي عن عطاء بن أبي رباح عن النبي صلى الله عليه وسلم «وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً

(١) وفي نسخة الأزهر مررت بأخ لي من قريظة (٢) وفيها أبو بكر يعني البزار فيراجعان.

وكرها) «أما من في السموات فالملائكة، وأما من في الأرض فمن ولد على الإسلام. وأما كرهاً فمن أتى به من سبأيا الأمم في السلاسل والأغلال، يقادون إلى الجنة وهم كارهون» وقد ورد في الصحيح «عجبر بك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل» وسأيت له شاهد من وجه آخر، ولكن المعنى الأول للآية أقوى. وقد قال وكيع في تفسيره حدثنا سفيان عن منصور عن مجاهد (وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرهاً) قال: هو كقوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وقال أيضاً: حدثنا سفيان عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس (وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرهاً) قال حين أخذ الميثاق (وإليه يرجعون) أي يوم المعاد فيجازى كلا بعمله. ثم قال تعالى (قل آمنا بالله وما أنزل علينا) يعني القرآن (وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب) أي من الصحف والوحي (والأسباط) وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - وهو يعقوب - الاثنى عشر (وما أوتى موسى وعيسى) يعني بذلك التوراة والإنجيل (والنبيون من ربهم) وهذا يعم جميع الأنبياء جملة لا نفرق بين أحد منهم) يعني بل تؤمن بجميعهم (ونحن له مسلمون) فالؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل لا يكفرون بشيء من ذلك بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله.

ثم قال تعالى (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) الآية أي من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه (وهو في الآخرة من الخاسرين) كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا عباد بن راشد حدثنا الحسن حدثنا أبو هريرة إذا ذلك ونحن بالمدينة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تجىء الأعمال يوم القيامة فتجىء الصلاة فتقول يا رب أنا الصلاة فيقول إنك على خير، وتجىء الصدقة فتقول يا رب أنا الصدقة فيقول إنك على خير، ثم تجىء الصيام فيقول يا رب أنا الصيام فيقول إنك على خير، ثم تجىء الأعمال، كل ذلك يقول الله تعالى إنك على خير، ثم تجىء الإسلام فيقول يا رب أنت السلام وأنا الإسلام فيقول الله تعالى إنك على خير بك اليوم آخذوك أعطي. قال الله في كتابه (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)» تفرد به أحمد قال أبو عبد الرحمن عبد الله ابن الإمام أحمد: عباد بن راشد ثقة ولكن الحسن لم يسمع من أبي هريرة.

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع البصري حدثنا يزيد بن زريع حدثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله هل لي من توبة؟ فنزلت (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين) أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع البصري حدثنا يزيد بن زريع حدثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله هل لي من توبة؟ فنزلت (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم - إلى قوله - فإن الله غفور رحيم) فأرسل إليه قومه فأسلم، وهكذا رواه النسائي والحاكم وابن حبان من طريق داود بن أبي هند به. وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال عبد الرزاق أنبأنا جعفر بن سليمان حدثنا حميد الأعرج عن مجاهد قال: جاء الحارث ابن سويد فأسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه (١) (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم - إلى قوله - غفور رحيم) قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأ عليه فقال الحارث: إنك - والله ما علمت - لصدوق وإن رسول الله لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة قال: فرجع الحارث فأسلم فحس إسلامه فقوله تعالى (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات) أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضع لهم الأمر ثم ارتدوا إلى

ظلمة الشرك ، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية ولهذا قال تعالى (والله لا يهدي القوم الظالمين) ثم قال تعالى (أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) أى يلعنهم الله ويلعنهم خلقه (خالدين فيها) أى فى اللعنة (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) أى لا يفتقر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة ثم قال تعالى (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعافته على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ نُّقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾

يقول تعالى متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفراً أى استمر عليه إلى المات وخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند المات كما قال تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت) الآية ولهذا قال ههنا (لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) أى الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق النقي قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الله بن زريع حدثنا يزيد بن زريع حدثنا داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس أن قوما أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم) هكذا رواه وإسناده جيد ، ثم قال تعالى (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) أى من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قرابة كما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن جدعان وكان يقرى الضيف ويفك العاني ويطعم الطعام : هل ينفعه ذلك ؟ فقال « لا إنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه كما قال تعالى (ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) وقال (لا بيع فيه ولا خلاق) وقال (إن الذين كفروا لو أن لهم مافى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) ولهذا قال تعالى ههنا (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) فعطف ولو افتدى به على الأول فدل على أنه غيره ، وما ذكرناه أحسن من أن يقال إن الواو زائدة والله أعلم ويقضى ذلك أن لا يقبذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها . وقال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثني شعبة عن أبى عمران الجوني عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفقدياً به قال : فيقول نعم ، فيقول الله قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر أهلك آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك » وهكذا أخرجه البخارى ومسلم (طريق أخرى) وقال الإمام أحمد . حدثنا روح حدثنا حماد عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له يا ابن آدم كيف وجدت منزلتك فيقول أى رب خير منزل ، فيقول : سل وتمن ، فيقول : ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرار ، لما يرى من فضل الشهادة . ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له يا ابن آدم كيف وجدت منزلتك فيقول : يا رب شر منزل فيقول له أفقتدى منى بطلاع الأرض ذهباً فيقول أى رب نعم فيقول : كذبت قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فيرد إلى النار » ولهذا قال (أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) أى وما لهم من أحد يقبذه من عذاب الله ولا يحيرهم من أليم عقابه

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

روى وكيع في تفسيره عن شريك عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون (لن تنالوا البر) قال : الجنة . وقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا مالك عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة سمع أنس بن مالك يقول : كان أبو طلحة أكثر الأنصار (١) بالمدينة مالا ، وكان أحب أمواله إليه يرحاء ، وكانت مستقبله المسجد وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس : فلما نزلت (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قال أبو طلحة : يا رسول الله إن الله يقول (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وإن أحب أموالي إلي يرحاء وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخراها عند الله تعالى فضعا يا رسول الله حيث أراك الله فقال النبي ﷺ « نَحْ نَحْ ذَاكَ مَالٌ رَاغِبٌ ، وقد سمعت وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين » فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله فقسّمها أبو طلحة في أقاربه وبنى عمه ، أخرجه (٢) وفي الصحيحين أن عمر قال : يا رسول الله لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخير فما تأمرني به ؟ قال « حبس الأصل وسبل الثمرة » وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أبو الخطاب زياد بن يحيى الحساني حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن عمرو عن أبي عمرو بن حماس عن حمزة بن عبد الله بن عمر قال : قال عبد الله حضرتي هذه الآية (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فذكرت ما أعطاني الله فلم أجدها أحب إلي من جارية لي رومية فقلت : هي حرة لوجه الله فلواتي أعود في شيء جعلته لله لنسكتها يعني تزوجتها

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا عبد الحميد حدثنا شهر قال : قال ابن عباس حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمن إلا نبي : قال « سلوني عما شئتم ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئا فعرفتموه لتتابعن على الاسلام » قالوا فذلك لك قالوا : أخبرنا عن أربع خلال ، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الله كرم منه والأثني وأخبرنا بهذا النبي الأُمِّي في النوم ومن وليه من الملائكة ؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه فقال « أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضا شديدا وطال سقمه فنذر الله نذرا لئن شفاه الله من سقمه لحرمن أحب الطعام والشراب إليه وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها » فقالوا : اللهم نعم فقال « اللهم اشهد عليهم » وقال « أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكرا بإذن الله ، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله » قالوا : نعم قال « اللهم اشهد عليهم » قال « وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأُمِّي تمام عيناه ولا ينم قلبه » قالوا : اللهم نعم قال « اللهم اشهد » قال « وإن ولي جبريل ولم يبعث الله نبيًا قط إلا وهو وليه » قالوا : فعند ذلك تفارقك ولو كان وليك غيره لتابعناك ، فعند ذلك قال الله تعالى (قل من كان عدوا لجبريل) الآية ورواه أحمد أيضا عن حسين بن محمد عن عبد الحميد به (طريق أخرى) قال أحمد حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا عبد الله بن الوليد العجلي عن بكير بن شهاب عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء فإن أبتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال (والله على ما نقول وكيل) قال

« هاتوا » قالوا أخبرنا عن علامة النبي ؟ « قال تنام عيناه ولا ينام قلبه » قالوا أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر . قال « يلتقي الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت ، وإذا علا ماء المرأة أنثت » قالوا أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال « كان يشتكى عرق النساء فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا وكذا - قال أحمد قال بعضهم يعنى الإبل - فحرم لحومها » قالوا صدقت قالوا أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال « ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيده - أو في يديه - مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله عز وجل » قالوا فما هذا الصوت الذى يسمع ؟ قال « صوته » قالوا صدقت إنما بقيت واحدة وهى التى تتابعك إن أخبرتنا بها إنه . ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك قال « جبريل عليه السلام » قالوا جبريل ذاك ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان ، فأنزل الله تعالى (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) والآية بعدها وقد رواه الترمذى والنسائى من حديث عبد الله بن الوليد العجلي به نحوه ، وقال الترمذى حسن غريب : وقال ابن جرير والعوفى عن ابن عباس . كان إسرائيل عليه السلام - وهو يعقوب - يعتريه عرق النساء بالليل ، وكان يقلقه ويزعجه عن النوم ويقطع الوجع عنه بالنهار فندرت له لئلا يفاه الله لا يأكل عرقاً ولا يأكل ولد ماله عرق ، وهكذا قال الضحاك والسدى كذا ورواه حكا ابن جرير في تفسيره قال . فاتبعه بنوه في تحريم ذلك استئنا به وافتداء بطريقه قال : وقوله (من قبل أن تنزل التوراة) أى حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قلت : ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان (إحداهما) أن إسرائيل عليه السلام حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله وكان هذا سائغاً في شريعتهم فله مناسبة بعد قوله (لن تتألوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فهذا هو المشروع عندنا وهو الانفاق في طاعة الله بما يحبه العبد ويشتهي كما قال تعالى (وآتى المال على حبه) وقال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه) الآية (المناسبة الثانية) لما تقدم بيان (١) الرد على النصارى واعتقادهم الباطل في المسيح وتبيين زيف ما ذهبوا إليه ، وظهور الحق واليقين في عيسى وأمه كيف خلقه الله بقدرته ومشيته وبعثه إلى نبي إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تبارك وتعالى ، شرع في الرد على اليهود قبحهم الله تعالى ، وبيان أن النسخ الذى أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع ، فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة أن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم (٢) الإبل وألبانها فاتبعه بنوه في ذلك ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، وأشياء أخرى زيادة على ذلك ، وكان الله عز وجل قد أذن لآدم في تزويج بناته من بني ، وقد حرم ذلك بعد ذلك ، وكان التسرى على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم عليه السلام ، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة ، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم ، وكذلك كان الجمع بين الأخنتين سائغاً ، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأخنتين ، ثم حرم عليهم ذلك في التوراة ، وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم ، وهذا هو النسخ بعينه فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام في إحلاله بعض ما حرم في التوراة فما بالهم لم يتبعوه بل كذبوه وخالفوه ؟ وكذلك ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، وملة أبيه إبراهيم ، فما بالهم لا يؤمنون ؟ ولهذا قال تعالى (كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) أى كان حلالاً لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل ثم قال تعالى (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) فإنها ناطقة بما قلناه (فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون) أى فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائماً ، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين والحجج بعد هذا الذى بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا (فأولئك هم الظالمون) ثم قال تعالى (قل صدق الله) أى قل يا أحمد صدق الله فيما أخبر به وفيما شرعه في القرآن (فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) أى اتبعوا ملة إبراهيم التى شرعها الله في القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فإنه الحق الذى لا شك فيه ولا مرية وهى الطريقة التى لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم كما قال تعالى (قل إننى هدى إلى صراط

(١) فى نسخة الأزهر السياق فى . (٢) وفيها لحمان .

مستقيم * دينا قبا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين (وقال تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)

﴿ إِن أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ أُسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده (للذي ببكة) يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يزعم كل من طائفتي النصراني واليهود أنهم على دينه ومنهجه ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله في ذلك ونادى الناس إلى حجه ولهذا قال تعالى (مباركا) أي وضع مباركا (وهدى للعالمين) وقد قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال « المسجد الحرام » قلت . ثم أي ؟ قال « المسجد الأقصى » قلت كم بينهما ؟ قال « أربعون سنة » قلت . ثم أي قال « ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد » وأخرجه البخاري ومسلم من حديث الأعمش به . وقال ابن أبي حاتم . حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا سعيد بن سليمان عن شريك عن مجاهد^(١) عن الشعبي عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا) قال كانت البيوت قبله ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله . وحدثنا أبي حدثنا الحسن ابن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن سماك عن خالد بن عرعة قال : قام رجل إلى علي رضي الله عنه فقال : ألا تحدثني عن البيت أهو أول بيت وضع في الأرض ؟ قال : لا ولكنه^(٢) أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ، وذكر تمام الخبر في كيفية بناء إبراهيم البيت ، وقد ذكرنا ذلك مستقصى في أول سورة البقرة فأغنى عن إعادته هنا . وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقا ، والصحيح قول علي رضي الله عنه . فأما الحديث الذي رواه البيهقي في بناء الكعبة في كتابه دلائل النبوة من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عبد الله ابن عمرو بن العاص مرفوعا « بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فأمرهما ببناء الكعبة فبناه آدم ثم أمر بالطواف به وقيل له . أنت أول الناس وهذا أول بيت وضع للناس » فانه كما ترى من مفردات ابن لهيعة وهو ضعيف . والأشبه والله أعلم أن يكون هذا موقوفا على عبد الله بن عمرو ، ويكون من الزامتين اللتين أصابهما يوم اليرموك من كلام أهل الكتاب

وقوله تعالى (للذي ببكة) بكة من أسماء مكة على المشهور قيل سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبارة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها وقيل : لأن الناس يتباكرون فيها أي يزدحمون . قال قتادة . إن الله بك به الناس جميعا فيصلى النساء أمام الرجال ولا يفعل ذلك ببلد غيرها وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعمرو بن شعيب ومقاتل بن حيان . وذكر حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه قال . مكة من الفج إلى التنعيم ، وبكة من البيت إلى البطحاء وقال شعبة عن المغيرة عن إبراهيم : بكة البيت والمسجد وكذا قال الزهري . وقال عكرمة في رواية وميمون بن مهران : البيت وما حوله بكة ، وما وراء ذلك مكة . وقال أبو مالك وأبو صالح وإبراهيم النخعي وعطية العوفي ومقاتل بن حيان بكة موضع البيت وما سوى ذلك مكة وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة ، مكة ، وبكة ، والبيت العتيق والبيت الحرام ، والبلد الأمين ، والمأمون ، وأم رحم^(٣) ، وأم القرى ، وصلاح ، والعرش على وزن بدر ، والقادس لأنها تطهر من الذنوب ؛ والقنصة ، والناسة بالنون وبالباء أيضا والباسة والحاطمة ، والرأس ، وكوناء والبلدة ، والبنية ، والكعبة

وقوله تعالى (فيه آيات بينات) أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم ، وأن الله عظمه وشرفه ثم قال تعالى

(مقام إبراهيم) يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل ، وقد كان ملتصقا بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف . لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقد قدمنا الأحاديث في ذلك فأغنى عن إعادته ههنا والله الحمد والمنة وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (فيه آيات بينات مقام إبراهيم) أى فمنهم مقام إبراهيم والمشاعر . وقال مجاهد أثر قدميه في المقام آية بينة ، وكذا روى عن عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان وغيرهم . وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد وعمرو الأودى قالا : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى (مقام إبراهيم) قال : الحرم كله مقام إبراهيم ، ولفظ عمرو : الحجر كله مقام إبراهيم ، وروى عن سعيد بن جبير أنه قال : الحج مقام إبراهيم . هكذا رأيته في النسخة ولعله الحجر كله مقام إبراهيم . وقد صرح بذلك مجاهد وقوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء ، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية كما قال الحسن البصري وغيره : كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يهينجه حتى يخرج . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو يحيى التميمي عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) قال : من عاذ بالبيت أعاده البيت ، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى فإذا خرج أخذ بذنبه : وقال الله تعالى (أو لم يروا أننا جعلنا حراما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) الآية . وقال تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيذه عن أوكاره ، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها ، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعا وموقوفا . ففي الصحيحين واللفظ لمسلم عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة « لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا » وقال يوم فتح مكة « إن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكة ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يحتل خيلاها » فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فانه لقينهم وليوتهم فقال « إلا الإذخر » ولها عن أبي هريرة مثله أو نحوه ولها واللفظ لمسلم أيضا عن أبي شريح العدوي أنه قال : لعمر بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة أئذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال « إن مكة حرمة الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما . أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقولوا له إن الله أذن لنيبه ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب » فقيل لأبي شريح ما قال لك عمرو ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيد عاصيا ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة وعن جابر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة » رواه مسلم . وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بالحزورة^(١) بسوق مكة يقول « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » رواه الإمام أحمد وهذا لفظه والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن صحيح ، وكذا صح من حديث ابن عباس نحوه . وروى أحمد عن أبي هريرة نحوه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا بشر بن آدم ابن بنت أزهري السمان حدثنا بشر بن عاصم عن زريق بن مسلم الأعمى مولى بني مخزوم حدثني زياد بن أبي عياش عن يحيى بن جعدة بن هيرة في قوله تعالى (ومن دخله كان آمنا)

قال : آمنا من النار . وفي معنى هذا القول الحديث الذي رواه البيهقي . أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان حدثنا أحمد بن عبيد حدثنا محمد بن سليمان بن الواسطي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا ابن المؤمل عن ابن محيصن عن عطاء عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من دخل البيت دخل في حسنة وخرج من سيئة وخرج مغفورا له » ثم قال : تفرد به عبد الله بن المؤمل وليس بالقوى . وقوله (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) هذه آية وجوب الحج عند الجمهور . وقيل بل هي قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) والأول أظهر . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الاسلام ودعاؤه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضروريا وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والاجماع . قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا يزيد بن هرون حدثنا الربيع ابن مسلم القرشي عن محمد بن زياد عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا » فقال رجل أكل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله ﷺ « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم » ثم قال « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكرة سؤلهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » ورواه مسلم عن زهير ابن حرب عن يزيد بن هرون به نحوه . وقدرى سفيان بن حسين وسليمان بن كثير وعبد الجليل بن حميد ومحمد بن أبي حفصة عن الزهري عن أبي سنان الدؤلى واسمه يزيد بن أمية عن ابن عباس رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال « يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج » فقام الأقرع بن حابس فقال : يارسول الله أفى كل عام ؟ فقال « لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم تعملوا بها ولن^(١) تستطيعوا أن تعملوا بها ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع » رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه ، والحاكم من حديث الزهري به ، ورواه شريك عن سمالك عن عكرمة عن ابن عباس بنحوه . وروى من حديث أسامة بن زيد

وقال الإمام أحمد : حدثنا منصور بن وردان عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن أبيه عن البخترى عن علي رضى الله عنه قال : لما نزلت (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) قالوا يارسول الله في كل عام فسكت قالوا يارسول الله في كل عام ؟ قال « لا ولو قلت نعم لوجبت » فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) وكذا رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث منصور بن وردان به ثم قال الترمذي حسن غريب ، وفيما قال نظر لأن البخارى قال : لم يسمع أبو البخترى من علي . وقال ابن ماجه : حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا محمد بن أبي عبيدة عن أبيه عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك قال : قالوا يارسول الله الحج في كل عام ؟ قال « لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لم تقوموا بها ولولم تقوموا بها لتعذبتم » . وفي الصحيحين من حديث ابن جريج عن عطاء عن جابر عن سراقه بن مالك قال : يارسول الله متعتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد ؟ قال « لا . بل للأبد » وفي رواية « بل للأبد الأبد »

وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود من حديث واقد بن أبي واقد الليثي عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسائه في حجه هذه « ثم ظهور الحصر - يعنى ثم الزمن ظهور الحصر - ولا تخرجن من البيوت » وأما الاستطاعة فأقسام تارة يكون الشخص مستطيعا بنفسه وتارة بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام : قال أبو عيسى الترمذي : حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا إبراهيم بن يزيد قال : سمعت محمد بن عباد بن جعفر يحدث عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : من الحاج يارسول الله ؟ قال : « الشعث التفل » فقام آخر فقال أى الحج أفضل يارسول الله : قال « العج والحج » فقام آخر فقال : ما السبيل يارسول الله قال : « الزاد والراحلة » وهكذا رواه ابن ماجه من حديث إبراهيم بن يزيد وهو الجوزى . قال الترمذي : ولا يرفعه إلا من حديثه وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه كذا قال ههنا وقال في كتاب الحج : هذا حديث حسن لا يشك أن هذا الاسناد رجاله كلهم ثقات سوى الجوزى هذا وقد تكلموا فيه من أجل هذا الحديث لكن قد تابعه غيره فقال ابن

(١) في نسخة الأزهر ولم .

أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبد العزيز بن عبد الله العامري حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي عن محمد بن عباد ابن جعفر قال : جلست إلى عبد الله بن عمر قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له ما السبيل ؟ قال « الزاد والراحلة » وهكذا رواه ابن مردويه من رواية محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير به . ثم قال ابن أبي حاتم : وقد روى عن ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة نحوه ذلك وقد روى هذا الحديث من طرق أخرى من حديث أنس وعبد الله بن عباس وابن مسعود وعائشة كلها مرفوعة ، ولكن في أسانيدھا مقال كما هو مقرر في كتاب الأحكام والله أعلم . وقد اعتنى الحافظ أبو بكر بن مردويه بجمع طرق هذا الحديث ، ورواه الحاكم من حديث قتادة عن حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله عز وجل (من استطاع إليه سبيلا) فقيل ما السبيل ؟ قال « الزاد والراحلة » ثم قال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وقال ابن جرير : حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن يونس عن الحسن قال : قرأ رسول الله ﷺ (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) فقالوا : يا رسول الله ما السبيل ؟ قال « الزاد والراحلة » ورواه وكيع في تفسيره عن سفيان عن يونس به . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أنبأنا الثوري عن إسماعيل وهو أبو إسرائيل الملائي عن فضيل يعني ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعجلوا إلى الحج - يعني الفريضة - فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له » . وقال أحمد أيضا : حدثنا أبو معاوية حدثنا الحسن بن عمرو الفقيمي عن مهران ابن أبي صفوان عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من أراد الحج فليتعجل » ورواه أبو داود عن مسدد عن أبي معاوية الضرير به . وقد روى وكيع وابن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى (من استطاع إليه سبيلا) قال من ملك ثلثمائة درهم فقد استطاع إليه سبيلا وعن عكرمة مولاه أنه قال : السبيل الصحة . وروى وكيع بن الجراح عن أبي جناب يعني السكبي عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال : (من استطاع إليه سبيلا) قال « الزاد والبعر » وقوله تعالى (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه . وقال سعيد بن منصور عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن عكرمة قال : لما نزلت (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) قالت اليهود : فنحن مسلمون قال الله عز وجل فاحصمهم فحجهم يعني فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله فرض على المسلمين حج البيت من استطاع إليه سبيلا » فقالوا : لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا قال الله تعالى (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد نحوه . وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود حدثنا مسلم بن إبراهيم وشاذ بن فياض قالا : حدثنا هلال أبو هاشم الخراساني حدثنا أبو إسحق الهمداني عن الحارث عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ملك زادا وراحلة ولم يحج بيت الله فلا يضره مات يهوديا أو نصرانيا وذلك بأن الله قال (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) * ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » ورواه ابن جرير من حديث مسلم بن إبراهيم به وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي زرعة الرازي حدثنا هلال بن الفياض حدثنا هلال أبو هاشم الخراساني فذكره بإسناده مثله ، ورواه الترمذي عن محمد بن علي (١) القطعي عن مسلم بن إبراهيم عن هلال بن عبد الله مولى ربيعة بن عمرو ابن مسلم الباهلي به وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفي إسناده مقال ، وهلال مجهول ، والحارث يضعف في الحديث . وقال البخاري ، هلال هذا منكر الحديث . وقال ابن عدي ، هذا الحديث ليس بمحفوظ . وقد روى أبو بكر الاسماعيلي الحافظ من حديث أبي عمرو الأوزاعي حدثني إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر حدثني عبد الرحمن بن غنم (٢) أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهوديا أو نصرانيا ، وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضي الله عنه . وروى سعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقد هممت أن أبعث رجلا إلى هذه الأمصار فينظروا إلى كل من كان عنده جدة فلم يحج فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبَغُّوهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق وكفرهم بآيات الله وصددهم عن سبيل الله من أراد من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن مآجاء به الرسول حق من الله وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين والسادة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بشروا به ونوهوا به من ذكر النبي الأبي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم. وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء ، وقد توعدهم الله على ذلك ، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ومعاملتهم الرسول المبشر به بالكذب والجحود والعناد ، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون أي وسيجزئهم على ذلك (يوم لا ينفع مال ولا بنون)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴾ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يحذر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله وما منحهم من إرسال رسوله كما قال تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) الآية ، وهكذا قال ههنا (إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) ثم قال تعالى (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) يعني أن الكفر بغير دينكم وحاشاكم منه فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهاوأ وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم ، وهذا كقوله تعالى وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) الآية بعدها . وكما جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوماً « أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ » قالوا : الملائكة قال « وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم » قالوا : فنحن قال « وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم » قالوا : فأى الناس أعجب إيماناً؟ قال « قوم يحيئون من بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها » وقد ذكرت سند هذا الحديث والكلام عليه في أول شرح البخاري والله الحمد . ثم قال تعالى (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) أي ومع هذا فلا اعتصام بالله والتوكل عليه هو العمد في الهداية ، والعدة في مباحة الغواية ، والوسيلة إلى الرشاد ، وطريق السداد وحصول المراد

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ * وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

قال ابن أبي حاتم . حدثنا محمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن سفيان وشعبة عن زيد اليامي عن مرة عن عبد الله هو ابن مسعود (اتقوا الله حق تقاته) قال : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، وهذا إسناد صحيح موقوف ، وقد تابع مرة عليه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود ، وقد رواه ابن مردويه من حديث يونس ابن عبد الأعلى عن ابن وهب عن سفيان الثوري عن زيد عن مرة عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى » وكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث مسعر عن زيد عن مرة عن ابن مسعود مرفوعاً فذكره ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا

قال . والأظهر أنه موقوف والله أعلم . ثم قال ابن أبي حاتم . وروى نحوه عن مرة الحمداني والربيع بن خيثم وعمر بن ميمون وإبراهيم النخعي وطاوس والحسن وقتادة وأبي سنان والسدي نحوه ذلك . وروى عن أنس أنه قال لا يتقى الله العبد حق ثقته حتى يخزن لسانه . وقد ذهب سعيد بن جبير وأبو العالية . والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم والسدي وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (اتقوا الله حق ثقته) قال : لم تنسخ ولكن حق ثقته أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم وقوله تعالى (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه فان الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه . ومن مات على شيء بعث عليه فعياذا بالله من خلاف ذلك

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا شعبة قال سمعت سليمان عن مجاهد : إن الناس كانوا يطوفون بالبيت وإن ابن عباس جالس معه محجن فقال : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق ثقته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم (١) فكيف بمن ليس له طعام إلا الزقوم » وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من طرق عن شعبة به وقال الترمذي : حسن صحيح : وقال الحاكم : على شرط الشيخين ولم يخرجاه

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « من أحب أن يزحزج عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه »

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاث « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » ورواه مسلم من طريق الأعمش به وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا يونس عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الله قال أنا عند ظن عبدي بي ، فإن ظن بي خيراً فله ، وإن ظن بي شراً فله » وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من وجه آخر عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله أنا عند ظن عبدي بي »

وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الملك القرشي حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت وأخسبه عن أنس قال : كان رجل من الأنصار مريضاً فجاءه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده فوافقه في السوق فسلم عليه فقال له « كيف أنت يا فلان » ؟ قال : بخير يا رسول الله أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الوطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف » ثم قال لا تعلم رواه عن ثابت غير جعفر بن سليمان ، وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديثه ثم قال الترمذي غريب ، وكذا رواه بعضهم عن ثابت مرسل فأمّا الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك عن حكيم بن حزام قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أفر إلا قائماً ، ورواه النسائي في سننه عن إسماعيل ابن مسعود عن خالد بن الحارث عن شعبة به وترجم عليه فقال ﷺ (باب كيف يخر للسجود) ثم ساقه مثله فقيل معناه أن لا أموت إلا مسلماً ، وقيل : معناه أن لا أقتل إلا مقبلاً غير مدبر وهو يرجع إلى الأول

وقوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) قيل (بحبل الله) أي بعهد الله كما قال في الآية بعدها (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أي بعهد وذمة وقيل بحبل من الله يعنى القرآن كما في حديث الحارث الأعور عن علي مرفوعاً في صفة القرآن « هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم »

وقد ورد في ذلك حديث خاص بهذا المعنى فقال الإمام الحافظ أبو جعفر الطبري : حدثنا سعيد بن يحيى الأموي حدثنا أسباط بن محمد عن عبد الملك بن (٢) سليمان العزري عن عطية عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) في نسخة الأزهر : لأمرت على أهل الأرض عيشتهم (٢) وفيها : أبي سليمان .

« كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض »

وروى ابن مردويه من طريق إبراهيم بن مسلم المجري عن أبي الأحوص عن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين ، وهو الشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه » وروى من حديث حذيفة وزيد بن أرقم نحو ذلك . وقال وكيع حدثنا الأعمش عن أبي وائل قال : قال عبد الله : إن هذا الصراط محتضر يحضره الشياطين . يا عبد الله هذا الطريق ، هلم إلى الطريق فاعتصموا بحبل الله فان حبل الله القرآن !

وقوله (ولا تفرقوا) أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة . وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف كما في صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويسخط لكم ثلاثا ، ويسخط لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولأه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال » وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضا . وخيف عليهم الافتراق والاختلاف فقد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلية من عذاب النار وهم الذين على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

وقوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) إلى آخر الآية ، وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية ، وعداوة شديدة وضغائن وإحن وذحول ، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم ، فلما جاء الله بالاسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانا متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ؛ متعاونين على البر والتقوى قال الله تعالى (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) إلى آخر الآية وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم فأيقنهم الله منها أن هدامهم للإيمان . وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قسم غنائم حنين فقب من عتب منهم بما فضل عليهم في القسمة بما أراه الله فخطبهم فقال « يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله ، وكنتم متفرقين فألفكم الله ، وعالة فأغناكم الله بي ؟ » فكلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمن . وقد ذكر محمد بن إسحق بن يسار وغيره : أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج . وذلك أن رجلا من اليهود مربلا من الأوس والخزرج فساء ما هم عليه من الاتفاق والألفة فبعث رجلا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعثت تلك الحروب ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حشيت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتناوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول « أبدو عوى الجاهلية وأنايين أظهركم ؟ » وتلا عليهم هذه الآية فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعاقوا وألقوا السلاح رضى الله عنهم وذكر عكرمة . أن ذلك نزل فيهم حين تناوروا في قضية الإفك والله أعلم

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ اٰيْمِنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ *
وَأَمَّا الَّذِينَ اَبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ اٰيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ

يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَامِلِينَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١﴾

يقول تعالى ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأولئك هم المفلحون قال الضحاك : هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة يعني المجاهدين والعلماء . وقال أبو جعفر الباقر قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير) ثم قال « الخير اتباع القرآن وسنتي » رواه ابن مردويه . والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد فرد من الأمة بحسبه كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فليسهنه . فإن لم يستطع فليقلبه . وذلك أضعف الإيمان » وفي رواية « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »

وقال الامام أحمد حدثنا سليمان الهاشمي أنبأنا إسماعيل بن جعفر أخبرني عمرو بن أبي عمرو عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشملي عن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن أبي عمرو به ، وقال الترمذي حسن والأحاديث في هذا الباب كثيرة مع الآيات الكريمة كما سيأتي تفسيرها في أما كتبها . ثم قال تعالى (ولا تكونوا كالأمةين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) الآية ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضية في افتراقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم .

قال الأمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثني أزهر بن عبد الله الهروي عن أبي عامر عبد الله بن يحيى قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهي الجماعة - وإنه سيخرج في أمي أقوام تتجارى بهم الأهواء كالتجارى الكلاب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله » والله يامعشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به . وهكذا رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل ومحمد بن يحيى كلاهما عن أبي المغيرة واسمه عبد القدوس بن الحجاج الشامي به ، وقد ورد (١) هذا الحديث من طرق

وقوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدع والفرقة قاله ابن عباس رضى الله عنهما (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) قال الحسن البصري : وهم المنافقون (فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وهذا الوصف يعم كل كافر (وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) يعني الجنة ما كثون فيها أبدا لا ييغون عنها حولا . وقد قال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن الربيع بن صبيح وحماد بن سلمة عن أبي غالب قال : رأى أبو أمامة رجلا منسوبا على درج مسجد دمشق فقال أبو أمامة . كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتله ثم قرأ (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) إلى آخر الآية قلت : لأبي أمامة أنت سمعته من رسول الله ﷺ قال : لو لم أسمع إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعاً - حتى عدسعا - ما حدثتكموه ، ثم قال هذا حديث حسن ، وقد رواه ابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة عن أبي غالب ، وأخرجه أحمد في مسنده عن عبد الرزاق عن معمر عن أبي غالب بنحوه وقد روى ابن مردويه عند تفسير هذه الآية عن أبي ذر حديثا مطولا غريبا عجيبا جدا . ثم قال تعالى (تلك آيات الله تتلوها عليك) أي هذه آيات الله وحججه وبيناته تتلوها عليك يا محمد (بالحق) أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا

والآخرة (وما الله يريد ظلاماً للعالمين) أى ليس بظالم لهم بل هو الحاكم ^(١) العدل الذى لا يحور ، لأنه القادر على كل شئ ، العالم بكل شئ ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه ، ولهذا قال تعالى (ولله ما فى السموات وما فى الأرض) أى الجميع ملك له وعبيده (وإلى الله ترجع الأمور) أى هو الحاكم المتصرف فى الدنيا والآخرة

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَن يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقْتَلُوا يُمْرُّوا بِأُولَئِكَ لَئِيْزًا * لَّيْسَ بِتَعْلِيمِهِمُ الدِّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقْتَلُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِّنَ النَّاسِ وَبِأَمْرِهِ يَعْزِبُ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قال البخارى : حدثنا محمد بن يوسف عن سفيان بن ميسرة عن أبي حازم عن أبي هريرة رضى الله عنه (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قال : خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الاسلام ، وهكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطية العوفى وعكرمة وعطاء والربيع بن أنس (كنتم خير أمة أخرجت للناس) يعنى خير الناس للناس : والمعنى أنهم خير الأمم وأفصح الناس للناس ، ولهذا قال (تأمرون بالمعروف وتنهون عن النكر وتؤمنون بالله) قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك حدثنا شريك عن سماك عن عبد الله بن عميرة عن درة (٢) بنت أبي لؤب قال : قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال يا رسول الله أى الناس خير ؟ قال « خير الناس أقرامهم وأتقاهم لله وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن النكر وأوصلهم للرحم » ورواه أحمد فى مسنده والنسائى فى سننه والحاكم فى مستدركه من حديث سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة . والصحيح أن هذه الآية عامة فى جميع الأمة كل قرن بحسبه ، وخير قرونها الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، كما قال فى الآية الأخرى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) أى خيارا (لتكونوا شهداء على الناس) الآية

وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذی وسنن ابن ماجه ومستدرک الحاكم من رواية حکيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « أتم توفون سبعين أمة أتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل » وهو حديث مشهور ، وقد حسنه الترمذی . ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد نحوه . وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله ، وبه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه مالا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه كما قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا ابن زهير عن عبد الله يعني ابن محمد بن عقيل عن محمد بن علي وهو ابن الحنفية أنه سمع علي بن أبي طالب رضى الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ « أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء » فقلنا يا رسول الله ما هو ؟ قال « نصرت بالرب ، وأعطيت مفاتيح الأرض ، وميت أحمد وجعل التراب لى طهورا ، وجعلت أمتى خير الأمم » تفرد به أحمد من هذا الوجه وإسناده حسن

وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو العلاء الحسن بن سوار حدثنا ليث عن معاوية بن أبي جبير^(٣) عن يزيد بن ميسرة قال سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يقول : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم وما سمعته يكنه قبلها ولا بعدها يقول

(١) في نسخة الأزهر : الحكم (٢) وفيها زوج درة (٣) وفيها حليس .

« إن الله تعالى يقول يا عيسى إني باعث بك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا ، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ، ولا حلم ولا علم قال : يارب كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم ؟ قال أعطيتهم من حلي وعلمي »

وقد وردت أحاديث يناسب ذكرها هنا قال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا المسعودي حدثنا بكير بن الأحنس عن رجل عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، فاستزدت ربي فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً » فقال أبو بكر رضي الله عنه : فرأيت أن ذلك آت على أهل القرى ومصيب من حافات البوادي

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن بكر السهمي حدثنا هشام بن حسان عن القاسم بن مهران عن موسى بن عبيد عن ميمون بن مهران عن عبد الرحمن بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال « إن ربي أعطاني سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب » فقال عمر يارسول الله فهلا استزدت فقال « استزدت فأعطاني مع كل ألف سبعين ألفاً » قال عمر فهلا استزدت قال « قد استزدت فأعطاني هكذا » وفرج عبد الرحمن ابن أبي بكر بين يديه ، وقال عبد الله وبسط باعيه وحشا عبد الله وقال هاشم : وهذا من الله لا يدري ما عده

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة قال : قال شريح بن عبيدة : مرض ثوبان بمحصر وعليها عبد الله بن قرط الأزدي فلم يعده فدخل على ثوبان رجل من السكلاء عائد له فقال له ثوبان : أتكتب ؟ قال : نعم قال آكتب فكتب للأمير عبد الله بن قرط من ثوبان مولى رسول الله ﷺ . أما بعد فانه لو كان لموسى وعيسى عليهما السلام بحضورك خادم لعدته ، ثم طوى الكتاب وقال له : أتبلغه إياه ؟ قال نعم فانطلق الرجل بكتابه فدفعه إلى ابن قرط فلما رآه قام فزعا فقال الناس ماشأ نه أحدث أمر : فأتى ثوبان فدخل عليه فعاده وجلس عنده ساعة ثم قام فأخذ ثوبان بردائه وقال : اجلس حتى أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول « ليدخلن الجنة من أمي سبعون ألفاً لأحساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفاً » تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وإسناد رجاله كلهم ثقات شاميون حمصيون فهو حديث صحيح والله الحمد والمنة

(طريق أخرى) قال الطبراني حدثنا عمرو بن إسحق بن زريق الحمصي حدثنا محمد بن إسماعيل يعني ابن عياش حدثني أبي عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي أسماء الرحي عن ثوبان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن ربي عز وجل وعدني من أمي سبعين ألفاً لا يحاسبون ، مع كل ألف سبعون ألفاً » هذا لعله هو المحفوظ بزيادة أبي أسماء الرحي بين شريح وبين ثوبان والله أعلم

(حديث آخر) : قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة ثم غدونا إليه فقال « عرضت على الأنبياء الليلة بأجمعها ، فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة والنبي ومعه العصابة ، والنبي ومعه النفر ، والنبي وليس معه أحد ، حتى مر على موسى عليه السلام ومعه كبكبة من بني إسرائيل فأعجبوني فقلت من هؤلاء ؟ قيل : هذا أخوك موسى ومعه بنو إسرائيل فقلت : فأين أمي ؟ فقيل انظر عن يمينك فنظرت فإذا الضراب (١) قد سد بوجوه الرجال فقيل لي أرضيت فقلت : رضيت يارب - قال فقيل لي إن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب » فقال النبي ﷺ « فداكم أبي وأمي إن استطعتم أن تكونوا من السبعين ألفاً فافعلوا فإن قصرتم فكونوا من أهل الضراب ، فإن قصرتم فكونوا من أهل الأفق فإني قد رأيت ثم أناسا يتهاشون » فقام عكاشة بن حصن فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم أي من السبعين فدعاه ، فقام رجل آخر فقال ادع الله يارسول الله أن يجعلني منهم فقال « سبقك بها عكاشة » قال ثم تحدثنا قلنا من ترون هؤلاء السبعين الألف ، قوم ولدوا في الاسلام ولم يشركوا بالله شيئاً حتى ماتوا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال « هم الذين لا يسترقون . ولا يكتون ولا يتطيرون ، وعلى رءسهم يتوكلون » هكذا رواه أحمد بهذا السند وهذا السياق ، ورواه أيضا عن عبد الصمد عن هشام عن قتادة بأسناده مثله وزاد بعد قوله « رضيت يارب ، رضيت يارب قال : رضيت . قلت نعم قال : انظر عن يسارك

(١) قوله فإذا الضراب هكذا في الموضعين وفي نسخة في موضع الظراب بالطاء وحرر .

قال - فنظرت فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال فقال : رضيت؟ قلت: رضيت» وهذا إسناد صحيح من هذا الوجه، تفرد به أحمد ولم يخرجوه

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أحمد بن منيع حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز حدثنا حماد عن عاصم عن زر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « عرضت على الأمم بالموسم فرائت على أمتي ، ثم رأيتم فأعجبني كثرتهم وهيتهم ، قد ملؤا السهل والجبل فقال أرضيت يا محمد ؟ قلت : نعم قال : فان مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » ققام عكاشة بن محسن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال « أنت منهم » ققام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال « سبقك بها عكاشة » رواه الحافظ الضياء المقدسي وقال : هذا عندي على شرط مسلم . (حديث آخر) قال الطبراني حدثنا محمد بن محمد الجذوعي القاضي حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا محمد بن أبي عدي عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب » قيل . من هم ، قال « هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » ورواه مسلم من طريق هشام بن حسان وعنده ذكر عكاشة

(حديث آخر) ثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة حدثه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفاً قضى وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » قال أبو هريرة . ققام عكاشة بن محسن الأسدي يرفع نمرة عليه فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله ﷺ « اللهم اجعله منهم » ثم قام رجل من الأنصار فقال مثله فقال « سبقك بها عكاشة » (حديث آخر) قال أبو القاسم الطبراني حدثنا يحيى بن عثمان حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا أبو غسان عن أبي حازم عن السهل بن سعد أن النبي ﷺ قال « ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً - أو سبعمائة ألف - أخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر » أخرجه البخاري ومسلم جميعاً عن قتبية عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل به .

(حديث آخر) قال مسلم بن الحجاج في صحيحه حدثنا سعيد بن منصور حدثنا هشيم أنبأنا حصين بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض الباردة ، قلت أنا ثم قلت أما إن لم أكن في صلاة ولكني لدغت قال فما صنعت ، قلت استرقيت قال فما حملك على ذلك قلت حديث حدثنا الشعبي قال وما حدثكم الشعبي قلت حدثنا عن بريدة بن الحصيب الأسلمي أنه قال « لارقية إلا من عين أوحمة » قال قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد . إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ؛ فليل لي هذا موسى وقومه . ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم . فليل لي : انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فليل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما الذي تخوضون فيه ؟ » فأخبروه فقال « هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون . وعلى ربهم يتوكلون » ققام عكاشة بن محسن فقال ادع الله أن يجعلني منهم « قال أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلني منهم قال « سبقك بها عكاشة » وأخرجه البخاري عن أسيد بن زيد عن هشيم وليس عنده : لا يرقون .

(حديث آخر) قال أحمد حدثنا روح بن عبادة حدثنا بن جرير أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر حديثاً وفيه « فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر لا يحاسبون ثم الذين

يلونهم كأضواء نجم في السماء» ثم كذلك وذكر بقيته ، رواه مسلم من حديث روح غير أنه لم يذكر النبي ﷺ (حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنن له حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا إسماعيل بن عياش عن محمد بن زياد سمعت أبا أمامة الباهلي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمي سبعين ألفاً ، مع كل ألف سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ، وثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل » وكذا رواه الطبراني من طريق هشام بن عمار عن إسماعيل بن عياش به ، وهذا إسناد جيد

(طريق أخرى) عن أبي أمامة . قال ابن أبي عاصم حدثنا دحيم حدثنا الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر عن أبي اليمان المروى واسمه عامر بن عبد الله بن يحيى عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال « إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمي سبعين ألفاً بغير حساب » فقال يزيد بن الأخنس ، والله ما أولئك في أمك يا رسول الله إلا مثل الباب الأصهب في الباب قال رسول الله ﷺ « فإن الله وعدني سبعين ألفاً ، مع كل ألف سبعون ألفاً ، وزادني ثلاث حثيات » وهذا أيضاً إسناد حسن

(حديث آخر) قال أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن خليف حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن يزيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول حدثني عامر بن زيد البكالي أنه سمع عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل الجنة من أمي سبعين ألفاً بغير حساب ، ثم يشفع كل ألف لسبعين ألفاً ثم يحثي ربي عز وجل بكفيه ثلاث حثيات » فكبر عمر وقال : إن السبعين الأول يشفعهم الله في آباءهم وأبنائهم وعشيرتهم وأرجو أن يجعلني الله في إحدى الحثيات الأواخر. قال الحافظ الضياء أبو عبد الله المقدسي في كتابه صفة الجنة : لا أعلم لهذا الإسناد علة والله أعلم

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا هشام يعني الدستوائي حدثنا يحيى بن أبي كثير عن هلال بن أبي ميمونة حدثنا عطاء بن يسار أن رفاعة الجهني حدثه قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالكديد - أو قال بقديد - فذكر حديثاً وفيه ثم قال « وعدني ربي عز وجل أن يدخل الجنة من أمي سبعين ألفاً بغير حساب ، وإنني لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوؤا أتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة » قال الضياء : وهذا عندي على شرط مسلم

(حديث آخر) قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة عن النضر بن أنس عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمي أربعاً ألفاً » قال أبو بكر رضي الله عنه . زدنا يا رسول الله قال « والله هكذا » قال عمر حبسك يا أبا بكر فقال أبو بكر : دعني وما عليك أن يدخلنا الله الجنة كلنا . قال عمر : إن الله (١) إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحد فقال النبي ﷺ « صدق عمر » هذا الحديث بهذا الإسناد تفرد به عبد الرزاق . قال الضياء وقد رواه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني قال : حدثنا محمد بن أحمد بن محمد بن مخلد حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي حدثنا سليمان بن حرب حدثنا أبو هلال عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمي مائة ألف » فقال له أبو بكر يا رسول الله زدنا قال « وهكذا » وأشار سليمان بن حرب بيده كذلك قلت يا رسول الله زدنا فقال عمر : إن الله قادر على أن يدخل الناس الجنة بحفنة واحدة ، فقال رسول الله ﷺ « صدق عمر » هذا حديث غريب من هذا الوجه . وأبو هلال اسمه محمد بن سليم الراسي بصري

(طريق أخرى) عن أنس . قال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمد بن بكر حدثنا عبد القاهر بن السري السلمي حدثنا حميد عن أنس عن النبي ﷺ قال « يدخل الجنة من أمي سبعون ألفاً » قالوا زدنا يا رسول الله قال « لكل رجل سبعون ألفاً » قالوا زدنا وكان على كتيب فقالوا : فقال « هكذا » وحنا يديه قالوا يا رسول الله أبعده الله من دخل النار بعد هذا وهذا إسناد جيد ، ورجاله كلهم ثقات ، ماعدا عبد القاهر بن السري ، وقد سئل عنه ابن معين . فقال صالح .

(حديث آخر) روى الطبراني من حديث قتادة عن أبي بكر بن عمر عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله وعدني أن يدخل من أمتي ثلثمائة ألف الجنة بغير حساب» فقال عمر: يا رسول الله زدنا فقال وهكذا بيده فقال عمر يا رسول الله زدنا فقال عمر: حسبك إن الله إن شاء أدخل خلقه الجنة بحفنة أو بحشية واحدة ، فقال نبي الله ﷺ: «صدق عمر» (حديث آخر) قال الطبراني حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن يزيد بن سلام يقول حدثني عبد الله بن عامر أن قيسا الكندي حدثه أن أبا سعيد الأعمري حدثه أن رسول الله ﷺ قال «إن ربي وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا بغير حساب ويشفع كل ألف لسبعين ألفا ، ثم يحيى ربي ثلاث حثيات بكفيه» كذا قال قيس فقلت لأبي سعيد أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم بأذني ووعاه قلبي قال أبو سعيد قال يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم «وذلك إن شاء الله يستوعب مهاجري أمتي ويوفى الله بقيته من أعرابنا» وقد روى هذا الحديث محمد بن سهل بن عسكر عن أبي توبة الربيع بن نافع بإسناده مثله وزاد: قال أبو سعيد ، فحسب ذلك عند رسول الله ﷺ فيبلغ أربع مائة ألف وتسعين ألفا

(حديث آخر) قال أبو القاسم الطبراني حدثنا هاشم بن مرثد الطبراني حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك قال: قال رسول الله ﷺ «أما والذي نفس محمد بيده ليعثن منكم يوم القيامة إلى الجنة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض تقول الملائكة لم جاء مع محمد أكثر مما جاء مع الأنبياء» وهذا إسناده حسن

(حديث آخر^(١)) من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها وكرامتها على الله عز وجل ، وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة: قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابرا أنه سمع النبي ﷺ يقول «إني لأرجو أن يكون من يتبعني من أمتي يوم القيامة ربع أهل الجنة» قال: فكبرنا ، ثم قال: «أرجو أن يكونوا ثلث الناس» قال: فكبرنا ثم قال: «أرجو أن يكونوا الشطر» وهكذا رواه عن روح عن ابن جريج به وهو على شرط مسلم. وثبت في الصحيحين من حديث أبي إسحق السبيعي عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود قال: قال لرسول الله ﷺ «أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة» فكبرنا ثم قال «أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبرنا ، ثم قال «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة»

(طريق أخرى) عن ابن مسعود: قال الطبراني حدثنا أحمد بن القاسم بن مساور حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثني الحارث بن حصين حدثني القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «كيف أتم وربع الجنة لكم ولسائر الناس ثلاثة أرباعها» قالوا الله ورسوله أعلم قال «كيف أتم وثلثها» قالوا . ذاك أكثر قال «كيف أتم والشطر لكم» قالوا ذاك أكثر فقال رسول الله ﷺ «أهل الجنة عشرون ومائة صف لكم منها ثمانون صفا» قال الطبراني . تفرد به الحارث بن حصين

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا ضرار بن مرة أبو سنان الشيباني عن محارب بن ديثار عن ابن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ قال «أهل الجنة عشرون ومائة صف . هذه الأمة من ذلك ثمانون صفا» وكذا رواه عن عفان عن عبد العزيز به ، وأخرجه الترمذي من حديث أبي سنان به وقال: هذا حديث حسن ، ورواه ابن ماجه من حديث سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه به

(حديث آخر) روى الطبراني من حديث سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي حدثنا خالد بن يزيد البجلي حدثنا سليمان ابن علي ابن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال «أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون منها من أمتي» تفرد به خالد بن يزيد البجلي ، وقد تكلم فيه ابن عدى

(حديث آخر) قال الطبراني حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا موسى بن غيلان حدثنا هاشم بن محمد حدثنا (١) في نسخة الأزهر: نوع آخر .

عبد الله بن المبارك عن سفيان عن أبي عمرو عن أبيه عن أبي هريرة قال : لما نزلت (ثلاثة من الأولين وثلاثة من الآخرين) قال رسول الله ﷺ : « أتم ربع أهل الجنة ، أتم ثلث أهل الجنة ، أتم نصف أهل الجنة ، أتم ثلثا أهل الجنة »

وقال عبدالرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة نحن أول الناس دخولا الجنة . بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق ، فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه الناس لنا فيه تبع غدا لليهود وللنصارى بعد غد » رواه البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أيضا من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة » وذكر تمام الحديث (حديث آخر) روى الدارقطى فى الأفراد من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الجنة حُرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها ، وحُرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي » ثم قال : انفرد به ابن عقيل عن الزهرى ، ولم يرو عنه سواه ، وتفرد به زهير بن محمد عن ابن عقيل ، وتفرد به عمرو بن أنس سلمة عن زهير . وقدر رواه أبو أحمد بن عدى الحافظ فقال : حدثنا أحمد بن الحسين بن إسحق حدثنا أبو بكر الأعمش بن محمد بن أبي غياث حدثنا أبو حفص التميمي حدثنا صدقة الدمشقي عن زهير بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الزهرى . ورواه الثعلبي حدثنا أبو عباس الخلدی أنبأنا أبو نعيم عبد الملك بن محمد أنبأنا أحمد ابن عيسى التميمي حدثنا عمرو بن سلمة حدثنا صدقة بن عبد الله عن زهير بن محمد بن عقيل به

فهذه الأحاديث فى معنى قوله تعالى (كنتم خيرا أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم فى هذا المدح^(١) كما قال قتادة : بلغنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حجة حجها رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية (كنتم خيرا أمة أخرجت للناس) ثم قال من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها . رواه ابن جرير ، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) الآية : ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع فى ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال تعالى (ولو آمن أهل الكتاب) أى بما أنزل على محمد (لكان خيرا لهم ، منهم المؤمنون وأكثرم الفاسقون) أى قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، وأكثرم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان

ثم قال تعالى فخبرنا عباده المؤمنين ومبشرا لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين فقال تعالى (لن يضرركم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون) هكذا وقع فإنهم يوم خير أذهم الله وأرغم أنوفهم وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة كلهم أذهم الله ، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة فى غير ماموطن وسلبوهم ملك الشام أبد الأبدىين ودهر الداهرين ، ولا تزال عصاة الاسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى بن مريم وهم كذلك ، ويحكم بملة الاسلام وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الاسلام . ثم قال تعالى (ضربت عليهم الذلة أينما تقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أى ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون (إلا بحبل من الله) أى بذمة من الله وهو عقد الذمة لهم وضرب الجزية عليهم وإلزامهم أحكام الملة (وحبل من الناس) أى أمان منهم لهم كما فى المهادن والمعاهد والأسير إذا أمنه واحد من المسلمين ولو امرأة ، وكذا عبد على أحد قولى العلماء قال ابن عباس (إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أى بعهد من الله وعهد من الناس ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدى والربيع بن أنس . وقوله (وبأموأ بغضب من الله) أى ألزموا : فاللزموا بغضب من الله وهم يستحقونه (وضربت عليهم المسكنة) أى ألزموها قدرا وشرعا . ولهذا قال (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق) أى إنما حملهم على ذلك الكبر والبغى والحسد فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبدا متصلا بذل الآخرة ثم قال تعالى (ذلك بما عصوا وكانوا

(١) فى نسخة الأزر : الثناء عليهم .

يعتدون) اى انما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله ، وقضوا ذلك - أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله والعشيان لمعاصي الله والاعتداء فى شرع الله ، فعياذا بالله من ذلك ، والله عزوجل المستعان . قال ابن ابى حاتم حدثنا يونس بن جبيب حدثنا أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن سلمان الأعمش عن ابراهيم عن أبى معمر الأزدي عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : كانت بنو إسرائيل تقتل فى اليوم ثلثمائة نبى ثم يقوم سوق بقلهم فى آخر النهار

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يَوْمُنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

قال ابن أبى نجیح : زعم الحسن بن أبى يزيد العجلي عن ابن مسعود فى قوله تعالى (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة) قال : لا يستوى أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ ، وهكذا قال السدى . ويؤيد هذا القول الحديث الذى رواه الامام أحمد بن حنبل فى مسنده حدثنا ابو النضر وحسن بن موسى قال : حدثنا شيبان عن عاصم عن زر عن ابن مسعود قال : أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فاذا الناس ينتظرون الصلاة فقال « أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم » قال فزلت هذه الآيات (ليسوا سواء من أهل الكتاب - إلى قوله - والله عليم بالمتقين) والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحق وغيره ، ورواه العوفى عن ابن عباس - أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أخبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم أى لا يستوى من تقدم ذكرهم بالله من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا ولهذا قال تعالى (ليسوا سواء) أى ليسوا كالهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم ، ولهذا قال تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة) أى قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه متبعة نبى الله فهى قائمة يعنى مستقيمة (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) أى يقيمون الليل ويكثرون التهجد ويتلون القرآن فى صلواتهم (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين) وهؤلاء هم المذكورون فى آخر السورة (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) الآية ، ولهذا قال تعالى ههنا (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) أى لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء (والله عليم بالمتقين) أى لا يخفى عليه عمل عامل ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملا ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) أى لا ترد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أرادهم بهم (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار فى هذه الدار قاله مجاهد والحسن والسدى فقال تعالى (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فى صر) أى برد شديد قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك والريبع بن أنس وغيرهم . وقال عطاء : برد وجليد ؛ وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد (فيها صر) أى نار وهو يرجع إلى الأول فإن البرد الشديد ولاسيما الجليد يحرق الزروع والثمار كما يحرق الشيء بالنار (أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) أى فأحرقتة يعنى بذلك السعفة إذا نزلت على حرث قد آن جذاه أو حصاده فدمرته وأعدمت مافيه من ثمر أوزرع فذهبت به وأفسدته فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه . وكذلك الكفار يحرق الله ثواب أعمالهم فى هذه الدنيا وثمرها كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه . وكذلك

هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس (وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * هَآأَن تُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَاوَا عَضُّوا عَلَيْنَكُمُ الْأَئَامِلَ مِنَ الْغِيْظِ قُلِ مُؤْتُوا بَغِيْظَكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ بَذَاتِ الصُّدُورِ * إِن تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

يقول تبارك وتعالى نهايا عباده المؤمنين عن اتخاذا المنافقين بطانة أى يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالا أى يسعون فى مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكروا الخديعة ؛ ويودون ما يعنت المؤمنين ويخرجهم ويشق عليهم وقوله تعالى (لا تتخذوا بطانة من دونكم) أى من غيركم من أهل الأديان وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره . وقد روى البخارى والنسائى وغيرهما من حديث جماعة منهم يونس ويحيى بن سعيد وموسى بن عقبة وابن أبى عتيق عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه ؛ والمعصوم من غصمه (١) الله وقد رواه الأوزاعى ومعاوية بن سلام عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعا بنحوه ؛ فيحتمل أنه عند الزهرى عن أبى سلمة عنهما وأخرجه النسائى عن الزهرى أيضا ؛ وعلقه البخارى فى صحيحه فقال : وقال عبيد الله بن أبى جعفر عن صفوان بن سليم عن أبى سلمة عن أبى أيوب الأنصارى مرفوعا فذكره ، فيحتمل أنه عند أبى سلمة عن ثلاثة من الصحابة والله أعلم وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى أيوب محمد بن الوزان حدثنا عيسى بن يونس عن أبى حيان التميمى عن أبى الزناب عن ابن أبى الدهقانة قال : قيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إن ههنا غلاما من أهل الحيرة حافظ كاتب فلو اتخذته كتابا فقال . قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين . ففى هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الدمة لا يجوز استعمالهم فى الكتابة التى فيها استطلاع على المسلمين وإطلاع على دواخل أمورهم التى يخشى أن يقشوها إلى الأعداء من أهل الحرب ؛ ولهذا قال تعالى (لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم) وقال الحافظ : أبو يعلى حدثنا إسحاق بن إسرائيل حدثنا هشيم حدثنا العوام عن الأزهر بن راشد قال : كانوا يأتون أنسا فإذا حدثهم بحديث لا يدرون ماهو أتوا الحسن يعنى البصرى فيفسره لهم قال : فحدث ذات يوم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتمكم عربيا » فلم يدروا ماهو ؛ فأتوا الحسن فقالوا له : إن أنسا حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتمكم عربيا » فقال الحسن : أما قوله « لا تنقشوا فى خواتمكم عربيا » محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأما قوله « لا تستضيئوا بنار المشركين » يقول لاستشيروا المشركين فى أموركم . ثم قال الحسن . تصديق ذلك فى كتاب الله (يا أيها الذين آمنوا اتخذوا بطانة من دونكم) هكذا رواه الحافظ أبو يعلى رحمه الله تعالى ؛ وقد رواه النسائى عن مجاهد بن موسى عن هشيم ؛ ورواه الامام أحمد عن هشيم بإسناده مثله من غير ذكر تفسير الحسن البصرى ؛ وهذا التفسير فيه نظر ومعناه ظاهر « لا تنقشوا فى خواتمكم عربيا » أى بخط عربى لثلا يشابه نقش خاتم النبي صلى الله عليه وسلم فانه كان نقشه محمد رسول الله ؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أنه نهى أن ينقش أحد على نقشه . وأما الاستضاءة بنار المشركين فمعناه لا تقاربوهم فى النازل بحيث تكونون معهم فى بلادهم بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم ، ولهذا

(١) فى نسخة الأزهر : عصم

روى أبو داود « لا تراءى نارها » وفي الحديث الآخر « من جامع الشرك أوسكن معه فهو مثله » فحمل الحديث على ما قاله الحسن رحمه الله والاستشهاد عليه بالآية فيه نظر والله أعلم .

ثم قال تعالى (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) أى قد لاح على صفحات وجوههم . وقلنت ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ولهذا قال تعالى (قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) وقوله تعالى (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) أى أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم لا باطنا ولا ظاهراً (وتؤمنون بالكتاب كله) أى ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب وهم عندكم الشك والريب والحيرة . وقال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس (وتؤمنون بالكتاب كله) أى بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم فأتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم رواه ابن جرير (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلووا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) والأنامل أطراف الأصابع ، قاله قتادة وقال الشاعر .

* وما حملت كفاى أتملى العسرا *

وقال ابن مسعود والسدى والربيع بن أنس : الأنامل الأصابع ، وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه كما قال تعالى (وإذا خلووا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وذلك أشد الغيظ والحق قال الله تعالى (قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور) أى مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين وبغيظكم ذلك منهم فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه ؛ ومعل كلمته ومظهر دينه ، فموتوا أنتم بغيظكم (إن الله عليم بذات الصدور) أى هو عليم بما تنطوى عليه ضمائرهم وتكنه سرائرهم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها لا محيد لكم عنها ، ولا خروج لكم منها . ثم قال تعالى (إن تمسكتم حسنة تسوهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين ، وإن أصاب المسلمين سنة أى جذب أو أديل عليهم الأعداء ، لما لله تعالى في ذلك من الحكمة كما جرى يوم أحد - فرح المنافقون بذلك قال الله تعالى مخاطباً للمؤمنين (وإن تصبروا وتقاوا لا يضركم كيدهم شيئا) الآية يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذى هو محيط بأعدائهم فلا حول ولا قوة لهم إلا به . وهو الذى ما شاء كان . وما لم يشأ لم يكن . ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشئته ومن توكل عليه كفاه

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين . والتمييز بين المؤمنين والمنافقين وبيان الصابرين (١) فقال تعالى

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

المراد بهذه الواقعة يوم أحد عند الجمهور قاله ابن عباس والحسن وقاتدة والسدى وغير واحد . وعن الحسن البصرى المراد بذلك يوم الأحزاب . ورواه ابن جرير . وهو غريب لا يعول عليه . وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة . قال قتادة . لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال . وقال عكرمة . يوم السبت للنصف من شوال والله أعلم وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرفهم يوم بدر وسامت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان (٢) قال

(١) في نسخة الأزهر : صبر الصابرين (٢) وفيها فلما رجع قتلهم .

أبناء من قتل ورؤساء من بقي لأبي سفيان ارصد هذه الأموال لقتال محمد فأثقفوها في ذلك فجمعوا الجوع والأحابيش وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريبا من أحد تلقاء المدينة فصرى رسول الله ﷺ يوم الجمعة فلما فرغ منها صلى على رجل من بني النجار يقال له مالك بن عمرو واستشار رسول الله ﷺ الناس « أخرج إليهم أم يمكث بالمدينة » فأشار عبد الله بن أبي بالمقام بالمدينة فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين . وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرا بالخروج إليهم فدخل رسول الله ﷺ فلبس لامته وخرج عليهم ، وقد ندم بعضهم وقالوا لعننا استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله إن شئت أن نمكث ، فقال رسول الله ﷺ « ما ينبغي لبي إذا لبس لامته أن يرجع حتى يحكم الله له » فسار ﷺ في ألف من أصحابه فلما كانوا بالشروط رجع عبد الله بن أبي بثلاث الجيش مغضبا لكونه لم يرجع إلى قوله وقال هو وأصحابه : لو نعلم اليوم قتالا لا تبعناكم ولكننا لا نراكم تقاتلون . واستمر رسول الله ﷺ سائرا حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي . وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال « لا يقاتلن أحد حتى تأمره بالقتال » وتبها رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه . وأمر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو ابن عوف . والرماة يومئذ خمسون رجلا فقال لهم « انضحوا الحيل عنا ولا تؤتين من قبلكم والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم » وظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار . وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الغلمان يومئذ وآخر آخرين حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقریب من سنتين وتبها قريش وهم ثلاثة آلاف . ومعهم مائة فرس قد جنبوها فجعلوا على ميمنة الحيل خالد بن الوليد . وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار ثم كان بين الفريقين ماسياتي تفصيله في موضعه (١) إن شاء الله تعالى . ولهذا قال تعالى (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) أي تنزلهم منازلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم (والله سميع عليم) أي سمع لما تقولون عليهم بضائرهم وقد أورد ابن جرير هنا سؤالا حاصلا كيف تقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد يوم الجمعة بعد الصلاة وقد قال الله تعالى (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) الآية ثم كان جوابه عنه أن غدوه ليبدأهم بمقاعد إنما كان يوم السبت أول النهار . وقوله تعالى (إذ هم طائفتان منك أن تفشلا) الآية قال البخاري حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان قال : قال عمر سمعت جابر بن عبد الله يقول : فينا نزلت (إذ هم طائفتان منك أن تفشلا) الآية قال نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة وما نحب . وقال سفيان مرة - وما يسرنى أنها لم تنزل لقوله تعالى (والله وليهما) وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة به وكذا قال غير واحد من السلف إنهم بنو حارثة وبنو سلمة . وقوله تعالى (ولقد نصركم الله يدر) أي يوم بدر ، وكان يوم الجمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله ودمغ فيه الشرك وخرب محله وحزبه هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ ، فإنهم كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، فهم فارسون وسبعون بعيرا والباقيون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه . وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلى الزائدة ، فأعز الله رسوله وأظهر وجهه وتنزله وبيض وجه النبي وقبيله وأخزى الشيطان وجيله ، ولهذا قال تعالى (ولقد نصركم الله يدر) (ولقد نصركم الله يدر) وأنتم أذلة) أي قليل عددكم لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا - إلى - غفور رحيم) . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سفيان قال . سمعت عياضا الأشعري قال شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء أبو عبيدة وزيد بن أبي سفيان وابن حسنة وخالد بن الوليد ، وعياض - وليس عياض هذا الذي حدث سفيان قال : وقال عمر : إذا كان قتالا فعليكم أبو عبيدة (٢) قال فكتبنا إليه أنه قد جأش إلينا الموت واستمددناه فكتب إلينا أنه قد جاءني كتابكم تستمدونني

(١) في نسخة الأزهر عند هذه الآيات . (٢) أي أمير .

وإني أدلكم على من هو أعز نصراً ، وأحصن جنداً ، الله عز وجل فاستنصروه فان محمداً ﷺ قد نصر في يوم بدر في أقل من عدتكم فاذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوه ولا تراجعوني قال فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ قال : وأصبنا أموالاً فتشاورنا فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل ذي رأس عشرة قال : وقال أبو عبيدة : من يراهنني فقال شاب أنا إن لم تعضب قال : فسبقه فأيت عقيصتي أبي عبيدة يفران وهو خلفه على فرس أعرابي . وهذا إسناد صحيح . وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث بنادر عن غندر بنحوه ، واختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه ، وبدر محلة بين مكة والمدينة تعرف ببرها منسوبة إلى رجل حفرها يقال له بدر بن النارين ، قال الشعبي : بدر بئر لرجل يسمى بدرأ : وقوله (فاتقوا الله لعلكم تشكرون) أي تقومون بطاعته

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ كُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَقًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

اختلف المفسرون في هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد ؟ على قولين (أحدهما) أن قوله (إذ تقول للمؤمنين) متعلق بقوله (ولقد نصركم الله ييدر) وهذا عن الحسن البصري وعامر الشعبي والريبع بن أنس وغيرهم واختاره ابن جرير قال عباد بن منصور عن الحسن في قوله (إذ تقول للمؤمنين أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ كُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ) قال : هذا يوم بدر ، رواه ابن أبي حاتم . ثم قال : حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسحاق حدثنا وهيب حدثنا داود عن عامر بن شعيب عن الشعبي أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ كُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ - إلى قوله - مسومين) قال : فبلغت كرزا الهزيمة فلم يمد المشركين ولم يمد الله المسلمين بالخمسة وقال الريبع بن أنس . أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف ، فإن قيل فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول وبين قوله في قصة بدر (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين - إلى قوله - إن الله عزيز حكيم) ؟ فالجواب أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافي الثلاثة الآلاف لما فوقها لقوله (مردفين) بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم أوف أخرمثلهم . وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران ، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر والله أعلم . وقال سعيد بن أبي عروبة (١) أمد (٢) المسلمين يوم بدر بخمسة آلاف (القول الثاني) إن هذا الوعد متعلق بقوله (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) وذلك يوم أحد وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك والزهرى وموسى بن عقبة وغيرهم . لكن قالوا لم يحصل الامداد بالخمسة الآلاف لأن المسلمين فروا يومئذ ؛ زاد عكرمة ولا بالثلاثة الآلاف لقوله تعالى (بلى إن تصبروا وتتقوا) فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد . وقوله تعالى (بلى إن تصبروا وتتقوا) يعنى تصبروا على مصابرة عدوكم وتتقون وتطيعوا أمرى وقوله تعالى (ويأتوك من فورهم هذا) قال الحسن وقناة والريبع والسدى أى من وجههم هذا وقال مجاهد وعكرمة وأبو صالح أى من غضبهم هذا . وقال الضحاك . من غضبهم ووجههم . وقال العوفي عن ابن عباس . من سفرهم هذا ، ويقال من غضبهم هذا . وقوله تعالى (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) أى معلمين بالسيف وقال أبو إسحق السبيعي عن حارثة بن مضرب عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : كان سبأ الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض ، وكان سبأهم أيضا في نواصى خيولهم ،

(١) في نسخة الأزهر عن قتادة (٢) وفيها أمد الله المؤمنين

رواه ابن أبي حاتم . ثم قال حدثنا أبو زرعة حدثنا هبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه في هذه الآية (مسومين) قال : بالعهن الأحمر ، وقال مجاهد : (مسومين) أي محذوفة أعرافها معلمة نواصيا بالصوف الأبيض في أذنان الخيل . وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : أتت الملائكة محمدا صلى الله عليه وسلم مسومين بالصوف فسوم محمد وأصحابه أنفسهم وخيلهم ^(١) على سيماهم بالصوف وقال قتادة وعكرمة (مسومين) أي بسيا القتال : وقال مكحول . مسومين بالعائم . وروى ابن مردويه من حديث عبد القدوس بن حبيب عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ في قوله (مسومين) قال « معلنين » . وكان سينا الملائكة يوم بدر عمامهم سود ، ويوم حنين عمامهم حمراء ، وروى من حديث حسين ^(٢) بن مخارق عن سعيد عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس : قال لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر وقال ابن إسحق حدثني من لا أتهم عن مقسم عن ابن عباس قال : كان سينا الملائكة يوم بدر عمامهم بيض قد أرسلوها في ظهورهم ، ويوم حنين عمامهم حمراء . ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون عددا ومدا لا يضربون ، ثم رواه عن الحسن بن عمار عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس فذكر نحوه وقال ابن أبي حاتم حدثنا الأحمسي حدثنا وكيع حدثنا هشام بن عروة عن يحيى بن عباد أن الزبير رضي الله عنه كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجرا بها فنزلت الملائكة عليهم عمامهم صفراء ، رواه ابن مردويه من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير فذكره . وقوله تعالى (وما جعله الله إلا بشرا لكم ولتطمئن قلوبكم به) أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بانزالهم إلا بشارة لكم وتطيبها لقلوبكم وتطمئنا ، وإلا فإيما النصر من عند الله الذي لو شاء لاتنصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم ، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال (ذلك لو يشاء الله لاتنصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم) ولهذا قال ههنا (وما جعله الله إلا بشرا لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) أي هو ذو العزة التي لا ترام ، والحكمة في قدره والأحكام ثم قال تعالى (ليقطع طرفاً من الذين كفروا) أي أمرهم بالجهاد والجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين فقال (ليقطع طرفاً) أي ليهلك أمة (من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا) أي يرجعوا (خائبين) أي لم يحصلوا على ما أملوا . ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له فقال تعالى (ليس لك من الأمر شيء) أي بل الأمر كله إلى كما قال تعالى (فإيما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقال (ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء) وقال (إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقال محمد بن إسحق في قوله (ليس لك من الأمر شيء) أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فهم ثم ذكر بقية الأقسام فقال (أوتوب عليهم) أي مما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة (أو يعذبهم) أي في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم ، ولهذا قال (فإنهم ظالمون) أي يستحقون ذلك . وقال البخاري حدثنا جابر بن موسى أنبأنا عبد الله أنبأنا معمر عن الزهري حدثني سالم عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر « اللهم العن فلانا وفلانا » بعدما يقول « سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد » فأُنزل الله تعالى (ليس لك من الأمر شيء) الآية . وهكذا رواه النسائي من حديث عبد الله بن المبارك وعبد الرزاق كلاهما عن معمر بن وهب . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا أبو عقيل - قال أحمد . وهو عبد الله بن عقيل صالح الحديث ثقة - حدثنا عمرو بن حمزة عن سالم عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم العن فلانا وفلانا ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية » فنزلت هذه الآية (ليس لك من الأمر شيء) أوتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) فتب عليهم كلهم : وقال أحمد . حدثنا أبو معاوية العلاءي حدثنا خالد بن الحارث حدثنا محمد بن عجلان عن نافع عن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة قال : فأُنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) إلى آخر الآية قال : وهادم الله للإسلام . قال البخاري . قال محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم حتى أنزل الله تعالى (ليس لك من الأمر شيء) الآية وقال البخارى أيضاً : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع وربما قال : إذا قال «سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد : اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلعة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين . اللهم اشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» يجهر بذلك . وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر « اللهم العن فلانا وفلانا » لأحياء من أحياء العرب حتى أنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) الآية

وقال البخارى : قال حميد وثابت عن أنس بن مالك شج النبي ﷺ يوم أحد فقال « كيف يفلح قوم شجوا بنبيهم ؟ » فنزلت (ليس لك من الأمر شيء) وقد أسند هذا الحديث الذى علقه البخارى في صحيحه فقال في غزوة أحد : حدثنا يحيى بن عبد الله السلمي أخبرنا عبد الله أخبرنا معمر عن الزهري حدثني سالم بن عبد الله عن أبيه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر « اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا » بعد ما يقول « سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد » فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) الآية . وعن حنظلة بن أبي سفيان قال : سمعت سالم بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام فنزلت (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) هكذا ذكر هذه الزيادة البخارى معلقة برسالة ، وقد تقدمت مسندة متصلة في مسند أحمد آنفا

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم حدثنا حميد عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال « كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل » فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) انفرد به مسلم فرواه عن القعنبى عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس فذكره

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا الحسين بن واقد عن مظر عن قتادة قال : أصيب النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته ، وفرق حاجبه ، فوقع وعليه درعان والدم يسيل فمر به سالم مولى أبي حذيفة فأجلسه ومسح عن وجهه فأفاق وهو يقول « كيف يقوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله عز وجل ؟ » فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) الآية وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة بنحوه ، ولم يقل فأفاق . ثم قال تعالى (والله ما فى السموات وما فى الأرض) الآية أى الجميع ملك له ، وأهلها عبيد بين يديه (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أى هو المتصرف فلا معقب لحكمه ، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون والله غفور رحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ مَعْصِفَةً وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُطَيْبِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن تَوْبٍ إِلَّا أَلَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُم مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَلَهُمْ أَجْرٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافا مضاعفة كما كانوا في الجاهلية يقولون إذا حل أجل الدين إما أن تقضى وأما أن تربي فإن قضاء وإلا زاده في الدلة وزاده الآخر في القدر وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرا مضاعفا وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى وفي الآخرة ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها فقال تعالى (واتقوا النار التي أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) ثم نذبههم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمساورة إلى نيل القربات فقال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) أي كما أعدت النار للكافرين وقد قيل إن معنى قوله عرضها السموات والأرض تنبها على اتساع طولها كما قال في صفة فرش الجنة (بطائنها من إستبرق) أي فما ظنك بالظواهر وقيل بل عرضها كطولها لأنها قبة فيه تحت العرش والشيء الملقب والمستدير عرضه كطولوه وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح «إذا سألت الله الجنة فأسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وسقفها عرش الرحمن» وهذه الآية كقوله في سورة الحديد (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) الآية وقد روي في مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ أنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم «سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار» وقد رواه ابن جرير فقال حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أخبرني مسلم بن خالد عن أبي خزيمة عن سعيد بن أبي راشد عن يعلى بن مرة قال لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بمخص شيخا كبيرا قد فسد فقال قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب هرقل فتناول الصحيفة رجل عن يساره قال: قلت من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا معاوية فإذا كتاب صاحبي. إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض (١) فأين النار قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار» وقال الأعمش وسفيان الثوري وشعبة عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب أن ناسا من اليهود سألو عمر بن الخطاب عن جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال لهم عمر. أرايتم إذا جاء النهار أين الليل؟ وإذا جاء الليل أين النهار فقالوا لقد نزعتم مثلها من التوراة؟ رواه ابن جرير من ثلاثة طرق. ثم قال حدثنا أحمد بن حازم حدثنا أبو نعيم حدثنا جعفر بن برقان أنبأنا يزيد بن الأصم: أن رجلا من أهل الكتاب قال: يقولون (جنة عرضها السموات والأرض) فأين النار فقال ابن عباس رضي الله عنه أين يكون الليل إذا جاء النهار، وأين يكون النهار إذا جاء الليل وقد روى هذامرفوعا فقال البزار حدثنا محمد بن معمر حدثنا المغيرة بن سلمة أبو هاشم حدثنا عبد الواحد بن زياد عن عبيد الله بن عبد الله بن الأصم عن عمه يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال. أرايت قوله تعالى (جنة عرضها السموات والأرض) فأين النار قال: «أرايت الليل إذا جاء لبس كل شيء فأين النهار؟» قال حيث شاء الله قال «وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل» وهذا يحتمل معنيين (أحدهما) أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان. وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل، وهذا أظهر كما تقدم في حديث أبي هريرة عن البزار (الثاني) أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب فإن الليل يكون من الجانب الآخر فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش وعرضها كما قال الله عز وجل (كعرض السموات والأرض) والنار في أسفل سافلين فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض بين وجود النار والله أعلم

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال (الذين ينفقون في السراء والضراء) أي في الشدة والرخاء والنشاط والمكره والصحة والمرض وفي جميع الأحوال كما قال (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والاتفاق في مرضيه. والإحسان إلى خلقه من قرباتهم وغيرهم بأنواع البر. وقوله تعالى (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه، وغفوا مع ذلك عن أساء إليهم. وقد ورد في بعض الآثار «يقول الله تعالى يا ابن آدم إذا غضبت، اذكر أنك إذا غضبت فلا أهلكك فيمن أهلك»

رواه ابن أبي حاتم . وقد قال أبو يعلى في مسنده : حدثنا أبو موسى الزمن حدثنا عيسى بن شعيب الضرير أبو الفضل حدثني الربيع بن سليمان الخيري عن أبي عمرو بن أنس بن مالك عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « من كف غضبه كفف الله عنه عذابه ومن خزن لسانه ستر الله عورته ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره » وهذا حديث غريب وفي إسناده نظر . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن حدثنا مالك عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « ليس الشديد بالصرعة (١) ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » وقد رواه الشيخان من حديث مالك : وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد عن عبد الله وهو ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله » قالوا : يا رسول الله مامننا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال « اعلموا أنه ليس منكم أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله مالك من مالك إلا ما قدمت وما لوارثك إلا ما أشرت » قال : وقال رسول الله ﷺ « ما تعدون الصرعة فيكم ؟ قلنا الذي لا تصرعه الرجال قال « لا ، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب » قال : وقال رسول الله ﷺ « أتدرون ما الرقوب » قلنا الذي لا ولد له قال « لا ، ولكن الرقوب الذي لا يقدم من ولده شيئا » أخرج البخاري الفصل الأول منه وأخرج مسلم أصل هذا الحديث من رواية الأعمش به (حديث آخر) . قال الإمام أحمد . حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت عروة بن عبد الله الجعفي يحدث عن أبي حصبة أو ابن أبي حصين عن رجل شهد النبي ﷺ يخطب فقال « أتدرون (٢) ما الرقوب ؟ قلنا الذي لا ولد له قال « الرقوب كل الرقوب الذي له ولد فمات ولم يقدم منهم شيئا » قال « أتدرون من الصعوك ؟ قالوا الذي ليس له مال فقال النبي ﷺ « الصعوك كل الصعوك الذي له مال فمات ولم يقدم منه شيئا » قال : ثم قال النبي ﷺ « ما الصرعة » قالوا : الصريع الذي لا تصرعه الرجال : فقال ﷺ « الصرعة كل الصرعة الذي يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه ويقشعر شعره فيصرع غضبه » (حديث آخر) : قال الإمام أحمد . حدثنا ابن غير حدثنا هشام هو ابن عروة عن أبيه عن الأنخف بن قيس عن عم له يقال له حارثة بن قدامة السعدي أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قل لي قولا ينفعني وأقلل عليّ لعل أعيه : فقال رسول الله ﷺ : « لا تغضب » فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارا كل ذلك يقول « لا تغضب » وهكذا رواه عن أبي معاوية عن هشام به ، ورواه أيضا عن يحيى بن سعيد القطان عن هشام به . أن رجلا قال : يا رسول الله قل لي قولا وأقلل عليّ لعل أعقله : فقال « لا تغضب » الحديث انفرد به أحمد (حديث آخر) قال أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قال رجل يا رسول الله أوصني قال : « لا تغضب » قال الرجل ففكرت حين قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله ، انفرد به أحمد (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبي الأسود عن أبي ذر رضي الله عنه : قال كان يسقي على حوض له فجاء قوم فقالوا : أيكم يورد على أبي ذر ويحسب شعرات من رأسه ، فقال رجل : أنا فجاء فأورد على (٣) الحوض فدقه ، وكان أبودر قائما فجلس ثم اضطجع فقبل له ، يا أباذ لم جلست ثم اضطجعت : فقال . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » ورواه أبوداود عن أحمد بن حنبل بإسناده إلا أنه وقع في روايته عن أبي حرب عن أبي ذر والصحيح ابن أبي حرب عن أبيه عن أبي ذر كما رواه عبد الله بن أحمد عن أبيه (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن خالد حدثنا أبو وائل الصنعاني قال : كنا جلوسا عند عروة بن محمد إذ دخل عليه رجل فكلّمه بكلام أغضبه فلما أن أغضبه (٤) قام ثم عاد إلينا وقد توسأ فقال : حدثني أبي عن جدّي عطية هو ابن سعد السعدي - وقد كانت له صفة - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما نطقا النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوسأ » وهكذا رواه أبوداود من حديث إبراهيم بن خالد الصنعاني عن أبي وائل القاص المرادي الصنعاني قال أبو داود . أراه عبد الله بن يحيى (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن

(١) الصرعة بضم ففتح . (٢) في نسخة الأزهر : ماتعدون فيكم (٣) وفيها عليه : (٤) وفيها : غضب .

يزيد حدثنا نوح بن معاوية^(١) السلمي عن مقاتل بن حيان عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « من أنظر معسراً أو وضع عنه وقاه الله من فيح جهنم ألا إن عمل الجنة حزن بربوة - ثلاثاً - ألا إن عمل النار سهل بسهوة . والسعيد من وقى الفتن ، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبد لله إلا ملاً الله جوفه إيماناً » انفرد به أحمد وإسناده حسن ليس فيه مجروح ومثته حسن (حديث آخر في معناه) قال أبو داود حدثنا عقبه بن مكرم حدثنا عبد الرحمن يعني ابن مهدي عن بشر يعني ابن منصور عن محمد بن عجلان عن سويد بن وهب عن رجل من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفضه ملاً الله جوفه أمانة وإيماناً ومن ترك لبس ثوب جمال وهو قادر عليه - قال بشر أحسبه قال تواضعاً - كساه الله حلة الكرامة ومن توج الله كساه الله تاج الملك » (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن يزيد قال : حدثنا سعيد حدثني أبو مرحوم عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفضه دعاه الله على رموس الخلائق حتى يفخره من أي الحور شاء » ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث سعيد بن أبي أيوب به وقال الترمذي : حسن غريب (حديث آخر) قال : عبد الرزاق أنبأنا داود بن قيس عن زيد بن أسلم عن رجل من أهل الشام يقال له عبد الجليل عن عم له عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى (والكاظمين الغيظ) أن النبي ﷺ قال : « من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملاً الله جوفه أمانة وإيماناً » (حديث آخر) قال ابن مردويه : حدثنا أحمد بن محمد بن زياد أنبأنا يحيى ابن أبي طالب أنبأنا علي بن عاصم أخبرني يونس بن عبيد عن الحسن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « ما تجرع عبد من جرعة أفضل أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجهه الله » رواه ابن جرير ، وكذا رواه ابن ماجه عن بشر بن عمر عن حماد بن سلمة عن يونس بن عبيد به فقوله تعالى (والكاظمين الغيظ) أي لا يعملون غضبهم في الناس بل يكفون عنهم شرهم ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل . ثم قال تعالى (والعافين عن الناس) أي مع كلف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم فلا يبق في أنفسهم موجدة على أحد وهذا أكل الأحوال ولهذا قال (والله يحب المحسنين) فهذا من مقامات الإحسان وفي الحديث « ثلاث أقسم عليهن ما تقي من صدقة وما زاد الله عبداً بغو إلا عزاً ومن تواضع لله رفعه الله » وروى الحاكم في مستدركه من حديث موسى بن عقبة عن إسحق بن يحيى بن أبي طلحة القريشي عن عباد بن الصامت عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ويعط من حرمه ويصل من قطعه » ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقد أورده ابن مردويه من حديث علي وكعب بن عجرة وأبي هريرة وأم سلمة رضي الله عنهم بنحو ذلك وروى عن طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول أين العافون عن الناس هلموا إلى ربكم وخذوا أجوركم وحق على كل امرئ مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة » وقوله تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) أي إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا همام بن يحيى عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « إن رجلاً أذنب ذنباً فقال : رب إني أذنبت ذنباً فاغفره لي فقال الله عز وجل : عبدى عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ، ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره فقال تبارك وتعالى علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ثم عمل ذنباً آخر فقال رب إني عملت ذنباً فاغفره لي فقال عز وجل علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره فقال الله عز وجل علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به أشهدكم أنني قد غفرت لعبدى فليعمل ما شاء » أخرجاه في الصحيحين من حديث إسحق بن أبي طلحة بنحوه (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالا حدثنا هير حدثنا سعد الطائي حدثنا أبو الدله مولى أم المؤمنين سمع أباه هريرة قلنا يارسول الله : إذا رأيناك زقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة وإذا فارقتك أعجبتنا الدنيا وشمعنا النساء والأولاد فقال « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي كنتم عليها عندى لصافحتكم الملائكة بأ كفهم ولزارتكم في

بيوتكم . ولو لم تذبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم» قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال «لجنة ذهب ولينة فضة ، وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وتراها الزعفران ، من يدخلها ينعم لا يبأس ؛ ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول له الرب وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين » ورواه الترمذي وابن ماجه من وجه آخر من حديث سعد به ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة لما رواه الإمام أحمد بن حنبل حدثنا وكيع حدثنا مسعر وسفيان الثوري عن عثمان بن المغيرة الثقفي عن علي بن ربيعة عن أسماء بن الحكم الفزاري عن علي رضي الله عنه قال كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفعتني الله بما شاء منه . وإذا حدثني عنه غيره استحلفته فإذا حلف لي صدقته ؛ وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من رجل يذنب ذنبا فيتوضأ ويحسن الوضوء - قال مسعر - فيصلي - وقال سفيان - ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له » وهكذا رواه علي بن المديني والحميدي وأبو بكر بن أبي شيبة وأهل السنن وابن حبان في صحيحه والبخاري والدارقطني من طرق عن عثمان بن المغيرة به ، وقال الترمذي . هو حديث حسن ، وقد ذكرنا طرقه والكلام عليه مستقصى في مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وبالجملة فهو حديث حسن وهو من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن خليفة النبي ﷺ أبي بكر رضي الله عنهما ، وما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « ما منكم من أحد يتوضأ فيلغ - أو فيسبح - الوضوء ، ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ لهم وضوء النبي ﷺ ثم قال . سمعت النبي ﷺ يقول « من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، عن سيد الأولين وآخرين ، ورسول رب العالمين ، كما دل عليه الكتاب البين ، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين ، وقد قال عبدالرزاق أنبأنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) الآية بكى وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا محرز بن عون حدثنا عثمان بن مطر حدثنا عبدالغفور عن أبي نضرة عن أبي رجاء عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثرُوا منها فإن إبليس قال أهلك الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون » عثمان ابن مطر وشيخه ضعيفان وروى الإمام أحمد في مسنده من طريق عمرو بن أبي عمرو وأبي الهيثم العتوري عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال إبليس : يارب وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال الله تعالى . وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » وقال الحافظ أبو بكر البزار . حدثنا محمد بن النثي حدثنا عمر بن خليفة (١) سمعت أبا بدر يحدث عن ثابت عن أنس قال جاء رجل فقال يا رسول الله إني أذنبت ذنبا فقال رسول الله ﷺ « إذا أذنبت فاستغفر ربك قال فإني أستغفر ثم أعود فأذنب قال فإذا أذنبت فعد فاستغفر ربك فقالها في الرابعة وقال استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور » وهذا حديث غريب من هذا الوجه وقوله تعالى (ومن يغفر الذنوب إلا الله) أي لا يغفرها أحد سواه كما قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن مصعب حدثنا سلام بن مسكين والبارك (٢) عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ أتى بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال النبي ﷺ « عرف الحق لأهله » وقوله (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) أي تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ، ولم يستمروا على العصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها ، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه كما قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده . حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل وغيره قالوا : حدثنا أبو يحيى عبد الحميد الحماني عن عثمان بن واقد عن أبي نضرة عن مولى لأبي بكر عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » ورواه أبو داود

والترمذى والبرار في مسنده من حديث عثمان بن واقد - وقد وثقه يحيى بن معين به - وشيخه أبو نصر القاسطى واسمه سالم بن عبيد وثقه الإمام أحمد وابن حبان، وقول على بن المدنى والترمذى: ليس إسناد هذا الحديث بذلك الظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبي بكر ولكن جهالة مثله لا تضر لأنه تابعى كبير ويكفيه نسبه إلى أبي بكر فهو حديث حسن والله أعلم. وقوله (وهم يعلمون) وقال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير (وهم يعلمون) أن من تاب تاب الله عليه وهذا كقوله تعالى (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) وكقوله (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله ينج الله غفوراً رحماً) ونظائر هذا كثيرة جداً. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد أنبأنا جرير حدثنا حبان هو ابن زيد الشرعى عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو على المنبر «ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لاقاع القول، ويل للمصريين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون» تفرد به أحمد. ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم) أى جزاؤهم على هذه الصفات مغفرة من ربهم وحنان تجري من تحتها الأنهار (أى من أنواع المشروبات) (خالدين فيها) أى ما كثين فيها (ونعم أجر العاملين) يمدح تعالى الجنة.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَاسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهَدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسِكُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿

يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين لما (١) أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون (قد خلت من قبلكم سنن) أى قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين ولهذا قال تعالى (فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ثم قال تعالى (هذا بيان للناس) يعنى القرآن فيه بيان الأمور على جليتها وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم (وهدى وموعظة) يعنى القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدى لقلوبكم وموعظة أى زاجر عن المحارم والمآثم. ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين (ولا تهنوا) أى لا تضعفوا بسبب ما جرى (ولا تحزنوا) وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) أى العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون (إن يمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) أى إن كنتم قد أصابكم جراح وقتل منكم طائفة فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح (وتلك الأيام نداولها بين الناس) أى نديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت لكم العاقبة لنا فى ذلك من الحكمة، ولهذا قال تعالى (وليعلم الله الذين آمنوا) قال ابن عباس: فى مثل هذا لرى من يصبر على مناجرة الأعداء (ويشخدمكم شهداء) يعنى يقتلون فى سبيله ويبدلون مهجهم فى مرضاته (والله لا يحب الظالمين) وليمحص الله الذين آمنوا) أى يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب. وإلّا رفع لهم فى درجاتهم بحسب ما أصيبوا به. وقوله (ويمحق الكافرين) أى فانهم إذا ظفروا بغوا ويطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحققهم وفنائهم ثم قال تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) أى أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد، كما قال تعالى فى سورة البقرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا) الآية. وقال تعالى (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) الآية ولهذا قال ههنا (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) أى لا يحصل لكم دخول الجنة

حتى تبطلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله ، والصابرين على مقاومة الأعداء . وقوله (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) أى قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تمنون لقاء العدو وتحترقون عليه وتودون مناجزتهم ومصابرتهم فيها قد حصل لكم الذى تمنيتموه وطلبتموه فدونكم فقاتلوا وصابروا . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لا تمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لم يمتهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ولهذا قال تعالى (فقد رأيتموه) يعنى الموت شاهدتموه وقت (١) حد الأسنة واشتباك الرماح وصفوف الرجال للقتال والتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل . وهو مشاهدة ما ليس بحسوس كالحسوس كما تخيل الشاة صداقة الكرش ، وعداوة الذئب

الشاة صدافه الكش ، وعداوه الله
﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْتَبِهْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

لما انهزم ما انهزم من المسلمين يوم أحد وقتل من قتل منهم ، نادى الشيطان : ألا إن محمداً قد قتل ، ورجع ابن
قمية إلى الشركين فقال لهم : قتل محمد ، وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجه في رأسه ، فوقع ذلك في قلوب كثير من
الناس واعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل وجوزوا عليه ذلك كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم
السلام فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال ففي ذلك أنزل الله تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) أى له
أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه قال ابن أبي نجیح عن أبيه : أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو
يتشحط في دمه فقال له : يا فلان أشعرت أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قتل ، فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ قتلوا عن
دينكم فزّل (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) رواه الحافظ أبو بكر البهقي في دلائل النبوة . ثم قال تعالى منكراً
على من حصل له ضعف (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) أى رجعتم القهقري (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً
وسيجزي الله الشاكرين) أى الذين قاموا بإطاعته وقاتلوا عن دينه ، واتبعوا رسوله حيا وميتاً . وكذلك ثبت في الصحاح
واللسان والسنن وغيرها من كتب الاسلام من طرق متعددة تفيد القطع وقد ذكرت ذلك في مسندى الشيخين أبي بكر
وعمر رضي الله عنهما أن الصديق رضي الله عنه تلا هذه الآية لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال البخاري : حدثنا يحيى
ابن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب أخبرني أبو سلمة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن أبا بكر رضي الله عنه
أقبل على فرس من مسكنه بالسبح حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
مغطى (٢) بثوب حبرة : فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين :
أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها وقال الزهري : وحدثني أبو سلمة عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم (٣) الناس
وقال : اجلس يا عمر قال أبو بكر : أما بعد من كان يعبد محمداً فإن الله فأن الله حي لا يموت قال الله تعالى
(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) إلى قوله وسيجزي الله الشاكرين) قال : فوالله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه
الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم فأسمع (٤) بشر من الناس إلا يتلواها وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال والله
ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرقت حتى ماتت لاني رجلاي ، وحتى هويت إلى الأرض . وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا علي

(١) فيها : لمعان السيوف . (٢) وفيها : مغشى . (٣) وفيها : يحدث . (٤) وفيها : فاسمها بشر من الناس إلا تالها .

ابن عبد العزيز حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد حدثنا أسباط بن نصر عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس أن علياً كان يقول في حياة رسول الله ﷺ (أفان مات أوقتل اقلبتكم على أعقابكم) والله لا نقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، والله لئن مات أوقتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت ، والله إني لأخوه ووليه وابن عمه ووارثه فمن أحق به مني . وقوله تعالى (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً) أي لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له ، ولهذا قال (كتاباً مؤجلاً) كقوله (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) وكقوله (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) وهذه الآية فيها تشجيع للجناء وترغيب لهم في القتال فإن الإقدام والاحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه كما قال ابن أبي حاتم حدثنا العباس بن يزيد العبدى قال : سمعت أبا معاوية عن الأعمش عن حبيب بن ظبيان قال : قال رجل من المسلمين وهو حجير بن عدى : ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو وهذه النطفة - - - يعني دجلة - ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً . ثم أقحم فرسه دجلة ، فلما أقحم أقحم الناس ، فلما رآهم العدو قالوا : ديوان فهربوا . وقوله (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) أي من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدره الله له ، ولم يكن له في الآخرة من نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها وما قسم له في الدنيا كما قال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) وقال تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومةً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) ولهذا قال ههنا (وسنجزي الشاكرين) أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم ثم قال تعالى مسلماً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير) قيل : معناه كم من نبي قتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير . وهذا القول هو اختيار ابن جرير فإنه قال : وأما الذين قرأوا (قتل معه ربيون كثير) فأنهم قالوا إنما عني بالقتل النبي وبعض من معه من الربيين دون جميعهم ، وإنما نفي الوهن والضعف عن بقى من الربيين ممن لم يقتل ، قال : ومن قرأ قاتل فإنه اختار ذلك لأنه قال : لوقتوا لم يكن لقول الله (فما وهنوا) وجه معروف لأنه يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهتروا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا ، ثم اختار قراءة من قرأ (قتل معه ربيون كثير) لأن الله عاتب بهذه الآيات والى قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمداً قد قتل فعندهم الله على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم (أفان مات أوقتل) أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم و (اقلبتكم على أعقابكم) وقيل : وكم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير ، وكلام ابن إسحق في السيرة يقتضى قولاً آخر فإنه قال (وكأين من نبي أصابه القتل ومعه ربيون أي جاعات فما وهنوا بعد نبيهم ، وما ضعفوا عن عدوهم ، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم ، وذلك الصبر (والله يحب الصابرين) فجعل قوله (معه ربيون كثير) حالا ، وقد نصر هذا القول السهيلي وبالغ فيه ، وله اتجاه لقوله (فما وهنوا لما أصابهم) الآية ، وكذا حكا الأمل في مغازيه عن كتاب محمد بن إبراهيم ولم يحك غيره ، وقرأ بعضهم (قاتل معه ربيون كثير) أي ألوف ، وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبيرة وعكرمة والحسن وقادة والسدي والربيع وعطاء الخراساني : الربيون الجموع الكثيرة . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن (ربيون كثير أي علماء كثير ، وعنه أيضاً : علماء صبر أي أبرار أتقياء . وحكى ابن جرير عن بعض نخاة البصرة أن الربيين هم الذين يعبدون الرب عز وجل ، قال : وزد بعضهم عليه فقال : لو كان كذلك لقل الربيون بفتح الراء ، وقال ابن زيد . الربيون الأتباع والريعية والربايون الولاية (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا) قال قتادة والربيع ابن أنس . (وما ضعفوا) بقتل نبيهم (وما استكانوا) يقول : فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله ، وقال ابن عباس (وما استكانوا) تخشعوا ، وقال ابن زيد : وما ذلوا لعدوهم وقال محمد بن إسحق والسدي وقادة : أي ما أصابهم ذلك حين قتل نبيهم (والله يحب الصابرين *) وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (أي لم يكن لهم هجير ^(١)) إلا ذلك (فتأثم الله ثواب

(١) الهجير والهجرة ، والهجير بكسر الهاء وتشديد الجيم : الدأب والعادة كالذي يكثر جريانه على اللسان .

(الدنيا) أى النصر والظفر والعاقبة (وحسن ثواب الآخرة) أى جمع لهم ذلك مع هذا (والله يحب المحسنين)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثْبِكُمْ غَمًّا نَبَمَ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى (إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه فقال تعالى (بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم والله لطم بسبب كفرهم وشركهم مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال فقال (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وما أوهم النار وبئس مَثْوَى الظالمين) وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأحللت لى الغنائم، وأعطيت الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبى عدى عن سليمان التيمى عن سيار عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال «فضلنى الله على الأنبياء - أو قال على الأمم - بأربع، أرسلت إلى الناس كافة، وجعلت لى الأرض كلها ولأمتى مسجداً وطهوراً فأينما أدركت رجلاً من أمتى الصلاة فعنده مسجده وطهوره، ونصرت بالرعب مسيرة شهر يقذف فى قلوب أعدائى، وأحللت لى الغنائم» ورواه الترمذى من حديث سليمان التيمى عن سيار القرشى الأموى مولاهم الدمشقى سكن البصرة عن أبى أمامة صدى بن عجلان رضى الله عنه به وقال حسن صحيح. وقال سعيد بن منصور: أنبأنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن أبى يونس حدثه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «نصرت بالرعب على العدو» ورواه مسلم من حديث ابن وهب. وقال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن أبى بردة عن أبى موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعطيت خمساً بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً وأحللت لى الغنائم ولم تحل لى من كان قبلى ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة، وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة» (١) وإنى قد اختبأت شفاعتى لمن مات لا يشرك بالله شيئاً» تفرد به أحمد. وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) قال قذف الله فى قلب أبى سفيان الرعب فرجع إلى مكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن أباسفيان قد أصاب منكم طرفاً، وقد رجع وقذف الله فى قلبه الرعب» رواه ابن أبى حاتم. وقوله تعالى (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) قال ابن عباس، وعدهم الله النصر وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين فى قوله تعالى (إذ تقول ربكم بأجمعته آلاف من الملائكة مسومين) أن ذلك كان يوم أحد لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة تأخر الوعد الذى كان مشروطاً بالثبات

والطاعة ولهذا قال (ولقد صدقكم الله وعده) أى أول النهار (إذ تحسونهم) أى تقتلونهم (بإذنه) أى بتسليطه إياكم عليهم (حتى إذا فشلتم) وقال ابن جرير ، قال ابن عباس الفشل الجبن (وتنازعتم في الأمر وعصيتهم) كما وقع للرماة (من بعدما أراكم ماتحبون) وهو الظفر بهم (منكم من يريد الدنيا) وهم الذين رغبوا في الغنم حين رأوا الهزيمة (ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليتليكم) ثم أدا لهم عليكم ليخبركم ويمتحنكم (ولقد عفا عنكم) أى غفر لكم ذلك الصنيع وذلك والله أعلم لكثرة عدد العدو وعددهم وقلة عدد المسلمين وعددهم قال ابن جرير : قوله (ولقد عفا عنكم) قال لم يستأصلكم وكذا قال محمد بن إسحق رواها ابن جرير (والله ذو فضل على المؤمنين) قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن عبيد الله ^(١) عن ابن عباس أنه قال : ما نصر الله النبي ^ﷺ في موطن كما نصره يوم أحد فأنكرنا ذلك فقال ابن عباس : بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله إن الله يقول في يوم أحد (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) يقول ابن عباس والحسن الفشل ^(٢) (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعدما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) الآية ، وإنما عني بهذا الرماة ، وذلك أن النبي ^ﷺ أقامهم في موضع وقال « احفظوا رماة فان رأيتمونا تقتل فلا تتصرونا ، وإن رأيتمونا نغتم فلا تشركونا » فلما غنم النبي ^ﷺ وأناخوا ^(٣) عسكر المشركين أكب الرماة جميعا في العسكر ينهبون ، ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم هكذا - وشبك بين يديه - وانتشبا فلما أخل الرماة تلك الحلة التي كانوا فيها دخلت الحيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب بعضهم بعضا والتسبوا وقتل من المسلمين ناس كثير ، وقد كان النصر لرسول الله ^ﷺ أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة ، وجال المشركون جولة نحو الجبل ولم يبلغوا حيث يقول الناس الغار إنما كانوا تحت المهراس ، وصاح الشيطان قتل محمد فلم يشكوا به أنه حق ، فلما رأوا ذلك ما نشك أنه حق حتى طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين السعدين نعرفه بكتفيه إذا مشى قال : ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا قال : فرقي نخونا وهو يقول « اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله » ويقول مرة أخرى « ليس لهم أن يعلونا » ^(٤) » حتى انتهى إلينا فكش ساعة فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل اعل هبل - مرتين يعني إلهه - أين ابن أبي كبشة أين ابن أبي قحافة أين ابن الخطاب فقال عمر رضى الله عنه يارسول الله ألا أجيبه قال « بلى » فلما قال : اعل هبل قال عمر : الله أعلى وأجل فقال أبو سفيان قد أنعمت قال عنها فقال أين ابن أبي كبشة أين ابن أبي قحافة أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أبو بكر وهما أنا عمر . قال : فقال أبو سفيان . يوم يوم بدر ، الأيام دول وإن الحرب سجال قال : فقال عمر . لا سواء قتلتنا في الجنة وقتلناكم في النار قال : انكم تزعمون ذلك فقد خبنا وخسرنا اذن فقال أبو سفيان انكم ستجدون في قتالكم مثالا لم يكن ذلك عن رأى سرائنا قال : ثم أدركته حمية الجاهلية فقال أمانه إن كان ذلك لم نكرهه هذا حديث غريب وسياق عجيب وهو من مراسلات ابن عباس فانه لم يشهد أحدا ولا أبوه وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي النضر الفقيه عن عثمان بن سعيد عن سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس به وهكذا رواه ابن أبي حاتم والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سليمان بن داود الهاشمي به ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها . فقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد عن عطاء ابن السائب عن الشعبي عن ابن مسعود قال ان النساء كن يوم أحد خالف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبرأته ليس منا أحد يريد الدنيا حتى أنزل الله (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليتليكم) فلما خالف أصحاب رسول الله ^ﷺ وعصوا ما أمروا به أفرد النبي ^ﷺ في تسعة ، سبعة من الأنصار ورجلين من قريش وهو عاشرهم ^ﷺ ، فلما أزهقوه قال « رحم الله رجلا ردهم عنا » قال قتاد رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل ، فلما أزهقوه أيضا قال « رحم الله رجلا ردهم عنا » فلم يزل يقول « رحم الله رجلا ردهم عنا » فقال رسول الله ^ﷺ لصاحبيه « ما أنصفنا أصحابنا » فجاء أبو سفيان فقال اعل هبل فقال رسول الله ^ﷺ « قولوا الله أعلى وأجل » فقالوا : الله أعلى وأجل فقال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ^ﷺ « قولوا : الله مولانا والكافرون لا مولى لهم » فقال أبو سفيان : يوم يوم بدر . فيوم علينا ويوم لنا . ويوم نساء ويوم نسر : حنظلة بحنظلة

(١) في نسخة الأزهر : أبي عبد الله (٢) كذا بالنسخ (٣) في نسخة الأزهر : أزاخوا (٤) فيها اللهم انه .

وفلان بفلان : فقال رسول الله ﷺ : « لاسواء : أما قتلتنا فأحياء يرزقون ؛ وأما قتلتكم ففي النار يعذبون » فقال أبو سفيان : لقد كان في القوم مثله وإن كانت لعن غير ملائنا ما أمرت ولا نهيت ، ولا أحببت ولا كرهت ، ولا ساءني ولا سرني ، قال : فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه ، وأخذت هند كبده فلا كتبها فلم تستطع أن تأكلها فقال رسول الله ﷺ : « أكلت شيئاً ؟ قالوا : لا قال « ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة في النار » قال : فوضع رسول الله ﷺ حمزة فصلى عليه وحيى برجل من الأنصار فوضع إلى جنبه فصلى عليه فرفع الأنصارى وترك حمزة حتى جىء بآخر فوضع إلى جنب حمزة فصلى عليه ، ثم رفع وترك حمزة ، حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة ، تفرد به أحمد أيضاً وقال البخارى : حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحق عن البراء قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال « لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتدن في الجبل رفعن عن سوقهن . قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة فقال عبد الله بن جبير : عهد إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً فأشرف أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد ، فقال « لا تجيبوه » فقال أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ قال : « لا تجيبوه » . فقال : أفي القوم ابن الخطاب ، فقال : إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أئمة لآل . فلم يملك عمر نفسه فقال له كذبت يا عدو الله أتبي الله لك ما يحزنك ؟ قال أبو سفيان : اعل هبل فقال النبي ﷺ « أجيبوه » قالوا : ما تقول ؟ قال « قولوا : الله أعلى وأجل » قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أجيبوه » قالوا : ما تقول ؟ قال « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » قال أبو سفيان يوم يوم بدر ، والحرب سجال ؛ وتستجدون مثله لم آمربها ولم تسؤني ؛ تفرد به البخارى من هذا الوجه ؛ ثم رواه عن عمرو بن خالد عن زهير بن معاوية عن أبي إسحق عن البراء بنحوه ؛ وسأني بأبسط من هذا - وقال البخارى أيضاً : حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت لما كان يوم أحد هزم المشركون فصرخ إبليس . أي عباد الله أخرناكم فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان فقال : أي عباد الله أي أنى قال : قالت فوالله ما احتجزوا حتى قتله فقال حذيفة يغفر الله لكم قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله (١) عز وجل . وقال محمد بن إسحق حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير (٢) عن جده أن الزبير بن العوام قال : والله لقد رأيته ينظر إلى خدم هند وصواحبها مشمرت هوارب مادون أخذهن كثير ولا قليل ، ومالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون الذهب وخوا ظهورنا للخيـل فأوتينا من أديبارنا وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم . قال محمد بن إسحق . فلم يزل لواء المشركين صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فدفعته لقريش فلا ثوابها . وقال السدي عن عبد خير عن علي بن (٣) عبد الله بن مسعود قال ما كنت أرى إن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) وقد روى من غير وجه عن ابن مسعود وكذا روى عن عبد الرحمن بن عوس وأبي طلحة ، رواه ابن مردويه في تفسيره وقوله تعالى (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) قال ابن إسحق حدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أحد بني عدى بن النجار قال : انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا بأيديهم فقال ما يخافكم ؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ قال فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ؛ ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه - وقال البخارى حدثنا حسان بن حسان حدثنا محمد بن طلحة حدثنا حميد عن أنس بن مالك أن عمه يعنى أنس بن النضر غاب عن بدر فقال : غبت عن أول قتال النبي ﷺ لأن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أجد فلقى يوم أحد فهزم الناس فقال : اللهم إني أعتمد إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ؛ فتقدم بسيفه فلقى سعد بن معاذ فقال : أين يأسعد إني أجد ربح الجنة دون أحد فمضى

(١) في نسخة الأزهر : لقي الله . (٢) وفيها . عن أبيه . (٣) وفيها : عند جواب .

فقتل فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو بينانه وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم ، هذا لفظ البخارى ؛ وأخرجه مسلم من حديث ثابت بن أنس بنحوه - وقال البخارى أيضا : حدثنا عبدان حدثنا أبو حمزة عن عثمان بن موهب قال : جاء رجل حج البيت فرأى قوما جلوسا فقال : من هؤلاء القعود ؟ قالوا . هؤلاء قريش قال : من الشيخ ؟ قالوا : ابن عمر فأتاه فقال إني سألك عن شيء فحدثني قال سل قال : أنشدك بحرمة هذا البيت أن أعلم أن عثمان بن عفان فر يوم أحد ؟ قال : نعم قال : فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهد بها قال : نعم قال فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهد بها قال نعم فكبر فقال ابن عمر : تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه ؛ وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحتها بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه » وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز بيطن مكة من عثمان لبعثه مكانه فبعث عثمان فكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة فقال النبي ﷺ بيده اليمنى « هذه يد عثمان » فضرب بها على يده فقال « هذه يد عثمان اذهب بها الآن معك » ثم رواه البخارى من وجه آخر عن أبي عوانة عن عثمان بن عبد الله بن موهب

وقوله تعالى (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد) أى صرفكم عنهم إذ تصعدون أى فى الجبل هاريين من أعدائكم . وقرأ الحسن وقتادة (إذ تصعدون) أى فى الجبل (ولا تلوون على أحد) أى وأتمم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب (والرسول يدعوكم فى أخراكم) أى وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء ، وإلى الرجعة والعودة والكرة . قال السدى لما اشتد المشركون على المسلمين بأحد فهزمهم دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها . فجعل الرسول ﷺ يدعو الناس « إلى عباد الله ، إلى عباد الله » فذكر الله صعودهم إلى الجبل ، ثم ذكر دناء النبي ﷺ إليهم فقال (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم) وكذا قال ابن عباس وقتادة والريعي وابن زيد . وقال عبد الله بن الزبعرى : يذكر هزيمة المسلمين يوم أحد فى قصيدته وهو مشرك بعد لم يسلم الذى يقول فى أولها

يا غراب الين أسمعته فقل * إنما تنطق شيئا قد فعل * إن للخير وللشر مدى * وكلا ذلك وجه وقبل

إلى أن قال : ليت أشياخى يدر يشهدوا * جنح الخرج من وقع الأسل

حين حلت بقاء بركه * واستحر القتل فى عبد الأشل * ثم خفوا عندنا كم رقصا

رقص الحفان يعلو فى الجبل * قتلنا الضعف من أشرافهم * وعدلنا ميل بدر فاعتدل

الحفان صغار النعم . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أفرد فى اثنى عشر رجلا من أصحابه كما قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا زهير حدثنا أبو إسحق عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرماة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلا - عبد الله بن جبير قال : ووضعهم موضعا وقال « إن رأيتمونا نخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » قال فهزمهم قال : فلقد والله رأيت النساء يشتددن على الجبل وقد بدت أسواقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله : الغنيمة أى قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ فقالوا إنا والله لنأتين الناس فلنصين من الغنيمة . فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا مهزمين فذلك الذى يدعوهم الرسول فى أخراهم فلم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا اثنا عشر رجلا فأصابوا منا سبعين ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر مائة وأربعين ، سبعين أسيرا وسبعين قتلا . قال أبو سفيان : أفى القوم محمد أفى القوم محمد فى القوم محمد؟ - ثلاثا - قال . فنهزم رسول الله ﷺ أن يجيئوه ، ثم أتال : أفى القوم ابن أبي قحافة . أفى القوم ابن أبي قحافة ؟ أفى القوم ابن الخطاب أفى القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال ، أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتهم ، فإملاك عمر نفسه أن قال : كذبت والله يا عدو الله إن الدين عددت لأحياء كلهم ، وقد أبى الله لك ما سوؤك فقال : يوم يوم بدر ، والحرب سجال . إنكم ستجدون فى القوم مثلة

لم أمرها ولم تسؤنى . ثم أخذ يرتجز يقول اعل هبل اعل هبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا تجيبوه ؟ » قالوا : يا رسول الله ما نقول ؟ قال « قولوا الله أعلى وأجل » قال لنا العزى ولا عزى لكم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا تجيبوه ؟ » قالوا يا رسول الله وما نقول ؟ قال « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » وقد رواه البخارى من حديث زهير بن معاوية مختصراً ، ورواه من حديث إسرائيل عن أبي إسحق بأبسط من هذا كما تقدم والله أعلم - وروى البيهقي في دلائل النبوة من حديث عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر قال : انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد وبقي معه أحد عشر رجلاً من الأنصار وطلحة بن عبيد الله وهو يصعد في الجبل ، فلحقهم المشركون فقال « ألا أحد لهؤلاء » فقال : طلحة أنا يا رسول الله فقال « كما أنت يا طلحة » ، فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله ، فقاتل عنه ، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقي معه ثم قتل الأنصارى فلحقوه فقال « ألا رجل لهؤلاء » فقال طلحة مثل قوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل قوله ، فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله ، فقاتل عنه وأصحابه يصعدون ثم قتل فلحقوه ، فلم يزل يقول مثل قوله الأول فيقول طلحة فأنا يا رسول الله فيجسه فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له فيقاتل مثل من كان قبله ، حتى لم يبق معه إلا طلحة فقتلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لهؤلاء ؟ » فقال طلحة : أنا فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأصيب ما مله فقال حسن (١) : فقال رسول الله « لوقلت باسم الله وذكرت اسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء » ثم صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم مجتمعون . وقد روى البخارى عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن إسماعيل عن قيس بن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء وفيها النبي صلى الله عليه وسلم يعني يوم أحد - وفي الصحيحين من حديث معتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي عثمان النهدي قال : لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض تلك الأيام التي قاتل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا طلحة بن عبيد الله وسعد عن حديثهما (٢) . وقال الحسن بن عرفة حدثنا مروان بن معاوية عن هشام بن هشام الزهرى قال سمعت سعيد بن المسيب يقول : سمعت سعد بن أبي وقاص يقول : مثل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم كنيته يوم أحد وقال « ارم فذاك أبى وأمى » ، وأخرجه البخارى عن عبد الله بن محمد عن مروان بن معاوية وقال محمد بن إسحق حدثني صالح بن كيسان عن بعض آل سعد عن سعد بن أبي وقاص أنه روى يوم أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سعد فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يناولني النبل ويقول « ارم فذاك أبى وأمى » حتى إنه لناولني السهم ليس له نصل فأرمى به - وثبت في الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال : رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشداً قتالاً ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده ، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام - وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد وثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار واثنتين من قریش ، فلما أرهاقوه قال « من يردم عنا وله الجنة - أو وهو رفيق في الجنة - » فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم أرهاقوه أيضاً فقال « من يردم عنا وله الجنة » فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبيه « ما أنصفنا أصحابنا » رواه مسلم عن هذبة بن خالد عن حماد بن سلمة به نحوه . وقال أبو الأسود عن عروة بن الزبير قال : كان أبى بن خلف أخو بنى جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال « بل أنا أقتله إن شاء الله » فلما كان يوم أحد أقبل أبى في الحديد مقنعا وهو يقول : لا نجوت إن مجا محمد ، فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله فاستقبله مصعب بن عمير أخو بنى عبد الدار بنى رسول الله ﷺ بنفسه فقتل مصعب بن عمير وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبى بن خلف من فرجة بين سابعة الدرع والبيضة وطعنه فيها بحربة فوقع إلى الأرض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يحور حوار الثور ، فقالوا له : ما أجزعك إنما هو خدش ؟ فذكر لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « بل أنا أقتل أبى » ثم قال . واللهى نفسى بيده لو كان هذا النبى بى بأهل ذى المجاز لما اتوا أجمعون ،

(١) : فحسب بكسر الحاء وتشديد السين كلمة يقولها من أصابه عى غفلة ما آله أو أحرقة فيها (٢) هـ نا يياض بالنسخة الأميرية

فمات إلى النار (فسحقاً لأصحاب السعير) وقدر واه موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري عن سعيد بن المسيب بنحوه - وذكر محمد بن إسحق قال : لما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول : لانبجوت إن نبجوت فقال القوم : يا رسول الله يعطف عليه رجل منا فقال رسول الله ﷺ « دعوه » فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، فقال بعض القوم كما ذكر لي فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم منه انتفض بها انتفاضة تطاير ناعنه تطاير الشعر عن ظهر البعير . إذا انفض ثم استقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم فطعنه في عنقه طعنة تداد منها عن فرسه مراراً - وذكر الواقدي عن يونس بن بكير عن محمد (١) بن إسحق عن عاصم بن عمرو بن قتادة عن عبد الله ابن كعب بن مالك عن أبيه نحوه ذلك . وقال الواقدي وكان ابن عمر يقول مات أبي بن خلف بيطن رابع ، فإني لأسير بيطن رابع بعد هوى من الليل فإذا أنا بنارتأجج لي فهبته ، وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذها يسبح بالعطش ، وإذا رجل يقول لا تسقه ، فإن هذا قتل رسول الله ﷺ ، هذا أبي بن خلف - وثبت في الصحيحين من رواية عبد الرزاق عن معمر بن همام بن منبه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله ﷺ » وهو حينئذ يشير إلى رابعته - واشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله » وأخرجه البخاري أيضاً من حديث ابن جريج عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس . قال اشتد غضب الله على من قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده في سبيل الله واشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله ﷺ - وقال ابن إسحق : أصيبت رابعة رسول الله ﷺ ، وشج في وجنته ، وكلت شفته ، وكان الذي أصابه عتبة ابن أبي وقاص . فحدثني صالح بن كيسان عن من حدثه عن سعد بن أبي وقاص قال : ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص ، وإن كان ماعلمته لسيء الخلق مبغضاً في قومه ، ولقد كفاني فيه قول رسول الله ﷺ « اشتد غضب الله على من دعى وجه رسول الله ﷺ » - وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن عثمان الحريري عن مقسم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبي وقاص يوم أحد حين كسر رابعته ودعى وجهه فقال « اللهم لا تحل عليه الحول حتى يموت كافراً » فما حال عليه الحول حتى مات كافراً إلى النار - وذكر الواقدي عن ابن أبي سبرة عن إسحق بن عبد الله بن أبي فروة عن أبي الحويرث عن نافع بن جبير قال سمعت رجلاً من المهاجرين يقول شهدت أحداً فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية ورسول الله ﷺ في وسطها كل ذلك يصرف عنه ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يومئذ يقول : دلوني على محمد لانبجوت إن نبجوا ورسول الله ﷺ إلى جنبه ليس معه أحد ، ثم جاوزه فعاتبه في ذلك صفوان فقال : والله ما رأيته أحلف بالله أنه منا ممنوع ، خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاهدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك . قال الواقدي : والذي ثبت عندنا أن الذي دعى وجتي رسول الله ﷺ ابن قمئة ، والذي دعى شفته وأصاب رابعته عتبة بن أبي وقاص : وقال أبو داود الطيالسي حدثنا ابن المبارك عن إسحق بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله أخبرني عيسى بن طلحة عن أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذاك يوم كله لطلحة ، ثم أنشأ يحدث قال : كنت أول من فاء يوم أحد فرأيت رجلاً يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه وأراه قال حمية فقلت : كن طلحة حيث فاتني فافتنى فقلت يكون رجلاً من قومي أحب إلى وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفه وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطف الشئ خطفاً لا أعرفه فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح فأنتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كسرت رابعته وشج في وجهه ، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر فقال رسول الله ﷺ « عليك صاحبكما يريد طلحة » وقد نرف فلم نلتفت إلى قوله قال : وذهبت لأنعم ذلك من وجهه ، فقال أبو عبيدة : أقسمت عليك بحق لما تركتني فتركته ، فذكره أن يتناولها بيده فيؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأزم عليها بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته مع الحلقة وذهبت لأصنع ما صنع فقال : أقسمت عليك بحق لما تركتني ، قال ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى ، ووقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتماً فأصلحنا من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتينا طلحة في بعض تلك الجوار ، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة ورمية وضربة ، وإذا قد قطعت أصبعه ،

فأصلحنا من شأنه ، ورواه الهيثم بن كليب والطبراني من حديث إسحق بن يحيى به . وعند الهيثم قال أبو عبيدة أنشدك الله يا أبا بكر ألا تركتني ؟ فأخذ أبو عبيدة السهم فيه فجعل ينفضه كراهية أن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استل السهم فيه فبدت ثنية أبي عبيدة ، وذكر تمامه ، واختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه ، وقد ضعف على بن المديني هذا الحديث من جهة إسحق بن يحيى هذا فإنه تكلم فيه يحيى بن سعيد القطان وأحمد ويحيى بن معين والبخاري وأبو زرعة وأبو حاتم ومحمد بن سعد والنسائي وغيرهم . - وقال ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن عمر بن السائب حدثه أنه بلغه أن مالكا أبا أبي سعيد الخدري لما جرح النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد مص الجرح حتى أتاه ولاح أبيض فقيل له محه فقال ، لا والله لا أمجه أبدا ، ثم أدبر يقاتل فقال النبي صلى الله عليه وسلم « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » فاستشهد . - وقد ثبت في الصحيحين من طريق عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد أنه سئل عن جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : جرح وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسرت رباطه وهشمت البيضة على رأسه صلى الله عليه وسلم فكانت فاطمة تغسل الدم وكان على يسكب عليه الماء بالمجن فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصيد فأحرقها حتى إذا صارت رمادا ألصقته بالجرح فاستمسك الدم وقوله تعالى (فأثابكم غما بغم) أي فجزاكم غما على غم كما تقول العرب نزلت ببنى فلان ، ونزلت على بني فلان وقال ابن جرير : وكذا قوله (ولأصلبكم في جذوع النخل) أي على جذوع النخل قال ابن عباس : الغم الأول بسبب الهزيمة وحين قيل قتل محمد صلى الله عليه وسلم ، والثاني حين علاهم المشركون فوق الجبل ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم ليس لهم أن يعلونا » . وعن عبد الرحمن بن عوف : الغم الأول بسبب الهزيمة ، والثاني حين قيل قتل محمد صلى الله عليه وسلم كان ذلك عندهم أشد وأعظم من الهزيمة ، رواها ابن مردويه . وروى عن عمر بن الخطاب نحو ذلك وذكر ابن أبي حاتم عن قتادة نحو ذلك أيضا . وقال السدي : الغم الأول بسبب ما فاتهم من الغنيمة والفتح ، والثاني بإشراف العدو عليهم . وقال محمد بن إسحاق (فأثابكم غما بغم) أي كربا بعد كرب قتل من قتل من إخوانكم ، وعلاو عدوكم عليكم ، وما وقع في أنفسكم من قول : قتل نبيكم ، فكان ذلك متبعا عليكم غما بغم . وقال مجاهد وقتادة . الغم الأول سماعهم قتل محمد ، والثاني ما أصابهم من القتل والجراح . وعن قتادة والربيع بن أنس عكسه . وعن السدي . الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة ، والثاني إشراف العدو عليهم وقد تقدم هذا القول عن السدي . قال ابن جرير وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال (فأثابكم غما بغم) فأثابكم نعمكم أيها المؤمنون بحرمان الله إياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم ، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ بعد الذي كان قد أراكم في كل ذلك ما تحبون بمعصيتكم أمر ربكم ، وخلافكم أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم ، غم ظنكم أن نبيكم قد قتل وميل العدو عليكم ونبوكم منهم . وقوله تعالى (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) أي على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم (ولما أصابكم) من الجراح والقتل قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف والحسن وقتادة والسدي (والله خير بما تعملون) سبحانه وبحمده لا إله إلا هو جل وعلا

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ آخِذِينَ بِمَا أُتُوا مِنَ الْآيَاتِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لَمَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿

يقول تعالى تمتنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمانة وهو النعاس الذي غشيهم وهم مشتملون السلاح في حال همهم وغمهم والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان كما قال في سورة الانفال في قصة بدر (إذ يغشيكم النعاس أمانة منه) الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو نعيم ووكيع عن سفيان عن عاصم عن أبي رزين عن عبد الله بن مسعود قال النعاس في القتال من الله وفي الصلاة من الشيطان وقال البخاري وقال لي خليفة حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة قال كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارا يسقط وأخذه ويسقط وأخذه. هكذا رواه في المغازي معلقا ورواه في كتاب التفسير مسندا عن شيان عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة قال غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد قال فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه ويسقط وأخذه وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال رفعت رأسي يوم أحد وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت حجبته من النعاس لفظ الترمذي وقال حسن صحيح ورواه النسائي أيضا عن محمد بن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن أبي قتيبة عن ابن أبي عدي كلاهما عن حميد عن أنس قال قال أبو طلحة كنت فيمن ألقى عليه النعاس الحديث وهكذا رواه عن الزبير وعبد الرحمن بن عوف وقال البيهقي حدثنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو الحسين محمد بن يعقوب حدثنا محمد بن إسحق الثقفي حدثنا محمد بن عبد الله بن المبارك الخزومي حدثنا يونس ابن محمد حدثنا شيان عن قتادة حدثنا أنس بن مالك أن أبا طلحة قال غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه ويسقط وأخذه قال والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) أي إنهم أهل شك وريب في الله عز وجل هكذا رواه هذه الزيادة وكأنها من كلام قتادة رحمه الله وهو كما قال فإن الله عز وجل يقول (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يغشى طائفة منكم) يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله وينجز له مأموله ولهذا قال (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) كما قال في الآية الأخرى (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا) إلى آخر الآية وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة وأن الاسلام قد باد وأهله وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة ثم أخبر تعالى عنهم أنهم (يقولون) في تلك الحال (هل لنا من الأمر من شيء) فقال تعالى (قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك) ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قاتلنا ههنا) أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ قال ابن إسحق فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لقد رأيته مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره قال فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمع إلا كالحلم يقول (لو كان لنا من الأمر شيء ما قاتلنا ههنا) فحفظتها منه وفي ذلك أنزل الله (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قاتلنا ههنا) لقول معتب رواه ابن أبي حاتم قال الله تعالى (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال إلى مضاجعهم) أي هذا قدر قدره الله عز وجل وحكم حتم لا محيد عنه ولا مناص منه وقوله تعالى (وليبتلي الله مافي صدوركم وليريح مافي قلوبكم) أي يختبركم بما جرى عليكم ليعبر الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال والأفعال (والله علم بذات الصدور) أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر ثم قال تعالى (إن الدين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) إنما استرهم الشيطان ببعض ما كسبوا (أي ببعض ذنوبهم السالفة كما قال بعض السلف إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها) ثم قال تعالى (ولقد عفا الله عنهم) أي عفا كان منهم من الفرار (إن الله غفور رحيم) أي يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم وقد تقدم حديث ابن عمر في شأن عثمان وتولية يوم أحد وأن الله قد عفا عنه مع من عفا عنهم عند قوله (ولقد عفا عنكم) ومناسب ذكره ههنا قال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن عاصم عن شقيق قال لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة فقال له الوليد مالي أرا الجفوت أمير المؤمنين عثمان فقال له عبد الرحمن أبلغه أني لم أفر يوم حنين قال عاصم يقول يوم أحد ولم تخلف

عن بدر ولم أترك سنة عمر قال فانطلق فأخبر بذلك عثمان قال : فقال عثمان أما قوله إني لم أفر يوم حنين فكيف يعيرني بذلك ولقد عفا الله عنه فقال تعالى (إن الدين تولوا منكم يوم التقي الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم) وأما قوله إني تخلفت يوم بدر فإني كنت أمرض رقية بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت وقد ضرب لي رسول الله ﷺ بسهم ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم فقد شهد وأما قوله إني تركت سنة عمر فإني لا أطيقها ولا هو فأنته فحدثه بذلك

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم) أى عن إخوانهم (إذا ضربوا في الأرض) أى سافروا للتجارة ونحوها (أو كانوا غزى) أى كانوا في الغزو (لو كانوا عندنا) أى في البلد (ما ماتوا وما قتلوا) أى ما ماتوا في السفر وما قتلوا في الغزو وقوله تعالى (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) أى خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم ثم قال تعالى ردا عليهم (والله يحيي ويميت) أى بيده الخلق وإليه يرجع الأمر ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلا بمشيئته وقدره ولا يزداد في عمر أحد ولا ينقص منه شيء إلا بقضائه وقدره (والله بما تعملون بصير) أى علمه وبصره نافذ في جميع خلقه لا يخفى عليه من أمورهم شيء وقوله تعالى (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) تضمن هذا أن القتل في سبيل الله والموت أيضا وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه وذلك خير من البقاء في الدنيا وجميع حطامها القاني ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فصوره ورجعه إلى الله عز وجل فيجزيه بعمله ان خيرا فخير وان شرا فشر فقال تعالى (ولئن متتم أو قتلتم لإلى الله تحشرون)

﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّبِثَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفَسُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

يقول تعالى مخاطبا رسوله ممثنا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره التاركين لرجره وأطاب لهم

لفظه (فبارحة من الله لنت لهم) أى بأى شىء جعلك الله لهم لنا لولا رحمة الله بك وبهم ، وقال قتادة (فبارحة من الله لنت لهم) يقول فبرحة من الله لنت لهم وما صلة ، والعرب تصلها بالعرفه كقوله (فما نقضهم ميثاقهم) وبالنكرة كقوله (عماديل) وهكذا ههنا قال (فما رحمة من الله لنت لهم) أى برحة من الله ، وقال الحسن البصرى هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به ، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) وقال الإمام أحمد حدثنا حيوة حدثنا بقية حدثنا محمد بن زياد حدثني أبو راشد الحراني قال : أخذ يبدى أبو أمامة الباهلي وقال : أخذ يبدى رسول الله ﷺ فقال « يا أبا أمامة إن من المؤمنين من يلين له قلبي » تفرد به أحمد ثم قال تعالى (ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك) والفظ الغليظ المزاد به هنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك (غليظ القلب) أى لو كنت سىء الكلام قاسى القلب عليهم لا نفضوا عنك وتركوك ، ولكن الله جمعهم عليك ، ولأن جانبك لهم تأليفا لقولهم ، كما قال عبد الله بن عمرو إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح . وقال أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذى أنبأنا بشر بن عبيد حدثنا عمار بن عبد الرحمن عن المسعودى عن أبي مليكة عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله أمرني بمداواة الناس كما أمرني بأقامة الفرائض » حديث غريب . ولهذا قال تعالى (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث تطييبا لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير فقالوا يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغناد لسرنا معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول اذهب فحنن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون . وشاورهم أيضا أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم . وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو ، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم ، فخرج إليهم . وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة عامثا فأبى ذلك عليه السعدان ، سعد بن معاذ وسعد بن عباد ، فترك ذلك . وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين . فقال له الصديق . إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين ، فأجابه إلى ما قال وقال صلى الله عليه وسلم في قصة الافك « أشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أنبأوا أهلي ورموهم ، وإيم الله ما علمت على أهلي من سوء وأبنوهم بمن ؟ والله ما علمت عليه إلا خيرا » واستشار عليا وأسامة في فراق عائشة رضى الله عنها . فكان صلى الله عليه وسلم يشاورهم في الحروب ونحوها وقد اختلف الفقهاء هل كان ذلك واجبا عليه أو من باب الندب تطييبا لقلوبهم ؟ على قولين وقد روى الحاكم في مستدركه : أنبأنا أبو جعفر محمد بن محمد البغدادى حدثنا يحيى بن أيوب العلاف بمصر حدثنا سعيد بن أبي مريم أنبأنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس في قوله تعالى (وشاورهم في الأمر) قال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وكذا رواه السكاكي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : نزلت في أبي بكر وعمر ، وكنا حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووزيره وأبوى المسلمين وقد روى الإمام أحمد . حدثنا وكيع حدثنا عبد الحميد عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر « لو اجتمعا في مشورة ما خالفكما » وروى ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : سئل رسول الله ﷺ عن العزم ؟ فقال « مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم » وقد قال ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يحيى بن بكير عن سفيان عن عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « المستشار مؤتمن » ورواه أبو داود والترمذى وحسنه النسائي من حديث عبد الملك بأبسط من هذا . ثم قال ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أسود بن عامر عن شريك عن الأعمش عن أبي عمرو الشيباني عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المستشار مؤتمن » تفرد به . وقال أيضا حدثنا أبو بكر حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة وعلى بن هاشم عن ابن أبي ليلى عن أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه » تفرد به أيضا

وقوله تعالى (فإذا عزمتم فتوكل على الله) أى إذا شاورتمهم فى الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه (إن الله يحب المتوكلين)
 وقوله تعالى (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهذه
 الآية كما تقدم من قوله (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال (وعلى الله فليتوكل
 المؤمنون) وقوله تعالى (وما كان لنبى أن يغفل) : قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد : ما ينبغي لنبى أن يغفل .
 وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا المسيب بن واضح حدثنا أبو إسحق الفزارى عن سفيان بن خفيف عن عكرمة
 عن ابن عباس قال : فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا : لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها فأنزل الله (وما كان لنبى
 أن يغفل) أى يغفل . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا خفيف
 حدثنا مقسم حدثنى ابن عباس أن هذه الآية (وما كان لنبى أن يغفل) نزلت فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض
 الناس : لعل رسول الله أخذها ، فأكثروا فى ذلك فأنزل الله (وما كان لنبى أن يغفل ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة)
 وكذا رواه أبو داود والترمذى جميعا عن قتبية عن عبد الواحد بن زياد به وقال الترمذى حسن غريب ، ورواه بعضهم
 عن خفيف عن مقسم يعنى مرسل ، ورواه ابن مردويه من طريق أبى عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس قال
 اتهم المنافقون رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء فقد فأنزل الله تعالى (وما كان لنبى أن يغفل) وروى من غير وجه
 عن ابن عباس نحو ما تقدم ، وهذا تنزيه له صلوات الله وسلامه عليه من جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة وقسم الغنيمة
 وغير ذلك . وقال العوفى عن ابن عباس (وما كان لنبى أن يغفل) أى بأن يقسم لبعض سرايا ويترك بعضا ، وكذا قال
 الضحاك . وقال محمد بن إسحق (وما كان لنبى أن يغفل) بأن يترك بعض ما أنزل إليه فلا يبلغ أمته . وقرأ الحسن البصرى
 وطاوس ومجاهد والضحاك (وما كان لنبى أن يغفل) بضم الياء أى يخان وقال قتادة والريبع بن أنس : نزلت هذه الآية يوم
 بدر ، وقد غل بعض أصحابه ، ورواه ابن جرير عنهما ، ثم حكى عن بعضهم أنه فسر هذه القراءة بمعنى يتهم بالخيانة ثم قال
 تعالى (ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة) ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وهذا تهديد شديد ووعد أكيد
 وقد وردت السنة بالنهى عن ذلك أيضا فى أحاديث متعددة قال الإمام أحمد حدثنا عبد الملك حدثنا زهير يعنى ابن محمد
 عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن عطاء بن يسار عن أبى مالك الأشجعى عن النبی صلى الله عليه وسلم قال « أعظم
 الغلول عند الله ذراع من الأرض تجدون الرجلين جارين فى الأرض - أوفى الدار - فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعا
 فإذا قطعه طوقه من سبع أرضين يوم القيامة » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن نمير حدثنا
 ابن لهيعة عن ابن هبيرة والحارث بن يزيد عن عبد الرحمن بن جبير قال سمعت المستورد بن شداد يقول سمعت رسول الله
 صلى الله عليه وسلم يقول « من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له
 خادم فليتخذ خادما ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة ، ومن أصاب شيئا سوى ذلك فهو غال » هكذا رواه الإمام أحمد وقد
 رواه أبو داود بسند آخر وسياق آخر فقال : حدثنا موسى بن مروان الرقى حدثنا المعافى حدثنا الأوزاعى عن الحارث
 ابن يزيد عن جبير بن نفير عن المستورد بن شداد : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كان لنا عملا
 فليكتسب زوجة ، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادما فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنا » قال : قال أبو بكر
 أخبرت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من اتخذ غير ذلك فهو غال - أو سارق » قال شيخنا الحافظ المزى رحمه الله
 رواه أبو جعفر بن محمد الفريانى عن موسى بن مروان فقال : عن عبد الرحمن بن جبير بدل جبير بن نفير وهو أشبه بالصواب
 (حديث آخر) قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا حفص بن بشر حدثنا يعقوب القمى حدثنا حفص بن حميد عن
 عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لهائفاء ينادى يا محمد يا محمد
 فأقول : لأملك لك من الله شيئا قد بلغتك ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل جملا له رغاء يقول : يا محمد يا محمد
 فأقول لأملك لك من الله شيئا قد بلغتك ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرس له حمحة ينادى يا محمد يا محمد فأقول
 لأملك لك من الله شيئا قد بلغتك ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل قسبا من آدم ينادى يا محمد يا محمد فأقول لأملك لك
 من الله شيئا قد بلغتك » لم يروه أحد من أهل الكتب الستة

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن الزهري سمع عروة يقول : حدثنا أبو حميد الساعدي قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدي لى . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال « ما بال عامل نبعثه على عمل فيقول : هذا لكم وهذا أهدي لى . أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتى أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته ، إن كان بغيره له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر » ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ، ثم قال « اللهم هل بلغت » ثلاثا ، وزاد هشام بن عروة فقال أبو حميد . بصرته عيني وسمعت أذني واسألو زيد بن ثابت ، أخرجه من حديث سفيان بن عيينة ، وعند البخاري وأسألو زيد بن ثابت ، ومن غير وجه عن الزهري ، ومن طرق عن هشام بن عروة ، كلاهما عن عروة به . (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنا إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن عروة بن الزبير عن أبي حميد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « هدايا العمال غلول » وهذا الحديث من أفراد أحمد ، وهو ضعيف الإسناد ، وكأنه مختصر من الذي قبله والله أعلم ، (حديث آخر) قال أبو عيسى الترمذى في كتاب الأحكام : حدثنا أبو كريب حدثنا أبو أسامة عن داود بن يزيد الأودى عن المغيرة بن شبل عن قيس بن أبي حازم عن معاذ بن جبل قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فلما سرت أرسل في أثرى فرددت فقال « أتدرى لم بعثت إليك ؟ لاتصين شيئا بغير إذنى فإنه غلول (ومن يغفل يأت بماغل يوم القيامة) لهذا دعوتك فامض لعمالك » هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفي الباب عن عدى بن عميرة وبريدة والمستورد بن شداد وأبي حميد وابن عمر ؛ (حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا إسماعيل بن علي حدثنا أبو حيان يحيى بن سعيد التيمي عن أبي زرعة عن ابن عمر وابن جرير عن أبي هريرة قال . قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال « لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بغيره رغاء فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حممة فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت . فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك » أخرجه من حديث أبي حيان به . (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل بن أبي خالد حدثني قيس عن عدى بن عميرة الكندي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس من عمل لنا منكم عملا فسكننا منه مخيطا فما فوقه فهو غل يأتى به يوم القيامة » قال : فقام رجل من الأنصار أسود - قال مجاهد : هو سعد بن عبادته كأتى أنظر اليه - فقال يا رسول الله اقبل منى عمالك قال « وما ذاك ؟ » قال سمعتك تقول كذا وكذا قال « وأنا أقول ذلك الآن ، من استعملناه على عمل فليجيء بقليله وكثيره ، فما أوتى منه أخذه ، وما نهى عنه انتهى » وكذا رواه مسلم وأبو داود من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد به (حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا أبو معاوية عن أبي إسحاق الفزاري عن ابن جريج حدثني منبوذ رجل من آل أبي رافع عن الفضل بن عبد الله بن أبي رافع عن أبي رافع قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى العصر ربما ذهب إلى بني عبد الأشهل فيتحدث معهم حتى ينحدر إلى المغرب قال أبو رافع : فينا^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم مسرعا إلى المغرب إذ مر بالبقيع فقال « أفلك أفلك » فلزق في درعى وتأخرت وظننت أنه يريدنى فقال « مالك ؟ » قلت أحدث حدثا يا رسول الله : قال « وما ذاك ؟ » قال : إنك قلت لى قال « لا ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعيا على آل فلان ففعل مرة فدرع الآن مثلها من نار » (حديث آخر) قال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن سالم الكوفي المفلوج - وكان ثقة - حدثنا عبيد بن الأسود عن القاسم بن الوليد عن أبي صادق عن ربيعة بن ناجية عن عباد بن الصامت قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ الوبرة من ظهر البعير من الغنم ثم يقول « مالى فيه إلا مثل ما لأحدكم ، إياكم والغلول فان الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة ، أدوا الخيط والخيط وما فوق ذلك ، وجاهدوا في سبيل الله القريب والبعيد ، في الحضر والسفر فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، إنه لينجى الله به من الهم والغم ؛ وأقيموا حدود الله في القريب والبعيد ولا تأخذكم

(١) هكذا بالأصل ولعله قد سقط لفظ كان .

في الله لومة لأثم» وقد روى ابن ماجه بعضه عن المفالج به . (حديث آخر) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ردوا الخياط والخيط ، فان الغلول عار ونار وشار على أهله يوم القيامة » (حديث آخر) قال أبو داود . حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن مطرف عن أبي الجهم عن أبي مسعود الأنصاري قال : بعثني رسول الله ﷺ ساعيا ثم قال : « انطلق أبا مسعود لألفينك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غلته » قال إذا لا أنطلق قال « إذا لا أكرهك » تفرد به أبو داود . (حديث آخر) قال أبو بكر بن مردويه . أنبأنا محمد بن أحمد بن إبراهيم أنبأنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة أنبأنا عبد الحميد بن صالح أنبأنا أحمد ابن أبان عن علقمة بن مرثد عن أبي بريدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الحجر يرمى به في جهنم فهو سبعين خريفا ما يبلغ قعرها ويؤتى بالغلول فيقذف معه ثم يقال لمن غل به انت به فذلك قوله (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) » (حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا عكرمة بن عمار حدثني سماك الخنفي أبو زميل حدثني عبد الله بن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم خير أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : فلان شهيد وفلان شهيد ، حتى أتوا على رجل فقالوا فلان شهيد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلا إني رأيته في النار في بردة غلها - أوعبائه - » ثم قال رسول الله ﷺ « اذهب فتنادي الناس إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون » قال فخرجت فتناديت إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، وكذا رواه مسلم والترمذي من حديث عكرمة بن عمار به وقال الترمذي حسن صحيح (حديث آخر عن عمر رضي الله عنه) قال ابن جرير : حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب حدثني عبد الله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن موسى بن جبير حدثه أن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحباب الأنصاري حدثه أن عبد الله ابن أنيس حدثه أنه تذكر هو وعمر بن الخطاب يوما الصدقة فقال ألم تسمع قول رسول الله ﷺ حين ذكر غلول الصدقة « من غل منها بعيرا أو شاة فانه يحمله يوم القيامة » ؟ قال عبد الله بن أنيس . بلى ورواه ابن ماجه عن عمرو بن سوار عن عبد الله بن وهب به (حديث آخر) قال ابن جرير : حدثنا يحيى بن سعيد الأموي حدثنا أبي حدثنا يحيى بن سعيد عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن عباد مصدقا فقال « يا سعد إياك أن تجيء يوم القيامة ببعير تحمله له رغاء » قال لا آخذنه ولا أجىء به فأعفاه ثم رواه من طريق عبيد الله عن نافع به نحوه (حديث آخر) قال أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا عبد العزيز بن محمد حدثنا صالح بن محمد بن زائدة عن سالم بن عبد الله أنه كان مع مسامة بن عبد الملك في أرض الروم فوجد في متاع رجل غلولا قال فسأل سالم بن عبد الله فقال حدثني أبي عبد الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من وجدتم في متاعه غلولا فأحرقوه - قال وأحسبه قال - واضربوه » قال فأخرج متاعه في السوق فوجد فيه مصحفا فسأل سالما فقال به وتصدق بضمنه وكذا رواه علي بن المديني وأبو داود والترمذي من حديث عبد العزيز بن محمد الدراوردي زاد أبو داود وأبو إسحق الفزاري كلاهما عن أبي واقد الليثي الصغير صالح بن محمد بن زائدة به وقال علي بن المديني والبخاري وغيرهما هذا حديث منكر من رواية أبي واقد هذا وقال الدارقطني الصحيح أنه من فتوى سالم فقط وقد ذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث الإمام أحمد بن حنبل ومن تابعه من أصحابه وقد رواه الأموي عن معاوية عن أبي إسحق عن يونس بن عبيد عن الحسن قال : عقوبة الغال أن يخرج رحله فيحرق على مافيه . ثم روى عن معاوية عن أبي إسحاق عن عثمان بن عطاء عن أبيه عن علي قال الغال يجمع رحله فيحرق ويجلد دون حد المملوك ويحرم نصيبه وخالفه أبو حنيفة ومالك والشافعي والجمهور فقالوا لا يحرق متاع الغال بل يعزر تعزير مثله وقد قال البخاري وقد امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة على الغال ولم يحرق متاعه والله أعلم - وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر أنبأنا إسرائيل عن أبي إسحق عن جبير بن مالك قال : أمر بالمصاحف أن تغير قال : فقال ابن مسعود من استطاع منكم أن يغسل مصحفا فليغسله فانه من غل شيئا جاء به يوم القيامة ثم قال قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين مرة أفأترك ما أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم - وروى وكيع في تفسيره عن شريك عن إبراهيم بن مهاجر عن إبراهيم قال لما أمر بتحريق المصاحف قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أيها الناس غلوا المصاحف فانه من غل يأت بما غل يوم القيامة ، ونعم الغل المصحف يأتي به أحكم يوم القيامة - وقال أبو داود

عن سمرة بن جندب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غنم غنيمة أمر بلالا فينادي في الناس فيجوزوا بغنائهم فيخمسهم ويقسمه فجاء رجل يوما بعد النداء بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا كان مما أصبناه من الغنيمة فقال « أسمعته بلالا ينادي » ثلاثا قال : نعم قال « فما منعك أن تجيء » فاعتذر إليه فقال « كلا أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله منك » وقوله تعالى (أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) أى لا يستوى من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه ، وأجير من وبيل عقابه ومن استحق غضب الله وألزم به فلا يحيد له عنه ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير ، وهذه الآية لها نظائر كثيرة في القرآن كقوله تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) كقوله (أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) الآية . ثم قال تعالى (هم درجات عند الله) قال الحسن البصرى ومحمد بن إسحق : يعنى أهل الخير وأهل الشر درجات ، وقال أبو عبيدة والكسائي : منازل يعنى متفاوتون في منازلهم ، درجاتهم في الجنة ودرجاتهم في النار ، كقوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا) الآية ، ولهذا قال تعالى (والله بصير بما يعملون) أى وسيوفهم إياها ، لا يظلمهم خيرا ولا يزيدهم شرا ، بل يجازى كل عامل بعمله : وقوله تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) أى من جنسهم ليمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، كما قال تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها) أى من جنسكم وقال تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهم واحد) الآية . وقال تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى) وقال تعالى (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم) فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه ولهذا قال تعالى (يتلو عليهم آياته) يعنى القرآن (ويزكهم) أى يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم (ويعلمهم الكتاب والحكمة) يعنى القرآن والسنة (وإن كانوا من قبل) أى من قبل هذا الرسول (لئلا ضلال مبين) أى لئلا غى وجهل ظاهر جلى بين لكل أحد

﴿ أَوَلَمْ أَصْلَحْتُكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَابَتْكُمْ مَثَلُهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقْيِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنْكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ هَيْمُ وَقَعَدُوا أَوْ أَطَاعُوا مَا قَتَلُوا قُلْ فَأَدْرِكُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلْمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

يقول تعالى (أولما أصابكم مصيبة) وهى ما أصيب منهم يوم أحد من قتلى السبعين منهم (قد أصبتم مثلها) يعنى يوم بدر فانهم قتلوا من المشركين سبعين قتلا وأسروا سبعين أسيرا قلتهم أنى هذا أى من أين جرى علينا هذا (قل هو من عند أنفسكم) قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى أنبأنا أبو بكر بن أبى شيبه حدثنا قراد بن نوح حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا اسماء الحنفى أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون وفر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وكسرت ربايعته ، وهشمت الببضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله (أولما أصابكم مصيبة قد أصبم مثلها قلتهم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) بأخذكم الفداء . وهكذا رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غزوان وهو قراد بن نوح بإسناده ولكن بأطول منه ، وهكذا قال الحسن البصرى وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا إسماعيل بن علية عن ابن

عون ح قال سنيد وهو حسين وحدثني حجاج عن جريج عن محمد بن عبيدة عن علي قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين ، إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم قال : فدعا رسول الله ﷺ الناس فذكر لهم ذلك فقالوا : يا رسول الله عشائرننا وإخواننا ألا نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا ، ويستشهد منا عدتهم ، فليس في ذلك مانكره ؟ قال فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا ، عدة أسارى أهل بدر ، وهكذا رواه النسائي والترمذي من حديث أبي داود الحفري عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن سفيان بن سعيد عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين به ، ثم قال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة : وروى أبو أسامة عن هشام نحوه وروى عن ابن سيرين عن عبيدة عن النبي ﷺ مرسل . وقال محمد بن إسحق وابن جرير والريعي بن أنس والسدي (قل هو من عند أنفسكم) أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتهم يعني بذلك الرماة (إن الله على كل شيء قدير) أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ثم قال تعالى (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيلذن الله) أي فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحهم لآخرين كان بقضاء الله وقدره ، وله الحكمة في ذلك (ولعلم المؤمنين) أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا (ولعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم) يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الاتيان والقتال والمساعدة ، ولهذا قال (أو ادفعوا) قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو صالح والحسن والسدي : يعني كثروا سواد المسلمين ، وقال الحسن بن صالح ادفعوا بالدعاء ، وقال غيره رابطوا ، فتعالوا قاتلوا (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) قال مجاهد يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم ؛ ولكن لاتلقون قتالا . قال محمد بن إسحق : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ومحمد بن يحيى بن خيان وعاصم بن عمر بن قتادة والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ ؛ وغيرهم من علمائنا كلهم قد حدث قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يعني حين خرج إلى أحد في ألف رجل من أصحابه ؛ حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انحاز عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاث الناس فقال : أطاعهم فخرج وعصاني ووالله ما ندري علام تقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ، فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول : يا قوم أذكركم الله أن تتخذوا نبيكم وقومكم عند ما حضر من عدوكم قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن لا نرى أن يكون قتال : فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغى الله عنكم ومضى رسول الله ﷺ . قال الله عز وجل (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) استدلوا به على أن الشخص قد يتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر ، وفي حال أقرب إلى الإيمان لقوله (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) ثم قال تعالى (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته ، ومنه قولهم هذا (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) فانهم يتحققون أن جندا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من أشرافهم يوم بدر . وهم أضعاف المسلمين أنه كائن بينهم قتال لا محالة . ولهذا قال تعالى (والله أعلم بما يكتُمون) ثم قال تعالى (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ماقتلوا) أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ماقتلوا مع من قتل ، قال الله تعالى (قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) أي إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لاتعتون ، والموت لابد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . قال مجاهد عن جابر بن عبد الله : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ

مَنْ اللَّهُ وَفَضْلُ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالُوا لَكُمْ إِنْ الْإِنْسَانُ قَدْ جُمِعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا
وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى ديارِهِمْ فَأَتَوْا أَهْلَهُمْ بِحَسَنَاتٍ * إِنَّهُمْ لَفِي شَكَكٍ
كَبِيرٍ وَلَئِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار . قال محمد بن
جرير : حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا عمرو بن يونس عن عكرمة حدثنا إسحق بن أبي طلحة حدثني أنس بن مالك في أصحاب
رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله إلى أهل بئر معونة قال : لا أدرى أربعين أو سبعين ، وطى ذلك الماء
عمر بن الطفيل الجعفرى فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوا غارا مشرفا على الماء
فقمعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض أيكم يبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل هذا الماء فقال - أراه أبو
ملحان الأنصارى - أنا أبغ رسالة رسول الله ﷺ (١) فخرج حتى أتى حول بيته فاجتأ (٢) أمام البيوت ثم قال يا أهل
بئر معونة إني رسول رسول الله إليكم ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فأمنوا بالله ورسوله
فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة
فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عمر بن الطفيل وقال ابن إسحق : حدثني أنس بن مالك أن الله
أنزل فيهم قرآنا بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناها زمانا وأنزل
الله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) وقد قال مسلم في صحيحه : حدثنا
محمد بن عبد الله بن غير حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال : إنا سألنا عبد الله عن هذه
الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول
الله ﷺ فقال «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك
القناديل ، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئا ؟ فقالوا : أى شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة
حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن نترد أرواحنا
في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا » وقد روى نحوه من حديث أنس
وأبي سعيد (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال « مامن نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يسره أن يرجع
إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة » تفرد به مسلم من طريق حماد (حديث آخر) قال الإمام
أحمد حدثنا علي بن عبد الله المدينى حدثنا سفيان بن محمد بن علي بن ربيعة السلمي عن عبد الله بن محمد بن عقيل
عن جابر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعلمت أن الله أحيا أباك فقال له : نعم فقال له أرد إلى
الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى قال إني قضيت أمهم اليها لا يرجعون » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقد ثبت في الصحيحين
وغيرها أن أبا جابر وهو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى رضى الله عنه قتل يوم أحد شهيدا . قال البخارى
وقال أبو الوليد عن شعبة عن ابن المنكدر سمعت جابرا قال لما قتل أبى جعلت أبكى وأكشفت الثوب عن وجهه
فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يهوى والنبي ﷺ لم يبه فقال النبي ﷺ « لا تبكيه - أو ما تبكيه - مازالت الملائكة
تظله بأجنحتها حتى رفع » وقد أسنده هو ومسلم والنسائى من طرق عن شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال :
لما قتل أبى يوم أحد جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكى وذكر تمامه بنحوه : (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا

(١) قوله أهل هذا الماء إلى هنا سقط من النسختين وترك له يامى في الأميرية وقتلناه من تفسير ابن جرير . (٢) في نسخة الأزهر فاخبتا .

يعقوب حدثنا أبي عن أبي إسحاق حدثنا إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد عن أبي الزبير المكي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ « لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم قالوا يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهّدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله هذه الآيات (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) وما بعدها » وهكذا رواه أحمد ، ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن إسماعيل بن عياش عن محمد بن إسحاق به . ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق به ، ورواه أبو داود والحاكم عن إسماعيل بن أمية عن أبي الزبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكره ، وهذا أثبت . وكذا رواه سفيان الثوري عن سالم الألفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - وروى الحاكم في مستدركه من حديث أبي إسحاق الفزاري عن سفيان عن إسماعيل (١) بن أبي خالد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وكذلك قال قتادة والربيع والضحاك أنها نزلت في قتلى أحد . (حديث آخر) قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا هارون بن سليمان أنبأنا علي بن عبد الله المديني أنبأنا موسى بن إبراهيم ابن كثير بن بشير بن الفاكه الأنصاري سمعت طلحة بن خراش بن عبد الرحمن بن خراش بن الصمت الأنصاري قال سمعت جابر بن عبد الله قال : نظر إلى رسول الله ﷺ ذات يوم فقال « يا جابر مالي أراك مهتما ؟ » قلت يا رسول الله استشهدنا أي وترك ديننا وعيالا قال : فقال « ألا أخبرك ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحا » قال علي والكفاح المواجهة « قال سئني أعطك قال : أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب عز وجل إنه قد سبق مني القول انهم إليها لا يرجعون قال أي رب فأبلغ من ورأي فأنزل الله (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا) الآية » ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن سليمان بن سليط الأنصاري عن أبيه عن جابر به نحوه ، وكذا رواه البيهقي في دلائل النبوة من طريق علي ابن المديني به ، وقد رواه البيهقي أيضا من حديث أبي عباد الأنصاري وهو عيسى بن عبد الله (٢) إن شاء الله عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال النبي ﷺ لجابر « يا جابر ألا أبشرك » قال بلى بشرك الله بالخير قال « شعرت بأن الله أحيأك فقال تمن علي عبيدي ما شئت أعطك قال يا رب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك وأقتل فيك مرة أخرى قال إنه سلف مني أنه إليها لا يرجع » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن ابن إسحاق حدثنا الحارث بن فضيل الأنصاري عن محمود بن لبيد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « الشهداء على بارق نهر يباب الجنة فيه قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية » تفرد به أحمد ، وقد رواه ابن جرير (٣) عن أبي كريب حدثنا عبد الرحمن بن سليمان وعبيدة عن محمد بن إسحاق به وهو إسناده جيد ؛ وكان الشهداء أقسام منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ومنهم من يكون على هذا النهر يباب الجنة وقد يمتلئ أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح والله أعلم - وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضا فيها وتأكل من ثمارها وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة ، وهو بإسناده صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله عن الزهري عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » قوله « يعلق » أي يأكل وفي هذا الحديث « إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة » وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير حصر فهي كالكوكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فانها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الكريم المنان أن يعمتنا على الإيمان - وقوله تعالى (فرحين بما آتاهم الله) إلى آخر الآية أي الشهداء

(١) في نسخة الأزهري : عن أبي سفيان عن إسماعيل (٢) وفيها : ابن عبد الرحمن (٣) وفيها ابن جرير

الذين اتوا في سبيل الله أحياء عند ربهم ، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم ، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم نسأل الله الجنة . وقال محمد بن إسحق (ويستبشرون) أى ويسرون بلحوق من لحقهم^(١) من إخوانهم على مامضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذى أعطاهم ، قال السدى يؤتى الشهيد بكتاب فيه يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، فيسر بذلك كما يسر أهل الدنيا بغنائهم إذا قدم قال سعيد بن جبير : لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : يا ليت إخواننا الذين فى الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة ، فإذا شهدوا القتال بأشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة ، وأخبرهم أى ربهم أنى قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أتم فيه فاستبشروا بذلك فذلك قوله (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) الآية وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا فى غداة واحدة ، وقت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم ويلعنهم قال أنس ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع « أن بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » ثم قال تعالى (يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) قال محمد بن إسحق : استبشروا أى سروا لما عابنوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم ، وقلم ذكر الله فضلا ذكر به الأنبياء وثوابا أعطاهم الله إياه إلا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم ، وقوله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح) هذا كان يوم حمراء الأسد وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم ، فلما استمروا فى سيرهم ندموا لم لا نتموا على أهل المدينة وجعلوها الفيلة ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ نذب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعهم ويرهبهم أن بهم قوة وجلدا ، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الواقعة يوم أحد سوى جابر بن عبد الله رضى الله عنه لما سذكركه فانتدب الساموت على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ . قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو عن عكرمة قال : لما رجع المشركون عن أحد قالوا لا محمدا قتلتم ، ولا الكواعب أردقتم ، بشما صنعتم . ارجعوا فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فندب المسلمين فاستدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد - أو بئر أبى عيينة - الشك من سفيان - فقال المشركون : نرجع من قابل ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت تعد غزوة فأنزل الله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) وروى ابن مردويه من حديث محمد بن منصور عن سفيان ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس فذكركه - وكان محمد بن إسحق : كان يوم أحد يوم السبت النصف من شوال ، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن رسول الله ﷺ فى الناس بطلب العدو ، وأذن مؤذنه أن لا يخرج من معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس فكلهم جابر بن عبد الله بن عمرو ابن حرام فقال يا رسول الله إن أبى كان خلفنى على أخوات لى سبع وقال : يا بنى إنه لا ينبغي لى ولا لك أن تترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ، ولست بالذى أوترك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسى فتخلف على أخواتك فتخلف عليهن ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج معه ؛ وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهبا للعدو وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ليظنوا به قوة ، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم قال محمد بن إسحق فحدثنى عبد الله بن خزيمة بن زيد بن ثابت عن أبى السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى عبد الأشهل ، كان قد شهد أحدا قال : شهدنا أحدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأخى رجعا جريحين ، فلما أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج فى طلب العدو وقلت لأخى - أو قال لى - أتفوتنا غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله ما لنا من دابة نركبها ، ومامننا إلا جريح ثقيل فخرجنا مع رسول

الله ﷺ ، وكنت أيسر جراحامنه ؛ فكان إذا غلب حملته عقبة ؛ حتى اتبينا إلى ما انتهى إليه المسلمون . وقال البخارى حدثنا محمد بن سلام حدثنا أبو معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها (الذين استجابوا لله والرسول) الآية قلت لعروة : يا ابن أخى كان أبوك منهم الزبير وأبو بكر رضى الله عنهما لما أصاب نبي الله صلى الله عليه وسلم ما أصابه يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا فقال « من يرجع في أثرهم » فانتدب منهم سبعون رجلا فيهم أبو بكر والزبير هكذا رواه البخارى منفردا بهذا السياق ، وهكذا رواه الحاكم في مستدركه عن الأصم عن أبي العباس (١) الدورى عن أبي النضر عن أبي سعيد المؤدب عن هشام بن عروة به ، ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه كذا قال ، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار وهدي بن عبد الوهاب عن سفيان بن عيينة عن هشام بن عروة به وهكذا رواه سعيد بن منصور وأبو بكر الحميدى في مسنده عن سفيان به وقد رواه الحاكم أيضا من حديث إسماعيل بن أبي خاله عن التيمي عن عروة وقال : قالت لى عائشة إن أباك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه - وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا عبد الله بن جعفر من أصل كتابه أنبأنا عبد الله بن الزبير أنبأنا سفيان أنبأنا هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ « إن كان أبواك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح أبو بكر والزبير » ورفع هذا الحديث خطأ محض من جهة إسناده لخالفته رواية الثقات من وقفه على عائشة رضى الله عنها كما قدمناه ، ومن جهة معناه فإن الزبير ليس هو من آباء عائشة ، وإنما قالت ذلك عائشة لعروة بن الزبير لأنه ابن أختها أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهم - وقال ابن جرير ، حدثني محمد بن سعد حدثني عمى حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قال : إن الله قذف في قلب أبي سفيان الرعب يوم أحد بعدما كان منه ما كان فرجع إلى مكة فقال النبي ﷺ « إن أباسفيان قد أصاب منكم طرفا ، وقد رجع وقد قذف الله في قلبه الرعب » وكانت وقعة أحد في شوال وكان التجار يقدمون المدينة في ذى القعدة فينزلون بيد الصغرى في كل سنة مرة وإنهم قدموا بعد وقعة أحد ، وكان أصاب المؤمنين القرح واشتسكوا ذلك إلى النبي ﷺ واشتد عليهم الذى أصابهم وإن رسول الله ﷺ ندب الناس لينطلقوا معه ويتبعوا ما كانوا متبعين وقال « إنما يرتحلون الآن فيأتون الحج ولا يقدرؤن على مثلها حتى عام مقبل » فجاء الشيطان يخوف أوليائه فقال : إن الناس قد جمعوا لكم ، فأبى عليه الناس أن يتبعوه وقال « إني ذاهب وإن لم يتبعنى أحد لأحضض الناس » فانتدب معه الصديق وعمر وعثمان وحلى والزبير وسعد وطلحة وعبد الرحمن ابن عوف وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلا فساروا في طلب أبي سفيان فطلبوه حتى بلغوا الصفراء فأنزل الله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح) الآية - ثم قال ابن إسحق فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهى من المدينة على ثمانية أميال ، قال ابن هشام : واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة ، وقدمه به كاحدثى عبد الله بن أبي بكر معبد بن أبي معبد الخزاعى وكانت خزاعة مسلمهم ومشركم عية نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة صفتهم معه لا يخفون عنه شيئا كان بها ، ومعبد يومئذ كان مشركا فقال : يا محمد أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم ثم خرج رسول الله ﷺ بجمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقالوا : أصبنا محمداً وأصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ لنكرن على بقيتهم ثم لنفرغن منهم ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال محمد وأصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا ، فهم من الخنق عليكم بشيء لم أر مثله قط قال : ويلك ما تقول قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل قال فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم قال فاني أنهارك عن ذلك والله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيهم أبيانا من شعر قال وما قلت : قال قلت كادت تهد من الأصوات راحلتى * إذ سالت الأرض بالجرذ الأبايل * تردى بأسد كرام لا تنابله عند اللقاء ولا ميل معازيل * فظلت أعدو أظن (٢) الأرض مائلة * لما سموا برئيس غير مخذول

فقلت ويل ابن حرب من لقاءكم * إذا تعظمط البطحاء بالخيول * إني نذير لأهل السيل ضاحية لكل ذي إربة منهم ومعقول * من جيش أحمدلا وخش تنابلة * وليس يوصف ما أنذرت بالقليل قال فتى ذلك أبا سفيان ومن معه ومربه ركب من عبد القيس فقال أين تريدون ، قالوا نريد المدينة قال ولم ، قالوا نريد البيرة ، قال فهل أتم مبلغون عنى محمدا رسالة أرسلكم بها اليه وأحمل لكم هذه غدا زيبيا بعكاظ إذ وافيتمونا ، قالوا نعم قال فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير اليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة قال : قال رسول الله ﷺ حين بلغه رجوعهم «والذي نفسى بيده لقد سئمت لهم حجارة لو أصبحوا بها لكانوا كأمس الناهب» وقال الحسن البصري في قوله (الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرع) ان أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا فقال رسول الله ﷺ ان أبا سفيان قد رجع وقد قذف الله في قلبه الرعب فمن يتندب في طلبه فقام النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبعوهم فبلغ أبا سفيان أن النبي صلى الله عليه وسلم يطلبه فلقي غيرا من التجار فقال ردوا محمدا ولكم من الجعل كذا وكذا وأخبروهم أني قد جمعت جموعا وأنى راجع اليهم فجاء التجار فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم «حسبنا الله ونعم الوكيل» فأنزل الله هذه الآية ، وهكذا قال عكرمة وقتادة وغير واحد ان هذا السياق نزل في شأن غزوة حمراء الأسد وقيل نزلت في بدر الموعد والصحيح الأول ، وقوله تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا) الآية أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء فزادهم إيمانهم بل توكلوا على الله واستعانوا به (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وقال البخاري حدثنا أحمد بن يونس قال أراه قال حدثنا أبو بكر عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . وقدرناه النسائي عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم وهرون بن عبد الله كلاهما عن يحيى بن أبي بكر وهو ابن عياش به والعجب أن الحاكم أبا عبد الله رواه من حديث أحمد بن يونس به ثم قال صحيح الاسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه ثم رواه البخاري عن أبي غسان مالك بن إسماعيل عن إسرائيل عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس قال : كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار : حسبنا الله ونعم الوكيل وقال عبد الرزاق قال ابن عيينة وأخبرني زكريا عن الشعبي عن عبد الله بن عمرو قال : هي كلمة إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار رواه ابن جرير وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن معمر حدثنا إبراهيم بن موسى الثوري حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن زياد السكري أنبأنا أبو بكر بن عياش عن حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قيل له يوم أحد إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فأنزل الله هذه الآية وروى أيضا بسنده عن محمد بن عبد الله الرافعي عن أبيه عن جده أبي رافع أن النبي صلى الله عليه وسلم وجه عليا في نهر معه في طلب أبي سفيان فلقمهم أعرابي من خزاعة فقال ان القوم قد جمعوا لكم فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فنزلت فيهم هذه الآية ثم قال ابن مردويه حدثنا دعلج بن أحمد حدثنا الحسن بن سفيان أنبأنا أبو خزيمة بن مصعب بن سعد أنبأنا موسى بن أعين عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «إذا وقعت في الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل» هذا حديث غريب من هذا الوجه - وقد قال الإمام أحمد : حدثنا حيوة بن شريح وإبراهيم بن أبي العباس قالا : حدثنا بقية حدثنا يحيى بن سعيد عن خالد بن معدان عن سيف عن عوف بن مالك أنه حدثهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلين فقال للقضى عليه لما أدبر : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبي ﷺ «ردوا على الرجل» فقال «ما قلت؟» قال قلت حسبي الله ونعم الوكيل «فقال النبي ﷺ «إن الله يولم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا غلظك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل» وكذا رواه أبو داود والنسائي من حديث بقية عن يحيى بن خالد عن سيف وهو الشامي ولم ينسب عن عوف بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه - وقال الإمام

أحمد حدثنا أسباط مطرف عن عطية عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحني جهته يستمع متى يؤمر فينفخ » فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما تقول ؟ قال « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وقد روى هذا من غير وجه وهو حديث جيد وقدرينا عن أم المؤمنين زينب وعائشة رضي الله عنهما أنهما تفاخرتا فقالت زينب زوجي الله وزوجكن أهاليكن وقالت عائشة نزلت براءتي من السماء في القرآن فسلمت لها زينب ثم قالت كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن العطل قالت قلت حسبي الله ونعم الوكيل قالت زينب قلت كلمة المؤمنين ولهذا قال تعالى (فاقبلوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) أي لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا إلى بلدهم (بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) مما أضمر لهم عدوهم (واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) وقال البيهقي حدثنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو بكر بن داود الزاهد حدثنا محمد بن نعيم حدثنا بشر بن الحكم حدثنا مبشر بن عبد الله بن رزين حدثنا سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن عكرمة عن ابن عباس في قول الله (فاقبلوا بنعمة من الله وفضل) قال النعمة أنهم سلموا والفضل أن غير أمرت في أيام الموسم فاشترها رسول الله ﷺ فربح فيها مالا قسمه بين أصحابه وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قول الله تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) قال هذا أبو سفيان قال لمحمد صلى الله عليه وسلم موعدهم بدر حيث قتلتم أصحابنا فقال محمد ﷺ « عسى » فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم لموعده حتى نزل بدرًا فوافقوا السوق فيها فابتاعوا فذلك قول الله عز وجل (فاقبلوا بنعمة الله وفضل لم يمسسهم سوء) الآية قال وهي غزوة بدر الصغرى رواء ابن جرير وروى أيضا عن القاسم عن الحسين عن حجاج عن ابن جريج قال لما عمد رسول الله ﷺ لموعده أبي سفيان فجعلوا يلقون المشركين فيسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم كيدهم بذلك يريدون أن يربعهم فيقول المؤمنون حسبنا الله ونعم الوكيل حتى قدموا بدرا فوجدوا أسواقها غافية لم ينازعهم فيها أحد قال فقدم رجل من المشركين فأخبر أهل مكة بخيل محمد وقال في ذلك

نفرت قلوصى من خيول محمد وعجوة مشورة كالعنجد
واتخذت ماء قديد موعدى

قال ابن جرير هكا أنشدنا القاسم وهو خطأ إنما هو

ند نفرت من رقتي محمد وعجوة من يثرب كالعنجد
فهى على دين أبيها الأتلد قد جعلت ماء قديد موعدى
وماء ضجنان لها ضحى الغد

ثم قال تعالى (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) أى يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة قال الله تعالى (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا على والجاؤا إلى فاني كافيك وناصركم عليهم كما قال تعالى (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه) إلى قوله (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) وقال تعالى (فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) وقال تعالى (أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وقال (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) وقال (ولينصرن الله من ينصره) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم) الآية وقال تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار)

﴿ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾

(١) الظاهر أن يقال : عن أى المؤمنين بالتثنية .

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُفِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُفِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق ، فقال تعالى : ولا يحزنك ذلك (إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله أن لا يجعل لهم حظا في الآخرة) أى حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيبا في الآخرة (ولهم عذاب عظيم) : ثم قال تعالى مخبرا عن ذلك إخبارا مقررأ (إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان) أى استبدلوا هذا بهذا (لن يضروا الله شيئا) أى ولكن يضرون أنفسهم (ولهم عذاب أليم) : ثم قال تعالى (ولا يحسبن الذين كفروا أنما على لهم خيرا لأنفسهم إنما على لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) كقوله (أيحسبون أنما نمدهم به من مال ونين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) وكقوله (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وكقوله (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) . ثم قال تعالى (ما كان الله لينذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) أى لابد أن يعقد شيئا (١) من الحنة ، يظهر فيه وليه ويفضح به عدوه . يعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر ، يعنى بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين ، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ ، وهتك به ستار المنافقين . فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى (ما كان الله لينذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) قال مجاهد : ميز بينهم يوم أحد ، وقال قتادة : ميز بينهم بالجهاد والهجرة ، وقال السدى : قالوا إن كان محمد صادقا فليخبرنا عمن يؤمن به منا ومن يكفر به فأنزل الله تعالى (ما كان الله لينذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) أى حتى يخرج المؤمن من الكافر روى ذلك كله ابن جرير - ثم قال تعالى (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) أى أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك . ثم قال تعالى (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) كقوله تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلقه رسدا) ثم قال تعالى (فآمنوا بالله ورسوله) أى أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم (وإن تؤمنوا وتتقوا فلحكم أجر عظيم) . وقوله تعالى (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم) أى لا يحسبن البخل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه في دينه ، وربما كان في دنياه . ثم أخبر بما أمر ماله يوم القيامة فقال سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) ، قال البخارى : حدثنا عبد الله بن منير سمع أبا النضر حدثنا عبد الرحمن هو ابن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه - يعنى بشدقيه - ثم يقول أنا مالك أنا كنزك » ثم تلا هذه الآية (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم) إلى آخر الآية : تفرد به البخارى دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه ابن حبان في صحيحه من طريق الليث بن سعد عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح به

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « إن الذي لا يؤدي زكاة ماله يمثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان ثم يلزمه يطوقه يقول : أنا مالك أنا كنزك » وهكذا رواه النسائي عن الفضل بن سهل عن أبي النضر هاشم بن القاسم عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة ثم قال النسائي ورواية عبد العزيز عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أثبت من رواية عبد الرحمن عن أبيه عبد الله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة (قلت) ولا منافاة بين الروایتين ، فقد يكون عند عبد الله بن دينار من الوجهين والله أعلم ، وقد ساقه الحافظ أبو بكر بن مردويه من غير وجه عن أبي صالح عن أبي هريرة . ومن حديث محمد بن حميد (١) عن زياد الخطمي عن أبي هريرة به (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن جامع عن أبي وائل عن عبد الله عن النبي ﷺ قال « مامن عبد لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له شجاع أقرع يتبعه (٢) يفر منه فيتبعه فيقول (٣) أنا كنزك » ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة عن جامع بن أبي راشد ، زاد الترمذي وعبد الملك بن أعين كلاهما عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود به ، وقال الترمذي : حسن صحيح . وقد رواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي بكر بن عياش وسفيان الثوري كلاهما عن أبي إسحق السبيعي عن أبي وائل عن ابن مسعود به ورواه ابن جرير من غير وجه عن ابن مسعود موقوفاً . (حديث آخر) قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أمية بن بسطام حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد بن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان عن النبي ﷺ قال « من ترك بعده كنزاً مثله شجاعاً أقرع (٤) له زبيبتان يتبعه فيقول : من أنت ويلك فيقول : أنا كنزك الذي خلفت بعدك فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضها ثم يتبع سائر جسده » إسناده جيد قوى ولم يخرجوه . وقد رواه الطبراني عن جرير بن عبد الله البجلي ورواه ابن جرير وابن مردويه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال « لا يأتى الرجل مولاه فيسأله من فضل ماله عنده فيمنعه إياه إلا دعا له يوم القيامة شجاعاً يملظ فضله الذي منع » لفظ ابن جرير وقال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا عبد الأعلى حدثنا داود عن أبي قزعة عن رجل عن النبي ﷺ قال « مامن ذى رحم يأتى ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده فيبخل به عليه إلا خرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه » ثم رواه من طريق أخرى عن أبي قزعة واسمه حجر بن بيان عن أبي مالك العبدى موقوفاً ، ورواه من وجه آخر عن أبي قزعة مرسلًا . وقال العوفي عن ابن عباس : نزلت في أهل الكتاب الذين بخلوا بما فى أيديهم من الكتب المنزلة أن يبينوها ، رواه ابن جرير والصحيح الأول وإن دخل هذا فى معناه ، وقد يقال إن هذا أولى بالدخول والله سبحانه وتعالى أعلم وقوله تعالى (والله ميراث السموات والأرض) أى (فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل . فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم (والله بما تعملون خير) أى بنباتكم وضمايركم ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فقيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُمُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِى بِالْبَيِّنَاتِ وَبِاللَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس . لما نزل قوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) قالت اليهود . يا محمد . افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء)

(١) فيها ابن أبي حية (٢) وفيها : وهو يتبعه (٣) وفيها ويقول (٤) زاد فيها يوم القيامة .

الآية ؟ رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم . وقال محمد بن إسحق : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس (١) فوجد من يهودنا كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأجبارهم ، ومعه خبر يقال له أشيع فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما تضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإناعنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر رضى الله عنه ف ضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذي نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك فقال رسول الله ﷺ « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر » فقال : يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ف ضربت وجهه فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص (٢) (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) الآية . رواه ابن أبي حاتم وقوله (سنكتب ما قالوا) تهديد ووعيد ، ولهذا قرنه تعالى بقوله (وقتلهم الأنبياء بغير حق) أى هذا قولهم في الله ، وهذه معاملتهم رسل الله وسيجزئهم الله على ذلك شر الجزاء ولهذا قال تعالى (وتقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً وقوله تعالى (الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتينا بقرآن تأكله النار) يقول تعالى تكذيباً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها . قاله ابن عباس والحسن وغيرهما . قال الله عز وجل (قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات) أى بالحجج والبراهين (وبالذى قلتم) أى وبنار تأكل القرابين المتقبلة . (فلم قتلتموهم) أى فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم (إن كنتم صادقين) أنكم تتبعون الحق وتتقادون للرسول - ثم قال تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ (فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) أى لا يوهنك تكذيب هؤلاءك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاءوا به من البينات والحجج والبراهين القاطعة (والزبر) وهى الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين (والكتاب المنير) أى الواضح الجلى

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّنُ أَجُورُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتٌّ لِلْعُرُورِ * لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزَمِ الْأُمُورِ ﴾

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليفة بأن كل نفس ذائقة الموت كقوله تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) فهو تعالى وحده الحى الذى لا يموت والجن والانس يموتون وكذلك الملائكة وحملات العرش وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخرها كما كان أولاً وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التى قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيها كثيرها وقليلها كبيرها وصغيرها فلا يظلم أحداً مثقال ذرة ولهذا قال تعالى (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) قال ابن أبي حاتم حدثنا عبد العزيز الأوسى حدثنا على بن أبى على الهاشمي عن جعفر بن محمد عن بن الحسين عن أبيه عن بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لما توفى النبي صلى الله عليه وسلم وجاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه فقال : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته (كل نفس

ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) إن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المصاب من حرم الثواب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، قال جعفر بن محمد فأخبرني أبي أن علي بن أبي طالب قال أتمدرون من هذا ؟ هذا الخضر عليه السلام . وقوله (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) أي من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا إن شئتم (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) » هذا حديث ثابت في الصحيحين من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة : وقد رواه بدون هذه الزيادة أبو حاتم وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من حديث محمد بن عمرو . هذا ورواه ابن مردويه من وجه آخر فقال : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن يحيى أنبأنا حميد بن مسعدة أنبأنا عمرو بن طي عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها » قال ثم تلا هذه الآية (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) وتقدم عند قوله تعالى (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ما رواه وكيع بن الجراح في تفسيره عن الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » وقد رواه الإمام أحمد في مسنده عن وكيع به وقوله تعالى (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) تصغير لشأن الدنيا ، وتحقير لأمرها ، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة كما قال تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال (وما أوتيت من شيء فتعال الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى) وفي الحديث « والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في الم فليست بمرجع إليه » وقال قتادة في قوله تعالى (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) قال : هي متاع متروكة أو شئت والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها ، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله وقوله تعالى (لتبذلوا أموالكم وأنفسكم) كقوله تعالى (ولتبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) إلى آخر الآيتين . أي لابد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ويبتلى المؤمن على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) نول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسلماً لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وآمراً لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله فقال تعالى (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب بن أبي حمزة عن الزهري أخبرني عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره قال : كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى قال الله تعالى (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) قال : وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم ، هكذا ذكره مختصراً . وقد ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية مطولاً فقال : حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن الزهري أخبرني عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد حدثه أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عباد بن الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول ، وذلك قبل أن يسلم ابن أبي (١) وإذا في المجلس أخلط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة حمر عبد الله بن أبي أنه بردائه وقال : لا تعبروا علينا ، فسلم رسول الله ﷺ ، ثم وقف ، فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبي أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا . ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه بلى يا رسول الله فاعشنا به في مجالسنا فإننا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود

(١) أي قبل أن يظهر الإسلام كما قال القسطلاني وغيره فهو رأس المنافقين

حتى كادوا يتناورون ، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عباد فقال له النبي ﷺ « يا سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب » يريد عبد الله بن أبي ، قال كذا وكذا فقال سعد يا رسول الله أعف عنه واصفح فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي نزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شريك بذلك ، فذلك الذي فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى قال الله تعالى (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) الآية - وقال تعالى (ودكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) الآية وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله له فيهم ، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرأ فقتل الله به صناديد كفار قريش ، قال عبد الله بن أبي ابن ساول ومن معه من المشركين وعبداء الأوثان : هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام فبايعوا وأسلموا فشكل من قام بحق أو أمر بمعروف ، وأنهى عن منكر فلا بد أن يؤذى فما له دواء إلا الصبر في الله ، والاستعانة بالله . والرجوع إلى الله

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَتُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ينوهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكنتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ البنيوي السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم . وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ، ويسلك بهم مسلكهم فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدال على العمل الصالح ، ولا يكتُموا منه شيئاً ، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وقوله تعالى (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) الآية ، يعني بذلك المرادين للتكثيرين بما لم يعطوا كما جاء في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم « من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة » وفي الصحيحين أيضاً « المتشع بما لم يعط كلابس ثوبي زور » وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني ابن أبي مليكة أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره أن مروان قال : اذهب يا رافع لبوابه إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعد بن أجمعين فقال ابن عباس ما لكم وهذه ، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون * لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) الآية . وقال ابن عباس : سألم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتابهم ما سألهم عنه ، وهكذا رواه البخاري في التفسير ومسلم والترمذي والنسائي في تفسيريهما ، وابن أبي حاتم ، وابن خزيمة ، والحاكم في مستدركه وابن مردويه ، كلهم من حديث عبد الملك بن جريج بنحوه . ورواه البخاري أيضاً من حديث ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن علقمة بن وقاص أن مروان قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فذكره - وقال البخاري : حدثنا سعيد بن

أبي مريم أنبأنا محمد بن جعفر حدثني زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري : أن رجلا من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا ، وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا ، فزلت (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا) الآية وكذا رواه مسلم من حديث ابن أبي مريم بنحوه وقد رواه ابن مردويه في تفسيره من حديث الليث بن سعد عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال : قال أبو سعيد ورافع بن خديج وزيد بن ثابت : كنا عند مروان فقال : يا أبا سعيد أرايت قوله تعالى (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا) ونحن نفرح بما أتينا ونحب أن نحمد بما لم نفعل ؟ فقال أبو سعيد : إن هذا ليس من ذاك ، إنما ذاك أن ناسا من المنافقين يتخلفون إذا بعث رسول الله ﷺ بعثا ، فإن كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم ، وإن كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا لهم ليرضوهم ويحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح ، فقال مروان : أين هذا من هذا ؟ فقال أبو سعيد : وهذا يعلم هذا ؟ فقال مروان : أ كذلك يا زيد ؟ قال نعم صدق أبو سعيد : ثم قال أبو سعيد ، وهذا يعلم ذاك - يعني رافع بن خديج ولكنه يخشى إن أخبرك أن تنزع قلائصه في الصدقة ، فلما خرجوا قال زيد لأبي سعيد الخدري : ألا تحمدني على ما شهدت لك ؟ فقال له أبو سعيد : شهدت الحق فقال زيد : وألا تحمدني على ما شهدت الحق ؟ ثم رواه من حديث مالك عن زيد بن أسلم عن رافع بن خديج أنه كان هو وزيد بن ثابت عند مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة ، فقال مروان : يا رافع في أي شيء نزلت هذه الآية ؟ فذكره كما تقدم عن أبي سعيد رضي الله عنهم ، وكان مروان يبعث بعد ذلك يسأل ابن عباس كما تقدم ؟ فقال له ما ذكرناه : ولا منافاة بين ما ذكره ابن عباس وما قاله هؤلاء لأن الآية عامة في جميع ما ذكر والله أعلم وقد روى ابن مردويه أيضا من حديث محمد بن عتيق وموسى بن عقبة عن الزهري عن محمد بن ثابت الأنصاري أن ثابت بن قيس الأنصاري قال : يا رسول الله والله لقد خشيت أن أكون هلكا قال « لم ؟ » قال ، نهى الله المرء أن يحب أن يحمدا بما لم يفعل وأجدي أحب الحمد ، ونهى الله عن الخيلاء وأجدي أحب الجمال : ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جبير الصوت ، فقال رسول الله ﷺ « أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة » فقال بلى يا رسول الله فعاش حميدا وقتل شهيدا يوم مسيامة الكذاب - وقوله تعالى (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) يقرأ بالثناء على مخاطبة المفرد ، وبالياء على الاخبار عنهم أي لا تحسب أنهم ناجون من العذاب ، بل لا بد لهم منه ، ولهذا قال تعالى (ولهم عذاب أليم) ثم قال تعالى (والله ملك السموات والأرض ، والله على كل شيء قدير) أي هو مالك كل شيء ، والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء ، فهابوه ولا تحالفوه ، واحذروا غضبه ونقمته ، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه القدير الذي لا أقدر منه

﴿ إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ
اللَّهُ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ
فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا
يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ
رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿

قال الطبراني : حدثنا الحسين بن إسحق التستري حدثنا يحيى الحماني حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت قريش اليهود فقالوا : به جاءكم موسى ؟ قالوا عصاه ويده يضاء للناظرين وأتوا النصارى

فقالوا كيف كان عيسى؟ قالوا كان يرى الأكمة والأبرص ويحيي الموتى فأثروا النبي ﷺ فقالوا : ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهباً ، فدعاه فزلت هذه الآية (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) فليفتكروا فيها . وهذا مشكل ، فان هذه الآية مدنية . وسؤالهم أن يكون الصفا ذهباً كان بمكة والله أعلم ومعنى الآية أن الله تعالى يقول (إن في خلق السموات والأرض) أى هذه في ارتفاعها واتساعها ، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها . وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات ، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار وحيوان ومعادن ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص (واختلاف الليل والنهار) أى تعاقبهما وتعارضهما الطول والقصر . فتارة يطول هذا ويقصر هذا . ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذى كان قصيراً ، ويقصر الذى كان طويلاً وكل ذلك تقدير العزيز العليم . ولهذا قال تعالى (لآيات لأولى الألباب) أى العقول النامة الزكية التى تدرك الأشياء بحقائقها على جليتها . وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون ، الذين قال الله فيهم (وكأين من آية في السموات والأرض يمررون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ثم وصف تعالى أولى الألباب فقال (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) كما ثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ قال « صل قائماً ، فان لم تستطع قاعداً ، فان لم تستطع فعلى جنبك » أى لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمايرهم وألسنتهم (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) أى يفهمون ما فيها من الحكم الله على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته . وقال الشيخ أبو سليمان الداراني : إني لأخرج من منزلي فيأقع بصري على شيء إلا رأيت لله على فيه نعمة ولى فيه عبرة . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل والاعتبار . وعن الحسن البصري أنه قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال الفضيل : قال الحسن الفكرة مرة تريك حسناك وسيئاتك وقال سفيان بن عيينة : الفكرة نور يدخل قلبك وربما تمثل بهذا البيت :

إذا المرء كانت له فكرة * ففي كل شيء له عبرة

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : طوبى لمن كان قلبه تذكراً . وصمته تفكراً ونظره عبراً . قال لقمان الحكيم : إن طول الوحدة ألهم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم ، ولا فهم امرؤ قط إلا علم ، ولا علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر الله عز وجل حسن . والفكرة في نعم الله أفضل العبادة . وقال مغيث الأسود : زوروا القبور كل يوم تفكرتم . وشاهدوا الموقف بقلوبكم . وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار . وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامها وأطباقها . وكان يبكي عند ذلك حتى يرفع صريعا من بين أصحابه قد ذهب عقله . وقال عبد الله بن المبارك : مر رجل براهب عند مقبرة ومزلة فناداه فقال : ياراهب إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر . كنز الرجال وكنز الأموال . وعن ابن عمر : أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : (كل شيء هالك إلا وجهه) وعن ابن عباس أنه قال : ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم كل في ثلث بطنك . واشرب في ثلثه . ودع ثلثه الآخر تتنفث للفكرة . وقال بعض الحكماء : من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة . وقال بشر بن الحارث الخافي : لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه . وقال الحسن بن عامر بن عبد قيس قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون : إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكير . وعن عيسى عليه السلام أنه قال : يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت . وكن في الدنيا ضعيفاً . واتخذ المساجد بيتاً . وعلم عينيك البكاء . وجسدك الصبر وقلبك الفكر ولا تهتم برزق غد . وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه بكى يوماً بين أصحابه فسئل عن ذلك ، فقال فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بهاماتكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها مواضع لمن ادكر . وقال ابن أبي الدنيا : أنشدني الحسين بن عبد الرحمن :

نزهة المؤمن الفكر * لذة المؤمن العبر نحمد الله وحده * نحن كل على خطر
رب لاه وعمره * قد تقضى وما شعر رب عيش قد كان فو * قلى مونق الزهر
فى خير من العيو * ن وظل من الشجر وسرور من النبا * توطيب من الثمر
غيرته وأهله * سرعة الدهر بالغير نحمد الله وحده * إن فى ذا لمعتبر
إن فى ذا لعبرة * لليبب إن اعتبر

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال : (وكأين من آية فى السموات والأرض يمدحونها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ومدح عباده المؤمنين (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) قائلين (ربنا ما خلقت هذا باطلا) أى ما خلقت هذا الخلق عبثا ، بل بالحق لتجزى الذين أساءوا بما عملوا ، وتجزى الذين أحسنوا بالحسن . ثم زهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا (سبحانك) أى عن أن تخلق شيئا باطلا (فقتنا عذاب النار) أى يامن خلق الخلق بالحق والعدل ، يامن هو منزّه عن النقائص والعيوب والعبث . فقامن عذاب النار بحولك وقوتك وقضينا لأعمال ترضى بها عنا . ووقفنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم . وتجنينا به من عذابك الأليم . ثم قالوا (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخرجته) أى أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع (وما للظالمين من أنصار) أى يوم القيامة لا يجير لهم منك . ولا يحيد لهم عما أردت بهم (ربنا إنا سمعنا مناديا ينادى للإيمان) أى داعيا يدعو إلى الإيمان . وهو الرسول ﷺ (أن آمنوا بربكم فآمنا) أى يقول آمنوا بربكم فآمنا أى فاستجبنا له واتبعناه أى بإيماننا واتباعنا نبيك (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) أى استرها (وكفر عنا سيئاتنا) فيما بيننا وبينك (وتوفنا مع الأبرار) أى ألحقنا بالصالحين (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) قيل : معناه على الإيمان برسلك ، وقيل : معناه على السنة برسلك . وهذا أظهر - وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن عمرو بن محمد عن أبي عقيل عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عسقلان أحد العروسين يبعث الله منها يوم القيامة سبعين ألفا لاحتساب عليهم ويبعث منها خمسين ألفا لشهداء وفود إلى الله ، وبها صفوف الشهداء رؤوسهم مقطعة فى أيديهم تشج أوداجهم دما يقولون : (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد) فيقول الله : صدق عبيدى اغسلوهم بنهر البیضة . فيخرجون منه نقاء يبيض . فيسرحون فى الجنة حيث شاءوا » وهذا الحديث يعد من غرائب المسند ، ومنهم من يجعله موضوعا والله أعلم (ولا تخزنا يوم القيامة) أى على رءوس الخلائق (إنك لا تخلف الميعاد) أى لا بد من الميعاد الذى أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك : وقد قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا الحافظ أبو شريح (١) حدثنا المعبر حدثنا الفضل بن عيسى حدثنا محمد بن المنكدر أن جابر بن عبد الله حدثه أن رسول الله ﷺ قال « العار والتخزية تبلغ من ابن آدم فى القيامة فى المقام بين يدي الله عز وجل ما يتعفى العبد أن يؤمر به إلى النار » حديث غريب . وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتبجده فقال البخارى رحمه الله : حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا محمد بن جعفر أخبرنى شريك بن عبد الله ابن أبى نمر عن كريب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ثم رقد : فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب) الآيات . ثم قام فتوضأ واستن . ثم صلى إحدى عشرة ركعة . ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح . وهكذا رواه مسلم عن أبى بكر بن إسحق الصنعاني عن ابن أبى مريم به ثم رواه البخارى من طرق عن مالك عن مخزومة بن سليمان عن كريب أن ابن عباس أخبره أنه بات عند ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وهى خالته قال : فاضطجعت فى عرض الوسادة ، واصطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله فى طولها ، فنار رسول الله ﷺ حتى انتصف ذا الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من منامه فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده . ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران ثم قام إلى شن معلقة

(١) فى نسخة الأثر : الحارث بن شريح ولم نجد هذا ولا ذاك .

فتوضاً منها فأحسن وضوءه ؛ ثم قام يصلي قال ابن عباس رضي الله عنهما : قممت فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقممت إلى جنبه ، فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسي وأخذ بأذني اليمنى فقتلها فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ، ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن ؛ فقام فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم خرج فصلى الصبح . وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طرق عن مالك به . ورواه مسلم أيضاً وأبو داود من وجوه أخر عن مخزومة بن سليمان به طريق أخرى (لهذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن محمد بن علي حدثنا أبو يحيى عن أبي ميسرة أنبأنا خالد بن يحيى أنبأنا يونس عن أبي إسحق عن المنهال بن عمرو عن علي بن عبد الله بن عباس عن عبد الله بن عباس قال : أمرني العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ وأحفظ صلاته . قال : فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة العشاء الأخيرة حتى إذا لم يبق في المسجد أحد غيري قام فبني فقال من هذا ؟ عبد الله قلت : نعم ، قال فقه ؟ قلت : مرني العباس أن أبيت بكم الليلة . قال : « فالحق الحق » فلما دخل قال : افرش^(١) عبد الله ؟ قال : فأتى بوسادة من مسوح قال فنام رسول الله ﷺ عليها حتى سمعت غطيته ثم استوى على فراشه قاعدا قال : فرفع رأسه إلى السماء فقال « سبحان الملك القدوس » ثلاث مرات ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها . وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي من حديث علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه حديثاً في ذلك أيضاً (طريق أخرى) رواها ابن مردويه من حديث عاصم بن بهدلة عن بعض أصحابه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعدما مضى ليل فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبالب) إلى آخر السورة . ثم قال « اللهم اجعل في قلبي نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا وعن يميني نورا وعن شمالي نورا ومن بين يدي نورا ومن خلفي نورا ومن فوقي نورا ومن تحتي نورا وأعظم لي نورا يوم القيامة » وهذا الدعاء ثابت في بعض طرق الصحيح من رواية كريب عن ابن عباس رضي الله عنه . ثم روى ابن مردويه وابن أبي حاتم من حديث جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : أتت قريش اليهود فقالوا : به جاءكم موسى من الآيات ؟ قالوا عصاه وبده يضاء للناظرين . وأتوا النصراني فقالوا كيف كان عيسى فيكم ؟ فقالوا كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى . فأتوا النبي ﷺ فقالوا : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً فدعاه عز وجل ، فنزلت (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبالب) قال فليتكروا فيها ؛ لفظ ابن مردويه . وقد تقدم هذا الحديث من رواية الطبراني في أول الآية وهذا يقتضي أن تكون هذه الآيات مكية والمشهور أنها مدنية ودليله الحديث الآخر . قال ابن مردويه : حدثنا علي بن إسماعيل حدثنا أحمد بن علي الحراني حدثنا شجاع بن أشرس حدثنا حشرج بن نباتة الواسطي حدثنا أبو بكر عن الكلابي وهو ابن جناب^(٢) عن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب ، فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا . قال : قول الشاعر * زرغباً تزدد حبا * فقال ابن عمر ذرينا أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ ، فبكت وقالت كل أمره كان عجباً أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال « ذريني أتبعك لربي عز وجل » قالت : فقلت والله إنني لأحب قربك وإنني أحب أن تعبد ربك فقام إلى القرية فتوضاً ولم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكي حتى بل لحيته ثم سجد فبكي حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه فبكي حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر : فقال « ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبالب) » ثم قال « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » وقد رواه عبد بن حميد في تفسيره عن جعفر بن عوف^(٣) الكلابي عن أبي حباب عطاء قال : دخلت أنا وعبد الله بن عمر وعبيد بن عمير على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهي في خدرها ، فسلمنا عليها فقالت من هؤلاء : قال فقلنا هذا عبد الله بن عمر وعبيد بن عمير . قالت يا عبيد بن عمير ما يمنعك من زيارتنا . قال ما قال الأول * زرغباً تزدد حبا * قالت إنا لنحب زيارتك وغشيانك . قال عبد الله بن عمر دعينا من بطالتكما هذه . أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ قال فبكت ثم قالت كل أمره كان عجباً . أتاني في ليلتي حتى دخل معي في فراشي حتى لصق جلده بجلدي ثم قال « يا عائشة

اثنى لى أتعب لربى » قالت إني لأحب قربك وأحب هوالك، قالت فقام إلى قرية في البيت فأكثر صب الماء، ثم قام فقرأ القرآن ثم بكى حتى رأيت أن دموعه قد بلغت حقويه ؛ قالت ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه، ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلغت حجره قالت ثم اتكأ على جنبه الأيمن ووضع يده تحت خده، قالت ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلغت الأرض فدخل عليه بلال فأذنه بصلاة الفجر ثم قال الصلاة يارسول الله فلما رآه بلال يبكى قال يارسول الله تبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال « يا بلال أفلا أكون عبداً شكورا ؟ وما لى لا أبكى وقد نزل على الليلة (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب) إلى قوله (سبحانك فقنا عذاب النار) ثم قال - ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها » وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن جبان فى صحيحه عن عمران بن موسى عن عثمان بن أبى شيبة عن يحيى بن زكريا عن إبراهيم بن سويد النخعى عن عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء قال دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة فذكر نحوه وهكذا رواه عبد الله بن محمد ابن أبى الدنيا فى كتاب التفسر والاعتبار عن شجاع بن أشرس به ثم قال : حدثنى الحسن بن عبد العزيز : سمعت سنيديداً يذكر عن سفيان هو الثورى رفعه قال « من قرأ آخر آل عمران فلم يتفكر فيها وله » بعد بأصابعه عشرة - قال الحسن بن عبد العزيز فأخبرنى عبيد بن السائب قال : قيل للأوزاعى ما غاية التفكر فيهن ؟ قال : يقرؤهن وهو يعقلهن . قال ابن أبى الدنيا . وحدثنى قاسم بن هاشم حدثنا على بن عياش حدثنا عبد الرحمن بن سليمان قال : سألت الأوزاعى عن أدنى ما يتعلق به المتعلق من الفكر فيهن وما ينجي من هذا الويل ؟ فأطرق هنيهة ثم قال : يقرؤهن وهو يعقلهن (حديث آخر) فيه غرابة . قال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الرحمن بن بشر بن ميمر حدثنا إسحق بن إبراهيم البستي (ح) قال وحدثنا إسحق بن إبراهيم بن زيد حدثنا أحمد بن عمرو قال أنبأنا هشام بن عمار أنبأنا سلمان بن موسى الزهرى أنبأنا مظاهر بن أسلم الخزومى أنبأنا سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريره قال ، كان رسول الله ﷺ يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة . مظاهر بن أسلم ضعيف

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنخِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلْزَمَ هَاجِرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِ وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾

يقول تعالى (فاستجاب لهم ربهم) أى فأجابهم ربهم كما قال الشاعر :

وداع دعا : يامن يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذلك محجب

قال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن سلمة رجل من آل أم سلمة قال : قالت . أم سلمة يارسول الله لا نسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشيء . فأنزل الله تعالى (فاستجاب لهم ربهم) أى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى (إلى آخر الآية . وقالت الأنصار هى أول طغينة قدمت علينا ، وقد رواه الحاكم فى مستدركه من حديث سفيان ابن عيينة . ثم قال صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه وقد روى ابن أبى نجيح عن مجاهد عن أم سلمة قالت : آخر آية نزلت هذه الآية . (فاستجاب لهم ربهم) أى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض (إلى آخرها . رواه ابن مردويه ، ومعنى الآية أن المؤمنين ذوى الألباب لما سألوها ما سألوها مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم عقب ذلك بقاء التعقيب كما قال تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان . فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون) وقوله تعالى (أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى) هذا تفسير للإجابة أى قال لهم مخبرا (١) أنه لا يضيع عمل عامل منكم (٢) لديه ، بل يوفى كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى وقوله (بعضكم من بعض) أى جميعكم فى ثواب سواء (فالذين هاجروا) أى تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وطارقوا الأحباب والإخوان والخلائ والجيران (وأخرجوا من ديارهم) أى ضايقهم الشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ولهذا قال (وأوذوا فى سبيل) أى إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده كما قال تعالى (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) وقال تعالى (وما تموموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)

(١) فى نسخة الأزهر : مجيبا لهم (٢) الظاهر أن يقول : منهم أو تحذف كما فى نسخة الأزهر

وقوله تعالى (وقاتلوا وقتلوا) وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده ويعفر وجهه بدمه وترا به ، وقد ثبت في الصحيحين أن رجلا قال يا رسول الله أرأيت إن قتل في سبيل الله صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر ، أيكفر الله عني خطايي ؟ قال « نعم » ثم قال كيف قلت ؟ فأعاد عليه ما قال . فقال « نعم . إلا الذي قاله لي جبريل آنفا » ولهذا قال تعالى (لا كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار) أي تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقوله (ثوابا من عند الله) أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم لأن العظيم الكريم لا يعطى إلا جزيل كثيرا كما قال الشاعر :

إن يعذب يكن غراما وإن يهـ ط جزيلاً فإنه لا يبالي

وقوله تعالى (والله عنده حسن الثواب) أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحا . قال ابن أبي حاتم ذكر عن دحيم بن إبراهيم قال حدثنا الوليد بن مسلم أخبرني جرير بن عثمان أن شداد بن أوس كان يقول أيها الناس لا تهموا الله في قضائه فإنه لا يبغي على مؤمن ، فإذا أنزل بأحدكم شيئا مما يحب فليحمد الله وإذا أنزل به شيئا مما يكره فليصبر وليحتسب فإن الله عنده حسن الثواب

﴿ لَا يَغْرَنَّاكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَرْضِ * مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزَّلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾

يقول تعالى لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور ، فمما قليل يزول هذا كله عنهم ويصبحون مرتين بأعمالهم السيئة ، فإنما عند لهم فيهاهم فيه استدرجا وجميع ما هم فيه (متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) وهذه الآية كقوله تعالى (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغرك تغلبهم في البلاد) وقال تعالى (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) وقال تعالى (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقال تعالى (فهل الكافرون أمهلهم رويدا) أي قليلا وقال تعالى (أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر أن مأكلهم إلى النار قال بعده (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلوا من عند الله وما عند الله خير للابرار) وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن نصر حدثنا أبو طاهر سهل بن عبد الله أنبأنا هشام بن عمار أنبأنا سعيد أنبأنا يحيى أنبأنا عبيد الله ابن الوليد الرصافي عن محارب بن دثار عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال « إنما سمو الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقا كذا لولدك عليك حق » كذا رواه ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو ابن العاص مرفوعا ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا عيسى بن يونس عن عبد الله بن الوليد الرصافي عن محارب بن دثار عن عبد الله بن عمرو قال إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء كما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق ، وهذا أشبه والله أعلم . ثم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هشام الدستوائي عن رجل عن الحسن قال الأبرار الذين لا يؤذون الذر . وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن خزيمة عن الأسود قال : قال عبد الله يعني ابن مسعود ما من نفس برة ولا فاجرة إلا الموت خير لها لأن كان برا لقد قال الله تعالى (وما عند الله خير للابرار) وكذا رواه عبد الرزاق عن الثوري عن الأعمش به وقرأ (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) وقال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا إسحق حدثنا ابن أبي جعفر عن نوح بن فضالة عن لقمان عن أبي الدرداء أنه كان يقول ما من مؤمن إلا والموت خير له ، وما من كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدقني فإن الله يقول (وما عند الله خير للابرار) ويقول (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين)

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خُشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ

بَيَّاتِ اللَّهُ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا
وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١﴾

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان ويؤمنون بما أنزل على محمد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة وأنهم خاشعون لله أى مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه لا يشترن بآيات الله ثمنا قليلا أى لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته ، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانوا هوداً أو نصارى . وقد قال تعالى فى سورة القصص (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) الآية . وقد قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) الآية . وقد قال تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وقال تعالى (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) وقال تعالى (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان ليكونوا خاشعوا) وهذه الصفات توجد فى اليهود ولكن قليلا كما وجد فى عبد الله بن سلام وأمثلة ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس ، وأما النصارى فكثير منهم يهدون وينقادون للحق كما قال تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) إلى قوله تعالى (فأنا بهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) الآية وهكذا قال ههنا (أولئك لهم أجرهم عند ربهم) الآية وقد ثبت فى الحديث أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه لما قرأ سورة كهيعص بحضرة النجاشى ملك الحبشة وعنده البطارقة والساقسة بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم وثبت فى الصحيحين أن النجاشى لما مات لعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وقال « إن أخاكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه » فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه . وروى ابن أبى حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال لما توفى النجاشى قال رسول الله ﷺ « استغفروا لأخيك » فقال بعض الناس يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة فنزلت (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليك وما أنزل إليهم خاشعين لله) الآية ورواه عبد بن حميد وابن أبى حاتم من طريق أخرى عن حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن عن النبي ﷺ ثم رواه ابن مردويه من طرق عن حميد عن أنس بن مالك نحو ما تقدم . ورواه أيضا ابن جرير من حديث أبى بكر الهذلى عن قتادة عن سعيد بن السيب عن جابر قال : قال لنا رسول الله ﷺ حين مات النجاشى « إن أخاكم أوصمة قد مات » فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى كما صلى على الجنائز فكبر أربعاً . فقال المنافقون يصلى على علج مات بأرض الحبشة فأنزل الله (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) الآية . وقال أبو داود وحدثنا محمد بن عمرو الرازى حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحق حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت لما مات النجاشى كننا نحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور . وقد روى الحافظ أبو عبد الله الحاكم فى مستدركه أنبأنا أبو العباس السيارى بمرور حدثنا عبد الله بن على الغزال حدثنا على بن الحسن بن شقيق حدثنا ابن المبارك حدثنا مصعب بن ثابت عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال نزل بالنجاشى عدو من أرضهم فجاءه المهاجرون فقالوا إنا نحب أن تخرج إليهم حتى قاتل معك وترى جرأتنا ونجزيك بما صنعت بنا فقال لءاء (١) بنصر الله عز وجل خبر من دواء بنصرة الناس قال وفيه نزلت (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليك وما أنزل إليهم خاشعين لله) الآية . ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد (وإن من أهل الكتاب) يعنى مسلمة أهل الكتاب وقال عباد بن منصور سألت الحسن البصرى عن قول الله (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) الآية قال هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم فاتبعوه وعرفوا الإسلام

فأعظام الله تعالى أجر اثنين للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد صلى الله عليه وسلم واتباعهم محمدًا صلى الله عليه وسلم رواه ابن أبي حاتم ، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين» فذكر منهم رجلان أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي وقوله تعالى (لا يشتركون بآيات الله ثمنًا قليلًا) أى لا يكتفون ما بأيديهم من العلم كما فعله الطائفة المردولة منهم بل يبذلون ذلك مجانًا ولهذا قال تعالى (أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) قال مجاهد سريع الحساب يعنى سريع الاحصاء رواه ابن أبي حاتم وغيره وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) قال الحسن البصري أمروا أن يصبروا على دينهم الذى ارتضاه الله لهم وهو الإسلام ، فلا يدعوه لسراء ولا لضرء ولا لشدة ولا لرخاء ، حتى يموتوا مسلمين ، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتفون دينهم وكذلك قال غير واحد من علماء السلف ، وأما المراقبة فهى المداومة فى مكان العبادة والثبات وقيل انتظار الصلاة بعد الصلاة قاله ابن عباس وسهل بن حنيف ومحمد بن كعب القرظى وغيرهم وروى ابن أبي حاتم ههنا الحديث الذى رواه مسلم والنسائى من حديث مالك بن أنس عن العلاء بن عبد الرحمن عن يعقوب بن مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره و كثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط » وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد حدثنا موسى بن إسحاق حدثنا أبو جحيفة على بن يزيد الكوفى أنبأنا ابن أبي كريمة عن محمد بن يزيد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : أقبل على أبو هريرة يومًا فقال أتدرى يا ابن أخى فم نزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) قلت لا قال أما إنه لم يكن فى زمان النبي ﷺ غزو يربطون فيه ولكنها نزلت فى قوم يعمرسون المساجد ويصلون الصلاة فى مواقيتها ثم يذكرون الله بها فعليهم أنزلت (اصبروا) أى على الصلوات الخمس (وصابروا) أنفسكم وهواكم (ورابطوا) فى مساجدكم (واتقوا الله) فيما عليكم (لعلمكم تفلحون) وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه من طريق سعيد بن منصور عن مصعب بن ثابت عن داود بن صالح عن أبي سلمة عن أبي هريرة بنحوه وقال ابن جرير حدثني أبو السائب حدثني ابن فضيل عن عبد الله بن سعيد القبرى عن جده عن شرحبيل عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أدلكم على ما يكفر الذنوب والخطايا ؟ إسباغ الوضوء على المكاره وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط » وقال ابن جرير أيضا حدثني موسى ابن سهل الرملى حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا محمد بن مهاجر حدثني يحيى بن يزيد عن زيد بن أبي أنيسة عن شرحبيل عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويكفر به الذنوب ؟ » قلنا بلى يا رسول الله قال « إسباغ الوضوء فى أماكنها وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط » وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن على أنبأنا محمد بن عبد الله بن سلام البرنوثى (١) أنبأنا محمد بن غالب الانطاكى أنبأنا عثمان بن عبد الرحمن أنبأنا الوازع بن نافع عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي أيوب قال وفد علينا رسول الله ﷺ فقال « هل لكم إلى ما يمحو الله به الذنوب ويعظم به الأجر ؟ » قلنا نعم يا رسول الله وما هو ؟ قال « إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة » قال وهو قول الله (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) فذلك هو الرباط فى المساجد « وهذا حديث غريب من هذا الوجه جداً . وقال عبد الله بن المبارك عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير حدثني داود بن صالح قال : قال لى أبو سلمة بن عبد الرحمن يا ابن أخى هل تدري فى أى شىء نزلت هذه الآية (اصبروا وصابروا ورابطوا) قال قلت لا قال إنه لم يكن يا ابن أخى فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم غزو يربط فيه ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة رواه ابن جرير ، وقد تقدم سياق ابن مردويه له وأنه من كلام أبي هريرة رضى الله عنه والله أعلم وقيل المراد بالمراقبة ههنا مراقبة الغزو فى نحو (٢) العدو وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين وقد وردت الأخبار بالترغيب فى ذلك وذكر كثرة الثواب فيه فروى البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد الساعدى أن

(١) فى نسخة الأزهر : ابن عبد السلام البيرونى (٢) وفيها : نخور .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » (حديث آخر) روى مسلم عن سلمان الفارسي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان » (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا ابن المبارك عن حيوة بن شريح أخبرني أبو هانئ الخولاني أن عمرو بن مالك الحنفي أخبره أنه سمع فضالة ابن عبيد يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل ميت يحتم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر » وهكذا رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هانئ الخولاني . وقال الترمذي حسن صحيح ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضاً (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق حدثنا حسن بن موسى وأبو سعيد وعبد الله بن يزيد كلهم عن عبد الله بن لهيعة حدثنا مشر عن ابن عاهان سمعت عقبة بن عامر يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « كل ميت يحتم له على عمله إلا المرابط في سبيل الله يجرى عليه عمله حتى يبعث ويأمن الفتان » رواه الحارث بن محمد بن أبي الهامة^(١) في مسنده عن القبري وهو عبد الله ابن يزيد إلى قوله « حتى يبعث » دون ذكر « الفتان » وابن لهيعة إذا صرح بالتحديث فهو حسن ولا سيما مع ما تقدم من الشواهد (حديث آخر) قال ابن ماجه في سننه حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا عبد الله بن وهب أخبرني الليث عن زهرة بن معبد عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال « من مات مرابطاً في سبيل الله أجرى عليه عمله الصالح الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن من الفتان وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفرع الأكبر » (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا موسى أنبأنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال « من مات مرابطاً وفي فتنة القبر وأمن من الفرع الأكبر وغدا عليه ريح برزقه من الجنة وكتب له أجر المرابط إلى يوم القيامة » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى حدثنا إسماعيل بن عياش عن محمد بن عمرو بن حلحلة الديلمي عن إسحق بن عبد الله عن أم الدرداء^(٢) ترفع الحديث قالت « من رباط في شيء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام أجرت عنه رباط سنة » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا كهس حدثنا مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال : قال عثمان وهو يخطب على منبره إني محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلا الظن^(٣) بكم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول « حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها » وهكذا رواه أحمد عن روح عن كهس عن مصعب بن ثابت عن عثمان ، وقد رواه ابن ماجه عن هشام بن عمار عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن مصعب بن ثابت عن عبد الله بن الزبير قال : خطب عثمان الناس فقال أيها الناس إني سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لم يمنعني أن أحدثكم به إلا الظن^(٤) بكم وبصحابتكم فليختر مختار لنفسه أوليدع » سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من رباط ليلة في سبيل الله كانت كألف ليلة قيامها وصيامها » (طريق أخرى) عن عثمان رضي الله عنه قال الترمذي حدثنا الحسن بن علي الحلال حدثنا هشام ابن عبد الملك حدثنا الليث بن سعد حدثنا أبو عقيل زهرة بن معبد عن أبي صالح مولى عثمان بن عفان قال سمعت عثمان وهو على المنبر يقول إني كتمتكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ كراهية تفرقكم عني ثم بدا لي أن أحدثكموه ليختار امرؤ لنفسه ما بدا له ، سمعت رسول الله ﷺ يقول « رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، قال محمد يعني البخاري أبو صالح مولى عثمان اسمه بركان ، وذكر غير الترمذي أن اسمه الحارث والله أعلم وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وعنده زيادة في آخره فقال يعني عثمان فليرابط امرؤ كيف شاء هل بلغت ؟ قالوا نعم قال اللهم اشهد (حديث آخر) قال أبو عيسى الترمذي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان حدثنا محمد بن المنكدر قال مرسلان الفارسي بشر حجيل بن السمط وهو في مرابطة له وقد شق عليه وعلى أصحابه فقال : ألا أحدثك يا ابن السمط بحديث سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال بلى : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « رباط يوم في سبيل الله أفضل - وأقال خير - من صيام شهر وقيامه ومن مات فيه وفي فتنة القبر ونمى له عمله إلى يوم القيامة » تفرد به الترمذي من هذا الوجه ، وقال هذا حديث حسن ، وفي بعض النسخ زيادة وليس إسناده بمتصل :

(١) في نسخة الأثر : ابن أبي أسامة . (٢) في الدر المنثور : عن أبي الدرداء يرفع الحديث . (٣) فيها : إلا الظن . (٤) وفيها : إلا الظن أيضاً

وابن المنكر لم يدرك سلمان (قلت) الظاهر ان محمد بن المنكر سمعه من شرحبيل بن السمط وقدر واه مسلم والنسائي من حديث مكحول وأبي عبيدة بن عقبة كلاهما عن شرحبيل بن السمط وله صحبة عن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ أنه قال « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان » وقد تقدم سياق مسلم بمفرده (حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا محمد بن اسماعيل بن سمرة حدثنا محمد بن يعلى السلمي حدثنا عمرو بن صبيح عن عبد الرحمن بن عمرو عن مكحول عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « حرس (١) ليلة وراء عورة المسلمين محتسبا من غير شهر رمضان أعظم أجراً من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ، ورباط يوم في سبيل الله من وراء عورة المسلمين محتسبا من غير شهر رمضان أفضل عند الله وأعظم أجراً - أراه قال - : من عبادة ألف سنة صيامها وقيامها فإن رده الله تعالى إلى أهله سالماً لم يكتب عليه سيئة ألف سنة ، وتكتب له الحسنات . ويجرى عليه أجر الرباط إلى يوم القيامة » هذا حديث غريب من هذا الوجه . بل منكر . وعمر بن صبيح منهم (حديث آخر) قال ابن ماجه : حدثنا عيسى بن يونس الرملي حدثنا محمد بن شعيب بن شابور عن سعيد بن خالد بن أبي طويل سمعت أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « حرس ليلة في سبيل الله خير من صيام رجل وقيامه في أهله ألف سنة . السنة ثلثمائة يوم ، اليوم كألف سنة » وهذا حديث غريب أيضاً وسعيد بن خالد هذا ضعفه أبو زرعة وغير واحد من الأئمة : وقال العقيلي : لا يتابع على حديثه : وقال ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به . وقال الحاكم روى عن أنس أحاديث موضوعة

(حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا محمد بن الصباح أنبأنا عبد العزيز بن محمد عن صالح بن محمد بن زائدة عن عمر بن عبد العزيز عن (٢) عقبة بن عامر الجهني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله حارس الحرس » فيه انقطاع بين عمر بن عبد العزيز وعقبة بن عامر فإنه لم يدركه والله أعلم (حديث آخر) قال أبو داود : حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية يعني ابن سلام (٣) حدثني السلولي أنه حدثه سهل بن الحنظلة أنهم ساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين حتى كانت عشية فحضرت الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظمنهم ونعمهم وشياهمهم ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وقال « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله » ثم قال « من يحرسنا الليلة » قال أنس بن أبي مرثد : أنا يا رسول الله قال « فاركب » فركب فرسالة ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله ﷺ « استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا تغز من قبلك الليلة » فلما أصبحنا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصلاه فركع ركعتين فقال « هل أحسستم فارسكم » فقال رجل : يا رسول الله ما أحسسناه فثوب بالصلاة فجعل النبي ﷺ وهو يصلي يلتفت إلى الشعب ، حتى إذا قضى صلاته قال « أبشروا فقد جاءكم فارسكم » فجعلنا ننظر في خلال الشجر في الشعب فإذا هو قد جاء حتى وقف على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرتني . فلما أصبحنا طلعت الشعبين كليهما ، فنظرت فلم أر أحداً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل نزلت الليلة ؟ » قال : لا إصلياً أو قاضى حاجة ، فقال له « أوجبت فلا عليك أن لا تعمل بعدها » ورواه النسائي عن محمد بن يحيى بن محمد بن كثير الحراني عن أبي توبة وهو الربيع بن نافع به (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب حدثنا عبد الرحمن بن شريح سمعت محمد بن شمير الرعيني يقول : سمعت أبا عامر البجلي (٤) . قال الإمام أحمد : وقال غيره زائداً أبا علي الحنفي يقول : سمعت أبا ريحانة يقول كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة فأتينا ذات ليلة إلى شرف فبتنا عليه فأصابنا برد شديد حتى رأيت من يحفر في الأرض يدخل فيها ويلقي عليه الحجفة يعني الترس ، فلما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس نادى « من يحرسنا هذه الليلة فادعوا له بدعاء يكون له فيه فضل ؟ » فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله قال « ادن » فدنا منه ، فقال « من أنت ؟ » فتسمى له الأنصاري ففتح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء فأكثر منه « قال أبو ريحانة : فلما سمعت مادعابه قلت أنا رجل آخر فقال « ادن » فدنوت فقال « من أنت ؟ » قال : فقلت أبو ريحانة ، فدعا بدعاء دون مادعابه للأصاري ثم قال : « حرمت النار على

(١) في نسخة الأزهر : لرباط يوم في سبيل الله من وراء الخ (٢) وفيها عن عمرو بن عبد الرحمن عن عقبة (٣) وفيها عن زيد بن سلام (٤) انظر الكلام عنه في الصفحة التالية .

عين دعت - أو بكت - من خشية الله ، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله » وروى النسائي منه « حرمت النار » إلى آخره عن عصمة بن الفضل عن زيد بن الحباب به ، وعن الحارث بن مسكين عن ابن وهب عن عبد الرحمن ابن شريح به وأتم وقال في الروايتين عن أبي علي الجبجي (١) . (حديث آخر) قال الترمذي حدثنا نصر بن علي الجهضمي حدثنا بشر بن عمار وحدثنا شعيب بن زريق أبو شيبة عن عطاء الخراساني عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « عينا لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » ثم قال : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زريق ، قال وفي الباب عن عثمان وأبي ربحانة (قلت) وقد تقدم والله الحمد والمنة . (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين عن زياد عن سهل ابن معاذ عن أبيه معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال « من حرس من وراء المسلمين متطوعا لا بأجرة سلطان لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم ، فإن الله يقول (وإن منكم إلا واردة) » تفرد به أحمد رحمه الله . (حديث آخر) روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة . إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط ، تعس واتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه ، مغبرة قدماء إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقية كان في الساقية إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع » فهذا آخر ما تيسر إيراده من الأحاديث المتعلقة بهذا المقام ، والله الحمد على جزيل الأنعام ، على تعاقب الأعوام والأيام . وقال ابن جرير . حدثني الثفي حدثنا مطرف بن عبد الله المديني حدثنا مالك بن زيد بن أسلم قال كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر أما بعد فإنه مهما ينزل بعد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله له بعدها فرجا ، وإنه لن يغلب عسر يسرين وإن الله تعالى يقول (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) وهكذا روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله ابن المبارك من طريق محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه قال : أُملى على عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وودعته للخروج ، وانشدها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ، ومائة وفي رواية سنة سبع وسبعين ومائة

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا * لعلت أنك في العبادة تلعب * من كان يخضب خده بدموعه
فنجورنا بدمائنا تتخضب * أو كان يتعب خيله في باطل * فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن غيرنا * رهج السنايك والغبار الأظيب * ولقد أتانا من مقال نبينا
قول صحيح صادق لا يكذب * لا يستوى غبار خيل الله في * أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا * ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام ، فلما قرأه ذرفت عيناه وقال صدق أبو عبد الرحمن ونصحتي ثم قال . أنت ممن يكتب الحديث ؟ قال : قلت نعم قال فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا وأملئ على الفضيل بن عياض . حدثنا منصور بن العتير عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله علمني عملا أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله فقال « هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر ، وتصوم فلا تفطر ؟ » فقال يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال النبي ﷺ « فوالذي نفسي بيده لو طوقت ذلك ما بلغت المجاهدين في سبيل الله ، أو ما علمت أن الفرس المجاهد ليستن في طوله فيكتب له بذلك الحسنات » وقوله تعالى (واتقوا الله) أى في جميع أموركم وأحوالكم كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « اتق الله حينما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » (لعلكم تفلحون) أى في الدنيا والآخرة - وقال ابن جرير حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أنبأنا أبو صخر عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول في قول الله عز وجل (واتقوا الله لعلكم تفلحون) يقول اتقوني فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غدا إذا لقيمتوني - انتهى تفسير سورة آل عمران ، والله الحمد والمنة ، سألته الموت على الكتاب والسنة آمين

(١) هذا وما قبله محرف والصواب التجبي وفي ترجمة محمد بن شمير بالشيخ المعجمة ويقال المهمة أنه روى عن أبي علي الجبجي .

﴿ سورة النساء ﴾

قال العوفي عن ابن عباس : نزلت سورة النساء بالمدينة . وكذا روى ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت وروى من طريق عبد الله بن لميعة عن أخيه عيسى عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ « لا حبس » وقال الحاكم في مستدركه : حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أبو البخري عبد الله بن محمد بن شاكر حدثنا محمد بن بشر العبدي حدثنا مسعر بن كدام عن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود قال : إن في سورة النساء خمس آيات ما يسرن أن لي بها الدنيا وما فيها (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) الآية (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) الآية و (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) و (لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك) الآية ثم قال : هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه فقد اختلف في ذلك . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن رجل عن ابن مسعود قال خمس آيات من النساء لمن أحب إلى من الدنيا جميعا (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) وقوله (وإن تك حسنة يضاعفها) وقوله (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقوله (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) رواه ابن جرير . ثم روى من طريق صالح المري عن قتادة عن ابن عباس قال : ثمانى آيات نزلت في سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ، أولهن (يريد الله ليسين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب الله عليكم والله عليم حكيم) والثانية (والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيماً) والثالثة (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً) ثم ذكر قول ابن مسعود سواء يعنى في الخمسة الباقية - وروى الحاكم من طريق أبي نعيم عن سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي يزيد عن ابن أبي مليكة سمعت ابن عباس يقول سلوني عن سورة النساء فاني قرأت القرآن وأنا صغير . ثم قال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا

يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه ، وهى عبادته وحده لا شريك له ، ومنها لهم على قدرته التى خلقهم بها من نفس واحدة ، وهى آدم عليه السلام (وخلق منها زوجها) وهى حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر (١) من خلقه وهو نائم فاستيقظ فرأها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه وقال ابن أبي حاتم . حدثنا أبي حدثنا محمد بن مقاتل حدثنا وكيع عن أبي هلال عن قتادة عن ابن عباس قال خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها في الرجل وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته في الأرض فاحبسوا النساءكم . وفي الحديث الصحيح « إن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته ، وإن استمنتت بها استمنتت بها وفيها عوج » وقوله (وبث منها رجالاً كثيراً ونساء) أى وذراً منهما أى من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء ، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر . ثم قال تعالى (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) أى واتقوا الله بطاعتكم إياه ، قال إبراهيم ومجاهد والحسن (الذى تساءلون به) أى كما يقال أسألك بالله وبالرحم وقال الضحاك واتقوا الله الذى تعاقدون وتعاهدون به واتقوا الأرحام أن تقطعوهما ولكن بروها وصلوها قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن والضحاك والريبع وغير واحد . وقرأ بعضهم (والأرحام) بالخفض على العطف على الضمير فى أى تساءلون بالله وبالأرحام كما قال مجاهد وغيره . وقوله (إن الله كان عليكم رقيباً) أى هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال (والله على كل شيء شهيد) . وفي الحديث الصحيح « اعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب . ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض ويحثهم على ضعفائهم وقد ثبت فى صحيح مسلم من

حديث جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك نفر من مضر - وهم محتاجو الثمار أى من عريهم وفقرهم - قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) حتى ختم الآية . ثم قال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد) ثم حضهم على الصدقة فقال « تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من صاع بره ، من صاع تمره » وذكر تمام الحديث ، وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة ، وفيها ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها (يا أيها الناس اتقوا ربكم) الآية

﴿ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَتِلْكَ رُبَعٌ فَاِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعُولُوا * وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى اليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة ، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم ، ولهذا قال (ولا تبدلوا الخبيث بالطيب) قال سفيان الثوري عن أبي صالح : لاتعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذى قدر لك ، وقال سعيد بن جبير : لا تبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم ، يقول : لا تبدلوا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام . وقال سعيد بن المسيب والزهرى : لا تعط مهزولا وتأخذ مميना . وقال إبراهيم النخعي والضحاك : لاتعط زيفا وتأخذ جيدا . وقال السدى : كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم . ويجعل مكانها الشاة المهزولة ويقول : شاة بشاة ، يأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف ويقول درهم بدرهم . وقوله (ولاتأكلوا أموالهم إلى أموالكم) قال مجاهد وسعيد بن جبير وابن سيرين ومقاتل بن حيان والسدى وسفيان بن حسين : أى لاتخطووها فتأكلوها جميعا . وقوله (إنه كان حوبا كبيرا) قال ابن عباس : أى إنما عظيم . وروى ابن مردويه عن أنى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله (حوبا كبيرا) ولكن فى إسناده محمد بن يوسف الكندى (١) وهو ضعيف وروى هكذا عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين وقتادة ومقاتل بن حيان والضحاك وأبى مالك وزيد بن أسلم وأبى سنان مثل قول ابن عباس . وفى الحديث المروى فى سنن أبى داود « اغفر لنا حوبنا وخطايانا » وروى ابن مردويه بأسناده إلى واصل مولى أبى عيينة عن ابن سيرين عن ابن عباس أن أبى أيوب طلق امرأته فقال له النبى ﷺ « يا أبى أيوب إن طلاق أم أيوب كان حوبا » قال ابن سيرين : الحوب الاثم . ثم قال ابن مردويه : حدثنا عبد الباقي حدثنا بشر بن موسى حدثنا هودبة بن خليفة حدثنا عوف عن أنس أن أبى أيوب أراد طلاق أم أيوب ، فاستأذن النبى ﷺ فقال « إن طلاق أم أيوب لحوب » فأمسكها ، ثم روى ابن مردويه والحاكم فى مستدركه من حديث على بن عاصم عن حميد الطويل سمعت أنس بن مالك أيضا يقول : أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن طلاق أم سليم لحوب » فكف . والمعنى : إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه . وقوله (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى) أى إذا كان تحت حجر أحدكم يتيعة وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء ، فانهن كثير ولم يضيق الله عليه . وقال البخارى : حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام عن ابن جريج أخبرنى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة : أن رجلا كانت له يتيعة فكحها وكان لها عنق . وكان يمسكها عليه ، ولم يكن لها من نفسه شيء فترلت فيه (وإن خفتم ألا تقسطوا) أحسبه قال : كانت شريكته فى ذلك العنق وفى ماله . ثم قال البخارى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب قال : أخبرنى عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى) قالت يا ابن أخى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها ،

(١) فى نسخة الأزهري : الكرمى أو الكديمى .

فريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقتها فيعطيا مثل ما يعطيا غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا اليهن . ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، وأمرنا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله (ويستفتونك في النساء) قالت عائشة : وقول الله في الآية الأخرى (وترغبون أن تنكحوهن) رغبة أحدكم عن يتيمة إذا كانت قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن إذا كن قليلات المال والجمال وقوله (مثنى وثلاث ورباع) أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين ، وإن شاء ثلاثا ، وإن شاء أربعاً ، كما قال الله تعالى (جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أي منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ولا ينبغي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه ، بخلاف قصر الرجال على أربع ، فمن هذه الآية كما قال ابن عباس وجمهور العلماء ، لأن المقام مقام امتنان وإباحة فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع له كره . قال الشافعي وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء ، إلا ما حكى عن طائفة من الشيعة أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع . وقال بعضهم : بلا حصر . وقد يمسك بعضهم بفعل رسول الله ﷺ في جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في الصحيح ، وأما إحدى عشرة كما قد جاء في بعض ألفاظ البخاري . وقد علقه البخاري وقد روي عن أنس أن رسول الله ﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة ، ودخل منهن ثلاث عشرة ، واجتمع عنده إحدى عشرة ، ومات عن تسع . وهذا عند العلماء من خصائصه دون غيره من الأمة لما سذكروه من الأحاديث الدالة على الحصر في أربع ، ولذا ذكر الأحاديث في ذلك : قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل ومحمد بن جعفر قالا : حدثنا معمر عن الزهري ، قال ابن جعفر في حديثه ، أنبأنا ابن شهاب عن سالم عن أبيه أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحتة عشر نسوة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « اختر منهن أربعاً » فلما كان في عهد عمر طلق نساءه ، وقسم ماله بين بنيهِ ، فبلغ ذلك عمر فقال : إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك . ولعلك لا تلبث إلا قليلاً . وإيم الله لتراجعن نساءك ولترجعن مالك أولاً ورهن منك ولأمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال . وهكذا رواه الشافعي والترمذي وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وغيرهم من طرق عن إسماعيل بن عليّ وغندر وي زيد بن زريع وسعيد بن أبي عروبة وسفيان الثوري وعيسى بن يونس وعبد الرحمن بن محمد المحاربي والفضل بن موسى وغيرهم من الحفاظ عن معمر بأسناده مثله إلى قوله « اختر منهن أربعاً » وباقي الحديث في قصة عمر من أفراد أحمد ، وهي زيادة حسنة وهي مضاعفة لما علل به البخاري هذا الحديث فيما حكاه عنه الترمذي حيث قال بعد روايته له سمعت البخاري يقول : هذا الحديث غير محفوظ والصحيح ما روى شعيب وغيره عن الزهري حدثت عن محمد بن أبي سويد بن الثقفي أن غيلان بن سلمة - فذكروه . قال البخاري : وإنما حديث الزهري عن سالم عن أبيه أن رجلاً من ثقيف طلق نساءه فقال له عمر . لتراجعن نساءك أولاً رهن قبرك كما رجم قبر أبي رغال . وهذا التعليل فيه نظر والله أعلم - وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري مرسلًا وهكذا رواه مالك عن الزهري مرسلًا . وقال أبو زرعة . هو أصح . وقال البيهقي ورواه عقيل عن الزهري : بلغنا عن عثمان بن محمد بن أبي سويد عن محمد بن يزيد . وقال أبو حاتم وهذا وهم إنما هو الزهري عن محمد بن أبي سويد بلغنا أن رسول الله ﷺ - فذكروه . قال البيهقي : ورواه يونس وابن عيينة عن الزهري عن محمد بن أبي سويد . وهذا كما علله البخاري والاسناد الذي قدمناه من مسند الإمام أحمد رجاله ثقات على شرط الشيخين ثم روى من غير طريق معمر بل والزهري . قال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو علي الحافظ حدثنا أبو عبد الرحمن النسائي وي زيد بن عمر بن يزيد الجرمي أخبرنا يوسف بن عبيد الله حدثنا سرار بن مجش عن أيوب عن نافع وسالم عن ابن عمر أن غيلان بن سلمة كان عنده عشر نسوة فأسلم وأسلمن معه فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعاً . هكذا أخرجه النسائي في سننه . قال أبو علي بن السكن : تفرد به سرار بن مجش وهو ثقة . وكذا وثقة ابن معين قال

أبو علي . وكذا رواه السميدي بن وهب عن سرار . قال البيهقي : وروينا من حديث قيس بن الحارث أو الحارث بن قيس وعروة بن مسعود الثقفي وصفوان بن أمية يعني حديث غيلان بن سلمة فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوغ له رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرهن في بقاء العشرة وقد أسلمن ، فلما أمره بامساك أربع وفراق سائرهن دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال ، فإذا كان هذا في الدوام ، ففي الاستثنا بطريق الأولى والأحرى ، والله سبحانه أعلم بالصواب (حديث آخر في ذلك) روى أبو داود وابن ماجه في سنتهما من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن خميسة بن الشمردل وعند ابن ماجه بنت الشمردل ، وحكى أبو داود أن منهم من يقول الشمردل بالدال المعجمة عن قيس بن الحارث ، وعند أبي داود في رواية الحارث بن قيس أن عميرة الأسدي قال أسلمت وعندى ثمان نسوة فذكرت للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « اختر منهن أربعا » وهذا الإسناد حسن : وهذا الاختلاف لا يضر مثله لما للحديث من الشواهد (حديث آخر في ذلك) . قال الشافعي في مسنده أخبرني من سمع ابن أبي الزناد يقول أخبرني عبد المجيد عن ابن سهل بن عبد الرحمن عن عوف بن الحارث عن نوفل بن معاوية الديلي قال أسلمت وعندى خمس نسوة فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « اختر أربعا أيتهن . ثلث وفارق الأخرى » فعمدت إلى أقدمهن صحبة عجوز عاقرة معى مندرستين سنة فطلقتهما . فهذه كلها شواهد لحديث غيلان كما قاله البيهقي . وقوله (فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم) أى إن خفتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن كما قال تعالى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة أو على الجوارى السرارى فإنه لا يجب قيم بينهن ، ولكن يستحب فمن فعل فحسن ومن لا فلا حرج ، وقوله (ذلك أدنى ألا تعدلوا) قال بعضهم ذلك أدنى أن لا تكثر عيالكم قاله زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة والشافعي وهو مأخوذ من قوله تعالى (وإن خفتم عيلة) أى فقرا (فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) وقال الشاعر

وتقول العرب عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر . ولكن في هذا التفسير ههنا نظر ، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر كذلك يخشى من تعداد السرارى أيضا والصحيح قول الجمهور (ذلك أدنى ألا تعدلوا) أى لا تجوروا يقال عال في الحكم إذا قسط وظلم وجار ، وقال أبو طالب في قصيدته المشهورة

بميزان قسط لا يخفى شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل وقال هشيم عن أبي إسحق كتب عثمان بن عفان

إلى أهل الكوفة في شيء عاتبوه فيه : إنى لست بميزان أعول . رواه ابن جرير وقد روى ابن أبي حاتم وابن مردويه

وابن حبان في صحيحه من طريق عبد الرحمن بن أبي إبراهيم وخشيم حدثنا محمد بن شعيب عن عمرو بن محمد بن زيد عن

عبد الله بن عمير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم (ذلك أدنى ألا تعدلوا) قال « لا تجوروا »

قال ابن أبي حاتم قال أبو هذا خطأ والصحيح عن عائشة موقوف ، قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عباس وعائشة

ومجاهد وعكرمة والحسن وأبي مالك وابن رزين والنخعي والشعبي والضحاك وعطاء الخراساني وقتادة والسدي

ومقاتل بن حيان أنهم قالوا لا تملوا وقد استشهد عكرمة ببيت أبي طالب الذي قدمناه ، ولكن ما أنشده كاهو المروى

في السيرة وقد رواه ابن جرير ثم أنشده جيدا واختار ذلك . وقوله تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) قال علي بن

أبي طلحة عن ابن عباس النحلة : المهر وقال محمد بن إسحق عن الزهري عن عروة عن عائشة نحلة : فريضة ، وقال مقاتل

وقتادة وابن جريج نحلة أى فريضة زاد ابن جريج سماعة وقال ابن زيد النحلة في كلام العرب الواجب يقول : لا تنكحها

إلا بشيء واجب لها ، وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصدق واجب ، ولا ينبغي أن يكون

تسمية الصداق كذبا بغير حق ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتما ، وأن يكون طيب

النفس بذلك كما يمنح النحلة ويعطى النحلة طيبا ، كذلك يجب أن يعطى المرأة صداقها طيبا بذلك فان طابت هى له به بعد

تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالا طيبا ، ولهذا قال (فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا) وقال ابن أبي حاتم

حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن السدي عن يهوب بن الغيرة بن شعبة عن علي قال : إذا شئكي

أحدكم شيئاً فليسأل امرأته ثلاثة دراهم أو نحو ذلك فليبتع بها عسلاً ثم ليأخذ ماء السماء فيجتمع هنياً مريضاً شفاءً مباركا . وقال هشيم عن سيار عن أبي صالح كان الرجل إذا زوج بنته أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك ونزل (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الحميدي حدثنا وكيع عن سفيان عن عمير الخثعمي عن عبد الملك بن المغيرة الطائفي عن عبد الرحمن بن مالك السلمي قال : قال رسول الله ﷺ (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) قالوا يا رسول الله فما العلائق بينهم قال « ماتراضى عليه أهلوهم » وقد روى ابن مردويه عن طريق حجاج بن أرطاة عن عبد الملك بن المغيرة عن عبد الرحمن بن السلمي عن عمر بن الخطاب قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال « أنكحوا الأيحيى - ثلاثاً - » فقام إليه رجل فقال يا رسول الله فما العلائق بينهم ؟ قال « ماتراضى عليه أهلوهم » ابن السلمي ضعيف ثم فيه انقطاع أيضاً

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ * وَأَبْتَلُوا الَّتِي تَمْنَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً أي تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها . ومن هنا يؤخذ الحجر على السفهاء وهم أقسام فارة يكون الحجر للصغر فإن الصغير مسلوب العبارة وتارة يكون الحجر للجنون وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين وتارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه . وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) قال هم بنوك والنساء وكذا قال ابن مسعود والحكم بن عيينة والحسن والضحاك هم النساء والصبيان وقال سعيد بن جبيرة عن أبي حاتم حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شهاب عن عمار حدثنا صدقة بن خالد حدثنا عثمان بن أبي العاتكة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « إن النساء سفهاء إلا التي أطاعت قيمها » ورواه ابن مردويه مطولاً . وقال ابن أبي حاتم ذكر عن مسلم بن إبراهيم حدثنا حرب بن شريح عن معاوية بن قرة عن أبي هريرة (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) قال هم الخدم وهم شياطين الإنس وقوله (وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول : لا تعتمد إلى مالك وماخولك الله وجعله لك معيشه فتعطيه امرأتك أو بنتك ثم تنظر إلى مافي أيديهم ، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤتهم ورزقهم . وقال ابن جرير حدثنا ابن المنذر حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن فراس عن الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى قال : ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم ، رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ورجل أعطى ماله سفهاً وقد قال (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه وقال مجاهد (وقولوا لهم قولا معروفاً) يعني في البر والصلة * وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة ومن تحت الحجر بالفعل من الانفاق في الكساوى والأرزاق بالكلام الطيب وتحسين الأخلاق . وقوله تعالى (وابتلوا اليتامى) قال ابن عباس ومجاهد والحسن والسدي ومقاتل أي اختبروهم (حتى إذا بلغوا النكاح) قال مجاهد يعني الحلم . قال الجمهور من العلماء البلوغ في الغلام تارة يكون بالحلم وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد . وفي سنن أبوداود عن علي قال حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يتم بعد احتلام ولا صلات يوم إلى الليل » وفي الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة عن النبي ﷺ قال « رفع القلم عن ثلاثة عن الصبي حتى يحتمل أو يستكمل خمس عشرة سنة وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق » وأخذوا

ذلك من الحديث الثابت في الصحيحين عن ابن عمر قال : عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزني ، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني . فقال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث ان هذا الفرق بين الصغير والكبير واختلفوا في نبات الشعر الحشن حول الفرج وهي الشعرة هل يدل على بلوغ أم لا ؟ على ثلاثة أقوال يفرق في الثالث بين صبيان المسلمين فلا يدل على ذلك لاحتمال المعالجة ، وبين صبيان أهل الذمة فيكون بلوغا في حقهم لأنه لا يتعجل بها إلى ضرب الجزية عليه فلا يعالجها والصحيح أنها بلوغ في الجميع لأن هذا أمر جلي يستوى فيه الناس واحتمال المعالجة بعيد ، ثم قد دلت السنة على ذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عطية القرظي قال عرضنا على النبي ﷺ يوم قريظة فأمر من ينظر (١) من أنبت فكان من أنبت قتل ومن لم ينبت خلى سبيله فكنت فيمن لم ينبت فخلى سبيلي وقد أخرجه أهل السنن الأربعة بنحوه وقال الترمذي حسن صحيح وإنما كان كذلك لأن سعد بن معاذ كان قد حكم فيهم بقتل مقاتلة وسبي الذرية . وقال أبو عبيد في الغريب حدثنا ابن علية عن إسماعيل بن أمية عن محمد بن يحيى بن حبان عن عمر أن غلاما ابتهر جارية في شعره فقال عمر انظروا إليه فلم يوجد أنبت فدرأ عنه الحد قال أبو عبيدة ابتهرها أي قذفها والابتهار أن يقول فعلت بها وهو كاذب . فان كان صادقا فهو الابطيار قال الكميت في شعره

قيسح بمثل نعت الفتاة * إما ابتهارا وإما ابتيارا

وقوله عز وجل (فإن آتستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) قال سعيد بن جبير يعني صلاحا في دينهم وحفظا لأموالهم وكذا روى عن ابن عباس والحسن البصري وغير واحد من الأئمة وهكذا قال الفقهاء إذا بلغ الغلام مصلحا لدينه وماله انفك الحجر عنه فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه وقوله (ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا) ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية (إسرافا وبدارا) أي مبادرة قبل بلوغهم . ثم قال تعالى (ومن كان غنيا فليستعفف) عنه ولا يأكل منه شيئا . وقال الشعبي : هو عليه كالميتة والدم (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) قال ابن أبي حاتم حدثنا الأشج حدثنا عبد الله بن سليمان حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة (ومن كان غنيا فليستعفف) نزلت في مال اليتيم : وحدثنا الأشج وهرون بن إسحق قالا : حدثنا عبدة بن سليمان عن هشام عن أبيه عن عائشة (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجا أن يأكل منه : وحدثنا أبي حدثنا محمد بن سعيد الأصباني حدثنا علي بن مسهر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : أنزلت هذه الآية في والي اليتيم (ومن كان غنيا فليستعفف) ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) بقدر قيامه عليه . ورواه البخاري عن إسحق بن عبد الله بن غير عن هشام به . قال الفقهاء له أن يأكل من أقل الأمرين أجره مثله أو قدر حاجته . واختلفوا هل يرد إذا أيسر ؟ على قولين (أحدهما) لا لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيرا ، وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي ، لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل . قال أحمد حدثنا عبد الوهاب حدثنا حسين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ليس لي مال ولي يقيم ؟ فقال « كل من مال يتيملك غير مسرف ولا مبذر ولا متأمل مالا ومن غير أن تبقى مالك - أو قال - تفدى مالك بماله » شك حسين . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خاله الأحمر حدثنا حسين المكتوب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن عندي يتيما عنده مال وليس لي مال (٢) أكل من ماله : قال « كل بالمعروف غير مسرف » ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث حسين المعلم وروى ابن حبان في صحيحه وابن مردويه في تفسيره من حديث يعلى بن مهيدي عن جعفر بن سليمان عن أبي عامر الحزاز عن عمرو بن دينار عن جابر أن رجلا قال : يا رسول الله (٣) أضرب يتيمنى : قال مما (٤) كنت كنت ضاربا منه ولديك غير وراق مالك بماله ولا متأمل منه مالا » وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن يحيى أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد قال : جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال ان في حجرى أيتاما وان لهم إبلا ولي إبل ، وأنا أمتنع من إبلي فقراء فماذا يحل من ألبانها فقال : إن كنت تبغى ضالتها وتنها جرباها وتلوط حوضها وتسعى عليها فاشرب غير مضر بنسل ، ولا ناهك في الحلب . ورواه مالك في موطئه عن يحيى بن سعيد به وبهذا

(١) في نسخة الأزهري : عبد الحميد بن زهير (٢) وفيها : عندي شيء (٣) فيها : فيما (٤) فيها : ما .

القول وهو عدم أداء البدل يقول عطاء بن أبي رباح وعكرمة وإبراهيم النخعي وعطية العوفي والحسن البصري (والثاني نعم لأن مال اليتيم على الحظر ، وإنما أيسح الحاجة فيرد بدله كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة . وقد قال ابن أبي الدنيا : حدثنا ابن خيثمة حدثنا وكيع عن سفيان وإسرائيل عن أبي إسحق عن حارثة بن مضرب قال : قال عمر رضي الله عنه أني أنزلت نفسي من هذا المال منزلة وإلى اليتيم ، ان استغنيت استعفت ، وان احتجت استقرضت ، فإذا أيسرت قضيت . (طريق أخرى) قال سعيد بن منصور : حدثنا أبو الأحوص عن أبي إسحق عن البراء قال : قال لي عمر رضي الله عنه : إنما أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة وإلى اليتيم ، ان احتجت أخذت منه ، فإذا أيسرت رددته . وإن استغنيت استعفت إسناد صحيح وروى البهقي عن ابن عباس نحوه ذلك وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) يعني القرض قال وروى عن عبيدة وأبي العالية وأبي وائل وسعيد بن جبير في إحدى الروايات ومجاهد والضحاك والسدي نحوه ذلك وروى من طريق السدي عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (فليأكل بالمعروف) قال يأكل ثلاث أصابع ، ثم قال حدثنا أحمد بن سنان حدثنا ابن مهدي عن سفيان عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس (ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) قال يأكل كل من ماله يقوت على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم قال وروى عن مجاهد وميمون بن مهران في إحدى الروايات والحاكم نحوه ذلك . وقال عامر الشعبي لا يأكل منه إلا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة فإن أكل منه قضاة . رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن وهب حدثنا نافع بن أبي نعيم القاري قال سألت يحيى بن سعيد الأنصاري وربيعة عن قول الله تعالى (ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) الآية . فقال ذلك في اليتيم إن كان فقيراً أنفق عليه بقدر فقره ولم يكن للولي منه شيء ، وهذا بعيد من السياق لأنه قال (ومن كان غنياً فليستعفف) يعني من الأولياء (ومن كان فقيراً) أي منهم (فليأكل بالمعروف) أي بالتي هي أحسن كما قال في الآية الأخرى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده) أي لا تقربوه إلا لمصلحته فإن احتجتم إليه أكلتم منه بالمعروف . وقوله (فإذا دفعتم إليهم أموالهم) يعني بعد بلوغهم الحلم وإيناسكم الرشد منهم فحينئذ سلموا إليهم أموالهم فإذا دفعتم إليهم أموالهم (فأشهدوا عليهم) وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم لئلا يقع من بعضهم جحود وانكار لما قبضه وتسلمه ثم قال (وكفى بالله حسيباً) أي وكفى بالله محاسباً وشاهداً وراقباً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم لأموالهم هل هي كاملة موفرة أو منقوضة مخوسة مروج حسابها مدلس أمورها ؟ الله عالم بذلك كله . ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال « يا أباذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيماً »

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظَالِمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿

قال سعيد بن جبير وقتادة كان المشركون يعملون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً فنزل الله (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) الآية أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلي به إلى الميت من قرابة ، أو زوجية ، أو ولاء . فإنه لحمة كلمة النسب . وروى ابن مردويه من طريق ابن هراسة عن سفيان الثوري عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال : أتت أم كحة (١) إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن ابنتي قد مات أبوها وليس لهما شيء فأنزل الله تعالى

(١) في النسخة الأميركية : أم اخر ، وهو غلط

(للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) الآية وسيأتي هذا الحديث عند آتي الميراث بسياق آخر والله أعلم وقوله (وإذا حضر القسمة) الآية قيل المراد وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث (واليتامى والمساكين) فليرضخ لهم من التركة نصيب وإن ذلك كان واجبا في ابتداء الاسلام وقيل يستحب واختلفوا هل هو منسوخ أم لا على قولين فقال البخارى حدثنا أحمد بن حميد أخبرنا عبد الله الأشجعي عن سفيان عن الشيباني عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال هي محكمة وليست بمنسوخة . تابعه سعيد عن ابن عباس . وقال ابن جرير حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين حدثنا عباد بن العوام عن الحجاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال هي قائمة يعمل بها وقال الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في هذه الآية . قال هي واجبة على أهل الميراث مطابت به أنفسهم وهكذا روى عن ابن مسعود وأبي موسى وعبد الرحمن بن أبي بكر وأبي العالية والشعبي والحسن ، وقال ابن سيرين وسعيد بن جبير ومكحول وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح والزهرى ويحيى بن يعمر إنها واجبة وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن إسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن ابن سيرين قال ولي عبيدة وصية فأمر بشاة فذبحت فأطعم أصحاب هذه الآية فقال لولا هذه الآية لكان هذا من مالى ، وقال مالك فيما يروى عنه في التفسير من جزء مجموع عن الزهرى أن عروة أعطى من مال مصعب حين قسم ماله وقال الزهرى هي محكمة . وقال مالك عن عبد الكريم عن مجاهد قال هي حق واجب مطابت به الأنفس

﴿ ذكر من ذهب إلى أن ذلك أمر بالوصية لهم ﴾

قال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج أخبرني ابن أبي مليكة أن أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق والقاسم بن محمد أخبراه أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر قسم ميراث أبيه عبد الرحمن وعائشة حية فلم يدع في الدار مسكينا ولا ذاقربة إلا أعطاه من ميراث أبيه قالا وتلا (وإذا حضر القسمة أولو القربى) قال القاسم فذكرت ذلك لابن عباس فقال ما أصاب ليس ذلك له إنما ذلك إلى الوصية وإنما هذه الآية في الوصية يريد الميت يوصى لهم . رواه ابن أبي حاتم

﴿ ذكر من قال إن هذه الآية منسوخة بالكلية ﴾

قال سفيان الثوري عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (وإذا حضر القسمة) قال منسوخة : قال إسماعيل بن مسلم السكي عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال في هذه الآية (وإذا حضر القسمة أولو القربى) نسختها الآية التي بعدها (يوصيكم الله في أولادكم) وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في هذه الآية (وإذا حضر القسمة أولو القربى) كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض فأنزل الله بعد ذلك الفرائض فأعطى كل ذى حق حقه فجعلت الصدقة فيما سمي التوفى رواه ابن مردويه . وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس في قوله (وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين) نسختها آية الميراث فجعل لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو أكثر وحدثنا أسيد بن عاصم حدثنا سعيد بن عامر عن همام حدثنا قتادة عن سعيد بن المسيب أنه قال إنها منسوخة قبل الفرائض كان ماترك الرجل من مال أعطى منه اليتيم والفقير والمساكين وذو القربى إذا حضروا القسمة ثم نسختها الموارث فألحق الله بكل ذى حق حقه وصارت الوصية من ماله يوصى بها لذوى قرابته حيث شاء . وقال مالك عن الزهرى عن سعيد بن المسيب هي منسوخة نسختها الموارث والوصية . وهكذا روى عن عكرمة وأبي الشعثاء والقاسم بن محمد وأبي صالح وأبي مالك وزيد بن أسلم والضحاك وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وربيعة بن أبي عبد الرحمن أنهم قالوا إنها منسوخة وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم ، وقد اختار ابن جرير ههنا قولاً غريباً جداً وحاصله أن معنى الآية عنده (وإذا حضر القسمة) أى وإذا حضر قسمة مال الوصية أولو قرابة الميت (فإرضوهم منه وقولوا) لليتامى والمساكين إذا حضروا (قولاً معروفاً) هذا معنى ما حاوله بعد طول العبارة والتكرار وفيه نظر والله أعلم . وقال العوفي عن ابن عباس (وإذا حضر القسمة) هي قسمة الميراث وهكذا قال غير واحد والمعنى على هذا لا على ما سلكه ابن جرير رحمه الله بل المعنى أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين

لا يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل فإن أنفسهم تنوق إلى شيء منه إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهم يأبسون لشيء يعطونه فأمر الله تعالى وهو الرؤوف الرحيم أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون براهم وصدقة عليهم ، وإحسانا إليهم وجبرا لكسرهم . كما قال الله تعالى (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده) وذم الذين ينقلون المال خفية خفية أن يطلع عليهم المحاويع وذوو الفاقة كما أخبر به عن أصحاب الجنة (إذ أقسموا ليصر منها مصحين) أى بليل . وقال (فانطلقوا وهم يتخافتون * أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) (فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) فمن جحد حق الله عليه عاقبه في أعز ما يملكه ، ولهذا جاء في الحديث « ما خالطت الصدقة مالا إلا أفسدته » أى منعها يكون سبب محق ذلك المال بالكلية وقوله تعالى (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم) الآية . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هذا في الرجل يحضره الموت ، فيسمعه رجل يوصى بوصية تضر بورثته فأمر الله تعالى الذى يسمعه أن يتق الله ويوفقه ويسدده للصواب . فينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة ؛ وهكذا قال مجاهد وغير واحد وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعود قال : يا رسول الله إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة ، أفأتصدق بثلى مالى ، قال « لا » قال : فالشطر قال « لا » قال فالثالث قال « الثالث ، والثالث كثير » ثم قال رسول الله ﷺ « إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » وفي الصحيح عن ابن عباس قال لو أن الناس غضوا من الثالث إلى الرابع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الثالث ، والثالث كثير » قال الفقهاء إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفى في وصيته الثالث وإن كانوا فقراء استحب أن ينقص الثالث ؛ وقيل : المراد بالآية فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى (ولا يأكلوا أموالهم سراً وبسراً) حكاه ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً أى كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس في ذرايرهم إذا وليتهم ثم أعلمهم أن من أكل أموال اليتامى ظلماً فإنما يأكل في بطنه ناراً ولهذا قال (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) أى إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة - وفي الصحيحين من حديث سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات - قيل : يا رسول الله وماهن ؟ قال - الشرك بالله ، والسحر ؛ وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ؛ وأكل الربا وأكل مال اليتيم ؛ والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبيدة أخبرنا عبد العزيز بن عبد الصمد العمى حدثنا أبو هريرة العبدى (١) عن أبي سعيد الخدرى قال قلنا يا رسول الله ما رأيت ليلة أسرى بك ؟ قال « انطلقني إلى خلق من خلق الله كثير . رجال كل رجل منهم له مشفر كمشفر البعير ؛ وهو موكل بهم رجال يفكون لحاء أحدهم ، ثم يحاء بصخرة من نار فتقذف في أحدهم حتى يخرج من أسفله ولهم جوار وصراخ قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » وقال السدى . يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن سماعه وأنفه وعينه يعرفه كل من رآه بأكل مال اليتيم . وقال ابن مردويه : حدثنا إسحق بن إبراهيم بن زيد حدثنا أحمد بن عمرو حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا يونس بن بكير حدثنا زياد بن المنذر عن نافع بن الحارث عن أبي برزة أن رسول الله ﷺ قال « يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً » قيل يا رسول الله من هم ؟ قال « ألم تر أن الله قال (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً) الآية » ، رواه ابن أبي حاتم عن أبي زرعة عن عقبة بن مكرم وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أحمد بن علي بن الثني عن عقبة بن مكرم . قال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا أبو عمر العبدى حدثنا عبد الله بن جعفر الزهرى عن عثمان بن محمد عن المقبرى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أخرج مال الضعيفين المرأة واليتيم » أى أوصيكم باجتنب مالهما وتقدم في سورة البقرة من طريق عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً) الآية

(١) اسمه عماره بن جوين بالتصغير تركوه ومنهم من كذبه « تقريب التهذيب »

انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فأمر الله (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير) الآية فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

هذه الآية الكريمة والتي بعدها والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض ، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك . ولندكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك . وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة ، والحجاج بين الأئمة ، فموضعه كتب (١) الأحكام والله المستعان . وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك روى أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفریقی عن عبد الرحمن بن رافع التنوخي عن عبد الله بن عمرو مرفوعا « العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل ، آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة » . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعلموا الفرائض وعلموه الناس فانه نصف العلم ، وهو ينسب ؟ وهو أول شيء ينزع من أمي » رواه ابن ماجه وفي إسناده ضعف . وقد روى من حديث ابن مسعود وأبي سعيد ، وفي كل منهما نظر . قال ابن عيينة : إنما سمي الفرائض نصف العلم لأنه يبتلى به الناس (٢) كلهم وقال البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام أن ابن جريج أخبرهم قال . أخبرني ابن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : عاذني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ما شين فوجدني النبي صلى الله عليه وسلم لا أعقل شيئا ، فدعا بماء فوضأ منه ثم رش على فأققت فقلت : ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله . فنزلت (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث حجاج ابن محمد الأعور عن ابن جريج به ، ورواه الجماعة كلهم من حديث سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر (حديث آخر عن جابر في سبب نزول الآية) قال أحمد : حدثنا زكريا بن عدي حدثنا عبيد الله هو ابن عمرو الرقي عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيدا ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ، ولا يتكحان إلا ولهما مال قال : فقال « يقضى الله في ذلك » فترلت آية الميراث ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمهما فقال : « أعط ابنتي سعد الثلثين ، وأمها الثمن ، وما بقي فهو لك » وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل به ، قال الترمذي : ولا يعرف إلا من حديثه . والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي ، فانه إنما كان له إذ ذاك أخوات ، ولم يكن له بنات ، وإنما كان يورث كلاله ولكن ذكرنا الحديث ههنا تبعا للبخاري فانه ذكره ههنا ، والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية والله أعلم بقوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) أي يأمركم بالعدل فيهم ، فان أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث ، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث ، وفاوت بين الصنفين ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاونة التجارة والتكسب وتحمل المشاق فناسب أن يعطى ضعفي ما تأخذ الأنثى . وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم

(١) في نسخة الأزهر : كتاب الأحكام يعني كتابه هو . (٢) وفيها : زائدة .

لذكر مثل حظ الأنثيين) أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، حيث أوصى الوالدين بأولادهم ! فلم أنه أرحم بهم منهم كما جاء في الحديث الصحيح وقد رأى امرأة من السبي فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت تدور على ولدها ، فلما وجدته من السبي أخذته فألصقته بصدورها وأرضعته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على ذلك » . قالوا : لا يا رسول الله قال « فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها » وقال البخاري ههنا : حدثنا محمد بن يوسف عن وراق عن ابن أبي نجيح عن عطاء عن ابن عباس قال : كان المال للولد ، وكانت الوصية للوالدين ؛ فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثالث ، وجعل للزوجة الثمن والرابع ، وللزوج الشطر والرابع - وقال العوفي عن ابن عباس قوله (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وذلك أنه لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهها الناس أو بعضهم وقالوا : تعطى المرأة الربع أو الثمن ، وتعطى الابنة النصف ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ؛ ولا يحوز الغنيمة ؛ اسكتوا عن هذا الحديث لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينسأه ؛ أو شوله فيغير فقالوا : يا رسول الله تعطى الجارية نصف ما ترك أبوها ؛ وليست تركب الفرس ؛ ولا تقاتل القوم ، ويعطى الصبي الميراث وليس بغني شيئا ؛ وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية ؛ لا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم ؛ ويعطونه الأكبر فالأكبر . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير أيضا وقوله (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك) قال بعض الناس : قوله فوق زائدة وتقديره فإن كن نساء اثنتين كما في قوله (فاضربوا فوق الأعناق) وهذا غير مسلم لا هنا ولا هناك . فانه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه . وهذا ممتنع ، ثم قوله (فلهن ثلثا ما ترك) لو كان المراد ما قالوه لقال فلهما ثلثا ما ترك ؛ وإنما استفيد كون الثلثين للبتين من حكم الأخنتين في الآية الأخيرة ، فانه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين . وإذا ورث الأختان الثلثين فلا يرث البنات الثلثين بالطريق الأولى . وقد تقدم في حديث جابر أن النبي ﷺ حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين فدل الكتاب والسنة على ذلك وأيضا فانه قال (وإن كانت واحدة فلها النصف) فلو كان للبتين النصف لنص عليه أيضا فلما حكم به للواحدة على أفرادها دل على أن البنتين في حكم الثلاث والله أعلم وقوله تعالى (ولأبويه لكل واحد منهما السدس) إلى آخره ، الأبوان لهما في الإرث أحوال (أحدها) أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس فان لم يكن للميت إلا بنت واحدة ، فرض لهما النصف ، ولأبوين لكل واحد منهما السدس ؛ وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب (الحال الثاني) أن يفرد الأبوان بالميراث ، فيفرض لهما الثلث والحالة هذه أخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض ؛ فيكون قد أخذ ضعف ما حصل لهما وهو الثلثان ، فلو كان معها زوج أو زوجة يأخذ الزوج النصف والزوجة الربع . ثم اختلف العلماء ماذا تأخذ الأم بعد ذلك على ثلاثة أقوال : (أحدها) أنها تأخذ ثلث الباقي في السلتين ؛ لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما . وقد جعل الله لهما نصف ما جعل للأب . فتأخذ ثلث الباقي وتأخذ الأب الباقي ثلثيه ؛ هذا قول عمر وعثمان ؛ وأصح الروايتين عن علي ؛ وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور العلماء (والثاني) أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله (فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلائمه الثلث) فان الآية أعم من أن يكون معها زوج أو زوجة أولا ؛ وهو قول ابن عباس . وروى عن علي ومعاذ بن جبل نحوه . وبه يقول شريح وداود الظاهري . واختاره أبو الحسين محمد بن عبد الله بن اللبان البصري في كتابه الإيجاز في علم الفرائض وهذا فيه نظر ، بل هو ضعيف ، لأن ظاهر الآية إنما هو إذا استبدت بجميع التركة ، وأما هنا فيأخذ الزوج أو الزوجة الفرض ويبقى الباقي كأنه جميع التركة فتأخذ ثلثه . (والقول الثالث) أنها تأخذ ثلث جميع المال في مسألة الزوجة خاصة ، فإنها تأخذ الربع وهو ثلاثة من اثني عشر ، وتأخذ الأم الثلث وهو أربعة ، فيبقى خمسة للأب وأما في مسألة الزوج فتأخذ ثلث الباقي لثلاث تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال ، فتكون المسألة من ستة : للزوج النصف ثلاثة للأم ثلث الباقي بعد ذلك وهو سهم ، وللاب الباقي بعد ذلك وهو سهان . ويحكى هذا عن ابن سيرين ، وهو مركب من القولين الأولين ، وهو ضعيف أيضا والصحيح الأول والله أعلم (والحال الثالث من أحوال الأبوين) وهو

اجتماعهما مع الاخوة ، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم ، فانهم لا يرثون مع الأب شيئا ، ولكنهم مع ذلك يحبون الأم عن الثلث إلى السدس ، فيفرض لها مع وجودهم السدس فان لم يكن وارث سواها وسوى الأب أخذ الأب الباقي . وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الاخوة عند الجمهور . وقد روى البيهقي من طريق شعبة مولى ابن عباس عن ابن عباس أنه دخل على عثمان فقال : إن الأخوين لا يرثان الأم عن الثلث قال الله تعالى (فإن كان له إخوة) فالأخوان ليسا بلسان قومك إخوة ، فقال عثمان : لا أستطيع تغيير ما كان قبلي ، ومضى في الأمصار وتوارث به الناس . وفي صحة هذا الأثر نظر ، فان شعبة هذا تكلم فيه مالك بن أنس ، ولو كان هذا صحيحا عن ابن عباس لذهب اليه أصحابه الأخصاء به ، والمنقول عنهم خلافه وقد روى عبد الرحمن بن أبي الزناد عن خارجة بن زيد عن أبيه أنه قال : الإخوان تسمى إخوة ، وقد أفردت لهذه المسئلة جزءا على حدة . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبد العزيز بن المغيرة حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة نحوه وقوله (فإن كان له إخوة فلائمه السدس) أضروا بالأم ولا يرثون ، ولا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث ويحجبها ما فوق ذلك ، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم عن الثلث أن أباهم يلى إنكاحهم ونفقة عليهم دون أمهم ، وهذا كلام حسن . لكن روى عن ابن عباس باسناد صحيح أنه كان يرى أن السدس الذي حجبوه عن أمهم يكون لهم . وهذا قول شاذ رواه ابن جرير في تفسيره فقال : حدثنا الحسن بن يحيى حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : السدس الذي حجبه الاخوة الأم لهم إنما حجبوا أمهم عنه ليكون لهم دون أبيهم ، ثم قال ابن جرير : وهذا قول مخالف لجميع الأمة . وقد حدثني يونس أخبرنا سفیان أخبرنا عمرو عن الحسن ابن محمد عن ابن عباس أنه قال : الكلالة من لا ولده ولا والد

وقوله (من بعد وصية يوصى بها أو دين) أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية وذلك عند إيمان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة . وروى أحمد والترمذي وابن ماجه وأصحاب التفسير من حديث ابن إسحق عن الحارث بن عبد الله الأعور عن علي بن أبي طالب قال : إنكم تقرءون (من بعد وصية يوصى بها أو دين) وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية ، وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات ، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه . ثم قال الترمذي : لا نعرفه إلا من حديث الحارث (١) وقد تكلم فيه بعض أهل العلم (قلت) . لكن كان حافظاً للفرائض معتنياً بها وبالحساب فآله أعلم

وقوله (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) أي إنما فرضنا للآباء والأبناء وسواينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية ، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من كون المال للولد (٢) وللأبوين الوصية كما تقدم عن ابن عباس ، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم ، لأن الانسان قد يأتيه النفع الدنيوي أو الآخروي أوهما من أبيه ما لا يأتيه من ابنه ، وقد يكون بالعكس ، ولذا قال (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) أي ان النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر فلهمنا فرضنا لهذا وهذا ، وسواينا بين القسمين في أصل الميراث والله أعلم

وقوله (فريضة من الله) أي هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض هو فرض من الله حكم به وقضاه والله عليم حكيم الذي يضع الأشياء في محالها ويعطى كلا ما يستحقه بحسبه ، ولهذا قال (إن الله كان عليما حكما)

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ

(١) في نسخة الأزهر : الأعور (٢) وفيها : المال للأبوين وللولد الوصية .

وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ
غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ ﴿١﴾

يقول تعالى ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم إذا متن عن غير ولد ، فإن كان لهن ولد فلكن الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين . وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية ، وبعده الوصية ثم الميراث ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب . ثم قال (ولهن الربع مما تركتم) إلى آخره وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه وقوله (من بعد وصية) الخ الكلام عليه كما تقدم وقوله تعالى (وإن كان رجل يورث كلالة) الكلالة مشتقة من الإكليل وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه والمراد هنا من يرثه من حواشيه لأصوله ولا فروعه كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق أنه سئل عن الكلالة فقال : أقول فيها برأى فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : الكلالة من لا ولد له ولا والد فلما ولي عمر قال : إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأى رآه . كذا رواه ابن جرير وغيره . وقال ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا محمد بن يزيد^(١) عن سفيان عن سليمان الأحول عن طاوس قال سمعت ابن عباس يقول : كنت آخر الناس عهداً بعمر فسمعتهم يقول القول ما قلت وما قلت وقال قال : الكلالة من لا ولد له ولا والد . وهكذا قال علي وابن مسعود وصح عن غير واحد عن ابن عباس وزيد بن ثابت وبه يقول الشعبي والنخعي والحسن وقتادة وجابر بن زيد والحكم وبه يقول أهل المدينة وأهل الكوفة والبصرة وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف بل جميعهم وقد حكى الإجماع عليه غير واحد وورد فيه حديث مرفوع قال أبو الحسين بن اللبان وقد روى عن ابن عباس ما يخالف ذلك وهو أنه من لا ولد له والصحيح عنه الأول ولعل الراوى ما فهم عنه ما أراد . وقوله تعالى (وله أخ أو أخت) أى من أم كما هو في قراءة بعض السلف منهم سعد بن أبي وقاص وكذا فسرها أبو بكر الصديق فيما رواه قتادة عنه (فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث) وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه أحدها : أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم (والثاني) أن ذكورهم وإناتهم في الميراث سواء (والثالث) لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلالة فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن (الرابع) أنهم لا يزدون على الثلث وإن كثرت ذكورهم وإناتهم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس حدثنا ابن وهب أخبرنا يونس عن الزهري قال : قضى عمر أن ميراث الأخوة من الأم بينهم للذكر مثل حظ الأنثى قال الزهري ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم ذلك من رسول الله ﷺ وهذه الآية هي التي قال الله تعالى فيها (فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث) واختلف العلماء في المسئلة المشتركة وهي زوج وأم أو جدة واثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين ، فعلى قول الجمهور للزوج النصف ، وللأم أو الجدة السدس ، ولولد الأم الثلث ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو أخوة الأم ، وقد وقعت هذه المسئلة في زمان أمير المؤمنين عمر فأعطى الزوج النصف والأم السدس ، وجعل الثلث لأولاد الأم فقال له أولاد الأبوين : يا أمير المؤمنين هب أن أبانا كان حماراً ألسنا من أم واحدة ؟ فترك بينهم وصح التشريك عن عثمان وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم ، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح القاضي ومسروق وطاوس ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز والثوري وشريك : وهو مذهب مالك والشافعي وإسحق بن راهويه وكان علي بن أبي طالب لا يشرك بينهم ، بل يجعل الثلث لأولاد الأم ، ولا شيء لأولاد الأبوين ، والحالة هذه لأنهم عصبة . وقال وكيع بن الجراح : لم يختلف عنه في ذلك . وهذا قول أبي بن كعب وأبي موسى الأشعري . وهو المشهور عن ابن عباس . وهو مذهب الشعبي وابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن والحسن بن زياد ورفيع بن الهزيل والإمام أحمد ويحيى بن آدم ونعيم بن حماد وأبي ثور وداد بن علي الظاهري ، واختاره أبو الحسين بن اللبان الفرضي رحمه الله في كتابه الإيجاز .

وقوله (من بعد وصية يوصى به أو دين غير مضار) أى لتكن وصيته على العدل لا على الإضرار والجور والحيف بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه ، أو يزيده على ما فرض الله من الفريضة ، فمن سعى في ذلك كان كمن ضاد الله في حكمه وشريعته . ولهذا قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو النضر الدمشقي الفراديسي حدثنا عمر بن المغيرة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الاضرار في الوصية من الكبائر » وكذا رواه ابن جرير من طريق عمر بن المغيرة هذا وهو أبو حفص بصري سكن المصيصة ، قال ابن عساكر : ويعرف بمغنى المساكين ، وروى عنه غير واحد من الأئمة ، وقال فيه أبو حاتم الرازي : هو شيخ ، وقال علي بن المديني : هو مجهول لأعرفه ، لكن رواه النسائي في سننه عن علي بن حجر عن علي بن مسهر عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس موقوفا « الاضرار في الوصية من الكبائر » وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن عائذ بن حبيب عن داود بن أبي هند ، ورواه ابن جرير من حديث جماعة من الحفاظ عن داود عن عكرمة عن ابن عباس موقوفا ، وفي بعضها ويقرأ ابن عباس (غير مضار) قال ابن جرير والصحيح الموقوف ، ولهذا اختلف الأئمة في الاقرار للوارث هل هو صحيح أم لا ؛ على قولين (أحدهما) لا يصح لأنه مظنة التهمة . وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث » وهذا مذهب مالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة والقول القديم للشافعي رحمهم الله ، وذهب في الجديد إلى أنه يصح الاقرار . وهو مذهب طاوس وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز وهو اختيار أبي عبد الله البخاري في صحيحه ، واحتج بأن رافع بن خديج أوصى أن لا تكشف الفزارية عما أغلق عليه بابها قال : وقال بعض الناس لا يجوز إقراره لسوء الظن بالورثة وقد قال النبي ﷺ « إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث » وقال الله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فلم يخص وارثا ولا غيره . انتهى ما ذكره . فمتى كان الاقرار صحيحا مطابقا لما في نفس الأمر جرى فيه هذا الخلاف ومتى كان حيلة ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة وتقصان بعضهم فهو حرام بالاجماع وبنص هذه الآية الكريمة (غير مضار وصية من الله ، والله عليم حكيم) ثم قال تعالى ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

أى هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وقدمهم له عند عدمه هي حدود الله فلا تعتدوها ولا تتجاوزوها . ولهذا قال (ومن يطع الله ورسوله) أى فيها فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضها بحيلة ووسيلة بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته (يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم : ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) أى لكونه غير ماحكم الله به وضاد الله في حكمه ، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » قال ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (تلك حدود الله - إلى قوله - عذاب مهين) قال أبو داود في باب الاضرار في الوصية من سننه : حدثنا عبيدة بن عبد الله أخبرنا عبد الصمد حدثنا نصر بن علي الحارثي (١) حدثنا الأشعث بن عبد الله بن جابر الحداني حدثني شهر بن حوشب أن أبا هريرة حدثه أن رسول الله ﷺ قال « إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرها الموت فيضران في الوصية فتجب لها النار » وقال قرأ علي أبو هريرة من ههنا (من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار - حتى بلغ - ذلك الفوز العظيم) وهكذا رواه الترمذي وابن

ماجه من حديث أشعث^(١) وأكمل به ، وقال الترمذى حسن غريب ؛ وسياق الإمام أحمد أتم وأكمل
 ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسَكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ
 حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأُتُوا بِهِمَا فَأُصْلَحَا فَأَعْرِضُوا
 عَنْهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه
 إلى أن تموت ، ولهذا قال (واللاتي يأتين الفاحشة) يعنى الزنا (من نساءكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ؛ فان شهدوا
 فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) فالسبيل الذى جعله الله هو النسخ لذلك . قال ابن
 عباس رضى الله عنه : كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم ؛ وكذا روى عن عكرمة
 وسعيد بن جبير والحسن وعطاء الخراساني وأبي صالح وقتادة وزيد بن أسلم والضحاك أنها منسوخة وهو أمر متفق
 عليه - قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا سعيد بن قتادة عن الحسن بن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة بن
 الصامت قال : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أثر عليه وكرب لذلك وتغير^(٢) وجهه ؛ فأُنزل الله عز وجل عليه ذات
 يوم فلما سرى عنه قال « خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا ؛ الثيب بالثيب ؛ والبكر بالبكر ، الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة
 والبكر جلد مائة ثم نفى سنة » وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق عن قتادة عن الحسن بن حطان عن عبادة بن
 الصامت عن النبي ﷺ ولفظه « خذوا عني خذوا عني ؛ قد جعل الله لهن سبيلا ؛ البكر بالبكر جلد مائة وتعريب عام ؛
 والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن مبارك
 ابن فضالة عن الحسن بن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي عرف ذلك
 في وجهه ؛ فأُنزلت (أو يجعل الله لهن سبيلا) فلما ارتفع الوحي قال رسول الله ﷺ « خذوا خذوا قد جعل الله لهن سبيلا ؛
 البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ؛ والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة » . وقد روى الإمام أحمد أيضا هذا الحديث
 عن وكيع بن الجراح عن الحسن حدثنا الفضل بن دهم^(٣) عن قبيصة بن حرب عن سلمة بن المحبق قال : قال رسول الله ﷺ
 « خذوا عني خذوا عني ؛ قد جعل الله لهن سبيلا ؛ البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ؛ والثيب بالثيب جلد مائة والرجم »
 وكذا رواه أبو داود مطولا من حديث الفضل بن دهم ثم قال : وليس هو بالحافظ كان قصابا بواسط

(حديث آخر) قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا عباس بن حمدان حدثنا أحمد بن
 داود حدثنا عمرو بن عبد الغفار حدثنا إسماعيل بن أبي خالد^(٤) عن الشعبي عن مسروق عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله
 ﷺ « البكران يجلدان وينفيان ، والثيبان يجلدان ويرجمان ، والشيخان يرحمان » هذا حديث غريب من هذا
 الوجه - وروى الطبراني من طريق ابن لهيعة عن أخيه عيسى بن لهيعة عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت
 سورة النساء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا حبس بعد سورة النساء » وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول
 بمقتضى هذا الحديث ، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني ، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما
 يرجم فقط من غير جلد قالوا لأن النبي صلى الله عليه وسلم رجم ماعزا والغامدية واليهوديين ، ولم يجلدهم قبل ذلك فدل
 على أن الرجم ليس بجثم ، بل هو منسوخ على قولهم والله أعلم . وقوله تعالى (والَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأُتُوا بِهِمَا فَأُصْلَحَا) أى
 والَّذَانِ يفعلان الفاحشة فأُصْلَحَا ، قال ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير وغيرهما : أى بالشتم والتعيير والضرب
 بالنعال ، وكان الحكم كذلك حتى نسخ الله بالجلد أو الرجم ، وقال عكرمة وعطاء والحسن وعبد الله بن كثير : نزلت
 في الرجل والمرأة إذا زنيا . وقال السدى : نزلت في الفتيان من قبل أن يتزوجوا . وقال مجاهد : نزلت في الرجلين إذا
 فعلا - لا يكتفى ، وكأنه يريد اللواط والله أعلم : وقد روى أهل السنن من حديث عمرو بن أبى محمد عن عكرمة عن

(١) في نسخة الأزهر : ابن عبد الله بن جابر الحداني . (٢) وفيها : ويربد . (٣) وفيها عن الحسن . (٤) وفيها : خليل .

ابن عباس مرفوعا قال : قال رسول الله ﷺ « من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . وقوله (فإن تابا وأصلحا) أى أقبلوا ونزعا عما كانا عليه وصلحت أعمالهما وحسنت (فأعرضوا عنهما) أى لاتعنفوهما بكلام قبيح بعد ذلك . لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له (إن الله كان توابا رحيم) وقد ثبت في الصحيحين « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها » أى لا يعيرها بما صنعت بعد الحد الذى هو كفارة لما صنعت

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَٰهَ اللَّهِ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كَفَارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

يقول سبحانه وتعالى إنما يقبل (١) الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة ثم يتوب ولو بعد (٢) معانة الملك يقبض روحه قبل الغرغرة . قال مجاهد وغير واحد . كل من عصى الله خطأ أو عمدا فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب ، وقال قتادة عن إبي العالية أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون : كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة رواه ابن جرير . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال : اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمدا كان أو غيره . وقال ابن جريج أخبرني عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها . قال ابن جريج وقال لى عطاء بن أبى رباح نحوه . وقال أبو صالح عن ابن عباس من جهالة عمل السوء . وقال علي بن أبى طلحة عن ابن عباس : (ثم يتوبون من قريب) قال : ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت وقال الضحاك : ما كان دون الموت فهو قريب وقال قتادة والسدى : مادام في صحته ، وهو مروي عن ابن عباس . وقال الحسن البصري : (ثم يتوبون من قريب) ، مالم يغرغر ، وقال عكرمة : الدنيا كلها قريب (ذكر الأحاديث في ذلك) قال الامام أحمد حدثنا علي بن عياش ، وعصام بن خالد ، قال حدثنا بن ثوبان عن أبيه ، عن مكحول ، عن جبير بن نفير ، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن ثابت ابن ثوبان به ، وقال الترمذي حسن غريب . ووقع في سنن ابن ماجه : عن عبد الله بن عمرو وهو وإنما هو عبد الله ابن عمر بن الخطاب (حديث آخر) قال ابن مردويه : حدثنا محمد بن معمر . حدثنا عبد الله بن الحسن الحراني (٣) حدثنا يحيى ابن عبد الله البجلي ، حدثنا أيوب بن نهيك الحلبي سمعت عطاء بن أبى رباح قال : سمعت عبد الله بن عمر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول « مامن عبد مؤمن يتوب قبل الموت بشهر إلا قبل الله منه أدنى من ذلك » وقبل موته يوم وساعة يعلم الله منه التوبة والإخلاص إليه إلا قبل منه » (حديث آخر) قال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن إبراهيم بن ميمونة وأخبرني رجل من ملحان يقال له أيوب قال سمعت عبد الله بن عمر يقول : من تاب قبل موته بعام تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بشهر تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بجمعة تيب عليه ، ومن تاب قبل موته يوم تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بساعة تيب عليه . فقلت له إنما قال الله (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) فقال إنما أحدثك ما سمعته من رسول الله ﷺ . وهكذا رواه أبو داود الطيالسي . وأبو عمر الحوضي ، وأبو عامر العقدي عن شعبة (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا محمد بن مطرف ، عن زيد بن أسلم عن عبد الرحمن ابن السلمي قال : اجتمع أربعة من أصحاب النبي ﷺ فقال أحدهم سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم » فقال الآخر أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال نعم ؟ قال : وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بضحية » قال الرابع أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم . قال : وأنا سمعت رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم

يقول « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه » وقد رواه سعيد بن منصور عن الدراوردي ، عن زيد بن أسلم ، عن عبد الرحمن بن السلماني فذكر قريبا منه . (حديث آخر) قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد ، حدثنا عمران بن عبد الرحيم ، حدثنا عثمان بن الهيثم ، حدثنا عوف عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر » (أحاديث في ذلك مرسله)

قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن قال بلغني أن رسول الله ﷺ قال « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » هذا مرسل حسن عن الحسن البصري رحمه الله . وقد قال ابن جرير أيضا رحمه الله : حدثنا ابن بشار . حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني أبي عن قتادة عن العلاء بن زياد عن أبي أيوب بشير بن كعب أن نبي الله ﷺ قال « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » وحدثنا ابن بشار حدثنا عبد الأعلى عن سعيد عن قتادة عن عبادة ابن الصامت أن رسول الله ﷺ قال فذكر مثله . (حديث آخر) قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار . حدثنا أبو داود حدثنا عمران عن قتادة قال : كنا عند أنس بن مالك وثم أبو قلابة فقال فحدث أبو قلابة فقال : إن الله تعالى لما لعن إبليس سأله النظرة فقال : وعزتك وجلالك لا أخرج من قلب ابن آدم مادام فيه الروح . فقال الله عز وجل وعزتي لا أمنعه التوبة مادام فيه الروح . وقد ورد هذا في حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده من طريق عمرو بن أبي عمرو وأبي الهيثم العتوري كلاهما عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال إبليس يارب وعزتك لا أزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله عز وجل وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل وهو يرجو الحياة فإن توبته مقبولة ولهذا قال تعالى (فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكما) وأما متى وقع الإياس من الحياة وعابن الملك وخرجت (١) الروح في الحلق وضاق بها الصدر وبلغت الحلقوم وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم فلا توبة مقبولة حينئذ ولات حين مناص ولهذا قال (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) وهذا كما قال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده) الآيتين ، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عابوا الشمس طالعة من مغربها في قوله تعالى (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل . أو كسبت في إيمانها خيرا) الآية : وقوله (ولا الذين يموتون وهم كفار) يعني أن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته ولا يقبل منه فدية ولو بجماء الأرض . قال ابن عباس وأبو العالية والريبع بن أنس (ولا الذين يموتون وهم كفار) قالوا نزلت في أهل الشرك وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن داود قال حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان (٢) حدثني أبي عن مكحول أن عمر بن نعيم حدثه أن أباه حدثهم أن رسول الله ﷺ قال « إن الله يقبل توبة عبده أو يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب » قيل وما وقوع الحجاب ؟ قال « تخرج النفس وهي مشركة » ولهذا قال الله تعالى (أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما) أي موجعا شديدا مقبيا

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآءِ اتِّبَتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾

قال البخاري حدثنا محمد بن مقاتل حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الشيباني عن عكرمة عن ابن عباس قال الشيباني وذكره

أبو الحسن السوائي ولا أظنه ذكره إلا عن ابن عباس (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) قال كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بأمرائه إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجهوا وإن شاءوا لم يزوجهوا فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) هكذا ذكره البخاري وأبو داود والنسائي وابن مردويه وابن أبي حاتم من حديث أبي إسحق الشيباني واسمه سليمان بن أبي سليمان عن عكرمة وعن أبي الحسن السوائي واسمه عطاء كوفي أعجمي كلاهما عن ابن عباس بما تقدم . وقال أبو داود حدثنا محمد بن أحمد بن ثابت المروزي حدثني علي بن حسين عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت أو تردها إليه صداقها فأحكم الله تعالى عن ذلك أي نهى عن ذلك تفرد به أبو داود وقدرناه عن غير واحد عن ابن عباس بنحو ذلك وروى وكيع عن سفيان عن علي بن نديمة عن مقسم عن ابن عباس كانت المرأة في الجاهلية إذا توفي عنها زوجها فجاء رجل فأتى عليها ثوبا كان أحق بها فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) قال كان الرجل إذا مات وترك جارية ألقى عليها حميمه ثوبه فتمنعها من الناس فإن كانت جميلة تزوجه وإن كانت دمية حبسها حتى تموت فيرثها : وروى العوفي عنه كان الرجل من أهل المدينة إذا مات حميم أحدهم ألقى ثوبه على امرأته فورث نكاحها ولم ينكحها أحد غيره وحبسها عنده حتى تفتدي منه بفدية . فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) وقال زيد بن أسلم في الآية كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله وكان يعضلها حتى يرثها ، أو يزوجه من أراد ، وكان أهل تهامة يسيء الرجل صحة المرأة حتى يطلقها ويشترط عليها أن لاتنكح إلا من أراد حتى تفتدي منه ببعض ما أعطاها فنهى الله المؤمنين عن ذلك رواه ابن أبي حاتم . وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد ابن إبراهيم ، حدثنا موسى بن إسحق ، حدثنا علي بن المنذر . حدثنا محمد بن فضيل ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف عن أبيه قال لما توفي أبوقيس بن الأسلت أراد ابنه أن يزوجه امرأته وكان لهم ذلك في الجاهلية فأنزل الله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) ورواه ابن جرير من حديث محمد بن فضيل به ثم روى من طريق ابن جريج قال أخبرني عطاء أن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل وترك امرأة حبسها أهلها على الصبي يكون فيهم فنزلت (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) الآية . وقال ابن جريج قال مجاهد كان الرجل إذا توفي كان ابنه أحق بأمرائه ينكحها إن شاء إذا لم يكن ابنها ، أو ينكحها من شاء أخاه أو ابن أخيه . وقال ابن جريج قال عكرمة نزلت في كيشة بنت معن بن عاصم بن الأوس توفي عنها أبوقيس بن الأسلت فجنح عليها ابنه فجاءت رسول الله ﷺ ، فقالت يا رسول الله : لا أنا ورثت زوجي ولا أنا تركت فأنكح . فأنزل الله هذه الآية . وقال السدي عن أبي مالك : كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبا . فإن كان له ابن صغير ، أو أخ حبسها حتى يشب أو تموت فيرثها فإن هي انفلتت فأتت أهلها ولم يلق عليها ثوبا نجت . فأنزل الله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) وقال مجاهد في الآية : كان الرجل يكون في حجره اليتيم هو يلي أمرها فيحبسها رجاء أن تموت امرأته فيزوجها أو يزوجه ابنه ، رواه ابن أبي حاتم . ثم قال وروى عن الشعبي وعطاء بن أبي رباح ، وأبي مجاز والضحاك والزهرى وعطاء الخراساني ، ومقاتل بن حيان نحو ذلك . قلت : فالآية نعم ما كان يفعله أهل الجاهلية وما ذكره مجاهد ، ومن وافقه . وكل ما كان فيه نوع من ذلك والله أعلم وقوله (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) أي لاتنصروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقها أو بعضه أو حقا من حقوقها عليك ، أو شيئا من ذلك على وجه القهر لها والاضرار . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (ولا تعضلوهن) يقول لاتفهروهن (لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) يعني الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبها ولها عليه مهر فيضرها لتفتدي به ، وكذا قال الضحاك وقتادة وغير واحد . واختاره ابن جرير ، وقال ابن المبارك وعبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرني سماك بن الفضل عن ابن السمان قال : نزلت هاتان الآيتان إحداهما في أمر الجاهلية ، والأخرى

في أمر الاسلام . قال عبد الله بن المبارك يعني قوله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) في الجاهلية (ولا تعضوهن) في الإسلام ، وقوله (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والشعمي ، والحسن البصري . ومحمد بن سيرين . وسعيد بن جبير ومجاهد . وعكرمة ، وعطاء الخراساني ، والضحاك وأبو قلابه ، وأبو صالح والسدي وزيد بن أسلم ، وسعيد بن أبي هلال ، يعني بذلك الزنا ، يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها كما قال تعالى في سورة البقرة (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله) الآية : وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك : الفاحشة المبينة النشوز والعصيان ، واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله الزنا والعصيان ، والنشوز وبذاء اللسان ، وغير ذلك . يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئ منه من حقها أو بعضه ويفارقها . وهذا جيد والله أعلم ، وقد تقدم فيما رواه أبو داود منفردا به من طريق يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قال وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذى قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها فأحكم الله عن ذلك أي نهى عن ذلك . قال عكرمة والحسن البصري : وهذا يقتضي أن يكون السياق كله كان في أمر الجاهلية ولكن نهى المسلمين عن فعله في الإسلام : وقال عبد الرحمن بن زيد كان العضل في قريش بمكة ينكح الرجل المرأة الشريفة فلعلمها لا توافقه فيفارقها على أن لا تزوج إلا بإذنه فيأتي بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد فإذا جاء الخاطب فإن أعطته وأرضته أذن لها وإلا عضلها . قال فهذا قوله (ولا تعضوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) الآية وقال مجاهد في قوله (ولا تعضوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) هو كالعضل في سورة البقرة . وقوله تعالى (وعاشروهن بالمعروف) أي طيبوا أقوالكم لهن وحسنوا أفعالكم وهياتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله كما قال تعالى (ولهن مثل علمهن بالمعروف) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم خيركم لأهله ؛ وأنا خيركم لأهلي » وكان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه جميل العشرة دائم البشر ؛ يداعب أهله ؛ ويلطف بهم ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساءه حتى أنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها يتودد إليها بذلك قالت سابقني رسول الله ﷺ فسبقته وذلك قبل أن أحمل اللحم ، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني فقال « هذه بتلك » ويجمع (١) نساء كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم العشاء في بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها ، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد يضع عن كتفيه الرداء وينام بالازار ، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلا قبل أن ينام يؤانسهم بذلك صلى الله عليه وسلم . وقد قال الله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) وأحكام عشرة النساء وما يتعلق بتفصيل ذلك موضعه كتب (٢) الأحكام والله الحمد

وقوله تعالى (فإن كرهتموهن فعسى أن تسكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) أي فعسى أن يكون ضبركم في إمساكن (٣) مع الكراهة فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس في هذه الآية هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولدا ويكون في ذلك الولد خير كثير ، وفي الحديث الصحيح « لا يفرك مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقا رضى منها آخر » وقوله تعالى (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتن إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا) أي إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها فلا يأخذ مما كان أصدق الأولى شيئا ولو كان قنطارا من المال ، وقد قدمنا في سورة آل عمران الكلام على القنطار بما فيه كفاية عن إعادته ههنا . وفي هذه الآية دلالة على جواز الاصداق بالمال الجزيل وقد كان عمر بن الخطاب ينفق عن كثرة الاصداق ثم رجع عن ذلك كما قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا سلمة بن علقمة عن محمد بن سيرين قال : نبئت عن أبي العجفاء السلمي قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : ألا لا تغالوا في صداق النساء ، فانها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله كانت أولاكم بها النبي صلى الله عليه وسلم ما أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من

(١) في نسخة الأثر : ويجمع . (٢) وفيها : كتاب . (٣) وفيها : إمساكنكم لهن .

بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية ، وإن كان الرجل ليتلى بصدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه وحتى يقول كلفت إليك القرية ، ثم رواه الإمام أحمد وأهل السنن من طرق عن محمد بن سيرين عن أبي العجفاء واسمه هرم

ابن سيب البصري وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح

(طريق أخرى عن عمر) قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو خيثمة حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا أبي عن ابن إسحق حدثني محمد بن عبد الرحمن عن خالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق قال : ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال : أيها الناس ما إكثركم في صدق النساء . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعائة درهم . فما دون ذلك . ولو كان الاكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها . فلا عرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعائة درهم . قال : ثم نزل . فاعترضته امرأة من قريش فقالت : يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعائة درهم ، قال : نعم فقالت أما سمعت ما أنزل الله في القرآن . قال : وأى ذلك . فقالت : أما سمعت الله يقول (وآتيتهم إحداهن قنطاراً) الآية قال : فقال اللهم غفراً ، كل الناس أقره من عمر . ثم رجع فركب المنبر فقال : أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعائة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب . قال أبو يعلى : وأظنه قال : فمن طابت نفسه فليفعل إسناده جيد قوى

(طريقة أخرى) قال ابن المنذر . حدثنا إسحاق بن إبراهيم عن عبد الرزاق عن قيس بن ربيع عن أبي حصين عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : قال عمر بن الخطاب لا تغالوا في مهور النساء . فقالت امرأة : ليس ذلك لك يا عمر إن الله يقول : وآتيتهم إحداهن قنطاراً من ذهب^(١) - قال وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود - فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئاً فقال عمر : إن امرأة خاصمت عمر فخصمته

(طريق أخرى عن عمر فيها انقطاع) قال الزبير بن بكار : حدثني عمي مصعب بن عبد الله عن جدي قال : قال عمر بن الخطاب : لا تزيدوا في مهور النساء وإن كانت بنت ذى القصة - يعني يزيد بن الحصين الحارثي - فمن زاد ألقى الزيادة في بيت المال . فقالت امرأة من صفة النساء طويلة . في أنفها فطس : ماذا لك قال : ولم . قالت : إن الله قال (وآتيتهم إحداهن قنطاراً) الآية فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ، ولهذا قال منكرا (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض) أى وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيت إليها وأفضت إليك قال ابن عباس ومجاهد والسدي وغير واحد : يعني بذلك الجماع - وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعهما « الله يعلم أن أحكما كاذب . فهل منكما تائب » قالها ثلاثا فقال الرجل : يا رسول الله مالى - يعني ما أصدقها - قال « لا مال لك . إن كنت صدقت فهو بما استحلت من فرجها . وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها » . وفي سنن أبي داود وغيره عن نضرة بن أبي نضرة أنه تزوج امرأة بكراً في خدرها فإذا هي حامل من الزنا فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له . ففضى لها بالصداق وفرق بينهما وأمر بجلدها وقال « الولد عبد لك . والصداق في مقابلة البضع » ولهذا قال تعالى (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض) وقوله تعالى (وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) روى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير . أن المراد بذلك العقد . وقال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن ابن عباس في قوله (وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) قال إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . قال ابن أبي حاتم : وروى عن عكرمة ومجاهد وأبي العالية والحسن وقتادة ويحيى بن أبي كثير والضحاك والسدي نحو ذلك . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في الآية هو قوله « أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » فإن كلمة الله هي التشهد في الخطبة قال : وكان فيما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به قال له « وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى » رواه ابن أبي حاتم وفي صحيح مسلم عن جابر في خطبة حجة الوداع أن النبي ﷺ قال فيها « واستوصوا بالنساء خيراً فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله »

وقوله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) الآية ، يحرم الله تعالى زوجات الآباء تكريماً لهم ، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده ، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها ، وهذا أمر مجمع عليه . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا قيس بن الربيع حدثنا أشعث بن سوار عن عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال لما توفي أبو قيس - يعني ابن الأسلت - وكان من صالحى الأنصار . فخطب ابنه قيس امرأته فقالت : إنما أعدك ولداً وأنت من صالحى قومك . ولكنى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) فقالت : إن أباقيس توفي فقال : « خيراً » ثم قالت : إن ابنه قيساً خطبني وهو من صالحى قومه . وإنما كنت أعدك ولداً فما ترى فقال لها « ارجعى إلى بيتك » قال فنزلت (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) الآية : وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا حسين حدثنا حجاج عن ابن جريج عن عكرمة في قوله (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف) قال : نزلت في أبي قيس بن الأسلت خلف على أم عبيد الله ضمرة . وكانت تحت الأسلت أبيه وفي الأسود بن خلف ، وكان خلف على ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار وكانت عند أبيه خلف ، وفي فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد كانت عند أمية بن خلف . فخلف عليها صفوان بن أمية . وقد زعم السهلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولاً به في الجاهلية ، ولهذا قال (إلا ما قد سلف) كما قال (وأن تجمعوا بين الأخنتين إلا ما قد سلف) قال وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمه تزوج بامرأة أبيه فأولدها ابنه النضر بن كنانة قال : وقد قال ^(٢) « ولدت من نكاح لا من سفاح » قال : فدل على أنه كان سائفاً لهم ذلك ، فأراد ^(٣) أنهم كانوا يعدونه نكاحاً . فقد قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله الخزومي حدثنا قراد حدثنا ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس قال كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأخنتين فأنزل الله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) (وأن تجمعوا بين الأخنتين) وهكذا قال عطاء وقتادة ، ولكن فيما نقله السهلي من قصة كنانة نظر والله أعلم وعلى كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة ، مبشع غاية التبشع ، ولهذا قال تعالى (إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً) وقال (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) وقال (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً) فزاد ههنا (ومقتاً) أى بغضا أى هو أمر كبير في نفسه ، ويؤدى إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته ، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة ينفص من كان زوجها قبله ، ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهات لكونهن ^(٤) زوجات النبي ^(صلى الله عليه وسلم) وهو كالأب : بل حقه أعظم من حق الآباء بالاجتماع ، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه . وقال عطاء بن أبي رباح في قوله (ومقتاً) أى يمقت الله عليه (وساء سبيلاً) أى وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس ، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه ، فيقتل ويصير ماله فيثا لبيت المال . كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من طرق عن البراء بن عازب عن خاله أبي بردة - وفي رواية ابن عمر - وفي رواية عمه - أنه بعث رسول الله ^(صلى الله عليه وسلم) إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله . وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا أشعث عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال . مرنى عمى الحارث بن عمير ومعه لواء قد عقده له النبي ^(صلى الله عليه وسلم) فقلت له : أى عم أين بعثك النبي قال : بعثنى إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرنى أن أضرب عنقه

﴿ مسألة ﴾ وقد أجمع العلماء على تحريم من وطئها الأب بتزويج أو ملك أو شبهة واختلفوا فيمن باشرها بشهوة دون الجماع أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية . فعن الإمام أحمد رحمه الله أنها تحرم أيضاً بذلك وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة خديج الحمصي مولى معاوية قال اشترى لمعاوية جارية نضياء جميلة فأدخلها عليه مجردة ويده قضيب فجعل يهوى به إلى متاعها ويقول نعم المتاع لو كان له متاع اذهب بها إلى يزيد بن معاوية ثم قال لا ادع إلى ربيعة بن عمرو الحرسى وكان فقهاً فلما دخل عليه قال إن هذه أتيت بها مجردة فرأيت منها ذاك وذاك وإنى أردت أن أبعث بها إلى يزيد فقال لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنها لا تصلح له ثم قال نعم ما رأيت ثم قال ادع إلى عبد الله بن مسعدة الفزاري فدعوته وكان آدم شديد الأدمة . فقال دونك هذه بيض بها ولدك قال وكان عبد الله بن مسعدة هذا وهبه رسول الله ^(صلى الله عليه وسلم) لابنته فاطمة فربته ثم أعتقته ثم كان بعد ذلك مع معاوية على رضى الله عنه

(١) في نسخة الأزر : وأستأمره فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٢) وفيها وإن أراد . (٣) وفيها : لكنهن .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَأَرْبَابُكُمْ الَّذِينَ فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع والمحارم بالصهر كما قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان بن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : حرمت عليكم سبع نسبا وسبع صهرا وقرأ (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم) الآية وحدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد حدثنا أبو أحمد حدثنا سفيان عن الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن ابن عباس قال : يحرم من النسب سبع ومن الصهر سبع ثم قرأ (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت) فهن النسب . وقد استدلل جمهور العلماء على تحريم الخلوة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى (وبناتكم) فانها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل وقد حكى عن الشافعي شيء في إباحتها لأنها ليست بنتا شرعية فكما لم تدخل في قوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم) للذكر مثل حظ الأنثيين) فانها لا تراث بالاجماع فكذلك لا تدخل في هذه الآية والله أعلم وقوله تعالى (وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك ، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك ، ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث مالك بن أنس عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال « إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة » وفي لفظ لمسلم « يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب » وقال بعض الفقهاء كل ما يحرم من النسب يحرم من الرضاعة إلا أربع صور ، وقال بعضهم : ست صور هي المذكورة في كتب الفروع والتحقيق أنه لا يستثنى شيء من ذلك ، لأنه يوجد مثل بعضها في النسب ، وبعضها إنما يحرم من جهة الصهر فلا يرد على الحديث شيء أصلا البتة ، والله الحمد وبه الثقة . ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة ، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية . وهذا قول مالك ، ويروى عن ابن عمر ، واليه ذهب سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والزهري . وقال آخرون : لا يحرم أقل من ثلاث رضعات لما ثبت في صحيح مسلم من طريق هاشم بن عروة عن أبيه عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تحرم المصاة ولا المصتان » وقال قتادة عن أبي الخليل عن عبد الله بن الحارث عن أم الفضل قالت : قال رسول الله ﷺ « لا تحرم الرضعة والرضعتان ، والمصاة والمصتان » وفي لفظ آخر « لا تحرم الإملجة ولا الاملاجتان » رواه مسلم . ومن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وأبو عبيد وأبو ثور ، وهو مروى عن علي وعائشة وأم الفضل وابن الزبير وسليمان بن يسار وسعيد بن جبير رحمهم الله . وقال آخرون : لا يحرم أقل من خمس رضعات لما ثبت في صحيح مسلم من طريق مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان فيما أنزل من القرآن « عشر رضعات معلومات يحرمن » ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفي النبي صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن وروى عبد الرزاق عن

معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة نحو ذلك . وفي حديث سهلة بنت سهيل أن رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع سالماً مولى أى حذيفة خمس رضعات ، وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات وبهذا قال الشافعي وأصحابه ، ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور . وقد قدمنا الكلام على هذه المسئلة في سورة البقرة عند قوله (يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) ثم اختلفوا هل يحرم لبن الفحل كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم ، أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط ، ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو قول لبعض السلف على قولين تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبير وقوله (وأمهات نسائكم وربائكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها ، سواء دخل بها أو لم يدخل بها . وأما الربيبة وهي بنت المرأة فلا تحرم (١) حتى يدخل بأمرها فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها ، ولهذا قال (وربائكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن) ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) في تزويجهن ، فهذا خاص بالربائب وحدهن ، وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب فقال : لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها لقوله (فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدي وعبد الأعلى عن سعيد عن قتادة عن جلاس بن عمرو عن علي بن رضى الله تعالى عنه في رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها يتزوج بأمرها قال : هي بمنزلة الربيبة : وحدثنا ابن بشار حدثنا يحيى عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن زيد بن ثابت قال : إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها . وفي رواية عن قتادة عن سعيد عن زيد بن ثابت أنه كان يقول : إذا ماتت فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها ، فإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل . وقال ابن المنذر : حدثنا إسحق عن عبد الرزاق عن ابن جريج قال : أخبرني أبو بكر بن حفص عن مسلم بن عويمر الأجدع أن بكر بن كنانة أخبره أن أباه أنكحه امرأة بالطائف قال : فلم أجتمعها حتى توفي عمي عن أمها ، وأمها ذات مال كثير فقال أي : هل لك في أمها ؟ قال : فسألت ابن عباس وأخبرته ؟ فقال : انكح أمها ، قال : وسألت ابن عمر فقال : لا تنكحها . فأخبرت أبي بما قال ، فكتب إلى معاوية فأخبره بما قال فكتب معاوية : إني لا أحل ما حرم الله ، ولا أحرم ما أحل الله . وأنت وذاك والنساء سواها كثير . فلم ينه ولم يأذن لي فانصرف أبي عن أمها فلم ينكحها . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن سماك بن الفضل عن رجل عن عبد الله بن الزبير قال : الربيبة والأم سواء لا بأس بها إذا لم يدخل بالمرأة ، وفي إسناده مبهم . وقال ابن جريج أخبرني عكرمة بن كليل (٢) أن مجاهداً قال (وأمهات نسائكم وربائكم اللاتي في حجوركم) أراد بهما الدخول جميعاً ، فهذا القول كما ترى مروى عن علي وزيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ومجاهد وسعيد بن جبيرة وابن عباس ، وقد توقف فيه معاوية . وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن محمد بن الصابوني فيما نقله الرافعي عن العبادي . وقد روى عن ابن مسعود مثله ثم رجع عنه قال الطبراني : حدثنا إسحق بن إبراهيم الدبري حدثنا عبد الرزاق عن الثوري عن أبي فروة عن أبي عمرو الشيباني عن ابن مسعود : أن رجلاً من بني كعب من فزارة تزوج امرأة فرأى أمها فأعجبته . فاستفتى ابن مسعود فأمره أن يفارقها ثم يتزوج أمها فتزوجها وولدت له أولاداً ثم أتى ابن مسعود المدينة فمثل عن ذلك فأخبر أنها لا تحل له فلما رجع إلى الكوفة قال للرجل : إنما عليك حرام ففارقها . وجمهور العلماء على أن الربيبة لا تحرم بالعقد على الأم بخلاف الأم فإنها تحرم بمجرد العقد . قال ابن أبي حاتم : حدثنا جعفر بن محمد حدثنا هرون بن عروة حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول إذا طلق الرجل المرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل له أمها (وروى) أنه قال : إنها مبهمة فكرها . ثم قال : وروى عن ابن مسعود وعمران بن حصين ومسروق وطاوس وعكرمة وعطاء والحسن ومكحول وابن سيرين وقاتدة والزهري نحو ذلك . وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة ، وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً والله الحمد والمنة . قال ابن جريج والصواب قول من قال الأم من المبهمات . لأن الله لم يشترط معهن الدخول كما اشترطه مع أمهات الربائب ؛ مع أن ذلك أيضاً

إجماع الحجة التي لا يجوز خلافها فما جاءت به متفقة عليه . وقد روى بذلك أيضا عن النبي ﷺ خبر غريب وفي إسناده نظر ، وهو ما حدثني به ابن المثنى حدثنا حبان بن موسى حدثنا ابن المبارك أخبرنا المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال « إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها . دخل بالبت أولم يدخل فإذا تزوج بالأم فلم يدخل بها ثم طلقها فإن شاء تزوج الابنة » ثم قال : وهذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه فإن في إجماع الحجة على صحة القول به مستغنى عن الاستشهاد على صحته بغيره . وأما قوله تعالى (وربائكم اللاتي في حجوركم) فالجمهور على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره : قالوا وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلامفهوم له كقوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) وفي الصحيحين أن أم حبيبة قالت : يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان ، وفي لفظ لمسلم عزة بنت أبي سفيان قال « أو تحيين ذلك » ؟ قالت : نعم لست بك بمخيلة ، وأحب من شاركني في خير أختي قال « فإن ذلك لا يحل لي » قالت : فانا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة قال « بنت أم سلمة » قالت نعم قال « إنها لو لم تكن ربيتي في حجرى ما حلت لي » ، إنها لبنت أختي من الرضاة ، أرضعتي وأبأسلمة ثوبية فلا تعرض على بناتكن ولا أخواتكن » وفي رواية للبخارى « إنى لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي » فجعل الناطق في التحريم مجرد تزوجه أم سلمة وحكم بالتحريم بذلك ، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف . وقد قيل بأنه لا تحرم الربيبة إلا إذا كانت في حجر الرجل فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا إبراهيم بن موسى أنبأنا هشام - يعنى ابن يوسف - عن ابن جريج حدثني إبراهيم بن عبيد بن رفاعة أخبرني مالك بن أوس ابن الحدثان قال : كانت عندي امرأة فتوفيت وقد ولدت لي فوجدت عليها فلقيني على بن أبي طالب فقال : مالك ؟ قلت : توفيت المرأة فقال على : لها ابنة ؟ قلت : نعم وهى بالطائف قال كانت في حجرك ؟ قلت : لا هى بالطائف قال : فأنكحها قلت : فأين قول الله (وربائكم اللاتي في حجوركم) ؟ قال : إنها لم تكن في حجرك إنما ذلك إذا كانت في حجرك ، هذا إسناده قوى ثابت إلى على بن أبي طالب على شرط مسلم ، وهو قول غريب جداً ، وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري وأصحابه . وحكاه أبو القاسم الرافعي عن مالك رحمه الله . واختاره ابن حزم ، وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي أنه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله فاستشكله وتوقف في ذلك والله أعلم . وقال ابن المنذر : حدثنا على بن عبد العزيز حدثنا الأثرم عن أبي عبيدة قوله (اللاتي في حجوركم) قال : في بيوتكم وأما الربيبة في ملك اليمين فقد قال الإمام مالك بن أنس عن ابن شهاب أن عمر بن الخطاب سئل عن المرأة وبنتها من ملك اليمين توطأ أحدهما بعد الأخرى فقال عمر : ما أحب أن أجيزهما جميعا يريد أن أطأهما جميعا ملك يميني ، وهذا منقطع وقال سنيد بن داود في تفسيره : حدثنا أبو الأحوص عن طاوس عن طارق بن عبد الرحمن عن قيس قال : قلت لابن عباس أيقع الرجل على امرأة وابنتها مملوكين له ؟ فقال أحلتها آية وحرمتها آية ، ولم أكن لأفعله . وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله : لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وبنتها من ملك اليمين لأن الله حرم ذلك في النكاح قال (وأمهات نسائكم وربائكم اللاتي في حجوركم من نسائكم) وملك اليمين عندهم تبع للنكاح إلا ما روى عن عمر وابن عباس وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم . وروى هشام عن قتادة : بنت الربيبة وبنت ابنتها لا تصلح وإن كانت أسفل يبطون كثيرة ، وكذا قال قتادة عن أبي العالية ومعنى قوله (اللاتي دخلتم بهن) أى نكحتموهن ، قاله ابن عباس وغير واحد وقال ابن جريج عن عطاء . هو أن تهدي إليه فيكشف ويفتش ويجلس بين رجلها قلت : أرأيت إن فعل ذلك في بيت أهلها . قال : هو سواء ، وحسبه قد حرم ذلك عليه ابنتها . وقال ابن جرير : وفي إجماع الجميع على (١) أن خلوة الرجل بامرأة لا تحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها وقبل النظر إلى فرجها بشهوة ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع

وقوله تعالى (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) أى وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية كما قال تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم) الآية وقال ابن جريج : سألت عطاء عن قوله (وحلائل أبنائكم الذين

من أصلا بكم) قال : كئنا نحدث والله أعلم أن النبي ﷺ لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة في ذلك فأنزل الله عز وجل (وحلائل أبنائكم الذين من أصلا بكم) ونزلت (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) ونزلت (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم) وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا محمد بن أبي بكر الملقم حدثنا خالد بن الحارث عن الأشعث عن الحسن بن محمد أن هؤلاء الآيات مبهمات (وحلائل أبنائكم) (وأمهات نسائكم) ثم قال : وروى عن طاوس وإبراهيم والزهرى ومكحول نحو ذلك (قلت) معنى مبهمات أى عامة فى المدخول بها وغير المدخول فتحرم بمجرد العقد عليها وهذا متفق عليه ، فان قيل فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاة كما هو قول الجمهور ومن الناس من يحكيه إجماعاً وليس من صلبه فالجواب من قوله ﷺ « يحرم من الرضاة ما يحرم من النسب » وقوله تعالى (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) الآية . أى وحرم عليكم الجمع بين الأختين معا فى التزويج وكذا فى ملك اليمين إلا ما كان منكم فى جاهليتكم فقد عفونا عنه وغفرناه . فدل على أنه لا مشوية فيما يستقبل لأنه استثنى مما سلف كما قال (لا يذوقون فيه الموت إلا الموتة الأولى) فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين فى النكاح ، ومن أسلم وتحتة أختان خير فيمسك إحداها ويطلق الأخرى لا محالة . قال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن أبي وهب الجشاني عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال : أسلمت وعندي امرأتان أختان فأمرنى النبي صلى الله عليه وسلم أن أطلق إحداها . ثم رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه من حديث ابن لهيعة وأخرجه أبو داود والترمذى أيضاً من حديث يزيد بن أبي حبيب كلاهما عن أبي وهب الجشاني قال الترمذى واسمه دليم بن الهوشع عن الضحاك بن فيروز الديلمى عن أبيه به وفى لفظ للترمذى . فقال النبي ﷺ « اختر أيتها شئت » ثم قال الترمذى هذا حديث حسن وقد رواه ابن ماجه أيضاً بإسناد آخر فقال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد السلام بن حرب عن إسحق بن عبد الله بن أبي فروة عن أبي وهب الجشاني عن أبي خراش الرعيني قال قدمت على رسول الله ﷺ وعندى أختان تزوجتهما فى الجاهلية فقال « إذا رجعت فطلق إحداها » قلت فيحتمل أن أبا خراش هذا هو الضحاك بن فيروز ويحتمل أن يكون غيره فيكون أبو وهب قد رواه عن اثنين عن فيروز الديلمى والله أعلم وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن يحيى بن محمد بن يحيى حدثنا أحمد بن يحيى الخولاني حدثنا هيثم بن خارجه حدثنا يحيى بن إسحق عن إسحق بن عبد الله بن أبي فروة عن زر بن حكيم عن كثير بن مرة عن الديلمى قال : قلت يارسول الله إن تحتي أختين قال « طلق إيهما شئت » فالديلمى المذكور أولاً هو الضحاك بن فيروز الديلمى رضى الله عنه ، وكان من جملة الأمراء باليمن الذين ولوا قتل الأسود العنسى المنبئ لعنه الله ، وأما الجمع بين الأختين فى ملك اليمين فحرام أيضاً للعموم الآية . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة عن عبد الله بن أبي عتبة أو عتبة عن ابن مسعود أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين فكرهه فقال له يعنى السائل يقول الله تعالى (إلا ما ملكت أيمانكم) فقال له ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : وبغيرك مما ملكت يمينك . وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة الأربعة وغيرهم ، وإن كان بعض السلف قد توقف فى ذلك . وقال الإمام مالك عن ابن شهاب عن قيصة بن ذؤيب أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأختين فى ملك اليمين هل يجمع بينهما فقال عثمان أحلتهم آية وحرمها آية وما كنت لأمنع ذلك فخرج من عنده فلقى رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فسأله عن ذلك فقال : لو كان لى من الأمر شئ ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالا . وقال مالك قال ابن شهاب أراه على بن أبي طالب قال . وبلغنى عن الزبير بن العوام مثل ذلك قال ابن عبد البر النمرى رحمه الله فى كتاب الاستدكار إنما كنى قيصة بن ذؤيب عن على بن أبي طالب لصحبته عبد الملك بن مروان وكانوا يستثقلون ذكر على بن أبي طالب رضى الله عنه ثم قال أبو عمر حدثني خلف بن أحمد قراء عليه أن خلف بن مطرف حدثهم حدثنا أيوب بن سليمان وسعيد بن سليمان ومحمد بن عمر بن لبابة قالوا حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ عن موسى بن أيوب الغافقي حدثني عمى إياس بن عامر قال سألت على بن أبي طالب فقلت إن لى أختين فما ملكت يمينى اتخذت إحداها مسرية فولدت لى أولاداً ثم رغبت فى الأخرى فما أصنع . فقال على رضى الله عنه تعبتى التى كنت تطأ ثم تطأ الأخرى قلت فإن ناساً يقولون بل

تزوجها ثم تطأ الأخرى ، فقال على أرايت إن طلقها زوجها أومات عنها أليس ترجع اليك ؟ لأن تعتقها أسلم لك . ثم أخذ على يدي فقال لي : إنه يحرم عليك ماملكت يمينك ما يحرم عليك في كتاب الله عز وجل من الحرائر إلا العدد ، أو قال إلا الأربع ويحرم عليك من الرضاع ما يحرم عليك في كتاب الله من النسب ، ثم قال أبو عمر هذا الحديث ^(١) رحلة رجل ولم يصب من أقصى المغرب والشرق إلى مكة غيره لما خابت رحلته قلت : وقد روى عن علي بن نحو ما روى عن عثمان . وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن العباس حدثني محمد بن عبد الله بن المبارك الحرثي حدثنا عبد الرحمن بن غزوان حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال لي علي بن أبي طالب حرمتهما آية وأحلتهما آية - يعني الأخنتين قال ابن عباس يحرم من على قرابتي منهن ولا يحرم من قرابة بعضهن من بعض يعني الإماء ، وكانت الجاهلية يحرمون ما تحرمون إلا المرأة الأب والجمع بين الأخنتين ، فلما جاء الإسلام أنزل الله (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف) (وأن تجمعوا بين الأخنتين إلا ما قد سلف) يعني في النكاح ، ثم قال أبو عمر وروى الإمام أحمد بن حنبل حدثنا محمد بن سنان عن هشام عن ابن سيرين عن ابن مسعود قال : يحرم من الإماء ما يحرم من الحرائر إلا العدد وعن ابن مسعود ^(٢) والشعبى نحو ذلك قال أبو عمر وقد روى مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس ولكن اختلف عليهم ، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار والحجاز والعراق ولا ما وراءها من الشرق ولا بالشام والمغرب ؛ إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفى القياس وقد ترك من يعمل ذلك ظاهرا ما اجتمعنا عليه ، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لايجل الجمع بين الأخنتين بملك اليمين في الوطء كما لايجل ذلك في النكاح . وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم) إلى آخر الآية أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء ، وكذلك يجب أن يكون نظرا وقياسا الجمع بين الأخنتين وأمهات النساء والرأب . وكذلك هو عند جمهورهم وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها . وقوله تعالى (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) أى وحرم عليكم من الأخنيات المحصنات وهن الزوجات إلا ما ملكت أيمانكم يعني إلا ما ملكتموهن بالسبي فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن فإن الآية نزلت في ذلك . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان هو الثوري عن عثمان بن عيسى عن أبي الخليل عن أبي سعيد الخدري قال : أصبنا سبيا من سبي أو طاس ولهن أزواج فكرهنا أن تقع عليهن ولهن أزواج فأسأنا النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) فاستحللنا فروجهن وهكذا رواه الترمذي عن أحمد بن منيع عن هشيم ، ورواه النسائي من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج ثلاثهم عن عثمان بن عيسى ورواه ابن ماجه ^(٣) من حديث أشعث بن سوار عن عثمان بن عيسى ، ورواه مسلم في صحيحه من حديث شعبة عن قتادة كلاهما عن أبي الخليل صالح بن أبي مريم عن أبي سعيد الخدري فذكره وهكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أبي الخليل عن أبي سعيد الخدري به وروى من وجه آخر عن أبي الخليل عن أبي علقمة الهاشمي عن أبي سعيد الخدري قال الإمام أحمد حدثنا ابن أبي عدي عن سعيد عن قتادة عن أبي الخليل عن أبي علقمة عن أبي سعيد الخدري أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابوا سبياً يوم أوطاس ولهن أزواج من أهل الشرك ، فكان أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا وتأثموا من غشيانهن قال : فنزلت هذه الآية في ذلك (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث سعيد بن أبي عروبة زاد مسلم وشعبة ورواه الترمذي من حديث همام بن يحيى ثلاثهم عن قتادة بإسناده نحوه وقال الترمذي هذا حديث حسن ولا أعلم أن أحدا ذكر أبا علقمة في هذا الحديث إلا ما ذكر همام عن قتادة - كذا قال - وقد تابعه سعيد وشعبة والله أعلم وقد روى الطبراني من حديث الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في سبايخير وذكر مثل حديث أبي سعيد وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً لها من زوجها أخذاً بعموم هذه الآية وقال ابن جرير حدثنا ابن مثنى حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن مغيرة عن إبراهيم أنه سئل عن الأمة تباع ولها زوج ؟ قال كان عبد الله يقول : يبيعها طلاقاً ويتلو هذه الآية (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) وكذا رواه سفيان عن منصور ومغيرة والأعمش عن إبراهيم .

(١) هنا يابض الأميرية وبعده رحلة ، وفي بعض النسخ هذا الحديث رجل الخ فجمعنا بينهما (٢) في نسخة الأثر : ابن سيرين (٣) وفيها ابن جرير .

عن ابن مسعود قال بيعها طلاقها وهو منقطع ، ورواه سفيان الثوري عن خلود عن أبي قلابة عن ابن مسعود قال : إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببيعها . ورواه سعيد عن قتادة قال أبي بن كعب وجابر بن عبد الله وابن عباس قالوا : بيعها طلاقها . وقال ابن جرير : حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن خلود عن عكرمة عن ابن عباس قال طلاق الأمة ست (١) بيعها طلاقها وعقبتها طلاقها ، وهبتها طلاقها ، وبرأها طلاقها ، وطلاق زوجها طلاقها : وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب قوله (والمحصنات من النساء) قال هذه ذوات الأزواج حرم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك فيبيعها طلاقها وقال معمر . وقال الحسن مثل ذلك ، وهكذا رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن في قوله (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيما نكح) قال : إذا كان لها زوج فبيعها طلاقها وروى عوف عن الحسن يبيع الأمة طلاقها ، ويبيع طلاقها ، فهذا قول هؤلاء من السلف وقد خلفهم الجمهور قديما وحديثا ، فأروا أن يبيع الأمة ليس طلاقا لها لأن المشتري نائب عن البائع ، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه النفعة وباعها مسلوقة عنها واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرج في الصحيحين وغيرهما فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها ولم ينفسخ نكاحها من زوجها ماغيث ؛ بل خيرها رسول الله ﷺ بين الفسخ والبقاء ، فاخترت الفسخ وقصتها مشهورة فلو كان يبيع الأمة طلاقها كما قال هؤلاء ماخيرها النبي صلى الله عليه وسلم ، فلماخيرها دل على بقاء النكاح وأن المراد من الآية السيئات فقط والله أعلم وقد قيل المراد بقوله (والمحصنات من النساء) يعني العفاف حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهم بنكاح وشهود ومهور وولي واحدة أو اثنتين أو ثلاثا أو أربعاً ، حكاه ابن جرير عن أبي العالية وطاوس وغيرهما وقال عمر وعبيدة (والمحصنات من النساء) ما عدا الأربع حرام عليكم إلا ما ملكت أيما نكح .

وقوله تعالى (كتاب الله عليكم) أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم يعني الأربع فالزموا كتابه ، ولا تخرجوا عن حدوده ، والزموا شرعه وما فرضه . وقال عبيدة وعطاء والسدي في قوله (كتاب الله عليكم) يعني الأربع . وقال إبراهيم (كتاب الله عليكم) يعني ما حرم عليكم . وقوله تعالى (وأحل لكم ما وراء ذلكم) أي ما عدا من ذكر من المحارم هن لكم حلال قاله عطاء وغيره ، وقال عبيدة والسدي (وأحل لكم ما وراء ذلكم) مادون الأربع . وهذا بعيد ، والصحيح قول عطاء كما تقدم . وقال قتادة (وأحل لكم ما وراء ذلكم) يعني ما ملكت أيما نكح وهذه الآية هي التي احتج بها من احتج على تحليل الجمع بين الأختين ، وقول من قال : أحلتهما آية وحرمتهما آية وقوله تعالى (أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع أو السراي ما شئتم بالطريق الشرعي ، ولهذا قال (محصنين غير مسافحين) وقوله تعالى (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة) أي كما تستمتعتم بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك ، كما قال تعالى (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض) وكقوله تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) وكقوله (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتوهن شيئا) وقد استدلل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة ولا شك أنه كان مشروعا في ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء إلى أنه أبيع ثم نسخ ثم أبيع ثم نسخ مرتين . وقال آخرون أكثر من ذلك . وقال آخرون : إنما أبيع مرة ثم نسخ ولم يبيع بعد ذلك . وقد روى عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة وهو رواية عن الإمام أحمد وكان ابن عباس وأبي بن كعب وسعيد بن جبيرة والسدي يقرءون (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى) فآتوهن أجورهن فريضة (وقال مجاهد . نزلت في نكاح المتعة ، ولكن الجمهور على خلاف ذلك . والعمدة ماثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم الحر الأهلية يوم خير . ولهذا الحديث ألفاظ مقرررة هي في كتاب الأحكام وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني عن أبيه أنه غزامع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة فقال « يا أيها الناس إنني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتوهن شيئا » وفي رواية لمسلم في حجة الوداع وله ألفاظ موضحها كتاب الأحكام وقوله تعالى (ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة) من حمل هذه الآية على نكاح المتعة إلى أجل

(١) قوله ست ، الممدود خسة فلتنحصر الرواية . (٢) هذه القراءة على سبيل التفسير .

مسمى قال : لا جناح عليكم إذا انقضى الأجل أن تتراضوا على زيادة به وزيادة للجعل قال السدي : إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى يعني الأجر الذي أعطاه على تمتعه بها قبل انقضاء الأجل بينهما فقال : أتمتع منك أيضا بكذا وكذا فان زاد قبل أن يستبرئ رحمها يوم تنقضي المدة ، وهو قوله تعالى (ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة) قال السدي : إذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل ، وهي منه بريئة وعليها أن تستبرئ ما في رحمها وليس بينهما ميراث فلا يرث واحد منهما صاحبه ومن قال بهذا القول الأول جعل معناه كقوله (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) الآية أى إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك ، وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه قال : زعم الحضرمي أن رجلاً كانوا يفرضون المهر ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة فقال ولا جناح عليكم أيها الناس فيما تراضيتن به من بعد الفريضة يعني إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائع . واختار هذا القول ابن جرير . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة) والتراضى أن يوفىها صداقها ثم يخيرها يعني في المقام أو الفراق . وقوله تعالى (إن الله كان عليماً حكيماً) مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ قَتَايِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَخَذَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْنَّ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنْ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِأَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

يقول تعالى (ومن لم يجد منكم طويلاً أى سعة وقدرة (أن ينكح المحصنات المؤمنات) أى الحرائر العفاف المؤمنات . وقال ابن وهب : أخبرني عبد الجبار عن ربيعة (ومن لم يستطع منكم طويلاً أن ينكح المحصنات) قال ربيعة : الطول الهوى يعني ينكح الأمة إذا كان هواه فيها رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ، ثم أخذ يشنع على هذا القول ويرده (فيما ملكت أيمانكم من قياتكم المؤمنات) أى فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكنهن المؤمنون ولهذا قال (من قياتكم المؤمنات) قال ابن عباس وغيره . فليكن من إماء المؤمنين وكذا قال السدي ومقاتل بن حيان . ثم اعترض بقوله (والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض) أى هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور ثم قال (فانكحوهن بإذن أهلهن) فدل على أن السيد هو ولي أمته لا تزوج إلى بإذنه ، وكذلك هو ولي عبده ليس له أن يتزوج بغير إذنه كما جاء في الحديث « أيما عبد تزوج بغير إذن مولاه فهو عاهر » أى زان . فان كان مالك الأمة امرأة زوجها من زوج المرأة بأذنها لما جاء في الحديث « لا تزوج المرأة المرأة . ولا المرأة نفسها فان الزانية هي التي تزوج نفسها » وقوله تعالى (وآتوهن أجورهن بالمعروف) أى وادفعوا مهورهن بالمعروف أى عن طيب نفس منكم ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات وقوله تعالى (محصنات) أى عفاف عن الزنا لا يتعاطينه ولهذا قال (غير مسافحات) وهن الزواني اللاتي لا يمنعن من أرادهن بالفاحشة . وقوله تعالى (ولا متخذات أخدان) قال ابن عباس . (المسافحات) هن الزواني المعلنات يعني الزواني اللاتي لا يمنعن أحداً أرادهن بالفاحشة . وقال ابن عباس : ومتخذات أخدان يعني أخلاء وكذا روى عن أبي هريرة ومجاهد والشعبي والضحاك وعطاء الخراساني ويحيى بن أبي كثير ومقاتل بن حيان والسدي قالوا أخلاء وقال الحسن البصري يعني الصديق . وقال الضحاك أيضاً (ولا متخذات أخدان) ذات الخليل الواحد المقرة به نهي الله عن ذلك يعني تزويجها مادامت كذلك

وقوله تعالى (فإذا أحصن فإن أتبن بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) اختلف القراء في أحصن

فقرأه بعضهم بضم الهمزة وكسر الصاد مبقى للم اسم فاعله . وقرئ بفتح الهمزة والصاد فعل لازم ، ثم قيل : معنى القراءتين واحد ، واختلفوا فيه على قولين (أحدهما) أن المراد بالإحصان ههنا الإسلام ، وروى ذلك عن عبد الله بن مسعود وابن عمر وأنس والأسود بن يزيد ووزر بن حبيش وسعيد بن جبير وعطاء وإبراهيم النخعي والشعبي والسدي وروى نحوه الزهري عن عمر بن الخطاب وهو منقطع ، وهذا هو القول الذي نص عليه الشافعي في رواية الربيع قال : وإنما قلنا ذلك استدلالاً بالسنة وإجماع أكثر أهل العلم . وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً مرفوعاً قال : حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله حدثنا أبي عن أبيه عن أبي حمزة عن جابر عن رجل عن أبي عبد الرحمن عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ (فإذا أحسن) قال « إحصانها إسلامها وعفافها » وقال : المراد به ههنا التزويج قال : وقال علي أجلدوهن ، ثم قال ابن أبي حاتم : وهو حديث منكرو (قلت) وفي إسناده ضعف ، وفيه من لم يسم ، ومثله لا تقوم به حجة . وقال القاسم وسالم : إحصانها إسلامها وعفافها . وقيل المراد به ههنا التزويج ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة وطاوس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم . ونقله أبو علي الطبري في كتابه الايضاح عن الشافعي فيما رواه أبو الحكم بن عبد الحكم عنه . وقد روى ليث بن أبي سليم عن مجاهد أنه قال : إحصان الأمة أن ينكح الحر ، وإحصان العبد أن ينكح الحرة ، وكذا روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس رواهما ابن جرير في تفسيره . وذكره ابن أبي حاتم عن الشعبي والنخعي . وقيل : معنى القراءتين متباين . فمن قرأ أحسن بضم الهمزة فمراده التزويج ، ومن قرأ بفتحها فمراده الإسلام . اختاره أبو جعفر بن جرير في تفسيره وقرره ونصره ؛ والأظهر والله أعلم أن المراد بالإحصان ههنا التزويج ، لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه وتعالى (ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيما نكح من فتياتكم المؤمنات) والله أعلم . والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله (فإذا أحسن) أي تزوجن كما فسر ابن عباس وغيره ، وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور ، وذلك أنهم يقولون : إن الأمة إذا زنت فعلها خمسون جلدة ، سواء كانت مسلمة أو كافرة ، مزوجة أو بكرا ، مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة ممن زنا من الإماء . وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك ، فأما الجمهور فقالوا : لا شك إن المنطوق مقدم على المفهوم . وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإماء فقدمنها على مفهوم الآية . فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال . يا أيها الناس أقيموا الحد على إماءكم من أحسن منهن ومن لم يحسن ، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدها ، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخذشيت إن جلدتها أن أقتلها ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « أحسن أتركها حتى تتأهل » وعند عبد الله بن أحمد عن غير أبيه « فإذا تعافت من نفاسها فأجلدها خمسين » وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا زنت أمة أحدكم فتيبن زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها . ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ، ثم إن زنت الثالثة فتيبن زناها فليبعها ولو بحبل من شعر » ولمسلم « إذا زنت ثلاثاً فليبعها في الرابعة » وروى مالك عن يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار عن عبد الله^(١) بن عباس بن أبي ربيعة المخزومي قال : أمرني عمر بن الخطاب في فتية من قريش فجلدنا من ولائد الإمارة خمسين وخمسين من الزنا

(الجواب الثاني) جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت ولم تحصن فلا حد عليها ، وإنما تضرب تأديباً وهو المحكى عن ابن عباس رضي الله عنه . وإليه ذهب طاوس وسعيد بن جبير وأبو عبيد القاسم بن سلام وداود بن علي الظاهري في رواية عنه . وعمدتهم مفهوم الآية . وهو من مفاهيم الشرط . وهو حجة عند أكثرهم فقدم على العموم عندهم وحديث أبي هريرة وزيد بن خالد أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن قال « إن زنت فجلدها . ثم إن زنت فجلدها . ثم يبعها ولو بغيره » قال ابن شهاب . لا أدري بعد الثالثة أو الرابعة . أخرجاه في الصحيحين . وعند مسلم قال ابن شهاب : الضفير الحبل . قالوا . فلم يؤقت فيه عدد كما أفت في المحصنة وكما أوقت في

(١) في نسخة الأزمهر : عن عبد الله بن عباس أن أبا رستم المخزومي (٢) وفيها : بظفر .

القرآن بنصف ما على الحصنات ، فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك والله أعلم - وأصرح من ذلك ما رواه سعيد ابن منصور عن سفيان عن مسعر عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس على أمة حد حتى تحصن - يعني تزوج - فإذا أحصنت بزواج فعلها نصف ما على الحصنات » وقد رواه ابن خزيمة عن عبد الله بن عمران العابد عن سفيان به مرفوعاً ، وقال : رفعه خطأ إنما هو من قول ابن عباس وكذا رواه البيهقي من حديث عبد الله بن عمران وقال مثل ما قاله ابن خزيمة قالوا : وحديث علي وعمر قضيا أعيان ، وحديث أبي هريرة عنه أجوبة (أحدها) أن ذلك محمول على الأمة المزوجة جمعاً بينه وبين هذا الحديث (الثاني) أن لفظة الحد في قوله « فليقم عليها الحد » مقحمة من بعض الرواة بدليل الجواب الثالث ، وهو أن هذا من حديث صحابين وذلك من رواية أبي هريرة فقط ، وما كان عن اثنين فهو أولى بالتقديم من رواية واحد ، وأيضاً فقد رواه النسائي بإسناد على شرط مسلم من حديث عباد بن تميم عن عمه ، وكان قد شهد بدرأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا زنت الأمة فاجلدوها ، ثم إن زنت فاجلدوها ، ثم إن زنت فبيعوها ولو بغير » (الرابع) أنه لا يبعد أن بعض الرواة أطلق لفظ الحد في الحديث على الجلد ، لأنه لما كان الجلد اعتقد أنه حد . أو أنه أطلق لفظة الحد على التأديب . كما أطلق الحد على ضرب من زنى من المرضى بمشكال نخل فيه مائة شبر . وعلى جلد من زنى بأمة امرأته إذا أذنت له فيها مائة ، وإنما ذلك تعزير وتأديب عند من يراه كأحمد وغيره من السلف . وإنما الحد الحقيقي هو جلد البكر مائة . وزجم الثيب أو اللانط والله أعلم . وقد روى ابن ماجه وابن جرير في تفسيره : حدثنا ابن النخعي حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة أنه سمع سعيد بن جبير يقول : لا تضرب الأمة إذا زنت ما لم تزوج ، وهذا إسناد صحيح عنه ، ومذهب غريب إن أراد أنها لا تضرب الأمة أصلاً لحداً ، وكأنه أخذ بمفهوم الآية ولم يبلغه الحديث ، وإن أراد أنها لا تضرب حدّاً ، ولا ينفى ضربها تأديباً ، فهو كقول ابن عباس رضى الله عنه ومن تبعه في ذلك والله أعلم . (الجواب الثالث) أن الآية دلت على أن الأمة المحصنة تحد نصف حد الحرة ، فأما قبل الإحصان فعمومات الكتاب والسنة شاملة لها في جلد مائة كقوله تعالى (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) وكحديث عبادة بن الصامت «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة ورجمها بالحجارة » والحديث في صحيح مسلم وغير ذلك من الأحاديث . وهذا القول هو المشهور عن داود بن علي الظاهري وهو في غاية الضعف لأن الله تعالى إذا كان أمر بجلد المحصنة من الإماء بنصف ما على الحرة من العذاب وهو خمسون جلدة فكيف يكون حكمها قبل الإحصان أشد منه بعد الإحصان وقاعدة الشريعة في ذلك عكس ما قال ، وهذا الشارع عليه السلام سأله أصحابه عن الأمة إذا زنت ولم تحصن فقال اجلدوها ولم يقل مائة ، فلو كان حكمها كما زعم داود لوجب بيان ذلك لهم لأنهم إنما سألوا عن ذلك لعدم بيان حكم جلد المائة بعد الإحصان في الإماء وإلا فما الفائدة في قولهم ولم تحصن لعدم الفرق بينهما لو لم تكن الآية نزلت لكن لما علموا أحداً الحكمين سألوا عن الآخر فبينه لهم كما في الصحيحين أنهم لما سألوه عن الصلاة عليه فدكرها لهم ثم قال «والسلام ما قد علمتم» وفي لفظ لما أنزل الله قوله (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسلياً) قالوا هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك وذكر الحديث وهكذا هذا السؤال . (الجواب الرابع) عن مفهوم الآية جواب أبي ثور وهو أغرب من قول داود من وجوه وذلك أنه يقول : فإذا أحصن فإن عليهن نصف ما على المحصنات الزوجات الرجم وهو لا يتصف فيجب أن ترجم الأمة المحصنة إذا زنت ، وأما قبل الإحصان فيجب جلد مائة خمسين فأخطأ في فهم الآية وخالف الجمهور في الحكم ، بل قد قال أبو عبد الله الشافعي رحمه الله ولم يختلف المسلمون في أن لا رجم على مملوك في الزنا ؛ وذلك لأن الآية دلت على أن عليهن نصف ما على المحصنات من العذاب والآلف واللام في المحصنات للعهد وهن المحصنات المذكورات في أول الآية (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات) والمراد بهن الحرائر فقط من غير تعرض للتزويج بحرة وقوله (نصف ما على المحصنات من العذاب) يدل على أن المراد من العذاب الذي يمكن تبعيضه وهو الجلد لا الرجم والله

أعلم. وقد روى أحمد حديثاً في رد مذهب أبي ثور من رواية الحسن بن سعيد عن أبيه أن صفية كانت قد زنت برجل من المحسن فولدت غلاماً فادعاه الزاني فاختصما إلى عثمان فرفعهما إلى علي بن أبي طالب فقال علي أقض فيهما بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الولد للفراش ، وللعاهر الحجر وجلدهما خمسين خمسين وقيل بل المراد من المفهوم التنبيه بالأعلى على الأدنى أي أن الإمام علي النصف من الحرائر في الحد وإن كن محصنات وليس عليهن رجم أصلاً لا قبل النكاح ولا بعده ، وإنما عليهن الجلد في الحالين بالسنة قال ذلك صاحب الإفصاح وذكر هذا عن الشافعي فيما رواه ابن عبد الحكم وقد ذكر البيهقي في كتاب السنن والآثار عنه وهو بعيد من لفظ الآية لأننا إنما استفدنا تنصيف الحد من الآية لا من سواها فكيف يفهم منها التنصيف فيما عداها وقال بل أريد بأنها في حال الإحصان لا يقيم الحد عليها إلا الإمام ولا يجوز لسيدها إقامة الحد عليها والحالة هذه وهو قول في مذهب أحمد رحمه الله ، فأما قبل الإحصان فله ذلك والحد في كلا الموضعين نصف حد الحرة وهذا أيضاً بعيد لأنه ليس في الآية ما يدل عليه ، ولولا هذه لم ندر ما حكم الإمام في التنصيف ولو جب دخولهن في عموم الآية في تكميل الحد مائة أو رجهن كما ثبت في الدليل عليه ، وقد تقدم عن علي أنه قال : أيها الناس أقيموا الحد على أرقائكم من أحصن منهم ومن لم يحصن ، وعموم الأحاديث المتقدمة ليس فيها تفصيل بين المروجة وغيرها لحديث أبي هريرة الذي احتج به الجمهور إذا زنت أمة أحدكم فبئس زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها . ملخص الآية أنها إذا زنت أقوالاً أحدها تجلد خمسين قبل الإحصان وبعده ، وهل تنفي فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنها تنفي عنه . والثاني لا تنفي عنه مطلقاً ، والثالث أنها تنفي نصف سنة وهو نصف نفى الحرة وهذا الخلاف في مذهب الشافعي ، وأما أبو حنيفة فعنده أن النفي تعزير ليس من تمام الحد ، وإنما هو رأى الإمام إن شاء فعله وإن شاء تركه في حق الرجال والنساء ، وعند مالك أن النفي إنما هو على الرجال وأما النساء فلا لأن ذلك مضاد لصيغتهن وماورد شيء من النفي في الرجال ولا النساء . نعم حديث عبادة وحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفي عام وإقامة الحد عليه رواه البخاري وذلك مخصوص بالمعنى وهو أن المقصود من النفي الصون وذلك مفقود في نفى النساء والله أعلم والثاني أن الأمة إذا زنت تجلد خمسين بعد الإحصان وتضرب تأديباً غير محدود بعدد محصور وقد تقدم ما رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير أنها لا تضرب قبل الإحصان وإن أراد نفية فيكون مذهباً بالتأويل وإلا فهو كالقول الثاني . القول الآخر أنها تجلد قبل الإحصان مائة وبعده خمسين كما هو المشهور عن داود وهو أضعف الأقوال أنها تجلد قبل الإحصان خمسين وترجم بعده وهو قول أبي ثور وهو ضعيف أيضاً والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وقوله تعالى (ذلك لمن خشي العنت منكم) أي إنما يباح نكاح الإمام بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا وشق عليه الصبر عن الجماع وعنت بسبب ذلك كله فله حينئذ أن يتزوج بالأمة وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنا فهو خير له لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها إلا أن يكون الزوج غريباً فلا تكون أولاده منها أرقاء في قول قديم للشافعي ولهذا قال (وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم) ومن هذه الآية الكريمة استدلل جمهور العلماء في جواز نكاح الإمام على أنه لا بد من عدم الطول لنكاح الحرائر ومن خوف العنت لما في نكاحهن من مفسدة رق الأولاد ولما فيهن من الدناءة في العدول عن الحرائر اليهن وخالف الجمهور أبو حنيفة وأصحابه في اشتراط الأمرين فقالوا متى لم يكن الرجل مزوجاً بحرة جاز له نكاح الأمة المؤمنة والكتانية أيضاً سواء كان واجداً لطول حرة أم لا وسواء خاف العنت أم لا وعمدتهم فيما ذهبوا إليه قوله تعالى (والمحصنات من الدين أوتوا الكتاب من قبلكم) أي العتائف وهو يعم الحرائر والإماء وهذه الآية عامة وهذه أيضاً ظاهرة في الدلالة على ما قاله الجمهور والله أعلم

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها (ويهدىكم سنن الدين من قبلكم) يعني طرائقهم الحميدة واتباع شرائعهم التي يحبها ويرضاها (ويتوب عليكم) أي من الإثم والحارم (والله عليم حكيم) أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله وقوله (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) أي يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلا عظيما (يريد الله أن يخفف عنكم) أي في شرائعهم وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح الإماء بشروط كما قال مجاهد وغيره (وخلق الإنسلن ضعيفا) فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهمة وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا وكيع عن سفيان عن ابن طاوس عن أبيه (وخلق الإنسان ضعيفا) أي في أمر النساء وقال وكيع يذهب عقله عندهن . وقال موسى الكليم عليه السلام لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء حين مر عليه راجعا من عند سدرة المنتهى فقال له ماذا فرض عليكم فقال أمرني بخمسين صلاة في كل يوم وليلة فقال له ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا وإن أمتك أضعف أسماعا وأبصارا وقلوبا فرجع فوضع عشرا . ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك بقيت خمسا الحديث

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَايَرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُّذْخَلًا كَرِيمًا ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضا بالباطل أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأشكال الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا حتى قال ابن جرير : حدثني ابن أبي حاتم حدثنا عبد الوهاب حدثنا داود عن عكرمة عن ابن عباس في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول إن رضىته أخذته وإلا رددت معه درهما قال هو الذي قال الله عز وجل فيه (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن حرب المصلي حدثنا ابن الفضيل عن داود الأدي عن عامر عن علقمة عن عبد الله في الآية قال إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لما أنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) قال المسلمون إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل أموالنا ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكيف الناس فأنزل الله بعد ذلك (ليس على الأعمى حرج) الآية وكذا قال قتادة وقوله تعالى (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) قرئ تجارة بالرفع وبالنصب وهو استثناء منقطع كأنه يقول لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها وتسببوا بها في تحصيل الأموال كما قال تعالى (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) وكقوله (لا يدوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) . ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول لأنه يدل على التراضي نصا بخلاف العاطاة فإنها قد لا تدل على الرضا ولا بد ، وخالف الجمهور في ذلك مالك وأبو حنيفة وأحمد فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعا فصحبوا بيع العاطاة مطلقا ومنهم من قال يصح في المحترات وفيما يعده الناس بيعا وهو احتياط نظر من يحقق المذهب والله أعلم وقال مجاهد (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) بيعا أو عطاء يعطيه أحد أحدا ورواه ابن جرير ثم قال وحدثنا وكيع حدثنا أبي عن القاسم عن سليمان الجعفي عن أبيه عن ميمون بن مهران قال قال رسول الله ﷺ «البيع عن تراض، والخيار بعد الصفة، ولا يحل لمسلم أن يغش مسلما» هذا حديث مرسل . ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا» وفي لفظ البخاري «إذا تباع الرجلان فسل واحد منهما بالخيار

مالم ينفردا » وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث أحمد والشافعي وأصحابها وجمهور السلف والخلف ، ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام بحسب ما يتبين فيه مال البيع ولو إلى سنة في القرية ونحوها كما هو المشهور عن مالك رحمه الله وصححوا بيع المعاوضة مطلقا وهو قول في مذهب الشافعي ، ومنهم من قال يصح بيع المعاوضة في المحقرات فيما يعده الناس بيعا وهو اختيار طائفة من الأصحاب كما هو متفق عليه وقوله (ولا تقتلوا أنفسكم) أي بارتكاب محارم الله وتعاطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل (إن الله كان بكم رحيمًا) أي فيما أمركم به ونهاكم عنه . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أبي أنس عن عبد الرحمن بن جبير عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال : لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم عام ذات السلاسل قال احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح قال : فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له فقال « يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب » قال : قلت يا رسول الله إنى احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فذكرت قول الله عز وجل (ولا تقتلوا أنفسكم) إن الله كان بكم رحيمًا) فتيمنت ثم صليت فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا وهكذا رواه أبو داود من حديث يحيى بن أيوب عن يزيد بن أبي حبيب به ورواه أيضا عن محمد بن أبي سلمة عن ابن وهب عن ابن لهيعة وعمر بن الحارث كلاهما عن يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أبي أنس عن عبد الرحمن بن جبير المصري عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عنه فذكر نحوه وهذا والله أعلم أشبه بالصواب . وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد البلخي حدثنا محمد بن صالح بن سهل البلخي حدثنا عبد الله بن عمر القواريري حدثنا يوسف بن خالد حدثنا زياد بن سعد عن عكرمة عن ابن عباس أن عمرو بن العاص صلى بالناس وهو جنب فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا ذلك له فدعاه فسأله عن ذلك فقال يا رسول الله خفت أن يقتلني البرد وقد قال الله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) الآية فسكت عنه رسول الله ﷺ ، ثم أورد ابن مردويه عند هذه الآية الكريمة من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قتل نفسه بمحديدة فحديده في يده يحا بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بسم فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا » (١) وهذا الحديث ثابت في الصحيحين وكذلك رواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه وعن أبي قلابة (٢) عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة » وقد أخرجه الجماعة في كتبهم من طريق أبي قلابة . وفي الصحيحين من حديث الحسن بن جندب بن عبد الله البجلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان رجل ممن كان قبلكم وكان به جرح فأخذ سكيناً نحر بها يده فارقاً الدم حتى مات ، قال الله عز وجل عبدي بأدري بنفسه حرمت عليه الجنة » ولهذا قال تعالى (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما) أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه معتديا فيه ظلما في تعاطيه أي عالما بتجرمه متجاسرا على انتهاكه (فسوف نصليه نارا) الآية وهذا تهديد شديد ووعد أكيد فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شديد وقوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) الآية أي إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتكم عنها كفرنا عنكم صفائر الذنوب وأدخلناكم الجنة ولهذا قال (وندخلكم مدخلا كريما) وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا مؤمل بن هشام حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا خالد بن أيوب عن معاوية بن قرة عن أنس رفعه قال : لم نر مثل الذي بلغنا عن ربنا عز وجل ثم لم نخرج له عن كل أهل ومال أن تجاوز لنا عما دون الكبائر يقول الله (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) الآية وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة فلندكر منها ما تيسر قال الإمام أحمد : حدثنا هشيم عن مغيرة عن أبي معشر عن إبراهيم عن مربع الضبي عن سلمان الفارسي قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم « أندري ما يوم الجمعة » قلت هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم قال « لكن أندري ما يوم الجمعة لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره ثم يأتي الجمعة فينصت حتى يقضى الإمام صلاته إلا كانت كفارة له

(١) في نسخة الأزهر : ومن تودي من جبل فقتل نفسه فهو مترد في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا .

مايينها وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة» وقد روى البخارى من وجه آخر عن سلمان نحوه وقال أبو جعفر بن جرير حدثني الثني حدثنا أبو صالح حدثنا الليث حدثني خالد عن سعيد بن أبي هلال عن نعيم الجمر أخبرني صهيب مولى الصوارى أنه سمع أبا هريرة وأبا سعيد يقولان خطبنا رسول الله ﷺ يوما فقال «والله نفسي بيده» ثلاث مرات ثم أكب فأكب كل رجل منا بيكي لاندري ماذا حلف عليه ثم رفع رأسه وفي وجهه البشرى فكان أحب اليانا من حمر النعم فقال : «ما من عبد يصلى الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويخرج الزكاة ويحجب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة ثم قيل له ادخل بسلام» وهكذا رواه النسائي والحاكم في مستدركه من حديث الليث بن سعد به ورواه الحاكم أيضا وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال به ثم قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (تفسير هذه السبع) وذلك بما ثبت في الصحيحين من حديث سليمان بن هلال عن ثور بن زيد عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل يا رسول الله وما هن؟ قال «الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» (طريق أخرى عنه) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا فهد بن عوف حدثنا أبو عوانة عن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «الكبائر سبع أولها الإشراك بالله، ثم قتل النفس بغير حقها وأكل الربا وأكل مال اليتيم إلى أن يكبر والفرار من الزحف ورعى المحصنات والانتقال إلى الأعراب بعد الهجرة» فالنص على هذه السبع بأئمن كبائر لا ينفي ماعداهن إلا عند من يقول بمفهوم القلب وهو ضعيف عند عدم القرينة ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع فمن ذلك ما رواه الحاكم في مستدركه حيث قال : حدثنا أحمد بن كامل القاضي إمامنا حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد حدثنا معاذ بن هانيء حدثنا حرب بن شداد حدثنا يحيى ابن أبي كثير عن عبد الحميد بن سنان عن عبيد بن عمير عن أبيه يعنى عمير بن قتادة رضى الله عنه أنه حدثه وكانت له صحبة أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع «ألا إن أولياء الله المصابون من يقيم الصلوات الخمس التي كتب الله عليه، ويصوم رمضان ويحجب صومه يرى أنه عليه حق ويعطى زكاة ماله يحتسبها ويحجب الكبائر التي نهى الله عنها» ثم إن رجلا سأله فقال يا رسول الله ما الكبائر؟ فقال «تسع (١) : الشرك بالله، وقتل نفس مؤمن بغير حق وفرار يوم الزحف وأكل مال اليتيم وأكل الربا وقذف المحصنة وعقوق الوالدين المسلمين واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا ثم لا يموت رجل لا يعمل هؤلاء الكبائر. ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة إلا كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في دار مصانعها من ذهب» هكذا رواه الحاكم مطولا وقد أخرجه أبو داود والنسائي مختصرا من حديث معاذ بن هانيء به وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديثه مبسوطا ثم قال الحاكم رجاله كلهم يحتج بهم في الصحيحين إلا عبد الحميد بن سنان (قلت) وهو حجازي لا يعرف إلا بهذا الحديث وقد ذكره ابن حبان في كتاب الثقات. وقال البخارى في حديثه نظر وقد رواه ابن جرير عن سليمان بن ثابت الجحدري عن سالم بن سلام عن أيوب بن عتبة عن يحيى بن أبي كثير عن عبيد بن عمير عن أبيه فذكره ولم يذكره في الاسناد عبد الحميد بن سنان والله أعلم (حديث آخر في معنى ما تقدم) قال ابن مردويه : حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا أحمد بن يونس حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن الوليد عن المطلب عن عبد الله بن حنطب عن ابن عمر قال : صعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر فقال «لا أقسم لأقسم» ثم نزل فقال : «أبشروا أبشروا من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر السبع نودي من أبواب الجنة ادخل» قال عبد العزيز : لا أعلمه قال إلا «بسلام» وقال المطلب : سمعت من سأل عبد الله بن عمر سمعت رسول الله ﷺ يذكرهن؟ قال : نعم «عقوق الوالدين، وإشراك بالله، وقتل النفس وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف، وأكل الربا» (حديث آخر في معناه) قال أبو جعفر بن جرير في التفسير حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا زياد بن خرق عن طيسلة بن مياس قال : كنت مع النجدات (٢) فأصبت ذنوبا لأراها إلا

(١) قوله : تسع الخ : هكذا في النسخ وخر العدد (٢) يباشر في الأميرية، وفي نسخة الأزهري : النجدات، وفي ابن جرير : الحدتان .

من الكبائر فلقيت ابن عمر فقلت له : إني أصبت ذنوباً لا أراها إلا من الكبائر قال : ما هي ؟ قلت : أصبت كذا وكذا قال : ليس من الكبائر قلت : وأصبت كذا وكذا قال ليس من الكبائر قال أنشيء لم يسمه طيسلة ؟ قال هي تسع (١) وسأعدهن عليك « الإشراف بالله ؟ وقتل النفس بغير حقها ، والفرار من الزحف وقذف المحصنة وأكل الربا وأكل مال اليتيم ظلماً . وإلحاد في المسجد الحرام والذي يستسخر ، وبكاء الوالدين من العقوق » قال زياد وقال طيسلة لما رأى ابن عمر فرقى قال : أخاف النار أن تدخلها ؟ قلت : نعم قال : وتحب أن تدخل الجنة ؟ قلت : نعم قال أحى والدك ؟ قلت : عندي أمي قال فوالله لأن أنت ألت لها الكلام ، وأطعمتها الطعام لتدخلن الجنة ما اجتنبت الموجبات (طريق أخرى) قال ابن جرير : حدثنا سليمان (٢) بن ثابت الجحدري الواسطي أنا سلمة (٣) بن سلام حدثنا أيوب بن عتبة عن طيسلة بن علي النهدي قال : أثبت ابن عمر في ظل أراك يوم عرفة وهو يصب الماء على رأسه ووجهه قلت : أخبرني عن الكبائر ؟ قال : هي تسع قلت : ما هي ؟ قال : « الإشراف بالله وقذف المحصنة » قال قلت : مثل قتل النفس (٤) قال نعم ورغما « وقتل النفس المؤمنة والفرار من الزحف ، والسحر وأكل الربا . وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين المسلمين وإلحاد بالبيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا » هكذا رواه من هذين الطريقين موقوفاً وقد رواه علي ابن الجعد عن أيوب بن عتبة عن طيسلة بن علي قال : أثبت ابن عمر عشيّة عرفة ، وهو تحت ظل أراك وهو يصب الماء على رأسه فسأله عن الكبائر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « هن سبع » قال قلت : وما هن قال « الإشراف بالله وقذف المحصنات » قال قلت : قبل الدم قال : نعم ورغما « وقتل النفس المؤمنة ، والفرار من الزحف والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين وإلحاد بالبيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا » وهكذا رواه الحسن ابن موسى الأشيب عن أيوب بن عتبة الجاني وفيه ضعف والله أعلم . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا زكريا ابن عدي حدثنا بقة عن يحيى بن سعيد عن خالد بن معدان أن أبا رهم السعدي حدثهم عن أيوب قال : قال رسول الله ﷺ « من عبد الله لا يشرك به شيئاً ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، وصام رمضان ، واجتنب الكبائر فله الجنة - أو دخل الجنة - » فسأله رجل ما الكبائر ؟ فقال « الشرك بالله ، وقتل نفس مسلمة ، والفرار من الزحف » ورواه أحمد أيضاً ، والنسائي من غير وجه عن بقة (حديث آخر) روى ابن مردويه في تفسيره من طريق سليمان بن داود الجاني - وهو ضعيف - عن الزهري عن الحافظ أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده قال : كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً فيه الفرائض والسنن والديات ، وبعث به مع عمرو بن حزم قال : وكان في الكتاب « إن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة : إشراف بالله ، وقتل النفس المؤمنة بغير حق ، والفرار في سبيل الله يوم الزحف ، وعقوق الوالدين ، ورعى المحصنة ، وتعلم السحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم » . (حديث آخر فيه ذكر شهادة الزور) قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة حدثني عبد الله (٥) بن أبي بكر قال سمعت أنس بن مالك قال : ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سئل عن الكبائر فقال « الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين » وقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى قال « الإشراف بالله ، وقول الزور - أو شهادة الزور - » أخرجه من حديث شعبة به . وقد رواه ابن مردويه من طريقين آخرين غريبين عن أنس بنحوه . (حديث آخر) أخرجه الشيخان من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال : قال النبي ﷺ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » قلنا بلى يا رسول الله قال « الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين - » وكان متكئاً فجلس فقال « ألا وشهادة الزور ، ألا وقول الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت . (حديث آخر فيه ذكر قتل الولد) وهو ثابت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ وفي رواية أكبر ؟ قال « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت : ثم أي قال « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت ثم أي قال « أن تزاني حيلة جارك » ثم قرأ (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر - إلى قوله - إلا من تاب) . (حديث آخر فيه ذكر شرب الخمر) قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب حدثني ابن (٦) صخر أن رجلاً حدثه عن عمارة بن حزم أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص وهو بالحجر بمكة ، وسأله رجل عن الخمر فقال والله إن عظماء عند الله الشيخ مثلي يكذب في هذا

(١) : تسع إلخ هكذا في النسخ وحرر العدد . (٢) في نسخة الأزهر : مسلم ، وفي ابن جرير سالم . (٣) في ابن جرير : الحراز (٤) وفيه : قبل القتل . (٥) وفيها : محمد . (٦) وفيها أبو .

المقام على رسول الله ﷺ فذهب فسأله ثم رجع فقال : سألت عن الخمر فقال « هي أكبر الكبائر ، وأهم الفواحش من شرب الخمر ترك الصلاة . ووقع على أمه وخالته وعمته » غريب من هذا الوجه (طريق أخرى) رواها الحافظ أبو بكر ابن مردويه من حديث عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن داود بن صالح عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه وعمر بن الخطاب وأناساً من أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم أجمعين جلسوا بعد وفاة رسول الله ﷺ فذكروا أعظم الكبائر فلم يكن عندهم ما ينتهون إليه فأرسلوا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص أسأله عن ذلك فأخبرني أن أعظم الكبائر شرب الخمر ، فأتيتهم فأخبرتهم فأذكروا ذلك ، فوثبوا إليه حتى أتوه في داره فأخبرهم أنهم تحدثوا عند رسول الله ﷺ أن ملكاً من بني إسرائيل أخذ رجلاً فخير بين أن يشرب خمرأ ؛ أو يقتل نفساً ، أو يزنى أو يأكل لحم خنزير أو يقتله ، فاختر شرب الخمر . وإنه لما شربها لم يمنع من شيء أراد منه ، وإن رسول الله ﷺ قال لنا جميعاً « ما من أحد يشرب خمرأ إلا لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ، ولا يموت أحد في مثاته منها شيء إلا حرم الله عليه الجنة ، فإن مات في أربعين ليلة مات ميتة جاهلية » هذا حديث غريب من هذا الوجه جداً ، وداود بن صالح هذا هو التمار المدني مولى الأنصار قال الإمام أحمد : لا أرى به بأساً . وذكره ابن حبان في الثقات ، ولم أر أحداً جرحه . (حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو فيه ذكر اليمين الغموس . قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن فراس عن الشعبي عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أكبر الكبائر الاشرار بالله ، وعقوق الوالدين ، أو قتل النفس - شعبة الشاك - واليمين الغموس » ورواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث شعبة ، وزاد البخاري وشيخان كلاهما عن فراس به . (حديث آخر في اليمين الغموس) قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثنا الليث بن سعد حدثنا هشام بن سعيد عن محمد بن يزيد بن مهاجر بن فضال التيمي عن أبي أمامة الأنصاري عن عبد الله بن أنيس الجهني عن رسول الله ﷺ قال « أكبر الكبائر الاشرار بالله ، وعقوق الوالدين ، واليمين الغموس ، وما حلف حالف بالله يمين صبر فأدخل فيها مثل جناح البعوضة إلا كانت وكتة في قلبه إلى يوم القيامة » وهكذا رواه أحمد في مسنده وعبد بن حميد في تفسيره كلاهما عن يونس بن محمد المؤدب عن الليث بن سعد به ، وأخرجه الترمذي عن عبد بن حميد به وقال : حسن غريب وأبو أمامة الأنصاري هذا هو بن ثعلبة ولا يعرف اسمه . وقد روى عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : وقد رواه عبد الرحمن بن إسحق المدني عن محمد بن زيد عن عبد الله بن أبي أمامة عن أبيه عن عبد الله بن أنيس فزاد عبد الله بن أبي أمامة (قلت) هكذا وقع في تفسير ابن مردويه وصحيح ابن حبان من طريق عبد الرحمن بن إسحق كما ذكره شيخنا فسمح الله في أجله (حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو في التسبب إلى شتم الوالدين . قال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي حدثنا وكيع عن مسعر وسفيان عن سعد بن إبراهيم عن حميد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو رفعه سفيان إلى النبي ﷺ ، ووقفه مسعر على عبد الله بن عمرو قال « من الكبائر أن يشتم الرجل والديه » قالوا وكيف يشتم الرجل والديه ؟ قال « يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » أخرجه البخاري عن أحمد بن يونس عن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن عمه حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه » قالوا وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال « يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » وهكذا رواه مسلم من حديث سفيان وشعبة . ويزيد ابن الهاد ثلاثهم عن سعد بن إبراهيم به مرفوعاً بنحوه ، وقال الترمذي صحيح وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » . (حديث آخر في ذلك) قال ابن أبي حاتم حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم حدثنا دحيم حدثنا عمرو بن أبي سلمة حدثنا زهير بن محمد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من أكبر الكبائر عرض الرجل المسلم ، والسبتان بالسبة » هكذا روى هذا الحديث ، وقد أخرجه أبو داود في كتاب الأدب من سننه عن جعفر بن مسافر عن عمرو بن أبي سلمة عن زهير بن محمد عن العلاء بن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « من أكبر الكبائر استطالة الرجل في عرض رجل مسلم بغير حق ، ومن الكبائر السبتان بالسبة » وكذا رواه

ابن مردويه من طريق عبد الله بن العلاء بن زيد عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكر مثله (حديث آخر في الجمع بين الصلاتين من غير عذر) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا معتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « من جمع بين صلاتين من غير عذر فقد أتى باباً من أبواب الكبائر » وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي عن أبي سلمة يحيى بن خلف عن العتمر بن سليمان به ، ثم قال حنش هو أبو علي الرحبي ، وهو حسين بن قيس ، وهو ضعيف عند أهل الحديث ، ضعفه أحمد وغيره . وروى ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد الصباح حدثنا إسماعيل بن علي عن خالد الحذاء عن حميد بن هلال عن أبي قتادة يعني العدوي قال : قرئ علينا كتاب عمر : من الكبائر جمع بين الصلاتين - يعني بغير عذر - والفرار من الزحف ، والنهية ، وهذا إسناد صحيح . والغرض أنه إذا كان الوعيد فيمن جمع بين الصلاتين كالظهر والعصر ، تقديم أو تأخير ، وكذا المغرب والعشاء كالجمع بسبب شرعي فمن تعاطاه بغير شيء من تلك الأسباب يكون مرتكباً كبيرة ، فما ظنك بترك الصلاة بالسكينة ، ولهذا روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة » وفي السنن مرفوعاً عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة من تركها فقد كفر » وقال « من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله » وقال « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » (حديث آخر) فيه اليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله . قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل حدثنا أبي حدثنا شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان متكئاً فدخل عليه رجل فقال : ما الكبائر فقال « الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله عز وجل ، والأمن من مكر الله ، وهذا أكبر الكبائر » وقد رواه البزار عن عبد الله بن إسحق الططرس عن أبي عاصم النبيل عن شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ما الكبائر ؟ قال « الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله عز وجل » وفي إسناده نظر ، والأشبه أن يكون موقوفاً ، فقد روى عن ابن مسعود نحو ذلك . وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشيم أخبرنا مطرف عن وبرة بن عبد الرحمن عن أبي الطفيل قال : قال ابن مسعود : أكبر الكبائر الاشرار بالله ، واليأس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ، وكذا رواه من حديث الأعمش وأبي إسحق عن وبرة عن أبي الطفيل عن عبد الله به ، ثم رواه من طرق عدة عن أبي الطفيل عن ابن مسعود ، وهو صحيح إليه بلا شك (حديث آخر) فيه سوء الظن بالله قال ابن مردويه حدثنا محمد بن إبراهيم بن بندار حدثنا أبو حاتم بكر بن عبدان حدثنا محمد بن مهاجر حدثنا أبو حذيفة البخاري عن محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر أنه قال : أكبر الكبائر سوء الظن بالله عز وجل حديث غريب جداً (حديث آخر) فيه التعرب بعد الهجرة قد تقدم من رواية عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً قال ابن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن رشد بن حدثنا عمرو بن خالد الحارثي حدثنا ابن لهيعة عن زياد بن أبي حبيب عن محمد بن سهل بن أبي خيثمة عن أبيه قال : سمعت النبي ﷺ يقول « الكبائر سبع ألا تسألوني عنهن ؟ الاشرار بالله . وقتل النفس والفرار يوم الزحف وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وقذف المحصنة ، والتعرب بعد الهجرة » وفي إسناده نظر ورفع غلط فاحش والصواب ما رواه ابن جرير حدثنا تميم بن المنتصر حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن إسحق عن محمد بن سهل بن أبي خيثمة عن أبيه قال : إني لفي هذا المسجد مسجد الكوفة وعلى رضى الله عنه يخطب الناس على المنبر يقول يا أيها الناس الكبائر سبع فأصاخ الناس فأعادها ثلاث مرات ثم قال : لم لا تسألوني عنها ؟ قالوا يا أمير المؤمنين ماهي ؟ قال : الاشرار بالله ، وقتل النفس التي حرم الله ، وقذف المحصنة ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والفرار يوم الزحف ، والتعرب بعد الهجرة . فقلت لأبي يا أبت التعرب بعد الهجرة كيف لحق ههنا ، قال يا بني وما أعظم من أن يهاجر الرجل حتى إذا وقع سهماً في النى . ووجب عليه الجهاد خلع ذلك من عنقه فرجع أعرابياً كما كان

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم حدثنا أبو معاوية يعني سنان عن منصور عن هلال بن يساف عن سلمة ابن قيس الأشجعي قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع « ألا إنهن أربع لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » قال فما أنا بأشجع عليهن من شيء إذ سمعتهن من رسول الله ﷺ

وسلم . ثم رواه أحمد أيضا والنسائي وابن مردويه من حديث منصور بإسناده مثله
(حديث آخر) تقدم من رواية عمر بن المغيرة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال
« الإضرار في الوصية من الكبائر » والصحيح ما رواه غيره عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال ابن أبي حاتم هو
صحيح عن ابن عباس من قوله (حديث آخر في ذلك) قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا
عباد بن عباد عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة أن أناسا من أصحاب النبي ﷺ ذكروا الكبائر وهو متكى
فقالوا : الشرك بالله ، وأكل مال اليتيم ، والفرار من الزحف وقذف المحصنة ، وعقوق الوالدين ، وقول الزور .
والغلول . والسحر . وأكل الربا . فقال رسول الله ﷺ « فأين تجعلون الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » إلى
آخر الآية ، في إسناده ضعف وهو حسن ﴿ ذكر أقوال السلف في ذلك ﴾

قد تقدم ما روى عن عمر وعلى في ضمن الأحاديث المذكورة ، وقال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا
ابن علية عن ابن عون عن الحسن أن ناسا سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا نرى أشياء من كتاب الله عز وجل أمر أن
يعمل بها لا يعمل بها فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك فقدم وقدموا معه فلقى عمر رضى الله عنه فقال متى قدمت ؟
فقال : منذ كذا وكذا قال : أيذن قدمت ؟ قال : فلا أدري كيف رد عليه . فقال يا أمير المؤمنين إن ناسا لقوني بمصر
فقالوا إننا نرى أشياء في كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها فأجبوا أن يلقوك في ذلك . قال : فاجمعهم لي قال فجمعهم له
قال ابن عون أظنه قال في بهو فأخذ أدناهم رجلا فقال أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك أقرأت القرآن كله قال نعم
قال فهل أحصيته في نفسك ؟ فقال اللهم لا قال ولو قال نعم لحصمه . قال فهل أحصيته في بصرك ؟ فهل أحصيته في
لفظك ؟ هل أحصيته في أثرك ؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم فقال ، ثكلت عمر أمه أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب
الله قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات قال وتلا (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) الآية . ثم قال
هل علم أهل المدينة . أو قال : هل علم أحد بما قدمتم قالوا لا ، قال لوعلموا لوعظت بكم إسناده صحيح ومتن حسن
وإن كان من رواية الحسن عن عمر وفيها انقطاع إلا أن مثل هذا اشتهرت كفى شهرته . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد
ابن سنان حدثنا أبو أحمد يعني الزبيري حدثنا علي بن صالح عن عثمان بن المغيرة عن مالك بن جرير^(١) عن علي رضى الله عنه
قال : الكبائر الإشراف بالله ، وقتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة والفرار من الزحف والتعرب بعد
الهجرة والسحر وعقوق الوالدين ، وأكل الربا ، وفراق الجماعة ، ونكث الصفة . وتقدم عن ابن مسعود أنه قال
أكبر الكبائر الإشراف بالله ، واليأس من روح الله ؛ والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله عز وجل
وروى ابن جرير من حديث الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق والأعمش عن إبراهيم عن علقمة كلاهما عن ابن
مسعود قال : الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها ومنه حديث سفيان الثوري وشعبة عن عاصم بن
أبي النجود عن زربن حبش عن ابن مسعود قال أكبر الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها ثم تلا (إن تجتنبوا
كبائر ما تنهون عنه) الآية قال ابن أبي حاتم حدثنا النضر بن شاذان حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا صالح بن حي عن ابن
بريدة عن أبيه قال : أكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضول الماء بعد الرى ومنع طروق الفحل إلا يجعل
وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلاء » وفيهما عن النبي ﷺ
أنه قال « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم رجل على فضل ماء بالقلاة يمنع ابن السبيل »
وذكر تمام الحديث وفي مسند الإمام أحمد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا « من منع فضل الماء
وفضل الكلاء منع الله فضله يوم القيامة » وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسين بن محمد بن شيبة الواسطي حدثنا أبو أحمد
عن سفيان عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عائشة قالت ما أخذني النساء من الكبائر قال ابن أبي حاتم يعني
قوله تعالى (على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن) الآية وقال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية

حدثنا زياد بن مخرق عن معاوية بن قررة قال أنبت أنس بن مالك فكان فيما يحدثنا قال لم أر مثل الذي أثنانا عن ربنا ثم لم يخرج له عن كل أهل ومال ثم سكت هنية ثم قال (١) والله لما كلفنا من ذلك انه تجاوز لنا عمادون الكبائر وتلا (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) الآية .

﴿ أقوال ابن عباس في ذلك ﴾

روى ابن جرير من حديث العتمر بن سليمان عن أبيه عن طاوس قال ذكروا عند ابن عباس الكبائر فقالوا هي سبع فقال: هي أكثر من سبع وسبع قال فلا أدري كم قالها من مرة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن ليث عن طاوس قال قلت لابن عباس ما السبع الكبائر قال هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع ورواه ابن جرير عن ابن حميد عن ليث عن طاوس قال جاء رجل إلى ابن عباس فقال أرأيت الكبائر السبع التي ذكرهن الله ما هن قال هن إلى السبعين أدنى منهن إلى سبع ، وقال عبد الرزاق أنا معمر عن طاوس عن أبيه قال قيل لابن عباس الكبائر سبع ؟ قال هن إلى السبعين أقرب ؛ وكذا قال أبو العالية الرياحي رحمه الله . وقال ابن جرير حدثنا المثني حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن قيس بن سعد عن سعيد بن جبير أن رجلا قال لابن عباس كم الكبائر سبع ؟ قال هن إلى سبعائة أقرب منها إلى سبع غير أنه لا كبيرة مع استغفار ؛ ولا صغيرة مع إصرار ، وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث شبل به وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) قال الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أولعنه أو عذاب رواه ابن جرير وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن حرب الموصلي حدثنا ابن فضيل حدثنا شبيب عن عكرمة عن ابن عباس قال الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار كبيرة وكذا قال (٢) سعيد بن جبير والحسن البصري وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية أخبرنا أيوب عن محمد بن سيرين قال نبئت أن ابن عباس كان يقول كل ما نهى الله عنه كبيرة وقد ذكرت الطرفة قال هي النظرة وقال أيضا حدثنا أحمد بن حازم أخبرنا أبو نعيم حدثنا عبد الله بن معدان عن أبي الوليد قال سألت ابن عباس عن الكبائر قال كل شيء عصى الله به فهو كبيرة

﴿ أقوال التابعين ﴾

قال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن ابن عون عن محمد قال سألت عبيدة عن الكبائر فقال : الإشرak بالله . وقتل النفس التي حرم الله بغير حقها . والفرار يوم الزحف وأكل مال اليتيم وأكل الربا والبهتان . قال ويقولون أعرابية بعد هجرة قال ابن عون فقلت لمحمد فالسحر ؟ قال إن البهتان يجمع شرا كثيرا وقال ابن جرير حدثني محمد بن عبيد المحاربي حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم عن أبي إسحق عن عبيد بن عمير قال الكبائر سبع ليس منهن كبيرة إلا وفيها آية من كتاب الله الإشرak بالله منهن (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح) الآية (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا) الآية (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) (والذين يرمون المحصنات العافلات المؤمنات) والفرار من الزحف (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا) الآية والتعرب بعد الهجرة (إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى) وقتل المؤمن (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها) الآية وكذا رواه ابن أبي حاتم أيضا في حديث أبي إسحق عن عبيد بن عمير بنحوه وقال ابن جرير : حدثنا المثني ؛ حدثنا أبو حذيفة ؛ حدثنا شبل عن ابن أبي نجيع عن عطاء يعني ابن أبي رباح قال الكبائر سبع : قتل النفس وأكل مال اليتيم وأكل الربا ورمي المحصنة وشهادة الزور وعقوق الوالدين والفرار من الزحف وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن مغيرة قال كان يقال شتم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من الكبائر قلت وقد ذهب طائفة من العلماء إلى تكفير من سب الصحابة وهو رواية عن مالك بن أنس رحمه الله وقال محمد بن سيرين ما أظن أحدا يبغيض أبا بكر وعمر وهو يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه الترمذي وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا يونس أنا ابن وهب أخبرني عبد الله بن عياش قال زيد بن أسلم في قول الله عز وجل (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) من الكبائر : الشرك بالله والكفر بآيات الله ورسوله

(١) في نسخة الأزهر : والله ما خلق ربنا أهون من ذلك لقد تجاوز إلخ . (٢) : وفيها : كل ما وعد الله عليه النار كبيرة .

والسحر وقتل الأولاد ، ومن دعى لله ولدا أو صاحبة — ومثل ذلك من الأعمال والقول الذي لا يصلح معه عمل .
وأما كل ذنب يصلح معه دين ، ويقبل معه عمل فإن الله يغفر السيئات بالحسنات قال ابن جرير حدثنا بشر بن معاذ ،
حدثنا يزيد حدثنا سعيد ، عن قتادة (إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه) الآية إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر وذكر
لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اجتنبوا الكبائر ، وسددوا ، وأبشروا » وقد روى ابن مردويه من طرق عن
أنس وعن جابر مرفوعا « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ولكن في إسناده من جميع طرقه ضعف إلا ما رواه عبد الرزاق
أخبرنا معمر عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » فإنه إسناده
صحيح على شرط الشيخين وقد رواه أبو عيسى الترمذي منفردا به من هذا الوجه عن عباس العنبري عن عبد الرزاق ثم
قال هذا حديث حسن صحيح ، وفي الصحيح شاهد لمعناه وهو قوله ﷺ بعد ذكر الشفاعة « أترونها للمؤمنين
المتقين ! لا ولكنها للخطئين التلوئين » وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة فمن قائل هي ما عليه
حد في الشرع ومنهم من قال هي ما عليه وعيد مخصوص من الكتاب والسنة وقيل غير ذلك . قال أبو القاسم عبد الكريم
ابن محمد الرافعي في كتابه الشرح الكبير الشيرفي كتاب الشهادات منه ثم اختلف الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم في الكبائر
وفي الفرق بينها وبين الصغائر ولبعض الأصحاب في تفسير الكبيرة وجوه أحدها أنها المعصية الموجبة للحد (والثاني) أنها
المعصية التي يلحق صاحبها الوعيد الشديد بنص كتاب أو سنة وهذا أكثر ما يوجد لهم وإلى الأول أميل لكن الثاني أوفق
لما ذكره عند تفسير الكبائر (والثالث) قال إمام الحرمين في الإرشاد وغيره كل جريمة تنبيء بقله أكثر مراتبها
بالدين ورقة الديانة فهي مبطللة للعدالة (والرابع) ذكر القاضي أبو سعيد الهروي أن الكبيرة كل فعل نص الكتاب
على تحريمه وكل معصية توجب في جنسها حداً من قتل أو غيره وترك كل فريضة مأمور بها على الفور والكذب
في الشهادة والرواية واليمين هذا ما ذكره على سبيل الضبط ثم قال وفصل القاضي الروياني فقال الكبائر سبع : قتل النفس بغير
الحق والزنا ، واللواط ، وشرب الخمر ، والسرقه ، وأخذ المال غصباً ، والقذف وراد في الشامل على السبع المذكورة
شهادة الزور أضاف إليها صاحب العدة أكل الربا ، والافطار في رمضان بلا عذر ، واليمين الفاجرة ، وقطع الرحم
وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف ، وأكل مال اليتيم ، والخيانة في الكيل والوزن ، وتقديم الصلاة على وقتها ،
وتأخيرها عن وقتها بلا عذر ، وضرب المسلم بلا حق ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمداً ؛ وسب أصحابه ،
وكتان الشهادة بلا عذر ، وأخذ الرشوة ، والقيادة بين الرجال والنساء ، والسعاية عند السلطان ، ومنع الزكاة ، وترك
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة ، ونسيان القرآن بعد تعلمه ، وإحراق الحيوان بالنار ، وامتناع المرأة من
زوجها بلا سبب ، والياس من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ويقال الواقعة في أهل العلم ، وحمل القرآن ومما يعده من الكبائر
— الظهار ، وأكل لحم الخنزير والميتة إلا عن ضرورة — ثم قال الرافعي وللتوقف مجال في بعض هذه الحصائل قلت : وقد صنف
الناس في الكبائر مصنفات منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي الذي بلغ نحو من سبعين كبيرة وإذا قيل إن الكبيرة
ما توعده عليها الشارع بالنار بخصوصها كما قال ابن عباس وغيره وما يتبع ذلك اجتمع منه شيء كثير وإذا قيل كل ما نهى الله
عنه فكثير جداً والله أعلم .

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْتُ لِلنِّسَاءِ وَنَصِيبٌ مِّمَّا
اَكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : قالت أم سلمة يا رسول الله يغزو الرجال ولا تغزو ولنا نصف
اليراث فأنزل الله (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر عن سفيان عن ابن أبي نجيح
عن مجاهد عن أم سلمة أنها قالت قلت يا رسول الله فذكره وقال غريب ورواه بعضهم عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد أن أم سلمة

قالت يا رسول الله فذكره ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وابن مردويه والحاكم في مستدركه من حديث الثوري عن ابن أبي نجیح ، عن مجاهد قال قالت أم سلمة يا رسول الله: لا تقاتل فنستشهد ولا تقطع الميراث فنزلت الآية ثم أنزل الله (أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى) الآية ثم قال ابن أبي حاتم وكذا روى سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجیح بهذا اللفظ وروى يحيى القطان ووكيع بن الجراح عن الثوري عن ابن أبي نجیح عن مجاهد عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله وروى عن مقاتل بن حيان وخفيف نحو ذلك وروى ابن جرير من حديث ابن جريج عن عكرمة ومجاهد أنهما قالاً أنزلت في أم سلمة وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن شيخ من أهل مكة قال نزلت هذه الآية في قول النساء لیتنا الرجال فنجاهد كما يجاهدون ونغزو في سبيل الله عز وجل وقال ابن أبي حاتم أيضاً حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثني أحمد بن عبد الرحمن حدثني أبي ، حدثنا أشعث بن إسحق عن جعفر بن يعقوب بن أبي الغيرة عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس في الآية قال أتت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله للذكر مثل حظ الأنثيين وشهادة امرأتين برجل ونحن في العمل هكذا إن فعلت امرأة حسنة كتب لها نصف حسنة فأنزل الله هذه الآية (ولا تتمنوا) الآية فانه عدلى منى وأنا صنعتها وقال السدى في الآية إن رجلاً قالوا إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء كما لنا في السهام سهان وقالت النساء إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء فإنا لا نستطيع أن نقاتل ولو كتب علينا القتال لقاتلنا فأبى الله ذلك ولكن قال لهم سالوني من فضلى قال ليس بعرض الدنيا وقد روى عن قتادة نحو ذلك . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال ولا تمنى الرجل فيقول ليت لو أن لى مال فلان وأهله فنهى الله عن ذلك ولكن يسأل الله من فضله. وقال الحسن ومحمد بن سيرين وعطاء والضحاك نحو هذا وهو الظاهر من الآية ولا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح « لا حسد الا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق فيقول رجل لو أن لى مثل ما لفلان لعملت مثله فهما في الأجر سواء » فان هذا شيء غير ما نهت عنه الآية وذلك أن الحديث حض على تمنى مثل نعمة هذا والآية نهت عن تمنى عين نعمة هذا يقول (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعض على بعض) أى في الأمور الدنيوية وكذا الدينية لحديث أم سلمة وابن عباس وهكذا قال عطاء بن أبي رباح نزلت في النهى عن تمنى ما لفلان وفي تمنى النساء أن يكن رجلاً فيغزون رواء ابن جرير ثم قال (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) أى كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر هذا قول ابن جرير وقيل المراد بذلك في الميراث أى كل يرث بحسبه . رواء الوالى عن ابن عباس ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم فقال (واسألوا الله من فضله) لا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض فان هذا أمر محتوم أى أن التمنى لا يجدى شيئاً ولكن سالوني من فضلى أعطكم فاني كريم وهاب وقد روى الترمذى وابن مردويه من حديث حماد بن واقد سمعت إسرائيل عن أبي إسحق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسأل ، وإن أفضل العباد انتظار الفرج » ثم قال الترمذى كذا رواء حماد بن واقد وليس بالحافظ ورواه أبو نعيم عن إسرائيل عن حكيم بن جبیر عن رجل عن النبي صلى الله عليه وسلم وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح وكذا رواء ابن مردويه من حديث وكيع عن إسرائيل ثم رواء من حديث قيس بن الربيع عن حكيم بن جبیر عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسأل ، وإن أحب عباد الله إلى الله الذى يحب الفرج » ثم قال (إن الله كان بكل شيء علماً) أى هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها وبمن يستحق الفقر فيفقره وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها وبمن يستحق الخلد لان فيخله عن تعاطى الخير وأسبابه ولهذا قال (إن الله كان بكل شيء علماً)

﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَنَأْتُوهُمْ نَصِيهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبیر وأبو صالح وقاتدة وزيد بن أسلم والسدى والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم

في قوله (ولكل جعلنا موالى) أى ورثة وعن ابن عباس في رواية أى عصبة قال ابن جرير والعرب تسمى ابن العم مولى
كما قال الفضل ابن عباس مهلا بنى عمنها مهلا موالينا * لا يظهرون بيننا ما كان مدفونا

قال ويعنى بقوله مما ترك الوالدن والأقربون من تركه والديه وأقربيه من الميراث فتأويل الكلام ولكلكم أيها الناس
جعلنا عصبة يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له وقوله تعالى (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) أى
والذين تحالفتم بالإيمان المؤكدة أتممهم فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة إن الله شاهد بينكم
في تلك العهود والمعاهدات وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك وأمرنا أن يوفوا من عاهدوا ولا ينسوا بعد
نزول هذه الآية معاهدة . قال البخارى حدثنا الصلت بن محمد حدثنا أبو أمامة عن إدريس عن طلحة بن مصرف عن
سعيد بن جبير عن ابن عباس (ولكل جعلنا موالى) قال ورثة (والذين عقدت أيمانكم) كان المهاجرون لما قدموا
المدينة يرث المهاجري الأنصارى دون ذوى رحمه للأخوة التى آخى النبي ﷺ بينهم فلما نزلت (ولكل جعلنا موالى)
نسخت ثم قال (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصى
له ثم قال البخارى سمع أبو أسامة إدريس وسمع إدريس عن طلحة قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا
أبو أسامة حدثنا إدريس الأودى أخبرني طلحة بن مصرف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله (والذين عقدت
أيمانكم) الآية قال كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصارى دون ذوى رحمه بالأخوة التى آخى
رسول الله ﷺ بينهم فلما نزلت (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون) نسخت ثم قال والذين عقدت
أيمانكم فآتوهم نصيبهم وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء
عن ابن عباس قال (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) فكان الرجل قبل الاسلام يعاهد الرجل ويقول
وترثني وأرثك وكان الاحياء يتحالفون فقال رسول الله ﷺ « كل حلف في الجاهلية أو عقد أدركه الاسلام
فلا يزيده الاسلام إلا شدة ولا عقد ولا حلف في الاسلام » فنسختها هذه الآية (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض
في كتاب الله) ثم قال وروى عن سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والحسن وابن المسيب وأبي صالح وسليمان بن يسار
والشعبي وعكرمة والسدى والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا هم الخلفاء وقال الامام أحمد حدثنا عبد الله
ابن محمد حدثنا ابن نمير وأبو أسامة عن زكريا عن سعيد بن إبراهيم قال : قال رسول الله ﷺ « لا حلف في الاسلام
وأما حلف كان في الجاهلية لم يزه الاسلام إلا شدة » وهكذا رواه مسلم ورواه النسائي من حديث إسحق بن
يوسف الأزرق عن زكريا عن سعيد بن إبراهيم عن نافع عن جبير بن مطعم عن أبيه به وقال ابن جرير حدثنا
أبو كريب حدثنا وكيع عن شريك عن سالك عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثنا
أبو كريب حدثنا مصعب بن المقدم عن إسرائيل عن يونس عن محمد بن عبد الرحمن مولى آل طلحة عن عكرمة عن
ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لا حلف في الاسلام وكل حلف كان في الجاهلية فلم يزه الاسلام إلا شدة
وما يسرنى أن لى حمر النعم وأنى نقضت الحلف الذى كان في دار الندوة » هذا لفظ ابن جرير وقال ابن جرير أيضا
حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن عبد الرحمن بن إسحق عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن
ابن عوف أن رسول الله ﷺ قال « شهدت حلف المطيين وأنا غلام مع عمومتى فسا أحب أن لى حمر النعم وأنا
أنكته » قال الزهري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم يصب الاسلام حلفا إلا زاده شدة » قال « ولا حلف
في الاسلام » وقد ألف النبي صلى الله عليه وسلم بين قريش والأنصار وهكذا رواه الإمام أحمد عن بشر بن الفضل عن
عبد الرحمن بن إسحق عن الزهري بتمامه وحدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشيم أخبرني مغيرة عن أبيه عن شعبة بن
التوأم عن قيس بن عاصم أنه سأل النبي ﷺ عن الحلف قال فقال « ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به
ولا حلف في الاسلام » وهكذا رواه أحمد عن هشيم وحدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن داود بن أبي عبد الله عن ابن
جدة عن حدثه عن أم سامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا حلف في الاسلام وما كان من حلف في الجاهلية لم

يزده الاسلام لإشدة» وحدثنا كريب حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح قام خطيبا في الناس فقال « يا أيها الناس ما كان من حلف في الجاهلية لم يزد الاسلام إلا شدة ولا حلف في الاسلام » ثم رواه من حديث حسين العلم وعبد الرحمن بن الحارث عن عمرو بن شعيب به وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا ابن نمير وأبو أسامة عن زكريا عن سعد عن إبراهيم عن أبيه عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ « لا حلف في الاسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزد الاسلام إلا شدة » وهكذا رواه مسلم عن عبد الله بن محمد وهو أبو بكر بن أبي شيبة بإسناده مثله ورواه أبو داود عن عثمان عن محمد بن أبي شيبة عن محمد بن بشر وابن نمير وأبي أسامة ثلاثهم عن زكريا وهو ابن أبي زائدة بإسناده مثله ورواه ابن جرير من حديث محمد بن بشر به ورواه النسائي من حديث إسحق بن يوسف الأزرق عن زكريا عن سعد بن إبراهيم عن نافع ابن جبير بن مطعم عن أبيه به وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم قال أخبرنا مغيرة عن أبيه عن شعبة بن التوأم عن قيس ابن عاصم أنه سأل النبي ﷺ عن الحلف فقال « ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به ولا حلف في الاسلام » وكذا رواه شعبة عن مغيرة وهو ابن مقسم عن أبيه به وقال محمد بن إسحق عن داود بن الحصين قال كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع مع ابن ابنها موسى بن سعد وكان يتما في حجر أبي بكر فقراءت عليها (والذين عاقدت أيمانكم) فقالت لا ولكن (والذين عقدت أيمانكم) قالت إنما نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن حين أبي أن يسلم فحلف أبو بكر أن لا يورثه فلما أسلم حين حمل على الاسلام بالسيف أمر الله أن يورثه نصيبه رواه ابن أبي حاتم وهذا قول غريب ، والصحيح الأول وأن هذا كان في ابتداء الاسلام يتوارثون بالحلف ثم نسخ وبقي تأثير الحلف بعد ذلك وإن كانوا قد أمروا أن يوفوا بالعقود والحلف الذي كانوا قد تعاقدوه قبل ذلك وتقدم في حديث جبير بن مطعم وغيره من الصحابة لا حلف في الاسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزد الاسلام إلا شدة وهذا نص في الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ورواية عن أحمد بن حنبل والصحيح قول الجمهور ومالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه ولهذا قال تعالى (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون) أى ورثة من قرابته من أبويه وأقربيه وهم يرثونه دون سائر الناس كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « ألقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلاولى رجل ذكر » أى اقسمو الميراث على أصحاب الفرائض الذين ذكرهم الله في آتى الفرائض فما بقى بعد ذلك فأعطوه للعصبة وقوله (والذين عقدت أيمانكم) أى قبل نزول هذه الآية فآتوهم نصيبهم أى من الميراث فأيما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له وقد قيل إن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل وحكم الحلف الماضى أيضا فلا توارث به كما قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة حدثنا إدريس الأودى أخبرني طلحة بن مصرف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فآتوهم نصيبهم قال من النصرة والنصيحة والرفادة ويوصى له وقد ذهب الميراث ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن أبي أسامة وكذا روى عن مجاهد وأبي مالك نحو ذلك وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (والذين عاقدت أيمانكم) قال كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر فأنزل الله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) يقول إلا أن توصوا لهم بوصية فهي لهم جائزة من ثلث المال وهذا هو المعروف وهكذا نص غير واحد من السلف أنها منسوخة بقوله (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) وقال سعيد بن جبير فآتوهم نصيبهم أى من الميراث قال وعاقده أبو بكر مولى فورثه رواه ابن جرير وقال الزهري عن ابن المسيب نزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنون رجلا غير أبنائهم يورثونهم فأنزل الله فيهم فجعل لهم نصيبا في الوصية ورد الميراث إلى المولى في ذى الرحم والعصبة وأبى الله أن يكون للمدعين ميراث ممن ادعاهم وتبناهم ولكن جعل لهم نصيبا من الوصية رواه ابن جرير وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله فآتوهم نصيبهم ، أى من النصرة والنصيحة والمعونة لا أن المراد فآتوهم نصيبهم من الميراث حتى تكون الآية منسوخة ولا أن ذلك كان حكما

ثم نسخ بل إنما دلت الآية على الوفاء بالخلف المعقود على النصرة والنصيحة فقط فهي محكمة لا منسوخة وهذا الذي قاله فيه نظر فإن من الخلف ما كان على المناصرة والمعاونة ومنه ما كان على الارث كما حكاه غير واحد من السلف وكما قال ابن عباس كان المهاجري يرث الأنصار دون قراباته وذوى رحمه حتى نسخ ذلك فكيف يقولون إن هذه الآية محكمة غير منسوخة والله أعلم

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَنَاطُتُ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَحَافُونَ نَشُوزُهُنَّ قَعِطُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾

يقول تعالى (الرجال قوامون على النساء) أى الرجل قيم على المرأة أى هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا عوجت (بما فضل الله بعضهم على بعض) أى لأن الرجال أفضل من النساء والرجل خير من المرأة ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال وكذلك الملك الأعظم لقوله صلى الله عليه وسلم «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» رواه البخارى من حديث عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه وكذا منصب القضاء وغير ذلك (وبما أنفقوا من أموالهم) أى من المهور والنفقات والكلف التى أوجبها الله عليهم لمن فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فالرجل أفضل من المرأة فى نفسه وله الفضل عليها والافضل فتناسب أن يكون قيا عليها كما قال الله تعالى (والرجال عليهن درجة) الآية وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس (الرجال قوامون على النساء) يعنى أمراء عليهن أى تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته وطاعته أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله ، وكذا قال مقاتل والسدى والضحاك وقال الحسن البصرى جاءت امرأة إلى النبی صلى الله عليه وسلم تشكو أن زوجها لطمها فقال رسول الله ﷺ «القصاص» فأمر الله عز وجل (الرجال قوامون على النساء) الآية فرجعت بغير قصاص ورواه ابن جريج وابن أبى حاتم من طرق عنه وكذلك أرسل هذا الخبر قتادة وابن جريج والسدى وأورد ذلك كله ابن جرير وقد أسنده ابن مردويه من وجه آخر فقال حدثنا أحمد بن على النسائي ، حدثنا محمد بن هبة الله الهاشمي ، حدثنا محمد بن محمد الأشعث حدثنا موسى بن إسماعيل ابن موسى بن جعفر بن محمد ، قال حدثنا أبى عن جدى ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه عن على قال أتى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار بامرأة له فقالت يا رسول الله إن زوجها فلان بن فلان الأنصارى وإنه ضربها فأثر فى وجهها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس له ذلك» فأمر الله تعالى (الرجال قوامون على النساء) أى فى الأدب فقال رسول الله ﷺ «أردت أمراً وأراد الله غيره» وكذلك أرسل هذا الخبر قتادة وابن جريج والسدى وأورد ذلك كله ابن جرير وقال الشعبي فى هذه الآية (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) قال الصادق الذى أعطاهما ألا ترى أنه لو قذفها لاعتبها ولو قذفته جلدت وقوله تعالى (فالصالحات) أى من النساء (قاتنات) قال ابن عباس وغير واحد يعنى المطيعات لأزواجهن (حافظات للغيب) وقال السدى وغيره أى تحفظ زوجها فى غيبته فى نفسها وماله وقوله (بما حفظ الله) أى المحفوظ من حفظه الله قال ابن جرير حدثنى الثنى ، حدثنا أبو صالح حدثنا أبو معشر ، حدثنا سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك» قال ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (الرجال قوامون على النساء) إلى آخرها ورواه ابن أبى حاتم عن يونس بن جبيب عن أبى داود الطيالسى عن محمد بن عبد الرحمن ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى به مثله سواء وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق حدثنا ابن لميعة عن عبد الله بن أبى جعفر أن ابن قارظ أخبره أن عبد الرحمن بن عوف قال قال رسول الله ﷺ «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها قيل لها ادخلى الجنة من أى الأبواب شئت» تفرد به أحمد من طريق عبد الله بن قارظ عن

عبد الرحمن بن عوف وقوله تعالى (واللاتي تخافون نشوزهن) أي والنساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن والنشوز هو الارتفاع فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها التاركة لأمره المعرضة عنه المبغضة له فتق ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والافضال وقد قال رسول الله ﷺ «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها» وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح» ورواه مسلم ولفظه «إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح» ولهذا قال تعالى (واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن) وقوله (واهجروهن في المضاجع) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الهجر هو أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره وكذا قال غير واحد وزاد آخرون منهم السدي والضحاك وعكرمة وابن عباس في رواية ولا يكلمها مع ذلك ولا يتحدثها وقال علي بن أبي طلحة أيضاً عن ابن عباس يعظها فإن هي قبلت والاهجرها في المضجع ولا يكلمها من غير أن يرد نكاحها وذلك عليها شديد وقال مجاهد والشعبي وإبراهيم ومحمد بن كعب ومقسم وقتادة: الهجر هو أن لا يضاجعها وقد قال أبو داود حدثنا موسى ابن إسماعيل حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي مرة الرقاشي عن عمه أن النبي ﷺ قال «فان خفتم نشوزهن فاهجروهن في المضاجع» قال حماد يعني النكاح وفي السنن والسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه قال «أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت» وقوله واضربوهن أي إذا لم يردعن بالموعظة ولا بالهجران فلم يكن أن تضربوهن ضرباً غير مبرح كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع «واتقوا الله في النساء فانهم عندكم عوان ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فان فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف» وكذا قال ابن عباس وغير واحد ضرباً غير مبرح قال الحسن البصري يعني غير مؤثر قال الفقهاء هو أن لا يكسر فيها عضواً ولا يؤثر فيها شيئا وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يهجرها في المضجع فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرح ولا تكسر لها عظماً فإن أقبلت وإلا فقد أحل الله لك منها الفدية وقال سفيان بن عيينة عن الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عمر عن إياس ابن عبد الله بن أبي ذئب قال: قال النبي ﷺ «لا تضربوا إماء الله» فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال ذئب أن النساء على أزواجهن فرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في ضربهن فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن ليس أولئك بخياركم» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن داود يعني أبداود الطيالسي حدثنا أبو عوانة عن داود الأودي عن عبد الرحمن السلمي عن الأشعث بن قيس قال ضفت عمر رضي الله عنه فتناول امرأته فضربها فقال يا أشعث احفظ عني ثلاثاً حفظتهن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسأل الرجل فيما ضرب امرأته ، ولا تنم إلا على وتر ونسي الثالثة وكذا رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن مهدي عن أبي عوانة عن داود الأودي به وقوله تعالى (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً) أي إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليها بعد ذلك وليس له ضربها ولا هجرانها وقوله (إن الله كان علياً كبيراً) تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب فإن الله العلي الكبير وليهن وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَنِيهِمَا فَأَبْغَوْا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾

ذكر الحال الأول وهو إذا كان النفور والنشوز من الزوجة. ثم ذكر الحال الثاني وهو إذا كان النفور من الزوجين فقال تعالى (وإن خفتم شقاق بينهما فابغوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها) وقال الفقهاء إذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم

إلى جنب ثقة ينظر في أمرها ويمنع الظالم منهما من الظلم فإن تفاقم أمرها وطالت خصومتها بعث الخاكم ثقة من أهل المرأة وثقة من قوم الرجل ليجتمعا فينظرا في أمرها ويفعلا ما فيه المصلحة بما يريانه من التفريق أو التوفيق وتشوف الشارع إلى التوفيق . ولهذا قال تعالى (إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس امر الله عز وجل أن يعيشوا رجلا صالحا من أهل الرجل ورجلا مثله من أهل المرأة فينظران أيهما المسيء فإن كان الرجل هو المسيء حجبا عنه أمرته وقصروه على النفقة وإن كانت المرأة هي المسيئة قصروها على زوجها ومنعوها النفقة فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز فإن رأيا أن يجمعا فرضى أحد الزوجين وكره الآخر ثم مات أحدهما فإن الذي رضى يرث الذي لم يرث ولا يرث الكاره الراضى رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن عكرمة بن خالد عن ابن عباس قالت بعثت أنا ومعاوية حكيمين ، قال معمر بلغني أن عثمان بعثهما وقال لهما إن رأيتهما ان تجمعا جمعتهما وإن رأيتهما أن تفرقا ففرقا ، وقال أنبأنا ابن جريج حدثني ابن أبي مليكة أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة فقالت : تصير إلى وأنفق عليك فكان إذا دخل عليها قالت أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة فقال علي يسارك في النار إذا دخلت فشدت عليها ثيابها ففجأت عثمان فذكرت له ذلك فضحك فأرسل ابن عباس ومعاوية فقالا بينهما فقال معاوية ما كنت لأفرق بين شخصين من بني عبد مناف فأتياها فوجداهما قد علقا عليهما أبوابهما فرجعا ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب عن محمد بن سيرين عن عبيدة قال شهدت عليا وجاءته امرأة وزوجها مع كل واحد منهما فقام من الناس فأخرج هؤلاء حكما وهؤلاء حكما فقال علي للحكيم أتدريان ما عليكما ؟ إن عليكما ان رأيتهما أن تجمعا جمعتهما ففجأت المرأة ففجأت عليا وقال الزوج أما الفرقة فلا فقال علي كذبت والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله عز وجل لك وعليك رواه ابن أبي حاتم ورواه ابن جرير عن يعقوب عن ابن علي عن أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة عن علي بن أبي طالب عن ابن عباس عن ابن سيرين عن عبيدة عن علي به وقد أجمع العلماء على أن الحكمين لهما الجمع والفرقة حتى قال إبراهيم النخعي إن شاء الحكمان ان يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا وهو رواية عن مالك . وقال الحكم البصري الحكمان يحكمان في الجمع لافي الفرقة وكذا قال قتادة وزيد بن أسلم وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور وداود ، ومأخذهم قوله تعالى (إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما) ولم يذكر التفريق وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما في الجمع والفرقة بلا خلاف وقد اختلف الأئمة في الحكمين هل هما منصوبان من جهة الحاكم فيحكمان وان لم يرص الزوجان أو هما وكيلان من جهة الزوجين على قولين والجمهور على الأول لقوله تعالى (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) فسلما حكيمين ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه وهذا ظاهر الآية والجديد من مذهب الشافعي وهو قول أبي حنيفة وأصحابه الثاني منهما القول على رضى الله عنه للزوج حين قال أما الفرقة قال : كذبت حتى تقر بما أقرت به قالوا فلو كانا حكيمين لما افتقر إلى إقرار الزوج والله أعلم . قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر وأجمع العلماء على أن الحكمين إذا اختلف قولهما فلا عبرة بقول الآخر وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع وإن لم يوكلفهما الزوجان واختلفوا هل ينفذ قولهما في الفرقة ثم حكى عن الجمهور أنه ينفذ قولهما فيها أيضا من غير توكيل

﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له فإنه هو الخالق الرازق النعم المتفضل على خلقه في جميع الآلات والحالات فهو المستحق منهم أن يوحده ولا يشركوا به شيئا من مخلوقاته كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل « أتدرى ما حق الله على العباد؟ » قال الله ورسوله أعلم قال : « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » ، ثم قال « أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ »

أن لا يعذبهم » ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين فإن الله سبحانه جعلهما سببا لخروجك من العدم إلى الوجود وكثيرا ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين كقوله (أن اشكر لي ولوالديك) وكقوله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) ثم عطف على الإحسان اليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء كما جاء في الحديث « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة » ثم قال تعالى (واليتامى) وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم فأمر الله بالإحسان اليهم والحنو عليهم ثم قال (والمساكين) وهم المحاييج من ذوى الحاجات الذين لا يجدون من يقوم بكفائهم فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تم به كفائهم وتزول به ضرورتهم ، وسيأتي الكلام على الفقير والمسكين في سورة براءة وقوله (والجار ذي القربى والجار الجنب) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس والجار ذي القربى يعنى الذى بينك وبينه قرابة والجار الجنب الذى ليس بينك وبينه قرابة وكذا روى عن عكرمة ومجاهد وميمون بن مهران والضحاك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وقال أبو إسحق عن نوف البكالى في قوله والجار ذي القربى يعنى الجار المسلم والجار الجنب يعنى اليهودى والنصرانى رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقال جابر الجعفى عن الشعبي عن علي وابن مسعود والجار ذي القربى يعنى المرأة وقال مجاهد أيضا في قوله والجار الجنب يعنى الرفيق فى السفر وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار فلذلك ذكر منها ما تيسر وبالله المستعان : (الحديث الأول) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمر بن محمد بن زيد أنه سمع محمدا يحدث عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » أخرجاه فى الصحيحين من حديث محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر به .

(الحديث الثانى) قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن داود بن شبيب عن مجاهد عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » وروى أبو داود والترمذى نحوه من حديث سفيان بن عيينة عن بشير أبى إسحاق عن زاذل الترمذى وداود بن شبيب كلاهما عن مجاهد به ثم قال الترمذى حسن غريب من هذا الوجه وقد روى عن مجاهد وعائشة وأبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم (الحديث الثالث) قال أحمد أيضا حدثنا عبد الله بن يزيد أخبرنا حيوة أخبرنا شريك أنه سمع أبا عبد الرحمن الجبلى يحدث عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ انه قال « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » ورواه الترمذى عن أحمد بن محمد عن عبد الله بن المبارك عن حيوة بن شريح به وقال حسن غريب (الحديث الرابع) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سفيان عن أبيه عن عباية بن رفاعة عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يشبع الرجل دون جاره » تفرد به أحمد (الحديث الخامس) قال الإمام أحمد حدثنا علي بن عبد الله حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعد الأنصارى سمعت أبا ظبية الكلاعى سمعت المقداد بن الأسود يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « ماتقولون فى الزنا » قالوا حرام حرمه الله ورسوله وهو حرام إلى يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يزنى الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزنى بحليلة جاره » قال « ماتقولون فى السرقة » قالوا حرمها الله ورسوله فهى حرام إلى يوم القيامة قال « لأن يسرق الرجل من عشرة آيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره » تفرد به أحمد وله شاهد فى الصحيحين من حديث ابن مسعود : قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قلت ثم أى ؟ قال « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت ثم أى ؟ قال « أن تزانى حليلة جارك » . (الحديث السادس) قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا هشام عن حفصة عن أبى العالية عن رجل من الأنصار قال خرجت من أهلى أريد النبى صلى الله عليه وسلم فلإذابه قائم ورجل معه مقبل عليه فظننت أن لها حاجة قال الأنصارى لقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جعلت أرثى لرسول الله صلى الله عليه وسلم من طول القيام فلما انصرف قلت يا رسول الله لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت أرثى لك من طول القيام قال « وقد رأيته ؟ » قلت نعم قال « أتدرى من هو ؟ » قلت لا قال « ذاك جبريل مازال يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » ثم قال « أما إنك لو سلمت عليه لرُد عليك السلام » . (الحديث السابع) قال عبد بن حميد فى مسنده حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا أبو بكر يعنى المدنى عن جابر بن عبد الله قال جاء رجل من العوالى ورسول الله

صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام يصليان حيث يصلي على الجنائز فلما انصرف قال الرجل يا رسول الله من هذا الرجل الذي رأيت يصلي معك؟ قال «وقد رأيته؟» قال نعم قال «لقد رأيت خيراً كثيراً هذا جبريل مازال يوصيني بالجوار حتى رأيت أنه سيورثه» تفرد به من هذا الوجه وهو شاهد للذي قبله . (الحديث الثامن) قال أبو بكر البرار حدثنا عبيد الله ابن محمد أبو الربيع البخاري (١) حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك أخبرني عبد الرحمن بن الفضل عن عطاء الخراساني عن الحسن بن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ «الجيران ثلاثة، جاره له حق واحد، وهو أدنى الجيران حقاً، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران حقاً . فأما الجار الذي له حق واحد فجار مشرك لا رحم له . له حق الجوار . وأما الجار الذي له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار وأما الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم» قال البرار لا نعلم أحداً روى عن عبد الرحمن بن الفضل إلا ابن أبي فديك . (الحديث التاسع) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي عمران عن طلحة بن عبد الله عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت : إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال «إلى أقربهما منك باباً» ورواه البخاري من حديث شعبة به . (الحديث العاشر) روى الطبراني وأبو نعيم عن عبد الرحمن بن فزاد قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم توسأ فجعل الناس يتمسحون بوضوئه فقال «ما يحملكم على ذلك» قالوا حب الله ورسوله قال «من سره أن يحب الله ورسوله فيصدق الحديث إذا حدث وليؤد الأمانة إذا ائتمن» (٢) (الحديث الحادي عشر) قال أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ابن لميعة قال : قال رسول الله ﷺ «إن أول خصمين يوم القيامة جاران» (٣) وقوله تعالى (والصاحب بالجنب) قال الثوري عن جابر الجعفي عن الشعبي عن علي وابن مسعود قال : هي المرأة وقال ابن أبي حاتم وروى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى وإبراهيم النخعي والحسن وسعيد بن جبير في إحدى الروايات نحو ذلك وقال ابن عباس وجماعة هو الضعيف وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة هو الرفيق في السفر وقال سعيد بن جبير هو الرفيق الصالح وقال زيد بن أسلم هو جلسك في الخضر ورفيقك في السفر وأما ابن السبيل فعن ابن عباس وجماعة هو الضيف وقال مجاهد وأبو جعفر الباقر والحسن والضحاك ومقاتل هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر وهذا أظهر وإن كان مراد القائل بالضعف المار في الطريق فهم مساواة وسيأتي الكلام على أبناء السبيل في سورة براءة وبالله الثقة وعليه التكلان . وقوله تعالى (وما ملكك أيمانكم) وصية بالآرقاء لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس فلهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمة في مرض الموت يقول «الصلاة الصلاة وما ملكك أيمانكم» فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه وقال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن أبي العباس ، حدثنا بقة ، حدثنا بجير بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدم بن معديكرب قال : قال رسول الله ﷺ «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة . وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة : وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة» ورواه النسائي من حديث بقة وإسناده صحيح والله الحمد

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهريمان له هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال : لا قال فانطلق فأعطهم فان رسول الله ﷺ قال «كفى بالمرء إيماناً أن يحبس عمن يملك قوتهم» رواه مسلم ، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق» رواه مسلم أيضاً وعنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناول له لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه ولي حره وعلاجه» أخرجه ولفظه للبخاري ومسلم «فليقعده معه فليأكل كل فإن كان الطعام مشفوها قليلاً فليضع في يده أكلة أو أكلتين» وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم» أخرجه . وقوله تعالى (إن الله لا يحب من كان مختالاً) يعني متكبراً (نفسه كبير ، وهو عند الله حقير ، وعند الناس بغض . قال مجاهد في قوله (إن الله لا يحب من كان مختالاً) يعني متكبراً (فخوراً) يعني بعد ما أعطى وهو لا يشكر الله تعالى يعني يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه ، وهو قليل الشكر (فخوراً) يعني بعد ما أعطى وهو لا يشكر الله تعالى يعني يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه ، وهو قليل الشكر

(١) في نسخة الأزهر . البخاري (٢) هذا الحديث ليس فيه شاهد سابق ولعله سقط بعد قوله إذا ائتمن وليحسن الجوار (٣) الحديث ناقص كما هو ظاهر .

الله على ذلك وقال ابن جرير حدثني القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن كثير ، عن عبد الله بن واقد عن أبي رجاء الهروي قال : لا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالا فخورا وتلا (وما ملكت أيمانكم) الآية ولا عاقا إلا وجدته جبارا شقيا وتلا (وبرا بوالهني ولم يجعلني جبارا شقيا) وروى ابن أبي حاتم عن العوام بن حوشب مثله في المختال الفخور وقال حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم ، عن الأسود بن شيبان حدثنا يزيد بن عبد الله بن الشخير قال : قال مطرف كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتى لقاءه فلقينته فقلت يا أبا ذر بلغني أنك تزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة قال أجل : فلا أخالك ، أكذب على خليلي ثلاثا ؟ قلت من الثلاثة الذين يبغض الله ؟ قال المختال الفخور أو ليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل ثم قرأ الآية (إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) وحدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا وهيب ، عن خالد ، عن أبي تيمية عن رجل من بني الهجيم قال : قلت يا رسول الله أوصني قال « إياك وإسبال الأزار فإن إسبال الأزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة »

﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ وَالَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾

يقول تعالى ذاما للذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم من الأرقاء ولا يدفعون حق الله فيها ويأمرون الناس بالبخل أيضا وقد قال رسول الله ﷺ « وأى داء أدوأ من البخل » وقال « إياكم والشح فانه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »

وقوله تعالى (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) فالبخيل جحود لنعمة الله ولا تظهر عليه . ولا تبين لافي مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله كما قال تعالى (إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد) أى بحاله وشمائله (وإنه لحب الخير لشديد) وقال ههنا (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) ولهذا وعدهم بقوله (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) والكفر هو الستر والتغطية فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويحدها فهو كافر لنعمة الله عليه . وفي الحديث « إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه » وفي الدعاء النبوى « واجعلنا شاكرين لنعمتك مشنين بها عليك قابليها وأتممها علينا » وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود باظهار العلم الذى عندهم من صفة محمد ﷺ وكتبتهم ذلك ولهذا قال تعالى (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) رواه ابن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وقاله مجاهد وغير واحد ، ولا شك أن الآية محتملة لذلك والظاهر أن السياق فى البخل بالمال وإن كان البخل بالعلم داخلا فى ذلك بطريق الأولى فان السياق فى الانفاق على الأقارب والضعفاء وكذلك الآية التى بعدها وهى قوله (الذين ينفقون أموالهم رياء الناس) فانه ذكر المسكين المذمومين وهم البخلاء ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون باعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم ، ولا يريدون بذلك وجه الله وفى حديث « الثلاثة الذين هم أول من تسجر بهم النار وهم العالم والغازى والمنفق والمراون بأعمالهم يقول صاحب المال ما تركت من شىء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فى سبيلك فيقول الله كذبت إنما أردت أن يقال جواد فقد قيل » أى فقد أخذت جزاءك فى الدنيا وهو الذى أردت بفعلك وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعدي بن حاتم « إن أباك أراد أمرا فبلغه » وفى حديث آخر أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جدعان هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه ؟ فقال : « لا إنه لم يقل يوما من الدهر رب اغفر لى خطيئتي يوم الدين » ولهذا قال تعالى (ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) الآية أى إنما حملهم على صنيعهم هذا التبيح وعدوهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان فانه سول لهم وأملى لهم وقارنهم فحسن

لهم القبايح ولهذا قال تعالى (ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً) ولهذا قال الشاعر :

عن المرة لاتسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى

ثم قال تعالى (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) الآية أى وأى شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن يحسن عمله وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها ، وقوله (وكان الله بهم عليماً) أى وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة وعليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويلهمه رشده ويقضه لصلح صالح يرضى به عنه وبمن يستحق الخذلان والطرده عن جنبه الأعظم الإلهي الذي من طرده عن بابه فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة عياداً بالله من ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَظْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا * فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾

يقول تعالى مخبراً إنه لا يظلم أحداً من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة بل يوفى بها له ويضاعفها له إن كانت حسنة كما قال تعالى (ونضع الموازين القسط) الآية وقال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال (يا بني إنما إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بالله) الآية وقال تعالى (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وفي الصحيحين من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الطويل وفيه «فيقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار» - وفي لفظ أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار - «فيخرجون خلقاً كثيراً» ثم يقول أبو سعيد أقرءوا إن شئتم (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عيسى بن يونس عن هرون بن عثرة عن عبد الله بن السائب عن زاذان قال : قال عبد الله بن مسعود يؤتى بالبعد أو الأمة يوم القيامة فينادى مناد على رؤوس الأولين والآخرين هذا فلان بن فلان من كان له حق فليأت إلى حقه فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أيها أو أمها أو أخيها أو زوجها ثم قرأ (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) فيغفر الله من حقه ما يشاء ولا يغفر من حقوق الناس شيئاً فينصب للناس فيقول اتقوا إلى الناس حقوقهم فيقول يارب فنيب الدنيا من أين أوتيتهم حقوقهم فيقول خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذي حق حقه بقدر مظلمته فإن كان ولياً لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة ثم قرأ علينا (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها) وإن كان عبداً شقياً قال الملك رب فنيب حسناته وبقى طالبون كثير فيقول خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاتهم صكوا له صكا إلى النار ورواه ابن جرير من وجه آخر عن زاذان به نحوه ولبعض هذا الأثر شاهد في الحديث الصحيح وقال ابن أبي حاتم حدثنا أي ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا فضيل يعني ابن مرزوق عن عطية العوفي ، حدثني عبد الله بن عمر قال نزلت هذه الآية في الأعراب (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) قال رجل فما للمهاجرين يا أبا عبد الرحمن قال ما هو أفضل من ذلك (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) وحدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدثني عبد الله بن لهيعة ، حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قوله (وإن تك حسنة يضاعفها) فأما الشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ولا يخرج من النار أبداً وقد يستدل له بالحديث الصحيح أن العباس قال يا رسول الله إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء ؟ قال «نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» وقد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا عمران ، حدثنا قتادة عن أنس أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعمهم في الدنيا فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة » وقال أبو هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك في قوله (ويؤت من لده أجر عظيم) يعني الجنة نسأل الله رضاه والجنة . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد ، حدثنا سليمان يعني ابن الغيرة عن علي بن زيد عن أبي عثمان قال بلغني عن أبي هريرة أنه قال بلغني أن الله تعالى يعطي العبد المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة قال فقضى أني انطلقت حاجاً أو معتمراً فلقيتك فقلت بلغني عنك حديث أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يجزى العبد بالحسنة ألف ألف حسنة » فقلت ويحكم ما أحداً أكثر مني مجالسة لأبي هريرة وما سمعت هذا الحديث منه فتحملت أريد أن ألحقه فوجدته قد انطلق حاجاً فانطلقت إلى الحج في طلب هذا الحديث فلقيتك فقلت يا أبا هريرة ما حديث سمعت أهل البصرة يأترونه عنك قال ما هو ؟ قلت : زعموا أنك تقول : إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة قال يا أبا عثمان وما تعجب من ذاك والله يقول (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) ويقول (وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) والذي نفسي بيده لقد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة » قال وهذا حديث غريب وطى بن زيد بن جعدان عنده مناكير ورواه أحمد أيضاً فقال حدثنا يزيد ، حدثنا مبارك بن فضالة عن علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي قال أتيت أبا هريرة فقلت له بلغني أنك تقول إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة قال وما أعجبتك من ذلك فوالله لقد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله ليضاعف الحسنة ألف ألف حسنة » ورواه ابن أبي حاتم من وجه آخر فقال حدثنا أبو خلاد وسليمان بن خلاد المؤدب ، حدثنا محمد الرفاعي عن زياد بن الجصاص عن أبي عثمان النهدي قال لم يكن أحد أكثر مجالسة مني لأبي هريرة فقدم قبلي حاجاً وقدمت بعده فإذا أهل البصرة يأترون عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة » فقلت ويحكم ما كان أحد أكثر مجالسة مني لأبي هريرة وما سمعت منه هذا الحديث ففهمت أن ألحقه فوجدته قد انطلق حاجاً فانطلقت إلى الحج أن ألقاه في هذا الحديث - ورواه ابن أبي حاتم من طريق أخرى فقال حدثنا بشر بن مسلم ، حدثنا الربيع بن روح ، حدثنا محمد بن خالده الذهبي عن زياد الجصاص عن أبي عثمان قال قلت يا أبا هريرة سمعت إخواني بالبصرة يزعمون أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة » فقال أبو هريرة والله بل سمعت نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية (وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) وقوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) يقول تعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يحى من كل أمة بشهيد يعني الأنبياء عليهم السلام كما قال تعالى (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء) الآية وقال تعالى (ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم) الآية وقال البخاري حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأ على » فقلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ « قال نعم إنني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) فقال « حسبك الآن » فإذا عيناه تذرفان ورواه هو ومسلم أيضاً من حديث الأعمش به وقد روى من طرق متعددة عن ابن مسعود فهو مقطوع به عنه ورواه أحمد من طريق أبي حيان وأبي رزين عنه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا الصلت بن مسعود الجحدري ، حدثنا فضيل بن سليمان ، حدثنا يونس بن محمد بن فضالة الأنصاري عن أبيه قال وكان أبي ممن صحب النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم في بني ظفر فجلس على الصخرة التي في بني ظفر اليوم ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه فأمر النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً فقرأ حتى أتى على هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ضرب لحياه وجنباه فقال يارب هذا شهدت على من أنا بين أظهرهم فكيف بمن لم أره وقال ابن جرير حدثني محمد بن عبد الله الزهري ، حدثنا سفيان عن السعودي

عن جعفر بن عمرو بن حرب عن أبيه عن عبد الله هو ابن مسعود في هذه الآية قال : قال رسول الله ﷺ : «شاهد عليهم مادمت فيهم فإذا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم» . وأما ما ذكره أبو عبد الله القرطبي في التذكرة حيث قال : باب ما جاء في شهادة النبي ﷺ على أمته قال أنا ابن المبارك أنا رجل من الأنصار عن المنهال بن عمرو أنه سمع سعيد بن المسيب يقول ليس من يوم إلا يعرض فيه على النبي ﷺ أمته غدوة وعشية فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم يقول الله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئناك على هؤلاء شهيدا) فانه أثر وفيه انقطاع فان فيه رجلا مبهما لم يسم وهو من كلام سعيد بن المسيب لم يرفعه وقد قبله القرطبي فقال بعد إيراده قد تقدم أن الأعمال تعرض على الله كل يوم اثنين وخميس وعلى الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة قال ولا تعارض فانه يحتمل أن يخص نبينا بما يعرض عليه كل يوم ويوم الجمعة مع الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام . وقوله تعالى (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا) أى لو انشقت وبلغتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ كقوله (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) الآية وقوله (ولا يكتمون الله حديثا) إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئا وقال ابن جرير حدثنا حاكم حدثنا عمرو عن مطرف عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال له سمعت الله عز وجل يقول يعنى إخباراً عن المشركين يوم القيامة إنهم قالوا (والله ربنا ما كنا مشركين) وقال في الآية الأخرى (ولا يكتمون الله حديثا) فقال ابن عباس أما قوله (والله ربنا ما كنا مشركين) فانهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا تعالوا فلنجحد فقالوا (والله ربنا ما كنا مشركين) فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم (ولا يكتمون الله حديثا) وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن رجل عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال جاء رجل إلى ابن عباس فقال : أشياء تختلف على في القرآن قال ما هو أشك في القرآن ؟ قال ليس هو بالشك ولكن اختلاف قال فهات ما أختلف عليك من ذلك ، قال أسمع الله يقول (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) وقال (ولا يكتمون الله حديثا) فقد كتموا . فقال ابن عباس أما قوله (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) فانهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يعاظمه ذنب أن يغفره ولا يغفر شر كاجحد للمشركون فقالوا (والله ربنا ما كنا مشركين) رجاء أن يغفر لهم فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك (يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا) وقال جوير عن الضحاك إن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال يا ابن عباس قول الله تعالى (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا) وقوله (والله ربنا ما كنا مشركين) فقال له ابن عباس إني أحسبك قتت من عند أصحابك ، فقلت ألقى على ابن عباس متشابه القرآن فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله تعالى يجمع الناس يوم القيامة في بقيع واحد فيقول المشركون إن الله لا يقبل من أحد شيئا إلا ممن وحده فيقولون تعالوا نجحد فيسألهم فيقولون (والله ربنا ما كنا مشركين) قال فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم وتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين . فعند ذلك يتمنون لو أن الأرض سويت بهم (ولا يكتمون الله حديثا) رواه ابن جرير

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر الذي لا يدري معه الصلوى ما يقول وعن قربان محالها التي هي المساجد للجنب إلا أن يكون مجتازا من باب إلى باب من غير مكث ؛ وقد كان هذا قبل تحريم الحجر كادل عليه الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى (يسألونك عن الحجر والميسر) الآية . فان رسول الله ﷺ تلاها على عمر فقال

« اللهم بين لنا في الحمر يانا شافيا » فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال « اللهم بين لنا في الحمر يانا شافيا » فكانوا لا يشربون الحمر في أوقات الصلوات حتى نزلت (يا أيها الذين آمنوا إنما الحمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) إلى قوله تعالى (فهل أأنتم منتهون) فقال عمر : اتبهينا انتهينا . وفي رواية إسرائيل عن أبي إسحق عن عمر بن شرحبيل عن عمر بن الخطاب في قصة تحريم الحمر فذكر الحديث وفيه . فنزلت الآية التي في النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فكان منادى رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادى أن لا يقربن الصلاة سكران لفظ أبي داود . وذكر ابن أبي شيبة في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا شعبة أخبرني سمالك بن حرب قال سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : نزلت في أربع آيات صنع رجل من الأنصار طعاما فدنا أناسا من المهاجرين وأناسا من الأنصار فأكلنا وشربنا حتى سكرنا ثم افتخرنا فرفع رجل لحى بعير فغرزها أنف سعد فكان سعد مغرور الأنف وذلك قبل تحريم الحمر فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأأنتم سكارى) الآية والحديث بطوله عند مسلم من رواية شعبة ورواه أهل السنن إلا ابن ماجه من طرق عن سمالك به (سبب آخر) قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكي حدثنا أبو جعفر عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمى عن طى بن أبي طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدنا وسقانا من الحمر فأخذت الحمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلانا قال فقرا : قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما نعبدون فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) هكذا رواه ابن أبي حاتم وكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد عن عبد الرحمن الدشتكى به وقال حسن صحيح وقد رواه ابن جرير عن محمد بن بشار عن عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن عن علي أنه كان هو وعبد الرحمن ورجل آخر شربوا الحمر فصلى بهم عبد الرحمن فقرا (قل يا أيها الكافرون) فخلط فيها فنزلت (لا تقربوا الصلاة وأأنتم سكارى) وهكذا رواه أبو داود والنسائي من حديث الثوري به ، رواه ابن جرير أيضا عن ابن حميد عن جرير عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمى قال : كان على في نفر من أصحاب النبي ﷺ في بيت عبد الرحمن بن عوف فطعموا فأتاهم بخمر فشربوها منها وذلك قبل أن يحرم الحمر فحضرت الصلاة فقدموا عليها فقرا بهم (قل يا أيها الكافرون) فلم يقرأها كما ينبغي فأنزل الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأأنتم سكارى) ثم قال حدثني الثنى ، حدثنا الحجاج بن النبال ، حدثنا حماد عن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن حبيب وهو أبو عبد الرحمن السلمى أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما وشربا فدنا نفرا من أصحاب النبي ﷺ فصلى بهم المغرب فقرا قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ، وأأنتم عابدون ما أعبد وأنا عبد ما عبدتم لكم دينكم ولي دين فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) وقال العوفي عن ابن عباس في الآية إن رجلا كانوا يأتون وهم سكارى قبل أن يحرم الحمر فقال الله (لا تقربوا الصلاة وأأنتم سكارى) الآية : رواه ابن جرير قال . وكذا قال أبو رزين ومجاهد وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : كانوا يجتنبون السكر عند حضور الصلوات ثم نسخ بتحريم الحمر وقال الضحاك في الآية لم يعن بها سكر الحمر وإنما عني بها سكر النوم رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ثم قال ابن جرير والصواب أن المراد سكر الشراب قال ولم يتوجه النهى إلى السكران الذى لا يفهم الخطاب لأن ذلك في حكم المجنون وإنما خوطب بالنهى التمثل الذى يفهم التكليف وهذا حاصل ما قاله وقد ذكره غير واحد من الأصوليين وهو أن الخطاب يتوجه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذى لا يدرك ما يقال له فإن الفهم شرط التكليف وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهى عن السكر بالكلية لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار فلا يتمكن شارب الحمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائما والله أعلم ، وعلى هذا فيكون كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام والداومة على الطاعة لأجل ذلك وقوله (حتى تعلموا ما تقولون) هذا أحسن ما يقال في حد السكران أنه الذى لا يدرك ما يقول فإن الخمر فيه تخليط في القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبي ، حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن أنس قال : قال رسول صلى الله

عليه وسلم « إذا نسي أحدكم وهو يصلي فلينصرف ولينم حتى يعلم ما يقول » انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم فرواه هو والنسائي من حديث أيوب به وفي بعض ألفاظ الحديث « فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه » وقوله (ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا) قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا عبد الرحمن الدشتكي أخبرنا أبو جعفر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس في قوله (ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا) قال لا تدخلوا المسجد وأتم جنب إلا عابري سبيل قال عمر بهراً ولا تجلس ثم قال وروى عن عبد الله بن مسعود وأنس وأبي عبيدة وسعيد بن المسيب والضحاك وعطاء ومجاهد ومسروق وإبراهيم النخعي وزيد بن أسلم وأبي مالك وعمرو بن دينار والحكم بن عتبة وعكرمة والحسن البصري ويحيى بن سعيد الأنصاري وابن شهاب وقتادة نحو ذلك وقال ابن جرير حدثنا الثني ، حدثنا أبو صالح ، حدثني الليث ، حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن قول الله عز وجل (ولا جنبا إلا عابري سبيل) إن رجلاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد فكانت تصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم فيردون الماء ولا يجدون ممراً إلا في المسجد فأنزل الله (ولا جنبا إلا عابري سبيل) ويشهد لصحة ما قاله يزيد بن أبي حبيب رحمه الله ما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال « سدوا كل خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر » وهذا قاله في آخر حياته صلى الله عليه وسلم علماً منه أن أبا بكر رضي الله عنه سبيل الأمر بعده ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمر المهمة فيما يصلح للمسلمين فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابه رضي الله عنه ومن روى إلا باب على كما وقع في بعض السنن فهو خطأ والصواب ما ثبت في الصحيح . ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد ويجوز له المرور وكذا الحائض والنفساء أيضاً في معناه إلا أن بعضهم قال يحرم مرورهما لاحتمال التلوث ومنهم من قال إن أمنت كل واحدة منهما التلوث في حال المرور جاز لها المرور وإلا فلا . وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ « ناوليني الحجر من المسجد » فقلت إني حائض فقال « إن حيضتك ليست في يدك » وله عن أبي هريرة مثله وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد والنفساء في معناها والله أعلم . وروى أبو داود من حديث أفلت بن خليفة العامري عن جصرة بنت دجاجة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب » قال أبو مسلم الخطابي . ضعف هذا الحديث جماعة وقالوا أفلت مجهول لكن رواه ابن ماجه من حديث أبي الخطاب الهجري عن محذوج النهدي عن جصرة عن أم سلمة عن النبي ﷺ به قال أبو زرعة الرازي يقول جصرة عن أم سلمة والصحيح جصرة عن عائشة ، فأما ما رواه أبو عيسى الترمذي من حديث سالم بن أبي حفصة عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « يا علي لا يحل لأحد يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك » فإنه حديث ضعيف لا يثبت فإن سالما هذا متروك وشيخه عطية ضعيف والله أعلم . (حديث آخر) في معنى الآية قال ابن أبي حاتم حدثنا النذر بن شاذان ، حدثنا عبد الله بن موسى أخبرني إسحق بن أبي ليلى عن النبال عن زر بن حبیش عن علي (ولا جنبا إلا عابري سبيل) قال لا يقرب الصلاة إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة فلا يجد الماء فيصلي حتى يجد الماء ، ثم رواه من وجه آخر عن النبال بن عمرو عن زر عن علي بن أبي طالب فذكره ، قال وروى عن ابن عباس في إحدى الروايات وسعيد بن جبير والضحاك نحو ذلك . وقد روى ابن جرير من حديث وكيع عن ابن أبي ليلى عن عباد بن عبد الله أو عن زر بن حبیش عن علي فذكره ، ورواه من طريق العوفي وأبي مجلز عن ابن عباس فذكره ، ورواه عن سعيد ابن جبير وعن مجاهد والحسن بن مسلم والحكم بن عتبة وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن مثل ذلك ، وروى من طريق ابن جرير عن عبد الله بن كثير قال كنا نسمع أنه في السفر . ويستشهد لهذا القول بالحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن من حديث أبي قلابة عن عمر بن نجدان عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم تجد الماء عشر حجج فإذا وجد الماء فأمسسه بشركك فإن ذلك خير لك » ثم قال ابن جرير بعد حكايته القولين والأولى قول من قال (ولا جنبا إلا عابري سبيل) أي إلا اجتازي طريق فيه وذلك أنه قد بين حكم

المسافر إذا عدم الماء وهو جنب في قوله (وإن كنتم مرضى أو على سفر) إلى آخره فكان معلوماً بذلك أن قوله (ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا) لو كان معنياً به المسافر لم يكن لاعادة ذكره في قوله (وإن كنتم مرضى أو على سفر) معنى مفهوم وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك ، فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا تقربوها أيضاً جنباً حتى تغتسلوا إلا عابري سبيل قال والعابر السبيل المجتاز مرا وقطعا يقال منه عبرت بهذا الطريق فأنا أعبره عبراً وعبوراً ومنه يقال عبر فلان النهر إذا قطعه وجاوزه ومنه قيل للناقة القوية على الأسفار هي عبر الأسفار لقوتها على قطع الأسفار وهذا الذي نصره هو قول الجمهور وهو الظاهر من الآية وكأنه تعالى نهى عن تعطى الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة وهي الجنابة المباحة للصلاة ولحلها أيضاً والله أعلم . وقوله (حتى تغتسلوا) دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة أبو حنيفة ومالك والشافعي أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم إن عدم الماء أو لم يقدر على استعماله بطريقه ، وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضع الجنب جاز له المكث في المسجد لما روى هو وسعيد بن منصور في سننه بسند صحيح أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك . قال سعيد بن منصور في سننه حدثنا عبد العزيز بن محمد هو الدراوردي عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم جنبون إذا توضأوا وضوء الصلاة . وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم والله أعلم وقوله (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طينياً) أما المرض المبيح للتيمم فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شئنه أو تطويل البرء ، ومن العلماء من جوز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل حدثنا قيس عن حفص ^(١) عن مجاهد في قوله (وإن كنتم مرضى) قال نزلت في رجل من الأنصار كان مريضاً فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ ولم يكن له خادم فينأوله فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فأنزل الله هذه الآية هذا مرسل والسفر معروف ولا فرق فيه بين الطويل والقصير وقوله (أو جاء أحد منكم من الغائط) الغائط هو المكان المظلم من الأرض كني بذلك عن التغوط وهو الحدث الأصغر وأما قوله (أو لامستم النساء) فقرأ لمستم ولا مستم واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك على قولين (أحدهما) أن ذلك كناية عن الجماع لقوله (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله (أو لمستم النساء) قال : الجماع . وروى عن علي وأبي بن كعب ومجاهد وطاوس والحسن وعبيد بن عمير وسعيد بن جبير والشعبي وقادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك وقال ابن جرير حدثني حميد بن مسعدة ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال ذكروا اللمس فقال ناس من الموالى ليس بالجماع وقال ناس من العرب اللمس الجماع قال فلقيت ابن عباس فقلت له إن ناساً من الموالى والعرب اختلفوا في اللمس فقالت الموالى ليس بالجماع وقالت العرب : الجماع قال : فمن أى الفريقين كنت ؟ قلت كنت من الموالى ، قال غلب فريق الموالى . إن اللمس واللس والبشارة : الجماع ولكن الله يكتفى بما شاء ثم رواه عن ابن بشار عن غندر عن شعبة بن نخوع ، ثم رواه من غير وجه عن سعيد بن جبير بنحوه ومثله قال حدثني يعقوب حدثنا هشيم قال أبو بشر أخبرنا سعيد بن جبير عن ابن عباس قال اللمس واللس والبشارة : الجماع ولكن الله يكتفى بما شاء : حدثنا عبد الحميد ابن بيان أنبأنا إسحاق الأزرق عن سفيان عن عاصم الأحول عن بكر بن عبد الله عن ابن عباس قال : اللامسة : الجماع ولكن الله كريم يكتفى بما يشاء وقد صح من غير وجه عن عبد الله بن عباس أنه قال ذلك ثم رواه ابن جرير عن بعض من حكاه ابن أبي حاتم عنهم ثم قال ابن جرير وقال آخرون عن الله تعالى بذلك كل من لمس يده أو غيرها من أعضاء الإنسان وأوجب الوضوء على كل من لمس شيئاً من جسده شيئاً من جسده مفضياً إليه ثم قال حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان

عن مخارق عن طارق عن عبد الله بن مسعود قال للمس ما دون الجماع وقد روى من طرق متعددة عن ابن مسعود مثله وروى من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: القبلة من المس وفيها الوضوء. وروى الطبراني بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال يتوضأ الرجل من الباشرة ومن المس بيده ومن القبلة وكان يقول في هذه الآية (أولا مستم النساء) هو الغمز وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عبد الله بن عمر عن نافع أن ابن عمر كان يتوضأ من قبلة المرأة ويرى فيها الوضوء ويقول هي من اللباس. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً من طريق شعبة عن مخارق عن طارق عن عبد الله قال: للمس ما دون الجماع ثم قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عمر وعبيدة وأبي عثمان النهدي وأبي عبيدة يعني ابن عبد الله بن مسعود وعامر الشعبي وثابت بن الحجاج وإبراهيم النخعي وزيد بن أسلم نحو ذلك (قلت) وروى مالك عن الزهري عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه أنه كان يقول: قبلة الرجل امرأته وجسه بيده من الملامسة فمن قبل امرأته أو جسها بيده فعله الوضوء وروى الحافظ أبو الحسن الدارقطني في سننه عن عمر بن الخطاب نحو ذلك، ولكن رويناه عنه من وجه آخر أنه كان يقبل امرأته ثم يصلي ولا يتوضأ فالراوية عنه مختلفة فيحمل ما قاله في الوضوء إن صح عنه على الاستحباب والله أعلم. والقول بوجوب الوضوء من المس هو قول الشافعي وأصحابه ومالك والمشهور عن أحمد بن حنبل قال ناصروه قد قرئ في هذه الآية لامستم ولمستم والمس يطلق في الشرع على الجس باليد قال تعالى (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم) أي جسوه وقال ﷺ لما عز حين أقربنا لربنا يعرض له بالرجوع عن الاقرار «لعلك قبلت أو لمست» وفي الحديث الصحيح «واليدزناها المس» وقالت عائشة رضي الله عنها: قل يوم إلا ورسول الله ﷺ يطوف علينا فيقبل ويلمس ومنه ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة وهو يرجع إلى الجس باليد على كلا التفسيرين قالوا: ويطلق في اللغة على الجس باليد كما يطلق على الجماع قال الشاعر * ولست كني كفه أطلب الغنى *

واستأنسوا أيضاً بالحديث الذي رواه أحمد، حدثنا عبد الله بن مهدي وأبو سعيد قالوا حدثنا زائدة عن عبد الملك ابن عمير قال أبو سعيد حدثنا عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ قال إن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال يا رسول الله ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها وليس يأتي الرجل من امرأته شيئاً إلا أتاه منها غير أنه لم يجامعها قال فأنزله الله عز وجل هذه الآية (أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل) قال فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «توضأ ثم صل» قال معاذ فقلت يا رسول الله أله خاصة أم للمؤمنين عامة؟ فقال «بل للمؤمنين عامة» ورواه الترمذي من حديث زائدة به وقال ليس يمتصل ورواه النسائي من حديث شعبة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسلًا قالوا: فأمره بالوضوء لأنه لمس المرأة ولم يجامعها: واجب بأنه منقطع بين ابن أبي ليلى ومعاذ فإنه لم يلقه ثم يحتمل أنه إنما أمره بالوضوء والصلاة المكتوبة كما تقدم في حديث الصديق «ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر الله له» الحديث وهو مذکور في سورة آل عمران عند قوله (ذكروا الله فاستغفروا لله نوبهم) الآية ثم قال ابن جرير وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال عني الله بقوله (أو لامستم النساء) الجماع دون غيره من معاني اللمس لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبل بعض نساءه ثم صلى ولم يتوضأ ثم قال حدثني بذلك إسماعيل بن موسى السدي قال أخبرنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن عروة عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ثم يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ ثم قال حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن الأعمش عن حبيب بن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعض نساءه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ، قلت من هي إلا أنت فضحكت وهكذا رواه أبو داود الترمذي وابن ماجه عن جماعة من مشايخهم عن وكيع به ثم قال أبو داود روى عن الثوري أنه قال ما حدثنا حبيب إلا عن عروة المزني، وقال يحيى القطان لرجل احك عني أن هذا الحديث شبيه لا شيء وقال الترمذي سمعت البخاري يضعف هذا الحديث وقال حبيب بن أبي ثابت لم يسمع من عروة وقد وقع في رواية ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة وعطي بن محمد الطنافسي عن وكيع عن الأعمش عن حبيب ابن أبي ثابت عن عروة بن الزبير عن عائشة، وأبلغ من ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث هشام بن عروة عن

أبيه عن عائشة وهذا نص في كونه عروة بن الزبير ويشهد له قوله من هي إلا أنت فضحكت لكن روى أبو داود عن إبراهيم بن مخلد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن أبي روق المحدثاني الطالقاني عن عبد الرحمن بن مغراء عن الأعمش قال حدثنا أصحاب لنا عن عروة الزني عن عائشة فذكره والله أعلم . وقال ابن جرير أيضا حدثنا أبو زيد عن عمر بن أنيس عن هشام بن عباد حدثنا مسدد^(١) بن علي عن ليث عن عطاء عن عائشة وعن أبي روق عن إبراهيم التيمي عن عائشة رضي الله عنها قالت كان النبي ﷺ ينال مني القبلة بعد الوضوء ثم لا يعيد الوضوء وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن أبي روق المحدثاني عن إبراهيم التيمي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قبل ثم صلى ولم يتوضأ رواه أبو داود والنسائي من حديث يحيى القطان زاد أبو داود وابن مهدي كلاهما عن سفيان الثوري به . ثم قال أبو داود والنسائي لم يسمع إبراهيم التيمي من عائشة ثم قال ابن جرير أيضا حدثنا سعيد بن يحيى الأموي حدثنا أبي حدثنا يزيد عن سنان عن عبد الرحمن الأزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبلها وهو صائم ثم لا يفطر ولا يحدث وضوءا . وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن زينب السهمية عن عائشة عن النبي ﷺ أنه كان يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ وقد رواه الإمام أحمد عن محمد بن فضيل عن حجاج ابن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن زينب السهمية عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم به وقوله تعالى (فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعد طلب الماء فحق طلبه فلم يجزه جازله حيثئذ التيمم وقد ذكرنا كيفية الطلب في كتب الفروع كما هو مقرر في موضعه كما في الصحيحين من حديث عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا معتزلا لم يصل مع القوم فقال «يا فلان ما منعك أن تصل مع القوم ألسنت برجل مسلم» قال بلى يا رسول الله ولكن أصابتني جنابة ولا ماء قال : «عليك بالصعيد فإنه يكفيك» ولهذا قال تعالى (فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) فالتيمم في اللغة هو القصد تقول العرب تيممك الله بحفظه أي قصدك ومنه قول امرئ القيس شعرا

ولما رأت أن النية وردها * وأن الحصى من تحت أقدامها دامي

تيممت العين التي عند ضارج * يقى عليها النية عزمها طامي

والصعيد قيل هو كل ما صعد على وجه الأرض فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والحجر والنبات وهو قول مالك وقيل ما كان من جنس التراب كالرمل والزرنيخ والنورة وهذا مذهب أبي حنيفة وقيل هو التراب فقط وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهما واحتجوا بقوله تعالى (فتصبح صعيدا زلقا) أي ترابا أملس طيبا وبما ثبت في صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فضلنا على الناس ثلاث جعلت صفوقنا كصفوف الملائكة . وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء» وفي لفظ «وجعل ترابها لنا طهورا إذا لم نجد الماء» قالوا فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان ، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه ، والطيب ههنا قيل الحلال وقيل الذي ليس بنجس كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث أبي قلابة عن عمرو بن نجدان عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصعيد الطيب طهور للمسلم إن لم يجد الماء عشر حجج فإذا وجده فليمسه بشرته فإن ذلك خير له» وقال الترمذي حسن صحيح وصححه ابن حبان أيضا ورواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن أبي هريرة وصححه الحافظ أبو الحسن القطان وقال ابن عباس أطيب الصعيد تراب الحرث رواه ابن أبي حاتم ورفع ابن مردويه في تفسيره وقوله (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) التيمم بدل عن الوضوء في التطهير به لا أنه بدل منه في جميع أعضائه ، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال أحدها وهو مذهب الشافعي في الجديد أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقها على ما يبلغ للتكبير وعلى ما يبلغ المرفقين كما في آية الوضوء ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفين كما في آية السركة (فاقطعوا أيديهما) قالوا وحمل ما أطلق ههنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية ،

(١) في نسخة الأزهري : منديل بن عدي .

وذكر بعضهم ما رواه الدارقطني عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « التيمم ضربتان ، ضربة للوجه ، وضربة لليدين إلى المرفقين » ولكن لا يصح لأن في إسناده ضعفا لا يثبت الحديث به ، وروى أبو داود عن ابن عمر في حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب يده على الخائط ومسح بها وجهه ، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ولكن في إسناده محمد بن ثابت العبدي وقد ضعفه بعض الحفاظ ورواه غيره من الثقات فوقه على فعل ابن عمر قال البخاري وأبو زرعة وابن عدى هو الصحيح وهو الصواب ، وقال البيهقي رفع هذا الحديث منكر واحتج الشافعي بما رواه عن إبراهيم بن محمد عن أبي الحويرث عن عبد الرحمن بن معاوية عن الأعرج عن ابن الصمة أن رسول الله ﷺ تيمم فمسح وجهه وذراعيه . وقال ابن جرير حدثني موسى بن سهل الرملي حدثنا نعيم ابن حماد حدثنا خارجة بن مصعب عن عبد الله بن عطاء عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبي جهيم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبول فسلمت عليه فلم يرد علي السلام حتى فرغ ، ثم قام إلى الخائط فضرب بيده عليه فمسح بهما وجهه ثم ضرب بيده على الخائط فمسح بهما يديه إلى المرفقين ثم رد علي السلام . والقول الثاني أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين وهو قول الشافعي في القديم . والثالث أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن الحكم عن زر عن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه أن رجلا أتى عمر فقال : إني أجنب فلم أجد ماء ؛ فقال عمر لا تصل قال عمار أما تذكر يا أمير المؤمنين إذا أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء فأما أنت فلم تصل ، وأما أنا فتمسكت في التراب فصليت فلما أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له فقال « إنما كان يكفيك وضرب النبي صلى الله عليه وسلم يده الأرض ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه » قال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا أبان حدثنا قتادة عن عروة عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه عن عمار أن رسول الله ﷺ قال « في التيمم ضربة للوجه والكفين » . (طريق أخرى) قال أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد عن سليمان الأعمش حدثنا شقيق قال : كنت قاعدا مع عبدالله وأبي موسى فقال أبو يعلى لعبد الله : لو أن رجلا لم يجد الماء لم يصل ؟ فقال عبد الله ألا تذكر ما قال عمار لعمر ألا تذكر إذ بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم وإياك في إبل فأصابتني جنابة فتمرغت في التراب فلما رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرته فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « إنما كان يكفيك أن تقول هكذا وضرب بكفيه إلى الأرض ثم مسح كفيه جميعا ومسح وجهه مسحة واحدة بضربة واحدة » فقال عبد الله لاجرم ما رأيت عمر قنع بذلك قال : فقال له أبو موسى فكيف بهذه الآية في سورة النساء (فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) قال فما درى عبد الله ما يقول وقال : لو رخصنا لهم في التيمم لأوشك أحدهم إذا برد الماء على جلده أن يتيمم : وقال في المائدة (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) فقد استدلل بذلك الشافعي على أنه لا بد في التيمم أن يكون بتراب طاهر له غبار يعلق بالوجه واليدين منه شيء كما روى الشافعي بإسناده المتقدم عن ابن الصمة أنه مر بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يبول فسلم عليه فلم يرد عليه حتى قام إلى جدار فحتمه بعضا كانت معه فضرب يده عليه فمسح بها وجهه وذراعيه . وقوله (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) أي في الدين الذي شرعه لكم (ولكن يريد ليظهركم) فهذا أبلغ التيمم إذا لم تجدوا الماء أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد والتيمم نعمة عليكم لعلمكم تشكرون ولهذا كانت هذه الأمة مخصوصة بمشروعية التيمم دون سائر الأمم كما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ؛ وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، فأيا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل » وفي لفظ « فعنده مسجده وطهوره ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة وكان يبعث النبي إلى قومه وبعثت إلى الناس كافة » وتقدم في حديث حذيفة عند مسلم « فضلنا على الناس بثلاث ، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ؛ وجعلت لنا الأرض مسجدا وترتبتها طهورا إذا لم نجد الماء » وقال تعالى في هذه الآية الكريمة (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا) أي ومن عفوه عنكم وغفرانه لكم أن شرع

لكم التيمم وأباح لكم فعل الصلاة به إذا تقدمتم الماء توسعة عليكم ورخصة لكم ، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة من سكر حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول ، أو جنابة حتى يغتسل ، أو حدث حتى يتوضأ إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء ، فإن الله عز وجل قد أرحم في التيمم والحالة هذه رحمة بعباده ورأفة بهم ، وتوسعة عليهم والله الحمد والمنة

(ذكر سبب نزول مشروعية التيمم) وإنما ذكرنا ذلك ههنا لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة ويانه أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر ، والخمر إنما حرم بعد أحد ييسر في محاصرة النبي صلى الله عليه وسلم لبني النضير ، وأما المائدة فإنها من آخر ما نزل ولا سيما صدرها فناسب أن يذكر السبب هنا وبالله الثقة . قال أحمد حدثنا ابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت فبعث رسول الله ﷺ رجلاً في طلبها فوجدوها فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء فصولها بغير وضوء فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله آية التيمم فقال أسيد بن الحضير لعائشة جزاك الله خيراً فوالله ما نزل بك أمرتكرهينه لإجل الله لك وللمسلمين فيه خيراً (طريق أخرى) قال البخاري حدثنا عبد الله بن يوسف أنبأنا مالك عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة

قالت خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقدي فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا ألا ترى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع رأسه على فخذي قد نام فقال حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت عائشة فعاتبني أبو بكر وقال ماشاء الله أن يقول وجعل يطعن بيده في خاصرتي ولا يمنعني من التحرك إلا مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذي فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على غير ماء حين أصبح فأنزل الله آية التيمم فتمعنوا فقال أسيد بن الحضير ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر قالت فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته وقد رواه البخاري أيضاً عن قتيبة عن إسماعيل ورواه مسلم عن يحيى بن يحيى عن مالك (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن صالح قال ابن شهاب حدثني عبيد الله بن عبد الله

عن ابن عباس عن عمار بن ياسر أن رسول الله ﷺ عرس بذات الجيش ومعه زوجته عائشة فانقطع عقد لها من جزع ظفار فحبس الناس ابتغاء عقدها ذلك حتى أضاء الفجر وليس مع الناس ماء فأنزل الله على رسوله رخصة التطهير بالصعيد الطيب فقام المسلمون مع رسول الله ﷺ فضربو بأيديهم إلى الأرض ثم رفعوا أيديهم ولم ينفذوا من التراب شيئاً فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب ، ومن بطون أيديهم إلى الآباط . وقد روى ابن جرير : حدثنا أبو كريب بإسناده إلى ابن أبي القيثان قال كنا مع رسول الله ﷺ فهلك عقد لعائشة فأقام رسول الله ﷺ حتى أضاء الفجر فتغيظ أبو بكر على عائشة فنزلت عليه رخصة المسح بالصعيد الطيب فدخل أبو بكر فقال لها : إنك لمباركة نزلت فيك رخصة فضربنا بأيدينا ضربة لوجوهنا ، وضربة لأيدينا إلى المناكب والآباط (حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا

الليث حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا العباس بن أبي سريّة^(١) حدثني الهيثم عن زريق^(٢) المالك بن كعب بن سعد وعاش مائة وسبعة عشر^(٣) سنة عن أبيه عن الأسلع بن شريك قال كنت أرحل ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابني جنابة في ليلة باردة وأراد رسول الله ﷺ الرحلة فكرهت أن أرحل ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جنب وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأمرت رجلاً من الأنصار فرحّلها ، ثم رصفت أحجاراً فأسخنت بها ماء واغتسلت . ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه فقال « يا أسلع مالي أرى رحلتك قد تغيرت » قلت يا رسول الله لم أرحلها ، رحلها رجل من الأنصار ، قال « ولم ؟ » قلت إني أصابني جنابة فخشيت القرع على نفسي فأمرته أن يرحلها ورضفت أحجاراً فأسخنت بها ماء فاغتسلت به ، فأنزل الله تعالى (لا تقربوا الصلاة وأتم

(١) في نسخة الأزهر : سوية . (٢) وفيها ابن زريق ، وفي نسخة ابن زريق . (٣) هكذا في النسخ والصواب وسبع عشرة كما لا يخفى

سكاري حتى تعلموا ما تقولون) إلى قوله (إن الله كان عفوا غفورا) وقد روى من وجه آخر عنه

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا * مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم إلى القيامة - أنهم يشترون الضلالة بالهدى ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد صلى الله عليه وسلم ليشتروا به ثمنا قليلا من حطام الدنيا (ويريدون أن تضلوا السبيل) أى يودون لو تكفروا بما أنزل عليكم أيها المؤمنون وتتركون ما أتم عليه من الهدى والعلم النافع (والله أعلم بأعدائكم) أى هو أعلم بهم ويحذركم منهم (وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) أى كفى به وليا لمن لجأ إليه ونصيرا لمن استنصره . ثم قال تعالى (من الذين هادوا) من في هذا ليلان الجنس كقوله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) وقوله (يحرفون الكلم عن مواضعه) أى يتأولونه على غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصدا منهم وإفراء (ويقولون سمعنا) أى سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه هكذا فسرهم مجاهد وابن زيد وهو المراد وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم وأنهم يقولون عن كتاب الله بعد ما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة وقولهم (واسمع غير مسمع) أى اسمع ما تقول لا سمعت رواه الضحاك عن ابن عباس وقال مجاهد والحسن : واسمع غير مقبول منك قال ابن جرير والأول أصح وهو كما قال وهذا استهزاء منهم واستهزاء عليهم لعنة الله (وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين) أى يوهمون أنهم يقولون راعنا سمعك بقولهم راعنا وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا) ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه ليا بألسنتهم وطعنا في الدين يعنى بسبهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال تعالى (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرونا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) أى قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم وقد تقدم الكلام على قوله تعالى (قليلا ما يؤمنون) والمقصود أنهم لا يؤمنون إيمانا نافعا

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

يقول تعالى أمرا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذى فيه تصديق الأخبار التى بأيديهم من البشارات ومتهدد لهم إن لم يفعلوا بقوله (من قبل أن نطمس وجوها فنردّها على أدبارها) قال بعضهم معناه من قبل أن نطمس وجوها فطمسها هو ردها إلى الأدبار وجعل أبصارهم من ورائهم ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن نطمس وجوها فلا نبقى لها سمعا ولا بصرا ولا أنفا ومع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار . وقال العوفي عن ابن عباس فى الآية وهى (من قبل أن نطمس وجوها) وطمسها أن تعمى (فنردها على أدبارها) يقول نجعل وجوههم من قبل أفتيتهم فيمشون القهقري ونجعل لأحدهم عينين من قفاه ، وكذا قال قتادة وعطية العوفي وهذا أبلغ

في العقوبة والنكال وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحبة البيضاء إلى سبيل الضلالة يهرعون ويمشون القهقري على أدبارهم وهذا كما قال بعضهم في قوله (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقحمون وجعلنا من أيديهم سداً) الآية أي هذا مثل سوء ضربه الله لهم في ضلالهم ومنعهم عن الهدى قال مجاهد : من قبل أن نطمس وجوها يقول عن صراط الحق فتردها على أدبارها أي في الضلال قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عباس والحسن نحو هذا قال السدي فتردها على أدبارها فنمنعها عن الحق قال ترجعها كفاراً ونردهم قردة قال أبو زيد فردهم إلى بلاد الشام من أرض الحجاز . وقد ذكر أن كعب الأبحر أسلم حين سمع هذه الآية . قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا جابر بن نوح عن عيسى بن المغيرة قال تذاكرنا عند إبراهيم أسلم كعب زمان عمر أبل وهو يريد بيت المقدس فمر على المدينة فخرج إليه عمر فقال يا كعب أسلم فقال ألسنتم تقولون في كتابكم (مثل الذين حملوا التوراة - إلى - أسفاراً) وأنا قد حملت التوراة قال فتركه عمر ثم خرج حتى انتهى إلى حمص فسمع رجلاً من أهلها حزينا وهو يقول (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فتردها على أدبارها) الآية قال كعب يا رب أسلمت مخافة أن تصيبه هذه الآية ثم رجع فأتى أهله في اليمن ثم جاء بهم مسلمين وكذا رواه ابن أبي حاتم بلفظ آخر من وجه آخر فقال : حدثنا أبي حدثنا ابن قنيل حدثنا عمرو بن واقد عن يونس ابن حليس عن أبي إدريس عائذ الله الحولاني قال كان أبو مسلم الجليلي معهم كعب وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبعثه إليه ينظر أهو هو قال كعب فركبت حتى أتيت المدينة فإذا تال يقرأ القرآن يقول (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فتردها على أدبارها) فبادرت الماء فاغتسلت وإني لأمس وجهي مخافة أن أطمس ثم أسلمت وقوله (أو نلغهم كما لغنا أصحاب السبت) يعني الذين اعتدوا في سببهم بالحيلة على الاصطياد وقد مسخوا قردة وخنزير وسبأ بسط قصتهم في سورة الأعراف وقوله (وكان أمر الله مفعولاً) أي إذا أمر بأمر فانه لا يخالف ولا يمانع . ثم أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به أي لا يغفر لعبده لقيه وهو مشرك به ويغفر ما دون ذلك أي من الذنوب لمن يشاء أي من عباده وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر (الحديث الأول) قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هرون حدثنا صدقة بن موسى حدثنا أبو عمران الجوني عن يزيد ابن أبي موسى عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدواوين عند الله ثلاثة ، ديوان لا يعبأ الله به شيئاً ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وديوان لا يغفره الله فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله ، قال الله عز وجل (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية وقال (انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة) وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله من صوم يوم تركه أو صلاة فإن الله لا يغفر ذلك ويتجاوز ان شاء ، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً القصاص لا محالة » تفرد به أحمد (الحديث الثاني) قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا أحمد بن مالك حدثنا زائدة بن أبي الزناد النمري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال «الظلم ثلاثة ، ظلم لا يغفره الله وظلم يغفره الله ، وظلم لا يترك الله منه شيئاً : فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك وقال (إن الشرك لظلم عظيم) وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم ، وأما الظلم الذي لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين لبعضهم من بعض » (الحديث الثالث) قال الإمام أحمد : حدثنا صفوان ابن عيسى حدثنا ثور بن يزيد عن أبي عون عن أبي إدريس قال سمعت معاوية يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» ورواه النسائي عن محمد بن مني عن صفوان بن عيسى به

(الحديث الرابع) قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا عبد الحميد حدثنا شهر حدثنا ابن تميم أن أبان حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله يقول : يا عبدي ما عبدتني ورجوتني فإني غافرك على ما كان منك ، يا عبدي إنك إن لقيت بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لقيت بكبراً مغفرة» تفرد به أحمد من هذا

الوجه (الحديث الخامس) قال الامام أحمد : حدثنا عبد الصمد حدثنا أبي حدثنا حسين بن بريدة أن يحيى بن يعمر حدثه أن أبا الأسود الديلمي حدثه أن أبا ذر حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق ، قال وإن زنى وإن سرق قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق ثلاثا ، ثم قال في الرابعة على رغم أنف أبي ذر » قال فخرج أبوذر وهو يحرق إزاره وهو يقول : وإن رغم أنف أبي ذر ، وكان أبوذر يحدث بهذا بعد ويقول . وإن رغم أنف أبي ذر . أخرجاه من حديث حسين به (طريق أخرى) لحديث أبي ذر قال أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن أبي ذر قال كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة المدينة عشاء ونحن ننظر إلى أحد فقال « يا أباذر » قلت ليلىك يا رسول الله قال « ما أحب أن لى أحداً ذلك عندى ذهباً أمسى ثالثة وعندى منه دينار إلا ديناراً أرصده يعنى لدين الا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا » فحشا عن يمينه وعن يساره وبين يديه قال ثم مشينا فقال « يا أباذر إن الأكرهين هم الاقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا » فحشا عن يمينه وعن يساره ، قال ثم مشينا فقال « يا أباذر كما أنت حتى آتيك » قال فانطلق حتى توارى عني ، قال فسمعت لفظا فقلت لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض له قال فهممت أن أتبعه ، قال فذكرت قوله لا تبرح حتى آتيك فانتظرت حتى جاء فذكرت له الذى سمعت فقال « ذاك جبريل أتانى فقال من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » قلت وإن زنى وإن سرق ، قال « وإن زنى وإن سرق » أخرجاه فى الصحيحين من حديث الأعمش به ، وقد رواه البخارى ومسلم أيضا كلاهما عن قتيبة عن جرير بن عبد الحميد عن عبد العزيز بن رفيع عن زيد بن وهب عن أبي ذر قال : خرجت ليلة من الليالى فإذا رسول الله ﷺ يمشى وحده ليس معه إنسان قال فظننت أنه يكره أن يمشى معه أحد ، قال فجعلت أمشى فى ظل القمر فالتفت فرأى فقال « من هذا » فقلت أبوذر جعلنى الله فداك قال « يا أباذر تعال » قال فمشيت معه ساعة فقال « ان الكثيرين هم القلون يوم القيامة الا من أعطاه الله خيرا فجعل يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا » قال فمشيت معه ساعة فقال لى « اجلس ههنا » فأجلسنى فى قاع حوله حجارة فقال لى « اجلس ههنا حتى أرجع اليك » قال فانطلق فى الحرة حتى لأراه فلبث عني حتى إذا طال اللبث ثم إنى سمعته وهو مقبل وهو يقول « وإن زنى وإن سرق » قال فلما جاء لم أصبر حتى قلت يابني الله جعلنى الله فداك من تكلم فى جانب الحرة فإنى سمعت أحدا يرجع اليك قال « ذاك جبريل عرض لى من جانب الحرة فقال بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت يا جبريل وإن سرق وإن زنى قال نعم قلت وإن سرق وإن زنى قال نعم قلت وإن سرق وإن زنى قال نعم وان شرب الخمر » (الحديث السادس) قال عبد بن حميد فى مسنده حدثنا عبد الله بن موسى عن ابن أبي ليلي عن أبي الزبير عن جابر قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما اللوجبتان قال « من مات لا يشرك بالله شيئا وجبت له الجنة ومن مات يشرك بالله شيئا وجبت له النار » تفرد به من هذا الوجه وذكر تمام الحديث (طريق أخرى) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا الحسن بن عمرو بن خلاد الحراى حدثنا منصور بن إسماعيل القرشى حدثنا موسى بن عبيدة الترمذى أخبرنى عبد الله بن عبيدة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « مامن نفس تموت لا تشرك بالله شيئا إلا حلت لها المغفرة إن شاء الله عذبتها وإن شاء غفر لها (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) » ورواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده من حديث موسى بن عبيدة عن أخيه عبد الله بن عبيدة عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب » قيل يابني الله وما الحجاب ؟ قال « الإشراف بالله » قال - مامن نفس تلقى الله لا تشرك به شيئا إلا حلت لها المغفرة من الله تعالى إن شاء أن يعذبها وإن شاء أن يغفر لها » ثم قرأ نبي الله (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (الحديث السابع) قال الإمام أحمد حدثنا أبو نعيم حدثنا زكريا عن عطية عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » تفرد به من هذا الوجه (الحديث الثامن) قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو قبيل عن

عبد الله بن ناسر من بنى سريخ قال سمعت أبا رهم قاص أهل الشام يقول سمعت أبا أيوب الأنصاري يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم إليهم فقال لهم إن ربكم عز وجل خيرني بين سبعين ألفا يدخلون الجنة عفوا بغير حساب وبين الخبيثة عنده لأمتي فقال له بعض أصحابه يارسول الله أئجأ ذلك ربك ؟ فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج وهو يكبر فقال « إن ربي زادني مع كل ألف سبعين ألفا والخبيثة عنده » قال أبو رهم يا أبا أيوب وما تظن خبيثة رسول الله ﷺ فأكله الناس بأفواههم فقالوا : وما أنت وخبيثة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو أيوب : دعوا الرجل عنكم أخبركم عن خبيثة رسول الله ﷺ كما أظن ، بل كالمستيقن إن خبيثة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله مصدقا لسانه قلبه دخل الجنة » (الحديث التاسع) قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا مؤمل بن الفضل الحراني حدثنا عيسى بن يونس ح وأخبرنا هاشم ابن القاسم الحراني فيما كتب إلي حدثنا عيسى بن يونس نفسه عن واصل بن السائب الرقاشي عن أبي سورة ابن أخي أبي أيوب الأنصاري عن أبي أيوب قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام قال « وما دينه » قال يصلي ويوحده الله تعالى قال « استوهب منه دينه ، فإن أبي فابتعه منه » فطلب الرجل ذلك منه فأبى عليه ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال « وجدته شحيحا على دينه » قال : فنزلت (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) . (الحديث العاشر) قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا عمرو بن الضحاك حدثنا أبي حدثنا أبو همام الهنائي حدثنا ثابت عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ما تركت حاجة ولا ذا حاجة إلا قد أتميت ، قال « أليس تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ثلاث مرات قال نعم ، قال « فإن ذلك يأتي على ذلك كله » . (الحديث الحادي عشر) قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر حدثنا عكرمة ابن عمار عن ضمضم بن جوش اليمامي قال : قال لي أبو هريرة ياعمى لا تقولن لرجل لا يغفر الله لك ، أو لا يدخلك الجنة أبدا . فقلت يا أبا هريرة إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب ، قال لا تقلها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « كان في بنى إسرائيل رجلان أحدهما مجتهد في العبادة وكان الآخر مسرفا على نفسه وكنا متآخيين وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على الذنب فيقول ياهذا أقصر ، فيقول خلني وربى أبعت على رقيباً إلى أن رآه يوما على ذنب استعظمه فقال له ويحك أقصر قال خلني وربى أبعت على رقيباً ، فقال والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الجنة أبدا ، قال فبعث الله إليهما ملكا فقبض أرواحهما واجتمعا عنده فقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتي وقال للآخر أكنت عالما ، أكنت على ما في يدي قادرا اذهبوا به إلى النار قال والذي نفس أبي القاسم بيده إنه لتكلم بكلمة أوبقت ديناه وآخرته » ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار حدثني ضمضم بن جوش به (الحديث الثاني عشر) قال الطبراني حدثنا أبو الشيخ عن محمد بن الحسن بن عجلان الأصفهاني حدثنا سامة بن شبيب حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قال الله عز وجل : من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شيئا » . (الحديث الثالث عشر) قال الحافظ أبو بكر البرار والحافظ أبو يعلى حدثنا هديبة هو ابن خاله حدثنا سهل بن أبي حازم عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من وعده الله على عمل ثوابا فهو منجزه له ، ومن توعدته على عمل عقابا فهو فيه بالخيار » تفردا به وقال ابن أبي حاتم حدثنا بحر بن نصر الخولاني حدثنا خالد يعني ابن عبد الرحمن الحراساني حدثنا الهيثم بن حماد عن سلام بن أبي مطيع عن بكر بن عبد الله المزني عن ابن عمر قال كنا أصحاب النبي ﷺ لانشكل في قاتل النفس وآكل مال اليتيم وقاذف المحصنات وشاهد الزور حتى نزلت هذه الآية (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فأمسك أصحاب النبي ﷺ عن الشهادة ورواه ابن جرير من حديث الهيثم بن حماد به وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا عبد الملك ابن أبي عبد الرحمن المقرئ حدثنا عبد الله بن عاصم حدثنا صالح يعني المري حدثنا أبو بشر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال كنا لانشكل فيمن أوجب الله النار في الكتاب حتى نزلت علينا هذه الآية (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)

قال فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله عز وجل . وقال البراز حدثنا محمد بن عبد الرحمن حدثنا شيان ابن أبي شيبة حدثنا حرب بن شريح عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا نبينا ﷺ يقرأ (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقال « أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمي يوم القيامة » وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع أخبرني جابر عن عبد الله بن عمر أنه قال : لما نزلت (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) إلى آخر الآية قام رجل فقال والشرك بالله يابني الله ؟ فكره ذلك رسول الله ﷺ فقال (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) رواه ابن جرير ، وقد رواه ابن مردويه من طرق عن ابن عمر ، وهذه الآية التي في سورة تنزيل مشروطة بالتوبة ، فمن تاب من أي ذنب وإن تكرر منه تاب الله عليه ، ولهذا قال (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) أي بشرط التوبة ، ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه ولا يصح ذلك لأنه تعالى قد حكم ههنا بأنه لا يغفر الشرك وحكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء ، أي وإن لم يتب صاحبه فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه والله أعلم . وقوله (ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) كقوله (إن الشرك لظلم عظيم) وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال : قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال « أن تجعل الله ندا وهو خلقك » وذكر تمام الحديث : وقال ابن مردويه حدثنا إسحق بن إبراهيم بن زيد حدثنا أحمد بن عمرو حدثنا إبراهيم بن النضر حدثنا معن حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن بن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال « أخبركم بأكبر الكبائر الإشراف بالله » ثم قرأ (ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) « وعقوق الوالدين » ثم قرأ (أن أشكر لي ولوالديك إلى المصير)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُلْظَمُونَ فِتْيَلًا * أَنْظَرُ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْمَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾

قال الحسن وقتادة نزلت هذه الآية وهي قوله (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) في اليهود والنصارى حين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه . وفي قولهم (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) ، وقال مجاهد : كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمنونهم ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم ، وكذا قال عكرمة وأبو مالك وروى ذلك ابن جرير ، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) وذلك أن اليهود قالوا : إن أبناءنا توفوا وهم لنا قربة ويشفعون لنا ويزكونا فأنزل الله على محمد (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) الآية ورواه ابن جرير ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن مصفى حدثنا ابن حمير عن ابن لهيعة عن بشر بن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم ، ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب . وكذبوا قال الله إن لا اظهر ذا ذنب بآخرة لا ذنب له ، وأنزل الله (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) ثم قال وروى عن مجاهد وأبي مالك والسدي وعكرمة والضحاك نحو ذلك ، وقال الضحاك : قالوا ليس لنا ذنوب كما ليس لأبنائنا ذنوب فأنزل الله (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) فيهم وقيل نزلت في دم التماح والتزكية ؛ وفي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب : وفي الصحيحين من طريق خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يثني على رجل فقال « ويحك قطعت

عنق صاحبك» ثم قال « إن كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل أحسبه كذا ولا يركى على الله أحدا» وقال الإمام أحمد حدثنا معتمر عن أبيه عن نعيم بن أبي هند قال : قال عمر بن الخطاب : من قال أنا مؤمن فهو كافر ؛ ومن قال هو عالم فهو جاهل ، ومن قال هو في الجنة فهو في النار ، ورواه ابن مردويه من طريق موسى بن عبيدة عن طلحة بن عبيد الله ابن كريب عن عمر أنه قال : إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه ، فمن قال إنه مؤمن فهو كافر ، ومن قال هو عالم فهو جاهل ، ومن قال هو في الجنة فهو في النار . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة حدثنا حجاج أنبأنا شعبة عن سعد بن إبراهيم عن معبد الجهني قال : كان معاوية قبا كان يحدث عن النبي ﷺ قال وكان قبا يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبي ﷺ يقول « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإن هذا المال حلو خضر ، فمن يأخذه بحقه يشاركه فيه ، وإياكم والتماح فانه الذبح » وروى ابن ماجه منه « إياكم والتماح فانه الذبح » عن أبي بكر بن أبي شيبة عن غندر عن شعبة به ، ومعبد هذا هو ابن عبد الله بن عويم البصري القدرى ، وقال ابن جرير حدثنا يحيى بن إبراهيم المسعودى حدثني أبي عن أبيه عن جده عن الأعمش عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : قال عبد الله بن مسعود : إن الرجل ليفدو دينه ثم يرجع وما معه من شيء يلقي الرجل ليس يملك له ضرا ولا نفعا فيقول له : إنك والله كيت وكيت فلعله أن يرجع ولم يحظ من حاجته بشيء وقد أسخطا الله ، ثم قرأ (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) الآية ، وسيأتي الكلام على ذلك مطولا عند قوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) ولهذا قال تعالى (بل الله يركى من يشاء) أى المرجع فى ذلك إلى الله عز وجل لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوا مضها ، ثم قال تعالى (ولا يظالمون فتىلا) أى ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار القليل قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وغير واحد من السلف هو ما يكون فى شق النواة . وعن ابن عباس أيضا هو ما قتل بين أصابعك وكلا القولين متقارب وقوله (انظر كيف يفترون على الله الكذب) أى فى تركيبتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) وقولهم (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) واتكلمهم على أعمال آبائهم الصالحة وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزى عن الأبناء شيئا فى قوله (تلك أمة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم) الآية ثم قال (وكفى به إثما مبينا) أى وكفى بصنيعهم هذا كذبا وافتراء ظاهرا وقوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) أما الجبت فقال محمد بن إسحق عن حسان بن قائد عن عمر بن الخطاب أنه قال الجبت السحر ؛ والطاغوت الشيطان وهكذا روى عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبيرة والشعبي والحسن والضحاك والسدى وعن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبيرة والشعبي والحسن وعطية : الجبت الشيطان ، وزاد ابن عباس بالحشية وعن ابن عباس أيضا : الجبت الشرك . وعنه الجبت الأصنام وعن الشعبي الجبت الكاهن ، وعن ابن عباس الجبت حي بن أخطب . وعن مجاهد الجبت كعب بن الأشرف وقال العلامة أبو نصر بن إسماعيل بن حماد الجوهري فى كتابه الصحاح : الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك . وفى الحديث « الطيرة والعيافة والطرق من الجبت » قال وليس هذا من محض العربية لاجتماع الجيم والتاء فى كلمة واحدة من غير حرف ذولقى ، وهذا الحديث الذى ذكره ، رواه الإمام أحمد فى مسنده فقال حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف بن حيان ابن العلاء حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه وهو قبيصة بن مخارق أنه سمع النبي ﷺ قال « إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت » وقال عوف : العيافة زجر الطير والطرق الخط يخط فى الأرض والجبت قال الحسن رنة الشيطان وهكذا رواه أبو داود فى سننه والنسائى وابن أبي حاتم فى تفسيره من حديث عوف الأعرابي به . وقد تقدم الكلام على الطاغوت فى سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إسحق بن الصيف حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله أنه سئل عن الطواغيت فقال : هم كهان تنزل عليهم الشياطين وقال مجاهد : الطاغوت الشيطان فى صورة إنسان يتحاكمون اليه وهو صاحب أمرهم وقال الإمام مالك : هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل

وقوله (ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) أى يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم ، وقلة دينهم ، وكفرهم بكتاب الله الذى بأيديهم . وقد روى ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا سفيان عن عمرو بن عكرمة قال جاء حبي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم أتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد فقالوا ما أتم وما محمد فقالوا نحن نصل الأرحام . ونحرق الكوماء ، ونسقى الماء على اللبن ، ونفك العاني ، ونسقى الحبيج ومحمد صنبور قطع أرحامنا واتبه سراق الحبيج من غفار فنحن خير أم هو ؟ فقالوا أتم خير وأهدى سبيلا فأنزل الله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا) الآية وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس وجماعة من السلف . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبى عدى عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش : ألا ترى هذا الصنبور النبت من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحبيج وأهل السدانة ، وأهل السقاية قال أتم خير قال فنزلت (إن شئت هو الأبر) ونزل (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب - إلى - نصيبا) وقال ابن إسحق حدثني محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وخطفان وبنى قريظة حبي بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وأبو رافع والريبع بن أبى الحقيق وأبو عامر ووحوح بن عامر وهودة بن قيس . فأما وحوح وأبو عامر وهودة فمن بنى وائل وكان سائرهم من بنى النضير فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول فأسألوهم أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم فقالوا أدينكم خير من دينه وأتم أهدى منه ومن اتبعه فأنزل الله عز وجل (ألم تر إلى الذين أوتوا من الكتاب) إلى قوله عز وجل (وآتيناهم ملكا عظيما) وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حضر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا)

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ قِتِيرًا ﴾ * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿

يقول تعالى أم لهم نصيب من الملك وهذا استفهام إنكارى أى ليس لهم نصيب من الملك ثم وصفهم بالبخل فقال فإذا لا يؤتون الناس قتيلا أى لأنهم لو كان لهم نصيب فى الملك والتصرف لما أعطوا أحدا من الناس ولا سيما محمدا صلى الله عليه وسلم شيئا ولا ما يملأ القبر وهو النقطة التى فى النواة فى قول ابن عباس والأكثرين . وهذه الآية كقوله تعالى (قل لو أتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكم خشية الإنفاق) أى خوف أن يذهب ما بأيديكم مع أنه لا يتصور نقاده وإنما هو من بخلكم وشحكم ولهذا قال تعالى (وكان الإنسان قتورا) أى بخيلا ثم قال (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) يعنى بذلك حسدهم النبي صلى الله عليه وسلم على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، ومنهم من تصديقه إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بنى إسرائيل . وقال الطبرانى حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا يحيى الجمانى حدثنا قيس بن الربيع عن السدى عن عطاء عن ابن عباس فى قوله (أم يحسدون الناس) الآية قال ابن عباس نحن نحن الناس دون الناس قال الله تعالى (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) أى فقد جعلنا فى أسباط بنى إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وحكموا فيهم بالسنن وهى الحكمة وجعلنا منهم الملوك ومع هذا فمنهم من آمن به أى بهذا الإتياء وهذا الإنعام ومنهم من صد عنه أى كفر به وأعرض عنه وسعى فى صد الناس عنه ، وهو منهم ومن جنسهم أى من بنى إسرائيل فقد اختلفوا عليهم فكيف بك

يا محمد ولست من بنى إسرائيل ؟ وقال مجاهد : فمنهم من آمن به أى بمحمد ﷺ ومنهم من صد عنه فالكفرة منهم أشد تكذيبا لك ، وأبعد عما جئهم به من الهدى ، والحق المبين ولهذا قال متوعدا لهم (وكفى بجهنم سعيرا) أى وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾

يخبر تعالى عما يعاقب به فى نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله ، فقال (إن الذين كفروا بآياتنا) الآية ، أى ندخلهم نارا دخولا يحيط بجميع أجزائهم . ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالمهم فقال (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) قال الأعمش عن ابن عمر : إذا احترقت جلودهم بدلوا جلودا غيرها أيضا أمثال القراطيس رواه ابن أبي حاتم ، وقال يحيى بن يزيد الحضرمي أنه بلغه فى الآية : قال يجعل للكافر مائة جلد بين كل جلد من لون من العذاب رواه ابن أبي حاتم ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا حسين الجعفى عن زائدة عن هشام عن الحسن قوله (كلما نضجت جلودهم) الآية قال : تنضجهم فى اليوم سبعين ألف مرة قال حسين وزاد فيه فضيل عن هشام عن الحسن (كلما نضجت جلودهم) قيل لهم : عودوا فعادوا . وقال أيضا ذكر عن هشام بن عمار حدثنا سعيد بن يحيى [يعنى السعدانى] (١) حدثنا نافع مولى يوسف السامى البصرى عن نافع عن ابن عمر قال : قرأ رجل عند عمر هذه الآية (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) فقال عمر : أعد لها طي ، فأعادها ، فقال معاذ بن جبل : عندي تفسيرها تبدل فى ساعة مائة مرة . فقال عمر : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رواه ابن مردويه عن محمد بن أحمد بن إبراهيم عن عبدان بن محمد الروزى عن هشام بن عمار به ، ورواه من وجه آخر بلفظ آخر فقال : حدثنا محمد بن إسحق عن عمران حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحارث حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا نافع أبوهرمز حدثنا نافع عن ابن عمر قال : تلا رجل عند عمر هذه الآية (كلما نضجت جلودهم) الآية قال فقال عمر : أعد لها طي وثم كعب فقال يا أمير المؤمنين أنا عندي تفسير هذه الآية قرأتها قبل الإسلام قال فقال : هاتها يا كعب فان جثت بها كما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقناك وإلا لم ننظر إليها ، فقال إني قرأتها قبل الإسلام كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها فى الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة . فقال عمر : هكذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الربيع بن أنس : مكتوب فى الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعا وسننه سبعون ذراعا وبطنه لو وضع فيه جبل لو سعه فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلودا غيرها . وقد ورد فى الحديث ما هو أبلى من هذا ، قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا أبو يحيى الطويل عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « يعظم أهل النار فى النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غلط جلده سبعون ذراعا ، وإن ضره مثل أحد » تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وقيل المراد بقوله (كلما نضجت جلودهم) أى سرايلهم . حكاه ابن جرير وهو ضعيف لأنه خلاف الظاهر . وقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) هذا إخبار عن مآل السعداء فى جنات عدن التى تجرى فيها الأنهار فى جميع فجاجها ، ومحامها وأرجائها حيث شاءوا ، وأين أرادوا وهم خالدون فيها أبدا لا يحولون ولا يزولون ولا ييغون عنها حولا وقوله (لهم فيها أزواج مطهرة) أى من الحيض والنفس والأذى والأخلاق الرذيلة ، والصفات الناقصة كما قال ابن عباس : مطهرة من الأقدار والأذى . وكذا قال عطاء والحسن والضحاك والنخعي وأبو صالح وعطية والسدى وقال مجاهد : مطهرة من البول والحيض والنخام والبراق والمنى والولد وقال قتادة : مطهرة من الأذى والمآثم ولا

(١) هو لقب له كفى فى التقریب .

حيض ولا كلف . وقوله (وندخلهم ظلا ظليلا) أى ظلا عميقا كثيرا غزيرا طيبا أنيقا ، قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن وحدثنا ابن المثنى حدثنا ابن جعفر قالا حدثنا شعبة قال : سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها - شجرة الخلد »

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها . وفي حديث الحسن عن مبرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أد الأمانة إلى من ائتمنتك ، ولا تخن من خانك » رواه الإمام أحمد وأهل السنن وهو يعنى جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطاع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما ياتمون به من غير اطلاع بينة على ذلك فأمر الله عز وجل بأدائها فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « لتؤدون الحقوق إلى أهلها حتى يقبض للشاء الجماء من القرناء » وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود قال : إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قد قتل في سبيل الله فيقال أد أمانتك فيقول فأني أؤديها وقد ذهبت الدنيا ؟ فتمثل له الأمانة في قبر جهنم فيهوى إليها فيحملها على عاتقه قال فتنزل عن عاتقه فيهوى على أثرها أبدأ الأبدن . قال زاذان فأثبتت البراء فحدثته فقال صدق أخى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وقال سفيان الثوري عن ابن أبي ليلى عن رجل عن ابن عباس في الآية قال : هي مهمة للبر والفاجر ، وقال محمد بن الحنفية هي عامة (١) للبر والفاجر وقال أبو العالية : الأمانة ما أمروا به ونهوا عنه . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد حدثنا حفص بن غياث عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال : قال أبي بن كعب من الأمانات أن المرأة ائتمنت على فرجها ، وقال الربيع بن أنس هي من الأمانات فيما بينك وبين الناس . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) قال : قال يدخل فيه وعظ السلطان النساء يعنى يوم العيد وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة واسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العزيز بن عثمان بن عبد الدار ابن قصي بن كلاب القرشى البدرى حاجب الكعبة العظيمة وهو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبي طلحة الذى صارت الحجابة فى نسله إلى اليوم ، أسلم عثمان هذا فى الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة هو وخالده بن الوليد وعمرو بن العاص وأما عمه عثمان بن طلحة بن أبي طلحة فكان معه لواء المشركين يوم أحد وقتل يومئذ كافرا وإنما نهىنا على هذا النسب لأن كثيرا من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا ، وسبب نزولها فيه لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه : وقال محمد بن إسحق فى غزوة الفتح حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور عن صفية بنت شيبه أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده ، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكن له الناس فى المسجد قال ابن إسحق فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال « لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سداة البيت وسقاية الحاج » وذكر بقية الحديث فى خطبة النبى ﷺ يومئذ إلى أن قال ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليه عليك فقال

رسول الله ﷺ « أين عثمان بن طلحة ؟ » فدعى له فقال له « هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم وفاء وبر » قال ابن جرير حدثني القاسم حدثنا الحسين عن حجاج عن ابن جريج في الآية قال نزلت في عثمان بن طلحة قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل في البيت يوم الفتح فخرج وهو يتلو هذه الآية (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) الآية فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح قال : وقال عمر بن الخطاب لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وهو يتلو هذه الآية (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فداء أبي وأمي ما سمعته يتلوها قبل ذلك : حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا الزنجي بن خالد عن الزهري قال دفعه إليه وقال : أعينوه : وروى ابن مردويه من طريق السكابي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله عز وجل (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) قال لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان ابن طلحة فلما أتاه قال « أرنى المفتاح » فأتاه به ؛ فلما بسط يده إليه قام إليه العباس قال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي اجمعه لي مع السقاية فكف عثمان يده . فقال رسول الله ﷺ « أرنى المفتاح يا عثمان » فبسط يده يعطيه ، فقال العباس مثل كلمته الأولى فكف عثمان يده . فقال رسول الله ﷺ « يا عثمان إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فهاتنه » فقال هاك بأمانة الله قال : فقام رسول الله ﷺ وفتح باب الكعبة فوجد في الكعبة تمثال إبراهيم عليه الصلاة والسلام معه قداح يستقسم بها ؛ فقال رسول الله ﷺ « ما للمشركين قاتلهم الله ، وما شأن إبراهيم وشأن القداح » ثم دعا بحفنة فيها ماء ، فأخذ ماء فغمسه فيه ، ثم غمس به تلك التماثيل وأخرج مقام إبراهيم وكان في الكعبة فألقاه في حائط الكعبة ، ثم قال « يا أيها الناس هذه القبلة » : قال : ثم خرج رسول الله ﷺ قطاف بالبيت شوطا أو شوطين ثم نزل عليه جبريل فيما ذكر لنا برد المفتاح ، ثم قال رسول الله ﷺ (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) حتى فرغ من الآية ، وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك وسواء كانت نزلت في ذلك أولا فحكمها عام ولهذا قال ابن عباس ومحمد بن الحنفية هي للبر والفاجر أي هي أمر لكل أحد ، وقوله (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ، ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب إن هذه الآية : إنما نزلت في الأمراء يعني الحكام بين الناس وفي الحديث « إن الله مع الحاكم مالم يجر فإذا جار وكله إلى نفسه » وفي الأثر « عدل يوم كعبادة أربعين سنة » وقوله (إن الله نعماء يعظكم به) أي يأمركم به من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة ، وقوله تعالى (إن الله كان سميعا بصيرا) أي سميعا لأقوالكم ، بصيرا بأفعالكم كما قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنا عبد الله بن طحيفة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية (سميعا بصيرا) يقول بكل شيء بصير وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا يحيى القزويني أنبأنا المقرئ يعني أبا عبد الرحمن عبد الله بن يزيد حدثنا حرملة يعني ابن عمران التميمي المصري حدثني أبو يونس سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) إلى قوله (إن الله نعماء يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا) ويضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه ويقول هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرأها ويضع أصبعيه ، وقال أبو زكريا وصفه لنا المقرئ ووضع أبو زكريا إبهامه اليمنى على عينه اليمنى والتي تليها على الأذن اليمنى وأرانا فقال هكذا وهكذا . رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه وابن مردويه في تفسيره من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ بإسناده نحوه . وأبو يونس هذا مولى أبي هريرة واسمه سليم بن جبير

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَجْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

قال البخاري حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) قال نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث حجاج بن محمد الأعور به وقال الترمذي حديث حسن

غريب ولا نعرفه إلا من حديث ابن جريج ، وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي قال : بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار فلما خرجوا وجد عليهم في شيء قال : فقال لهم أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا بلى ، قال فاجمعوا لي حطباً ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها ، قال : فقال لهم شاب منهم إنما فررتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها ، قال فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال لهم « لو دخلتموها ماخرجتم منها أبداً ، إنما الطاعة في المعروف » أخرجه الصحيحين من حديث الأعمش به . وقال أبو داود حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن عبيد الله حدثنا نافع عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » وأخرجه من حديث يحيى القطان . وعن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ، في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا . وأن لا تنازع الأمر أهله قال « إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم فيه من الله برهان » . أخرجه وفي الحديث الآخر عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اسمعوا وأطيعوا . وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » رواه البخاري وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجذوع الأطراف رواه مسلم . وعن أم الحصين أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع يقول « ولو استعمل عليكم عبد يقول بكتاب الله اسمعوا له وأطيعوا » رواه مسلم وفي لفظ له « عبداً حبشياً مجذوعاً » وقال ابن جرير حدثني علي بن مسلم الطوسي حدثنا ابن أبي فديك حدثني عبد الله بن محمد بن عروة عن هشام بن عروة عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « سيلكم ولادة بعدى فيلبيكم البر يبره والفاجر بفجوره . فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ماوافق الحق ، وصلوا ورائهم فإن أحسنوا فلكم ولهم وإن أساءوا فلکم وعليهم » وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لاني بعدى وسيكون خلفاء فيكثرون » قالوا يارسول الله فما تأمرنا ؟ قال « أوفوا ببيعة الأول فالأول وأعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم » أخرجه وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية » أخرجه وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لاجحة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » رواه مسلم . وروى مسلم أيضاً عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس حوله مجتمعون عليه فأتيتهم فجلست إليه فقال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ففرزلنا منزلاً فنامنا بصلح خباء ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو في جشره (١) إذ نادى نادى رسول الله ﷺ : الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال : إنه لم يكن نبي من قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن هذه الأمة جعلت عاقبتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء ، وأمور تنكرونها ، وتجيء فتن يرفق بعضها ببعض وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه فتن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر ، قال فدنوت منه فقلت . أنشدك بالله أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال : سمعته أذنائي ، ووعاه قلبي ، فقلت له : هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، ويقتل بعضنا بعضاً والله تعالى يقول (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً) قال فسكت

(١) أصل الجمر : الدواب ترعى في مكان وتبيت فيه اهـ .

ساعة ثم قال . أطعه في طاعة الله ، واعصه في معصية الله . والأحاديث في هذا كثيرة . وقال ابن جرير حدثنا محمد ابن الحسين حدثنا أحمد بن الفضل حدثنا أسباط عن السدي في قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية عليها خالد بن الوليد وفيها عمار بن ياسر فساروا قبل القوم الذين يريدون فلما بلغوا قريبا منهم عرسوا وأتاهم ذو العيينتين فأخبرهم فأصبحوا وقد هربوا غير رجل أمر أهله فجمعوا متاعهم ، ثم أقبل يمشي في ظلمة الليل حتى أتى عسكر خالد فسأل عن عمار بن ياسر فأتاه فقال : يا أبا اليقظان إني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله وإن قومي لما سمعوا بكم هربوا وإني بقيت فهل إسلامي نافع غداً وإلا هربت ؟ قال عمار بل هو ينفعك فأقم فأقام ، فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحداً غير الرجل فأخذه وأخذ ماله فبلغ عمارا الخبر فأتى خالداً فقال : خل عن الرجل فإنه قد أسلم وإنه في أمان مني ، فقال خالد : وفي أنت تجير ؟ فاستبا وارفعنا إلى النبي ﷺ فأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير الثانية على أمير فاستبا عند رسول الله ﷺ فقال خالد يارسول الله : أتترك هذا العبد الأجدة يسبني ، فقال رسول الله ﷺ « يا خالد لا تسب عماراً فإنه من سب عماراً يسبه الله ، ومن يبغض عماراً يبغضه الله ، ومن يلعن عماراً لعنه الله » فغضب عمار فقام فقتبه خالد فأخذ بثوبه فاعتذر إليه فرفض عنه فأنزل الله عز وجل قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريق عن السدي مرسل ، ورواه ابن مردويه من رواية الحكم بن ظهير عن السدي عن أبي صالح عن ابن عباس فذكره بنحوه والله أعلم . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وأولى الأمر منكم) يعني أهل الفقه والدين ، وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن البصري وأبو العالية (وأولى الأمر منكم) يعني العلماء والظاهر والله أعلم أنها عامة في كل أولى الأمر من الأمراء والعلماء كما تقدم وقال تعالى (لولا إيناهم الرابانيون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت) وقال تعالى (فاسألوا أهل الله كرا إن كنتم لا تعلمون) وفي الحديث الصحيح المتفق على صحته عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصا الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعني ومن عصا أميرى فقد عصاني » فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء ، ولهذا قال تعالى (أطيعوا الله) أى اتبعوا كتابه (وأطيعوا الرسول) أى خذوا بسنته (وأولى الأمر منكم) أى فيما أمروكم به من طاعة الله لأى معصية الله ، فانه لاطاعة للخلق في معصية الله كما تقدم في الحديث الصحيح « إنما الطاعة في المعروف » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا همام حدثنا قتادة عن ابن حريث عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال « لا طاعة في معصية الله » . وقوله (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) قال مجاهد وغير واحد من السلف أى إلى كتاب الله وسنة رسوله . وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شئ تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى (وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله) فاحكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ولهذا قال تعالى (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر وقوله (ذلك خير) أى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله . والرجوع إليهما في فصل النزاع خير (وأحسن تأويلاً) أى وأحسن عاقبة وما لا كما قاله السدي وغير واحد . وقال مجاهد : وأحسن جزاء وهو قريب

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاهُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿١﴾

هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول بيني وبينك محمد ، وذلك يقول بيني وبينك كعب بن الأشرف وقيل في جماعة من المنافقين ممن أظهر الإسلام أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية . وقيل غير ذلك والآية أعم من ذلك كله فإنها دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة . وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا ولهذا قال (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) إلى آخرها . وقوله (ويصدونك صدودا) أي يعرضون عنك إعراضا كالمستكبرين عن ذلك كما قال تعالى عن المشركين (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) الآية

ثم قال تعالى في ذم المنافقين (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم) أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، واحتاجوا إليك في ذلك (ثم جاؤك يخلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) أي يعتذرون إليك ويخلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى أعدائك إلا الإحسان والتوفيق أي المداواة والمصالحة لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله (قري الذين في قلوبهم مرض يسمعون فيهم يقولون نحشى إلى قوله - فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) وقد قال الطبراني حدثنا أبو زيد أحمد بن يزيد الحوطي حدثنا أبو العمان حدثنا صفوان بن عمر عن عكرمة عن ابن عباس قال كان أبو برزة الأسلمي كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه فتتأخر إليه ناس من المشركين فأنزل الله عز وجل (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك - إلى قوله - إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا)

ثم قال تعالى (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم) هذا الضرب من الناس هم المنافقون والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزئهم على ذلك فانه لا تخفى عليه خافية فاكتمف به يا محمد فيهم فانه عالم بطواهرهم وبواطنهم . ولهذا قال له (فأعرض عنهم) أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم (وعظم) أي وانهم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر (وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا) أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاهُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

يقول تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع) أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم وقوله (بإذن الله) قال مجاهد أي لا يطيع أحد إلا بإذني يعني لا يطيعه إلا من وقفته لذلك كقوله (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) أي عن أمره وقدره ومشيته وتسليطه إياكم عليهم ، وقوله (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم) الآية ، يرشد تعالى العصاة والذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيستغفروا الله عنه ويسألوه أن يستغفر لهم فانهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم ولهذا قال (لوجدوا الله توابا رحيا) وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ (١)

(١) في نسخة الأزهري : أبو نصر بن الصباغ .

في كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتي قال : كنت جالسا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابي فقال السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا) وقد جئتك مستغفرا لذنبي مستشفعا بك إلى ربي . ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه * فطاب من طيبن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه * فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال : « يا عتي الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له »

وقوله (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمون فيما شجر بينهم) يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الاقياد له باطنا وظاهرا ولهذا قال (ثم لا يجحدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) أى إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجحدون في أنفسهم حرجا مما حكمت به ويتقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليما كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة كما ورد في الحديث « والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » وقال البخارى حدثنا علي بن عبد الله حدثنا محمد بن جعفر حدثنا معمر عن الزهرى عن عروة قال: خاصم الزبير رجلا في شراج الحرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « اسق يا الزبير ثم أرسل الماء إلى جارك » فقال الأنصارى : يا رسول الله أن كان ابن عمك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ثم أرسل الماء إلى جارك » فاستوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصارى وكان أشار عليهما صلى الله عليه وسلم بأمر لهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) الآية . هكذا رواه البخارى ههنا أعنى في كتاب التفسير في صحيحه من حديث معمر ، وفي كتاب الشرب من حديث ابن جريج ومعمر أيضا ، وفي كتاب الصلح من حديث شعيب بن أبي حمزة ثلاثتهم عن الزهرى عن عروة فذكره وصورته صورة الارسال وهو متصل في المعنى وقد رواه الإمام أحمد من هذا الوجه فصرح بالارسال فقال حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى أخبرني عروة بن الزبير أن الزبير كان يحدث أنه كان يخاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في شراج الحرة كانا يسقيان بها كلاهما فقال النبي صلى الله عليه وسلم للزبير « اسق ثم أرسل إلى جارك » فغضب الأنصارى وقال : يا رسول الله أن كان ابن عمك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر » فاستوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه وكان النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللأنصارى فلما أحفظ الأنصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في صريح الحكم ثم قال : قال عروة فقال الزبير والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) ، ثم لا يجحدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) هكذا رواه الإمام أحمد وهو منقطع بين عروة وبين أبيه الزبير فانه لم يسمع منه ، والذي يقطع به أنه سمعه من أخيه عبد الله فان أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رواه كذلك في تفسيره فقال حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني الليث ويونس عن ابن شهاب أن عروة بن الزبير حدثه أن عبد الله بن الزبير حدثه عن الزبير بن العوام أنه خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج في الحرة كانا يسقيان به كلاهما النخل فقال الأنصارى : سرح الماء يمر فأبى عليه الزبير فقال رسول الله ﷺ « اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك » فغضب الأنصارى وقال يا رسول الله أن كان ابن عمك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر » واستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه السعة له وللأنصارى فلما أحفظ

الأَنْصَارِيُّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَوْعَى لِلزَّيْرِ حَقَّهُ فِي صَرْحِ الْحَكَمِ فَقَالَ الزَّيْرِ : مَا أَحْسَبَ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَّا فِي ذَلِكَ (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلُّوا تَسْلِيمًا) وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ وَهَبٍ بِهِ وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْجَمَاعَةُ كُلُّهُمْ مِنْ حَدِيثِ اللَّيْثِ بِهِ وَجَعَلَهُ أَصْحَابُ الْأَطْرَافِ فِي مَسْنَدِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الزَّيْرِ وَكَذَا سَاقَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مَسْنَدِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الزَّيْرِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِنَ الْحَاكِمِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ النَّيْسَابُورِيِّ فَإِنَّهُ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَخِي ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَمِّهِ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الزَّيْرِ عَنْ الزَّيْرِ فَذَكَرَهُ ثُمَّ قَالَ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يَخْرُجْ . فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَحَدًا قَامَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنْ الزَّهْرِيِّ بِذِكْرِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الزَّيْرِ غَيْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَهُوَ عَنْهُ ضَعِيفٌ ، وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بَنُ مَرْدَوَيْهِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ أَبُو دَحِيمٍ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَازِمٍ حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ دَكْنٍ حَدَّثَنَا ابْنُ عَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ رَجُلٍ مِنْ آلِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ : خَاصَمَ الزَّيْرِ رَجُلًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَضَى لِلزَّيْرِ فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنَّمَا قَضَى لَهُ لِأَنَّهُ ابْنُ عَمَّتِهِ فَزَلْتُ (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) الْآيَةَ وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَثْمَانَ حَدَّثَنَا أَبُو حَيَّةٍ حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ الزَّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ فِي قَوْلِهِ (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) قَالَ نَزَلَتْ فِي الزَّيْرِ بْنِ الْعَوَامِ وَخَاطَبَ ابْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ اخْتَصَمَا فِي مَاءٍ فَقَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْقَى الْأَعْلَى ثُمَّ الْأَسْفَلَ هَذَا مَرْسَلٌ وَلَكِنْ فِيهِ فَائِدَةٌ تَسْمِيَةُ الْأَنْصَارِيِّ ﴿ ذَكَرَ سَبَبَ آخِرِ غَرِيبٍ جَدًّا ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ . حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قَرَأَهُ أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهَبٍ أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيْعَةَ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ قَالَ : اخْتَصَمَ رَجُلَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَضَى بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ الْمُقْضَى عَلَيْهِ : رَدْنَا إِلَى عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « نَعَمْ » انْطَلَقَا إِلَيْهِ فَلَمَّا أَتَيَا إِلَيْهِ فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قَضَى لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى هَذَا . فَقَالَ رَدْنَا إِلَى عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ فَرَدْنَا إِلَيْكَ فَقَالَ أَكْذَابُكَ ؟ قَالَ نَعَمْ فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ : مَكَانَكُمَا حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيْكُمَا فَأَقْضَى بَيْنَكُمَا . فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا مُشْتَعِلًا عَلَى سَيْفِهِ فَضْرَبَ الَّذِي قَالَ رَدْنَا إِلَى عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ وَأَدْبَرَ الْآخَرَ فَأَتَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَتَلَ عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ صَاحِبِي وَلَوْلَا أَنِّي أَعْجَزْتُهُ لَقَتَلْتَنِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يَجْتَرِءَ عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى قَتْلِ مَنْ هُوَ مِنْ » فَأَنْزَلَ اللَّهُ (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ) الْآيَةَ فَهَذَا رَدُّ ذَلِكَ الرَّجُلِ وَبَرِيءُ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَسْنَ ذَلِكَ بَعْدَ ، فَأَنْزَلَ (وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) الْآيَةَ ، وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ لَهِيْعَةَ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ بِهِ وَهُوَ أَثَرُ غَرِيبٍ مَرْسَلٌ ، وَابْنُ لَهِيْعَةَ ضَعِيفٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . (طَرِيقٌ أُخْرَى) قَالَ الْحَافِظُ أَبُو إِسْحَقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ دَحِيمٍ فِي تَفْسِيرِهِ حَدَّثَنَا شُعَيْبُ بْنُ شُعَيْبٍ حَدَّثَنَا أَبُو الْمَغِيرَةِ حَدَّثَنَا عَثْبَةُ بْنُ ضَمْرَةَ حَدَّثَنَا أَبِي أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَضَى لِلْمَحْقُوقِ عَلَى الْمُبْطَلِ ، فَقَالَ الْمُقْضَى عَلَيْهِ لَا أَرْضَى ، فَقَالَ صَاحِبُهُ فَمَا تَرِيدُ ؟ قَالَ : أَنْ نَذْهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ فَذَهَبَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ الَّذِي قَضَى لَهُ : قَدْ اخْتَصَمْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَضَى لِي فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَتَمَّا عَلَى مَا قَضَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَبَى صَاحِبُهُ أَنْ يَرْضَى ، فَقَالَ نَأَى عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ الْمُقْضَى لَهُ : قَدْ اخْتَصَمْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَضَى لِي عَلَيْهِ فَأَبَى أَنْ يَرْضَى ، فَسَأَلَهُ عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ كَذَلِكَ ، فَدَخَلَ عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ وَمَنْزِلُهُ وَخَرَجَ وَالسَّيْفُ فِي يَدِهِ قَدْ سَلَّهُ فَضْرَبَ رَأْسَ الَّذِي أَبَى أَنْ يَرْضَى فَقَتَلَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) الْآيَةَ

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيْثًا * وَإِذَّا لَّا تَنْبَهُهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَوْ أُمِرُوا بِمَا هُمْ مُرْتَكِبُونَ مِنَ الْمُنَافِقَةِ لَمَّا فَعَلُوهُ لِأَنَّ طَبَاعَهُمُ الرَّدِيئَةُ مَجْبُولَةٌ عَلَى مُخَالَفَةِ

الأمر وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن أو كان فكيف كان يكون ، ولهذا قال تعالى (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية ، قال ابن جرير حدثني الثني حدثني إسحق حدثنا الأزهري عن إسماعيل عن أبي إسحق السبيعي قال : لما نزلت (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية قال رجل . لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذي عافانا بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال « إن من أمتي لرجال الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي » وزواه ابن أبي حاتم حدثنا جعفر بن منير حدثنا روح حدثنا هشام عن الحسن بإسناده عن الأعمش قال : لما نزلت (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية . قال أناس من أصحاب النبي ﷺ لو فعل ربنا لفعلنا ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال « للإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي » وقال السدي افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود فقال اليهودي والله لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا فقال ثابت والله لو كتب علينا (أن اقتلوا أنفسكم) لفعلنا فأنزل الله هذه الآية ورواه ابن أبي حاتم . حدثنا أبي حدثنا محمود بن غيلان حدثنا بشر بن السري حدثنا مصعب بن ثابت عن عمه عامر بن عبد الله بن الزبير قال لما نزلت (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم » وحدثنا أبي حدثنا أبو الهيثم حدثنا إسماعيل بن عياش عن صفوان ابن عمرو عن شريح بن عبيد قال : لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه بيده إلى عبد الله بن رواحة فقال « لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل » يعني ابن رواحة ولهذا قال تعالى (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به) أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمر به وتركوا ما ينهون عنه (لكان خيرا لهم) أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي (وأشد تنبيها) قال السدي . أي وأشد تصديقا (وإذا لا يتيقنهم من لدنا) أي من عندنا (أجرا عظيما) يعني الجنة (ولهديناهم صراط مستقيما) أي في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) أي من عمل بما أمره الله به ورسوله وترك ما نهى الله عنه ورسوله فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته ويجعله مرافقا للأنبياء ثم لمن بعدهم في الزببة وهم الصديقون ثم الشهداء ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانياتهم ثم أثنى عليهم تعالى فقال (وحسن أولئك رفيقا) وقال البخاري حدثنا محمد بن عبد الله بن حوشب حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن عروة عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « مامن نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة » وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحجة شديدة فسمعتة يقول « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » فعلمت أنه خير وكذا رواه مسلم من حديث شعبة عن سعد بن إبراهيم به وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر « اللهم الرفيق الأعلى » ثلاثا ثم قضى ، عليه أفضل الصلاة والتسليم

﴿ ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة ﴾

قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير قال جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يا فلان مالي أراك محزوناً » فقال يابني الله شيء فكرت فيه فقال ما هو ؟ قال نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئا فأتاه جبريل بهذه الآية (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين) الآية فبعث النبي ﷺ فبشره . وقد روى هذا الأثر مرسل عن مسروق وعن عكرمة وعامر الشعبي وقتادة وعن الربيع بن أنس وهو من أحسنها سندا قال ابن جرير حدثنا الثني حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع قوله (ومن يطع الله والرسول) الآية قال إن أصحاب النبي ﷺ قالوا قد علمنا أن النبي ﷺ له فضل على من آمن به في درجات الجنة ممن اتبعه وصدقه وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضا . فأنزل الله . في ذلك يعني هذه الآية فقال يعني رسول الله ﷺ « إن الأعلى ينحدرون إلى من هو أسفل منهم فيجتمعون في رياض فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويثنون عليه وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما

يدعون به فهم في روضة يجبرون ويتنعمون فيه » وقد روى مرفوعاً من وجه آخر فقال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم ، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد حدثنا عبد الله بن عمران ، حدثنا فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إنك لأحب إليّ من نفسي ، وأحب إليّ من أهلي ، وأحب إليّ من ولدي وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصرحتي آتيك فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإن دخلت الجنة خشيت أن لأراك فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت عليه (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه في صفة الجنة من طريق الطبراني عن أحمد بن عمرو ابن مسلم الخلال عن عبد الله بن عمران العابدی به ثم قال لأرى بإسناده بأساً والله أعلم . وقال ابن مردويه أيضاً حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا العباس بن الفضل الاسقاطی . حدثنا أبو بكر بن ثابت عن ابن عباس البصري حدثنا خالد بن عبد الله عن عطاء بن السائب عن عامر الشعبي عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني لأحبك حتى إني لأذكرك في المنزل فيشوق ذلك علي وأحب أن أكون معك في الدرجة فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقد رواه ابن جرير عن ابن حميد عن جرير عن عطاء عن الشعبي مرسلًا وثبت في صحيح مسلم من حديث هقل بن زياد عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال : كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيتته بوضوئه وحاجته فقال لي « سل » فقلت يا رسول الله سألتك مرافقتك في الجنة فقال « أو غير ذلك » قلت : هو ذاك قال « فأعني على نفسك بكثرة السجود » وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق ، أخبرنا ابن لهيعة عن عبد الله بن أبي جعفر عن عيسى بن طلحة عن عمرو بن مرة الجهني قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ؛ وصليت الخمس ، وأذيت زكاة مالي . وصمت شهر رمضان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا - ونصب أصبعه - مالم يعق والديه » تفرد به أحمد قال الإمام أحمد أيضاً حدثنا أبو سعيد مولى أبي هاشم . حدثنا ابن لهيعة عن زياد بن قائد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال « من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً إن شاء الله » وروى الترمذي من طريق سفيان الثوري عن أبي حمزة عن الحسن البصري عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » ثم قال هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه وأبو حمزة اسمه عبد الله بن جابر شيخ بصرى وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحيح والسانيد وغيرها من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال « الرء مع من أحب » قال أنس فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث . وفي رواية عن أنس أنه قال : إني لأحب رسول الله ﷺ وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وأرجو أن الله يعثني معهم وإن لم أعمل كعملهم قال الإمام مالك بن أنس عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم » قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال « بلى » والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك واللفظ لمسلم ورواه الإمام أحمد ، حدثنا فزارة أخبرني فليح عن هلال يعني ابن علي عن عطاء عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق الطالع في تفاضل الدرجات » قالوا يا رسول الله أولئك النبيون . قال « بلى ؛ والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » قال الحافظ الضياء المقدسي هذا الحديث على شرط البخاري والله أعلم وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا محمد بن عمار الموصلي حدثنا علي بن عفيف بن سالم عن أيوب عن عتبة عن عطاء عن ابن عمر قال أتى رجل من الحبشة إلى رسول الله

ﷺ يسأله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « سل واستفهم » فقال يا رسول الله فضلتكم علينا بالصور والألوان والنبوة ، ثم قال : أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت به إني لكائن معك في الجنة ، قال رسول الله ﷺ « نعم والذي نفسي بيده إنه ليضئ بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام » ثم قال رسول الله ﷺ « من قال لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله ، ومن قال سبحان الله وبحمده كتب له بها مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة » فقال رجل : كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يتغمده الله برحمته » ونزلت هذه الآيات (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا - إلى قوله - نعميا وملكا كبيرا) فقال الحبشي : وإن عني لثريان ماترى عينك في الجنة ؟ فقال رسول الله ﷺ « نعم » فاستبكي حتى فاضت نفسه ، قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه في حفرة يديه ، فيه غرابة ونكارة وسنده ضعيف ولهذا قال تعالى (ذلك الفضل من الله) أي من عند الله (برحمته) وهو الذي أهلهم لذلك لأبأعمالهم (وكفى بالله عليا) أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا * وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيِيْطُنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِسَنِيْ كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا * فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم وهذا يستلزم التأهب لهم بأعداد الأسلحة والعدد وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله (ثبات) أي جماعة بعد جماعة وفرقة بعد فرقة وسرية بعد سرية والثبات جمع ثبة وقد تجمع الثبة على ثبين ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (فانفروا ثبات) أي عسبا يعني سرايا متفرقين (أو انفروا جميعا) يعني كلهم ، وكذا روى عن مجاهد وعكرمة والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وخصيف الجزري ، وقوله تعالى (وإن منكم لمن ليبطئن) قال مجاهد وغير واحد نزلت في المنافقين ، وقال مقاتل بن حيان : (ليبطئن) أي ليتخلفن عن الجهاد ، ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه ويبطئ غيره عن الجهاد كما كان عبد الله بن أبي بن سلول قبحه الله يفعل يتأخر عن الجهاد ويشط الناس عن الخروج فيه . وهذا قول ابن جريج وابن جرير ؛ ولهذا قال تعالى إخبارا عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد (فإن أصابكم مصيبة) أي قتل وشهادة وغلب العدو لكم لما لله في ذلك من الحكمة (قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا) أي إذ لم أحضر معهم وقعة القتال يعد ذلك من نعم الله عليه ، ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل (ولئن أصابكم فضل من الله) أي نصر وظفر وغنيمة (ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) أي كأنه ليس من أهل دينكم (ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) أي بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه . وهو أكبر قصده وغاية مراده . ثم قال تعالى (فليقاتل) أي المؤمن النافر (في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) أي يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم ، ثم قال تعالى (ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما) أي كل من قاتل في سبيل الله سواء قتل أو غلب فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل كما ثبت في الصحيحين وتكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا * الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

يحرص تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله وعلى السعى في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان التبرمين من المقام بها ، ولهذا قال تعالى (الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية) يعنى مكة كقوله تعالى (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك) ثم وصفها بقوله (الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) أى سخر لنا من عندك وليا وناصرا . قال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن عبيد الله قال سمعت ابن عباس قال . كنت أنا وأمى من المستضعفين . حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس تلا (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) قال كنت أنا وأمى ممن عذر الله عز وجل ثم قال تعالى (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) أى المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه ، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان ، ثم هييج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله (فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا ت ظَلُمُونَ فَنِيْلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النصب وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم ، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة مهاقلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم ، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال فلماذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار ، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) أى لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى فإن فيك سفك الدماء ، ويتم الأولاد ، وتأييم النساء ، وهذه الآية كقوله تعالى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال) الآيات : قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد ابن عبد العزيز عن أبي زرعة وعلى بن زرعة قال : حدثنا علي بن الحسن عن الحسين بن واقد عن عمرو بن دينار عن عكرمة

عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فقالوا يا نبي الله : كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أدلة قال « إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم) الآية ورواه النسائي والحاكم وابن مردويه من حديث علي بن الحسن ابن شقيق به وقال أسباط عن السدي لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة ، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال فلما فرض عليهم القتال (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) وهو الموت قال الله تعالى (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) وقال مجاهد : إن هذه الآية نزلت في اليهود رواه ابن جرير وقوله (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) أي آخرة المتقي خير من دنياه (ولا تظلمون فتيلا) أي من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء ، وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا حماد بن زيد عن هشام قال : قرأ الحسن (قل متاع الدنيا قليل) قال : رحم الله عبداً صحبنا على حسب ذلك وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يجب ثم انتبه . وقال ابن معين كان أبو مصهر ينشد :

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له * من الله في دار المقام نصيب

فإن تعجب الدنيا رجلاً فإنها * متاع قليل والزوال قريب

وقوله تعالى (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) أي أتم صائرون إلى الموت لا محالة ولا ينجمونه أحد منكم كما قال تعالى (كل من عليها فان) الآية ، وقال تعالى (كل نفس ذائقة الموت) وقال تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) والقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة ، ولا ينجمه من ذلك شيء سواء جاهد أو لم يجاهد فإن له أجلاً محتوماً ، ومقاماً مقسوماً كما قال خالد بن الوليد حين جاء الموت على فراشه لقد شهدت كذا وكذا موقفاً ، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية وها أنا أموت على فراشي فلان مات أعين الجبناء وقوله (ولو كنتم في بروج مشيدة) أي حصينة منيعة عالية رفيعة ، وقيل هي بروج في السماء قاله السدي وهو ضعيف والصحيح أنها المنيعة أي لا يغني حذر وتحصن من الموت كما قال زهير بن أبي سلمى

ومن هاب أسباب الناي يئله * ولو رام أسباب السماء بسلم

ثم قيل المشيدة هي المشيدة كما قال وقصر مشيد ، وقيل بل بينهما فرق وهو أن المشيدة بالتشديد هي الطولة ، وبالتخفيف هي الزينة بالشيد وهو الجص . وقد ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم ههنا حكاية مطولة عن مجاهد أنه ذكر أن امرأة فيمن كان قبلنا أخذها الطلق فأمرت أجيرها أن يأتيها بنار فخرج فإذا هو برجل واقف على الباب فقال ما ولدت المرأة فقال جارية فقال أما إنها ستزني بمائة رجل ثم يتزوجها أجيرها ويكون موتها بالعنكبوت . قال فكر راجعاً فبعج بطن الجارية بسكين فشقه ثم ذهب هارباً وظن أنها قد ماتت فخاطب أمها بطنها فبرئت وشبت وترعرت ونشأت أحسن امرأة ببلدتها فذهب ذاك الأجير ما ذهب ودخل البحور فاقتنى أموالاً جزيلة ثم رجع إلى بلده وأراد التزوج فقال لعجوز أريد أن أتزوج بأحسن امرأة بهذه البلدة فقالت ليس ههنا أحسن من فلانة فقال اخطبها على فذهبت إليها فأجابت فدخل بها فأعجبته إعجاباً شديداً فسألته عن أمره ومن أين مقدمه فأخبرها خبره وما كان من أمره في الجارية فقالت أنا هي وأرته مكان السكين فتحقق ذلك فقال لئن كنت إياها فلقد أخبرني بئنتين لا بد منهما (أحدهما) أنك قد زنت بمائة رجل فقالت لقد كان شيء من ذلك ولكن لا أدري ما عددهم فقال هم مائة (والثاني) أنك تموتين بالعنكبوت فأخذها قصرأ منيعاً شاهقاً ليحزها من ذلك فبينما هم يوماً فإذا بالعنكبوت في السقف فأراها إياها فقالت أهذه التي تحذرها على والله لا يقتلها إلا أنا فأنزلوها من السقف فعمدت إليها فوطئها بإيهاهم رجلها فقتلتها فطار من سمها شيء فوق عين ظفرها ولحمها واسودت رجلها فكان في ذلك أجلاً ثمانين سنة وذكر ههنا قصة صاحب الحضرة وهو الساطرون لما احتال عليه سابور حتى حصره فيه وقتل من فيه بعد محاصرة سنتين وقالت العرب في ذلك أشعاراً منها :

وأخو الحضرة إذ بناه وإذ دج * لمة تجي إليه والخابور

شاده مرمرًا وجلله كل * سا فلطير في ذراه وكور * لم تهبه أيدي النون فباد ال * حلك عنه فبابه مهجور

ولما دخل على عثمان جمل يقول : اللهم اجمع أمة محمد ثم تمثل بقول الشاعر :

أرى الموت لا يبق عزيزاً ولم يدع * لعاد ملاذاً في البلاد ومربعا

بيت أهل الحصن والحصن مغلق * ويأتى الجبال في شماريخها معا

قال ابن هشام وكان كسرى سابور ذوالاكتاف قتل الساطرون ملك الحضرة وقال ابن هشام إن الذي قتل صاحب الحضرة سابور بن أردشير بن بابك أوله ملوك بني ساسان وأذل ملوك الطوائف ورد الملك إلى الأكرسة فأما سابور ذوالاكتاف فهو من بعد ذلك بزمان طويل والله أعلم. ذكره السهيلي قال ابن هشام فحصره ستينين وذلك لأنه كان آخر ملوك بلاد سابور في غيبته وهو في العراق وأشرفت بنت الساطرون وكان اسمها الضيرة فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكمل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ فدمت إليه أن تزوجني إن فتحت لك باب الحصن فقال نعم : فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر وكان لا يبيت إلا سكران فأخذت مفاتيح باب الحصن من تحت رأسه فبعثت بهامع مولى لها ففتح الباب ويقال دلتهم على طلسم كان في الحصن لا يفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء فتخضب رجلها بحمض جارية بكر زرقاء ثم ترسل فإذا وقعت على سور الحصن سقط ذلك ففتح الباب ففعل ذلك فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحصن وخربه وسار بهامعه وتزوجها فبينما هي نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تعمل لئلا تنام فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد فيه ورقة آسن فقال لها سابور هذا الذي أسهرك فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت كان يفرش لي الديباج ويلبسن الحرير ، ويطعمني الخ ويسقيني الخمر قال الطبري كان يطعمني الخ والزبد ، وشهد أبكار النحل ، وصفوا الخمر وذكر أنه كان يرى مخ ساقها قال فكان جزاء أهلك ما صنعت به ؟ أنت إلى بذلك أسرع ثم أمر بها فربطت قرون رأسها بذهب فرس فركض القرس حتى قتلها وفيه يقول عدوى بن زيد العبدي أبياته المشهورة السائرة أيها الشامت للغير بالده * رأ أنت المبرأ الموفور

أم لديك العهد الوثيق من الأي * أم بل أنت جاهل مغرور * من رأيت النون خلد أم من ذا عليه من أن يضام خفير * أين كسرى كسرى الملوك أنوش * وإن أم أين قبله سابور وبنو الأصفر الكرام ملوك ال * روم لم يبق منهم مذكور * وأخو الحضرة إذ بناء وإذ دج لمة تجي إليه والخابور * شاده مرمرأ وجلله كل * ساء فلطير في ذراه وكور لم يهبه ريب النون فباد ال * ملك عنه فبابه مهجور * وتذكر رب الحورنق إذ شر رف يوما وللهدي تفكير * سره ماله وكثرة مائه * لك والبحر معرضاً والسدير فارعوى قلبه وقال فما غب * طة حى إلى المات يصير * ثم أضحو كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور * ثم بعد الفلاح والملك والأمة * وارتهم هناك القبور

وقوله (وإن تصبهم حسنة) أى حسب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك هذا معنى قول ابن عباس وأبي العالية والسدي (يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة) أى قحط وجذب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد أو تنج أو غير ذلك كما يقوله أبو العالية والسدي (يقولوا هذه من عندك) أى من قبلك وبسبب اتباعناك واقتدائنا بدينك كما قال تعالى عن قوم فرعون (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيدوا بين موسى ومن معه) وكما قال تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف) الآية وهكذا قال هؤلاء الناقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم وقال السدي وإن تصبهم حسنة قالوا الحسنة الحسب تنتج مواشيهم وحيولهم ويحسن حالهم وتلد نساؤهم الغلمان قالوا (هذه من عند الله) وإن تصبهم سيئة (والسيئة الجذب والضرر في أموالهم تشاءوا بمحمد ﷺ) وقالوا (هذه من عندك) يقولون بتركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء فأنزل الله عز وجل (قل كل من عند الله) فقله : قل كل من عند الله أى الجميع بقضاء الله وقدره وهو نافذ في البر والفاجر والمؤمن والكافر قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : قل كل من عند الله أى الحسنة والسيئة وكذا قال الحسن البصري ثم قال تعالى منكرنا على هؤلاء القائلين هذه القالة الصادرة عن شك وريب ، وقلة فهم وعلم وكثرة جهل وظلم (فالهؤلاء القوم

لا يكادون يفقهون حديثاً) ذكر حديث غريب يتعلق بقوله تعالى (قل كل من عند الله) قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا السكن بن سعيد حدثنا عمر بن يونس ، حدثنا إسماعيل بن حماد عن مقاتل بن حيان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر وعمر في قبيلتين من الناس وقد ارتفعت أصواتهما فجلس أبو بكر قريباً من النبي صلى الله عليه وسلم وجلس عمر قريباً من أبي بكر فقال رسول الله ﷺ « لم ارتفعت أصواتكما » فقال رجل يا رسول الله قال أبو بكر الحسنة من الله والسيئات من أنفسنا ، فقال رسول الله ﷺ « فما قلت يا عمر » فقال : قلت الحسنات والسيئات من الله فقال رسول الله ﷺ « إن أول من تكلم فيه جبريل وميكائيل فقال ميكائيل مقاتلك يا أبا بكر . وقال جبريل مقاتلك يا عمر » فقال « فيختلف أهل السماء وإن يختلف أهل السماء يختلف أهل الأرض فتحاكما إلى إسماعيل قضى بينهم ان الحسنات والسيئات من الله » . ثم أقبل على أبي بكر وعمر فقال « احفظا قضائي بينكما ، لو أراد الله أن لا يعصى لما خلق إبليس » قال شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية هذا حديث موضوع مختلف باتفاق أهل المعرفة . ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب (ما أصابك من حسنة فمن الله) أي من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) أي فمن قبلك ، ومن عملك أنت كما قال تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفون كثير) قال السدي والحسن البصري وابن جريج وابن زيد (فمن نفسك) أي بذنبك وقال قتادة في الآية (فمن نفسك) عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك . قال وذكر لنا أن النبي ﷺ قال « لا يصيب رجلاً خدش عود ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفوا له أكثر » وهذا الذي أرسله قتادة قد روى متصل في الصحيح « والذي نفسى بيده لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ، ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه به من خطاياهم » وقال أبو صالح (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) أي بذنبك وأنا الذي قدرتها عليك رواه ابن جرير ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عمار حدثنا سهل بن بكار حدثنا الأسود بن شيبان حدثني عقبة بن واصل ابن أخي مطرف عن مطرف بن عبد الله قال : ما تريدون من القدر أَمَا تَكْفِيكُمْ الآية التي في سورة النساء (وإن تصيبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصيبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) أي من نفسك والله ما وكلوا إلى القدر وقد أمروا واليه يصيرون ؛ وهذا كلام متين قوى في الرد على القدرية والجبرية أيضاً . ولبسطه موضع آخر . وقوله تعالى (وأرسلناك للناس رسولا) أي تبلغهم شرائع الله وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه (وكفى بالله شهيدا) أي على أنه أرسلك وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم ، وعالم بما تبلغهم إياه وبما يردون عليك من الحق كفرأ وعناداً

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا * وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله ، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ؛ ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصى الأمير فقد عصاني » وهذا الحديث ثابت في الصحيحين عن الأعمش به . وقوله (ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) أي ما عليك منه إن عليك إلا البلاغ . فمن اتبعك سعد ونجا وكان لك من الأجر نظير ما حصل له ، ومن تولى عنك خاب وخسر وليس عليك من أمره شيء كما جاء في الحديث « من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا

نفسه « وقوله (ويقولون طاعة) يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة (فإذا برزوا من عندك) أى خرجوا وتواروا عنك (بيت طائفة منهم غير الذى تقول) أى استسروا والى ألبيا بينهم بغير ما أظهروه لك فقال تعالى (والله يكتب ما يبتون) أى يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد ، والمعنى فى هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم وما يتفقون عليه ليلا من مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم وعصيانهم وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة ، وسيجزيهم على ذلك كما قال تعالى (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا) الآية ، وقوله (فأعرض عنهم) أى اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم ، ولا تكشف أمورهم للناس ، ولا تخف منهم أيضا (وتوكل على الله وكفى بالله وكيل) أى كفى به ولياً وناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأناب إليه

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا * وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يقول تعالى آمراً لهم بتدبر القرآن وناهياً لهم عن الاعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة ، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، ولا تعارض لأنه تنزيل من حكيم حميد فهو حق من حق ، ولهذا قال تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ثم قال (ولو كان من عند غير الله) أى لو كان مفتعلاً مختلفاً ، كما يقوله من يقول من جهالة المشركين والمنافقين فى بواطنهم لوجدوا فيه اختلافاً ، أى اضطراباً وتضاداً كثيراً ، أى وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين فى العلم حيث قالوا (آمنا به كل من عند ربنا) أى محكمه ومتشابهه حق ، فلماذا ردوا التشابه إلى الحكم فاهتدوا ، والذين فى قلوبهم زيغ ردوا الحكم إلى التشابه فغفوا ، ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائعين ، قال الإمام أحمد : حدثنا أنس بن عياض حدثنا أبو معاوية حدثنا أبو حازم حدثنا عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : لقد جلست أنا وأخى مجلساً ما أحب أن لى به حمر النعم أقبلت أنا وأخى وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب من أبوابه فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حجرة إذ ذكروا آية من القرآن فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله ﷺ مغضباً حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول : « مهلاً يا قوم بهذا أهلكم الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض إن القرآن لم ينزل يكتذب بعضه بعضاً ، إنما نزل يصدق بعضه بعضاً فما عرقت منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه » وهكذا رواه أيضاً عن أبي معاوية عن داود بن أبى هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر فكأنما يفتقأ فى وجهه حب الرمان من الغضب فقال لهم « ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض بهذا هلك من كان قبلكم » قال فما غبظت نفسى بمجلس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أشهده ما غبظت نفسى بذلك المجلس أنى لم أشهده ورواه ابن ماجه من حديث داود بن أبى هند به نحوه . وقال أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا حماد بن زيد عن أبى عمران الجوني قال : كتب إلى عبد الله بن رباح يحدث عن عبد الله بن عمرو قال : هجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فإنا لجالس إذ اختلف اثنان فى آية فارتفعت أصواتهما فقال « إنما هلك الأمم قبلكم باختلافهم فى الكتاب » ورواه مسلم والنسائي من حديث حماد بن زيد به ، وقوله (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها ، وقد لا يكون لها صحة . وقد قال مسلم فى مقدمة صحيحه حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا على بن حفص حدثنا شعبة عن حبيب بن عبد الرحمن عن حصص بن عاصم عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع » وكذا رواه أبو داود فى كتاب الأدب من سننه عن محمد بن الحسين بن

اشكاب عن علي بن حفص عن شعبة مسندا ، ورواه مسلم أيضا من حديث معاذ بن هشام العنبري وعبد الرحمن بن مهدي وأخرجه أبو داود أيضا من حديث حفص بن عمرو النخعي ثلاثهم عن شعبة عن حبيب عن حفص بن عاصم به مرسل وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قيل وقال أى الذى يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ، ولا تدبر ، ولا تبين وفي سنن أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بثس مطية الرجل زعموا » وفي الصحيح « من حدث يحدث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » ولنذكر ههنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق نساءه فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك فلم يصبر حتى استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فاستفهمه أطلقت نساءك ؟ فقال « لا » فقلت الله أكبر وذكر الحديث بطوله . وعند مسلم فقلت : أطلقتهم فقال « لا » فقلت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ونزلت هذه الآية (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر ومعنى يستنبطونه أى يستخرجونه من معادنه يقال استنبط الرجل العين إذا حفرها واستخرجها من قعورها وقوله (لا تبغم الشيطان إلا قليلا) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعنى المؤمنين وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (لا تبغم الشيطان إلا قليلا) يعنى كلهم واستشهد من نصر هذا القول بقول الطرماح بن حكيم فى مدح يزيد بن المهلب أئمت ندى كثير النوادى * قليل المثالب والقادحة

يعنى لا مثالبه ولا قادحة فيه

﴿ قَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ * مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا * وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْزِيَ عَنْكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يباشر القتال بنفسه ومن نكل عنه فلا عليه منه ولهذا قال (لا تكلف إلا نفسك) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن عمرو بن نبيح حدثنا حكام حدثنا الجراح الكندي عن أبي إسحق قال سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدو فيقاتل فيكون ممن قال الله فيه (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال : قد قال الله تعالى لنبيه فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين) ورواه الإمام أحمد عن سليمان بن داود عن أبي بكر بن عياش عن أبي إسحق قال : قلت للبراء الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة قال لا إن الله بعث رسوله ﷺ وقال (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك) إنما ذلك فى النفقة وكذا رواه ابن مردويه عن طريق أبي بكر بن عياش وعلى بن صالح عن أبي إسحق عن البراء به ثم قال ابن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن النضر العسكري حدثنا مسلم بن عبد الرحمن الحرثي حدثنا محمد بن حمير حدثنا سفيان الثوري عن أبي إسحق عن البراء قال : لما نزلت على النبي ﷺ (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين) الآية قال لأصحابه « قد أمرنى ربي بالقتال فقاتلوا » حديث غريب وقوله (وحرص المؤمنين) أى على القتال ورغبهم فيه وشجعهم عليه كما قال لهم ﷺ يوم بدر وهو يسوى الصفوف « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » وقد وردت أحاديث كثيرة فى الترغيب فى ذلك ، فمن ذلك ما رواه البخارى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، وصام رمضان ، كان حقاً على الله أن يدخله

الجنة هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها » قالوا يا رسول الله أفلا نبشر الناس بذلك ؟ فقال « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ؛ فإذا سألت الله فأسأله الفردوس فانه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ؛ وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » وروى من حديث عبادة ومعاذ وأبي الدرداء نحو ذلك . وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال يا أبا سعيد من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولا ونبياً وجبت له الجنة » قال فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها على يا رسول الله ففعل ثم قال : رسول الله ﷺ « وأخرى يرفع الله العبد بها مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » قال وماهى يا رسول الله ؟ قال « الجهاد في سبيل الله » رواه مسلم . وقوله (عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) أى بتحريضك إياهم على القتال تنبث همهم على مناجزة الأعداء . ومدافعهم عن حوزة الإسلام وأهله . ومقاومتهم ومصابرتهم . وقوله تعالى (والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً) أى هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضهم ببعض) الآية . وقوله (من يشفع شفاعته حسنة يكن له نصيب منها) أى من يسعى في أمر فيرتب عليه خير كان له نصيب من ذلك (ومن يشفع شفاعته سيئة يكن له كفل منها) أى يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه ونيتته كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « اشفعوا تؤجروا » ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء » وقال مجاهد بن جبر : نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض وقال الحسن البصرى قال الله تعالى (من يشفع) ولم يقل من يشفع ، وقوله (وكان الله على كل شيء مقبلاً) قال ابن عباس وعطاء وعطية وقتادة ومطر الوراق (مقبلاً) أى حفيظاً . وقال مجاهد شهيداً . وفي رواية عنه حسيباً . وقال سعيد بن جبير والسدى وابن زيد قديراً ، وقال عبد الله بن كثير : المقيت المواظب . وقال الضحاك : المقيت الرزاق وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الرحيم بن مطرف حدثنا عيسى بن يونس عن إسماعيل عن رجل عن عبد الله بن رواحة وسأله رجل عن قول الله تعالى (وكان الله على كل شيء مقبلاً) قال مقبلاً لكل إنسان بقدر عمله . وقوله (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) أى إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم ، أو ردوا عليه بمثل ما سلم فالزيادة مندوبة ، والمائلة مفروضة . قال ابن جرير حدثنا موسى بن سهل الرملى حدثنا عبد الله بن السرى الأنطاكي حدثنا هشام بن لاحق عن عاصم الأحول عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله فقال « وعليك السلام ورحمة الله » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ؛ فقال له رسول الله ﷺ « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فقال له « وعليك » فقال له الرجل : يابني الله بأبي أنت وأمي أتناك فلان وفلان فسلمنا عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت على . فقال « إنك لم تدع لنا شيئاً قال الله تعالى (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) فرددناها عليك » وهكذا رواه ابن أبي حاتم معلقاً فقال : ذكر عن أحمد بن الحسن والترمذي حدثنا عبد الله بن السرى أبو محمد الأنطاكي قال أبو الحسن وكان رجلاً صالحاً حدثنا هشام بن لاحق فذكر بإسناده مثله ، ورواه أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الباقي بن قانع حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبي حدثنا هشام بن لاحق أبو عثمان فذكر مثله ولم أره في السند والله أعلم . وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ ، وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن كثير أخو سلمان بن كثير حدثنا جعفر بن سليمان عن عوف عن أبي رجاء العطاردي عن عمران بن حصين أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : السلام عليكم يا رسول الله فرد عليه ثم جلس فقال « عشر » ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله فرد عليه ثم جلس فقال « عشرون » ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليه . ثم جلس فقال « ثلاثون » وكذا رواه أبو داود عن محمد بن كثير ، وأخرجه الترمذي والنسائي والبخاري من حديثه . ثم قال الترمذي حسن غريب من هذا الوجه . وفي الباب عن أبي سعيد وعلى وسهل بن حنيف . وقال البزار : قد روى هذا عن النبي ﷺ من وجوه هذا أحسنها إسناداً

وقال ابن أبي حاتم حدثنا ابن حرب الموصلي حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرواسي عن الحسن بن صالح عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسيا ذلك بأن الله يقول فحيوا بأحسن منها أو ردوها وقال قتادة فحيوا بأحسن منها يعني للمسلمين أو ردوها يعني لأهل النمة وهذا التنزيل فيه نظر كما تقدم في الحديث من أن المراد أن يرد بأحسن مما حياه به فإن بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام رد عليه مثل ما قال فأما أهل النمة فلا يبدءون بالسلام ولا يزدون بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال إذا سلم عليكم اليهود فإما يقول أحدهم السام عليكم فقل وعليك في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتموهم في طريق فاضطربوهم إلى أضيقه » وقال سفيان الثوري عن رجل عن الحسن البصري قال السلام تطوع والرد فريضة وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة أن الرد واجب على من سلم عليه فيأثم إن لم يفعل لأنه خالف أمر الله في قوله فحيوا بأحسن منها أو ردوها وقد جاء في الحديث الذي رواه (١) [أبو داود بسنده إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلأدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم »] وقوله الله لا إله إلا هو إخبار بتوحيده وتفريده بالالهية لجميع المخلوقات وتضمن قبا لقوله (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) وهذه اللام موطئة للقسم فقوله الله لا إله إلا هو خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد فيجازي كل عامل بعمله وقوله تعالى (ومن أصدق من الله حديثا) أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعدته ووعدته فلا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * وَذُؤا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاهِدُكُمْ حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا * سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾

يقول تعالى منكرا على المؤمنين في اختلافهم في المناققين على قولين: واختلف في سبب ذلك فقال الإمام أحمد حدثنا بهز حدثنا شعبة قال عدى بن ثابت أخبرني عبد الله بن يزيد عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقان فرقة تقول تقتلهم وفرقة تقول لا ، هم المؤمنون فأنزل الله (فما لكم في المناققين فتنة) فقال رسول الله ﷺ « إنها طيبة وإنها تنفي الحث كما ينفي الكبر خبث الحديد » أخرجه في الصحيحين من حديث شعبة وقد ذكر محمد بن إسحق بن يسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلاث الجيش رجع بثلاثمائة وبقى النبي ﷺ في سبعمائة وقال العوفي عن ابن عباس نزلت في قوم كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام وكانوا يظهرون المشركين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فثة من المؤمنين أركبوا إلى الجنباء فاقتلوهم فانهم يظهرون

(١) هنا بيان بالأصل ، وما بين القوسين ثابت في بعض النسخ فليراجع لفظ الحديث في الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى .

عليكم عدوكم وقالت فئة أخرى من المؤمنين سبحان الله أو كما قالوا أقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم نستحل دماءهم وأموالهم فكانوا كذلك فثنتين والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شيء فنزلت (فما لكم في المنافقين فئتين) رواه ابن أبي حاتم وقد روى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم قريب من هذا وقال زيد بن أسلم عن ابن لسعد بن معاذ أنها نزلت في تقاول الأوس والخزرج في شأن عبد الله بن أبي حنن استعذر منه رسول الله ﷺ على المنبر في قضية الافك وهذا غريب وقيل غير ذلك وقوله تعالى (والله أركسهم بما كسبوا) أي ردهم وأوقعهم في الخطأ قال ابن عباس (أركسهم) أي أوقعهم وقال قتادة أهلكهم وقال السدي أضلهم وقوله (بما كسبوا) أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل (أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا) أي لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه وقوله (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) أي هم يودون لكم الضلالة لتستوا أتم وإياهم فيها وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم ولهذا قال (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا) أي تركوا الهجرة قاله العوفي عن ابن عباس وقال السدي أظهروا كفرهم (فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا) أي لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك ثم استثنى الله من هؤلاء فقال (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) أي إلا الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم كحكمهم وهذا قول السدي وابن زيد وابن جرير وقد روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن أن سراقه بن مالك المدلجي حدثهم قال لما ظهر النبي ﷺ على أهل بدر وأسلم من حولهم قال سراقه بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج فأتيته فقلت أنشدك النعمة فقالوا صه فقال النبي ﷺ «دعوه ، ماتريد» قال بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام وإن لم يسلموا لم تخش قلوب قومك عليهم فآخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال «أذهب معه فافعل ما يريد» فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ وإن أسلمت قريش أسلموا معهم فأنزل الله (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء) ورواه ابن مردويه من طريق حماد بن سلمة وقال فأنزل الله (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم وهذا أنسب لسياق الكلام وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم ومن أحب أن يدخل في صلح محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وعهدهم . وقد روى عن ابن عباس أنه قال نسخها قوله (فإذا انسلكم الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) الآية وقوله (أو جاءكم حصرت صدورهم) الآية هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتلهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حصرة صدورهم أي ضيقة صدورهم مبغضين أن يقتلواكم ، ولا يهون عليهم أيضا أن يقتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم (ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقتلوكم) أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم (فإن اعتزلوكم فلم يقتلوكم وألقوا إليكم السلم) أي المسالمة (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أي فليس لكم أن تقتلواهم مادامت حالهم كذلك وهؤلاء كالجاعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره وقوله (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنواكم ويأمنوا قومهم) الآية هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم ولكن نية هؤلاء غير أولئك فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذرائعهم ويصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم وهم في الباطن مع أولئك كما قال تعالى (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) الآية وقال ههنا (كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) أي أنهمكوا فيها وقال السدي الفتنة ههنا الشرك . وحكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيركسون في الأوثان يتبعون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا ولهذا قال تعالى (فإن

لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم) المهادنة والصلح (ويكفوا أيديهم) أى عن القتال (فخذوهم) أسراء (واقبلوهم حيث تقفتموهم) أى أين لقيتموهم (وأولكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً) أى بينا واضحاً

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

يقول تعالى ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، إلا باحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى والتارك لدينه المفارق للجماعة » ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه وقوله (إلا خطأ) قالوا هو استثناء منقطع كقول الشاعر :

من البيض لم تظعن بعيداً ولم تطأ * على الأرض إلا ريط بردمرحل

ولهذا شواهد كثيرة واختلف في سبب نزول هذه فقال مجاهد وغير واحد نزلت في عياش بن أبى ربيعة أخى أبى جهل لأمه وهى أسماء بنت مخزومة وذلك أنه قتل رجلاً يعذبه مع أخيه على الإسلام وهو الحارث بن زيد الغامدى فأضمر له عياش السوء فأسلم ذلك الرجل وهاجر وعياش لا يشعر فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله فأنزل الله هذه الآية قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت فى أبى الدرداء لأنه قتل رجلاً وقد قال كلمة الإيمان حين رفع عليه السيف فأهوى به إليه فقال كلمته فلما ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم قال إنما قالها متعوداً فقال له هل شققت عن قلبه وهذه القصة فى الصحيح لغير أبى الدرداء وقوله (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله) هذان واجبان فى قتل الخطأ أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم وإن كان خطأ ومن شرطها أن تكون عتق رقة مؤمنة فلا تجزئ الكفارة ، وحكى ابن جرير عن ابن عباس والشعبي وإبراهيم النخعي والحسن البصرى أنهم قالوا لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصداً للإيمان وروى من طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال فى مصحف أبى فتحير رقة مؤمنة لا يجزئ فيها صبى واختار ابن جرير أنه إن كان مولوداً بين أبوين مسلمين أجزأ وإلا فلا والذى عليه الجمهور أنه متى كان مسلماً صح عتقه عن الكفارة سواء كان صغيراً أو كبيراً قال الإمام أحمد أنبأنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الله بن عبد الله عن رجل من الأنصار أنه جاء بأمة سوداء فقال يا رسول الله إن على عتق رقة مؤمنة فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقها فقال لمارسول الله صلى الله عليه وسلم «أتشهدين أن لا إله إلا الله» قالت نعم . قال: «أتشهدين أنى رسول الله» ؟ قالت نعم قال «أتؤمنين بالبعث بعد الموت» قالت نعم قال «أعتقها» وهذا إسناد صحيح وجهالة الصحابي لا تضره . وفى موطأ مالك ومسنند الشافعى وأحمد وصحيح مسلم وسنن أبى داود والنسائى من طريق هلال بن أبى ميمونة عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم «أين الله» قالت فى السماء قال «من أنا» قالت رسول الله ﷺ قال «أعتقها فانها مؤمنة» وقوله (ودية مسلمة إلى أهله) هو الواجب الثانى فيما بين القاتل وأهل القتل عوضاً لهم عما فاتهم من قتلهم وهذه الدية إنما تجب أخساراً كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث الحجاج بن أرطاة عن زيد بن جبير عن خشف

ابن مالك عن ابن مسعود قال قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دية الخطأ عشرين بنت مخاض وعشرين بنى مخاض ذكورا وعشرين بنت لبون وعشرين جذعة وعشرين حقة . لفظ النسائي قال الترمذي لانعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه وقد روى عن عبد الله موقوفا كما روى عن علي وطائفة وقيل تجب أربعا وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل لافي ماله قال الشافعي رحمه الله لم أعلم مخالفا أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة وهو أكثر من حديث الخاصة . وهذا الذي أشار إليه رحمه الله قد ثبت في غير ما حديث فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال اقتلت امرأتان من هذيل فرمت إحداها الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها فاختموها إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنيها غرة عبد أو أمة وقضى بدية المرأة على عاقلتها وهذا يقتضى أن حكم عمدا الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثا لشبهة العمد وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلا يقولون صبأنا صبأنا فجعل خالد يقتلهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع يديه وقال « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » وبعث علياً فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم حتى ميلغة الكلب وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال وقوله (إلا أن يصدقوا) أي فتجب فيه الدية مسالة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب وقوله (فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) أي إذا كان القاتل مؤمنا ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب فلا دية لهم وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير وقوله (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق) الآية أي فإن كان القاتل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتلهم فإن كان مؤمنا فدية كاملة وكذا إن كان كافرا أيضا عند طائفة من العلماء وقيل يجب في الكافر نصف دية المسلم وقيل ثلثها كما هو مفصل في كتاب الأحكام . ويجب أيضا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) أي لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرها فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا على قولين وقوله (توبة من الله وكان الله عليا حكيما) أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام هل يجب عليه إطعام ستين مسكنا كما في كفارة الظهار على قولين أحدهما نعم كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار وإنما لم يذكروا لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص . والقول الثاني لا يعدل إلى الطعام لأنه لو كان واجبا لما أخر بيانه عن وقت الحاجة (وكان الله عليا حكيما) قد تقدم تفسيره غير مرة . ثم لما بين تعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد فقال (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) الآية وهذا تهديد شديد ووعد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق) الآية وقال تعالى (قل تعالوا أثب ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا) الآية ، والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدا فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود من رواية عمرو بن الوليد ابن عبدة المصري عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ « لا يزال المؤمن معتقا صالحا ما لم يصب دما حراما فإذا أصاب دما حراما بلع^(١) » وفي حديث آخر « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم » وفي الحديث الآخر « لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم لأكبهم الله في النار » وفي الحديث الآخر « من أعان على قتل المسلم ولو بشرط كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله » وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدا . وقال البخاري حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا المغيرة بن النعمان قال سمعت ابن جبير قال اختلف فيها أهل الكوفة فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال نزلت هذه الآية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم) هي آخر ما نزل وما نسخها شيء وكذا رواه هو أيضا ومسلم والنسائي من طرق عن شعبة به ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل عن ابن مهدي عن سفيان الثوري عن مغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه

(١) معتقا : أي مسرعا في سيره ، و « بلع » بالتخفيف والتشديد أي انقطع من الاعياء والوهس

جهنم) فقال ما نسخها شيء . وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا ابن عون حدثنا شعبة عن سعيد بن جبير قال : قال عبد الرحمن بن أبيزى سئل ابن عباس عن قوله (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) الآية قال لم ينسخها شيء وقال في هذه الآية (والله ين لا يدعون مع الله إلها آخر) إلى آخرها قال نزلت في أهل الشرك . وقال ابن جرير أيضا حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن منصور حدثني سعيد بن جبير أو حدثني الحكم عن سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس عن قوله (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم) قال : إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام ثم قتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ولا توبة له فذكرت ذلك لمجاهد فقال إلا من ندم . حدثنا ابن حميد وابن وكيع قالا حدثنا جرير عن يحيى الجابري عن سالم ابن أبي الجعد قال كنا عند ابن عباس بعدما كلف بصره فأنا رجل فناداه يا عبد الله بن عباس ما ترى في رجل قتل مؤمنا متعمدا؟ فقال جزاؤه جهنم خالدها فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدله عذابا عظيما . قال أفأرأيت إن تاب وعمل صالحا ثم اهتدى؟ قال ابن عباس : شككته أمه وأتى له التوبة والهدى؟ والذي نفسي بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول « شككته أمه قاتل مؤمن متعمدا جاء يوم القيامة أخذته يمينه أو بشماله تشخب أوداجه من قبل عرش الرحمن يلزم قاتله بشماله ويديه الأخرى رأسه يقول يارب سل هذا فيم قتلني » وإيم الذي نفس عبد الله بيده لقد أنزلت هذه الآية فأنسخها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ وما نزل بعدها من برهان . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت يحيى بن الحميز يحدث عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس أن رجلا أتى إليه فقال أرأيت رجلا قتل رجلا عمدا؟ فقال جزاؤه جهنم خالدا فيها الآية قال لقد نزلت من آخر ما نزل ما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى قال وأتى له بالتوبة وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « شككته أمه رجل قتل رجلا متعمدا يجيء يوم القيامة أخذنا قاتله يمينه أو بيساره أو أخذنا رأسه يمينه أو بشماله تشخب أوداجه دما من قبل العرش يقول يارب سل عبدك فيم قتلني » وقد رواه النسائي عن قتبية وابن ماجه عن محمد بن الصباح عن سفيان بن عيينة عن عمار النهدي ويحيى الجابري وثابت الثمالي عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس فذكره وقدرى هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة ومن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف يزيد بن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وأبو سلمة بن عبد الرحمن وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك بن مزاحم نقله ابن أبي حاتم وفي الباب أحاديث كثيرة فمن ذلك ما رواه أبو بكر بن مردويه الحافظ في تفسيره حدثنا علي بن أحمد حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد البوشنجي (ح) وحدثنا عبد الله بن جعفر وحدثنا إبراهيم بن فهد قالا حدثنا عبيد بن عبيدة حدثنا معتمر بن سليمان عن أبيه عن الأعمش عن أبي عمرو بن شرحبيل بإسناده عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال « يجيء المقتول متعلقا بقاتله يوم القيامة أخذنا رأسه بيده الأخرى فيقول يارب سل هذا فيم قتلني ؟ قال فيقول قتلته لتكون العزة لك فيقول فإنها لي قال ويجيء آخر متعلقا بقاتله فيقول رب سل هذا فيم قتلني ؟ قال فيقول قتلته لتكون العزة لك قال فأنها ليست له بؤ بائنه قال فيهوى في النار سبعين خريفاً » وقد رواه النسائي عن إبراهيم بن المستمير العوفي عن عمرو بن عاصم عن معتمر بن سليمان به (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا ثور بن يزيد عن أبي عون عن أبي إدريس قال سمعت معاوية رضي الله عنه يقول : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا ، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا » وكذا رواه النسائي عن محمد بن محمد بن الثني عن صفوان بن عيسى به وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا سمويه حدثنا عبد الأعلى بن مسهر حدثنا صدقة بن خالد حدثنا خالد بن دهقان حدثنا ابن زكريا قال : سمعت أم الدرداء تقول سمعت أبا الدرداء يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركا ، أو من قتل مؤمنا متعمدا » وهذا غريب جدا من هذا الوجه . والمحفوظ حديث معاوية المتقدم فأنه أعلم . ثم روى ابن مردويه من طريق بقية بن الوليد عن نافع بن يزيد حدثني ابن جبير الأنصاري عن داود بن الحصين عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من قتل مؤمنا متعمدا فقد كفر بالله عز وجل » وهذا حديث منكر أيضا فإسناده تكلم فيه جدا : قال الإمام أحمد حدثنا النضر حدثنا سليمان بن المغيرة حدثنا حميد

قال : أتاني أبو العالية أنا وصاحب لي فقال لنا : هلمأنا أشب سنامي ، وأوعى للحديث مني فانطلق بنا إلى بشر ابن عاصم فقال له أبو العالية حدث هؤلاء حديثك فقال : حدثنا عقبة بن مالك الليثي قال : بعث رسول الله ﷺ سرية فأغار على قوم فشد مع القوم رجل فاتبه رجل من السرية شاهرا سيفه . فقال الشاد من القوم إني مسلم فلم ينظر فيما قال ، قال : فضربه فقتله فسمى الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال فيه قولاً شديداً ، فبلغ القاتل ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إذ قال القاتل . والله ما قال الذي قال إلا تعودا من القتل ، قال فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وعن من قبله من الناس وأخذ في خطبته ، ثم قال أيضا يا رسول الله ما قال الذي قال إلا تعودا من القتل فأعرض عنه وعن من قبله من الناس وأخذ في خطبته ثم لم يصبر حتى قال الثالثة والله يا رسول الله ما قال الذي قال إلا تعودا من القتل ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرف المساءة في وجهه فقال « إن الله أبي على من قتل مؤمنا ثلاثا ورواه النسائي من حديث سليمان بن الغيرة والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل ، فإن تاب وأتأب ، وخشع وخضع وعمل عملا صالحا بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلامته قال الله تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر - إلى قوله إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا) الآية وهذا خبر لا يجوز نسخه وحمله على الشركين وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر ، ويحتاج حمله إلى دليل والله أعلم . وقال تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية وهذا عام في جميع الذنوب من كفر وشرك وفسق وفساد وغير ذلك كل من تاب أي من أي ذلك تاب الله عليه ، قال الله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء والله أعلم . وثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ، ثم سأل عالما هل لي من توبة فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ، ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه فهاجر إليه فمات في الطريق فقبضته ملائكة الرحمة كما ذكرناه غير مرة ، وإذا كان هذا في بني إسرائيل فلا أن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم ، وبعث نبينا بالحنفية السمحة . فأما الآية الكريمة وهي قوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمداً) الآية . فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف هذا جزاؤه إن جازاه ، وقد رواه ابن مردويه بإسناده مرفوعا من طريق محمد بن جامع العطار عن العلاء بن ميمون العنبري عن حجاج الأسود عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعا ولكن لا يصح ، ومعنى هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزى عليه ، وكذا كل وعيد على ذنب لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه على قول أصحاب الموازنة والاحباط وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد والله أعلم بالصواب وبتقدير دخول القاتل في النار ، أما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له ، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحا ينجو به فليس بمخلد فيها أبداً ، بل الخلود هو المكث الطويل وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان » وأما حديث معاوية « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا ، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا » فعسى للترجي فإذا اتنى الترجي في هاتين الصورتين لا تنفي وقوع ذلك في أحدهما وهو القتل لما ذكرنا من الأدلة وأما من مات كافرا فالنص أن الله لا يغفر له البتة ، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فانه حق من حقوق الآدميين وهي لا تسقط بالتوبة ، ولكن لا بد من ردها إليهم ولا فرق بين المقتول والمسروق منه ، والغصب منه والمقتوف وسائر حقوق الآدميين ، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة ، ولكنه لا بد من ردها إليهم في صحة التوبة فإن تعذر ذلك فلا بد من المطالبة يوم القيامة ، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع الجزاء ، إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها ، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة أو يعوض الله المقتول بما يشاء من فضلة من قصور الجنة ونعيمها ، ورفع درجته فيها ونحو ذلك والله أعلم ، ثم لقاتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة فأما في

الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه ، قال الله تعالى (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) الآية ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا ، أو يعفوا ، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثا - ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة كما هو مقرر في كتاب الأحكام واختلف الأئمة هل تجب عليه كفارة عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام على أحد القولين كما تقدم في كفارة الخطأ على قولين فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون نعم يجب عليه لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ فلائ تجب عليه في العمد أولى فطردوا هذا في كفارة اليمين الغموس واعتذروا بقضاء الصلاة التروكة عمدا كما أجمعوا على ذلك في الخطأ . وقال أصحابه الإمام أحمد وآخرون : قتل العمد أعظم من أن يكفر فلا كفارة فيه وكذا اليمين الغموس ولا سبيل لهم إلى الفرق بين هاتين الصورتين وبين الصلاة التروكة عمدا فانهم يقولون بوجوب قضائها إذا تركت عمدا وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا عامر بن الفضل حدثنا عبد الله بن المبارك عن إبراهيم بن أبي عبلة عن الغريفي بن عياش عن واثلة بن الأسقع قال أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا إن صاحبنا لنا قد أوجب قال « فليعتق رقبة يفدى الله بكل عضو منها عضوا منه من النار » وقال أحمد حدثنا إبراهيم بن إسحق حدثنا ضمرة بن ربيعة عن إبراهيم بن أبي عبلة عن الغريفي الديلمي قال : أتينا واثلة بن الأسقع الليثي قتلنا حدثنا حديثا ممعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صاحب لنا قد أوجب فقال « أعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار » وكذا رواه أبو داود والنسائي من حديث إبراهيم بن أبي عبلة به ولفظ أبي داود عن الغريفي الديلمي قال أتينا واثلة بن الأسقع قتلنا له حدثنا حديثا ليس فيه زيادة ولا نقصان فغضب فقال : إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته فيزيد وينقص ، قلنا إنما أردنا حديثا ممعته من رسول الله ﷺ ، قال أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب يعني النار بالقتال فقال « أعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار »

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن ءَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَائِمٌ كَذَلِكَ كُنْتُم مِّن قَبْلُ فَمِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِتْنَةٌ إِنْ ءَلَّكَ كَانَ يَأْمُرُكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن أبي بكر وخلف بن الوليد وحسين بن محمد قالوا حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنما له فسلم عليهم فقالوا لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه النبي ﷺ فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا) إلى آخرها . ورواه الترمذي في التفسير عن عبد بن حميد عن عبد العزيز بن أبي رزمة عن إسرائيل به ثم قال هذا حديث حسن صحيح . وفي الباب عن أسامة بن زيد ورواه الحاكم من طريق عبيد الله بن موسى عن إسرائيل به ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ورواه ابن جرير من حديث عبيد الله بن موسى وعبد الرحيم بن سليمان كلاهما عن إسرائيل به . وقال في بعض كتبه غير التفسير وقد رواه من طريق عبد الرحمن فقط وهذا خبر عندنا صحيح سنده وقد يجب أن يكون على مذهب الآخرين سيما لعل منها أنه لا يعرف له مخرج عن سماك إلا من هذا الوجه ، ومنها أن عكرمة في روايته عندهم نظر ، ومنا أن الذي نزل فيه هذه الآية عندهم مختلف فيه فقال بعضهم نزلت في محم ابن جثامة وقال بعضهم أسامة بن زيد وويل : غير ذلك قلت وهذا كلام غريب وهو مردود من وجوه أحدها أنه ثابت عن سماك حدث به عنه غير واحد من الأئمة الكبار الثاني أن عكرمة محتج به في الصحيح الثالث أنه مروى من غير هذا الوجه عن ابن عباس كما قال البخاري حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا) قال : قال ابن عباس كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون فقال السلام

عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمة فأنزل الله في ذلك (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) قال ابن عباس عرض الدنيا تلك الغنيمة وقرأ ابن عباس (السلام) وقال سعيد بن منصور حدثنا منصور عن عمرو بن دينار عن عطاء بن يسار عن ابن عباس قال لحق المسلمون رجلاً في غنيمة له فقال السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمة فنزلت (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق سفيان ابن عيينة به وقد (١) في ترجمة : أن أخاه فزارا هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر أبيه بإسلامهم وإسلام قومهم فلقية سرية لرسول الله ﷺ في عمارة الليل وكان قد قال لهم إنه مسلم فلم يقبلوا منه فقتلوه فقال أبوه قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني ألف دينار ودية أخرى وسيرني فنزل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله) الآية : وأما قصة محم بن جثامة فقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يعقوب حدثني أبي عن محمد بن إسحق حدثنا يزيد بن عبد الله بن قسيط عن القعقاع بن عبد الله بن أبي حذرد رضي الله عنه قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إضم فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي ومحم بن جثامة بن قيس فخرجنا حتى إذا كنا بيطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له معه متبع له ووطب من لبن فلما مر بنا سلم علينا فأمسكنا عنه وحمل عليه محم بن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه ، وأخذ بعيره ومتبعه ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرناه الخبر نزل فينا (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله - إلى قوله تعالى - خيراً) تفرد به أحمد . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا جرير عن أبي إسحق عن نافع عن ابن عمر قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محم بن جثامة مبعثاً فلقهم عامر بن الأضبط فجاءهم بتحية الإسلام وكانت بينهم إحنة في الجاهلية فرماهم عليه وسلم محم بن جثامة فقتله فجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلهم فيه عينة والأقرع فقال الأقرع يا رسول الله سر اليوم وغر غداً فقال عينة لا والله حتى تذوق نساؤه من الشك ما ذاق نساؤه فجاء محم في بردين فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستغفر له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا غفر الله لك » فقام وهو يلقى دموعه يريده فما مضت له ساعة حتى مات ودفنوه فلفظته الأرض فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له فقال « إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظكم » ثم طرحوه بين صدف جبل وألقوا عليه الحجارة فنزلت (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) الآية . وقال البخاري قال حبيب بن أبي عمرة عن سعيد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ للمقداد « إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته فكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة من قبل » هكذا ذكره البخاري معلقاً مختصراً وقد روى مطولاً موصلاً . فقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا حماد بن علي البغدادي حدثنا جعفر بن سلمة حدثنا أبو بكر بن علي بن مقدم حدثنا حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد بن الأسود فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير لم يبرح فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأهوى إليه المقداد فقتله فقال له رجل من أصحابه أقتلت رجلاً شهيداً أن لا إله إلا الله ؟ والله لأذكرن ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله إن رجلاً شهيداً أن لا إله إلا الله فقتله المقداد فقال « ادعوا لي المقداد » فمقداد أقتلت رجلاً يقول لا إله إلا الله فكيف لك بلا إله إلا الله غداً قال فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمقداد « كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل » . وقوله (فعند الله مغانم كثيرة) أي خير مما رغبت فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام ، وأظهر لكم الإيمان فتغافلتم عنه واتهمتموه بالمصانعة والتقية لتبغوا عرض الحياة الدنيا فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا وقوله (كذلك كنتم من قبل فمن

(١) بياض في الأصل ، ومن هنا إلى قوله : « وأما قصة محم » إلخ ساقط من نسخة الأزهر .

الله عليكم) أى قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذى يسر إيمانيه ويخفيه من قومه كما تقدم فى الحديث الرفوع آتفا وكما قال تعالى (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) الآية وهذا مذهب سعيد بن جبير لما رواه الثورى عن حبيب بن أبى عمرة عن سعيد بن جبير فى قوله (كذلك كنتم من قبل) تخفون إيمانكم فى المشركين ورواه عبد الرزاق عن ابن جريج أخبرنى عبد الله بن كثير عن سعيد بن جبير فى قوله (كذلك كنتم من قبل) تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعى بإيمانه. وهذا اختيار ابن جرير وقال ابن أبى حاتم وذكر عن قيس عن سالم عن سعيد بن جبير قوله (كذلك كنتم من قبل) لم تكونوا مؤمنين (فمن الله عليكم) أى تاب عليكم فحلف أسامة لا يقتل رجلا يقول لا إله إلا الله بعد ذلك الرجل ومالقي من رسول الله ﷺ فيه ، وقوله (فتبينوا) تأكيد لما تقدم وقوله (إن الله كان بما تعملون خبيرا) قال سعيد بن جبير هذا تهديد ووعيد

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

قال البخارى حدثنا حفص بن عمر حدثنا شعبة عن أبى إسحق عن البراء قال لما نزلت (لا يستوى القاعدون من المؤمنين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا فكتبها فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته فأنزل الله (غير أولى الضرر) حدثنا محمد بن يوسف عن إسرائيل عن أبى إسحق عن البراء قال لما نزلت (لا يستوى القاعدون من المؤمنين) قال النبى ﷺ ادع فلانا فجاءه معه الدواة واللوح والكتف فقال اكتب (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) وخلف النبى ﷺ ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله أنا ضرير فزلت مكانها (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله) قال البخارى أيضا حدثنا إسماعيل بن عبد الله حدثنى إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب حدثنى سهل بن سعد الساعدى أنه رأى مروان بن الحكم فى المسجد قال فأقبلت حتى جلست إلى جنبه فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أملى على (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) فجاءه ابن أم مكتوم وهو يعلها على قال يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله على رسوله ﷺ وكان فخذة على فخذى ثقلت على حتى خفت أن ترض فخذى ثم سرى عنه فأنزل الله (غير أولى الضرر) تفرد به البخارى دون مسلم وقد روى من وجه آخر عند الإمام أحمد عن زيد فقال حدثنا سليمان بن داود أنبأنا عبد الرحمن عن أبى الزناد عن خارجة بن زيد قال : قال زيد بن ثابت إني قاعد إلى جنب النبى ﷺ إذا وحي إليه وغشيته السكينة قال فرفع فخذة على فخذى حين غشيته السكينة قال زيد فلا والله ما وجدت شيئا قط أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثم سرى عنه فقال اكتب يا زيد فأخذت كتفا فقال اكتب (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون) إلى قوله (أجراً عظيماً) فكتبت ذلك فى كتف فقام حين سمعها ابن أم مكتوم وكان رجلاً أعمى فقام حين سمع فضيلة المجاهدين وقال يا رسول الله وكيف بمن لا يستطيع الجهاد ومن هو أعمى وأشبه ذلك قال زيد فوالله ما قضى كلامه أو ما هو إلا أن قضى كلامه - غشيت النبى ﷺ السكينة فوقت فخذة على فخذى فوجدت من ثقلها كما وجدت فى المرة الأولى ثم سرى عنه فقال اقرأ فقرأت عليه (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون) فقال النبى ﷺ (غير أولى الضرر) قال زيد فألحقها فوالله كأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع كان فى الكتف ورواه أبو داود عن سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه به نحوه . وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر أنبأنا الزهرى عن قبيصة بن ذؤيب عن زيد بن ثابت قال كنت أكتب لرسول الله ﷺ فقال « اكتب (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) » فجاء عبد الله ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله إني أحب الجهاد فى سبيل الله ولكنى

من الزمان ما قد ترى، قد ذهب بصري قال زيد فتقلت فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي حتى خشيت أن ترضها ثم سري عنه ثم قال «أكتب (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله)» رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج أخبرني عبد الكريم هو ابن مالك الجريري أن مقسماً مولى عبد الله بن الحارث أخبره أن ابن عباس أخبره (لا يستوى القاعدون من المؤمنين) عن بدر والخارجون إلى بدر انفرد به البخاري دون مسلم وقد رواه الترمذي من طريق حجاج عن ابن جريج عن عبد الكريم عن مقسم عن ابن عباس قال (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) عن بدر والخارجون إلى بدر. ولما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم إنا أعميان يا رسول الله فهل لنا رخصة؟ فنزلت (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة فهو لاء القاعدون غير أولى الضرر (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه) على القاعدين من المؤمنين غير أولى الضرر. هذا لفظ الترمذي ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. ف قوله (لا يستوى القاعدون من المؤمنين) كان مطلقاً فلما نزل بوحى سريع (غير أولى الضرر) صار ذلك مخيراً لدوى الأعداء المبيحة لترك الجهاد من العمى والعرج والمرضى عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين قال ابن عباس: غير أولى الضرر وكذا ينبغي أن يكون كما ثبت في صحيح البخاري من طريق زهير بن معاوية عن حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيهم قالوا وهم بالمدينة يا رسول الله؟ نعم حبسهم العذر» ويمكن رواه أحمد عن محمد بن عدي عن حميد عن أنس به وعلقه البخاري مجزوماً ورواه أبو داود عن حماد بن سلمة عن حميد عن موسى بن أنس بن مالك عن أبيه عن النبي ﷺ قال «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا أفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا وكيف يكونون معنا فيه يا رسول الله؟ قال «نعم حبسهم العذر» لفظ أبي داود وفي هذا المعنى قال الشاعر

ياراحلين إلى البيت العتيق لقد * سرتهم جسوماً وسرنا نحن أرواحا

إنا أقننا على عذر وعن قدر * ومن أقام على عذر فقد راحا

وقوله (وكلا وعد الله الحسنى) أي الجنة والجزاء الجزيل. وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين بل هو فرض على الكفاية. قال تعالى (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً) ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات، في غرف الجنان العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وأحوال الرحمة والبركات، إحساناً منه وتكريماً ولهذا قال (درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً)

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» وقال الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «من رمى بسهم فله أجره درجة» فقال رجل يا رسول الله وما الدرجة؟ فقال «أما إنها ليست بعتبة أمك. ما بين الدرجتين مائة عام»

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَ مَا أَوْهَمُهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * قَالُوا لَيْتَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

قال البخاري : حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا حيوة وغيره قالوا : حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود قال : قطع على أهل المدينة بعث فاكنتت فيه فلقبت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته فنهاني عن ذلك أشد النهي قال : أخبرني ابن عباس أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكترون سوادهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي السهم يرمي به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب عنقه فيقتل ، فأنزل الله (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) رواه الليث عن أبي الأسود . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور الرمادي حدثنا أبو أحمد يعني الزبيري حدثنا محمد بن شريك المكي حدثنا عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام . فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم قال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) الآية قال فكتب إلى من بقى من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم ^(١) قال فخرجوا فلقه جهنم المشركون فأعطوهم التقية فنزلت هذه الآية (ومن الناس من يقول آمنا بالله) الآية . قال عكرمة : نزلت هذه الآية في شباب من قريش كانوا تكلموا بالإسلام بمكة منهم علي بن أمية بن خلف وأبو قيس بن الوليد بن الغيرة وأبو منصور بن الحجاج والحارث بن زعمة ، قال الضحاك نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب ، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنا من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع ، وبص هذه الآية حيث يقول تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) أى بترك الهجرة (قالوا فيم كنتم) أى لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة (قالوا كنا مستضعفين في الأرض) أى لا تقدر على الخروج من البلد ، ولا الذهاب في الأرض (قالوا ألم تكن أرض الله واسعة) الآية : وقال أبو داود حدثنا محمد بن داود ابن سفيان حدثني يحيى بن حسان أخبرنا سليمان بن موسى أبو داود حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة بن يزيد حدثني حبيب بن سليمان عن أبيه سليمان بن سمرة عن سمرة بن جندب ، أما بعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله » وقال السدي : لما أسر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس « افد نفسك وابن أخيك » فقال يا رسول الله ألم تصل إلى قتلتي ، ونشهد شهادتك ، قال « يا عباس إنكم خاصمتم فخصمتم » ثم تلا عليه هذه الآية (ألم تكن أرض الله واسعة) الآية رواه ابن أبي حاتم ، وقوله (إلا المستضعفين) إلى آخر الآية ، هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق ، ولهذا قال (لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) قال مجاهد وعكرمة والسدي معنى طريقا ، وقوله تعالى (فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم) أى يتجاوز من الله عنهم بترك الهجرة وعسى من الله موجبة (وكان الله غفورا رحيما) قال البخاري : حدثنا أبو نعيم حدثنا شيان عن يحيى عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال سمع الله لمن حمده ؛ ثم قال قبل أن يسجد « اللهم أنج عياش ابن أبي ربيعة ، اللهم أنج سلمة بن هشام ، اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو معمر المقرئ حدثني عبد الوارث حدثنا علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ رفع يده بعد ما سلم وهو مستقبل القبلة فقال « اللهم خلص الوليد بن الوليد ، وعياش بن أبي ربيعة ، وسلمة بن هشام ، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا من أيدي الكفار » وقال ابن جرير حدثنا الثني حدثنا حجاج حدثنا حماد عن علي بن زيد عن عبد الله أو إبراهيم بن عبد الله القرشي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يدعو في صلاة الظهر « اللهم خلص الوليد وسلمة بن هشام ، وعياش ابن أبي ربيعة ، وضعفة المسلمين من أيدي المشركين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » ولهذا الحديث شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه كما تقدم وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة عن عبيد الله بن أبي يزيد قال سمعت ابن عباس يقول كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان ، وقال البخاري : أنبأنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن أيوب بن أبي مليكة عن ابن عباس (إلا المستضعفين) قال كنت أنا وأمي ممن عذر الله عز وجل ، وقوله (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة وهذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين وأن المؤمن حينما ذهب وجد

(١) قوله : فكتب إلى من بقى من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم الخ كذا في النسخ وحرر .

عنه مندوحة وملجأ يتحصن فيه ، والمراغم مصدر تقول العرب راغم فلان قومه مراغما ومراغمة ، قال النابغة ابن جعدة :
كطود يلاذ بأركانه * عزيز المراغم والمهرب

وقال ابن عباس : المراغم التحول من أرض إلى أرض . وكذا روى عن الضحاك والريبع بن أنس والثوري ، وقال مجاهد : مراغما كثيرا يعني متزحزا عما يكره ، وقال سفيان بن عيينة مراغما كثيرا يعني بروجها والظاهر والله أعلم أنه المنع الذي يتخلص به ويراعى به الأعداء ، قوله (وسعة) يعني الرزق قاله غير واحد منهم قتادة حيث قال في قوله (يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة) أى من الضلالة إلى الهدى ، ومن القلة إلى الغنى ، وقوله (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) أى ومن يخرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن من طريق يحيى بن سعيد الأنصارى عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن أبي وقاص الليثي عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه . وهذا عام في الهجرة وفي جميع الأعمال . ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا . ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سأل عالما هل له من توبة . فقال له ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد أخرى يعبد الله فيه . فلما ارتحل من بلده مهاجرا إلى البلد الأخرى أدركه الموت في أثناء الطريق فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقال هؤلاء إنه جاء تائبا ، وقال هؤلاء إنه لم يصل بعد ، فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه . وهذه أن تبعد فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة ، وفي رواية أنه لما جاءه الموت ناء بصدده إلى الأرض التي هاجر إليها . قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن إسحق عن محمد بن إبراهيم عن محمد بن عبد الله ابن عتيك عن أبيه عبد الله بن عتيك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من خرج من بيته مجاهدا في سبيل الله ، ثم قال وأين المجاهدون في سبيل الله فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله ، أولدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله ، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله » يعني يحتف أنفه على فراشه ، والله إنها لكلمة ماسعتهما من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ ومن قتل قصاصا فقد استوجب الجنة : وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة الخزاعي حدثني عبد الرحمن بن الغيرة الخزاعي عن النضر بن عبد الله عن هشام ابن عروة عن أبيه أن الزبير بن العوام قال : هاجر خالد بن حزام إلى أرض الحبشة فنهشته حية في الطريق فمات فنزلت فيه (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما) قال الزبير فكنت أتوقعه وأتظر قدومه وأنا بأرض الحبشة فما أحزنني شيء وفاته حين بلغتني لأنه قل أحد من هاجر من قريش إلا ومعه بعض أهله ، أو ذوى رحمه . ولم يكن معي أحد من بني أسد بن عبد العزى ولا أرجو غيره وهذا الأثر غريب جدا ، فإن هذه القصة مكية ونزول هذه الآية مدني ، فلعله أراد أنها تعم حكمه مع غيره وإن لم يكن ذلك سبب النزول والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا سليمان بن داود مولى عبد الله بن جعفر حدثنا سهل بن عثمان حدثنا عبد الرحمن بن سليمان حدثنا أشعث هو ابن سوار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله) الآية : وحدثنا أبي حدثنا عبد الله ابن رجاء أنبأنا إسرائيل عن سالم عن سعيد بن جبير عن ضمرة بن العيص الزرقى الذي كان مصاب البصر وكان بمكة فلما نزلت (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة) فقلت إني لفتى ، وإني لدوحيلة فتجهز يريد النبي ﷺ فأدركه الموت بالتعم فنزلت هذه الآية (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه

(الموت) الآية . وقال الطبراني حدثنا الحسن بن عروبة البصري حدثنا حيوة بن شريح الحمصي حدثنا بقيق بن الوليد حدثنا ابن ثوبان عن أبيه حدثنا مكحول عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري أنبأنا أبو مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله قال من اتدب خارجا في سبيل ، غازيا ابتغاء وجهي ، وتصديق وعدى ، وإيمانا برسلي فهو في ضمان على الله ، إما أن يتوفاه بالجيش فيدخله الجنة ، وإما أن يرجع في ضمان الله ، وان طالب عبدا فنغصه حتى يرده إلى أهله مع مانال من أجر ، أو غنيمة . ونال من فضل الله فمات ، أو قتل ، أو رفضته فرسه ، أو بعيره أو لدغته هامة أو مات على فراشه بأى حشف شاء الله فهو شهيد » وروى أبو داود من حديث بقيق من فضل الله إلى آخره ، وزاد بعد قوله فهو شهيد وإن له الجنة ، وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا إبراهيم بن زياد حدثنا أبو معاوية حدثنا محمد بن إسحاق عن حميد بن أبي حميد عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من خرج حاجا فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمرا فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازيا في سبيل الله فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة » وهذا حديث غريب من هذا الوجه

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾

يقول تعالى (وإذا ضربتم في الأرض) أى سافرتم في البلاد كما قال تعالى (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله) الآية . وقوله (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) أى تخففوا فيها إما من كيتها بأن تجعل الرابعة ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية ، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك فمن قائل لابد أن يكون سفر طاعة من جهاد ، أو حج ، أو عمرة ، أو طلب علم ، أو زيارة ، أو غير ذلك كما هو مروي عن ابن عمر وعطاء ويحيى عن مالك في رواية عنه نحوه لظاهر قوله (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) ومن قائل لا يشترط سفر القربة . بل لابد أن يكون مباحا لقوله (فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم) الآية ، كما أباح له تناول الميتة مع الاضطرار بشرط أن لا يكون عاصيا بسفره وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة ، وقد قال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا وكيع عن الأعمش عن إبراهيم قال : جاء رجل فقال يارسول الله إني رجل تاجر أختلف إلى البحرين فأمره أن يصلي ركعتين فهذا مرسل . ومن قائل يكفي مطلق السفر سواء كان مباحا أو محظورا حتى لو خرج لقطع الطريق وإخافة السبيل ترخص لوجود مطلق السفر وهذا قول أبي حنيفة والثوري وداود لعموم الآية وخالفهم الجمهور ، وأما قوله تعالى (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية ، فان في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم خوفا ، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام ، أو في سرية خاصة . وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله ، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له كقوله تعالى (ولا تكثرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) وكقوله تعالى (وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم) الآية وقال الإمام أحمد حدثنا ابن إدريس حدثنا ابن جريج عن أبي عمار عن عبد الله بن ربيعة عن يعلى بن أمية قال : سألت عمر بن الخطاب قلت له قوله (ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) وقد أمن الناس ، فقال لي عمر رضى الله عنه : عجت مما عجت منه ، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث ابن جريج عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار به . وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح : وقال علي بن المديني هذا حديث حسن صحيح من حديث عمر ولا يحفظ إلا من هذا الوجه ورجاله معروفون : وقال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو يعلى حدثنا مالك بن مغول عن أبي حنظلة الخذاء قال سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال : ركعتان . فقلت أين فوله (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) ونحن آمنون ،

فقال : سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن محمد بن عيسى حدثنا علي بن محمد بن سعيد حدثنا مناجب حدثنا شريك عن قيس بن وهب عن أبي الوداك قال : سألت ابن عمر عن ركعتين في السفر فقال : هي رخصة نزلت من السماء فان شئتم فردوها . وقال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يزيد بن هرون حدثنا ابن عون عن ابن سيرين عن ابن عباس قال : صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف بينهما ركعتين ركعتين . وهكذا رواه النسائي عن محمد بن عبد الأعلى عن خالد الحذاء عن عبد الله بن عون به . قال أبو عمر بن عبد البر وهكذا رواه أيوب وهشام ويزيد بن إبراهيم التستري عن محمد بن سيرين عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ مثله قلت وهكذا رواه الترمذي والنسائي جميعا عن قتيبة عن هشيم عن منصور عن زاذان عن محمد بن سيرين عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا رب العالمين فصلي ركعتين ثم قال الترمذي صحيح ؛ وقال البخاري حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا يحيى بن أبي إسحق قال سمعت أنسا يقول خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة ، قلت : أقمتم بمكة شيئا قال : أقمنا بها عشرا . وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طرق عن يحيى بن أبي إسحق الحضرمي به وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن أبي إسحق عن حارثة بن وهب الخزازي قال : صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر بمى أكثر ما كان الناس وآمنه ركعتين . ورواه الجماعة سوى ابن ماجه من طرق عن ابن أبي إسحق السبيعي عنه به ، ولفظ البخاري حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة أنبأنا أبو إسحق سمعت حارثة بن وهب قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن ما كان بمى ركعتين . وقال البخاري حدثنا مسدد حدثنا يحيى حدثنا عبيد الله أخبرني نافع عن عبد الله بن عمر قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين وأبى بكر وعمر وعثمان صدرا من إمارته ثم أمها وكذا رواه مسلم من حديث يحيى بن سعيد القطان به وقال البخاري حدثنا قتيبة حدثنا عبد الواحد عن الأعمش حدثنا إبراهيم سمعت عبد الرحمن بن يزيد يقول : صلى بنا عثمان بن عفان رضي الله عنه بمى أربع ركعات قليل في ذلك لعبد الله ابن مسعود رضي الله عنه فاسترجع ، ثم قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمى ركعتين وصليت مع أبي بكر بمى ركعتين وصليت مع عمر بن الخطاب بمى ركعتين ، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان ورواه البخاري أيضا من حديث الثوري عن الأعمش به وأخرجه مسلم من طرق عنه منها عن قتيبة كما تقدم . فهذه الأحاديث دالة صريحا على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف ولهذا قال من قال من العلماء إن المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية وهو قول مجاهد والضحاك والسدي كما سيأتي بيانه واعتضدوا أيضا بما رواه الإمام مالك عن صالح بن كيسان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر فأقربت صلاة السفر ؛ وزيد في صلاة الحضر وقد روى هذا الحديث البخاري عن عبد الله بن يوسف التنيسي ومسلم عن يحيى بن يحيى وأبو داود عن القعني والنسائي عن قتيبة أربعمهم عن مالك به قالوا فإذا كان أصل الصلاة في السفر هي الثنتين فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية لأن ما هو الأصل لا يقال فيه (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) وأصرح من ذلك دلالة على هذا ما رواه الإمام أحمد : حدثنا وكيع وسفيان وعبد الرحمن عن زيد اليامي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عمر رضي الله عنه قال : صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الفطر ركعتان ، وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . وهكذا رواه النسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من طرق عن زيد اليامي به وهذا إسناد على شرط مسلم . وقد حكم مسلم في مقدمة كتابه بسباع ابن أبي ليلى عن عمر ، وقد جاء مصرحا به في هذا الحديث وفي غيره وهو الصواب إن شاء الله وإن كان يحيى بن معين وأبو حاتم والنسائي قد قالوا إنه لم يسمع منه وعلى هذا أيضا فقال فقد وقع في بعض طرق أبي يعلى الوصل من طريق الثوري عن زيد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن الثقة عن عمر فذكره ، وعند ابن ماجه من طريق يزيد بن أبي زياد بن أبي الجعد عن زيد عن عبد الرحمن عن كعب بن عجرة عن عمر فآله أعلم . وقد روى مسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي عوانة الوضاح ابن عبد الله الشكري

زاد مسلم والنسائي وأيوب بن عائذ كلاهما عن بكير بن الأحنس عن مجاهد عن عبد الله بن عباس قال : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم في الحضر أربعا وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة ، فكما يصلى في الحضر قبلها وبعدها فكذلك يصلى في السفر . ورواه ابن ماجه من حديث أسامة بن زيد عن طاوس نفسه فهذا ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولا ينافي ما تقدم عن عائشة رضي الله عنها لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان ولكن زيد في صلاة الحضر ، فلما استقر ذلك صح أن يقال إن فرض صلاة الحضر أربع كما قاله ابن عباس والله أعلم لكن اتفق حديث ابن عباس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان وأنها تامة غير مقصورة كما هو مصرح به في حديث عمر رضي الله عنه ، وإذا كان كذلك فيكون المراد بقوله تعالى (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) قصر الكيفية كما في صلاة الخوف ، ولهذا قال (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) الآية ، ولهذا قال بعدها (وإذا كنتم فيهم فأقمتم لهم الصلاة) الآية ، فبين المقصود من القصر ههنا وذكر صفته وكيفيته ولهذا لما عقد البخاري كتاب صلاة الخوف صدره بقوله تعالى (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) إلى قوله (إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا) وهكذا قال جوير عن الضحاك في قوله (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) قال : ذلك عند القتال يصلى الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه ، وقال أسباط عن السدي في قوله (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم) الآية ، ان الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر فهي تمام التقصير لا يحل إلا أن يخاف من الذين كفروا أن يفتنوه عن الصلاة فالتقصير ركعة ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) يوم كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعسفان والمشركون بضجنان فتوافقوا فصلى النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات بركوعهم ، وسجودهم ، وقيامهم معا جميعا ، فهم بهم المشركون أن يغيروا على أمتهم وأتقاهم . روى ذلك ابن أبي حاتم ورواه ابن جرير عن مجاهد والسدي وعن جابر وابن عمرو واختار ذلك أيضا فإنه قال بعد ما حكاه من الأقوال في ذلك وهو الصواب . وقال ابن جرير حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا بن أبي فديك حدثنا بن أبي ذئب عن ابن شهاب عن أمية بن عبد الله بن خاله بن أسيد أنه قال لعبد الله بن عمر : إننا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف ولا نجد قصر صلاة المسافر ، فقال عبد الله : إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملا عملنا به فقد سمي صلاة الخوف مقصورة وحمل الآية عليها لا على قصر صلاة المسافر ، وأقره ابن عمر على ذلك واحتج على قصر الصلاة في السفر بفعل الشارع لا بنص القرآن ، وأصرح من هذا ما رواه ابن جرير أيضا . حدثنا أحمد بن الوليد القرشي حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك الحنفي قال سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال : ركعتان تمام غير قصر إنما القصر في صلاة الخوف قلقت وما صلاة الخوف ؟ فقال يصلى الإمام بطائفة ركعة ثم يحى هؤلاء إلى مكان هؤلاء ويحى هؤلاء إلى مكان هؤلاء فيصلون بهم ركعة فيكون للامام ركعتان ولكل طائفة ركعة ركعة .

﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَفْعَلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

صلاة الخوف أنواع كثيرة فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة وتارة يكون في غير صوبها ، والصلاة تارة تكون رباعية وتارة تكون ثلاثية كالمغرب ، وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر ، ثم تارة يصلون جماعة وتارة يلتحم الحرب فلا يقدر على الجماعة ، بل يصلون فرادى مستقبل القبلة وغير مستقبلها ورجالا وركبانا : ولهم أن يمشوا والحالة هذه

ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة . ومن العلماء من قال : يصلون والحالة هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم وبه قال أحمد بن حنبل ، قال النذري في الحواشي ، وبه قال عطاء وجابر والحسن ومجاهد والحكم وقتادة وحماد واليه ذهب طاوس والضحاك ، وقد حكى أبو عاصم العبادي عن محمد بن نصر المروزي أنه يرى رد الصبح إلى ركعة في الخوف واليه ذهب ابن حزم أيضاً ، وقال إسحق بن راهويه : أما عند المسابقة فيجزئ ركعة واحدة تومئ بها إيماء . فإن لم تقدر فسجدة واحدة لأنها ذكر الله ، وقال آخرون يكفي تكبيرة واحدة . فلعله أراد ركعة واحدة كما قاله الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه ، وبه قال جابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وكعب وغير واحد من الصحابة والسدى ورواه ابن جرير ولكن الذين حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة كما هو مذهب إسحق بن راهويه واليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن نخت المكي حتى قال : فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها في نفسه يعني بالنية . رواه سعيد بن منصور في سننه عن إسماعيل بن عياش عن شعيب بن دينار عنه قاله أعلم . ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة كما أخر النبي ﷺ يوم الأحزاب الظهر والعصر فصلهما بعد الغروب ، ثم صلى بعدهما المغرب ثم العشاء ، وكما قال بعدها يوم بني قريظة حين جهز اليهم الجيش لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق ، فقال منهم قائلون . لم يرد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تعجيل المسير ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها فصلاوا الصلاة لوقتها في الطريق ، وأخر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها في بني قريظة بعد الغروب ولم يعنف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من الفريقين ، وقد تكلمنا على هذا في كتاب السيرة وبيننا أن الذين صلاوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق في نفس الأمر وإن كان الآخرون معذورين أيضاً ، والحجة ههنا في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد من الطائفة الملعونة اليهود . وأما الجمهور فقالوا هذا كله منسوخ بصلاة الخوف فإنها لم تكن نزلت بعد ، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك ، وهذا أبين في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه الشافعي رحمه الله وأهل السنن ، ولكن بشكل عليه ما حكاه البخاري في صحيحه حيث قال ﴿ باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو ﴾ قال الأوزاعي إن كان تهيأ للفتح ولم يقدر على الصلاة صلاوا إيماء كل امرئ لنفسه ، فإن لم يقدر على الإيماء أخرها الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا فيصلوا ركعتين ، فإن لم يقدر صلاوا ركعة وسجدة ، فإن لم يقدر فلا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا ، وبه قال مكحول وقال أنس بن مالك : حضرت عند مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال فلم يقدر على الصلاة فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبي موسى ففتح لنا ، قال أنس : وما يسرنى بتلك الصلاة الدنيا وما فيها انتهى ما ذكره ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب ، ثم بحديث أمره إياهم أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة وكأنه كالتحذير لذلك والله أعلم . ولمن جنح إلى ذلك أنه أنكر عليهم ولا أحد من الصحابة والله أعلم ، قال هؤلاء وقد كانت صلاة الخوف مشروعة في الخندق لأن غزوة ذات الرقاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السير والمغازي ، ومن نص على ذلك محمد بن إسحق وموسى بن عقبة والواقدي ومحمد بن سعد كاتبه وخليفة بن الحياط وغيرهم . وقال البخاري وغيره كانت ذات الرقاع بعد الخندق لحديث أبي موسى وما قدم إلا في خير والله أعلم . والعجب كل العجب أن المزني وأبا يوسف القاضي وإبراهيم بن إسماعيل بن علي ذهبوا إلى أن صلاة الخوف منسوخة بتأخيرها عليه الصلاة والسلام الصلاة يوم الخندق وهذا غريب جداً ، وقد ثبتت الأحاديث بعد الخندق بصلاة الخوف ، وحمل تأخير الصلاة يومئذ على ما قاله مكحول والأوزاعي أقوى وأقرب والله أعلم . فقله تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) أي إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف وهذه حالة غير الأولى ، فإن تلك قصرها إلى ركعة كادل عليه الحديث - فرادى ورجالا وركبانا مستقبلين القبلة وغير مستقبلين ، ثم ذكر حال الاجتماع والائتمار بإمام واحد وما أحسن ما استدلل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة فلولا أنها واجبة ماساغ ذلك وأما

من استدلل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبي ﷺ لقوله (وإذا كنت فيهم) فبعده تفوت هذه الصفة فانه استدلال ضعيف ويرد عليه مثل قول مانعي الزكاة الذين احتجوا بقوله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) قالوا فنحن لا ندفع زكاتها بعده ﷺ إلى أحد ، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه ، ولا ندفعها إلا إلى من صلاته أى دعاؤه سكن لنا ، ومع هذا رد عليهم الصحابة وأبوا عليهم هذا الاستدلال وأجبروهم على أداء الزكاة وقاتلوا من منعها منهم ؛ ولندكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولا قبل ذكر صفتها . قال ابن جرير حدثني ابن اللثمي حدثني إسحق حدثنا عبدالله بن هاشم أنبأنا سيف عن أبي روق عن أبي أيوب عن علي رضي الله عنه قال : سأل قوم من بني النجار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي ؟ فأنزل الله عز وجل (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) ثم انقطع الوحي ، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر ، فقال المشركون لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم . فقال قائل منهم إن لهم أخرى مثلها في أثرها قال فأنزل الله عز وجل بين الصلاتين (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) الآيتين فنزلت صلاة الخوف وهذا سياق غريب جدا ، ولكن لبعضه شاهد من رواية أبي عياش الزرقى واسمه زيد بن الصامت رضي الله عنه عند الإمام أحمد وأهل السنن فقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا الثوري عن منصور عن مجاهد عن أبي عياش الزرقى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالده بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ، ثم قالوا يأتى عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أنبائهم وأنفسهم قال فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) قال فحضرت فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا السلاح قال : فصننا خلفه صفين قال : ثم ركع فركعنا جميعا ، ثم رفع فرفعنا جميعا ، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذى يليه والآخرين قيام يحرسونهم ، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم ركع فركعوا جميعا ثم رفع فرفعوا جميعا ، ثم سجد النبي صلى الله عليه وسلم والصف الذى يليه والآخرين قيام يحرسونهم ، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا . ثم سلم عليهم . ثم انصرف قال : فصلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين مرة بعسفان . ومرة بأرض بني سليم . ثم رواه أحمد عن غندر عن شعبة عن منصور به نحوه ، وهكذا رواه أبو داود عن سعيد بن منصور عن جرير بن عبد الحميد والنسائي من حديث شعبة وعبد العزيز بن عبد الصمد كلهم عن منصور به ؛ وهذا إسناد صحيح وله شواهد كثيرة ، فمن ذلك ما رواه البخارى حيث قال : حدثنا حيوة بن شريح حدثنا محمد بن حرب عن الزبيدي عن الزهرى عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قام النبي ﷺ وقام الناس معه ، فكبر وكبروا معه ، وركع وركع ناس منهم . ثم سجد وسجدوا معه ثم قام للثانية فقام الذين سجدوا وحرسوا إخوانهم وأتت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه والناس كلهم في الصلاة ، ولكن يحرس بعضهم بعضا . وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن قتادة عن سلمان بن قيس اليشكري أنه سأل جابر بن عبد الله عن إقصار الصلاة أى يوم أنزل أو أى يوم هو ، فقال جابر : انطلقنا نلقى عيرا لقريش آتية من الشام حتى إذا كنا بنخلة جاء رجل من القوم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد هل تخافنى ، قال « لا » قال فمن يمنعك منى ، قال « الله يمنعك منك » قال : فسل السيف ثم تهدده وأوعده ، ثم نادى بالترحل وأخذ السلاح ثم نودى بالصلاة فصلى رسول الله ﷺ بطائفة من القوم وطائفة أخرى تحرسهم : فصلى بالذين يلونه ركعتين ، ثم تأخر الذين يلونه على أعقابهم فقاموا في مصاف أصحابهم ثم جاء الآخرون فصلى بهم ركعتين ، والآخرون يحرسونهم ثم سلم فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم أربع ركعات وللقوم ركعتين ركعتين ، فيومئذ أنزل الله في إقصار الصلاة وأمر المؤمنين بأخذ السلاح . ورواه الإمام أحمد فقال : حدثنا شريح حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سليمان بن قيس اليشكري عن جابر بن عبد الله قال قاتل رسول الله ﷺ محارب حفصة فجاء رجل منهم يقال له عورث بن الحارث حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالسيف فقال : من يمنعك مني؟ قال «الله» فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «ومن يمنعك مني» قال : كن خير آخذ قال «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»؟ قال لا ، ولكن أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلني سبيله ، فقال جئكم من عند خير الناس ، فلما حضرت الصلاة صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف فكان الناس طائفتين ، طائفة بازاء العدو ، وطائفة صلاوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين وانصرفوا فكانوا مكان الطائفة الذين كانوا بازاء العدو ثم انصرف الذين كانوا بازاء العدو فصلاوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركعات وللقوم ركعتين تفرد به من هذا الوجه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو قطن عمرو بن الهيثم حدثنا المسعودي عن يزيد الفقيه قال سألت جابر بن عبد الله عن الركعتين في السفر أقصرهما فقال : الركعتان في السفر تمام إنما القصروا واحدة عند القتال بيننا نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال إذ أقيمت الصلاة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بطائفة وطائفة وجهها قبل العدو فصلى بهم ركعة وسجد بهم سجدتين ، ثم الذين خلفوا انطلقوا إلى أولئك فقاموا مقامهم ومكانهم نحوذا وجاء أولئك فقاموا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بهم ركعة وسجد بهم سجدتين ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس وسلم ، وسلم الذين خلفه ، وسلم أولئك فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين ، وللقوم ركعة ركعة ، ثم قرأ (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) الآية وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن الحكم عن يزيد الفقيه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم صلاة الخوف فقام صف بين يديه وصف خلفه فصلى بالذين خلفه ركعة وسجدتين ، ثم تقدم هؤلاء حتى قاموا في مقام أصحابهم ، وجاء أولئك حتى قاموا في مقام هؤلاء فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة وسجدتين ثم سلم ، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم ركعتين ولهم ركعة . ورواه النسائي من حديث شعبة ولهذا الحديث طرق عن جابر وهو في صحيح مسلم من وجه آخر بلفظ آخر ، وقد رواه عن جابر جماعة كثيرون في الصحيح والسنن والمسائيد وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الله بن المبارك أنبأنا معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه قال (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) قال هي صلاة الخوف . صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحدى الطائفتين ركعة والطائفة الأخرى مقبلة على العدو ، وأقبلت الطائفة الأخرى التي كانت مقبلة على العدو فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة أخرى ثم سلم بهم ، ثم قامت كل طائفة منهم فصلت ركعة ركعة . وهذا الحديث رواه الجماعة في كتبهم من طريق معمر به ، ولهذا الحديث طرق كثيرة عن الجماعة من الصحابة ، وقد أجاد الحافظ أبو بكر بن مردويه في سرد طرقه وألفاظه ، وكذا ابن جرير ولنحدره في كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله وبه الثقة ، وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية وهو أحد قولي الشافعي ويدل عليه قول الله تعالى (ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم) أي بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة (إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا)

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا * وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف وإن كان مشروعا مرغبا فيه أيضا بعد غيرها ولكن هاهنا أكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها ، ومن الرخصة في الذهاب فيها والياب وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها كما قال تعالى في الأشهر الحرم (فلا تظلموا فيه أنفسكم) وإن كان هذا منهيا عنه في غيرها ، ولكن فيها أكد لشدة حرمتها

وعظمها ، ولهذا قال تعالى (فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) أى فى سائر أحوالكم ، ثم قال تعالى (فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة) أى فإذا أمتم وذهب الخوف ، وحصلت الطمأنينة (فأقيموا الصلاة) أى فأتموها وأقيموها كما أمرتم بحدودها ، وخشوعها ، وركوعها ، وسجودها ، وجميع شئونها ، وقوله تعالى (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) قال ابن عباس أى مفروضا ، وقال أيضا إن للصلاة وقتا كوقت الحج ، وكذا روى عن مجاهد وسالم بن عبد الله وعلى بن الحسين ومحمد بن على ، والحسن ومقاتل والسدى وعطية العوفى ، قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) قال ابن مسعود : إن للصلاة وقتا كوقت الحج ، وقال زيد بن أسلم (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) قال منبجأ كلا مضى نجم جاء نجم ، يعنى كلا مضى وقت جاء وقت وقوله تعالى (ولا تنهوا فى ابتغاء القوم) أى لا تضعفوا فى طلب عدوكم ، بل جدوا فيهم ، وقتلوه ، واقتلوه ، واقتلوه كل مرصد (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون) أى كما يصيبكم الجراح والقتل كذلك يحصل لهم كما قال تعالى (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) ثم قال تعالى (وترجون من الله مالا يرجون) أى أتم وإياهم سواء فيما يصيبكم ، وإياهم والجراح والآلام ، ولكن أتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد كما وعدكم إياه فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وهو وعد حق ، وخبر صدق ، وهم لا يرجون شيئا من ذلك فأتتم أولى بالجهاد منهم وأشد رغبة فيه ، وفى إقامة كلمة الله وإعلائها (وكان الله عليا حكيما) أى هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه وينفذه ويمضيه من أحكامه الكونية والشرعية وهو الم محمود على كل حال

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَىكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا * وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تَجِدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنْ أَلْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَاسِتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

يقول تعالى مخاطبا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) أى هو حق من الله وهو يتضمن الحق فى خبره وطلبه ، وقوله (لتحكم بين الناس بما أراك الله) احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان صلى الله عليه وسلم له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية وبما ثبت فى الصحيحين عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال « ألا إنما أنا بشر وإنما أقضى بنحو مما أسمع ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليحملها أو ليذرها » وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع عن أم سلمة قالت : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موارث بينهما قد درست ليس عندهما بينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنكم تختصمون إليّ وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بينكم على نحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها انتظاما فى عتقه يوم القيامة » فبكى الرجلان وقال كل منهما : حق لأخى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إذا قلنا فاذها فاقسما ، ثم بوخيا الحق بينكما ثم استهما ، ثم ليحلل كل منكما صاحبه » وقد رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد به وزاد « إني إنما أقضى بينكما برأى فيما لم ينزل على فيه » وقد روى ابن مردويه من طريق العوفى عن ابن عباس أن نقرأ من الأنصار غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته

فسرقت درع لأحدهم فأظن بها رجل من الأنصار فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال : إن طعمة ابن أبيرق سرق درعي ، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل برىء وقال لنفر من عشيرته إني غيت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده ، فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلا فقالوا : يا نبي الله إن صاحبنا برىء وإن صاحب الدرع فلان وقد أخطأنا بذلك علما فاعذر صاحبنا على رءوس الناس وجادل عنه ، فانه إن لم يعصمه الله بك يهلك ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه وعذره على رءوس الناس فأنزل الله (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصما ، واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما ، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) الآية ثم قال تعالى للذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين بالكذب (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله) الآيتين . يعنى الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين يجادلون عن الخائنين ثم قال عز وجل (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه) الآية يعنى الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب ، ثم قال (ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا) يعنى السارق والذين جادلوا عن السارق وهذا سياق غريب وقد ذكر مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وابن زيد وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في سارق بنى أبيرق على اختلاف سياقاتهم وهى متقاربة ، وقد روى هذه القصة محمد بن إسحق مطولة فقال أبو عيسى الترمذى عند تفسير هذه الآية من جامعه وابن جرير في تفسيره حدثنا الحسن بن أحمد بن أبي شبيب أبو مسلم الحرانى حدثنا محمد بن سالم الحرانى حدثنا محمد بن إسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جده قتادة بن النعمان رضى الله عنه قال : كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق بشرو بشير ومبشر ، وكان بشير رجلا منافقا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ينحله لبعض العرب ، ثم يقول : قال فلان كذا وكذا ، وقال فلان كذا وكذا ، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا : والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الرجل الحبيث أو كما قال الرجل ، وقالوا ابن أبيرق قالها ، قالوا وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من الشام من الدرهمك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمى رفاعة بن زيد حملا من الدرهمك فجعله في مشربة له ، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف فعدى عليه من تحت البيت فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح . فلما أصبح أتانى عمى رفاعة فقال : يا ابن أخى انه قد عدى علينا في ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا ، قال فتحسسنا في الدار وسألنا فقليل لنا قد رأينا بنى أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم قال : وكان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدار - والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجلا منا له صلاح وإسلام فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال : أنا أسرق والله ليخاطنكم هذا السيف ، أو لتيين هذه السرقة ، قالوا : إليك عنا أيها الرجل فما أنت بصاحبها فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها ، فقال لى عمى يا ابن أخى لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له قال قتادة فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمى رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه . فليردوا علينا سلاحنا ، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه ، فقال النبي ﷺ « سآمر في ذلك » فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلا منهم يقال له أسيد بن عروة فكلموه في ذلك ، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا يا رسول الله : إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبوت ، قال قتادة : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فكلمته فقال « عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبوت ولا بينة » قال فرجعت ولوددت أنى خرجت من بعض مالى ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، فأتانى عمى رفاعة فقال : يا ابن أخى ما صنعت . فأخبرته بما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : الله المستعان ، فلم تلبث أن نزل القرآن (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين

خصيا) (يعنى بنى أيرق) (واستغفر الله) أى مما قلت لقتادة (إن الله كان غفورا رحما ، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم - إلى قوله - (رحما) أى لو استغفروا الله لغفر لهم) (ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه - إلى قوله - إثما مبينا) قوله للبيد (ولولا فضل الله عليك ورحمته - إلى قوله - فسوف نؤتيه أجرا عظيما) فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعه ، فقال قتادة لما أتيت عمى بالسلاح وكان شيخا قد عمى أو عشى الشك من أبى عيسى فى الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولا فلما أتيت به بالسلاح قال : يا ابن أخى هـ فى سبيل الله فعرفت أن إسلامه كان صحيحا ، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فنزل على سلافة بنت سعد بن سمية ، فأنزل الله تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ، إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) فلما نزل على سلافة بنت سعد هجاها حسان بن ثابت بأبيات من شعر فأخذت رحله فوضعتها على رأسها ثم خرجت به فرمته فى الأبطح ، ثم قالت : أهديت لى شعر حسان ما كنت تأتيني بخير : لفظ الترمذى هذا حديث غريب لا نعلم أحدا أسنده غير محمد بن سلمة الحرانى ، ورواه يونس بن بكير وغير واحد عن محمد بن إسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسل لم يذكر فيه عن أبيه عن جده ، ورواه ابن أبى حاتم عن هاشم بن القاسم الحرانى عن محمد بن سلمة به بيضعه ورواه ابن المنذر فى تفسيره ، حدثنا محمد بن إسماعيل يعنى الصائغ حدثنا أحمد بن أبى شعيب الحرانى حدثنا محمد بن سلمة فذكره بطوله ورواه أبو الشيخ الأصبهاني فى تفسيره عن محمد بن عياش بن أيوب والحسن بن يعقوب كلاهما عن الحسن ابن أحمد بن أبى شعيب الحرانى عن محمد بن سلمة به ، ثم قال فى آخره ؛ قال محمد بن سلمة مع معنى هذا الحديث يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وإسحق بن إسرائيل وقد روى هذا الحديث الحاكم أبو عبد الله النيسابورى فى كتابه المستدرک عن ابن عباس الأصم عن أحمد بن عبد الجبار العطاردى عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحق بمعناه أتم منه وفيه الشعر ثم قال : وهذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقوله تعالى (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله) الآية ، هذا إنكار على المنافقين فى كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لثلاثين كروا عليهم ويجاهرون الله بها لأنه مطلع على سرائرهم وعالم بما فى ضمائرهم ولهذا قال (وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا) تهديد لهم ووعد ، ثم قال تعالى (ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا) الآية . أى هب أن هؤلاء انتصروا فى الدنيا بما أبدوه أو أبدى لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر وهم متعبدون بذلك فمأذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى الذى يعلم السر وأخفى ، ومن ذا الذى يتوكل لهم يومئذ يوم القيامة فى ترويج دعواهم ؛ أى لأحد يومئذ يكون لهم وكلاء ، ولهذا قال (أمن يكون عليهم وكلاء)

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيثًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِوْنَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

يخبر تعالى عن كرمه وجوده أن كل من تاب إليه تاب عليه من أى ذنب كان . فقال تعالى (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحما) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية أخبر الله عباده بعموه وحلمه وكرمه ، وسعة رحمته ، ومغفرته ، فمن أذنب ذنبا صغيرا كان أو كبيرا (ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحما) ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال . رواه ابن جرير وقال ابن جرير أيضا حدثنا محمد بن مثنى حدثنا محمد بن أبى

عدى حدثنا شعبة عن عاصم عن أبي وائل قال : قال عبدالله : كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه ، وإذا أصاب البول منه شيئاً قرضه بالمقراض ، فقال رجل : لقد آتى الله بنى إسرائيل خيراً ، فقال عبد الله رضى الله عنه ما آتاكم الله خير مما آتاكم جعل الماء لكم طهوراً ، وقال تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظالموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) وقال (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) وقال أيضاً حدثني يعقوب حدثنا هشيم عن ابن عون عن حبيب بن أبي ثابت قال : جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل فسألته عن امرأة فجرت فحبلت ، فلما ولدت قتلت ولدها ، قال عبد الله بن مغفل : لها النار فأنصرفت وهي تبكي فدعاها ثم قال ما أرى أمرك إلا أحد أمرين (من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) قال فمسحت عينها ثم مضت وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا شعبة عن عثمان بن الغيرة قال : سمعت علي بن ربيعة من بنى أسد يحدث عن أسماء أو ابن أسماء من بنى فزارة قال : قال علي رضى الله عنه : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعتني الله فيه بما شاء أن ينفعني منه . وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله لذلك الذنب لا يغفر له » وقرأ هاتين الآيتين (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه) الآية (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم) الآية . وقد تكلمنا على هذا الحديث وعزينا إلى من رواه من أصحاب السنن ، وذكرنا ما في سنده من مقال في مسند أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد تقدم بعض ذلك في سورة آل عمران أيضاً وقد رواه ابن مردويه في تفسيره من وجه آخر عن علي فقال حدثنا أحمد بن محمد بن زياد حدثنا إبراهيم بن إسحق الحراني حدثنا داود بن مهران الدباج حدثنا عمر بن يزيد عن عبد خير عن علي قال سمعت أبا بكر هو الصديق يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « مامن عبد أذنب فقام فتوضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام فصلى واستغفر من ذنبه إلا كان حقاً على الله أن يغفر له » لأن الله يقول (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه) الآية ، ثم رواه من طريق أبان بن أبي عياش عن أبي إسحق السبيعي عن الحارث عن علي عن الصديق بنحوه وهذا إسناد لا يصح ، وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن علي بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا موسى بن مروان الرقي حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي عن تمام بن نجيح حدثني كعب بن ذهل الأزدي قال سمعت أبا الدرداء يحدث قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلسنا حوله وكانت له حاجة فقام إليها وأراد الرجوع ترك نعليه في مجلسه أو بعض ما عليه وإنه قام فترك نعليه قال أبو الدرداء فأخذ ركوة من ماء فاتبعته فمضى ساعة ثم رجع ولم يقض حاجته فقال « انه أناني أت من ربي فقال : انه (من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) فأردت أن أبشر أصحابي » قال أبو الدرداء وكانت قد شقت على الناس الآية التي قبلها (من يعمل سوءاً يجز به) فقلت يا رسول الله ، وإن زنى وإن سرق ثم استغفر ربه غفر له ؟ قال « نعم » ثم قلت الثانية قال « نعم » قلت الثالثة قال « نعم وإن زنى وإن سرق ثم استغفر الله غفر الله له على رغم أنف أبي الدرداء » قال فرأيت أبا الدرداء يضرب أنف نفسه بأصبعه . هذا حديث غريب جداً من هذا الوجه بهذا السياق وفي إسناده ضعف . وقوله (ومن يكسب إثمًا فانه يكسبه على نفسه) الآية كقولته تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) الآية ، يعنى أنه لا يغنى أحد عن أحد وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها ، ولهذا قال تعالى (وكان الله عليماً حكيماً) أى من علمه وحكمته ، وعدله ورحمته كان ذلك ، ثم قال (ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً) الآية يعنى كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح وهو ليلى بن سهل كما تقدم في الحديث ، أو زيد بن السمين اليهودى على ما قاله الآخرون وقد كان بريئاً وهم الظلمة الخونة كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ ؛ ثم هذا التقرير وهذا التوبيخ عام فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بصفتهم فارتكب مثل خطيئتهم فعليه مثل عقوبتهم ، وقوله (ولولا فضل الله عليك ورحمته لمحت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء) وقال الإمام ابن أبي حاتم أنبأنا هاشم ابن القاسم الحراني فيما كتب إلى حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى عن أبيه عن جده قتادة بن النعمان وذكر قصة بنى أبيرق فأنزل الله (لمحت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم

وما يضرؤنك من شيء) يعنى أسيد بن عروة وأصحابه يعنى بذلك لما أثنوا على بنى أريق ولاموا قتادة بن النعمان فى كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ ، ولهذا أنزل الله فصل القضية وجلاها رسول الله ﷺ نعم امتن عليه بتأييده إياه فى جميع الأحوال ؛ وعصمته له ؛ وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن والحكمة ؛ وهى السنة (وعلمك ما لم تكن تعلم) أى قبل نزول ذلك عليك كقوله (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب) إلى آخر السورة ؛ وقال تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) ولهذا قال (وكان فضل الله عليك عظيما)

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّبْجِهِمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

يقول تعالى (لا خير فى كثير من نجواهم) يعنى كلام الناس (إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) أى إلا نجوى من قال ذلك كما جاء فى الحديث الذى رواه ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا محمد بن سليمان بن الحارث حدثنا محمد بن يزيد بن حنيس قال : دخلنا على سفيان الثورى نعوذه فدخل علينا سعيد بن حسان فقال له الثورى الحديث الذى كنت حدثنيه عن أم صالح رده على فقال : حدثنى أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة قالت : قال رسول الله ﷺ « كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا ذكر الله عز وجل ؛ أو أمر بمعروف ؛ أو نهى عن منكر » فقال سفيان أو ما سمعت الله فى كتابه يقول (لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) فهو هذا بعينه ؛ أو ما سمعت الله يقول (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) فهو هذا بعينه ؛ أو ما سمعت الله يقول فى كتابه (والعصر إن الإنسان لفي خسر) الخ فهو هذا بعينه ؛ وقد روى هذا الحديث الترمذى وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن حنيس عن سعيد بن حسان به ؛ ولم يذكر أقوال الثورى إلى آخرها ؛ ثم قال الترمذى حديث غريب لا يعرف إلا من حديث ابن حنيس . قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبى حدثنا صالح ابن كيسان حدثنا محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره أن أمه أم كلثوم بنت عقبة أخبرته أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول « ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فيسمى خيرا ؛ أو يقول خيرا » وقالت لم أسمع يرخص فى شيء مما يقوله الناس إلا فى ثلاث : فى الحرب والإصلاح بين الناس ؛ وحديث الرجل امرأته ؛ وحديث المرأة زوجها قال : وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتى بايعن رسول الله ﷺ وقد رواه الجماعة سوى ابن ماجه من طرق عن الزهرى به نحوه قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن محمد عن سالم بن أبى الجعد عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أخبركم أفضل من درجة الصيام ؛ والصلاة ؛ والصدقة » قالوا بلى يا رسول الله قال « إصلاح ذات البين » قال : « وفساد ذات البين هى الحائلة » ورواه أبو داود والترمذى من حديث أبى معاوية وقال الترمذى حسن صحيح وقال الحافظ أبو بكر البرار حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا شريح بن يونس حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر حدثنا أبى عن حميد عن أنس أن النبى ﷺ قال لأبى أيوب « ألا أدلك على تجارة » قال بلى يا رسول الله قال « تسعى فى إصلاح بين الناس إذا تفسدوا وتقارب بينهم إذا تباعدوا » ثم قال البرار وعبد الرحمن بن عبد الله العمرى لين وقد حدث بأحاديث لم يتابع عليها ولهذا قال (ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله) أى مخلصا فى ذلك محتسبا ثواب ذلك عند الله عز وجل (فسوف نؤتيه أجرا عظيما) أى ثوابا جزيلا كثير واسعا وقوله (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى) أى ومن سلك غير طريق الشريعة التى

جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم فصار في شق والشرع في شق وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له والضح له وقوله (ويتبع غير سبيل المؤمنين) هذا ملازم للصفة الأولى ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً فانه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك قد ذكرنا منها طرفاً صالحاً في كتاب أحاديث الأصول ومن العلماء من ادعى تواتر معناها والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الاجتماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروى والفكر الطويل وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك ولهذا تواعد تعالى على ذلك بقوله (نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) أى إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجاً له كما قال تعالى (فدرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقوله (ونذرهم في طغيانهم يعمهون) وجعل النار مصيره في الآخرة لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة كما قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) الآية وقال تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً)

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا *
إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا
مَفْرُوضًا * وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيتْهُمْ وَلَا أَمْرَهُمْ فَلْيَتَّبِعْتُمْ كُنْءَ إِذَا نِ الْأَنْعَمُ وَلَا مَرْمَهُمْ فَلْيَعْبُدْنِ خَلْقِ اللَّهِ وَمَنْ
يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعْبُدُهُمْ وَيُمَيِّنِّيهِمْ وَمَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا *
أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة وهي قوله (إن الله لا يغير أن يشرك به ويغير ما دون ذلك) الآية وذكريا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة وقد روى الترمذي حدثنا ثوير بن أبي فاختة سعيد بن علاقة عن أبيه عن علي رضي الله عنه أنه قال ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية (إن الله لا يغير أن يشرك به) الآية ثم قال هذا حسن غريب وقوله (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) أي فقد سلك غير الطريق الحق وضل عن الهدى وبعد عن الصواب وأهلك نفسه وخسرهما في الدنيا والآخرة وفاتته سعادة الدنيا والآخرة وقوله (إن يدعون من دونه إلا إناثا) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمود بن غيلان أنبأنا الفضل بن موسى أخبرنا الحسن بن واقد عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب (إن يدعون من دونه إلا إناثا) قال مع كل ضم جنية وحدثنا أبي حدثنا محمد بن سلمة الباهلي عن عبد العزيز بن محمد عن هشام يعني ابن عروة عن أبيه عن عائشة (إن يدعون من دونه إلا إناثا) قالت أو ثانا وروى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير ومجاهد وأبي مالك والسدي ومقاتل نحو ذلك وقال ابن جرير عن الضحاك في الآية قال المشركون للملائكة بنات الله وإنما نعبدكم ليقربونا إلى الله زلفى قال فاتخذوهن أربابا وصوروهن جوارى فحكموا وقلدوا وقالوا هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبدن يعنون الملائكة وهذا التفسير شبيه بقول الله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى) الآيات وقال تعالى (وجعلوا للملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) الآية وقال (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) الآيتين وقال علي بن أبي طلحة والضحاك عن ابن عباس (إن يدعون من دونه

إلا إنانا) قال يعنى موتى وقال مبارك يعنى ابن فضالة عن الحسن إن يدعون من دونه إلا إنانا قال الحسن الإنان كل شيء ميت ليس فيه روح إما خشبة يابسة وإما حجر يابس ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وهو غريب وقوله (وإن يدعون إلا شيطانا مريداً) أى هو الذى أمرهم بذلك وحسنه وزينه لهم وهم إنما يعبدون إبليس فى نفس الأمر كما قال تعالى (ألم أعهد اليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان) الآية . وقال تعالى إخباراً عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادعوا عباداتهم فى الدنيا (بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) وقوله (لعنه الله) أى طرده وأبعده من رحمته ، وأخرجه من جواره وقال (لآخذن من عبادك نصيباً مفروضاً) أى معيناً مقدراً معلوماً قال قتادة من كل ألف تسعائة وتسعة وتسعون الى النار ، وواحد الى الجنة (ولأضلنهم) أى عن الحق (ولأمنينهم) أى أزين لهم ترك التوبة ، وأعدم الأمانى ، وأمرهم بالتسويق والتأخير ، وأغرهم من أنفسهم قوله (ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) قال قتادة والسدى وغيرهما يعنى تشقيها وجعلها سمه ، وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة (ولأمرنهم فليغرين الله) قال ابن عباس يعنى بذلك خصى الدواب : وكذا روى عن ابن عمر وأنس وسعيد بن المسيب وعكرمة وأبى عياض وقتادة وأبى صالح والثورى، وقد ورد فى حديث النبى عن ذلك، وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى يعنى بذلك الوشم وفى صحيح مسلم النبى عن الوشم فى الوجه ، وفى لفظ ، لعن الله من فعل ذلك ، وفى الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : لعن الله الواشيات والمستوشيات ، والنامصات والتنمصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله عز وجل ، ثم قال : ألا لعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى كتاب الله عز وجل يعنى قوله (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال ابن عباس فى رواية عنه ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعى والحسن وقتادة والحكم والسدى والضحاك وعطاء الخراسانى فى قوله (ولأمرنهم فليغرين الله) يعنى دين الله عز وجل وهذا كقوله (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) على قول من جعل ذلك أمراً أى لا تبدلوا فطرة الله ودعوا الناس على فطرتهم كاثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة فجماء هل تجدون بها من جدعاء » وفى صحيح مسلم عن عياض ابن حماد قال : قال رسول الله ﷺ « قال الله عز وجل : إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحلت لهم » ثم قال تعالى (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خساراً مبيناً) أى فقد خسر الدنيا والآخرة وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك لفاتها . وقوله تعالى (يعدمهم ويمينهم وما يعدمهم الشيطان إلا غروراً) وهذا إخبار عن الواقع فإن الشيطان يعد أولياءه ويمينهم بأنهم هم الفائزون فى الدنيا والآخرة وقد كذب وافترى فى ذلك ، ولهذا قال الله تعالى (وما يعدمهم الشيطان إلا غروراً) كما قال تعالى مخبراً عن إبليس يوم المعاد (وقال الشيطان لما قاضى الأمر إن الله وعدكم الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان - الى قوله - وإن الظالمين لهم عذاب أليم) وقوله (أولئك) أى المستحسنون له فيما وعدهم ومنهم (مأواهم جهنم) أى مصيرهم ومآلهم يوم القيامة (ولا يجدون عنها محيصاً) أى ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف ، ولا خلاص ، ولا مناص ، ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء وما لهم من الكرامة التامة فقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات ، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات (سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار) أى يصرفونها حيث شاءوا وأين شاءوا (خالدين فيها أبداً) أى بلا زوال ولا انتقال (وعد الله حقاً) أى هذا وعد من الله ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة ، ولهذا أكد بالمصدر الدال على تحقيق الخبر وهو قوله حقاً ، ثم قال تعالى (ومن أصدق من الله قيلاً) أى لا أحد أصدق منه قولاً أى خبراً لا إله إلا هو ولا رب سواه وكان رسول الله ﷺ يقول فى خطبته « إن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار »

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا

نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ قَالُوا لَنْكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
تَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا *
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿١﴾

قال قتادة ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب اقتفروا ، فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم
فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضى على الكتب التي كانت
قبله فأنزل الله (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به) (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو
محسن) الآية . ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوهم من أهل الأديان . وكذا روى عن السدي ومسروق والضحاك
وأبي صالح وغيرهم وكذا روى العوفي عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال في هذه الآية تخصم أهل الأديان ، فقال
أهل التوراة : كتابنا خير الكتب ، ونبينا خير الأنبياء ، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك ، وقال أهل الإسلام : لادين إلا
الإسلام ، وكتابنا نسخ كل كتاب ؛ ونبينا خاتم النبيين ، وأمرتم وأمرنا أن تؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا فقضى الله
بينهم وقال (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به) الآية ؛ وخير بين الأديان فقال (ومن
أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) إلى قوله (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) وقال مجاهد : قالت العرب لن نبعث
ولن نغذب ؛ وقالت اليهود والنصارى (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) وقالوا (لن تمسنا النار إلا أياما
معدودات) والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلى ولا بالتخلى ؛ ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال وليس
كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه ، ولا كل من قال إنه هو على الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله
برهان ؛ ولهذا قال تعالى (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به) أى ليس لكم ولا لهم النجاة
بمجرد التنى ؛ بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على أسنة الرسل الكرام ؛ ولهذا قال بعده (من يعمل سوءا
يجز به) كقوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ؛ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقد روى أن هذه الآية لما نزلت
شق ذلك على كثير من الصحابة . قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا إسماعيل عن أبي بكر بن أبي زهير قال :
أخبرت أن أبا بكر رضى الله عنه قال : يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب
من يعمل سوءا يجز به) فكل سوء عملناه جزيناه ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ألست تعرض ألست
تنصب ؛ ألست تحزن ألست تصيبك اللاؤاء » قال بلى قال « فهو مما تجزون به » ورواه سعيد بن منصور عن
خلف بن خليفة عن إسماعيل بن أبي خالد^(١) ورواه الحاكم من طريق سفيان الثوري عن إسماعيل به وقال الإمام أحمد
حدثنا عبد الوهاب بن عطاء عن زياد الجصاص عن علي بن زيد عن مجاهد عن ابن عمر قال سمعت أبا بكر يقول : قال
رسول الله ﷺ « من يعمل سوءا يجز به في الدنيا » وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد^(٢) بن هشام بن جهمية حدثنا
يحيى بن أبي طالب ؛ حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا زياد الجصاص عن علي بن زيد عن مجاهد قال : قال عبد الله بن
عمر انظروا المكان الذي فيه عبد الله بن الزبير مصلوباً فلاتمرن عليه قال فسها الغلام فإذا عبد الله بن عمر ينظر إلى ابن الزبير
فقال يغفر الله لك ثلاثاً أما والله ما علمتكم إلا صواماً قواماً وصلاً للرحم أما والله إنى لأرجو مع مساوى ما أصبت أن
لا يعذبك الله بعدها قال ثم التفت إلى فقال سمعت أبا بكر الصديق يقول : قال رسول الله ﷺ « من يعمل سوءاً في الدنيا
يجز به » ورواه أبو بكر البزار في مسنده عن الفضل بن سهل عن عبد الوهاب بن عطاء به مختصراً وقال في مسند ابن الزبير حدثنا
إبراهيم بن المستمير العروقي حدثنا عبد الرحمن بن سليم بن حيان حدثني أبي عن جدى حيان بن بسطام قال بسطام قال كنت
مع ابن عمر فر بعد الله بن الزبير وهو مصلوب فقال رحمة الله عليك أبا خبيب سمعت أباك يعنى الزبير يقول : قال رسول الله ﷺ

(١) في نسخة الأزهر زيادة : ورواه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى عن أبي خزيمة عن يحيى بن سعيد عن إسماعيل بن أبي خالد به .

(٢) وفيها : أحمد بن هشيم .

« من يعمل سوءاً يجزبه في الدنيا والآخرة » ثم قال لا نعلمه يروى عن الزبير إلا من هذا الوجه ؛ وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا أحمد بن كامل حدثنا محمد بن سعد العوفي ؛ حدثنا روح بن عبادة ؛ حدثنا موسى بن عبيدة ؛ حدثني مولى بن السباع قال سمعت ابن عمر يحدث عن أبي بكر الصديق قال كنت عند النبي ﷺ فنزلت هذه الآية (من يعمل سوءاً يجزبه ولا يجرد له من دون الله ولياً نصيراً) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت علي » قلت : بلى يا رسول الله قال فأقرأنيها فلا أعلم أني قد وجدت انقصاصاً في ظهري حتى تغطيت لها فقال رسول الله ﷺ « مالك يا أبا بكر » قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأينما لم يعمل سوءاً وإنما لم يجزىون بكل سوء عملناه فقال رسول الله ﷺ « أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فانكم تجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب ، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة » وكذا رواه الترمذي عن يحيى بن موسى وعبد بن حميد عن روح بن عبادة به ثم قال وموسى بن عبيدة يضعف ومولى ابن سباع مجهول وقال ابن جرير حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثني حجاج عن ابن جريج قال أخبرني عطاء بن أبي رباح قال لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر جاءت قاصمة الظهر فقال رسول الله ﷺ « إنا هي المصنيت في الدنيا » . (طريق أخرى عن الصديق) قال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إسحق العسكري ، حدثنا محمد بن عامر السعدي ، حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا فضيل ابن عياض عن سليمان بن مهران عن مسلم بن صبيح عن مسروق قال قال أبو بكر الصديق يا رسول الله ما أشده هذه الآية (من يعمل سوءاً يجزبه) فقال رسول الله ﷺ « المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء » . (طريق أخرى) قال ابن جرير حدثني عبد الله بن أبي زياد وأحمد بن منصور قالاً أنبأنا زيد بن الحباب ، حدثنا عبد الملك بن الحسن الحارثي ، حدثنا محمد بن زيد بن منقذ عن عائشة عن أبي بكر قال لما نزلت (من يعمل سوءاً يجزبه) قال أبو بكر يا رسول الله كل ما نعمل نؤاخذ به ؟ فقال « يا أبا بكر أليس يصيبك كذا وكذا فهو كفارة » (حديث آخر) قال سعيد بن منصور أنبأنا عبد الله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن بكر بن سواد حدثه أن يزيد بن أبي زيد حدثه عن عبيد بن عمير عن عائشة أن رجلاً تلا هذه الآية (من يعمل سوءاً يجزبه) فقال إنا لنجزى بكل ما عملناه هلكنا إذا بلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال « نعم يجزى به المؤمن في الدنيا في نفسه في جسده فيما يؤذيه » (طريق أخرى) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سامة ابن بشير ، حدثنا هشيم عن أبي عامر عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت قلت يا رسول الله إني لأعلم أشد آية في القرآن فقال « ما هي يا عائشة » قلت من يعمل سوءاً يجزبه فقال « هو ما يصيب العبد المؤمن حتى النكبة ينكبه » ورواه ابن جرير من حديث هشيم به ورواه أبو داود من حديث أبي عامر صالح بن رستم الخراز به . (طريق أخرى) قال أبو داود الطيالسي حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن ابنته أنها سألت عائشة عن هذه الآية (من يعمل سوءاً يجزبه به) فقالت ما سألتني أحد عن هذه الآية منذ سألت عنها رسول الله ﷺ سألت رسول الله ﷺ فقال « يا عائشة هذه مبايعة الله للعبد مما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة حتى البضاعة فيضعها في كفه فيفرغ لها فيجدها في جيبه حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما أن الذهب يخرج من الكير » (طريق أخرى) قال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا أبو القاسم حدثنا شريح بن يونس ؛ حدثنا أبو معاوية عن محمد بن إسماعيل عن محمد بن يزيد ابن المهاجر عن عائشة قالت سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية (من يعمل سوءاً يجزبه) قال « إن المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في القبض عند الموت » وقال الإمام أحمد حدثنا حسين عن زائدة عن لث عن مجاهد عن عائشة قالت قلت يا رسول الله إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله بالحنن ليكفرها عنه . (حديث آخر) قال سعيد بن منصور عن سفيان بن عيينة عن عمر بن عبد الرحمن بن مخيص سمع محمد بن قيس بن محزمة يخبر أن أبا هريرة رضي الله عنه قال لما نزلت (من يعمل سوءاً يجزبه) شق ذلك على المسامين فقال لهم رسول الله ﷺ « سدوا وقاربوا فان في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكها » وهكذا رواه أحمد عن سفيان بن عيينة ومسلم والترمذي والنسائي من حديث سفيان بن عيينة به ورواه ابن جرير (١) من حديث روح ومعمّر كلاهما عن إبراهيم بن يزيد عن عبد الله بن إبراهيم سمعت أبا هريرة يقول : لما نزلت

هذه الآية (ليس بأمانكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به) بكينا وحزنا وقلنا يا رسول الله ما أبت هذه الآية من شيء قال « أما والذي نفسى بيده إنها لكما أنزلت ولكن أبشروا وقاربوا وسددوا فإنه لا يصيب أحداً منكم مصيبة في الدنيا الا كفر الله بها من خطيئته حتى الشوكة يشاكها أحدكم في قدمه » وقال عطاء بن يسار عن أبي سعيد وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا سقم ولا حزن حتى ألهم يهيمه الا كفر الله من سيئاته » أخرجاه . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد بن إسحق حدثنا زينب بنت كعب بن عجرة عن أبي سعيد الخدري قال جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا مالنا بها قال كفارات قال أبى وان قلت قال حتى الشوكة فما فوقها قالت فدعا أبى على نفسه أنه لا يفارقه الوعك حتى يموت في أن لا يشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيل الله ولا صلاة مكتوبة في جماعة فامسه إنسان حتى وجد حره حتى مات رضى الله عنه فترده أحمد

(حديث آخر) روى ابن مردويه من طريق حسين بن واقد عن الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس قال قيل يا رسول الله (من يعمل سوءاً يجز به) قال « نعم ومن يعمل حسنةً يجز بها عشرين » فهلك من غلب واحدته عشرين وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا يزيد بن هرون حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن (من يعمل سوءاً يجز به) قال الكافر ثم قرأ (وهل نجازي إلا الكفور) وهكذا روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهم مفسروا السوء ههنا بالشرك أيضاً وقوله (ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس إلا أن يتوب فيتوب الله عليه رواه ابن أبى حاتم والصحيح أن ذلك عام في جميع الأعمال لما تقدم من الأحاديث وهذا اختيار ابن جرير والله أعلم وقوله (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) الآية لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا وهو الأجود له ، وإما في الآخرة والعياذ بالله من ذلك ؛ ونسأله العافية في الدنيا والآخرة . والصفح والعتو والمساخة شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكرانهم وإنائهم بشرط الإيمان ، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقيير وهو النقرة التي في ظهر نواة التمرة . وقد تقدم الكلام على الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة . وهذا النقيير وهما في نواة التمرة والقطير وهو اللقافة التي على نواة التمرة ، والثلاثة في القرآن . ثم قال تعالى (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله) أى أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيماناً واحتساباً (وهو محسن) أى اتبع في عمله ما شرعه الله له وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق . وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما أى يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله . والصواب أن يكون متابعاً للشرعية فيصح ظاهره بالمطابقة ، وباطنه بالاخلاص ففى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد فمضى فقد الاخلاص كان منافقاً وهم الذين يراءون الناس ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين الذين يتقبل عنهم أحسن معاملاً ويتجاوز عن سيئاتهم الآية . ولهذا قال تعالى (واتبع ملة إبراهيم حنيفاً) وهم محمد وأتباعه الى يوم القيامة . كما قال تعالى (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي) الآية وقال تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) والحنيف هو المائل عن الشرك قصداً أى تاركاً له عن بصيرة ومقبل على الحق بكليته لا يصد عنه صاد ولا يردده عنه راد وقوله (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) وهذا من باب الترغيب في اتباعه ، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل الى غاية ما يتقرب به العباد له فإنه انتهى الى درجة الخلقة التي هي أرفع مقامات المحبة . وما ذاك الا لكثرة طاعته لربه كما وصفه في قوله (وإبراهيم الذى وفى) قال كثير من علماء السلف أى قام بجميع ما أمر به وفى كل مقام من مقامات العبادة فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير ولا كبير عن صغير وقال تعالى (وإذا بتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن) الآية وقال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) الآية والآية بعدها وقال البخارى حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن عمرو بن ميمون قال ان معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) فقال رجل من القوم لقد قرت عين أم إبراهيم وقد ذكر ابن جرير في تفسيره عن بعضهم أنه إنما سماه الله خليلاً من أجل أنه أصاب أهل ناحيته جديب فارتحل الى خليل له من

أهل الموصل وقال بعضهم من أهل مصر ليمتار طعاماً لأهله من قبله فلم يصب عنده حاجته فلما قرب من أهله بمفاضة ذات رمل فقال لوملائت غرائري من هذا الرمل لثلاثي يفتن أهلي برجوعى اليهم بغير ميرة وليظنوا أني أتيتهم بما يحبون ففعل ذلك فتحول ما في الغرائر من الرمل دقيقاً فلما صار إلى منزله نام وقام أهله ففتحو الغرائر فوجدوا دقيقاً فعبجوا منه وخبروا فاستيقظ فسألهم عن الدقيق الذي منه خبروا فقالوا من الدقيق الذي جئت به من عند خليلك فقال نعم هو من عند خليلي الله فسماه الله بذلك خليلاً وفي صحة هذا ووقوعه نظر وغايته أن يكون خبراً إسرائيلياً لا يصدق ولا يكذب وإنما سمى خليل الله لشدة محبته له عز وجل لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها ولهذا ثبت في الصحيحين من رواية أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال «أما بعد أيها الناس فلو كنتم متخذين من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله» وجاء من طريق جنس بن عبد الله البجلي وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليله» وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني بمكة حدثنا عبد الله الحنفي حدثنا زمعة أبو صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا ادنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول عجب إن الله اتخذ من خلقه خليلاً فإبراهيم خليله وقال آخر ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً وقال آخر فعيسى روح الله وكلته وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم فسلم وقال : «قد سمعت كلامكم وتعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى كلمه وعيسى روحه وكلته وآدم اصطفاه الله وهو كذلك وكذلك محمد ﷺ قال ألا وإنني حبيب الله ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فيفتح الله ويدخلنيها ومعى قراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر» وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها وقال قتادة عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال أنعجبون من أن تكون الحلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين رواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه وكذا روى عن أنس بن مالك وغير واحد من الصحابة والتابعين والأئمة من السلف والخلف وقال ابن أبي حاتم حدثنا يحيى بن عبد القزويني حدثنا محمد بن عيسى بن سعيد بن سابق حدثنا عمرو بن عيسى بن أبي قيس عن عاصم عن أبي راشد عن عبيد بن عمير قال كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس فخرج يوماً يلتمس أحداً يضيفه فلم يجد أحداً يضيفه فرجع إلى داره فوجد فيها رجلاً قائماً فقال يا عبد الله ما أدخلك دارى بغير اذننى قال دخلتها باذن ربها ، قال ومن أنت قال أنا ملك الموت أرسلنى ربى إلى عبد من عباده أبشره بأن الله قد اتخذني خليلاً قال من هو فوالله إن أخبرتنى به ثم كان بأقصى البلاد لآتيه ثم لا أبرح له جاراً حتى يفرق بيننا الموت قال ذلك العبد أنت قال أنا قال نعم قال فبم اتخذنى ربى خليلاً قال انك تعطى الناس ولا تسألهم وحدثنا أبي حدثنا محمود بن خالد السامى حدثنا الوليد عن إسحق بن يسار قال لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجل حتى ان خفقان قلبه ليسمع من بعيد كما يسمع خفقان الطير في الهواء وهكذا جاء في صفة رسول الله ﷺ أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل إذا اشتد غليانها من البكاء وقوله (والله ما فى السموات وما فى الأرض) أى الجميع ملكه وعبيده وخلقوه وهو المتصرف فى جميع ذلك لأراد لما قضى ولا معقب لما حكم ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته وقوله (وكان الله بكل شئ محيطاً) أى علمه نافذ فى جميع ذلك لا تخفى عليه خافية من عباده ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظرين وما توارى .

﴿ وَاسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءَ الَّتِي لَا تُوْثِقُنَّهِنَّ ﴾

مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٠٨﴾

قال البخارى حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة قال حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها (ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن - إلى قوله - وترغبون أن تنكحوهن) قالت عائشة هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها فأشركته في ماله حتى في العنق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجه رجلًا فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها فنزلت هذه الآية ، وكذلك رواه مسلم عن أبي كريب وعن أبي بكر بن أبي شيبة كلاهما عن أبي أسامة وقال ابن أبي حاتم قرأت على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أخبرنا ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير قالت عائشة : ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله (ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم وما يتلى عليكم في الكتاب) الآية ، قالت : والذي ذكر الله أنه يتلى عليه في الكتاب . الآية الأولى التي قال الله (وإن خفتن أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء) وهذا الإسناد عن عائشة قالت : وقول الله عز وجل (وترغبون أن تنكحوهن) رغبة أحدكم عن يتيمة التي تكون في حجره حتى تكون قليلة المال والجمال فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن وأصله ثابت في الصحيحين من طريق يونس بن يزيد الأيلي به ، والقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها فتارة يرغب في أن يتزوجها فأمره الله أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء ، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء فقد وسع الله عز وجل ، وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة ، وتارة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر فنهى الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية وهي قوله (في يتامى النساء) الآية . كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقى عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدًا ، فإن كانت جميلة وهو يها تزوجها وأكل مالها وإن كانت دميمة منعها الرجال أبدًا حتى يموت فإذا ماتت ورثها فحرم الله ذلك ونهى عنه . وقال في قوله (والمستضعفين من الولدان) كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات وذلك قوله (لا تؤتوهن ما كتب لهن) فهي الله عن ذلك وبين لكل ذي سهم سهمه فقال (للذكر مثل حظ الأنثيين) صغيرا أو كبيرا ، وكذا قال سعيد بن جبير وغيره قال سعيد بن جبير في قوله (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحها واستأثرت بها كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فأنكحها واستأثر بها وقوله (وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما) تهيبها على فعل الخيرات وامثالا للأوامر وأن الله عز وجل عالم بجميع ذلك وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه .

﴿ وَإِنْ أُمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمِغَلَّةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبرا ومشرعا من حال الزوجين تارة في حال نفور الرجل عن المرأة وتارة في حال اتفاقهما معها ، وتارة في حال فراقها لها فالخالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها فلها أن تسقط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه وله أن يقبل ذلك منها فلا حرج عليها في بذلها ذلك له ولا

عليه في قبوله منها ولهذا قال تعالى (فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا) ثم قال (والصلح خير) أى من الفراق وقوله (وأحضرت الأنفس الشح) أى الصلح عند المشاحة خير من الفراق ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها فصالحته على أن يمسكها وترك يومها لعائشة فقبل ذلك منها وأبقاها على ذلك (ذكر الرواية بذلك) قال أبو داود الطيالسي حدثنا سليمان بن معاذ عن ممالك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال : خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله لا تطلقني واجعل يومى لعائشة ففعل ونزلت هذه الآية (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما) الآية . قال ابن عباس فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز ورواه الترمذي عن محمد بن المثنى عن أنى داود الطيالسي به وقال حسن غريب ، قال الشافعي أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ توفي عن تسع نسوة وكان يقسم لثمان . وفي الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبي ﷺ يقسم لها يوم سودة . وفي صحيح البخاري من حديث الزهري عن عروة عن عائشة نحوه ، وقال سعيد بن منصور أن أبا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام عن أبيه عروة قال أنزل الله في سودة وأشباهاها (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) وذلك أن سودة كانت امرأة قد أسنت ففرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ وضنت بمكانها منه وعرفت من حب رسول الله ﷺ عائشة ومنزلها منه ، فوهبت يومها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة فقبل ذلك رسول الله ﷺ قال البيهقي وقد رواه أحمد بن يونس عن الحسن بن أبي الزناد موصولا وهذه الطريقة رواها الحاكم في مستدركه فقال حدثنا أبو بكر بن إسحاق الفقيه أخبرنا الحسن بن علي بن زياد حدثنا أحمد بن يونس حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت له يا ابن أخي : كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا فيدنوا من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ يا رسول الله يومى هذا لعائشة ، فقبل ذلك رسول الله ﷺ قالت عائشة ، ففي ذلك أنزل الله (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) وكذلك رواه أبو داود عن أحمد بن يونس به ، والحاكم في مستدركه ، ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد رواه ابن مردويه من طريق أبي بلال الأشعري عن عبد الرحمن بن أبي الزناد به نحوه ومن رواية عبد العزيز عن محمد بن راووردى عن هشام بن عروة بنحوه مختصرا والله أعلم : وقال أبو العباس محمد بن عبد الرحمن الدعولي في أول معجمه حدثنا محمد بن يحيى حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هشام الدستوائي حدثنا القاسم بن أبي برة قال بعث النبي ﷺ إلى سودة بنت زمعة بطلاقها ، فلما أن أتاها جلست له على طريق عائشة فلما رآته قالت له : أشدك بالذي أنزل عليك كلامه واصطفاك على خلقه لما راجعتني فإن قد كبرت ولا حاجة لي في الرجال لكن أريد أن أبعث مع نسائك يوم القيامة فراجعها فقالت فإني جعلت يومى وليتى لحبة رسول الله ﷺ وهذا غريب مرسل . وقال البخاري حدثنا محمد بن مقاتل أنبأنا عبد الله أنبأنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) قال الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمسكتر منها يريد أن يفارقها فتقول : أجعلك من شأني في حل فنزلت هذه الآية . وقال ابن جرير حدثنا وكيع حدثنا أبي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير) قالت هذا في المرأة تكون عند الرجل فلعله لا يكون بمسكتر منها ولا يكون لها ولد ويكون لها صحبة فتقول : لا تطلقني وأنت في حل من شأني . حدثني المثنى حدثنا حجاج ابن منهل حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن عائشة في قوله (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) قالت هو الرجل يكون له المرأتان إحداها قد كبرت والأخرى دميمة وهو لا يستكتر منها فتقول . لا تطلقني وأنت في حل من شأني وهذا الحديث ثابت في الصحيحين من غير وجه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بنحو ما تقدم والله الحمد والمئة قال ابن جرير حدثنا ابن حميد وابن وكيع قال حدثنا جرير عن أشعث عن ابن سيرين قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب

فسأله عن آية فكرهه فضربه بالدرة ، فسأله آخر عن هذه الآية (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً) ثم قال مثل هذا فاسألوا ، ثم قال : هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سنها فيتزوج المرأة الشابة يلتبس ولدها فما اصطلاحا عليه من شيء فهو جائز . وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين المهنجاني حدثنا مسدد حدثنا أبو الأحوص عن سماك ابن حرب عن خالد بن عريرة قال : جاء رجل الى علي بن أبي طالب فسأله عن قول الله عز وجل (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما) قال علي : يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناها عنها من دمايتها ، أو كبرها ، أو سوء خلقها ، أو قد ذهبا فتكره فراقه ، فإن وضعت له من مهرها شيئاً حل له ، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج . وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن حماد بن سلمة وأبي الأحوص ، ورواه ابن جرير من طريق إسرائيل أربعتهم عن سماك به . وكذا فسرها ابن عباس وعبيدة السلماني ومجاهد بن جبير والشعبي وسعيد بن جبير وعطاء وعطية العوفي ومكحول والحسن والحكم بن عتبة وقتادة وغير واحد من السلف والأئمة ولأعلم في ذلك خلافاً أن المراد بهذه الآية هذا والله أعلم وقال الشافعي أنبأنا ابن عيينة عن الزهري عن ابن المسيب أن بنت محمد بن مسلم كانت عند رافع بن خديج فكره منها أمرا إما كبراً أو غيره فأراد طلاقها فقالت لا تطلقني وأقسم لي ما بذلك فأنزل الله عز وجل (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً) الآية وقدرناه الحاكم في مستدركه من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار بأطول من هذا السياق وقال الحافظ أبو بكر البيهقي حدثنا سعيد بن أبي عمرو حدثنا أبو محمد أحمد بن عبد الله المزني أنبأنا علي بن محمد بن عيسى أنبأنا أبو اليمان أخبرني شعيب بن أبي حمزة عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار أن السنة في هاتين الآيتين اللتين ذكر الله فيهما نشوز الرجل وإعراضه عن امرأته في قوله (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً) الى تمام الآيتين أن المرء إذا نشر عن امرأته وآثر عليها فإن من الحق أن يعرض عليها أن يطلقها أو تستقر عنده على ما كانت من أثره في القسم من ماله ونفسه صلح له ذلك وكان صلحها عليه كذلك ذكر سعيد بن المسيب وسليمان الصلح الذي قال الله عز وجل (فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير) وقد ذكر لي أن رافع بن خديج الأنصاري وكان من أصحاب النبي ﷺ كانت عنده امرأة حتى إذا كبرت تزوج عليها فتاة شابة وآثر عليها الشابة فناشدته الطلاق فطلقها فطلقة ثم أمهلها حتى إذا كادت تحل راجعها ثم عاد فآثر عليها الشابة فناشدته الطلاق فقال لها ماشئت إنما بقيت لك طليقة واحدة فإن شئت استقررت على ما ترين من الأثرة وإن شئت فارتقتك فقالت لا بل أستقر على الأثرة فأمسكها على ذلك فكان ذلك صلحهما ولم ير رافع عليه إنما حين رضيت أن تستقر عنده على الأثرة فيما آثر به عليها وهكذا رواه بتمامه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي اليمان عن شعيب عن الزهري عن سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار فذكره بطوله والله أعلم وقوله (والصلح خير) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني التخيير أن يغير الزوج لها بين الإقامة والفراق خير من تمادي الزوج على أثره غيرها عليها والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية كما أمسك النبي ﷺ سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة رضي الله عنها ولم يفارقها بل تركها من جملة نساءه وفعله ذلك لتتأسى به أمتة في مشروعية ذلك وجوازه فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام ولما كان الوفاق أحب الى الله من الفراق قال (والصلح خير) بل الطلاق بغيبض اليه سبحانه وتعالى ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وابن ماجه جميعاً عن كثير بن عبيد عن محمد بن خالد عن معروف بن واصل عن محارب بن دثار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبغض الحلال الى الله الطلاق » ثم رواه أبو داود عن أحمد بن يونس عن معروف عن محارب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر معناه مرسلاً وقوله (وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن وتقسموا لهن أسوة أمثالهن فإن الله عالم بذلك وسيجزيك على ذلك أوفر الجزاء ، وقوله تعالى « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تساوا بين النساء من جميع الوجوه فإنه وإن وقع القسم الصوري ليلة وليلة فلا بد من التفاوت

في الحبة والشهوة والجماع كما قاله ابن عباس وعبيدة السلماني ومجاهد والحسن البصري والضحاك بن مزاحم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا ابن أبي شيبة حدثنا حسين الجعفي عن زائدة عن عبد العزيز بن رفيع عن ابن أبي مليكة قال نزلت هذه الآية (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) في عائشة ، يعني أن النبي ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن أبي قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » يعني القلب هذا لفظ أبي داود وهذا إسناد صحيح لكن قال الترمذي رواه حماد بن زيد وغير واحد عن أيوب عن أبي قلابة مرسل قال وهذا أصح وقوله (فلا تملوا كل الليل) أي فإذا ملتم إلى واحدة منهم فلا تبالغوا في الليل بالسكينة (فتذروها كالمعلقة) أي فتبقى هذه الأخرى معلقة قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن والضحاك والريبع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان معناه لا ذات زوج ولا مطلقة وقال أبو داود الطيالسي أنبأنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداها جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط » وهكذا رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث همام بن يحيى عن قتادة به وقال الترمذي إنما أسنده همام ورواه هشام الدستوائي عن قتادة قال كان يقال ولا يعرف هذا الحديث مرفوعاً إلا من حديث همام وقوله (وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً) أي وإن أصلحت في أموركم وقسمتم بالعدل فيما تملكون واتقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض ثم قال تعالى (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً) وهذه هي الحالة الثالثة وهي حالة الفراق وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيها عنها ويغنيها عنه بأن يعوضه الله من هو خير له منها ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه (وكان الله واسعاً حكيماً) أي واسع الفضل عظيم المن حكيماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * إِنَّ يُشَاءُ يَذْهَبَكُمْ أَيْهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا * مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه الحاكم فيهما ولهذا قال (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم) أي وصيناكم بما وصيناكم به من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لا شريك له ثم قال (وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض) الآية كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه (إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد) وقال (فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد) أي غنى عن عباده (حميد) أي محمود في جميع ما يقدره ويشعره وقوله (ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً) أي هو القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب الشهيد على كل شيء وقوله (إن يشأ يذهبكم أيتها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرًا) أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه كما قال (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) قال بعض السلف ما أهون العباد على الله إذا أصاعوا أمره وقال تعالى (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز) أي وما هو عليه بممتنع وقوله (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) أي يامن ليس له همة إلا الدنيا اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأفناك كما قال تعالى (فمن الناس من يقول

ربنا آتانا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق * ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقننا عذاب النار * أولئك لهم نصيب مما كسبوا) الآية وقال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه) الآية وقال تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد - إلى قوله - انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) الآية وقد زعم ابن جرير أن المعنى في هذه الآية (من كان يريد ثواب الدنيا) أى من المنافقين الذين أظهروا الإيمان لأجل ذلك (فعند الله ثواب الدنيا) وهو ما حصل لهم من المغام وغيرهما مع المسلمين وقوله (والآخرة) أى وعند الله ثواب الآخرة وهو ما ادخره لهم من العقوبة في نار جهنم جعلها كقوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها - إلى قوله - وباطل ما كانوا يعملون) ولا شك أن هذه الآية معناها ظاهر وأما تفسيره الآية الأولى بهذا ففيه نظر فإن قوله (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) ظاهر في حصول الخير في الدنيا والآخرة أى بيده هذا وهذا فلا يقتصرن قاصر المصلحة على السعى للدنيا فقط بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة فإن مرجع ذلك كله إلى التمسك بيده الضرع والنفع وهو الله الذى لا إله إلا هو الذى قد قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة ، وعدل بينهم فيما عملهم فيهم ممن يستحق هذا ومن يستحق هذا . ولهذا قال (وكان الله سميعا بصيرا)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أى بالعدل فلا يعدلوا عنه يمينا ولا شمالا ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ولا يصرفهم عنه صارف وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه وقوله (شهداء لله) كما قال (وأقيموا الشهادة لله) أى أودوها ابتغاء وجه الله فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقا خالية من التحريف والتبديل والكتمان ولهذا قال (ولو على أنفسكم) أى اشهد الحق ولو عاد ضررها عليك وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرته عليك فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجا ومخرجا من كل أمر يضيق عليه وقوله (أو الوالدين والأقربين) أى وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراهم فيها بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم فإن الحق حاكم على كل أحد وقوله (إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) أى لا ترعاه لغناه ولا تشفق عليه لفقره الله يتولاها بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما وقوله (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) أى فلا يحملنكم الهوى والعصية وبغض الناس إليكم على ترك العدل فى أموركم وشئونكم بل ازموا العدل على أى حال كان كما قال تعالى (ولا يجرمكم شتان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خير ثمارهم وزروعهم فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى ولأتم أبغض إلى من أعددكم من القردة والخنازير وما يحملنى حبي إياه ، وبغضى لكم على أن لا أعدل فيكم فقالوا بهذا قامت السموات والأرض وسيأتى الحديث مسندا فى سورة المائدة إن شاء الله تعالى وقوله (وإن تلوا أَوْ نَعَرِضُوا) قال مجاهد وغير واحد من السلف تلوا أى تحرفوا الشهادة وتغيروها وإلى هو التحريف وتعمد الكذب قال تعالى (وإن منهم لفرقا يلونون ألسنتهم بالكذب) الآية والاعراض هو كتمان الشهادة وتركها قال تعالى (ومن يكتتمها فإنه آثم قلبه) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « خير الشهداء الذى يأتي بالشهادة قبل أن يسئله » ولهذا نوهدهم الله بقوله (فإن الله كان بما تعملون خيرا) أى وسيجازيكم بذلك

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ

بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستعزأ وينتقص بها وأقررتهم على ذلك فقد شاركتهم في الذي هم فيه فلهمنا قال تعالى (إنكم إذا مثلهم) في المأثم كاجاء في الحديث «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر» والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام وهي مكية (وإذا رأيت الذين يحوضون في آياتنا فأعرض عنهم) الآية قال مقاتل بن حيان نسخت هذه الآية التي في سورة الأنعام يعني نسخ قوله (إنكم إذا مثلهم) لقوله - وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكري لهم يتقون - وقوله (إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) أي كما أشركوهم في الكفر كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين لا الزلال

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوَذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين بدوائر السوء بمعنى ينتظرون زوال دولتهم وظهور الكفرة عليهم وذهاب ملتهم (فإن كان لكم فتح من الله) أي نصر وتأييد وظفر وغنيمة (قالوا ألم نكن معكم) أي يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة (وإن كان للكافرين نصيب) أي إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان كما وقع يوم أحد فإن الرسل تبلى ثم يكون لها العاقبة (قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) أي ساعدناكم في الباطن وما ألوانهم خبالاً وتخديلاً حتى انتصرتهم عليهم وقال السدي نستحوذ عليكم نغلب عليكم كقوله (استحوذ عليهم الشيطان) وهذا أيضاً تودد منهم إليهم فإنهم كان يصانعون هؤلاء وهؤلاء ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلة إيمانهم قال تعالى (فإن الله يحكم بينكم يوم القيامة) أي بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة فلا تغتروا بجران الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا لما له في ذلك من الحكمة فيوم القيامة لاتنفعكم ظواهركم بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصل مافي الصدور وقوله (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) قال عبد الرزاق أنبأنا الثوري عن الأعمش عن زر عن سبيع الكندي قال جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال كيف هذه الآية (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) فقال علي رضي الله عنه أدنه أدنه فأنه يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً وكذا روى ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً قال ذلك يوم القيامة وكذا روى السدي عن أبي مالك الأشجعي يعني يوم القيامة وقال السدي سبيلاً أي حجة ويحتمل أن يكون المعنى ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً أي في الدنيا بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة كما قال تعالى (إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا) الآية وعلى هذا يكون رداً على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين وفيما سلطوهم من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم كما قال تعالى (فترى الذين في قلوبهم مرض يسمعون فيهم - إلى قوله - نادمين) وقد استدلل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولي العلماء وهو النع من بيع العبد المسلم للكافرين لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والاذلال ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه في الحال لقوله تعالى (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَالَى يَرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مَّذْ بَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾

قد تقدم في أول سورة البقرة قوله تعالى (يخادعون الله والذين آمنوا) وقال ههنا (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) ولا شك أن الله لا يخادع فإنه العالم بالسرائر والضمائر ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة وأن أمرهم يروج عنده كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والساداد ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده كما قال تعالى (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم) الآية وقوله (وهو خادعهم) أى هو الذى يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق والوصول اليه في الدنيا وكذلك يوم القيامة كما قال تعالى (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم - إلى قوله - وبئس المصير) وقد ورد في الحديث «من سمع سمع الله به ومن رآه رآه الله به» وفي الحديث الآخر «إن الله يأمر بالعباد إلى الجنة فيما يبذل للناس ويعذل به إلى النار» عياداً بالله من ذلك وقوله (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) الآية هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها وهى الصلاة إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها لأنهم لانية لهم فيها ولا إيمان لهم بها ولا خشية ولا يعقلون معناها كما روى ابن مردويه من طريق عبيد الله بن زحر عن خالد بن أبي عمران عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ولكن يقوم إليها طلق الوجه ، عظيم الرغبة شديد الفرح ، فإنه يناجى الله وإن الله تجاهه يغفر له ويحييه إذا دعاه ثم يتلو هذه الآية ، (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) وروى من غير هذا الوجه عن ابن عباس نحوه فقوله تعالى (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) هذه صفة ظواهرهم كما قال (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة فقال (يراءون الناس) أى لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة . ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التى لا يرون فيها غالباً كصلاة العشاء في وقت العتمة وصلاة الفجر في وقت الفلج كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيها لأتوها ولو حبواً ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام ثم أمر رجلاً فيصلى بالناس ثم أنطلق معى برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار» وفي رواية «والذى نفسى بيده لو علم أحدكم أنه يجد عرقاً سمياً أو مرامتين حسنتين لشهد الصلاة ولولا ما فى البيوت من النساء والدنية لحرق عليهم بيوتهم بالنار» وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمد بن إبراهيم بن أبي بكر المسمى ، حدثنا محمد بن دينار عن إبراهيم الهجرى عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل» وقوله (ولا يذكر الله إلا قليلاً) أى فى صلاتهم لا يخشون ولا يدرون ما يقولون بل هم فى صلاتهم ساهون لاهون وعمما يراد بهم من الخير معرضون وقد روى الإمام مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ «تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق : يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فقهر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث إسماعيل بن جعفر المدنى عن العلاء بن عبد الرحمن به وقال الترمذى حسن صحيح وقوله (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) يعنى المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر فلام مع المؤمنين ظاهراً وباطناً ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) الآية : وقال مجاهد (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء) يعنى أصحاب محمد ﷺ (ولا إلى هؤلاء) يعنى اليهود وقال ابن جرير حدثنا محمد بن الثنى حدثنا عبد الوهاب حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة» (١) بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ولا تدرى أيهما

(١) العائرة بالهمزة من عارت الشاة بين الفحلين إذا ترددت بينهما لاتدرى أيهما ينزى عليها .

تتابع « تفرد به مسلم وقد رواه عن محمد بن المنصور مرة أخرى عن عبد الوهاب فوقف به علي بن عمر ولم يرفعه قال حدثنا به عبد الوهاب مرتين كذلك قلت وقد رواه الإمام أحمد عن إسحق بن يوسف بن عبيد الله به مرفوعاً وكذا رواه إسماعيل بن عياش وعلي بن عاصم عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً وكذا رواه عثمان بن محمد بن أبي شيبة عن عبدة عن عبد الله به مرفوعاً ورواه حماد بن سلمة عن عبيد الله أو عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً . ورواه أيضاً صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثله وقال الإمام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا الهذيل بن بلال عن ابن أبي عبيد أنه جلس ذات يوم بمكة وعبد الله بن عمر معه فقال ابن أبي عبيد قال أبي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن مثل المنافق يوم القيامة كالشاة بين الرضين من الغنم إن أتت هؤلاء نطحتها وإن أتت هؤلاء نطحتها » فقال له ابن عمر كذبت فأثنى القوم على أبي خيراً أو معروفًا فقال ابن عمر ما أظن صاحبكم إلا كما تقولون ولكنني شاهدني الله إذ قال كالشاة بين الغنمين ، فقال هو سواء فقال هكذا سمعته . قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا المسعودي عن ابن جعفر محمد بن علي قال بينا عبيد بن عمير يقص وعنده عبد الله بن عمر فقال عبيد ابن عمير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل المنافق كالشاة بين رضيعين إذا أتت هؤلاء نطحتها وإذا أتت هؤلاء نطحتها » فقال ابن عمر ليس كذلك إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كشاة بين غنمين » قال فاختطف الشيخ وغضب فلما رأى ذلك ابن عمر قال أما إني لو لم أسمع لم أرد ذلك عليك . (طريقة أخرى عن ابن عمر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عثمان بن ماديبة عن يعفر بن زودي قال سمعت عبيد بن عمير وهو يقص يقول قال رسول الله ﷺ « مثل المنافق كمثل الشاة الرابضة بين الغنمين » فقال ابن عمر : ويلكم لا تكذبوا على رسول الله ﷺ ، إنما قال رسول الله ﷺ « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين » ورواه أحمد أيضاً من طرق عن عبيد بن عمير عن ابن عمر ، ورواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحق عن أبي الأحوص عن عبد الله هو ابن مسعود قال : مثل المؤمن والمنافق والكافر مثل ثلاثة نفر اتهموا إلى واد فوقع أحدهم فغير ، ثم وقع الآخر حتى إذا أتى على نصف الوادي ناداه الذي على شفير الوادي ويلك أين تذهب إلى الهلكة ارجع عودك على بدئك ، وناداه الذي عبر لهم إلى النجاة ، فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة ، قال فجاءه سيل فأغرقه ، فالذي عبر هو المؤمن ، والذي غرق المنافق (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) والذي مكث الكافر وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا شعبة عن قتادة (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) يقول ليسوا بمؤمنين مخلصين ، ولا مشركين مصرحين بالشرك ، قال وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن والمنافق والكافر كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر فوقع المؤمن فقطع ، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر أن هلم إلي فإني أخشى عليك ، وناداه المؤمن أن هلم إلي فإن عندي وعندي يحظى (١) له ما عنده ، فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى أذى (٢) ففرقه وإن المنافق لم يزل في شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك قال وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول « مثل المنافق كمثل ثاغي بين غنمين رأت غنماً على نشز فأنتها وشامتها فلم تعرف ، ثم رأت غنماً على نشز فأنتها فشامتها فلم تعرف » ولهذا قال تعالى (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً) أي ومن صرفه عن طريق الهدى (فلن تجد له ولياً مرشداً) فانه (من يضلل الله فلا هادي له) والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم ، ولا منقذ لهم مما هم فيه ، فانه تعالى لا معقب لحكمه ولا يستل عما يفعل وهم يسئلون

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَيْنَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا

(١) في نسخة ابن جرير : ويحصى بالصاد (٢) وفيه آتى عليه اللاء .

وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يعنى مصاحبتهم ومصادقةهم. ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم ، كما قال تعالى (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه) أى يحذركم عقوبته فى ارتكابكم نهيه ، ولهذا قال ههنا (أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا) أى حجة عليكم فى عقوبته إياكم . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبى حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قوله (سلطانا مبينا قال كل سلطان فى القرآن حجة وهذا إسناد صحيح ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظى والضحاك والسدى والنضر بن عري ، ثم أخبر تعالى (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) أى يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ . قال الوالى عن ابن عباس (فى الدرك الأسفل من النار) أى فى أسفل النار ، وقال غيره النار دركات كما أن الجنة درجات ، وقال سفيان الثورى عن عاصم عن ذكوان أبى صالح عن أبى هريرة (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) قال فى تواييت ترتج عليهم . كذا رواه ابن جرير عن ابن وكيع عن يحيى بن عمار عن سفيان الثورى به ، ورواه ابن أبي حاتم عن المنذر بن شاذان عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن عاصم عن أبى صالح عن أبى هريرة (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) قال الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم ، قال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن خيثمة عن عبد الله يعنى ابن مسعود (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) قال فى تواييت من نار تطبق عليهم أى مغلقة مقفلة ، ورواه ابن أبي حاتم عن أبى سعيد الأشج عن وكيع عن سفيان عن سلمة عن خيثمة عن ابن مسعود (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) قال فى تواييت من حديد مبهمة عليهم ، ومعنى قوله مبهمة أى مغلقة مقفلة لا يهتدى لمكان فتحها ، وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو أسامة حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا على بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن أن ابن مسعود سئل عن المنافقين فقال : يجعلون فى تواييت من نار تطبق عليهم فى أسفل درك من النار (ولن تجد لهم نصيراً) أى ينقذهم مما هم فيه ويخرجهم من أليم العذاب ، ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم فى الدنيا تاب عليه وقبل ندمه إذا أخلص فى نوبته وأصلح عمله ، واعتصم بربه فى جميع أمره فقال تعالى (إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله) أى بدلوا الرياء بالإخلاص فينفهم العمل الصالح وإن قل ، قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أنبأنا ابن وهب أخبرني يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن خالد بن أبى عمران عن عمران بن عمرو بن مرة عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال « أخلص دينك يكفك القاييل من العمل » (فأولئك مع المؤمنين) أى فى زمرة يوم القيامة (وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً) ثم قال تعالى مخبراً عن غناه عما سواه وأنه إنما يعذب العباد بدنوبهم فقال تعالى (ما يفعل الله بعذابكم إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) أى أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله (وكان الله شاكراً علياً) أى من شكر شكر له . ومن آمن قلبه به علمه وجزاه على ذلك أوفر الجزاء

﴿ لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿

قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية يقول لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً فإنه قد أرحص له يدعو على من ظلمه وذلك قوله (إلا من ظلم) وإن صبر فهو خير له وقال أبو داود حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبى حدثنا

سفيان عن حبيب عن عطاء عن عائشة قال سرق لها شيء فجعلت تدعو عليه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تسبني عنه » وقال الحسن البصري لا يدع عليه وليقل اللهم أعني عليه واستخرج حتى منه وفي رواية عنه قال قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه وقال عبد الكريم بن مالك الجزري في هذه الآية هو الرجل يشتمك فتشتمه ولكن إن افتري عليك فلا تفر عليه لقوله (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) وقال أبو داود حدثنا القعنبي حدثنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المستبان ما قاله فعلى البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم » وقال عبد الرزاق أنبأنا الثوري عن الصباح عن مجاهد في قوله (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) قال ضاف رجل رجلا فلم يؤد إليه حق ضيافته فلما خرج أخبر الناس فقال ضفت فلانا فلم يؤد إلى حق ضيافتي قال فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم حتى يؤدى الآخر إليه حق ضيافته وقال ابن إسحق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) قال : قال هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فيخرج فيقول أساء ضيافتي ولم يحسن وفي رواية هو الضيف المحول رحله فانه يجهر لصاحبه بالسوء من القول وكذا روى عن غير واحد عن مجاهد نحوه هذا وقدرى الجماعة سوى النسائي والترمذي من طريق الليث بن سعد والترمذي من حديث ابن لبيعة كلاهما عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير مرثد بن عبد الله عن عقبة بن عامر قال : قلنا يارسول الله إنك تبعثنا فنزل بقوم فلا يقرونا فما ترى في ذلك ؟ « فقال إذا نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف فأقبلوا منهم وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم » وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت أبا الجودي يحدث عن سعيد بن المهاجر عن المقدم بن أبي كريمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أيما مسلم ضاف قوما فأصبح الضيف محروما فإن حقا على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقري ليلته من زرعه وماله » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال أحمد أيضا حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة عن منصور عن الشعبي عن المقدم بن أبي كريمة سمعت رسول الله ﷺ يقول « ليلة الضيف واجبة على كل مسلم فإن أصبح بفنائهم محروما كان ديننا عليه فإن شاء اقتضاه وإن شاء تركه » ثم رواه أيضا عن غندر عن شعبة . وعن زياد بن عبد الله البكائي عن وكيع وأبي نعيم عن سفيان الثوري ثلاثتهم عن منصور به ، وكذا رواه أبو داود من حديث أبي عوانة عن منصور به . ومن هذه الأحاديث وأمثالها ذهب أحمد وغيره إلى وجوب الضيافة ومن هذا القليل الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا محمد بن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : إن لي جاريا يؤذيني فقال له : « أخرج متاعك فضعه على الطريق » فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق فكل من مر به قال : مالك ؟ قال جاري يؤذيني فيقول اللهم العنه اللهم أخزه قال : فقال الرجل ارجع إلى منزلك والله لا أؤذيك أبدا ، وقد رواه أبو داود في كتاب الأدب عن أبي توبة الربيع عن نافع عن سليمان ابن حيان أبي خالد الأحمر عن محمد بن عجلان به ثم قال البزار : لانه لم يروى عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد ورواه أبو جحيفة وهب بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم ويوسف بن عبد الله بن سلام عن النبي صلى الله عليه وسلم وقوله (إن تبدوا خيرا أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا) أي إن تظهروا أيها الناس خيرا أو أخفيتهم أو عفوتهم عن أساء إليكم فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم ولهذا قال : (فإن الله كان عفوا قديرا) ولهذا ورد في الأثر أن حملة العرش يسبحون الله فيقول بعضهم سبحانك على حاملك بعد علمك ويقول بعضهم سبحانك على عفوك بعد قدرتك ، وفي الحديث الصحيح « ما نقص مال من صدقة ولا زاد الله عبدا يعفو إلا عزاء ومن تواضع لله رفعه »

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا

مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾
 يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسوله من اليهود والنصارى حيث فرقوا بين الله ورسوله في الإيمان فأمنوا ببعض
 الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشبه والعادة وما ألقوا عليه آباءهم لاعتدوا على ذلك فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك
 بل بمجرد الهوى والعصية فاليهود عليهم لعائن الله آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام والنصارى آمنوا
 بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران ، والمجوس
 يقال إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له زرادشت ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم والله أعلم ، والقصود أن من
 كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض فمن رد نبوته
 للحسد أو العصبية أو التشبه تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً إنما هو عن غرض وهوى
 وعصية ولهذا قال تعالى (إن الذين يكفرون بالله ورسوله) فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسوله (ويريدون أن يفرقوا بين
 الله ورسوله) أى في الإيمان (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً) أى
 طريقاً ومسلكاً ثم أخبر تعالى عنهم فقال (أولئك هم الكافرون حقاً) أى كفروهم بحق لاحتالة بمن ادعوا الإيمان به
 لأنه ليس شرعياً إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه
 أو نظروا حق النظر في نبوته وقوله (وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً) أى كما استهانوا بمن كفروا به إما لعدم نظرهم فيما
 جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا بما لا ضرورة بهم إليه وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته كما كان
 يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة وخالفوه
 وكذبوه وعادوه وقتلوه فسلط الله عليهم الدل الدنيوى الوصول بالدل الأخرى (وضربت عليهم الدلة والمسكنة وباءوا
 بغضب من الله) في الدنيا والآخرة وقوله (والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم) يعنى بذلك أمة
 محمد صلى الله عليه وسلم فانهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي بعثه الله كما قال تعالى (آمن الرسول بما أنزل
 إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله) الآية ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء
 الجليل فقال (أولئك سوف يؤتيهم أجورهم) على ما آمنوا بالله ورسوله (وكان الله غفوراً رحيماً) أى لدنوبهم أى إن
 كان لبعضهم ذنوب

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا
 أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ
 وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مِثْقٰلَهُمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا
 فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾

وقال محمد بن كعب القرظى والسدى وقتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت
 التوراة على موسى مكتوبة قال ابن جريج : سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه
 فيما جاءهم به وهذا إنما قالوه على سبيل التعتن والعدا والكفر والإلحاد كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك كما هو مذكور
 في سورة سبحان (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) الآيات ولهذا قال تعالى (فقد سألو موسى أكبر
 من ذلك فقالوا أرنا الله جهرَةً فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) أى بطغيانهم وبيهم . وعتوهم وعداؤهم وهذا مفسر في سورة
 البقرة حيث يقول تعالى (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرَةً فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) ثم بعثناكم
 من بعد موتكم لعلكم تشكرون) وقوله تعالى (ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات) أى من بعد ما رأوا من الآيات

الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى عليه السلام في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدوهم فرعون وجميع جنوده في اليم فما جاوزوه إلا يسيرا حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنامهم فقالوا لموسى (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) الآتين ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوط في سورة الأعراف وفي سورة طه بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله عز وجل ثم لما رجع وكان ما كان جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده فجعل يقتل بعضهم بعضا، ثم أحياهم الله عز وجل وقال الله تعالى (ففعونا عن ذلك وآتيناه موسى سلطانا مبينا) ثم قال (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام رفع الله على رؤوسهم جبلا، ثم أزموا فالتزموا وسجدوا وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم كما قال تعالى (وإذ تلقينا الجبل فوقهم كاهن ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة) الآية (وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا) أى فخالقوا ما أمروا به من القول والفعل فانهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجدا وهم يقولون حطة . أى اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه حتى تنها في التيه أربعين سنة فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعرة (وقلنا لهم لا تعدوا في السبت) أى وصيائهم بحفظ السبت والتمزام ما حرم الله عليهم ما دام مشروعا لهم (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) أى شديد افخالفوا وعصوا وتخيلوا على ارتكاب ما حرم الله عز وجل ، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله . (واسلمهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) الآيات وسياق حديث صفوان بن عسال في سورة سبحان عند قوله . (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) وفيه : وعليكم خاصة يهود أن لا تعدوا في السبت .

﴿ فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بِنَايَةِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقًّا وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ بِكَفَرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ * وَكَفَرَهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿

وهذا من الذنوب التي ارتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى وهو نقضهم الميثاق والمعهود التي أخذت عليهم ، وكفرهم بآيات الله ، أى حججه وبراهينه ، والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام، قوله : (وقتلهم الأنبياء بغير حق) وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله فانهم قتلوا جماعيا من الأنبياء عليهم السلام وقولهم (قلوبنا غلف) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى وقتادة وغير واحد أى في غطاء وهذا كقول المشركين (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه) الآية وقيل معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غلف للعلم أى أوعية للعلم قد حوته وحصلته ، رواه السكبي عن أبي صالح عن ابن عباس وقد تقدم نظيره في سورة البقرة قال الله تعالى (بل طبع الله عليها بكفرهم) فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول لأنها في غلف وفى أكنة قال الله بل هى مطبوع عليها بكفرهم وعلى القول الثانى عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة (فلا يؤمنون إلا قليلا) أى تمرنت قلوبهم على الكفر والطغيان. وقلة الإيمان (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتان عظيم) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى أنهم رموها بالزنا وكذلك قال السدى وجوير ومحمد بن إسحق وغير واحد وهو ظاهر من الآية أنهم رموها وابتهابا لعظام فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك زاد بعضهم وهى حائض فعلمهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة وقولهم (إننا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) أى هذا الذى يدعى لنفسه هذا المنصب

قتلناه وهذا منهم من باب التهم والاستهزاء كقول المشركين (يا أيها الذي نزل عليه الله كبر إنك لمجنون) وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه أنه لما بعث الله عيسى بن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التي كان يرى بها الأكمة والأبرص ويحي الموتى بإذن الله ويصور من الطين طائرا ثم ينفخ فيه فيكون طائرا يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمها الله بها وأجراها على يديه ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلدة بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان وكان رجلا مشركا من عبدة الكواكب وكان يقال لأهل ملته اليونان وأنهم إله أن في بيت المقدس رجلا يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه فضض الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ويكف أذاه عن الناس فلما وصل الكتاب امتثل وإلى بيت المقدس ذلك وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام وهو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر وقيل سبعة عشر نفرا وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت فحصره هنالك . فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم قال لأصحابه أيكم يليق عليه شبهى وهو رفيق في الجنة فالتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا يتدب إلا ذلك الشاب فقال : أنت هو وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو وفتحت روزنة من سقف البيت وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم فرفع إلى السماء وهو كذلك كما قال الله تعالى (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى) الآية فلما رفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه في الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقولهم ماعدا من كان في البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه . وأما الباقون فانهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح بن مريم حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت ويقال إنه خاطبها والله أعلم ، وهذا كله من امتحان الله عباده لما له في ذلك من الحكمة البالغة . وقد أوضح الله الأمور وجلاها وبينه وأظهره في القرآن العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات فقال تعالى وهو أصدق القائلين ورب العالمين المطلع على السرائر والضمائر الذي يعلم السر في السموات والأرض العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) أى رأوا شبهه فظنوه إياه ولهذا قال (وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) يعنى بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلمه إليهم من جهال النصارى كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر ولهذا قال : (وما قتلوه يقينا) أى وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين (بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا) أى منيع الجناب لا يرام جنبه ولا يضام من لاذ بيباه (حكيا) أى في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين يعنى فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال إن منكم من يكفر بى اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بى قال : ثم قال أيكم يليق عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى في درجى فقام شاب من أحدتهم سنا فقال له : اجلس ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال : اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا فقال : هو أنت ذاك فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء قال وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق فقالت فرقة كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء يعقوبية وقالت فرقة كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسمون فتظاهرت الكفرتان

على المسلمة فقتلوا فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية بنحوه وكذا ذكره غير واحد من السلف أنه قال لهم أيكم يلقي عليه شبهى فيقتل مكانى وهو رفيق فى الجنة

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمى عن هرون بن عثرة عن وهب بن منبه قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين فى بيت فأحاطوا بهم فلما دخلوا عليه صورهم الله عز وجل كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم سحرتونا ليرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعا فقال عيسى لأصحابه من يشربى نفسه منكم اليوم بالجنة فقال رجل منهم أنا فخرج اليهم وقال أنا عيسى وقد صورته الله على صورة عيسى فأخذوه فقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم فظنوا أنهم قد قتلوا عيسى وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ، ورفع الله عيسى من يومه ذلك وهذا سياق غريب جداً

قال ابن جرير : وقد روى عن وهب بن نوح هذا القول وهو ما حدثنى المشى حدثنا اسحاق حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنى عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول إن عيسى بن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه فدعا الحواريين وصنع لهم طعاما فقال احضرونى الليلة فإن لى اليكم حاجة فلما اجتمعوا اليه من الليل عشام وقام يخدمهم فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه فتعاضموا ذلك وتكاهوه فقال ألا من رد على الليلة شيئاً مما أصنع فليس منى ولا أنا منه فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال : أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بى أسوة فانكم ترون أنى خيركم فلا يتعاضم بعضهم على بعض وليبذل بعضهم نفسه لبعض كما بذلت نفسى لكم وأما حاجتى الليلة التى استعنتكم عليها فتدعون الله لى وتجتهدون فى الدعاء أن يؤخر أجلى فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء فجعل يوقظهم ويقول سبحان الله أما تصبرون لى ليلة واحدة تعينونى فيها فقالوا والله ما ندرى مالنا لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطبق الليلة سمرا وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه فقال يذهب الراعى وتفرق الغنم ، وجعل يأتى بكلام نحو هذا ينعى به نفسه . ثم قال الحق ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبغى أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمنى . فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه وأخذوا شمعون أحد الحواريين وقالوا : هذا من أصحابه فجحد وقال ما أنا بصاحبه فتركوه . ثم أخذهم آخرون فجحد كذلك ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال : ما تجمعون لى إن دلتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه وكان شبه عليهم قبل ذلك فأخذوه فاستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون له أنت كنت تحبى الموتى وتنهر الشيطان وتبشّر الجنون أفلا تنجى نفسك من هذا الحبل ؟ ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الحشبة التى أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم فكث سبعا ثم إن أمه والراة التى كان يداويها عيسى عليه السلام فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث المصلوب فجاءها عيسى فقال : ماتبكيان ؟ فقالتا عليك فقال إنى قد رفعنى الله اليه ولم يصبى إلا خير وإن هذا شبه لهم فأمرى الحواريين يلقونى إلى مكان كذا وكذا فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر وفقدوا الذى كان باعه ودل عليه اليهود فسأل عنه أصحابه فقال : إنه ندم على ما صنع فأختنق وقتل نفسه فقال : لوتاب. لتاب الله عليه . ثم سألهم عن غلام تبعهم يقال له يحيى فقال هو معكم فأنطلقوا فانه سيصبح كل إنسان يحدث بلغة قومه فليندبرهم وليدعهم ، سياق غريب جداً

ثم قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن ابن إسحق قال : كان اسم ملك بنى إسرائيل الذى بعث إلى عيسى ليقتله رجلا منهم يقال له داود فلما أجمعوا لذلك منه لم يفظع عبد من عباد الله بالموت فيما ذكر لى فظعه ولم يخرج منه جزعه ولم يدع الله فى صرفه عنه دعاءه حتى إنه ليقول فيما يزعمون اللهم إن كنت صارفا هذه الكأس عن أحد من خلقك فأصرفها عنى وحتى إن جلده من كرب ذلك ليتفصد دما فدخل المدخل الذى أجمعوا أن يدخلوا عليه فيه ليقتلوه هو وأصحابه وهم ثلاثة عشر بعيسى عليه السلام فلما أيقن أنهم داخلون عليه قال لأصحابه من الحواريين وكانوا اثنى عشر

رجلا (١) فرطوس، ويعقوبس، ويلاونخس أخو يعقوب، وأندراس، وفيلبس، وابن يلعما، ومثاء، وطوماس، ويعقوب بن حلقايا، ونداوسيس، وقتايا، وليودس ركريا يوطا : قال ابن حميد قال سلمة قال ابن إسحق وكان فيهما ذكر لرجل اسمه سرجس ، وكانوا ثلاثة عشر رجلا سوى عيسى عليه السلام جحدته النصارى وذلك أنه هو الذي شبه لليهود مكان عيسى قال فلا أدري هو من هؤلاء الاثني عشر أو كان ثالث عشر فجحدوه حين أقروا لليهود بصلب عيسى وكفروا بما جاء به محمد ﷺ من الخبر عنه فإن كانوا ثلاثة عشر فأنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى أربعة عشر وإن كانوا اثني عشر فأنهم دخلوا المدخل وهم ثلاثة عشر قال ابن إسحق وحدثني رجل كان نصرانيا فأسلم أن عيسى حين جاءه من الله إني رافعك إلي ، قال يامعشر الحواريين أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة حتى يشبه لقوم في صورتي فيقتلوه في مكاني فقال : سرجس أنا ياروح الله قال : فاجلس في مجلسي فجلس فيه ، ورفع عيسى عليه السلام فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه فكان هو الذي صلبوه وشبه لهم به وكانت عدتهم حين دخلوا مع عيسى معلومة قد رأوهم فأحصوا عدتهم فلما دخلوا عليهم ليأخذوه وجدوا عيسى وأصحابه فيما يرون وقد دوا رجلا من العدة فهو الذي اختلفوا فيه وكانوا لا يعرفون عيسى حتى جعلوا ليودس ركريا يوطا ثلاثين درهما على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه فقال لهم إذا دخلتم عليه فاني سأقبله وهو الذي أقبل فخذوه فلما دخلوا وقد رفع عيسى ورأى سرجس في صورة عيسى فلم يشك أنه هو فأكب عليه فقبله فأخذوه فصلبوه . ثم أن ليودس ركريا يوطا ندم على ما صنع فاختنق بجبل حتى قتل نفسه وهو ملعون في النصارى وقد كان أحد المحدثين من أصحابه وبعض النصارى يزعم أنه ليودس ركريا يوطا وهو الذي شبه لهم فصلبوه وهو يقول إني لست بصاحبكم أنا الذي دلتكم عليه والله أعلم أي ذلك كان . وقال ابن جرير عن مجاهد صلبوا رجلا شبه بعيسى ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء حيا واختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقى على جميع أصحابه

وقوله تعالى : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) قال ابن جرير اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم معنى ذلك (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) يعني قبل موت عيسى يوجه ذلك إلى أنه جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال فتصير الملل كلها واحدة ، وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام . (ذكر من قال ذلك) : حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال قبل موت عيسى بن مريم عليه السلام وقال العوفي عن ابن عباس مثل ذلك وقال أبو مالك في قوله (إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : ذلك عند نزول عيسى وقبل موت عيسى بن مريم عليه السلام لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به وقال الضحاك عن ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) يعني اليهود خاصة وقال الحسن البصري يعني النجاشي وأصحابه رواها ابن أبي حاتم وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا أبو رجاء عن الحسن (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال قبل موت عيسى والله إنه لحى الآن عند الله ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن عثمان اللاحق حدثنا جويرية بن بشير قال سمعت رجلا قال لا حسن يا أباسعيد قول الله عز وجل (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال قبل موت عيسى إن الله رفع إليه عيسى وهو باعته قبل يوم القيامة مقاما يؤمن به البر والفاجر . وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد وهذا القول هو الحق كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان قال ابن جرير وقال آخرون يعني بذلك (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به) بعيسى قبل موت الكتاب ذكر من كان يوجه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى حدثني الثوري حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله (إلا ليؤمنن به قبل موته) كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته قبل موت صاحب الكتاب . وقال ابن عباس لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى حدثنا ابن حميد حدثنا أبو نعيم يحيى

(١) النقول عن الكتب اليونانية المعول عليها نصه هكذا : سمان الملقب بطرس ، وأندراس ، ويعقوب بن زبدي ، ويوحنا ، وفيلبس ، وبرثولماوس ، وتوما ، ومتى العشار ، ويعقوب بن حلفي ، ولباس الملقب بتداس ، وسمعان القانوي ، ويهوذا الاسخريوطي ، اه

ابن واضح حدثنا حسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال : لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله ولو عجل عليه بالسلاح حدثني إسحق بن إبراهيم وحبيب بن الشهيد حدثنا عتاب بن بشير عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال هي في قراءة أبي قبل موتهم ليس يهودي يموت أبدا حتى يؤمن بعيسى قيل لابن عباس أرأيت إن خر من فوق بيت قال : يتكلم به في الهوى قيل أرأيت إن ضربت عنق أحدهم قال : يلجلج بها لسانه وكذا روى سفيان الثوري عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى عليه السلام وإن ضرب بالسيف تكلم به قال وإن هوى تكلم به وهو يهودي وكذا روى أبو داود الطيالسي عن شعبة عن أبي هرون الغنوي عن عكرمة عن ابن عباس فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس وكذا صح عن مجاهد وعكرمة ومحمد بن سيرين وبه يقول الضحاك وجويبر وقال السدي وحكاه عن ابن عباس ونقل قراءة أبي بن كعب قبل موتهم وقال عبد الرزاق عن إسرائيل عن فرات القزاز عن الحسن في قوله (إلا ليؤمنن به قبل موته) قال لا يموت أحدهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت وهذا محتمل أن يكون مراد الحسن ما تقدم عنه ويحتمل أن يكون مراده ما أراد هؤلاء قال ابن جرير وقال آخرون معنى ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتاب (ذكر من قال ذلك) حدثني ابن المنذر حدثنا الحجاج بن النبال حدثنا حماد عن حميد قال : قال عكرمة لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ قوله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) ثم قال ابن جرير وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول وهو أنه لا يبق أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك وإنما شبه لهم قتلوا شبه وهم لا يتبينون ذلك ثم إنه رفعه إليه وأنه باق حتى وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة التي سنوردها إن شاء الله قريبا فيقتل مسيح الضلالة ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان بل لا يقبل إلا الاسلام أو السيف فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم ولهذا قال (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) أي قبل موت عيسى عليه السلام الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) أي بأعمالهم التي شاهدوها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض . فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام فهذا هو الواقع وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلا به فيؤمن به ولكن لا يكون ذلك إيمانا نافعا له إذا كان قد شاهد الملك كما قال تعالى في أول هذه السورة (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) الآية وقال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده) الآيتين وهذا يدل على ضعف ما احتج به ابن جرير في رد هذا القول حيث قال : ولو كان المراد بهذه الآية هذا السكان كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بالمسيح ممن كفر بهما يكون على دينهما وحينئذ لا يرثه أقرباؤه من أهل دينه لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته فهذا ليس بجيد إذ لا يلزم من إيمانه في حالة لا ينفعه إيمانه أنه يصير بذلك مسلما ألا ترى قول ابن عباس : ولو تردى من شاهق أو ضرب بالسيف أو فترسه سبع فانه لا بد أن يؤمن بعيسى بالإيمان به في هذه الحال ليس بنافع ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمناه والله أعلم ومن تأمل هذا جيدا وأمعن النظر انفتح له أنه هو الواقع لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا بل المراد بها الذي ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام وبقاء حياته في السماء وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تابنت أقوالهم فيه وتصادمت وتعاكست وتناقضت وخلت عن الحق ففرط هؤلاء اليهود وأفرط هؤلاء النصارى تنقصه اليهود بما رموه به وأمه من العظام وأطراه النصارى بحيث ادعوا فيه ما ليس فيه فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام

النبوة إلى مقام الربوبية تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علوا كبيرا وتنزه وتقدس لا إله إلا هو
 ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى بن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان
 قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له

قال البخاري رحمه الله في كتاب ذكر الأنبياء من صحيحه المتعلق بالقبول : نزول عيسى بن مريم عليه السلام، حدثنا
 إسحاق بن إبراهيم حدثنا يعقوب بن إبراهيم عن أبي صالح عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول
 الله ﷺ «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية
 ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة خيرا له من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة أقرءوا إن شئتم (وإن
 من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) وكذا رواه مسلم عن الحسن الحلواني
 وعبد بن حميد كلاهما عن يعقوب بن وأخرجه البخاري ومسلم أيضاً من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري به وأخرجه من
 طريق الليث عن الزهري به ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن أبي حفصة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي
 هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يقتل الدجال ويقتل الخنزير ويكسر الصليب
 ويضع الجزية ويفيض المال وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين » قال أبو هريرة أقرءوا إن شئتم (وإن من أهل
 الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) موت عيسى بن مريم ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات (طريق أخرى) عن أبي هريرة
 قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا محمد بن أبي حفصة عن الزهري عن حنظلة بن علي الأسلمي عن أبي هريرة أن رسول الله
 ﷺ قال « ليلن عيسى بن مريم بفتح الروحاء بالحج أو العمرة أو لثنتينهما جميعاً » وكذا رواه مسلم منفردا به
 من حديث سفيان بن عيينة والليث بن سعد ويونس بن يزيد ثلاثهم عن الزهري به وقال أحمد حدثنا يزيد
 سفيان هو ابن حسين عن الزهري عن حنظلة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ينزل عيسى بن مريم فيقتل
 الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر
 أو يجتمعهما » قال وتلا أبو هريرة (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) الآية فزعم حنظلة أن أبا هريرة قال
 يؤمن به قبل موت عيسى فلا أدري هذا كله حديث النبي ﷺ أو شيء قاله أبو هريرة وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه
 عن أبي موسى محمد بن المثنى عن يزيد بن هرون عن سفيان بن حسين عن الزهري به (طريق أخرى) قال البخاري حدثنا
 أبو بكر حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أن أبا هريرة قال : قال رسول الله
 ﷺ « كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح بن مريم وإمامكم منكم » تابعه عقيل والأوزاعي وهكذا رواه الإمام أحمد
 عن عبد الرزاق عن معمر بن عثمان بن عمر عن ابن أبي ذئب كلاهما عن الزهري به وأخرجه مسلم من رواية يونس
 والأوزاعي وابن أبي ذئب به . (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا قتادة عن عبد الرحمن
 عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وإن أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه
 لم يكن نبي بيني وبينه وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان بمصران كأن رأسه
 يقطر وإن لم يصبه بلل : فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك الله في زمانه الملل كلها
 إلا الإسلام ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال ثم تقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والتمار مع البقر
 والدواب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات لاتضرهم فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون » وكذا رواه
 أبو داود عن هدية بن خالد عن همام بن يحيى ورواه ابن جرير ولم يورد عند هذه الآية سواء عن بشر بن معاذ عن يزيد بن هرون
 عن سعيد بن أبي عروبة كلاهما عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم وهو مولى أم برثن صاحب السقاية عن أبي هريرة عن النبي
 ﷺ فذكر نحوه وقال يقاتل الناس على الإسلام وقد روى البخاري عن أبي اليمان عن شعيب عن الزهري عن أبي سلمة
 عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم والأنبياء أولاد علات ليس

يبنى وبينه نبي» ثم رواه محمد بن سنان عن فليح بن سليمان عن هلال بن علي عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي عمرة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شقي ودينهم واحد» وقال إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة عن صفوان بن سليم عن عطاء بن بشار عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ . (حديث آخر) قال مسلم في صحيحه حدثني زهير بن حرب حدثنا يعلى بن منصور حدثنا سليمان بن بلال حدثنا سهيل عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم خلوا بيننا وبين الدين سيوا مناقتلتهم فيقول المسلمون لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا . فيقاتلونهم فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً ويقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان إن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون وذلك باطل فإذا جاءوا الشام خرج فيينا هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة فنزل عيسى بن مريم فيؤمهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء فلو تركه لذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته .» (حديث آخر) قال أحمد حدثنا هشيم عن العوام بن حوشب عن جبلة بن سحيم عن مؤثر بن غفارة عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا أمر الساعة فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال لا علم لي بها فردوا أمرهم إلى موسى فقال لا علم لي بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله وفيما عهد إلى ربي عز وجل أن الدجال خارج ومعى قضيان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص قال فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الحجر والشجر يقول يا مسلم إن تحي كافرا فتعال فاقتله قال فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطشون بلادهم فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه قال ثم يرجع الناس يشكونهم فادعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم وينزل الله المطر فيخترق أجسادهم حتى يقذفهم في البحر ففيا عهد إلى ربي عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل التيم لا يدرى أهلها متى تفاجئهم بولادها ليلا أو نهاراً» رواه ابن ماجه عن محمد بن بشار عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب به نحوه (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي نضرة قال أتينا عثمان بن أبي العاص في يوم الجمعة لنعرض عليه مصحفنا لنا على مصحفه فلما حضرت الجمعة أمرنا فاغتسلنا ثم أتينا بطيب فطيبنا ثم جئنا المسجد فجلسنا إلى رجل فحدثنا عن الدجال ثم جاء عثمان بن أبي العاص فقعدنا إليه فجلسنا فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول «يكون للمسلمين ثلاثة أمصار مصر بملتي البحرين ومصر بالحيرة ومصر بالشام ففرع الناس ثلاث فرعات فيخرج الدجال في أعراض الناس فيهزم من قبل المشرق فأول مصر يرده مصر الذي بملتي البحرين فيصير أهلها ثلاث فرق فرقة تقول نقيم نشامه ننظر ماهو وفرقة تلحق بالأعراب وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم ومع الدجال سبعون ألفاً عليهم التيجان وأكثر من معه اليهود والنساء وينحاز المسلمون إلى عقبة أفيق فيبعثون سرحاً لهم فيصاب سرحهم فيشتد ذلك عليهم ويضيقهم مجاعة شديدة وجهد شديد حتى إن أحدهم ليحرق وتر قوسه فيأكله فيينا هم كذلك إذ نادى مناد من الشجر يا أيها الناس أتاكم الغوث «ثلاثا» فيقول بعضهم لبعض إن هذا الصوت رجل شعبان وينزل عيسى بن مريم عليه السلام عند صلاة الفجر فيقول له أميرهم يا روح الله تقدم صل فيقول هذه الأمة أمراء بعضهم على بعض فيتقدم أميرهم فيصلي حتى إذا قضى صلاته أخذ عيسى حربته فيذهب نحو الدجال فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الرصاص فيضع حربته بين يديه فيقتله ويهزم أصحابه فليس يومئذ شيء يوارى منهم أحداً حتى إن الشجرة تقول يا مؤمن هذا كافر ويقول الحجر يا مؤمن هذا كافر» تفرد به أحمد من هذا الوجه . (حديث آخر) قال أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه في سننه حدثنا علي بن محمد حدثنا عبد الرحمن المحاربي عن إسماعيل بن رافع عن أبي رافع عن أبي زرعة الشيباني يحيى ابن أبي عمر عن أبي أمامة الباهلي قال خطبنا رسول الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال

وحذرناه فكان من قوله أن قال « لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم عليه السلام أعظم من فتنة الدجال وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذر أمته الدجال وأنا آخر الأنبياء وأتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لا محالة فإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم فأنا حجيح كل مسلم وإن يخرج من بعدى فكل حجيح نفسه وإن الله خليفتي على كل مسلم وإنه يخرج من خلة بين الشام والعراق فيبعث بيننا ويعيث شمالاً ، ألا يا عباد الله : أيها الناس فاثبتوا وإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلي : إنه يبدأ فيقول أنا نبي فلا نبي بعدى ، ثم يثني فيقول أنا ربكم ولا ترون ربكم حتى تموتوا ، وإنه أعور وإن ربكم عز وجل ليس بأعور ، وإنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب ، وإن من فتنته أن معه جنة ونارا فإره جنة وجنته نار فمن ابتلى بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بردا وسلاما كما كانت النار بردا وسلاما على إبراهيم ، وإن من فتنته أن يقول الأعراي أرايت إن بعثت لك أمك وأباك أتشهد أني ربك ؟ فيقول نعم ، فيتمثل له شيطان في صورة أبيه وأمه فيقولان يا بني أتبعه فإنه ربك ، وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فينشرها بالمنشار حتى تلقى شقتين ثم يقول انظر إلى عبدى هذا فإني أبعثه الآن ثم يزعم أن له ربا غيبي ، فيبعثه الله فيقول له الخبيث من ربك فيقول ربى الله ، وأنت عدو الله الدجال ، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك مني اليوم » قال أبو حسن الطائفي حدثنا المحاربي حدثنا عبيد الله بن الوليد الرصافي عن عطية عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « ذلك الرجل أرفع أمتي درجة في الجنة » قال : قال أبو سعيد والله ما كنا نرى ذلك الرجل إلا عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله

ثم قال المحاربي : رجعنا إلى حديث أبي رافع قال وإن من فتنته : أن يأمر السماء أن تمطر فتعطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنب وإن من فتنته أن يمر بالحي فيكذبونه فلا تبقى لهم سائمة إلا هلك ، وإن من فتنته أن يمر بالحي فيصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتعطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنب حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه وأمدّه خواصر وأدره ضرورا وأنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه إلا مكة والمدينة فإنه لا يأتيهما من ثقب من ثقبها الاقيته الملائكة بالسيف صلته حتى ينزل عند الظريب الأحمر عند منقطع السبخة فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه فينفي الخبث منها كما ينفي الكبر خبث الحديد ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص . فقالت أم شريك بنت أبي العكر يا رسول الله فأين العرب يومئذ ؟ قال « هم قليل وجلهم يومئذ بيت المقدس وإمامهم رجل صالح فيينا إمامهم قد تقدم يصلى بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى بن مريم عليه السلام فرجع ذلك الإمام يمشى التهقري ليتقدم عيسى عليه السلام فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول : تقدم فصل فانها لك أقيمت فيصلى بهم إمامهم فإذا انصرف قال عيسى افتحوا الباب فيفتح ووراء الدجال معه سبعون ألف يهودى كلهم ذو سيف محلى وتاج فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هاربا فيقول عيسى إن لى فيك ضربة لن تسبقني بها فيدركه عند باب له الشرق فيقتله ويهزم الله اليهود فلا يبقى شيء مما خلق الله تعالى يتوارى به يهودى إلا أنطق الله ذلك شيء لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلا العرقة فانها من شجرهم لا تنطق إلا قال يا عبد الله المسلم : هذا يهودى فتعال اقتله . قال رسول الله ﷺ « وإن أيامه أربعون سنة ، السنة كنصف السنة والسنة كالشهر والشهر كالجمعة وآخر أيامه كالشررة يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي » فقيل له كيف نصلى يا نبي الله في تلك الأيام القصار ؟ قال « تقدرون الصلاة كما تقدرون في هذه الأيام الطوال ثم صلوا » قال رسول الله ﷺ « فيكون عيسى بن مريم في أمتي حكما عدلا وإماما مقسطا يدق الصليب ويدبح الخنزير ويضع الجزية ويترك الصدقة فلا يسعى على شاة ولا بعير وترتفع الشجناء والتباغض وتنزع حمة كل ذات حمة حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره وتفر الوليدة الأسد فلا يضرها ، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الأناء من الماء وتكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا الله وتضع الحرب أوزاها وتسلب قریش ملكها وتكون الأرض لها نور الفضة وتنبت نباتها كمهد آدم حتى يجتمع النمر على القطف من العنب فيشبعهم ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم ، ويكون

الثور بكذا وكذا من المال ويكون الفرس بالدرهمات » قيل يارسول الله وما يرخس الفرس ؟ قال : « لاترك
لحرب أبداً » قيل له فما يغلي الثور ؟ قال يحرق الأرض كلها وإن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد يصيب الناس
فيها جوع شديد ويأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها ، ثم يأمر الله
السماء في السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها ثم يأمر الله عز وجل السماء في السنة الثالثة
فتحبس مطرها كله فلاقطر قطرة ويأمر الأرض أن تحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء فلا تبقى ذات ظلف الاهلك
إلا ما شاء الله » قيل فما يعيش الناس في ذلك الزمان قال « التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد ويجري ذلك عليهم مجرى
الطعام » . قال ابن ماجه سمعت أبا الحسن الطنافسي يقول سمعت عبدالرحمن المحاربي يقول ينبغي أن يدفع هذا الحديث
إلى المؤدب حتى يعلمه الصبيان في الكتاب هذا حديث غريب جدا من هذا الوجه ولبعضه شواهد من أحاديث أخر
من ذلك ما رواه مسلم وحديث نافع وسالم عن عبد الله بن عمر وقال : قال رسول الله ﷺ « لتقاتلن اليهود
فلتقتلنهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي فتعال فاقتله » وله من طريق سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختفي اليهودي
من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله - الا العرقد فانه من شجر
اليهود » ولذا ذكر حديث النواس بن سمعان ههنا لشبهه بهذا الحديث . قال مسلم في صحيحه حدثنا أبو خزيمة زهير بن حرب
حدثنا الوليد بن مسلم حدثني عبدالرحمن بن يزيد بن جابر حدثني جابر بن يحيى الطائي قاضي حمص حدثني عبد الرحمن بن جبير عن
أبيه جبير بن نفير الحضرمي أنه سمع النواس بن سمعان الكلابي (ح) وحدثنا محمد بن مهران الرازي حدثنا الوليد بن مسلم
حدثنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر عن يحيى بن جابر الطائي عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه جبير بن نفير عن النواس
ابن سمعان قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل فلما
رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا فقال « ماشأنكم » قلنا يارسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى
ظنناه في طائفة النخل قال « غير الدجال أخوفني عليكم ان يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم
فامرؤ حجيجه نفسه والله خليفتي على كل مسلم . انه شاب قطط عينه طافية كأي أشبهه بعبد العزى بن قطن من أدركه
منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج من خلة بين الشام والعراق فاث يمينا واث شمالا يابعد الله
فائتوا » قلنا : يارسول الله فما لبثه في الأرض ؟ قال « أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه
كأيامكم » قلنا يارسول الله وذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال « لا . اقدروا له قدره » قلنا يارسول الله
وما أسراعه في الأرض ؟ قال « كالغيث استدبرته الريح فيأتي على قوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء
فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعا وأمدده خواصر ثم يأتي القوم فيدعوهم
فبردون عليهم قوله فينصرف عنهم فيصحبون محلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك
فتنبعه كنوزها كيما يسبب النحل ثم يدعو رجلا مثثا شابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزئين رمية الغرض ثم يدعو فيقبل
ويتهلل وجهه ويضحك فيبينها هو كذلك اذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام فينزل عند النارة البيضاء شرقي دمشق بين
مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه كبحان اللاؤا ، ولا يحل لكافر يجده
ريح نفسه إلامات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه يباب له فيقتله ثم يأتي عيسى عليه السلام قوما قد عصمهم الله
منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة فيبينها هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل الى عيسى اني قد أخرجت عبادا
لي لا يدان لأحد بقتلهم فحرز عبادي الى الطور وبيع الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون فيمر أولهم على
بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ، ويحضر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس
الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النعف في رقابهم فيصبحون فرسى (١)
كوت نفس واحدة . ثم يهب نبي الله عيسى وأصحابه الى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر الا ملأ زهمهم وتنهم

(١) فرسى كهلكى وزناومنى ومنه الافتراس وهو جمع فريس كقتلى جمع قتيل

فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه الى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحمليهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرا لا يمكن منه بيت مدر ولا وير فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة (١) ثم يقال للأرض أخرجي ثمرك وردى بركتك فيومثد تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويبارك الله في الرسل حتى ان اللقحة من الإبل لتكفي الفئام (٢) من فينأهم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فيقبض الله روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة » ورواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر به وسند كره أيضاً من طريق أحمد عند قوله تعالى في سورة الأنبياء (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج) الآية (حديث آخر) قال مسلم في صحيحه أيضاً حدثنا عبد الله بن معاذ العنبري حدثنا أبي حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم قال سمعت يعقوب بن عاصم ابن عروة بن مسعود الثقفي يقول سمعت عبد الله بن عمرو وجاءه رجل فقال ما هذا الحديث الذي تحدث به تقول ان الساعة تقوم الى كذا وكذا فقال سبحانه الله أو لا إله الا الله أو كلمة نحوها لقد هممت أن لا أحدث أحدا شيئا أبدا إنما قلت انكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً : يحرق البيت ويكون ويكون ثم قال : قال رسول الله ﷺ « يخرج الدجال في أمي فيمكث أربعين لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان - الا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل في كبديل لدخلته عليه حتى تقبضه » قال سمعتها من رسول الله ﷺ « فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيقول ألا تستجيبيون فيقولون فائتأمرينا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دار رزقهم حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد الا أضغى لينا ورفع لينا ، قال وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله - أو قال - ينزل الله مطراً كأنه الطل - أو قال - الظل نعمان الشاك - فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى إذا هم قيام ينظرون . ثم يقال أمها الناس هلموا الى ربكم (وقمهم إنهم مشغولون) ثم يقال أخرجوا بعث النار فيقال من كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك يوماً يجعل الولدان شيباً وذلك يوم يكشف عن ساق » ثم رواه مسلم والنسائي في تفسيره جميعاً عن محمد بن بشار عن غندر عن شعبة عن نعيم بن سالم به (حديث آخر) قال الإمام أحمد أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة الأنصاري عن عبد الله بن زيد الأنصاري عن مجمع بن جارية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يقتل ابن مريم المسيح الدجال بيابلد - أو الى جانب لد - » ورواه أحمد أيضاً عن سفيان ابن عيينة من حديث الليث والأوزاعي ثلاثتهم عن الزهري عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة عن عبد الرحمن بن يزيد عن عمه مجمع بن جارية عن رسول الله ﷺ قال « يقتل ابن مريم الدجال بيابلد » وكذا رواه الترمذي عن قتيبة عن الليث به وقال هذا حديث صحيح قال وفي الباب عن عمران بن حصين ونافع بن عيينة وأبي برزة وحذيفة بن أسيد وأبي هريرة وكيسان وعثمان بن أبي العاص وجابر وأبي أمامة وابن مسعود وعبد الله بن عمرو وسمرة بن جندب والنواس بن سمعان وعمرو ابن عوف وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم . ومراده برواية هؤلاء ما فيه ذكر الدجال وقتل عيسى بن مريم عليه السلام له فأما أحاديث ذكر الدجال فقط فكثيرة جداً وهي أكثر من أن تحصى لا تتشاورها وكثرة روايتها في الصحيح والحسان والمسانيد وغير ذلك (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن فرات عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرفة ونحن ننذاكر الساعة فقال « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والداية ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وزول عيسى بن مريم والدجال ، وثلاثة خسوف خسف بالشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من فعدن تسوق - أو تحشر - الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا » وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث فرات القزاز به ورواه مسلم أيضاً من رواية عبد العزيز بن رفيع عن أبي الطفيل عن أبي شريحة عن حذيفة بن أسيد الغفاري موقوفاً والله أعلم فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة وابن مسعود وعثمان بن أبي العاص وأبي أمامة والنواس بن سمعان وعبد الله

(١) الزلفة بالتحريك المرأة (٢) الرسل بالتحريك القطيع الجمع أرسال واللحمة بالكسر وبالفتح لغة وهي ذات اللبن والفئام الجماعة .

ابن عمرو بن العاص وجمع بن جارية وأبي شريحة وحذيفة بن أسيد رضي الله عنهم وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح وقد بنيت في هذه الأعصار في سنة إحدى وأربعين وسبعائة منارة للجامع الأموي يضاء من حجارة منحوتة عوضا عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة وكان أكثر عمارتها من أموالهم وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فيقتل الحنزيير ويكسر الصليب ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام كما تقدم في الصحيحين وهذا إخبار من النبي ﷺ بذلك وتقرير وتشريع وتسوية له على ذلك في ذلك الزمان حيث تنزاح عليهم وترفع شهبهم من أنفسهم ولهذا كله يدخلون في دين الإسلام متابعين لعيسى عليه السلام وعلى يديه ولهذا قال تعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) الآية وهذه الآية كقوله (وإنه لعلم للساعة) (ولعلم) بالتحرير أي أمانة ودليل على اقتراب الساعة وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال فيقتله الله على يديه كما ثبت في الصحيح أن الله لم يخلق داء إلا أنزل له شفاء ويبعث الله في أيامه يأجوج ومأجوج فيهلكهم الله تعالى ببركة دعائه وقد قال تعالى (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق) الآية

﴿ صفة عيسى عليه السلام ﴾

قد تقدم في حديث عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة « فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مربع إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان مصران كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل » وفي حديث النواس بن سمعان « فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه نحد من مثل جمان اللؤلؤ ، ولا يخل لكافر أن يجد ربح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث انتهى طرفه » وروى البخاري ومسلم من طريق الزهري عن سعيد ابن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ليلة أسري بي لقيت موسى » قال فنعته فإذا رجل أحسبه قال مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة » قال « ولقيت عيسى » فنعته النبي ﷺ فقال « أربعة أحمر كأنه خرج من ديماس » يعني الحمام « ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به » الحديث وروى البخاري من حديث مجاهد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت موسى وعيسى وإبراهيم فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر وأما موسى فأدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط » وله ولمسلم من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر ذكر النبي ﷺ يوما بين ظهراني الناس المسيح الدجال فقال « إن الله ليس بأعور ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية ولمسلم عنه مرفوعا ، « وأراني الله عند الكعبة في المنام وإذا رجل آدم كأحسن ما ترى من آدم الرجال تضرب لفته بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماء واضعا يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت من هذا ؟ قالوا هو المسيح ابن مريم ثم رأيت وراءه ، رجلا جعدا قططا أعور العين اليمنى كأشبهه من رأيت بأبن قطن واضعا يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت من هذا قالوا المسيح الدجال » تابعه عبيد الله عن نافع ثم رواه البخاري عن أحمد بن محمد المسكي عن إبراهيم بن سعد عن الزهري عن سالم عن أبيه قال لا والله ما قال النبي ﷺ لعيسى أحمر ولكن قال « بينا أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم سبط الشعر يهادي بين رجلين ينطف رأسه ماء - أو يهراق رأسه ماء - فقلت من هذا ؟ فقالوا ابن مريم فذهبت ألتفت فإذا رجل أحمر جسيم جعد الرأس أعور عينه اليمنى كأن عينه عنبة طافية قلت من هذا ؟ قالوا الدجال وأقرب الناس به شبا ابن قطن » قال الزهري رجل من خزاعة هلك في الجاهلية ، هذه كلها ألفاظ البخاري رحمه الله وقد تقدم في حديث عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة أن عيسى عليه السلام يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون وفي حديث عبد الله بن عمر عند مسلم أنه يمكث سبع سنين فيحتمل والله أعلم أن يكون المراد بلبشه في الأرض أربعين سنة مجموع إقامته فيها قبل رفعه وبعد نزوله فانه رفعه وله ثلاث وثلاثون سنة في الصحيح وقد ورد ذلك في حديث في صفة أهل الجنة أنهم على صورة آدم وميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة وأما ما حكاه ابن عساكر عن بعضهم أنه رفعه وله مائة وخمسون

سنة فشاذ غريب بعيد وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة عيسى بن مريم من تاريخه عن بعض السلف أنه يدفن مع النبي ﷺ في حجرته فالله أعلم وقوله تعالى (ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) قال قتادة يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله وأقر بعبودية الله عز وجل وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس - إلى قوله - العزيز الحكيم)

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبَصَدَّيْنِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ أَوْقَدَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَكَلَهُمْ أَمْوَالَهُمُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبه من الذنوب العظيمة حرم عليهم طيبات كان أحلها لهم كما قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو قال قرأ ابن عباس : طيبات كانت أحلت لهم، وهذا التحريم قد يكون قديراً بمعنى أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا في كتابهم وحرفوا وبدلوا أشياء كانت حلالاً لهم فحرموها على أنفسهم تشديداً منهم على أنفسهم وتضييقاً وتنطعاً ، ويحتمل أن يكون شرعياً بمعنى أنه تعالى حرم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك كما قال تعالى (كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) وقد قدمنا الكلام على هذه الآية وأن المراد أن الجميع من الأطعمة كانت حلالاً لهم من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الابل وألبانها ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة كما قال في سورة الأنعام (وعلى الدين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم بغيرهم وإنما لصادقون) أي إنما حرمنا عليهم ذلك لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيرهم وطفيلانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه ولهذا قال (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً) أي صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه ولهذا كانوا أعداء الرسل وقتلوا خلقاً من الأنبياء وكذبوا عيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهما وقوله (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) أي أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه واحتالوا عليه بأنواع من الخيل وصنوف من الشبهوا كلوا أموال الناس بالباطل قال تعالى (وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً) ثم قال تعالى (لكن الراسخون في العلم منهم) أي الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع. وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة آل عمران (والمؤمنون) عطف على الراسخين وخبره (يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) قال ابن عباس أنزل في عبد الله بن سلام وتعليق بن سعيه^(١) وأسدي بن سعيه وأسدي بن عبيد الله بن دخول في الإسلام وصدقوا بما أرسل الله به محمداً ﷺ وقوله (والمقيم الصلاة) هكذا هو في جميع مصاحف الأئمة وكذا هو في مصحف أبي بن كعب وذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود . والمقيمون الصلاة ، قال والصحيح قراءة الجميع رد على من زعم أن ذلك من غلط الكتاب ثم ذكر اختلاف الناس فقال بعضهم هو منصوب على المدح كما جاء في قوله (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) قال وهذا سائغ في كلام العرب كما قال الشاعر :

لا يبعدن قومي الذين همو * أسد العداة وآفة الجزر * النازلين بكل معترك * والطيبون معاقد الأزر
وقال آخرون هو مخفوض عطفاً على قوله (بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) يعني وبالمقيم الصلاة وكأنه يقول وبإقامة الصلاة أي يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم أو أن المراد بالمقيم الصلاة الملائكة وهذا اختيار ابن جرير يعني
(١) في نسخة الأميرية: تحريف في هذه الأسماء واعتمد في تصحيحها على ما في الإساءة وغيرها، وسعيه بفتح السين المهمة وسكون الياء التحتانية.

يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالملائكة وفي هذا نظر والله أعلم . وقوله (والمؤمنون الزكاة) يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال ويحتمل زكاة النفوس ويحتمل الأمرين والله أعلم (والمؤمنون بالله واليوم الآخر) أى يصدقون بأنه لا إله إلا الله ويؤمنون بالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرا وشرها . وقوله (أولئك) هو الخبر عما تقدم (سنؤتيهم أجراً عظيماً) يعنى الجنة

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

قال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال سكن وعدى بن زيد يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى فأنزل الله في ذلك من قولها (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) الى آخر الآيات وقال ابن جرير حدثنا الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي قال أنزل الله (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء) الى قوله (وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً) قال فلما تلاها عليهم يعنى على اليهود وأخبرهم بأعمالهم الخبيثة جحدوا كل ما أنزل الله وقالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ، ولا موسى ولا عيسى ولا على نبي من شيء قال فحل حبوته وقال ولا على أحد فأنزل الله عز وجل (وما قدرنا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) وفي هذا الذى قاله محمد بن كعب القرظي نظر فان هذه الآية التى فى سورة الأنعام مكية وهذه الآية التى فى سورة النساء مدنية وهى رد عليهم لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء قال الله تعالى (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) ثم ذكر فضائهم ومعائبهم وما كانوا عليه وما هم عليه الآن من الكذب والافتراء ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين فقال (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) الى قوله (وآتيناه داود زبوراً) والزبور اسم الكتاب الذى أوحاه الله الى داود عليه السلام وسند ذكر ترجمة كل واحد من هؤلاء الأنبياء عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام عند قصصهم من سورة الأنبياء إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان وقوله (ورسلنا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلنا لم نقصصهم عليك) أى من قبل هذه الآية يعنى فى السور المكية وغيرها وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم فى القرآن وهم آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهرون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى وكذا ذوالكفل عند كثير من المفسرين وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم وقوله (ورسلنا لم نقصصهم عليك) أى خلقنا آخرين لم يذكرنا فى القرآن وقد اختلف فى عدة الأنبياء والمرسلين والمشهور فى ذلك حديث أبي ذر الطويل وذلك فيما رواه ابن مردويه رحمه الله فى تفسيره حيث قال حدثنا إبراهيم بن محمد حدثنا جعفر بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن زيد قال حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى النعماني حدثني أبي عن جدى عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » قلت يا رسول الله كم الرسل منهم قال « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير » قلت يا رسول الله من كان أولهم قال « آدم » قلت يا رسول الله نبي مرسل قال « نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً » ثم قال « يا أبا ذر أربعة سريانيون آدم وشيث ونوح وخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر ، وأول نبي من بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى ،

وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك » وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البستي في كتابه الأنواع والتقسيم وقد سمع بالصحة وخالفه أبو الفرج بن الجوزي فذكر هذا الحديث في كتابه الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام هذا ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث والله أعلم وقد روى هذا الحديث من وجه آخر عن صحابي آخر فقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عوف حدثنا أبو الغيرة حدثنا معان بن رفاعه عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال قلت يا نبي الله كم الأنبياء ؟ قال « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جماعاً غيراً » معان بن رفاعه السلمي ضعيف وعلي بن يزيد ضعيف والقاسم أبو عبد الرحمن ضعيف أيضاً وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا أحمد بن إسحاق أبو عبد الله الجوهري البصري حدثنا علي بن إبراهيم حدثنا موسى بن عبيدة الرندي عن يزيد الرقاشي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بعث الله ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف إلى بني إسرائيل وأربعة آلاف إلى سائر الناس » وهذا أيضاً إسناده ضعيف فيه الرندي ضعيف وشيخه الرقاشي أضعف منه والله أعلم . وقال أبو يعلى حدثنا أبو الربيع حدثنا محمد بن ثابت العبدى حدثنا معبد بن خالد الأنصاري عن يزيد الرقاشي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي ثم كان عيسى بن مريم ثم كنت أنا » وقد روينا عن أنس من وجه آخر فأخبرنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي أخبرنا أبو الفضل بن عساكر أنبأنا الإمام أبو بكر بن القاسم بن أبي سعيد الصفار أخبرتنا عمه أبي عائشة بنت أحمد بن مصور بن الصفار أخبرنا الشريف أبو الحسنات هبة الله بن أبي الصهباء محمد بن حيدر القرشي حدثنا الإمام الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني قال أخبرنا الإمام أبو بكر أحمد بن إبراهيم الأسماعيلي حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا أحمد بن طارق حدثنا مسلم بن خالد حدثنا زياد بن سعد عن محمد بن المنكدر عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت على أثر ثمانية آلاف نبي منهم أربعة آلاف نبي من بني إسرائيل » وهذا غريب من هذا الوجه وإسناده لا بأس به رجاله كلهم معروفون إلا أحمد بن طارق هذا فاني لا أعرفه بعدالة ولا جرح والله أعلم . وحديث أبي ذر الغفاري الطويل في عدد الأنبياء عليهم السلام قال محمد بن الحسين الآجري حدثنا أبو بكر جعفر بن محمد بن الغرياني إملاء في شهر رجب سنة سبع وتسعين ومائتين حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني حدثنا أبي عن جده عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر قال دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده فجلست إليه فقلت يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة قال « الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل » قال قلت يا رسول الله فأى الأعمال أفضل ؟ قال « إيمان بالله وجهاد في سبيله » قلت يا رسول الله فأى المؤمنين أفضل ؟ قال « أحسنهم خلقاً » قلت يا رسول الله فأى المسلمين أسلم ؟ قال « من سلم الناس من لسانه ويده » قلت يا رسول الله فأى الهجرة أفضل ؟ قال « من هجر السيئات » قلت يا رسول الله أى الصلاة أفضل ؟ قال « طول القنوت » قلت يا رسول الله فأى الصيام أفضل قال : « فرض مجزئ » وعند الله أضعاف كثيرة « قلت يا رسول الله فأى الجهاد أفضل قال « من عقر جواده وأهريق دمه » قلت يا رسول الله فأى الرقاب أفضل ؟ قال « أغلاهاً ثمناً وأفسهاً عند أهلها » قلت يا رسول الله فأى الصدقة أفضل ؟ قال « جهدي من مقل وسر إلى فقير » قلت يا رسول الله فأى آية ما أنزل عليك أعظم ؟ قال « آية الكرسي » ثم قال يا أباذر « وما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة » قال : قلت يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » قال قلت يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال « ثلثمائة وثلاثة عشر جماعاً غيراً كثير طيب » قلت فمن كان أولهم ؟ قال « آدم » قلت أنبي مرسل : قال « نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسواه قبيل » ثم قال « يا أباذر أربعة سريانيون آدم وشيث وخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بقلم ونوح وأربعة من العرب هود وشعيب وصالح ونبيك يا أباذر ، وأول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى وأول الرسل آدم وآخرهم محمد » قال قلت يا رسول الله كم كتاب أنزله الله : قال « مائة كتاب وأربعة كتب » أنزل الله على شيث خمسين صحيفة وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى من قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان » قال قلت يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال « كانت كلها بأيها الملك المسلط المبتلى المغرور

إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكني بعثتك لترد عني دعوة الظالم فإني لا أردّها ولو كانت من كافر وكان فيها أمثال وعلى العاقل أن يكون له ساعات ، ساعة ينجى فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر في صنع الله ، وساعة يخلو فيها لحاجته من الطعام والشرب ، وعلى العاقل أن لا يكون ضاعنا إلا لثلاث : تزود لمعاد أو ممرمة لمعاش ، أو ولدة في غير محرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً للسان ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعينه » قال قلت يا رسول الله فما كانت صحف موسى ؟ قال « كانت عبراً كلها ، عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل » قال قلت يا رسول الله فهل في أيدينا شيء مما كان في أيدي إبراهيم وموسى وما أنزل الله عليك ؟ قال « نعم اقرأ يا أبا ذر (قد أفلح من تركي * وذكر اسم ربه صلى * بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى * إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى) » قال قلت يا رسول الله فأوصني قال « أوصيك بتقوى الله فانه رأس أمرك » ، قال : قلت يا رسول الله زدني قال « عليك بتلاوة القرآن وذكر الله فانه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض » قال : قلت يا رسول الله زدني قال « إياك وكثرة الضحك فانه يبعث القلب ويذهب بنور الوجه » قلت يا رسول الله زدني قال « عليك بالجهاد فانه رهبانية أمتي » قلت زدني قال « عليك بالصمت إلا من خير فانه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك » قلت زدني قال « انظر إلى من هو تحتك ولا تنظر إلى من هو فوقك فانه أجدر لك أن لا تزدري نعمة الله عليك » قلت زدني قال « أحبب المساكين وجالسهم فانه أجدر أن لا تزدري نعمة الله عليك » قلت زدني قال « صل قرابتك وإن قطعوك ، قلت زدني قال « قل الحق وإن كان مرا » قلت زدني قال « لا تخف في الله لومة لائم » قلت زدني قال « يدرك عن الناس ما تعرف من نفسك ولا تجد عليهم فيما تحب وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك أو تجد عليهم فيما تحب » ثم ضرب بيده صدرى فقال « يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكلف ولا حسب كحسب الخلق » وروى الإمام أحمد عن أبي المغيرة عن معان بن رفاعه عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة أن أبا ذر سأل النبي صلى الله عليه وسلم فذكر أمر الصلاة والصيام والصدقة وفضل آية الكرسي ولا حول ولا قوة إلا بالله وأفضل الشهداء وأفضل الرقاب ونبوة آدم وأنه مكلم وعدد الأنبياء والمرسلين كنعو ما تقدم . وقال عبد الله بن الإمام أحمد وجدت في كتاب أبي بخطه حدثني عبد المتعالى بن عبد الوهاب حدثنا يحيى بن سعيد الأموى حدثنا مجاهد عن أبي الوداك قال : قال أبو سعيد هل تقول الجوارح بالدجال قال : قلت لا ، فقال : قال رسول الله ﷺ « إني خاتم ألف نبي أو أكثر وما بعث نبي يتبع إلا وقد حذر أمته منه وإني قد بين لي فيه مالم يبين وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص وعينه اليسرى كأنها كوكب درى ، معه من كل لسان ومعه صورة الجنة خضراء يجرى فيها الماء وصورة النار سوداء تدخن » وقد روينا في الجزء الذى فيه رواية أبي يعلى الوصلى عن يحيى بن معين حدثنا مروان بن معاوية حدثنا مجاهد عن أبي الوداك عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ « إني أختم ألف ألف نبي أو أكثر ما بعث الله من نبي إلى قومه إلا حذرهم الدجال » وذكر تمام الحديث هذا لفظه بزيادة ألف وقد تكون مقحمة والله أعلم . وسياق رواية الإمام أحمد أثبت وأولى بالصحة ورجال إسناده هذا الحديث لا بأس بهم وقد روى هذا الحديث من طريق جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عمرو بن علي حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا مجاهد عن الشعبي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « إني أختم ألف نبي أو أكثر وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أندر قومه الدجال وإني قد بين لي مالم يبين لأحد منهم وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور قوله (وكلم الله موسى تكليماً) وهذا تشریف لموسى عليه السلام بهذه الصفة ولهذا يقال له السكيم وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن سلمان المالكي حدثنا مسيح بن حاتم حدثنا عبد الجبار ابن عبد الله قال جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال سمعت رجلاً يقرأ (وكلم الله موسى ^(١) تكليماً) فقال أبو بكر ما قرأ هذا إلا كافر قرأت على الأعمش وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي وقرأ

(١) قرأ هذا الرجل لفظ الجلالة بالنصب وموسى بالرفع .

أبو عبد الرحمن السلمي على بن أبي طالب وقرأ على بن أبي طالب على رسول الله ﷺ (وكلم الله موسى تكليماً) وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحداً من خلقه كما روينا عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ (وكلم الله موسى تكليماً) فقال له يا ابن اللخاء كيف تصنع بقوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا أحمد بن الحسين بن بهرام حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا هاني بن يحيى عن الحسن بن أبي جعفر عن قتادة عن يحيى ابن وثاب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لما كلم الله موسى كان يبصر ديب النمل على الصفا في الليلة الظلماء » وهذا حديث غريب وإسناده لا يصح وإذا صح موقوفاً كان جيداً وقد روى الحاكم في مستدركه وابن مردويه من حديث حميد بن قيس الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « كان على موسى يوم كلمه ربه جبة صوف وكساء صوف وسراويل صوف ونعلان من جلد حمار غير ذكي » وقال ابن مردويه بإسناده عن جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن الله ناجى موسى بمائة ألف كلمة وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام وصايا كلها فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم مما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل ، وهذا أيضاً إسناد ضعيف فان جوير أضعف والضحاك لم يدرك ابن عباس رضى الله عنهما . فأما الأثر الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهما من طريق الفضل بن عيسى الرقاشي عن محمد بن النكدر عن جابر بن عبد الله أنه قال : لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه فقال له موسى يارب هذا كلامك الذي كلمتني به قال : لا يا موسى إنما كلمت بك قوة عشر آلاف لسان ولي قوة الألسنة كلها وأنا أقوى من ذلك ، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا يا موسى صف لنا كلام الرحمن قال لا أستطيعه قالوا فشبه لنا قال ألم تسمعوا إلى صوت الصواعق فانه قريب منه وليس به وهذا إسناد ضعيف فان الفضل الرقاشي هذا ضعيف مرة . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث عن جزء بن جابر الخثعمي عن كعب قال إن الله لما كلم موسى كلمه بالألسنة كلها سوى (١) كلامه فقال له موسى يارب هذا كلامك قال لا ولو كلمت بكلامي لم تستقم له قال يارب فهل من خلقك شيء يشبه كلامك قال لا وأشد خلقي شها بكلامي أشد ما تسمعون من الصواعق فهذا موقوف على كعب الأخبار وهو يحكى عن الكتب المتقدمة المشتملة على أخبار بني إسرائيل وفيها الفث والسمين وقوله (رسلاً مبشرين ومنذرين) أي يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب وقوله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً) أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة ، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه لئلا يبقى المعتذر عندكم كما قال تعالى (ولولا أنا أهلكنهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) وكذا قوله (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم) الآية . وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لا أحد أغبر من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه اللدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين » وفي لفظ آخر « من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه »

﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يُشْهِدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ شَهِيدٌ ۖ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُفْرِغَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۚ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۚ يَأْتِيهِمُ النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ

(١) في رواية ابن جرير : بالألسنة كلها قبل كلامه يعني كلام موسى .

بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٠﴾
لما تضمن قوله تعالى (إنا أوحينا إليك) الى آخر السياق إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم والرد على من أنكر
نبوته من المشركين وأهل الكتاب قال الله تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل إليك) أى وإن كفر به من كفر به ممن كذبك
وخالفك فالله يشهد لك بأنك رسوله الذى أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) ولهذا قال (أنزله بعلمه) أى فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه من البينات
والهدى والفرقان ، وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه وبأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضى والمستقبل ،
وما فيه من ذكر صفاته تعالى القدسة التى لا يعلمها نبى مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به ، كما قال تعالى (ولا
يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) وقال (ولا يحيطون به علما) وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا الحسن
ابن سهيل الجعفرى وعبد الله بن المبارك قال حدثنا عمران بن عيينة حدثنا عطاء بن السائب قال أقرأنى أبو عبد الرحمن
السلمى القرآن وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال قد أخذت علم الله فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل ثم يقرأ
قوله (أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) قوله (والملائكة يشهدون) أى بصدق ما جاءك وأوحى
إليك وأنزل عليك مع شهادة الله تعالى بذلك (وكفى بالله شهيدا) قال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد
عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فقال لهم «إنى
لأعلم والله إنكم لتعلمون أنى رسول الله» فقالوا ما نعلم ذلك ، فأنزل الله عز وجل (لكن الله يشهد بما أنزل إليك
أنزله بعلمه) الآية

وقوله (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا) أى كفروا فى أنفسهم فلم يتبعوا الحق وسعوا
فى صد الناس عن اتباعه والافتداء به قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه وبعدوا منه بعدا عظيما شاسعا ثم أخبر تعالى عن
حكمه فى الكافرين بآياته وكتابه ورسوله ، الظالمين لأنفسهم بذلك وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه واتتهاك محارمه
بأنه لا يفر لهم (ولا يهديهم طريقا) أى سبيلا الى الخير (إلا طريق جهنم) وهذا استثناء منقطع (خالدين فيها
أبدا) الآية ثم قال تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم) أى قد جاءكم محمد صلوات
الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق والبيان الشافى من الله عز وجل فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيرا لكم
ثم قال (وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض) أى فهو غنى عنكم وعن إيمانكم ، ولا يتضرر بكفرانكم كما قال
تعالى (وقال موسى إن تكفروا أتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لئنى حميد) وقال ههنا (وكان الله عليما) أى بمن يستحق
منكم الهداية فيهديه ، وبمن يستحق الغواية فيغويه (حكيا) أى فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَ إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ
وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والاطراء وهذا كثير فى النصارى فانهم تجاوزوا الحد فى عيسى حتى رفعوه فوق
المنزلة التى أعطاه الله إياها فنقلوه من حيز النبوة الى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه . بل قد غلوا فى
أتباعه وأشباعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم فى كل ما قالوه سواء كان حقا أو باطلا ، أو ضلالا
أو رشادا ، أو صحيحا أو كذبا ، ولهذا قال الله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) الآية . وقال
الإمام أحمد حدثنا هشيم قال زعم الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس عن عمر أن

رسول الله ﷺ قال « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » ثم رواه هو وطى بن المدينى عن سفيان بن عيينة عن الزهرى كذلك ، ولفظه « إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وقال طى بن المدينى هذا حديث صحيح مسند ، وهكذا رواه البخارى عن الحميدى عن سفيان بن عيينة عن الزهرى به ولفظه « فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك أن رجلا قال يا محمد ياسيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا فقال رسول الله ﷺ « أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبد الله عبد الله ورسوله ، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل » تفرد به من هذا الوجه . وقوله تعالى (ولا تقولوا على الله إلا الحق) أى لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولدا تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا وتنزه وتقدس وتوحد فى سؤدده وكبريائه وعظمته فلا إله إلا هو ولا رب سواه ولهذا قال (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكنته ألقاها إلى مريم وروح منه) أى إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه ، قال له كن فكان ، ورسول من رسله وكنته ألقاها إلى مريم أى خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل ، فكان عيسى بإذنه عز وجل ، وكانت تلك النفخة التى نفخها فى جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم والجميع مخلوق لله عز وجل ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشئ عن الكلمة التى قال له بها كن فكان ، والروح التى أرسل بها جبريل . قال الله تعالى (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل : وأمه صديقة كانا يا كالان الطعام) وقال تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وقال تعالى (والذى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنة آية للعالمين) وقال تعالى (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها) إلى آخر السورة ، وقال تعالى إخبارا عن المسيح (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) الآية وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (وكنته ألقاها إلى مريم وروح منه) هو كقوله (كن فيكون) . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطى قال سمعت شاذبن يحيى يقول فى قول الله (وكنته ألقاها إلى مريم وروح منه) قال ليس الكلمة صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير فى قوله (ألقاها إلى مريم) أى أعلمها بها كما زعمه فى قوله (إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه) أى يعلمك بكلمة منه ويجعل ذلك كقوله تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) بل الصحيح أنها الكلمة التى جاء بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام . وقال البخارى : حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا الوليد حدثنا الأوزاعى حدثنى عمير بن هانىء حدثنا جنادة بن أبى أمية عن عباد بن الصامت عن النبی ﷺ قال « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكنته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » وقال الوليد فحدثنى عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير بن هانىء عن جنادة زاد « من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » وكذا رواه مسلم عن داود بن رشيد عن الوليد عن ابن جابر به ، ومن وجه آخر عن الأوزاعى به فقوله فى الآية والحديث « وروح منه » كقوله (وسخر لكم فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) أى من خلقه ومن عنده وليست من التبعية كما تقول النصارى عليهم لعائن الله المتابعة بل هى لا بداء الغاية كما فى الآية الأخرى ، وقد قال مجاهد فى قوله (وروح منه) أى ورسول منه وقال غيره ومحبة منه ، والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة وأضيف الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيف الناقة والبيت إلى الله فى قوله (هذه ناقة الله) وفى قوله (وطهر بيتى للطائفين) وكما روى فى الحديث الصحيح « فأدخل على رنى فى داره » أضافها إليه إضافة تشريف وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد وقوله (فآمنوا بالله ورسوله) أى فصدقوا بأن الله واحد أحد لا ولده ولا صاحبة ، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله ولهذا قال تعالى (ولا تقولوا ثلاثة) أى لاتجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين ، تعالى الله عن

ذلك علوا كبيرا وهذه الآية والتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد) وكما قال في آخر السورة المذكورة (وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني) الآية وقال في أولها (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) الآية والنصارى عليهم لعائن الله من جهلهم ليس لهم ضابط ، ولا لكفرهم حد بل أقوالهم وضلالهم منتشر فثمة من يعتقد إلهاً ، ومنهم من يعتقد شريكا ومنهم من يعتقد ولداً وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة ، وأقوال غير مؤلفة . ولقد أحسن بعض التكميلين حيث قال لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً . ولقد ذكر بعض علماءهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق بترك (١) الأسكندرية في حدود سنة أربع مائة من الهجرة النبوية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم وإنما هي الحياة الحقة الصغيرة وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة وأنهم اختلفوا عليه اختلافا لا ينضب ولا ينحصر فكانوا أزيد من ألفين أسقفاً (٢) فكانوا أحزاباً كثيرة كل خمسين منهم على مقالة ، وعشرون على مقالة ومائة على مقالة وسبعون على مقالة وأزيد من ذلك وأقص . فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلاثة بثمانية عشر نفر وقد توافقوا على مقالة فأخذها الملك ونصرها وأيدها وكان فيلسوفاً داهية ومحققاً ما عداها من الأقوال وانتظم دست أولئك الثلاثة والثمانية عشر وبنيت لهم الكنائس ووضعوا لهم كتباً وقوانين وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعبدونها عليها وأتباع هؤلاء هم الملكانية . ثم إنهم اجتمعوا مجمعا ثانياً فحدث فيهم العقوبة ثم جمعاً ثالثاً فحدث فيهم النسطورية وكل هذه الفرق ثبتت الأقسام الثلاثة في المسيح ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدوا أم اتحدوا أو امتزجوا أو حل فيه على ثلاث مقالات وكل منهم يكفر بالفرقة الأخرى ونحن نكفر الثلاثة ولهذا قال تعالى (انتهوا خيراً لكم) أي يكن خيراً لكم (إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد) أي تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً (له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً) أي الجميع ملكه وخلقه وجميع ما فيهما عبيده وهم تحت تديره وتصريفه وهو وكيل على كل شيء فكيف يكون له منهم صاحبة وولد كما قال في الآية الأخرى (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد) الآية وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئا إداً - إلى قوله - فرداً)

﴿ كَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ ﴾

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قوله (لن يستنكف) لن يستكبر . وقال قتادة : لن يحتشم (المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائكة المقربون) وقد استدلل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال (ولا الملائكة المقربون) وليس له في ذلك دلالة لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح لأن الاستنكاف هو الامتناع والملائكة أقدر على ذلك من المسيح فلماذا قال (ولا الملائكة المقربون) ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل . وقيل إنما ذكروا لأنهم اتخذوا آلهة مع الله كما اتخذ المسيح فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده وخلق من خلقه كما قال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون) الآيات ولهذا قال (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً) أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكم العدل الذي لا يجر فيه ولا يحيف . ولهذا قال (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفى لهم أجورهم ويزيدهم من فضله) أي فيعطى من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه ، وقد روى ابن مردويه من طريق بقية عن إسماعيل

(١) كذا في النسخين المسكية والأزهرية ، وفي الأميرية : تزيل الاسكندرية . وهي تحريف (٢) كذا في جميع النسخ .

ابن عبد الله الكندي عن الأعمش عن سفيان عن عبد الله مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ (فيوفهم أجورهم ويزيدهم من فضله) أجورهم قال « أدخلهم الجنة » (ويزيدهم من فضله) قال « الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في دنياهم » وهذا إسناد لا يثبت. وإذا روى عن ابن مسعود موقوفاً فهو جيد (وأما الذين استكفوا واستكبروا) أي امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك (فيعذبهم عذاباً إلماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) كقوله (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) أي صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا ممتنعين مستكبرين ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس وعبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للمعذر والحجة الزيلة للشبه ولهذا قال (وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) أي ضياء واضحاً على الحق ، قال ابن جريج وغيره وهو القرآن (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به) أي جمعوا بين مقامى العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم وقال ابن جريج : آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن . روى ابن جريج (فسيدخلهم في رحمة منه وفضل) أي يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم (ويهديهم إلى صراط مستقيم) أي طريقاً واضحاً قصداً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضى إلى روضات الجنات . وفي حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « القرآن صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين » وقد تقدم الحديث بتمامه في أول التفسير والله الحمد المنة .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانُ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَصِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قال البخاري : حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن أبي إسحق قال : سمعت البراء قال آخر سورة نزلت براءة ، وآخر آية نزلت يستفتونك

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال سمعت جابر بن عبد الله قال دخل على رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل قال فتوضأ ثم صب على أوقال صبوا عليه فقلت قلت إنه لا يرثني إلا كلاله فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة ، ورواه الجماعة من طريق سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر به وفي بعض الألفاظ فنزلت آية الميراث (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله) الآية . وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد حدثنا سفيان وقال أبو الزبير قال يعني جابراً نزلت في (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله) وكأن معنى الكلام والله أعلم يستفتونك عن الكلاله (قل الله يفتيكم) فيها فدل المذكور على التروك . وقد تقدم الكلام على الكلاله واشتقاقها وأنها مأخوذة من الاكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ولهذا فسرناها أكثر العلماء . بمن يموت وليس له ولد ولا والد^(١) ومن الناس من يقول الكلاله من لا ولد له كما دلت عليه هذه الآية (إن أَمَرُوا هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ) وقد أشكل حكم الكلاله على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد

(١) كذا في النسخة المكية المقلدة على نسخة المؤلف وفي الأميرة ونسخة الأزهر ولا ولد وهي غلط قطعاً .

إليها فيهن عهدا انتهى إليه - الجد والكلالة وباب من أبواب الربا (١). وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة قال : قال عمر بن الخطاب ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سأله عن الكلالة حتى طعن باصبعه في صدرى وقال « يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء » هكذا رواه مختصرا وأخرجه مسلم مطولا أكثر من هذا . (طريق أخرى) قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم حدثنا مالك يعني ابن مغول يقول سمعت الفضل بن عمرو عن إبراهيم عن عمر قال سألت رسول الله ﷺ عن الكلالة فقال « يكفيك آية الصيف » فقال لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلى من أن يكون لي حمر النعم وهذا إسناد جيد إلا أن فيه انقطاعا بين إبراهيم وبين عمر فإنه لم يدركه . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا أبو بكر عن أبي إسحق عن البراء بن عازب قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الكلالة فقال « يكفيك آية الصيف » وهذا إسناد جيد رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي بكر بن عياش به ، وكان المراد بآية الصيف أنها نزلت في فصل الصيف والله أعلم ، ولما أرشده النبي ﷺ إلى تفهمها فإن فيها كفاية نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها ولهذا قال فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلى من أن يكون لي حمر النعم . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا جرير حدثنا الشيباني عن عمرو بن مرة عن سعيد بن المسيب قال سأل عمر بن الخطاب النبي ﷺ عن الكلالة فقال « أليس قد بين الله ذلك » فنزلت (يستفتونك) الآية قال قتادة وذكر لنا أن أبا بكر الصديق قال في خطبته ألا إن الآية التي نزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالدة والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والأخوة من الأم ، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الأخوة والأخوات من الأب والأم ، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله مما جرت الرحمة من العصبية رواه ابن جرير (ذكر الكلام على معناها)

وبالله المستعان وعليه التكلان . قوله تعالى (إن امرؤ هلك) أي مات قال الله تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الله عز وجل كما قال (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وقوله (ليس له ولد) تمسكه من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد وهو رواية عن عمر بن الخطاب رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه ولكن الذي يرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق أنه الذي لا ولد له ولا والد ، ويدل على ذلك قوله (وله أخت فلها نصف ماترك) ولو كان معها أب لم ترث شيئا لأنه يحجبها بالاجتماع فدل على أنه من لا ولده بنص القرآن ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية . وقال الإمام أحمد حدثنا الحكم بن نافع حدثنا أبو بكر بن عبد الله عن مكحول وعطية وحزمة وراشد عن زيد بن ثابت أنه سئل عن زوج وأخت لأب وأم فأعطى الزوج النصف والأخت النصف ، فكل في ذلك فقال حضرت رسول الله ﷺ قضي بذلك . تفرد به أحمد من هذا الوجه وقد نقل ابن جرير وغيره عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتا وأختا إنه لا شيء للأخت لقوله (إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك) قال فإذا ترك بنتا فقد ترك ولدا فلا شيء للأخت ، وخالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسئلة للبنت النصف بالفرض وللأخت النصف الآخر بالتعصيب بدليل غير هذه الآية وهذه الآية نصت أن يفرض لها في هذه الصورة وأما وراثتها بالتعصيب فلما رواه البخاري من طريق سليمان عن إبراهيم عن الأسود قال قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت والنصف للأخت ثم قال سليمان قضى فينا ولم يذكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي صحيح البخاري أيضاً عن هزيل بن شرحبيل قال سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت فقال للابنة النصف وللأخت النصف وأت ابن مسعود فسيتابعني ، فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال : لقد

(١) يعني ما نزل آخر سورة البقرة من آيات الربا وقد نزلت بعد آية آل عمران (ولا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) فهل الربا فيها واحد على القاعدة أم هو في الأخيرة أعم ؟ استشكل عمر رضى الله عنه والجمهور على الثاني واستشكله في إرث الجد والكلالة أشهر وأظهر .

ضللت إذا وما أنا من المهتدين ، أفضى فيها بما قضى النبي ﷺ النصف للبت ولبت الابن السدس تكملة الثلثين وما بقي فلأخت ، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال لا تسألوني مادام هذا الخبر فيكم . وقوله (وهو يرثها إن لم يكن لها ولد) أى والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله وليس لها ولد أى ولا والد لأنها لو كان لها والسلم يرث الأخ شيئاً فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج أو أخ من أم وصرف الباقي إلى الأخ لما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر » وقوله (فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) أى فإن كان لمن يموت كلاله أختان فرض لهما الثلثان وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنين كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك) وقوله (وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) هذا حكم العصابات من البنين وبني البنين والأخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم أعطى الذكر مثل حظ الأنثيين وقوله (يبين الله لكم) أى يفرض لكم فرائضه ، ويحدد لكم حدوده ، ويوضح لكم شرائعه وقوله (أن تضلوا) أى لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان (والله بكل شيء عليم) أى هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها ومافيهما من الخير لعباده وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربته من التوفى . وقد قال أبو جعفر بن جرير حدثني يعقوب حدثني ابن علية أنبأنا ابن عون عن محمد بن سيرين قال كانوا في مسير ورأس راحلة حذيفة عند ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأس راحلة عمر عند ردف راحلة حذيفة قال ونزلت (يستفتونك قل الله يفتيك في الكلالة) فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة فلما كان بعد ذلك سأل عمر عنها حذيفة فقال : والله انك لأحق ان كنت ظننت أنه لقانها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيتها كما لقانها رسول الله ﷺ والله لأزيدك عليها شيئاً أبداً . قال فكان عمر يقول اللهم ان كنت بينتها له فانها لم تبين لي . كذا رواه ابن جرير ورواه أيضاً عن الحسن بن يحيى عن عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين كذلك بنحوه وهو منقطع بين ابن سيرين وحذيفة وقد قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار في مسنده حدثنا يوسف بن حماد المعنى ومحمد بن مرزوق قال حدثنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى حدثنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي عبيدة بن حذيفة عن أبيه قال نزلت آية الكلالة على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسيره فوق النبي صلى الله عليه وسلم وإذا هو بحذيفة وإذا رأس ناقة حذيفة عند ردف راحلة النبي ﷺ فلما إياه فظفر حذيفة فاذا عمر رضى الله عنه فلما كان في خلافة عمر نظر عمر في الكلالة فدعا حذيفة فسأله عنها فقال حذيفة لقد لقانها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيتها كما لقانى رسول الله صلى الله عليه وسلم والله انى لصديق والله لا أزيدك على ذلك شيئاً أبداً . ثم قال البزار وهذا الحديث لانعم أحداً رواه إلا حذيفة ولا نعلم له طريقاً عن حذيفة إلا هذا الطريق . ولا رواه عن هشام إلا عبد الأعلى وكذا رواه ابن مردويه من حديث عبد الأعلى . وقال عثمان ابن أبي شيبة حدثنا جرير عن الشيباني عن عمرو بن مرة عن سعيد بن المسيب أن عمر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تورث الكلالة ؟ قال فأنزل الله (يستفتونك) الآية قال فكان عمر لم يفهم فقال لحفصة إذا رأيت من رسول الله ﷺ طيب نفس فسله عنها فرأت منه طيب نفس فسأله عنها فقال « أبوك ذكر لك هذا ما أرى أباك يعلمها » قال فكان عمر يقول ما أراى أعلمها . وقد قال رسول الله ﷺ ما قال . رواه ابن مردويه ثم رواه من طريق ابن عيينة وعن عمر بن طاوس أن عمر أمر حفصة أن تسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكلالة فأملأها عليها في كتف فقال « من أمرك بهذا أعمر ؟ ما أراه يقيمها ومات كفيه آية الصيف » وآية الصيف التى فى النساء (وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة) فلما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت الآية التى هى خاتمة النساء فألقى عمر الكتف كذا قال في هذا الحديث وهو مرسل . وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عثمان عن الأعمش عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال أخذ عمر كتفا وجمع أصحاب رسول الله ﷺ ثم قال لأقضي في الكلالة قضاء تحدث به النساء في خدورهن فخرجت حينئذ حية من البيت فتفرقوا فقال لو أراد الله عز وجل أن يتم هذا الأمر لأتمه . وهذا إسناد صحيح الحاكم وقال

أبو عبد الله النيسابوري حدثنا علي بن محمد بن عقبة الشيباني بالكوفة حدثنا الهيثم بن خالد حدثنا أبو نعيم حدثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار سمعت محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة يحدث عن عمر بن الخطاب قال لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عن ثلاث أحب إلي من حمر النعم : من الخليفة بعده ؟ وعن قوم قالوا ثمر الزكاة في أموالنا ولا تؤديها إليك أيحل قتالهم ؟ وعن الكلالة . ثم قال صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ثم روى هذا الإسناد عن سفيان بن عيينة عن عمر بن مرة عن عمر قال : ثلاث لأن يكون النبي ﷺ بينهن لنا أحب إلى من الدنيا وما فيها الخلافة والكلالة والرأب . ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وبهذا الإسناد إلى سفيان بن عيينة قال سمعت سليمان الأحول يحدث عن طاوس قال سمعت ابن عباس قال كنت آخر الناس عهدا بعمر فسمعت يقول القول ما قلت ، قلت وما قلت ؟ قال قلت الكلالة من لا ولده . ثم قال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه . وهكذا رواه ابن مردويه من طريق زمعة بن صالح عن عمرو بن دينار وسليمان الأحول عن طاوس عن ابن عباس قال كنت آخر الناس عهدا بعمر بن الخطاب قال اختلفت أنا وأبو بكر في الكلالة والقول ما قلت ، قال وذكر أن عمر شرك بين الأخوة للأثم والأب وبين الأخوة للأثم في الثلاث إذا اجتمعوا وخالفه أبو بكر رضي الله عنهما . وقال ابن جرير حدثنا وكيع حدثنا محمد بن حميد العمري عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب أن عمر كتب في الجدة والكلالة كتابا فكث استخير الله يقول اللهم إن علمت فيه خيرا فأَمْضِهِ حتى إذا طعن دعا بكتاب فمحي ولم يدر أحد ما كتب فيه فقال إني كنت كتبت كتابا في الجدة والكلالة وكنت أستخير الله فيه فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه . قال ابن جرير وقد روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول هو ما عدا الولد والوالد . وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه وهو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وقول علماء الأمصار قاطبة وهو الذي يدل عليه القرآن كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله (بين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم) والله أعلم

تم الجزء الأول ، ويليه الجزء الثاني : وأوله

سورة المائدة

فهرس المسائل المهمة

مما بالجزء الأول من تفسير ابن كثير

صفحة	صفحة
١٠٤ رفع الطور فوقهم	٢ خطبة الكتاب
١٠٥ اعتداء أصحاب السبت	٧ مقدمة تذكر قبل الفاتحة
١٠٧ أمر بني إسرائيل بذبح البقرة	٨ تفسير سورة الفاتحة
١٠٨ ذكر بسط قصة البقرة	٩ ذكر ما ورد في فضل الفاتحة
١١٣ قسوة قلوبهم بعد ظهور الآيات	١١ تفسير الاستعاذة وأحكامها
١٣٣ قصة هاروت وماروت	١٦ الكلام على البسملة
١٤٢ الكلام على السحر	١٧ فصل في فضلها
١٤٥ أنواع السحر	٢٢ ذكر أقوال السلف في الحمد
١٤٨ نهى الله المؤمنين عن التشبه بالكافرين	٣١ تفسير سورة البقرة
١٤٩ تفسير قوله تعالى (مانسخ من آية) الخ	٣٣ ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران
١٥٦ تفسير قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله) الخ	٣٤ » » في فضل السبع الطوال
١٥٧ تفسير قوله تعالى (ولله المشرق والمغرب) الخ	٣٦ الكلام على فواتح السور
١٦٢ تفسير قوله تعالى (إنا أرسلناك بالحق بشيراً) الخ	٤٠ الكلام على قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب
١٦٤ تفسير قوله تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه) الخ	٤٤ » » » وقيمون الصلاة
١٦٨ تفسير قوله تعالى (واخذوا من مقام إبراهيم صلى) الخ	٤٤ » » على الإيمان بالكتب
١٧٦ قصة أم إسماعيل عليهما السلام	٤٤ » » على المؤمنين الذين سبق ذكرهم
١٧٧ بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت	٤٥ صفة الكافرين
١٨٠ ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم	٤٧ » » المنافقين
١٨٤ دعاء سيدنا إبراهيم لأهل الحرم	٥٧ الأمر بعبادة الله والتذكير بنعمه
١٨٥ وصية سيدنا إبراهيم لبنيه	٦٧ خلق السموات والأرضين
١٨٦ وصية سيدنا يعقوب لبنيه	٦٩ كلام الله عز وجل للملائكة
١٨٧ الأمر بالإيمان بالله وكتبه ورسله	٧٢ تعليم الله الأسماء لآدم
١٨٩ تفضيل الأمة المحمدية على سائر الأمم	٧٥ سجود الملائكة لآدم
١٩٢ الأمر باستقبال الكعبة في الصلاة	٧٨ سكن آدم وزوجه الجنة
١٩٤ الأمر بالمسابقة إلى الخيرات	٨٤ الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة
	٨٨ تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم
	٩٣ تغت بني إسرائيل على سيدنا موسى
	١٠٠ استسقاء موسى لقومه
	١٠٢ ضرب الدلة والمسكنة على بني إسرائيل

صفحة	صفحة
٢٦٠ الكلام على قوله تعالى (فأتوهن من حيث	١٩٧ فضل الصابرين
أمركم الله)	١٩٨ السعى بين الصفا والمروة
٢٦٥ النهى عن الاكثار من الحلف بالله	٢٠٠ وعيد من كتم العلم
٢٦٩ عدة المطلقة	٢٠١ الآيات الدالة على وحدانيته تعالى
٢٧١ عدد الطلاق الشرعى	٢٠٣ الأمر بالأكل من الحلال
٢٧٧ النهى عن تعدى حدود الله	٢٠٤ الأمر بشكر الإله
٢٨٢ مدة الرضاعة	٢٠٤ تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به
٢٨٤ عدة المتوفى عنها زوجها	لغير الله
٢٩٠ الأمر بالحفاضة على الصلوات	٢٠٧ صفات المؤمنين الأبرار المتقين
٣٠٢ نصر المؤمنين مع قتلهم على الكافرين مع	٢٠٩ الأمر بالقصاص
كثرتهم	٢١١ الأمر بالوصية
٣٠٣ تفضيل سيدنا محمد على سائر الرسل	٢١٣ فرض الصيام
٣٠٤ فضل آية الكرسي	٢١٩ فضل شهر رمضان
٣٠٩ الكلام على الكرسي	٢٢٤ يحرم أكل أموال الناس بالباطل
٣١٣ قصة إبراهيم عليه السلام مع الخمرود	٢٢٥ الكلام على الأهلة
٣١٤ قصة عزيز عليه السلام	٢٢٦ الجهاد في سبيل الله
٣١٥ إحياء الموتى لسيدنا إبراهيم	٢٢٨ الأمر بالانفاق في سبيل الله
٣١٦ فضل الانفاق في سبيل الله	٢٢٩ الأمر بالحج والعمرة
٣٢٠ الحث على الانفاق	٢٣٥ أشهر الحج
٣٢٦ النهى عن أكل الربا	٢٤٢ الأمر بالافاضة
٣٣٣ الأمر بكتابة الدين	٢٤٣ الأمر بذكر الله بعد قضاء المناسك
٣٣٧ الأمر بأداء الأمانة وعدم كتمان الشهادة	٢٤٤ الأمر بذكر الله في الأيام للمعدودات والمعلومات
٣٤٠ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله	٢٤٥ الأمر بتقوى الله عز وجل
٣٤٣ تفسير سورة آل عمران	٢٤٧ الأمر بالدخول في الإسلام
٣٤٤ الكلام على قوله تعالى (هو الذى يصوركم) الخ	٢٤٩ فضل المؤمنين
٣٤٤ الكلام على الحكم والمتشابه	٢٥١ الانفاق على الوالدين والأقربين
٣٥١ ما أعد الله للمتقين	٢٥٢ الأمر بقتال الكفار
٣٥٢ صفة المتقين	٢٥٢ تحريم القتال في الأشهر الحرم
٣٥٣ تفسير قوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام)	٢٥٥ تفسير قوله تعالى (يسئلونك عن الحمر) الخ
٣٥٨ من ادعى حجة الله فليتبع رسوله ﷺ	٢٥٥ الأمر باصلاح شأن اليتامى
٣٥٨ ذكر من اصطفاهم الله من عباده	٢٥٧ تحريم نكاح المشركات وانكاح المشركين
٣٦٠ دعاء زكريا عليه السلام	٢٥٨ الأمر باعتزال النساء في أيام الحيض
٣٦٣ بشارة السيدة مريم عيسى عليه السلام	٢٥٨ الكلام على قوله تعالى (نساءكم حرث لكم)

صفحة	صفحة
٥٠٦ سبب مشروعية التيمم	٣٦٤ معجزات سيدنا عيسى عليه السلام
٥٠٧ أمر أهل الكتاب بالإيمان بالقرآن	٣٦٥ أنصار سيدنا عيسى عليه السلام
٥٠٧ جواز مغفرة جميع الذنوب ما عدا الإشراف بالله	٣٦٦ رفع سيدنا عيسى عليه السلام
٥١٣ ذكر نعم الله على آل إبراهيم	٣٦٧ مثل عيسى كمثل آدم عليه السلام
٥١٥ أمر الحاكم بإقامة العدل بين الناس	٣٧٢ أولى الناس بإبراهيم المؤمنون
٥١٦ الأمر بطاعة الله والرسول وأولى الأمر	٣٧٧ أخذ العهد على الأنبياء للنبي محمد ﷺ
٥١٦ الأمر بالرجوع إلى كتاب الله وسنة الرسول عند التنازع	٣٧٨ لا يقبل الله ديناً غير الإسلام
٥١٩ لا يكون الرجل مؤمناً حتى يرضى بما حكم به رسول الله	٣٨١ الأمر بالاتفاق من أحب شيء إلى المنافق
٥٢١ منزلة من يطع الله والرسول	٣٨٣ الكعبة هي أول بيت وضع للناس
٥٣٠ كيفية رد السلام	٣٨٧ الأمر بالتمسك بالكتاب والسنة
٥٣٠ من أركان الإيمان : الإيمان بالبعث	٣٨٩ الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٥٣١ وعيد من قتل مؤمناً متعمداً	٣٩٩ نصر الله للمؤمنين في غزوة بدر
٥٤٤ مشروعية قصر الصلاة في السفر	٤١٩ امتنان الله على المؤمنين بإرسال الرسول
٥٤٦ مشروعية صلاة الخوف	٤٢٥ حياة الشهداء
٥٤٩ الأمر بذكر الله عقب الصلاة	٤٣٢ التفسير من البخل والوعيد عليه
٥٥٢ الحث على التوبة	٤٣٦ معاهدة الله لأهل العلم ببيانهم وعدم كتابته عن خلق الله
٥٥٧ فضل الإسلام مع العمل الصالح	٤٣٧ الآيات الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى
٥٥٩ لا يقبل الله عملاً إلا إذا خلا من الرياء والبدعة	٤٤٩ جواز نكاح الرجل أربع من النساء مع القدرة والعدل بينهما
٥٦٥ الأمر بتأدية الشهادة بالحق ولو على النفس	٤٥٤ وعيد من أكل مال اليتيم
٥٦٦ من لم يزل المنكر فلينزل عنه	٤٥٧ تفسير آية الميراث
٥٦٧ بعض صفات المنافقين	٤٦٣ الحث على التوبة
٥٧٢ كفر من فرق بين الله ورسوله في الإيمان	٤٦٩ بيان من يحرم على الرجل نكاحهن
٥٧٤ ماقتل المسيح وما صلب بل رفع إلى السماء حياً	٤٩١ تفضيل الرجال على النساء
٥٧٨ ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى	٤٩٣ الأمر بعبادة الله وحده والإحسان إلى الوالدين
٥٨٣ صفة عيسى عليه السلام	٤٩٧ الكلام على قوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) الآية
	٤٩٩ مشروعية التيمم عند فقد الماء

